

عبد الوهاب المسيري

موسوعة
اليهود واليهودية والصهيونية

دار الشروق

اليهود
واليهودية
والصهيونية

الطبعة الأولى

١٩٩٩

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٩٨/١٥٥٦٠

الترقيم الدولي: 1 - 0515 - 09 - 977 ISBN:

© دارالشروق

أسّسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيديو المصطفى - رابعة العدوية - مدينة نصر

ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣

فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

موسوعة
اليهود واليهودية والصهيونية
نموذج تفسيري جديد

عبد الوهاب محمد المسيري

٢

دار الشروق

المجلد الثاني

الجماعات اليهودية إشكاليات

حاحام بولندي يسير في أحد
شوارع وارسو ، عام ١٩٣٨ .

يضم المجلد الثامن دليلًا لاستخدام الموسوعة («أليات الموسوعة») ومفتاحًا للمفاهيم والمصطلحات («تعريفات المفاهيم والمصطلحات الأساسية [مرتبة موضوعيًا]»)، وثبتًا تاريخيًا بأهم الأحداث الإنسانية وتلك التي تخص الجماعات اليهودية وفلسطين. كما يضم المجلد فهرسًا موضوعيًا شاملاً بكل المجلدات والأجزاء والأبواب والمداخل، وآخر الفبائي عربي، وثالث ألفبائي إنجليزي.

الجزء الأول : طبيعة اليهود في كل زمان ومكان

- ١٣ إشكالية الجوهر اليهودي
الجوهر اليهودي ١٣ - طبيعة اليهود ١٤ - الأخلاقيات اليهودية ١٤ - المادية اليهودية ١٥ - تنويع المجتمع ١٦ - العرق اليهودي ١٩ - الجنس (بمعنى عرق) ٢٠ - السلالة اليهودية ٢٠
- ٢١ إشكالية الوحدة اليهودية والنفوذ اليهودي
الوحدة اليهودية ٢١ - الاستقلال اليهودي ٢٢ - الوعي اليهودي ٢٣ - عدم الانتماء اليهودي ٢٣ - تولد اليهودي مزدوج ٢٤ - المصالح اليهودية ٢٦ - بيرنيكي ٢٧ - ديفيد باسيفيكو ٢٨ - بنيمين دزرائيلي ٢٨ - إسحق كرميه ٣٠ - ديفيد بوني ٣١ - جوليوس فوجل ٣١ - أيزاك أيزاكس ٣٢ - عمانويل قاراصو ٣٢ - هيريت صمويل ٣٢ - ليون بلوم ٣٤ - بير منيس فرنس ٣٤ - برونو كرايسكي ٣٥ - هنري كيسنجر ٣٥ - المال اليهودي ٣٧ - النفوذ اليهودي والصهيوني ٣٧ - تعجر اليهودي (بسبب عدم القدرة وعدم المشاركة في السلطة) ٣٨
- ٤٠ إشكالية العبقرية والجريمة اليهودية
العبقرية اليهودية ٤٠ - العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية ٤٢ - بروز اليهود وتشيدهم ٤٢ - جريمة يهودية ٤٦ - نجرون من أعضاء الجماعات اليهودية ٤٦ - عتاة المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية في عصر آخيت ٥٠ - عبقرية ومجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية ٥١ - بنيامين التطيلي ٥٢ - داهية الكهنة ٥٢ - ابن تغريبة ٥٢ - رديجو توبيز ٥٣ - جوزيف أوبنهايم ٥٤ - جيكون بريير ٥٥ - يعقوب صنوع ٥٥ - هاري هوديني ٥٨ - تيرت أيشلين ٥٩ - مانير لانسكي ٦٠ - نيويوند تريير ٦١ - آرثر كوستلر ٦٢ - جيكون كرايزر ٦٢ - روبرت ماكسويل ٦٣
- ٦٦ إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية
العزلة اليهودية ٦٦ - اليهودي الخالص ٦٧ - نقاء اليهود عرقياً ٦٧ - الأمراض اليهودية (خصوصية يهودية لظية) ٦٩ - نقاء اليهود حضارياً (إثنية) ٧٢ - الخصوصية اليهودية ٧٢ - الاندماج ٧٦ - الاندماج البيئي ٧٦ - العزلة النفسية والاندماج البيئي ٧٩ - الاندماج السياسي والاقتصادي والاندماج الحضري : اشكناز مختلفة ٧٩ - اندماج الجماعات اليهودية (تاريخ) ٨٢ - بيريك يوسيليفيتش ٨٣ - الانصهار أو الذوبان ٨٤ - دمج اليهود ٨٤ - الاندماج : موقف الصهيوني ٨٥ - الزواج المختلط ٨٦ - الإبادة الصامتة ٨٩ - الشعب العضوي (فونك) ٩٠ - القومية العضوية ٩٠ - شعب العضوي اليهود ٩١
- ٩٥ منفي وعودة أم هجرات وانتشار ؟
إحساس اليهودي الدائم بالنفي الأزلّي ورغبته الشائنة في العودة ٩٥ - المنفي والعودة ٩٥ - العودة ٩٨ - الشتات ٩٨ - الدياسبورا ٩٨ - المنفي القسري (الجالوت أو الجولا) ٩٩ - المنفي الطوعي (تيفونسوت) ٩٩ - شريعة الدولة هي الشريعة ٩٩ - تجميع المنفيين ٩٩ - التعجيل بالنهاية (ديكتات هكتس) ٩٩ - بداية الخلاص ١٠٠ - الشتات السامري أو انتشار السامريين ١٠٠ - الشتات الحزري أو انتشار يهود الحزر ١٠٠ - البلد المذهبي (جوندن مبد) ١٠٠ - نديسورا الشبية ١٠٠ - الخروج الثاني (أو خروج صهيون) ١٠١ - الدياسبورا الإسرائيلية ١٠١ - انتشار الجماعات اليهودية ١٠١
- ١٠٢ هجرات وانتشار أعضاء الجماعات اليهودية
هجرات أعضاء الجماعات اليهودية : مقدمة ١٠٢ - الاستقرار ١٠٤ - هجرات أعضاء الجماعات اليهودية حتى بداية العصر الحديث ١٠٤ - هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث ١٠٥ - انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وعلاقتهم بفلسطين ١١٢ - الدياسبورا الدائمة ١١٧ - نديسبور الإلكترونية ١١٨

الجزء الثاني : يهود أم جماعات يهودية ؟

- ١٢١ ١ الجماعات اليهودية الأساسية
الجماعات اليهودية الأساسية ١٢١ - سفارد وإشكناز - كمرادفين لمصطلحي «يهود شرقيون ويهود غربيون» ١٢١ - السفارد ١٢٢ - الإشكناز ١٢٥ - اليهود الغربيون ١٢٨ - اليهود الشرقيون ١٢٨ - اليهود المستعربة ١٢٩ - الصابرا (أو جيل ما قبل ١٩٦٧) ١٢٩ - حركة الكنعانيين ١٣٣
- ١٣٤ ٢ الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية
الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية ١٣٤ - اليهود المُتخفون ١٣٤ - أنوسيم ١٣٥ - البرتغاليون ١٣٥ - يهود المارانو (تاريخ وعقيدة) ١٣٥ - جديد الإسلام ١٤١ - تشويناس ١٤١ - الرومانيوت ١٤١ - يهود الهند ١٤١ - بني إسرائيل ١٤٢ - يهود كوشين ١٤٣ - يهود مانيبور ١٤٤ - اليهود البغدادية ١٤٤ - يهود القوقاز ١٤٥ - يهود جورجيا ١٤٥ - يهود بخاري ١٤٨ - يهود الجبال (يهود التات ؛ يهود داغستان) ١٤٨ - يهود الحَزْر ١٤٩ - الكرمشاكي (تاريخ يهود شبه جزيرة القرم) ١٥٣ - اليهود الأكراد ١٥٤ - يهود الصين (يهود كايغنج) ١٥٥ - اليهود الزوج ١٥٦ - العبرانيون السود ١٥٧ - اليهود السود ١٥٨ - الفلاشا: تاريخ وهوية ١٥٨ - تهجير الفلاشا ١٦١ - الفلاشا مورا ١٦٣
- ١٦٥ ٣ إشكالية الهوية اليهودية
من هو اليهودي ؟ ١٦٥ - الشخصية أو الهوية اليهودية ١٦٥ - الهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً ١٦٧ - تاريخ الهويات اليهودية حتى الوقت الحاضر ١٦٨ - التعريف الديني للهويات اليهودية ١٧٣ - الخريطة العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر ١٧٥ - الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة ١٧٦ - اليهود الجدد ١٨٢ - يهودي غير يهودي ويهودي بشكل ما ١٨٢ - فريديريك ستاهل ١٨٣ - فرديناند لاسال ١٨٤ - كورت إيسنر ١٨٤ - بيلا كون ١٨٥ - ماتياس زاكوسي ١٨٥ - ادعاء اليهودية ١٨٦ - أغيار يتحدثون العبرية ١٨٧ - أعضاء الجماعات اليهودية وقضية الهوية القومية ١٨٧ - التعاريف الصهيونية للهويات اليهودية ١٨٩ - الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية ١٩٠ - الألع دانيال ١٩٥ - إديث شتاين ١٩٦ - استجابة أعضاء الجماعات اليهودية للتعريف الصهيونية للهويات اليهودية ١٩٦
- ٢٠١ ٤ اليهود والجماعات اليهودية
اليهود : مشكلة التعريف ٢٠١ - اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً ٢٠١ - الشعب اليهودي ٢٠١ - الشعب ٢٠١ - الجماعات اليهودية ٢٠٢ - طائفة ٢٠٥ - عبري ٢٠٥ - إسرائيل ٢٠٦ - بنو إسرائيل ٢٠٧ - شعب إسرائيل ٢٠٧ - جماعة يسرائيل ٢٠٧ - عم هارتس ٢٠٨ - الشرف ٢٠٨ - يهودي ٢٠٩ - صهيوني ٢١٠ - إسرائيلي ٢١٠
- ٢١١ ٥ إشكالية التعداد
أعداد الجماعات اليهودية في العالم : بعض الإشكاليات ٢١١ - أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم حتى الوقت الحاضر ٢١٣ - أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم ، وبعض معالمها السكانية في الوقت الحاضر (١٩٩٢) ٢٢١ - أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم عام ١٩٩٥ ٢٢٦ - موت الشعب اليهودي ٢٢٦

الجزء الثالث : يهود أم جماعات وظيفية يهودية ؟

- ٢٣٣ ١ الجماعات الوظيفية اليهودية
يهود أم جماعات وظيفية يهودية ؟ ٢٣٣ - الجماعات اليهودية والانتماء الطبقي ٢٣٣ - أسباب تحوّل بعض الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ٢٣٤ - علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة ٢٣٥ - الجماعات الوظيفية اليهودية في العالم الغربي ٢٣٨ - علاقة الجماعات اليهودية بالصناعة ٢٣٨ - الرأسمالية والاشتراكية والجماعات اليهودية ٢٣٨ - تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية : تاريخ ٢٣٨ - السمات الأساسية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية ٢٤١ - الجماعات الوظيفية اليهودية : أنواعها المختلفة ٢٤٤
- ٢٤٥ ٢ الجماعات الوظيفية اليهودية القتالية والاستيطانية والمالية
جماعة يهودية وظيفية قتالية استيطانية (المرتقة) ٢٤٥ - جماعة يهودية وظيفية تجارية ٢٥٢ - الرأذانية ٢٥٨ - جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض) ٢٥٨ - جماعة وسيطة ٢٦٣ - التجارة اليهودية ٢٦٤ - الربا اليهودي ٢٦٤ - الضرائب التي

يدفعها أعضاء الجماعات اليهودية ٢٦٤ - أعضاء الجماعات اليهودية كمحصني خراب ٢٦٧ - المتعهدون العسكريون ٢٦٨ - جاك بافيا ٢٦٩ - الأرندا والإقطاع الاستيطاني ٢٧٠ - الخمر (النبيذ والكحول) والاتجار فيها ٢٧٤ - الإعلان ٢٧٥ - تجارة الرقيق ٢٧٧

٣ أقتان ويهود البلاط ٢٨٠

أقتان البلاط ٢٨٠ - يهود البلاط ٢٨٣ - حسداي بن شفروط ٢٨٧ - يعقوب ابن كلس ٢٨٧ - سليمان ابن صادق ٢٨٧ - تيكا ٢٨٨ - عائلة ابن شوشان ٢٨٨ - عائلة عطار ٢٨٩ - شيميت بنفنيستي ٢٨٩ - أبراهام بنفنيستي ٢٨٩ - دونا جراسيا (منديسيا) ٢٩٠ - سليمان ابنائيس (ابن عايش) ٢٩٠ - صمويل بالاشي ٢٩١ - بيسيفي التروينسرجي (يعقوب بن صمويل) ٢٩١ - صمويل ابونهايم ٢٩٢ - سامسون فرتايمر ٢٩٣ - برنارد ليمان ٢٩٣ - إبراهيم بن وايش ٢٩٣ - جوزيف هامبرو ٢٩٣ - عائلة بليخرودر ٢٩٣ - عائلة سبير ٢٩٤ - ماليك مالية ٢٩٤

٤ جماعات يهودية أخرى (البغاء - الطب - الترجمة . . . الخ) ٢٩٧

جماعات يهودية وظيفية مختلفة ٢٩٧ - قطاع اللغة ٢٩٧ - البغاء وتجارة الرقيق الأبيض ٢٩١ - الطب ٣٠٠ - ترجمة ٣٠١ - الجاسوسية اليهودية والجواسيس اليهود ٣٠١ - الجواسيس من أعضاء الجماعات اليهودية ٣٠٢ - نيسي ٣٠٢ - قضية لافون ٣٠٣ - قضية بولارد ٣٠٤ - إبراهيم نيشان ٣٠٥ - أرمنيوس فامبيري ٣٠٦ - أمين باث ٣٠٦ - سيمي زاببي ٣٠٧ - ينو أرزي ٣٠٧ - جولوس وإثيل روزنبرج ٣٠٧

٥ مسألة الحدودية والهامشية ٣٠٩

الحدودية كتعبير عن وظيفية الجماعات اليهودية ٣٠٩ - هامشية اليهود ٣١٦ - مذوبة اليهود ٣١٧ - ظنية اليهود ٣١٨ - رجاء الهواء (لوفتمنش) ٣١٩ - المتسولون ٣١٩ - اللغات السرية لبعض الجماعات اليهودية الوظيفية ٣٢٠ - اجرائه الخفية لبعض أعضاء الجماعات اليهودية ٣٢١ - تهريب البضائع وأعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة ٣٢٥ - نصيحة قدة بنما ٣٢٦ - صمويل صبال ٣٢٧ - موسى إبنرج ٣٢٨ - لستر كراون ٣٢٨ - يفتان بوسكي ٣٢٩

الجزء الرابع : عداء الأغيار الأتلي لليهود واليهودية

١ إشكالية معاداة اليهود ٣٣٣

معاداة السامية ٣٣٣ - معاداة اليهود : المصطلح ٣٣٣ - المعاداة النبوية لسامية (أي لليهود واليهودية) ٣٣٤ - معاداة اليهود : الأسباب وتكوين الصور النمطية ٣٣٥ - الصور الإدراكية النمطية وكلاسيكيات وتاريخ معاداة اليهود حتى بداية القرن الثامن عشر ٣٤٠ - يوهانس فينر كورن ٣٤٤ - أنطون مارجريتا ٣٤٥ - الصور الإدراكية النمطية المعاداة لليهود منذ القرن الثامن عشر ٣٤٥ - تاريخ معاداة اليهود منذ القرن الثامن عشر ٣٤٩ - كلاسيكيات العداء لليهود منذ القرن الثامن عشر ٣٥٣ - التحمل على اليهود ٣٥٥ - معاداة السامية الجديدة ٣٥٥

٢ بعض التجليلات المتعينة لمعاداة اليهود ٣٥٦

بعض التجليلات المتعينة لمعاداة اليهود ٣٥٦ - طرد اليهود ٣٥٦ - قدس خبز القربان المقدس ٣٥٩ - تسمية الدم ٣٥٩ - حادثة دمشق ٣٦١ - مندل بيليس ٣٦١ - هجوم أو مذبحه (بوجروم) ٣٦٢ - بوجروم ٣٦٣ - مذبحه ٣٦٣ - اضطرابات فينمسخ ٣٦٣ - كيشينيف ٣٦٤ - ليو فرانك ٣٦٤ - حادثة دريفوس ٣٦٧ - المؤامرة اليهودية الكبرى أو العنصرية ٣٦٨ - يهود كتيب صين ٣٧٠ - بروتوكولات حكماء صهيون ٣٧١ - اليهودي الدولي ٣٧٤ - جيكون برافعدن ٣٧٤ - يهودي الله ٣٧٥ - عب عب ٣٧٦ - كايك وشيني ٣٧٦ - إسرائيل ويست ٣٧٦

٣ معاداة اليهود والتحيز لهم ٣٧٧

معاداة اليهود (والتعاطف مع الصهيونية) كإمكانية/ إشكالية كمنة منذ العصور الوسطى في الغرب ٣٧٧ - التحيز لليهود (حب السامية) ٣٧٨ - شيلوك ٣٧٩ - فيودور دوستوفسكي ٣٨٢ - إدوارد/ أدولف درومون ٣٨٥ - كرل نيوجر ٣٨٦ - أوجست سترندنبرج ٣٨٦ - راينر فاسنبندر ٣٨٧ - معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية ٣٨٨ - كره اليهودي لنفسه ٣٨٩ - أونو فيننجر ٣٩٠ - آرثر تريبتش ٣٩١ - تيودور لسنج ٣٩١ - العداء العربي لليهود واليهودية ٣٩١

٤ الإبادة النازية والحضارة الغربية الحديثة ٣٩٧

الإبادة النازية ليهود أوروبا: مشكلة المصطلح ٣٩٥ - الهولوكوست (الإبادة) ٣٩٧ - المحرقة ٣٩٧ - الإبادة وتفكيك الإنسان
كإمكانية كاملة في الحضارة الغربية الحديثة ٣٩٧ - الأريون ٤٠٣ - تحول إمكانية الإبادة إلى حقيقة تاريخية ٤٠٣ - السياق
اخضاري الألماني للإبادة ٤٠٧ - النازية والحضارة الغربية ٤٠٩ - السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة ٤١٤ - السياق
النسبي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة ٤١٧ - الإبادة النازية للغجر ٤٢١ - مارتن هايدجر والنازية ٤٢٢

٥ بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوروبا ٤٢٧

إشكالية انفصال القيمة الأخلاقية والعتاة الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا ٤٢٧ - توظيف الإبادة ٤٣٤ - إحتكار الإبادة ٤٣٧ -
إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي ٤٣٨ - إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانس ٤٤٢ - معسكرات الاعتقال (السخرة
والإبادة) ٤٤٤ - أوشفيتس ٤٤٦ - ستة ملايين يهودي: عدد ضحايا الإبادة النازية ليهود أوروبا؟ ٤٤٧ - اختفاء وموت الشعب
اليهودي بعد الحرب العالمية الأولى ٤٤٨ - إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين ٤٤٩ - محاكمة أيخمان ٤٥٠ - محاكمة
كلاوس باربي ٤٥١ - حادثة فالدهايم ٤٥٢ - محاكمة ديتمانجوك ٤٥٣ - سيمون وزنتال ٤٥٣ - بعض التغيرات التي طرأت على
الحضارة الغربي فيما يتعلق بالإبادة النازية ليهود أوروبا ٤٥٣

٦ إشكالية التعاون بين أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين ٤٥٥

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين ٤٥٥ - مقاومة الجماعات اليهودية للنازية ٤٥٥ - النفاشية
والصهيونية ٤٥٦ - النازية والصهيونية: الأصول الفكرية المشتركة والتماثل البنيوي ٤٥٧ - النيتشوية والصهيونية ٤٥٩ -
النازية والصهيونية: العلاقة الفعلية ٤٦٢ - معاهدة الهعغراه (الترانسفير) ٤٦٦ - المجالس اليهودية ٤٦٩ - رابطة الثقافة
اليهودية ٤٦٩ - تيريس آينشتات ٤٧٠ - جيتو وارسو ٤٧١ - جماعة شتيرن والنازية ٤٧٢ - عصبة الأصدقاء ٤٧٣ - ألفريد
نوسيج ٤٧٣ - مردخاي رومكوفسكي ٤٧٤ - آدم تشرنياكوف ٤٧٥ - حاييم كابلان ٤٧٥ - كورت بلومنفلد ٤٧٦ - رودولف
كاستنر ٤٧٦ - العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوروبا ٤٧٧ - مسلم ٤٧٨

طبيعة اليهود في كل زمان ومكان

١ إشكالية الجوهر اليهودي

الجوهر اليهودي - طبيعة اليهود - الأخلاقيات اليهودية - المادية اليهودية -
تهويد المجتمع - العرق اليهودي - الجنس (بمعنى عرق) - السلالة اليهودية

الجوهر اليهودي

Jewish Essence

هو نموذج صهيوني بشكل واضح أو غير واضح حيث إن كلاً من الصهاينة والمعادين لليهود يُسقطون عن اليهود إنسانيتهم ولا يرونهم بشراً يتسمون بالقدرة نفسه من الخير والشر الذي تسم به بقية البشر . لكن مفهوم الجوهر اليهودي هو تعبير عن نموذج اختزالي عنصري ، مقدرته التفسيرية منخفضة للغاية ، إذ أنه يستبعد كثيراً من تفاصيل الواقع ومستوياته وبنيتة . فلا يمكن فهم وضع اليهود في بولندا إلا بالعودة إلى حركات التاريخ البولندي ابتداءً من توسع بولندا وضمها أوكرانيا ، مروراً بظهور الإمبراطوريات الثلاث المجاورة لبولندا (روسيا وألمانيا والنمسا) ، وانتهاءً بتقسيم بولندا . كما لا يمكن فهم الشتل إلا في ضوء نظام الأردن البولندي الذي كان يخدم مصالح طبقة النبلاء البولنديين (شلاختا) . كما أن علاقة يهود بولندا بمجتمعهم لا تختلف كثيراً عن علاقة أية أقلية بالأغلبية التي تعيش بينها .

وقد يكون هناك بعض الأخطاء المتكررة والسمات المشتركة التي تسم وجود كثير من الجماعات اليهودية . ولكن هذه السمات ليست أساسية ، وبالتالي فإن مقدرتها التفسيرية ضعيفة . وهذه السمات مرتبطة بعشرات التفاصيل والسمات الأخرى النابعة من البيئتين المختلفة التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية . وإذا كانت ثمة سمة أو سمات أساسية متكررة في معظم الجماعات اليهودية ، فهي اضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية وتساعد الحلولية الكمونية داخل النسق الديني اليهودي . وهاتان السمتان ذاتهما تأخذان أشكالاً مختلفة . فهناك جماعة وظيفية قتالية استيطانية في جزيرة إفتاتين في مصر الفرعونية ، وهناك جماعة وظيفية وسيطة في أوروبا حتى عصر النهضة . وهذه السمة بالذات ليست مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية وإنما هي سمة مشتركة تجمع بينها وبين أقليات أخرى (مثل الصينيين في جنوب شرق آسيا) .

وفيما يتصل بتساعد الحلولية الكمونية داخل النسق الديني اليهودي وهيمنتها عليه تماماً ، حتى أصبحت اليهودية ، في معظم

«الجوهر» هو مجموعة الخصائص الثابتة في ظاهرة ما أو هو ما لا يتغير بتغير المكان أو الزمان . وفكرة الجوهر اليهودي الخالص (الثابت) هي فكرة كامن وراء عديد من المفاهيم والمصطلحات والنماذج التفسيرية المستخدمة في دراسة الجماعات والعقائد اليهودية ، مثل : «التاريخ اليهودي» ، و«الشخصية اليهودية» ، و«العبقرية اليهودية» ، و«الجرمية اليهودية» ، و«الشعب اليهودي» ، و«العرق اليهودي» ، و«الإثنية اليهودية» . فكل هذه المصطلحات تفترض وجود هذا الجوهر اليهودي الخالص الثابت الذي يجعل من يهودية اليهودي النقطة المرجعية الأساسية لتفسير سلوكه . أما العناصر غير اليهودية ، مثل السياق الحضاري الإنساني الذي يوجد فيه أعضاء الجماعات اليهودية ، أو حركات المجتمعات التي يتنوع إليها ، أو تفاعلهم مع أعضاء الأغلبية ، بل والعناصر الإنسانية المشتركة مع بقية البشر ، فهي عناصر يُفترض فيها أنها عَرَضِيَّة تنتمي إلى السطح ولا تفيدها كثيراً في تفسير الظواهر اليهودية ، حيث يتم تفسير هذه الظواهر من الداخل فقط .

ففي حالة دراسة تاريخ يهود بولندا ، على سبيل المثال ، يتم التركيز على ما جاء في التوراة والتلمود وعلى الحياة داخل الشتل ، ولا يظهر العالم الخارجي غير اليهودي إلا على هيئة هجمات ومذابح ضد اليهود أو تسامح معهم . ولكل هذا ، تبدو حياة أعضاء الجماعات اليهودية وكأنها لا علاقة لها بحياة كل البشر ، وتختلف تماماً عن حياة الأقليات الأخرى . ويرزُ الجوهر اليهودي باعتباره محركاً أساسياً للأحداث . وغني عن الذكر أن المعادين لليهود يتبنون النموذج نفسه ويرددون ، على سبيل المثال ، أن عزلة اليهود هي تعبير عن جوهرهم الانعزالي ، وأن اشتغالهم بالتجارة تعبير عن نزوعهم الطبيعي إلى الاشتغال بأمور المال ، وأن اتجاههم نحو الصحافة الإباحية هو تعبير عن نزوعهم الأزلي نحو الشر . وهذا النموذج التفسيري الذي يفترض وجود الجوهر اليهودي ،

هو كتب اليهود المقدسة كالعهد القديم والتلمود ، ويضاف إليها الآن بروتوكولات حكماء صهيون ، وهي كتب تعبر عن طبيعتهم وجوهرهم . لكن هذا النموذج التفسيري متهاافت تماماً ، فسلوك اليهود يختلف باختلاف الزمان والمكان . ومن هنا يجري حديثنا عنهم ، لا باعتبارهم أعضاء شعب يهودي ، وإنما باعتبارهم أعضاء جماعات يهودية .

ومن المعروف أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يعزلوا أنفسهم في بابل ولا في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ولا في إسبانيا الإسلامية ، بل اندمجوا إلى حد كبير في محيطهم الحضاري . أما في آشور والصين ، فقد انصهروا تماماً . وكان العبرانيون القدامى بدواً رُحلاً ، وعملوا بالزراعة (وليس بالتجارة أو الربا) حين استقروا في كنعان . وكذلك ، فإن ولاء يهود ألمانيا في القرن التاسع عشر لدولتهم كان كاملاً إلى درجة أن نسبة مثوية ضخمة منهم تَصَدَّرت حتى أنهم أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الشعب الألماني . كما أن ولاء الأمريكيين اليهود للولايات المتحدة من القوة بحيث إنهم يموتون من أجلها . أما عداة اليهود للأغبياء فإنه ليس مطلقاً ، فقد ساعدوا المسلمين في الفتح الإسلامي ، سواء في فلسطين أو في إسبانيا . كما أن انحلالهم الجنسي غير مطلق أيضاً ، فظاهرة الطفل اليهودي غير الشرعي أو البغي اليهودية كانت غير معروفة تقريباً في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر . وأما الماسونية والعلمانية ، فإن اليهودية الأرثوذكسية تعاديهما بشراسة ، وهكذا . ولا يصعب على أي دارس مُتَحَيِّز أن ينتقي مجموعة من التفاصيل والقرائن مُتَنَزِّعة من سياقها الزمني والمكاني للتدليل على أية مقولة عامة ، كأن يأخذ قرينة من المدينة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخرى من إسبانيا أثناء الغزو المسيحي ، وثالثة من روسيا في القرن التاسع عشر ، ثم يستخدمها جميعاً لإثبات مقولة ما مثل « عدم ولاء اليهود » متجاهلاً كل القرائن الأخرى ، كذلك التي ذكرناها .

والصورة العامة التي ترسخت في أذهان الكثيرين عن أعضاء الجماعات اليهودية تعود ولا شك إلى الرؤى الإنجيلية الخاصة بالشعب المختار الذي لا يسلك سلوكاً حراً وإنما يُعَبَّر دائماً عن قصد إلهي . كما أن اضطلاح أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة في الغرب ، ساهم في ترسيخ هذه الصورة الإدراكية . فالجماعات الوسيطة لا تدين بالولاء للأغلبية ، وتستخدم عادةً المعايير الأخلاقية المزدوجة باعتبار أن أعضاء الجماعة يتمتعون بالقداسة ، أما أعضاء الأغلبية فهم مباحون لا قداسة ولا حرمة لهم . ولكن المصدر المباشر لهذه الصورة السلبية للأخلاقيات

أنحاء العالم ، ديانة حلولية كمونية واحدة ، فهذا بدوره ليس مقصوراً على اليهودية وإنما هو تعبير عن غط أكثر عمقاً وكموناً ، إذ يُلاحَظ أن العقيدة المسيحية أيضاً قد بدأت تهيمن عليها الحلولية انكمونية بعد حركة الإصلاح الديني . كما أن لاهوت موت الإله (وهو تعبير عن حلولية كمونية بدون إله) هو اتجاه ديني طالما ساد في المجتمعات العلمانية الغربية ، وليس أمراً مقصوراً على اليهودية .

طبيعة اليهود

The Nature of the Jews

« طبيعة اليهود » عبارة تتواتر في كثير من الدراسات التي تُكَتَّب عن الجماعات والعقائد اليهودية ، وتفترض أن ثمة جوهرًا يهوديًا كامناً في أي يهودي يُعَبَّر عن نفسه من خلال « طبيعة يهودية » ويتجلى في العقائد اليهودية ويحدد رؤية اليهود للواقع وسلوكهم . ولذا ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية - حسب هذا المفهوم - يعملون بالتجارة والربا والأمور المالية بسبب طبيعتهم ، وهم يعيشون في عزلة ويرفضون الاندماج للسبب نفسه . لكن هذا المفهوم تعبير عن نموذج تفسيري اختزالي عنصري يتبناه الصهاينة والمعادون لليهود ، ويبرز اليهود كتجمع بشري يتمتع بقدر عال من الوحدة والاستقلال وله حركات مستقلة عن بقية البشر . وغني عن القول أن هذا المفهوم يُفسَّر الواقع كله بصيغة واحدة بسيطة جاهزة ، ومن ثم فهو يتجاهل واقع أعضاء الجماعات اليهودية المُركَّب غير المتجانس ، وهو واقع لا يخضع لقانون عام ولا ينضوي تحت غط متكرر واحد .

الأخلاقيات اليهودية

Jewish Ethics or Morality

« الأخلاقيات اليهودية » عبارة تفترض أن ثمة أنماطاً سلوكية يهودية متكررة تُعَبَّر عن جوهر يهودي وطبيعة يهودية وشخصية يهودية تنعكس في رؤية أخلاقية محددة . وهي أنماط متكررة باعتبار أن هذه الأخلاقيات ثابتة لا تتغير ، وأينما وجد يهود في أي زمان ومكان فإن المتوقع أن يسلكوا السلوك اللاأخلاقي نفسه الذي ينم عن الرغبة في تخطيم الآخرين والتأمر ضدهم . وبسبب هذه الأخلاقيات النيهودية المزعومة ، يتسم سلوك اليهود بحب العزلة عن الآخرين وعدم الولاء للدولة والانحلال الجنسي ، كما أنهم لهذا السبب ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية وينضمون إلى صفوف دعة العلمانية الشاملة ، كما أنهم عادةً ما يعملون بالتجارة والربا والأعمال المالية . ومصدر هذه الأخلاقيات ، حسب هذه الرؤية ،

«مادة» . فيقال «فلان مادي» بمعنى أنه يحب المال حباً جماً .

والمدلولان قد يغطينان رقعة مشتركة ، فالإنسان المادي (بالمعنى الفلسفي) قد يكون محباً للمال ، والمحِب للمال قد يكون مادياً بالمعنى الفلسفي ، ولكنهما على أية حال مختلفان ، فالمادية بالمعنى الفلسفي رؤية شاملة للكون تغطي علاقة الإنسان والطبيعة والإله ، أما المادية بالمعنى الدارج فهي تنصرف إلى جانب واحد في الطبيعة البشرية وهو حب المال .

وإذا نظرنا إلى عبارة «المادية اليهودية» بالمعنى الفلسفي ، فإننا سنواجه صعوبات بالغة ، فاليهودية عقيدة دينية يؤمن كثير من أتباعها بالإله واليوم الآخر والملائكة والشياطين والثواب والعقاب ، ومن ثم لا يمكن الحديث عن المادية اليهودية بهذا المعنى . ومع هذا ، يمكن من قبيل التحفظ أن نقول إن النضبة الخلوئية الكمونية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي انترامي تتبدى (في مرحلة وحدة الوجود) في شكل رؤية مادية ، كما أنها تخلق لدى المؤمن تقبلاً للفكر المادي بالمعنى الفلسفي . ونعل هذا يفسر ظهور النزعات المسيحية التي عادة ما تصبح حركات مادية بالمعنى الفلسفي . كما يفسر ظهور كثير من الفلاسفة الماديين من أصل يهودي (من أهمهم إيبينوزا وماركس) .

ويمكننا الآن تناوُل عبارة «المادية اليهودية» بالمعنى الدارج . وهنا أيضاً لا يمكننا أن نتحدث عن أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة في كل زمان ومكان باعتبار أنهم محبوبون للمال حباً جماً . ومثل هذه النقولات التحليلية معادية لليهود وصهيونية في آن واحد لأنها تفترض وجود جوهر يهودي واحد لا يتغير بتغير الزمان والمكان .

والدراس لتواريخ الجماعات اليهودية سيكتشف أن حب اليهود للمال لا يختلف في معدنه كثيراً عن حب أعضاء الأغلبية له . فيهود الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يتصفون بصفات الكرم والسخاء (إلى درجة التبخير) ، شأنهم في هذا شأن العرب في عصرهم ، بينما نجد أن يهود الولايات المتحدة يتصفون بأنهم أكثر حرصاً وتقيراً ، وهذا جزء من ميراثهم البروتستانتي التعاقد الذي يؤكد على قيم التشكف الذي يؤدي إلى التراكم المالي (المادي) . وكان كثير من يهود شرق أوروبا من يهود اليديشية يتهمون اليهود الأمريكيين بالبرود والحرص الزائد ، وهذا يعود إلى أن يهود شرق أوروبا جاءوا من مجتمعات شبه زراعية ومن خلفية سلافية لا تعرف التقدير والتراكم أو لا تشجعه (على عكس اليهود الأمريكيين من أصل ألماني بروتستانتي) .

اليهودية هو يهود اليديشية في مرحلة ضعفهم وتفتشهم في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين ، إذ تركزت نسبة كبيرة منهم في تجارة البغاء حتى أصبحت شخصية القواد اليهودي والبغني اليهودية أمراً شائعاً . كما أن نسبة المهاجرين منهم كانت مرتفعة للغاية . والمهاجر في كثير من الأحيان ، شخصية غير متمية لا ولاء لها ، كما أن معدلات العلمنة بين المهاجرين مرتفعة للغاية . وهكذا ، فإن الصورة العنصرية النمطية السائدة عن الأخلاقيات اليهودية قد يكون لها أساس واقعي ، ولكنها تنتمي إلى زمان ومكان محددين ، كما أنها فقدت كثيراً من فعاليتها إذ اختفى يهود اليديشية تقريباً وظهرت أنماط سلوكية جديدة بين أعضاء الجماعات .

وتنتشر فكرة الأخلاقيات اليهودية بين المعادين لليهود ، ولكنها شائعة أيضاً بين الصهاينة الذين يعطونها مضموناً إيجابياً . فالأخلاقيات اليهودية تعبير عن العبقورية اليهودية التي تجعل من اليهودي مبدعاً قادراً على التماسك الاجتماعي ، محباً لقومه وقوميته اليهودية وأرضه . . . الخ . وغني عن القول أن رؤية المعادين لليهود لا تختلف في بنيتها عن رؤية الصهاينة ، فاليهود في نظرهم هم اليهود ، يسلكون دائماً السلوك نفسه أينما وجدوا .

المادية اليهودية

Jewish Materialism

لمصطلح «المادية» معنيان :

- ١ - المعنى الفلسفي : الإيمان بأن العالم كله مادة تتحرك وأن كل ما يبدو وكأنه ليس مادة (العقل والروح والنفس والفكر والوعي) إنما هو في واقع الأمر مادة ويمكن تفسيره من خلال مقولات مادية ، وأن كل الظواهر الإنسانية العقلية والروحية ما هي إلا جزء من بناء فوقي يمكن أن يُرد في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلى المادة (البناء التحتي) . وأن كل شيء في الكون يمكن تفسيره تفسيراً مادياً لأن كل التغيرات لها سبب مادي . ولذا ، فإن التفسيرات المادية هي التفسيرات الوحيدة الممكنة ، كما أن العقل الإنساني ليست له أية فعالية سببية ولا علاقة له بحركة الكون الذي يتحرك بذاته ، والكون لا يوجد فيه غرض ولا سبب ولا هدف ولا معنى ولا يوجد إله ولا غيب (وراء الطبيعة) ، فالمادة وحركتها أوليتان ولا يوجد سبب أو محرك أول . وقد تتغير أشكال الظواهر المادية وقد تبدل تجلياتها ولكن المادة لا تُخلق ولا تُستحدث من العدم ، ولا توجد حياة أزلية سوى المادة .
- ٢ - المعنى الدارج : وهو حب النقود (التي يشار إليها على أنها

فالمجتمع البورجوازي مجتمع تعاقدى تحمل فيه قيمة التبادل محل القيم الإنسانية كافة ، ويُعرّف البشر في ضوء تفهمهم وتسود فيه النظم المعرفية والاقتصادية والأنيابية التعاقدية . وقد أشار ماركس إلى التجربة الرأسمالية (البروتستانتية) الكبرى في أمريكا الشمالية بقوله : "إن مامون (إله المال) هو الوثن الذي يعبدونه هناك بجميع قوى أجسادهم وأرواحهم . فالأرض في نظرهم ليست سوى بورصة وهم موقنون بأنهم لا مصير لهم في الحياة الدنيا سوى أن يصبحوا أغنى من جيرانهم . لقد استولت المتاجرة على جميع أفكارهم وليس لديهم تسليّة أخرى سوى تبديل أمّعتهم " ، وهم "لا يتحدثون إلا عن المنفعة والربح " و "النبوءة الدينية أصبحت سلعة تجارية " .

ورغم أن اليهود لم يكونوا وحدهم الضالعين في هذه العملية (كما يعرف ماركس تماماً) إلا أنه وصفها بأنها عملية «يهودية» . وحتى نفهم هذا التعميم الماركسي الكاسح ، يجب أن نشير إلى أن ماركس كان يرى أن روح الرأسمالية مُستمدة من اليهودية (لا البروتستانتية كما قال فيبر) . ولعله كان يعني أن النموذج المعرفي الذري المتفتت الأنيابي الذي يُشكّل جوهر الرأسمالية - في نظره - يوجد في اليهودية بشكل أكثر تبلوراً منه في المسيحية ("جوهر اليهودية هو المتاجرة وأساسها المنفعة العملية والأنيابية" - تحتوي اليهودية على عنصر عام ومناهض للمجتمع ") . وسيادة النمط المعرفي الكامن في اليهودية يعني في واقع الأمر الانتصار الكامل للرأسمالية . واليهودي ، بالنسبة إلى ماركس ، هو سيّد السوق المالية ، وبواسطته أصبح المال (إله إسرائيل الطماع) قوة عالمية ، وأصبحت الروح العملية اليهودية هي الروح العملية للشعوب المسيحية .

ويمكن القول بأن ماركس كان لا يفرّق بين كلمة «يهودي» و«تاجر» . ومن ثمّ نجده يقرن بشكل ضمني بين «اليهودي» من جهة و«التاجر» و«البروتستانت» من جهة أخرى وبين «اليهودية» من جهة و«المتاجرة» و«المنفعة العملية» و«الأنيابية» من جهة أخرى . فهو يقول : "التبادل التجاري هو الإله الحقيقي لليهود وأمامه لا ينبغي أن يعيش أي إله آخر" - "المال هو إله إسرائيل الطماع ولا إله سواه" - "لقد أصبح المسيحيون يهوداً" أي بورجوازيين . وتاريخ التحول التدريجي للمجتمعات الغربية وهيمنة العلاقات البورجوازية التعاقدية هو في واقع الأمر تاريخ التهويد التدريجي لأوروبا ، وهو أيضاً تاريخ علمنة إله إسرائيل وتحويله إلى إله العالم ، فالبنكنوت (الرب العملي لإسرائيل) أصبح رب العالم الغربي

ومع هذا ، يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يميلون ، أكثر من غيرهم ، إلى جمع المال ومراكمته . ولكن هذا لا يُفسّر يهوديتهم وإنما يُفسّر أنهم أعضاء في جماعات وظيفية لا بد أن تقوم بمراكمة الخبرات والأموال وأن تمارس قدراً عالياً من ضبط النفس في عمليات الاستهلاك (وشيلوك مثل جيد على ذلك) . والدارس للجماعات الوظيفية (خصوصاً الوسيطة) ، سيجد أن أعضاءها (يهوداً كانوا أم باكستانيين أو صينيين) يتسمون بالصفات نفسها تقريباً . والصينيون في وطنهم غير معروفين بالبخل أو الحرص الشديدين ، ولكنهم حينما تحولوا إلى جماعات وظيفية ، أصبحوا «ماديين» يحبون المال حباً جماً . والباكستانيون مشهورون بكرمهم الزائد في بلدهم ، بينما نجد أن البريطانيين (المعروفون بحرصهم البالغ) يهتمون الباكستانيين المقيمين في بلادهم بأنهم بخلاء .

تمهيد المجتمع

Judaization of Society

«تهويد المجتمع» عبارة استخدمها ماركس في كتابه المسألة اليهودية ، وهي تفترض وجود جوهر يهودي ثابت ، له ملامح معينة ، يتم تعميمه على المجتمع ، الأمر الذي يتناقض مع فكر ماركس ، ولذا فالأمر يتطلب قدراً من التعمق . وقد يكون من المفيد ألا نبدأ بالجوهر اليهودي وإنما بالإنسان الوظيفي ، عضو الجماعة الوظيفية ، الذي يدخل في علاقة تعاقدية نفعية باردة مع مجتمع الأغلبية ، ولا يكثر بقيم المجتمع ويعيش على هامشه أو في مسامه . هذا النمط الإنساني كان مُهمّشاً ، شأنه في هذا شأن الجماعة الوظيفية . ولكن مع تحول المجتمعات الغربية (ثم بنية المجتمعات في العالم) من الزراعة إلى الصناعة ثم إشاعة نموذج الإنسان الوظيفي . وقد وصف كارل ماركس هذه العملية بدقة باللغة في البيان الشيوعي في إطار حديثه عن دور البورجوازية الثوري في التاريخ ، تلك البورجوازية التي سحقت تحت أقدامها جميع العلاقات الإقطاعية والبطيركية والعاطفية ، ولم تُبقْ أية صلة بين الإنسان والإنسان إلا صلة المصلحة الجافة والدفع الجاف نقداً وعداً . وأغرقت الحمية الدينية وحماسة الفرسان ورقة البورجوازية الصغيرة في مياه الحساب الجليدية المشبعة بالأنيابية ، وجعلت الكرامة انحصية مجرد قيمة تبادل لا أقل ولا أكثر ، وقضت على الحريات اجمة ، المكتسبة والمنوحة ، وأحلت محلها حرية التجارة وحدها ، هذه الحرية القاسية التي لا تُشفق ولا تعرف الشفقة أو الرحمة .

هو «الإنسان الوظيفي» وليس «اليهودي» ، ولكن يُطلق عليه «اليهودي» من باب إطلاق الجزء على الكل .

ولتوضيح وجهة نظري يمكن أن نقرب مثلاً عكسياً ، أي حين يُطلق على اليهودي اسماً غير اسمه ، فيلاحظ أن كثيراً من المهاجرين العرب واليهود إلى أمريكا اللاتينية يضطهرون بدور الجماعة الوظيفية ، ولكن بدلاً من أن يُطلق على العربي عضو الجماعة الوظيفية كلمة «يهودي» يحدث العكس إذ يُطلق على كل من اليهود والعرب - كجماعة وظيفية - لفظة «لوس توركوس Los turcos» الإسبانية ، أي «الأتراك» . ويُسمى تجار بعض دول شرق أوروبا (بغض النظر عن اثنائهم الإثني الفعلي) «اليونانيون» أو «الأرمن» . ونحن هنا أمام أربعة دوال أو أسماء مختلفة (يهودي - تركي - يوناني - أرمني) تشير إلى مدلول أو مُسمى واحد وهو عضو الجماعة الوظيفية المالية أو «الإنسان الوظيفي» . وإذا قد يكون من الواجب أن نضع في اعتبارنا أننا حينما نتحدث عن «الوظائف اليهودية» فإننا في واقع الأمر نتحدث عن وظيفة قد يقوم بها اليهودي في مكان وزمان ما ، ولكن قد يقوم بها شخص آخر في مكان وزمان آخر . فالوظيفة (وسماتها) يجب أن تكون المقولة التحليلية لا الجوهر اليهودي أو الشخصية اليهودية . وفي هذه الحالة ، فإننا سندرك الواقع بطريقة أكثر تركيبية وحركية ، إذ أننا لن نبحت طوال الوقت عن اليهودي الجوهري أو اليهودي الخالص (ذي الألف المعقوف والظهر المحدود الذي يرتبط بوظائف طفيلية أو مشينة ، حامل الأفكار العلمانية الشاملة الذي يفكك نسج المجتمع لأنه لا ولاء له ، يقضي سحابة ليله في قراءة البروتوكولات ويقضي نهاره في تنفيذ خططه الشيطانية التي تعلمها في النيل) فمن الأجدي لنا أن نبحت عن «اليهودي الوظيفي» أو بالأحرى «الإنسان الوظيفي» الذي يضطلع بالدور الوظيفي ويتم بصفات عضو الجماعة الوظيفية فيدخل في علاقة تعاقدية باردة مع المجتمع ويُعرّف في إطار دوره ووظيفته ويُعرّف هو المجتمع في إطار المنفعة . وهذا الإنسان قد يكون يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بوطياً أو شخصاً لا ملة له ولا دين .

وفي تصوّرنا أن النظام العالمي الجديد سيقوم بتحويل قطاعات عديدة في المجتمعات الإنسانية (نخب ثقافية وسياسية محلية - قيادات ثورية سابقة - قطاعات اقتصادية) إلى جماعات وظيفية تعمل لصالحه ، وذلك في محاولته تفكيك مجتمعاتنا بعد أن فشل في عملية المواجهة وبعد تزايد نفقات المواجهة العسكرية . وهذه النخب تقيم بيننا وتحدث لغتنا وترتدي زينا وتقيم الصلاة معنا في

الرأسمالي . وهذا الترابط العضوي بين اليهودية والبورجوازية هو الذي أدّى إلى ظهور قومية اليهود الوهمية وقومية التاجر وقومية رجل المال (وربما كانت هذه الملاحظات هي أساس مفهوم أبراهام ليون عن الطبقة/ الأمة) . ومن ثم "لن يُحرّر المجتمع نفسه إلا بتحرّره من المتاجرة والمال ، وبالتالي من اليهودية الواقعية" ، وحين "ينجح المجتمع في إلغاء الجوهر العملي لليهودية ، [أي] المتاجرة وشروطها ، عندئذ يصبح وجود اليهودي مستحيلاً" .

لقد حولَ ماركس الكينونة اليهودية إلى وظيفة ، ومن ثم يمكننا الحديث عن "التاجر" و "اليهودي" باعتباره «الإنسان الوظيفي» . والسمات الأساسية لهذا التاجر/ اليهودي/ الوظيفي هي أنه إنسان مجرد ، يوجد خارج إطار العلاقات الأولية المُتَعَيِّنة ، ويدخل في علاقة تعاقدية محايدة وباردة مع أعضاء المجتمع ، ويتم تعريفه في إطار وظيفته أو دوره الوظيفي لا في إطار إنسانيته المُتَعَيِّنة ، أي أنه إنسان ذو بُعد واحد ، مُتَشَيِّئ ، مُتَسَلِّع ، لا قداسة له ، يدور في إطار المرجعية النهائية المادية وفي إطار نموذج الطبيعة/ المادة (وهذه هي السمات الأساسية لعضو الجماعة الوظيفية) . ومن ثم ، فإن تهويد المجتمع يعني في واقع الأمر تحويل كل أعضاء المجتمع إلى مادة بشرية تُوظَّف ، وتحوّل ، وتعني سيادة النظم المعرفية والاقتصادية البورجوازية لإحلال المجتمع التعاقدية الذرية المُفَتَّتِ المبني على الأنانية (جيسيلشافت) محل المجتمع العضوي المترابط التقليدي (جمائناشت) .

وقد قام ماركس بعملية التعميم الكاسحة هذه وهو واع لها تمام الوعي ، ولذا فهو كان يتحدث عن «تهويد المجتمع» باعتباره مجازاً كاشفاً ، وليس باعتباره حقيقة إمبريقية . فماركس لم يكن يُفكر في اليهودي وإنما في الإنسان الوظيفي ، أي الإنسان الذي يتوحد تماماً مع وظيفته ويفقد إنسانيته وينظر للآخرين باعتبارهم وظيفة (مصدر ربح - مصدر متعة) فيفقدون إنسانيتهم المركبة .

وماركس لا يختلف كثيراً عن كثير من المفكرين الاشتراكيين أو علماء الاجتماع الغربي . فالفونس توسينيل يُحدّر قُراءه من أنه يستخدم كلمة «يهودي» لا بمعناها الشائع وإنما بمعنى «مصرفي» أو «مراب» أو «تاجر» . ومن قبله تحدّث شكسبير عن تاجر البندقية وهو يعني في واقع الأمر «يهودي البندقية» . ويتحدثون في أدبيات علم الاجتماع الغربي عن الصينيين باعتبارهم «يهود جنوب شرق آسيا» واللبنانيين باعتبارهم «يهود أفريقيا» ، وهكذا . كما يشيرون إلى «المهن والحرف اليهودية» ، أي المهن والحرف التي عادة ما يقوم بها أعضاء الجماعات اليهودية . وكل هذه الاستخدامات تبين أن المعنى

الإنسان اليهودي بالإنسان الوظيفي في الوجدان الشعبي الغربي ، بل وتم التوحيد بينهما بحيث أصبح الإنسان اليهودي هو الإنسان الوظيفي بامتياز . ومن خلال عملية التعميم والاختزال ، تم استبعاد كل أعضاء الجماعات الوظيفية غير اليهودية وتم إدراك كل اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية بحيث أصبح كل يهودي إنساناً وظيفياً وأصبح كل إنسان وظيفي يهودي ، إلى أن أصبح الإنسان اليهودي وحده ، دون غيره من البشر ، الإنسان الوظيفي .

ولذا بدلاً من إدراك ظواهر مثل تأكل القيم وتزايد الاغتراب وسيادة العلاقات التعاقدية وانتشار الإباحية باعتبارها نتاج عملية اجتماعية انقلابية كبرى . وبدلاً من إدراك أن الإنسان الوظيفي هو ذاته الإنسان العلماني (الشامل) والإنسان الطبيعي/ المادي الذي لا انتماء ديني أو إثني له وأن هذا الإنسان ليس ثمرة مؤامرة يهودية وإنما نتيجة عمليات اجتماعية لا يتحكم فيها اليهود ، فهم جزء صغير من كل أكبر ، بدلاً من كل هذا تم التركيز على اليهودي وحده دون بقية أعضاء المجتمع باعتباره مسئولاً عما يحدث من تفتت مجتمعي وإباحية وانتقال من التراجع إلى التعاقد . وأصبح اليهودي هو وحده المسئول عن كل الشرور من انحلال وتفكك وتشتت وتآكل مؤسسات الأسرة وغيرها من المؤسسات الوسيطة التي تحمي الفرد ، وزاد الحديث عن «الجوهر اليهودي» و«الخطر اليهودي» و«الثورة اليهودية» وغيرها .

والنموذج التفسيري المركب الذي نطرحه يدور حول ما نسميه «الإنسان الوظيفي» الذي يمكن أن يكون يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بوذياً ، أو بدون دمة ولا دين ، مادام يدخل في علاقة تعاقدية نفعية باردة مع المجتمع ويُعرف في إطار دوره ووظيفته ويضطلع بالوظائف التي يُفترض أن اليهودي يضطلع بها . ولذا قد يكون من الأدق والأشمل تحليلياً أن نتحدث عن وظيفة ما ، قد يقوم بها اليهودي (في مكان ما) ، وقد يقوم بها شخص آخر (في مكان آخر) . فالوظيفة ، لا الجوهر اليهودي ، هي التي يجب أن تكون المقولة التحليلية .

وقد استخدمت سوزان هاندلمان تعبير «يهودي» بنفس طريقة ماركس ولكن في سياق جديد . فهي تذهب إلى أن المثقف اليهودي بسبب وضعه داخل الحضارة الغربية (طرد وتشتيت ونفي) أصبح عنصراً من عناصر الاستنارة المظلمة والتفكيك . فوجه كل طاقته ، في بداية الأمر ، نحو تفكيك وتقويض الشريعة اليهودية ثم توجه إلى ثوابت الحضارة الغربية نفسها يحاول تقويضها وتفكيكها . ولكن المثقف اليهودي الذي يقوم بالتفكيك يدعي أنه يقوم

مواقبتها ، وبعضهم مستمر في استخدام الخطاب الثوري أو الخطاب الديني ، حتى بعد أن تحولوا إلى جماعة وظيفية تعمل لصالح الاستعمار الغربي ، أي حتى بعد أن تم تهويدهم (بالمعنى الماركسي) . وما يجدر ذكره أن بعض هذه العناصر التي تمت حوسلتها لصالح الاستعمار الغربي ستضطلع بالدور الوظيفي (اليهودي) الموكّل لها ، أحياناً عن وعي وأحياناً أخرى بدون وعي . ولذا ، فإن البحث عن اليهودي الجوهر هو بحث عصري لا طائل من ورائه ، ولا يؤدي إلا إلى عدم إدراك عملية التفكيك التي يضطلع بها اليهود الوظيفيون أو بالأحرى البشر الوظيفيون من أبناء العرب والإسلام . ولهذا ، فإن الأجدى هو أن نبحث عن الإنسان الوظيفي . وقد ساهم وضع الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية في المجتمعات الغربية في توليد الصور الإدراكية النمطية التي تُشكّل أساس معاداة اليهود في الغرب . فعداة كثير من الناس لليهود واليهودية هو في جوهره عداة للعلمانية الشاملة (المادية - الطبيعية - العدمية) ولوظيفيتها التي تحوّل العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية ولا تكتثر بقيم أو مطلقات ، ولا تعرف سوى قانون مادي واحد ، يدور حول ثنائية بسيطة : العرض والطلب ، والربح والخسارة ، والقوة والضعف ، والذكاء والغباء ، والبقاء والهلاك . ولا تعرف غايات سوى مراكمة الثروة وتحقيق التمتع واللذة ، دون تساؤل عن أي مضمون أخلاقي أو أي معنى كلي أو نهائي ، أي أنه عداة للإنسان الوظيفي الذي يدخل في علاقة نفعية تعاقدية مع المجتمع ولا يعرف التراجع ولا يعرف سوى وظيفته ولا يحترم حرماً أو محرمات ، والذي يؤدي وجوده في أي مجتمع إلى تفتت النسيج المجتمعي وتأكل القيم .

كان ماركس - كما أسلفنا - يُسمي الإنسان الوظيفي «اليهودي» ، ويُسمي عملية الانتقال من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي الرأسمالي عملية «تهويد» . ولكن ماركس كان يفعل ذلك مدركاً الطبيعة المجازية لاستخدامه ، فهو كان يعرف الطبيعة الاجتماعية العامة لهذه العملية الانقلابية . ولكن الوجدان الشعبي غير قادر على إدراك ترابط الظواهر الاجتماعية ، ولذا فهو يركّز على العناصر المباشرة الواضحة . وأكثر العناصر وظيفية ورواد الوظيفية هم أعضاء الجماعة اليهودية (فهو عنصر تعاقدية - نفعية - غريب معتزل .. إلخ) . ولذا فهم الجوهر الثابت والعنصر الواضح والسبب المباشر لعملية التحول المؤلمة . وكان كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية ، ولكن لم يكونوا هم وحدهم الذين يضطلعون بهذا الدور . ومع هذا ارتبط

ولا يخرج مارتن بوبر في تعريفه لليهودي عن هذا الإطار ، رغم استخدامه مصطلحه الحلولي الكوموني العضوي لنقل فكرته . فقد تحدث عن : « أزية الأجيال كجماعة يربطها الدم . فالدم قوة مُتَجَذِّرة في الفرد تغذيه ، والدم هو الذي يحدد المستويات العميقة لوجودنا ، ويصنع صميم وجودنا وإرادتنا بلونه . والعالم من حول إن هو إلا آثار وانطباعات ، بينما الدم هو عالم الجوهر » . ونظراً لأن الدم الذي يجري في عروق اليهود يربطهم بالترية ، فقد كان بوبر يشير إلى اليهود باعتبارهم آسيويين « لأنهم إذا كانوا قد طردوا من فلسطين ، فإن فلسطين لم تُطرد منهم » .

ويبدو أن مسألة الدم هذه لم تكن شائعة في صفوف الفلاسفة والصهاينة المتأثرين بالتراث الألماني وحسب ، بل كانت شائعة في صفوف الصهاينة الأنجلو ساكسون أيضاً . فقد ادعى الزعيم الصهيوني نورمان بتويتش ، في حديث أدلى به في عام ١٩٠٩ ، أ ، اليهودي لا يمكن أن يكون مواطناً إنجليزياً كاملاً مثل هؤلاء الإنجليز الذين وكلدوا « لأبوين إنجليزين وانحدروا من أسلاف خلط دماءهم بالإنجليز لأجيال كثيرة » . وعرف الأمريكي لويس براندي اليهودية ، في خطاب ألقاه في عام ١٩١٥ ، بأنها « مسألة تعدد بالدم » . وذكر أن هذه الحقيقة نقيت قبولاً من جانب غير اليهود الذين يضطهدون اليهود ، ومن جانب اليهود الذين يُحسِنون بالغة « عندما يُبدي إخوانهم من ذوي الدم اليهودي تفوقاً أخلاقياً أو ثقافاً أو عبقرية أو موهبة خاصة ، حتى إذا كان هؤلاء النابهون قد تخلد عن الإيمان بالدين ، مثل إسبينوزا أو ماركس أو دزرائيلي أو هايني » . ويبدو أن الصهاينة حاولوا ، على طريقة المفكرين الناصريين في الغرب ، أن يُثبتوا أنهم عرق مستقل بطريقة « علمية » وليس فقط على طريقة بوبر الفلسفية . ولذا ، فإننا نجد في صفوفهم كثيراً « العلماء » المهتمين بهذه القضية . وقد أشار عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين إلى « الكتابات المتعلقة بقضية الجنس اليهودي » وأورد في كتابه اليهود في الوقت الحاضر أسماء كثير « المراجع القيمة » في ذلك الموضوع . ومن بين الأسماء التي يذكر اسم عالم صهيوني هو إغناز زولتشان (١٨٧٧ - ١٩٤٨) الذي وصف اليهود بأنهم « أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرؤ أو الانحلال الخلقي » . وقدم روبين نفسه تعريفاً عرقياً لليهود بين ف أنهم « استوعبوا عناصر عرقية أجنبية بدرجة محدودة ، ولكنهم ف أغليتهم يمثلون جنساً متميزاً ، على عكس ما هو سائد في دول وس أوريا » .

وكان اللورد بلفور ، الصهيوني غير اليهودي ، يفكر في اليهود

بالتفسير وحسب ، ولكنه في واقع الأمر يقوم بما سمته سوزان هاندلمان « الهرميو طبقاً المهرطقة » ، ذات الطابع التفكيكي العدمي .

وتضيف سوزان هاندلمان أن أي مثقف يقوم بعملية تفسير تهدف إلى تقييض وتفكيك كتب حضارته المقدسة ، وفي نهاية الأمر كل مقدساتها وثوابتها ، هو يهودي بالمعنى الوظيفي .

العرق اليهودي

Jewish Race

« العرق » هو جملة السمات البيولوجية (مثل حجم الجمجمة ولون الجلد أو العين أو الشعر . . . إلخ) التي يُفترض وجودها في جماعة بشرية وتُميزها بشكل حتمي (بيولوجي) عن غيرها من الجماعات . وكلمة « عرق » ترادف أحياناً كلمة « سلالة » أو « جنس » أو « دم » . وهناك تقسيمات عدة للسلالات أو الأعراق أو الأجناس البشرية المختلفة أو الدماء التي تجري في عروقه .

وهناك اتجاه صهيوني يؤمن بأن ثمة عرقاً يهودياً مستقلاً ، وأن أساس الهوية اليهودية والشخصية اليهودية هو الانتماء العرقي . ولعل المفكر الصهيوني موسى هس (١٨١٢ - ١٨٧٥) مؤسس الفكرة الصهيونية (في ديباجتها الاشتراكية) هو أول من طرح تعريفاً لليهود على أساس بيولوجي أو عنصري حين ذكر أن العرق اليهودي من الأعراق الرئيسة في الجنس البشري ، وأن هذا العرق حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية فيه ، فحافظت اليهودية على نقاوتها عبر العصور . وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس سيكون أهم الصراعات ، وأسهم في المحاولة الرامية إلى التمييز بين العنصرين الآري والسامي ، وهو التمييز الذي قُدِّر له أن يكون بعد عدة سنوات أحد المفاهيم الأساسية التي تبنها منظر وفكر العنصري الأوربي . وقد دأبت هرتزل فكرة الهوية العرقية ، فترة من الزمن على الأقل فاستخدم عبارات مثل « الجنس اليهودي » أو « النهوض بالجنس اليهودي » ، كما أنه كان يفكر في تمييز اليهود عن غيرهم على أساس بيولوجي . وعندما قام هرتزل بأول زيارة له إلى معبد يهودي في باريس ، كان أكثر ما أثار دهشته التشابه العرقي الذي تصوره وجوده بين يهود فيينا ويهود باريس : « الأنوف المعقوفة المشوَّهة ، والعيون الماكرة التي تسترق النظر » . كما يقول ماكس نوردد الذي يعدُّ واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تحوُّله إلى الصهيونية) ، في لغة لا تقبل الشك وتخلو تماماً من الإبهام ، « إن اليهودية ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عرق وحسب » .

الصهيوني ناحوم سوكلوف : بعد أن عشنا عصرأ أصبحت فيه كلمة «عنصر» أو «عرق» معادلة للقسوة والبربرية ، فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح . ويُضاف إلى هذا أن علم الأجناس قد أظهر أن هذا المصطلح لا يمكن أن يُطبَّق حقاً على اليهود ، وذلك رغم أنه كان من المعتاد تماماً الإشارة إلى اليهود في عصر ما قبل هتلر على أنهم «جنس» ، وكان الكثيرون يعتقدون أن يهودية المرء مسألة تتعلق بمولده وسماته .

ولذا ، كان لا بد من العدول عن استخدام كلمة «عرق» . وبدلاً من ذلك ، بدأ تعريف اليهودي على أساس إثني ، أي على أساس التراث والثقافة المشتركة ، ومن ثم حلت الإثنية محل العرقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية . لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعريف العرقي ، فكلاهما يفرض نظرية في الحقوق (العرقية أو الإثنية) تعطي صاحب الهوية العرقية أو الإثنية مزايا معينة وقوة مطلقة تنكرها على غيره من البشر . (انظر الباب المعنون «ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية [تعريف وإشكالية]»).

الجنس (بمعنى عرق)

Jewish Race

انظر : «العرق اليهودي» .

السلالة اليهودية

Jewish Race

انظر : «العرق اليهودي» .

على أساس عرقي ، وربما كان من المهم هنا أن نتذكر أن إحدى المسودات الأولى لوعد بلفور كانت تدعو إلى إقامة «وطن قومي للجنس اليهودي» ، وهي جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجياً واضحاً للهوية اليهودية .

ثمة ، إذن ، إجماع صهيوني على التعريف العرقي لليهودي . وهو أمر متوقع ومفهوم ، فقد كانت الصهيونية تبحث عن الشرعية من أوروبا لا من اليهودية ، ولذا كان عليها أن تصبح عرقاً مستقلاً لأن العرق المستقل وحده هو الذي من حقه أن تكون له دولة مستقلة (حسب الإطار المعرفي السائد في أوروبا العلمانية) . ولكن من الواضح أن تعريف اليهودي كعضو في عرق مستقل أمر مغرق في الخيال والوهم ، إذ يدحض واقع الأقليات اليهودية بسهولة مثل هذه الأساطير . وكان على الصهاينة بالذات أن يتعاملوا السوء حظهم مع يهود بيض ويهود سود وبضعة يهود صفر إلى جانب الكثير من الظلال اللونية . وكما أشرنا من قبل ، فقد كان هرتزل معجباً بالنظرية العرقية ، ولكنه كان صديقاً لإسرائيل زانجويل (١٨٦٤ - ١٩٢٦) الروائي الإنجليزي والزعيم الصهيوني اليهودي ذي الأنف الطويل والشبيه بأنوف الزوج والشعر الكث الحالك السود ، وكانت نظرة واحدة إليه تكفي ، على حد قول هرتزل نفسه ، لدحض أي تصور عرقي لليهود .

وثمة سبب آخر لاختفاء التعريف العرقي لليهود يرتبط بالمجال الدلالي لكلمة «عرق» ، إذ أنه بحلول الثلاثينيات كانت الحياة في الغرب قد تحولت عن العنصرية التي فقدت إلى حد كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلمية . وكما يقول الزعيم



٢

إشكالية الوحدة اليهودية والنفوذ اليهودي

الوحدة اليهودية - الاستقلال اليهودي - الوعي اليهودي - عدم الانتماء اليهودي - الولاء اليهودي المزدوج - المصالح اليهودية - بيرنيكي - باسينيكو - دزاتيلي - كرميه - يولي - فوجل - أيزاكس - قاراصو - صمويل - بلوم - منديس فرانس - كرايسكي - كينسجر - المال اليهودي - النفوذ اليهودي والصهيوني - المعجز اليهودي (بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)

الوحدة اليهودية

Jewish Unity

بين عبادة يهود وعبادة بعل ، وصراع بين عبادة مملكة الشمال وعبادة مملكة الجنوب . وعند عودة بعض اليهود من بابل إلى فلسطين ، حدث انقسام حاد بينهم وبين اليهود المقيمين الذين جاء منهم فريق السامريين . وقد انقسم اليهود دينياً بعد ذلك إلى صدوقيين وفريسيين وأسنين . ثم ظهر الاحتجاج انقراطي على اليهودية الأخاخامية ، كما ظهرت الحركات المشيخانية المختلفة (وأخرها الحركة الخسدية) . وهي حركات احتجاج ضد المؤسسة الأخاخامية تنفي مفهوم الوحدة تماماً . كما انفصلت بعض الجماعات اليهودية مثل الفلاشاء ويهود الهند عن اليهودية الأخاخامية . وأصبح لها صيغ يهودية مختلفة جوهرياً عن الصيغة الأخاخامية . وفي العصر الحديث ، انقسمت اليهودية إلى فرق : اليهودية الإصلاحية ، واليهودية المحافظة ، واليهودية التجديدية ، واليهودية الأرثوذكسية ، واليهودية الأرثوذكسية الجديدة . وهناك ، بضيعة آخر ، الانقسام بين الإشكناز والسفارد على المستوى السني . وكثير من هذه الفرق قد تكفّر بعضها البعض وقد تجد أن الانقسام من الحدة بحيث تُقاطع الواحدة منها الأخرى ، وهو ما يجعل الحديث عن الوحدة اليهودية أمراً صعباً . وما زاد من تعميق هذا التفتت ، غياب سلطة مركزية يهودية جماعية . دينية أو دنيوية ، تُحدد المعايير لأعضاء الجماعات اليهودية .

والخاصية الجيولوجية التراكيبية نفسها تسم أعضاء الجماعات اليهودية وهوياتهم المختلفة . فحتى قبل دخول العبرانيين إلى مصر ، يُحدثنا العهد القديم عن الخلاف بين يوسف وأعضاء أسرته . كما أن القبائل العبرانية تشترك جميعها في الثورة ضد الفلستين وأعداء العبرانيين الآخرين إبان حكم القضاة . وقد اندلعت الثورات الأهلية داخل مملكة داود وسليمان ، ووصل التوتر إلى درجة عالية داخل المملكة المتحدة ، فأنحلت بعد موت سليمان وانقسمت إلى مملكتين تنصارعان معاً . واستعانت المملكة الجنوبية بأشور ضد المملكة

«الوحدة اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة وحدة تربط بين أعضاء الجماعات اليهودية كافة في كل زمان ومكان ، وأن هذه الوحدة تتمثل في وحدة الهوية والشخصية والسلوك ، وفي أشكال مختلفة من التضامن ، وفي نهاية الأمر في القومية اليهودية وفي الشعب اليهودي الواحد ذي الهوية الواحدة المستمرة وكذلك في التاريخ اليهودي الواحد . ويذهب البعض إلى القول بوجود عرق يهودي واحد . وينتهي هذا الافتراض إلى أن اليهود حافظوا على هذه الوحدة منذ خروجه من مصر الفرعونية حتى يومنا هذا . وقد قُدر مصدر هذه الوحدة تفسيرات عدة ، فالصهيانية الدينيون يرون أن مصدر الوحدة هو حلول الروح الإلهية أو الشخيخاء وكمونها في الشعب اليهودي ، فهي تَقْطُن وسطهم ، وهي التي تُحوّلهم إلى شعب من الكهنة والقديسين ، بينما يرى الصهيانيون أن مصدر وحدة اليهود هو الجوهر اليهودي الكامن في كل اليهود ، أو هو نزعة معاداة اليهود في مجتمعات الأغيار ، أو تميز اليهود وظيفياً واضطرارهم إلى الاضطلاع بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة وبالأعمال التجارية والربوية . ويميل الخطاب الصهيوني في الوقت الحاضر إلى تأكيد أن هذه الوحدة هي تعبير عن تطلّع قومي في حالة اللادنيين ، وعن تطلّع قومي ديني في حالة الدينين .

ولكن النموذج الصهيوني الاختزالي يختلف عن بنية الواقع التاريخي المركّب المتعَيّن لأعضاء الجماعات اليهودية ، وهو واقع لا يتسم بالوحدة . فمن الناحية الدينية ، تأخذ اليهودية شكل تكوين جيولوجي تراكيمي غير متجانس تتعايش فيه العناصر المختلفة جنباً إلى جنب أحياناً وتتفجر أحياناً أخرى . وقد حدثت تفجّرات وانقسامات كثيرة من البداية ، من أهمها ما كان يحدث داخل المملكتين العبرانيتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية) من صراع

(عبرانيين) . ولكنهم ، حتى في تلك الآونة ، كانت تُمرّزهم الخلافات السياسية ، وأحياناً الثقافية والدينية . ومع انتشار الجماعات اليهودية ، لم تُعدّ الخلافات مجرد خلافات سياسية ، وإنما أصبحت خلافات حضارية قومية عميقة . وقد حققت بعض الجماعات اليهودية وحدة «قومية» داخل التشكيلات الحضارية المختلفة ، كما حدث لليهود شرق أوروبا من يهود اليديشية ، ويهود الولايات المتحدة . ولكن أية وحدة بين هؤلاء هي وحدة يتمتعون بها داخل التشكيل القومي الذي ينتمون إليه ، ومن خلاله وبسببه ، لا من خارجه ورغماً عنه . كما أنها ، من ناحية أخرى ، لا ترقى البتة إلى مستوى الوحدة اليهودية العالية الشاملة .

وقد تمتع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية ، منذ العصور الوسطى ، بشكل من أشكال الوحدة ، وذلك من خلال علاقاتهم كجماعات وظيفية وسيطة تشكل ما يشبه النظام الاتصالي العالمي ومن مصلحتهم الحفاظ على هذه العلاقات . ورغم أنها بدت كما لو كانت وحدة قومية ، فقد كانت علاقات مالية فحسب ، إذ أن كل جماعة وظيفية يهودية كانت مرتبطة ، في نهاية الأمر ، بالمجتمع الذي تنتمي إليه وتتفاعل معه وتستمد هويتها منه . ولكن الصهانية يؤكدون ، مع هذا ، أن هناك وحدة أزلية لليهود ، ويخلصون من هذا إلى أن الدولة الصهيونية في فلسطين أمر منطقي بل وحتمي .

الاستقلال اليهودي

Jewish Independence

«الاستقلال اليهودي» عبارة تفترض أن لليهود شخصيتهم اليهودية المستقلة وتاريخهم اليهودي المستقل عن تواريخ الأغيار . وتشير الأدبيات الصهيونية إلى مؤسسات الإدارة الذاتية ، مثل القهال ومجلس البلاد الأربعة ، باعتبارها مؤسسات الحكم الذاتي ، كما تشير إلى اللهجات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارها لغات اليهود . وتستند كل من العقيدة الصهيونية ونزعة معاداة اليهود إلى المفهوم الواحد نفسه ، فيتحدث أعداء اليهود عن حب اليهود للعزلة ورفضهم الاندماج وتفضيلهم الجيتو على الحياة مع الأغيار ، بل ويتحدثون عن سمات جوهرية داخل الطبيعة البشرية اليهودية تجعلهم مستقلين عن باقي البشر ومختلفين عنهم . ومن المفارقات أن القبّالاء اللوريارية تذهب إلى درجة من التطرف حيث تطرح تصوراً لليهود باعتبارهم قد خلّقوا من عجينة مغايرة لتلك التي خلّق منها الأغيار ، وهذا يتناقض مع قصة الخلق في العهد القديم .

الشمالية ، الأمر الذي أدّى إلى تدخّل هذه القوة العظمى ، فقامت بتدمير المملكة الشمالية تماماً وتهجير نخبتها الحاكمة .

وقد حقق اليهود قدراً من الوحدة والاستقرار حينما سيطرت الدولة الفارسية على الشرق الأدنى القديم ، حيث كانت كل التجمعات اليهودية تحت هيمنتها . وقد انتهت هذه الوحدة المؤقتة بانحسار نفوذ هذه الإمبراطورية بعد غزو الإسكندر لكل من مصر وسوريا وفلسطين وغيرها من المناطق . وقد كانت الخصومات بين بعض قطاعات اليهود تنطوّر إلى حروب أهلية طاحنة يقتتل فيها اليهود ويتعرّضون للإبادة الجسدية على أيدي بعضهم البعض كما حدث في العام الرابع الميلادي في عهد أريخيلوس ابن هيرود الذي أباد ثلاثة آلاف يهودي ، أو كما حدث في تمرد عام ٧٠م حين قتل المتطرفون من اليهود اثني عشر ألف يهودي من الأثرياء . وقد كان هناك ، إلى جانب تيتوس ، جيش يهودي تحت قيادة أجريبا الثاني يحارب ضد المتمردين اليهود . وفي العصور الوسطى ، كان لسكان أي جيتو في أوروبا حق تحريم استيطان اليهود الآخرين فيه (حيريم هايشوف) ، وهو حق كانت تمارسه كل الجيتوات . وكان الصراع بين أعضاء الجماعات اليهودية واضحاً في أوروبا في القرن السابع عشر . أما في الدولة العثمانية ، فكان لكل مجموعة يهودية معبدها اليهودي وحاخامها الخاص ، وكانت كل مجموعة يهودية تستعدي السلطة على المجموعة الأخرى . وعندما هاجر يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة ، ناصبهم اليهود ذوو الأصل الألماني العدا . وكان هؤلاء قد لا قوارضاً من جانب اليهود السفارد الذين سبقوهم . غير أن الولايات المتحدة قامت بصهرهم ضمن من صهرتهم من مهاجرين ، فحققوا شيئاً من الوحدة والتماسك لا بوصفهم يهوداً بشكل عام وإنما بوصفهم يهوداً أمريكيين تحولوا بالتدريج إلى أمريكيين يهود . وقد تكررت الظاهرة في أمريكا اللاتينية . ولكن نظراً لأن الحضارة الكاثوليكية هناك لم تقم بصهر أعضاء الجماعات اليهودية الذين هاجروا إليها ، فقد احتفظوا بخاصية عدم التجانس ، وقامت كل جماعة يهودية تنتمي إلى هذا البلد أو ذاك بتنظيم نفسها بشكل مستقل . فنجد أن المكسيك تضم عشرات التنظيمات اليهودية ، من بينها تنظيمان لليهود سوريا : واحد للدمشقيين والآخر للحليبيين . والمعركة الدائرة بين اليهود الأرثوذكس واليهود غير الأرثوذكس حول تعريف اليهودي ، داخل وخارج إسرائيل ، أصبحت معركة أساسية تفوق في أهميتها الصراع بين الإشكناز والسفارد .

ويمكننا أن نقول إن أعضاء الجماعات اليهودية لم يحققوا وحدة عامة شاملة إلا حينما كانوا جماعة عرقية أو إثنية دينية متماسكة

هويته . ومن المفارقات أنه ، بعد إنشاء الدولة الصهيونية ، اتضح تهاافت ما يُسمى «الهوية اليهودية» وانقسامها إلى عشرات الهويات ، كما اتضح أن أبناء المستوطنين الصهاينة من جيل الصابرا لهم هوية جديدة مختلفة عن هوية أعضاء الجماعات الموجودين في العالم ، بل ويُمكن الكثير منهم الاحتقار لليهود المنفى ، أي معظم يهود العالم . ومن ثم ، فقد أدخلت مادة الوعي اليهودي في مقررات الدراسة في المدارس الإسرائيلية .

ويؤكد المقرر الجوانب الإيجابية لوجود اليهود على هيئة جماعات متشرة في العالم ، ويمجد إنجازاتهم الحضارية ، وهو ما يعطي صورة إيجابية لحياتهم في المنفى ، أي في أنحاء العالم خارج فلسطين . ولكن هذا التمجيد يتناقض مع العقيدة الصهيونية التي تصدر عن الإيمان بأن حياة اليهود خارج فلسطين إن هي إلا انحراف عما يُسمى «التاريخ اليهودي» . ومن ثم ، فإن مثل هذه الرؤية لا تزيد ألبتة من الوعي اليهودي الأحادي . ولكن ، إن تم التركيز على الجوانب السلبية وحدها ، وُصِّرت تاريخ الجماعات على أنه تاريخ هجمات ومذابح ، كما تفعل بعض كتب التاريخ الصهيونية (وهو ما سمّياه «التأريخ من خلال الكوارث») ، فإن هذا سيقطع من احترام الأجيال الصاعدة ليهود العالم ، وبالتالي سيقوض دعائم الوعي اليهودي . ولذا ، فإن هناك اتجاهًا الآن للتأكيد على عنصر المقاومة بين يهود المنفى . واليهود ، حسب هذه الرؤية ، كانوا دائمًا معرضين للاندماج ، ولكنهم تصدوا له فأبدعوا وأبقوا على جوهرهم اليهودي . وعندما تعرضوا للمذابح ، ثاروا ضد من قاموا بذبحهم ، ومن هنا التأكيد على أهمية التمرد الخشمنوني والأحداث المماثلة في التاريخ اليهودي مثل : التمرد اليهودي الأول ، والتمرد اليهودي الثاني ضد الرومان ، وتمرد جيتو وارسو . بل ويصبح تاريخ الصهيونية هو تاريخ هذا الوعي اليهودي وتاريخ تلك المقاومة المستمرة . ويشكو اليهود السفارد والشرقيون من أن مادة الوعي اليهودي تركز على إسهامات اليهود الإشكناز وحدهم ولا تؤكد على إسهاماتهم الحضارية .

عدم الانتماء اليهودي

Jewish Rootlessness

«عدم الانتماء اليهودي» عبارة تفترض وجود انتماء يهودي مستقل للجماعة اليهودية يتبدى في شكل ولاء كامل للشعب اليهودي وعدم انتماء للشعوب أو الأوطان الأخرى . ونحن نرى أنه إن كان ثمة انتماء يهودي فهو انتماء إلى العقيدة أو العقائد اليهودية ،

وغني عن القول أنه لا يوجد استقلال يهودي ، إذ تدل القرائن التاريخية على أن أعضاء الجماعات اليهودية اندمجوا وانصهروا في مجتمعاتهم ، وأن ما يتمتع به أعضاء الجماعات اليهودية من استقلال أو انفصال نسبي عن مجتمع الأغلبية لا يختلف بأية حال عما يتمتع به أعضاء أية أقلية دينية أو إثنية في أي مجتمع ، وخصوصاً في المجتمعات التقليدية . ويعود شيوع مفهوم مثل مفهوم استقلال اليهود إلى اضطلاح أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من المجتمعات ، خصوصاً في العالم الغربي ، بوظيفة الجماعة الوظيفية التي يعيش أعضاؤها في عزلة عن بقية أعضاء المجتمع .

ونحن نرى أن استخدام مصطلح كمصطلح «اليهود» يؤكد مثل هذا الاستقلال ، وقد يشي بدرجة من الوحدة والتجانس لم يتمتع بهما اليهود قط . ولذا ، فإننا نؤثر استخدام مصطلح مثل «الجماعات اليهودية» لأنه يؤكد التنوع وعدم التجانس والانفصال ولا يفتي في الوقت نفسه ذلك القدر من الوحدة والتجانس .

الوعي اليهودي

Jewish Consciousness

«الوعي اليهودي» عبارة تفترض أن ثمة هوية يهودية محددة وشخصية يهودية لها خصوصية يهودية وتاريخاً وتراثاً مستقلين عن تاريخ وتراث الشعوب ، بل وتفترض أن ثمة جوهرًا يهوديًا وطبيعة يهودية . ويرى المعادون لأعضاء الجماعات اليهودية أن اليهود يتمتعون بوعي عميق لخصائصهم اليهودية هذه ، وأن هذا الوعي يتبدى في دفاعهم عن مصالحهم اليهودية ، وفي انعزالهم داخل الجيتو ، وفي نهاية الأمر في المؤامرة اليهودية الكبرى (وهي المؤامرة التي يقول البعض إن اليهود يحيكونها ضد الأغيار في كل زمان ومكان) . ومثل هذه النظرة تتجاهل عدم تجانس الجماعات اليهودية ، وخاصيتها الأساسية كتركيبة جيولوجية ، وانفصالها الواحدة عن الأخرى عبر التاريخ . كما تتجاهل الصراعات الحادة التي نشبت بين هذه الجماعات ، لا بسبب اختلاف المصالح وحسب وإنما بسبب اختلاف الهوية والرؤية . وفي الحقيقة ، فإن الصراع بين السفارد والإشكناز ، ذلك الصراع الممتد منذ القرن السابع عشر حتى الوقت الحاضر ، هو تعبير عن هذا الاختلاف الذي يجعل من مقولة الوعي اليهودي الواحد أمرًا محالاً .

لكن الصهيونية تؤمن بأن اليهود شعب واحد ، ومن ثم فلا بد أن يُقَوَّى الوعي اليهودي للمحافظة على وحدة هذا الشعب وعلى

وهو أمر تساهم الصهيونية في خلقه طارحةً نفسها كعقيدة علمانية تحمل محل العقيدة الدينية .

وقد أكد الصهاينة والنازيون عدم انتماء أعضاء الجماعات اليهودية إلى التشكيلات الحضارية أو القومية التي يتواجدون فيها مفترضين أن ثمة انتماءً يهودياً خالصاً . وأكد البرنامج السياسي الصهيوني وجود مثل هذا الانتماء . ولكن السلوك الفعلي لليهود أمريكا ، على سبيل المثال ، يبين أنهم ينتمون إلى وطنهم الأمريكي ، ومن ثم لا يهاجر منهم إلى إسرائيل إلا نسبة ضئيلة جداً . وكذلك ، فإن انتماء يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان انتماءً إلى مصالحهم الاقتصادية أو السياسية . ولذلك ، فإنهم يحاولون الهجرة إلى الولايات المتحدة ولا يتوجهون إلى إسرائيل إلا عند الاضطرار . كما أن تَفَجُّر قضية الهوية داخل إسرائيل يبين أن لليهود انتماءات مختلفة وليس انتماءً يهودياً واحداً . وترتبط قضية ازدواج الولاء بقضية الانتماء اليهودي ، إذ أن من يؤمن بأن اليهود لا انتماء لهم لابد أن ينظر إلى اليهود بعين الشك ويرى أن ولاءهم لأوطانهم أمر مستحيل ، أو يرى على الأقل حتمية ازدواج هذا الولاء ، باعتبار أن ولاءهم اليهودي شيء راسخ متأصل .

ويحاول الصهاينة في الوقت الحاضر أن يُعرِّفوا انتماء اليهود تعريفاً جديداً يتفق مع واقعهم كجماعات تعيش خارج فلسطين وترفض الهجرة . ومن ثم ، أصبح الانتماء السياسي والاقتصادي لليهودي إلى وطنه الفعلي ، أما انتماؤه الديني والثقافي فلوطنه المثالي أو الوهمي ، أي الدولة الصهيونية . وبهذا ، لا تصبح الترجمة العملية للبرنامج الصهيوني الهجرة إلى فلسطين المحتلة وإنما تعميق الأبعاد اليهودية الإثنية للهوية ، وهو ما يُسمَّى «صهيونية الدياسبورا» أو «الصهيونية الإثنية» .

الولاء اليهودي المزدوج

Jewish Double Loyalty

«الولاء اليهودي المزدوج» مصطلح يستخدمه المعادون لليهود والصهاينة الذين ينطلقون من الإيمان بأن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لوطنهم القومي ومصالحهم اليهودية ، لأنهم لا جذور لهم في مجتمعاتهم ولا ينتمون إليها انتماءً حقيقياً ، فاليهود شعب عضوي مرتبط بأرضه . لذلك فهم دائماً موزعون الولاء ، يمارسون إحساساً عميقاً بازدواج الولاء .

وقد أكد الزعماء والمفكرون النازيون أثناء محاكمات نورمبرج ، الواحد تلو الآخر ، أنهم تعرَّفوا إلى اليهود واليهودية

إذ لا يوجد تراث أو ماضٍ يهودي مشترك ، فماضي أو تاريخ كل جماعة يهودية هو ماضٍ أو تاريخ المجتمع الذي توجد فيه .

ومن الإشكاليات الأساسية التي تُثار في الأدبيات الغربية (اليهودية وغير اليهودية) إشكالية الانتماء اليهودي . وقد طرح السؤال منذ البداية كما يلي : هل ينتمي اليهودي إلى الجنس البشري ككل أم إلى الشعب اليهودي المختار أو (المقدس) ؟ وهل الخالق هو إله اليهود وحدهم (كما يتصور بعض اليهود) أم إله العالمين ؟ والإجابة القاطعة عن هذا السؤال داخل النسق الديني اليهودي غير ممكنة ؛ فهناك من القرائن ما يؤيد النزعة العالية والانتماء إلى الجنس البشري ، وهناك من القرائن ما يساند الرأي المناقض . ففي تراث القَبَلَّاء ، أصبح التمييز بين الشعب اليهودي والأغيار حاداً إلى أقصى درجة ، حتى أن القَبَلَّاء ذهبوا إلى أن اليهود قد خلُقوا من طينة مختلفة عن تلك التي خلُق منها بقية البشر وإلى أن الأغيار خلُقوا على شكل الإنسان حتى يمكنهم القيام بخدمة اليهود . وفي فكر الاستنارة ، وفي اليهودية الإصلاحية ، بل وفي التلمود ذاته ، ما يناقض هذا الموقف ، وذلك بالتأكيد على الانتماء الإنساني العالمي لليهود .

ولكن الانتماء اليهودي قضية ترتبط بالدور الذي لعبته الجماعات اليهودية في كثير من المجتمعات ، خصوصاً المجتمعات الغربية ، كجماعة وظيفية وسيطة . بيد أن أية جماعة وظيفية وسيطة داخل أي مجتمع لا تنتمي إليه ، وإنما تنتمي عاطفياً إلى الوطن الأصلي (الوهمي أو الفعلي) ، كما تنتمي فعلياً إلى الطبقة الحاكمة فهي أداتها وسوط العذاب في يدها . وقد تَجَمَّ عن ذلك الوضع ابتعاد الجماعة اليهودية عن الجماهير الشعبية وهامشيتها بالنسبة إلى الحركات الجماهيرية الكبرى . ويرى ماكس فيبر ، على سبيل المثال ، أن الرأسمالية اليهودية رأسمالية منبوذة لم تساهم في نمو الرأسمالية الرشيقة ، كما أن الفكر الاشتراكي الغربي كان يرى أن انتماء اليهودي هو انتماء إلى رأسماله وحسب . وقد عبَّرنا عن هذه الإشكالية بمصطلح «الشعب العضوي المنبوذ» .

والواقع أن قضية الانتماء طُرحت بحدة مع ظهور الدولة القومية المركزية التي حاولت توحيد السوق وتوحيد الأمة حسب نموذج ثقافي أحادي موحد يستبعد الجيوب القومية الإثنية الأخرى ، ويتطلب انتماءً كاملاً من المواطن . وقد نجح كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في تحديد انتمائهم القومي بالاندماج في محيطهم الثقافي . ويرى الدارسون أن تصاعُد معدلات العلمنة في العالم الغربي سيؤدي إلى ضعف الانتماء الديني للجماعات اليهودية ،

وقد طُرحت قضية الولاء في عصر التنوير في أوروبا ، حينما وُصف اليهود بأنهم « دولة داخل دولة » بسبب خصوصيتهم وانعزاليتهم الحقيقية أو الوهمية ، وقد طُلب إلى أعضاء الجماعات اليهودية ، وكذلك إلى الأقليات الإثنية والدينية كافة ، أن يدينوا بالولاء للدولة القومية وحدها وأن يرفضوا أية ولاءات أخرى . وبالفعل ، كان اليهود من أكثر العناصر ترحيباً بهذه الدعوة ، فاندمجوا في مجتمعاتهم بنسبة عالية كلما سحت لهم الفرصة . ولم يُعرقل هذه العملية سوى نُشر التحديث سواء في روسيا أو في ألمانيا ، وهي المجتمعات التي طُرحت تصوراً عضوياً لفكرة الولاء .

وفي العصر الحديث ، يشعر يهود الولايات المتحدة بالولاء العميق لبلدهم أمريكا ، فهم يتمنون إليه انتماء كاملاً ويحاربون ويموتون دفاعاً عنه ، ومصيرهم مرتبط بمصيره . وحينما يشكك الدعاة الصهيونية في هذا الولاء ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يشعرون . ويتضح ولاؤهم أيضاً في رفضهم الهجرة إلى إسرائيل وفي اندماجهم في مجتمعاتهم . أما يهود جنوب أفريقيا ، فهم لا يشعرون بالولاء تجاه وطنهم لأن وضعهم في بلادهم مقلقل ، وبالتالي فقد يكون ولاؤهم غير راسخ ، ولما فهم يفكرون في الهجرة منها . ولكن عدم ولائهم لا ينبع من مصاحهم اليهودية أو من جوهرهم أو طبيعتهم أو شخصيتهم ، وإنما ينبع من أن المستوطن الأبيض في جنوب أفريقيا قد بدأ يتعرض لنضغوط حقيقية من السكان الأصليين تهدد وجوده . وحينما يهاجر اليهود الروس من روسيا ، فهم لا يفعلون ذلك من باب الولاء اليهودي ، وإنما من باب الولاء الاندلسي للمستوى المعيشي المرتفع ، ومن ثم يتجهون إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل . وقد اتخذت الولايات المتحدة من التشريعات ما يكفل إغلاق باب الهجرة لتحويلهم عنوة إلى اندوة الصهيونية . وفي هذا ، لا يختلف المهاجرون اليهود المرتزقة من روسيا أو أوكرانيا كثيراً عن معظم أعضاء المجتمعات العلمانية في الغرب . فماركس يتحدث عن ولاء الرأسمالي ، وهو ولاء يتجاوز الولاء القومي ، كما يتحدث بترام (فيلسوف النفعية) عن المنفعة الشخصية ، وهي منفعة تتجاوز الصالح القومي .

ويصنّفُ الصهاينة عن فكرة ازدواج الولاء ، شأنهم في هذا شأن النازيين والعادين لليهود ، وينطلق برنامجهم السياسي منها . فيتحدث المفكرون الصهاينة ، كلاتزكين وجولدمان وبن جوريون ، عما يسمونه «الولاء القومي اليهودي» . وبالتالي ، فإن اليهودي الذي يعيش في بلد غير الدولة اليهودية لن يشعر تجاهه بأي ولاء ، أو سيكون ولاؤه له ضعيفاً إذ سيكون موزعاً بين وطنه الفعلي الذي يقيم

والسالة اليهودية من خلال الكتابات الصهيونية التي تتحدث عن عدم انتماء اليهود إلى أوطانهم الواقعية وعدم ولائهم لها . وتنطلق التشريعات النازية من هذا الفهم ، ومن تصور أن اليهود لا يتمنون إلى الوطن القومي الألماني ، إذ أن لكل شعب عضوي وطنه ! وفي الوقت الحاضر ، يشير أعداء اليهود إلى قرائن عدة تدل على عدم انتماء اليهود مثل كمية الأموال التي تُرسل إلى إسرائيل من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وتعدد هذه الجماعات اليهودية لمواقفها السياسية بطريقة تتفق ومصالح إسرائيل ، ووقوف كثير من المفكرين اليهود الليبراليين والثوريين ضد حرب فرنسا في الجزائر وحرب الولايات المتحدة في فيتنام في الوقت الذي يؤيدون فيه إسرائيل في حروبها العدوانية ضد العرب .

ولا يمكن الحديث عن ولاء يهودي محدد ومطلق ، فولاء أعضاء الجماعات اليهودية يتحدد بحسب مركب تاريخي طبقي إنساني أخلاقي ، كما لا يمكن تحديد كيفية تصرف أعضاء الجماعات اليهودية مسبقاً ، وكأنهم كائنات بسيطة تعيش بمعزل عن التاريخ الإنساني . وتدل تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية على أن ازدواج الولاء ليس سمة أساسية أو لصيقة بهم ، وعلى أنهم في كثير من الأحيان أخلصوا لأوطانهم (التي يعيشون في كنفها) وانتموا إليها انتماءً كاملاً واندمجوا فيها ، وتمثلوا قيمها واستبطنوها تماماً . ومنذ أيام التهجير البابلي ، حيث ظهرت أول جماعة يهودية خارج فلسطين ، طوّرت الشريعة اليهودية مفهوم «شريعة الدولة هي الشريعة» ، الأمر الذي يحدد ولاء أعضاء الجماعة بشكل صارم باعتبارهم جماعة بشرية لا تدين بالولاء إلا لقوانين الدولة التي يعيشون في كنفها . وقد التزم معظم أعضاء الجماعات اليهودية بهذا المفهوم عبر التاريخ الإنساني ، شأنهم في هذا شأن كثير من البشر من أعضاء الأقليات والأغلبية . وعلى كل حال ، لم يكن هناك احتمال لازدواج الولاء لعدم وجود حكومة أو دولة يهودية يدين لها اليهودي بالولاء . ويتحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعة وظيفية وبسيطة داخل التشكيل الحضاري الغربي ، منذ العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، توجه ولاء اليهودي إلى جماعته أساساً ، ثم إلى الطبقة الحاكمة التي تحمي هذه الجماعة وتضمن بقاءها . وهذه سمة أساسية تسم مثل هذه الجماعات وليست مقصورة على الجماعات الوظيفية اليهودية ، فنجد أن الصينيين في القليلين ، والعرب في بعض البلاد الأفريقية وإندونيسيا ، يندرجون تحت هذا النمط . وعلى كل ، لم تكن مفاهيم الوطن (والولاء القومي له) واضحة أو متبلورة حتى نهايات القرن الثامن عشر وظهور الفكر القومي .

في العالم . وقد تنبَّ سيرا إدوين مونتاجو ، العضو اليهودي الوحيد في الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور ، إلى هذا البعد حيث احتج على إصدار هذا الوعد لأن الاتهام بازدواج الولاء ، بحسب رأيه ، اكتسب لأول مرة أساساً موضوعياً . وتحاول الصهيونية التوطينية التغلب على هذا الوضع الذي يسبب الحرج لأعضاء الجماعات اليهودية ، بأن تعود إلى الصيغة الصهيونية الإثنية التي ترى أن اليهود يتمتعون سياسياً إلى الوطن الذي يعيشون فيه ، مع أنهم ، من ناحية القيم الدينية والثقافية والروحية ، ينتمون إلى مركزهم الروحي (أو الإثني) في إسرائيل . ويحاول الصهاينة في الولايات المتحدة أن يُذيبوا ازدواج الولاء داخل النمط الأمريكي العام بحيث تصبح علاقة الأمريكي اليهودي بإسرائيل مثل علاقة الأمريكي الإيطالي بإيطاليا ، وبالتالي يصبح لليهودي وطان قوميان : الأول هو مسقط الرأس الذي هاجر منه ، والثاني هو البلد الذي هاجر إليه .

المصالح اليهودية

Jewish Interests

«المصالح اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة مصالح يهودية محددة متفقاً عليها بين «اليهود» (أعضاء الجماعات اليهودية) ، وأنهم يدافعون عنها علناً أو سراً متى وأينما سنحت لهم الفرصة ، وهو افتراض شائع في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود . وتذهب الكتابات التي تتبنى مثل هذا النموذج التفسيري إلى أن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لما يُسمى «المصالح اليهودية» ، وبالتالي فهم لا يعملون إلا من أجلها .

ولكن من الثابت تاريخياً أنه لم تكن هناك مصالح يهودية واحدة ، بل إن الصراعات بين الجماعات اليهودية المختلفة حقيقة تاريخية . وكثيراً ما كانت تستعدي جماعة ما السلطات على جماعة أخرى وتطالب بطردها . ويظهر الصراع في حق حظر الاستيطان (حريم هاشوف) ، أي حق أية جماعة يهودية في أن ترفض إيواء أي يهودي من جماعة أخرى ، وهو حق كانت تسعى الجماعات اليهودية في أوروبا في العصور الوسطى للحصول عليه . ولعل أهم الصراعات عبر التاريخ هو الصراع بين الإشكناز والسفارد في العالم الغربي ، والذي لا يزال له أصداءه في إسرائيل حتى الآن . وكذلك ، فإن مصالح الدولة الصهيونية تعارض في كثير من الأحيان مع مصالح الجماعات اليهودية كما اتضح في حادثة بولارد على سبيل المثال ، أو في تورُّط الإسرائيليين في تجارة المخدرات في

فيه ووطنه القومي الصهيوني ، وهو ما يُطلق عليه «ازدواج الولاء» . وقد كان هرتزل يتفاوض مع السلطات الإمبريالية المختلفة في إطار تصور أنه قادر ، حسب قوله ، على تحويل كل يهود العالم إلى عملاء يدينون بالولاء لا لأوطانهم وإنما لاية دولة تساند الفكرة الصهيونية . والعمل إما شخص عديم الولاء أو شخص ذو ولاء مزدوج .

وتنتقل الدولة الصهيونية من الإيمان بازدواج الولاء لدى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم . ولذلك ، فهي تحاول دائماً تجديدهم لخدمة مصالحها ومآربها ، بل إن بن جوريون قد صرح بأن السفير الإسرائيلي في كل عاصمة هو الممثل الحقيقي للجماعة اليهودية فيها .

وثمة قوانين في الكيان الصهيوني لتكريس هذا الاتجاه ، مثل قانون العودة وقانون الجنسية . وقد عدَّل هذا القانون الأخير بحيث تستطيع الدولة الصهيونية أن تمنح أي مواطن يهودي جنسيتها وهو لا يزال بعد في وطنه الأصلي ، دون أن يتنازل عن جنسيته الأصلية ، ويكفي أن تكون لديه النية للهجرة . والصهيونية ، بوصفها حركة سياسية ودولة استيطانية ، تحاول ترجمة فكرة الولاء اليهودي ، أي ازدواج الولاء ، إلى واقع عملي . ومما لдалته أن يبان إعلان قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ قد تم عن طريق مجلس قومي يتحدث باسم كل «الشعب اليهودي» ، سواء في فلسطين أو خارجها . وقد اكتشفت الدولة الصهيونية (بعد إعلانها) أنها لا تستطيع الوصول بسهولة ويُسَر إلى جميع أعضاء الشعب اليهودي ، نظراً لفضالة سلطتها خارج حدودها . ولذا ، حوَّكت المنظمة الصهيونية نفسها إلى أداة موظفة في يد الدولة الصهيونية ، تصل عن طريقها إلى أعضاء الجماعات اليهودية .

وقد كانت حادثة بولارد ترجمة عملية لنظرة الصهاينة لأعضاء الجماعات اليهودية . فقد قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيد باعتراب أنه مزدوج الولاء ، ولكن أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة رفضوا هذا التعريف وأكدوا أن ولاءهم للولايات المتحدة أولاً وأخيراً ، واحتجوا على سلوك إسرائيل . ولكن حادثة بولارد ليست سوى جزء من نمط عام ، إذ قامت الحركة الصهيونية من قبل بتجنيد بعض يهود البلاد العربية للتجنس ضمن قسم خاص أسَّس لهم في الوكالة اليهودية قبل عام ١٩٤٨ ، كما أن حادثة لافون تُبين أن المخابرات الإسرائيلية قامت بتجنيد بعض يهود مصر للتجنس لصالح الدولة الصهيونية .

ولا شك في أن هذا الوضع يخلق كثيراً من المشكلات لليهود

إلى جواره في محاولته تهدئة الجماهير اليهودية الخائفة مع بدايات التمرد اليهودي الأول (٦٦ - ٧٠م) ، ولكن الجماهير أضمرت انثار في قصرها .

ومع سقوط القدس في يد المتمردين ، فُرت بيرنيكي إلى الإسكندرية عند أقاربها (تاتيريوس بونيوس أنكستور ابن عم فيلون السكندري - وغيره) . وهناك ، قابلت الجنرال تيتوس ابن الإمبراطور فسبيان الذي كان يُعدّ حمته تجمع التمرد اليهودي الأول وأصبحت عشيقته . وأعلن هو عن حبه لها وكان عمرها (حينذاك) تسعة وثلاثين عاماً . وقد صاحبت هي وأخوها أجرييا الثاني (الذي كان يقود جيشاً يهودياً صغيراً) أثناء حملته التي انتهت بسقوط القدس وتطهير الهيكل . وحين عد تيتوس إلى روما ، انضمت إليه هناك عام ٧٥م ، واستمر في علاقتهم ، بل وكان يشار إليها باعتبارها «زوجة تيتوس» . ويبدو أنه كان على وشك الزواج منها بالفعل . ولكن الأستقراطية الرومانية عارضت ذلك . وحينما عادت بيرنيكي إلى روما مرة أخرى عام ٧٩م ، بعد أن أصبح تيتوس إمبراطوراً ، وبعد أن بلغت هي خمسين ، توجهت عشيقته السابق ، فعادت أدراجها ، في فلسطين حيث لم يسمع عنها شيء بعد ذلك التاريخ .

ووجود بيرنيكي اليهودية (وجيش أخيه) إلى جوار تيتوس أثناء حملته على القدس لهدم الهيكل لم يُغيّر شيئاً في خطته العسكرية التي كانت ترميها الاعتبار لإستراتيجية الكبرى للإمبراطورية الرومانية . ربما لو كان تيتوس قد عدل عن تحطيم الهيكل في آخر لحظة (لاعتبارات خاصة بمصالح الإمبراطورية الرومانية) لانتفض على هذه الواقعة أصحاب النمذج الاختزالية وتحذروا عن نفوذ المرأة اليهودية . وكيف أن اليهود يستخدمون الجنس في تنفيذ مخططاتهم . بل ولأضافوا أن بيرنيكي ، صاحبة الاسم اليوناني والسلوك النوثي والرؤية الشعمة ، ظلت مع هذا يهودية تخدم المصالح اليهودية . وهو ما يدل (حسب رأيهم) على أن وظيفة اليهود تثبت عبر الزمان والمكان . ولا تتحدث المراجع انصهيونية عن عقيدة بيرنيكي اليهودية في اصطیاد الرجال بخاصة من فئة الملوك وقواد الجيوش .

وتم تكن بيرنيكي امرأة اليهودية الوحيدة التي لعبت دوراً في دهاليز النخبة الحاكمة . فقد تزوجت أختها دروسيللا من ملك يدعى عزيز في إميسيا (حمص) . ويبدو أن إيزاط ملك حدياب في بابل (٣٦ - ٦٠م) تهوّد بسبب علاقه بامرأة يهودية .

كولومبيا . وقد فجرت الانتفاضة قضية التعارض بين مصالح الجماعات اليهودية ومصالح إسرائيل ، إذ أن منظر الجنود الإسرائيليين (مثلي الدولة اليهودية) وهم يكسرون أذرع الشباب الفلسطيني ، لم يُحسن الصورة الإعلامية لليهود العالم ، ولم يخدم مصالحهم ، مع أنه يخدم مصلحة الدولة التي يُقال إنها «يهودية» !

ونحن نرى أن أعضاء الجماعات اليهودية لهم مصالح مختلفة باختلاف الزمان والمكان ، ولتفسير سلوكهم لابد من العودة إلى سياقهم الحضاري والتاريخي والإنساني العريض ، لأن النمذج التفسيري الذي يركّز على المصالح اليهودية والمرجعية اليهودية سيعجز عن تفسير كثير من جوانب هذا السلوك .

وفي مجموعة المداخل التي تلي هذا المدخل سنتناول سير بعض مشاهير اليهود ممن شغلوا مواقع مهمة تجعلهم في موضع التأثير في صنع القرار (ابتداءً من بيرنيكي عشيقة الإمبراطور تيتوس وانتهاءً بكيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة) . وسنحاول أن نُبين أن سلوكهم السياسي وغير السياسي (في معظم الأحيان) لم تكن تحكمه المصالح اليهودية وإنما مجموعة من العناصر الأخرى المرتبطة عادةً بمصالح الدولة التي ينتمي لها عضو الجماعة اليهودية .

بيرنيكي (٣٢م - ٩)

Berenice

«بيرنيكي» اسم يوناني معناه «حاملة النصر» ، وتُطلق «بيرنيس» في اللغات الأوروبية الحديثة . وهي حفييدة أخت هيرود الأعظم «ملك اليهود» وابنة أجرييا الأول . ولدت عام ٣٣ ميلادية ، وكانت مشهورة بجمالها وتعدد أزواجها وعشاقها . تزوجت وهي بعد في الثالثة عشرة من ماركوس ، ابن ألكسندر ليسماخوس كبير موظفي (البارخ) الإسكندرية . وبعد موته ، تزوجت عمها شقيق أبيها هيرود حاكم كالخيس . وبعد موت هذا الأخير ، عاشت مع أخيها أجرييا الثاني . وقد انتشرت الشائعات بين الرومان أنها كانت على علاقة أئمة بأخيها هذا . ويُلاحظ أن الجماع بالمحارم في فترة انحلال الإمبراطورية الرومانية لم يكن أمراً غريباً بين أعضاء الأستقراطية التي كانت تنتمي إليها بيرنيكي وأخوها . وربما لإسكات الشائعات ، ونظراً لغيرتها من أختها دروسيللا التي تزوجت من ملك ، أقنعت بيرنيكي بوليمون الثاني ملك كليكية بأن يتهود ويتخّن ويتزوجها فتزوجها في عام ٦٩م . ولكن بيرنيكي لم تكن على مستوى عال من الأخلاق أو الوفاء الزوجي الأمر الذي أثار اشمئزاز بوليمون منها ومن عقيدتها فطلقها . وعادت بيرنيكي لتعيش مع أخيها ، ووقفت

ديفيد باسيفيكو (١٧٨٤-١٨٥٤)

David Pacifico

تاجر ودبلوماسي بريطاني يهودي وكُد في جبل طارق وأخذته أعماله التجارية إلى البرتغال حيث استقر عام ١٨١٢ . ورغم أنه ظل من رعايا بريطانيا ، إلا أنه نشط في السياسة المحلية البرتغالية وعُيِّن قنصلاً عاماً للبرتغال لدى المغرب في الفترة بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٧ ثم لدى اليونان في الفترة بين عامي ١٨٣٧ و ١٨٤٢ ، ولكنه أقبل من منصبه نتيجة خلافات مع الحكومة البرتغالية . كل هذا يدل على أن المارانو ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وحتى بعد ذلك التاريخ ، كانوا لا يزالون يظلمون بدورهم كممثلين للبلد الذي طردهم والذي يتمون إليه لغوياً وحضارياً .

وقد ظل باسيفيكو في اليونان أعوام ١٨٤٣ - ١٨٤٧ مشغلاً بالتجارة ، ولكنه دخل عام ١٨٤٧ في مواجهة خطيرة مع الحكومة اليونانية أسفرت عن مجيء الأسطول البريطاني إلى شواطئ اليونان وهو ما أثار ضجة كبيرة في أنحاء أوروبا وداخل بريطانيا . ففي هذا العام منعت الحكومة اليونانية الجماهير المسيحية من إجراء الطقوس التقليدية لعيد الفصح ، وهو إحراق تمثال خشبي يرمز إلى يهوذا ، وذلك احتراماً لوجود أحد أفراد عائلة روتشيلد المالية اليهودية في أثينا لإجراء مفاوضات مع الحكومة اليونانية بشأن قرض . وقد استثار ذلك غضب الجماهير التي تظاهرت وهاجمت منزل باسيفيكو ودمرته وأحرقت أوقافه . وقد طالب باسيفيكو الحكومة اليونانية بتعويض قدره أكثر من ٨٠٠ ألف دراهمة وأيده في ذلك ممثل إنجلترا لدى اليونان باعتبار أن باسيفيكو من رعايا بريطانيا . وقد رفضت الحكومة اليونانية طلبه بل قامت بمصادرة أملاكه . وإزاء ذلك ، أمر بالمرستون ، وزير الخارجية البريطاني آنذاك ، الأسطول البريطاني بفرض حصار على ميناء بيربوس اليوناني Piraeus كما استولى البريطانيون على ٢٠٠ سفينة يونانية . واستمر هذا الحصار من يناير ١٨٥٠ حتى أبريل من العام نفسه عندما رضخت الحكومة اليونانية ودفعت لباسيفيكو تعويضاً قدره ١٥٠ ألف دراهمة .

وقد أثارت هذه الحادثة ، التي تضمنت تحريك الأسطول البريطاني لمعاينة حكومة مسيحية لصالح يهودي ، ضجة كبيرة في أنحاء أوروبا وداخل بريطانيا ، فأعربت كل من روسيا وفرنسا وبروسيا عن غضبها البالغ وتشكلت في إنجلترا جبهة معارضة لالمرستون حاولت إقصاءه من منصبه . وكان من بين أفراد هذه الجبهة السياسي البريطاني دزرائيلي (اليهودي الأصل) . وقد دافع بالمرستون عن نفسه قائلاً : « إن أي إنسان من رعايا بريطانيا يجب أن يتأكد أينما

وُجد أن ذراع إنجلترا الطويلة ستحميه من أية إساءة أو ظلم . وهذا الموقف يجب أن يسري على جميع الرعايا وضمن ذلك من يعتقد اليهودية منهم » . ورغم حديثه الليبرالي المعسول كانت لالمرستون دوافع أخرى جعلته يُحرِّك الأسطول البريطاني ضد اليونان ، فقد كان يسعى لتأديب وإذلال الأسرة المالكة البافارية التي كان أفرادها يحكمون اليونان ، على حين مثلت قضية باسيفيكو ذريعة مواتية لتبرير هذا الإجراء . والواقع أن يهودية باسيفيكو أو عدم يهوديته لم تمثل أي اعتبار حقيقي في هذه الحادثة التي خضعت أولاً وأخيراً ، سواء بالنسبة إلى الحادثة نفسها أو بالنسبة إلى الاعتراضات التي أثارت بشأنها ، لاعتبارات سياسية دولية أو لاعتبارات السياسة الداخلية البريطانية وصراعاتها . وقد تحرك الأسطول البريطاني دفاعاً عن باسيفيكو ، لا بسبب قوة اللوبي اليهودي (فلم يكن هناك مثل هذا اللوبي) وإنما دفاعاً عن المصالح البريطانية .

بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤-١٨٨١)

Benjamin Disraeli

سياسي ورجل دولة بريطاني شهير . لعب ، بوصفه رئيساً لوزراء بريطانيا ، دوراً مهماً في رسم سياستها الخارجية والاستعمارية وترسيخ مصالحها في الشرق الأوسط ، وهو الدور الذي تحدّد على أساسه فيما بعد مصير مصر وفلسطين ، وقد حظيت مهارته بمكانة بارزة في تاريخ السياسة البريطانية الاستعمارية . ومما له دلالات أن هذا الإمبريالي القح الذي وسّع نطاق الإمبريالية الإنجليزية في الخارج ، قام في الوقت نفسه بتوسيع نطاق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية في الداخل .

وُلد دزرائيلي لعائلة بريطانية يهودية ذات أصول إيطالية سفاردية (مارانية) . وكان اليهود السفارد في أوروبا مختلفين عن الإشكناز ، فرغم أن كليهما كان جزءاً من جماعة وظيفية ، إلا أن السفارد كانوا يشكلون جزءاً من أرستقراطية مالية متقدمة مندمجة إلى حد ما في المجتمع ، على عكس الإشكناز الذين كانوا جماعة وظيفية تظلم بالوظائف الاقتصادية الوضيعة (الربا والتجارة الصغيرة) وتقف على هامش المجتمع . لكن اندماج السفارد أضعف هويتهم تماماً . ورغم أن اندماجهم في المجتمع لم يكن كاملاً (فالمجتمعات الغربية كانت لا تزال تدور في إطار مسيحي) ، إلا أن عملية الاندماج ، التي أدّت في نهاية الأمر إلى الانصهار في حالة السفارد ، كانت قد قطعت أشواطاً كبيرة . ويظهر ضعف الهوية في حادثة خروج والد دزرائيلي على اليهودية . فقد اختلف مع مجلس

كما حصل للجماعات اليهودية في دول البلقان على بعض الحقوق والامتيازات . وقد اعتبر دزرائيلي هذا المؤتمر تنويجاً لحبائه السياسية . وقيل إنه قدّم ، في هذا المؤتمر ، مذكرة غير موقعة حول المسألة اليهودية تدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين . وتبيّن ، فيما بعد ، أن من قدمها شخص آخر .

لم تكن مسألة توطين اليهود في فلسطين غائبة عن ذهن دزرائيلي كما لم تكن غائبة عن أذهان الساسة البريطانيين المعاصرين له ، وقد كانت أهمية فلسطين لبريطانيا تزداد مع تزايد مصالحها الإمبريالية وأطماعها في ثروات الشرق ، وفلسطين كانت تشكل حلقة وصل برية بين الشرق والغرب ، وبين آسيا وأفريقيا . وقد زاد ذلك من الأطماع البريطانية فيها . ومن ثم التوجه الصهيوني للسياسة البريطانية الخارجية ، حتى قبل ظهور الحركة الصهيونية بين أعضاء الجماعة اليهودية .

كتب دزرائيلي عدة روايات ومؤلفات ليست لها أهمية أدبية كبيرة ، ولا يتعرض معظمها للموضوع اليهودي مثل رواية سبيل أو الأمتان (١٨٤٥) التي تصف انبعاث السحرة التي تتصل بين الفقراء والأغنياء في عصره وتبيّن أوضاع العمل غير الإنسانية في المصانع في ذلك الوقت . ومن بين رواياته التي تعرض للموضوع اليهودي قصة داود الرائي الملعنة (١٨٣٣) وهي عن ذلك الماشيح الدجال ، ورواية كونيغسجي أو الجبل الجديد (١٨٤٤) ويشرح فيها دزرائيلي أفكاره السياسية ويصف وضع اليهود (بشكل هامشي) . أما رواية تانكريد أو الحرب الصليبية الجديدة (١٨٤٧) فهي تدور حول حياة أرستقراطي بريطاني يسافر إلى القدس ليبحث عن شفاء لروحه من المادية الغربية . وفي السيرة التي كتبها دزرائيلي عن لورد جورج بستيك (١٨٥٢) شرح نظريته الخاصة بتفوق العنصر السامي وروحانية اليهود التي تبدّلت كلها في الكنيسة المسيحية ! ولدزرائيلي روايات أخرى مثل إنديميون .

ويمكننا الآن أن نتناول قضية هوية دزرائيلي اليهودية . ومن المعروف أن بعض معاصريه وجهوا له بعض الانتقادات حول سياسته الخاصة بمصير الدولة العثمانية إذ اتهموه بأنه يحدد هذه السياسة (وسياسة بريطانيا الخارجية بشكل عام) في ضوء موقفها من الجماعات اليهودية . وقد ساعد دزرائيلي نفسه على ترسيخ صورته اليهودية ، فقد كان يتباهى بأصله اليهودي العرقي ، كما أن دفاعه عن قضية إعتاق اليهود أمام البرلمان البريطاني كان ينبع من اعتقاده بأن اليهود يمثلون جنساً أكثر سموً بين سائر الأجناس الأخرى في كثير من الصفات . ومن جهة أخرى تتخلل كتابات دزرائيلي فكرة

الماهادام ، الذي كان يتولى قيادة الجماعة اليهودية السفاردية في لندن ، حول مقدار الضرائب المقررة عليه ، فاستقال منه واعتنق المسيحية . وكان بنيامين في الثالثة عشرة من عمره ، فعُمد ونُسّي نشئة مسيحية .

وقد دخل دزرائيلي مجال السياسة وانتُخب عضواً في البرلمان عن حزب المحافظين عام ١٨٣٧ ، كما تزعم حركة إنجلترا الشابة ، وهي حركة رومانسية تستند إلى الإيمان بضرورة بناء قاعدة شعبية لحزب المحافظين الأرستقراطي واستقطاب الطبقات العاملة من خلال الإصلاحات الاجتماعية والسياسية . ومن الجدير بالذكر أن وضع دزرائيلي الاجتماعي والاقتصادي تدعّم بعد زواجه من أرملة مسيحية ثرية تكبره بنحو اثني عشر عاماً وأصبح من ملاك الأراضي الأثرياء .

وفي عام ١٨٥٢ ، أصبح دزرائيلي رئيساً لمجلس العموم . وفي عام ١٨٦٨ ، أصبح رئيساً للوزراء ، وهو منصب تقلده مرة أخرى في الفترة ما بين عامي ١٨٧٤ و ١٨٨٠ . وقد صدرت قرارات تشريعية عديدة في عهده ذات طابع ليبرالي مثل تنظيف الأحياء الشعبية والاعتناء بمؤسسات الصحة العامة وتحسين أحوال العمل في المصانع . وقد حقق دزرائيلي أهم إنجازاته في مجال السياسة الخارجية ، فقد كان وراء الصفقة التي اشترت بريطانيا بمقتضاها نصيب مصر من أسهم قناة السويس في عام ١٨٧٥ ، وذلك بمساعدة مالية من عائلة روتشيلد (اليهودية) . وتُعتبر هذه الصفقة من أهم خدماته للإمبراطورية البريطانية حيث حققت لها السيطرة الاستراتيجية على أهم الممرات المؤدية إلى الشرق . كما أعطت هذه الصفقة أهمية خاصة لمصر بالنسبة لبريطانيا والتي احتلتها في آخر الأمر . وقد أعقب كل هذا موافقة البرلمان الإنجليزي على منح الملكة لقب «إمبراطورة الهند» . كما مُنح دزرائيلي لقب «إيرل أوف بيكونزفيلد» تقديراً لخدماته .

وقد تبنّى دزرائيلي سياسة تهدف إلى الحفاظ على الدولة العثمانية وإلى تأييدها في صراعها مع روسيا . وجاءت سياسته هذه في الواقع تعبيراً عن صراع القوي الأوروبية الكبرى في تلك الفترة ، ومن بينها بريطانيا وروسيا ، للحصول على أكبر نصيب ممكن من تركة الإمبراطورية العثمانية . وبالتالي ، جاء دعم بريطانيا لتركيا بهدف صد التوسع الروسي باتجاه الجنوب والذي كان يشكل تهديداً للممرات الحيوية المؤدية إلى الهند . وقد نجح دزرائيلي في مؤتمر برلين (عام ١٨٧٨) في عدم المساس بوضع الدولة العثمانية ، كما حصل لبريطانيا على قبرص التي كانت تُعتبر البوابة لآسيا الصغرى .

المعجيين بنابليون . اشتغل عام ١٨١٧ بالمحاماة واكتسب سمعة طيبة في هذا المجال بفضل مهارته القانونية ، وكان من أشد المؤيدين لقضايا الليبرالية حيث ترفع في عديد من المحاكمات السياسية أثناء فترة عودة الملكية . وبعد قيام ثورة عام ١٨٣٠ ، انتقل إلى باريس حيث تعاون مع العناصر الليبرالية في نشاطها المعادي لحكم الملك لويس فيليب وطالب بحرية الصحافة . وفي الفترة بين عامي ١٨٤٢ و ١٨٤٦ انتُخب نائباً في البرلمان الفرنسي حيث كان من قادة المعارضة . واشترك كرمييه في ثورة ١٨٤٨ ، وتولى منصب وزير العدل في الحكومة الجديدة لعدة أشهر حيث عمل على إدخال عدة إصلاحات من أهمها إلغاء نظام الرق في المستعمرات الفرنسية وإلغاء عقوبة الإعدام في القضايا السياسية . ودخل البرلمان مرة أخرى خلال الجمهورية الثانية وظل نائباً حتى عام ١٨٥٢ ، ثم ابتعد عن الحياة السياسية في فرنسا منذ ذلك العام نظراً لخلافه مع إدارة لويس نابليون ، وبقي كذلك حتى عام ١٨٦٩ حينما دخل البرلمان مرة أخرى . وقد تولى كرمييه منصب وزير العدل مرة أخرى عام ١٨٧٠ في الحكومة الانتقالية التي حلت محل حكم لويس نابليون بعد هزيمته العسكرية في العام نفسه . كما انتُخب كرمييه عام ١٨٧١ نائباً ممثلاً للجزائر ، ثم انتُخب عام ١٨٧٥ عضواً لمجلس الشيوخ مدى الحياة .

وظل كرمييه مهتماً بالقضايا الخاصة بالجماعات اليهودية سواء في فرنسا أو خارجها ، فعمل منذ عام ١٨٢٧ على إلغاء القسّم اليهودي في فرنسا (الذي ألغي بالفعل عام ١٨٤٦) ، وتعاون مع موسى مونتيفوري عام ١٨٤٠ بشأن حادثة دمشق ، واشترك عام ١٨٦٦ في الدفاع عن بعض اليهود المتهمين في قضية قتل في روسيا ، كما اهتم بالقضايا الخاصة بحقوق يهود رومانيا ، وعمل من خلال مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ على دعم قضية اعتناق يهود دول البلقان . وقد اختير كرمييه عام ١٨٦٣ رئيساً للأليانس إسرائيلية يونيفرسل ، وعمل بها حتى عام ١٨٦٦ ، ثم مرة أخرى من عام ١٨٦٨ وحتى وفاته . كما أصدر كرمييه عام ١٨٧٠ ، عندما كان وزيراً للعدل ، قانون كرمييه الذي منح الجنسية الفرنسية لأعضاء الجماعة اليهودية في الجزائر .

ورغم اهتمام كرمييه بالقضايا اليهودية ، إلا أن هذا الاهتمام كان مرتبطاً في المقام الأول بمصالح الدولة الفرنسية . والواقع أن منحه الجنسية الفرنسية لليهود الجزائري ، والذي اعتُبر من نجاحاته الكبرى في مجال القضايا اليهودية ، كان إجراءً يهدف إلى تحويل يهود الجزائر إلى جماعة وظيفية استيطانية تزيد الكثافة السكانية

صهيونية مبهمة تدور حول «الارتباط الأزلي لليهود بأرض فلسطين» . وقد اتهمه الروائي الروسي دوستوفسكي بأنه يُدبر مؤامرة يهودية لهزيمة روسيا ونصرة الدولة العثمانية . ومع هذا ، يمكن أن نشير إلى ما يلي :

١ - كان دزرائيلي مبتعداً تماماً عن العقيدة اليهودية وشعائرها ورموزها ، كما هو الحال مع بقية أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا ، خصوصاً السفارد منهم . وقد خرج أبوه على الجماعة لسبب واحد - كما تقدم - وعمد ابنه . ويُلاحظ أن دزرائيلي يُعرف اليهود تعريفاً عرقياً لا دينياً لا علاقة له بالدين اليهودي .

٢ - وكان دزرائيلي يرى اليهود شعباً عضوياً متماسكاً ، له شخصيته المستقلة وتفوقه (التجاري في العادة) وارتباطه الأزلي بفلسطين ، وهذا الخطاب الصهيوني لم يكن خاصاً بدزرائيلي وإنما كان جزءاً لا يتجزأ من الخطاب الغربي بشأن اليهود .

٣ - ولم تكن سياسة دزرائيلي تجاه الدولة العثمانية سوى تعبير عن المصالح الإمبريالية ودفاع ذكي عنها . وبالتالي ، فإن هوية من قام بتنفيذ هذه السياسة ليس أمراً مهماً على الإطلاق .

لكل هذا ، ورغم اتهام أعدائه له بتحيزه اليهودي (بل واتهامه بأنه «يهودي متخفي») ورغم إدعاءاته هو عن نفسه ، إلا أن سلوك دزرائيلي لا يمكن تفسيره على أساس يهوديته وإنما على أساس انتمائه للتشكيل الاستعماري الغربي . ولعل أدق وصف لدزرائيلي هو وصفه لنفسه بأنه يشبه الصفحة البيضاء التي تفصل العهد القديم عن العهد الجديد ، أي أنه فقد هويته اليهودية ولم يكتسب الهوية المسيحية رغم تنصّره . وهو في هذا لا يختلف عن كثير من يهود المارانو (السفارد) الذين فقدوا هويتهم الدينية وتحولوا إلى عنصر أساسي نافع في التشكيل الرأسمالي الغربي والتشكيل الاستعماري الغربي (بشقيّ العسكري والاستيطاني) .

وما له دلالة أن الموسوعة البريطانية (ماكروبيديا) أفردت مدخلاً كاملاً طويلاً لتناول حياة دزرائيلي الخاصة والعامة ، ولم يُشر إلا بشكل عابر في بداية المدخل لأصوله اليهودية ، ثم أهملتها تماماً بعد ذلك ، لأنها ليست ذات قيمة تفسيرية تُذكر .

إسحق كرمييه (١٧٩٦-١٨٨٠)

Isaac Cremieux

رجل دولة فرنسي . تلقى تعليماً فرنسياً علمانياً في مدارس اليسيس الإمبراطورية حيث كان من أوائل الطلبة اليهود الدارسين بها . ثم درس القانون بعد ذلك ، وأصبح خلال فترة دراسته من أشد

وقد تزوج يولي عام ١٨٤٦ من ابنة حاكم سابق لولاية كنتاكي ، وبعد زواجه مباشرة أضاف اسم يولي إلى اسمه الذي كان حتى ذلك الحين ديفيد ليفي فقط . ويرغم أنه لم يعتنق المسيحية بشكل رسمي ، إلا أنه كان يذهب إلى الكنيسة كما قام بتنشئة أبنائه على العقيدة المسيحية .

ولا يمكن اخذ حديث عن ديفيد يولي في إطار المصالح اليهودية الخاصة . فسيته السياسية لا تختلف عن سيرة كثيرين غيره من رجال السياسة الأمريكيين الذين راهنوا على الجانب الخاطئ في الحرب الأهلية الأمريكية .

جوليس فوجل (١٨٣٥-١٨٩٩)

Julius Vogel

رئيس وزراء نيوزيلندا . وُلد في إنجلترا لأسرة يهودية ، واشتغل في تجارة جلد الثوري ، ثم انتقل إلى أستراليا عام ١٨٥٢ بعد اكتشاف الذهب هناك . ولكنه لم ينجح في مجال التنقيب عن الذهب وانتهت اهتماماته بعد ذلك نحو السياسة والصحافة ، فهاجر عام ١٨٦١ إلى نيوزيلندا حيث قام بتحرير أول جريدة يومية في المستعمرة . وفي عام ١٨٦٣ انتُخب عضواً في مجلس مقاطعة أوتاغو ، كما انتُخب في العام نفسه عضواً في مجلس النواب ليصبح أول عضو يهودي به . وقد عارض خلال عضويته في المجلس تعليم الذين في المدارس . كما ظُهرت كفاءته في الشؤون المالية ، الأمر الذي أدّى إلى تعيينه وزيراً لمالية المستعمرة عام ١٨٦٩ . وقد اكتسب مكانة واحتراماً كبيراً بفضل مفاوضاته الناجحة مع الحكومة البريطانية للحصول على القروض اللازمة لفتح البلاد للاستيطان وتحويل مشاريع بناء الطرق والسكك الحديدية . وفي عام ١٨٧٣ أصبح رئيساً للوزراء حتى عام ١٨٧٥ . وفي الفترة ما بين عامي ١٨٧٦ و ١٨٨١ أصبح وكيلاً عاماً لنيوزيلندا في إنجلترا ، ثم عاد إلى نيوزيلندا عام ١٨٨٤ ليتولى وزارة المالية مرة أخرى ، ولكن سياسته تعرضت لانتقادات حادة الأمر الذي دفعه إلى الاستقالة عام ١٨٨٧ . وكان قد سبق أن تعرض للهجوم عام ١٨٨٠ (أثناء وجوده في إنجلترا) بسبب تورّطه في فضيحة خاصة بشركة نيوزيلندا الزراعية التي كانت تقوم ببيع الأراضي للرعايا في الهجرة . وفي عام ١٨٨٨ انتقل فوجل إلى إنجلترا حيث استقر بصفة دائمة حتى وفاته .

ويُعدُّ فوجل من أبرز رجال السياسة والدولة في نيوزيلندا ، حيث نجح في تطويرها اقتصادياً وفي توسيع رقعة الاستيطان بها ،

الفرنسية ، ومن ثم تخدم مصالح الاستعمار الفرنسي في الجزائر . كما أن نشاط الأليانس الإسرائيلية ، التي تولى رئاستها ، كان يهدف أيضاً إلى صلب أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي بصفة عامة ، ودول المغرب العربي بصفة خاصة ، بالثقافة الفرنسية وتحويلهم إلى جماعات وظيفية وسيطة تعمل في مؤسسات الاحتلال الفرنسي وتدين له بالولاء وتخدم مصالحه في المنطقة . ومن الجدير بالذكر أن كرمييه اضطر عام ١٨٤٥ إلى التخلي عن منصبه كرئيس للمجلس الكنسي المركزي اليهودي في باريس بعد أن تبين أنه سمح لزوجته بتنصير أبنائهما . وكان كرمييه نشطاً في الحركة الماسونية في فرنسا وكان من أبرز قياداتها .

ديفيد يولسي (١٨١٠-١٨٨٦)

David Yulee

سياسي أمريكي وأول عضو يهودي في مجلس الشيوخ الأمريكي . وكُلد في جزيرة سانت توماس ببحر الكاريبي . وفي عام ١٨١٨ ، انتقل إلى الولايات المتحدة مع والده الذي كان من أوائل من استوطنوا ولاية فلوريدا الأمريكية . وقد أدار يولي إحدى مزارع والده ثم درس القانون وأصبح محامياً عام ١٨٣٢ ، ثم انخرط في السياسة وانتُخب عام ١٨٣٧ عضواً بالهيئة التشريعية الإقليمية . وفي عام ١٨٣٨ اشترك يولي في المؤتمر الذي وضع دستور فلوريدا . وشارك بحماس في الحملة المطالبة بانضمام فلوريدا إلى اتحاد الولايات الأمريكية . وبعد انضمامها عام ١٨٤٥ ، انتُخب يولي ليكون أول عضو في مجلس الشيوخ الأمريكي عن ولاية فلوريدا ، كما أصبح أول عضو يهودي به ، وظل عضواً بالمجلس حتى عام ١٨٥١ وأعيد انتخابه مرة أخرى عام ١٨٥٥ وحتى عام ١٨٦١ . وقد أيد يولي نظام العبودية في الولايات المتحدة بشدة ورفض إلغاءه ، كما رفض إلغاء عقوبة الجلد في البحرية الأمريكية ، وكان من أشد من دافعوا عن حق البيض في الاستيطان (وخصوصاً خلال حروب السيمينول ، وهي الحروب التي دارت بشكل متقطع بين عامي ١٨١٧ و ١٨٥٨ والتي شنها الجيش الأمريكي ضد قبائل السيمينول من الهنود الحمر لإرغامهم على التخلي عن أراضيهم وإفساح المجال أمام استيطان الرجل الأبيض) . وقد أيد يولي انفصال فلوريدا عن الاتحاد عام ١٨٦١ ، واشترك في كونجرس اتحاد ولايات الجنوب أثناء الحرب الأهلية الأمريكية . وبعد هزيمة الجنوب ، سُجن لمدة عام خرج بعدها ليعتزل السياسة ويتفرغ لأعمال إعادة بناء خطوط السكك الحديدية في فلوريدا ، وهي عملية حقق من خلالها مكاسب كثيرة .

الفتاة وأحد قادة الحركة الماسونية . وُلد في سالونيك ، وحاضر في جامعتها ، وانضم في عهد السلطان عبد الحميد إلى حركة تركية الفتاة حيث كان واحداً من أبرز أعضائها ، وبعد استيلاء الحركة على السلطة عام ١٩٠٨ انتُخب نائباً في البرلمان التركي كما ترأس اللجنة الرباعية التي تولت مهمة إبلاغ السلطان عبد الحميد بقرار خلعه . وفي عام ١٩١٢ كان عضواً في اللجنة البرلمانية التي تولت إجراء مفاوضات السلام مع إيطاليا . وخلال الحرب العالمية الأولى ، لعب قاراصو دوراً سياسياً مهماً في استنبول ، ومُنح مقابل خدماته حق تصدير السلع التركية إلى ألمانيا ، الأمر الذي مكَّنه من جمع ثروة ضخمة . ومع وصول كمال أتاتورك إلى الحكم عام ١٩٢٣ ، فقد قاراصو مكانته ، ويُقال إنه لعب دوراً مهماً في مساعدة الاحتلال الإيطالي نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا واضطر نتيجة خيانتها للدولة التركية إلى أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية حيث عاش في فقر وعزلة حتى وفاته .

ويمكن ملاحظة ما يلي :

- ١ - أن قاراصو لم يكن يهودياً حاخامياً ، وإنما كان من يهود الدوغه وهم جماعة خارجة على اليهودية ، ولا يعتبرها الحاخاميون يهوداً ، كما أن معظم أعضاء الجماعة اليهودية الذين لعبوا دوراً نشطاً في حركة كمال أتاتورك كانوا من يهود الدوغه .
- ٢ - أن قاراصو فقد حظوته لدى كمال أتاتورك ، ثم مات فقيراً ، وهذا ما يُهمَل ذكره في كثير من الدراسات ، حتى يبدو أعضاء الجماعات اليهودية كما لو كانوا المحركين لكل شيء والمستوليين عن سقوط الخلافة العثمانية ، مع أن أسباب سقوطها كانت أسباباً تاريخية مركبة . وبما لا شك فيه أن ثورة الأقليات والجماعات العرقية والدينية والإثنية على الدولة العثمانية كانت ضمن مركب الأسباب الذي أدَّى إلى سقوطها . ولكن الجماعة اليهودية لم تكن سوى أقلية واحدة ضمن أقليات أخرى أكثر عدداً وفعالية . كما أن موقف أعضاء الجماعات اليهودية من الدولة العثمانية لم يكن موحداً ، وإنما انقسموا بين مؤيد ومعارض ، تماماً مثل بقية أعضاء المجتمع العثماني وطبقاته .

هربرت صمويل (١٨٧٠-١٩٦٣)

Herbert Samuel

سياسي بريطاني يهودي ، وأول مندوب سام بريطاني في فلسطين . وُلد لعائلة يهودية أرثوذكسية تعمل بتجارة الذهب والأعمال المالية (كان أبوه شريكاً في شركة صمويل ومونتاجو) .

وقد مُنح فوجل لقب «سير» عام ١٨٧٥ . وهو نموذج جيد لليهودي الغربي الذي يفقد ما يُميِّزه كيهودي أو يُهمِّسه ليصبح جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الحضاري الاستعماري الغربي ، خصوصاً الأنجلو ساكسوني .

إيزاك (إيزاكس) (١٨٥٥-١٩٤٨)

Isaac Isaacs

رجل دولة أسترالي يهودي ، عمل حاكماً عاماً لأستراليا . وُلد في ملبورن لأبوين من أصل بولندي هاجرا إلى أستراليا بعد اكتشاف الذهب بها . ودرس القانون في جامعة ملبورن وتخرَّج ليشتغل بالمحاماة واكتسب سمعة طيبة بفضل كفاءته القانونية . وفي عام ١٨٩٢ انخرط في العمل السياسي حيث انتُخب عضواً في البرلمان وظل عضواً به حتى عام ١٩٠١ . وفي عام ١٨٩٤ عُيِّن نائباً عاماً . وقد اشترك إيزاكس في المداولات التي مهدت لتشكيل الحكومة الفيدرالية في أستراليا ، وكان عضواً في اللجنة التي وضعت الدستور . كما انتُخب عام ١٩٠١ عضواً في أول برلمان فيدرالي وساهم في تنظيم النظام القضائي الفيدرالي . وفي عام ١٩٠٦ عُيِّن قاضياً في المحكمة الفيدرالية العليا حيث خدم حتى عام ١٩٣٠ حينما عُيِّن في منصب كبير القضاة في أستراليا . وفي عام ١٩٣١ عُيِّن إيزاكس حاكماً عاماً لأستراليا ليصبح أول شخص أسترالي المولد يتولى هذا المنصب الذي احتفظ به حتى عام ١٩٣٦ . وحصل إيزاكس على لقب «سير» عام ١٩٢٨ .

وقد عارض إيزاكس الصهيونية بشدة واعتبر اليهودية عقيدة دينية رافضاً أي مضمون قومي أو سياسي لها ، ونشر عام ١٩٤٣ سلسلة من المقالات في جريدة يهودية أدان فيها الصهيونية السياسية وأكد أن اليهود مواطنون عاديون يتجه ولاؤهم إلى أستراليا أو إلى غيرها من الدول التي يتتبعون إليها واعتبر كل من يخالف هذا الرأي خائناً . وقد أيد إيزاكس سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين واعتبر الاعتراضات التي أثبتت عام ١٩٤١ حول سياسة الكتاب الأبيض البريطانية في فلسطين عملاً يتنافى مع الانتماء لأستراليا . والبُعد اليهودي في تفكير إيزاكس وسلوكه كان قد تقلص تماماً واختفى ، إذ أن ما كان يحركه هو انتماءه لكل من إنجلترا والتشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ساكسوني في أستراليا .

عمانوئيل قاراصو (١٨٦٢-١٩٣٤)

Emmanuel Carasso

محام وسياسي تركي من يهود الدوغه ، من أعضاء حركة تركيا

وحين تولى لويد جورج رئاسة الوزارة (التي كانت تضم بلفور) ، قرر تبني هذا المشروع الذي سُمي «وعد بلفور» . وبسبب اهتماماته الاستعمارية ، عُيِّن صمويل أول مندوب سام بريطاني في فلسطين عام ١٩٢٠ (أي بعد وضعها تحت الانتداب) . وفي أغسطس من العام نفسه ، استصدر قانون الهجرة الذي سمح لـ ١٦,٥٠٠ يهودي بدخول فلسطين . ولكن ، بسبب رد الفعل العربي الرافض ، عدلت بريطانيا عن سياستها قليلاً وبدأت تتحرك في إطار مفهوم القوة الاستيعابية للبلد . ولكن ، ومع هذا ، زاد عدد السكان اليهود في الفترة ١٩١٨ - ١٩٢٥ من ١٠٥ آلاف إلى ١١٨ ألفاً . وقد ساعد صمويل النشاط الاستيطاني الصهيوني على مستويات أخرى عديدة من بينها الاعتراف بالمؤسسات السياسية الصهيونية في فلسطين والاعتراف باللغة العبرية كإحدى اللغات المحلية في فلسطين . وقد زاد عدد المستوطنات الصهيونية في عهده من ٤٤ إلى ١٠٠ مستوطنة .

وقد استمر اهتمامه بالمستوطن الصهيوني بعد تركه منصبه ، فكان رئيساً لشركة فلسطين للكهرباء ، ورئيساً للجامعة العبرية . وقد هاجم صمويل الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ ، كما هاجم سياسة يمين المعادية للصهيونية .

وكان هريوت صمويل زعيماً للحزب الليبرالي في مجلس اللوردات بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٥٥ ، وله مؤلفات عديدة في الفلسفة الليبرالية .

وصمويل نموذج جيد للصهيوني اليهودي غير اليهودي الذي لا تختلف رؤيته لليهود عن رؤية أي منتهم للحضارة الغربية ، فهو لا يهتم بالإثنية اليهودية ولا بانصالح اليهودية ولا بالتاريخ اليهودي ولا بالعقيدة اليهودية : إنه يهودي مندمج تماماً يود الحفاظ على وضعه . ولكنه ، شأنه شأن أي سياسي غربي ، كان ينظر إلى اليهود من الخارج ويراهم كمادة بشرية نافعة يمكن أن تُوظَّف لاصناع الحضارة الغربية .

ويبدو أن قطاعات من أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين وخارجها صنف صمويل باعتباره أول حاكم يهودي لفلسطين منذ سقوط الهيكل . وهذا التصنيف لا يأخذ في اعتبار التكوين الثقافي أو السياسي لدى صمويل ولا الإطار الذي تم فيه تقليده منصبه . فقد كان صمويل ، في واقع الأمر ، مندوب الإمبراطورية البريطانية لدى اليهود ، وليس مندوب اليهود لدى الإمبراطورية البريطانية .

وقد تلقى تعليمه في جامعة أكسفورد ، وانضم إلى الحزب الليبرالي ورشح نفسه للانتخابات ونجح (عام ١٩٠٢) . وتدرج صمويل في عدد من الوظائف إلى أن أصبح وزيراً في الوزارة البريطانية ، وكان بذلك أول إنجليزي يهودي يشغل مثل هذا المنصب .

بدأ صمويل اهتمامه بالأمور اليهودية حين عينته الحكومة البريطانية في بعثة خاصة لتقصي أحوال يهود البديشية الذين كانوا يتوافدون على إنجلترا بأعداد متزايدة . كما دخل في نقاش على صفحات الجرائد مع السفير الروسي في إنجلترا بشأن تهمة الدم التي وُجِّهت لليهودي الروسي منديل بليس . وقد اهتم صمويل بالشئون الاجتماعية وكان مسئولاً عن إصدار قانون تعويض العمال ، كما كان مسئولاً عن إصدار ميثاق للأطفال .

كان صمويل ، باعتباره يهودياً مندمجاً ، يرى أن الحل الصهيوني حل غير عملي وضد مصالح اليهود ، ولذا كان مشهوراً بعدائه للصهيونية . ولكن ، مع ظهور تلك البوادر التي دلت على أن الدولة العثمانية ستَهْزَم ، اكتشف صمويل ، شأنه شأن جميع الصهاينة اليهود غير اليهود ، إمكانية حل المسألة اليهودية عن طريق توطين اليهود في إطار الدولة الوظيفية التابعة للغرب ، وهو تغيّر في موقف صمويل لم يتوقعه أو يلحظه وايزمان . ولذا ، حين اقترح لويد جورج على وايزمان (بعد عودته من سويسرا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى) أن يجتمع بصمويل ، رفض وايزمان ذلك ظناً منه أن صمويل لا يزال معادياً للصهيونية ، ولكنه اضطر إلى أن يقبل على مضض ليفاجأ بأن صمويل يؤيد المشروع الصهيوني . بل والأدهى من ذلك أنه حينما تقدّم إليه وايزمان بالمطالب الصهيونية ، أخبره صمويل بأنها مطالب متواضعة للغاية وأن عليه أن يفكر بشكل أكبر ، ودُهِل الزعيم الصهيوني (من شرق أوروبا) وقال إنه لو كان مؤمناً بالعقيدة اليهودية لظن أن تحول صمويل هو إحدى علامات مقدّم الماشيخ .

وقد كتب صمويل مذكرة (عام ١٩١٥) مررها على أعضاء الوزارة البريطانية تنطلق من افتراض أن تركيا ستَهْزَم ، واقترح فيها إنشاء محمية إنجليزية في فلسطين بعد الحرب وتشجيع الاستيطان اليهودي فيها ، وإعطاء الأولوية للهجرة اليهودية ولبناء مؤسسات استيطانية تساعد في نهاية الأمر على توطين جماعة يهودية يبلغ عددها ثلاثة ملايين تصبح مكفية ذاتياً إلى أن تشكل دولة ذات سيادة تكون مركزاً لحضارة جديدة وتظهر في الوقت ذاته بعين الاعتبار للمصالح البريطانية في المنطقة . وقد جذبت المذكرة اهتمام لويد جورج ، لكن رئيس الوزراء إسكويث لم يكن متحمساً بقدر كاف .

ليون بلوم (١٨٧٢-١٩٥٠)

Leon Blum

الفرنسية ومن مؤسسي الدولة الاشتراكية خلال الفترة بين الحربين العالميتين .

وقد كان بلوم من مؤسسي اللجنة الاشتراكية من أجل فلسطين عام ١٩٢٨ ، وقبل دعوة وايزمان للانضمام إلى الوكالة اليهودية كممثل لليهود فرنسا ، ولعب بلوم دوراً مهماً في التأثير على تصويت الحكومة الفرنسية في الأمم المتحدة والمؤيد لقرار تقسيم فلسطين . ولا يمكن تفسير سلوك بلوم في إطار المصالح اليهودية الخالصة أو النفوذ اليهودي ، فباستثناء بعض التفاصيل اليهودية الهامشية في حياته ، نجد أن حياته السياسية وتوجهاته الفكرية لا تختلف عن حياة وتوجهات أي سياسي اشتراكي فرنسي آخر .

بيير منديس فرانس (١٩٠٧-١٩٨٢)

Pierre Mendes-France

رجل دولة فرنسي وُلد في باريس لعائلة يهودية من المارانو ، وتلقى تعليماً فرنسياً علمانياً . فدرس القانون في جامعة السوربون حيث كتب رسالته الجامعية عام ١٩٢٨ ، ووجّه فيها انتقادات حادة للسياسات المالية للحكومة آنذاك ، وطالب باقتصاد أكثر عدلاً وبدور أكبر للدولة . وحظيت الدراسة باهتمام واسع بين رجال القانون والاقتصاد والسياسة في فرنسا كما نالت إعجاب الأحزاب اليسارية الفرنسية ، وأصبح منديس فرانس من المستشارين الماليين للحزب الراديكالي . واتسم فكره بالعقلانية الشديدة وبابتعاده عن أية تصورات مثالية ، كما تأثر بالفكر الاقتصادي لكينز . وقد انتُخب منديس فرانس عام ١٩٣٢ ليكون أصغر نائب في البرلمان الفرنسي ، وأعيد انتخابه مرة أخرى في عام ١٩٣٦ . وعمل فرانس في حكومة الجبهة الوطنية تحت رئاسة ليون بلوم عام ١٩٣٨ نائباً لوزير الخزانة حيث عمل على تطبيق سياساته الاقتصادية .

وبعد سقوط فرنسا في أيدي الألمان عام ١٩٤٠ ، رحل منديس فرانس إلى المغرب حيث حاول تنظيم المعارضة ضد حكومة فيشي ، ولكن تم إلقاء القبض عليه وترحيله إلى فرنسا حيث نجح في الفرار عام ١٩٤١ إلى إنجلترا ، وانضم إلى حركة الفرنسيين الأحرار تحت قيادة ديغول الذي عينه فيما بعد في منصب المندوب المالي للجائز . وقد تولى منديس فرانس منصب وزير الشؤون الاقتصادية في الحكومة المؤقتة بين عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ، إلا أنه استقال بسبب الخلافات حول السياسات الاقتصادية . وعُيّن عام ١٩٤٦ في منصب المدير الفرنسي للبنك الدولي للإنشاء والتعمير . وفي عام ١٩٥٤ ، نجح منديس فرانس في الوصول إلى رئاسة الوزراء وعمل

رجل دولة وكاتب فرنسي ، كان أول يهودي اشتراكي فرنسي يتولى رئاسة وزراء فرنسا . وُلد لعائلة يهودية تجارية ثرية في باريس ، ودرس القانون في جامعة السوربون ونجح في تحقيق مكانة مرموقة كرجل قانون حيث عُيّن في مجلس الدولة عام ١٨٩٥ ووصل إلى أعلى المناصب فيه . كما كان يُعدُّ ، وهو مازال في الثانية والعشرين من عمره ، من الكتاب والأدباء الفرنسيين اللامعين في تلك الفترة . وقد كتب عدة مؤلفات من بينها كتابه **فسي الزواج** (١٩٠٧) الذي أثار ضجة واسعة بسبب آرائه الجريئة حول الزواج وحقوق المرأة .

وقد تأثر بلوم بقضية دريفوس واشترك عام ١٨٩٦ في الحملة من أجل إطلاق سراحه . وكانت هذه القضية من العوامل التي دفعته إلى العمل السياسي حيث انضم عام ١٨٩٨ إلى الحزب الاشتراكي وساهم في جريدته **لومانيته** ككاتب وناقد أدبي . وقد أصبح بلوم بعد الحرب العالمية الأولى من الزعماء البارزين للحزب ، وانتُخب في البرلمان الفرنسي عام ١٩١٩ . وعمل بلوم على إعادة بناء الحزب بعد انشقاق العناصر الشيوعية عنه في عام ١٩٢٠ ، ويُعتَبَر بذلك أحد المؤسسين الرئيسيين للحزب الاشتراكي الفرنسي الحديث . وقد أعيد انتخابه في البرلمان عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٩ . ونجح عام ١٩٣٦ في أن يصبح رئيساً لوزراء فرنسا بعد أن نجحت جبهة واسعة من الأحزاب اليسارية في الانتخابات . وقد أدخلت حكومته بعض الإصلاحات الاجتماعية الواسعة واتخذت إجراءات تأميمية في قطاعي المال والتجارة . وقد أتهم بلوم من جانب قوى اليسار الفرنسي بمهادنة دول المحور بسبب تبني سياسة عدم التدخل في الحرب الأهلية الإسبانية ، كما واجه معارضة شديدة من رجال الصناعة بسبب إصلاحاته الاجتماعية والعمالية . وقد اضطر بلوم عام ١٩٣٧ إلى الاستقالة من منصبه وعمل نائباً لرئيس الوزراء في حكومة الجبهة الشعبية ثم رئيساً للوزراء مرة أخرى عام ١٩٣٨ .

وقد أُلقي القبض عليه بعد سقوط فرنسا في أيدي الألمان عام ١٩٤٠ . وظل في معسكر اعتقال ألماني حتى عام ١٩٤٥ . ولكنه عاد إلى فرنسا في العام نفسه ، وشكّل عام ١٩٤٦ حكومة انتقالية اشتراكية ظلت في الحكم شهراً واحداً فقط . وابتعد بلوم بعد ذلك عن الحياة العامة فيما عدا فترة قصيرة (عام ١٩٤٨) عمل خلالها نائباً لرئيس الوزراء . ويُعتَبَر بلوم من أبرز الشخصيات في الحركة العمالية

النمسا في ظل حكمه قدراً كبيراً من الرخاء الاقتصادي ، كما لعب دوراً متميزاً في السياسة الدولية ، خصوصاً في علاقة الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

كتب كرايسكي كتابه **النمسا بين الشرق والغرب** (١٩٦٨) ، الذي اتهم فيه إسرائيل باحتكار تعاطف الأحزاب الاشتراكية وتأييدها بسبب عقدة الذنب تجاه اليهود بعد الإبادة النازية ، وبين أن الوقت قد حان لتخلص هذه الأحزاب من هذا الاحتكار الإسرائيلي وهذا الإحساس بالذنب . كما حث كرايسكي أوروبا على ضرورة القيام باتصالات مع العالم العربي لتحقيق حل سلمي للشرق الأوسط . ورفض كرايسكي مفهوم الأمة اليهودية الواحدة ، فاليهودية بالنسبة له عقيدة وليست انتماء عرقياً .

وقد لعب كرايسكي أيضاً دوراً بارزاً في قضايا الشرق الأوسط يتسم بقدر من التوازن ، وهو ما جعله هدفاً لانتقادات حادة من جانب إسرائيل . ففي عام ١٩٧٣ قبل كرايسكي مطالب مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين الذين استولوا على قطار تمساوي يحمل عدداً من اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل وطالبوا بوقف الهجرة اليهودية المازة عبر فيينا إلى إسرائيل . وقد أثار ذلك غضب إسرائيل ووصفت جولدا مائير كرايسكي بأنه يهودي كاره لنفسه . وفي عام ١٩٨٠ ، كان كرايسكي أول زعيم غربي يلتقي بياسر عرفات ويمنح منظمة التحرير الفلسطينية اعترافاً دبلوماسياً على أرض الواقع (دي فاكتمو) . كما عمل على تخفيف موقف الدولة الاشتراكية (المتحيز) لإسرائيل وعلى تبنيها موقفاً أكثر حياداً . وفي الوقت نفسه ، حث منظمة التحرير الفلسطينية على الاعتراف بوجود إسرائيل نظير اعتراف إسرائيل بحق الفلسطينيين في دولة مستقلة ، أي أن الحل الذي اقترحه هو الاعتراف المتبادل بين الدولتين على أساس قرار ٢٤٢ . كما ساهم كرايسكي عدة مرات في بعض المفاوضات التي جرت من وراء الكواليس للإفراج عن الرهائن والأسرى الإسرائيليين لدى بعض المجموعات الفدائية الفلسطينية . وقد استقال كرايسكي من منصب المستشارية ثم من رئاسة الحزب الاشتراكي عام ١٩٨٣ بعد أن فشل حزبه في الحصول على أغلبية مطلقة في الانتخابات .

هنري كيسنجر (١٩٢٣-)

Henry Kissinger

عالم سياسة أمريكي ، وأول أمريكي يهودي يتولى منصب وزير الخارجية الأمريكية ، وكذلك أول أمريكي غير أمريكي المولد

من خلال هذا المنصب على إنهاء الوجود الفرنسي في الهند الصينية بعد هزيمة قوات الاستعمار الفرنسي أمام قوى التحرر الوطني في المنطقة . ثم قدّم استقالته عام ١٩٥٥ إثر فشل سياسته الخاصة بمنح الاستقلال للمغرب وتونس . وعاد مندريس فرانس مرة أخرى وزيراً بلا وزارة في حكومة الجبهة الجمهورية عام ١٩٥٦ ، إلا أنه استقال بعد عدة أشهر بسبب خلافه مع رئيس الوزراء حول السياسة الفرنسية بشأن الجزائر إذ كان يرى ضرورة الاستمرار في ضم الجزائر إلى فرنسا .

وقد ظل مندريس فرانس شخصية مهمة في السياسة الفرنسية ، كما كان من المؤيدين للصهيونية وإسرائيل . وقد أيد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، ولكن موقفه هذا كان ينبع في المقام الأول من كونه سياسياً فرنسياً حرصاً على حماية المصالح الفرنسية والغربية في فترة اتسمت بالتحسار الاستعماري ونمو قوى التحرر الوطني في بلاد آسيا وأفريقيا والعالم العربي . وقد كان مندريس فرانس من المؤيدين لفتح الحوار بين العرب وإسرائيل في الفترة ١٩٦٨ - ١٩٧٣ .

برونو كرايسكي (١٩١١-١٩٩٠)

Bruno Kreisky

رجل دولة تمساوي وأول يهودي يتولى منصب مستشار النمسا . وُلد في فيينا وكان والده تاجر منسوجات ثرياً . انضم كرايسكي في سن مبكرة إلى الحزب الاشتراكي . وعندما منع الحزب من مزاوله نشاطه عام ١٩٣٤ ، اشترك كرايسكي في نشاطه السري وتم إلقاء القبض عليه عام ١٩٣٥ وحُكم عليه بالسجن ستة عشر شهراً . وفي عام ١٩٣٨ ، تخرج في جامعة فيينا . وبعد أن قامت ألمانيا النازية بضم النمسا إليها ، طُرد كرايسكي واستقر في السويد حيث عمل كمراسل أجنبي . ومع نهاية الحرب ، التحق بالسلك الدبلوماسي النمساوي واشتغل في سفارة بلاده في السويد . وفي عام ١٩٥١ ، عاد إلى النمسا حيث عُيّن مساعداً للرئيس النمساوي الاشتراكي ، ثم أصبح عام ١٩٥٣ وكيل وزارة الخارجية ولعب دوراً أساسياً في المفاوضات التي جرت مع الاتحاد السوفيتي والتي أبرمت بمقتضاها معاهدة النمسا عام ١٩٥٥ والتي أعطت النمسا استقلالها مقابل تعهدها بالحياد الدائم . ومنذ عام ١٩٥٩ ، وحتى عام ١٩٦٦ ، أصبح كرايسكي وزيراً للخارجية . وفي عام ١٩٦٧ ، اختير رئيساً للحزب الاشتراكي وزعيماً للمعارضة ، فقاد حزبه للحكم عام ١٩٧٠ وتولى منصب مستشار النمسا . وقد حققت

للمشئون العالمية لشركة إن . بي . سي . NBC وفي مؤسسة جولدمان ساخس للمال والسمرة لتقديم المشورة حول تأثير التطورات السياسية الدولية على الشؤون الاقتصادية والمالية للشركة وعملاتها .

وفي عام ١٩٨٣ اختاره الرئيس الأمريكي ريجان لرئاسة اللجنة الخاصة بشئون أمريكا اللاتينية المنوط بها مهمة تقييم السياسة الخارجية الأمريكية في هذه المنطقة .

ويتمحور فكر كيسنجر الإستراتيجي حول مفهوم النظام الدولي الشرعي والمستقر . فالاستقرار يصنع السلام (وليس العكس) وهو لا يتحقق إلا بوجود شرعية دولية تقبلها الأطراف الأساسية في النظام الدولي . والشرعية والاستقرار لا يتحققان إلا من خلال أداتين لا انفصال بينهما هما الدبلوماسية والقوة المسلحة . وهذا النظام لا ينفي الصراع تماماً بل يخفضه إلى نوع من التنافس والتوتر المحكوم بإطار مقبول من الترتيبات والقواعد حول السلوك والأهداف والوسائل المسموح بها . والمعضلة الأساسية بالنسبة لكيسنجر هي كيفية الحفاظ على النظام الشرعي المستقر في ظل عصر الأسلحة النووية وفي مواجهة النظم الثورية التي ترفض الإطار القائم وتشكل مصدراً للصراعات التي تعيق (في نظره) التطور ، ومن هنا كان اقتراحه القاتل بَبَيَّي إستراتيجية تعتمد على التزاوج بين الدبلوماسية والمفاوضات من جهة ، والحرب المحدودة من جهة أخرى .

وقد كانت القضية الأساسية التي شغلت كيسنجر وحددت مواقفه من القضايا الدولية كافة هي قضية العلاقة بين القوتين الأعظم والتوازن الدقيق بينهما . فأية مشكلة تمس هذا الميزان ، وتهدد المصالح الأمريكية والغربية ، كانت تثير اهتمامه وتحركه السريع ، مثل مشكلة الأمن الأوروبي وحرب فيتنام وأزمة الشرق الأوسط بخاصة بعد حرب ١٩٧٣ ، في حين نجد أن اهتمامه يتراجع بمشاكل أخرى لا تمس هذا التوازن مثل غزو تركيا لقبرص عسكرياً عام ١٩٧٤ وتحديدها لليونان ، رغم أن كلتا الدولتين عضو في حلف ناتو ، وكذلك إهماله التام لأفريقيا وعدم اهتمامه بقضاياها إلا بعد دخول الاتحاد السوفيتي طرفاً في حرب تحرير أنجولا ، فعندئذ جاء تحركه السريع لغلق الباب الأفريقي أمام السوفييت . وإلى جانب تحدي الكتلة الشرقية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي كان كيسنجر يرى أن حركات التحرر الوطني والنظم الثورية الوطنية في العالم الثالث تشكل تحدياً آخر للولايات المتحدة والمعسكر الغربي ؛ فهي تنزع نحو فرض نظام عالمي جديد يتسم بقدر أكبر من المساواة ،

يتولى هذا المنصب . وُلِدَ في مقاطعة بافاريا في ألمانيا ، وقضى صباه في ظل الحكم النازي حيث طُرد مع أخيه من المدارس الحكومية ، كما طُرد والده من وظيفته كمعلم . وفي عام ١٩٣٨ ، رحل كيسنجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة حيث استقروا في نيويورك . وجُنِدَ في الجيش الأمريكي عام ١٩٤٣ ثم عمل في المخابرات حتى عام ١٩٤٦ ، وخدم في ألمانيا كمترجم ومدرس في المدرسة الأوروبية لقيادة المخابرات .

وبعد الحرب ، درس في هارفارد ثم انضم إلى هيئة التدريس وتدرَّج في السلم الأكاديمي حتى حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٦٢ . واكتسب كيسنجر مكانة مهمة كمفكر مختص في شئون الدفاع والأمن القومي وكتب عدة كتب مهمة في هذا المجال . وعمل كيسنجر مستشاراً لعدة رؤساء أمريكيين (أيزنهاور ، وكينيدي ، وجونسون) . وفي عام ١٩٦٨ ، عمل بصفة دائمة في شئون الرئاسة الأمريكية . وحين عمل مستشاراً للرئيس نيكسون للأمن القومي ، اتسمت علاقتهما بقدر كبير من التفاهم وأتاح نيكسون لكيسنجر مساحة كبيرة من حرية العمل . وقد اكتسب كيسنجر سمعة عالمية من خلال تمحيده للزيارتين التاريخيتين التي قام بهما الرئيس الأمريكي نيكسون إلى الصين والاتحاد السوفيتي عام ١٩٧٢ ، وتدشينه سياسة الوفاق الدولي مع الاتحاد السوفيتي وتوصله لمعاهدة الحد من الأسلحة الإستراتيجية الأولى (سولت) عام ١٩٧٢ .

ومع انتهاء حرب فيتنام ، وجَّه كيسنجر اهتمامه نحو الشرق الأوسط حيث كانت الإدارة الأمريكية تسعى إلى الحد من النفوذ السوفيتي في المنطقة وتقليصه في نهاية الأمر من خلال خلق وجود أمريكي متزايد في العالم العربي وضمان استمرار تدفق النفط العربي إلى الغرب . وبالفعل ، لعب كيسنجر دوراً بارزاً في ترتيب وقف إطلاق النار في أثناء حرب ١٩٧٣ ، ثم في عقد مفاوضات بين الجانبين العربي والإسرائيلي ، وأخيراً في إعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر ، الأمر الذي مهد بالفعل لتزايد الوجود الأمريكي بالمنطقة وتزايد دور أمريكا في قضية الشرق الأوسط وما انتهى إليه من معاهدة صلح بين مصر وإسرائيل .

وقد مُنح كيسنجر عام ١٩٧٣ جائزة نوبل للسلام ، كما عُيِّنَ في العام نفسه وزيراً للخارجية الأمريكية . ومع مجيئ الرئيس كارتر إلى الحكم ، انتهى عمله بهذا المنصب . وقد تولى كيسنجر بعد ذلك ، مواقع مرموقة في المؤسسات الأكاديمية والمالية والتجارية الأمريكية ، فعمل أستاذاً في جامعة جورج تاون ، وعُيِّنَ نائباً لرئيس اللجنة الاستشارية الدولية لبنك تشيز مانهاتن ، كما عمل مستشاراً

قطاعات اقتصادية بعينها ، فكان يبدو كما لو كان اليهود عنصرًا مستقلاً .

ويذهب البعض إلى أن هذا المال اليهودي هو سر قوة اليهود ، فهم يوظفونه في شراء النفوذ وفي ممارسة السلطة وفي تخريب الضمائر وإفساد العباد . وهذه أيضاً تهمة لها جذورها ، فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يشترون الموائيق والحماية والمزايا من الملك أو الأمير ، كما أنهم تركزوا في كثير من القطاعات المشينة في المجتمعات الحديثة (البغاء - المجلات الإباحية) .

وكما هو واضح ، فإن ثمة أساساً موضوعياً أو مادياً لكل التهم ، ومع ذلك يظل الواقع أكثر تركيياً من التهم الاختزالية البسيطة ومن الواقع المادي المباشر . فالمال اليهودي في المجتمع الإقطاعي كان بالفعل في قبضة أعضاء الجماعات اليهودية ، ولكنهم هم أنفسهم كانوا في قبضة الأمير الإقطاعي ، وكانت الموائيق الممنوحة لهم تتحدث عن تبعيتهم للأمير تبعية المملوك لنعمانك . وكانت بعض الموائيق تشير إلى هذا بشكل مجازي ، بينما كان البعض الآخر يشير إليه بشكل حرفي .

والمال اليهودي في العصر الحديث لا يختلف كثيراً عن المال اليهودي في العصور الوسطى في انخرب . فرأس المال اليهودي يتحرك حسب حركة رأس المال المحلي الذي يتحرك بدوره حسب حركة رأس المال العالمي . ونعله بعد عمليات التدويل المختلفة التي خاضها العالم ، وظهر النظام العالمي الجديد والشركات متعددة الجنسيات ، زادت تبعية المال اليهودي وتناقصت مقدرة الرأسمالي من أعضاء الجماعات اليهودية على التحكم في رأس ماله .

وكل هذا لا ينفي ما يلي :

١ - أن هناك رقعة من الحرية للرأسمال اليهودي يتحرك فيها ، خصوصاً إذا تماثلت الظروف .

٢ - أن كثيراً من القرارات السيادية التي اتخذها غير اليهود كانت تصدر عن الإيمان بوجود هذا المال اليهودي ، ومن ثم أخذه صانع القرار في الحسبان وهو يتخذ قراره ، أي أن المال اليهودي (في هذه الحالة) عنصر مؤثر تأثيراً لا يتناسب بتاتا مع قوته الفعلية .

النفوذ اليهودي والصهيوني

Jewish and Zionist Influence

انظر : «اللوبى اليهودي والصهيوني (أو جماعات الضغط الصهيونية)» - «الصوت اليهودي» .

وترى القوة الأمريكية المالية نوعاً من الاستعمار الجديد ومن ثم كان اقتربها أكثر من الاتحاد السوفيتي وتأثير ذلك على العلاقات والتوازن بين القوتين الأعظم . وهو يرى إمكانية احتواء هذه النظم الثورية " بالغواية والتخويف وكذلك ضربها بالحروب المحدودة حتى يغير اشتراك الولايات المتحدة . وعلى الولايات المتحدة أن تتأكد أنه يوجد لها في كل منطقة من العالم الثالث سوط مستعد في كل لحظة لأن يهوي على أي ظهر يحاول أن يرفع رأسه بعد حد معين " .

ومحاولة اكتشاف البعد اليهودي في تفكير كيسنجر أمر لا طائل من ورائه ، فطريقة تفكيره وأولوياته وإدراكه لمصالح العالم الغربي وإدارته للآزمات الدولية (سواء في الشرق الأوسط أو غيرها من المناطق) هي جزء لا يتجزأ من التفكير الإستراتيجي العام في الغرب بمطلقاته الصراعية الداروينية والتي تعود إلى عصر النهضة ، وفلسفة الدولة . وهو تفكير يسعى إلى حماية أمن الغرب والدفاع عن مصالحه من خلال استخدام كل أشكال القوة (من ضغط سياسي إلى نشاط استخباري إلى انقلابات عسكرية مدبرة إلى استخدام القوة العسكرية بشكل مباشر) . وفي داخل هذا الإطار يرى كيسنجر أن الولايات المتحدة هي زعيمة العالم الغربي ويرى أن لمصالحها أسبقية على مصالح الدول الأخرى وضمن ذلك الدول الغربية واليابان . ومن هنا اهتمامه بالبترول العربي فهو أداة ضغط أساسية على الدول " الخليفة " التي تعتمد على البترول المستورد . وما يُحدد موقف كيسنجر من إسرائيل ليس يهوديته أو رغبته في الدفاع عن المصالح اليهودية أو زيادة النفوذ اليهودي أو حماية الدولة اليهودية ، وإنما حرصه على أن تكون إسرائيل حليفاً إستراتيجياً للولايات المتحدة وسوطاً رادعاً في يدها . ومن ثم لا يمكن تفسير مواقف كيسنجر السياسية على أساس يهوديته ، كما يفعل بعض المحللين العرب .

المال اليهودي

Jewish Money

«المال اليهودي» عبارة تتواتر في الأدبيات المتداولة عن أعضاء الجماعات اليهودية ، وهي عبارة تفترض وجود ثروة (ضخمة) يمتلكها اليهود ويوظفونها بالطريقة التي تروق لهم . ولعل أساس العبارة هو دور اليهود كجماعة وظيفية تجارية تمتلك رأسمال توظفه في التجارة البدائية والربا ويدر عليها ربحاً (كان النبيل الإقطاعي يستولي على معظمه) . ونظراً لوجود هذا الرأسمال خارج العملية الإنتاجية الزراعية ، فقد بدا كما لو كان مستقلاً . أما في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، فقد تركز أعضاء الجماعات اليهودية في

العجز اليهودي (بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة)

Jewish Powerlessness

«العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة» عبارة ظهرت مؤخراً في الأدبيات الصهيونية وغيرها ، وهي عبارة تحاول أن تفسر المسألة اليهودية على أنها تتلخص في افتقار اليهود إلى السيادة القومية وعدم مشاركتهم في صنع القرار . وتعود هذه الحالة (حسب التصور الصهيوني) إلى عام ٧٠م عندما قام تيتوس بهدم الهيكل رمز السيادة القومية وأصبح اليهود جماعات مشتتة ليست لها سيادة قومية مستقلة ، يوجد أعضاؤها خارج نطاق مؤسسات صنع القرار بعيداً عن أية سلطة ، وبالتالي أصبوا غير متحكمين في مصيرهم . ويستند هذا النموذج التفسيري إلى عدة افتراضات اختزالية من بينها تصوّر أن العبرانيين القدامى والعبرانيين اليهود ، أي اليهود حتى عام ٧٠م ، كانوا يمارسون سيادة قومية كاملة . وهذا أمر مشكوك فيه . فلقد كان العبرانيون - حسب ما وصلنا من معلومات - أقتاناً أو عبيداً أو قبائل رحلاً . وبعد التسلسل العبراني في كنعان ، ظل العبرانيون جيواً متفرقة لا تمتلك كثيراً من السيادة القومية . والاستثناء الوحيد من هذه الصورة العامة هو حكم كل من داود وسليمان (المملكة العبرانية المتحدة) الذي لم يدم أكثر من أربعين عاماً بسبب الغياب المؤقت للقوى العظمى في الشرق الأدنى القديم . ثم ظهرت الدولتان العبرانيتان اللتان كانتا تبعان في سياستهما إما آشور وبابل أو مصر أو أرام دمشق . وقد دام حكم الحشمونيين فترة قصيرة لا تزيد على مائة عام ، بدأت بتوقيع معاهدة مع روما (القوة العظمى الصاعدة) وانتهت بتدخل بومبي في تعيين الملك الحشموني .

يفترض هذا النموذج التفسيري أيضاً وحدة المصير اليهودي ووحدة أعضاء الجماعات . وهذا أمر يتناقض تماماً مع الحقائق التاريخية ، فقد كان مصير كل جماعة يهودية يتحدد بآليات وحركات التشكيل الحضاري والسياسي الذي تواجدت داخله .

ويُنكر هذا النموذج التفسيري أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا في كثير من الفترات ، شأنهم شأن أعضاء الجماعات الدينية والإثنية الأخرى ، يشاركون في السلطة من خلال المؤسسات التقليدية للحكم . فالمجتمعات التقليدية كان لها نظامها الخاص في تقسيم السلطة بحيث تسيطر السلطة الحاكمة على الجيش والسياسة الدولية . أما الشؤون الأخرى ، وضمنها الأمن الداخلي ، فكان تسييرها يتم عن طريق مؤسسات الإدارة الذاتية .

ثم يفترض هذا النموذج التفسيري وجود إدارة وسيادة يهودية مستقلة . وهو افتراض خاطئ تماماً . ففي العصر الحديث ، يشارك

أعضاء الجماعات ، منفردين أو مجتمعين ، في السلطة وفي صنع القرار من خلال مؤسسات الدولة الحديثة (البرلمانات والأحزاب السياسية) . فعلى سبيل المثال ، يُعدّ تعيين هنري كيسنجر وزيراً للخارجية الأمريكية ، وهو من أهم المناصب السياسية في العصر الحديث ، تعبيراً عن هذا الشكل من أشكال المشاركة في السلطة . وبالمثل فإن اللوبي الصهيوني شكل آخر لهذه المشاركة ؛ حيث يشكل بعض أعضاء الجماعة اليهودية قوة ضغط داخل الكونجرس الأمريكي تقوم بممارسة الضغط لصالح الدولة الصهيونية . وهذه هي إحدى الآليات الأساسية للنظام السياسي الديموقراطي في الغرب .

وسيجد الدارس المدقق لهذا النموذج التفسيري أن المفكرين الصهاينة ، ومعظمهم من أصول إشكنازية شرق أوروبية ، حين يتحدثون عن العجز بسبب انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة ، إنما يفكرون في تجربة أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا ابتداءً من العصور الوسطى حتى بداية القرن الحالي . ولذا ، فإن المقولة تحمل شيئاً من الصحة إن تحدّد مجالها الدلالي على هذا النحو .

ومن المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى في الغرب ، كانوا تجاراً ومرابين وأقتان بلاط وأرندا ويهود بلاط ، وكلها أشكال مختلفة من أنماط الجماعة الوظيفية ، وكانوا كذلك قريبين دائماً من الحاكم ملتصقين به ، كما كانوا يشكلون أدوات الطبيعة في عملية الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير . ولكنهم ، مع هذا ، لم يشاركوا في صنع القرار ، فقد كانوا منبتي الصلة بالجماهير وتعوزهم القوة العسكرية ، وهذا ما جعلهم في حالة عجز واعتماد كامل على الحاكم الذي كانت ثقته بهم تزايد لأنهم لا يشكلون أية خطورة عليه بسبب عجزهم عن الاستيلاء على السلطة أو لعدم وجود أساس من القوة يؤهلهم للمطالبة بنصيب فيها .

وقد طرح الصهينة نفسها على أنها الحركة التي ستحل هذه الإشكالية وتضع نهاية لعجز اليهود وعدم مشاركتهم في السلطة عن طريق تأسيس دولة يهودية مستقلة ذات سيادة . وذلك على اعتبار أنه ، مهما تكن مشاركة أعضاء الجماعات في صنع القرار ، فإن هذا القرار يظل في النهاية غير يهودي ، ويظل اليهودي بالتالي مهدداً في أية لحظة بسحب البساط من تحت قدميه . وفي هذا المقام ، يُشار دائماً إلى ألمانيا النازية حيث كان كثير من يهود ألمانيا يشغلون ، حتى ظهور النازية (عام ١٩٣٣) ، مناصب حكومية وسياسية قيادية . وينسى الصهاينة أن النظام السياسي الألماني لم يحرم أعضاء

الموجود في واشنطن . ومن المتوقع أن يزداد هذا الاتجاه مع تزايد الرفض العربي للمستوطن الصهيوني .

وقد وجدت إشكالية العجز طريقها إلى التفكير الديني اليهودي ، فيذهب ريتشارد دوينشتاين إلى أن اليهودية الأخامية قد ولدت لدى اليهود استعداداً كاملاً للاستسلام والخنوع والخضوع والعجز . ولا يمكن تفسير تعاون المجالس اليهودية في أوروبا مع القوات النازية واشتراكها في تسليم اليهود إلى النازي إلا بالثرات الأخامية الذي يجعل من العجز والسلبية فضيلة . أما إرفنج جرينبرج ، فقد ساهم في تطوير ما يُسمى «لاهوت البقاء» الذي يجعل الحصول على السيادة هدف التاريخ اليهودي الزمني والمقدس ، ويجعل دستور إسرائيل كتب إسرائيل المقدس ، ويجعل دولة إسرائيل التجسد الحقيقي لهدف التاريخ اليهودي (تيلوس) .

وتجدر ملاحظة أن مصطلح «عجز اليهود» يُستخدم في الكتابات الدينية ، وخصوصاً الأرثوذكسية . للإشارة إلى أن اليهود شعب مختار ذو صلة خاصة بالله . وأن هذه العلاقة الخاصة تجعله يقف خارج التاريخ نيشهد على الأمم . ولذا فإنه لا بد أن يظل خارج نطاق السلطة والسيادة . والمصطلح ، في هذا السياق ، لا يحمل أية تضمينات قذحية ، بل العكس هو الصحيح إذ أن العجز هنا يصبح علامة من علامات الاختيار .

الجماعات اليهودية وحدهم من المشاركة في السلطة ، فقد حَرَم قطاعات كبيرة من الشعب الألماني والشعوب الأخرى التي سيطرت عليها القوات الألمانية من أية سلطة أو إرادة مستقلة .

والأهم من ذلك كله أن الاستعمار الصهيوني كان استعماراً عميلاً منذ بداية الاستيطان ، كما أن شرعيته لم تكن تستند إلى قوة اليهود أو إلى حركة جماهيرية وإنما استندت إلى وعد أصدرته القوة الإمبراطورية الصاعدة في الشرق وإلى الضمانات العسكرية التي قدّمتها ، أي أن النمط الذي ساد أوروبا حتى القرن التاسع عشر ، داخل التشكيل السياسي الغربي ، عاد وأكد نفسه بحيث أصبح المستوطنون الصهاينة عنصرأ قريباً من القوة الإمبريالية الحاكمة لصيقاً بها ، ولكن القرار الخاص بالسياسة الاستعمارية الدولية ظل من اختصاص الحاكم الإمبريالي ، أي أن الصهاينة أسسوا في نهاية الأمر دولة وظيفية ليست لها إرادة مستقلة ؛ بل وعاجزة عن البقاء والحركة بدون الدعم الإمبريالي .

لكن الدولة ، بعد إنشائها ، تمتعت بشيء من الاستقلال النسبي نتيجة تصارع القوى الإمبريالية فيما بينها على مناطق النفوذ في الشرق الأوسط . ومع صعود قوة الولايات المتحدة وتزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على الدعم الأمريكي ، تناقص الاستقلال اليهودي وتضاءل تحكم الإسرائيليين في مصيرهم ، وأصبحت المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية تتخذ قراراتها وعيونها على الممول



٣

إشكالية العبقرية والجريمة اليهودية

العبقرية اليهودية - العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية - يبرز اليهود وتُميِّزهم - الجريمة اليهودية - المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية - عتاة المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث - عباقرة ومجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية - بنيامين التطيلي - داهية الكاهنة - ابن نغريلة - لوبيز - أوبنهايمر - بريير - صنوع - هوديني - أينشتاين - لانسكي - تريبر - كوستلر - كرايزر - ماكسويل

العبقرية اليهودية

The Jewish Genius

كلمة «عبقرية» تعني مجموعة من السمات الخاصة لا تفترض بالضرورة تميُّزاً أو علواً مثلما نقول «عبقرية المكان» حيث لكل مكان عبقرية الخاصة ، أو «عبقرية اللغة الإنجليزية» حيث لكل لغة عبقرية الخاصة . وحينما نستخدم العبارة بهذا المعنى في الكتابات الصهيونية (أو غيرها) كأن يُقال «العبقرية اليهودية» ، فهي تشير عادةً إلى «الخصوصية اليهودية» (انظر : «الخصوصية اليهودية») . ولكن هذا الاستعمال نادر ، والاستعمال الشائع هو أن تشير كلمة «عبقرية» إلى درجة من درجات التميُّز إلى جانب الخصوصية . وعبارة «العبقرية اليهودية» تفترض وجود عبقرية يهودية مستقلة ، وأن العباقرة اليهود يتمتعون باستقلال عما حولهم ، وأن وجودهم مؤشر على تميُّز اليهود ككل ، ولذا نجد حديثاً مستفيضاً عن فضل العباقرة اليهود على الحضارة الإنسانية وعن زيادة عددهم بالنسبة للعباقرة من الشعوب والأقليات الأخرى .

لكن الحديث عن «العبقرية اليهودية» لا يختلف بنسباً ، في واقع الأمر ، عن حديث المعادين لليهود عن «الجريمة اليهودية» أو عن «عبقرية اليهود المتأصلة في ارتكاب الموبقات والسرقة والفساد» . فالحديث عن العبقرية اليهودية ، تماماً مثل الحديث عن الجريمة اليهودية ، يصدر عن تصوُّر أن اليهودي «يهودي» وحسب أو يهودي بالدرجة الأولى ثم أمريكي أو روسي بالدرجة الثانية أو الثالثة ، وأن ما يحدد سلوكه (عبقرية في الخير والشر) هو البُعد اليهودي في وجدانه ورويته . كما يتفق الصهاينة والمعادون لليهود على اختزال اليهودي وتجريده من أي سياق اجتماعي أو تاريخي أو إنساني وعلى وضعه على هامش التاريخ أو خارجه ، حيث ينفك ليساهم فيه بعبقرية فذة ، أو يحاول تخريبه بكل ما أوتي من قوة ودهاء وحيلة وعبقرية إجرامية .

ولو نظرنا إلى العباقرة اليهود ، بعد أن نضعهم في سياقهم التاريخي المتعين ، سنكتشف على الفور أن مقولة «العبقرية اليهودية» لا تملك مقدرة تفسيرية عالية . وسيظهر قصورها التفسيري حينما نسأل عن تلك السمات «اليهودية المشتركة» بين عباقرة مثل فيلون (الفيلسوف الذي عاش في العصر الهيليني) ، وشعراء العرب اليهود (في الجاهلية) ، وموسى بن ميمون (المفكر الديني اليهودي الذي عاش في العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر) ، وفرويد (المفكر النمساوي اليهودي الذي عاش في أواخر القرن التاسع عشر) ، وشاجال (الفنان التشكيلي الذي عاش معظم حياته في النصف الأول من القرن العشرين) ، وبرنارد مالامود (الروائي الأمريكي الذي عاش في النصف الثاني من القرن العشرين) . والإجابة الوحيدة هي أن مثل هذه السمات المشتركة غير موجودة . وإن اكتشف أحد عناصر يهودية مشتركة بين كل هؤلاء العباقرة ، فإن تصنيفهم على أنهم يهود بالدرجة الأولى لا يفيد كثيراً في فهم فكرهم أو طبيعة مساهمتهم في التراث الإنساني . فيهوديتهم المشتركة ليست ذات مقدرة تفسيرية أو تصنيفية عالية ، ولابد لنا أن نعود إلى التقاليد الحضارية والظروف التاريخية التي شكلت فكر ووجدان كل واحد منهم حتى يتسنى لنا الإحاطة بها . فموسى بن ميمون كاتب عربي أندلسي كان يؤمن باليهودية وتفاعل مع التراث العربي الإسلامي . ومن خلال هذا التفاعل فضحت عبقرية العربية ، ولم تكن اليهودية سوى أحد العناصر في تكوين هذه العبقرية (وحتى هذه اليهودية كانت قد اصطفت بصيغة إسلامية) . وقصص برنارد مالامود تنتمي إلى التراث الأدبي الأمريكي لأن كاتب هذه القصص تأثر بتقاليد هذا الأدب وأتقن اللغة الإنجليزية الأمريكية وكتب روايات أمريكية تعالج موضوعات أمريكية يهودية . وحين صرح شاجال ذات مرة لمجلة تائم بأنه غير مهتم باليهودية ، قامت الدنيا ولم تقعد ، وأرسل كثير من القراء برسائل احتجاج أوضحو فيها تأثر شاجال باليهودية

القديم ، ولا نسمع عن عباقرة يهود في فن الهندسة المعمارية (على سبيل المثال) . ولا يأتي ذكر اليهود في الكتابات اليونانية أو الرومانية إلا بوصفهم شحاذين ومصدر ضيق لكتاب مثل شيشرون . وإذا نظرنا إلى الحضارة العربية إبان فترة نهضتها ، فإننا نجد أن دور اليهود كان مقصوراً بالدرجة الأولى على الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية . وقد دفعهم اضطلاعهم بوظيفة الجماعة الوظيفية الوسيطة التي يعمل أعضاؤها بالتجارة الدولية في العالم القديم إلى معرفة العديد من اللغات . كما جعلهم ناقلين لحضارات الآخرين . ولم يكن يوجد شاعر كبير أو مفكر فلسفي عربي مشهور يعتنق اليهودية ، فكنت ترى بينهم الأطباء والصيادلة والتجار حيث ظلوا مرتبطين بالإنتاج اليومي المادي ، ولكن لم يوجد بينهم الفنان أو المفكر . وبعد أن انتقل مركز الحضارة إلى الغرب ، ظل الأمر على ما كان عليه . ففي شرق أوروبا ، التي كانت تقسم غالبية يهود العالم (يهود الديشية) ، ظلت الجماعات اليهودية غارقة حتى أذنيها في التأملات القبالية . وكانت الحياة العقلية في الجيتو منفصلة عن العالم الخارجي ، هذا في الوقت الذي كانت أوروبا تعيش عصر نهضتها . ولذا لا نجد في أدب وحضارة العصور الوسطى أو عصر النهضة مفكراً أو رساماً أو أديباً يهودياً واحداً شهيراً . بل إن المفكرين اليهود الذين ظهرت خلال هذه الفترات الطويلة ، مثل اخاخام عقيبا أو راشي أو موسى بن ميمون ، كانوا مهتمين بأمور دينية يهودية ذات أهمية إنسانية محدودة . كما نعرف أنهم كانوا بلا ثقل يُذكر داخل مجتمعاتهم ، فموسى بن ميمون لم يكن معروفاً باعتباره مفكراً دينياً ، وإنما باعتباره طبيباً ومؤلف كتب في الطب وحسب . وما من شك في أن اقتصر نشاط اليهود على نشاطات إنسانية معينة دون غيرها أمر طبيعي للغاية من أقلية تلعب دور الجماعة الوظيفية الوسيطة المنعزلة اقتصادياً ووجدانياً بسبب وظيفتها .

ونحن لا نسمع عن العباقرة اليهود إلا مع بدايات ظهور الرأسمالية والعلمانية . وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن إسبينوزا ، أول فيلسوف يهودي غربي في العصر الحديث ، ظهر في هولندا مهد الرأسمالية الحديثة . ومما له دلالة بالمثل ظهور إسبينوزا من بين اليهود السفارد المتمتعين بمستوى حضاري مرتفع بسبب احتكاكهم بالحضارة الإسلامية ، على عكس اليهود الإشكناز الذين تدنّو وضعهم الحضاري داخل الحضارة المسيحية . وقد كان إسبينوزا أيضاً من أوائل المفكرين العلمانيين الذين طرحوا انتماءهم اليهودي جانباً ، فلم يكن إبداعه وبروزه نتيجة انتماءه اليهودي ، وإنما هذا الإبداع وذلك البروز رغباً عن هذا الانتماء وبسبب رفضه (وذلك مع عدم

الحسدية . وقد يكون هذا أمراً صحيحاً ، ولكن شاحجال يظل نتاج الحركات الفنية في أوروبا في القرن العشرين ، وبخاصة في روسيا وفرنسا . وقد تكون لبعض لوحاته نكهة حسدية ، خصوصاً أنها تعالج موضوعات يهودية مثل التوراة والخابام ، ولكنها تظل مع هذا لوحات رسمها فنان روسي فرنسي متأثر وعميق بالتراث المسيحي !

وإذا ما تركنا مجال الفنون والإنسانيات ، يصبح الحديث عن العبقرية اليهودية عبثاً وهراء لا طائل من ورائه . فبأي معنى يمكننا أن نقول إن نظرية النسبية قد توصل إليها أينشتاين من خلال عبقريته اليهودية ، وكان أينشتاين كان من الممكن أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات باهرة دون جهود من سبقه من علماء مسيحيين وبوذيين ؟ وهل كان من الممكن أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات دون وجوده داخل الحضارة الغربية الحديثة ؟ وإلا فيماذا نفسر عدم ظهور علماء طبيعة متفوقين تفوق أينشتاين بين يهود الفلاشا الإثيوبيين ؟

ولاحظ أن نسبة المتعلمين والمخترعين بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي مرتفعة . ولكن هذا أمر طبيعي وينطبق على كل أعضاء الأقليات في أي مكان حينما تتاح أمامهم الفرصة . لكن أعضاء الأقلية يخضعون ، مع ذلك ، في معظم الأحيان إن لم يكن كلها ، لدرجة تقدّم وتخلّف المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه ، فإن تقدّم تقدّموا وإن تخلف صاروا متخلفين . ولذا لم يكن هناك عباقرة يهود بين العرب إبان فترات الانحلال في الحضارة العربية حين أغلقت فيها الحلقات الفقهية والمدارس التلمودية العليا في العراق بسبب انتكاس الحضارة العربية ، بينما ازدهر الفكر العربي اليهودي في الأندلس بسبب ازدهارها .

وحتى لو رصدنا العبقرية اليهودية بشكل مطلق ، كما يفعل الصهاينة ، فإننا سنكتشف أن العبرانيين وأعضاء الجماعات اليهودية ، لم يلعبوا دوراً كبيراً في خلق الحضارة الإنسانية . فحينما ظهر العبرانيون على مسرح التاريخ منذ عام ١٢٠٠ ق.م . رعاة رُحلاً ، كانت الإمبراطورية الفرعونية في مصر قد شيدت مئآت المعابد والأهرامات والسدود ، وكان الفن المعماري وعلوم الفلك المصريين قد وصلوا إلى قمم شامخة . وحينما تأسست المملكة العبرانية الموحدة على يدي داود وسليمان ، لم تكن هذه المملكة سوى مملكة صغيرة ازدهرت في غياب القوى الإمبراطورية العظمى في الشرق الأدنى القديم ، واعتمدت حضارياً على الدول والأقوام المجاورة اعتماداً كاملاً . أما في مجال الأدب والفن والفكر ، فلا توجد أية مساهمة حقيقية من جانب العبرانيين في تراث العالم

المؤلفين غير اليهود الذين يتناولون مضامين يهودية ، ذلك أن طريقة تناول - بكل مزاياها وعيوبها - تظل جزءاً من التشكيل الحضاري الغربي . إن سول بيلو وفيليب روث - وكلاهما كاتب أمريكي يهودي - يتناولان شخصيات أمريكية يهودية ، إلا أن أدبهما لا يمكن أن يُصنّف أدباً يهودياً ، وعبقريتهما لا تُصنّف كعبقرية يهودية إذ يظل هذا الأدب أدباً أمريكياً مكتوباً بالإنجليزية ، ينتمي إلى التراث الأدبي الأمريكي ولا يمكن فهمه خارج هذا التراث ، وتظل عبقريتهما نتاج تفاعلها مع محيطها الحضاري . وهما في هذا لا يختلفان عن جيمس جويس في رواية يوليسيس حينما جعل أحد أبطال روايته يهودياً ، ومع هذا لم يصنفها أحد باعتبارها من عيون الأدب اليهودي ، شأنها في هذا شأن رائعة شكسبير تاجر البندقية .

وفيما يتصل بالعبقرية التي تنتجها إسرائيل ، فإن الأمر يتوقف على جنسية العبقرية ، فإن كان هذا العبقرية إسرائيليّاً فهو تعبير عن العبقرية الإسرائيلية ، أما إذا كان من أصل روسي أو ألماني فهو عبقرية روسي أو ألماني ، أي أن العبقرية اليهودية تظل مقولة مجردة لا وجود لها إلا بين صفحات الكتب الصهيونية أو المعادية لليهود . وبدلاً من ذلك ، يتعيّن علينا أن نتحدث عن «عباقرة يؤمنون بالدين اليهودي» ، أو عن «عباقرة ذوي بعد إثني يهودي» ، ويتضمن إلى الحضارات الإنسانية المختلفة في مختلف الأماكن والأزمان .

ومن الأمور الجديرة بالدراسة نسبة العباقرة بين الإسرائيليين ومدى اختلافها عن مثيلتها بين الدول التي حققت معدلات التحديث والتصنيع والتقدم التكنولوجي والعلمي نفسها . وكل المؤشرات تدل على أنها غير مختلفة على الإطلاق ، وإن كان الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة .

بروز اليهود وتمييزهم

Jewish Eminence and Distinctiveness

جاء في المعاجم العربية «تميّز الشيء» بمعنى «بدا فضله وانفصل عن غيره» ، و«برز بروزاً» بمعنى «فاق الآخرين في فضل أو علم» ، و«برز الشيء» معناها «أظهره وبيّنه» . ومن الموضوعات الأساسية التي تتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود ، موضوع «بروز أعضاء الجماعات اليهودية وتميّزهم» في كثير من مجالات النشاط والمعرفة الإنسانية بنسبة تفوق بمراحل نسبتهم إلى عدد السكان في المجتمعات التي يعيشون في كنفها . ودارس تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية سيدج قرآن على كل من البروز الإيجابي والتميز

إنكار أن التراث اليهودي القبلي لعب دوراً مهماً في تحديد معالم فكره أو في تأكيد الواحدة المادية الكونية والاتساق الهندسي عنده والذين يشكلان جوهر نسقه الفلسفي) .

العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية

Geniuses from the Jewish Communities

ظل العباقرة من أعضاء الجماعات اليهودية يساهمون في بناء الحضارة الأوربية باعتبارهم أوروبيين علمانيين أولاً وأخيراً ، أي أن يهودية العبقرية لم تكن العنصر الأساسي في إسهامه . وقد زادت هذه المساهمة بازدياد انتشار القيم الليبرالية ثم الثورية في الغرب والشرق ، إذ أن هذه القيم فتحت المجال أمام أعضاء الجماعات اليهودية .

ونحن لا ننكر أثر البعد اليهودي في تكوين العبقرية اليهودي ، فآثر القبالة اللوربانية واضح تماماً على تفكير إسبينوزا وفرويد وجاك دريدا وفيلسوف التفكيكية . كما نرى أن للمدرسة التفكيكية (في النقد والفلسفة) علاقة قوية بمدارس التفسير الدينية اليهودية ، وأن اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تحوي داخلها عناصر كثيرة متناقضة (بعضها عبثي وبعضها عديم أو غوصي) تتيح للعبقرية اليهودي استعداداً كامناً (أكثر من غيره) لاكتشاف مثل هذه التيارات في المجتمع والتعبير عنها بطريقة مباشرة . كما أن البعد الحلولي الكوموني القوي في اليهودية ولّد استعداداً كامناً قوياً لدى أعضاء الجماعات اليهودية لتقبّل المنظومة العلمانية (وهي منظومة حلولة كمنوية) . ولكن يجب أن نشير أيضاً إلى أن البعد اليهودي ذاته هو نتاج تفاعل اليهود مع ما حولهم من حضارات ، فالغنوصية هي حركة سادت الشرق الأدنى القديم وتأثرت بها اليهودية . كما أن العبقرية اليهودي قد يكون لديه استعداد كامن لاكتشاف شيء ما ، لكن هذا الشيء سيظل جزءاً من تشكيل حضاري غير يهودي ، بمعنى أن الحركات النهائية هي حركات الحضارة التي يعيش فيها اليهودي . فمهما كان علم فرويد مثلاً بتراث القبالة ، لا يمكن تخيل أن بوسعه التوصل إلى نظرياته وهو في اليمن (التي يعرف حاخاماتها القبالة اللوربانية بطريقة تفوق فرويد وحاخامات أوروبا في عصره) . وفرويد هو نتاج مجتمع فيينا في أواخر القرن التاسع عشر بكل ما كان يحويه من إبداع وانحلال وتركيب وتفتت .

ولملاحظ أن بعض المؤلفين والرسامين اليهود في الحضارة الغربية بدأوا ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، في تناول مضامين يهودية في أدبهم وفنهم . ولكن مثل هؤلاء لا يختلفون البتة عن

والمعدمين . وقد تحول أعضاء الجماعة اليهودية إلى أداة يمسك بها النبلاء في وارسو يعتصرون بها الفلاحين . وحينما يكون البروز على المستويات التطبيقية والدينية والثقافية ، فإن الانفجار الشعبي يكون ساحقاً ماحقاً ، وهذا ما حدث مع انتفاضة شميلنكي .

وقد يتشابك التمييز المشين مع التمييز الإيجابي ، فمع نهاية القرن التاسع عشر كان يهود البلاد الغربية قد حققوا صعوداً طبقياً ومكانة اجتماعية عالية وهو ما يعني تمييزاً يهودياً إيجابياً . ثم وصل يهود البديشية ، وكانوا متخلفين فقراء تنفخى بينهم الأمراض الاجتماعية المختلفة كما تنفخى التعصب الديني ، وكان هذا يعني تمييزاً يهودياً مشيناً ، وحدث تشابك بين الجماعتين أدّى إلى إحساس المجموعة الأولى بالخارج ثم إلى قترعها . ومن هنا فقد كان من أهداف الصهيونية أن تبقى لليهود الغرب تمييزه الإيجابي ، وأن تُربحهم من يهود البديشية بتمييزهم المشين عن طريق توطينهم في فلسطين .

ويحاول الصهاينة تفسير بروز وتيز بعض أعضاء الجماعات اليهودية على أساس طبيعة اليهود وخصوصية اليهودية والجوهر اليهودي والعرقية اليهودية ، وهو منطق خطر للغاية لأن البروز والتمييز اليهودي الإيجابي إن قُسر على أساس الطبيعة اليهودية ، فلا بد من تفسير البروز والتمييز المشين على الأساس نفسه أيضاً . وهذا ما لا يحججه عنه أعداء اليهود بل وبعض الصهاينة (خصوصاً العمالين) .

ويلاحظ أن اليهودي الذي يحقق اندماجاً في مجتمعه ويسلك سلوك الآخرين ، لا يرصد أحد سلوكه باعتباره سلوكاً عادياً . ولكن حينما يتخبط بعض أعضاء الجماعات اليهودية في أنشطة مشينة أو منطرفة كأن يصبحوا أعضاء في جماعات ثورية أو ماسونية أو يحققوا قدراً عالياً من الثراء ، فإن أعداء اليهود يتجاهلون اليهود العاديين والفقراء ويتناسون العداوة من أعضاء الجماعات اليهودية ويرصدون بعناية فائقة الأنشطة المشينة وحدها . وحينما يحقق البعض الآخر من أعضاء الجماعات اليهودية بروزاً إيجابياً ، فإن الصهاينة يؤكدون ذلك ويستبعدون كلاً من اليهود العاديين وهؤلاء الذين حققوا بروزاً مشيناً . وربما إذا أخذت الظاهرة للدراسة الإحصائية الثابتة لاكتشفنا أن بروز اليهود في الخير والشر إنما هو خاضع لأليات اجتماعية ليسوا مسؤولين عنها ، وأن نسبة المتطرفين بينهم ، في الخير والشر ، قد لا تختلف كثيراً عن النسبة السائدة في المجتمع ، أو عن النسبة السائدة بين أعضاء الأقليات على وجه العموم في أي مجتمع .

في الخير والإبداع ، والبروز المشين والتمييز في الشر والهدم والإجرام . أما البروز الإيجابي ، فعليه من الأدلة الكثير ، مثل : كثرة عدد العباقرة والمهنيين بين أعضاء الجماعات اليهودية ، ونسبة التعليم المرتفعة بينهم ، وارتفاع دخولهم . أما البروز المشين ، فهناك أيضاً مؤشرات كثيرة عليه ، مثل : اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا عبر العصور الوسطى في الغرب بل واحتكار هذه المهنة في بعض المناطق ، واشتغالهم بتجارة الرقيق في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر ، بتقطير الخمر والاتجار فيها ، وتهريب البضائع والرقيق الأبيض ، وبكثير من الأعمال الطفيلية غير المنتجة .

ويلاحظ أن أي مؤشر على بروزهم الإيجابي قد يُعدّ مؤشراً على بروزهم المشين ، فالثراء (وهو عادة مؤشر على حركة الإنسان وذكائه) يُعتبر من منظور آخر دليلاً على عدم الانتماء وعلى الرغبة في الثروة وفي مراكمتها دون أية تحفظات أخلاقية . كما أن التمييز الوظيفي لليهود هو أيضاً من علامات البروز الإيجابي والمشين ، بل إن الجيتو ذاته كان علامة من علامات البروز ، إذ كان اليهود يسعون للحصول على إذن بإقامته والإقامة فيه ليتمتعوا داخله بالمزاي المنوحة للجماعة اليهودية والمقصورة عليهم وليعزلهم عن بقية السكان الأمر الذي يُسرّ لهم إدارة مؤسساتهم الدينية والقضائية والترابوية الخاصة . ولكن الجيتو أصبح بالتدريج هو المكان الذي يتعين عليهم البقاء فيه ، وهكذا تحول من ميزة إلى قيد .

ويذهب كثير من الدارسين إلى أن بروز بعض أعضاء الجماعات اليهودية من أهم الأسباب التي تجلب عليهم عداة أعضاء الأغلبية من غير اليهود ؛ وهو تعميم متعسف . فقد كان البروز يؤدي أحياناً إلى مثل هذه النتائج ، كما حدث في ألمانيا النازية . ولكن ، في إسبانيا الإسلامية أو أمريكا العلمانية ، لم يؤد البروز والتمييز إلى أي عنف أو تمييز ضد أعضاء الجماعة اليهودية . أما في بولندا ، خصوصاً في أوكرانيا التي ضمت من منظور التطورات التاريخية اللاحقة أهم الجماعات اليهودية عبر التاريخ ، فإن بروزهم قد أدّى دون شك إلى استجلاب السخط عليهم لا بسبب البروز في حد ذاته وإنما بسبب طبيعته ، إذ أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا قريبين من الطبقة الحاكمة عملاء لها ، في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ، وبدا أصبحوا عنصراً استيطانياً تجارياً يمثل الأرستقراطية البولندية في وسط فلاحى ، وعنصر يهودياً ينوب عن عنصر كاثوليكي في وسط أرثوذكسي أوكراني ، يتحدثون البديشية أو البولندية في وسط يتحدث الأوكرانية ، أثرياء في وسط من الفقراء

وذلك على عكس المجتمعات الشرقية الفسيفسائية ، ولذا فإن أقلية تكاد تكون وحيدة مثل الأقلية اليهودية تحقق بروزاً غير عادي .

٥ - لا شك في أن من يوجد في المدينة يحقق بروزاً لا يحققة عادةً من يكون في الريف ، وقد تركزت الغالبية الساحقة من يهود العالم الغربي في العصر الحديث في المدن .

٦ - ولا شك أيضاً في أن ارتباط أعضاء إحدى الأقليات بالطبقات الحاكمة يساهم في زيادة بروزهم ، وقد ارتبط أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الوسيط في الغرب بالطبقات الحاكمة .

٧ - يكون أعضاء الأقليات دائماً واقعين تحت ضغط نفسي يدفعهم إلى إثبات تفوقهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين ، ومن ثم فهم يجتهدون في أن يساهموا في الإبداع الحضاري بدرجة تزيد عن المعدل السائد في المجتمع . ولذا يُلاحظ في معظم الأحيان أن نسبة المتعلمين والمخترعين (في قطاعات معينة) من بين أعضاء الأقليات مرتفعة نوعاً (ويُلاحظ الشيء نفسه بالنسبة للجرام والانحراف) .

٨ - عضو الأقلية عادةً ما تكون لديه عقلية نقدية في رؤيته للمجتمع (بسبب عدم إحساسه الكامل بالأمن والاستقرار) ، وهو ينظر لمنظومة المجتمع الدينية والقيمية نظرة شك . وهذه النظرة النقدية الحادة تخلق تربة خصبة للإبداع التفكيكي ، وربما التركيبي أيضاً .

٩ - عضو الأقلية يتسم بروح الريادة وبالحركة ، الأمر الذي يجعله سباقاً إلى الخير والشر .

أما بروز أعضاء الجماعات اليهودية وتَمَيُّزهم داخل الحضارة الغربية على وجه التحديد فيمكن تفسير كثير من جوانبه من خلال مُركَّب من الأسباب والنماذج التفسيرية المترابطة :

١ - يُلاحظ ارتباط تَمَيُّز أعضاء الجماعات اليهودية بتساعد معدلات العلمنة في المجتمع . وليس من قبيل الصدفة أن أول عبقرى يهودي حقق تَمَيُّزاً وبروزاً لا داخل سياق اليهودي وإنما داخل سياق الحضارة الغربية ككل هو إسبينوزا ، فيلسوف الحلولية والكمونية . ويمكن القول بأن العباقرة اليهود في الغرب الحديث يحققون التميز والبروز لا بمقدار تعبيرهم عن يهوديتهم وإنما بمقدار تخليهم عنها . ولعل أصدق شاهد على هذا هو إسبينوزا نفسه الذي حقق بروزه وتَمَيُّزه بمقدار ابتعاده عن اليهودية ، ثم تبعه ماركس وفرويد وأينشتاين وكلهم يهود ملحدون ، أي يهود غير يهود ، تبرأوا من يهوديتهم .

ويمكن القول بأن الجماعات اليهودية في أوروبا كانت تُعدُّ ، مع اندلاع الثورة الفرنسية ، أكثر قطاعات المجتمع تَخَلُّفاً وهامشية . إلا أن معظم يهود العالم الغربي كانوا مع انتصاف القرن من أكثر القطاعات علمانية وحدانية . وقد تبعهم وبسرعة يهود اليديشية من

وما يُظهر عدد اليهود التَمَيُّزين أكثر من حقيقته أن دارسي الجماعات اليهودية ينظرون إليهم كما لو كانوا يُشكَّلون كلاً واحداً . ومن هذا المنظور ، فإن يهود اليمن والولايات المتحدة والصين وإثيوبيا وجنوب أفريقيا وجنوب أمريكا ، كلهم يهود في نهاية الأمر . ومن هنا ، فإن البحث عن البارزين فيهم داخل أية جماعة يتم دون أية دراسة إحصائية تبيِّن العلاقة بين نسبة هؤلاء البارزين إلى المعدل السائد في كل مجتمع . كما يتجاهل الدارسون أن تَركُّز اليهود في قطاعات وعلوم بعينها يؤدي إلى كثرة البارزين فيها (مهنة الطب والعلوم الطبيعية وعالم التجارة والموسيقى وعلم الاجتماع) . ولكن هذا يعني أيضاً غيابهم عن قطاعات وعلوم أخرى كثيرة أو ندرتهم فيها . كما أنهم يتجاهلون اللحظة التاريخية ، فبروز اليهود في مجتمع ما في لحظة تاريخية معينة لا يعني بالضرورة بروزهم الدائم في كل زمان ومكان .

ويتبنَّى أعداء اليهود منهجاً مماثلاً ، فهم يركزون على اليهود الذين حققوا بروزاً مشيناً في بعض المجتمعات ، وكأن جميع اليهود يُكوِّنون كلاً واحداً ولا يقارنون نسبة اليهود الذين حققوا مثل هذا البروز قياساً إلى المعدل الإحصائي السائد في المجتمع ، كما أنهم يهملون أخيراً اليهود الذين حققوا بروزاً إيجابياً . ونحن نذهب إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية يحققون البروز والتميز داخل الحضارة التي يعيشون في كنفها وبسبب عناصر موجودة داخلها لا على الرغم منها . وتعود معدلات إبداعهم (وإجرامهم) لا إلى التراث اليهودي وإنما إلى العناصر الحضارية والاجتماعية التي تَكُونُ محيطهم الحضاري والاجتماعي .

ويمكننا أن نحاول رصد أسباب بروز وتَمَيُّز أعضاء الجماعات اليهودية ، مقسمين الأسباب إلى قسمين : أسباب عامة تسري على أعضاء معظم الأقليات في العالم ، وأخرى مقصورة على اليهود في الحضارة الغربية الحديثة . ولنبدأ بالأسباب العامة :

١ - يتسم أعضاء الأقليات في جميع المجتمعات بشيء من البروز نظراً لاختلافهم في بعض النواحي أو في كثير منها عن أعضاء المجتمع .

٢ - يتَمَيُّز أعضاء الأقليات في المجتمعات التقليدية ، بل وأحياناً في المجتمعات الحديثة ، تَمَيُّزاً وظيفياً إذ يضطرون بوظائف دون غيرها .

٣ - يسكن أعضاء الأقليات في المجتمعات التقليدية في أماكن مقصورة عليهم وهو ما يساعد على هذا البروز ، وقد قطن أعضاء الجماعات اليهودية في الجيتو .

٤ - تتسم المجتمعات الغربية بأنها مجتمعات لا تضم أقليات كثيرة ،

وظيفية وسيطة في المجتمع الغربي لعدة قرون ، فأصبحت سمات الجماعة الوظيفية من سماتهم الأساسية . ويوجد أعضاء هذه الجماعات داخل المجتمع وخارجه في وقت واحد ، فهم على هامش لا يخضعون لقوانينه ، ولكن عليهم التعامل معه ، ولذا كان عليهم أن يفهموا هذه القوانين ، حيث إن علاقاتهم بالمجتمع علاقات موضوعية غير حميمة ، فهم ينظرون إلى المجتمع بطريقة تحليلية تفكيكية تعاقدية نقدية ، وخصوصاً أنهم من اقرب بحيث يمكنهم فهم آلياته ، كما أنهم بعيدون بقدر يمكنهم من الاحتفاظ بالأسافة النقدية . وأعضاء الجماعات الوظيفية هم من أولى القطاعات في المجتمع التي تمت علمتها وتغيردها من القداسة ، وصيغها بالصيغة الموضوعية . وبالتالي ، فإن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة هم أول من يحمل الفكر العلماني انفعالي الغيبي وينشره ويذيعه .

٤ - يُقال إن النزعة الشيعانية عند اليهود ، والتي أخذت شكلاً علمانياً عند المثقفين اليهود الغربيين ، تساهم في إضعاف الأواصر التي تربط بين اليهودي وبين النضويات التاريخية والاجتماعية ، الأمر الذي يجعله أكثر رفضاً لمجتمعات التي يوجد فيها ، وأشد عمقاً في نقده لها ، وأكثر موضوعية . ويُلاحظ أن المثقفين اليهود من أكثر العناصر تطرفاً في الحركات الثورية والفوضوية والعدمية (تروتسكي - روزا لوكسمبورج ... إلخ) .

٥ - ويمكننا هنا أن نحاول تقديم فرضية تنفي بعض الضوء على بروز المثقفين اليهود في الحضارة العلمانية . وهذه الفرضية تستخدم نموذج الحلولية الكمونية (وتُصعدُ معدلاته داخل النسق الديني اليهودي وداخل الحضارة الغربية) لتفسير هذا التميز . ويمكن القول أن ثمة تشابهاً بنوياً شبه كمنه بين وحدة الوجود الروحية (لا موجود إلا هو ، أي الإله) ووحدة الوجود المادية (لا موجود إلا هي ، أي المادة) . وهنا ، فإننا نذهب إلى أن بروز المثقفين اليهود في الحضارة الغربية بدأ حينما بدأت هذه الحضارة في بُني أنساق فكرية حلولية كمونية (البروتستنتية - نزعة الإنسانية الهيومانية - النزعة العقلانية المادية) . فهو لاء المثقفون اليهود ، بخفتهم الحلولية ، وبإنكارهم إمكانية تجاوز الأدلة كونا مهينين بشكل كامل لامتلاك ناصية الخطاب الحضاري العلماني ، ومن ثم تحقيق البروز من خلاله . ولعل الأهمية المركزية لإسبينوزا تنضج من خلال هذا النموذج التحليلي . فهو أول مثقف يهودي حقق بروزاً واضحاً في العصر الحديث ، ويعود هذا إلى أنه ربط بين النسقين الحلوليين ، الروحي والمادي ، وعادل بين الإلهي والطبيعي ، ومن ثم فقد علّم الحلولية تماماً وجعلها تصب في الأنساق المادية والعلمية .

شرق أوروبا ، سواء من بقي منهم داخل الاتحاد السوفيتي أو من هاجر منهم إلى الولايات المتحدة .

٢ - يُلاحظ أن علمنة النخب اليهودية (قيادات اليهود الثقافية) تمت بسرعة فائقة وبشكل كامل وجذري ، كما تمت علمنة الجماهير اليهودية بشكل كامل وقاس وفجائي ومخطط من قبل الدول المطلقة المختلفة (الدولة الفرنسية أو النمساوية أو الروسية) . واستمرت هذه العملية حتى بعد أن حكمت هذه الدول نظم ليبرالية أو ثورية . وقد أدّى هذا إلى انقطاع واضح بين انتماهم الديني وتراثهم من ناحية ، ووجودهم في العصر الحديث من الناحية الأخرى ، ولذا فإنهم لم يحتفظوا بقيمهم الدينية التقليدية إلى جانب الرؤية العلمانية التي اكتسبوها . ويُلاحظ كذلك أنهم لم يحتفظوا بأية رواسب دينية من خلال الرموز العلمانية ذات الأصول المسيحية ، إذ أنهم لا يشتركون أصلاً في هذه الرموز باعتبارهم يهوداً . كما أن غالبية أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوروبا وجميع يهود الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية ، عناصر مهاجرة ، وبالتالي فهم عناصر حركية متحررة من القيم والمطلقات تبحث عن الحراك الاجتماعي .

وقد أدّى كل هذا إلى علمنة اليهود بشكل حاد وبمعدل يفوق معدلات العلمنة بين معظم قطاعات المجتمع الأخرى . ولذا ، أصبح أعضاء الجماعات اليهودية من أكثر العناصر تحرراً من القيم التقليدية وغير التقليدية في المجتمعات الغربية ، وأصبح الإنسان اليهودي في الغرب هو الإنسان الحديث بشكل نماذجي متبلور ، لا انتماء له ولا جذور ، لا يشعر بحرمة أي شيء وينزع القداسة عن الإنسان والعالم . ومن ثم أصبح أعضاء الجماعات اليهودية من أكثر العناصر مقدرة على التحرك في المجتمع العلماني الحديث وأصبح لديهم من الكفاءات اللازمة للتعامل مع المجتمع العلماني الجديد أكثر مما لدى بقية أعضاء هذا المجتمع من المسيحيين أو حتى العلمانيين ذوي الجذور المسيحية ، فاستطاعوا أن يحققوا بروزاً وصعوداً بدرجة تفوق ما يحققه أقرانهم من القطاعات البشرية الأخرى في المجتمع ، ولكنه صعود من يستطيع أن يسبح مع التيار بكل قوة ، لا أن يسبح ضده فيعوقه ويصده .

وقد لاحظ أحد وزراء داخلية روسيا القيصرية وجود اليهود بأعداد كبيرة في الحركات الثورية ، فبيّن له أحد الحاخامات أن الشباب اليهودي كان بعيداً كل البعد عن الحركات الثورية والفوضوية حينما كان يتلقى تعليماً دينياً تقليدياً ، وأن هذه الظاهرة لم تبرز إلا بعد أن انخرطوا في المدارس العلمانية التي أسسها القيصرية .

٣ - ويمكن أن نضيف إلى هذا أن اليهود كانوا يشكلون جماعة

يعني ضرورة التخلص من كل الخصوصيات والشؤونات . فإنسان عصر الاستنارة والعقل المادي إنسان عالمي لا يتمتع بأية خصوصية . كما أن عملية الدمج في المجتمع العلماني لا تتم من خلال الدمج بين هويات دينية وإثنية مختلفة وإنما تتم من خلال نزوع جميع الهويات أو إخفائها أو تهميشها حتى يكتسب الجميع هوية علمانية عامة تزيد كفاءتهم في الأداء في رقعة الحياة العامة . وبما أن أعضاء الجماعات اليهودية ليسوا استثناء من القاعدة ، فنحن نتنبأ بأن يتزايد اندماجهم وانصهارهم في الغرب إلى أن يخفي بروتهم ويصبحو جزءاً لا يتجزأ من الآلة ذات الكفاءة الكبرى .

الجريمة اليهودية

Jewish Crime

«الجريمة اليهودية» مصطلح يفترض وجود جرائم ذات خصوصية يهودية (أي جرائم مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية وتتبع نمطاً بعينه وتأخذ أشكالاً بعينها) . ومن ثم ، فإن يهودية اليهودي هي النموذج الذي يمكن من خلاله تفسير وتصنيف السلوك الإجرامي لبعض أعضاء الجماعات اليهودية . وحيث إننا لم نعرش على مثل هذا النموذج ، فإننا نؤثر استخدام مصطلح «المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية» باعتبار أن النموذج الكامن وراءه ذو مقدرة تفسيرية وتصنيفية أعلى ، كما أنه ينطوي على دعوة إلى أن يدرس الباحث كل حالة إجرامية يرتكبها عضو من أعضاء الجماعات اليهودية على حدة ، داخل ملاسباتها الخاصة وإطارها الحضاري .

ولا يمكننا التحدث عن «الجريمة اليهودية» أو «خصوصية الإجرام اليهودي» تماماً كما لا يمكننا الحديث عن «الجوهر اليهودي» أو عن «التاريخ اليهودي» أو عن «العبقرية اليهودية» ، إذ أن الجماعات اليهودية في العالم لا تعيش تحت ظروف خاصة بها مقصورة عليها . ولذا ، فإننا نجد أن معدلات الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية لا تختلف بشكل جوهري عن المعدل السائد في المجتمع أو بين الأقليات الأخرى في المجتمع . ولذا ، فنحن نتحدث عن «المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية» .

المجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية

Criminal Elements from Jewish Communities

من المعروف أن النسق الأخلاقي الذي تطرحه العقيدة اليهودية (حينما تكون تعبيراً عن الطبقة التوحيدية الكامنة فيها) يشبه ، في

٦ - يلاحظ أيضاً تركز اليهود في حقل الإعلام ، خصوصاً في الصحافة والإذاعة ، وهو ما جعلهم في موقع يُمكنهم من تسليط الأضواء على الأنشطة التي يقومون بها وإعطائها من الأهمية ما تستحق وربما أكثر مما تستحق . كما أن اليهود الجدد متمركزون في المدن ، وهي مراكز صنع القرار في كل أنحاء العالم . فضلاً عن أنهم بانتقالهم إلى الضواحي لم يبعدوا كثيراً عن هذه المراكز ، إذ أن معظم أعضاء النخبة في الولايات المتحدة يوجدون في هذه الضواحي . ويمكن أن نضيف أيضاً أن ارتفاع دخل المواطن الأمريكي اليهودي بالنسبة إلى المعدل القومي قد زاد من بروتهم ، وكذلك تركزهم في بعض المهن البارزة ، مثل الطب والجماعات والمراكز العلمية .

٧ - ويجب التأكيد - كما أسلفنا - على أن بروز المثقفين اليهود في الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، لا يعود إلى أنهم يهود ، بل إلى أنهم أمريكيون يوجدون داخل الحضارة الغربية ، وهي الحضارة المهيمنة على معظم المصادر الطبيعية في العالم ، والتي نجحت في تأسيس بنيتها التحتية ، وبالتالي بإمكان أي شخص ينتمي إليها أن يُحقق كل إمكانياته الفكرية والإبداعية .

كما أن الحضارة الغربية ، بسبب هيمنتها على معظم أرجاء العالم ، تنسب لنفسها صفة العالمية وتسلب عليها الأضواء . والمفكرون البارزون من أعضاء الجماعات اليهودية يتمتعون بهذه المزايا . ولعل ظاهرة العرب من أصل مصري أو لبناني أو فلسطيني وغيرهم (فاروق الباز - إدوارد سعيد) عن يُحققون بروزاً في الحضارة الغربية تُلقي بعض الضوء على الظاهرة نفسها بين أعضاء الجماعات اليهودية . فلو قُدر لهؤلاء البقاء في بلادهم فلربما أجهضت إمكاناتهم بسبب الحدود المادية . وربما حتى لو تحققت إمكاناتهم لما وُصفت بالعالمية ولما سُلطت عليها الأضواء .

هذه هي بعض العناصر التي تصلح في مجملها لتفسير معظم جوانب هذه الظاهرة . ومع هذا يجب ألا نسقط في الاختزالية والواحدة بالأنا نعطي أية قدرة تفسيرية للبعد اليهودي في تميز العباقرة (والمفكرين) من أعضاء الجماعات اليهودية . وكل ما نفعله هنا هو أننا ننكر على مثل هذا البعد أية أولوية أو مركزية تفسيرية . فالبعد اليهودي لا يُفسر تميز اليهود وبروزهم ولكنه يُساهم ولا شك في تفسير حدته ودرجته ونسبته .

ويمكننا أن نقول إن آليات المجتمع العلماني التي أدت إلى بروز اليهود هي ذات الآليات التي قد تؤدي إلى اختفائهم وانصهارهم ، فالمجتمع العلماني يزداد ترشيداً وتطبيعاً ويتطلب من أعضائه كافة أن يُعيدوا صياغة ذاتهم حتى تزداد كفاءتهم في الأداء العام ، وهو ما

كثير من الوجوه ، الأنساق الأخلاقية التي تطرحها الديانات السماوية . فالقتل والزنى والسرقة والشذوذ الجنسي والجماع مع المحارم ، كلها أمور مُحَرَّمَةٌ يعاقب عليها القانون الديني . ولتفسير السلوك الإجرامي لأحد أعضاء الجماعات اليهودية ، لابد من العودة لحركات وقيم المجتمع الذي يعيش فيه هذا اليهودي ، ولابد من دراسة القوانين الاجتماعية والجنائية والظروف الاقتصادية والعناصر الأخرى كافة .

ومع هذا ، يمكن ملاحظة أن بعض الأنماط المتكررة يمكن تفسيرها على أساس أن الجماعات اليهودية تُشكِّل أقاليم وجماعات وظيفية ، علماً بأن أعضاء الأقلية يخضعون عادةً لحركات المجتمع ولكنهم يشعرون بها بشكل أكثر حدة ، كما توجد بينهم دوافع وضوابط مختلفة إلى حد ما عن تلك التي توجد في المجتمع ككل . ولكن ، قبل الاستمرار في الدراسة ، تجب الإشارة إلى أن بعض الأرقام الموجودة لدينا غير موثوق فيها بسبب عنصرية النموذج الإحصائي والتفسيري الذي تم بمقتضاه جمع المادة . كما أصبح العكس صحيحاً الآن ؛ إذ ترفض كثير من الدول الغربية أن تكشف عن الانتماء الديني أو الإثني للمجرم خوفاً من إشاعة صورة عنصرية كريمة عن أعضاء الأقليات . وبعد هذا التحفظ ، يمكن القول بأنه قد لوحظ ، على سبيل المثال ، أن نسبة الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية تكون أحياناً أقل من النسبة العامة في المجتمع ، وقد تكون مساوية لها أو أعلى منها ، ولكن لكل وضع تفسيره . ويمكن استخدام الأحكام الصادرة ضد أعضاء الجماعة كمؤشر . ولكننا لن نقدم هنا عرضاً لأنماط الجريمة بين العبرانيين وأعضاء الأقليات اليهودية عبر التاريخ وفي مختلف المجتمعات ، ذلك لأن مثل هذا العرض سيغفل حيزاً ضخماً ، إلى جانب أن ما نهدف إليه في هذا المدخل هو أن تُبين مدى الخصوصية أو العمومية في ظاهرة الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية . ولهذا ، فلننا سنركز على العصر الحديث وحسب .

ثمة تباين واضح بين معدل الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية ومعدلها بين أعضاء مجتمع الأغلبية الذي يعيشون في كنفه ، فمعدلات الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية كانت منخفضة قبل منتصف القرن التاسع عشر ثم أخذت في التزايد بعده إلى أن وصلت إلى معدلات ضخمة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ثم أصبحت معدلات الجريمة بينهم لا تختلف كثيراً عن المعدلات السائدة في المجتمع . ولتفسير هذا التباين ، يمكن القول بأن أعضاء الأقلية يتمتعون عادةً بدرجة أعلى من التماسك العائلي

والتضامن الاجتماعي ، وأن هناك مؤسسات دينية واجتماعية (وهي عادةً مقصورة عليهم) تقوم بعملية الرقابة الداخلية والضغط الاجتماعي والأخلاقي . كما أن أعضاء الأقليات يخضعون دائماً لرقابة شديدة من أعضاء الأغلبية ، خصوصاً في فترات التعصب والتمييز العنصري . وهذه الرقابة الخارجية الصارمة من شأنها أن تجعل عضو الأقلية حذراً يراقب سلوكه ولا يُقبل على ارتكاب الجريمة أو التفكير فيها إلا في أضيق الحدود وللضرورة القصوى . ولا شك في أن تميز اليهود مهنيًا ووظيفيًا كان له دور في ذلك ، وكان هذا يعني المزيد من البروز ومن ثم المزيد من الرقابة .

لكل ما تقدم ، نجد أن تزايد اعتناق أعضاء الجماعات اليهودية واندماجهم يؤدي إلى تزايد معدل الجريمة بينهم ، وهذه مفارقة لاحظها أيضاً دارسو وضع المرأة . فكلما ازدادت مساواة المرأة بالرجل ، في الحقوق والواجبات ، زاد معدل الإجماع بين النساء ، فكان تحرير المرأة يعني أن تصبح مثل الرجل في الخير والشر ، وأن تُتاح أمامها فرص متساوية للخير والشر على حد سواء . وقد لوحظ أن معدل الجريمة بين يهود المنجر في أوائل القرن العشرين مرتفع عنه بين يهود روسيا مثلاً . ولا يمكن تفسير هذا إلا على أساس أن يهود المنجر كانوا أكثر الجماعات اليهودية اعتناقاً واندماجاً . وقد لوحظ أيضاً أن معدل الجريمة بين يهود آسيا (الذي كان منخفضاً) تساوى تقريباً مع النسبة العامة في المجتمع في الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و١٩١٠ ، وذلك مع تزايد اندماج يهود وازدياد معدل التعليم بينهم وتحسن وضعهم الاقتصادي . وقد لاحظ ليشنسكي أن معدل الأحكام الصادرة ضد يهود النمسا من المتعلمين كان يزيد بواقع ٥٠٪ مقارنة بمعدل الأحكام الصادرة ضد يهود جاليشيا الفقراء الجهلاء . أما في هولندا ، فكان معدل الجريمة بين أعضاء الجماعة اليهودية أقل من المعدل على المستوى القومي في عام ١٩٠٢ . ومع تزايد انعتاقهم واندماجهم ، أصبح المعدلان متساويين . أما في البلاد العربية ، فيلاحظ أن معدل الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية قلَّ بعد إعلان دولة إسرائيل ، ربما بسبب زيادة الرقابة وتشديد القبضة عليهم .

ولابد أن هناك استثناءات كثيرة من هذا النمط ، ففي الولايات المتحدة يُلاحظ أن معدل الجريمة بين المهاجرين اليهود يصل أحياناً إلى نصف المعدل على المستوى القومي في الجيل الأول ثم يتزايد بالتدريج مع الجيل الثاني ، ومع الجيل الثالث يقترب معدل الجريمة من المعدل العام . ومن المعروف أن أعضاء الجيل الثالث في الولايات المتحدة من أبناء المهاجرين هم الذين يصلون إلى معدلات عالية من

وعلا شك فيه أن العقيدة الصهيونية التي تشجع على العنف والاعتصاب تلعب دوراً في استشارة الاستعداد الكامن أو القابلية لدى المستوطنين الصهاينة لارتكاب الجرائم بمعدل يفوق نظيره في المجتمعات الأخرى التي تعيش تحت الظروف نفسها .

وداخل هذه الأنماط العامة ، يمكننا أن نكتشف غمطاً آخر وهو أن وضع أعضاء الأقليات قد يزيد قابليتهم لارتكاب جرائم دون أخرى . فعلى سبيل المثال ، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يرتكبون الجرائم ضد الملكية وكذلك جرائم القتل بمعدل أقل من المعدل القومي . وربما يعود هذا إلى مستواهم التعليمي المرتفع وقلة استهلاكهم للمواد الكحولية ، وإلى عملية الضبط الاجتماعي التي تمارسها الجماعة مع أعضائها ويمارسها المجتمع مع الجماعة ككل . وعلى أية حال ، فالملاحظ أن معدل الجرائم التي يرتكبها أعضاء الجماعة يرتفع مع تزايد معدلات الاندماج والعلمنة .

ولكن يلاحظ أن ثمة جرائم يزيد معدل ارتكابها بين أعضاء الجماعة عن المعدل العام السائد في المجتمع ، وهي الجرائم التي يتم فيها انتهاك الحرمات والتي تتطلب من صاحبها التخطيط وإعمال العقل وتحقق لمرتكبها عائداً سريعاً (أي تتطلب المهارات نفسها التي يتطلبها الاضطلاع بوظائف الجماعة الوظيفية) . ومن هذه الجرائم ما يُسمى «جرائم الآداب» . ففي تونس ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يمثلون ١,٧٪ من مجموع السكان ، ومع ذلك كانت نسبة النساء اليهوديات المسجلات في جرائم الآداب تفوق هذه النسبة كثيراً . وكانت نسبة الأحكام الصادرة ضد أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا لارتكاب أعمال غير أخلاقية تفوق كثيراً (مرتين ونصف) نسبة الأحكام الصادرة ضد أعضاء الأغلبية .

ومن الجرائم المماثلة ، جرائم التزيف والغش التجاري . ومن المعروف أن هذه الجرائم انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر في الغرب إلى درجة اضطرت معها الحكومات إلى استصدار تشريعات خاصة . ويبدو أن تركز أعضاء الجماعات اليهودية في القطاع التجاري من المجتمع التقليدي ساعد على ذلك ، فهو قطاع لم يكن يعرف نظام الضرائب ولم يكن يرتبط بشبكات الرأسمالية الرشيدة من مصارف ووسائل نقل أو غيرها . ولذا ، كان التهرب من الضرائب ، وكذلك تهريب البضائع ، جزءاً عضوياً من مثل هذا النشاط التجاري ، كما أن تركز كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في المناطق الحدودية والمدن شجع على هذا الاتجاه . وقد استمر هذا النمط حتى الوقت الحاضر . ويبدو أن لأعضاء الجماعات اليهودية دوراً ملحوظاً في ترويج المخدرات في الولايات المتحدة ،

الاندماج والأمركة بحيث يصبحون أمريكيين مائة في المائة . وهذا النمط ينطبق كذلك على معظم الدول الاستيطانية .

ومع هذا ، توجد ظاهرة عكسية وهي أن معدل الجريمة بين العناصر المهاجرة في قطاعات حرفية أو طبقية معينة قد يكون أعلى من نظيره بين أعضاء المجتمع المضيف . كما أن الجماعات المهاجرة تتخصص في أنواع من الجريمة غير معروفة في المجتمع أو كانت موجودة فيه بشكل جنيني وحسب . ويعود هذا إلى أن العناصر المهاجرة هي دائماً عناصر رائدة ، وأعضاء الأقلية المهاجرة الباحثون عن الحراك الاجتماعي لا يلتزمون بقيم خلقية ولا يشعرون بالولاء نحو المجتمع الجديد ، كما أنهم في العادة شخصيات حركية قادرة على إدراك الثغرات في المجتمع وعلى التسلل منها . وبالفعل ، نجد أن جماعات من المهاجرين اليهود كَوَّنوا في الثلاثينيات عصابات جريمة منظمة (مافيا) في نيويورك تمارس نشاطات المافيا المختلفة من ابتزاز وتهريب مخدرات واغتيال نظير أجر والبغاء ، واستمرت في ذلك حتى الخمسينيات . (وقد كُشف النقاب مؤخراً عن أن عصابات الجريمة المنظمة اليهودية قد دعمت الحركة الصهيونية مالياً وسياسياً ، واشتركت في جمع التبرعات لها ، بل واستخدمت نفوذها مع بعض حكام أمريكا اللاتينية المتعاونين مع عصابات الجريمة المنظمة لتهريب السلاح للمستوطنين الصهاينة) .

وقد ظهرت الجريمة المنظمة أيضاً بين المهاجرين اليهود السوفيت والإسرائيليين في الولايات المتحدة ، وتعدُّ لوس أنجلوس من أهم مراكزها . ولعلَّ نفسُ الجريمة بين المهاجرين السوفيت هو أحد الأسباب التي دعت أمريكا لإغلاق أبوابها أمام المزيد من المهاجرين السوفيت . ومن الطريف أن أعضاء هذه العصابات اليهودية قد تخصصوا في ابتزاز أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانب ممارسة النشاطات الإجرامية العادية والعامة . ويبدو أن هذه العصابات بدأت تمارس نشاطها في إسرائيل وفي بعض دول الشرق الأوسط . ومن الظواهر التي يجب تسجيلها أيضاً أن أفراد عصابات المافيا في الولايات المتحدة (وهم من أصل إيطالي في العادة) يستعينون في الغالب بمحاميين من بين أعضاء الجماعة اليهودية للدفاع عنهم في جرائمهم ولإدارة أعمالهم المشينة .

وقد فوجئ الصهاينة بأن المهاجرين اليهود قادرون على ارتكاب جميع الجرائم الخطيرة مثل القتل والاعتصاب والسرقة في بلدهم . ولكن هذا يعود دون شك إلى إحساس المستوطنين بأنهم مواطنون يتمتعون بكل الحقوق السياسية والضمانات القانونية ، ومن ثم تخف عمليات الرقابة الخارجية التي كانوا يخضعون لها كأعضاء أقلية .

٣ إشكالية العرقية والجريمة اليهودية

ويمكن النظر إلى الإجهاض أيضاً باعتباره قضية أخلاقية ، فهو قد يكون (كما يرى البعض) حقاً مشروعاً للمرأة (إذا نظرنا إليها كفرد وحسب لا كأم وكائن اجتماعي) ، وقد يكون جريمة يعاقب عليها القانون (إن أخذ البعد الاجتماعي والأخلاقي في الاعتبار) .
ويلاحظ هنا وجود عدد كبير من الأطباء اليهود بين أولئك الذين يجرون عمليات الإجهاض في الولايات المتحدة وفي غيرها من البلاد .

ولابد أن ارتكاب أعضاء الجماعة اليهودية جرائم الغش التجاري والآداب ، وهي جرائم بارزة تمس حياة الجماهير الشعبية مباشرة ، كان له أكبر الأثر في تغذية الأنماط الإحصائية السلبية التي تستند إليها أدبيات معاداة اليهود . ومما يجدر ذكره أن الأدبيات الصهيونية ، بتأكيداها خصومية اليهود ، تتقل (نظرياً على الأقل) إمكانية أن تعبّر هذه الخصومية عن نفسها من خلال الجريمة اليهودية . ولابد أن نضيف هنا أيضاً أن الصهيونية يرون أن الشخصية اليهودية تصبح شخصية إجرامية مدمرة في المنفى لأنها شخصية مُتَلَعَة لا انتماء لها ، ومن هنا فإن المفكرين الصهيونيين يحزنون دول العالم من وجود اليهود فيها .

ويبدو أن المؤسسة الصهيونية تقوم في الوقت الحاضر بتصدير الجريمة إلى أنحاء العالم . فالشرطة الإسرائيلية تشجع المجرمين على الهجرة إلى خارج إسرائيل كوسيلة لتخفيف عنهم . فيستقرون في كل أنحاء العالم ، خصوصاً في هولندا وألمانيا الغربية حيث يسيطرون على كثير من النشاطات الإجرامية التي من أهمها البغاء . وقد دخلت كلمات عبرية كثيرة على لغة الجريمة في العالم ، خصوصاً لغة القوادين السرية في أوروبا . ويُقال إن لغة القوادين في أمستردام هي العبرية ، ولعلها لغة سرية خليط من الهولندية والعبرية . كذلك تُصدر إسرائيل مرتزقة إلى الخارج لتدريب قوات تجار المخدرات في كولومبيا أو حرس بعض رؤساء دول أمريكا اللاتينية .

وتوجد الآن مافيا إسرائيلية قوية مركزها لوس أنجلوس ، ولكنها منتشرة في كل أرجاء الولايات المتحدة . وقد بدأت هذه العصابات نشاطها بفرض إتاوات على فقراء اليهود (عادةً من بقايا يهود معسكرات الإبادة) ، ثم دخلت عالم المخدرات وجرائم الغش التجاري . ويبلغ عدد أعضاء قيادة المافيا الإسرائيلية نحو ١٠٠ عضو . وتعتقد سلطات الأمن الأمريكية مؤغراً قوماً كل عام لمناقشة نشاط المافيا الإسرائيلية .

كما يوجد عدد لا بأس به من الجواسيس من بين أعضاء الجماعات اليهودية في الدول الغربية .

ويمكن هنا أن نسأل : ما الفعل الإنساني الذي يشكل جريمة؟ فعلى سبيل المثال ، تُعدُّ الثورة ضد نظام مُستغل عملاً بطولياً من منظور الثوار ، ولكنها تُعدُّ جريمة ضد أمن الدولة يعاقب عليها القانون من منظور القائمين على النظام . والعكس صحيح ، فعدم نظام مُستغل ظالم جريمة من منظور المدافعين عن العدالة ، ولكنه واجب وطني من منظور القائمين على النظام ، أي أن مسألة المنظور في غاية الأهمية في دراسة الجريمة .

ويمكننا الآن أن نتناول الجرائم المرتبطة بأمن الدولة والنظام العام . ويُلاحظ أن معدل ارتكاب أعضاء الجماعات اليهودية لمثل هذه الجرائم يتناسب طردياً مع معدل التمييز العنصري ضدهم ، ومن ثم فإن الأحكام الصادرة ضدهم تُصلح مؤشراً على نوعية المعاملة التي يلقاها أعضاء الجماعات اليهودية وعلى معدل الإعتاق والاندماج . ففي منتصف القرن التاسع عشر ، كان حوالي ٣٠٪ من المسجونين السياسيين في روسيا القيصرية من الشباب اليهودي . وفي عام ١٩٠٧ كان اليهود يشكلون ٤٪ من عدد السكان ، ومع هذا نجد أن ما يزيد على ١٧٪ من الجرائم التي ارتكبت ضد أمن الدولة والنظام العام ارتكبتها أعضاء في الجماعة اليهودية . وفي بولندا (١٩٢٤ - ١٩٣٧) ، كان ٤٣٪ من الجرائم التي ارتكبتها اليهود جرائم سياسية ، وتنفخض النسبة إلى ٢٥٪ في ألمانيا (١٨٩٩ - ١٩٠٢) ، وإلى ٦٫٢٪ في هولندا (١٩٣١ - ١٩٣٣) . وقد لوحظ إبان الستينيات أن عدد الشباب اليهود في الولايات المتحدة الذين يشتركون في المنظمات اليسارية والتظاهرات يبلغ ٣٠٪ ، بينما كانت نسبتهم إلى عدد السكان لا تزيد عن ٢٫٥٪ . ولكن هذه النسبة أخذت تتناقص مع زيادة هيمنة الجوارح المحافظ على يهود الولايات المتحدة .

ويمكن أن ننظر إلى المسألة من جانب آخر ، وهو مدى مساعدة أعضاء الجماعات اليهودية للنظم المستغلة والظالمة ، باعتبار أن ذلك أحد أشكال الجريمة . ففي جنوب أفريقيا ، في عصر التفرقة اللونية ، على سبيل المثال ، كان يُلاحظ وجود أعضاء الجماعة اليهودية بشكل واضح في المؤسسات الأمنية . ويمكن أن نطرح هنا الدعم اليهودي للدولة الصهيونية باعتباره شكلاً من أشكال الإجرام . بل إن زيارة إسرائيل للسياحة ، وهي شكل من أشكال الدعم الاقتصادي والمعنوي لها ، تشكل دعماً للاستعمار الاستيطاني الذي استولى على أرض فلسطين ، ومن ثم يمكن تصنيفها على أنها عمل إجرامي .

افتقدا المعنى في حياتهما الرتيبة وقررا استرجاع شيء من المعنى عن طريق شكل من أشكال الإثارة الشديدة . وقد وجدنا الإثارة في ارتكاب جريمة بلا دافع ، أي أن الأداء الإجرامي الكفء أصبح غاية في ذاته ، فهي جريمة محايدة تتم بلا حب أو كره أو غاية ، وهي جريمة كاملة ، يفترض فيها أنها من الدقة والإحكام بحيث يستحيل اكتشافها (أي أنها نسق مغلق تماماً) ، وكل هذا تعبير عن رغبة الإنسان الحديث في التحكم الإمبريالي الكامل في كل شيء بحيث يصبح الإنسان إلهاً يُحيي ويميت دون مكافأة أو عقاب . وفي هذا لذة أيماً لذة ، فهنا يصبح اللامعنى هو المعنى ، ويصبح العيب هو الغاية ، وتصبح الصورة المجازية الحاكمة الكبرى هي أن الحياة بأسرها إنما هي لعبة أو مباراة وأن ذُبح الأطفال إنما هو جزء من هذه اللعبة المسلية .

ويمكن أن نشير أيضاً إلى أرنولد روثشتاين (١٨٨٢ - ١٩٢٨) ، وهو من رواد الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وُلد في نيويورك لعائلة يهودية تجارية متوسطة الحال ، وانجبه في سن مبكرة إلى القمار ثم المراهات ، ونجح في إقامة أكبر إمبراطورية للقمار في الولايات المتحدة ، وامتد نشاطه إلى تهريب الخمور وتجارة المخدرات والابتزاز ، ونجح في حماية نفسه وأنشطته الإجرامية من خلال رشوة رجال الأمن والقانون والسياسة ومن خلال استثمار أمواله في بعض الأنشطة المشروعة . وقد تمتع روثشتاين بنفوذ واسع ، وأصبح يُلقَّب بـ «قيصر عالم الجريمة» ، وقد تلمذ على يديه عدد من مشاهير المجرمين الأمريكيين ، أمثال مائير لانسكي ، والذين تعلموا منه أهمية التعاون والتحالف في عالم الجريمة بغض النظر عن الانتماء الإثني أو الديني . فاللص هنا ، مثل الإنسان الطبيعي أو الأممي ، لا جذور له ولا حدود ، ولا تعوقه أية مطلقات غيبية أو إنسانية . وهو ، مثل عضو الجماعة الوظيفية والإنسان الاقتصادي ، لا يدين بالولاء إلا لصالح جماعته وما يحققه لها ولنفسه من ربح ، « وليس للدولار سوى قومية واحدة ودين واحد وهو الربح » على حد قول روثشتاين ، الذي اغتيل في أحد فنادق نيويورك نتيجة خلاف حول سداد دين قمار .

أما لويس بوكالتر « ليبكي » (١٨٩٧ - ١٩٤٤) فهو أحد زعماء الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وُلد في نيويورك لعائلة من المهاجرين اليهود ، وانخرط في حياة الإجرام في سن الثامنة عشرة ، حيث انضم إلى عصابة من الأحداث تحترف النشل وسرقة الباعة المتجولين . وقد اشتهر بوكالتر باسم « ليبكي » ، وهو الاسم الذي أطلقته عليه والدته ويعني باليديشية «الويس الصغير» .

عنة المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث

Famous Criminals from Jewish Communities in Modern Times

يوجد الكثير من المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية ولا يمكن تفسير تميزهم في الإجرام بناء على يهوديتهم ، ولنبدأ بإدوارد ديفيس (١٨١٦ - ١٨٤١) وهو لص أسترالي يهودي وُلد في إنجلترا ، وأدين عام ١٨٣٢ بتهمة السرقة وحُكم عليه بالترحيل إلى أستراليا لمدة سبع سنوات . وفي أستراليا ، نجح في الفرار من سجنه عام ١٨٣٩ وكوّن عصابة من السجناء الهاربين قامت على مدى عامين بالإغارة على المدن الصغيرة والقرى بقطع الطريق على المسافرين ، الأمر الذي أثار الرعب في نفوس الكثيرين . وقد اتخذت هذه العصابة لقب «عصابة الولد اليهودي» . وكان ديفيس يعتبر نفسه «روبن هود أستراليا» ، لأنه كان يسرق من الأغنياء ويعطي الفقراء ، كما كان يرفض استخدام العنف إلا دفاعاً عن النفس . وجاءت نهايته بعد أن قتلت عصابته صاحب متجر في إحدى غاراتها ، الأمر الذي دفع السلطات لتكثيف البحث عنه . وقد أُلقي القبض عليه ، وعلى عدد آخر من أفراد عصابته عام ١٨٤٠ ، وأدين بتهمة القتل وحُكم عليه بالإعدام .

وديفيس ينتمي إلى غط من اللصوص يمكن تفسيره من خلال دراسة درجة السخط الشعبي والاستقطاب الطبقي ، فهو ليس مجرمًا بالمعنى المألوف وإنما مجرم يسرق من الأغنياء ليعطي الفقراء . ولكن النمط الأكثر شيوعاً هو المجرم المتميز من أعضاء الجماعات اليهودية الذي يمكن تفسير سلوكه باستخدام نموذج العلمانية الشاملة والنتيشوية .

ولنبدأ بآثنين من أهم المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية وهما ريتشارد لويب (١٩٠٥ - ١٩٣٦) وفرويتال ليوبولد (١٩٠٤ - ١٩٧٥) . كان لويب وليوبولد من خريجي الجامعة ، وكانا أيضاً من أبناء الأسر اليهودية الثرية في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٢٤ ، قررا أن يرتكبا جريمة بلا دافع فقاما باختطاف صبي في الرابعة عشرة من عمره ثم قتلاه . وقد حُكم على أحدهما بالسجن مدى الحياة ، وحُكم على الآخر بالسجن لمدة تسعة وتسعين عاماً . وقد قُتل نويب في السجن وأُعفي عن ليوبولد . والجريمة التي ارتكبتها لويب وليوبولد ليس لها مضمون يهودي واضح أو كامن ، فدوافع المجرمين ليست إنسانية تقليدية ، فهما لم يكونا مدفوعين بدوافع اقتصادية (فهما من أعضاء الطبقة الثرية في الولايات المتحدة) أو دوافع جنسية (فهما لم يغتصبا الصبي المخطوف) . ولفهم هذه الجريمة ، لا بد أن نضعها على أنها جريمة حديثة تماماً ، فمرتكبها

الحرب العالمية الثانية ، اكتشف سيجل إمكانات ضخمة في القمار المشروع في نيفادا ، فاقترض بعض النفود من اتحاد الجريمة وبنى فندق الفلامنجو الضخم في لاس فيجاس ، وقد حاول أن يُبقي كل الأرباح لنفسه دون أن يشرك الاتحاد فيها . وكانت فلسفته في الحياة عملية داروينية إذ كان يقول دائماً : « كل ما نفعله هو أن يقتل الواحد منا الآخر » . وهذا ما حدث له في يونيو ١٩٤٧ إذ كُتِفَ اتحاد الجريمة قاتلاً صوب مسدسه إلى رأس سيجل وأفرغ فيه عدداً من الرصاصات .

أما فلاتو شارون ، فهو من كبار المجرمين الفرنسيين . تهرب من الضرائب في فرنسا بالهجرة إلى إسرائيل مستفيداً من قانون العودة . ورشح نفسه لعضوية البرلمان (الكنيست) كي يحصل على الحماية البرلمانية ، ونجح مرتين في الانتخابات بشراء الأصوات صراحةً وعلانية ، حيث موَّل حملته الانتخابية أحد زعماء الجريمة المنظمة . وبعد أن فرَّ يعقوب الله كوهين زعيم الجريمة المنظمة في إسرائيل (وهو يهودي من أصل إيراني) إلى إسرائيل ، تردد اسم فلاتو شارون خلفاً له في الزعامة . ويوجد الآن في إسرائيل عطر ومساحيق تجميل تحمل اسم «فلاتو» ، وهو ما يدل على تغلغل المثل الإجرامية في المستوطن الصهيوني (ويلاحظ أن فلاتو شارون هذا كان شريكاً لغزرا وإيزمان في تجارة أسلحة مع جنوب أفريقيا) .

واستخدام غودج اخصوصية اليهودية والعقبرية اليهودية والجريمة اليهودية في تفسير سلوك هذه الشخصيات الإجرامية لا يفتد كثيراً ، فقيمه التفسيرية ضئيلة . أما إذا وضعناهم في سياق المجتمع العلماني الحديث الذي يتسم بتزايد تهمة القيم الأخلاقية والإنسانية المظنقة وتضاعف معدلات النسبية والنيشوية ، فيمكن إلقاء مزيد من الضوء على دوافعهم وسلوكهم .

عباقرة ومجرمون من أعضاء الجماعات اليهودية

Geniuses and Criminals from Jewish Communities

في محاولة تفسير عقبرية العباقرة وإجرام المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودية ، لا بد أن يتعدى الدارس عن غودج اخصوصية اليهودية العالمية . وبدلاً من ذلك يمكن أن نضبط مستوى التعميم والتخصيص لنوصل إلى النموذج التفسيري الملائم . ومثل هذا النموذج لا بد أن تتم صياغته من خلال دراسة السياق الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والديني الذي يوجد فيه العقبري أو المجرم من أعضاء الجماعات اليهودية . وفي المداخل التالية سنحاول أن نطبق هذا المنهج على مجموعة من العباقرة والمجرمين من أعضاء

وقد أمضى بوكالتر ثلاثة أعوام في السجن بتهمة السرقة ، خرج بعدها ليتزعم عصابة من مائتي مجرم تخصصت في الابتزاز . ولم يكن بوكالتر يؤمن بالتخصص فحسب وإنما بالتنظيم والترشيد أيضاً . وقد استخدمت عصابته جميع أساليب الإرهاب للسيطرة على النقابات العمالية في قطاع صناعة الملابس والمأكولات في نيويورك ، ثم ابتزاز أصحاب الأعمال « لحمايتهم » من الإضرابات العمالية . وجمعت علاقة وثيقة بين بوكالتر ومائير لانسكي ، وكان من زعماء الإجرام الذين أسسوا الاتحاد القومي للجريمة ، والذي تأسس بغرض تنسيق وترشيد النشاط الإجرامي على مستوى الولايات المتحدة . وقد تولى بوكالتر رئاسة الجناح التنفيذي للاتحاد والذي أطلقت عليه الصحافة الأمريكية اسم « شركة القتل المساهمة » لأنه قام تحت إشرافه بتنفيذ مئات الاغتيالات وجرائم القتل .

وفي عام ١٩٣٣ ، ألقي القبض على بوكالتر بتهمة مخالفة القانون المناهض للاتحادات الاحتكارية ، وحُكِمَ عليه بالسجن والغرامة ، إلا أن الحكم تم نقضه وأُفرج عنه بكفالة . ثم قُدِّمَ للمحاكمة مرة أخرى عام ١٩٣٩ في جريمة مخدرات ، وحُكِمَ عليه بالسجن لمدة أربع عشرة سنة . وأثناء ذلك ، قُدِّمَ (عام ١٩٤١) للمحاكمة بتهمة جريمة قتل ارتكبها عام ١٩٣٦ وحُكِمَ عليه بالإعدام . ونُفِّذَ فيه الحكم عام ١٩٤٤ .

ويمكن أن نشير أيضاً إلى بنجامين سيجل (١٩٠٦ - ١٩٤٧) الذي كان أعداؤه يلقبونه باسم «بجزي Bugs» ، نسبة إلى البجزي (bugs) أي «الحشرات» . وقد كان سيجل أحد زعماء اتحاد الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وكُد في نيويورك ، وبدأ منذ سن الرابعة عشرة في الانخراط في الأنشطة الإجرامية . وكوّن عصابة مع مائير لانسكي عُرِفَت باسم «عصابة بجزي ومائير» قامت بحماية الملاهي الليلية نظير إتاوة منتظمة ، كما قامت بعمليات السطو المسلح والخطف والقتل بالأجر لحساب عصابات تهريب الخمر . وقد تَوَرَّط سيجل في عدد من قضايا التهريب والاعتصاب والسرقة والاعتتيال ، حيث اتُّهم بقتل بعض شركائه القدامى . كما اشترك سيجل مع عدد من كبار المجرمين الأمريكيين في تأسيس الاتحاد القومي للجريمة . وفي الثلاثينيات ، انتقل سيجل إلى كاليفورنيا للإشراف على عمليات الاتحاد بها كما أشرف على عمليات القمار وتجارة المخدرات ، ومد نشاطه إلى مجال السينما حيث قام بعمليات ابتزاز عديدة .

وقد عاش سيجل حياة مُترفة مع كثير من أصدقائه نجوم السينما ، جين هارلو وكلاارك جيبيل وكاري جرانث وغيرهم . وأثناء

ولا يمكن رؤية مقاومة داهية الكاهنة للزحف الإسلامي باعتباره جزءاً من العداء الأزلي بين المسلمين واليهود ولا يمكن فهمه من خلال نموذج تفسيري يهودي . ففي مناطق أخرى ومدن أخرى ساعد أعضاء الجماعات اليهودية المسلمين . ولذا ، يجب أن تُوضَّع هذه المقاومة في سياق أكثر عمومية وهو مقاومة القبائل الوثنية للزحف الإسلامي . ونحن لا نعرف كثيراً عن نوع اليهودية التي كانت تتبعها الكاهنة . بل إن بعض المؤرخين يشككون أصلاً في انتمائها اليهودي . لكل هذا يكون الحديث عنها باعتبارها عبقرية يهودية أمراً ليس ذا قيمة تفسيرية تُذكر .

ابن نغريلة (٩٩٣-١٠٥٥)

Ibn Nagrila

هو صموئيل اللاوي بن يوسف بن نغريلة المشهور بين اليهود باسم «شموئيل هانجيد» . وقد عرفه العرب باسم إسماعيل بن يوسف بن نغريلة . وهو رجل سياسة وشاعر وعالم وقائد عسكري عربي يهودي ، ويُعدُّ أهم شخصية يهودية في الأندلس .

وُلد في قرطبة من عائلة غنية ، وأتقن العربية والعربية واللاتينية ولغات البربر ، كما درس القرآن الكريم والتوراة والتلمود على يدي حنوخ بن موسى في قرطبة . وكان يُشيع عن نفسه أنه من نسل داود . فرمى قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي بعد غزو المرابطين لها وفتح دكان توابل في ملقا ، ثم ألحقه الملك حبوس بخدمته حيث عمل بجمع الضرائب ، ثم كاتباً ومساعداً للوزير أبي العباس . وبعد أن أيد باديس ، في معركته ضد أخيه على العرش ، كافأه الملك الجديد وقربه منه وعينه وزيراً له بحيث أصبح ابن نغريلة من أهم الشخصيات في المملكة . وحيث إن باديس كان مستغرقاً في لذاته ومسراته ، فإن ابن نغريلة كان الحاكم الفعلي ، فقاد جيوش غرناطة في معاركها الدائمة مع أشبيلية ، وحقق انتصارات عسكرية عديدة فيها .

ألَّف ابن نغريلة عدة كتب في الشريعة اليهودية ، من بينها مقدمة للتلمود ، وحرَّر معجماً لعبرية التوراة . كما وضع كتاباً يطعن في الإسلام وكتابه الكريم ، فرد عليه أبو محمد بن حزم في كتاب سماه الرد على ابن نغريلة اليهودي . ومع هذا ، كان ابن نغريلة مندمجاً تماماً في الحضارة العربية الإسلامية ، فقد أمراء عصره باجتماع الشعراء وكون نفسه حاشية منهم ، وكان من بينهم عدد من الشعراء المسلمين . وكان هو نفسه يقرض الشعر باللغتين العربية والعبرية وله عدة دواوين . وتتناول قصائده العبرية موضوعات

الجماعات اليهودية عبر التاريخ مثل أينشتاين وتشومسكي ولاسكي ، وعلى مجموعة من المجرمين من أعضاء الجماعات اليهودي في العصر الحديث .

بنيامين التطيلي (القرن الثاني عشر)

Benjamin of Tudela

رحالة إسباني يهودي في القرن الثاني عشر الميلادي لا نعرف الكثير عن حياته الشخصية . ترك سرقسطة في عام ١١٦٠ ، وقام برحلة استغرقت ما بين خمسة وثلاثة عشر عاماً ، زار خلالها نحو ثلاثمائة موضع من بينها : إيطاليا واليونان وكيلىكية وفلسطين وبلاد الرافدين وإيران والهند ، وعاد ماراً بعدن واليمن ومصر وصقلية . وقد دوَّن بنيامين التطيلي ملاحظاته في كتابه رحلات الحاخام بنيامين وهي تتضمن عديداً من الروايات والتفاصيل الطريفة والمهمة . وقد انصب اهتمامه على حضارات البلدان التي زارها وعلى الجماعات اليهودية فيها من حيث أسلوب حياتهم ووظائفهم الأساسية وتنظيماتهم الاجتماعية وحياتهم الدينية . كما أورد إحصاءات عن عدد كل جماعة . ويُعدُّ كتابه من المصادر الفريدة لعدد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، وإن كانت بعض الأعداد التي يوردها تبدو غامضة أو مبالغاً فيها . وقد تُرجم كتابه إلى معظم اللغات الأوربية وضمنها اللاتينية .

داهية الكاهنة (أوائل القرن الثامن الميلادي)

Dahiya Al-Kahina

«داهية الكاهنة» (ويُقال إن اسمها هو «ضميا» أو «ضحيا») هي محاربة من قبيلة الجراورة في جبال أوراس في الجنوب الشرقي للجزائر ، وهي فرع من قبيلة زناتة البربرية الكبيرة تهوّد في القرن السابع بعد الميلاد ، أي قبيل الفتوحات الإسلامية بقليل . قادت داهية القبائل البربرية وقامت بصد الزحف الإسلامي عام ٦٨٨ م حين دمرت جيش حسان بن النعمان الغساني واضطرته إلى الانسحاب إلى طرابلس . وكانت الكاهنة تظن أن القوات الإسلامية هي مجرد جماعات من البدو المغيرين الطامعين في الثروة ، ولذلك قامت بحرق المدن والحقول حتى يرحلوا . ولكن أفعالها جعلت السكان يجأرون بالشكوى منها ويناصبونها العداء وانفض أتباعها من حولها وانضموا تدريجياً إلى جيش الإسلام . وفي الجولة الثانية مع القوات الإسلامية ، يُقال إنها تنبأت بهزيمتها ومقتلها ، وبالفعل نشبت المعركة في عام ٦٩٥ وهُزمت داهية الكاهنة ولقيت حتفها خلالها .

بالحكومة الإسبانية . ف رغم أن هذه العلاقة تمت بمعرفة الحكومة البريطانية ولصالحها ، إلا أنه تبين فيما بعد أنها كانت علاقة ذات أبعاد مريبة وغامضة ، أثارت الشكوك حول لوبيز ، ويبدو أن هذه العلاقة بدأت مع توسط لوبيز للإفراج عن أحد عملاء إسبانيا في إنجلترا ، والذي كان قد أُلقي القبض عليه بعد أن حاول استدراج دوم أنتونيو وإيقاعه في أيدي الإسبان . ومن خلال هذا العمل أبلغ لوبيز الحكومة الإسبانية استعدادة للتوسط بينها وبين إنجلترا في التفاوض من أجل السلام . وقد تمت هذه الخطوة على ما يبدو بعلم وزير الخارجية البريطاني بغرض الكشف عن خطط إسبانيا واستدراجها للتخلي عن حذرها . ومع ذلك ، اتخذت هذه الواقعة فيما بعد دليلاً على تورط لوبيز مع إسبانيا وعملائه لها . وقد قُدد لوبيز صدقته مع دوم أنتونيو نتيجة توسطه للإفراج عن العميل الإسباني بسبب الخلاف الذي ثار بين دوم أنتونيو وسليمان أبنيس صهر لوبيز ، حيث اتهمه دوم أنتونيو بخداع الحكومة البرتغالية والإثراء من ورائها . وقد نجح دوم أنتونيو في الإيقاع بين لوبيز وأحد النبلاء البريطانيين وهو إيرل أوف إسكس Earl of Essex ، وهو ما دفع هذا الأخير للبحث عن دلائل تؤكد عمالة لوبيز لإسبانيا . وبالفعل ، نجح إيرل أوف إسكس في إلقاء القبض على ثلاثة من البرتغاليين من عملاء إسبانيا ، وقد تبين من أقوالهم والخطابات التي وُجدت في حوزتهم أن لوبيز كانت له علاقة سرية بإسبانيا بل وكان عميلاً لأنها يُسَرَّب لها المعلومات ويخطط لاعتقال دوم أنتونيو بانسم وإرغام وريثه على الخضوع لذلك إسبانيا . وأنه كان يعمل على دفع إنجلترا باتجاه السلام مع إسبانيا .

وعند تقديم هذه الأدلة للحكومة البريطانية ، لم تتخذ هذه الحكومة أية إجراءات ضد لوبيز ، حيث إنها كانت على علم باتصالاته بإسبانيا لأغراض التي سبقت الإشارة إليها . وقد رفضت الملكة إليزابيث هذه الاتهامات . ولكن ، في أعقاب ذلك ، ظهرت دلائل جديدة تشير إلى أن لوبيز كان يخطط لوضع السم للملكة إليزابيث نفسها ، فتم إلقاء القبض عليه . وقد أكد لوبيز في البداية أن علاقته بإسبانيا كانت بغرض الحصول على معلومات لصالح إنجلترا ، ولكنه اعترف فيما بعد بأنه وعد بالفعل بوضع السم للملكة ، ولكنه في واقع الأمر لم يكن ينوي الإقدام على ذلك . وبرغم أنه سحب هذا الاعتراف فيما بعد ، إلا أنه كان كافياً للحكم عليه بالإعدام . وقد لُقِّب لوبيز طوال فترة محاكمته بـ «اليهودي الخسيس» . والنمس لوبيز العفو عدة مرات لدى الملكة إليزابيث ، كما تدخل لصالحه سليمان أبنيس ولكن دون جدوى ، ونُفذ فيه حكم الإعدام عام

شئى . وقد طعم الشعر العبري بفنون جديدة اقتبسها من الأدب العربي ، كالشعر القصصي والخمريات والغزل ووصف الممارك ووصف الطبيعة والرائاء . كما طرق فنون الشعر العبري التقليدية مثل قصائد البيوط والأدعية . ولم يكن الشعر الذي كتبه ابن نغريلة بالعربية أو بالعبرية متميزاً . ومهما كانت طبيعة إنجازاته فلا يمكن تفسيرها إلا من خلال نموذج تفسيري يضعه في سياق الحضارة العربية الإسلامية .

رودريجو لوبيز (١٥٢٥-١٥٩٤)

Rodrigo Lopez

طبيب برتغالي من يهود المارانو انتقل إلى لندن نحو عام ١٥٥٩ ، وتخلّى عن الكاثوليكية التي اعتنقتها أسرته منذ ستين عاماً لينضم إلى الكنيسة البروتستانتية الإنجليزية ولكنه ظل على يهوديته في حياته الخاصة . اكتسب سمعة طيبة في مجال الطب نظراً لعبقريته الفائقة في هذا المجال ، وأصبح واحداً من أهم أطباء لندن ، ودخل في خدمة أحد النبلاء البريطانيين المقربين للملكة إليزابيث ، ثم أصبح رئيس أطباء الملكة عام ١٥٨٦ . ويُقال إن لوبيز حصل على احتكار استيراد العديد من السلع ، كما منحت له الملكة سفينة ملأى بصكوك الغفران أصدرها البابا وكانت في طريقها إلى العالم الجديد لتباع هناك ، واستولى عليها الأسطول البريطاني وهي في طريقها . ولعل الملكة منحتة حمولة هذه السفينة لأنه يهودي له اتصالات كاثوليكية ومن ثم ليست هناك مشكلة أخلاقية ولا عملية في بيعه هذه السلعة شبه المقدسة . ومع هذا ، لم ينجح لوبيز في تسويق سلعته .

ولم يقتصر نشاط لوبيز في بلاط الملكة على الطب ، إذ اتضحت عبقريته أيضاً في قدرته على تدبير الخطط والمؤامرات بالاشتراك مع وزراء الملكة ، وساعدته على ذلك شبكة علاقاته بأقاربه من يهود المارانو في انثورب وليجهون وإستنبول . فانضم إلى الدائرة البيوريتانية في بلاط الملكة التي كانت تسعى للحرب مع إسبانيا الكاثوليكية ، ونجح من خلال شبكة علاقاته في توفير معلومات ساعدت في هزيمة الأسطول الإسباني عام ١٥٨٨ . وقد كان صهره سليمان أبنيس من مؤيدي السياسة البريطانية داخل البلاط التركي ، حيث كان يعمل مستشاراً للسلطان . وعمل لوبيز على حث إنجلترا على تأييد دوم أنتونيو المطالب بعرش البرتغال ، وساهم في كسب دعم الملكة إليزابيث لحظة تقضي بغزو دوم أنتونيو للبرتغال عام ١٥٨٩ ، وهي خطة انتهت بالفشل . ورغم كل ذلك ، يبدو أن لوبيز كانت له علاقة مشبوهة

طموحاً ، ينبغي أن يحقق حراكاً اجتماعياً سريعاً . وقد تقدّم للإمبراطور بطلب الحصول على لقب النبيل ، ولكن لم يُستجَب لطلبه . ويبدو أنه كان إنساناً جسمانياً لا يكف عن ملاحقة النساء ، سواء كن من طبقة النبلاء أم من الخادמות . ورغم كل هذا ، كان أوبنهايمر يتباهى بيهوديته ، وهو ما يدل على أنه عرفها تعريفاً إنشائياً خالياً من أي مضمون أخلاقي ، وهو التعريف الذي قُدِّر له الشيوع في العالم الغربي الحديث .

عمل أوبنهايمر مع قريبه يهودي البلاط صموئيل أوبنهايمر ، وجمع ثروة كبيرة إلى أن أصبح هو نفسه يهودي بلاط (وهي وظيفة تشبه وظيفة وزير المالية أساساً ، ولكن يدخل ضمنها أيضاً الشؤون الخارجية والمخابرات) حينما أصبح الدوق كارل ألكسندر حاكماً لدوقية ورتمبرج ، وكان الدوق كاثوليكياً في حين كانت جماهير دوقيته لوثرية . وكان يود تطوير دوقيته على أسس مركنتالية تجارية ومطلقة ، ولكنه كان ، في ذات الوقت ، يحيا حياة شخصية فاسدة ، ولذا نشأت عنده حاجة ماسة إلى المال . ومن هنا كان دور أوبنهايمر الذي كان إنساناً اقتصادياً بمعنى الكلمة يود تعظيم الربح بالنسبة للدولة ولنفسه ، وكان يُعدّ عبقرية في اكتشاف مصادر جديدة للربح . وبعد أن قام الدوق بعزل كل مستشاريه ، أصبح أوبنهايمر مستشاره الوحيد تقريباً فبذل قصارى جهده لتقوية قبضة الدولة على كل المصادر المالية عن طريق فرض ضرائب جديدة . كما احتكر بيع الملح والجلد والخمور والتبغ ، وأسّس مصنعاً للخزف وآخر للحديد ، وأنشأ داراً لصك النقود ، وأقام أول بنك في جنوب ألمانيا . ولم يتوان أوبنهايمر عن توظيف كل من المسيحيين واليهود لتحقيق الربح ، فضغط على الكنيسة لتدفع أموالها في البنك المركزي ، الأمر الذي أثار حقد وغيظ الكنيسة ضده . وقد قام بتوطين جماعة من اليهود في ورتمبرج ، وأوكل إليهم حق توريد المعدات الحربية وحقق من خلال ذلك أرباحاً كثيرة .

وقد تسبّب فساد الدوق في إفقار جماهير دوقيته وتزايد السخط ضده . وحينما مات الدوق ، أُلقي القبض في اليوم نفسه على أوبنهايمر الذي دافع عن نفسه بقوله إنه لم يفعل شيئاً دون أمر الدوق ، ولكن المحكمة حكمت بإعدامه شنقاً . وقد كتبت عدة روايات عن حياته . ويشير النازيون في دعايتهم إلى أوبنهايمر باعتباره نموذج المموّل اليهودي العبقري ، ولكن عبقرته من النوع الإجرامي فهو يستغل المسيحيين وينهب أموال الدولة ويُفسد الإنان من جميع الطبقات .

وموقف النازيين من اليهود لا يختلف كثيراً عن موقف

١٥٩٤ . وقد نالت قضية لوبيز اهتماماً جماهيرياً واسعاً في إنجلترا ، واتخذها بعض الأدباء مادة لأعمالهم ، واتخذوا لوبيز نموذجاً لشخصيات روائية مثل مسرحية يهودي من مالطة للمارلو ومسرحية تاجر البندقية ، التي يُقال إن شكسبير كتبها نتيجة هذه المحاكمة وأن شخصية المرابي شاييلوك اقتُبست عن نموذج لوبيز .

وقد بينت الوثائق التاريخية فيما بعد صحة جوانب كثيرة من الاتهامات الموجهة للوبيز ، لكنها بينت أيضاً عدم وجود دلائل قاطعة تؤيد تورّطه في مؤامرة لاغتيال الملكة إليزابيث .

ولوبيز مثل جيد على العرقية التي يتداخل فيها الشر مع الخير ، والإبداع البناء مع القدرة على التدمير (الإبداع التفكيكي) . وهو شخصية مكافيللية كاملة كانت توجد بكثرة في بداية عصر النهضة في الغرب ، وقد تناولها أدباء العالم الغربي في أعمالهم الأدبية . ولا يمكن تفسير عبقرية لوبيز في الخير والشر بناء على يهوديته ، وإن كان اتصافه ليهود المارانو يُفسّر بعض الجوانب الخاصة ، مثل اتساع نطاق حركته وزيادة مقدراته بسبب شبكة الاتصالات الدولية المارانية ومعرفته بعدد كبير من اللغات .

جوزيف (وبنهايمر) (١٦٣٥-١٧٠٣)

Joseph Oppenheimer

يُسمّى أيضاً «يود سوس» أي «اليهودي سوس» . وهو يهودي بلاط وعمول ، وُلد في هايدلبرج (ألمانيا) ، لمثل يهودي متجول كان يقوم أيضاً بجمع الضرائب ، ويُشاع أنه كان الابن غير الشرعي لفارس ألماني . تلقى في طفولته تعليماً دينياً حتى أصبح حاخاماً ، ولكنه أثر العمل في الأمور المالية . ولم يكن مكثرناً كثيراً باليهودية ، إلا أنه لم يتنصّر على عكس أخويه .

وبيّن أسلوب حياته مدى عمق التغيير الذي طرأ على حياة الجماعات اليهودية في أوروبا ، أو على الأقل على قيادتها ، وهي تغيرات لا تعدو أن تكون صدى للتغيرات التي لحقت بالمجتمعات الغربية . فأوبنهايمر لم يمارس أيّاً من شعائر اليهودية ، إذ كان ربوياً أي يؤمن بالرب الذي يحل في الطبيعة دون أن يؤمن بأي دين ، شأنه شأن الكثير من مثقفي عصر الاستنارة . وكان يحيا حياة كبار نبلاء أوروبا إبّان عصر الملكيات المطلقة ويرتدي زي النبلاء المسيحيين . وكانت مكتبته مكوّنة من أعمال ألمانية في السياسة والتاريخ والقانون . وكان له منزل في كلٍّ من فرانكفورت وشتوتغارت على الطراز الأوربي ، علّقت على حوائطهما لوحات لرمبرانت وغيره من الفنانين الغربيين . وكان أوبنهايمر إنساناً حديثاً بمعنى الكلمة ،

آلة حسابية ، كما أصبح عضواً في الجمعية الملكية في لندن عام ١٧٦٠ ، ثم عُيِّن مترجماً مكتبياً للغتين الإسبانية والبرتغالية عام ١٧٦٥ .

لعب بريير دوراً فعالاً في إغاثة اليهود السفارد في باريس ، حيث تطوَّع ليعمل كمستشار غير رسمي لهم منذ عام ١٧٤٩ ، إلى أن عُيِّن رسمياً في هذا المنصب عام ١٧٦١ .

وقد توفى بريير عام ١٧٨٠ ودُفِن في مدافن لافليت ، بعد أن حصل على قرار بذلك ، ومن ثم فإنها تُعتبر من المدافن القانونية الأولى لليهود في فرنسا . وفي عام ١٩٢٩ ، أقيم له نصب تذكاري في اليرتغال .

ولم يكتب بريير كثيراً ، إلا أن فكره كما نقله سجون نال اهتمام انثربوين في القرن العشرين ، وأهم مؤلفاته هو ملاحظات عن الصم البكم .

ولا يمكن تفسير اهتمام بريير بالصم والبكم والاتصال بهم على أساس يهوديته . ومع هذا ، يمكن الإشارة إلى أن الجماعات الوظيفية لها دائماً لغتها الخاصة ، بل وأحياناً لغتها السرية ، وهو أمر ينطبق على البارون ولا شك . واللغة السرية هي لغة خاصة ، لا تُفهم إلا من خلال شفرة خاصة ، ونلح من نشأ يتحدث لغة سرية تتولد داخله مقدرة غير عادية في تطوير مثل هذه اللغات .

يعقوب صنع (١٨٣٩-١٩١٢)

Yaqub Sanu

كاتب عربي مصري يهودي وأحد رواد المسرح المصري وأنصحافة المصرية الساخرة . كان يعقوب الابن الوحيد لوالديه النذيين فقد أربعة أولاد بعد ولادتهم ، وحينما حملت به أمه نصحتها إحدى صديقاتها أنسلمات (كما هو الحال في البيئة المصرية الصميّة في ذلك الوقت) أن تغيب بركة إمام مسجد الشعراني الذي كان يكتب التمانم والتعاويد والأحجية . ويذكر يعقوب صنع أن الشيخ قال تلام : «إن ربنا سيبارك ثمرة أحشائك وسترزقن بولد» ثم أكمل نبوءته : «وإن نذرتيه لندفع عن الإسلام فلسوف يعيش ، اكسبه من حسنات المؤمنين ليكون متواضعاً ، ولسوف يجد ما يريد بفضل بركة خالقه » . وأطاعت المرأة ما أمرها به الشيخ ، وأقراها زوجها على أن يهب ابنه للإسلام والمسلمين ، غير أنه اعترض في أول الأمر على فكرة كساة الطفل المرتقب من حسنات المحسنين ، واعتبر في ذلك مهانة لا تليق به ، وهو يتمتع بالخطوة لدى البلاط ويستشير الأمراء في مسائلهم الخاصة (أي أن المكانة الاجتماعية

الصهاينة . فكلاهما ينزع العبرية اليهودية من سياقها ويؤكد البعد اليهودي على حساب كل الأبعاد الأخرى . فلا يمكن فهم أوبنهايم باعتباره يهودياً خالصاً يُعبّر عن جوهر يهودي ، وإنما باعتباره نموذجاً لإنسان العصر الحديث الذي بدأت تتحدد ملامحه منذ عصر النهضة الغربية . فأوبنهايم ربوبي ، يضع نفسه خارج أية منظومة دينية ، ولكننا نكتشف أنه ليس ربوبياً وحسب بل كان إنساناً طبيعياً يضع نفسه خارج أية منظومة أخلاقية . فقد كان أوبنهايم إنساناً اقتصادياً حقيقياً يحاول تعظيم الربح ، وإنساناً جسدانياً يحاول تعظيم اللذة ، وهو في هذا ليس نموذجاً فريداً على الإطلاق ، وإنما شخصية نماذجية : إنسان طبيعي لا تحدّه حدود أو قيود يعيش حسب قوانين الطبيعة/ المادة .

أما يهوديته التي كان يتباهى بها فإنها لم تحدّد سلوكه الإجرامي ولا عبقرته المالية ، فهو ابن عصره ، أداة في يد الدوق/ الدولة ، لا يختلف في هذا عن أيخمان وبريا وغيرهما من جزاري العصر الحديث البيروقراطيين ، الذين يذبّحون بمنهجية شديدة وحسبما يصدر لهم من تعليمات لا يتجاوزونها .

جيكوب بريير (١٧١٥ - ١٧٨٠)

Jacob Periere

أول معلم للصم البكم في فرنسا . وُلد في إسبانيا عام ١٧١٥ لأب من يهود المارانو ، وبعد وفاة والده ، هربت أمه به إلى مقاطعة بوردو في فرنسا ، وهناك أعلن يهوديته . ويُقال إن حب بريير لفئة بكما كان وراء محاولاته إيجاد وسيلة للاتصال بالصم البكم . أمضى عشر سنوات في دراسة التشريح والفسيولوجيا وتجريب طرق مختلفة للاتصال بالصم البكم (خلقياً) إلى أن تمكّن من اختراع طريقة للاتصال معهم . واعتمدت طريقته هذه في تدريب الصم البكم على إصدار أصوات محددة واضحة وعلى حركة الشفاه وليس على الإشارات كما كان متبعاً من قبل ، ومن ثم كان أول من أحرز بعض النجاح معهم . ألهمت طريقته هذه كثيراً من المربين المهتمين بتعليم الصم البكم ، ومن أهمهم أدوار سجون . ولم تقتصر جهود بريير على تعليم الصم البكم ، بل عمل الكثير من أجل أن ينالوا معاملة تليق بإنسانيتهم .

وقد ذاعت شهرة بريير ، وتلقى كثيراً من الدعوات للتعليم في أنحاء أوروبا . وفي عام ١٧٤٩ ، قَدِمَ إلى الأكاديمية الملكية في باريس بحثاً يشرح فيه طريقته في تعليم الصم والبكم . وفي العام الذي يليه نال منحة من الملك لويس الخامس عشر قدرها ثمانمائة جنيه لاختراعه

الفرنسية والإنجليزية والإيطالية . وقد أعجب به الخديوي في أول الأمر وخلع عليه لقب «موليير مصر» (ولكنه قام بتعنيفه حينما كتب مسرحية عن تعدد الزوجات) .

ولكن يعقوب صنوع لم يكن يتحرك داخل دائرة البلاط الملكي والمسرح وحسب ، إذ بدأ يهتم بالدائرة الفكرية التي تحلقت حول جمال الدين الأفغاني ، الذي شجعه هو والشيخ محمد عبده على الكتابة في الصحف ، بل وعلى إنشاء صحيفة عربية تُكتب بالعامية . وحكى لنا يعقوب صنوع كيف وقع اختياره على اسم أبو نظارة . فبعد أن قرر تأسيس مجلة خرج من بيت الأفغاني فأحاط به المكارية (أصحاب الحمير) وكان كل واحد منهم يريد أن يختار يعقوب حمارة ، ويقول : «ده يا أبو نظارة» ، فأعجبه النداء واختاره اسماً لصحيفته . وقد أعجب بهذا الاسم كثيرون من أصدقاء يعقوب ، حيث يوحى بأن صاحبه رجل يرى من بعيد ، وفي ذلك ما يعني أنه رجل ملهم (ذو نظر) لا تفوته فائتة . وكانت الصحيفة ذات توجه اجتماعي ناقد ؛ فنددت بزيادة الضرائب والتدخل الأجنبي وهاجمت الوزراء بأسلوب ساخر ملتو ونكات وفكاهات ، وشجعت المصريين على الشكوى وبصّرهم بحقوقهم .

وهنا لابد أن نتوقف عند علاقة يعقوب صنوع بالماسونية ، إذ يذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن يعقوب صنوع وجمال الدين الأفغاني قد نشطا في التنظيمات الماسونية ، وأن هذه التنظيمات لعبت دوراً « في دعم الحركة الوطنية المصرية الوليدة » . وقد بينا في مدخل الماسونية في هذه الموسوعة أنه لا توجد ماسونية واحدة بل عدة ماسونيات . وكانت التنظيمات الماسونية في بلاد أفريقيا وآسيا تضم الأجانب بالدرجة الأولى ، حيث كانوا يتمتعون بمزايا وحقوق خاصة وبمساندة القناصل الأوروبيين . وقد استخدمت كل دولة أوروبية المحفل الماسوني التابع لها كأداة في صراعاتها الاستعمارية بين بعضها البعض . وقد استفاد كثير من زعماء الحركات الوطنية من هذا الوضع ، تماماً كما يحدث الآن حين يتمتع زعيم حركة وطنية بدعم فرنسا على سبيل المثال فيعطى حق اللجوء السياسي للإقامة في باريس ، بل وممارسة نشاطه السياسي . ووجود مثل هذا الزعيم يمثل بالنسبة لدولة المأوى ورقة ضغط في صراعها مع القوى الغربية الأخرى . كما أن هناك دائماً احتمال أن يصل إلى الحكم ، ولذا فمن الحكمة أن تبقى الجسور مفتوحة معه . وفي هذا الإطار يمكن فهم انضمام يعقوب صنوع والأفغاني لمثل هذه التنظيمات وترحيبها بهما وبغيرهما من المثقفين والسياسيين الثوريين .

داخل المجتمع المصري عنده كانت أكثر أهمية من الانتماء الديني) . غير أن الزوجة أصرت على أن تلبى نصيحة شيخ الصريح بحذافيرها لتضمن سلامة وليدها حين يرى النور ! (اعتمدنا في هذا المدخل بالدرجة الأولى على السيرة التي كتبها الدكتور إبراهيم عبده ليعقوب صنوع وعلى مقال للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى) .

يذكر أبو نظارة أنه حين كبر حفظ القرآن وعاهد والدته على أن يُوفي نذرهما وأن يُجند نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين وأنه جعل رسالته « مكافحة الأباطيل التي تُفرق بين المسلمين والمسيحيين ، بإظهار سماحة القرآن وحكمة الإنجيل ، وهكذا تتسنى لي الملامة بين قلوب الفريقين » . ويقول كاتب سيرة يعقوب صنوع الدكتور إبراهيم عبده « إنه لم يشر قط في تاريخه إلى أنه وكّد لأبوين يهوديين » . فإذا أضفنا إلى هذا موقف والده من الانتماء الديني ، فإن هذا يعني أن أسرة صنوع كانت مندمجة حضارياً تماماً في المجتمع المصري وأن البعد اليهودي (حتى من الناحية الدينية الشكلية) كان قد شارف على الاختفاء . وحينما بلغ يعقوب صنوع الثانية عشرة من عمره كان يقرأ التوراة بالعبرية والإنجيل بالإنجليزية والقرآن بالعربية . كما كان قد أجاد عدداً من اللغات منها : العربية والعبرية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية . ثم أرسل في بعثة دراسية إلى إيطاليا في مدينة ليجهورن (على نفقة الحكومة المصرية) . فمكث ثلاث سنوات درس أثناءها الاقتصاد السياسي والقانون الدولي والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة .

ولكن الأهم من هذا أن الحركة القومية الإيطالية (الهادفة إلى التحرر من السيطرة النمساوية وتحقيق الوحدة الإيطالية) كانت آنذاك محتمدة وظهرت جمعيات سرية وطنية مثل الكاربوناري وجمعية إيطاليا الفتاة .

ويرى الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن يعقوب صنوع قد تشرب كثيراً من هذه الأفكار القومية ، إبان إقامته . وعند عودته اشتغل بالتدريس في مدرسة الهندسة ، كما قام بتعليم أبناء رجال البلاط . ولكنه لم يقنع بهذه الوظيفة المريحة فشخصيته كانت مبدعة حركية ، ففكر في إنشاء مسرح وطني يقدم تمثيليات عربية . وكانت أولى محاولاته المسرحية عام ١٨٦٩ إذ مثل مسرحية فودفيل قصيرة تتخللها أشعار ملحنة تلحيناً شعبياً في القصر أمام باشوات وبكوات البلاط الخديوي الذين ضحكوا للتمثيلية من أعماق قلوبهم . وشجعوه على عرض مسرحياته في حديقة الأزبكية . فألّف فرقة مسرحية من تلاميذه وكان هو مدير المسرح ومؤلف التمثيليات ، كما كان يقوم أحياناً بدور الملحن . وكان يُقدم تمثيليات مُترجمة عن

وقد ظل يعقوب صنوع شأنه شأن كثير من رواد الحركة الوطنية في مصر يتصور أن بعض القوى الغربية (فرنسا على وجه التحديد) يمكنها أن تساعد المصريين ضد الاحتلال الإنجليزي ، ولكن خابت آماله عام ١٩٠٤ بعد توقيع صفقة الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا التي تم بمقتضاها حسم التناقضات بين القوتين الاستعماريتين . وقد ظل يعقوب صنوع يُعبر عن إعجابه بالسلطان عبد الحميد طيلة عشرين عاماً نتيجة مقاومته الأطماع الأوربية (وكان السلطان يباهله الإعجاب) . ومع هذا رَجَب يعقوب صنوع بدستور ١٩٠٨ فظناً منه أنه بداية حقيقية للإصلاح وللتصدي للنهم الاستعماري الغربي .

وقد كتب يعقوب صنوع قصيدة بالعربية الفصحى بعنوان «القول الوجيز في دخول الإنجليز» وكيف سلمها اخوته للغزاة جاء فيها :

مصر الفتاة أبو سلطان أسلمها
وإنما أسلم الإسلام بالذهب
هم رأسوء على النواب يرشدهم
فكان نائبه من أكبر النوب
وقد أثار نهب النار ندوته
فصار أوني بأن يدعى أبا نهب
تبت يده على ما جاء من عمل
ثم يأت خائن في سالف الخقب

ولا يمكن القول بأن القصيدة من عيون الشعر العربي ، فهي لا تختلف كثيراً عن مثل هذه القصائد التي تكتب في المناسبات وتبع قوالب لفظية ومجازية جاهزة . ولكن ما يهمني هنا هو المصطلح العربي الإسلامي الواضح .

وتبيد عبقورية يعقوب صنوع بشكل أوضح وأكثر بلورة حين يترك الخطاب البلاغي التقليدي ويستخدم روح الفكاهة المصرية ويُعبر عن الشخصية المصرية ، كما في مقاله الفكاهي عن الخديوي إسماعيل الذي يتحدث فيه عن «مناقبه» فقال : « وكفك أنه لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا . ولا يوجد في وقت الصلاة إلا جنباً . وفي رمضان إلا مفطراً . نعم يصوم ولكن عن الخيرات . ويستقبل الفجر ملتطخاً بنجاسة الفحشاء . فاجر يقتات بالكبائر . ويتفكك بالصغائر . ويروح من مولاة شاكياً ولشيطانه شاكراً ، فكانه عاهد إبليس فلم يخن له عهداً ، ووعده أن يجد عنده كل معصية فلم يخلف له وعداً » .

ورغم أن المقال مكتوب بالفصحى إلا أنه كتب على طريقة كُتَّاب هذه المرحلة ، كما أنه يتلاعب بالألفاظ وبترباطها بطريقة تُصعد حدة السخرية والفكاهة .

وقد أدَّى توجُّه مجلة أبو نظارة إلى مصادرتها المستمرة ولذا كان يعقوب صنوع يضطر لتغيير اسمها ، فهي مرة أبو نظارة ومرة أخرى أبو نظارة زرقاء وثالثة رحلة أبي نظارة زرقاء ورابعة النظارة المصرية . بل وكان يصدر ما يسميه إبراهيم عبده «مجلات الضرورة» (الضرورة التي فرضتها عليه القوانين المتعسفة) فكان يصدر المجلة تلو الأخرى فلا يُغيّر سوى اسمها ، فهي أبو صفارة وحينما أغلقت أبو صفارة ظهرت أبو زمارة التي جاء في افتتاحيتها التي تعبر عن روح الدعاية المصرية ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أنبيائه أجمعين . أما بعد فيقول العبد الحقير أبو زمارة . لما بلغني بأن صدر أمر من ناظر الخارجية . بقبض وكسر الصفارة . الساعية في استحصال التمدن والحريّة . قلت ياربى نور عقلي وفهمي . وانصرتني على الواد الأمرد مصطفى فهمي . إلی أمر بتعطيل صفارتي البهية . العزيزة عند الشبان المصرية » .

وحينما أغلقت أبو زمارة صدرت مجلة الحايي التي وصفها صاحبها بأنها «الحايي الكاوي إلی يطلع من البحر الداوي عجائب النكت للكلسان والغاوي ويرمي الغشاش في الجب الهاوي» .

ويقول الدكتور عبد الرحيم مصطفى إن يعقوب صنوع قام بتأسيس جمعيتين علميتين أديبتين أطلق على أولاهما اسم «محفل التقدم» ، وعلى الثانية اسم «محفل محبي العلم» وترأسهما بنفسه . وفي هاتين الجمعيتين كانت تُلقى المحاضرات عن تقدّم الآداب والعلوم في أوروبا مع الاهتمام بالتاريخ والسياسة والأدب والممارسات التعليمية والإشارة بوجه خاص إلى ما حققته فرنسا وإيطاليا في هذا المضمار . وأشار يعقوب صنوع إلى أنه كان يحضر اجتماعات كل من الجمعيتين المسلمون والمسيحيون واليهود ، وأن الجمعيتين لقيتا الإقبال من طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش ، كما ذهب إلى أنهما هما اللتان وفرتا الإطار فيما بعد لظهور الحزب الوطني (القديم) .

وقد أغلقت الجمعيتان ونُفي يعقوب صنوع إلى خارج البلاد عام ١٨٧٨ فاستقر في باريس إلى آخر حياته . وهناك التقى بأديب إسحاق والأفغاني ومحمد عبده وإبراهيم المويلحي وخليل غانم ثم مصطفى كامل وغيرهم ، وواصل دعايته للقضية الوطنية بعد الاحتلال البريطاني ، فأصدر العديد من الصحف بالعربية والفرنسية . وأخذ ينتقل في أوروبا للدفاع عن وطنه واشترك في الحملات التي شنت على الخديوي إسماعيل والاحتلال البريطاني ، وراسل عرابي في منفاه في سيلان ، وعبر عن ابتهاجه بانتصار اليابانيين على قوة غربية بيضاء مثل روسيا القيصرية .

تخادُّلهم وسخر من الإنجليز الذين مثَّلوا بجثة المهدي بعد استرجاع السودان .

والآن ، هل يمكن ليهودي خالص ، صاحب عبقورية يهودية خالصة أن يأخذ مثل هذه المواقف الفكرية والسياسية ، وأن يستنجد الفصحى والعامية بهذه الطريقة ، وأن يترجم مواقفه السياسية اللاذعة المعارضة إلى مجموعة من التكت اللاذعة ؟ السؤال بطبيعة الحال خطابي غير حقيقي ، فلا يمكن أن يفعل هذا إلا مصري عاش في صميم المجتمع المصري (لا في مسامه) وتشرَّب خطابه الحضاري المصري العربي الإسلامي ؛ مصري كتب له إمام المسجد الشعرائي حجاباً ونذرته أمه لخدمة الإسلام والمسلمين فعاهد أمه على الوفاء بنذرها ، فهو ثمرة رائعة للمجتمع المصري (العربي الإسلامي) بتركيبته وعراقته وتسامحه ! ومع هذا لا بد أن نشير إلى أن البُعد اليهودي قد يُفسَّر حركية يعقوب صنوع الزائدة وقدرته الفاتكة على التحرك داخل تشكيلات حضارية مختلفة واستيعابها وتعلُّمه العديد من اللغات . ومع هذا يظل انتماءه إلى مجتمعه المصري العربي المسلم هو العنصر الأكثر تفسيرية .

ويشير أبو نظارة قضية الهوية اليهودية والثقافة اليهودية ، إذ تصنفه المراجع الصهيونية باعتباره « مثقفاً يهودياً » وهو تصنيف لا يُفسَّر أياً من الجوانب المهمة من حياته ، أدبية كانت أم سياسية ، وهي حياة لا تُفهم في كليتها إلا بالعودة إلى حركيات المجتمع المصري وتقاليد الفكاهة المصرية وحركة التحرر الوطني في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

هاري هوديني (١٨٧٤-١٩٢٦)

Harry Houdini

اسمه الأصلي إريك فايز . ساحر استعراضى أمريكي يهودي وُلد في الولايات المتحدة لعائلة يهودية من رجال الدين من أصل مجري . التحق في سن مبكرة بالسيرك لتقديم الاستعراضات البهلوانية ، ثم انتقل مع عائلته إلى نيويورك حيث بدأ في تقديم الاستعراضات السحرية واتخذ اسم هاري هوديني . وتميَّزت استعراضاته بالإبهار وبالحيل السحرية الفذة وتخصَّص في عملية الهرب من السلاسل أو الحبال والأماكن المحكَّمة الإغلاق . وقد أصبح هوديني من أكثر مقدمي الاستعراضات شهرة في عصره وأعلامهم أجراً ، وقدم عروضه في العديد من الدول وأصبح يُشار إليه بلقب «عظيم ساحر في العالم» ، كما ساهم في تأسيس نادي السحرة في لندن وفي تأسيس جمعية السحرة الأمريكيين .

ولكن عبقورية يعقوب صنوع الحقيقية تظهر في استخدامه العامية المصرية للتعبير عن روح الفكاهة فالخديوي هو « شيخ الخارة » ، والخديوي توفيق هو « توقيف » ، والفلاح المصري هو « أبو الغُلب » وهكذا ، وقد أشرنا من قبل إلى افتتاحيات أبو زمارة والحايي . وتظهر روح الدعابة المصرية في القصيدة الساخرة التي كتبها يعقوب صنوع بعد نشوب الثورة المهدية في السودان والتي يُشيد فيها بشجاعة السودانيين ويُسهر بالإنجليزية :

يا محلا لنجليزية

أم عين زرقا وشعر أصفر

يا خسارة دالصيبة

في جوزها العسكري الأحمر

شفتها امبارح بالسيادي

ماكنش حولها انجليزية

فقلت لها ياميلدي (My lady) (١)

جيف مي إي كيس إيفر يو بليز (Give me a kiss if you please) (٢)

◆◆◆

أنا في عرضك وان كيس (One kiss) (٣)

قالت جودام بلادي فول (Goddam bloody fool) (٤)

بلا فول بلا شعر

ماتبتغديش علي

أنا ابن المهدي الكبير

احلمي علي شوية

◆◆◆

فشنا المهدي منصور

والجردون في الشق مكتوم

تاني يوم جابوه أسير

في مصيدة سودانية

أمام المهدي الشهير

مع ضباطه لنجليزية

◆◆◆

(ومعنى العبارات الإنجليزية على التوالي هو : ١) سيدتي - ٢) أعطيني قبلة واحدة من فضلك - ٣) قبلة واحدة - ٤) لعنة الله عليك يا مجنون . والقصيدة كما نرى مصرية تماماً ، تُعبّر عن الروح الشعبية المصرية أحسن تعبير ، في محاولتها استيعاب الآخر المعتدي داخل منظومتها وتحويله إلى مجرد هدف للسخرة .

وحينما هُزمت الثورة المهدية بكت يعقوب صنوع المصريين على

وبعد أن فرغ من صياغة النظرية النسبية العامة ، انشغل أينشتاين في مسألتين : المسألة الأولى تنفيذ مبدأ اللابتن الذي يفترض استحالة دقة قياس نقطة ما وسرعة جسم في آن واحد من حيث المبدأ (لا من حيث قصور آلات القياس) ، أو بصياغة أخرى : مبدأ استحالة فصل التجربة عن المحرر . والمسألة الثانية هي وضع نظرية عامة واحدة تفسر أنواع القوى (التفاعلات) الأولية كافة ، ولكنه لم يكن موفقاً في محاولاته هذه .

وفي عام ١٩٣٣ ، اضطر أينشتاين إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة بعد أن استولى هتلر على السلطة . وأصبح أينشتاين مواطناً أمريكياً ، واستمر في بحوثه العلمية . ولكنه كان قد بدأ يدرك أن العلم أصبح مثل حدّ موسى في يد طفل في الثالثة من عمره ، إذ أدّى امتلاك وسائل الإنتاج العجيبة في تصوّره ، إلى تزايد القلق والجوع بدلاً من الحرية .

وقد لعب أينشتاين دوراً مهماً في تطوير القنبلة الذرية أثناء الحرب ، ولكنه عارض استخدامها بل وطلب بحريه التقابل الذرية والهيدروجينية . وأثناء الحقبة المكارثية (الإرهابية) طُلب أينشتاين العلماء ألا يدلّوا بشهادتهم أمام جُان التحقيق . وقد استمر أينشتاين في أبحاثه العلمية حتى وفاته .

وموقف أينشتاين من الإله والدين يستحق بعض التأمل ، وهو موقف يشبه موقف كثير من المفكرين العلمانيين الذين فقدوا الإيمان الديني ، وتنبأ بوقفة من الإنسان . لقد أدرك أينشتاين أن الإنسان كيان غريب مليء بالأسرار ، فقد صرح ذات مرة أن « قانون الجاذبية غير مستوول عن الحب » ، أي أن القانون الطبيعي لا يفسّر الوجود الإنساني ، ولكنه اتجه في بعض تصريحاته إلى ما يمكن تسميته «الديانة الإنسانية» فعبر عن إعجابه بمقدرة الإنسان على فهم ما حوله ، ورأى أن هذه المقدرة شكل من أشكال التفوق اللانهاشي على الطبيعة ، ومن هنا فإن الإنسان يقع عليه عبء أخلاقي ، ولكن مسؤوليته الأخلاقية تكون تجاه نفسه وليس تجاه أي إله .

بيد أن هذه ليست نهاية القصة ، إذ يستمر تأرجحه دون توقّف فيصرّح بأن الإله لا يلعب بالعالم ، أي أن العالم يتبع نظاماً واضحاً يتجلى من خلال الإرادة الإلهية . ولكن هذا الإله يشبه من بعض النواحي إنه إسبينوزا . فهو ليس إلهاً ذا إرادة يحب البشر ويعطف عليهم ، يُثيب الناس ويعاقبهم ، وإنما هو مبدأ آلي عام . ولكن العالم الكبير ، صاحب نظرية النسبية ، يجد أن هذا الموقف لا يعبر عن الحقيقة كلها ، ويؤكد أن العلم الحديث ألقى بظلال من الشك على السببية الآلية التي تشكل إطار الرؤية الإسبينوزية الساذجة .

وقد اعتمد هوديني في تقديم عروضه على درايته بعلم الميكانيكا وعلى المؤثرات البارعة وعلى اللياقة البدنية الفائقة . كما اهتم بفضح الدجالين والمشعوذين وتحذير الجمهور ممن يدعون امتلاك قدرات خارقة للطبيعة أو اتصالهم بالأرواح . وقد ألّف كتابين في هذا الشأن : تجار المعجزات وأساليبهم (١٩٢٠) ، وساحرين الأرواح (١٩٢٤) .

ومن الصعب بمكان محاولة تفسير مقدرات هوديني بناءً على انتمائه اليهودي . والتفوق في مجال الرياضة التي تعتمد على القوة العضلية هو إحدى الطرق المفتوحة والسهلة التي يمكن لعضو الأقلية إثبات تفوّقه من خلالها ، وهو أمر ليس مقصوداً على أعضاء الجماعات اليهودية وحدهم . فمجال الملاكمة في الولايات المتحدة شهد في بداية الأمر تفوق الملاكمين من أصل إيطالي ثم الملاكمين من أصل أفريقي (وأشهرهم محمد علي كلاي) . وانتصار عضو الأقلية في حلبة المصارعة على ممثل الأغلبية يرفع معنويات أعضاء الأقلية بدرجة ملحوظة .

ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥)

Albert Einstein

عالم طبيعة ، ومكتشف نظرية النسبية وحائز على جائزة نوبل . وُلد في ألمانيا ونشأ وتعلّم فيها ، وعمل بعد تخرّجه في مكتب براءات الاختراع بمدينة برن في سويسرا وأصبح مواطناً سويسرياً . تمكّن أثناء هذه الفترة من إنجاز عدة أبحاث . وفي عام ١٩٠٥ ، نشر دراسات عن : النظرية الخاصة بالنسبية وعلم البصريات ، وعُيّن أستاذاً على أثر ذلك في عدة جامعات بألمانيا . وفي عام ١٩٢٠ ، نشر دراسته عن : النسبية العامة والنسبية الخاصة ، حيث بيّن أن مبدأ النسبية ينطبق على الحركة وشرح فكرة البعد الرابع واثناء الفراغ .

ويُعدّ ألبرت أينشتاين أحد رواد الفيزياء الحديثة ، فهو صاحب نظرية النسبية الخاصة التي نجحت في التوصل إلى أساس لعلاج التناقضات بين نظرية نيوتن للحركة ونظرية ماكسويل للحركة الكهرومغناطيسية . وكان من أهم نتائج النسبية الخاصة مفهوم تدّاخل الزمان والمكان وتراؤف الطاقة والكتلة . وقد تبع ذلك بالنظرية النسبية العامة التي تُعتبر تعميماً للنسبية الخاصة حيث تتضمن حركة الأجسام تحت تأثير الجاذبية . وبالإضافة إلى نظرية النسبية ، ساهم أينشتاين في تطوير النظرية الكمية من خلال تفسير التأثير الكهروضوئي . وترتكز النظرية الكمية على مبدأ ازدواجية المادة ، وهو أن الجسميم يأخذ أحياناً شكل الموجة وأن الموجة تأخذ أحياناً شكل الجسميم .

والشيء الذي أزعج أينشتاين وأقلقه أكثر من غيره هو مشكلة العرب . ففي رسالة بعث بها إلى وايزمان عام ١٩٢٠ ، حذر أينشتاين من تجاهل المشكلة العربية ، ونصح الصهاينة بأن يتجنبوا «الاعتماد بدرجة كبيرة على الإنجليز» ، وأن يسعوا إلى التعاون مع العرب وإلى عقد ميثاق شرف معهم . وقد نبه أينشتاين إلى الخطر الكامن في الهجرة الصهيونية . ولم تتضاءل جهود أينشتاين أو اهتمامه بالعرب على مر السنين . ففي خطاب بتاريخ أبريل سنة ١٩٤٨ ، أيد هو والحاخام ليو بابك موقف الحاخام يهودا ماجنيس الذي كان يروج فكرة إقامة دولة مشتركة (عربية- يهودية) ، مضيفاً أنه كان يتحدث باسم المبادئ التي هي أهم إسهام قدمه الشعب اليهودي إلى البشرية . ومن المعروف أن أينشتاين رَفَضَ قبول منصب رئيس الدولة الصهيونية حينما عُرضَ عليه .

واسهامات أينشتاين في علم الطبيعة لا يمكن تفسيرها إلا باعتباره جزءاً من المنظومة العلمية الغربية . وقد يكون ليهوديته دور في توجيهه نحو النسبية ، ولكن المنظومة العلمية الغربية ككل تظل العنصر المحدد النهائي ، إذ كان قد طرَحَ داخلها بضعة أسئلة تتطلب الإجابة ، الأمر الذي جعل الجو مهيئاً لتغيير النموذج .

مايكر لانسكي (١٩٠٢ - ١٩٨٣)

Meyer Lansky

مجرم أمريكي يهودي اسمه الأصلي مايكر سوشو لانسكي . وُلِدَ في بولندا وهاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة عام ١٩١١ . وقد بدأ حياته الإجرامية بسرقة السيارات ثم قام بتهريب الخمر والقتل بالأجر . ثم انتقل إلى ممارسة نشاطه في عالم القمار ، وأصبح من كبار زعماء الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة . وقد كَوَّنَ عصابة مع المجرم الأمريكي اليهودي بنجامين سيجل «بجزي» لحماية الملاهي الليلية نظير إتاوة منتظمة . وفي عام ١٩٣٤ ، ساهم لانسكي في تأسيس الاتحاد القومي للجريمة الذي جمع في إطاره جميع العصابات وزعماء الإجرام في البلاد ، وترأس مجلس إدارة هذا الاتحاد الذي عمل تحت قيادته على تحويل الجريمة في الولايات المتحدة إلى نشاط يتسم بقدر كبير من التنظيم والتنسيق والإدارة العلمية والترشيد ، وأصبح يشرف على جملة من الأنشطة الإجرامية مثل القمار والدعارة والمخدرات والابتزاز والرشوة والفساد السياسي . وحينما حاولت السلطات الأمريكية القبض عليه بتهمة التهرب الضريبي في عام ١٩٧٠ ، تَمَحَّكَ في أصله اليهودي وفر إلى إسرائيل . ثم حاول الحصول على الجنسية بمقتضى قانون العودة ،

ولم يكن موقف أينشتاين ، في بداية حياته على الأقل ، رافضاً للصهيونية . فقد نشأ وتعلَّم في ألمانيا . ولذا ، فإننا نجد أنه كان يؤمن بفكرة الشعب العضوي ، وبأن السمات القومية سمات بيولوجية تُورَثُ وليست سمات ثقافية مكتسبة . وقد صرح أينشتاين بأن اليهودي يظل يهودياً حتى لو تخلّى عن دينه ، وهذه مقولة أساسية في معاداة اليهود على أساس عرقي . وليوضح فكرته ، شبه أينشتاين مثل ذلك اليهودي بالحلزون الذي يظل حلزوناً حتى بعد أن يُسقط محارته . وموقفه من معاداة اليهود ، في هذه المرحلة ، لا يختلف كثيراً عن موقف الصهيوني ، فقد كان يرى أن معاداة اليهود مسألة ستظل موجودة مادام هناك احتكاك بين اليهود والأغيار ، بل وأضاف أن اليهود مدينون لأعدائهم بأنهم استمروا عرقاً مستقلاً .

وقد أدلى أينشتاين بتصريح ذي مضمون صهيوني عرقي ، إذ صرح (قبل ظهور النازيين) بأنه ليس مواطناً ألمانياً ، ولا حتى مواطناً ألمانياً من أتباع العقيدة اليهودية ، وإنما يهودي ويسعد أن يظل يهودياً . وقد عبّر أينشتاين في عدة مناسبات عن حماسه للمشروع الصهيوني وتأييده له ، بل واشترك في عدة نشاطات صهيونية .

ولكن موقف أينشتاين هذا لم يكن نهائياً ، وربما كان تعبيراً عن عدم نضج سياسي ، إذ عدَّلَ عن هذه المواقف فيما بعد ، فقد صرح بأن القومية مرض طفولي ، وبأن الطبيعة الأصلية لليهودية تتعارض مع فكرة إنشاء دولة يهودية ذات حدود وجيش وسلطة دنيوية . وأعرب عن مخاوفه من الضرر الداخلي الذي ستكبدته اليهودية ، إذا تم تنفيذ البرنامج الصهيوني ، فقال : «إن اليهود الحاليين ليسوا هم اليهود الذين عاشوا في فترة الحشمونيين» ، وفي هذا رفض للذكر الصهيوني وللفكرة التاريخ اليهودي الواحد . ثم أشار إلى أن «العودة إلى فكرة الأمة ، بالمعنى السياسي لهذه الكلمة ، هي تحوُّل عن الرسالة الحقيقية للرسول والأنبياء» . ولهذا السبب ، وفي العام نفسه ، فسَّرَ انتماءاته الصهيونية وفقاً لأسس ثقافية ، فصرح بأن قيمة الصهيونية بالنسبة إليه تكمن أساساً في «تأثيرها التعليمي والتوحيدي على اليهود في مختلف الدول» . وهذا تصريح ينطوي على الإيمان بضرورة الحفاظ على الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم وعلى تراثها ، كما يشير إلى إمكانية التعايش بين اليهود وغير اليهود في كل أرجاء العالم . وفي عام ١٩٤٦ ، مثَّلَ أمام اللجنة الأنجلو أمريكية وأعرب عن عدم رضاه عن فكرة الدولة اليهودية ، وأضاف قائلاً : «كنت ضد هذه الفكرة دائماً» . وهذه مُبالغة من جانبه حيث إنه ، كما أشرنا من قبل ، أدلى بتصريحات تحمل معنى التأييد الكامل لفكرة القومية اليهودية على أساس عرقي .

لكن طلبه رُفض . وما يذكر ، أن لانسكي كان من كبار المساهمين في المنظمات اليهودية ، خصوصاً النداء اليهودي الموحد . وقد عاد إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٢ حيث حوكم ، ولكن تمت تبرئته من جميع التهم التي وُجّهت إليه .

ولا يمكن اكتشاف أية خصوصية يهودية في عبقرية لانسكي الإجرامية . فبروزه وتَمَيُّزه مرتبط بتَضَخُّم قطاع اللذة في المجتمع مع تَصَاعُد معدلات العلمنة فيه وانتشار الدعارة والقمار والمخدرات . وقد ظهرت مؤخراً دراسة تذهب إلى أن لانسكي لم يلعب هذا الدور المحوري والمركزي في الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة ، وترى هذه الدراسة أنه في حين أن لانسكي كان بالفعل مجرماً وزعيم عصابة ذات صلة وثيقة بأهم رموز الإجرام في الولايات المتحدة وأخطرها ، إلا أنه لم يَظْهَر أبداً أي دليل يُثبت أو يؤكد بشكل قاطع أن لانسكي كان العقل المدبر والمحرك الرئيسي وراء الجريمة المنظمة ، وأن هذه الادعاءات ليست سوى جزء من الأسطورة التي تُسجت من حوله .

ليوبولد تريبر (١٩٠٤-١٩٨٢)

Leopold Trepper

عميل مخابرات سوفيتي سابق ، ورئيس شبكة الجاسوسية التي عملت ضد ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية والتي عُرفت باسم «الأوركسترا الحمراء» . وُلد في بولندا ، وكان نشطاً في حركة الشيبة الشيوعية البولندية ، وسُجن عدة أشهر ثم انضم فيما بعد إلى المنظمة الصهيونية هاشومير هاتزير ، وذهب عام ١٩٢٦ إلى فلسطين . وهناك ، ارتبط بالحزب الشيوعي ، واحتجز عدة مرات بسبب نشاطه السري . ثم أصبح عضواً في الهستدروت ، وترأس داخله جناح إيهود ، أي الوحدة ، والذي كان ينادي بوحدة الشيوعيين من اليهود والعرب . وبعد المؤتمر الأول لإيهود عام ١٩٢٧ ، طُرد تريبر من فلسطين ، فذهب إلى فرنسا ونشط هناك في القسم اليهودي للحزب الشيوعي الفرنسي . كما عمل أيضاً مع المخابرات السوفيتية ، ولكنه اضطر مرة أخرى إلى الرحيل بعد أن كُشف النقاب في فرنسا عن شبكة تجسس سوفيتية .

وانتقل تريبر إلى الاتحاد السوفيتي حيث درس في الجامعة الشيوعية للعمال الغربيين في موسكو ، ويبدو أنه تلقى إلى جانب ذلك تدريباً في الأعمال الاستخباراتية . وفي عام ١٩٣٨ أرسل إلى فرنسا وبلجيكا حيث لعب دوراً مهماً وحيوياً لصالح المخابرات العسكرية السوفيتية ، ونجح في تأسيس وقيادة شبكة جاسوسية

واسعة النطاق كان لها عملاء في مواقع مهمة داخل الجهاز العسكري الأمني في برلين . وقد أطلق جهاز مكافحة الجاسوسية الألماني على هذه الشبكة اسم «الأوركسترا الحمراء» . ويبدو أن تريبر نجح إلى حد كبير في نشاطه ، فقد حذر موسكو عام ١٩٤١ من الهجوم الألماني الوشيك وتنبأ بالتاريخ المحدد له ، إلا أن ستالين تجاهل هذه التحذيرات حيث اعتبرها نوعاً من الإنارة البريطانية .

وقد كان لشبكة التجسس دور حيوي في الإستراتيجية والتكتيكات السوفيتية خلال الحرب مع ألمانيا . إلا أن الألمان نجحوا في إلقاء القبض على تريبر عام ١٩٤٢ في باريس وحاولوا تخنيده ليعمل لصالح ألمانيا كعميل مزدوج . ويبدو أن تريبر تظاهر بقبول هذا العرض بناءً على أوامر سابقة نفيته تحسباً لخطر هذا الاحتمال واستطاع خلال سجنه تهريب تقرير مفصل حول ظروف اعتقاله ومدى الاختراق الألماني لشبكة التجسس . وقد نجح تريبر في الهروب بعد أقل من عام . وعاد مرة أخرى لنشاطه الاستخباراتي . ولكن يبدو أن بعض الشكوك والشبهات قد أحاطت به ، فعند عودته إلى موسكو عام ١٩٤٥ تم إنشاء القبض عليه وسُجن لمدة عشرة أعوام تعرّض خلالها للعديد من الاستجوابات . وتم الإفراج عنه عام ١٩٥٥ ورُدّه لاعتباره . وقد كرس تريبر مجهوداته بعد ذلك للشئون اليهودية . فقدّم للقيادة السوفيتية خطة لإحياء المؤسسات والحياة الثقافية اليهودية في الاتحاد السوفيتي . إلا أن هذه الخطة رُفضت ، فانتقل بعد ذلك إلى وارسو حيث ترأس ، تحت اسم نيبا دومب ، الجمعية الثقافية الاجتماعية اليهودية تحت رعاية الحكومة البولندية ، كما ترأس دار النشر اليديشية التابعة له . وفي عام ١٩٦٨ ، قدم تريبر طلباً للهجرة إلى إسرائيل حيث كان بعض أفراد أسرته قد استقروا فيها ، إلا أن السلطات البولندية رفضت طلبه . وقد أثارت الدوائر الصهيونية مسألة هجرته على المستوى العالمي ، كما تم استغلال قضيته لإثارة الرأي العام العالمي ضد حكومة بولندا الاشتراكية ضد الاتحاد السوفيتي الذي كان يسود اعتقاد بأنه وراء موقف الحكومة البولندية . وفي تلك الأونة ، قام عميل سابق للمخابرات الفرنسية هو جان روشيه باتهام تريبر على صفحات جريدة لوموند بأنه تعاون مع النازيين خلال الحرب ، وأنه خان رفاقه في المقاومة . ولكن تريبر أقام دعوى قذف ضد روشيه واستطاع أن يكسبها .

وقد سمحت السلطات البولندية لتريبر في آخر الأمر ، بالرحيل إلى إنجلترا لأسباب صحية ، وفي عام ١٩٧٤ استقر في إسرائيل . وفي عام ١٩٧٥ نشر مذكراته بعنوان اللعبة الكبيرة والتي

الجزري». وقد أثار الكتاب ضجة في الأوساط اليهودية والصهيونية عند صدوره. فالكتاب يذهب إلى أن يهود بولندا، الذين كانوا يشكلون أهم وأكبر تجمع يهودي في العالم، هم من نسل الخنزير وبالتالي فهم مختلفون عرقياً وثقافياً عن بقية يهود العالم وعن العبرانيين القدامى.

ومن ثم فإن كوستلر يهدم الاعتذاريات العرقية والإثنية لنظرية الحقوق الصهيونية التي ترى أن فلسطين من حق اليهود بسبب أصولهم السامية، أو بسبب تماسكهم الثقافي عبر التاريخ والتفافهم حول فلسطين كمركز للهوية الثقافية اليهودية.

ويرى بعض دارسي تاريخ الأفكار أن كوستلر من كبار الكتّاب والمفكرين وأنه نجح في أن يتناول في كتاباته بعض أهم القضايا الفكرية في القرن العشرين من خلال رؤيته الواسعة (البانورامية) والثاقبة، ويرى البعض الآخر أنه مجرد ناقل للأفكار ومروج لها. بل ويرى البعض أن كتابه **الإله الذي هوى** قد كُتب بإيعاز من المخابرات الأمريكية. ومهما كان تقييم المرء لعبقرية كوستلر، فمن الصعب القول بأن البُعد اليهودي هو أهم أبعادها أو أن له مقدرة تفسيرية عالية.

جيكوب كرايزر (١٩٠٥-١٩٦٩)

Jacob Kreiser

جنرال سوفيتي يُصنّف أحياناً باعتباره يهودياً، وأحد أبطال الحرب العالمية الثانية في الاتحاد السوفيتي. كان والده جندياً يهودياً من جنّودا في الخدمة العسكرية تجنّداً إجبارياً لفترة طويلة في سن مبكرة واعتنقوا المسيحية إبان فترة الخدمة. وقد انضم كرايزر في سن مبكرة إلى الجيش الأحمر وتدرّج سريعاً في صفوفه ليصبح جنرالاً في سن الحادية والثلاثين. وخلال الحرب العالمية الثانية، تولى قيادة فرقة مشاة البروليتاريا التي تميّزت في دفاعها عن موسكو، وهو ما أكسبه لقب «بطل الاتحاد السوفيتي». وقد خدم كرايزر بعد ذلك في عدد من المواقع المهمة خلال الحرب، وتولى قيادة الجيوش السوفيتية في عدد من الجبهات، وساهم في تدمير القوات الألمانية في غرب أوكرانيا، وفي تحرير شبه جزيرة القرم ودول البلطيق. وقد أدّى قيام ضابط يهودي بتحرير القرم إلى تسليط الضوء على مسألة تأسيس جمهورية يهودية ذات حكم ذاتي في القرم والتي كانت تخطط لها الحكومة السوفيتية لتحل محل مشروع بيروبيجان الفاشل. وقد كانت اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية، والتي كان كرايزر عضواً بها، من المؤيدين لهذا المشروع الذي لم يسفر عن أي شيء في نهاية الأمر.

حاول فيها تأكيد دور شبكة «الأوركسترا الحمراء» في محاربة النازيين والدور البارز الذي لعبه اليهود في ذلك. وتوفي ترير عام ١٩٨٢ ودُفن في القدس. وحياته ترير المشيرة لا تختلف كثيراً عن حياة أمثاله من الجواسيس. أما هجرته لإسرائيل فهي لا تختلف عن هجرة المجرم لانسكي في دوافعها ولا علاقة لها بانتمائه اليهودي.

آرثر كوستلر (١٩٠٥-١٩٨٣)

Arthur Koestler

كاتب يهودي ومُلد في المجر وتعلّم في النمسا وألمانيا. وغير لغته من المجرية إلى الألمانية في سن السابعة عشرة، ثم من الألمانية إلى الإنجليزية في سن الخامسة والثلاثين. وقد كان شبيوعياً في اثلاثينيات، ولكنه رفض بعد ذلك المبادئ الشيوعية، ووصف تجربته (هو وآخرين) في كتاب **الإله الذي هوى**. وقد عبّر كوستلر عن استنراذه من العصر الحديث في قصته **الشيرة الظلمة في وقت الظهيرة**. وأظهر كوستلر أيضاً اهتماماً بالموضوعات اليهودية، خصوصاً أنه عمل مراسلاً في فلسطين لإحدى الجرائد الألمانية. وقصته **للصوص في الليل** تصف الصراع بين العرب والمستوطنين الصهاينة. وقد لاحظ كوستلر في هذه الرواية الخليط العجيب من التصوف والاشتراكية الذي يُميّز العقل الصهيوني. ولكن الرواية، مع هذا، تبدي تعاطفاً مع المستوطنين. وقد كتب كوستلر أثناء حرب عام ١٩٤٨ كتاب **الوعد والإنجاز: فلسطين ١٩١٧-١٩٤٩** يصف فيه فلسطين أثناء الانتداب وبعد إنشاء الدولة الصهيونية، ويُعلن أن يهود العالم أمامهم اختياران لا ثالث لهما: الهجرة إلى إسرائيل أو الانتماء الكامل إلى أوطانهم والولاء لها. وقد اختار هو نفسه البديل الثاني. وكوستلر له مؤلفات قصصية وفلسفية أخرى مثل: **الشيخ في الآلة**، و **نفاية الأرض**، و **اللوتس والقوميسار**، و **الساترون نياما**، و **اللوتس والإنسان الآلي**.

وفي آخر سني حياته، انضم كوستلر إلى جمعية تُطلق على نفسها اسم «جمعية من أجل موت كريم» تدعو إلى الانتحار. وقد انتحّر هو وزوجته بالفعل في مارس ١٩٨٣.

وقد نشر كوستلر عام ١٩٥٥ كتاباً بعنوان **قافلة الديناصور** يضم دراسة بعنوان «يهودا في مفترق الطرق» والتي أشار فيها إلى عدم صحة القول بوجود تراث حضاري يهودي مشترك. وفي كتابه **القبيلة الثالثة عشرة: إمبراطورية الخنزير وميراثها (١٩٧٦)** يناقش كوستلر ظهور إمبراطورية الخنزير اليهودية وما يسميه «الشنتات

السوفيتية . وقد كانت دار نشر برجامون اللبنة الأساسية في إمبراطورته الصحفية والإعلامية التي احتلت المرتبة التاسعة أو العاشرة في العالم على حد تقدير ماكسويل نفسه . وكانت إمبراطورية ماكسويل تضم عدداً كبيراً من الشركات القابضة والمؤسسات العائلية والمهنية الخيرية التي توزعت مقارها الرئيسية في بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل وأوروبا الشرقية وجبل طارق وليختنشتاين .

وقد امتلك ماكسويل حصصاً متفاوتة في عدد كبير من الصحف في ثلاث عشرة دولة . فمجموعة ميورنيوز (التي امتلكها ماكسويل عام ١٩٨٤) تنشر عدداً من الصحف البريطانية الهامة مثل ديلي ميور وساندي ميور . كما امتلك ماكسويل نسبة ستة في المائة من أسهم صحيفة ذي إندبندنت اليومية البريطانية . كما سيطر في عام ١٩٩١ على صحيفة ديلي نيوز الصادرة في نيويورك . وفي المجر ، امتلك حصّة كبيرة في صحيفة ماجيار هيرالاب اليومية . وفي عام ١٩٨٦ ، أصدر صحيفة الصين اليومية تشاينا ديلي التي كانت تصدر بالإنجليزية في بكين ولندن . إلا أنه توقّف عن نشرها بعد أحداث الصين عام ١٩٨٩ . كما أصدر عام ١٩٨٨ الصحيفة الأوربية الأسبوعية ذي يورويان . واشترى ماكسويل في العام نفسه دارين للنشر في الولايات المتحدة هما : دار ماكميلان التي كانت ثاني أكبر دار نشر أمريكية ، واندرا التي تنشر الدليل الرسمي لشركات الطيران . وقد وضعت هذه الامتلاكات الجديدة عبئاً كبيراً من الديون على كاهل ماكسويل تجوزت عند وفاته ثلاثة مليارات جنيه إسترليني ، الأمر الذي دفعه إلى بيع بعض ممتلكاته ، ومن أهمها دار نشر برجامون لسداد ديونه . كما كان ماكسويل يمتلك ، منذ عام ١٩٨١ ، شركة للاتصالات هي ماكسويل كومونيكيشن كوربوريشن .

وقد كان لماكسويل اهتمام خاص بأوروبا الشرقية ، وكانت له علاقات مع عدد من رؤساء الكتلة الشرقية . وقد أسس عام ١٩٩٠ ، بالتعاون مع مؤسسة ميريل لينش ، شركة للاستثمار في أوروبا الشرقية رأسمالها ٢٥٠ مليون دولار . وكان ماكسويل قد أسس قبل ذلك ببضع سنوات شركة للاستثمار في الصين بالمشاركة مع وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر ، لكن أعمال الشركة توقفت بعد أحداث عام ١٩٨٩ في الصين . كما دخل ماكسويل حلبة السياسة البريطانية حيث تولى منصب نائب في البرلمان عن حزب العمال البريطاني في الفترة بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧٠ . ومن جهة أخرى كان لماكسويل اهتمام كبير وارتباط خاص

ومع انتهاء الحرب ، كان كرايزر قد حصل على أعلى الرتب في الجيش السوفيتي واكتسب مكانة وسمعة واسعتين ، ولكنه جرّد من منصبه خلال فترة الإرهاب الستاليني بعد أن رفض التوقيع على خطاب نُشر في صحيفة البرافدا ينفي وجود معاداة لليهود في الاتحاد السوفيتي . وبعد وفاة ستالين ، أعيدت له قيادته ، وعُيّن عام ١٩٦٢ نائباً في مجلس السوفييت الأعلى . ثم تولى كرايزر القيادة في منطقة الشرق الأقصى ، وهي منطقة حدودية ذات أهمية خاصة ، وظل يشغل منصبه حتى وفاته .

ويمثل كرايزر نموذجاً متكرراً في أوساط العسكريين السوفييت اليهود ، وإن لم ينتبه إليه الكثيرون ، وهو نموذج يعود إلى أيام تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر والذي فتح المجال أمام أعضاء الأقليات للانخراط في صفوف هذا الجيش الجديد ، الذي كان يدعم نظاماً يدعو إلى تجريم أشكال التمييز العنصري والإثني (وضمن ذلك العداء لليهود) . وقد انخرطت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية بنسبة تزيد عن نسبتهم على المستوى القومي . وكانت هناك نسبة عالية من اليهود في القيادة العليا للجيش السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية . ولكن يلاحظ أنه جرى العمل على إحالة أعداد كبيرة منهم إلى التقاعد .

روبرت ماكسويل (١٩٢٣ - ١٩٩١)

Robert Maxwell

ناشر بريطاني ، وُلد في تشيكوسلوفاكيا ، وكان اسمه الحقيقي يان لودفيج هوخ . وُلد لعائلة يهودية ريفية يُقال إنه قُضي على معظم أعضائها خلال الحرب العالمية الثانية ، وانضم إلى الجيش التشيكوي عام ١٩٣٩ ، ثم فرّ إلى بريطانيا مع الاحتلال النازي ، حيث انضم إلى صفوف الجيش البريطاني . وحاز في عام ١٩٤٥ ميدالية الصليب العسكرية . وقد بدّل اسمه عدة مرات ، ثم استقر في عام ١٩٤٥ على الاسم الإسكتلندي الحالي إيان روبرت ماكسويل . عمل ماكسويل لحساب الاستخبارات البريطانية ، وترأس القسم الصحفي للقوات البريطانية المتمركزة في ألمانيا في الفترة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ . وخلال وجوده في ألمانيا ، التقى بناسر ألماني كان تحت يده عدد ضخم من الوثائق والنشرات العلمية التي خلفها الحكم النازي ، وبالتالي لاحظ أمام ماكسويل فرصة ذهبية للعمل في مجال النشر العلمي . وبالفعل ، أسس في عام ١٩٤٩ شركة برجامون برس التي جعلها من أكبر دور النشر المتخصصة في المطبوعات العلمية ، والتي شملت أعمالها برنامجاً واسعاً لترجمة الكتب والمجلات العلمية

تسهيل عقد صفقات سلاح سرية لإسرائيل وفي تسهيل اختطاف موردخاي فانو، وهو أحد العاملين في مفاعل ديمونة والذي كشف عن وجود ماتتي قنبلة نووية لدى إسرائيل . كما ادعى ضابط في المخابرات الإسرائيلية ، وهو آرييه منسى ، أن ماكسويل كان متورطاً في مبيعات الأسلحة إلى إيران (أثناء حربها مع العراق) وهي مبيعات تمت بموافقة رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير ونائب الرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش ، فكان ماكسويل يتلقى عمولات عن هذه الصفقات ثم يُجري عملية «غسل» للأموال المتحصلة بهذه الطريقة غير النظيفة لتبدو كما لو كانت نظيفة وشرعية (وتتم عملية الغسل هذه بطرق عديدة مثل وضع النقود في المصارف من خلال منافذ عديدة أو استثمارها في مشاريع تجارية خاسرة ثم إعلان أنها حققت أرباحاً خيالية ، وتودع الأموال في المصارف بعد ذلك) .

وقد نفى ماكسويل أية علاقة له بالموساد أو بصفقات السلاح ، وأقام دعوى ضد هيرش يوجّه فيها إليه تهمة السب العلني . وبعد أقل من شهر من إثارته هذه الفضيحة ، لقي ماكسويل حتفه ، وقيل أنه سقط ميتاً وهو على ظهر يخته في البحر قرب جزر الكناري . وتراوحت الآراء حول ظروف موته بين التلميح إلى اتهام الموساد بقتله ، أو ترجيح انتحاره بسبب متاعبه المالية الكبيرة أو اتهامه بالعمالة لإسرائيل ، أو القول بأن موته كان مجرد حادث عادي . وقد دفن ماكسويل في إسرائيل وفقاً لرغبته .

وقد تفجرت فضيحة مالية كبرى في أعقاب وفاة ماكسويل ، حيث تبين أنه حوّل أكثر من ٧٠٠ مليون جنيه إسترليني (٢٧, ١ مليار دولار) من صناديق المعاش في مجموعة الشركات العامة ميروور جروب التي كان يديرها ، وذلك لتغطية خسائر شركاته الخاصة وللمساعدة إمبراطوريته الإعلامية التي كانت تنوء تحت ثقل الديون . وتبين أيضاً أنه احتال على مؤسسة مالية سويسرية للحصول على قرض قيمته ١٠٠ مليون دولار ، وأنه استخدم الأصول نفسها لضمان أكثر من قرض . وكان ماكسويل قد تعرّض من قبل للمساءلة حول سلامة ممارساته ، حيث أجرى مجلس التجارة البريطاني تحقيقاً عام ١٩٦٩ حول أوضاع شركة برجامون برس وكشف بالفعل عن بعض المخالفات . وقد تضمن التقرير الذي انتهى إليه المجلس أن ماكسويل « شخص لا يُعوّل عليه في إدارة شركة مساهمة عامة » . وقد عمل ماكسويل منذ ذلك الحين على إسكات منتقديه وردعهم عن طريق مقاضاتهم وتوجيه تهمة التشهير به إليهم . وقد وُصف ماكسويل عقب تفجّر هذه الفضيحة بأنه « محتال القرن » ، الأمر الذي زاد التكهنات القائلة بأنه مات منتحراً . كما قبض على ابنه ،

بإسرائيل . وما يُذكر أنه لم يكن يعلن عن أصله اليهودي في البداية ، كما كان يذهب إلى الكنيسة مع زوجته الفرنسية البروتستانتية (أي أنه كان يهودياً متخفياً مثل عشرات الألوف الآخرين) . ولكنه حين عُرف أصله ، لم يستمر في إنكاره . وفي السنوات الأخيرة ، أصبح واحداً من أهم المستثمرين الكبار في إسرائيل وأحد كبار مؤيديها . ويُعتقد أنه كان أكبر المستثمرين فيها على الإطلاق . فكان يمتلك ثلث حصص صحيفة معاريف الإسرائيلية التي تحتل المرتبة الثانية بين الصحف الإسرائيلية من ناحية التوزيع . واشترى عام ١٩٩٠ خمسين في المائة من حصص دار كيتل للنشر ببلغ خمسة ملايين دولار وهي الشركة التي تُصدر الموسوعة اليهودية (جودايكا) . كما امتلك ماكسويل حصصاً في شركتين إسرائيليتين هما : شركة سايتكس وهي من الشركات الرائدة في مجال الرسوم البيانية بالكمبيوتر والطباعة بالألوان ، وشركة تيفا فارماسوتيكال للمنتجات الطبية . وقد ترددت أنباء عن أن ماكسويل كان ينوي استثمار مائة مليون دولار في تأسيس شركة قابضة في إسرائيل تجمع استثماراته القائمة والمتوقعة هناك .

وفي نهاية عام ١٩٨٨ ، أصبح ماكسويل رئيس شركة سندات إسرائيل في بريطانيا ، إذ اشترى سندات بملادين الجنيها الإسرائيلية أصبح بعدها أكبر مشتر للسندات الإسرائيلية في بريطانيا . وكانت الشركة تأمل في أن يساهم تعيين رئيس للشركة ذي شهرة واسعة في جذب أعداد كبيرة من المستثمرين لشراء السندات الإسرائيلية .

وقد كان ماكسويل من مؤيدي سياسات حكومة الليكود الإسرائيلية ، وصرح قبل وفاته ببضعة أسابيع بأن آراءه تتطابق تماماً مع آراء رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير . وأيد ماكسويل مبدأ إبعاد الفلسطينيين عن أرضهم وتوطينهم في البلدان العربية ، كما كان يصرح دائماً بأن الأردن هي الدولة الفلسطينية (كما يفعل الإسرائيليون والصهاينة) . وفي عام ١٩٨٩ ، ونّخ ماكسويل رئيس تحرير جريدة معاريف لنشره مقالاً عرض فيه تقرير الاستخبارات الإسرائيلية ومؤاده أنه ليس هناك بديل عن الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية . كما بين ماكسويل أن الدافع وراء محاولته الفاشلة شراء صحيفة جيروساليم بوست في عام ١٩٨٩ كان وقف النقد الذي كانت توجهه الصحيفة للحكومة الإسرائيلية .

وقد تورط ماكسويل قبل وفاته بقليل في قضية تجسس وتجارة سلاح . فقد ذكر الصحفي الأمريكي سيمور هيرش في كتابه الخيال شمشون أن لماكسويل علاقات بالمخابرات الإسرائيلية (الموساد) ، وأنه تورط مع محرر الشؤون الخارجية لجريدته الديلي ميروور في

في نهب الآخرين والتجسس واستخدام النفوذ . وتحدثت كثير من الصحف عن ماكسويل باعتباره يهودياً مع أن هذه مسألة خلافية . فقد أخفى يهوديته بعض الوقت . وحين اكتشفت اعترف بها بل ووظفها . ولكن توظيفه مسألة هويته اليهودية لا يجعل منه يهودياً . ولا يمكن تفسير عبقريته في إطار يهوديته . وإنما في إطار النيتشوية الداروينية . التي يشترك فيها مع مئات المؤيدين والمستمرين الآخرين في القرن العشرين .

الذين تولوا أمور بعض شركات والدهما بعد وفاته ، بتهمة التورط في الغش التجاري . ولكن لم يثبت ضدتهما أي شيء ، فحكم ببراءتهما .

ومن الواضح أن ماكسويل عبقرية حقيقية بالمعنى المحايد (أو النيتشوي) للكلمة ، أي أنه عبقرية لا تهتم كثيراً بالمعايير الأخلاقية أو الإنسانية ، فهو مثل الإنسان الأعظم (السوبرمان) يُسخر الآخرين لحسابه ، ولذا كان عبقرياً في عمليات التنظيم الإداري وتحقيق الأرباح وتعظيمها وعقد الصفقات الرابحة ، ولكنه كان عبقرياً أيضاً



٤ إشكالية العزلة اليهودية والخصوصية اليهودية

العزلة اليهودية - اليهودي الخالص - نقاء اليهود عرقياً - الأمراض اليهودية (الخصوصية اليهودية الطبية) -
نقاء اليهود حضارياً (إثنية) - الخصوصية اليهودية - الاندماج - الاندماج النبوي - العزلة اللفظية
والاندماج النبوي - الاندماج السياسي والاقتصادي والحضاري : أشكاله المختلفة - اندماج الجماعات
اليهودية : تاريخ - يوسيليفيتش - الانصهار أو الذوبان - دمج اليهود - الاندماج : الموقف الصهيوني -
الزواج المختلط - الإبادة الصامتة - الشعب العضوي (فولك) - القومية العضوية - الشعب العضوي النبوذ

العزلة اليهودية

Jewish Isolationism

وعلى أية حال ، لا يكمن الحلل الأساسي في النموذج
التفسيرى الصهيوني والمعادي لليهود في سببته البسيطة وحسب وإنما
في مستواه التعميمي المرتفع وفي تجريدته الزائدة ، إذ أن كلا
الفرقتين يتحدث عن « اليهود ككل » وبشكل عام ويُفسّر الظاهرة
داخل هذا الإطار . ولو أننا تحركنا في إطار الجماعات اليهودية
لأمكنا اكتشاف التنوع وعدم التجانس ، وأن أعضاء الجماعات
اليهودية انعزلوا عن بعض المجتمعات واندمجوا في البعض الآخر ،
وأنهم انصهروا في بعض المجتمعات وطردوا من البعض الآخر ،
وأن هذه الظواهر يمكن تفسيرها من خلال مُركّب من الأسباب
الحضارية والاقتصادية الخارجية التي تختص بمجتمع الأغلبية ،
والأسباب الداخلية التي تختص بأعضاء الجماعة . ومن أهم هذه
الأسباب ، في تصوّرنا ، اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور
الجماعة الوظيفية البسيطة في كثير من المجتمعات ، خصوصاً المجتمع
الأوروبي ابتداءً من العصور الوسطى . والجماعة الوظيفية البسيطة لا
يمكنها أن تقوم بدورها إلا في حالة عزلة ، إذ أنها تضطلع بوظائف
مشينة أو بوظائف تتطلب الحياء والموضوعية مثل البغاء أو التجارة .

ومن أشهر حالات عزلة اليهود ، وجودهم داخل الجيتوات
القسرية في أوروبا ابتداءً من أواخر عصر النهضة . ولكن العزلة
وصلت قممتها في أوكرانيا ، حيث كان اليهود يشكلون جماعة
وسيلة تمثل طبقة النبلاء (شلاختا) الحاكمة في بولندا . وكانت عزلة
اليهود على عدة مستويات :

- ١ - طبقية : جماعة تجارية مالية تمثل النخبة الحاكمة في وسط زراعي
فلاحي وتساندها القوة العسكرية البولندية .
- ٢ - لغوية : جماعة تتحدث اليديشية في وسط يتحدث الأوكرانية .
- ٣ - ثقافية : جماعة ترتدي أزياء وتأكّل طعاماً يختلفان عن أزياء
وطعام الفلاحين .

« الانعزالية اليهودية » عبارة تفترض أن اليهود يعيشون في حالة
عزلة عن الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها . وتُفسّر هذه الانعزالية
في الأدبيات الصهيونية على أساس أنها فرضت فرضاً على اليهود
وأنهم غير مسئولين عنها . كما تُفسّر أيضاً بأن اليهود لا يمكنهم
الاندماج في مجتمعات الأغيار بسبب هويتهم أو شخصيتهم أو
طبيعتهم أو تاريخهم أو جوهرهم اليهودي . ولا يختلف تفسير
معايدي اليهود لهذه الظاهرة عن تفسير الصهاينة ، فاليهود بحسب
تصورهم يعزلون أنفسهم عن الأغيار لأن هذه هي طبيعتهم
وشخصيتهم وهويتهم ، وتنعكس هذه السمة في سلوكهم
وتاريخهم . يتفق الصهاينة والمعادون لليهود ، إذن ، على أن
الانعزالية سمة أساسية وأنها لا علاقة لها بالحرديات الاجتماعية التي
يوجد فيها اليهود ، وإنما يُسببها شيء ما داخلهم .

ولا يمكن ، بطبيعة الحال ، إنكار أهمية بعض جوانب النسق
الديني اليهودي مثل عقيدة الشعب المختار ، وكذلك كثرة الشعائر
الدينية ، في تشجيع اليهود على العزلة . وقد وصل هذا الاتجاه في
النسق الديني اليهودي إلى ذروته في القَبْلاه اللوريمانية الدينية ، حيث
تُطرح فكرة أن اليهود خلّقوا من طينة مغايرة للطينة التي خلّق منها
البشر . ولكن علاقة الأفكار الدينية ، وأية أفكار ، بسلوك الإنسان
ليست علاقة سببية بسيطة . فالأفكار لا تحدّد سلوك الإنسان أبداً
ونكتها تخلق لديه استعداداً كاملاً أو قابلية ليسلك سلوكاً معيّناً ويتعدّد
عن أنماط معينة من السلوك . كما أن من الصعب إمكان تحديد ما إذا
كانت فكرة مثل فكرة الشعب المختار هي التي أدّت إلى عزلة اليهود
أو أن الفكرة هي نتيجة هذه العزلة ، أو أن العلاقة هي علاقة تأثير
وتأثر . وما مدى التأثير وما عمق التأثير .

وكان الصهاينة كذلك يروجون هذه الفكرة ويؤسسون عليها ادعاءهم حتمية إنشاء دولة يهودية مستقلة تكون يهودية مثلما أن إنجلترا الإنجليزية وفرنسا فرنسية ؛ دولة يعيش فيها الشعب اليهودي المنفصل عرقياً عن بقية شعوب الأرض من الأغيار . ولذا ، بذل كثير من « العلماء » الصهاينة كثيراً من المحاولات التي ترمي إلى إثبات نقاء اليهود عرقياً . ومن أهم المحاولات في هذا انضمام محاولات عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين في كتابه **اليهود في الوقت الحاضر** حيث أورد أسماء كثير من المراجع في الموضوع من بينها اسم إغناز زولتشان (١٨٧٧ - ١٩٤٤) الذي وصف اليهود بأنهم « أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال اخلاقي الناجمة عن عدم النقاء » . وقد أكد زولتشان أن « حظر الزواج المختلط في اليهودية قد أدّى إلى عدم اختلاط اليهود بأجناس لم تحافظ على نقائهم بالدرجة نفسها » . وقد قدّم روبين نفسه تعريفاً عرقياً لليهود فبيّن أنهم « استوعبوا عناصر عرقية أجنبية بدرجة محدودة ، ولكنهم في أغليتهم يمثلون جنساً متميزاً » . على خلاف الخال في دول وسط أوروبا . وأضاف أن من الواجب الحفاظ بشكل واع على الاستمرار العرقي اليهودي الذي تحقق بشكل تلقائي عبر التاريخ ، وأكد أن أي جنس راق يتدهور بسرعة إذا ما تزوج بجنس أقل رقياً ، ذلك لأن التزاوج بالأجناس الأخرى يضرب محاولات المحافظة على الصفات الممتازة للجنس ، ومن ثم فـ « لا بد من محاولة منع التزاوج للمحافظة على انصافية اليهود » .

ومن الواضح أن روبين وزولتشان حينما يتحدثان عن اليهود فهما يتحدثان عن اليهود الإشكناز وحسب أو يهود العالم الغربي ويستبعدان أعضاء الجماعات اليهودية الأخرى ويروج المعادون لليهود الموقونة نفسها . وما يُسمّى «الصفات العرقية الشائعة عن اليهود» هو في واقع الأمر «الصفات العرقية الشائعة عن اليهود الإشكناز أو يهود العالم الغربي» . وفي كتاب المفكر المصري الدكتور جمال حمدان **اليهود** دراسة مستفيضة لبعض هذه الصفات مثل قصر القامة وضيق الصدر والسمنة والأنف المعقوف وشكل الرأس . ويشير الدكتور جمال حمدان إلى أن الدراسات المترية تُظهر اليهودي في أغلب الحالات أقصر من غيره بضع بوصات . ولكنه يبيّن أن طول القامة لا يمكن اعتباره صفة جسمية أصيلة ، فمن الثابت علمياً أنها صفة مطاطة تكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، كما يعدّ ضيق الصدر من هذه الصفات الشائعة ، الأمر الذي تؤكد الأدلة العلمية ، فمحيط صدر اليهودي (الإشكنازي) أقل كثيراً منه عند « الأغيار » . ولكن هذه الصفة - كما يبيّن الدكتور جمال حمدان - نتيجة طبيعية

٤ - دينية : جماعة يهودية تمثل النبلاء الكاثوليك في وسط أرثوذكسي .
وحيثما تصبح العزلة على كل هذه المستويات ، فإنها عادة ما تكون متطرفة ، إذ إن العزلة على مستوى ما تدعم العزلة على مستوى آخر . ولكن ، ورغم هذه العزلة ، فإن من المعروف أن الجماعة اليهودية تأثرت بوسطها الفلاحي السلافي ، وظهر هذا التأثير في انتشار الحسيديّة التي نبتت من الفلكلور الديني المسيحي السلافي ، أي أنه لا يمكن أن تُوجد عزلة مطلقة إلا في كتابات العنصريين الاخترايين من الصهاينة والمعادين لليهود .

اليهودي الخالص

Quintessential or Pure Jew

«اليهودي الخالص» عبارة تفترض وجود هوية يهودية خالصة لا تشوبها أية شوائب حضارية ، فهذه الهوية تتمتع بنقاء عرقي وحضاري إثني . لكن هذا المصطلح لا يرد إلا نادراً في الكتابات الصهيونية ، مثل إشارة المفكر الصهيوني كلاتزكين إلى « النمط القومي الخالص » وإشارة بن جوريون إلى « اليهودي الذي هو يهودي مائة في المائة » . ومع هذا ، فإن هذا المفهوم كامن في كل الكتابات الصهيونية ، بل يمكن القول بأن اليهودي الخالص هو اليهودي المثالي الذي يحاول المشروع الصهيوني تحقيقه ، فباسم هذا «اليهودي الخالص» ترفض الصهيونية الموروث الثقافي لأعضاء الجماعات اليهودية بل وترفض وجودهم ذاته ، وباسمه تحاول تأسيس الدولة اليهودية حتى يتحقق هذا الجوهر . واليهودي الخالص ، بكل ما فيه من حيوية وإبداع وولاء يهودي مطلق ، هو نقیض اليهودي المنفي بكل ما فيه من هامشية وتمزق وازدواج في الولاء . ويحاول الصهاينة تطبيع يهود المنفي لإعادة صياغتهم في صورة «اليهودي الخالص» .

نقاء اليهود عرقياً

Racial Purity of the Jews

«نقاء اليهود عرقياً» عبارة تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية قد حافظوا ، عبر التاريخ وفي كل زمان ومكان ، على نقائهم العرقي ، فلم يختلطوا بالأجناس والشعوب الأخرى ، وهذه فكرة يروج لها المعادون لليهود ويسوقونها دليلاً على رغبة اليهود في عزل أنفسهم وعلى خطورة العرق اليهودي . فهوستون تشامبرلين يزعم أن ذلك النقاء العرقي هو سر قوة اليهود ، وأنه هو أيضاً ما يجعلهم «غرباء بين الأمم» .

أما الجزء الآخر منهم ، كالإشكناز ، فقد استعرضت رؤوسهم كما في شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال إيران ويهود التركستان الروسية بكل شطاياها ، وأخيراً هناك اليهود القراءون في القرم وليتوانيا . ففي كل هذه الحالات يعيش اليهود في محيط واسع من العرض الشديد للرأس ، وقد استعرضت رؤوسهم بشدة فأصبحوا لا يختلفون عنه أبداً .

ويحاول بعض العلماء أن يجعلوا من اليهود طوال الرأس من السفارد وبعض الشرقيين وحدة إثنولوجية قائمة بذاتها ، قد تتباين فيما بينها من منطقة إلى منطقة ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين . ولذا فهم يصورون اليهود الإشكناز ومعهم بقية الشرقيين وحدة إثنولوجية أخرى . ومع هذا يعترف هؤلاء العلماء بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة في أوروبا يمكن بسهولة أن تلتقط من بين يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون بطريقة أو بأخرى خليطاً من عديد من تلك السلالات والأنواع ، ولذا من السهل جداً أن نلتقط من بين يهود روسيا أفراداً يتميزون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرق بينهم وبين جماعات الفن المغولية التي تسكن منطقة الفولجا ، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون .

ويمكن من ناحيتنا (والكلام لا يزال للدكتور جمال حمدان) أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايك [الفسيفساء] تكاد تغطي كل ما نعرف بين البشر من اختلافات في الصفات الجنسية ، فهناك اليهود السود في الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى ، وهناك اليهود الملونون في الهند ، بل والصفر أحياناً في التركستان ، وأخيراً اليهود الشرقي في أوروبا . وكما لاحظ دالي في أواخر القرن الماضي ، هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود البيض والسممر ، فهناك اليهودي الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الإشكناز واليهودي النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارد ، وهناك الأنف اليهودي المحدث والأنف المقعر بين كثير من يهود روسيا . وهناك العيون اللوزية في السفارد ، والمكتنزة الضخمة في الأشكناز ، والعيون المغولية المسحوبة في بعض يهود وسط آسيا . وبعامه ، فإن السفارد أشبه بعنصر البحر المتوسط والإشكناز أشبه بالصقلية الشماليين ، وفضلاً عن هذا فإن الدراسات السيرولوجية أثبتت تماماً أن هناك بين اليهود معدل تفاوت كبير جداً في فئات الدم وهو ما ينبغي تجانس الأصل . وأكثر من ذلك ، لا يُبدي تلك الفئات أية علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين الأمر الذي يؤكد عمق انفصالهم جينياً عن الأصل القديم (إن كان هذا الأصل واحداً) .

للبيئة والحرفة ، فالخرف التقليدية لليهود الإشكناز (خياطة - صباغة - صناعة أحذية) ترتبط بتلك الظاهرة . وتعدّ صفة « السحنة » اليهودية أكثر هذه الصفات شيوعاً ، والمحقق علمياً أنها لا توجد عند كل اليهود ولا تكاد تُعرف في أشكناز أمريكا كما أنها معروفة بين غير اليهود . وسحنة الوجه تعبير اجتماعي مكتسب من البيئة أكثر من كونها صفة جسمية ، حتى سماها البعض «تعبير الجيتو» ، فهي من فعل الانتخاب الصناعي لا الوراثة .

أما مسألة الأنف المعقوف ، كصفة مميزة لليهودي في المخيلة الشعبية ، فهي أسطورة أخرى . فلقد أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية أن هذه الصفة غير موجودة إطلاقاً بين أنقى عنصر سامي وهم البدو ، ولكنها صفة غالبية بين القبائل القوقازية المختلفة ، وكذلك في آسيا الصغرى ، وتشمل العناصر المحلية في المنطقة مثل الأرمن والجورجيين . ونجده بين شعوب البحر المتوسط أكثر مما نجده بين يهود أوروبا الشرقية ، ويكثر انتشارها بين الهنود الحمر في أمريكا الشمالية ! ومن أهم المقاييس الأنثروبولوجية ، لتحديد الانتماء العرقي ، شكل الرأس . وقد بين الدكتور جمال حمدان في كتابه اليهود أنثروبولوجياً أن من بين المجموعات الرئيسية الثلاث (الإشكناز والسفارد والشرقيين) يقع الإشكناز بين عراض الرؤوس وأحياناً عراض الرؤوس جداً ، هكذا هم في كل أوروبا والعالم الجديد ابتداءً من الفولجا حتى كاليفورنيا . ولكن الأهم من هذا أنهم يشبهون السكان المحيطين محلياً ويقتربون جداً من شكل ونسبة رأسهم ، فمثلاً ليس ثمة فارق في شكل الرأس بين اليهود والمسيحيين في كل من روسيا وبولندا ، بينما في منطقة القوقاز تحول رؤوسهم لشكل «قمع السكر» الشهير عند الأرمن والتفقا بل ونجده حتى بين يهود التركستان .

وكان من الشائع أن السفارد على النقيض من ذلك تماماً ، أي أنهم طوال الرؤوس جميعاً . ولكن هذه المقابلة تبسّطة أكثر مما ينبغي ، فرغم أن طول الرأس يغلب بين السفارد فإن منهم جماعات استعرضت رؤوسهم كما في شمال إيطاليا وربما كانت بينهم جماعات أخرى من سفارد البلقان . ويُلاحظ أن السفارد يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن أن يغيّر التزاوج شكل رؤوسهم بل على العكس يؤكد .

ويأتي اليهود الشرقيون في حدود التصنيف ، فجزء منهم طوال أنفوس كالسفارد ويشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب إيران (والسكان المحيطون بهم طوال الرؤوس ، إلا أن حجم الرأس عندهم أطول بدرجة أو أخرى من حجم الرأس عند اليهود) .

فالحديث عن الوحدة العرقية بين اليهود (كما بين الدكتور جمال حمدان وغيره من العلماء) لا محل له من حقيقة أو علم على الإطلاق . واليهود لا يعرفون الوحدة العرقية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية ، وثمة اتفاق بين الدارسين في الوقت الحاضر على أن نقط التشابه بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين أبناء المجتمعات التي يعيشون فيها يفوق كثيراً أي تشابه قد يوجد بين أية جماعة يهودية وأية جماعة يهودية أخرى في مجتمع آخر .

وهذا أمر متوقع تماماً ، ورغم التشريعات اليهودية الخاصة بتحريم الزواج المختلط ، فمن المعروف أن اليهود تزوجوا بغيرهم من الشعوب . بل وكان من الصعب عليهم أن يفعلوا غير ذلك لأنهم كانوا شعباً من البدو الرحل الذين ينتقلون من مكان إلى آخر . لقد جاء الآباء ، أسلاف العبرانيين ، من بابل ، فهم إذن من أصل سامي عربي . وحينما وصلوا إلى كنعان ، تزوجوا مع الحثثيين الذين هم من أصل أرمني . ولا شك في أن العبرانيين تأثروا حضارياً وعرقياً بالمصريين أثناء إقامتهم في مصر بعد هجرة يوسف ويعقوب . وقد خرجوا من مصر ومعهم « اللغيف العرقي » الذي يشير إليه العهد القديم . وقد تزوج موسى أثناء الخروج أو الهجرة من مصر من امرأة مدينية (من مدين) ثم من كوشية . وتزوج العبرانيون بالكنعانيين بعد تسلمهم إلى أرض كنعان وبغيرهم من الأقوام السامية التي كانت تقيم هناك . ومن الطريف أن أم داود (الذي سيأتي من نسله الماشيخ ملك اليهود) لم تكن ، حسبما ورد ، يهودية . أي أنه هو نفسه مشكوك في انتمائه إلى الشعب اليهودي . وفي العصر الهيليني ، كانت نسبة التزاوج بالأجانب مرتفعة إلى حد كبير .

ورغم أن اليهودية ليست ديانة تبشيرية ، فإن كثيراً من الشعوب قد تهودت . فقد فرض الحشمونيون اليهودية قسراً على بعض الشعوب المجاورة لهم ، مثل الأدوميين والإيطوريين . كما تهودت قبائل الخزر (أو نخبتها القائدة) في ظروف لا تزال غامضة . ويلاحظ أن الكنيسة ، في العصور الوسطى ، كانت تكرّر من أونة لأخرى تحريم الزواج بين اليهود والمسيحيين ، وهو أمر يدل على استمرار الظاهرة . أما في العصر الحديث ، فإن معدلات الزواج المختلط في ألمانيا في الثلاثينيات ، في روسيا السوفيتية (سابقاً) وفي الولايات المتحدة وفي معظم البلاد التي تزايدت فيها معدلات العلمنة ، تصل إلى نحو ٥٠٪ في كثير من الأحيان . وكانت نتيجة الزواج المختلط هي عدم النقاء العرقي .

وقد اتضحت الخلافات العرقية بين اليهود في الدولة اليهودية بشكل مشير لا يمكن الجدل بشأنه : فاليهود الإشكناز الشقر ويهود

الأمراض اليهودية (الخصوصية اليهودية الطبية)

Jewish Diseases (Jewish Medical Specificity)

« الأمراض اليهودية » ، هي تلك الأمراض التي يفترض أنها تصيب اليهود وحدهم . وتذخر الكتابات الطبية المعنية بالمسألة الوراثية بالحديث عن إشارات إلى مناعة اليهود ضد أمراض معدية معينة كالسل أو الطاعون . وتصل هذه الدراسات إلى حد الشطط حين تتحدث عن التفوق العرقي والعلمي والعقلي لليهود وعن ارتفاع معدلات الذكاء الوراثي بينهم . والواقع أن مثل هذه الأفكار تفترض أن ثمة خصوصية بيولوجية وراثية يهودية ، أي خصوصية طبية ونفسية وعرقية تسه اليهود كافة في كل زمان ومكان .

ولكن دراسة ظاهرة الأمراض اليهودية (أو الأمراض التي يُصاب بها أعضاء الجماعات اليهودية) بتعمق ، ومن خلال استخدام نموذج تفسيري أكثر تركيبيًا وثرًا من ذلك النموذج التبسيطي الاختزالي السائد في بعض الكتابات الغربية ، تبين لنا وبشكل قاطع عدم صحة هذا الافتراض . كما تبين لنا الدراسة الثانية مدى التنوع والاختلاف في الأمراض التي تصيب الجماعات اليهودية المختلفة .

ويمكن تصنيف الأمراض التي تُصيب أعضاء الجماعات

اليهودية المختلفة إلى قسمين من منظور الخصوصية أو انعدامها :

١ - أمراض تصيب أعضاء الجماعات اليهودية دون غيرهم من سكان المجتمعات التي يعيشون بينها (ويندرج تحت هذا التصنيف زيادة مناعة أعضاء الجماعات اليهودية ضد بعض الأمراض بمعدل يفوق المعدل السائد بين أعضاء الأغلبية) . وهذه الخصائص الطبية يمكن تفسيرها من خلال نموذج تفسيري يؤكد أهمية العناصر الثقافية (بالمعنى العام للكلمة) المقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية .

مجموعة من الأعراض المرضية المتلازمة ، والتي يُقال لها بالإنجليزية «سندروم syndrome» . وتمثل متلازمة بلوم في انخفاض وزن المولود وضعف نموه وحساسية جلده للشمس وتراكم اللطف وظهور شكل الفراشة على الوجه .

ويُلاحظ أيضاً ارتفاع نسبة إصابة يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي بنقص غير عادي في الحمض ٢١ - هيدروكسيليز غير التقليدي . ويؤدي هذا النقص إلى تراكم مواد دهنية في الأنسجة العصبية والكبد والطحال .

وما يلفت النظر في هذه المجموعة من الأمراض الوراثية ، والتي تزيد نسبة تواترها بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي ، أنها تتعلق أساساً بنقص خمائر أيض الدهون ! والواقع أن ثمة ظاهرة ماثلة تتعلق بقبائل الهوي في أمريكا الشمالية حيث يزداد عدد الأفراد من «أعداء الشمس» ، أو الألبينو ، ونظراً لارتفاع قيمة هذا الشكل بين قبائل الهوي ، يحدث ما يُسمى «الانتقاء الثقافي» ، أي أن الثقافة تفرض على المجتمع أو الجماعة نوعاً من الانتقائية الوراثية نظراً لأهمية عنصر معين . وهذا العنصر ، في حالة اليهود ، هو الوصية التي تقول «لا تطبخ العجل بلبن أمه» ، والتي تتضمن تحريماً ضمناً على استخدام الدهون . ويمكننا بالمثل رؤية الأمراض الوراثية التي تزداد نسبتها بين يهود الولايات المتحدة ، المهاجرين من مناطق اليديشية ، كنوع من الانتقاء الثقافي وأيضاً الطبقي ، ذلك أن معظم هؤلاء المهاجرين من أصول فقيرة ، ويصبح الامتناع عن تناول الدهون نوعاً من الالتزام الديني والذي قد يكون أيضاً بسبب عجز القدرة المادية .

ومن الأمراض العصبية التي ترتفع نسبة الإصابة بها بين يهود اليديشية في العصر الحديث (بخاصة بين المهاجرين) مرض ذهان الهوس والاكتئاب أو المرض الدوري ، وهو المرض الذي تتشاب المرضى فيه حالات متعاقبة من الهوس ثم الاكتئاب ، وأحياناً تكون الحالات اكتئابية فقط أو هوسية فقط . ويُذكر أن هذا المرض يكون مقترناً (لدى بعض اليهود غير اليديشين المصابين به) بعمى الألوان وينقص في الحمض المسؤولة عن انتزاع هيدروجين الجلوكوز ٦ فوسفات من على الصبغية س ، ومن ثم يُفترض أن يكون لهذا أصل وراثي .

ومرة أخرى ، يُفسر نموذج الانتقاء الثقافي سبب تفتشي هذا المرض بين اليهود من أصل يديشي أو إشكنازي . وكما يقول رافايل باتاي في كتابه **العقل اليهودي** ، تزداد نسبة إصابة فقراء اليهود والطبقة العاملة اليهودية التي تمثل نسبة ضئيلة من إجمالي الطائفة

ومع هذا يبيّن هذا النموذج أن الخصوصية الطبية التي تسم جماعة يهودية ما ليست خصوصية طبية يهودية عالمية عامة ، أي أنها لا تشمل كل يهود العالم وإنما تقتصر على جماعة يهودية دون غيرها من الجماعات . ومن ثم لا يمكن الحديث عن خصوصية طبية أو بيولوجية عالمية عامة . ويُلاحظ أن هذا التنوع وذلك الاختلاف نابعان أساساً من مُركّب من العوامل البيئية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي نتج عنها ظهور بعض الأمراض الوراثية التي اختلفت من جماعة إلى أخرى ونتاج عنها ارتفاع نسبة الإصابة ببعض الأمراض بين جماعة دون أخرى .

ثمة أمراض بعينها تكثر بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة من أصل يديشي أو إشكنازي ، وثمة أمراض وراثية تنتشر بينهم دون غيرهم من السكان . ومن بين هذه الأمراض مرض «جاوشر» ، وهو مرض وراثي يُنتج عن صفة متنحية (والصفة المتنحية هي الصفة التي لا تظهر إلا عندما يكون الوالدان حاملين للصفة الوراثية نفسها) . ومن أهم أعراض مرض جاوشر ، انخفاض نسبة خميرة (إنزيم) تدخل في أيض نوع من أنواع الدهون في الدم ، وهو ما يتسبب عنه تراكم هذه المادة في كل من الكبد والطحال والجهاز العصبي ، مؤدياً إلى أعراض مرضية متلازمة في النمط المزمن الذي يظهر في البالغين ، أو إلى الوفاة في غضون عامين أو ثلاثة أعوام في النمط الحاد الذي يظهر بين الأطفال . وتبلغ نسبة حاملي هذه الصفة الوراثية بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي حوالي واحد بين كل ستين بينما تبلغ هذه النسبة بين غير اليهود حوالي واحد بين كل ستمائة .

وهناك أيضاً مرض «تاي - ساكس» ، وهو مرض يُنتج عن غياب خميرة تدخل في أيض الدهون أيضاً ، ويؤدي هذا المرض إلى موت الأطفال المصابين به في غضون عامين أو ثلاثة أعوام . وتبلغ نسبة حاملي الصفة المتنحية المسببة لهذا المرض بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي نحو واحد بين كل ثلاثين ، بينما تصل هذه النسبة في غير اليهود إلى واحد بين كل ثلاثمائة ، ونسبة احتمال ولادة طفل مصاب بهذا المرض تصل إلى واحد بين كل ثلاثة آلاف وستمائة من اليهود من أصل يديشي بينما تنخفض إلى واحد بين كل ثلاثة ملايين وستمائة ألف بين غير اليهود .

وهناك أيضاً مرض «نيمان بيك» ، وهو مرض ينجم عن تطفّر جيني له علاقة بغياب خميرة تدخل أيضاً في أيض الدهون ، ونسبة حاملي هذه الصفة عالية بين يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي . وهناك بالمثل ما يُسمى «متلازمة بلوم» (و«المتلازمة» ، هي

نزف الدم (الهيموفيليا) تقل قياساً بغيرهم . ويمكننا في ضوء نموذج الانتقاء الثقافي أيضاً أن نرى انخفاض نسبة أمراض الدم بين اليهود الشرقيين ، حيث أن اتباع تعاليم التلمود يخلق هذا النوع من الانتقائية . فقد ورد في التلمود فقرة تدعو إلى عدم ختان الطفل المولود لامرأة مات لها طفل من انتزيف بعد ختانه ، وإلى عدم تعبيد زواج تلك المرأة من رجل من العائلة نفسها .

ومن المعروف أن ختان الذكور تقليد مصري اعتاد عليه اليهود وأخذوا معه جميع التعاليم المرتبطة به . وبدا ، يمكننا أن نقول إن هذا أدى إلى عملية انتقائية خاصة تؤدي إلى عزل جيني معين يقتل من الإصابة بهذا المرض .

٢ - أمراض تصيب أعضاء الجماعات اليهودية بنسبة لا تختلف عن أعضاء الأغلبية :

يُلاحظ أن هناك تشابهاً في النمط الوراثي أو في مسألة الإصابة بالمرض بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين الشعوب التي يتواجدون بينها . فهم يتسمون إلى ثقافة هذه الشعوب ويعيشون ظروفها . وفي دراسة أجريت في إسرائيل أعوام ١٩٦٤ - ١٩٦٦ ، يُلاحظ الباحث أن نسبة الإصابة بمرض ارتفاع ضغط الدم المصاحب لنحامل ترتفع بين النساء اليهوديات من أصل إيراني . وكذا بين السعديين العرب ، عنها بين النساء اليهوديات من أصل يديشي أو سفاردي . وهو يحاول أن يربط بين المرض وبين ما دعى به «الأصل العرقي» ، ولكنه يعود في فقرة أخرى ليشهد عن العوامل الاقتصادية الاجتماعية ، وليس عن الأصل العرقي ، دون أن يلاحظ ما في قوله من تناقض ، فيقول : إن المرض أكثر انتشاراً بين الأمهات الفقراء وغير المتعلمات ! في هذا التصدد ، تُذكر دراسة أجريت في إسرائيل بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٥٣ أن معظم حالات أمراض الجهاز الهضمي بين يهود البديشية هي حالات قرحة المعدة والقولون العصبي ، وهي حالات عصبية جسمية . وعلى العكس من ذلك ، تزداد الأمراض المعدية بين اليهود الشرقيين . فيهود البديشية القادمون من أوروبا يعانون أساساً من أمراض الخضار الغريبة ، أما اليهود الشرقيون فيعانون من أمراض المنطقة العربية .

ونحن نلاحظ أيضاً أن غائية الأمراض الوراثية ، التي تُعزى إلى اليهود بشكل أو آخر ، ما هي إلا أمراض تزيد نسبتها بين صفوف يهود الولايات المتحدة من أصل يديشي . ويرجع هذا أولاً وقبل كل شيء إلى ارتفاع مستواهم المادي مقارنة بغيرهم من البشر في الولايات المتحدة حيث يحتلون مراكز قوية داخل صفوف الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة ، الأمر الذي يتيح لهم قدرأً عالياً من

بهذا المرض ، فذهان الهوس والاكتئاب هو من أمراض عدم التكيف ويزداد بشدة عندما تزداد الهوية الاجتماعية بين أفراد الطبقة الواحدة . واليهودي الفقير يزداد إحساسه بالغربة وعدم التكيف لإحساسه بأن اليهود الآخرين أكثر غنى منه ، ومن ثم تبدأ نوبات السخرية من الذات التي تتلوها نوبات الاكتئاب والإحباط .

وكذلك يُفسر لنا هذا النموذج انخفاض معدلات الخصوبة بين اليهود من أصل يديشي في الولايات المتحدة حتى أصبحت تساوي النسبة العامة للمواطن الأمريكي من الطبقة الوسطى . فالحرار الطبقي الذي حققه يهود البديشية في الولايات المتحدة غير مخطط حياتهم وجعلهم أقرب إلى التمسك بقيم الطبقة الوسطى أكثر من المواطن الأمريكي العادي . فاليهودي البديشي المنتمي إلى الطبقة الوسطى الأمريكية لن يقبل أن يحرمه الإنجاب من كل المزايا الفردية التي يتمتع بها ، وذلك على العكس من جده الفقير في بولندا الذي كان ينجب كثيراً لأن الأولاد يشكلون مصدراً للدخل (كقوة عمل) ، ولأن الثقافة السائدة لا تأبه كثيراً بالانتماء الفردي بقدر ما تحرص على الانتماء الجماعي .

أما اليهود القراءون ، فيُلاحظ أن من بين الأمراض الوراثية التي ترتفع نسبة ظهورها بينهم مرض فرديخ هوفمان ، وهو مرض أبيض يؤدي إلى تحلل خلايا الدماغ ويؤدي إلى موت الأطفال المصابين به . وتبلغ نسبة الأشخاص حاملين المرض بين القراءين نحو واحد بين كل ثلاثين .

ويُفترض أن ليهود الولايات المتحدة من أصل يديشي مناعة خاصة ضد الإصابة بالسل . وقد ذكرت بعض المراجع التاريخية أنه إنَّان تقيَّ وباء الطاعون في أوروبا في القرون الوسطى وما بعدها ، كانت نسبة إصابة اليهود به أقل بكثير من نسبة إصابة الآخرين . والواضح أن المناعة النسبية ليهود الولايات المتحدة من أصل يديشي ضد السل يمكن فهمها في ضوء نموذج الانتقاء الثقافي ، فمعظم هؤلاء من أصول فقيرة عاشت في مناطق قُرِضت عليها العزلة ، وبذلك تقيَّ السل في أجيالهم ، والناجون هم أولئك الذي استطاعوا اجتياز المرض واكتسبوا مناعة نسبية ورثوها للأجيال التالية التي هاجرت إلى الولايات المتحدة وارتقت في السلم الاجتماعي إلى مستوى الطبقة الوسطى . أما بالنسبة إلى وباء الطاعون ، فقد استطاع كثير من يهود أوروبا خلال العصور الوسطى تجنُّب هذا المرض ، مثلهم مثل سائر الأثرياء ، لمقدرتهم على الابتعاد عن المناطق الموبوءة ، وكذلك لنظافتهم والطبيعة الخاصة لطعامهم . وفيما يختص بيهود المشرق ، نجد أن نسبة الإصابة بأمراض

في القرن التاسع عشر ، وكانت من أكثر الأفكار شيوعاً ، وأثرت في الفكر القومي الغربي وفي الفكر النازي والصهيوني وفي النظرية الإمبريالية الغربية .

ونحن نذهب إلى أن هناك ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيلات الحضارية التي يوجد داخلها اليهود - ومن هنا عدم نقاء الظواهر الحضارية اليهودية ابتداءً باللغة العبرية ذاتها ، وانتهاءً بالنشيد الوطني الإسرائيلي «الهاتيكفا» (أي الأمل) - (انظر الباب المعنون «ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية [تعريف وإشكالية]»).

والواقع أن الامتزاج مع الحضارات والشعوب الأخرى ليس أمراً معيماً أو مشيئاً ، فهو قانون الوجود الإنساني . ولكن الصهاينة ، شأنهم شأن المعادين لليهود ، يحاولون خلق صفة النقاء الحضاري وأحياناً العرقي على اليهود ، وفي هذا إنكار للإنسانيتهم لأنهم حين يتزعمون اليهود من سياقهم التاريخي المتعين إنما ينتزعونهم من سياقهم الإنساني الوحيد .

الخصوصية اليهودية

Jewish Specificity

«الخصوصية اليهودية» تعبير ينطلق من أن هناك سمات وخصائص ثابتة يُفترض أنها مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية ومن ثم تمنحهم خصوصيتهم . وهذه الفكرة كامنة في جميع الأدبيات الصهيونية والأدبيات المعادية لليهود ، إذ أن كلاً منهما يرى أن ثمة طبيعة بشرية يهودية أو تاريخاً يهودياً خاصاً مقصوراً على اليهود . ولكن دارس الجماعات اليهودية في العالم سيرى أن مفهوم الخصوصية اليهودية ليس له ما يسند في الواقع ، إذ يتسم أعضاء الجماعات اليهودية ، بل والنسق اليهودي الديني ذاته ، بعدم التجانس . ولذا ، فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية ، وهي خصوصيات أدت العناصر التالية إلى ظهورها :

١ - اضطلعت أعداد كبيرة من الجماعات اليهودية بدور الجماعات الوظيفية الأمر الذي أدّى إلى عزلها عن المجتمع ، ومن ثم كان لهذه الجماعات لون خاص بها وشخصية شبه مستقلة . لكن هذه الخصوصية وظيفية أكثر منها حضارية ، أي مرتبطة بالوظيفة لا بالتراث المشترك .

٢ - ما يضي على أعضاء الجماعات اليهودية ، (في معظم الأحوال) طابع الاستقلال النسبي الإنسي هو ميراثهم من تشكيل حضاري سابق كانوا يتواجدون فيه ، وحملوا بعض عناصره وسماته معهم إلى

التعليم ، وبالتالي يمكنهم الاستفادة من عملية فحص الأيوين وفحوص ما قبل الزواج التي تتطلب تكاليف باهظة لا يقدر عليها المواطنون من أصل أفريقي مثلاً .

وعلى أية حال ، فإن هذه الدراسات لا تنطرق إلى الأمراض الوراثية العائلية التي تصيب العائلات اليهودية الثرية كعائلة روتشيلد على سبيل المثال . والملاحظ أن النمط الوراثي هنا يختلف عن النمط العام لأمراض يهود الديشية ويقترب من النمط الوراثي للعائلات الأرستقراطية الأوروبية كآل رومانوف الروس مثلاً ، حيث تنتشر بينهم أمراض الدم مثل الهيموفيليا ، وهي أمراض تعني شدة انغلاق العائلة على نفسها ، وهو ما يؤدي إلى العزل الجيني أو التثبيت الوراثي لصفة مُتَحَيَّة .

لكن الحديث عن الأمراض اليهودية ، دون مقارنة هذه الظاهرة بالظواهر المماثلة في المجتمع ، يؤدي إلى نزاع الظاهرة من سياقها ويفتح الباب على مصراعيه للنظريات العنصرية ، والمنطق نفسه الذي يحاول إثبات التفوق الوراثي لليهود يمكن أن يحاول أيضاً إثبات خطورتهم الوراثية وضرورة اتخاذ الإجراءات لوضع حد لهذا الخطر .

نقاء اليهود حضارياً (إثنية)

Cultural (Ethnic) Purity of the Jews

«نقاء اليهود حضارياً (إثنية)» هي عبارة تعني أن ثمة شعب يهودي ذو تقاليد حضارية يهودية خالصة ، احتفظت باستقلالها ووحدتها ونقاها .

والنقاء الحضاري هو المفهوم الأساسي الكامن في الكتابات الصهيونية عن اليهود . ومن ثم ، فهم يتحدثون عن «الخصوصية اليهودية» أو «التراث اليهودي» أو «الثقافة اليهودية» وعن «التاريخ اليهودي» وكأن هناك بنية تاريخية مستقلة يدور اليهود في إطارها بمعزل عن الأغيار ، وذلك برغم انتشارهم في كل أنحاء الأرض ، بل ويتحدثون عن «النظام السياسي اليهودي» و«الاقتصاد اليهودي» ، وهكذا ، باعتبارها كلها ناتجة عن هذا النقاء الحضاري اليهودي ، وباعتبارها الأطر التي احتفظ اليهود من خلالها بنقايتهم .

ويلاحظ أن النقاء الثقافي غير منفصل عن النقاء العرقي ، فاستناداً إلى فكرة الشعب العضوي (فولك) ، ترتبط حضارة أي شعب بالدماء التي تجري في عروقه . ومن ثم ، فإن هناك وحدة لا تنفصم عراها بين الحضارة والعرق . وقد سادت هذه الفكرة أوروبا

بولندا الذين تأثروا بالتراث الشعبي السلافي ، وكلاهما سيُصدَم حينما يعرف بعض العادات التي يمارسها يهود إثيوبيا مثل ختان الإناث وعزل المرأة في كوخ مستقل أثناء الحيض . والشئ نفسه ينطبق على الفنون الجميلة ، فرسوم شاجال تختلف اختلافاً جوهرياً عن الزخارف الهندسية التي تظهر على التحاسيات الملوكية التي لا يزال الحرفيون اليهود يصنعونها في دمشق ، وكلاهما يختلف عن الحللي القضية التي يصنعها الصاغة اليهود في اليمن أو تونس .

وقد يُقال إن اللغة العبرية تشكل عنصراً مشتركاً بين أعضاء الجماعات اليهودية ، لكن من المعروف أن العبرية ظلت في معظم الأحيان لغة الصلاة التي كُتبت بها بعض الكتابات الفقهية ، ولم يكن يجيدها سوى أعضاء الأرستقراطية الدينية . وبعبارة أخرى ، كانت اللغة العبرية ، كعنصر مشترك مستمر ، مقصورة على فئة صغيرة من الجماعات اليهودية ، ولا تمتد إلى كل النشاطات الإنسانية . أما الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية ، فكانوا يتحدثون لغات ولهجات استقوها من الحضارات والمجتمعات التي وجدوا فيها ، وهذه اللغات تحدّد ولا شك جانباً كبيراً من رؤيتهم للعالم .

ولعل الصورة اللغوية بين يهود العالم توضح ما نرمي إلى تأكيد . فالغالبية الساحقة ليهود العالم في نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحدث اليديشية (لا العبرية) . وفي الوقت الحالي نجد أن غالبية يهود العالم (الولايات المتحدة - إنجلترا - كندا - جنوب أفريقيا - أستراليا - نيوزيلندة) يشكون جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو - ساكسوني ، ولذا فهم يتحدثون الإنجليزية لا العبرية (وفي تصوّرنا أن إسرائيل هي أيضاً جزء من هذا التشكيل ، ولكن الغرب رأى أن يحتفظ هذا الجيب ببعض السمات اليهودية مثل العبرية حتى يمكنه استيعاب الفئاض البشري اليهودي من شرق أوروبا والذي كان يتدفق على غرب أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر) . أما يهود افلاشاء فهم يتحدثون الألمانية ويتعبّدون بالجزعزية التي لم يسمع بها كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، تماماً كما لم يسمع افلاشاء من قبل بالعبرية أو اليديشية وربما الإنجليزية .

والواقع أن مصدر الاختلاف بين اللغات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية ، والأزياء التي يرتدونها ، والفنون التي يعجبون بها أو يتجنونها ، هو دائماً اختلاف التشكيلات الحضارية التي انتمى إليها أعضاء الجماعات اليهودية في الماضي ، أو التي يتمنون إليها في الوقت الحاضر ، وهذا ما حمل أحدهم على الإشارة إلى أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بأنهم «واسب

التشكيل الحضاري الجديد الذي انتقلوا إليه ، وتمسكوا بها وحافظوا عليها دون أن تكون هذه العناصر والسمات يهودية بالضرورة .

٣ - الخصوصية اليهودية التي تتمتع بها الجماعات اليهودية الوظيفية هي أقرب إلى الحالة الذهنية الافتراضية منها إلى الحالة الواقعية الفعلية ، فرغم العزلة التي يفرضها المجتمع على الجماعة الوظيفية فإن أعضاء الجماعة اليهودية يكتسبون كثيراً من خصائص هذا المجتمع ويندمجون فيه .

لكل هذا ، لا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مُستَمَدّة من معجم حضاري واحد ، بل يمكننا أن نقول إن هناك خصوصيات يهودية شتى اكتسبها أعضاء الجماعات اليهودية لا من تراث يهودي عالمي أو من خلال حركات حضارية يهودية عامة ، وإنما من خلال التفاعل مع عدة تشكيلات حضارية ، ومن خلال التكيف معها بطرق مختلفة ، ومن خلال الاندماج فيها في نهاية الأمر . ومن ثم أصبح أعضاء الجماعة اليهودية في الصين يهوداً صينيين (أو صينيين يهوداً) تحدّدت خصوصيتهم داخل التشكيل الحضاري الصيني وبسببه ، لا خارجه وبالرغم منه . ولذا ، انضمت قيادة الجماعة اليهودية في الصين إلى طبقة كبار الموظفين العلماء (ماندرين) ، وتطعّ أعضاء الجماعة اليهودية بطوائع الصينيين في كثير من النواحي . ويُقال الشئ نفسه عن يهود الهند ويهود إثيوبيا ويهود العالم العربي . بل ونجد ، داخل التشكيل الحضاري الواحد ، كالتشكيل الحضاري العربي ، أن يهود العراق يختلفون عن يهود اليمن بمقدار اختلاف العراق عن اليمن . وفي اليمن ، يختلف يهود صنعاء عن يهود الجبال (صعدا وغيرها) بمقدار اختلاف أهل صنعاء عن أهل الجبال .

وتختلف الأزياء التي يرتديها أعضاء الجماعات اليهودية باختلاف التشكيل الحضاري الذي ينتمون إليه . فالبنطلون الجينز أو الميني جيب (زي الفتاة اليهودية الأمريكية الحديثة) يختلف عن زي الفتاة اليهودية الأمريكية في الجنوب الأمريكي قبل الحرب الأهلية حيث كانت تلبس أزياء الأرستقراطية الإنجليزية . وزي كليتيهما لا علاقة له بالزي الذي ترتديه الفتاة اليهودية من قبائل البربر في المغرب وتونس . وكل هذه الأزياء لا علاقة لها بما ترتديه الفتاة اليهودية المحجبة في بخارى أو نساء السفارد الأرستقراطيات في شبه جزيرة أيبيريا اللاتي كن يرتدين ملابس الأرستقراطية الإسبانية (أو العربية) . ويُقال الشئ نفسه عن فلكلور المجتمعات اليهودية الذي هو في واقع الأمر فلكلورات الجماعات المختلفة التي ينتمون إليها ، فطاسة الخضة التي يستخدمها يهود مصر أمر غير معروف ليهود

في بلد لوتر . أما في البلاد الكاثوليكية ، خصوصاً في أمريكا اللاتينية ، فقد تأثرت اليهودية بالعقيدة الكاثوليكية في كثير من جوانبها ، ولذلك لا توجد يهودية إصلاحية في أمريكا اللاتينية . وقد حدا هذا ببعض الدارسين إلى الحديث عن «يهودية كاثوليكية» ، و«يهودية بروتستانتية» ، و«يهودية إسلامية» ، ويمكن أن نضيف «يهودية كونفوشيوسية» وأخرى «هندوكية» وثالثة «أفريقية» ، فهذه كلها يهوديات تستمد خصوصياتها من محيطها الديني .

وهذا الأمر طبيعي وإنساني إلى أقصى حد . فالبشر ، شاء واهم أبوا ، يتأثرون بمحيطهم الحضاري ويؤثرون فيه . كما أن أعضاء الأقليات عادة يتأثرون بمحيطهم الحضاري أكثر مما يؤثرون فيه ، إلا إذا كانوا من الغزاة ، ففي هذه الحالة يصبح الغزاة نخبة عسكرية حاكمة يتقرب منها أعضاء المجتمع ويتعلمون لغتها ويتشبهون بها إلى أن يفقدوا لغتهم وهويتهم الأصلية . وعلى أية حال ، لم يكن العبرانيون ولا أعضاء الجماعات اليهودية في مثل هذا الوضع في يوم من الأيام ، باستثناء فترة احتلال فلسطين على يد المستوطنين الصهاينة (وهم ، على أية حال ، جماعة غير متجانسة حضارياً ، كما أن الفلسطينيين العرب جماعة واعية ومتماسكة حضارياً إلى أقصى حد) .

هذا إذن أمر طبيعي وإنساني ، لكن المشكلة تنشأ حينما يصير المؤرخون الصهاينة وغيرهم على استخدام كلمة «يهود» للإشارة إلى أعضاء الجماعات اليهودية كافة ، كما لو كانوا كلاً واحداً متماسكاً متجانساً ، ومن ثم فإنهم يتحدثون عن «فن يهودي» و«أزياء يهودية» بل و«لغات يهودية» تُجسد كلها خصوصية يهودية مطلقة لا علاقة لها بالتشكيلات الحضارية المختلفة . والواقع أن حديث الصهاينة عن «الخصوصية اليهودية» ناجم عن ملاحظة أن الجماعات اليهودية منفصلة عما حولها من ظواهر مماثلة . فمما لا شك فيه أن كثيراً من الجماعات اليهودية ، خصوصاً في الغرب ، كانت معزولة عن محيطها الحضاري إلى حد ما ، وقد تركت هذه العزلة أثرها على أعضاء الجماعات اليهودية على شكل تميز وخصوصية . ولكن معظم الجماعات الوظيفية ، يهودية كانت أم غير يهودية ، تُضرب عليها العزلة أيضاً وتكتسب خصوصية ما مرتبطة بوضعها الاجتماعي الحضاري المحدد . وكما أشرنا من قبل ، فإن هذه الخصوصية ليست خصوصية واحدة ولا عالمية ، بل هي خصوصيات مختلفة مُستمدة من تشكيلات حضارية غير يهودية مختلفة .

كما أن حديث الصهاينة متأثر بتجربة يهود شرق أوروبا من يهود اليديشية ، الذين كانوا كتلة بشرية ضخمة (تشكل ٨٠٪ من يهود

يهود . وكلمة «واسب» هي اختصار لعبارة «وايت أنجلو ساكسون بروتستانت White Anglo Saxon Protestant» أي «بروتستانت أبيض من أصل أنجلو ساكسوني» . ويشير يهود فرنسا الأصليون إلى المهاجرين المغاربة بوصفهم «كوشر كُسكُس» ، أي أن يهودية يهود المغرب مرتبطة ولصيقة بهويتهم المغربية ، فطعامهم لا تفرقه العقيدة اليهودية وحدها ، ولذا فهو ليس «كوشير» وحسب ، وإنما يقرره أيضاً انتمائهم الإثني ، ولذا فهو أيضاً «كُسكُس» . والخصوصية اليهودية هنا ليست سمة عامة وإنما هي سمة مرتبطة بانتماهم المغربي . ولذلك ، يرى البعض أن هؤلاء لو فقدوا خصوصيتهم المغربية لفقدوا هويتهم اليهودية أيضاً .

وقد يقال إن ثمة رابطة دينية قوية بين أعضاء الجماعات اليهودية ، وإن الخصوصية اليهودية تكمن في هذه العقيدة الفذة . ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن العقيدة اليهودية لا تختلف كثيراً عن الإثنية اليهودية ، فالعقيدة اليهودية ذاتها تأخذ شكل تركيب جيولوجي غير متجانس تراكم داخله أنساق دينية مختلفة ، بعضها توحيدي وبعضها الآخر حلولي أو تشاويي (انظر الباب المعنون «اليهودية باعتبارها تركيياً جيولوجياً تراكمياً») . والرؤية اليهودية في الصين اكتسبت مضموناً صينياً صريحاً ، وانغمس اليهود تحت تأثير الكونفوشيوسية في عبادة الأسلاف وكانوا يطلقون على الإله اسم «تاين» أي السماء ، أو «تاو» ، أي الطريق ، وكانوا يعبدونه في معبد يهودي يقف بجواره معبد آخر خُصص لعبادة الأسلاف . وكان بعضهم يأكل لحم الخنزير (مثل الصينيين) ولكنهم كانوا لا يضحون به لأسلافهم بل كانوا يقدمون لهم لحم الضأن وحسب . والأسلاف هنا ، بالمناسبة ، هم إبراهيم ويعقوب وإسحق . وفي الهند تأثرت اليهودية بنظام الطوائف المغلقة وبالعديد من الشعائر الخاصة بالنجاسة ، تحت تأثير الهندوكية . أما في إثيوبيا ، فقد تأثرت اليهودية هناك بكل من الإسلام والمسيحية ، فيهود الفلاشا يخلعون نعاليهم ويصلون في مسجد ، ولكنهم يتلون صلواتهم بالجعيزية ، لغة الكنيسة القبطية ، كما أن يهوديتهم دخلتها عناصر وثنية عديدة . وفي المحيط الإسلامي ، قام موسى بن ميمون بتطوير عناصر التوحيد في اليهودية وأكدها ، بل وحاول ابنه من بعده إضفاء الطابع الإسلامي على اليهودية . كما تأثرت اليهودية في المحيط السلافي الفلاحية بالمسيحيين الأرثوذكس ، وبحركات المتصوفة التي ظهرت بينهم . وكانت هذه العناصر من بين الأسباب المهمة التي أدت إلى ظهور الحسيدية . أما في ألمانيا ، والولايات المتحدة فيما بعد ، فقد تأثرت اليهودية بالمحيط البروتستانتية وظهرت اليهودية الإصلاحية

اليهودية وغيرهم بالتخلص من خصوصيتهم ليصبحوا بشراً بالمعنى العام للكلمة . وكان يُنظر إلى اليهود الذين يؤثرون الإبقاء على خصوصيتهم الدينية أو الإثنية على أنهم «دولة داخل دولة» . وقد شن الفكر العقلاني هجوماً شرساً على جميع الأقليات العرقية واللغوية والدينية في المجتمع الغربي وضمن ذلك الجماعات اليهودية . ودعاهم إلى التخلي عن انعازيتهم وإلى إصلاح وتحديث هويتهم ، أي تطبيعها وتخليصها من أية خصوصية تكون قد علقت بها .

وقد استجاب اليهود إلى هذه الدعوة وبسرعة غير عادية لأسباب عدة ، من بينها عدم وجود خصوصية يهودية عالية كما أسلفنا . وعدم وجود سلطة مركزية يهودية تحدد الخصوصية اليهودية وتحدد معاييرها . ولذا لم يكن أعضاء الجماعات اليهودية ، بسبب غياب هذه السلطة ، كانوا قد تشرّبوا قديراً كبيراً من الثقافة المحيطة بهم ، عن وعي أو عن غير وعي . ولذا فلم يكن من الصعب إنجاز عملية التخلص من أية علامات على الخصوصية . كما ظهرت بين اليهود حركات إصلاح ديني وتنوير أسهمت في تخليص اليهود من أية خصوصية دينية أو غير دينية . ومع هذا ، يجب ملاحظة أن أشكال العلمنة ومعدلاتها ذاتها كانت تختلف من بلد إلى آخر حسب الخصوصية الدينية والحضارية لهذا البلد أو ذاك .

وأكبر دليل على الاختفاء السريع للخصوصية هو ما حدث للكتلة البشرية الشرق أوروبية الضخمة من يهود يديشية ، والتي كانت تشكل ٨٠٪ من يهود العالم . فقد اختفت اليديشية ، أهم مظاهر هذه الخصوصية بسرعة غير عادية ، ولم يعد هناك سوى بضعة جيوب وأفراد يتحدثون . وتُعد تجربة المهاجرين اليهود مع الولايات المتحدة من أهم التجارب في التخلص من الخصوصية ، فقد كان أعضاء الجماعة اليهودية هم أسرع أقلية تمت أمركتها رغم كثرة اخذيت عن انعازيتهم وتطلعاتهم القومية ، وذلك لأن المجتمع الأمريكي هو المجتمع العلماني النموذجي . وفي الوقت الحاضر ، تدل الصورة العامة للخصوصيات اليهودية في العالم على تأكلها ، وعلى تزايد معدلات اندماج اليهود في مجتمعاتهم .

وبطبيعة الحال ، لا يمكن اخذيت في الوقت الحاضر عن أية خصوصية إسرائيلية . ولكن ، حتى إن ظهرت مثل هذه الخصوصية ، فإنها لن تكون خصوصية يهودية عالية وإنما خصوصية التجمع البشري الاستيطاني في الشرق الأوسط ، ذلك المجتمع الذي يتحدث سكانه اللغة العبرية مع أنهم جاءوا من تشكيلات حضارية شتى وأحضروا معهم خصوصياتهم الحضارية المختلفة . والتزاع القائم بين الأرثوذكس وغير الأرثوذكس ، وبين الدينيين واللا دينيين ،

العالم) تتميز بشكل مباشر عن محيطها الحضاري . ولكن من الواضح أن هذا التمييز ناجم عن عناصر حضارية حملها يهود اليديشية من الحضارات السابقة التي عاشوا في كنفها ، وأدخلوا عليها عناصر تنبوا من الحضارة التي انتقلوا إليها . فاليديشية (أهم مظاهر خصوصيتهم) هي ألمانية العصور الوسطى التي كانوا يتحدثون بها قبل هجرتهم بعد أن دخلت عليها بضع كلمات سلافية وعبرية ، ورداؤهم هو الكفتان (الفطتان) رداء الأرستقراطية البولندية ، وهو من أصل تنري تركي . كما أنهم تأثروا بمحيطهم السلافي في معتقداتهم الدينية ، فالحسيدي هي نتاج الفكر الصوفي الفلاحي السلافي وعقائد المنشقين على الكنيسة الأرثوذكسية ، وقبعتهم المعروفة بالستريمل المزيئة بالفرو هي ذات أصل سلافي . ويمكن القول بأن خصوصية يهود اليديشية تكمن في عدة عناصر مستمدة من عدة حضارات ، وأن وجودها مجتمعة فيهم هو ما قد يشكل خصوصيتهم . وقد كوّن يهود اليديشية كتلة بشرية ضخمة مترابطة متميزة عن محيطها الحضاري مع تأثيرها العميق به ، ولذا فإنها تُعد أقلية قومية مثل كثير من الأقليات القومية الأخرى التي كانت توجد داخل الإمبراطورية القيصرية ، فهي لا تشكل شعباً يهودياً وإنما أقلية قومية شرق أوروبية . وقد انطلق أعضاء حزب البوند من هذا المفهوم ، وطلبوا حل مشكلة الجماعة اليهودية في شرق أوروبا باعتبارها أقلية قومية يهودية شرق أوروبية لا شعباً يهودياً عالمياً . وينطلق فكر دينوف من المفهوم نفسه ، فالحديث عن قومية الدياسبورا هو في واقع الأمر حديث عن الخصوصية اليهودية ، وقومية الدياسبورا هي حديث عن أقليات قومية ، وعن أقلية قومية واحدة على وجه التحديد ، وهي يهود اليديشية . ومن هنا كان رفض هؤلاء اللغة العبرية ودفاعهم عن اليديشية ، لا باعتبارها لغة اليهود التي تُعبّر عن خصوصية يهودية عالمية ، وإنما باعتبارها لغة يهود شرق أوروبا ، التي تُعبّر عن خصوصيتهم .

ولكن هذه الخصوصية اليهودية اليديشية وغيرها من الخصوصية اليهودية ، تم اكتساحها مع ظهور العلمانية الشاملة في الغرب وعصر العقل والاستنارة . فالفكر العلماني والعقلاني ينظر إلى الكون في إطار فكرة القانون العام والطبيعة البشرية العامة والإنسان الطبيعي . وقد ظهر هذا الفكر قبل تطوّر الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية التي أدّت إلى تراجع فكرة الإنسان الطبيعي والإنسانية العامة ، حيث حل محلها إدراك أعظم للطبيعة البشرية ولتداخل العناصر التاريخية والحضارية الخاصة مع بنية الطبيعة البشرية ذاتها . وقد طالب عصر العقل أعضاء الجماعة

ألمانيا في ثلاثينيات هذا القرن . فأعضاء الجماعة اليهودية كانوا قد حققوا درجات عالية من الاندماج المدني ، بعد أن حصلوا على حقوقهم السياسية والدينية كافة ، وبعد أن أُتيح لهم مختلف الوظائف وفتحت المؤسسات التعليمية أبوابها لهم . وقد تم ذلك بمقتضى القانون . ولكن حين وصل النظام النازي إلى الحكم ، فقدوا كل هذه الحقوق بسبب بنية المجتمع الألماني وعلاقة أعضاء الجماعة اليهودية بها ، والتي أدت في نهاية الأمر ، إلى وصول النازيين إلى سدة الحكم .

ويمكن القول بأن آليات الدمج والعزل ليست مسألة ذاتية أو إرادية تماماً ، وإنما مسألة لصيقة ببنية المجتمع ، ومن ثم فهي قد تتجاوز رغبة المؤسسة الحاكمة في دمج الأقلية أو عزلها ، بل وتتجاوز موقف أعضاء الأقلية من عمليتي الدمج والعزل . فمن المعروف أن الدولة الروسية القيصرية كانت رغبة تماماً في دمج اليهود ، لأن هذا كان يخدم مصلحتها ويتفق مع رؤيتها . وبالفعل أصدرت الدولة الروسية العديد من القوانين لحث اليهود على الاندماج . ولكن كانت هناك عناصر عديدة ذات طابع بنوي تعوق عملية الدمج المدني مثل تخلف وفساد البيروقراطية الروسية التي كانت تشرف على عملية الدمج . كما أن تخلف أعضاء الجماعات اليهودية لم يساعد كثيراً على عملية الدمج .

ولنضرب مثلاً آخر من كوبا . حينما استولت قوات كاسترو على الحكم ، كانت الحكومة الثورية الجديدة متعاطفة تماماً مع أعضاء الجماعة اليهودية ، وأصدرت التشريعات اللازمة لمنحهم حقوقهم السياسية والمدنية ولنهيئة الجو اللازم لممارسة الشعائر الدينية اليهودية . ولكن على المستوى البنوي كان الاقتصاد الاشتراكي يضطر الحكومة لتأميم العديد من المصانع التي كان يمتلكها أعضاء الجماعة اليهودية والاستيلاء على رؤوس أموالهم وتصفية كثير من الوظائف التي كانوا يشغلونها (فهم كانوا مرتبطين بالاقتصاد القديم والمصالح الأمريكية) . كل هذا يعني في واقع الأمر أن بنية المجتمع نفسها كانت تلفظهم ، رغم كل المحاولات المخلصة من جانب الحكومة الثورية أن تحافظ عليهم وتستفيد من خبراتهم . وقد يكون من المفيد أن نتناول بعض آليات الاندماج والانزعال البنويين فيما يلي :

١ - يلاحظ حينما يتحول أعضاء الجماعة الدينية إلى جماعة وظيفية ، أي حينما يضطربون بوظائف تتطلب نوعاً من الحياذ والانفصال عن المجتمع ، أنهم يحققون أقل درجات الاندماج ، إذ أن عزلتهم تصبح أمراً وظيفياً مطلوباً . ومثال ذلك ، الجماعة

وبين السفارد والإشكناز ، هو أكبر دليل على عدم وجود الخصوصية اليهودية العالمية أو العامة .

الاندماج Assimilation

«الاندماج» هو تَبَيُّ أعضاء الأقليات عادات الشعوب التي يعيشون في كنفها ، وكذلك تراثها الحضاري من مأكّل وملبس وطرق تفكير ولغة ، بحيث لا يختلفون في كثير من الوجوه عن بقية أعضاء المجتمع . والاندماج عكس الانزعال ، وهو مختلف عن الانصهار (أي الذوبان الكامل في المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية واختفاء أي شكل من أشكال الخصوصية) . وأعضاء الجماعات اليهودية ، باندماجهم في محيطهم الحضاري وانصهارهم أحياناً أو بانعزالهم عنه أحياناً أخرى ، لا يختلفون عن بقية أعضاء الأقليات والجماعات الإثنية ، أو عن بقية البشر .

ولا يوجد قانون واحد يحكم ظاهرة اندماج أعضاء الجماعات اليهودية وانصهارهم أو انعزالهم ، وبالتالي لا يمكن القول بأن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الانعزال عمن حولهم . كما لا يمكن الأخذ بعكس ذلك ، كأن نقول إن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الاندماج فيمن حولهم ، وهكذا . ففي غياب حركات تاريخية اجتماعية يهودية مستقلة ، لابد من العودة إلى أطر مرجعية مختلفة ، ومن ثم فإن من الضروري دراسة كل حالة على حدة بالإشارة إلى مرجعيتها التاريخية والثقافية غير اليهودية . ومع هذا ، سنحاول أن نصل في المداخل التالية إلى بعض التعميمات النضفاضة بمقارنة الحالات المختلفة ومقارنة أوضاع الجماعات اليهودية بجماعات وأقليات أخرى .

الاندماج البنوي Structural Assimilation

«الاندماج البنوي» هو الاندماج النابع من حركات المجتمع وبنية وظروفه الموضوعية ، وهذا في مقابل «الدمج المدني» وهو إعطاء اليهود حقوقهم الدينية والسياسية والمدنية من خلال تشريعات وقوانين تصدرها الدولة وتشرف مؤسساتها على تنفيذها . وينطبق هذا الاندماج المدني على معظم يهود العالم الغربي ، أي أغلبية يهود العالم .

وتتم عملية الدمج المدني على مستوى البنية الشكلية السطحية ، ولذا فهي لا تضرب بجذورها في الواقع المتعين ، ومن ثم فهي مهددة بالاختفاء في أية لحظة . وقد حدث شيء مماثل في

بإضفاء القداسة على العزلة الاقتصادية . وربما كان وضع يهود الأرندا في أوكرانيا مثلاً متبنوياً يجسد هذه الصورة ، حيث كانوا يمثلون الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ، ويعملون بالأمور المالية والتجارية في وسط زراعي فلاحى ، ويتحدثون باليديشية والبولندية في وسط يتحدث الأوكرانية . كما كانوا يهوداً يمثلون نخبة كاثوليكية في وسط أرثوذكسى . بل ويردون أزياء مختلفة عن تلك التي يرتديها الفلاحون ، ويقصون شعورهم بطريقة متميزة في شكل حية وسوالف ، وبالتالي لم تكن تربطهم علاقات قوية بالمجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها . والصينيون ، في جنوب آسيا ، مثل آخر لهذا . وهذا يختلف عن تميز الأقلية وتمايزهم على مستوى واحد فقط كما في حالة الأقلية النقيضة في مصر . فتميز ديني وحسب (وحتى على هذا المستوى توجد أرضية مشتركة عريضة) . أما على المستويات الثقافية والاقتصادية فهم جزء لا يتجزأ من التشكيل الحضاري العربي الإسلامي في مصر (يتحدثون العربية ولا يختلفون عن بقية أعضاء المجتمع في مكانهم أو ملبسهم أو مشربهم) .

٤ - يزداد مستوى العزلة والخصوصية إن كان هناك وض أصلي يتبعه أعضاء الأقلية ويشكل النقطة المرجعية لنهاية لهم يستمدون منه هويتهم ورويتهم لأنفسهم . وربما كان الصينيون في جنوب شرق آسيا مثلاً جيداً لذلك . فنصين هي دلت وطنهم الأصلي ونقطة جذب حضارية ضخمة لها ثقافتها ووزنها بالنسبة إليهم . وتزداد معدلات الاندماج باختفاء مثل هذا المركز ، إذ يستمد أعضاء الأقلية رؤيتهم لأنفسهم من المجتمع الذي يوجدون فيه أياً كانت درجة انعزالهم عنه . وغيب مثل هذا المركز يعني أيضاً غيب معايير مركزية دينية أو ثقافية ، وهو ما يعني أن كل أقلية لابد أن تتطور بحسب المعايير المحلية . وهذا ما حدث لمجتمعات لليهودية في كل أنحاء العالم ، فرغم انفصلهم النسبي عن الأغلبية ، فقد استمدوا هويتهم المستقلة منها (بسبب غيب ثقافة يهودية عالية ومركز يهودي واحد) . ومن ثم حققوا معدلات عالية من الاندماج (رغم استقلاليتهم الظاهرة) .

٥ - من الواضح أن ثمة علاقة بين معدلات الاندماج وحجم الجماعات اليهودية . فالجماعات الصغيرة تميل نحو الاندماج بسرعة على عكس الكتل البشرية الكبيرة ، ومن هنا فإن تركيز أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية أو غيرها في منطقة سكنية واحدة يساعدها على العزلة ويؤكد خصوصيتها ، إذ يمكنها من ممارسة معظم الأنشطة الحياتية داخل نطاق الجماعة ومن خلال أعضائها ، أما إذا خففت الكثافة السكانية فإن معدلات الاندماج تتزايد . كما أن

اليهودية في جزيرة إلفنتين في مصر (قرب أسوان) والتي كانت تشكل جماعة وظيفية قتالية ابتداءً من عصر بسمتلك الثاني (٥٩٤ - ٥٨٨ ق.م) ، وكذلك الجماعات اليهودية في الغرب والتي عمل بعض أعضائها أقتان بلاط في العصور الوسطى ، وكذلك يهود الأرندا في بولندا ابتداءً من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر . وحينما يترك اليهود هذه الوظيفة ، فإن الأسباب الداعية إلى عزلتهم تنتفي ويبدأ أعضاء الجماعة في الاندماج في المجتمع بل والانصهار فيه ، تماماً كما حدث في حالة يهود الصين في مدينة كايفنج . ويمكن النظر إلى انخراط بعض يهود اليديشية (من يهود شرق أوروبا) في صفوف الطبقة العاملة والوسطى داخل منطقة الاستيطان في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر ، أو تحوُّل المهاجرين منهم في الولايات المتحدة إلى عمال ومهنيين وتجار في القرن العشرين ، بوصفه تعبيراً عن هذه العملية التي يتحوَّل من خلالها أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة المنعزلة والتي توجد في مسام المجتمع إلى طبقة وسطى أو عاملة توجد في صلبه .

٢ - يبدو أن أعضاء الجماعات اليهودية حينما ينخرطون في صفوف المهن الحرة ، فيعملون كأطباء ومحامين ومدبرين وموظفين كبار ، تصبح معدلات الاندماج بينهم عالية للغاية شريطة وجود ظروف معينة أهمها ألا تكون المهنة مقصورة عليهم ، وألا يعمل بها أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية ، وإلا تحوَّلوا إلى جماعة وسيطة . فحينما تضم مهنة ما أعداداً كبيرة من أعضاء الأغلبية ، فإن الانتماء إلى المهنة والاستفادة بشبكة الاتصال التي يتم تبادل أسرار المهنة من خلالها سيتطلب التخلي عن كل خصوصية قومية . وهذا ما حدث في الصين في كايفنج ، حين انخرط اليهود في سلك طبقة الماندرين من كبار الموظفين من خلال الامتحان الإمبراطوري في منتصف القرن السابع عشر ، فاندمجوا فيهم وأصبحوا صينيين تماماً . ونحن نرى أن ما يحدث للجماعات اليهودية في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (سابقاً) هو من هذا القبيل . فأبناء العمال اليهود وأعضاء الطبقة الوسطى يدخلون الجامعات بنسبة عالية ويتحولون إلى مهنيين وعلماء ، وهنا فإن ولاءهم ينصرف إلى أعمالهم وبالتالي إلى جماعتهم الجديدة . كما أنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع في ثقافته ولغته ، الأمر الذي يشجع اليهود على الاندماج الثقافي .

٣ - يلاحظ أنه إذا ظهرت الخصوصية ، وظهر التميز والتمايز على المستويات الدينية والاقتصادية والثقافية ، تصبح درجة العزلة عالية للغاية ، إذ تدعم العزلة الاقتصادية العزلة الدينية التي تقوم بدورها

٩ - يؤدي وجود أقليات دينية أو إثنية أخرى في المجتمع إلى تزايد معدلات الاندماج في بعض الحالات ، إذ أن عضو الأقلية لا يصبح شيئاً فريداً مُحاصراً وإنما يصبح عضواً في مجتمع ذي سلطة مركزية واحدة وأطراف متعددة . ولكن الوضع نفسه قد يؤدي إلى تزايد الخصوصية . فمع وجود أقليات عديدة ، تضعف سلطة المركز وتستمر الأطراف في تطوير خصوصياتها المختلفة وفي إضفاء نوع من الشرعية على فكرة الخصوصية .

هذه بعض التعميمات التي يجب التعامل معها بحذر شديد ، ويجب ألا يركن الباحث لها وإنما أن ينظر لها باعتبارها مؤشرات عامة ، قد تكون مضللة في ظروف معينة . ولذا ينبغي عليه أن يطرح أسئلة محددة ، يحاول من خلال الإجابة عليها أن يصل إلى المنحنى الخاص للظاهرة . ولذا بدلاً من أن يتحدث عن " المهاجرين اليهود " بشكل عام ، عليه أن يسأل عن نوعية المهاجرين اليهود الذين يصلون إلى المجتمع (مستواهم الاقتصادي - مستواهم التعليمي - مرحلتهم العمرية . . . إلخ) . وبدلاً من أن يتحدث عن المجتمع المضيف بشكل مطلق عليه أن يتعامل مع هذا المجتمع في خصوصيته (درجة تقدمه - مدى احتياجه لخبرات معينة - نظام الحكم فيه . . . إلخ) .

ويمكن أن نضرب مثلاً لذلك باليهود السفارد الذين هاجروا إلى فرنسا في القرن السابع عشر بعد طردهم من إسبانيا . وكانت عملية اندماجهم سريعة بسبب صغر حجم الجماعة اليهودية ، ولأنهم كانوا ذوي خبرة بالشؤون المالية المقدمة التي كان المجتمع يحتاج إليها ، كما أن لهجة اللادينو التي كانوا يتحدثونها كانت لهجة إسبانية غير بعيدة عن الفرنسية . ومن ناحية أخرى ، لم يكن السفارد مختلفين كثيراً عن الفرنسيين في ردائهم وعاداتهم الثقافية . ويختلف هذا تماماً عن حالة اليهود الإشكناز الذين استوطنوا فرنسا وغيرها من بلاد أوروبا في القرن التاسع عشر ، فقد جاءوا من بولندا وكانوا يتحدثون اليديشية ، كما أنهم كانوا يشتغلون بأعمال الربا والرهونات وتجارة التجزئة وكانوا مختلفين عن الفرنسيين في ردائهم وعاداتهم الثقافية ، وكان مستواهم الحضاري بالنسبة للمجتمع الفرنسي مُتدنياً . وهو ما جعل عملية دمجهم طويلة وصعبة ومُعقّدة .

وقد استخدمنا هنا معيارين : واحد اقتصادي (درجة الثراء) والآخر حضاري (التقدم والتخلف) ، كما استخدمنا معياراً يتصل بالمجتمع المضيف (مدى حاجته للوافدين) . إذاً طبقنا هذه المعايير المركبة على ظاهرة مماثلة ، فإنها قد تأتي بنتائج مختلفة تماماً . فقد تم توطين بعض أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا (مع التجار الألمان) لتشجيع التجارة . وكان يهود ألمانيا يتمتعون بمستوى حضاري أكثر

صغر حجم الجماعة يجعلها غير قادرة على المساهمة في صياغة الأفكار التي تسود المجتمع ، ولهذا فإنها تَبْنَى الأفكار السائدة وتسيطر تماماً . وربما كانت منطقة الاستيطان في روسيا (ثم الاتحاد السوفيتي) ، بكتافتها البشرية اليهودية ، هي أكثر المناطق التي ساعدت على انتشار الخصوصية اليهودية الشرق أوروبية اليديشية ، حتى أن بعض مثقفي هذه الجماعة اليهودية كانوا يتحدثون عن قومية يهودية شرق أوروبية يديشية . ولكن ، بعد الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي ، فُتحت أمام اليهود أبواب الحراك الاجتماعي وُسِّمَ لهم بترك منطقة الاستيطان . وقد ساهم هذا في نزوح اليهود وتناثرهم وزيادة معدلات الاندماج بينهم . والواقع أن انخراط أعضاء الجماعة في سلك المهنيين يساعد على هذه العملية إذ أن المهني يحاول أن يغمث الفرص أينما وجدها ، فيترك المنطقة ذات الكثافة السكانية اليهودية وينتقل إلى مناطق نائية تجعل حفاظه على خصوصيته كعضو في الجماعة اليهودية أمراً صعباً بالنسبة له .

٦ - يُلاحظ أن يهود العالم يوجدون الآن في مناطق حضرية كبيرة مثل نيويورك . ويُلاحظ أن ذلك يشجع على الاندماج ، ذلك لأن هذه المناطق غير مقصورة على أعضاء الجماعة اليهودية ، وهنا فإنهم يجدون أنفسهم في محيط ثقافي غير يهودي يضطرهم إلى التعامل معه بشكل دائم ويومي والتكيف معه في نهاية الأمر ، خصوصاً إذا كانوا لا يعيشون داخل جيوتات مقصورة عليهم ، ومن الواضح أن نشوء مثل هذه الجيوتات في المدن الكبيرة الحديثة أمر صعب .

٧ - تتزايد معدلات الاندماج في وجود نظم ديمقراطية تمنح اليهود حقوقهم السياسية والمدنية ، وهو المناخ الذي يعيش فيه معظم يهود العالم الغربي ، أي أغلبية يهود العالم .

٧ - يُلاحظ تزايد معدلات الاندماج مع وجود دولة قومية قوية ذات مؤسسات مركزية تُيسِّر عملية دمج كل المواطنين ، مثل : نظام تعليمي قوي ، ونظام شرطة بوسع أن يكبح جماح المتطرفين من أعضاء الأقلية والأغلبية ، ونظام إعلامي يعمل على نشر الصورة القومية المطروحة . كما تُخلَق مثل هذه المؤسسات القومية المركزية فرصاً اقتصادية متزايدة يستطيع أعضاء الأقلية أن يحققوا من خلالها شيئاً من طموحاتهم . وبدون هذه المؤسسات ، تظل الصورة القومية مجرد فكرة وطموح عام .

٨ - يبدو أن العلاقات الاجتماعية كلما ازدادت قوة بين أعضاء الأغلبية قلَّت احتمالات الاندماج . بينما تتزايد فرص الاندماج بالنسبة لأعضاء الأقليات مع تَفَكُّك النسيج المجتمعي واختفاء المعايير المركزية .

العزلة اللغوية والاندماج اللغوي Verbal Isolation and Structural Assimilation

«العزلة اللغوية» هي أن يدعي أعضاء الجماعة اليهودية أن لهم هوية متميزة ، مختلفة بشكل جوهري عن الهوية السائدة في المجتمع ، في الوقت الذي تتأكل فيه هويتهم وتنتهي عزلتهم من خلال عمليات الدمج اللغوي . ولعل الولايات المتحدة أفضل مثل لذلك في الوقت الحاضر . فرغم أن التبرة الإنسانية اليهودية عالية للغاية ، إلا أن الهوية اليهودية آخذة في التآكل وأكبر دليل على هذا معدلات الزواج المختلط العالية التي تزيد في بعض الولايات عن ٦٠٪ من مجموع الزيجات اليهودية . ولذا لا يكف الصهاينة عن التحذير من الاندماج ، باعتباره أكثر خطورة على اليهود من الإبادة النازية (الهولوكوست) .

ويركن معظم النازيين العرب إلى اقتباس ادعاءات اليهود عن هويتهم باعتبارها حقائق ، ثم يدسون واقع الجماعات اليهودية في إطار هذا الادعاء ، ويبذون في مراكمة الشواهد على صدقه ، متجاهلين كما هدأنا من العنوموت يدل على العكس . ومن الثابت تاريخياً أن الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة حققت أسرع معدلات الاندماج بشقيرة بمعدلات اندماج الأقليات المهاجرة الأخرى .

الاندماج السياسي والاقتصادي والاندماج الحضاري : أشكالها المختلفة Political and Economic, and Cultural Assimilation : Their Different Forms

عملية الاندماج عملية مركبة يوجد فيها أساساً طرفان : أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقلية . ولكن الطرفين ليسا متساوين ، إذ أن مجتمع الأغلبية هو العنصر الحاسم في تقرير طبيعة العلاقة بين الأغلبية والأقلية ، فهو الذي يسم الأقلية بـ «مجموعه» ، ومن هنا فالتسوية (الاجتماعية والأخلاقية) تقع على عاتق الأغلبية بالدرجة الأولى .

ويمكن أن ننظر للعلاقة بين الأغلبية والأقلية من منظور سياسي واقتصادي مباشر ، كما يمكن أن ننظر إليها من منظور أكثر تركيبيًا . وهو المنظور الحضاري :

١ - منظور سياسي اقتصادي :

(أ) يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية يندمجون في النخبة الحاكمة ويصبحون جزءاً منها وتصبح مصالحهم من مصالحها . حينما يصبحون جماعة وظيفية وسيطة . وفي العصور الوسطى في الغرب ، اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في الطبقة الحاكمة

تركيباً بالقياس للوسط الفلاحي البولندي ثم الأوكراني ، وهنا نجد أن التقدم الحضاري قد أدى إلى الانعزال ، فاحتفظ المهاجرون اليهود الألمان بلغتهم التي تطورت وأصبحت الديدشية . وقد جاء اليهود بناء على حاجة المجتمع لهم ، وبدعوة منه ، وهو أمر يُفترض فيه أن يؤدي إلى اندماجهم ، ولكن العكس قد حدث ، لأن الدعوة لم تأت من المجتمع ككل وإنما من النخبة الحاكمة التي أرادت أن تستخدم العنصر اليهودي في تطوير البلاد من الناحية التجارية ، كما أنها استخدمته فيما بعد في استغلال الفلاحين وفي قمع البورجوازية ، الأمر أدى إلى عزلة شبه كاملة لأعضاء الجماعة اليهودية .

ومن المنصور عقلياً أن يؤدي الاندماج إلى تقليل حدة التوتر ضد أعضاء الجماعات اليهودية ، وهو ما يحدث بالفعل في معظم الأحيان ، كما هو الحال في الولايات المتحدة وإنجلترا . ولكن من الثابت أيضاً أن اندماج أعضاء الجماعة اليهودية وتحركهم من مسام المجتمع إلى مركزه وتواجدهم فيها بأعداد كبيرة قد يشير الحقد ضدهم . كما أن غياب الحدود والإشارات المميزة قد يؤدي إلى تصاعد معدل التوتر بين أعضاء الجماعة اليهودية وأعضاء الأغلبية ، إذ تظهر الرغبة في تأكيد الحدود (بين أعضاء الأقلية والأغلبية) ، ثم تظهر النماذج التفسيرية العنصرية التي تتحدث عن المؤامرة اليهودية الخفية ، وعن تغلغل اليهود في كل مناحي الحياة وتخفيفهم وتأمرهم ضد المجتمع . ومن هنا كان النازيون يناصبون اليهود الاندماجين العداء بسبب عدم وضوحهم ، بينما كانوا يتعاونون مع الصهاينة لأنهم يقبلون هوية يهودية متميزة وواضحة ومستقلة غير مندمجة في المجتمع . ولهذا ، ساهم النازيون في إحياء الثقافة العبرية وشجعوا النشاط الصهيوني . وإذا كان نظام الحكم شمولياً ، وأصيب الاقتصاد بكساد وزادت معدلات البطالة ، فقد يتحول الهمس العنصري إلى مخطط للطرود والإبادة (كما حدث في ألمانيا النازية) .

ويتصور معظم الباحثين أن تصاعد معدلات العلمنة في المجتمع يزيد روح التسامح تجاه أعضاء الأقليات ، ومن ثم تتزايد معدلات دمجهم . وهو افتراض سليم في بعض الأحيان ، ولكن هناك أمثلة تدل على أن العكس قد يحدث . فمع تصاعد معدلات العلمنة في الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظهرت موجة من العنصرية ، تستند إلى محاولة تعريف الإنسان من خلال عنصر مادي كامن فيه (حجم جمجمته - لون جلده - لون شعره) وهو ما أدى إلى ظهور النظريات العنصرية الغربية التي خلقت التربة الخصبة للحركات الشمولية والفاشية التي قامت بعزل اليهود والحرب ضد دمجهم .

التجانس يقف دليلاً على أنه لا توجد خصوصية يهودية عالية بقدر ما توجد خصوصيات يهودية نابعة من المجتمعات المختلفة وتحدد من خلالها وبسببها لا من خارجها ورغمما عنها . ويمكن أن نضرب العديد من الأمثلة على ذلك :

(أ) خضع يهود كايبنج في الصين تماماً لحركات المجتمع الصيني الحضارية ، وهو المجتمع الذي كان يتسم بالتعددية الدينية ورُفُرفُ مفهوم القومية . فالإمبراطورية هي العالم ، وبالتالي فهي تضم أقواماً مختلفة . ولم يتم حصر اليهود داخل دور اقتصادي أو اجتماعي محدد بل أثبتت أمامهم كل الوظائف ، فبدأوا يتبنون لنز المجتمع الثقافية وفقدوا أية خصوصية جلبوها معهم ، وبدأت العناصر غير اليهودية تدخل اليهودية (وهذا تقليد صيني في حد ذاته : أن تستوعب العبادة عناصر من خارجها) ، فاختلعت العقيدة اليهودية بعبادة الأسلاف وأطلقت أسماء صينية على الإله ، وانتهى الأمر بأن فقد اليهود هويتهم تماماً .

(ب) اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في الهند في مجتمعهم الهندي المبني على فكرة الطائفة المغلقة والفصل الحاد بين الجماعات ، فنبئ أعضاء الجماعات اليهودية هذه اللغة الثقافية وفصلوا بينهم وبين أعضاء المجتمع . بل وساد داخل الجماعات اليهودية نفسها هذا الفصل الحاد بين البيض والسود وبين اليهود البغدادية وغيرهم ، بحيث تكونت طوائف مغلقة داخل الجماعات اليهودية . وثمة مفارقة طريفة تستحق الملاحظة وهي أن عزلة أعضاء الجماعة اليهودية هي في الواقع تعبير عن الاندماج وتعبير عن تقبل لغة المجتمع الحضارية وعاداته وتقاليده .

(ج) اندمج يهود جمهورية جورجيا السوفيتية (سابقاً) تماماً في مجتمعهم ، وتبنوا مأكله وملبسه ولغته ، وانخرطوا في شبكة العلاقات التقليدية التي ظلت قائمة بعد سنوات طويلة من الحكم البلشفي . وكانوا يشاركون الجورجيين في رفض الحكم السوفيتي المركزي . وحينما سنحت ليهود جورجيا فرصة الهجرة إلى إسرائيل ، فعلوا ذلك . فهجرتهم الاستيطانية ، هنا أيضاً ، تعبير عن اندماجهم لا عن رفضهم مجتمعهم .

(د) تحول أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة إلى أمريكيين يهود ، وهم الأمريكيون الذين يكتسبون الهوية الأمريكية ويحتفظون بأبعاد إثنية خاصة لا تتناقض مع انتمائهم الأمريكي . والواقع أن الاستقلال النسبي الذي يتمتع به الأمريكيون اليهود في مجتمعهم هو ، بالمثل ، علامة على اندماجهم الكامل ، فهذه هي اللغة الحضارية السائدة والنمط المتكرر في المجتمع . فالعقد

وأصبحوا أقتان بلاط ، ويهود أرندا في بولندا ، ويهود بلاط في وسط أوروبا وفي نواح أخرى منها . وغني عن القول أن اندماج اليهود في الطبقة الحاكمة يعني انزعاجهم عن بقية الشعب .

(ب) واندماج أعضاء الجماعات اليهودية في الطبقة الوسطى يختلف عن ذلك تماماً ، وهذا ما حدث في أوروبا بعد الثورة الفرنسية وفي الولايات المتحدة عند بدايات الاستيطان حينما جاء أعضاء الجماعات اليهودية بخبرات تجارية مهمة ورؤوس أموال كبيرة ، فانخرطوا في سلك الطبقة المتوسطة واندمجوا فيها وفقدوا كثيراً من ملامحهم الإثنية .

(ج) اختلف الأمر تماماً مع وصول يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر ، إذ تحولت أعداد كبيرة منهم إلى عمال يعملون بصناعة النسيج على وجه الخصوص نتيجة ميراثهم الاقتصادي الأوربي . ولكنهم ، مع هذا ، لم يكوّنوا طبقة عمالية مستقلة تماماً ، إذ كانوا جزءاً من الطبقة العاملة الأمريكية التي كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الأمريكي . ومع منتصف القرن الحالي ، كان أبناء العمال من أعضاء الجماعة اليهودية قد دخلوا الجامعات وأصبحوا مهنيين وانخرطوا في صفوف الطبقة الوسطى بحيث أصبحت أغلبية يهود العالم أعضاء في هذه الطبقة ، وهو ما يعني تزايد معدلات الاندماج .

(د) يمكن أن يندمج أعضاء الجماعات اليهودية في المصالح الإمبريالية ، وهذا هو جوهر الحل الصهيوني ، إذ تذهب الصهيونية إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية في أوروبا قد فشلوا تماماً ، كجماعات وظيفية أو كأفراد ، في الاندماج في الشكليات الحضارية القومية الغربية . ولكنهم كدولة وظيفية قتالية استيطانية ، يمكنهم تحقيق ما فشلوا فيه كأفراد ، إذ أن هذه الدولة ستندمج في التشكيل الإمبريالي الغربي من خلال تمثيل مصالحه في الشرق الأوسط والدفاع عن هذه المصالح ، وذلك نظير أن يقوم هو بتمويلها والدفاع عنها . والواقع أن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عن وضع اليهود في العصور الوسطى في الغرب حينما اندمجوا في الطبقة الحاكمة في أوروبا وانعزلوا عن بقية الشعب . فالدولة اليهودية أصبحت جزءاً من التشكيل الإمبريالي الغربي (وهو المقابل الموضوعي للنخبة الحاكمة) وانعزلت تماماً عن الدول المحيطة بها ، وبهذا حل محل عزلة الجماعة الوظيفية عزلة الدولة الوظيفية .

١ - منظور حضاري :

إن غياب التجانس بين الجماعات اليهودية في العالم هو أكبر دليل على معدلات الاندماج الحضاري العالية ، ذلك أن عدم

رغم أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يلعبوا دوراً ملحوظاً أو مؤثراً أو فريداً في تأسيس أو تسيير هذه المؤسسة ولا في التصدي لها .

بل يمكننا القول بأن صهيونية الأمريكيين اليهود نفسها تعبر عن اندماجهم ، فصهيونيتهم تعبير عن الأبعاد الإثنية في شخصيتهم الأمريكية ، أي أنها نابعة عن حركية أمريكية خاصة لا حركية يهودية عامة . ولهذا ، فهي تأخذ شكل صهيونية توطينية تدعم إسرائيل (مسقط الرأس !) مالياً وسياسياً ولا تأخذ شكل صهيونية استيطانية تتطلب الهجرة . كما أن سلوك اليهود لا يختلف كثيراً عن سلوك الأمريكيين الأيرلنديين الذين يشكلون نوبي ضغط لصالح بلدهم الأصلي ، مع أنهم لا يفكرون أبداً في العودة إليه .

هـ) اندماج يهود جنوب أفريقيا في مجتمع يشجع انفصال بين الشعوب والأعراق . ولذا ، شكّل أعضاء الجماعات اليهودية هناك جماعة عرقية مستقلة ، وأصبحوا من أكثر الجماعات اليهودية صهيونية في العالم . وهنا يمكن القول بأن صهيونيتهم تعبير عن اندماجهم في مجتمعهم . تكن جنوب أفريقيا مجتمع استيطاني يعتبر الهجرة منه خيانة وطنية . ولذا ، فإن صهيونية يهود جنوب أفريقيا هي الأخرى من النوع التوطيني لا الاستيطاني . وإن كانت توطينيتها تنبع من حركات مختلفة تماماً .

و) يتجلى الاندماج في المؤسسات الاجتماعية والدينية للجماعات اليهودية المختلفة . فالتقيل في بولندا ، الذي يتم انتخاب أعضائه من بين أعضاء النخبة ، لم يكن سوى صدى لنسب أو البرهان البولندي الذي كان يضم النبلاء الذين كان من حقهم انتخاب الملك رئيساً لجمهورية بولندا الملكية . ويلاحظ أن إنجلترا التي يوجد فيها أسقف كاتدريري باعتباره رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، يوجد فيها أيضاً منصب الأخاخام الأكبر الذي يعدّ صدى لأسقف كاتدريري . كما تقبل المعابد اليهودية في بريطانيا التنظيم المركزي على غرار كنيسة إنجلترا . أما في الولايات المتحدة ، حيث لا يوجد تنظيم مركزي يضم كل الكنائس الأمريكية ، فإننا نجد أن المعابد اليهودية تبنى نوعاً من الوحدة التنفيذية . ولا يوجد ، بضبيعة الحال ، منصب مثل الأخاخام الأكبر .

ز) بل يمكن أن نرى الاندماج الحضاري متدياً من خلال العقيدة اليهودية ، فهي في العالم الإسلامي تبيل نحو التوحيد والفلسفة . أما ألمانيا ، بلد الإصلاح الديني ، فقد ظهرت فيها اليهودية الإصلاحية . وفي روسيا وبولندا ، حيث كانت توجد جماعات المشرقين والمتصوفة من الأرثوذكس ، ظهرت الحسيدية . وهكذا ، فإن العقيدة اليهودية تبنى اللغة الحضارية السائدة . وفي الهند ، كان اليهود يظنون أن اليهودية تحرم أكل لحم البقر . وفي الصين ، كانوا

الاجتماعي الأمريكي لا يمنع بناتاً في أن يحتفظ المواطنون الأمريكيون برابطة ما مع وطنهم ، وأن يحتفظوا بقدر من إثنيتهم الحقيقية أو الوهمية ، ما دامت هذه الإثنية لا تتعارض مع انتمائهم لوطنهم الأمريكي ولا مع مصالحه . ولذا ، فإن المجتمع الأمريكي مكون من أمريكيين إيطاليين (أي من أصل إيطالي) وأمريكيين أيرلنديين (من أصل أيرلندي) وهكذا . ويظهر مدى اندماج يهود الولايات المتحدة في مجتمعهم في موقفهم من تجارة الرقيق والحرب الأهلية الأمريكية . فيهود الشمال عارضوا هذه التجارة ، شأنهم شأن أهل الشمال ، وتبنوا موقفاً متوانوا لهذه التجارة . أما يهود الجنوب ، فقد تبنوا موقف أهل الجنوب ، فاقننوا العبيد والمحظيات السود ، وكان منهم تجار الرقيق بمعدل يفوق المعدل على المستوى القومي . ولم تظهر شخصية يهودية واحدة في الجنوب عبرت عن تحفظها على تجارة الرقيق ، كما لم ير أي صحفي أو كاتب أو داعية يهودي أي تساؤل بشأن العدالة الاقتصادية والاجتماعية لمؤسسة الرقيق . ولم يساهم اليهود في حركة تهريب العبيد إلى الشمال بهدف إعاقته ، فلا يوجد سوى سجل لحالة واحدة . فاليهود ، إذن ، كانوا بشراً يشكلون جزءاً لا يتجزأ من محيطهم الحضاري والإنساني بكل ما يتضمن من خير وشر .

وقد لاحظ بعض المراقبين أن يهود الجنوب الأمريكي حققوا حراكاً اجتماعياً أكثر من يهود الشمال وتم تقبلهم من جانب المجتمع ومن جانب النخبة ، كما شغلوا تقريباً مختلف الوظائف المتاحة لأعضاء النخبة . وتفسّر هذه الظاهرة على أساس وجود العبيد في الجنوب . فالجنوب تبنى اللون (أي العرق) معياراً وحيداً للتعريف الآخر وأساساً للتضامن ، ومن ثم أسقط المعيار الديني أو الإثني ، وأصبح اليهودي (الأبيض) أيضاً جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الجنوبي ، وذلك على عكس الشمال حيث كانت النخبة بروتستانتية بيضاء وتبنت المعيار الإثني العرقي الديني الذي صنفت على أساسه الجماعات . فكان البروتستانت البيض في أعلى الهرم ، والزنوج في أسفله ، أما الكاثوليك البيض فكانوا يأتون في مرتبة أقل من البروتستانت البيض ويلهم في منزلة اليهود البيض ، وهكذا حتى نصل إلى قاع السلم . ويلاحظ ، مع تزايد معدلات العلمنة ، أن اللون أصبح الأساس الوحيد للتصنيف ، ومن ثم تزايد اندماج اليهود والتحامهم بالنخبة . ومن هذا المنظور ، لعبت مؤسسة الرقيق دوراً حاسماً في صياغة شكل الحياة العامة في الجنوب وفي العلاقات الاجتماعية والإنسانية فيه ، وضمن ذلك حياة أعضاء الجماعة اليهودية وعلاقاتهم ببقية طبقات المجتمع وقطاعاته . وقد حدث هذا

والأقليات والجماعات لتسهيل عملية إدارة المجتمع في غياب مؤسسات الدولة المركزية القومية . ولكن ، يتفكك النظام الإقطاعي في أواخر القرن الثامن عشر ، ظهرت الدولة العلمانية القومية المركزية ، وهي دولة تستمد شرعيتها من التاريخ المشترك ومن مقدرتها على إدارة المجتمع بكفاءة . كما أن هذه الشرعة تستند أيضاً إلى مدى تعبيرها عن روح الشعب وإرادته . وقد كانت الدولة القومية العلمانية دولة رأسمالية ، في العادة ، تحاول أن تخلق السوق القومية الموحدة التي لم تعد بحاجة إلى الجماعات الوظيفية الوسيطة ، إذ أنها تضطلع بمعظم مهامها . ولكل هذا ، تساقط النظام القائم على الفصل بين طبقات الشعب وفئاته ، وحل محله نظام يحاول دمج كل المواطنين الذين يدينون له وحده بالولاء ، على عكس النظام الإقطاعي حيث تستند الدولة إلى شرعية دينية أو شرعية تقليدية ، ولذا يدين الفرد بالولاء إما للكنيسة أو للنبي أو للملك ، وهكذا .

وتكتسب الدولة القومية العلمانية قدراً كبيراً من شرعيتها من التاريخ والتراث المشترك (الحقيقي أو الوهمي) لمجموعة البشر التي تعيش داخل حدودها ، ولذا طالبت الثورة الليبرالية البورجوازية ، والدولة القومية ، أعضاء الجماعات اليهودية ، وغيرهم من الجماعات ، بأن يتخلوا عن خصوصيتهم الإقطاعية شبه القومية وأن يكتسبوا هوية عصرية متجانسة تعبر عن هذا التراث المشترك بين أعضاء المجتمع . وقد قال أحد خطباء الثورة الفرنسية في ديسمبر سنة ١٧٨٩ : " نحن نرفض أن نمنح اليهود كأمة أي شيء ، أما اليهود كأفراد فإننا نمنحهم كل شيء " . وتم إعطاء أعضاء الجماعات اليهودية في معظم أنحاء أوروبا ، وبدأت عملية تحديثهم بحيث تم القضاء على تميزهم وتماييزهم الوظيفي والاقتصادي . وقد استجاب أعضاء الجماعات اليهودية لهذا النداء الذي شكّل تياراً تاريخياً أفرز تحولاته الاجتماعية ، خصوصاً وأن اليهودية الحاخامية (وهي الإطار الفكري ليهود أوروبا) كانت في حالة أزمة حادة منذ دعوة شبثاني تسفي المشيحانية وظهور الحسيدي ، فقامت بينهم حركة التنوير اليهودية الداعية إلى الاندماج . كما ظهرت اليهودية الإصلاحية التي حاولت تخلص اليهودية من الجوانب القومية فيها ، وهي الجوانب التي تدعم ما يُسمى «الخصوصية اليهودية» ، وتأكيد الجوانب الدينية الروحية حتى يتحقق للمواطن اليهودي الانتماء القومي الكامل والاندماج السوي . وقد حقق أعضاء الجماعات اليهودية بالفعل قسطاً كبيراً من الاندماج في فرنسا وإنجلترا .

وقد اتسمت محاولات الاندماج في بلدان شرق أوروبا ووسطها

يؤمنون بحُرمة التضحية للأسلاف بلحم الخنزير ، ولكنهم كانوا يأكلونه باعتباره لحماً مباحاً شرعياً ، وهكذا . أما في إثيوبيا ، فإن يهود الفلاشا يصلون في مكان يُسمونه المسجد ، ولهم كهنة يُسمون القساوسة ، كما يوجد لديهم رهبان . ويتحدث يهود الفلاشا الأهمرية ويتحدثون بالجعيزية ، لغة الكنيسة القبطية في إثيوبيا ، وهذا كله انعكاس للسياق الإسلامي المسيحي الذي يعيش الفلاشا في كنفه .

اندماج الجماعات اليهودية : تاريخ

Assimilation of the Jewish Communities : History

ظواهر الاندماج والانصهار والانعزال بين اليهود قديمة قدم ظهور العبرانيين في التاريخ . فمن الواضح أن العبرانيين ، أثناء وجودهم في مصر ، تبنا معظم مكونات الثقافة المصرية إن لم يكن كلها ، وربما كانوا يتحدثون لغة المصريين القدماء ، وفي فلسطين تبنا لسان كنعان . أما العبادة السريالية ، وهي عقيدة العبرانيين قبل تبلور اليهودية (كنسق ديني) ، فقد تأثرت بالتراث الديني الكنعاني تأثراً عميقاً ، واندماج العبرانيون في المحيط الكنعاني وفي عبادة بعل ، ومن هنا سخط الأنبياء عليهم . وقد انصهر العبرانيون ، الذين هجّروهم الآشوريون من فلسطين ، في محيطهم الثقافي إلى أن اختفوا تماماً ، في حين اندمج هؤلاء الذين هجّروهم البابليون . ولذا ، حينما أصدر قورش الأخميني مرسومه الخاص بعودة اليهود ، رفضت أغليبيتهم المتمتع بهذا الامتياز . ويُعد انتشار النزعة الهيلينية بين اليهود ، سواء في فلسطين أو في مصر ، تعبيراً آخر عن ظاهرة الاندماج . وبعد انحلال الدولة الرومانية ، اندمج أعضاء الجماعات اليهودية في التشكيلين الحضاريين الإسلامي والمسيحي . وقد تحدّث يهود العالم العربي الإسلامي اللغة العربية ، واشتغلوا بمعظم المهن والحرف ، وتأثروا بتراثهم الديني بالفكر الديني الإسلامي . أما في العالم الغربي . فقد كان وضع اليهود متميّزاً ، إذ شكّل اليهود فيه جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف لا يقوم بها أعضاء الأغلبية وتحتفظ بعزلتها لضمان قيامها بهذه المهن . وانعكس هذا الوضع على التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية للجماعات اليهودية ، مثل القهال والجيتو (في شرق أوروبا أساساً) ، وهي تنظيمات كانت تهدف إلى الحفاظ على عزلة اليهود . وقد ازدادت عزلة اليهود في بولندا التي احتفظوا فيها برطانتهم الألمانية الديرشية التي هاجرت معهم . ولم تكن عزلة أعضاء الجماعات اليهودية مسألة مقصورة عليهم . فالمجتمعات التقليدية كانت قائمة على الفصل بين الطبقات

والواقع أن اندماج يهود العالم الغربي ، هذا الاندماج الكامل في مجتمعاتهم المتقدمة ، تعبير عن هذا الاتجاه .

بيريك يوسيليفيتش (١٧٦٨-١٨٠٩)

Berek Yoselewicz

ضابط بولندي يهودي . وُلد في ليتوانيا ثم عمل بالتجارة وأصبح يهودي بلاط أمير فنّا . وفي إطار مهامه التجارية ، سافر إلى باريس عام ١٧٨٩ غشية الثورة الفرنسية وتأثر بأفكارها وأفكارها ، ثم عاد إلى بولندا لينضم إلى العناصر القومية البولندية التي كانت تناضل ضد تقسيم بولندا . وقد انضم يوسيليفيتش ضمن عدد كبير آخر من أعضاء الجماعة اليهودية إلى حركة العصيان المسلح التي اندلعت عام ١٧٩٤ ضد كل من روسيا وبروسيا . وقدم تأسيس الفيلق اليهودي بقيادة يوسيليفيتش ، والذي ضم خمسة يهودي ناشدعم يوسيليفيتش ثقتهم مثل الأسود ونفهد من أجل طرد العدو من أرضنا . وقد شاركت قواته في اندفاع عن حي راجا في وارسو والذي كان يضم أغلبية من اليهود ضد القوات الروسية . وبعد فشل العصيان ، فرّ يوسيليفيتش إلى النمسا ثم إلى فرنسا حيث انضم إلى الفيلق البولندي في الجيش الفرنسي ، ثم أصبح ضابطاً في سلاح الفرسان الفرنسي وشارك في حروب نابليون . وبعد تأسيس دوقية وارسو عام ١٨٠٧ ، انضم يوسيليفيتش إلى الجيش البولندي النظامي وتولى قيادة سرية خيالة ومنح وساماً بولندياً . كما سُمح له بالانضمام إلى محفل ماسوني . رُستقاضي يحمل اسم «الإخوة البولنديون المتحدون» . وقد شارك يوسيليفيتش أيضاً في اخمة ضد النمسا عام ١٨٠٩ وتولى قيادة سرية خيالة . ولكنه قُتل في العام نفسه أثناء المعارك ليصبح بطلاً قومياً بولندياً .

وقد أثار كثير من اليهود الداعين لاندماج في بولندا إلى يوسيليفيتش باعتباره نموذجاً لليهودي المندمج النتمى إلى وطنه البولندي . وهو في الواقع من النماذج النادرة ، إذ أن غالبية يهود بولندا كانوا مرتبطين بنظام الأرند الذي جعلهم حلفاء الطبقية البولندية الخكمة وأعداء نكل الطبقات الأخرى . كما أن ثقافة يهود بولندا الأيدشية ساعدت على عزّهم لغويًا وثقافيًا عن بقية الشعب البولندي . ولم ينجح يهود بولندا في الاندماج في الحركة القومية البولندية ، ولذا فقد ظل يوسيليفيتش الاستثناء الذي بُنيت صحة القاعدة . وقد وصلت هذه العزلة إلى ذروتها إبان الحرب العالمية الثانية ، حيث لم ينجح أعضاء المقاومة اليهودية في بولندا في التعاون مع المقاومة البولندية في نضالها ضد المستعمر النازي .

بالبط والتعثر بسبب ظهور القوميات العضوية فيها وبسبب سرعة معدل تطوّر الرأسمالية المحلية ، الأمر الذي لم يتع لأعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يلعبون دور الجماعة الوظيفية الوسيطة فرصة للتأقلم والتكيف .

وإلى جانب هذا ، كان يهود شرق أوروبا من أكثر القطاعات الإنسانية تخلفاً ، كما أن قيادتهم لم تُدرك أبعاد التحدي القومي العلماني الجديد ومدى جاذبيته بالنسبة لجماهيرهم ، الأمر الذي أعاق أعضاء الجماعة اليهودية عن الاستجابة الخلاقة للوضع الجديد في معظم الأحيان . ومن المفارقات أن هذا التخلف نفسه أدّى إلى نتائج عكسية تماماً بالنسبة للشباب ، إذ كانوا يهرعون إلى عالم الأغيار وينصهرون فيه ، هرباً من الجو الخائق للجيّو .

ويركز الصهاينة على تعثر محاولات التحديث والاندماج لتأكيد حتمية المشروع الصهيوني . ورغم كل الادعاءات عن فشل الاندماج ، فإن الوضع الثقافي لليهود يثبت أن هذا الواقع هو الحقيقة الأساسية في حياة معظم الجماعات اليهودية إن لم يكن الحقيقة الأساسية في حياتها جميعاً . فبنسبة الزواج المختلط في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، اللذين يضمنان أغلبية اليهود في العالم ، مرتفع للغاية (تبلغ في المتوسط ٥٠٪) وتصل في بعض المناطق إلى حوالي ٨٠٪) . والاندماج وحده هو الذي يفسر سلوك أعضاء الجماعات اليهودية المتعثرين ، فهم يرفضون الهجرة إلى إسرائيل رغم تلويح الحركة الصهيونية لهم بخطر معاداة اليهود بل وبالإبادة . فضلاً عن ذلك ، فإنهم يرفضون زيارة الدولة الصهيونية للسياحة حيث لم يزرها سوى ١٥٪ من يهود أمريكا الذين يفضلون قضاء إجازاتهم في جزر الكاريبي .

وفي نهاية الأمر ، لا تزال الغالبية العظمى من يهود العالم (٧٥٪) منتشرة في أنحاء العالم فيما يُسمّى «المهجر» أو «المنفى» أو «الشتات» ، وهو في واقع الأمر ليس بمهجر ولا منفى ولا شتات ، فهم موجودون في أوطانهم بشكل دائم لا مؤقت ، وهم يعيشون هناك بحرّ إرادتهم دون قسر أو إكراه . والغالبية الساحقة من أبنائهم (٩٠٪) لا تتلقى أي تعليم يهودي ولا علاقة لها بما يُسمّى «الثقافة اليهودية» . وهذا الوضع ينهض دليلاً على اندماجهم وتقبّلهم مجتمعاتهم بكل محاسنها ومثالبها وتبنيهم قيمها الحضارية والأخلاقية بشكل كامل . ويذهب بعض الدارسين إلى أن الدولة العلمانية (القومية الرأسمالية أو الأمية الاشتراكية) هي دولة تُعبّر عن قوانين العقل ، ومن ثم فهي لا تتعامل إلا مع الإنسان العام (الطبيعي أو العقلاني أو الأمي) . ولذا ، لابد من القضاء على أية خصوصية .

الانصهار (أو الذوبان)

Dissolution

«الانصهار» أو «الذوبان» هو تزايد معدلات الاندماج إلى درجة أن أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون هويتهم الدينية أو الإثنية الخاصة فيذوبون أو ينصهرون تماماً في الأغلبية بمرور الزمن . ويمكننا تخيل ذلك على شكل مُتَصِل يُشكّل أحد طرفيه الانعزال الكامل ، وهي حالة نادرة وتكاد تكون مستحيلة ، وفي الطرف الآخر الانصهار ، وهي حالة ليست متكررة وإن لم تكن محالة . فثمة أمثلة عديدة ، عبر تواريخ الجماعات اليهودية ، للانصهار الكامل . فلا يمكن تفسير اختفاء أسباط إسرائيل العشرة الذين هجرهم الآشوريون إلا على أساس أنهم انصهروا في الشعوب التي عاشوا بين ظهراتها . والحالة الكلاسيكية للانصهار الكامل هي حالة يهود الصين (في مدينة كايفنج) حيث انخرطوا في السلك الوظيفي الإمبراطوري فترقّ أعضاء الجماعة ، خصوصاً النخبة ، واكتسبوا سمات وخصائص صينية بشكل متزايد وتزاوجوا مع الصينيين . ومع حلول القرن التاسع عشر ، لم يكن قد بقي منهم سوى عدة أفراد لا يزيدون على أصابع اليدين .

ومن حالات الانصهار الأخرى ، حالة اليهود السفاردي في الولايات المتحدة الذين استوطنوا بعد المستوطنين البيورثانيين ثم انصهروا تماماً في فترة وجيزة . ويلاحظ أن ثمة أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية كانت تنصهر دون أن تنصهر الجماعة ذاتها ، فتستمر الجماعة دون أن يتزايد عدد أعضائها ، وهذا يُفسّر قلة عدد اليهود في العالم . وكان قد وصل عددهم في القرن الأول الميلادي (بحسب بعض التقديرات) ما بين خمسة وسبعة بل عشرة ملايين . ولعل هذا يُفسّر مقولة «موت الشعب اليهودي» ، فمن أهم أسباب موته (أي تناقص عدده بشكل ملحوظ) انصهار أعداد كبيرة منه .

ويمكن أن نشير إلى ذلك الاندماج الذي يقترب من الانصهار . فالنزعة الهيلينية بين أثرياء اليهود في القرنين السابقين على الميلاد واللاحقين له هي شكل من أشكال الاندماج يكاد يكون انصهاراً ، كما يمكن القول أيضاً بأن الصيغة الفريسية لليهودية هي نتاج تفاعل الفكر اليهودي مع الحضارة الهيلينية ، أي أنها مُثَل من أمثلة الاندماج . ويبدو أن قطاعات كبيرة من يهود ألمانيا ، في القرن التاسع عشر ، كانت تنصهر تماماً في المجتمع المسيحي وتخلّى عن أي شكل من أشكال الهوية الدينية اليهودية . ويمكن أن تُصنّف أمركة يهود الولايات المتحدة باعتبار أنها من قبيل الأشكال الحادة من الاندماج الذي يقترب من الانصهار ، ومن هنا يُشار إليهم بأنهم «الهيليونيون

الجدد» . وتشكل أمريكا اللاتينية مثلاً فذاً يتخطى تعميمنا الذي يفترض أن الاندماج يزداد تدريجياً إلى أن يصبح انصهاراً . ومع هذا نلاحظ عدم وجود معدلات عالية من الاندماج في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية ، وفي الوقت ذاته أظهرت هذه القارة مقدرة فائقة على صهر اليهود وهضمهم مباشرة دون عملية دمج تدريجية .

وعادةً ما تساوي الصهيونية بين الانصهار والاندماج برغم اختلافهما . فالجماعات الدينية العرقية يمكنها أن تندمج في المجتمع دون أن تفقد قسماتها الخاصة . ويمكن ضرب أمثلة عديدة من تواريخ الجماعات اليهودية في العالم على الاندماج الذي لم يود بالضرورة إلى الانصهار كما حدث مع يهود الأندلس في الماضي ، وكما يحدث مع يهود الولايات المتحدة في الوقت الحالي . وإن كانت هناك مؤشرات وقرائن عديدة تدل على أن أعضاء الجماعة اليهودية سيأخذون في الاختفاء من خلال الانصهار مع تعاطف معدلات العلمنة في المجتمع الأمريكي .

دمج اليهود

Forcible Assimilation of the Jews

«دمج اليهود» هو جزء من عملية تحديث أعضاء الجماعات اليهودية وتحويلهم من جماعة وظيفية وسيطة إلى جزء لا يتجزأ من طبقات المجتمع الحديث ، الذي ظهر بعد الانقلاب الصناعي الرأسمالي في الغرب . وهي عملية تحوّل اجتماعي ضخمة لم يكن أعضاء الجماعات اليهودية هم المسئولين عنها ، ولم يكونوا الوحيدين الذين خاضوها ، ويُشار إليها أحياناً بأنها «عملية تحويل اليهود إلى قطاع منتج» .

وفي معظم الأحوال ، كانت عملية الدمج تأخذ شكل القسر . والواقع أن عملية الدمج تتضمن نوعاً من الجهد الواعي والمخطط ، وهي بهذا المعنى مختلفة عن عملية الاندماج أو الانصهار التي تتم عادةً من خلال حركات المجتمع وآلياته الكامنة التي ربما لا يدركها لا أعضاء الجماعة اليهودية ولا أعضاء مجتمع الأغلبية . ومع هذا ، فإن عملية الدمج ، بعد المراحل الأولى القسرية الواعية ، تتحول عادةً إلى اندماج تلقائي غير واع . كما حدث في كثير من بلاد أوروبا ، ذلك لأن أعضاء الجماعة اليهودية عادةً ما يستبطنون المثل المفروضة عليهم ، وتضبط سلوكهم من الداخل ، وما كان قسرياً برانياً يصبح بعد قليل تلقائياً جواً .

اندماج : الموقف الصهيوني

Assimilation : The Zionist Position

يتفق الصهاينة والمعادون لليهود على رفض الاندماج قولاً فعلاً . أما المعادون لليهود ، فيرون اليهودي شخصية عضوية لا كن استيعابها في المجتمع ، ولوعم استيعابها فإنها تصبح مثل بكتريا التي تسبب تآكله وتُخشّره . واليهود الذين يدعون أنهم دمجوا في المجتمع هم ، بحسب هذه النظرة ، أخطر العناصر يهودية ، لأنهم يصبحون اسماً جزءاً من المجتمع يستقرون داخله ، لكنهم فعلياً (عن وعي أو عن غير وعي) يظلون جسماً غريباً عنه شبه الخلية السرطانية التي تسبب انحلاله وتآكله . ولذا ، فإن الحل لوحيد للمسألة اليهودية ، وفقاً لهذه الرؤية ، هو الحل الصهيوني ، ي استبعاد اليهود إلى رقعة خاصة بهم .

والموقف الصهيوني من الاندماج لا يختلف عن ذلك كثيراً ، الصهاينة يرون أن الاندماج أمر مستحيل لأن الهوية اليهودية لعضوية لا يمكنها أن تحقق ذاتها إلا في تربة يهودية وفي وطن قومي يهودي . وبالتالي ، فاليهودي الذي يدعي أنه اندمج هو شخصية ناذية ومريضة نفسياً ، منقسمة على نفسها كارهة لها مثله مثل لمسول الباحث عن انتماء قومي . واليهودي المندمج يعاني ازدواج لولاء ، إذ ليس بإمكانه أن يدين بالولاء إلا لوطنه اليهودي الذي يربطه به وشائج عضوية قوية . ويُشار إلى اليهود المندمجين في لأديبات الصهيونية بوصفهم عبدة بعل إله الأغيار أو محبي بابل (أي لمنفى) .

ويسوي الصهاينة بين الاندماج والذوبان الكامل ، أي لانصهار ، إذ يرون أن كلا منهما يؤدي بالضرورة إلى الآخر . رغم أن الاندماج هو أن يصبح الإنسان جزءاً من كل دون أن يفقد بالضرورة بعض صفاته الخاصة ، أما الانصهار والذوبان فيفترضان فقدان الجزء لقسماته الخاصة . ولذا ، يُشار إلى الاندماج في الأدبيات الصهيونية بأنه خطر يهدد الحياة اليهودية ، وجريمة وخطيئة وعار يحط من كرامة اليهود ، ووصمة في جبينهم . ويتم الربط بين الاندماج والإبادة إذ يُشار إلى الاندماج باعتباره الإبادة الصامتة ، مع أن الإبادة هنا روحية نفسية ، وليست جسدية فعلية . ومع هذا ، فإن الإبادة تؤدي في نهاية الأمر إلى اختفاء اليهودي المندمج فعلياً في مجتمع الأغيار ، وهي الوظيفة نفسها التي تؤديها أفران الغاز . ومؤخراً صرح يوسي بيلين (نائب وزير خارجية إسرائيل) بأن الاندماج (والزواج المختلط) يهددان يهود أمريكا أكثر من تهديد العرب ليهود إسرائيل .

ومع هذا ، تظهر فكرة الاندماج في الفكر الصهيوني ذاته بشكل آخر ، إذ يطالب الصهاينة بتطبيع الشخصية اليهودية ، أي جعلها طبيعية مثل الشخصية غير اليهودية ، وفي هذا تقبل لمعايير مجتمعات الأغيار . كما أن الصهيونية تطمح إلى خلق دولة يهودية تندمج في المجتمع الدولي حتى يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب . لكن الاندماج ، كما يظهر في الفكر الصهيوني ، يُفترض إمكانية تحقّقه على المستوى القومي وحسب ، واستحالته في ذات الوقت على المستوى الفردي . وقد أثبت الواقع التاريخي أن كلا الافتراضين خاطئ . فأعضاء الأقليات أخذون في الاندماج ، ولا تزال الدولة اليهودية مرفوضة من العرب .

ومن المفارقات التي يشير إليها دارسو الصهيونية أنها بدأت باعتبارها حركة تهدف إلى الحفاظ على الهوية اليهودية والخصوصية اليهودية ، ولكنها في نهاية الأمر أدت إلى زيادة معدلات الاندماج . فقد ساهمت الصهيونية ، ابتداءً ، في زيادة معدلات العلمنة بين اليهود حين طرحت تعريفاً قومياً أو عرقياً لليهودي ليحل محل التعريف الديني الإثني ، وحين جعلت التزام اليهودي ينصب على إثنيته أساساً ، بينما جعلت الالتزام الديني مسألة ثانوية مكحلة للانتماء الإثني أو يُمثل تحليلاً له . وقد أدّى هذا بكثير من اليهود إلى التخلي عن عقيدتهم وعن كثير من شعائرها . وكانت هذه مصدراً أساسياً لخصوصيتهم . وقد تساءل اخاخام موريتز جوديدان ، كبير حاخامات فيينا ، في رده على تيودور هرتزل وعلى الدعوة القومية فقال : «من هو أكثر ذوباناً وانصهاراً : اليهودي القومي الذي يتجاهل الشعائر الخاصة بيوم السبت وبانطعام أم اليهودي المؤمن الذي يؤدي الشعائر الدينية ويكون في الوقت نفسه مواطناً كاملاً مخلصاً لبلاده ؟» . وتبلغ معدلات العلمنة ذروتها بين أعضاء الجماعات اليهودية الذين توجد أغلبيتهم الساحقة في مجتمعات علمانية ، وهي تؤدي إلى مزيد من الاندماج والزواج المختلط ، وفي نهاية الأمر إلى الانصهار .

وقد ذكر أحد المفكرين اليهود أن الصهيونية وإسرائيل تريان أن بإمكان يهود فرنسا أن يصبحوا أكثر فرنسية (أي أكثر اندماجاً في مجتمعهم) . وهو يفسر عبارته هذه فيقول إن اليهودي بدأ بعد تحطيم الهيكل الثاني يحمل معه ما سماه فرويد «البنى غير المنظور» ، وهو عبء الشك والإحساس بالنقص وعدم الانتماء ، فأينما ذهب اليهود وعملوا ، مثلهم مثل بقية البشر ، كانوا يشعرون بأن ثمة شيئاً ما ينقصهم . فجميع الشعوب الأخرى لها أرضها وقراها وشرطتها وجيشها ، أما اليهود فكانوا يعيشون دائماً في شك . ولأن ثمة مبنى

الزواج المختلط تطبيقاً صارماً وحرفياً ، وطالبا اليهود الذين تزوجوا من أجنبيات بأن يطلّقوا زوجاتهم . ورغم أن التحريم كان يتجسّد أساساً ، كما يبدو ، نحو الأقوام الكنعانية السبعة (الوثنية) ، فإن الفقهاء اليهود وسّعوا نطاقه بحيث أصبح ينطبق على كل الأغيار دون تمييز ، بل امتد الأمر ليشمل القرأتين والسامريين .

وعلى هذا النحو ، كان زواج اليهودي من غير اليهودية يُعتبر فجوراً وزنى مستمرين ، والأولاد الذين يُولّدون من هذه المعاشرة المردولة يُعتبرون أبناء زنى أو «مامزير» . وقد كان يُعدّ يهودياً من يُولّد لأم يهودية وأب غير يهودي . أما من يُولّد لأب يهودي وأم غير يهودية فلا يُعتبر يهودياً .

وقد حاول فقهاء اليهود تبرير هذا الحظر الديني . فحاول موسى بن ميمون تفسيره تفسيراً عقلياً . أما راشي ، فقد اكتفى بتأكيد أنه بلا سبب . وتحريم الزواج المختلط ، حسب تصوّره ، أمر ملكي (باعتبار أن الإله هو الملك : ملك اليهود) ، ولذا يجب عدم التساؤل عن سببه كما يجب عدم التساؤل بشأن فكرة الشعب المختار . ومع هذا ، فقد استمر الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم ، واختفى يهود الصين ، على سبيل المثال ، بسبب زواجهم بالمسلمين وبغيرهم .

وقد تزايدت معدلات الزواج المختلط بشكل ملحوظ في العصر الحديث للأسباب التالية :

١ - كان الذكور اليهود ، حتى عهد قريب ، هم الذين يتزوجون من إناث غير يهوديات . ولكن الوضع تغيّر مؤخراً (خصوصاً بعد حركة التمرّكز حول الأنثى) ، إذ أن كثيراً من الإناث اليهوديات اخترقن الحاجز الديني والنفسي الخاص بحظر الزواج المختلط ، فتصاعدت نسبته بينهن حتى كادت تقترب من مثيلتها بين الرجال .

٢ - كان الزواج المختلط ظاهرة تكاد تكون مقصورة على المتعلمين ، فهم أكثر انفتاحاً وتقبّلاً لبقية أعضاء المجتمع وأكثر معرفة بأسلوب حياته . ولكن لوحظ مؤخراً أن معدلات الزواج المختلط بين غير المتعلمين بدأت تقترب من مثيلتها بين المتعلمين . ولا شك في أن الإعلام يلعب دوراً أساسياً في هذا ، فهو يساعد على تحطيم كل الحواجز وعلى إزالة ما قد يحيط بعضو الأقلية (أو عضو الأغلبية) من أسرار ، ويروّج ثقافة شعبية عامة وأسلوب حياة عام يشارك فيه الجميع .

٣ - لوحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يتزوجون وهم في سن متقدمة نوعاً ما أكثر استعداداً للزواج المختلط . يرجع ذلك إلى أن مثل هؤلاء قد حققوا لأنفسهم استقلالاً اقتصادياً ، وهم عادةً جزء من شبكة علاقات وصادقات مركبة تضم يهوداً وغير يهود . وكل

جديداً منظوراً يراه الجميع وهو إسرائيل ، فقد اختفى الشك والإحساس بالنقص ، ومن ثم يستطيع كل اليهود الآن أن يشعروا بالهدوء ويمكنهم الاندماج في مجتمعاتهم . وبرغم عدم اتفاقنا مع مقدمات الكاتب ، فيلاحظ من الناحية الفعلية أن انتشار الصهيونية هو غطاء براق يخفي معدلات الاندماج العالية . بل إن الصهيونية أصبحت هي الوسيلة التي يريح بها اليهودي المندمج ضميره ، إذ يمكنه أن يُجزّل العطاء للدولة اليهودية ويحقق بذلك إحساساً زائفاً ومتضخماً بالهوية والانتماء ثم ينصرف بعد ذلك لحياته العلمانية الأمريكية اللذيذة بكل جوارحه . وقد لاحظ بن جوريون هذه الظاهرة وحذّر منها .

ويُعدّ الاندماج من أهم الأسباب التي تؤدي إلى ما يُسمّى في علم الاجتماع في الغرب ظاهرة «موت الشعب اليهودي» ، أي تناقص أعداد اليهود بشكل ملحوظ الأمر الذي يؤدي إلى اختفاء بعض الجماعات اليهودية . وقد شكّلت في إسرائيل لجنة صهيونية تهدف إلى مكافحة الاندماج بين أعضاء الجماعات اليهودية .

الزواج المختلط

Mixed Marriage: Inter-marriage

تُحرّم اليهودية الزواج بين اليهود وغير اليهود ، وهي في هذا لا تختلف عن كثير من الأديان . ولكن هذا الحظر في شكله المتطرف يُعبّر عن الطبقة الخلوية الكمونية التي تفصل الشعب المقدّس عن الآخرين الذين لا يتمتعون بالقداسة نفسها . فقد جاء في العهد القديم : « ولا تصاهرهم . بتك لا تعط لابنه وبته لا تأخذ لابنك » (ثنية ٧/٣) . ولكن رغم هذا الحظر ، فإن أنبياء اليهود وزعماءهم كانوا يتزوجون من غير اليهوديات . فقد تزوج إبراهيم من هاجر المصرية ، وتزوج حفيده يعقوب من امرأتين من الأغيار ، وتزوج رءوبين وسميون ويهوذا من كنعانيات ، وتزوج دان من مؤابية ، وتزوج زبولون (وقبله موسى) من مَدْيَنِيَّة ، وتزوج يوسف من مصرية ، وتزوج داود من امرأة حبشية أنجبت له سليمان الذي تزوج من إناث من جميع الأجناس المعروفة في زمنه . ومع هذا ، منع يعقوب دينه من الزواج من شكيم ، وحذّرت راحيل أولادها من الزواج من بنات كنعان . ومن الواضح أن الهدف من الحظر في هذه المرحلة لم يكن دينياً بقدر ما كان عرقياً . فراحيل ، مثلاً ، كانت حسب الرواية التوراتية وثنية تسرق الأصنام وتخشيها . ومع هذا ، يرد في العهد القديم أن تحريم الزواج مرده أن اليهودي قد يعبد آلهة آخرين . وبعد العودة من بابل ، طبق نحميا وعزرا قوانين تحريم

حياة من يشغل مثل هذه الوظائف تنسم بدرجة عالية من الحركية والتنقل والبُعد عن المراكز السكانية اليهودية . كما أن كثيراً من عماله ليسوا بالضرورة من أعضاء الجماعة اليهودية .

١٠ - لوحظ أن معدلات الزواج المختلط في العصر الحديث ترتبط ارتباطاً عكسياً بحجم الجماعة اليهودية . فَيَقِلُّ الزواج المختلط إذا كان حجم الجماعة كبيراً ، وهو ما يتيح فرصة العُشور على القرنين اليهودي المناسب ، ويزيد إذا كان حجمها صغيراً إذ تتناقص هذه الفرصة . ومن هنا يؤدي تَوَزُّع اليهود في العديد من المراكز السكانية إلى زيادة معدلات الزواج المختلط .

١١ - قد يُقَال - رغم تعدُّد المراكز - إن أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية مُركَّزة في المدن الغربية الكبرى ومن ثم لا بد أن تتراجع نسبة الزواج المختلط حسب ذكْرنا في البند السابق . ولكن الأمر عكس ذلك ، فـسكان المدن الكبرى هم أعضاء في الجينشافت (المجتمع التعاقدية) حيث الوحدة الأسرية هي الفرد الحركي الذي يتقل من مكان لآخر ولا يرتبط بالجماعية ينشأ (المجتمع التراحمي) . ونظراً ، فرغم وجود تجمعات يهودية كبيرة في المدن الغربية الكبرى إلا أنه في واقع الأمر مجرد تجمعات وحسب وليست جماعات أو مجتمعات . ولهذا يصعب على اليهودي أن يصل إلى القرنين اليهودي المناسب . كما أن سكان المدن يكونون عادة أكثر انفتاحاً وحركة من سكان الريف . ولهذا ، ورغم وجود أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في المدن الغربية الكبرى ، فإن معدلات الزواج المختلط أخذت في التزايد بينهم .

١٢ - يؤدي تزايد اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمعات التي يعيشون فيها إلى ازدياد معدلات الزواج المختلط ، إذ تنحصر لهم الفرص الاقتصادية والخرق السياسي والاجتماعي . ويبدأ أسلوب حياتهم في الاقتراب من أسلوب حياة أعضاء الأغلبية ويتساقط كثير من المحظورات .

١٣ - وفي العصر الحديث ، فإن السبب الأساسي والحاسم في تَصَاعُد معدلات الزواج المختلط في المجتمعات الغربية ، بدرجات ليس لها مثيل في تجارب أعضاء الجماعات اليهودية والتاريخية ، هو تصاعد معدلات العلمنة في هذه المجتمعات . ومن المعروف أن المجتمعات العلمانية يسود فيها قدر كبير من التسامح . ولكن التسامح العلماني لا يعني (في تصوُّرنا) التعايش بين الانتماءات الدينية المختلفة ، وإنما يعني ، في واقع الأمر ، التعايش بين أعضاء المجتمع بعد أن يُهْمَش كل منهم انتماءه الديني أو الإثني ويتجاوز به حيث يتعايش الجميع فيما يُسمَّى «رقعة الحياة العامة» التي تتحكم

هذا يعني أنهم لا يخافون من عزْلهم عن الشبكة اليهودية . كما أن إمكان العُشور على قرين مناسب داخل الجماعة اليهودية ، بالنسبة لليهودي متقدم في السن ، ليس مسألة متيسرة .

٤ - لوحظ كذلك أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يتزوجون للمرة الثانية أكثر استعداداً للزواج المختلط ، فهم يبحثون عن زوجة من «نوع مختلف» ، وعن «أسلوب حياة مختلف» ، ولذا فهم لا يمانعون في الانسلاخ عن الشبكة اليهودية ، بل ربما يرجون بذلك .

٥ - لوحظ أن اليهود العلمانيين أو الإثنيين يُقبلون على الزواج المختلط بمعدلات عالية تفوق كثيراً المعدلات السائدة بين اليهود الذين يعتبرون أنفسهم يهوداً بالمعنى الديني . ويعود هذا إلى أن اليهودي الإثني أو العلماني هو يهودي لا يكثرث كثيراً بيهوديته كبُعد أساسي من أبعاد رؤيته للكون ، فهي شيء من قبيل الفلكلور (انظر : «الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات العلمانية الغربية الحديثة») .

٦ - لوحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية الذين يُعرفون هويتهم دينياً ، ومع هذا لا ينتمون إلى أية فرقة يهودية ، هم أكثر إقبالاً على الزواج المختلط من اليهود الذين ينتمون إلى فرقة دينية محدَّدة ، فرغم أنهم يسمون أنفسهم عادة «يهوداً متدينين» إلا أنهم في غالب الأمر غير مكترئين كثيراً بهويتهم الدينية (رغم ادعاء الانتماء الديني) ولا يمارسون إلا قدرًا صغيراً من الشعائر .

٧ - فيما يخص اليهود المنتمين لإحدى الفرق الدينية ، لوحظ أن الزواج المختلط يكاد ينعدم بين اليهود الأرثوذكس ويصل إلى معدلات عالية بين اليهود الإصلاحيين ويذهب اليهود المحافظون . فاليهود الأرثوذكس يعيشون حسب الرؤية والقيم اليهودية وقيمهم الشعائر اليهودية ، الأمر الذي يجعل مشاركة غير اليهودي أمراً صعباً بل من المستحيل في مثل هذه الحياة . أما اليهود المحافظون ، والإصلاحيون بدرجة أكبر ، فهم يؤمنون بأشكال مُخَفَّفة من اليهودية لا تحكم العقيدة والشعائر اليهودية كل جوانبها ، ولذا يمكن لغير اليهودي المشاركة فيها بسهولة ويُسر .

٨ - لوحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية حينما يتخلون عن دور الجماعات الوظيفية ويندمجون اقتصادياً في المجتمع ، تأخذ معدلات الزواج المختلط في الزيادة . فعوضاً الجماعة الوظيفية هو جزء من شبكة يهودية قوية تتحكم في جوانب حياته الدينية والزمنية وتضمن بقاءه ، وفي ذات الوقت تقوم بضبط إيقاع حياته من الخارج ومن الداخل .

٩ - يؤدي وجود أعضاء الجماعات اليهودية في وظائف معينة مثل المهن الحرة إلى تزايد معدلات الزواج المختلط ، ويعود هذا إلى أن

اليهودية هي أساس ترتيب الأولويات والمعايير الأخلاقية التي يحكم بها اليهودي على حياته وأن تكون هي الإطار الذي يحدد من خلال الهدف من وجوده ووضعه في المجتمع والتاريخ .

١٥ - لاحظ أحد الباحثين أن هوية اليهود الجدد الهشة يمكن أن تكون حافزاً على الزواج المختلط . ففي المجتمعات العلمانية ثمة بحث دؤوب عن اللذة والمتعة والمغامرة والإثارة . ويُعدّ الزواج بين يهودي وغير يهودي شكلاً من أشكال الإثارة الذي لا يُكَلِّف كثيراً باعتبار أن يهودية الطرف اليهودي (ومسيحية الطرف المسيحي) مُهمّشة ، ومن ثم يمكن استدعاؤها للإثارة ويمكن تجميدتها عند اتخاذ القرارات المصرية .

١٦ - وما يساعد على تصاعد معدلات الزواج المختلط أن معظم اليهود لا يعارضونه في الوقت الحاضر ، كما يوجد عدد لا بأس به من الحاخامات الإصلاحيين ممن تقبلوا عقد الزيجات المختلطة ، ولذا فإن من يتزوج من غير يهودي لن يجد نفسه خارج الجماعة اليهودية .

ونسبة الزيجات المختلطة في العصر الحديث آخذة في التصاعد بشكل يشير قلق القيادات اليهودية (ويسمونهم «الهولوكوست الصامت») . فقد وصلت نسبة الزيجات المختلطة في كوبنهاغن (بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٥) إلى ٦٨٪ من جملة الزيجات . ووصلت في ألمانيا (عام ١٩٣٢) إلى نحو ستين زيجة مختلطة بين كل مائة زيجة يهودية ، وفي أستراليا ٧٠٪ (عام ١٩٣٠) . وفي الولايات المتحدة تصل النسبة في الوقت الحاضر إلى أعلى من هذا في بعض المناطق ، ولكن النسبة العامة بين عامي ١٩٨٥ و ١٩٩٠ هي ٥٢٪ من كل الزيجات اليهودية التي تمت في هذه الفترة . وتصل النسبة في بعض المناطق إلى ٨٠٪ . وفي روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء لا يختلف الوضع عن هذا كثيراً .

ويحدث أحياناً أن يتهود الفرد الذي تزوج يهودياً أو يهودية . وللفظ «يهودي» ، بالنسبة لمثل هؤلاء الأفراد ، ذو مضمون ديني يُسقط الجانب الإثني والقومي تماماً ، ولكنه ديني من حيث الاسم فقط ، لأن اعتناق اليهودية خطوة يتخذها المتهود حتى لا يسبب حرجاً لرفيق حياته الجديد أمام أسرته . فالدافع وراء التهود هنا في غالب الأمر علماني وليس دينياً . ويبلغ عدد الذين تهودوا بسبب الزواج المختلط في الولايات المتحدة حوالي ١٨٥ ألفاً يسمون الواضح منهم في الوقت الحاضر «يهودي باختياره» (بالإنجليزية : Jew by choice) بدلاً من «كونفرت convert» أي «متهود» أو «مهتد» بسبب الإيحاءات القديحة لهذه الكلمة . وهذا

فيها القيم العلمانية مثل المنفعة وتعظيم الإنتاج واللذة . وعادةً ما تخفي في مثل هذه المجتمعات الرموز الدينية المقصورة على الجماعة الدينية ويحل محلها رموز المجتمع ككل (نشيد وطني - تاريخ مشترك - الانتماء لأرض الأجداد) أو رموز ذات مضمون اجتماعي طبعي (منازل من نوع خاص - رداء من نوع خاص - سيارات . . إلخ) . وهذه الرموز تُسقط الخصوصية الدينية والإثنية . كما تسود هذه المجتمعات قيم ثقافية مشتركة من حب للموسيقى الشعبية أو فنان بعينه وهكذا .

١٤ - وقد أوضحت هذه عملية ضخمة لإعادة تعريف الهوية اليهودية لتتفق مع الأوضاع (والحقوق والواجبات) الجديدة في عصر ما بعد الانعتاق ، بحيث يصبح بإمكان اليهودي أن يكون يهودياً ومواطناً عادياً في آن واحد . وكان التصور أن تعريف الهوية الجديد سيحفظ يهودية اليهودي (الدينية أو الإثنية) وسيحقق لها الاستمرار داخل مجتمعات ما بعد الانعتاق ، بخاصة المجتمع الأمريكي ، وهو مجتمع حقق الانعتاق تماماً لكل أعضاء الأقليات فيه ، كما أنه وطن نصف يهود العالم .

ولكن يبدو أن هذا الحلم تبخّر تماماً ، إذ ظهر أن تطوير الهوية اليهودية على هذا النحو أدى في واقع الأمر إلى ظهور ما يُسمى «اليهودي غير اليهودي» ، أي اليهودي الذي تم تهيمش يهوديته بحيث أصبحت عنصرًا ثانوياً في هويته العامة ، لا تؤثر سلوكه ولا تشكل إطاراً عقائدياً كلياً يضغط حياته من الداخل والخارج . فيهودية اليهودي غير اليهودي تظهر في تمسكه ببعض الشعائر (إن كان متدينًا) ولا تتجاوز قدرًا من التمسك الرومانسي بما يُسمى «التراث اليهودي» (الذي لا يعرف عنه شيئاً) أو تأييد إسرائيل بشكل أكثر حدة من أقرانه الأمريكيين ، وإن كان ذلك لا يختلف في مجمله عن الموقف الأمريكي العام .

وهذا التعريف للهوية اليهودية يجعلها هامشية تماماً لا تتدخل في ترتيب الأولويات الجوهرية . ولذا ، فإن دخل إنسان يهودي في علاقة رومانسية مع شخص غير يهودي وبدأ يفكر في الزواج منه فسجد أن هوية الطرف الآخر (اليهودية) هوية هامشية لا تتدخل في تحديد الاختيارات الأساسية والقرارات المصرية ، ولن يكون لها دخل كبير في حياتهما وأن بالإمكان تحقيق هذه الهوية الهامشية داخل الزواج مع تحييدها . فهذه الاختيارات والقرارات سيتم تحييدها على أسس علمانية لا دينية ، لا علاقة لها بالمسيحية أو اليهودية . فافتناء عمل فني يهودي ودفع تبرعات لأحد صناديق الغوث اليهودية وتأيد إسرائيل لن يسبب مشاكل كبيرة . هذا على خلاف أن تكون الهوية

٤ إشكالية العزلة اليهودية والخصوصية اليهودية

اليهودية بالمعنى الديني أو الإثني . وقد لوحظ أنهم يصبحون عادةً من أكثر العناصر إقبالاً على الزواج المختلط .

ولا تعترف اليهودية الأرثوذكسية بالزيجات المختلطة . أما اليهودية المحافظة ، فتشترط على الطرف غير اليهودي أن يتهود . ومع هذا ، فهي لا تَطْرُد من الأبرشية من يتزوج من خارج وسط اليهود . بل وتسمح له بعض المبادئ المحافظة بحضور الصلوات على شرط أن يوافق على أن يكون ثمرة الزواج يهوداً . أما اليهودية الإصلاحية ، فإنها توافق على الزيجات المختلطة (وتترك الأمر لكل حاخام لكي يقرر ما يراه مناسباً) . وتشجع الطرف غير اليهودي على التهود ولكنها لا تشترطه . وتعتبر أن اليهودي وزوجه غير اليهودية أعضاء في الأبرشية . أي أنها تقر حق الطرف غير اليهودي في حضور الصلوات .

أما بالنسبة للموقف من أبناء هذه الزيجات ، فمن اليهودية الأرثوذكسية لا تعترف إلا بمن ولد منهم لأم يهودية ، أما من ولد لأب يهودي فليس يهودياً (على عكس موقف اليهودية الإصلاحية) .

ومن أشكال الأخرى التي يُشبه أبناء الزواج المختلط انضمامهم للمدارس اليهودية . فبعض الأطفال غير يهود ومع هذا يسجلهم أبائهم في مثل هذه المدارس يُعرِّفونهم بالجنس الإثني أو الدينية للطرف اليهودي في الأسرة أو ينحرفوا أمامهم البذائل الدينية المختلفة (ومن بينها التبديل اليهودي) حتى يختار النضال بنفسه فيما بعد . ويخلق هذا مشاكل لا حصر لها لهذه المدارس ، التي تُعدّ المقررات التي تلازم المدارس اليهودية وحسب .

والصهيونية تعتبر الزواج المختلط أكبر خطر يهدد اليهود واليهودية . ومن المستحيل عقد مثل هذا الزواج في إسرائيل حيث تسيطر المؤسسة الأرثوذكسية . ويواجه المميز ، أي أبناء الزيجات المختلطة ، مشاكل وتعقيدات كثيرة لأنهم أطفال غير شرعيين . وقد ازدادت المشكلة تقدماً بعد هجرة اليهود السوفييت ، حيث إن معدلات الزواج المختلط بينهم مرتفعة بشكل ملحوظ .

الإبادة الصامتة

Silent Holocaust

«الإبادة الصامتة» مُصطلح شائع في الولايات المتحدة (في الأوساط الصهيونية) يُستخدم للإشارة إلى معدلات الاندماج والزواج المختلط المرتفعة باعتبارها عناصر ستؤدي إلى إبادة اليهود وإلى «موت الشعب اليهودي» .

العدد صغير (بالنسبة لعدد من لم يتهودوا ، والذي يُقال إنه بلغ ٢١٠ ألف) كما أنه أخذ في التناقص مع تضاءل معدلات العلمنة في المجتمع ، لأن الضغوط الاجتماعية التي تدفع الطرف غير اليهودي نحو التهود قد ضعفت . وقد ورد في تقرير لمركز كوهين للدراسات اليهودية الحديثة في جامعة برانديز أن العنصر غير اليهودي يتهود في زيجة واحدة من كل أربع زيجات مختلطة .

ويقول الحاخام آرثر هرتزبرج إن معدلات الزواج المختلط في المجتمعات المفتحة ، مثل الولايات المتحدة وبلاد غرب أوروبا (حيث تم فيها إعتاق اليهود) تصل منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى حوالي الثلث في الجيل الثالث (أحفاد المهاجرين أو اليهود الذين تم إعتاقهم) . ثم يأخذ هذا المعدل في الازدياد بعد ذلك (حدث ذلك في نيويورك وفيلادلفيا عام ١٨٤٠ ، وحدث في برلين وفيينا عام ١٩٢٠ ، وحدث مرة أخرى في الولايات المتحدة في الثمانينيات) . وقد كانت موجات الهجرة في الماضي هي التي تُقلّل معدل الزيجات المختلطة ، ذلك لأن المهاجرين (وأغليتهم من شرق أوروبا) كانوا من خلفيات يهودية تقليدية يُعدّ الزواج المختلط فيها جريمة أخلاقية . ومع التكييف التدريجي يزداد معدل الزواج المختلط .

وهذا يعني أن معدلات الزواج المختلط ستزاد بشكل ملحوظ مع تَوَقُّف الهجرة من خارج الولايات المتحدة (إذ أن مصدر المهاجرين الأساسي ، الاتحاد السوفيتي سابقاً ، قد بدأ يجف تماماً) . وإذا وصل مهاجرون فهم عادةً يتسمون بمعدلات عالية من العلمنة ، ويكون هناك عادةً طرف غير يهودي في الأسرة المهاجرة . أما أبناء الزيجات المختلطة فوضعهم لا يقل سلبية (من منظور يهودي) . فقد لوحظ أن ٩٠٪ من أولاد الزيجات المختلطة في الاتحاد السوفيتي سابقاً يختارون ألا يُصنّفوا «يهوداً» . ولا يختلف الوضع كثيراً في الولايات المتحدة ، فقد قيل إنه لو أن نصف كل أبناء الزيجات المختلطة نشأوا يهوداً ، لما حدث أي نقصان في أعداد اليهود ، ولكن الدراسات الأخيرة أثبتت أن هذا لا يحدث ، فنسبة من يُنشأون باعتبارهم يهوداً يصل إلى الربع (أو حتى الخمس حسب بعض الإحصاءات) . ويوجد الآن في أمريكا الشمالية ٤١٥ ألف شخص فوق سن الثامنة عشرة من أصل يهودي ولكنهم تُشَنُّوا على غير اليهودية . ويوجد ٧٠٠ ألف دون سن الثامنة عشرة لم يتم تعريفهم بوصفهم يهوداً ، رغم أن لهم أباً أو جدّاً يهودياً وهذا يؤدي إلى تناقص الأعداد . وحتى حينما يقرر أن يُنشأ أبناء مثل هذه الزيجات على أنهم يهود ، فعادةً ما يكونون يهوداً اسماً وأبعد ما يكونون عن

الشعب العضوي (فولك)

Volk

تعبير «الشعب العضوي» هو ترجمتنا للكلمة الألمانية «فولك» Volk التي تُستخدم بمطوقها الألماني في كثير من اللغات الأوروبية . والشعب العضوي هو الشعب الذي يترابط أعضاؤه ترابط الأجزاء في الكائن العضوي الواحد والذي تربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه . ويُشار إلى الفكر القومي ، الذي يُصدر عن مفهوم الشعب باعتباره الفولك أو الكيان العضوي المتماسك ، بعبارة «الفكر القومي العضوي» كما يُقال «القومية العضوية» .

القومية العضوية

Volk (Organic) Nationalism

«القومية العضوية» هي شكل القومية التي يُعبر الشعب من خلالها عن نفسه ككيان عضوي متماسك ، يحوي داخله مركزه ، فهو مرجعية ذاته ، أي أنه يدور في إطار المرجعية الكامنة ، والنموذج الكامن وراء هذه الفكرة هو نموذج عضوي مادي واحد . والشعب العضوي والقومية العضوية هما البديل والمقابل العلماني والحلولي الكموني الواحد لفكرة الجماعة الدينية أو الأمة بالمفهوم الديني . ومفهوم القومية العضوية مفهوم رحيم تماماً يُلغي إرادة الإنسان الفرد وحرته . وقد ظهرت فكرة القومية العضوية في الغرب ، خصوصاً في ألمانيا في القرن التاسع عشر ، تحت تأثير الفكر المعادي للاستتارة . والقومية العضوية تدور في إطار الأفكار التالية :

١ - الشعب هو كل عضوي متماسك يشبه علاقة أعضائه ، الواحد بالآخر وبمجموع الشعب ، علاقة أجزاء الكائن الحي بعضه ببعض الآخر ، ومن ثم فإن الشعب الحقيقي لا يقبل التفتيت ولا يمكن فصل أحد أعضائه عنه . وإذا غيّر أحد أعضائه الفولك مكانه وانتقل من ألمانيا إلى روسيا مثلاً فهو يظل ألمانياً .

٢ - الانتماء القومي لهذا الشعب ليس مسألة اختيار أو دعاية وإنما رابطة كلية عضوية حتمية تكاد تكون بيولوجية في حتميتها (إن لم تكن كذلك بالفعل) تربط بين الفرد والجماعة التي يتبعها ، ولذا فإن الانتماء لشعب معين مسألة تُورث ولا تُكتسب .

٣ - لا تقتصر الرابطة العضوية على العلاقة بين الفرد والشعب وإنما تمتد لتربط بين الشعب ككل والأرض التي يعيش عليها وبها . فالشعب العضوي يستمد الحياة من أرضه وترته ، وهي أيضاً تستمد منه الحياة ، فهو وحده القادر على تعميرها .

٤ - تمتد العلاقة العضوية لتشمل أيضاً الأشكال الثقافية والاجتماعية

التي تسود بين أعضاء هذا الشعب العضوي والتي أبدعها أعضاؤه على مر التاريخ . فهذه الأشكال تُعبر عن عبقرية هذا الشعب وروحه (بالألمانية : فولكس جايست Volksgeist) ، ولهذا السبب فإن الآخر الغريب لا يمكنه أن يمتلك ناصية الخطاب الحضاري لهذا الشعب مهما بذل من جهد ، فثقافة الشعب العضوي مسألة موروثه تجري في الدم تقريباً ولا يمكن اكتسابها مهما بلغ الآخر من ذكاء ومهارة .

٥ - والشعب العضوي يحوي داخله (وداخل أرضه وتراثه) عناصر قوته وانحلاله وتطوره ورقيته ، كما أن قوانين حركته التي ينمو على أساسها كامنة فيه أيضاً ، أي أنه يدور في إطار المرجعية المادية الكامنة . ويُلاحظ اختفاء كل المسافات بين الشعب ومصادر قوته وأرضه وتراثه ، فالجميع يُكوّنون كلاً متماسكاً مستمراً عضوياً لا ثغرات فيه ولا انقطاع .

٦ - ويمكننا أن نقول إن فكرة الشعب العضوي (والقومية العلمانية) ككل هي حلولية مرحلة وحدة الوجود المادية (من النوع الثنائي الصلب) . فالمُطلَق حل في المادة (الأرض والشعب والتراث أو الشعب المرتبط بأرضه وتراثه) وفقد تجاوزه وتنزّهه وذاب في الشعب ، بحيث أصبح الشعب هو ذاته القيمة المطلقة ومرجعية ذاته . ولعل النمط الكامن الأساسي وراء فكرة الشعب العضوي هو النمط الذي ورد في أسفار موسى الخمسة ، فالعبرانيون أمة أو قبيلة اختارها الإله وحل فيها أو سكن في وسطها ، وهو إله مقصور على أعضاء هذه القبيلة ، ولذا كان ينتقل معهم في ترحالهم (أو كانوا يحملونه معهم في سفينة العهد) وكان يساعدهم (وخدمهم دون سواهم) ضد أعدائهم ويغار عليهم ، وكانوا لا يترددون في الضغط عليه كي يستجيب إلى طلباتهم . وقد تعدلت هذه الصورة قليلاً بعد ذلك في كتب الأنبياء . ولكن أسفار موسى الخمسة ظلت أكثر أسفار العهد القديم قداسة ، وأصبح تاريخها المقدس ، وما جاء فيها من صُور حلولية كمونية عضوية من أهم مفردات الوجدان الغربي . ومع تصاعد معدلات العلمنة ، أعيد إنتاج هذه الصورة القبليّة العضوية الحلولية على هيئة الفكر العلماني القومي . وقد أحلّ هذا الفكر ، محل الإله الواحد المتجاوز (المنزّه عن الطبيعة والتاريخ ، مركز الكون ، المفارق له) ، كياناً عضوياً متماسكاً هو الشعب أو الأمة التي تحوي مركزها داخلها ، فهي موضع الحلول والكمون وفوق الجميع . وأصبحت الأمة ، ذلك الكيان العضوي المتغلق على ذاته ، مصدر السلطات وموضع التقديس ، وأصبحت الهوية القومية والحفاظ عليها (بغض النظر عن أية قيم) قيمة مطلقة

٤ إشكالية العزلة اليهودية والخصوصية اليهودية

وتميّز بعض المؤرخين بين القومية العضوية من جهة والقومية الليبرالية (التعاقدية) من جهة أخرى . فإذا كان أعضاء القومية العضوية لا يختارون مسألة انتمائهم القومي بل يرونه بشكل يكاد يكون بيولوجياً ، فإن أعضاء القومية الليبرالية - حسب رأي هؤلاء المؤرخين - يختارون هذا الانتماء ويدخلون في تعاقد يمكن فكّه على الأقل من الناحية النظرية . ويصنّف الفكر القومي الألماني والسلافي بوصفه فكراً عضوياً يُشتر بقومية عضوية . وذلك على عكس النظريات القومية في كل من فرنسا وإنجلترا . ونحن نرى أن التمييز قد يفسر بعض نطق الاختلاف التي لا أهمية لها ، ولكنه يُخفى نطق تشابه ذات أهمية محورية . كما نذهب إلى أن الحضارة الغربية العلمانية العلمية ككل تدور في إطار عضوي وفي إطار المرجعية المادية الكامنة ، فالنموذج يحوي مركزه داخله . وقد نُقِلَ درجة تماكّه واستبعادته وحلّوئته في حانة التشكيلين الحضاريين الفرنسي والإنجليزي (والقومية الفرنسية والإنجليزية) ، وقد تزيد هذه الدرجة في حانة التشكيلين الألماني والسلافي (الجامعة الألمانية والجامعة السلافية) وفي حانة الصهيونية . ولكن الإطار الذي يدور في إطاره الجميع هو المرجعية المادية الكامنة والخنونية العضوية ، فتصبح الأمة مرجعية ذاتها ، وتصبح هي ذاتها مصدر شرعيتها ، وتصبح إرادتها مصدر وحدتها وتماكها (تماماً كما أن إرادة القوة في المنظومة النيتشوية هي مصدر تماك الفرد ووحدته وهويته) .

الشعب العضوي المنبوذ

Pariah Volk

«الشعب العضوي المنبوذ» عبارة قديمة بصياغتها للتعبير عن نموذج تفسيري كامن في معظم الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود . ويعود هذا النموذج إلى الفكر الألماني الرومانسي الذي طرح فكرة الشعب العضوي (بالألمانية : فونك Volk) ، والتي ترى أن الانتماء القومي ليس مسألة اختيار أو إيمان ، وإنما هو رابطة كلية عضوية حتمية تكاد تكون بيولوجية في حتميتها بين الفرد والجماعة التي يتبعها والتربة (الأرض) التي تتواجد عليها هذه الجماعة ، ومن هنا الحديث عن التربة والدم . وحسب هذا النموذج ، تتسم الأشكال الثقافية والاجتماعية المختلفة التي تسود بين أعضاء هذه الجماعة بأنها هي الأخرى مترابطة ارتباطاً عضوياً لا تنقسم عراه ، وبأنها فريدة تُعبّر عن عبقرية الجماعة . ويؤكد نموذج الشعب العضوي الاختلافات بين الجماعات البشرية المختلفة على حساب المساواة بين أعضاء الجنس البشري . ولهذا نجد أنه أفرز مجموعة شعارات ذات

ومرجعية نهائية (تورثن الذات كما سماها أحد المفكرين العرب) . بل وأصبح تراب الوطن أو أرضه موضع التقديس ، فهو الرقعة التي تتحقق عليها الذات القومية المقدسة . وقد تم التعبير عن هذا من خلال مفهوم الدم والتربة : الدم الذي يجري في عروق أبناء الشعب والتراب أو التربة التي يعيش عليها ، وهما العنصران اللذان يجسدان فكرة الوطن . وأصبح الصالح العام لهذا الوطن ، وهذه الدولة التي تمثلها وتمثل الشعب ، هو المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو الخير الأعظم والمطلق الأوحّد ، ولهذا فإن العمل ضد صالح الدولة وإفشاء أسرارها (المقدسة المطلقة) خيانة عظيمة عقوبته عادة الإعدام . وباختصار شديد ، أصبح الوطن المقدس (والشعب المقدس) مرجعية ذاته وأصبحت مصلحته قيمة نهائية ، ومن ثم أصبح من المستحيل محاكمة أي شعب من منظور منظومة قيمة خارجة عنه .

٧ - أفرزت فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية مجموعة شعارات ومفردات ذات طابع عضوي حلولي كمنوي واحدي (شبه صوفي) عنصري ، مثل : «أمتنا فوق الجميع» ، و«الأمة ذات الرسالة الخالدة» ، «المصير القومي الواحد المحتوم» ، «الجال الحيوي للشعب» .

٨ - مفهوم الشعب العضوي مفهوم استبعادي ، نسق مغلق لا يسمح بأي شكل من أشكال عدم التجانس ويفصل بحدّة بين أعضاء الشعب العضوي والشعوب الأخرى . كما أن أعضاء الأقليات الذين يعيشون بين أعضاء هذا الشعب يصبحون بالمثل شعباً عضوياً ، ولكنهم شعب عضوي منبذ .

٩ - فكرة الشعب العضوي والقومية العضوية تُترجم عادة إلى فكر عرقي يؤكد التفاوت بين الناس والأعراق ، فينسب التميّز للأنا الجماعة العضوية والتدني للآخر . فالأنا هي تجسّد المركز الكامن في العالم ، والآخر مجرد مادة وحسب ، والأنا هو المرجعية النهائية والمقدس ، والآخر هو التابع المباح . ويشكل الفكر العضوي الاستبعادي الأرضية الفلسفية للرؤية العنصرية داخل أوروبا والرؤية الإمبريالية خارجها . وقد حقّق المفهوم شيوعاً كبيراً في أوروبا ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر . وكانت الكتب العنصرية أكثر الكتب شيوعاً في أوروبا في تلك الفترة . ومن هنا ، فإن الفكر الإمبريالي ، والفكر النازي والصهيوني ، وكذلك فكر أعداء اليهود ، فكر عضوي .

١٠ - يُعبّر الشعب العضوي عن إرادته من خلال الدولة القومية المطلقة التي تكون مرجعية ذاتها ، ويُعبّر عن هذه الإرادة في حالة النظم الشمولية من خلال إرادة الزعيم .

وتدّنها شاهداً على صدق العقيدة المسيحية وعلى عظمة الكنيسة . ولذا ، دافعت الكنيسة الكاثوليكية عن بقاء اليهود كجماعة مستقلة وحمتهم ضد الهجمات الشعبية حتى يقوموا بدورهم في الشهادة . ثم تحوّلت هذه الفكرة إلى العقيدة الاسترجاعية أو الألفية في الفكر البروتستانتي ، وهي عقيدة تُحوّل اليهود إلى أداة من أدوات الخلاص إذ أنه لا يمكن أن يتم الخلاص النهائي إلا بعودة اليهود .

٢ - الأمر الآخر الذي يعود إليه نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو الدور الذي لعبه اليهود في المجتمع الغربي كجماعة وظيفية وسيطة تشغل بالتجارة والربا والنشاطات المالية . ويمكن القول بأن الشعب العضوي المنبوذ ، في كثير من الأحوال ، هو الجماعة الوظيفية التي فقّدت وظيفتها .

ويلاحظ أن كلا الأمرين يضع اليهود على هامش التاريخ الغربي لا في صميمه ، كما يجعلهم مجرد أداة إما للخلاص النهائي أو للربح .

ويمكن القول أيضاً بأن نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو تعبير علماني عن فكرة الشعب المختار والشعب المقدّس (الدينية) ، فالشعب المختار شعب مقدّس ، والقدااسة تعني الانفصال عن كل الشعوب ، فهو شعب عضوي ، ولكن إحدى علامات اختياريه هي أن كل الشعوب ترفضه ، فهو شعب عضوي مقدّس منبوذ .

وقد تداخل العنصران الديني والديني لبعض الوقت . ومع تزايد علمنة الحضارة الغربية ، فقدّ النموذج كثيراً من ديباجاته الدينية ليصبح نموذجاً دينياً محضاً . ومن هذا المنظور ، تم الهجوم على اليهود لا باعتبارهم قتلة المسيح وإنما باعتبارهم شعباً عضوياً بالمعنى العرقي . كما أن استخدام اليهود كوسيلة أخذ يفقد ديباجاته الدينية تدريجياً ، حيث أصبح اليهودي غير مُثقل بأية قيمة وتحوّل إلى أداة محضة .

ويمكننا أن نعدّ مارتن لوتر من أوائل المفكرين الذين تعاملوا مع اليهود من منطلق هذا المفهوم في صيغته الدينية ، فقد وصف اليهود انطلاقاً من عدائه العميق لهم بأنهم « عبء ثقيل علينا وبلاء وجودنا » ، وأشار إلى أكاذيبهم وطالب بمساعدتهم للعودة إلى أرضهم في يهودا « فالتخلص من اليهود هو الهدف الأسمى » . ومن الواضح أن لوتر لم يكن قد أدرك بعد إمكانية الاستفادة منهم وإمكانية نفعهم . ويُعدّ الفيلسوف إسبينوزا من أوائل المفكرين الذين بلّروا هذا المفهوم في صيغته العلمانية ، إذ شن هجوماً شرساً على اليهود وطالب بالقضاء على خصوصيتهم بدمجهم أو عودتهم إلى فلسطين .

طابع عضوي عنصري شبه صوفي ، مثل : روح الشعب - أمة واحدة ذات رسالة خالدة - المصير القومي الواحد الحتمي والأمة فوق الجميع - المجال الحيوي للشعب . وقد استُخدم هذا النموذج لتبرير التوسع والاستبعاد الآخرين بل وإبادتهم . كما تحكّم في إدراك الإنسان الغربي لكل المجموعات البشرية وضمنهم اليهود ، بحيث أصبح هناك شعب عضوي ألماني وشعب عضوي إنجليزي وشعب عضوي يهودي ، كل منها مترابط ارتباطاً عضوياً ويضرب بجذوره في تربته . وقد بُنِيَ الفكر الصهيوني هذا النموذج التفسيري الذي عبّر عنه مارتن بوبر في كتاباته حيث يجعل من الشعب العضوي ركيزة أساسية لرؤية العالم .

ومن مفارقات الأمور أن إحدى خصائص الشعوب العضوية أنها تتبدّد العناصر الغريبة عنها والتي تُوجد بين ظهرانيها مثل اليهود . ولهذا كان النموذج الذي أسبغ على اليهود هوية عضوية فريدة ، وحوّلهم من مجرد أقلية دينية أو جماعة دينية إلى كيان مستقل ، يأخذ شكل شعب عضوي له صفات ثابتة محددة يضرب بجذوره في فلسطين ، هو نفسه الذي جعل منهم مادة بشرية غريبة لم تُشكّل قط جزءاً من التاريخ الحقيقي للغرب وإنما وقفت دائماً على هامشه . بل إن وجودهم داخل الحضارة الغربية لم يكن دائماً أمراً إيجابياً ، ومن ثم فلا مكان لهم في هذه الحضارة ، أي أن « الشعب العضوي » تحوّل إلى « شعب عضوي منبوذ » . وقد أدّى هذا النموذج إلى الهجوم على خصوصية الشعب العضوي اليهودي وإظهار مدى قبحها وضرورة القضاء عليها ، فظهرت الدعاوى المعادية لليهود ، كما ظهرت الدعوات إلى دمجهم في المجتمعات الغربية بعد إصلاحهم وتطبيعهم ، أي بعد أن يتخلصوا من خصوصيتهم وسماتهم السلبية ، بأن يتخلوا عن يهوديتهم ، وهذا هو فكر عصر الاستنارة والتنوير .

ويمكن القول بأن نموذج الشعب العضوي المنبوذ هو الحلقة التي تربط بين العداء لليهودية والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . وتنطلق صهيونية غير اليهود من فكرة أن الفولك أو « الشعب العضوي اليهودي » لا مكان له حقاً في العالم الغربي (وهذه هي نفسها دعوى أعداء اليهود) ولكن يمكن الاستفادة منه كأداة يمكن توظيفها لصالح الغرب في مشروعاته المختلفة التي أصبح من أهمها ، مع مرور الوقت ، المشروع الاستيطاني في فلسطين . ويستند نموذج الشعب العضوي المنبوذ إلى عنصرين أساسيين في الحضارة الغربية : ١ - موقف الحضارة الغربية المسيحية من اليهود . ويمكن القول بأن نموذج الشعب العضوي يعود إلى فكرة الشعب الشاهد ، أي اليهود بوصفهم أقلية دينية رفضت المسيح ، وتقف في دّلها وخضوعها

٤ إشكالية العزلة اليهودية والخصوصية اليهودية

بداية القرن التاسع عشر ، بُعِدَ أساسياً في الفكر السياسي الغربي تجاه اليهود والشرق . كما تمت مزاجية المسألة اليهودية (الشعب المنبوذ) بالمسألة الشرقية (الدولة العثمانية وتقسيمها) بحيث يمكن حل المسألة الأولى ، أي التخلص من اليهود ، عن طريق استخدامهم كمادة بشرية في المسألة الثانية . وكان نابليون من أوائل السياسيين الذين توصلوا إلى هذه الصيغة . فهو أول سياسي يدعو اليهود ، من حيث هم يهود ، إلى الاستيطان في فلسطين . محالاً الاستفادة منهم كمادة استيطانية في مشروعه الاستعماري . أما على مستوى فرنسا ذاتها ، فقد كان الأمر جدّاً مختلف . فقد أصدر نابليون من التشريعات ما قضى عليه كـشعب عضوي ، ووضع الخطط التي أدّت في نهاية الأمر إلى دمجهم في الأمة الفرنسية .

ونموذج الشعب العضوي المنبوذ هو ذاته النموذج الرئيسي وراء فكر بول باستيل زعيم حركة التسميريين في رومب . فقد كان يرى أن اليهود « يحافظون دوماً على روابط وثيقة بدرجة لا تُصنّف ، بسبب الدين والسيطرة الأخاخمية على أوجه أخية جميعاً » ، أي أنهم شعب عضوي . وأخل هو « إما تخليص اليهود من خصوصيتهم ، واستيعابهم استيعاباً تاماً ، أو مساعدتهم على تأسيس دولتهم الخاصة المستقلة في منطقة ما من آسيا الصغرى . ولهذا يجب تعيين نقطة تجمّع لشعب اليهودي بمساعدة بعض الجنود . وإذا تجمّع في مكان واحد جميع اليهود الروس والبولنديين ، فإن عددهم سيبلغ أكثر من مليونين . وبعد أن يجتازوا أوروبا التركية فإنهم يستطيعون أن يعبروا إلى تركيا الآسيوية حيث يمكنهم بعد الاستيلاء على أرض ك فية تأسيس دولة يهودية مستقلة . وبهذا ، فإن باستيل ينظر إلى اليهود باعتبارهم مادة استيطانية يمكن استخدامها كوسيلة في الصراع الناشب بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية .

وقد أصبح النموذج أيضاً بُعِدَ أساسياً في الفكر الاستعماري الإنجليزي ، فنجد أن نورد شافسبري يتحدث عن اليهود باعتبارهم عنصراً مستقلاً له سماته القومية المستقلة ، ولكنه عنصر طفيلي فاسد . وانطلاقاً من هذا ، فقد عارض منحهم الحقوق الدينية ، ولكنه بذل جهوداً كبيرة في سبيل اتخاذ الخطوات اللازمة لتوطيتهم في فلسطين . وقد تبنّت وزارة المستعمرات رأيه منذ عام ١٨٤٠ .

ويستمر هذا الخط ليصل إلى بلغور الذي كان يؤمن إيماناً جازماً بأن اليهود كيان تختلط فيه القومية بالدين . وأنهم كيان غريب على الحضارة الغربية التي لم تستطع استيعابهم . وكان بلغور يرى أن اليهود ، بطفيليتهم وعدم انتمائهم ، يشكلون عبئاً على الحضارة

وشهدت الفترة نفسها ظهور فكرة الاستفادة من « الشعب العضوي المنبوذ » كأداة . فقد دافع كرومويل عن عودة اليهود إلى إنجلترا بسبب نفعهم وإمكانية استخدامهم كجواسيس . وقد بدأت تظهر فائدة اليهود في تلك الفترة كعنصر استيطاني يمكن استخدامه في المشاريع الاستيطانية في سورينام وكاين وكوراساو .

وبعد نموذج الشعب العضوي المنبوذ حاجر الزاوية في فكر الاستنارة ، فقد هاجم كل من فولتير وهولباخ اليهود على أنهم شعب عضوي له صفاته السلبية الخاصة به . وعرف الفيلسوف هررد اليهود بأنهم غرس طفيلي في أوروبا يلتصق بكل الشعوب الأوروبية ويمتص نخاعها . ويلاحظ وجود المفهوم نفسه في كتابات فخته الذي أكد أيضاً الفساد الأخلاقي عند اليهود وأكد أنهم يُكوّنون دولة داخل الدولة . ولذا ، عارض منحهم الحقوق المدنية والسياسية ، إذ أن ذلك لن يتحقق إلا بأن تُقَطَّع رؤوسهم ذات ليلة وتُوضَعَ مكانها رؤوس أخرى لا تحوي فكرة يهودية واحدة . وقد اقترح فخته ، ومن قبله فولتير ، حلاً صهيونياً لمشكلة الشعب العضوي المنبوذ ، فقال : « لا يوجد بديل إلا بغزو أرض الميعاد وإرسالهم إليها ، لأنهم لو حصلوا على حقوقهم المدنية في أوروبا فإنهم سيدوسون على كل المواطنين الآخرين » .

وقد بدأت تظهر في هذه الفترة فكرة نفع اليهود . وقد عبّر الكاتب الإنجليزي أديسون ، محرر مجلة الإمبركاتور ، عن هذا الجانب من المفهوم بشكل دقيق للغاية في مقال بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٧١٢ قال فيه : « إن اليهود منتشرون في جميع المناطق التجارية في العالم حتى أنهم أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالها الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة ، فهم مثل الأوتاد والمسامير في بناء شامخ . ورغم أنهم بلا قيمة في حد ذاتهم ، فإن أهميتهم مطلقة لأنهم يحفظون للهيكال كله تماسكه » . وما يهمه من اليهود كـشعب عضوي ، إذن ، هو كونهم أداة مهمة وحسب . ولذلك فهو لا يُشْنُ عليهم هجوماً ولا يُشهر بهم ، فما يهمه هو توظيف هذه الكتلة البشرية . وستتكفل عملية التوظيف هذه بتخليص أوروبا منهم بالطرق السلمية ، أي أن نموذج الشعب العضوي المنبوذ تحوّل تدريجياً ليصبح نموذج الشعب العضوي المنبوذ النافع (وهذا هو جوهر الصهيونية) . وقد طُرحت في عصر الاستنارة إشكالية مدى نفع اليهود وإمكانية إصلاحهم حتى يتسنى الاستفادة منهم .

وهكذا أصبح نموذج الشعب العضوي المنبوذ نموذجاً تفسيرياً أساسياً في الوجدان العقلي والعاطفي في الغرب بما يؤدي إليه من حلول صهيونية واضحة أو كامنة . وقد أصبح هذا النموذج ، مع

ومبرراتها : " لو كان لليهود [أي الشعب العضوي المنبوذ] دولة خاصة بهم تضمهم جميعاً في وطن واحد ، لأمكن اعتبار المشكلة اليهودية محلولة حتى بالنسبة إلى اليهود أنفسهم " . ومن ثم ، فإن النازيين لم يكونوا ضد المشاريع الاستيطانية الصهيونية التي تهدف إلى التخلص من اليهود . ولكن ، لسوء حظ ألمانيا واليهود ، لم يكن لدى ألمانيا مستعمرات في آسيا وأفريقيا (بعد إجهاض مشروعها الاستعماري على أيدي الدول الاستعمارية الأخرى) . وربما ، لو وجدت مثل هذه المستعمرات الألمانية ، لقام هتلر بكفائه المعهودة بنقل فائض أوروبا المنبوذ وانتفع منه ومن إمكانياته ، بدلاً من إبادة وحرقه . ولكن مجال ألمانيا الحيوي في أوروبا كان أهلاً بالسكان ، ولذا ، لم يكن بوسع هتلر سوى إبادة اليهود بدلاً من نقلهم (حسب منطق أوروبا العملي المادي) .

وقد لاحظ كثير من المثقفين الألمان اللوثريين أعداء النازية ذلك التّطابق بين الفكرة الغربية الخاصة بالشعب العضوي ونموذج الشعب العضوي كما عبّر عنها الصهاينة ، وقال ريتشارد كودينغوف كاليرجي ، وهو من أكبر مناهضي العنصرية ، إن القوميتين اليهودية والنازية حركتان حولتا الدنيا والمادة إلى مقولات ميتافيزيقية ، أي إلى دين ، وكلتاها تُصنّف صفة نسبية على كل القيم باستثناء القيم العرقية وعلاقات الدم والترّبة ، بحيث تختفي جميع المعايير إلا معيار العرق . ثم أشار كاليرجي إلى أن كلتا الحركتين قبلتا القول بأن ألمانيا لا يمكنها استيعاب اليهود .

وقد اختلف نموذج الشعب العضوي المنبوذ إلى حد كبير من كتابات الصهاينة والمفكرين الغربيين بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنه لا يزال النموذج الفعال الكامن في كل الكتابات والمشاريع الصهيونية . وقد ظهرت في الآونة الأخيرة فكرة الشعب المقدس بين أعضاء جماعة جوش إيمونيم . وعندهم ، كذلك ، أن هذا الشعب يعيش وحده ولا يحسب بين الأمم ، فهو شعب مقدس عضوي منبوذ . وتنبع أهمية فكرة الشعب العضوي المنبوذ من أنها تُبيّن العلاقة العضوية الكامنة بين الصهاينة وأعداء اليهود .

الغربية ، فاستصدر عام ١٩٠٥ من القوانين ما يُوقف مد الهجرة اليهودية إلى إنجلترا . ولكن وزارته وافقت في العام نفسه على مشروع شرق أفريقيا . ثم ساهم بلغور ، بعد ذلك ، في استصدار الوعد الذي سُمّي باسمه . والواقع أن كلا المشروعين يهدف إلى تخلص أوروبا من انيهود ، وذلك عن طريق الاستفادة منهم في مكان آخر .

وفي الفكر الاشتراكي الغربي ، ظهر نموذج الشعب العضوي المنبوذ في فكر فورييه وتلاميذه ، خصوصاً توسينيل وأدولف إلابزا الذي شبّه اليهود بالبكتريا القذرة التي تحمل العفن إلى أي مكان تحل فيه . ويلاحظ أن الصورة المجازية هنا عضوية ، تماماً مثل الشعب العضوي ، وهي صورة مجازية استخدمها الزعيم الصهيوني نوردو وانزعيم النازي هتلر . وقد تبنّى هؤلاء حلاً صهيونياً للمسألة اليهودية وطلبوا من اليهود أن يرحلوا إلى "بلادهم" !

وحينما ظهرت الصهيونية بين اليهود ، كان هناك تلازم أيضاً بين نموذج الشعب العضوي المنبوذ وبين الاستيطان الصهيوني . وقد تقبّل كثير من الصهاينة هذا النموذج التفسيري وأسوا عليها نظريتهم الصهيونية ، فرددوا أن اليهود طفيليون ، كريبون لا أخلاقيون ، ويجب تطبيعهم عن طريق تطويعهم من أجل خدمة المشروع الاستعماري الغربي وتوطينهم في فلسطين . وفي أوائل القرن الحالي ، كانت الزعامة الصهيونية في ألمانيا تؤكد تدني اليهود ووضاعتهم وعدم انتمائهم لإسباغ الشرعية والمقبولية على المشروع الصهيوني . ولهذا فقد قبلت المقولات الأساسية لمعاداة اليهود واستوعبتها في بناء النسق الفكري الصهيوني ذاته . وقد ظهر الفكر النازي في هذه التربة ، وهو فكر ينطلق من فكرة أن الشعب العضوي الألماني والشعب العضوي اليهودي المنبوذ يجب ألا يختلطا حتى يحتفظ كل بهويته العضوية . وقد بين ألفريد روزنبرج ، أهم مُنظري العقيدة النازية ، إبان محاكمته في نورمبرج ، أنه تبنّى رؤية بوبر حيث أعلن أن اليهود يجب يعودوا إلى أرض أسيا حتى يمكنهم (هناك فقط) العثور على جذور الدم اليهودي .

وقد وردت في قوانين نورمبرج الفقرة التالية عن الصهيونية

٥

منفي وعودة أم هجرات وانتشار؟

إحساس اليهودي الدائم بالنفي الأزلي ورغبته الثابتة في العودة - المنفي والعودة - العودة - الشنت - الدياسبورا - المنفي القسري (الجالوت أو الجولا) - المنفي الطوعي (تيفوتسوت) - شريعة الدولة هي الشريعة - تجميع المنفيين - التعجيل بالنهاية (دحيكات هاتس) - بداية الخلاص - الشنتات - السامري أو انتشار السامريين - الشنتات الحزري أو انتشار يهود الحزر - البلد الذهبي (جولدت مدين) - الدياسبورا الثانية - الخروج الثاني (أو خروج صهيون) - الدياسبورا الإسرائيلية - انتشار الجماعات اليهودية

إحساس اليهودي الدائم بالنفي الأزلي ورغبته الثابتة في العودة

The Jewish Sense of External Exile and Permanent Desire for Return

«إحساس اليهودي الدائم بالنفي ورغبته في العودة» هي عبارة تُبلور النموذج الكامن وراء كثير من الدراسات التي تتناول الجماعات اليهودية في العالم، إذ يتم رصد أعضاء الجماعات اليهودية وتحركاتهم وكأن عندهم إحساساً بالنفي الأزلي ورغبة دائمة في العودة، وكأن هذا الإحساس وهذه الرغبة هما جزء من جوهر يهودي ثابت ومن المكونات الأساسية لطبيعة اليهود البشرية.

واليهودي حسب هذا النموذج التفسيري هو غريب يتقل من مكان لآخر (ومن هنا صورة اليهودي المتجول)، الذي يحس بأنه في المنفى، ومن ثم فعنده رغبة عارمة دائمة في إنهاء حالة النفي هذه والعودة إلى «وطنه الأصلي» فلسطين. ولذا أصبحت عبارات مثل «المنفى» و«الشنتات» و«الدياسبورا» و«العودة» كلمات متواترة مألوفة في الأدبيات الخاصة باليهود واليهودية (الصهيونية والمعادية لليهود وغيرها)، وتم تطبيقها غاماً، وكأنها مجرد وصف موضوعي ومحايدين لأعضاء الجماعات اليهودية وسلوكهم.

وفي مداخل هذا الجزء والذي يليه سنقوم بتفكيك هذه المفاهيم وإعادة تركيبها في ضوء دراساتنا للتواريخ المتعينة لأعضاء الجماعات اليهودية حتى نبين ضعف المقدرة التفسيرية لمثل هذه المفاهيم. وسنتطرح اصطلاح «الانتشار» بديلاً عن «النفي والعودة» باعتباره أكثر تفسيرية.

المنفي والعودة

Exile and Return

تشير كلمة «جالوت»، أو «جولا» إلى المنفى، والمنفى القهري بالذات خارج إرتس يسرائيل أي فلسطين (مقابل المنفى الطوعي أي

«تيفوتسوت»). ولذا فهي تُترجم عادة إلى العربية بكلمة «المنفى». كما تُستخدم كلمة «دياسبورا» أي «الشنتات» للإشارة إلى الجماعات اليهودية التي تعيش مشتتة بين الشعوب الأخرى. وأحياناً تُستخدم كلمة «دياسبورا» بشكل محايد بحيث تعني «الانتشار» بوصفه ظاهرة إنسانية عادية طبيعية. ويستخدم اليهود الإصلاحيون والانماجيون المصطلح بهذا المعنى. وفي اللغة العبرية. تُستخدم كلمتا «الشنتات» و«المُهَجَّر» للإشارة إلى المكان الذي هاجر إليه اليهود أو هُجِّروا إليه. وتعني الكلمات السابقة «المنفى» و«الدياسبورا» و«الشنتات» و«المُهَجَّر» وجود أعضاء الجماعات اليهودية الموقت خارج إرتس يسرائيل (أي فلسطين) حتى تتحقق لهم الحالة الأصلية العادية والطبيعية بعودتهم إليها.

أما العودة فيُشار إليها في الاصطلاح الديني بكلمة «تشوفاه» (بمعنى التسوية أيضاً، على عكس «حزره» وهي عودة بالمنفى الدنيوي)، كما تُوجد عبارة «كيبوتس جانيوت» أي «تجميع المنفيين» (بالإنجليزية: Ingathering of the exiles) و«كيبوتس جانيوت» وتشكل عقيدة المنفى والعودة إحدى النقاط المحورية في الرؤية اليهودية إلى التاريخ والكون، وهي ترتبط، مثل كل العقائد الدينية اليهودية، بعقائد أخرى مثل عقيدة الماشيح والشعب المختار. وحسب هذه العقيدة، فإن إله اليهود حكم على شعبه المختار بالنفي والشنت في بقاع الأرض لسبب يختلف اخاخامات اليهود في تحديده. وستستمر حالة المنفى هذه إلى أن يعود الماشيح المخلص. وكالمعتاد، أحاط بهذه العقيدة ضرب من القداسة والخصوصية، فنجد أن الشعور بالنفي ليس نتيجة حتمية للنفي ذاته وإنما هو إحساس مقصور على اليهود حينما يبتعدون عن أرض الميعاد، وذلك بسبب ارتباطهم الخلوي أو العضوي بها، أي أنهم يجعلون المنفى سمة أساسية وخاصية مقصورة على ما يُسمى «التاريخ اليهودي»، ويصبح الإحساس بالغربة أمراً يفرده اليهود وحدهم.

مكان إلى مكان دون الانتماء الكامل لأي مكان (فالجماعة الوظيفية تُوجَد في المجتمع لكنها لا تصبح منه) ربما ساعد كل هذا على استمرار عقيدة المنفى والعودة ، وعلى اكتسابها هذه المركزية .

ولكن الموقف الديني التقليدي من المنفى والعودة ليس واضحاً ولا قاطعاً . فعلى سبيل المثال ، أكد الحاخامات أن محاولة العودة الفردية والفعلية ، دون انتظار مقدم الماشيخ ، هو من قبيل التجديف والهرطقة ، ومن قبيل «دحيكات هاكسس» أي «التعجيل بالنهاية» ، أو من قبيل تحدي الإرادة الإلهية . وقد عارض بعض اليهود الأرثوذكس الحركة الصهيونية بالفعل لأنها عودة مشيحية دون ماشيخ . بل إن هناك أوامر قاطعة في التلمود ألا يترك اليهودي بلده أو مناه ليعود إلى بابل ، لأن من يعيش في بابل كأنه يعيش في أرض إسرائيل . وجاء في موضع آخر : « صلوا لسلامة الدولة ، فلولا خوف الناس منها لابتلع بعضهم بعضاً » . وقد أكد أحد الحاخامات أن مبدأ أو عقيدة العودة إلى فلسطين لا تُوجَد أية إشارة إليها في كافة المحاولات التي تمت في العصور الوسطى لصياغة عقيدة يهودية . وقد نادى دعاة حركة التنوير اليهودية بأن المنفى واقع مؤلم ومؤقت يجب أن يزول عن طريق الاندماج . أما العودة إلى صهيون ، فهي مجرد فكرة روحية وليست رغبة حرفية . وقد حذفت اليهودية الإصلاحية الصلوات التي تُذكر اليهود بصهيون .

ولكن تُوجَد في اليهودية الحاخامية ، وفي التلمود ، نصوص ومواقف يُفهم منها أن هناك ضرباً من التقبل أو التأييد لفكرة إنها، المنفى والعودة . وقد ذكر بعض الحاخامات أن كل يهودي يتعين عليه أن يودّ (في قلبه) العودة إلى الأرض ، فإن لم يتمكن من العودة فعليه أن يساعد على الأقل في إرسال يهودي آخر ، أي أن كلاً من الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية كامتنتان في النسق الديني اليهودي ذي الطبيعة الجيولوجية التراكمية .

وعلى وجه العموم ، يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية قد قبلوا وجودهم في الأوطان التي كانوا يعيشون فيها ، وأن الحديث عن المنفى أصبح جزءاً من الخطاب الديني ، وأصبحت العودة تطلّعاً دينياً وتعبيراً عن حب صهيون ، أي تعبيراً عن التعلّق الديني بالأرض المقدّسة وهو تعلّق ذو طبيعة مجازية ، لا يترجم نفسه إلى عودة حرفية إلى فلسطين ، حتى وإن خلق استعداداً كامناً لذلك . ولكن ، مع بدايات العصر الحديث والحركة الإمبريالية ، وظهر الفكر الوضعي والتجريبي والنماذج المادية العلمانية المعرفية وتفسيرات العهد القديم الحلولية والحرفية ، بدأ يظهر في صفوف المسيحيين البروتستانت فكر استرجاعي قوي ترك أثراً عميقاً في

أما الفلسطينيون ، فليس من حقهم ممارسة هذه الأحاسيس السامية إن نُفروا من أرض فلسطين أو ابتعدوا عنها ، وذلك لانتفاء الصلة الحلولية أو العضوية بالأرض المقدّسة . ونجد أيضاً أن «الشخينة» (التجسيد الأنثوي للإله) قد نُفيت مع الشعب خارج الأرض المقدّسة ، ولم يبق منها إلا جزء في حائط المبكى يذرف الدموع كل عام في ذكرى خراب أو هدم الهيكل .

وقد قامت القبّالة اللوربانية ، بمنحائها الحلولي المتطرف ، بتحويل النفي إلى صورة مجازية كونية شاملة . فبعد تهشّم الأوعية (شيفرات هكليم) أصبحت كل المخلوقات في حالة تبعثر وشتات دائم وسقطت من حالة التماسك العضوي الناجم عن الحلول الإلهي في الإنسان والطبيعة . ومن ثم ، فإن النفي حالة تنسحب على الكون بأسره ، وضمن ذلك الإله ذاته الذي تبعثر وتشتت بعد هذه الواقعة الكونية . ويمكن أن تتم عملية الخلاص - خلاص الإله والكون والإنسان - بالتدرّج . وهي عملية يشارك فيها الإنسان ، ولكنها تعتمد بالدرجة الأولى على اليهود . فهم باتباعهم الوصايا الإلهية ، وتنفيذهم الأوامر والنواهي ، يمكنهم أن يساعدوا الرب والكون وسائر المخلوقات على العودة إلى حالة التكامل والتماسك الأصلية . وتحول النفي إلى حادثة كونية (في القبّالة اللوربانية) هو صدى لحادثة الصلب في المسيحية .

وقد حار المفكرون اليهود في تفسير عقيدة وظاهرة النفي هذه والتي لا تتفق مع كونهم الشعب المختار . ولذلك فُسّر النفي بأنه إحدى علامات التميّز والاختيار . فاليهود الذين تقطن الشخينة في وسطهم ، والذين يقطنون بدورهم وسط الأغيار ، لا يحملون أوزارهم وحدهم وإنما يحملون أيضاً أوزار الأمم كافة . ولذلك ، فإنهم بمثابة المشاء (جمع «ماشيح») المصلوبين من أجل البشر ، وهم بمثابة الروح التي تُوجَد في المادة . وبالتالي ، فإن نفهم تمهيد لخلاص البشر . وهكذا يصبح النفي عقوبة على الذنوب وعلامة من علامات التميّز في آن واحد . وحينما يحلّ اليوم الموعود ، سيأتي الماشيخ ويقود شعبه ويعود به إلى الأرض المقدّسة . ولكن بعض الحاخامات ذهبوا إلى أن المنفى والشتات عقاب حلّ على اليهود بسبب تركهم طرُق الرب وبسبب تأخرهم . ويذهب المسيحيون إلى أن الشتات عقاب لليهود على إنكارهم المسيح عيسى بن مريم .

وقد تركت عقيدة النفي أثرها العميق على الوجدان اليهودي ، فقد أضعفت إحساس اليهود بالزمان والمكان ، وأضفت طابعاً مؤقتاً على كل شيء . وربما ساعد اضطلاح اليهود بدور الجماعة الوظيفية واشتغالهم المستمر بالتجارة والأعمال المالية والربا ، وانتقالهم من

المصطلح . ويدو أن الولايات المتحدة تشكل تحدياً عميقاً لفكرة المنقى ، إذ أنها تشكل نقطة جذب هائلة للغالبية الساحقة من يهود العالم . وقد اتجهت لها الكتلة البشرية اليهودية من شرق أوروبا (يهود اليديشية) وغيرها من أنحاء العالم . ولم تنج سوى أقلية صغيرة إلى فلسطين ، لأن أبواب الولايات المتحدة كانت موصدة دونها . وقد بدأ يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى إسرائيل لا باعتبارها وطناً قومياً ، وإنما باعتبارها «الوطن الأصلي» أو «مقسط الرأس» ، تماماً كما ينظر الأمريكيون من أصل أيرلندي إلى أيرلندا . ولكن هذه النظرة تفترض أن الولايات المتحدة ليست بمنقى وإنما البلد التي يهاجر إليها أعضاء الجماعات اليهودية بحض إرادتهم . بحثاً عن فرص جديدة . وإن كانت الولايات المتحدة ليست هي أرض الميعاد التي تُحقّق أحلامهم الدينية - وهي أحلام أصابها الضمور على أية حال - فهي على الأقل «جودن مدينا» أي البلد الذهبي التي حققت لهم معظم أحلامهم الدنيوية . وهذه الرؤية تعني أن يهود الولايات المتحدة لا يعتبرون بلدهم الجديد منقى . وبالتالي ، نجد أن كتاب هوارد ساخار الأخير الذي صدر بعنوان «الدياسبورا لا يضم فصولاً عن الولايات المتحدة» ، وذلك باعتبار أنها وطن قومي جديد . كما تعني هذه الرؤية أن يهود الولايات المتحدة لا يفكرون أيضاً في العودة لأن العودة لا تكون إلا إلى الوطن الأصلي . بل إن من الطريف أن أحادام مناحه شنيرسون وحاخامات جماعة الناطوري كارتا (المعادية للصهيونية) يعتبرون دولة إسرائيل جزءاً من المنقى .

أما في إسرائيل ، فقد ظهر جيل جديد من النصارى لا يفهم سيكولوجيا يهود المنقى ، وإن فهمه فهو لا يكتف بها احتراماً كبيراً . وهذا الانقسام بين يهود العالم ويهود إسرائيل من النصارى وغيرهم يمثل مشكلة ضخمة تواجه الفكر الصهيوني . بل يبدو أن الولايات المتحدة بجاذبيتها تهدد المستوطن الصهيوني ذاته ، إذ أن أعداداً كبيرة من المستوطنين ، وضمن ذلك النصارى المهاجرين إلى الولايات المتحدة فيترككون الوطن إلى المنقى ! ويُطلق على المهاجرين الإسرائيليين إلى الولايات المتحدة «الدياسبورا الإسرائيلية» .

وينطلق الصهاينة من افتراض وحدة الشعب اليهودي وضرورة تجميع المنفيين وصهرهم ومزجهم في شخصية مغطية واحدة (برغم تعدد خلفياتهم الثقافية والخضارية) حتى يُشعروا من كل أمراض المنفى . ولكن ، كلمات مزج أو صهر مجموعة من المهاجرين ، تأتي مجموعة جديدة من المنقى فيستعيد من انصهر كثيراً من السمات الخضارية التي كان قد فقدوها إما من خلال الالتحام بالمهاجرين الجدد ، إن كانوا من بني جلدتهم ، أو من خلال مجابهتهم إن كانوا

الجماعات اليهودية في أوروبا ، وبدأت تظهر حركات مشيحية تهدف إلى تحويل فكرة العودة من تطلع ديني مجازي إلى عودة فعلية ، أي إلى استيطان . وقد تدعمت الفكرة مع ظهور الفكر القومي الغربي والتعريفات العرقية للإنسان . ومع تصاعد الحركة الإمبريالية ، بدأت الأفكار الصهيونية تغلغل بين اليهود ، خصوصاً وأن هذا قد تزامن مع ضعف اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية التي تقبلت المنقى كحالة نهائية . وأخيراً ، ظهرت الصهيونية بين اليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأخذت من التراث الديني اليهودي ما يتفق مع أهوائها السياسية ، واستولت على الخطاب الديني ، وحوّلت كل المفاهيم الدينية المجازية إلى مفاهيم قومية حرفية .

وطلحت الصهيونية رؤية للتاريخ تصدّر عن تصور أن اليهود في حالة نفي قسرية فعلية منذ هدم الهيكل ، وأنهم لو تركوا وشأنهم لعادوا إلى فلسطين بدون تردد . بل إن التواريخ الصهيونية ترى أن ثمة خطأ متكرراً فيما يُسمى «التاريخ اليهودي» : نفي من فلسطين ثم عودة إليها ، ونفي إلى مصر ثم عودة إلى فلسطين ، ونفي إلى بابل ثم عودة إلى فلسطين ، وأخيراً نفي إلى أرجاء العالم بأسره ثم عودة نهائية إلى إسرائيل ، أي فلسطين .

إن إحدى مقولات الصهيونية الأساسية هي أن وجود اليهود على هيئة جماعات في أنحاء العالم هو حالة مؤقتة ، وأن هذا الوجود إن هو إلا جسر يُعبّر عليه الشعب اليهودي إلى فلسطين . ومن دعاة هذا الرأي بن جوريون ويمثلو الصهيونية الاستيطانية . ولكن ليس كل الصهاينة على هذا الرأي . فالصهيونية الإثنية ، على سبيل المثال ، ترى أن وجود الجماعات اليهودية خارج فلسطين ليس أمراً مؤقتاً وإنما حقيقة ثابتة ، وأن هذه الجماعات لا تحتاج إلى إسرائيل موطناً ، وإنما تحتاج إليها كمركز روحي لا كبلد يهاجر إليه جميع اليهود ، فالنفي هنا حالة ثقافية ومن ثم يتم علاجه بطرق ثقافية أيضاً !

وبعد إنشاء إسرائيل ، لم يهرع اليهود إلى أرض الميعاد ، ولم يتم تجميع المنفيين كما كان يتوقع الصهاينة ، وهو ما اضطر بن جوريون إلى ابتداء مصطلح «منفيو الروح» ليصف اليهود الذين يحيون حياة جسدية مريحة في المنقى ، ولكنهم بلا شك معذبو الروح . وهو بهذا يتبنى الصيغة الصهيونية الثقافية . ولكن الملاحظ أن منفيي الروح هم الأغلبية العظمى بين يهود العالم ، أي أن اليهودية حتى بعد إنشاء الدولة الصهيونية لا تزال يهودية الدياسبورا . ولذلك فالجالوت ، أو «المنقى القسري» أصبح يُسمى «تيفوتسوت» ، أو «المنقى الاختياري» ، وهذا تناقض عميق في

الموجود خارج فلسطين أو «إرتس يسرائيل» أو «صهيون» (في المصطلح الديني) أو «الوطن القومي» (في المصطلح السياسي) موجود خارج وطنه رغم أنه، وبالتالي فهو في المنفى. وتُميز هذه الكتابات بين المنفى الاختياري والمنفى القسري. ويتجلى ذلك في العبرية على وجه الخصوص إذ توجد كلمة «جولا» بمعنى المنفى القسري، كما حدث لليهود المملكة الجنوبية حينما هُجروا إلى بابل. وتوجد كلمة «تيفوتسوت» بمعنى «المنفى الاختياري أو الطوعي»، وهي تشير إلى اليهودي الذي يترك فلسطين بحض إرادته ليستوطن بلداً آخر، وإلى الجماعات اليهودية التي ترفض العودة إلى فلسطين رغم وجود سلطة سياسية يهودية مستقلة أو سلطة شبه مستقلة، كما حدث لليهود بابل أيضاً بعد عودة نحميا وعزرا، وكما هو حادث لليهود العالم الغربي بل ويهود العالم بأسره الآن.

وقد ظهر استخدام جديد لكلمة «دياسبورا». فكثير من يهود الولايات المتحدة يرفضون استخدام الكلمة بمعنى «المنفى المؤقت»، فالولايات المتحدة أو كندا هي وطنهم النهائي وليس المؤقت. ولذا، ففي كتاب هوارد ساخار الأخير (الدياسبورا عام ١٩٨٥) لا توجد أية إشارة إلى الجماعات اليهودية في إسرائيل أو أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة أو كندا) باعتبار أنهما لا يشكلان «منفى»، وبالتالي لا يمكن الحديث عنهما باعتبارهما دياسبورا. فكان كلمة «دياسبورا» تستبعد كلاً من فلسطين والولايات المتحدة وكندا! ونحن نفضل في هذه الموسوعة أن نشير إلى «الجماعات اليهودية في العالم وانتشارها فيه» باعتبار أن استخدام كلمة «منفى»، أو حتى كلمة «دياسبورا»، يفترض علاقة قومية ما بين أعضاء هذه الجماعات وفلسطين، وهو ما تدحضه قراءة سلوكهم وأحداث التاريخ قراءة متأنية.

والواقع أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم قد يرتبطون عاطفياً أو دينياً بإسرائيل (فلسطين)، ولكن حياتهم ككل تكون في العادة أكثر تركباً، ومحاولة تفسير جميع تجاربهم التاريخية (المتنوعة وغير المتجانسة) في ضوء عنصر واحد، هو أمر تعسفي يسقط في الأحادية ويتجاهل منحنى الظواهر الخاص ويختزلها كلها داخل نمط واحد.

وقد نحت آرثر كوستلر مصطلح «الدياسبورا الخزرية»، كما ظهر مؤخراً مصطلح «الدياسبورا الإسرائيلية». وقد استخدم من قبل مصطلح «الدياسبورا السامرية». انظر: «المنفى والعودة» - «العودة» - «الشتات».

من تجمع قومي آخر، أي أن جميع المنفيين يتعارض بشكل حاد مع مزيجهم وصهرهم. وتظهر هذه المشكلة في موقف جماعات السفارد واليهود الشرقيين من المهاجرين الأشكناز واليهود الغربيين وخصوصاً السوفيت.

ونحن لا نستخدم كلمات ذات طابع عاطفي عقائدي متحيز، مثل «المنفى» أو «الشتات»، إلا إذا تطلب السياق ذلك، ونستخدم بدلاً من ذلك مصطلحات محايدة فنقول: الجماعات اليهودية في العالم وانتشارها فيه.

العودة

Return

تشير كلمة «العودة» في الأدبيات اليهودية والصهيونية إلى عودة اليهود إلى فلسطين، أي «إرتس يسرائيل» أو «صهيون» أو «أرض الميعاد» بعد نفهم منها. وقد تكون العودة تحت قيادة الماشيخ، وقد يقوم بها اليهودي بإرادته، دون انتظار مشيئة الإله. انظر: «المنفى والعودة».

الشتات

Dispersion; Diaspora; Exile

«الشتات» مصطلح يُستخدم أحياناً للإشارة إلى «المنفى» أو «الدياسبورا».

الدياسبورا

Diaspora

«دياسبورا» كلمة يونانية تعني «الشتات» أو «الانتشار». وقد كانت الدياسبورا غمطاً شائعاً في العالم الهيليني الروماني، فلم يكن مقصوداً على اليهود بل كانت هناك جماعات من التجار اليونانيين الذين يؤسسون جماعاتهم ومجتمعاتهم الصغيرة في المدن التي يستقرون فيها، فكانوا يبنون فيها معابدهم ويعبدون آلهتهم، ويمارسون جميع مؤسسات حياتهم الهلينية الأخرى مثل الجيمنازيوم. كما أن المدن اليونانية المختلفة خارج بلاد اليونان، سكانها من المستوطنين اليونانيين، كانت تشكل دياسبورا. وبرغم أن الكلمة محايدة إلى حد كبير، لأن الانتشار تم بإرادة المنتشرين، إلا أنها في نهاية الأمر تعني تشتتاً من مركز ما، والمركز في العقل الإنساني أفضل من الأطراف. أما في الكتابات اليهودية والصهيونية، فهي تحمل معنى سلبياً أكيداً، باعتبار أن اليهودي

المنفى القسري (الجالوت أو الجولا)

Galut

اليهودية على التكيف مع محيطهم الحضاري والاندماج فيه ، وهو الأمر الذي هبأ البقاء لليهود والاستمرار لليهودية . وقد استُخدمت هذه المقولة أحياناً لتقويض دعائم الشريعة اليهودية ، كما حدث مع دعاة التنوير الذين آمنوا بالنظرية السياسية الغربية التي حوّلت الدولة إلى مُطلق ، فاستخدموا هذه المقولة لهدم سلطة الدين . ومعنى هذا أنهم ولّدوا الفكر العلماني الإلحادي من داخل النسق الديني ذاته .

تجميع المنفيين

Ingathering of the Exiles

«تجميع المنفيين» ترجمة للعبارة العبرية «كيبوتس جاليوت» . وهو مصطلح ديني تبنته الصهيونية يشير إلى فكرة عودة كل أعضاء الجماعات اليهودية المنفيين أو المشردين في أنحاء العالم إلى فلسطين وتجميعهم هناك . لكن تجميع المنفيين (حسب التصور اليهودي الأرثوذكسي التقليدي) هو مثل أعلى ديني لا يتحقق إلا بعد عودة الماشيخ كما لا يتحقق إلا بزيادة الإله . وعلى المؤمن أن ينتظر بصبر وأناة إلى أن يأذن الإله بذلك . ولكن الصهيونية . كعادتها . فهمت الفكرة فهماً حرفياً وجعلت أساس عقيدتها السياسية . وجعلت من واجب اليهودي ألا ينتظر الإرادة الإلهية بل يعمل من أجل هذا الهدف بنفسه ، وهو ما يُسمى «التعجيل بالنهاية» . وأصبحت العبارة تعني استيطان اليهود في فلسطين (إسرائيل) . ورغم كل المحاولات الصهيونية الدائبة . لم يتحقق هذا الهدف حتى الآن ، إذ تظل غالبية من يُقال لهم منفيين من أعضاء الشعب اليهودي لا تشعر بحالة النفي الافتراضية . ومن ثم ، فإنهم يؤثرون البقاء في أوطانهم على العودة إلى أرض الميعاد .

التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس)

Forcing the End (Dahikat ha-Ketz)

«التعجيل بالنهاية» ترجمة للعبارة العبرية «دحيكات هاكتس» ، ومعناها «الضغط على الإله لإجبار الماشيخ على المجيء» ، ويُشار إلى المُعجّلين بالنهاية على أنهم «دوحاكي هاكتس» . فاليهودية الخاخامية ، في أحد جوانبها . تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الإله وبالطريقة التي يقررها ، وأن العودة ليست فعلاً يحدث بمشيئة البشر . وقد جاء في التلمود (سفر الكتب) : «لا تودعوا ولا تحاولوا أن تُرغموا الإله» .

وقد اتهم الخاخامات الصهيونية بأنها تسعى إلى التعجيل بالنهاية وتُحدّي مشيئة الإله . والصهيونية ذاتها واعية بأن موقفها من

«المنفى القسري» ترجمة للكلمة العبرية «الجالوت» أو «الجولا» ، وهي مقابل كلمة «تيفوتسوت» أو «المنفى الطوعي» . وكلمة «جالوت» ترجمة عبرية غير دقيقة لكلمة «دياسبورا» ذات المعنى المحايد إلى حدٍّ ما ، فهي تعني كلاً من التشتت والانتشار . والانتشار يمكن أن يكون تلقائياً ويمكن كذلك أن يكون إرادياً ، أما «الجالوت» فليس كذلك بل حالة يخضع لها الإنسان وتُفرض عليه فرضاً .

المنفى الطوعي (تيفوتسوت)

Tefuzot

المنفى الطوعي» ترجمة للكلمة العبرية «تيفوتسوت» المشتقة من فعل «هفّيتس» ، بمعنى «نثر» أو «بعثر» أو «فرّق» ، وهي مقابل كلمة «جالوت» ، أي «المنفى القسري» ، وهما المقابل العبري غير الدقيق لكلمة «دياسبورا» اليونانية . فكلمة «دياسبورا» محايدة نوعاً ، وتصف واقعاً قائماً ، أي انتشار بعض الجماعات اليونانية خارج اليونان في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهو انتشار لم يتم قسراً . أما «تيفوتسوت» و«الجالوت» فهما يُدخلان في الاعتبار عنصر الإرادة والحالة العقلية . وعلى أية حال ، فإن كلمة «تيفوتسوت» أقرب في المعنى إلى كلمة «دياسبورا» .

شريعة الدولة هي الشريعة

Dina de Malkuta dina

«شريعة الدولة هي الشريعة» هي الترجمة العربية للعبارة الأرامية الآتية : «دينا دي ملكوتا دينا» . وهي من أهم المبادئ في تاريخ الشريعة اليهودية . وقد ظهر المفهوم ، أول ما ظهر ، خارج فلسطين في صفوف الجماعة اليهودية في بابل أثناء حكم الأسرة الساسانية الفارسية ، إذ أن وضع الجماعة اليهودية تطلّب توضيح قضية نطاق الشريعة اليهودية مقابل نطاق قانون أو شريعة الدولة ، والعبارة في نهاية الأمر هي محاولة لحل قضية الولاء وازدواجه . وقد قلّصت عبارة «شريعة الدولة هي الشريعة» نطاق تطبيق شريعة التوراة ، إذ أنها تتضمن اعترافاً بالقانون المدني غير اليهودي ، كما تعترف بأنه يحل محل الشريعة الدينية في الأمور الدنيوية ، وهو ما يعني وجوب اتباع شريعة الدولة حتى لو تناقضت مع الشريعة اليهودية . ولم يكن هذا المبدأ ينطبق بطبيعة الحال على الطقوس والشعائر الدينية . وينمّ بُني هذا المبدأ عن مقدرة أعضاء الجماعات

بولندا ابتداءً من القرن الثاني عشر لا يعود إلى هجرة يهود أوروبا إليها أثناء حروب الفرنجة ، كما تقول معظم الدراسات التاريخية ، وإنما يعود إلى الشتات الخزري واستيطان بقايا يهود الخزر فيها . ولو صدقت هذه المقولة ، فإن أصل معظم يهود العالم خزري تركي وليس سامياً . وعلى كل ، لم تعد هذه نقطة مهمة في الأدبيات الصهيونية ، باعتبار أن الصهاينة يؤسسون نظريتهم في الحقوق لا على أساس عرقي وإنما على أساس إثني وعلى أساس الأمر الواقع ، الإرهاب والقوة .

البلد الذهبي (جولدن مدينا)

Golden Medina

«جولدن مدينا» عبارة يديشية تعني «البلد الذهبي» ، وكان يستخدمها المهاجرون اليهود من شرق أوروبا (يهود اليديشية) للإشارة إلى الولايات المتحدة .

ويعني من المعاني ، لا تزال الولايات المتحدة هي «الجولدن مدينا» أو البلد الذهبي التي يتجه إليها يهود العالم ، ومنهم الإسرائيليون ، بدلاً من أرض الميعاد ، وهذا ما حدا ببعض للإشارة إليها بأنها الـ «جولدن كاف golden calf» أي «العجل الذهبي» . والجولدن مدينا هي أرض الميعاد العلمانية ، التي لا تعد أحداً بالخلاص الروحي ، ولكنها تعد الجميع بخلاص الجسد من خلال السلع والترفيه والراحة . ولعل تصاعد معدلات العلمنة بين يهود العالم هو الذي يجعلهم يتجهون بهذه الصورة إلى الولايات المتحدة . وقد أثبت المهاجرون السوفييت أن ولاءهم الحقيقي يتجه نحو صهيون العلمانية هذه ، وأن دولة إسرائيل إن هي إلا مبيت مؤقت ينتظرون فيه وصول الإشارة على هيئة تأشيرة هجرة إلى الولايات المتحدة .

الدياسبورا الثانية

Second Diaspora

«الدياسبورا الثانية» مصطلح يتواتر في الخطاب الصهيوني للإشارة إلى هجرة اليهود السوفييت إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل ، باعتبار أنهم ينتقلون من دياسبورا أولى (الاتحاد السوفيتي) إلى دياسبورا ثانية (الولايات المتحدة) . وقد قال أحد المتحدثين الصهاينة إن اليهود السوفييت حوّلوا الوكالة اليهودية والدولة الصهيونية إلى ما يشبه شركة رحلات سياحية متخصصة في نقل المسافرين اليهود السوفييت من منفى إلى آخر .

العودة مختلف عن الموقف الديني التقليدي الذي انتقده بن جوريون ووصفه بالسلبية والانتكالية .

بداية الخلاص

Beginning of Redemption

«بداية الخلاص» ترجمة للعبارة العبرية «احتالات جنولاه» . وهي محاولة تستهدف تجاوز المفهوم التلمودي الذي يحرم على اليهود العودة إلى أرض الميعاد ، ويفرض عليهم انتظار وصول الماشيح بمشيئة الإله . وقد وُصف من يحاول أن يأخذ الأمور في يديه بأنه يستعجل النهاية (دو حاكمي هاتسر) . وقد كانت متتالية الخلاص كما يلي : نفى - انتظار - عودة الماشيح - عودة اليهود معه أو تحت قيادته .

ولكن ، بعد صهيئة اليهودية ، بدأت قطاعات داخل اليهودية الأرثوذكسية ذاتها تحاول أن تصل إلى تقاضهم مع الصهيونية ، فعدلت المتتالية إلى ما يلي : نفى - عودة بعض اليهود للإعداد للخلاص - عودة الماشيح - عودة اليهود . وبالتالي ، فإن الاستيطان الصهيوني يصبح من قبيل العودة للإعداد لعودة الماشيح ، وتصبح الدولة الصهيونية بداية الخلاص ، أي أن عودة الماشيح تصبح نتيجة عودة اليهود لا سبباً لها . وهذا تكرار للنمط الحلولي الذي نلاحظه في اليهودية : توازي الإله والإنسان ثم تفوق الإنسان على الإله في الأهمية .

الشتات السامري أو انتشار السامريين

Samaritan Diaspora

يُشار إلى «الشتات السامري» أحياناً بمصطلح «الدياسبورا السامرية» . ويتمثل الشتات السامري في واقعة هجرة بعض السامريين من فلسطين وانتشارهم في مدن وبلد مختلفة واستيطانهم فيها بشكل نهائي ودائم ، ثم تأسيس جماعات سامرية مختلفة ، وقد تأسست جماعات سامرية في كل من : سالونيك وروما وحلب ودمشق وغزة وعسقلان ومصر . وقد بدأ انتشار السامريين من فلسطين مع الفتح اليوناني للمنطقة في عام ٣٢٣ ق . م .

الشتات الخزري أو انتشار يهود الخزر

Khazar Diaspora

«الشتات الخزري» عبارة تُستخدم للإشارة إلى شتات أو هجرة سكان إمبراطورية الخزر اليهودية منها بعد سقوطها إلى أماكن متفرقة من أحدها المنجر ثم بولندا . وثمة نظرية تذهب إلى أن تزايد عدد يهود

الخروج الثاني (أو خروج صهيون)

Second Exodus (or Exodus of Zion)

«الخروج الثاني» مصطلح يُستخدم للإشارة إلى عدة مدلولات متناقضة . والخروج الأول هو ، في العادة ، الخروج من مصر إلى أرض كنعان ، أي فلسطين . أما مصطلح «الخروج الثاني» ، فيُستخدم للإشارة إلى هجرة الصهاينة من بلادهم واستيطانهم فلسطين ، فهو خروج للتحرر من العبودية عن طريق الاستيلاء على الأرض الفلسطينية ، وهو يشبه خروج جماعة إسرائيل من مصر تحت قيادة موسى واستيلاءهم على أرض كنعان ، بل إن هذا الخروج الثاني يعد أهم من الأول إذ أنه خروج نهائي وأخير .

ويُستخدم المصطلح مؤخراً للإشارة إلى نزوح كبير من المستوطنين الصهاينة من إسرائيل ، فكان خروجهم الأول كان من أوطانهم الأصلية أما خروجهم الثاني فهو من المُستوطن الصهيوني . كما تتحدث الصحف الإسرائيلية عن «خروج صهيون» ، أي خروج اليهود من وطنهم القومي .

الدياسبورا الإسرائيلية

Israeli Diaspora

«الدياسبورا الإسرائيلية» عبارة تُستخدم للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة الذين ينزحون عن إسرائيل ويستوطنون خارجها ، في الولايات المتحدة عادةً . وهذا المصطلح ينطوي على تناقض عميق . فكلمة «دياسبورا» تشير عادةً إلى اليهود الموجودين خارج فلسطين برغم إرادتهم ، ولذا فهم «منفيون» . ولكن أن تكون الدياسبورا إسرائيلية ، أي مجموعة بشرية يهودية كانت تقطن في أرض الميعاد ذاتها ، في ظل الكومنولث اليهودي الثالث أي الدولة الصهيونية ، وتقرر بكامل إرادتها أن تهاجر (بحسب الرزق والحراك الاجتماعي غالباً) ، فهذا أمر صعب ، إذ كيف يمكن الحديث عن «دياسبورا» أو عن «منفى» إذا لم يكن هناك قسر؟ ويمكن أن نقول

(لذلك) إن كلمة «دياسبورا» مُستخدمة هنا بمعناها المحايد أي مجرد الانتشار .

والواقع أن الدياسبورا الإسرائيلية تتحدى نظامنا التصنيفي . فالمهاجرون الإسرائيليون ليسوا صهاينة استيطانيين بطبيعة الحال ، إذ أنهم تخلّوا عن المشروع الصهيوني . كما أنهم ليسوا بصهاينة توطينيين ، إذ ليس من المُحتمل أن يقوموا بتشجيع الآخرين على الاستيطان . ومجرد وجودهم في البلد المضيف (جولدن ميدان) ، أي الولايات المتحدة ، يقف دليلاً على عدم جاذبية الدولة الصهيونية . وهم يسببون كثيراً من الخرج ليهود الولايات المتحدة وللصهاينة التوطينيين حين يُطرح هذا السؤال : هل من الواجب إغاثة هؤلاء اللاجئين باعتبارهم «يهوداً» أم يجب مقاضتهم باعتبارهم مرتدين أو هابطين تركوا أرض الميعاد ونكصوا على أعقابهم ؟

ويبلغ عدد أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة حوالي ٥٠٠ ألف حسب التقديرات الرسمية . وحسب التقديرات غير الرسمية ، يبلغ العدد ٧٥٠ ألفاً ، ولكنه يبلغ مليوناً إن حسبنا أبناء المهاجرين . وقد أشارت إحدى الصحف الإسرائيلية إلى هذه الظاهرة باعتبارها «خروج صهيون» . كما ذكرت صحيفة أخرى للإسرائيليين أن عدد سكان الدولة الصهيونية (عند إنشائها في عام ١٩٤٨) كان لا يتجاوز ٧٠٠ ألف . أي أقل من عدد المهاجرين منها ، وهو ما يُقدها كثيراً من الشرعة .

انتشار الجماعات اليهودية

Diffusion of the Jewish Communities

نحاول في هذه الموسوعة أن نستخدم الكلمة المحايدة «انتشار» (وأحياناً «هجرة» أو «تهجير») بدلاً من العبارات الشائعة مثل «المنفى» و«الدياسبورا» و«نشأت» و«الهجرة» ، فهي جميعاً مصطلحات وعبارات إما مُستقاة مباشرة من المعجم الديني اليهودي أو متأثرة به ، فمقدّرتها التفسيرية والتصنيفية والنوصفية ضعيفة .



٦

هجرات وانتشار أعضاء الجماعات اليهودية

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية : مقدمة - الهجرات أعضاء الجماعات اليهودية حتى بداية العصر الحديث - هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث - انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وعلاقتهم بفلسطين - الدياسورا الدائمة - الدياسورا الإلكترونية

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية : مقدمة

Migrations of Members of Jewish Communities :
Introduction

يُلاحظ أننا في هذه الموسوعة لا نستخدم مصطلح «الهجرة اليهودية» قدر استطاعتنا وإنما نستخدم بدلاً من ذلك مصطلح «هجرة أعضاء الجماعات اليهودية» ، فالمصطلح الأول يعني أن ثمة حركات مستقلة ذات طابع يهودي هي التي تحكم عملية الهجرة وتدفعها . ونحن نذهب إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة خاضعون لحركات جذب وطرد لا تختلف كثيراً عما يخضع له سائر أعضاء المجتمع الذي يتبعون إليه . كما أننا نستخدم مصطلح «انتشار» لنصف ظاهرة هجرة أعضاء الجماعات واستقرارهم في أرجاء المعمورة . ويُلاحظ أننا نُميّز بين الاستقرار والاستيطان ، فالأول لا ينطوي على أي عنف أو اغتصاب أرض ، أما الثاني فهو على عكس ذلك .

وتذهب التواريخ الصهيونية والمعادية لليهود إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية لا يستقرون في وطن واحد ، فهم دائمو التنقل والترحال والهجرة (وهذا تعبير عن إحساسهم الأزلي بالنفي ورغبتهم الثابتة في العودة إلى أرض الميعاد !) . وتُجرّد التواريخ الصهيونية هذه السمة وتعتبرها ، مثلها مثل سمات أخرى كالهامشية والطفيلية ، سمة مُطلقة تصف بها «الهوية اليهودية» وما يُسمى «التاريخ اليهودي» . ولكننا نرى أنه لا توجد «هوية يهودية» واحدة أو «تاريخ يهودي» وإنما هناك هويات يهودية وتواريخ يهودية (أو تجارب تاريخية) للجماعات اليهودية تختلف باختلاف الزمان والمكان . وإذا درسنا هذه التجارب في سياقها المتعين ، فسوف نكتشف أن الهجرة ليست سمة مُطلقة ولا تنطبق على اليهود أينما وجدوا . فالجماعة اليهودية في إثيوبيا والمساكن بالفلاشا مكثت مئات السنين في موطنها لا تتحرك منه ولا تغادره ، ولم تهجر إلا في الثمانينيات حينما قامت الدولة الصهيونية بتهجير أعضائها في ظروف المجاعة في أفريقيا لتحز انتصاراً مذهيباً أمام يهود العالم ،

ولتظهر مرة أخرى بمظهر الدولة التي "تنقذ" اليهود . كما أن يهود بابل ظلوا في موطنهم منذ الألف الأول قبل الميلاد حتى عام ١٩٥١ ، حينما قام العملاء الصهاينة المتخفون بإلقاء المتفجرات عليهم ليشوا الرعب في قلوبهم ولإيهامهم بأن حياتهم تحفها المخاطر . أما اليهود الذين هُجروا إلى آشور (أسباط إسرائيل العشرة المفقودة) ، فيبدو أنهم انصهروا تماماً واختفوا . وفي الوقت الحاضر ، فإن خروج يهود الاتحاد السوفيتي هو نتيجة حركات داخلية خاصة بالمجتمع السوفيتي ولانهيار المنظومات الاشتراكية . ومع هذا ، توجد جماعات إنسانية تنتقل بشكل دائم وتنقل من مكان لآخر ، ويعود هذا التنقل إلى ظاهرة إنسانية لها آلياتها وحركاتها التاريخية والإنسانية المفهومة .

وقد قضت القبائل التركية مئات السنين في التجوال ، وكان من بينها قبيلة الخزر التي تهوّد أعضاؤها فيما بعد . ويمكن الإشارة كذلك إلى المغول وحروب الفرنجة ، وإلى هجرة قبائل الهون الذين تُمثّل غزواتهم جزءاً من عمليات التنقل التي تعود إلى أسباب اقتصادية وسكانية وحضارية مختلفة . وفي العصر الحديث ، يمكن الإشارة إلى هجرة الأرمن والأيرلنديين ومجموعات بشرية أخرى هاجرت من أوروبا إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلدان لعدة أسباب مركبة .

ويُلاحظ أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية ينتقلون ويهاجرون لأنهم أعضاء في جماعات وظيفية ، قتالية أو استيطانية أو تجارية . ولهذا السبب ، انتقل بعض الجنود العبرانيين إلى مصر ليعملوا كمرتزقة ، كما وطّن السلوقيون والرومان اليهود كعنصر استيطاني في بعض أرجاء إمبراطورياتهما . ومع حلول العصور الوسطى في الغرب ، خضع أعضاء الجماعات اليهودية لعمليات من الطرد والتهجير والتوطين كجماعة وظيفية بسيطة مرتبطة بحرفتي التجارة والربا . فالجماعة الوسيطة لا جذور لها في المجتمع ، تعيش في مسامه ، وهي دائماً على استعداد للرحيل لأن المجتمع يبقّيها بمقدار نفعها وبمقدار اضطلاعها بوظيفتها . ولذا ، فإن أعضاء الجماعة الوسيطة دائمو التنقل ، لا يشتغلون بالأعمال الزراعية ولا

ونصف المليون . وكانت هجرة الأيرلنديين أكثر من هجرة اليهود كما أنها كانت محكومة . وبلغت نسبة اليهود الذين يرجعون إلى بلادهم الأصلية ٨٪ ، أما نسبة الأيرلنديين العائدين فكانت لا تزيد على ٧٪ . ويلاحظ أن الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة كانت تضم في الأساس عناصر إشكنازية .

وقد كانت الهجرة اليهودية تأخذ في الماضي شكل التهجير من المناطق المتقدمة إلى المناطق الأقل تقدماً : من الشرق القديم إلى أوروبا التي كانت من أكثر مناطق العالم تخلفاً . وفي أوروبا نفسها ، أخذت الهجرة في العصور الوسطى شكل التحرك من إنجلترا وفرنسا إلى ألمانيا ومنها إلى شرق أوروبا أكثر المناطق تخلفاً . وابتداءً من القرن السابع عشر ، أخذت الهجرة شكلاً مغايراً وهو الهجرة من الأماكن الأقل تقدماً إلى الأماكن الأكثر تقدماً : من شرق أوروبا إلى وسطها وإلى إنجلترا والولايات المتحدة . وإذا كان هذا هو غط الهجرة ، فإن الولايات المتحدة تصبح منطيقاً نقطة الجذب المطلق ، وهذا هو الوضع القائم حتى الوقت الحالي .

ويلاحظ أن العنصر المشترك في كلتا الهجرتين (من البلاد المتقدمة إلى المتخلفة والعكس) هو أن اليهود كانوا عنصراً استيطانياً ريادياً يبحث عن الفرص الجديدة للاستثمار وأخيراً . وحينما كانت الفرصة موجودة في المناطق المتخلفة ، كنت الهجرة تتجه نحوها . ولكن ، مع الثورة الشجرية ، تغير الوضع تماماً وأصبح البحث عن الفرص الاقتصادية يدور في الدول الاستيطانية المتقدمة . ويلاحظ أن هجرة اليهود قلم كانت تتجه إلى فلسطين .

وهنا لابد من التفرقة بين الهجرة والاستعمار الاستيطاني . فالهجرة من بلد إلى آخر تعني قبول أهل البلد الجديد للقادمين نظراً للحاجة إليهم ، وهي تنتهي باستقرار المهاجر في بلده الجديد . ولكن إذا قُرض القادمون الجدد أنفسهم عن طريق العنف ، فإن من الصعب أن نسمي ذلك «هجرة» . والواقع أننا يمكن أن نتحدث عن هجرة الأيرلنديين إلى الولايات المتحدة واستقرارهم فيها بعد أن استوطنها الإنسان الأبيض وأباد سكانها الأصليين ، حيث لم تُعد هناك حاجة إلى العنف من جانب المهاجرين الجدد بعد أن تولى المستوطنون الأوائل هذه المهمة نيابة عنهم . أما في جنوب أفريقيا (حتى وقت قريب) وفي فلسطين ، فإن الوضع جد مختلف ، ذلك أن السكان الأصليين لا يزالون مستمرين في المقاومة ، وهو ما يجعل العنف ضدهم ضرورياً . وعلى هذا ، فيمكن الحديث عن استيطان الهولنديين في جنوب أفريقيا والصهاينة في فلسطين ، أو عن هجرتهم للاستيطان أو هجرتهم الاستيطانية .

ويلاحظ أن كثيراً من المهاجرين اليهود تم توطينهم في أمريكا

بالأعمال الإنتاجية التي تتطلب الاستقرار . ومع ظهور طبقات محلية ، واضطلاح الدولة القومية الحديثة بدور اليهود ، زادت عمليات الطرد وبالتالي التنقل . وصورة «اليهودي التائه» ، برغم إحياءاتها الدينية والعنصرية المختلفة ، تضرب بجذورها في عملية التنقل هذه .

وإذا نظرنا إلى أهم فترتين تنقل فيهما أعضاء الجماعات اليهودية (المرحلة العبرانية ثم المرحلة الحديثة في أوروبا من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ، فسنتكشف أن العبرانيين وأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يشكلون جزءاً من كل أكبر . لقد كان العبرانيون جزءاً من جماعات سامية ضخمة تتحرك في الشرق الأدنى القديم ، ابتداءً من الألف الثاني قبل الميلاد ، وتضم الخابريو والأخلامو والآراميين والهكسوس وغيرهم . ونحن نسمي هذه المرحلة المرحلة السامية السديمية لأن معالم الأشياء لم تكن واضحة ولأن القبائل والأقوام المهاجرة كانت متداخلة . كما شهدت مرحلة الإمبراطوريات الكبرى ، البابلية والآشورية ثم الفارسية واليونانية والرومانية ، بدايات الهجرة التي تعاضمت بالتدرج حتى وصلت ذروتها مع نهاية الألف الأول قبل الميلاد وأصبح عدد اليهود خارج فلسطين أكثر من ضعف عددهم داخلها . ويلاحظ أن الهجرة اليهودية تتعاضم داخل إطار الإمبراطوريات التي تُيسر لهم حرية الحركة .

وهجرة يهود شرق أوروبا (يهود البديشية) إلى الولايات المتحدة وكندا وفلسطين وغيرها من الدول الاستيطانية بأعداد هائلة ، حتى انتقلت الكتلة البشرية اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، هي بالمثل هجرة تمت داخل إطار إمبراطوري . فقد تمت داخل التشكيل الاستعماري الغربي وتجربته الاستيطانية في أنحاء العالم ، تلك التجربة التي بدأت في القرن السابع عشر وزادت حدتها في أوائل القرن التاسع عشر ووصلت ذروتها في أواخره ، واستمرت بعد ذلك ثم بدأت تخبو بعد الحرب العالمية الثانية مع توقّف الانفجار السكاني في الغرب . لقد هاجر من سكان أوروبا نحو ٦٥ مليوناً خلال قرن ونصف القرن (١٨٠٠ - ١٩٥٠) ، وكان من بينهم الإيطاليون والأيرلنديون والألمان وكثير من سكان شرق أوروبا ، وكان من بين هؤلاء أعضاء الجماعات اليهودية . وقد هاجر إبان هذه الفترة أربعة ملايين يهودي ، أي ٦٪ من جملة المهاجرين ، كانوا لا يشكلون سوى ١٥ ٪ من سكان أوروبا ، أي أن معدل الهجرة بين اليهود كان أربعة أضعاف معدلها العام . ولكن ، في الفترة من عام ١٨٠١ إلى عام ١٩٢١ ، هاجر نحو ثمانية ملايين أيرلندي ، ولاتزال عملية الهجرة مستمرة من بلد لا يزيد عدد سكانه على ثلاثة ملايين

وبعد هذه المرحلة ، ينتهي التهجير لبدء اليهود في الانتشار في بقاع الأرض بوصفهم جماعات يهودية لا يربطها رابط سوى الانتماء إلى العقيدة الدينية الإثنية نفسها . وتبدأ هذه المرحلة حين فضلت أعداد كبيرة من اليهود الاستمرار في بابل مُكوّنةً بذلك نواة أول جماعة يهودية تستقر خارج فلسطين بعد مرحلة التهجير البابلي . ومن الممكن أيضاً الإشارة إلى الجماعة الصغيرة في جزيرة الفتيان التي كانت تشكل حامية عسكرية تحمي حدود مصر الجنوبية .

ثم قامت الإمبراطورية اليونانية بفرض هيمنتها على أجزاء كبيرة من البحر الأبيض والشرق الأدنى القديم (٣٣٢ ق.م) ، وهو ما يسّر عملية انتقال اليهود وانتشارهم ، فاستقرت أعداد كبيرة منهم (كجماعات وظيفية استيطانية وقنالية ومالية) في مصر ، وفي الإسكندرية على وجه الخصوص . كما استقروا في برقة وقبرص وآسيا الصغرى . وقد بدأ الانتشار في أوروبا الغربية في تلك المرحلة أيضاً .

وحين قضى الرومان على فلسطين كإحدى نقاط تجمّع الجماعات اليهودية وأحد مراكزها ، وحتى حين هدم تيتوس الهيكل (عام ٧٠م) ، لم يؤثر ذلك كثيراً في حركة تدفّق اليهود أو على شكلها ، إذ أنها بدأت على أية حال قبل ذلك التاريخ ، حيث استمر تدفّق اليهود خارج فلسطين وإلى مختلف البلدان ، خصوصاً إلى أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط . ويُقال إن هجرة اليهود إلى الجزيرة العربية تعود إلى هذه الفترة أو بعدها ، وقد تم طرد اليهود منها مع ظهور الإسلام ، ولكن يبدو أن أعداداً كبيرة لم تغادرها . كما أن الجماعة اليهودية في اليمن لم تتأثر بقرار الطرد ، فقد بقيت أعداد منها واستمر وجودها حتى العصر الحديث . وفي أوائل القرن العشرين ، قام المستوطنون الصهاينة بتوطين عدد من يهود اليمن في فلسطين لسد حاجتهم إلى العمالة ، ثم هاجرت أغليبيتهم في عام ١٩٤٨ إلى فلسطين ، ولا تزال توجد بقايا من هذه الأقلية في صعدة وغيرها من المناطق .

وقد شهدت بداية العصور الوسطى في الغرب (القرن الرابع الميلادي) شيئاً من الاستقرار النسبي بالنسبة إلى الجماعات اليهودية في الغرب المسيحي ثم في الشرق الإسلامي بسبب استقرار الأحوال السياسية والاقتصادية فيها . وبدأ نمط الهجرة في هذه الفترة يتضح ، أي الهجرة من البلاد المتقدمة إلى البلاد المتخلفة ؛ وقد كانت أوروبا من أكثر المناطق تخلفاً في العالم آنذاك . وكانت توجد ثلاثة خطوط أساسية للهجرة إلى أوروبا : من فلسطين إلى جنوب إيطاليا ومنها عبر جبال الألب إلى فرنسا وألمانيا ، ومن الإمبراطورية الرومانية الشرقية

اللاتينية ، بل وفي روسيا السوفيتية ، بمعرفة مؤسسات يهودية توطيحية كونها يهود العالم الغربي لتحويل تيار الهجرة عن بلادهم للحفاظ على وضعهم الطبقي ومكانتهم الاجتماعية . ولذا ، فنحن نفرّق بين «الاستيطان» و«التوطين» . ويستطيع القارئ أن يعود إلى مداخل الباب المعنون «الصهيونية التوطيحية» والباب المعنون «المؤسسات التوطيحية» .

الاستقرار

Settlement

«الاستقرار» هو أن يهاجر شخص من بلده نتيجة ظروف موضوعية (عوامل طرد في الوطن الأصلي) أو ذاتية (رغبة في الحراك الاجتماعي) فيحمل متاعه ويذهب إلى بلد آخر يوافق على هجرته أو يرحب به . ويتم ذلك عادةً في إطار قانوني . ومن ثم ، فإن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية من أوروبا إلى الولايات المتحدة هي عملية استقرار في الوطن الجديد . و«الاستقرار» ، بطبيعة الحال ، غير «الاستيطان» . وفي اللغة الإنجليزية لا يُوجد سوى كلمة واحدة هي «ستلمنت settlement» للتعين عن المعنيين المختلفين .

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية حتى بداية العصر الحديث

Migrations of Members of Jewish Communities up to the Beginning of Modern Times

ينتقل بعض أعضاء الجماعات اليهودية من وطن إلى آخر بحثاً عن الرزق ولتحسين المستوى المعيشي بصفة عامة ، أو لأسباب أخرى مثل التهجير والطرْد أو الاضطهاد أحياناً . وإن قبلنا الرأي القائل بأن الحايبر والذين ورد اسمهم في لوحات تل العمارنة هم العبرانيون ، فإن أول إشارة إليهم كانت باعتبارهم شعباً متجولاً . وقد اتسمت حياة العبرانيين في عصر الآباء (منذ عام ٢٠٠٠ ق.م) بالتنقل البدوي من بلد إلى آخر وبالبقاء على حواف المدن أو على طُرُق التجارة . وفي هذه المرحلة ، استوطنت بعض العناصر العبرانية أرض كنعان وفي مصر دون أن تضرب جذوراً في أي منهما . وقد خرج العبرانيون من مصر أو هاجروا منها (عام ١٦٤٥ ق.م) لبدءوا فترة أخرى من التجوال في سيناء انتهت بالتغلغل العبراني في كنعان (عام ١١٨٩ ق.م) الذي أعقبته فترة من الاستقرار النسبي بعد قيام اتحاد القبائل العبرانية في شكل المملكة العبرانية المتحدة ثم الملكتين العبرانيتين : المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية . وقد انتهت هذه المرحلة بالتهجير الآشوري ثم التهجير البابلي .

مسيحيين، إذ لم تعد هناك جيوب متخلفة أخرى يستطيع اليهود التفهق إليها في الغرب .

وتجب الإشارة إلى أن الهجرة كانت تتم في هذه المرحلة بالتدرج وببطء شديد نتيجة عدم وجود وسائل مواصلات سريعة وطرق ميسرة كما هو الحال في العصر الحديث . وكثيراً ما كان اليهود المحليون يتصدون لليهود الوافدين لأنهم يشكلون خطورة اقتصادية عليهم . فكانوا يمارسون حق حظر الاستيطان ، كما كان يهود البلاط ينعون هجرة أي يهودي إلى المنطقة التي يتولون قيادتها .

هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث

Migrations of Members of Jewish Communities
in Modern Times

تغير اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة في أوروبا لثلاثة أسباب أساسية :

١ - شهد عصر النهضة بدايات الانقلاب التجاري الرأسماني الحقيقية بما تبعه من اكتشافات جغرافية ومشاريع استعمارية غربية : إسبانية وبرتغالية ثم هولندية وإنجليزية . وكانت إسبانيا والبرتغال قد طردتا اليهود من أراضيها ، أما هولندا وإنجلترا فقد فتحتا أبوابهما لهجرة اليهود نظراً حاجتهما إلى أيد عملة ورؤوس أموال وخبرات تجارية ، ثم تبعتها فرنسا . وأدى هذا الوضع إلى تدفق المهاجرين اليهود إلى هذه البلاد وإلى مستعمراتها فيما بعد .

٢ - كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الجمود التي أدت إلى سقوطها في نهاية الأمر ، ولم تعد قادرة على استيعاب المزيد من اليهود .

٣ - وفي تلك المرحلة ، كان معظم يهود أوروبا مركّزين في بولندا التي شهدت ثورة الزعيم الشعبي الأوكراني بوجدان شميلنكي عام ١٦٤٨ والذي قاد ثورة الفلاحين الأوكرانيين ضد الاحتلال البولندي ، وضد النبلاء البولنديين (شلاختا) المستفيدين من هذا الاحتلال ، وضد عمال النبلاء . وممثلهم من يهود الأرند الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب وتوقيع العقوبات على الفلاحين . وقد هزت هذه الثورة جذور الدولة البولندية على وجه الخصوص ، ثم تبع ذلك غزو السويد وروسيا لها .

وقد أدى تزامن هذه الأحداث (طرد اليهود السفارد من شبه جزيرة أيبيريا ، ثم اهتزاز الأساس الاقتصادي والسياسي لليهود الإشتكان في بولندا مع فتح أبواب الهجرة إلى أوروبا الغربية ، ودخول الدولة العثمانية في طور الجمود) ، إلى تغيير مسار هجرة

(ببزنطة) عبر وادي الدانوب إلى وسط أوروبا ، ومن العراق ومصر عبر المغرب إلى إسبانيا . وهكذا انتقلت الكثافة السكانية اليهودية (بين عامي ٥٠٠ ق.م - ١٠٠٠ م) من الشرق الأوسط إلى أوروبا .

ورغم أن غط الهجرة إلى البلاد الأكثر تخلقاً هو النمط السائد، إلا أنه ليس النمط الوحيد ، فمع تدهور الخلافة العباسية في القرن العاشر ، هاجرت كذلك أعداد من اليهود المقيمين في العراق إلى الهند والصين . ولذا ، قد يكون من الأفضل أن نقول إن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية نتجة حيث توجد فرص أكبر لممارسة نشاطهم الاقتصادي ، وأحياناً ما تتيح البلاد المتخلفة هذه الفرصة لهم أكثر من البلاد المتقدمة ، خصوصاً حين تبدأ هذه البلاد في التآكل والانهيار ويصبح عدم الاستقرار سمة أساسية فيها .

ومع إرهابات التحول التجاري الرأسمالي في المجتمع الغربي في القرن الحادي عشر ، ومع ظهور طبقات من التجار والممولين المسيحيين ، تم طرد اليهود من إنجلترا في عام ١٢٩٠ (ويقال إن عددهم كان لا يتجاوز أربعة آلاف) ، كما طردوا من فرنسا عامي ١٣٠٦ و ١٣٩٤ ، فاستقروا في بادئ الأمر في ألمانيا وإيطاليا وشبه جزيرة أيبيريا ، ولكنهم طردوا أيضاً من إسبانيا في عام ١٤٩٢ ثم من البرتغال ، فهاجروا أساساً إلى شمال أفريقيا وإلى إيطاليا وصقلية . كما هاجرت أعداد كبيرة (نصفهم كما يُقال) إلى الإمبراطورية العثمانية التي كانت تشجع اليهود على الهجرة إليها لتنشيط التجارة . ولقد تدخلت الدول الغربية لمنع هجرة اليهود منها خشية أن يؤدي ذلك إلى انهيار النظام المصرفي والمالي والتجاري ، الذي كان اليهود يلعبون فيه دوراً أساسياً . وقد شهدت هذه الفترة سقوط مملكة الخزر اليهودية في القرن العاشر حيث هاجر سكانها إلى المجر ثم إلى بولندا .

ومع أواخر العصور الوسطى ، بدأت الإمارات الألمانية في طرد أعضاء الجماعات اليهودية . وقد ساهمت حملات الفرنجة ، وهي تعبير عن إرهابات التحول التجاري الرأسمالي ، في اجتثاث جذور أعضاء الجماعات في وادي الراين وغيره من المناطق ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى بولندا . ومعنى هذا ، أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع نهايات العصور الوسطى (ابتداءً من القرن الرابع عشر) تأخذ مرة أخرى شكل هجرة من البلاد المتقدمة إلى البلاد المتخلفة نسبياً ؛ من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا إلى ألمانيا ومنها إلى بولندا ، أي أنها هجرة إلى الماضي . وكان شرق أوروبا هو الجهة الأخيرة تقريباً بالنسبة إلى أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانوا يُطردون من البلاد المتقدمة نتيجة ظهور طبقات تجار محلين

ولكن هناك مصادر أخرى ثانوية طاردة للمادة البشرية مثل أوروبا الشرقية أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو بقايا يهود الشرق والعالم الإسلامي . كما أن هناك مناطق جذب ثانوية أخرى مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوروبا . إلا أن النمط الأساسي الذي أشرنا إليه ظل سائداً . وتمثل إسرائيل نقطة مُبْهَمة ، فهي مصدر طُرْد حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون ، كما أنها مصدر جذب لليهود البلاد العربية والشرق حيث إنها تحقق حراكاً اجتماعياً . كما تمثل محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الوصول إلى الولايات المتحدة مباشرةً أو أولئك الذين لا توجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها .

ويمكن تقسيم هجرات أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث إلى المراحل التالية :

أ) المرحلة الأولى : ابتداءً من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر .

وهي مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية في أوروبا . وهي الفترة التي شهدت توطين السفارد من يهود المارانو في هولندا وفرنسا وإنجلترا ، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية إلى العالم الجديد . وكانت الهجرة تتبع النمط التالي : تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد (عادةً من كبار المموّكين وعائلاتهم) يلحق بهم أعداد ضخمة من الإشكناز ، كما حدث في أستراليا بعد استقلالها عن إسبانيا ، وكما حدث في إنجلترا وفرنسا وبعض مدن ألمانيا . وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في أستراليا من ٢٠٠ سفاردي عام ١٦٩٠ إلى ٢٤٠٠ سفاردي و٢١ ألف إشكنازي عام ١٧٩٥ . أما لندن ، فقد كان يوجد فيها عام ١٦٩٥ نحو ٤٥٨ سفاردياً و٢٠٣ من الإشكناز . ومع حلول عام ١٧٢٠ ، زاد عدد الإشكناز عن عدد السفارد . وفي عام ١٨٠٠ ، كان يوجد ألفا سفاردي وحسب بين العشرين ألف يهودي . ولم يستوطن فلسطين أي عدد يذكر من اليهود في تلك المرحلة .

ب) المرحلة الثانية : من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠ . وهي المرحلة التي وقعت فيها الحروب النابليونية والاضطرابات السياسية التي أعقبتها ، الأمر الذي تسبّب في هجرة بعض الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها . ولم يزد عدد المهاجرين اليهود إلى خارج القارة الأوروبية على ٢٠٠,٠٠٠ . ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب ، من بينها أن الانفجار السكاني الذي حدث بين يهود البديشية في شرق أوروبا ، والذي أدّى إلى تزايد أعدادهم بين عامي ١٨٠٠

أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا وظهور النمط الحديث ، أي هجرة اليهود من البلاد المتخلفة في شرق أوروبا إلى البلاد المتقدمة في وسطها وغربها وإلى العالم الجديد . والهجرة اليهودية في العصر الحديث هي أساساً جزء من حركة الاستعمار الاستيطاني التي بدأت في القرن السادس عشر ، خصوصاً التشكيل الأنجلو ساكسوني (بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الإسباني ثم الهولندي) . وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام . ومع هذا ، ظلت الولايات المتحدة هي نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن ، للأسباب التالية :

١ - تشكل الولايات المتحدة أهم وأنجح تجربة استيطانية غربية . وقد اجتذبت ثم استوعبت أعداداً كبيرة من المهاجرين من أوروبا بلغت أكثر من ٨٠٪ .

٢ - الولايات المتحدة دولة علمانية لم تعرف أية تقاليد أو حتى أية رموز دينية إلا لفترة وجيزة للغاية من تاريخها ، كما أنها نجحت في إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين و«أمرتهم» وأتاحت لهم فرصة الانتماء الثقافي الكامل لوطنهم الجديد الأمر الذي زاد من جاذبيتها ، وذلك على عكس أمريكا اللاتينية التي احتفظت بكتوليكيته وبالتالي استبعدت البروتستانت واليهود .

٣ - كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية مالية تعمل بالتجارة والمال ، وبالتالي لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين . والمجتمع الأمريكي هو مجتمع الاقتصاد الحر الذي يشكل القطاع التجاري والمالي أكبر قطاعاته ، والذي سادت فيه القيم التجارية الموضوعية . ومن ثم فهو مجتمع ذو جاذبية خاصة بالنسبة إلى المهاجر اليهودي .

وقد تنبأ المؤرخ الروسي اليهودي دبنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون إلى الولايات المتحدة ، وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها .

ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل بأن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما : شرق أوروبا (روسيا/بولندا) كقوة طاردة ومصدر للمادة البشرية ، والولايات المتحدة كقوة جاذبة . وقد كان النمط الأساسي القديم للهجرة اليهودية هو تحرك أعضاء الجماعات داخل أطر الإمبراطوريات الكبرى (الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية) ، أما في القرن العشرين فقد كانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظميان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة اليهودية ، وقد تطوّر الأمر بعض الشيء بعد ذلك في منتصف القرن العشرين .

٦ هجرات وانتشار أعضاء الجماعات اليهودية

هذه الفترة أربعة ملايين ، في حين يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك ، فهو يرى أن الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٠ هاجر خلالها نحو ٣,٩٧٥,٠٠٠ . فإذا أضفنا إلى ذلك ، وفقاً للبيستشنيكي ، الرقم ٥٠٧,٨٤٥ وهو عدد الذين هاجروا من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٩ ، فإن العدد الكلي يصبح ٤,٤٨٢,٨٤٥ . ويجب أن نضيف إلى هذه الهجرة حركة اليهود داخل الإمبراطوريات العظمى في أوروبا . الأمر الذي قد يصل بالعدد إلى خمسة ملايين . وقد أخذت الحركة داخل الإمبراطورية النمساوية اتجاهها من الشرق (جاليشيا وبوكرانيا وبوزنان) إلى الغرب ، وحدث الشيء نفسه في ألمانيا . أم في روسيا ، فقد اتجهت الهجرة نحو الجنوب ، إلى أوديسا ومناطق البحر الأسود . وكان عدد اليهود الذين انتقلوا في هذه الفترة من بلد أوروبي إلى آخر هو ٣٥٠ ألفاً ، ويرى روبين أنهم ٤٩٠ ألفاً .

كما شارك اليهود في حركة الهجرة من القرية إلى المدينة ، فزاد عدد يهود فيينا (بندة تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية) ، على سبيل المثال ، من ستة آلاف في عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفاً في عام ١٨٩٠ ، وإلى ١٧٥ ألفاً عام ١٩١٠ ، وهي زيادة تمت أساساً عن طريق الهجرة حيث إن معدلات الزيادة الطبيعية كانت أخذة آنذاك في التناقص .

وربما يكون الدافع الأكبر وراء الهجرة في هذه الفترة هو تَعَثُّر محاولات التحديث في روسيا ثم توقُّفها تقريباً ، وهو ما انعكس في شكل الاضطهاد الروسي القيصري ضد جميع الأقليات في الإمبراطورية . ولذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثاً عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعي ، وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية . وكانت الأغلبية العظمى من المهاجرين اليهود من بين يهود البيلشيه . ويهود روسيا على وجه الخصوص ، حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠٪ و ٨٠٪ من جملة يهود العالم ، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين ، وهو ما يعني أن نصفهم تقريباً ، أي واحد من كل اثنين ، كان في حالة حركة وهجرة وانتقال في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين . وهذه نسبة عالية للغاية ولا شك في أنها أسهمت في تفتت كثير من المؤسسات والروابط والأوصار . ومع أن نسبة الهجرة بين يهود البيلشيه كانت أعلى من نسبتها بين الإيطاليين ، فإنها كانت أقل من نسبتها بين الأيرلنديين . وقد كان عدد الأيرلنديين عام ١٨٣٠ ثمانية ملايين يشكلون نصف سكان إنجلترا ، وقد هاجر منهم أربعة ملايين بين عامي ١٨٣٠ و ١٩٠٠ .

و ١٩٣٣ بنحو ستة أضعاف ، لم يكن قد ظهر أثره بعد ، كما أنه وصل إلى ذروته بعد عام ١٨٨٠ . وفضلاً عن ذلك ، كان معظم يهود العالم مُركَّزين في شرق أوروبا وروسيا وبولندا التي كان قد تم ضمها إلى روسيا . ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد ، الأمر الذي كان يعني أنهم لا يزالون جماعة متماسكة تصعب الحركة على أعضائها ، كما كان كثير من اليهود لا يزالون يلعبون دورهم الاقتصادي التقليدي كجماعة وظيفية . وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة في روسيا ، وتركت تلك العملية أثرها على الجماعة اليهودية التي بدأت تفقد شيئاً من تماسكها وبدأ يختفي كثير من مؤسساتها التقليدية التي تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين ، فإن هذا لم يتسبب في أية هجرة خارج أوروبا إذ لم تكن محاولات التحديث في الإمبراطورية الروسية قد كابدت من التعثر بعد ، وكان الاقتصاد الروسي قادراً على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتكون قراهم وأماكن إقامتهم الأصلية . ولذا ، فقد كانت هجرة اليهود داخلية ؛ من المناطق الكثيفة سكانياً في منطقة الاستيطان إلى روسيا الجديدة على شواطئ البحر الأسود . كما هاجرت أعداد صغيرة إلى بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة .

وشهدت هذه المرحلة هجرة يهود المناطق البولندية التي ضمتها ألمانيا (١٧٧٢ - ١٨١٥) . وفي بروسيا بالذات ، كان يوجد عام ١٨٣٧ نحو ٣٦٤,١٤٥ يهودياً (٧٠٪ منهم (حوالي ١٥٢,١٠١) كانوا في المناطق البولندية ، أي أن أغلبية يهود بروسيا كانوا مُركَّزين هناك . ولكن ، مع عام ١٨٧١ ، تناقص عددهم عن طريق الهجرة إلى ألمانيا ذاتها ، وأصبحت نسبة اليهود في المناطق البولندية ٣١,٨٪ ثم انخفضت عام ١٨٩٠ إلى ٢٤,٨٪ وإلى ١٧,٤٪ عام ١٩١٠ . وقد اتجه هؤلاء اليهود إلى برلين التي ارتفع عدد اليهود فيها من ٤٧,٤٨٩ عام ١٨٧١ إلى ١٤١,١٨١ عام ١٩٢٥ . وقد ساهم هذا الارتفاع في تغذية الدعاية العنصرية النازية بشأن تكاثر اليهود والخطر اليهودي ومحاولة سيطرة اليهود على كل شيء .

ج) المرحلة الثالثة : من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩ .

وهي مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية ، والتي بدأت عام ١٨٨١ مع تَعَثُّر التحديث في روسيا وتزايد العنصرية في كل أوروبا ، وانتهت عام ١٩٣٩ بصدر قوانين عام ١٩٢٤ التي حُدَّت من هجرة يهود شرق أوروبا ، ثم بالكساد الاقتصادي وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماماً .

ووفقاً لإحصاءات الموسوعة اليهودية ، بلغ عدد المهاجرين في

منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨٪ مقابل ٧٦،٣٠٪ من بقية الجماعات المهاجرة ، وكانت نسبة الأيرلنديين العائدين أقل إذ كانت لا تزيد على ٧٪ . وكان المهاجر اليهودي يصل إلى الولايات المتحدة ولديه النية في الاستقرار الدائم ، وليس ادخار بعض الأموال ثم العودة إلى الوطن الأم ، ومن ثم فقد كان يُحضر معه أسرته . وكانت نسبة النساء والأطفال بينهم عالية ، فكان نحو ٤٤٪ من جملة المهاجرين اليهود من الإناث مقابل ٣١،٧٪ بالنسبة إلى الجماعات المهاجرة الأخرى . وكان ٢٤٪ من المهاجرين اليهود أطفالاً تحت سن الثالثة عشرة ، أما في الجماعات الأخرى فكانت النسبة ١٢،٤٪ . وكان يوجد بين المهاجرين اليهود نسبة عالية من العمال الصناعيين تصل إلى ٦٦٪ من الأجراء ، على عكس الإيطاليين والأيرلنديين الذين كانوا من أصول فلاحية . وبحسب إحصاءات الهجرة الأمريكية (١٨٩٩ - ١٩١٤) ، كان المهاجرون اليهود يشكلون ٣١٪ من جملة العمال الصناعيين ، وكانوا يشكلون أحياناً الأغلبية المطلقة في بعض الفروع مثل صناعة الملابس . وكان عدد العمال الزراعيين بين اليهود هو ٢،٦٪ مقابل ٢٨،١٪ بالنسبة إلى جملة المهاجرين . وكان عدد العاملين في صناعة الملابس ٣٩،٦٪ وفي الصناعات الأخرى ٢٦٪ (أي ٦٥،٦٪ من الأجراء) مقابل ١٧،٨٪ بين غير اليهود . كما أن ٩،٢٪ من المهاجرين اليهود كانوا يعملون في التجارة والنقل مقابل ٦،٧٪ من جملة المهاجرين . وقد ساهم ذلك في سرعة اندماجهم في المجتمع وتحقيقهم حراكاً اجتماعياً أعلى مما حققته كثير من جماعات المهاجرين الأخرى . وهذا هو الذي ساهم في نهاية الأمر في «أمركشهم» الكاملة وفي تركزهم في صناعات بعينها دون غيرها . وكان التركيب الإنثي للمهاجرين اليهود خلال الفترة بين عامي ١٨٩٩ و ١٩١٤ كما يلي حسب بلد الأصل :

روسي	٧١،٧٪	بريطانيا العظمى	٤،٠٪
الإمبراطورية النمساوية والمجرية	١٦،٢٪	كندا	١،٢٪
رومانيا	٤،٢٪	ألمانيا	٠،٧٪
		بلاد أخرى	٢،٠٪

ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود البديشية أيضاً . وقد توقفت الهجرة أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولكن أبوابها فتحت مرة أخرى عام ١٩١٤ . وكان عدد المهاجرين في البداية ضئيلاً ثم أخذ في الازدياد إلى أن وصل إلى الذروة في عام ١٩٢١ ثم انخفض في أعوام ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بسبب نظام النصاب . وفيما يلي بيان بأعداد المهاجرين :

وهاجر معظم اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤ ، خصوصاً الأربعة عشر عاماً الأخيرة منها . وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد المهاجرين بلغ ٢,٧٥٠,٠٠٠ . فإذا أنقصنا من هذا العدد حوالي ٢٥٠ ألفاً هاجروا داخل أوروبا ، وذلك على اعتبار أن عدد المهاجرين في الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٣٥ هو حوالي ٤٩٠ ألفاً ، يكون عدد المهاجرين إلى خارج القارة هو ٢,٥٥٠,٠٠٠ بمعدل هجرة سنوية تصل إلى ١٣٥ ألفاً . وتُعدُّ سنة الذروة هي ١٩٠٥ - ١٩٠٦ حيث هاجر ما بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألفاً في ذلك العام وحده . لكن الهجرة توقفت أثناء الحرب . وعند استئنافها عام ١٩٠٧ ، تدفَّق السيل مرة أخرى إذ هاجر في ذلك العام وحده ١٤١ ألفاً . ثم صدر أول قانون لتحديد الهجرة في العام التالي ، الأمر الذي أدَّى إلى تغيير الصورة .

وإذا كانت روسيا نقطة الطرد الكبرى ، فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدُّمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه . وفي هذه الفترة ، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها الإمبريالية في أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت في حاجة ماسة إلى الأيدي العاملة التي لم يكن من الممكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية . وقد استوعبت الولايات المتحدة نحو ٨٥٪ من المهاجرين اليهود بل واستوعبت النسبة نفسها تقريباً من جملة المهاجرين في العالم . ولا توجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداءً من عام ١٨٩٩ . وقد هاجر من روسيا في خلال ستة عشر عاماً (١٨٩٩ - ١٩٢٤) نحو مليون ونصف المليون يهودي . وفيما يلي جدول بأعداد اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة من روسيا وغيرها في الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩١٤ :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٨٩٩	٣٧,٤١٥	١٩٠٧	١٤٩,١٨٢
١٩٠٠	٦٠,٧٦٤	١٩٠٨	١٠٣,٣٨٧
١٩٠١	٨٥,٠٩٨	١٩٠٩	٥٧,٥٥١
١٩٠٢	٥٧,٦٨٨	١٩١٠	٨٤,٢٦٠
١٩٠٣	٧٦,٢٠٣	١٩١١	٩١,٢٢٣
١٩٠٤	١٠٦,٢٣٦	١٩١٢	٨٠,٥٩٥
١٩٥٠	١٢٩,٩٠٠	١٩١٣	١٠١,٣٣٠
١٩٠٦	١٥٣,٧٤٨	١٩١٤	١٣٨,٠٥١

ليكون إجمالي عدد المهاجرين هو ١,٥١٢,٦٣١ .

وتُعدُّ عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة . ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنوياً ٩٣ ألفاً ، وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين في الولايات المتحدة بشكل دائم ، ولم يهاجر

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٥	٢٦,٤٩٧	١٩٢٠	١٤,٢٩٢
١٩١٦	١٥,١٠٨	١٩٢١	١١٩,٠٣٦
١٩١٧	١٧,٣٤٢	١٩٢٢	٥٣,٥٢٤
١٩١٨	٣,٧٦٢	١٩٢٣	٤٩,٧١٩
١٩١٩	٣,٠٥٥	١٩٢٤	٤٩,٩٨٩

ليكون إجمالي عدد المهاجرين هو ٣٥٢,٣٢٤ .

ولنا أن نلاحظ أن هذه الفترة الثانية هي فترة ظهور الصهيونية ونشاطها أيضاً . ولابد أن نذكر أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية ، خوفاً على أمنها الداخلي ، وليهود الغرب المندمجين الذين كان وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية .

ويُنَبَّح تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيوني من مخاوفهم هذه . ومن هنا كان تَبَيُّههم لما نسميه «الصهيونية التوطنية» . ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بإنجلترا التي اتجه إليها نحو ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٥ . وقد كان لوصولهم أثره في إثارة قلق السلطات البريطانية . وظهرت المحاولات الرامية إلى تحويل تيار الهجرة اليهودية بعيداً عن إنجلترا ابتداءً بمشروع شرق أفريقيا لإنشاء دولة صهيونية هناك ، مروراً بقانون الأجانب عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود إلى إنجلترا (وهو المشروع الذي كان يلفور من أكبر المدافعين عنه) ، وانتهاءً بوعده يلفور الذي حول فلسطين إلى أرض يُلقَى فيها الفائض البشري اليهودي ، كما كان يُطلق على المهاجرين اليهود آنذاك .

ولم يتجه إلى ألمانيا في الفترة نفسها سوى مائة ألف يهودي ، ولكن هذا لا يتضمن اليهود الذين هاجروا من المقاطعات البولندية وهم من يهود اليديشية غير المندمجين . وبالتالي ، قام النازيون بالدعاية ضد اليهود وبيث السموم عن خطر التكاثر اليهودي والهيمنة اليهودية في وقت كانت فيه أعداد اليهود أخذة في التناقص الفعلي . وإذا كان يلفور قد حل المسألة اليهودية في إنجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين ، فإن هذا الحل لم يكن متاحاً لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا ، ولهذا تَخَلَّص منهم بإبادةهم .

ونلاحظ أن عدد المهاجرين إلى فلسطين كان في بداية الفترة ١,٨٠٦ ، وبلغ ٨,١٧٥ عام ١٩٢٣ ، أي بعد فتح أبواب الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية ، ثم قفز العدد إلى

١٣,٨٩٢ عام ١٩٢٤ . وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية ، وهو ما أدى إلى خوف كثير من الدول من الأيدي العاملة المهاجرة لأنها قد تؤدي إلى تفاقم ظروف البطالة فيها . فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بالتقدير الذي تسمح به مقدراتها الاستيعابية . ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا وأستراليا . وقد أدى تصاعد نفوذ العربية في فلسطين إلى اخذ من الهجرة الاستيطانية ، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة . ولعل أكبر مثل على محاولة الدول الغربية اخذ من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التي أصدرت أولاً قانون النصاب في عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون في عام ١٩٢٤ . حيث لم يكن يُسَمَّح بحسب هذا القانون - إلا بهجرة ما يساوي نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش في الولايات المتحدة وفق إحصاء عام ١٨٩٠ . وقد عُرِفَت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الانتماء الديني أو الإثني . وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوروبا وروسيا هو ١٠,٣٤١ مقابل نحو ٥٠ ألفاً عام ١٩٢٤ و١٥٣,٧٤٨ عام ١٩٠٦ . وكانت أعداد المهاجرين في تلك الفترة كما يلي :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٢٥	١٠,٢٩٢	١٩٣٠	١١,٥٢٦
١٩٢٦	١٠,٢٦٧	١٩٣١	١١٩,٦٩٢
١٩٢٧	١١,٤٨٣	١٩٣٢	٢,٧٥٥
١٩٢٨	١١,٦٦٩	١٩٣٣	٢,٣٧٢
١٩٢٩	١٢,٤١٩		

أي أن الهجرة بلغت الحد الأقصى المسموح به حتى عام ١٩٣٠ . وهكذا ، فبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من جملة المهاجرين اليهود في الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤ ، انخفضت النسبة إلى ٢٥٪ في الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠ . وقد أغلق كثير من البلاد أبوابه . وكما يقول روبين ، أصبحت معظم البلاد مُعَلَّقة أمام المهاجرين عام ١٩٣٣ . ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المتستعمرة) . بمعنى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بتيوية ، أي بنية قانونية وضرورياً موضوعية تفرض على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا . وبالفعل ، قفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ عام ١٩٣١ إلى ١٢,٥٥٣ عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧,٣٣٧ عام ١٩٣٣ . ولذا ، يمكننا القول إن عنصر الطرد من الولايات المتحدة ونيس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذي

جهة الهجرة	عدد المهاجرين ١٨٨١-١٩١٤	النسبة %	عدد المهاجرين ١٩١٥-١٩٤٨	النسبة %
الولايات المتحدة	٢,٠٤٠,٠٠٠	٨٥%	٦٥٠,٠٠٠	٤١%
كندا	١٠٥,٠٠٠	٤%	٦٠,٠٠٠	٤%
الأرجنتين	١١٣,٠٠٠	٥%	١١٥,٠٠٠	٧%
بقية أمريكا اللاتينية	١٤,٠٠٠	٠,٦%	١٤٠,٠٠٠	٩%
جنوب أفريقيا	٤٣,٠٠٠	٢%	٢٥,٠٠٠	١,٦%
فلسطين	٧٠,٠٠٠	٣%	٤٨٥,٠٠٠	٣٠%
بلاد أخرى	١٥,٠٠٠	٠,٦%	١٢٥,٠٠٠	٨%
المجموع	٢,٤٠٠,٠٠٠		١,٦٠٠,٠٠٠	

والجدول هنا يبين أن الولايات المتحدة هي بلد الهجرة بلا منازع أو منافس . وتشغل الأرجنتين وكندا المرتبتين الثانية والثالثة ، ولا تأتي فلسطين إلا في المرتبة الرابعة - وهي مرتبة رابعة تجاوزاً لأن مجموع عدد المهاجرين إليها يظل أقل كثيراً من مجموع عدد المهاجرين إلى بلاد الاستيطان الأخرى . أما في الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٤٨ ، فإن الولايات المتحدة كانت لا تزال تشغل المرتبة الأولى وكانت فلسطين تشغل مرتبة ثانية قريبة من المرتبة الأولى . ومن الطريف أن مجموع عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وكندا خلال الفترتين يساوي تقريباً عدد المهاجرين إلى فلسطين . ولكن أحد المصادر الأخرى يذهب إلى أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وحدها ، من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٤٨ ، يعادل مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها . وإذا استبعدنا الولايات المتحدة ، وعقدنا مقارنة بين عدد المهاجرين إلى فلسطين من جهة وبقية بلاد العالم من جهة أخرى ، لوجدنا أن عدد المهاجرين إلى فلسطين هو ٥٥٥ ألفاً مقابل ٦٨٢ ألفاً هاجروا إلى بقية بلاد العالم ، أي أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين أقل من عدد المهاجرين إلى بقية البلاد . وحتى في الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٨ ، وهي الفترة التي شهدت قمة النشاط الصهيوني ، حيث فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين أمام الهجرة الاستيطانية ، وحيث أغلقت بلاد العالم الحر أبوابها دون المهاجرين اليهود وغير اليهود ، كان عدد المهاجرين إلى فلسطين ٤٨٥ ألفاً مقابل ٤٦٥ ألفاً للبلاد الأخرى فيما عدا الولايات المتحدة . وكل هذه الإحصاءات تبين أن فلسطين ليست نقطة الجذب لليهود كما تدعي الأدبيات الصهيونية وأن الحركة الصهيونية لم تُحرز نجاحاً فيما كانت تهدف إليه . ويلاحظ أن جميع البلاد التي يهاجر إليها اليهود هي بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الأبيض . ومن

حدد مسار الهجرة . ومع هذا ، يُلاحظ أن الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠ ، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحاً ، هاجر إليها ٧٢,٣٨٧ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ١٧٢,٩٠٨ (أي ٤٢٪) ولم يهاجر في الفترة نفسها سوى ١٧٩,١٠ إلى فلسطين .

ورغم تبّكي الدول الغربية على مصير اليهود ، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم . كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقاً من العقيدة الصهيونية التي تدعو إلى توطين اليهود في فلسطين وفلسطين فقط . ومن هنا ، كانت جهود الصهاينة المكثفة من أجل إفشال مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين ورُقُص أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين لخلق ما سميناه «الصهيونية البنيوية» . وفي الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨ ، والتي يمكن أن تُسمى المرحلة النازية ، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا النازية والبلاد التي يهيمن عليها النازيون ، والمهاجرون من كل أوروبا ٥٤٠ ألفاً ، بخلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجّروهم الاتحاد السوفيتي إبان الحرب لإتقاذهم ، وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفيتي فراراً من النازي . وقد هاجر ٢٥٠ ألفاً (أي ٤٦٪) منهم إلى فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب ، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفاً إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١١٠ آلاف (أي ٢٠٪) . وهاجر في الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٨ نحو ٣٠٠ ألف يهودي ، منهم ١٢٠ ألفاً (أي ٤٠٪) إلى فلسطين . والباقيون ، وهم ١٨٠ ألفاً (أي ٦٠٪) ، هاجروا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التي هاجر إليها ١٢٥ ألفاً (أي ٤٢٪) . وهكذا أصبحت الولايات المتحدة ، مرة أخرى ، بلد الجذب الأكثر ، حتى أثناء سنى الحرب والإبادة النازية . ويمكننا أن نقول إن المستوطن الصهيوني لم يشكل ملجأ لليهود أوروبا ، فمن مجموع ٧٥٠ ألف مهاجر (ويمكن أن نصفهم إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفيتي) لم يهاجر إلى فلسطين سوى ٣٧٠ ألفاً ، أي أن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين رغم شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها .

وفيما يلي جدول بعدد المهاجرين ونسبهم المثوية - حسب الموسوعة اليهودية - بين عامي ١٨٨١ و ١٩٤٨ .

ثم ، فإن الهجرة اليهودية ليست ظاهرة يهودية بمقدار ما هي جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية .
(د) المرحلة الرابعة : منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .

وبانتهاؤ الأربيعينيات ، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى موجودة في الولايات المتحدة ، مع وجود كتلة أخرى في أوروبا أخذت في التناقص ، ومع وجود أقليات متناثرة في أنحاء العالم . وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية في فلسطين ، فأصبح هناك قطبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، وكلاهما بلد استيطاني يستطيع المهاجر اليهودي أن يحقق فيه الحراك الاجتماعي الذي فشل في تحقيقه في بلده . ومع هذا ، تشكل دول أخرى مثل أستراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض المهاجرين اليهود .

ويمكن أن نضيف بعداً آخر يساعد على اتجاه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، ألا وهو ميراث الجماعات اليهودية الاقتصادي كجماعة وظيفية تركزت أعضاؤها في قطاعات المال والتجارة . والواقع أن هذا يعني تأثيرهم السلبي بالثورات القومية أو الاشتراكية التي تستولي على هذه القطاعات فتؤممها ، أو تحاول صبغها بصبغة قومية ، أو تتدخل فيها بما يقلل من فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية . ويمكننا في واقع الأمر أن نفسر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين (الحراك الاجتماعي وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسي من بلاد الاقتصاد الاشتراكي والفقر والثورات القومية الاشتراكية :

١ - فمثلاً يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتي على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتي بالنظام الاشتراكي الذي يضيق الخناق على القطاع التجاري . وفي الإطار نفسه يمكن تفسير الظاهرة التي تُسمى في المصطلح الصهيوني «التساقط» ، أي خروج اليهود من الاتحاد السوفيتي بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد آخر هو الولايات المتحدة في العادة . فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعي ، في حين لا تشكل إسرائيل أية جاذبية بالنسبة لهم . وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت مثل هذه الهجرة لهم قسماً من الحراك الاجتماعي ، خصوصاً أن مؤهلاتهم لم تكن عالية ، بينما نجد أن نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠٪ لأن مستواهم المعيشي مرتفع . وإذا نجح بلتسين في تحقيق

٢ - وقد ظل يهود إيران يمارسون نشاطهم تحت حكم الشاه ، ثم خرجوا من إيران بأعداد هائلة بعد قيام الثورة الإيرانية لأنها حاولت أن توجّه الاقتصاد وجهة لا تتفق مع معايير الاقتصاد الحر . وفي كوبا ، كانت هناك جماعة يهودية ، ولكن حينما حدثت الثورة الاشتراكية انخفض العدد إلى العُشر ، وذلك رغم أن الثورة الكوبية كانت تبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولم تقف في طريق النشاط الصهيوني ولم تُسَمَّ معاملة اليهود على الإطلاق باعتبار المراجع الصهيونية . والشئ نفسه يُقال بالنسبة إلى يهود شيلى الذين تركوها حينما وصل ألياندي بتوجهه الاشتراكي إلى الحكم ، وعادوا إليها مع بينوشيه ممثل الفاشية العسكرية . فارتباط أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من بلاد العالم بنمط إنتاجي معين وعقلية تجارية محددة ، وامتلاكهم خبرات إدارية ومهنية معينة ، جعل استمرارهم في المجتمع الجديد عسيراً ، فهم «ضحايا انتامهم» كما يقول أحد المراجع الإسرائيلية . ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسي في أمريكا اللاتينية ، يلاحظ زيادة هجرة أعضاء الجماعات . والوضع نفسه ينطبق على يهود جنوب أفريقيا ، فمع تزايد ثورات السود يتجه أعضاء الجماعة إلى الولايات المتحدة .

٣ - وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية في الخمسينيات إلى مركب من الأسباب ؛ منها قيام الدولة الصهيونية وما خلقته من مشاكل لليهود العرب ، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية . وما لا شك فيه أن التحول البنيوي الذي خاضته بعض المجتمعات العربية ، مثل المجتمع المصري والسوري ، وقيام تجارب تنمية تحت إشراف الدولة ، قد ساهما بشكل عميق في عملية خروج اليهود ، التي لا يمكن رؤيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين

لللكيان الصهيوني لم يُعد متوافراً بالكثافة نفسها . ولم يبق سوى الاحتياطي البشري الوحيد لللكيان الصهيوني في الاتحاد السوفيتي . إلا أن خروج اليهود السوفيت وتوجههم إلى إسرائيل يخضع للنمط نفسه الذي اقترحه : شرق أوروبا مصدر المادة البشرية ، والولايات المتحدة مستورد لها . ولكن ، كما أسلفنا ، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية ، وإغلاق باب الهجرة إلى أمريكا ، إلى تحويل هذه الأعداد إلى إسرائيل .

ولابد من التفرقة بين الهجرة والتهجير ؛ فالهجرة طوعية أما التهجير فهو قسري . ويمكن رؤية الحركة الصهيونية باعتبارها حركة تقف في وجه الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة وتحاول تهجير اليهود من كل أنحاء العالم إلى إسرائيل .

انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وعلاقتهم بفلسطين

Diffusion of Memembers of Jewish Communities in the World
and Their Relation to Palestine

يدعي الصهاينة أن فلسطين التي يُطلقون عليها مصطلح «إرتس يسرائيل» أو «أرض الميعاد» ، أو ما شابه ذلك من مصطلحات دينية أخرى ، هي مركز الوجدان اليهودي ، وأنها النقطة التي يتجه إليها اليهود معنوياً حينما يعجزون عن الاستيطان فيها ، وهي الأرض التي «يعودون» إليها فعلياً وبحض إرادتهم من «المنفى» أو «الشّتات» حينما تُفتح أبوابها لهم . ويحاول الصهاينة أن يجدوا تبريراً دينياً أو عرقياً أو إثنيّاً لرؤيتهم هذه . كما يقدمون رؤية للتاريخ تساند هذه الرؤية ، ولذلك فإنهم يجتزئون من الوقائع والحقائق ما يدعم رؤيتهم ويستبعدون ما عدا ذلك .

وإذا نظرنا إلى الرؤية الصهيونية من الناحية الدينية ، لوجدنا أنها تتعارض مع واحد من أهم التيارات داخل اليهودية الحاخامية ، التي تُحرّم على اليهودي أن يعود إلى صهيون (فلسطين) ، إذ أن عليه الانتظار حتى يأذن الرب له بذلك ، وأية محاولة للعودة هي بمنزلة الهرطقة والتعجيل بالنهاية . ولذلك ، فلا يوجد في يهودية العصور الوسطى ، أي في معظم التاريخ الديني لليهودية ، أي حديث عن العودة إلا باعتبارها حدثاً دينياً يتم بمشيئة الرب . ومع هذا ، يجب أن نشير إلى أن اليهودية ، بوصفها تركيماً جيولوجياً ، تحوي تياراً حلولياً قوياً يشجع على العودة الفعلية . وإذا كانت هناك نزعة صهيونية في النسق الديني اليهودي ، فهي نزعة كامنة مع مئات النزعات الأخرى .

هذا من الناحية الدينية . أما من الناحية التاريخية ، فالأمر أكثر

والبنوانيين من مصر من لم يستطيعوا التلازم مع إجراءات التمييز والتعريب والتأميم . وإلى جانب هذا ، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسماً من الحراك الاجتماعي باعتبار أن المستوى المعيشي في البلاد العربية أقل منه في إسرائيل . كما أن يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة في الولايات المتحدة . ويُلاحظ أن عدداً كبيراً من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشي المرتفع الذي يفوق نظيره في إسرائيل والتي تتميز باقتصاد متقدم ومن ثم تحتاج إلى خبراتهم ورأسامالهم . ومن ناحية أخرى ، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا حينما سنحت لها الفرصة ، فقد هاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب .

٤ - وفي هذا الإطار ، يمكن تفسير ظاهرة هجرة يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة ، فالهجرة إلى إسرائيل لن تؤدي إلى أي تحسّن في مستوى معيشتهم . كما أن التجمع الصهيوني لن يمكنه استيعابهم بخبراتهم المهنية والإدارية المتقدمة .

٥ - ويُلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوروبا والولايات المتحدة وكندا) لا يهاجرون إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية ، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيري ، وإن كان يُلاحظ أن يهود إنجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة ، ربما لتفاقم الأزمة الاقتصادية في إنجلترا ، فهي بلد ذات مستقبل اقتصادي مظلم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة .

٦ - بل يُلاحظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة ، شكلت ما يُسمى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها في بعض الإحصاءات نصف مليون ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا .

٧ - وفي الإطار نفسه أيضاً ، يمكن تفسير هجرة أو تهجير يهود الفلاشا تحت ظروف المجاعة ، فهي هجرة سيحققون من خلالها حراكاً اجتماعياً كبيراً .

ويمكن القول بأن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية آخذة في النضوب ، فأعضاء أكبر جماعة يهودية في العالم (في الولايات المتحدة) لا يهاجرون ، ويهود العالم الغربي إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة . ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم النمط نفسه . وقد تمت تصفية يهود العالم الشرقي والإسلامي ، فلم يبق سوى أفراد قلائل . وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط ، وكذلك عزوف اليهود عن الإنجاب ، في تناقص عدد اليهود الكلي وبالتالي تناقص عدد المهاجرين المحتمل ، وهو ما يعني أن الوقود البشري

نجددًا وتعبًا، إذ يدل تاريخ العبرانيين وتواريخ الجماعات اليهودية على أن المسرح الذي دارت فيه أحداث هذه التواريخ لم يكن فلسطين، باستثناء فترة قصيرة للغاية . وحتى حينما كان يوجد في فلسطين حكم يهودي مستقل ، لم تكن فلسطين دائماً مركزهم وإطارهم المرجعي ، إذ كان لكل جماعة حركياتها المستقلة وتوجهاتها التي يُحتمل عليها وضعها الاجتماعي والثقافي المرتبط بوضع البلد الذي توجد فيه . ولذا ، يمكن أن نقول إن الحقيقة الأساسية في تواريخ الجماعات اليهودية هي انتشارها في كل أنحاء الأرض وليس تركزها في فلسطين . والقراءة الصهيونية لتواريخ الجماعات اليهودية ، والتي ترى أن اليهود قد تم تشتيتهم قسراً من فلسطين ، وأنهم لو تركوا وشأنهم لعادوا تلقائياً وبشكل طوعي إليها ، هي قراءة متحيزة ومغلولة . فتاريخ العبرانيين في بداياته السديمية يبدأ بهجرة إبراهيم من أور إلى أرض كنعان ومنها إلى مصر . كما هاجر يعقوب ويوسف فيما بعد إلى مصر أيضاً . والهجرة من مكان إلى آخر غطت أساساً في حياة العبرانيين في فترة الآباء (٢٠٠٠ ق.م) التي تنتهي بالـ «خروج» ، أي هجرة موسى وقومه من مصر . وقد أثر بعضهم ، بحسب الرواية التوراتية ، الاستمرار في الحياة بمصر ، فخرج مع موسى «اللفيف» ، أي مجموعات عرقية أخرى غير عربية وغير متجانسة . وبعد التسلسل العبراني إلى أرض كنعان ، وبعد اتحاد القبائل العبرانية فيما يعرف باسم «المملكة العبرانية المتحدة» والتي انقسمت إلى المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية ، تم تهجير أعداد كبيرة من العبرانيين إلى آشور (٧٢٠ ق.م) ثم إلى بابل (٥٨٠ ق.م) . ولكن أغلبيتهم العظمى أثرت البقاء خارج فلسطين ، حتى بعد أن أصدر قورش الأخميني مرسومه الذي سمح بعودة اليهود إلى فلسطين ، ولكن يبدو أن الفقراء فقط هم الذين عادوا . كما كانت هناك فرقة المرتزقة اليهود في جزيرة إلفنتين التي استمرت في وجودها على حدود مصر الجنوبية .

ورغم إعادة بناء الهيكل وقيام السلطة الكهنوتية في فلسطين ، تحت رعاية الفرس أول الأمر ثم اليونانيين بعد ذلك ، حدثت هجرة يهودية طوعية كبيرة من فلسطين في عهد البطالمة ، وقد استعان هؤلاء بالجنود اليهود المرتزقة الذين استقروا في مصر مع أسرهم . كما هاجرت إلى مصر أعداد أخرى من اليهود لأسباب اقتصادية ، فكان منهم الفقراء والأغنياء والفلاحون والرعاة والجنود المرتزقة والقادة العسكريون . وقد أسس البطالمة مستعمرات في برقة كان يوجد فيها يهود . كما ظهرت جماعات من اليهود في مدن آسيا الصغرى بعد أن استولى السلوقيون على فلسطين بعد عام ٢٠٠ ق.م ، فقام

أنطيوخوس الثالث بنقل عدة آلاف جندي يهودي (هم وأسرهم) من بابل إلى آسيا الصغرى . وكانت توجد جماعات يهودية في اليونان ومقدونيا على شواطئ البحر الأسود والبلقان وبلغاريا وأرمينيا وقبرص وقرطاجنة وبرقة . ويلاحظ أن قيام الأسرة الحشمونية اليهودية في فلسطين ، التي تمتعت بقدر من الاستقلال السياسي في بعض مراحلها ، لم يُغيّر هذه الصورة العامة لانتشار أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين .

وحينما ظهرت روما بوصفها قوة عظمى وفرضت إطاراً سياسياً موحداً على منطقة البحر الأبيض المتوسط ، برز ذلك انتشار اليهود فظهروا أولاً عبيداً في العاصمة ، ثم هاجرت أعداد منهم وأصبحت مدن جنوب إيطاليا مراكز يهودية مهمة . وكانت توجد جماعات يهودية في الغال (فرنسا) ، وفي المدن الرومانية العسكرية على نهر الراين . وكانت الإسكندرية تضم جماعة يهودية كبيرة (في العصر الهليني ثم الروماني) تتحدث أغلبية أعضائها اليونانية أو اللاتينية . كما كانت أسماؤهم والنقوش التي على قبورهم يونانية ولاتينية في الغالب ، عبرية في النادر . أما وثائق الزواج والدفن الخاصة بهم ، فلم تكن تختلف عن الوثائق الخاصة ببقية المواطنين . وكان لليهود مصر هيكلهم الخاص في نيتوبوليس ، حيث كانت جماعتهم الدينية والفكرية مستقلة إلى حد كبير عن هيكل فلسطين ، ولذا استمرت هذه الجماعات اليهودية في حياتها الدينية والثقافية المستقلة بعد هدم هذا الهيكل . وربما كان أكبر دليل على أن الإسكندرية كانت مركز جذب أقوى من فلسطين ذاتها أنه حينما وقعت فيها بعض الاشتباكات بين اليهود والمواطنين الهلنستيين . أصدر الإمبراطور الروماني قراراً يحذر فيه اليهود من تشجيع هجرة إخوانهم من فلسطين .

وقد قدر الفيلسوف الإسكندري اليهودي فيلون أن عدد يهود مصر في القرن الأول الميلادي كان مليوناً ، بينما كان يُقدّر عدد اليهود في الأماكن الأخرى (ومنهم فلسطين) بمليونين ونصف

على يد الروس أولاً ثم على يد المغول في القرن الثاني عشر ، ولا نعرف أية جماعة منهم اتجهت إلى فلسطين .

ومع عصر النهضة والاكتشافات والاستعمار الغربي والإصلاح الديني ، بدأت في أوروبا المسيحية إرهابات الفكر الاسترجاعي ؛ أي إعادة توطين اليهود في فلسطين باعتبار أن عودتهم هي التمهيد لعودة المسيح . ولكن هذا الفكر لم يؤثر في الجماعات اليهودية في بادئ الأمر ، سواء في الشرق أو في الغرب ، بل ظل تفكيراً مسيحياً بروتستانتيّاً بالدرجة الأولى . ولا نسمع عن دعوات يهودية للعودة إلى فلسطين والاستيطان فيها إلا مع الانفجارات المسيحية مثل حركة الماشيخ اليهودي الدجال شبتاي تسفي في القرن السابع عشر ، وهي الانفجارات التي وقف ضدها حاخامات اليهود . ويظهر الفكر الصهيوني اليهودي لأول مرة ، في منتصف القرن التاسع عشر ، مع انتشار الفكر القومي والعنصري والإمبريالي . ولكن ، حتى بعد أن ظهرت الحركة الصهيونية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد عارضتها جميع المنظمات اليهودية المعروفة في ذلك الوقت ، ولم تتمكن من عقد مؤتمرها في ميونيخ حيث وجدت واحدة من أكبر الجماعات اليهودية وبسبب احتجاج حاخاماتها ، اضطرت إلى نقله إلى بازل حيث كانت هناك جماعة صغيرة بلا أهمية تذكر .

لكل ما تقدّم ، يصبح من العسير الحديث عن «نفي» اليهود أو عن تطلّعاتهم الدائم للهجرة إلى فلسطين ، فحركة انتشارهم في العالم لا يمكن تفسيرها في إطار مركز جذب صهيوني في فلسطين ، مقابل أطراف هامشية في كل أنحاء العالم . ولمحاولة فهمها بعيداً عن التحيزات الصهيونية العميقة المسبقة ، سنحاول أن نرصد بعض الآليات التي تشجع على الانتشار وتساهم فيه وتيسّره . ويمكن أن نقول أولاً إن انتشار أعضاء الجماعات اليهودية مرتبط أساساً بالإمبراطوريات العظمى التي توفر شبكة المواصلات والإطار القانوني الموحد ، وهما تعبير عن رغبة الإمبراطورية في تشجيع التجارة . وقد تأسست الجماعة اليهودية في بابل في إطار الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية ، واتسعت دائرة الانتشار مع الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية . وحدث الشيء نفسه مع الدولة الإسلامية ثم العثمانية . وقد كانت بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط الساحة الأساسية لانتشار الجماعات اليهودية ، وظلت مراكز اليهود الأساسية فيه هي : روما وإسبانيا والمغرب والدولة العثمانية وسالونيك وإيطاليا وفرنسا . أما الجماعات التي وجدت في

كانوا مواطنين يونانيين وعناصر بشرية أخرى غير يهودية . وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد يهود العالم في تلك الفترة كان ثمانية ملايين ، لم يكن منه سوى مليونين ونصف المليون في فلسطين . ولكن ، أيّا كان الأمر ، ثمة إجماع على أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين كان يفوق عدد اليهود داخلها قبل أن يقوم تيتوس بهدم الهيكل ، وأن عدد يهود الإسكندرية كان يفوق عدد يهود القدس وربما فلسطين كلها . ولهذا ، فإن محاولة ربط انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في العالم بواقعة هدم الهيكل وسقوط القدس ، واعتبار ذلك تشيئاً قسرياً ، هي من قبيل التفكير الأسطوري التحيزي لأراء مسبقة .

وقد استمر انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم بعد ضمور واختفاء المركز الديني في فلسطين . وقد كان لهذا الانتشار أعمق الأثر في تمايز اليهود وظيفياً واقتصادياً وتحوّلهم إلى جماعة أو جماعات وظيفية تضطلع بوظائف التجارة والربا . ويمكننا أن نضيف أن علاقة الانتشار بعملية تحوّل اليهود إلى جماعات وظيفية هي علاقة سبب ونتيجة في آن واحد . فقد ساهم الانتشار - ولا شك - في تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات تجارية ومالية وسيطة ، ذلك أن الوظائف التجارية والمالية هي وظائف يضطلع بها الوافدون الجدد دائماً . وقد كوّنت الجماعات اليهودية الوظيفية شبكة تجارية عالمية ضخمة في العالين الإسلامي والمسيحي ، وكانت لهم مراكز في الغرب (في إسبانيا وغيرها من الدول) ، وفي معظم ربوع العالم الإسلامي . ولكن تحوّلهم إلى جماعة وظيفية وسيطة زاد بدوره من عملية الانتشار ودعمها وكرّسها ووسع نطاقها .

ومثلاً اتجهت الجماعات اليهودية إلى أنحاء العالم كافة ، اتجهت بعض جماعات من اليهود إلى الهند والصين واستقرت فيها . وظل هذا الوضع من الانتشار قائماً خلال العصور الوسطى في الغرب ، فلا نسمع عن أية محاولات يهودية للعودة إلى فلسطين . ومع طرد اليهود من إسبانيا ، وجد يهود المارانو ملجأ لهم في الإمبراطورية العثمانية ، وفي بعض الدول الأوروبية مثل هولندا . وكان اليهود من رعايا السلطان العثماني يتمتعون بحرية الهجرة إلى فلسطين أو منها ، إلا أن اللاجئين الأوروبيين والرعايا اليهود كانوا ينجذبون إلى إسطنبول والقاهرة ودمشق وغير ذلك من حواضر الإمبراطورية التي كانت تتمتع بأوضاع أفضل اقتصادياً وسياسياً بالمقارنة مع فلسطين . أما بالنسبة ليهود الحزر ، فقد اتجهوا نحو شرق أوروبا (إلى المجر وفولندا) ، وذلك بعد تحطيم إمبراطوريتهم الصغيرة

الصين والهند وإثيوبيا والجزيرة العربية ، فهي جماعات صغيرة ليست ذات أهمية كبيرة .

وقد ظل هذا هو النمط الأساسي إلى أن استقر اليهود في شرق أوروبا وحدث الانفجار السكاني بين يهود الديشية في القرن التاسع عشر ، بحيث أصبحت أغلبية يهود العالم توجد داخل إطار الإمبراطورية الروسية التي كانت تعاني من تعثر التحديث . ومن ثم فإنها لم تحقق لأعضاء الجماعات اليهودية وغيرها من الجماعات ما كانوا يطمحون إليه من حراك اجتماعي ، كما أنها لم تكن تشجع المواطنين على الحركة . وكان الاستثناء الوحيد هو تشجيع اليهود على الاستيطان في روسيا الجديدة على ساحل البحر الأسود . ومن هنا كانت أكبر حركات انتشار اليهود في التاريخ هي انتقال الكتلة البشرية اليهودية (بأكملها تقريباً) من شرق أوروبا إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد . وقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية من حركة المواصلات ومن وجود بنية قانونية دولية . كما استفادوا من الحركة الإمبريالية الغربية ، خصوصاً الجانب الاستيطاني منها (والتشكيل الأنجلو ساكسوني على وجه الخصوص) . وما يجدر ذكره ، أن الحضارة الغربية كانت تنظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية

استيطانية ، ولذا فإن الانتشار اليهودي احدث يتبع حركة الاستيطان الغربي بمعنى أنها حركة داخل إطار الإمبراطورية الإمبريالية الجديدة ، ولا تختلف كثيراً عن حركة الجماعات اليهودية داخل الإمبراطوريات القديمة . وقد بدأ الاستيطان اليهودي في دول أمريكا اللاتينية ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وجنوب أفريقيا . ولكن الولايات المتحدة ، أهم التجارب الاستيطانية الغربية على الإطلاق ، كانت مركز الجاذبية الأكبر ، وقد انجبت الجماهير اليهودية إليها أنساً حتى أصبحت تضم أكبر التجمعات اليهودية وأكثرها قوة . ويمكن القول بأن معظم الدول التي انتشر فيها اليهود هي دول ساد فيها الاقتصاد الحر ووفرة الاقتصادية وتحقق نوعاً من الحراك الاجتماعي لتوافدين إليها . وتعدّ فلسطين آخر بلد للاستيطان اليهودي في العصر الحديث وأقلها جذبية ، ريم لأنها لا تقع في وسط العالم الغربي الذي يتجه إليه معظم يهود العالم في العصر الحديث وإذا تقع على أطرافه ، أي أن غط الهجرة من منظور المركز الفلسطيني لا يختلف في القرن الأول من الألف الأول الميلادي عنه في القرن الأخير من الألف الثاني ، فهي هجرة لا تتجه إليه وإنما هي هجرة تسجه بعيداً عنه .

حركة هجرة اليهود في العالم من ١٨٤٠ إلى ١٩٤٢
جدول (١)

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الأرجنتين	البرازيل	أوروغواي	الدول الأخرى في الأمريكتين	جنوب أفريقيا	فلسطين	آسيون الأخرى	الإجمالي
١٨٨٠/١٨٤	٢٠٠,٠٠٠	١,٦٠٠	٢,٠٠٠	٥٠٠	-	١,٠٠٠	٤,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٢١,١٠٠
١٩٠٠-١٨٨	٦٧٥,٠٠٠	١٠,٥٠٠	٢٥,٠٠٠	١,٠٠٠	-	١,٠٠٠	٢٣,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٤,٠٠٠	٧٦٤,٥٠٠
١٩١٤-١٩٠	١,٣٤٦,٤٠٠	٩٥,٣٠٠	٨٧,٦١٤	٨,٧٥٠	-	٣,٠٠٠	٢١,٣٧٧	٣٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١,٦٠٢,٤٤١
١٩٢٠-١٩١	٧٦,٤٥٠	١٠,٤٥٠	٣,٥٠٣	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٥,٠٠٠	٩٠٧	١٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	٨٩,٣١٠
١٩٢٥-١٩٢	٢٨٠,٢٨٣	١٤,٤٠٠	٣٩,٧١٣	٧,١٣٩	٣,٠٠٠	٧,٠٠٠	٤,٦٣٠	٦٠,٧٦٥	١٠,٠٠٠	٤٢٦,٩٣٠
١٩٣٠-١٩٢	٥٤,٩٩٨	١٥,٣٠٠	٣٣,٧٢١	٢٢,٢٩٦	٦,٣٧٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٤٤	١٥,١٧٩	١٠,٠٠٠	١٧٢,٩٠٨
١٩٣٥-١٩٣	١٧,٩٨٦	٤,٢٠٠	١٢,٧٠٠	١٣,٠٧٥	٣,٢٨٠	١٥,٠٠٠	٤,٥٠٧	١٤٧,٥٠٢	٢٠,٠٠٠	٢٣٨,٢٥٠
١٩٣٩-١٩٣	٧٩,٨١٩	٩٠٠	١٤,٧٨٩	١٠,٦٠٠	٧,٦٧٧	١٥,٠٠٠	٥,٣٠٠	٧٥,٥١٠	٦٠,٠٠٠	٢٦٩,٥٩٥
١٩٤٢-١٩٤	٧٠,٩٥٤	٨٠٠	٤,٥٠٠	٦,٠٠٠	١,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٣٢,٣٥٤
المجموع	٢,٨٠١,٨٩٠	١٥٣,٤٥٠	٢٢٣,٥٤٠	٧١,٣٦٠	٢٢,٣٢٧	٥٩,٠٠٠	٧٥,٧٦٥	٣٧٨,٩٥٦	١٣١,٠٠٠	٩,٩١٧,٣٨٨

وُلاحَظَ من جدول (٢) أن الولايات المتحدة استوعبت نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ مهاجر يهودي من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢,٦٥٠,٠٠٠ والذين أتوا أساساً من أوروبا الشرقية ثم الوسطى ، أي أنها استوعبت حوالي ٨٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود . وقد استقر نحو ٣٥٠ ألف مهاجر يهودي في أوروبا الغربية ، ونحو ٣٠٠ ألف في باقي بلدان العالم ، واستوعبت كندا نحو ٤٪ والأرجنتين ٥٪ وجنوب أفريقيا ٢٪ . ولم يستوطن فلسطين سوى ٥٠ ألفاً ، أي حوالي ٢٪ من مجموع المهاجرين . وقد استمر الوضع على ذلك في الفترة ١٩١٥ - ١٩٣١ ، أي قبل ظهور هتلر ، إذ استوعبت الولايات المتحدة ٥٥٪ من مجموع ٧٦٠ ألف مهاجر يهودي واستوعبت كندا ٦٪ ، والأرجنتين ١٠٪ ، واستوعبت بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى ٩٪ ، وجنوب أفريقيا ٢٪ ، والبلاد الأخرى ٣٪ . ولم يستوطن فلسطين سوى ١٥٪ على الرغم من أنه لم تكن توجد آنذاك قيود على الاستيطان فيها .

ولم يحدث أي تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات المتحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى في أوروبا وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا .

وقد بلغ الاستيطان اليهودي في فلسطين ذروته في الفترة بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٩ ، حيث استوطن فلسطين حوالي ٤٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفاً ، ولم يستوطن الولايات المتحدة سوى ٢٠٪ . وقد بلغ عدد المستوطنين الصهاينة في الفترة ١٩٣١ - ١٩٣٥ ، أي خلال أربعة أعوام ، حوالي ١٤٧,٥٠٢ (١٦٥,٧٠٤ بحسب تقديرات الموسوعة اليهودية) وهو عدد يساوي عدد كل المستوطنين الموجودين بالفعل والذين كانوا قد استوطنوا فلسطين خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠ . وفي الفترة من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ ، هاجر ٥١٠,٧٥٠ (تذكر الموسوعة اليهودية هذا الرقم على أنه ٨٦,٠٩٤) . وشهدت الفترة بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٨ تحوُّلاً طفيفاً في غط الهجرة إذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودي من مجموع ٣٠٠ ألف ، أي ٤٢٪ من مجموع المهاجرين ، إلى الولايات المتحدة ، واتجه إلى فلسطين ١٢٠ ألفاً أي ٤٠٪ فقط . وقد أدَّى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية في فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر إلى الحكم ، فكان الفوهرر نجح خلال ثمانية أعوام ، عن طريق خلق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوروبا ، في إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمي في إنجازه خلال نصف قرن (١٨٨٢ - ١٩٣١) ، أي أن الصهيونية الموضوعية البنيوية أكثر كفاءة وفعالية من

وجداول (١) يبيِّن حركة هجرة اليهود في العالم من ١٨٤٠ إلى ١٩٤٢ ، وهي أهم فترات الهجرة .

يُلاحَظَ من جدول (١) أنه من مجموع ٣,٩١٧,٣٨٨ من المهاجرين ، لم يتجه سوى ٣٧٨,٩٥٦ إلى فلسطين في فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ ، وذلك رغم كل النشاط الاستعماري والصهيوني المكثف . ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريباً لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية في الفترة نفسها ، (٣٧٦,٢٢٧) بفارق ٢,٦٢٩ يهودياً . ولو استبعدنا الهجرة فيما بعد عام ١٩٣١ حيث أغلقت أمريكا اللاتينية أبوابها ، فسنتكشف أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية كان ٢٧٠,٩٤٤ مقابل ١٢٥,١٢٥ إلى فلسطين . بل إن بلداً واحداً مثل الأرجنتين هاجر إليه ١٩١,٥٥١ ، أي أكثر من كل الذين هاجروا إلى فلسطين في الفترة نفسها (وبحسب إحصاءات روبين ، كان يوجد في الأرجنتين في عام ١٩٣٠ نحو ٢٢٠ ألفاً و ٢٩١ ألفاً في أمريكا اللاتينية كلها) . كما أن بلداً مثل كندا كان يضم ١٥٠ ألف يهودي في عام ١٩٣٠ ، بينما كانت فلسطين لا تضم سوى ١٧٠ ألفاً . ولكن التحدي الأكبر لأرض الميعاد كان يأتي من البلد الذهبي أو «الجلولدن مدينا» ، أي الولايات المتحدة . ففي الفترة التي نشير إليها ، هاجر إلى الولايات المتحدة ٢,٨٠١,٨٩٠ مقابل ٣٧٨,٩٥٦ هاجروا إلى فلسطين .

عدد المهاجرين اليهود إلى كلٍّ من الولايات المتحدة وفلسطين في الفترة ١٩١٥ - مايو ١٩٤٨ (جدول ٢)

السنة	الولايات المتحدة	فلسطين	السنة	الولايات المتحدة	فلسطين
١٩١٥	٢٦,٤٩٧	-	١٩٣٢	٢,٧٥٥	١٢,٥٥٣
١٩١٦	١٥,١٠٨	-	١٩٣٣	٢,٣٧٢	٣٧,٣٣٧
١٩١٧	١٧,٣٤٢	-	١٩٣٤	٤,١٣٤	٤٥,٢٦٧
١٩١٨	٣,٦٧٢	-	١٩٣٥	٤,٨٣٧	٦٦,٤٧٢
١٩١٩	٣,٠٥٥	١,٨٠٦	١٩٣٦	٦,٢٥٢	٢٩,٥٩٥
١٩٢٠	١٤,٢٩٢	٨,٢٢٣	١٩٣٧	١١,٣٥٢	١٠,٦٢٩
١٩٢١	١١٩,٠٣٦	٨,٢٩٤	١٩٣٨	١٩,٧٣٦	١٤,٦٧٥
١٩٢٢	٥٣,٥٢٤	٨,٦٨٥	١٩٣٩	٤٣,٤٥٠	٣١,١٩٥
١٩٢٣	٤٩,٧١٩	٨,١٧٥	١٩٤٠	٣٦,٩٤٥	١٠,٦٤٣
١٩٢٤	٤٩,٩٨٩	١٣,٨٩٢	١٩٤١	٢٣,٧٣٧	٤,٥٩٢
١٩٢٥	١٠,٢٩٢	٣٤,٣٨٦	١٩٤٢	١٠,٦٠٨	٤,٢٠٦
١٩٢٦	١٠,٢٦٧	١٣,٨٥٥	١٩٤٣	٤,٧٠٥	١٠,٠٦٣
١٩٢٧	١١,٤٨٣	٣,٠٣٤	١٩٤٤	١٥,٥٥٢	
١٩٢٨	١١,٦٣٩	٢,١٧٨	١٩٤٥	١٥,٢٥٩	
١٩٢٩	١٢,٤٧٩	٥,٢٤٩	١٩٤٦	١٨,٧٦٠	
١٩٣٠	١١,٥٢٦	٤,٩٤٤		٢٢,٠٩٨	
١٩٣١	٥,٦٩٢	٤,٠٧٥		١٧,١٦٥	

مشاكل عميقة - من المنظور الصهيوني - لأن المهاجرين يغيرون اتجاههم في النمسا أو أية محطات انتقالية أخرى ، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين . وحينما هاجر يهود الجزائر عام ١٩٦٥ ، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن ، ثم يهود إيران ، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة . ويلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضاً إلى الولايات المتحدة ، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا ، ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط . ويبلغ أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألف ، حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان .

ويدقّق تدفق الهجرة اليهودية على وطن لاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيداً عن «أرض الميعاد» ، على أن حركات التاريخ وتركيب النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكسح في طريقها كثيراً من التحيزات العقائدية الاختزالية . وتزويد لتيكاز الصهيوني بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاحه بدوره القتالي ، أغلقت الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفيت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية . كما تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكي لا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفيت الذين يقرعون أبوابها . كما أنها تعلن عن شتى الغريبات المالية لنمهاجرين الجدد . وعلى كل بعد تدفق نصف مليون يهودي روسي على إسرائيل (وئس الملايين التي تحدث عنها الإعلام العالمي ، أي الغربي . والغربي) على مدار عشرة أعوام تقريباً ، نصبت منابع المادة البشرية الاستيطانية اليهودية في شرق أوروبا ، خصوصاً العناصر الشابة الراغبة في الهجرة والقادرة عليها . وسيعود النمط القديم ليؤكد نفسه . أي تدفق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية ، أو أي أرض ميعاد أخرى تُحقّق لهم الحراك الاجتماعي . وبدلاً من تسمية الظواهر بأسمائها ، تشير الأدبيات الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة» .

الدياسبورا الدائمة

Permanent Diaspora

«الدياسبورا الدائمة» مصطلح قمنا بصكه لوصف وضع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، فرغم كل الادعاءات الصهيونية ،

الصهيونية العقائدية . فقد هاجر في تلك الفترة نحو ثلاثة ملايين يهودي من وطنهم الأصلي ولم تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين . ومع هذا ، لا يمكن إنكار دور الصهيونية والاستعمار في خلق هذا الموقف الصهيوني البنيوي . والواقع أن الدول الغربية ، ومنها الولايات المتحدة ، أوصدت بابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب ظروف الكساد الاقتصادي . أما الصهاينة ، فقد أيرموا مع النازيين معاهدة الميعاد التي ساهمت في توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين . وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم .

ويمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم ، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب عوامل الطرد الحادة في أوروبا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها .

ولعل الاستثناء الأساسي الآخر من النمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينيات ، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين . وفي الفترة نفسها ، أدّى إعلان الدولة اليهودية ، ونشاط العملاء الصهاينة ، وجّه بعض الحكومات العربية ، إلى خلق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت فلسطين . وعلى أية حال ، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين أيضاً بوصفها حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد . والهدف ليس خلاص الروح ، بطبيعة الحال ، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعي . فالعرب اليهود لم تُمكنهم ظروفهم الحضارية والاقتصادية ، ولا خبراتهم ، من الهجرة إلى أوروبا والولايات المتحدة ، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعي الذي فشلوا في تحقيقه بالدرجة التي يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية . ويلاحظ أن عدداً كبيراً من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية ، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك .

وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية ، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده ، أي يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التي أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل . ومن ثم ، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي تواجه

فلسطين، الأمر الذي يعني أن أغلبيتها الساحقة أثرت العيش في «المنفى»، رغم أن الدولة الصهيونية فتحت أبوابها على مصراعيها أمامهم .
كل هذا يعني في واقع الأمر أن المنفى ليس بمنفى ، وأن أرض الميعاد والعودة ليست أرض الميعاد أو العودة رغم كل الادعاءات الصهيونية .

الدياسبورا الإلكترونية

Electronic Diaspora

«الدياسبورا الإلكترونية» مصطلح صهيوني جديد ظهر مؤخراً يعبر عن أن المؤسسة الصهيونية قد قبلت الدياسبورا كحالة نهائية ، ولذا بدلاً من مطالبة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم بأن يهاجروا إلى إسرائيل ويستوطنوا فيها ، وبدلاً من النظر إليهم باعتبارهم " خونة " لعدم " عودتهم " إلى إسرائيل ، تقبل الحركة الصهيونية بقاء يهود العالم في أوطانهم وتحاول أن تربط الخبراء والفنيين منهم بمستقبل إسرائيل بحيث يساهمون في تقدم إسرائيل العلمي بخاصة في مجال الإلكترونيات ، وعلى أن تطور إسرائيل شبكة للتعاون الإلكتروني يتحكم فيها يهود العالم تحت إشراف إسرائيل .

وهذا التصور تعبير عن اليأس الصهيوني من " عودة " اليهود ، ولعل هذا يُفسّر نغمته البروتوكولية (يهود العالم - الدولة الصهيونية - شبكة إلكترونية يهودية .. إلخ) .

ورغم استخدام مصطلح «الدياسبورا» لوصف وضعهم ، إلا أن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين في المنفى . فالدياسبورا أو الشتات اليهودي مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية . وحالة الدياسبورا أو الانتشار هي حالة دائمة بغض النظر عما يحدث في فلسطين . بل إن اتجاه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها أحياناً ، ينبع من حركات لا علاقة لها بصهيون .

وفيما يلي جدول بأعداد أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين المحتلة والعالم، يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة ونهائية بالفعل .
أعداد اليهود في فلسطين المحتلة والعالم

السنة	عدددهم في فلسطين	نسبتهم ليهود العالم
١٨٨٢	٢٤,٠٠٠	٣,٠٪
١٩٠٠	٥٠,٠٠٠	٥,٠٪
١٩٢٥	١٢٢,٠٠٠	٨,٠٪
١٩٤٠	٤٦٧,٠٠٠	٢,٨٪
١٩٤٨	٦٥٠,٠٠٠	٥,٧٪
١٩٥١	١,٤٠٤,٠٠٠	١٢,٢٪
١٩٦٥	٢,٢٩٩,٠٠٠	١٧,١٪
١٩٧٥	٢,٩٥٩,٠٠٠	٢٠,٩٪
١٩٨٠	٣,٢٨٢,٧٠٠	٢٥٪
١٩٨٥	٣,٥١٠,٠٠٠	٢٧٪

أي أن رُبع الشعب اليهودي وحسب قرر الاستيطان في



يهود أم جماعات يهودية؟

١ الجماعات اليهودية الاساسية

الجماعات اليهودية الاساسية - سفارد وإشكناز - كمرادفين لمصطلحي «يهود شرقيون» و«يهود غربيون» - السفارد - الإشكناز - اليهود الغربيون - اليهود الشرقيون - اليهود المستعربة - الصابرا - حركة الكنتعنين

الجماعات اليهودية الاساسية

Major Jewish Communities

٢ - يهود شرقيون : وهؤلاء يضمون يهود الشرق والعالم الإسلامي والعربي ، والجماعات اليهودية المتفرقة .

ومضمون المصطلحين ثقافي ، فيهود جنوب أفريقيا يُعتبرون غربيين نظراً لانتمائهم إلى الجيب الاستيطاني الأبيض .

ولكن يبدو أن الأدبيات الصهيونية تؤثر استخدام مصطلحي «سفاردي» وإشكنازي، على «شرقي» و«غربي» ، وذلك للأسباب التالية :

١ - كلمتا «شرقي» و«غربي» كلمتان عامتان ، أما مصطلحا «سفاردي» وإشكنازي، فهما خاصان ومقصوران على اليهود ، كما أنهما مأخوذان من تراثهم اللغوي والديني . وأحدث عن «سفارد» وإشكناز هو حديث عن «يهود في يهود» أما الحديث عن «شرقيين» و«غربيين» فيشير إلى اختلافات حضارية حقيقية وعميقة تتجاوز الإطار المرجعي اليهودي .

٢ - كلمتا «سفارد» وإشكناز» نيس هما حدود دلالية واضحة ، بل متداخلتان ، الأمر الذي يجعل استخدامهما كأدوات تحليلية أمراً صعباً .

٣ - وهذا التداخل التصنيفي الخاطئ ، «شرقي» و«سفاردي» من جهة و«غربي» وإشكنازي من جهة أخرى ، يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (سالب وموجب - ذكر وأنثى - نعم ولا - أبيض وأسود) المرتبطة بتغلغل العقلية العنصرية المادية . لكن الجنوح نحو التصنيف الثنائي يخدم الصهانية بشكل خاص ، فهو يستبعد عشرات الجماعات اليهودية التي لا ينتمي أعضاؤها إلى أيٍّ من الفريقين ، مثل الفلاشا وبني إسرائيل ، ويُسطر الأمر تماماً ، فيصبح اليهود جماعةً إثنيتين كلٍّ منهما تشبه الأخرى في نهاية الأمر . أما إذا أخذنا بتصنيف تعددي ثلاثي أو رباعي أو خماسي ، أو بتصنيف يتعدّد بعدد الجماعات اليهودية في العالم فسيمكنا إدراك التنوع ، وهذا ما يحققه مصطلحا «شرقي» و«غربي» . فرغم أن هذا التصنيف ثنائي أيضاً فإنه ليس مغلقاً وإنما هو تصنيف مفتوح ، فكلمة «شرقي» تشير إلى عشرات التشكيلات الحضارية الفعلية والممكنة ، وكذا كلمة «غربي» .

«الجماعات اليهودية الاساسية» هي الجماعات اليهودية التي يؤمن أعضاؤها باليهودية الحاخامية . وتعيش هذه الجماعات أساساً في العالم الغربي والعالم الإسلامي . وقد انقسمت هذه الجماعات على أساس قومي (فرنسي - أمريكي - إنجليزي) ، أو على أساس ديني (إصلاحي - محافظ - لاديني . . . إلخ) ، أو على أساس إثني (يهودي إثني - يهودي غير يهودي . . . إلخ) . ونحن نضع الجماعات اليهودية الاساسية مقابل الجماعات المنقرضة (مثل الحَزَر) أو الهامشية (مثل يهود الهند) .

«سفارد وإشكناز» كمرادفين لمصطلحي «يهود شرقيون» و«يهود غربيون» ،

Sephardim and Ashkenazim as Synonymous with Oriental and Western Jews

شاع في الدراسات العربية استخدام مصطلحي «إشكناز» و«سفارد» باعتبارهما مرادفين لمصطلحي «يهود غربيون» و«يهود شرقيون» . وفي الدولة الصهيونية ، تُستخدم عبارة «عيدوت مزراحي» للإشارة إلى الجماعات الشرقية بأسرها بغض النظر عن انتمائها الديني أو الإثني ، وهو استخدام غير دقيق في تصوّرنا ويطمس كثيراً من معالم التجمع الصهيوني التي لا بد من رصدها .

لقد تكونت الدولة الصهيونية عند إنشائها من أعضاء ينتمون إلى جماعات يهودية كثيرة . ولتبسيط الأمر قليلاً ، يمكن تقسيمهم إلى قسمين أساسيين :

١ - اليهود الغربيون : وهؤلاء هم اليهود الذين ينتمون حضارياً إلى العالم الغربي بغض النظر عن أصولهم سواء أكانت إشكنازية أم سفاردية . ومن ثم يُشار إلى جميع المهاجرين من أمريكا أو من الاتحاد السوفيتي بأنهم «غربيون» ، وقد يضم إليهم يهود من جورجيا وسفارد من هولندا .

يهود البلاد العربية والإسلامية ، أو يهود اليديشية ، أو يهود بني إسرائيل ، أو يهود الفلاشاه . كما نستخدم مصطلح «الجماعات اليهودية» في صيغة الجمع ثم نشر ، على سبيل المثال ، إلى الجماعة اليهودية في هولندا في القرن التاسع عشر (مثلاً) من باب التخصص المكاني والزمني .

السفاردي

Sephardim

«سفاردي» مصطلح مأخوذ من الأصل العبري «سفارديم» . ويُشار إلى السفاردي أيضاً بكلمة «إسبانيولي» ، وباليديشية بكلمة «فرانك» التي تشبه قولنا بالعربية «الفرنجية» (ومن هنا تسمية جيكون فرانك ، أي جيكون السفاردي) . و«سفاردي» اسم مدينة في آسيا الصغرى تم ربطها بإسبانيا عن طريق الخطأ فترجمت الكلمة في الترجمات (الترجمة الأرامية لأسفار موسى الخمسة) إلى «إسباميا» ، و«سباميا» ، أما في البشيطا (الترجمة السريانية لأسفار موسى الخمسة) فهي «إسبانيا» . وابتداءً من القرن الثامن الميلادي ، أصبحت كلمة «سفاردي» هي الكلمة العبرية المستخدمة للإشارة إلى إسبانيا . وتستخدم الكلمة في الوقت الحاضر للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصلاً في إسبانيا والبرتغال ، مقابل الإشكناز الذين كانوا يعيشون في ألمانيا وفرنسا ومعظم أوروبا . وقد استقر أعضاء الجماعة اليهودية في شبه جزيرة أيبيريا في أيام الإمبراطورية الرومانية . ولكن أهم فترة في تاريخهم هي الفترة التي حكم فيها المسلمون شبه جزيرة أيبيريا والتي يُشار إليها باسم «العصر الذهبي» . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يتحدثون العربية في تلك الفترة ، ويفكرون ويكتبون بها . ثم جاء الغزو المسيحي لشبه الجزيرة واستردادها ، فاكسب اليهود الصبغة الإسبانية وتحدثوا باللادينو ، وهي لهجة إسبانية ، ثم تم طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢ ، ومن البرتغال عام ١٤٩٧ ، فاتجهت أعداد منهم إلى الدولة العثمانية التي كانت تضم شبه جزيرة البلقان وشمال أفريقيا . ويُعد ميناء سالونيك (في شبه الجزيرة اليونانية) عاصمة السفاردي في العالم حتى الحرب العالمية الأولى ، فقد كانت هذه المدينة تضم أغلبية سفاردية . ومن أهم المدن الأخرى التي استقر فيها السفاردي في الدولة العثمانية : أدرنة والأستانة وصفد والقدس والقاهرة .

وبعد قرن من الزمان ، لحقت بجماعة السفاردي جماعات المارانو ، وهم من يهود السفاردي المتخفين (البرتغاليين) ، فاتجهت جماعات منهم إلى هولندا وفرنسا ، كما اتجهت جماعات أخرى إلى

٤ - يُلاحظ أن مصطلحي «سفاردي» و«إشكناز» يصلحان إلى حد كبير لتصنيف يهود العالم الغربي ، وبالتالي يمكن استخدامهما إذا كان اليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي هم موضوع النقاش . ولذا ، فحينما يتناول الدارس تاريخ الجماعة اليهودية في إنجلترا مثلاً ، فبإمكانه أن يتحدث عن النخبة السفاردية والجماهير الإشكنازية (اليديشية) حتى أواخر القرن التاسع عشر . وينطبق الشيء نفسه على يهود هولندا وفرنسا وهكذا . والمصطلحان يستبعدان الجماعات اليهودية الأخرى في العالم كافة ، ولا غشاضة في هذا مادام مجال النقاش هو يهود الغرب . ولكن الصورة تتغير إذا كان منظور التحليل هو العالم . وقد أصبح هذا هو الأمر الغالب بعد ظهور المنظمة الصهيونية التي تعطي نفسها صورة العالمية ، وتدعي الحديث باسم كل يهود العالم ، وتجعل العالم كله ساحتها . عندئذ يصبح مصطلحا «سفاردي» و«إشكناز» قاصرين عن تناول الظاهرة . وهنا ، فلا بد من استخدام مصطلحي «شرقي» و«غربي» للوصول إلى أعلى مستوى تعميمي ، مع استخدام عدد آخر من المصطلحات إن أراد الباحث تناول الجماعات اليهودية على مستوى أكثر تخصيصاً . فاليهودية الغربية ، أو الجماعات اليهودية في الغرب ، لم تعد الإطار المرجعي الوحيد . وهذا التحول في مجال النقاش ، من يهود الغرب إلى يهود العالم ، هو ما أدّى إلى تداخل المصطلحين وحدث الخلل الذي نحاول تحاشيه .

٥ - كان مصطلحا «سفاردي» و«إشكناز» صالحين بصفتهم أديين تحليليتين حتى القرن التاسع عشر . ولكن ، مع ظهور الدولة القومية الحديثة ، واتساع نطاق الثورة العلمانية ، لم يعد الانتماء الديني الإثني هو محك الهوية ، وبدأ يهود الغرب يُصنّفون أنفسهم بناء على انتمائهم القومي ؛ فهذا يهودي إنجليزي وذلك يهودي هولندي ، وهلم جرا . أما على الأساس الديني فهم يهود إصلاحيون أو محافظون أو أرثوذكس أو الحاديون وعلى مستوى الهوية يمكن تصنيفهم على أنهم يهود إثنيون أو إندماجيون أو يهود غير يهود . . الخ . وهكذا ضمير الانتماء السفاردي أو الإشكنازي ، ولم يعد المصطلحان صالحين .

لكل هذا ، فإننا نستخدم هنا مصطلحي «سفاردي» و«إشكناز» حين يكون موضوع النقاش هو يهود الغرب حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أو حينما نود الإشارة إلى السفاردي أو الإشكناز بالمعنى المحدد . وفيما عدا ذلك ، فإننا نستخدم مصطلحي «شرقي» و«غربي» ، فهما مصطلحان عامان يغطيان كل التوزيعات والهويات اليهودية المختلفة . كما أننا نستخدم مصطلحات أكثر تحديداً ، مثل :

دوراً مهماً في تطوّر الرأسمالية الغربية وبروز النظام الاقتصادي الجديد (في العالم) واتساع نطاق حركة الاكتشافات الجغرافية . وقد بدأ السفارد يستثمرون في كثير من المشروعات الاستعمارية الهولندية ، فامتلكوا عدداً كبيراً من أسهم شركة الهند الغربية الهولندية . في حين ظل الإشكناز على هامش هذا التطور ، فكان منهم صغار التجار وكان منهم المرابون المرتبطون بالنظام الاقتصادي القديم . ولعل هذا يُفسّر بقاء المسألة اليهودية مسألة إشكنازية بالدرجة الأولى . ففي فرنسا مثلاً ، اصطدم النظام الجديد بعد الثورة بيهود الأتراس واللورين ، وهم من يهود اليديشية الإشكناز ، بينما لم تُحدث أية مواجهة بين هذا النظام وبين يهود بايون وبوردو من السفارد . وفي إنجلترا ، لم تكن هناك مسألة يهودية إلا بعد هجرة يهود اليديشية بحافلهم المتخلفة إليها .

وقد حقق السفارد بروزاً غير عادي في المجتمعات الغربية خصوصاً هولندا . وكان منهم أعداد كبيرة من يهود البلاط . كما اشتركوا في تمويل بعض الشركات الاستيطانية . وقد بلغ اليهود السفارد قمة نفوذهم المائي في نهاية القرن السابع عشر . ولكن وَضَعَهُم أخذ في التدهور بعد ذلك التاريخ ، وذلك مع ظهور القوة البريطانية وانكماش القوة الهولندية ، ومع تزايد حجم التجارة الدولية التي لم يتمكن رأس المال السفاردي من استيعابها ، ومع ظهور بورجوازيات محلية حلت محل يهود البلاط . وقد أدّى وصول قوات الثورة الفرنسية إلى هولندا إلى قطع علاقة أعضاء الجماعات اليهودية فيها بالشبكة التجارية اليهودية في ألمانيا وبولندا والدولة العثمانية ، ومن ثم فَقَدَ السفارد ما تَبَقَّى لهم من قوة وثروة ، وحدث التراجع الذي رجَّح كفة الإشكناز .

والجدير بالذكر أن عبرية السفارد مختلفة عن عبرية الإشكناز . وهذا يعود إلى أن يهود انعامم العربي كانوا منذ أيام الأندلس لا يتحدثون إلا العربية ، واقتصروا استخدام العبرية على الكتابة الدينية المتخصصة . وقد كان لاحتماك اليهود بالعرب أثر عميق في لغتهم ، فقد ازدادت عبريتهم فصاحة بمجاورتها اللغة العربية التي تُعدُّ أرقى لغات المجموعة السامية كلها . وقد تَرَتَّبَ على ذلك أن دولة إسرائيل ، التي قامت على أكتاف الإشكناز ، وجدت نفسها رغم كل شيء مُضْطَرَّةً إلى اعتبار عبرية السفارد هي لغة المسرح الرسمية وكذلك لغة الإذاعة والتعليم في الجامعات والمدارس . وقد اضطر المؤلفون في الأدب العبري الحديث ، أو العاملون في مجال الدراسات اللغوية ، حتى وإن كانوا من الإشكناز ، إلى الخوض المطلق للسان السفارد . ولكن هذا لا ينبغي أن هناك مزيجاً لغوياً في

أماكن أخرى في أوروبا ، مثل : إنجلترا وألمانيا وإيطاليا والدنمارك والنمسا والمجر ، وإلى العالم الجديد (البرازيل والولايات المتحدة) ، حيث أعلنت أعداد منهم عن هويتهم الدينية ومارسوا العقيدة اليهودية بشكل علني . وكان المُبْعَدُونَ من السفارد إسبانيين أو برتغاليين في تراثهم وثقافتهم ولباسهم وطهّوهم وأسمائهم ، ولذا كان يُطلَقُ عليهم اسم «الأسبان» أو «البرتغاليون» . وقد احتفظ هؤلاء المُبْعَدُونَ بعلاقاتهم الثقافية بوطنهم الأصلي ، حيث كانوا معتزين بهذا التراث وبالمكانة العالية التي حققوها في هذه البلاد .

وقد ظهر في صفوف السفارد عدد كبير من المفكرين مثل أوريل داكوستا . وليس من قبيل الصدفة أن أول مفكر يهودي يُعَدُّ به في العصر الحديث كان سفاردي الأصل ، وهو إسيبنوزا . كما أن قِبَالَةَ الزوهار ، وكذلك القِبَالَةَ اللوريبانية التي اكتسحت أوروبا الإشكنازية ، كانت من أصل سفاردي ، وكذا الشولحان عاروخ ، أهم المصنفات الفقهية اليهودية ، حيث وضعه يوسف كارو . وكان شبتاي تسفي (الماشيج الدجال) من أصل سفاردي أيضاً ، أي أن كل التطورات التي حدثت بين الجماعات اليهودية في هذه الفترة كانت ذات أصول سفاردية .

وقد كان السفارد يُصَرِّون على الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الإشكناز ، الذين كانوا يتسمون بقدر كبير من العزلة والتخلف الحضاريين . وأخذت هذه المسافة شكل مؤسسات دينية وتعليمية مستقلة ، ورفض الزواج المُختلَط من الإشكناز ، حتى أن السفاردي الذي يتزوج من إشكنازية كان يُطْرَد من الجماعة السفاردية ولا يُدْفَن في مدافنها . وحينما كانت الجماعة السفاردية تضطر إلى السماح لبعض الإشكناز بحضور الصلوات في معبدها ، فإن أعضاءها كانوا يصلون وراء حاجز خشبي يُقام بهدف الفصل بين أعضاء الجماعتين . وحينما كانت أية جماعة سفاردية تهاجر إلى أية مدينة ، فإنها كانت تحتفظ باستقلالها وإحساسها بتفوقها وتَفَوُّقَ قيمها ، حتى أنها كانت تصبغ بقية الجماعة بصبغة سفاردية . هذا ما حدث على سبيل المثال في الدولة العثمانية ، حين امتزج اليهود الروم (الرومانيوت) واليهود المستعربة باليهود السفارد ، فأصبحت اللادينو هي اللغة السائدة بينهم . وقد حدث الشيء نفسه في شمال أفريقيا .

وفي العصر الحديث ، كانت الهجرة اليهودية في الغرب تأخذ الشكل التالي : يستقر أعضاء جماعة سفاردية تمتلك من الخبرات ورؤوس الأموال والاتصالات الدولية ما يجعل منها جماعة تجارية إدارية متقدمة ، ثم تأتي الجماهير الإشكنازية وتلتحق بهم ، وكان السفارد يشغلون في معظم الأحيان قمة الهرم . ولذا ، لعب السفارد

إشكنازي	سفاردي	المصطلح
معاريف	عربت	صلاة العشاء
آرون	هيكل	تابوت العهد
سيدر	هاجاده	صلاة عيد الفصح
يوم كيبور	كيبور	يوم الغفران
راباي	ربي/راف	حاخام
سيدور	تيفيلوت	كتاب صلاة

وبسبب هذه الاختلافات وغيرها ، اكتسب مصطلح «سفارد» دلالة دينية إلى جانب دلالاته الإثنية الأصلية ، وأصبح يُطلق على كل اليهود الذين يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة سواء أكان أصلهم يعود إلى شبه جزيرة أيبيريا أم يعود إلى غير ذلك .

ويُطلق المصطلح الآن على كل اليهود الذين لا ينتمون إلى أصل إشكنازي غربي في التجمع الإسرائيلي . ولكن مما يثير بعض المشاكل في التصنيف أن الحسيديين ، وهم من الإشكناز ، اقتبسوا كثيراً من التقاليد والطقوس السفاردية ، كما أن بعض اليهود الهولنديين والإنجليز يتبعون التقاليد السفاردية في العبادة . ولذا ، فحينما نتحدث عن سكان التجمع الصهيوني من اليهود نقول : «اليهود الإشكناز» و«اليهود السفارد» ، و«يهود البلاد الإسلامية» ، أو نقول : «يهود شرقيون» و«يهود غربيون» بدلاً من «سفارد» و«إشكناز» حتى لا نَسْقُط في التصنيفات الثنائية البسيطة والسهلة التي تُشوِّه الواقع .

وقد تدهور وضع اليهود السفارد ، كما أسلفنا ، بعد أن كانوا الأكثر عدداً والأعلى مكانة والأكثر ثقافة . ففي العصور الوسطى ، كانوا يشكلون نصف يهود العالم ، وكانوا على احتكاك بمؤسسات صنع القرار في بلادهم ، كما كانوا يشتغلون بالشئون المالية المتقدمة . ولكن ، ابتداءً من القرن السابع عشر ، بدأ صعود الإشكناز عددياً ثم ثقافياً . ورغم وجود أقليات سفاردية مهمة في لندن وأمستردام حتى القرن التاسع عشر ، زاد المد الإشكنازي وغطى الانفجار السكاني في صفوفهم على السفارد تماماً . ومع الحرب العالمية الثانية ، كان يهود العالم يبلغون ١٦,٥٠٠,٠٠٠ ، منهم ١٥ مليون إشكنازي ، والباقي سفارد بالمعنيين الديني والعرقي . وتوجد أغلبية السفارد في شمال أفريقيا (ما بين ٢٥٠ ألفاً إلى ٣٠٠ ألف) وأوروبا (٢٥٠ ألفاً) . كما كان هناك عدد كبير في أمريكا اللاتينية (١٢٠ ألفاً) ، وتركيا (٧٣ ألفاً) ، وفلسطين (٤٧ ألفاً) ، وتوزَّع

جبهة السفارد ذاتها ، فبعضهم (مثل المارانو) يتحدث اللادينو أو البرتغالية ، أما البعض الآخر فيتحدث اليونانية أو التركية وهم أقلية . وقد انعكس هذا التباين اللغوي على طريقة نطقهم للعبرية . بل إن هذا التباين يمكن ملاحظته في نطق العبرية بين اليهود الذين يتحدثون اللغة نفسها ، فممة سمات محلية في النطق أصبحت تميز اليهودي العراقي عن اليهودي اليمني أو المغربي ، ليست نتيجة احتكاكه باللغة العربية الفصحى وحسب بل ونتيجة احتكاكه العميق باللهجة التي يتحدث بها مواطنو بلده . وفي الوقت الحاضر ، بدأ السفارد يتحدثون (أساساً) لغة البلاد التي يتواجدون فيها .

ولا يوجد اختلاف جوهري بين السفارد والإشكناز في العقائد ، فكلاهما يعتبر أن التلمود البابلي هو المرجع النهائي . ومع هذا ، كان ليهود إسبانيا طريقتهم الخاصة في الصلاة وإقامة الشعائر الدينية التي تُعد استمراراً للتقاليد الدينية اليهودية التي نشأت وتطورت في بابل . أما الإشكناز ، فتعود عبادتهم أساساً إلى أصول يهودية فلسطينية . وقد تعمقت الفروق بين الفريقين نتيجة تأثير السفارد في عبادتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربي ، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبه بما يُمثلها عند المسلمين .

ويُلاحظ أن السفارد ، بسبب مستواهم الثقافي العالي ، كانوا أكثر تسامحاً وأوسع أفقاً . ومن هنا نجد أن الشولحان عاروخ (المُصنَّف التشريعي الذي وضعه كارو السفاردي) أكثر ليبرالية من تلك الرؤية التي سادت بين الإشكناز عند صدره . وهناك اختلافات بين السفارد والإشكناز تعود إلى اختلاف البيئات الحضارية التي عاش في كنفها أعضاء الجماعات اليهودية السفاردية والإشكنازية . ففي عيد الفصح ، يستخدم السفارد الخس باعتباره أحد الأعشاب المرة التي تُؤكل في هذه المناسبة بدلاً من الفجل الحار . أما الصلوات في المعبد ، فهي مختلفة في كثير من النواحي السطحية ، وعلى سبيل المثال ، يرفع السفارد مخطوطة التوراة قبل قراءتها على خلاف الإشكناز الذين يرفعون ذلك بعدها . كما أن الخط المستخدم في كتابة المخطوطة مختلف . وكذلك ، فإن معمار المعبد السفاردي يختلف ، في بعض التفاصيل ، عن معمار المعبد الإشكنازي .

وتختلف المصطلحات الدينية بين الإشكناز والسفارد على النحو التالي :

يديشي يقول "فرانك كرانك"، أي «السفارد مرض»، والرد الشرقي السفاردي هو الإشارة إلى «الإشكي نازي» بكل تداعيات الكلمة في الذهن الإسرائيلي. ويبدو أن التمييز العنصري مستمر بالنسبة لأبناء اليهود الشرقيين ممن وُلدوا ونشأوا في إسرائيل. وقد اتضح هذا في النظام الحزبي في إسرائيل، فقد ظهرت فيه الأحزاب الإثنية بعد إعلان الدولة الصهيونية، وقد أعلن الصهاينة حينذاك أن هذا أمر مؤقت وأن الصهيونية (أي القومية اليهودية) ستصهر الجميع في بوتقة واحدة. ولكن ظهر في التسعينيات أحزاب تعبر عن الانقسام الإثني فيضم حزب شاس (الديني) اليهود السفارد، أما حزب إسرائيل بعاليه (العلماني) فيضم المهاجرين السوفيت.

الإشكناز

Ashkenazim

«الإشكناز» من «إشكنازيم» العبرية. و«الإشكناز» هم يهود فرنسا وألمانيا وبولندا. و«إشكناز» حسب الرواية التوراتية، اسم أحد أحفاد نوح. ومن المحتمل أن تكون الكلمة قد استُخدمت للإشارة إلى قبيلة ظهرت في زمن أسرحدون تحالف أعضاؤها مع آشور. وهم الذين تشير إليهم المدونات الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد بلفظ «إشوكوزا»، وهم الذين أشار إليهم اليونانيون بكلمة «إسكيشيانز» Scythians، وهم الإسكيشيون. ويبدو أن هذه الأقوام كانت تشغل المنطقة الموجودة على حدود أرمينيا في أعالي الفرات، وجزءاً من مملكة الميديين. ويقرن يوسفوس كلمة «إشكناز» بمدينة في مركز ميديا. وفي بعض الكتابات الاخاخامية، يُشار إلى آسيا بأسرها باعتبارها «إشكناز»، كما كان يُشار إلى الخزر باعتبارهم «إشكناز». بل واستُخدمت الكلمة للإشارة إلى حملات الفرنجة.

أما الاشتقاق الخالي لكلمة «الإشكناز»، فهو من كلمة «إشكناز» بمعنى «ألمانيا». ومن الصعب معرفة متى حدث هذا الترادف. وثمة آراء احتمالية عدة، فهناك من يربط بين إشكناز وإسكندنافيا، وهناك من يربط بينها وبين الساكسون ومن ثم بينها وبين ألمانيا. ومع زمن راши، أصبح هذا الترادف أمراً مقبولاً تماماً، فهو يشير إلى «لشون إشكناز»، أي «اللسان الألماني» أو «اللغة الألمانية». وكان يشير إلى «إرتس إشكناز» أي «أرض ألمانيا». ومن هنا، أصبح المصطلح يشير إلى يهود فرنسا وألمانيا ونسلهم من اليهود الذين هاجروا إلى إنجلترا وشرق أوروبا (بولندا وليتوانيا) بعد حروب الفرنجة. وي طرح آرثر كوستلر نظرية أخرى عن أصل أكبر كتلة بشرية

الباقية على ثلاث دول أخرى. لكن هذه الأرقام غير دقيقة، كما أنها تضم اليهود المستعربة ضمن السفارد، وكذلك أعضاء الجماعات اليهودية الأخرى (مثل الفلاشا وبنو إسرائيل والدونغه).

وقد أدت تقلبات القرن العشرين، من تحديث في اليونان والدولة العثمانية، وحروب بين اليونان وتركيا، إلى تشتيتهم من مراكز تجمعهم الأساسية، لا سيما وأن عاصمتهم سالونيك كانت مدينة تركية في شبه الجزيرة البونانية. وقد تم إخلاء سكانها وتهجيرهم إلى تركيا، وضمن ذلك اليهود، باعتبارهم أتراكاً، خصوصاً وأن نسبة كبيرة من سفارد سالونيك كانوا من الدونغه، أي من اليهود المتخفين الذين أظهروا الإسلام، ولذلك تم تصنيفهم باعتبارهم مسلمين. وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية حيث كان الجو الحضاري اللاتيني موافقاً لهم.

وقد انعكس الانقسام بين السفارد والإشكناز على الجماعة اليهودية في فلسطين، إذ كانت هذه الجماعة تنقسم بدورها إلى إشكناز وسفارد، ولكل جماعة حاخام خاص بها. وقد ارتبط اليهود غير الغربيين (المغاربية والمستعربة) بالحاخامية السفاردية، ومن هنا كان اختلاط المجال الدلالي للكلمة بحيث أصبحت تشير إلى كل من ليس بإشكناز. وكانت السلطات الإنجليزية تفضل السفارد واليهود المستعربة على الإشكناز، نظراً لأن الفريق الأول كان يعرف تقاليد فلسطين أكثر من الوافدين الجدد.

وإذا كانت المسألة اليهودية مسألة إشكنازية، فإن الصهيونية أيضاً ظاهرة إشكنازية. والواقع أن كل مفكري الصهيونية، بدون استثناء، إشكناز. وربما كان الاستثناء الوحيد هو الحاخام القلمي الذي تنبع صهيونيته من رؤاه القبلية، وكان يعيش في أطراف الدولة العثمانية (في شبه جزيرة البلقان). وقد كانت الصهيونية إشكنازية لدرجة أن كلمة «يهودي» في الأدبيات الصهيونية الأولى كانت مرادفة لكلمة «إشكنازي» بمعنى «يديشي». كما أن المشروع الصهيوني كان مشروعاً غربياً لحماية مصالح الغرب في الشرق. ولكن بعد تأسيس الدولة، هاجر الألوف من يهود الشرق إليها، الأمر الذي أدى إلى زيادة العنصر غير الإشكنازي في الدولة. وقد أعطاها هذا الطابع الذي يُقال له «سفاردي أو شرقي».

وتتسم العلاقات في المستوطن الصهيوني بين الشرقيين والسفارد من جهة، والإشكناز من جهة أخرى، بالتوتر الشديد، فيشير الإشكناز للشرقيين بوصفهم «سفارتز» (أي «سود» أو «شحورم»، مع تحميل الكلمة إيحاءات قذحية)، وهناك مَثَل

الحضارات التي عاشوا بين ظهرانيها برغم تأثرهم بها ، وانغلقوا على الكتاب المقدس والتلمود وعلى تفسير النصوص الجزئية . كذلك لم يحاول الإشكناز جمع الشريعة وتقنياتها والتوصل إلى مبادئها العامة .

والاختلافات بين السفارد والإشكناز في الأمور الدينية ليست عميقة ، وقد حصرنا بعضها في مدخل السفارد . ولكن يلاحظ أن تأثير السفارد الفكري الديني في الإشكناز كان عميقاً . فرغم أن بدايات القبالة إشكنازية ، فإن تحولها إلى نسق متكامل في قبالة الزهار ثم القبالة اللوربانية تم على يد السفارد ، بل إن الفكر القبالي ذاته يكاد يكون فكراً سفاردياً ، وهو الذي اكتسح الفكر الحاخامي الإشكنازي . كما أن أهم كتب الشريعة اليهودية (الشولحان عاروخ) كتاب سفاردي كتب عليه أحد الإشكناز شروحاً وتعليقات . وقد لاحظ أحد المفكرين أثر الفكر المسيحي في الفكر الديني للإشكناز ، فظاهرة الاستشهاد فيما يُعرف بمصطلح «تقديس الاسم» (بالعبرية : «قيدوش هاشيم») هي ظاهرة إشكنازية لعلها جاءت نتيجة تأثير واقعة الصلب في المسيحية على اليهود . أما المارانية ، وهي شكل من أشكال التقية ، فهي ظاهرة سفاردية . ويمكن ملاحظة تأثير الفكر المسيحي في الحسيدية أيضاً ، على عكس الفكر السفاردي الذي تأثر في بعض جوانبه بالفكر الديني الإسلامي .

ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن المشيحية (وهي المعبرة عن إحباط الجماهير) حركة إشكنازية بالدرجة الأولى رغم أن الفكر القبالي فكر سفاردي ، ورغم أن شبتاي تسفي (أول ماشيغ دجال في العصر الحديث) سفاردي . كما أن قيادة هذه الحركات انتقلت إلى الغرب بعد حركة شبتاي تسفي . فجيكون فرانك إشكنازي (رغم تبني بعض الأساليب السفاردية ، ورغم أن أعداء سموه «فرانك» ، أي السفاردي باليديشية) والحركة الحسيدية أيضاً حركة إشكنازية . ويلاحظ أيضاً أن الوضع تغير بعد سنوات من التبعية للفكر السفاردي وبدأ الإشكناز في الإبداع في مجال الفكر الديني والديني ، فظهرت حركة التنوير في صفوفهم ، كما ظهر بينهم علم اليهودية ، وكذلك جميع الحركات الدينية في اليهودية الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية والتجديدية .

وكان معظم الإشكناز يتحدثون باليديشية التي اختفت بالتدريج مع عشرينيات هذا القرن ، وبالتالي فهم يتحدثون في الوقت الحاضر لغة البلد الذي يوجدون فيه . ولغتهم الأساسية الآن هي الإنجليزية باعتبار أن أغليبيتهم توجَد ضمن التشكيل الاستعماري الاستيطاني

إشكنازية (أي يهود بولندا) ، فيرى أن الجماعات اليهودية في فرنسا وألمانيا قد أبدت تماماً أو اختفت ، وأن يهود بولندا هم في الواقع بقايا يهود الحزر الذين نزحوا عن أراضيهم بعد سقوط دولتهم وأسسوا دولة المجر ثم هاجروا منها إلى بولندا . وبالتالي ، فإن الإشكناز عنصر تركي غير سامي .

وقد انتشر الإشكناز من بولندا إلى أوروبا ، خصوصاً بعد هجمات شميلنكي في أوكرانيا (١٦٤٨) ، فاستقرت أعداد منهم في بولندا وألمانيا وإنجلترا والعالم الجديد . ثم هاجر الملاين منهم في نهاية القرن التاسع عشر إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وأستراليا ونيوزيلندا ، بعد الانفجار السكاني الذي حدث في صفوفهم . كما أنهم توجهوا إلى آسيا وأفريقيا مع حركة التوسع الإمبريالي . ولما كان يهود شرق أوروبا هم أهم كتلة بشرية يهودية ، فقد ارتبط المصطلح بهم ، ولكننا نُفضّل أن نشير إلى هؤلاء باعتبارهم «يهود اليديشية» .

وتذكر كلمة «إشكناز» عادةً مقابل «سفارد» ، وبالتالي أصبحت كلمة «إشكناز» مرادفة لمعنى «غربي» وأصبحت «سفاردي» بمعنى «شرقي» ، وهو ترادف خاطئ لأن كثيراً من يهود الشرق (يهود الفلاشاه وبني إسرائيل) ليسوا من السفارد ، ولا علاقة لهم بالتراث السفاردي الإثني أو الديني . ولكن هذا الترادف التصنيفي الخاطئ ربما يعود إلى الرغبة المتزايدة في التصنيفات الثنائية (مثل : سالب وموجب - ذكر وأنثى) ، وإلى جعل مرجعية اليهود الوحيدة والأساسية هي تراثهم ، ومحاولة رؤيتهم داخل إطار يهودي موحد ، وهو أمر يصح صعباً لو أخذنا بتصنيف تعددي ثلاثي يراعي وجود أقسام مختلفة من اليهود في العالم . وما يزيد الأمور اختلاطاً ، أن الحسديين ، وهم من أشد اليهود إشكنازية إن صح التعبير ، تبَنوا بعض الممارسات الدينية السفاردية في محاولة لتأكيد استقلالهم عن المؤسسة الحاخامية الإشكنازية . ومع تزايد فقدان الجماعات اليهودية سماتها الخاصة ، وتزايد اندماجها وتحول أعضائها إلى أمريكيين يهود أو فرنسيين يهود . . . إلخ ، يصبح من الأدق استخدام مصطلح «يهود غربيون» للإشارة لما يُسمى الآن «اليهود الإشكناز» .

وثمة اختلافات دينية غير جوهرية بين الإشكناز والسفارد تعود إلى اختلاف الأصول . فالإشكناز تبَنوا الصيغة الفلسطينية لليهودية ، مقابل الصيغة البابلية التي تبناها السفارد . ومع أن كلا الفريقين تبَنى التلمود البابلي ، في نهاية الأمر ، مرجعاً وحيداً في الأمور الدينية والفقهية ، فقد ظلت بعض نطق الاختلاف . فالسفارد ، على سبيل المثال ، يتسمون باتساع الأفق ، أما الإشكناز فلم يفتحوا على

الأنجلو - ساكسوني (الولايات المتحدة الأمريكية - كندا - أستراليا - جنوب أفريقيا) . والعبرية السائدة بين الإشكناز مختلفة عن عبرية السفارد حيث ينطقونها بطريقة مختلفة .

وكان أكثر من نصف يهود العالم ، في العصور الوسطى وحتى بدايات القرن الثامن عشر ، من السفارد ويهود العالم الإسلامي . ولكن ، بعد ذلك التاريخ ، أخذ الإشكناز في التزايد إلى أن حدث الانفجار السكاني في صفوفهم في القرن التاسع عشر وأصبحت يشكلون نحو ٩٠٪ من يهود العالم . ولا تزال نسبتهم عالية . ومع أنها قد هبطت قليلاً في الآونة الأخيرة ، بسبب تناقص معدلات الإنجاب بينهم ، فإن الأغلبية الساحقة من يهود العالم تظل إشكنازية (بمعنى : غربية) . كما أنهم نظراً لوجودهم في المجتمع الغربي ، فإن لهم بروزاً عالمياً . ولذا ، فإن معظم مشاهير اليهود الآن من الإشكناز ، ابتداءً بأينشتاين ومروراً بكيسنجر وانتهاءً براكيل ويلش .

ويلاحظ أن البناء الوظيفي والمهني للإشكناز مختلف عن بناء السفارد . فالإشكناز كانوا يقفون دائماً على هامش المجتمع الغربي ، كشعب شاهد ، ثم كأقنان بلاط ويهود بلاط ومرابين وتجار ووسطاء في النظام الإقطاعي ، على عكس السفارد الذين كان بعضهم يظلم بالوظائف الهامشية نفسها ، ولكنهم كانوا أكثر اندماجاً في النظام الاقتصادي الجديد في الغرب باعتبارهم من كبار الممولين الذين ساهموا ، في أمستردام وغيرها ، في تأسيس بعض الشركات الرأسمالية الجديدة ، كما استثمروا أموالهم في المشاريع الاستعمارية والاستيطانية . أما من الناحية الثقافية ، فقد كان السفارد أقل انغلاقاً على المجتمع الغربي وأكثر استيعاباً لثقافته وأسلوب حياته على عكس الإشكناز . ولذلك ، فإن المسألة اليهودية مسألة إشكنازية ، لم توجد إلا في البلاد التي توجد فيها أقلية إشكنازية . وحينما وجدت أقلية سفاردية وأخرى إشكنازية في بلد واحد ، كما كان الحال في فرنسا ، فإن السفارد كانوا يندمجون في الاقتصاد الجديد دون أن يصادفوا عقبات كثيرة ، ودون أن يواجهوا مشكلة ازدواج الولاء . ولهذا ، فحينما توجه نابليون لحل مشكلة يهود فرنسا ، انصبت جلّ جهوده على حل مشكلة يهود الأكراس واللورين من الإشكناز ، ولم يضم لهم يهود بوردو وبايون من السفارد .

لكل ما تقدم ، نجد أن مصطلح «إشكناز» اكتسب دلالة حضارية وإثنية وعرقية ودينية ، وأصبح هذا المصطلح يشير إلى مركب إشكنازي من العناصر والعلاقات ، وقد انعكس هذا على

الوضع في فلسطين . وقد كان أعضاء الشوف القديم (وهي مؤسسة دينية محضة) ينقسمون إلى إشكناز وسفارد ، وهذا الانقسام لا يزال قائماً في إسرائيل ، فهناك حاخامان يشرف كل منهما على الشؤون الدينية لجماعته . وبشكل عام ، كان السفارد يُقَوَّن مسافة اجتماعية واسعة بينهم وبين الإشكناز ، ويحاولون تأكيد نقط الاختلاف بين الفريقين . وقد كتب المفكر اليهودي السفاردي إسحق دي بتو رسالة إلى فولتير يبين له فيها أن السفارد لا يتزوجون مع الإشكناز ، وأن لهم معابدهم المستقلة . وأن أزياء السفارد لا تختلف عن أزياء الأغيار على عكس الإشكناز . وأن أزياء السفارد يتسمون بالتحضر ولا يختلفون عن الأغيار إلا في الدين . وختم دي بتو خطابه بقوله : «لو تزوج سفاردي من إشكنازية ، فإنه يفقد كل حقوقه ويُطْرَد من المعبد اليهودي السفاردي ويُستبعد تماماً من الجماعة السفاردية ولا يُدْفَن في مدافنهم» . وفّر دي بتو هذا الاختلاف على أساس عرقي ، فالإشكناز لا تجري في عروقهم دماء يهودية نقية ، أما السفارد فيهم من نسل كبير أسرة قبيلة يهودا الذين أرسلوا إلى إسبانيا أثناء التهجير البابيني .

وإذا كانت المسألة اليهودية مسألة إشكنازية ، فإن الحركة الصهيونية هي الأخرى حركة إشكنازية . بل إن جميع الظواهر اليهودية الحديثة تنبوت في صفوف الإشكناز ، فاشيوية نشأت في بولندا وانتشرت منها ، والإصلاح الديني بدأ في ألمانيا وتبعه تزايد معدلات الاندماج والانصهار . وقد كان المؤتمر الصهيوني الأول يضم وفوداً إشكنازية بالدرجة الأولى . بل إن السفارد الذين حضروا ، كانوا من بلاد أوروبية مثل بلغاريا أو فرنسا . وظل الاستيطان الصهيوني (أساساً) استيطاناً إشكنازياً . ومن ناحية أخرى ، فإن مصطلح «يهودي» كان يعني في الأدبيات الصهيونية الأولى «الإشكنازي» . ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل إشكنازية ، كما أن المؤسسات الأساسية (مثل الكيبوتس) كلها إشكنازية . والواقع أن هذه المؤسسات تحاول أن تحافظ على توجه الدولة الإشكنازي ، لكن العنصر اليهودي الإشكنازي في الدولة الصهيونية قد أصبح ، مع ذلك ، أقل من ٥٠٪ بسبب هجرة اليهود السفارد واليهود الشرقيين . ويتجلى التوتر الحاد ، بين اليهود الشرقيين والسفارد من جهة والإشكناز من جهة أخرى ، في إشارة الأولين إلى الآخرين باعتبارهم «أنكي نازي» . ويقال إن الاهتمام المحموم ، من جانب المؤسسة الحاكمة في إسرائيل ، بالهجرة السوفيتية لا يعود إلى حاجة المستوطن الصهيوني إلى مادة بشرية قتالية وحسب وإنما إلى حاجته إلى مادة إشكنازية على وجه التحديد

معظم اليهود الشرقيين ، في البلاد العربية على وجه الخصوص ، يتبعون التقاليد السفارديّة في العبادة . ولكن مصطلح «سفارد» غير دقيق ، فبعض اليهود الغربيين في هولندا وإنجلترا وإيطاليا من السفارد . كما أن الحسيديين يتبعون بعض التقاليد السفارديّة في العبادة . لذا ، يجب أن نستخدم مصطلح اليهود الشرقيين باعتبار أنه الكل الذي يضم معظم السفارد كجزء ، وهذا الكل يضم يهود الفلاشاه ويهود الهند وغيرهم ، وباعتبار أن مصطلح اليهود الشرقيين ذو مضمون طبقي عرقي ثقافي مُتعيّن ، على عكس مصطلح «سفارد» ذي المضمون الديني غير المحدّد . كما يُستخدم مصطلح «اليهود الغربيون» للإشارة إلى كل يهود الغرب .

ويبدو أن مصطلح «الشعب اليهودي» يستبعد هؤلاء الشرقيين على مستوى فعلي ، وذلك بعد أن كان يستبعدهم اسماً وفعلاً في الماضي . فاليهود الشرقيون ، وغيرهم من أعضاء الجماعات ، يهود بشكل عام وأعضاء في «الشعب اليهودي» ماداموا في الخارج . ولكنهم حينما يصلون إلى إسرائيل ، يصبحون مغاربة أو مصريين ، وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بل ووضعهم الطبقي حسب هذا التصنيف . ويلجأ بعض يهود المغرب العربي إلى ادعاء أنهم أصل فرنسي حتى يُحسنوا صورتهم أمام الآخرين . وهذا يعني أن النقطة المرجعية لإدراكهم لأنفسهم ولغيرهم ليس الهوية اليهودية المجردة وإنما هويات يهودية مختلفة . ويُلاحظ أن مصطلح «يهود شرقيون» مصطلح ذو بُعد حضاري ثقافي . ومن ثم ، يُشار إلى يهود جنوب أفريقيا بأنهم غربيون نظراً لانتمائهم إلى تشكيل حضاري غربي هو الجيب الاستيطاني الأبيض في جنوب أفريقيا . وتُصنّف النخبة الحاكمة في الدولة الصهيونية على الطليعة الغربية (الإشكنازية) للدولة . وقد صرح شاعر الصهيونية الأكبر نحماني بيالك ، وهو إشكنازي من يهود اليديشية ، بأنه يكره العرب لأنهم يُذكّرونه باليهود الشرقيين . ولعل خوف النخبة الإشكنازية من العزلة الحضارية هو ما يدفعها إلى إثارة الحروب من أونة إلى أخرى في المنطقة حتى لا يندمج الشرقيون في المحيط الحضاري العربي ، فهم في حقيقة الأمر ، يتمون حضارياً وعرقياً إلى هذه المنطقة . ولو تحقّق مثل هذا الاندماج ، لوجدت النخبة الحاكمة الإشكنازية نفسها في موضع الأقلية مرة أخرى ، وهو الأمر الذي خططت هذه النخبة وأنفقت كل أيامها من أجل الهرب منه . وعلى كلّ ، فقد تحولت الأغلبية الإشكنازية إلى أقلية عددية ، ولكنها لا تزال تملك ناصية الأمور وتحتكر صنع القرار .

توازن العنصر الشرقي السفاردي ، بعد أن انخفض عدد اليهود الغربيين في الدولة الصهيونية إلى أقل من النصف .

اليهود الغربيون

Western Jews

«اليهود الغربيون» مصطلح يُستخدم للإشارة إلى اليهود الذين هاجروا من العالم الغربي إلى إسرائيل . ولما كانت أغليبتهم من الإشكناز ، أي من يهود بولندا ذوي الأصول الألمانية ، فإن مصطلح «اليهود الغربيون» أصبح مرادفاً لمصطلح «الإشكناز» . ولكن مصطلح «اليهود الغربيون» يظل (مقابل «اليهود الشرقيون») هو المصطلح الأدق والأشمل لأنه يشير إلى الانتماء العرقي والحضاري والإنسي لهؤلاء اليهود ، في حين نجد أن مصطلح «الإشكناز» تداخله أبعاد دينية تطلّس معالمة وتجعله أداة غير دقيقة . فيهود هولندا يُشار إليهم بلفظ «إشكناز» ، مع أن بعضهم يتبع التقاليد السفارديّة في العبادة . وأغلبية اليهود الغربيين من يهود اليديشية (يهود شرق أوروبا) ، إلا أنهم فقدوا هويتهم اليديشية هذه وأصبحت أغليبتهم تتحدث الإنجليزية (في الولايات المتحدة وإنجلترا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا) وبقيتهم تتحدث لغات بلادهم . كما أن هناك جماعات من يهود الغرب ، مثل : يهود اليونان (الرومانيت أو الجريجوس) ، ويهود إيطاليا ، ويهود جورجيا . لكن هؤلاء الغربيين لا ينتمون إلى التشكيل الإشكنازي (إن صح التعبير) من قريب أو بعيد . واليهود الغربيون في إسرائيل هم الأقلية العرقية والحضارية المسيطرة على الحكومة والجيش والأحزاب والاقتصاد وعلى التوجه الحضاري العام ، وهو ما يسبب حالة اغتراب شديدة لليهود الشرقيين ، ويعمق الفوارق الاجتماعية . ويُلاحظ أن مصطلح «اليهود الغربيون» مصطلح حضاري ثقافي ، ومن ثم يُشار إلى يهود جنوب أفريقيا بوصفهم غربيين ، مع أن أفريقيا جزء من الشرق .

اليهود الشرقيون

Oriental Jews

«اليهود الشرقيون» مصطلح كان يُطلق على نسل أولئك اليهود النذين اتجهوا ، عندما غادروا فلسطين قديماً ، إلى العراق وإيران وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية ومصر وبلدان شمال أفريقيا ، وعلى يهود القوزاق (يهود جورجيا والبال) . ولكنه يشير الآن ، في التجمع الاستيطاني الصهيوني ، إلى اليهود الذين لا ينحدرون من أصل غربي ، وقد أصبح لفظ «سفارد» مرادف للفظ «شرقيين» لأن

الصبار: جيل ما قبل عام ١٩٦٧

Sabra : Pre 1967 Generation

«صبار» كلمة عبرية مُشتقة من الكلمة العربية «الصبار» أو «التين الشوكي» ، وقد تَرَدَّدَ المصطلح بمعناه الاجتماعي ، لأول مرة ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة حيث أُطلق في مدرسة هرتزليا الثانوية في تل أبيب على التلاميذ اليهود من مواليد فلسطين والذين كانوا يُحسِنون نقصاً حيال أقرانهم الأوربيين الأكثر نفوذاً في الدراسة مما كان يجعّلهم يلجأون إلى تعويض هذا الشعور بتحدّي هؤلاء الأوربيين بنوع من النشاط الخشن يردّ نهم اعتبارهم . وقد تمثل ذلك النشاط في الإمساك بشعرات تين الشوكي وتفسيرها بالأيدي العارية . وهي مهارة يدوية تأتي بالمرء والممارسة وليس من خلال الدراسة الفكرية . وقد أصبحت كلمة «الصبار» تُطلق اسماً على كل يهودي يُولد في فلسطين . ومن المصطلحات الأخرى المرتبطة بها كلمة «شوتسبا» ، «نيديشية» التي تشير إلى مجموعة من الصفات مثل الجرأة الزائدة ، التي قد تصل إلى حد الوقاحة ، والسذاجة المختلطة بالذكاء . وحسب الرؤية الإسرائيلية الشائعة ، فإن جيل الصبار يتسم بالشوتسب ، أي الجرأة الزائدة هذه . ومن صفات الصبار أيضاً ما يُسمّى «تيفستوف» «يحد جادون» ، وهي عبارة عبرية تعني «تصفيرة واحدة كبيرة» . وتشير إلى مقدرة جيل الصبار على أن يسخر من كل الشكل ويتقن بهذه التصفيرة . ويُشار إلى لغة الصبار بأنها لغة «دوغري» ، وهي كلمة عامية مصرية شائعة معناها «مباشر ولا يجب انك أو الدوران» .

ومصطلح «الصبار» ، والمصطلحات المرتبطة به ، تؤكد صفات محدّدة في شخصية صاحبها . أي أبناء المستوطنين الصهاينة الذين وُلِدُوا ونشأوا في فلسطين . ومن أهم مميزات الفكر والمقدرة على التعامل مع الواقع بشكل مباشر . وهذه الصورة موضوع أساسي كامن في الفكر الصهيوني الذي يصدّر عن نقد ما يُسمّى «شخصية يهود انشئ» . باعتبارهم شخصيات مريضة ضعيفة هزيلة حزينة شاحبة متغلّقة هامشية قلقة يغمرها الإحساس بالذنب ولا تسيطر بأية حال على مستقبلها أو مصيرها مما يُسبّب في الأدبيات الصهيونية «العجز وانعدام السيادة وممارسة السلطة» . وكانت الصهيونية تفرّح فكرة تضيق الشخصية اليهودية ، أي جعل اليهود شخصيات طبيعية عن طريق الاستيطان في فلسطين وأداء أعمال يدوية ، وعدم الاعتماد على العمالة غير اليهودية ، باعتبار أن هذه العملية ستؤدي في نهاية الأمر (حسب التصور الصهيوني) إلى نفي الدياسبورا ، أي القضاء على الجماعات اليهودية في الخارج . وقد

وفي إطار هذا التصوّر ، يمكننا فهم الحملات الصهيونية التي وُجّهت ضد الاتحاد السوفيتي (سابقاً) للسماح لليهود السوفيت بالهجرة ، فهي محاولة من جانب الإشتكاز لاستعادة التوازن العرقي والمضاري داخل إسرائيل لصالحهم ، خصوصاً أن الهجرة من أوروبا قد توقفت ، كما أن نسبة التوالد بين الشرقيين أعلى منها لدى الإشتكاز . ولكن الهجرة من روسيا وأوكرانيا تثير من المشاكل أكثر مما تحل . فالمهاجرون الروس والأوكرانيون يُعاملون معاملة خاصة لتسجيّعهم ، إذ أن هجرتهم غير عقائدية وتأتي في سياق بحثهم عن مكاسب اقتصادية لم يجدوها في وطنهم الأم . لكن هذه المعاملة الخاصة تثير حفيظة الشرقيين ، وتُصعّد حدة التناقض بين «الأميين» (وهو المصطلح المُستخدم في إسرائيل للإشارة إلى الإشتكاز من جهة وغير الإشتكاز [من السفارد والشرقيين] من جهة أخرى) . ويُقال إن علم الاجتماع الإسرائيلي يؤثر ، في الوقت الحالي ، استخدام هذا المصطلح باعتباره مصطلحاً تحليلياً وصفيّاً للوضع القائم في إسرائيل . وتوجد أحزاب سياسية وقوائم انتخابية في المُستوطن الصهيوني تحاول جميعاً تمثيل مصالح اليهود الشرقيين ، ومن بين هذه القوى حزب تامي وحزب شاس الديني .

ورغم أن اليهود الشرقيين يشكلون أقلية بين يهود العالم (كانت لا تتجاوز ١٠٪ عند بدء الحركة الصهيونية في نهاية القرن الماضي) إلا أن عددهم يزيد عن ٥٥٪ بسبب تدفقهم على الدولة الصهيونية وازدياد معدل الزيادة الطبيعية .

اليهود المستعربة

Arabized Jews

«اليهود المستعربة» هم يهود البلاد العربية الذين اكتسبوا خصائص الحضارة العربية فأصبحوا عرباً ، وهم أغلبية يهود العالم العربي ، ولا سيما قبل دخول الاستعمار الغربي الذي فرّج عدداً منهم . وهم يُسمّون خطأ «السفارد» . والواقع أن كثيراً منهم يتبع المنهج السفاردي في العبادة ، ولكن هذا لا يجعلهم من السفارد بالمعنى الإثني ، الذي لا ينطبق إلا على اليهود الذين خرجوا من إسبانيا والذين ينتمون إلى أولئك الذين كانوا يتحدثون اللادينو ومنهم المارانو (أو البرتغاليون) . واليهود المستعربة جزء من نُطلق عليهم الآن مصطلح «يهود الشرق والعالم الإسلامي» أو «اليهود الشرقيون» .

والصهيوني . وبالفعل ، نجد أن الصابرا يُجسّد مجموعة من القيم النيشوية التي تُعلي من شأن القوة والفعل مقابل الضعف والفكر . ولكن هذه الرؤية المختلة للذات ، والتي لا تستند إلى التاريخ، تحوي داخلها عدة تناقضات نوجزها فيما يلي :

١ - صورة يهود المُتَنَقّي صورة كاريكاتورية ساذجة للغاية لا تُعبّر عن ثراء حياتهم أو عن إنجازاتهم الحقّة أو عن توارخهم المتنوعة ، وخصوصاً أن توارخ اليهود التي يُشار إليها باعتبارها «التاريخ اليهودي» لم تأخذ مسارها في أرض فلسطين وإنما خارجها في المُتَنَقّي .

٢ - حينما يلجأ أبناء جيل الصابرا إلى رَفَض يهود المُتَنَقّي ، فإنهم يرفضون الماضي الوحيد الذي يمكن أن تستند هويتهم إليه ، إذ لا يمكن إدراك الهوية دون ماض . ويُقال إن من صور الصابرا الأساسية المتواترة في الأدب الإسرائيلي أنه جيل يتيم لا أب له ؛ طفل أزلي غير قادر على النضوج لأنه لا يتفاعل مع الماضي .

٣ - ومع أن جيل الصابرا يرفض اليهود واليهودية ، فإن مشروعه الصهيوني يهدف إلى إنشاء دولة يهودية لحماية اليهود ولتحقيق الهوية اليهودية والجوهر اليهودي . ومعنى ذلك أن شرعية وجوده في فلسطين، والأساس الأخلاقي لطرد سكانها ، يستندان إلى أساس يهودي افتراضي : رؤى دينية (أو إثنية) يهودية مثل الميثاق أو أرض الميعاد .

وقد تبدّت هذه التناقضات في شكل تناقص إحساس الصابرا بيهوديتهم . فحين تم استطلاع رأي جيل الصابرا (بعد إنشاء الدولة)، وُجد أن لديهم إحساساً شديداً بيهويتهم المُخلّقة الجديدة تأخذ شكل اعتزاز شديد بالنفس واحتقار عميق لليهود العالم ، وخصوصاً أن الملايين التي كان من المفترض قدومها للاستيطان في الأرض المحتلة أثرت البقاء في أوطانها التي يُشار إليها بلفظ «المُتَنَقّي» . كما أفاد الاستطلاع أن الرؤية المباشرة المعادية للفكر عند الصابرا تبدّت في صورة رَفَض للفكرة الصهيونية ذاتها ، وذلك باعتبار أن الصهيونية ليست تجربة وجودية حية وإنما مجرد نظرية تُعبّر عن استجابة يهود المُتَنَقّي لعالم الأغيار وعن تطلعاتهم للخلاص منه وبرنامج لإصلاحهم وتطبيعهم ، الأمر الذي لا ينطبق على الصابرا الذين يعيشون واقعهم الجديد . أما معاداة اليهود ، إحدى ركائز الصهيونية ، فهي بالنسبة للصابرا محض ذكريات الآباء والأجداد ، لا يشاركون هم فيها . بل إن الفرد من جيل الصابرا ، حينما ينظر إلى هذه الذكريات أو «الماضي اليهودي» ، لا يُبدي سوى الازدراء له لاقتراحه بالضعف والسلبية ، فهو لا يقبل مثلاً سلوك الستة ملايين الذين يُزعم أنهم أبعدوا بغير مقاومة على يد النازيين .

لكل هذا ، أصبح الصابرا ، من منظور القائمين على المجتمع

طرح الصهاينة ما سمّوه «اليهودي الخالص» ، وهو اليهودي مائة بالمائة الذي يُجسّد القيم الصهيونية الجديدة ، بديلاً لليهودي المنفى . وكان من المُتَوَقَّع أن يكون المُستوطن الصهيوني هو آخر يهود المنفى وأول اليهود المُخلّص الذين لا تشوبهم شائبة من عالم الأغيار ، وهذا هو ما عبّروا عنه في قولهم : «فلتكن آخر اليهود وأول العبرانيين» . وقد تنبأ الشاعر الصهيوني نحمنا بباليك بتطبيع اليهود ، وأنهم سيصلون إلى هذا المستوى حين تظهر أول بغّي عبرية ، وأول لص عبري في فلسطين !

وأخذ المُستوطنون يحاولون وَضْع هذه الرؤية موضع التنفيذ بحيث يصبح الإنسان العبراني الجديد تقبض يهود المنفى . وكما قال الشاعر الإسرائيلي تسفي جرينبرج في قصيدة له : «الأمهات اليهود أحضرن أطفالهن إلى الشمس ليحترق الدم الذي يجري في عروقهم ويزداد حمرة ، بعد أن بهت في الجيتو وعالم الأغيار !» . والإنسان الجديد هو الصابرا ؛ هذا الإنسان العبراني المعادي للفكر ، القوي البسيط المباشر الذي يرفضه يهود المنفى ولا ينهم هو سلوكهم أو خضوعهم . والصابرا يدين بالولاء لدولته القومية ولا يعاني من أي ازدواج في الولاء ، ويجب أن يسير مع الجماعة (وقد جاء في إحدى القصائد الإسرائيلية أن الصابرا ، حينما يحلم ، يحلم بضمير جمع المتكلمين) ولا ينفصل عنها (جاء في إحدى النكات الإسرائيلية أن عضواً في الكيبوتس قد تركه أصدقاؤه بمفرده ، ففكر في الانتحار ، وحاول ذلك بالفعل ، ولكنه فشل لأنه كان بمفرده) . والصابرا لا يؤمن بالدين . فقد تمت علمته بشكل كامل على النمط الأوربي ، كما أن هويته العبرانية هوية قومية مرتبطة بالأرض بالقيم الدينية . وهو ، علاوة على كل هذا ، شخصية متجنّة - حسب التصوّر الصهيوني - تحكم في مصيرها . وينعكس كل هذا في الأبعاد العسكرية لشخصيته ، ولذا نجد أن ذروة هذه الشخصية وأقصى تحقّق لها هو الكيبوتسنيك ، أي عضو الكيبوتس الذي لا ينتمي إلى أسرة مُحدّدة ويعيش في مجتمع شبه زراعي شبه عسكري في بيئة مختلفة تماماً عن الجيتو .

وقد وصف عالم الاجتماع الفرنسي جورج فريدمان أفراد هذا النموذج الجديد بأنهم «أغيار يتحدثون العبرية» ، فهم يتسمون بكل سمات الأغيار ، ومنها معاداة اليهود ، ولا يختلفون عنهم إلا في اللغة . وقد أشار آرثر كوستلر إلى النموذج الجديد باعتباره «طرزاً يهودياً» ، أي إنساناً طبيعياً مجرداً من التاريخ والقيم يعيش بقيم الغابة الغربية الداروينية ، ولم يبق له من اليهودية سوى الشكل ، أي أنه علماني تماماً . ويشار إليه أحياناً بوصفه «سوبرمان يهودي» قياساً على سوبرمان أو بطل نبتسته الأرقى الذي يُمجّده الفكر النازي

(بالإنجليزية : روتس roots) ، وهذا ليس بعودة إلى الماضي ، وإنما عودة إثنية إلى الذات الإثنية القومية ! ومن أهم هذه العناصر ، تفاقم أزمة العلمانية الشاملة في التجمّع الصهيوني وظهور أزمة هوية بصورة حادة . فالصابرا بدون تاريخ هو في نهاية الأمر بدون هوية . كما أن الصابرا ، هذا العلماني الشامل البرجماتي ، يجد نفسه في دولة كل ما فيها رموز دينية ، مثل نجمة داود والمينوراه ، وحتى الاسم «إسرائيل» معناه «المدافع عن الإله» . كما يجد نفسه مضطراً لأن يخوض حروباً باسم هذه القيم الدينية التي يُفترض فيه أنه لا يؤمن بها إلا باعتبارها فلكلوراً شعبياً ! وقد أتت مادة «الوعي اليهودي» أكلها ، إذ بدأ بعض أعضاء جيل الصابرا يدركون عناصر هذا الماضي ويفهمونها في سياقها . ومن ثم بدأوا ينظرون إلى عالم المثقّى بشيء من الإعجاب ويكثر من الشك في شخصية الصابرا المجردة التي لا جذور لها ولا تراث . وقد كان يهودي المثقّى - حسب هذه الرؤية - ذا هوية حدودها واضحة مُتعيّة على الأقل ، وله لغته وثباته وتراثه . كما كانت الجماعة اليهودية تنسم بالتماسك الشديد والتضامن . على عكس المجتمع الصهيوني الذي يشتدّ الهوية الواضحة وتفتت النزعات الحزبية ويفتقد الاجماع القومي في الوقت الحاضر . (فكر سكان الكيبوتسات بانفعل في ذلك الوقت في الطرق المختلفة للانتحار) .

كما بدأ موقف أبناء جيل الصابرا يتغيّر من الإبادة النازية (قصة النشل اليهودي الأكبر) إذ بدأوا يسألون : هل كان يوسع اليهود أن يفعلوا شيئاً أمام قوة النازي وسطوته؟ ويجري الآن طرح السؤال التالي : لو وصل روميل إلى فلسطين ، هل كان بمقدور المستوطنين أن يفعلوا شيئاً سوى الاستسلام أو الانتحار ؟

ومما عقد الأمور أن أزمة الصهيونية رافقتها نجاح يهود المثقّى (وبخاصة في الولايات المتحدة) من إنجازات اقتصادية وثقافية واندماج في مجتمعاتهم وحراك طبقي وثقة بالنفس ، وهو نجاح أدّى إلى أن الدونة الصهيونية وجدت نفسها معتمدة في بقائها على هؤلاء الذين ترفضهم من الناحية العقائدية أو تظنّ تصفيتهم .

لكل ما تقدّم ، تزايد ارتباط بعض أعضاء جيل الصابرا في الآونة الأخيرة بيهود المثقّى . فوجدوا أنفسهم يعودون إلى شبكة المصير اليهودي والتراث اليهودي . والعودة هنا ليست عودة إلى الصهيونية وإنما إلى شيء يتصورونه أكثر عمقاً ، عودة إلى ما يتصورون أنه «التراث اليهودي» ، فظهر ما يُسمّى «الاتجاه اليهودي» الجديد ، لا «الصهيوني» الجديد ، ومن هنا كان النظر بإعجاب إلى عالم المثقّى وتراثه الثقافي واللغوي ، والواقع أن هذا الموقف يُناقض

الصهيوني ، مرادفاً للتخلّل العقائدي ولزيادة الشك والنزعة العلمية على حساب الالتزام العقائدي . ومن هنا ، بدأت عملية إعادة تثقيف ، أخذت شكل التأكيد على الإبادة النازية لليهود ، وبالذات عناصر المقاومة اليهودية ، والتأكيد على ما يُسمّى «المصير اليهودي المشترك» الذي يربط اليهود بعضهم ببعض أينما كانوا . كما تمّ تقرير مادة تُسمّى «الوعي اليهودي» في المدارس حتى لا يتعدّد جيل الصابرا تماماً عن الجذور اليهودية التي رفضتها الصهيونية .

ولكن هذه المحاولة التخليفية ، التي ترمي إلى الحفاظ على صهيونية العبراني الجديد ، قابلت هي الأخرى عدة صعوبات من أهمها أن تطبيع المجتمع الإسرائيلي أدّى إلى تيّب جيل الصابرا قيماً علمانية أمريكية برجمانية ترفض الماضي وأية عقيدة أو نظرية ، الأمر الذي عمّق رفضهم الفكر النظري أو العقائدي ، وإلى انتشار ما يُسمّى بعقيدة «روش قطان» وهي عبارة عبرية تعني «الرأس الصغير» وتشير إلى الإنسان العلماني الاستهلاكي الذي يهتم بمصالحه الخاصة ولا يهتم بالأهداف القومية (ولذا ، فإن معدته كبيرة ورأسه صغير) . كما أن أزمة الصهيونية ، داخل وخارج المستوطن الصهيوني ، تجعل بعث هذه العقيدة ، التي لم تُعدّ تصلح دليلاً للعمل ، مهمة صعبة . ولكل هذا ، يزداد الانصراف عن الصهيونية كعقيدة . وقد انعكس هذا الاتجاه البرجماتي الاستهلاكي العلمي في تزايد معدلات العلمنة الشاملة وتقبّل قيم المنفعة واللذة بين الإسرائيليين ، وزيادة أمركة المجتمع الإسرائيلي ، فأصبحت الدولة الاستهلاكية العظمى في الغرب (الولايات المتحدة) هي المثل الأعلى لا الدولة الصهيونية الصُغرى في فلسطين المحتلة . ومن هنا ، تزايد نزوح الأفراد من جيل الصابرا عن إسرائيل ، بل تمّ تقبّل قرار النزوح اجتماعياً بعد أن كانت تلك مسألة مرفوضة تماماً تشبه الخيانة القومية . وقد أدّى هذا إلى ظهور ما يُسمّى «الدياسبورا الإسرائيلية» حيث هناك مئات الألوف من المرتدين أو النازحين الإسرائيليين من جيل الصابرا أو غيرهم (ويقال إنهم يبلغون ٧٠٠ ألف ، أي أكثر من سكان التجمّع الصهيوني عند إعلان الدولة ، وحسب بعض الإحصاءات يبلغ عددهم مليوناً) . وعلى المستوى العملي ، يتضح هذا الاتجاه البرجماتي المعادي للصهيونية بكل جلاء في واقع أن كثيراً من الصابرا لا يعتبرون الولايات المتحدة جزءاً من المثقّى بل وطناً قومياً ثانياً !

وإلى جانب هذا ، توجّد في الوقت الحاضر عناصر أخرى في تجربة جيل الصابرا تدفعه أيضاً بعيداً عن الصهيونية ، لا إلى الاستهلاكية والبرجمانية والتأمر كقط فقط وإنما إلى أحضان الماضي اليهودي الذي كان يهرب منهم وكانوا هم يرفضونه بحثاً عن الجذور

فإن استقراء الكتابات الإسرائيلية في هذا الصدد بشكل دقيق يكشف عن أن الحديث عن الصابرا يَنْصَبُّ عملياً على أولئك المتمين إلى أصول إشكنازية فحسب . وكما قال الكاتب الإسرائيلي شيمون بلاس (من أصل عراقي)، فإن كلمة «صابرا» لا تشير من قريب أو بعيد إلى يهود الشرق . ويوافقه في هذا ميلفورد إسبيرو حيث يرى في دراساته أن أهم ما يميّز الصابرا من أبناء الكيبوتسات هو كراهية الغربة عامة، والمهاجرين من العالم الإسلامي على وجه الخصوص، إذ ينظرون إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية، ويطلقون عليهم لفظ «شحورم» أي «السود» . كما أن هناك عدداً من الدراسات الأخرى تؤكد على أن أخطر ما يزعج الصابرا هو ارتفاع معدل تكاثر اليهود الشرقيين، وهم يرون في ذلك أمراً يمكن أن يدفع بإسرائيل إلى أن تصبح شعباً متخلفاً أسود البشرة .

وتزداد أهمية الصابرا (بمعنى المولودين داخل إسرائيل) في استمرار تزايد نسبتهم إلى إجمالي السكان، فبينما لم تتجاوز نسبة الصابرا إلى إجمالي السكان ٣٤٪ عام ١٩٦٢، وصلت هذه النسبة عام ١٩٦٤ إلى ٣٩٪ . وقد استمرت هذه الزيادة في التصاعد بسبب انخفاض معدلات الهجرة الشرقية والغربية على السواء، وهو ما جعل التركيب السكاني عام ١٩٨٩ مختلفاً تمام الاختلاف حتى أن نسبة المولودين داخل إسرائيل تصل إلى ٦٤٪ من إجمالي سكان إسرائيل اليهود، أي أن الصابرا قد وصلت إلى حد التكافؤ مع العناصر المهاجرة الشرقية والغربية مجتمعة (وإن كانت هجرة اليهود من روسيا وأوكرانيا غيّرت الصورة قليلاً فقد وصلت النسبة إلى ٦٠٪ عام ١٩٩١)، مع العلم بأن مصطلح «المولودون داخل إسرائيل» أصبح يشير إلى المواليد من أصل غربي أو شرقي ولا يميّز بينهما .

وقد نتج عن ازدياد إسهام الصابرا في التكوين السكاني، عاماً بعد عام، أمران في غاية الأهمية، أولهما : ظهور ما يُطلق عليه «الوطنية الإسرائيلية» مقابل «القومية اليهودية»، بمعنى أن معظم سكان إسرائيل لا يعرفون الآن وطناً آخر لهم، ومن ثم، فهم لا يشعرون إطلاقاً بأي إحساس بالذنب إزاء ما وقع للفلسطينيين من اغتصاب أراضيهم وطردهم منها . والأمور الثاني : ارتفاع نسبة من هم في سن الإنتاج والقتال بالنسبة إلى إجمالي السكان، وهو ما يترتب عليه استمرار بل تصاعد روح المخاطرة والتطلع إلى التوسع والسيطرة على المنطقة . وعلى أية حال، فإن ارتفاع نسبة العلمنة والاستهلاكية قد حيد هذا العنصر إلى حد ما . ومع هذا لا بد أن نأخذ في الاعتبار التركيب النفسي لجيل الشباب (كما يبيّن مدخل «جيل ما بعد ١٩٦٧ أو أزمة الخدمة العسكرية»).

الموقف الصهيوني الذي ينطلق من رفض هذا العالم وهذا التراث . كما أنهم بدأوا يتحدثون باليديشية، ويرفضون عبرة أسماهم، ويطلقون لحاهم وأحياناً سوافهم . لكن العودة إلى التراث والجذور والسلف رد فعل لتعاطف العلمنة بكل ما تؤدي إليه من اغتراب وتبعثر (وإن كان اغتراب المستوطن الصهيوني أعلى كثيراً من اغتراب الفلاح الهندي الذي ينتقل إلى المدينة مثلاً، ومن هنا حدة استجابة الصابرا). وحينما يتحدث الصابرا عن «التراث اليهودي»، فهم يتحدثون، عادةً، عن تجربة يهود اليديشية في شرق أوروبا (في الشتل وفي منطقة الاستيطان) لا عن تجربة اليهود السفارد أو يهود العالم الإسلامي . وقد أخذ هذا الاتجاه نحو التراث يتمثل في تبني القيم الدينية الأرثوذكسية كمصدر من مصادر الشرعية والهوية . ومن أهم شخصيات جيل الصابرا الممثل يوري زوهار الذي عبر عن كل سمات جيل الصابرا بشكل متبلور فكان يرتدي الصندل ويسير دون أن يلبس بالقيم أو التراث . وبالتدريج، أخذ زوهار في التحول، فلبس قبعة اليرملك ثم أطلق سوافه ولحيته حتى أصبح في هيئة الحسيديين في الشتل . ومن الصابرا من ينضم إلى الجماعات اليهودية الأرثوذكسية التي ترفض الدولة، وترى أن حالة المنفى نهائية لا تصل إلى نهايتها إلا حين يأذن الإله وذلك حتى لا يرتكب جريمة «دحيكات هاكسس»، أي «التعجيل بالنهاية»، أي أن الصابرا الذي كان يرفض يهود المنفى ويهرب منهم ينتهي به الأمر في الآونة الأخيرة إلى معانقتهم والهرب إليهم !

ومن المهم جداً أن نشير إلى أن الدراسات السكانية الإسرائيلية، في تصنيفاتها لسكان التجمّع الإسرائيلي، تعترف بالفروق العرقية والإثنية بين اليهود المولودين في فلسطين والمهاجرين إليها . إلا أنها، مع هذا، تحاول إنكار وجود مثل تلك الفروق بين الأبناء المولودين في فلسطين . وذلك بوضعهم جميعاً تحت اسم «الصابرا» . ويتسق ذلك مع حديث علماء الاجتماع وعلم النفس الإسرائيلي عن الصابرا باعتبارها كتلة واحدة متسقة لها خصائصها النفسية والاجتماعية الموحدة . ومثل ذلك الموقف يعني تحاملاً تاماً لحقيقة أن أساليب التنشئة الاجتماعية (طرق التربية) التي يمارسها المهاجرون تتباين تبعاً لأصولهم الحضارية . وبالتالي، فإن تكوينات هؤلاء الأطفال النفسية لا بد أن تتباين . ولفترة طويلة تبعاً لتباين أساليب التنشئة الاجتماعية التي أتت معهم . ومن هنا، فإن تعبير «الصابرا» يخدم في نهاية الأمر هدفاً سياسياً صهيونياً هو الإيهام بأن الصهر الاجتماعي لمختلف أصول اليهود الحضارية قد تحقّق في إسرائيل وتمثّل في جيل جديد هو جيل الصابرا الذي تتلاشى فيه مثل هذه الفروق الحضارية . وعلى أية حال،

حركة الكنعانيين

Canaanite Movement; Semitic Action

« حركة الكنعانيين » حركة سياسية ثقافية ذات نظرة خاصة لما يُسمى « التاريخ اليهودي » . بدأت نشاطها في الأربعينيات في فلسطين . وينطلق دعائهما من أسطورة مفادها أن اليهود عندما عادوا من مصر إلى أرض كنعان لم يجدوا قبائل معادية لهم أو مختلفة عنهم من الناحية العرقية ، وإنما وجدوا شعباً يتكلم العبرية ويشبههم في الملامح والخصائص البدنية ، ولذلك فإن اليهود أو العبرانيين ليسوا إلا كنعانيين وما الإسرائيليون المحدثون سوى « الكنعانيين الجدد » ، وبهذا تكون للأمة الإسرائيلية الجديدة جذور راسخة في الأرض الفلسطينية ، وهي جذور تمتد إلى العبرانيين القدامى قبل أن تنتشر بينهم اليهودية ، وهم بهذا يؤكدون وحدة الشعب الإسرائيلي وتربة فلسطين ، أو كما يقول تسوري (الذي اشترك في اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٣٤) : « نحن لسنا صهيانية ، نحن الأبناء الطبيعيون لتربة إسرائيل » .

وعن طريق تأكيد هذه الوحدة ، يُسقط الكنعانيون من حسابهم تراث يهود الدياسبورا (أعضاء الجماعات اليهودية في العالم) بل والتراث اليهودي كله ، فيهود الدياسبورا - حسب تصورهم - ليست لهم أية سمات قومية متميزة ، فلغتهم وأغماطهم الثقافية وجنسياتهم أو مواطنتهم ، تنتمي جميعاً إلى البلدان التي يعيشون فيها ، فهم من البولنديين أو الإنجليز أو الأمريكيين ، ولهذا السبب فإن لهم أثراً ضاراً على الإسرائيليين لأنهم يعوقون تطور الأمة العبرانية الجديدة . وهذه الأمة الجديدة تتكون من كل المولودين في إسرائيل ، حتى ولو كانوا مسلمين أو مسيحيين ، شريطة أن يتقبلوا الهوية الكنعانية الجديدة . ويمكن القول بأن فكر حركة الكنعانيين هو تعبير عن وجهة نظر إسرائيلية تختلف عن وجهة النظر الصهيونية ، فهو تعبير متطرف عن إحساس جيل الصابرا باختلافهم عن يهود العالم وانفصالهم النفسي والثقافي والعرفي عنهم . ولعل أهم نقط الاختلاف بين وجهتي النظر تلخص في محاولة الكنعانيين التملص من التصور الصهيوني لما يُسمى « الشعب اليهودي » و« القومية اليهودية » ذات الأبعاد الدينية القومية ، فالكنعانيون يحاولون إضفاء شيء من السواء على الظاهرة الإسرائيلية عن طريق إلغاء الجانب الديني من المقدسات القومية الإسرائيلية والإبقاء على الجانب القومي وحده ، أملين أن يتحول النمط الإسرائيلي عن طريق ذلك إلى نمط قومي عادي يشبه بقية الأغماط القومية المعروفة ، أي أن فكرة الشعب المختار صاحب الحقوق المطلقة وموضع الحلول الإلهي والذي يضم اليهود أينما كانوا

تحل محلها فكرة الشعب الإسرائيلي الموجود في الشرق الأوسط في فلسطين والذي له حقوق قومية عادية . وإذا كان المفكر الصهيوني يتباهى عادة بأن الشعب اليهودي لا يُصنّف ، فإن الكنعانيين يؤكدون أنهم أمة مثل كل الأمم . ويؤمن الكنعانيون بأن أممهم بديلين لا ثالث لهما : إما أن يكونوا آخر اليهود أو أن يكونوا بداية لأمة جديدة (على حد قول بيرديشفسكي) وهم يفضلون البديل الثاني . ولذلك فالكنعاني يؤمن بأن الدولة الجديدة هي نهاية المنفى والجيتو بل ونهاية اليهودية ذاتها ، وأن أية سمات « يهودية » للدولة الجديدة هي سمات مستخلصة ورواسب من الماضي الميت ، وأن على الإسرائيليين أن يخلقوا حضارة جديدة مستقلة تماماً عن التراث اليهودي ومرتبطة بحضارة الشرق الأدنى القديم (ولذلك كانوا يطالبون بعبادة عشتروت زوجة الإله بعل الكنعاني) . وفكر الحركة الكنعانية متأثر ببرديشفسكي وأفكاره الكونية ويانترعات النيتشوية الفلسفية ، وزعيم الحركة هو الكاتب يونان روشو (اسمه الحقيقي : أويل هالبرين شيل) ، ومن بين أعضائها الكاتب أهارون أمير وبنامين تموز . ورغم أن هذه الحركة لا تؤثر بأي شكل في الحياة السياسية في إسرائيل ، فإن لها بعض الأثر في الحياة الثقافية . كما أنها تُعبر عن مدى الأزمة التي يعيشها الوجدان الإسرائيلي وعن محاولة الإسرائيلي أن يتعامل بشكل م مع الواقع الغريب الذي يحيط به . وقد انحلت حركة الكنعانيين ، وحلت محلها حركة العمل السامي (نسبة إلى الجنس السامي) ، والتي اختفت بدورها وحلت محلها جماعة « هاعولام هذه / قوة حاداش » (هذا العالم / القوة الجديدة) . ويبدو أن الكنعانيين لم يخنوا تماماً . إذ أنهم عاودوا الظهور عام ١٩٦٩ وطلبوا بتجنيد العرب في جيش الإسرائيلي ، وتعليمهم اللغة العبرية باعتبارهم عبرانيين . وتحقيق المساواة بينهم وبين العبرانيين ، وإلغاء كل المزايا التي يتمتع بها المواطنون اليهود لكونهم يهوداً . كما نادوا بضرورة إنشاء جيش قوي والاحتفاظ بالأراضي المحتلة ، وتصعيد الهجرة اليهودية ، وزيادة نسبة المواليد ، وإنشاء علاقات قوية مع الأقليات الأخرى في المنطقة مثل الأكراد والدروز . وطالبوا أيضاً بإنشاء فدرالية تضم إسرائيل وجبل الدروز والموارنة في لبنان . ورغم اختلاف الكنعانيين مع الصهيانية في محتوى تفكيرهم ، فإن ثمة تشابهاً طريفاً بينهم من الناحية البنيوية . فكلا الفريقين يلغيان المنظور التاريخي ويُسقطان التاريخ ويختزلانه ويحولانه إلى أسطورة تخدم أهواء الحركة وبرنامجها السياسي وتُسهل لها التعامل مع الواقع دون مجابهته ، كما أن كلا من الفريقين يقابل الوجود الفلسطيني مسلحاً بأسطورة الاختزالية المُسبقة .

٢ الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية

الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية - اليهود المتخفون - أنوسيم - البرتغاليون - يهود المارانوا : تاريخ وعقيدة - جديد الإسلام - تشويتاس - الرومانيت - يهود الهند - بني إسرائيل - يهود كوشين - يهود مانيبور - يهود البغدادية - يهود القوقاز - يهود جورجيا - يهود بخاري - يهود الجبال (يهود التات ؛ يهود داغستان) - يهود الحزَر - الكرماشكي (تاريخ يهود شبه جزيرة القرم) - اليهود الأكراد - يهود الصين (يهود كايبنج) - اليهود الزنوج - العبرانيون السود - اليهود السود - الفلاشا - تهبير الفلاشا - الفلاشا مورا

الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية

Extinct and Marginal Jewish Communities

«الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية» هي تلك الجماعات اليهودية التي لا تنتمي إلى أيٍّ من الجماعات الأساسية الثلاث :

١ - الإشكناز .

٢ - السفارد .

٣ - يهود العالم الإسلامي .

ويُلاحظ أن الجماعات الثلاث الأساسية تُشكّل ، من ناحية الكم ، ما يزيد على ٩٨٪ ، ويمتد وجودها إلى عدة قرون ويستمر حتى الوقت الحاضر . وتدور الجماعات الثلاث في إطار اليهودية الحاخامية . كما أنها تنتمي إما إلى العالم الغربي أو العالم الإسلامي . أما الجماعات المنقرضة والهامشية ، فهي جماعات كبيرة أو صغيرة اندثرت تماماً أو على وشك الاندثار (الحزَر - المارانو - السامرين - الكرماشكي - يهود الصين) ، أو جماعات صغيرة للغاية (العبرانيون السود - يهود كوشين) . كما نلاحظ أن معظم هذه الجماعات الهامشية قد انفصل عن تيار الجماعات اليهودية الأساسي وأحياناً عن اليهودية الحاخامية (الدوغم - يهود مانيبور - يهود الصين - الفلاشا - القرآئين) . ويُلاحظ أن الجماعات الهامشية هذه ، نظراً لانفصالها عن المراكز الدينية والثقافية اليهودية الكبرى ، قد استوعبت عناصر إثنية ودينية من محيطها الحضاري بشكل ملحوظ وانفصلت عن أية معيارية يهودية . وتكمن أهمية دراسة الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية في أنها تتحدى النظام التصنيفي الصهيوني والمعادي لليهود ، الذي يُصنّف كل أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم «يهود والسلام» بطريقة اختزالية تبسيطية . كما يمكن القول بأن هذه الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية تشكل لحظة تبلور النموذج (اليهود كجماعات غير متجانسة واليهودية

كتركيب جيولوجي لا ككل عضوي أو شبه عضوي متماسك) ، ومن ثم فهي تلقي عليه الضوء وتبين طبيعته رغم أنها تشكل لحظة متطرفة من عدم التجانس والبعد عن أية معيارية .

اليهود المتخفون

Crypto-Jews

«اليهود المتخفون» هم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية ، بسبب الظروف المختلفة ، ويظلون على دينهم في الواقع . ومن أهم فرق اليهود المتخفين «المارانو» ، ويُشار إليهم أيضاً باسم «المسيحيين الجدد» و«الكونفرسوس» و«البرتغاليين» في شبه جزيرة أيبيريا ، كما يُشار إليهم باسم «الدوغم» في تركيا ، وباسم «جديد الإسلام» في إيران ، وباسم «التشويتاس» في جزيرة مايوركا .

وقد لاحظ أحد المستشرقين أن ظاهرة اليهود المتخفين لم تظهر أساساً إلا داخل التشكيل الحضاري الإسلامي في إسبانيا التي كان سكانها من اليهود على علاقة وثيقة بهذا التشكيل ، وحاول أن يُفسّر ذلك في إطار مفهوم الاستشهاد في الإسلام حيث لا يكون ذلك إلا أثناء الجهاد والمعرفة (أما فيما عدا ذلك ، فإن المسلم يتعيّن عليه أن يحمي نفسه بالتقية) ، ومن هنا ظهرت فكرة التخفي . ويقف هذا على الطرف النقيض من الحضارة المسيحية حيث تُعدّ واقعة الصلب في منظورها واقعة أساسية ، وهي حضارة تشجع على الاستشهاد وتجعل منه قيمة في ذاته . ولذا ، نجد أن اليهود الإشكناز كانوا يقومون بما يُسمّى «تقديس الاسم» (بالعبرية : قيدوش هاشم) أي تأكيد وحدانية الإله ، والاستشهاد بدلاً من الارتداد حتى ولو ظاهرياً .

ويُلاحظ المؤرخون أن المارانوية هي شكل من أشكال الموسوية ،

القانوني ذاته الذي كان يستند إلى شرعية دينية . ومع نهاية القرن السابع عشر ، بدأت كثير من الدول تعترف بالبروتستانت كيهود .

يهود المارانو: تاريخ وعقيدة

The Marranos History and Doctrine

كلمة «مارانو» أُنشئت على أوثك اليهود المتخفين ، في إسبانيا والبرتغال ، الذين تراجعوا ظاهرياً عن اليهودية وادعوا اعتناق الكاثوليكية حتى يتمكنوا من البقاء في شبه جزيرة أيبيريا مع تراجع الحكم الإسلامي وبعد طرد يهود البرتغال عام ١٤٨٠ وطرد يهود إسبانيا عام ١٤٩٢ . وقد أطلق عليهم أيضاً تعبير «كونفرسوس» ، أي «الذين اعتدوا إلى دين جديد» ، و«كريستوس نوفوس» ، أو «المسيحون الجدد» . وكلمة «مارانو» التي أُحرزت شيوعاً في القرن السادس عشر ليست معروفة الأصل على وجه التحديد . وفيما يلي بعض الكلمات والعبارات التي قد تكون أصلاً للكلمة :

- ١ - «مارانو» كلمة باللهجة الإسبانية القديمة معناها «خنزير» .
- ٢ - «ماراثا» كلمة إسبانية معناها «النعون» .
- ٣ - «المراي» كلمة عربية معناها «متاف» .
- ٤ - «ماريت عين» عبارة عبرية معناها «ظهر نعين» ، فهو يُظهر المسيحية ويخفي اليهودية .
- ٥ - «محوّرام أناه» كلمة عبرية معناها «أنت مطرود من حضيرة اندين» .

- ٦ - «ماران أنا» عبارة آرامية معناها «أنا مولانا» ، واخطاب فيها موجه إلى المسيح . وكان محتوماً على اليهودي أن ينطق بها كثيراً لإبعاد الشبهة عن نفسه .
- والأصل الإسباني للكلمة هو الأكثر ترجيحاً .

ولم يكن المصطلح ذائع في الأوساط الرسمية . ولم يرد في أي من الوثائق الرسمية الخاصة بمحاكم التفتيش . والمقابل العبري هو «أنوسيم» ، أي «المكرهون» أو الذين «فسدوا» على التنصر . ويُشار أحياناً إلى المارانو بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبيريا واستيطانهم مختلف دول أوروبا ، خصوصاً هولندا ، باسم «البرتغاليون» ، باعتبار أن أغليتهم جاءت من هناك ، كما يشار إليهم كذلك بكلمة «السفارد» باعتبار أنهم جميعاً من السفارد ، أي من شبه جزيرة أيبيريا . ورغم أن الدراسات تُوحّد بين المسيحيين الجدد ويهود المارانو وتقرن بينهما ، فإننا ، كما سنبين فيما بعد ، نرى أن هذا الترادف خاطئ . ولكننا ، مع هذا ، نضطر إلى استخدامه بسبب شيوعه وبسبب إبهام هوية المارانو كما سنبين لاحقاً .

أي الإيمان بالمعهد القديم دون حاجة إلى حاخامات ، كما أنها عبادة تُركّز على الجوهر وحسب ، وتتجاوز كل الشعائر والتحرّجات ، ومن هنا التقاؤها باليهودية الإصلاحية .

ويجب التمييز بين يهود المارانو ويهود الدوغه ، من حيث أن المارانو اضطروا إلى أن يكونوا يهوداً متخفين ، أما الدوغه فقد اعتنقوا الإسلام باختيارهم للتصويبه على المسلمين واليهود على حدّ سواء .

وتقرن الدراسات بين المسيحيين الجدد والمارانو وتوحد بينهما ، وإذا كان المارانو هو الذي يُظهر غير ما يُبطن ، أي اليهودي المتخفي ، فإن كثيراً من المسيحيين الجدد كانوا مسيحيين بصدق . وقد تهود بعضهم أو اضطروا إلى التهود فيما بعد ، ومن ثم يكون من الخطأ أن نستخدم المصطلحين كما لو كانا مترادفين . ومع هذا نظراً لشيوع هذا الترادف ، فإننا نستخدم كلمة «المارانو» للإشارة إلى كلّ من «المارانو» و«المسيحيين الجدد» .

أنوسيم

Anusim

«أنوسيم» كلمة عبرية تعني «المكرهون» ، أو «المغلوبون على أمرهم» ، وهو اسم آخر لليهود المارانو واليهود المتخفين .

البرتغاليون

The Portuguese

«البرتغاليون» مصطلح يُستخدم للإشارة إلى اليهود المتخفين من المارانو الذين خرجوا من شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال) . ومن المرادفات الأخرى «كونفرسوس» أي «المهندون» ، و«المسيحيون الجدد» ، وبالعبرية «أنوسيم» أي «المكرهون» بل و«السفارد» . ولعل تسمية «البرتغاليون» تعود إلى أن أغلبية المارانو جاءت من البرتغال . كما أن مصطلح «برتغالي» كان أكثر تهذيباً من مصطلح «مارانو» ، وكذلك أكثر إبهاماً من مصطلح «المسيحيون الجدد» . وبالتالي ، كانت الدول (مثل إنجلترا) تسمح لليهود بالاستقرار فيها باعتبارهم «برتغاليين» (اسماً) وهي تعلم جيداً أنهم «مارانو» (فعلاً) . وكان هؤلاء يمارسون شعائهم الدينية إما سرّاً وإما علناً . وكانت المؤسسة الحاكمة تغض النظر عن كل هذا . وقد لجأت بعض المؤسسات الحاكمة إلى هذا الحل لحاجتها الشديدة إلى اليهود بسبب نفعهم ولأنهم مادة استيطانية مهمة ، حيث لم يكن بوسعها استصدار التشريعات اللازمة لذلك بسبب المعارضة الشعبية وبسبب انهيار

لهذا كان لابد من طرد المسلمين واليهود ، فعُرض عليهم إما التنصر أو مغادرة البلاد . وقد تنصرت أعداد كبيرة من اليهود انضمت إلى الأعداد التي تنصرت قبل ذلك . لكن العناصر الدينية الصلبة قررت اللجوء إلى البرتغال التي قدمت لهم حق اللجوء المؤقت ، نظير ضريبة يدفعونها . ولكن حينما اعتلى مانويل الأول العرش عام ١٤٩٥ تغيرت السياسة تجاه اليهود . فمانويل كان يطمح إلى تحويل البرتغال إلى قوة تجارية عالمية ، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو أن يحكم ابنه مملكة موحدة في كل شبه جزيرة أيبيريا ، ولذا حاول أن يزوج ابنه من ابنة فرديناند وإيزابيلا ، فوافق الملكان شريطة أن يقوم بطرد اليهود من البرتغال . وقد سبب هذا حيرة حقيقية لمانويل ، فهو من ناحية كان حريصاً على إتمام هذا الزواج ، ولكنه في الوقت نفسه كان يهيمه الحفاظ على أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية ليستفيد من خبراتهم التجارية في بناء إمبراطوريته التجارية . وقد حلّ مانويل هذه المشكلة بأن احتفظ باليهود وفرض عليهم التنصر القسري ، ولكنه منحهم في الوقت ذاته حريتهم الدينية والحصانة ضد محاكم التفتيش لمدة عشرة أعوام . وقد اندمج المتنصرون في مجتمع الأغلبية ، ولكن ، كما هو الحال في إسبانيا من قبل ، ظلت هناك عناصر تمارس الطقوس اليهودية سراً .

ولاحظ أن اليهود المتنصرين في البرتغال كانوا يشكلون كتلة بشرية كبيرة (كانت تصل ، حسب بعض التقديرات ، إلى ١٠٪ من إجمالي عدد السكان) . وكان اليهود الذين فُرضت عليهم اليهودية في البرتغال من العناصر الصلبة ، كما أسلفنا ، ولذا احتفظوا بنماسكهم حتى أنهم كانوا يُسمَّون أحياناً «اليهود» بشكل علني أو «الأمّة» أو «رجال الأعمال» (بالبرتغالية : أومينز دي نيجوسوس homens de negocios) ، كما كانت لهم اتصالاتهم التجارية والمالية المهمة . وقد أدّى هذا إلى بروزهم في التجارة الدولية حتى أصبحت كلمة «برتغالي» مرادفة لكلمة «يهودي» في أنحاء أوروبا . وقد كونوا جماعة ضغط قوية داخل البرتغال نفسها وكان لهم سفير خاص في روما ، نجح في تقديم الرشاوى التي أخرت إنشاء محاكم التفتيش في البرتغال .

وتُشكل كل هذه العناصر مكونات مشكلة المارانو : عناصر يهودية تنصرت قسراً وادعت المسيحية ، وعناصر أخرى تنصرت طوعاً وأمنت بالمسيحية فعلاً ، وكلها عناصر ذات خطاب حضاري واحد (أبييري كاثوليكي) ، يوحد بينها ، رغم اختلاف العقائد أو الادعاءات الدينية .

وقد تأخر إنشاء محاكم التفتيش في البرتغال بعض الوقت

وقد كانت هناك حالات متفرقة من التنصر القسري في العالمين الإسلامي والمسيحي . وقد وقعت مثل هذه الحالات في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي ، وفي أوروبا المسيحية مع حروب الفرنجة وغيرها . لكن مثل هذا التنصر ظل الاستثناء لا القاعدة ، لأن الكنيسة كانت تقف ضده ، نظراً لأن مثل هذه العملية تُفقد فكرة الشعب الشاهد مضمونها . فهذه الفكرة ، التي كانت تحكّم علاقة الكنيسة بأعضاء الجماعات اليهودية ، تذهب إلى أن اليهود في دُلّهم وضعفهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة وانتصارها ، وسيكون تنصّرهم في نهاية الأمر أكبر قرينة على هذه العظمة . ومن ثم ، يكون التنصر اليهودي طوعاً علامة على هذه العظمة . أما التنصر القسري فلا يضيف إلى أمجاد الكنيسة ، ولذلك كانت الكنيسة تسمح لليهود الذين نُصّروا عنة بالعودة إلى دينهم الأصلي .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة للمارانو الذين يبدأ تاريخهم عام ١٣٩١ حين نشبت اضطرابات ضد يهود إسبانيا وقامت مظاهرات عارضت عليهم إما «الموت أو الصلب» . وقد أدّت هذه الاضطرابات إلى تنصّر أعداد كبيرة من اليهود بشكل قسري . ولكن تبع هذا موجة تنصّر طوعي ، بسبب انكسار أعضاء الجماعات اليهودية وهبوط الروح المعنوية . فضلاً عن أن يهود إسبانيا كانوا مُستوعبين في الثقافة العقلانية الرشدية (نسبة إلى ابن رشد) التي قوّضت إيمانهم الديني . كما أن كثيراً من أعضاء النخب الثقافية والمالية اليهودية كانت لهم مصالح مالية متشابكة مع مجتمع الأغلبية (المسيحي) . ثم قامت حركة تنصير أخرى عام ١٤١١ - ١٤١٢ . ويمكن القول بأن تنصّر الغالبية العظمى كان حقيقياً ، ولكن ظلت هناك أعداد ممن مارسوا الطقوس اليهودية بشكل خفي . وقد عاش اليهود المتنصرون ومدعو التنصّر جنباً إلى جنب مع أعضاء الجماعة اليهودية ، بينما حاولت الدولة الإسبانية قُدْر استطاعتها أن تفصل بين الفريقين . وقد احتفظ كثير من المتنصرين بمهاراتهم الحرفية والإدارية واتصالاتهم التجارية كأعضاء في الجماعة الوظيفية اليهودية ، وقد حققوا بسبب ذلك حراكاً اجتماعياً غير عادي ، ولّد الأحقاد ضدهم من قبل بعض عناصر الأرستقراطية القديمة .

وبعد سقوط غرناطة (واستعادة كل شبه جزيرة أيبيريا) واجهت الدولة الجديدة مشكلة سكانية ، وهي أن معظم سكان شبه الجزيرة كانوا إما مسلمين أو يهوداً أو من أصول مسلمة أو يهودية ، ولم تكن توجد سوى أقلية مسيحية ، ومن هنا لم يكن مفر من طرد العناصر غير المسيحية ، لخلق التوازن السكاني لصالح المسيحيين ، الأمر الذي يتطلبه أمن الدولة .

الأخرى (مثل عيد الفصح وعيد الغفران) بعد العيد بعدة أيام حتى لا تتعقبهم محاكم التفتيش . وكان الصوم من أهم الشعائر التي يمارسونها لسهولة إخفائه ، كما أن صوم إستر كان أهم أعيادهم ، حيث كانوا يتلون مزامير داود أو قصائد من نظمهم باللغة الشائعة بينهم . وكانت هذه الصلوات تؤكد وحدانية الخالق (مقابل التثليث المسيحي) . بل وكان لديهم طقس يهدف إلى محو أثر التعميد المسيحي .

وقد بهت انتماء يهود المارانو بالتدريج بعد أن ترك التخفي لمدة طويلة أثره العميق . فعلى سبيل المثال ، أصبحت عبادة الخالق في الخفاء جزءاً عضوياً من عقيدتهم . وأصبح الإعلان عن عقيدة الإنسان أمراً لا يلقى (ومن هنا ، استمر عدد كبير من يهود المارانو في التخفي حتى بعد أن أصبح من حق اليهود ممارسة شعائر دينهم علناً في إسبانيا والبرتغال) . وقد تأثر المارانو بالطقوس الكاثوليكية ، فهم يشيرون إلى «سانت إستر» ، كما تأثروا بتقاليد النصوص الكاثوليكية فكانوا يصومون من أجل الأحياء والنوتى (وهو تقليد كاثوليكي) . وأصبحت لهم عبادات وأدعية خاصة بهم تختلط فيها النطقوس والعبادات الكاثوليكية بالطقوس والعبادات اليهودية . وكان المارانو لا يتزوجون إلا فيما بينهم ولا يتزاوجون مع غيرهم من اليهود . وكانت القيادة الروحية للجماعة في يد النساء العجوز ، وكان الأطفال لا يعرفون الهوية الدينية الحقيقية إلا بعد سن الخامسة عشرة . كما أن يهود المارانو كانوا يشكلون شبكة متماسكة ، فكان التاجر المارانو يرفض أن يشارك تاجراً آخر إلى أن يتأكد من هويته . وقد أدى ذلك إلى تسهيل عملية تهجرة والانتحان ، وساعد هذا التماسك على تسهيل أخراك الاجتماعي للمارانو .

ثم بدأت محاكم التفتيش نشاطها في كل شبه جزيرة أيبيريا . وما يجدر ذكره أن محاكم التفتيش لم تتعقب اليهود الذين أعلنوا عن هويتهم الاندنية ، فهؤلاء لم يكن يُسمح لهم بالبقاء أساساً ، وإنما تعقبت المسيحيين المشكوك في أمرهم والذين كان يُظن أنهم مارانو ، أي «مواطنون يُظهرون المسيحية ويُبتنون اليهودية» ، فهؤلاء كانوا في رأي محاكم التفتيش يشكلون خطراً على العقيدة المسيحية وعلى أمن الدولة . ولكن هناك بعداً آخر بدأت الدراسات الحديثة تؤكد ، وهو أن محاكم التفتيش في إسبانيا لم تكن تابعة للبابا . بل إن روما كانت تعترض في كثير من الأحيان على تطرف قضاة هذه المحاكم ، وعلى أن هذه المحاكم كانت تستخدم ديباجات دينية تستغل الشرعية الدينية لتعقب من كانت نظهم أعداء الدولة . وتبين هذه الدراسات أن رجال الدين الذين عُيِّنوا قضاة في هذه المحاكم نُصِّبوا من قبل

ولكنها بدأت نشاطها بشكل رسمي عام ١٥٣٦ ، ثم مارست نشاطها بشكل فعال في منتصف القرن السادس عشر ، وبدأت في تعقب اليهود المتخفين الذي تخفوا ما يزيد عن قرن ونصف القرن (١٣٩١ - ١٥٥٠) أي الذين كانوا قد دُمجوا حضارياً تماماً إن لم يكن دينياً أيضاً . وما زاد الأمور تعقيداً صدور القرار الخاص ببقاء الدم (بالإسبانية : لامبيثا دي سانجري limpieza de sangre) عام ١٥٦٦ الذي جعل من الأصول العرقية (لا الإيمان الديني) معياراً للتمييز . وبعد أن كان التعقب يتم عن موارسون الطقوس اليهودية خفية ، أصبح التعقب عن ذوي الأصول غير النقية ، ومن ثم أصبح مصطلح «المارانو» لا يشير إلى اليهود المتخفين وحسب وإنما إلى ذوي الأصول اليهودية حتى ولو كانوا من المسيحيين الأنقياء (ولذا يميز البعض بين «المارانو المسيحيين» و«المارانو اليهود») .

وقد مارس المارانو (اليهود) جميع الشعائر التي تقتضيها الديانة المسيحية في العلن . ولكن بعضهم ظل ، في الوقت ذاته ، يمارس شعائر الديانة اليهودية سرراً . فكان اليهودي المارانو يُعمد أطفاله ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد ويذهب للاعتراف دون أن يدلي بأية اعترافات حقيقية ، ويتناول القربان في الكنيسة ثم يصفه خارجها . وقد تأثرت عقيدتهم اليهودية بطول التخفي ، فاختفت شعائر يهودية ، مثل : الختان ، والذبح الشرعي ، واستخدام شال الصلاة ، وكثير من الأعياد . واكتسبت الشعائر ملامح جديدة ابتعدت بهم تماماً عن دينهم الأصلي . وكان أساس عقيدة المارانو هو الإيمان بأن الخلاص يتم من خلال شريعة موسى لا من خلال الكنيسة أو المسيح ، وكانوا يؤمنون بأن نصيرهم القسري هو جزء من العقاب الإلهي الذي حاق باليهود ، تماماً مثل النفي (في حالة اليهودية الحاخامية) . وقد تبرزت إستر مكانة خاصة في فكرهم الديني ، فكان يُنظر إليها باعتبارها صورة مُسَبَّقة لما يحدث لهم . فإستر ، هي الأخرى ، اضطرت إلى إخفاء هويتها الدينية مدة من الزمن حتى تحوز مكانة متميزة داخل البلاط الفارسي . وقد تمكنت خلال ذلك من إنقاذ شعبها من المذبحة التي كان يدبرها هامان لهم . وقد أنكر المارانو أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيح ، وأصبح هذا الإنكار ركناً أساسياً في عقيدتهم ، وهو ما زاد من أهمية العقيدة المشيحية وانتظار مجيء الماشيح ، ولعلها أصبحت المبدأ الوحيد . وكان المارانو يحتفلون بشعائر السبت يوم الأحد ، وإن كان الاحتفال يأخذ شكلاً يسمح بالتخفي مثل : تنظيف المنزل ، وتغيير الملابس والملايس ، والاستحمام ، وإعداد وجبة تُسمى «أدافينا» (وكانت تُعد قبل يوم السبت) . كما كانوا يحتفلون بأعياد اليهود المهمة

الشرع اليهودي منهم ، فكثير من الحاخامات كانوا لا يعتبرونهم يهوداً . بل ورفضت المؤسسة اليهودية البعض ممن تهودوا وعاملت من قبلتهم باعتبارهم متهودين أو غرباء (بالعبرية : جير) اعتنقوا اليهودية ، أي أنها كانت تراهم مسيحيين تهودوا . ويُقال إن المؤسسة الحاخامية كانت سعيدة بملاحقة محاكم التفتيش للمسيحيين الجدد واضطهادها لهم ، على أساس أنهم تركوا دينهم عن قصد . وعلى وجه العموم ، كان اليهود يحتقرون المسيحيين الجدد (المارانو) الذين كانوا بدورهم لا يكون أي احترام لليهود .

ومن القرائن الأخرى التي يجب ذكرها أن كثيراً من المسيحيين الجدد لم يعتنقوا اليهودية حتى بعد طردهم من شبه جزيرة أيبيريا ، لأنهم كانوا مسيحيين بالفعل . كما يُفسّر هذا اتجاه أغليبيتهم إلى العالم المسيحي وعدم توجّهم إلى الدولة العثمانية الإسلامية . وقد جاء في إحدى الدراسات قصة تبيين غباء البشر في بعض الأحيان وعُنف تعصبهم ، فقد قامت محاكم التفتيش بطرد فتاة بتهمة أنها مارانو تدّعي المسيحية وثُبتن الإسلام . وعند وصولها إلى المغرب أكدت للناس هناك أنها مسيحية مؤمنة ، فقاموا بتعذيبها باعتبارها مرتدة فأصرت على موقفها وقُتلت ، فاحتُفل بها في شبه جزيرة أيبيريا باعتبارها شهيدة مسيحية !

وقد لاحظ بعض الدارسين أن كثيراً من المارانو كانوا في واقع الأمر ملحدين أو غير هوية دينية على الإطلاق . ولهذا طالب المفكر الهولندي الشهير جروتوس بأن يؤكد كل يهودي (فوق سن الرابعة عشرة) إيمانه بالإله والأنبياء واليوم الآخر للتأكد من يهوديته .

تبقى بعد ذلك قضية المارانو أو «المسيحيون الجدد» الذين تهودوا عند خروجهم . ولتفسير حالة هؤلاء ، نورد الأسباب التالية :

١ - لم يكن كل المسيحيين الجدد ، كما أسلفنا ، مؤمنين بالعقيدة المسيحية ، بل كان منهم بالفعل مارانو يتحينون الفرصة لإظهار ما يُظنون .

٢ - يُعتقد أن بعض المسيحيين الجدد ، الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية عن حق ، اعتنقوا اليهودية نتيجة مطاردة محاكم التفتيش وملاحقتها لهم ، وهم في هذا يشبهون المتهم الذي يعترف بجريمة لم يرتكبها ، تحت وطأة التعذيب ، حتى يُريح نفسه . كما أن هناك أيضاً عنصر الانتقام من مؤسسة عنصرية غبية .

٣ - يُعتقد أن كثيراً من المسيحيين الجدد تهودوا بعد أن وصلوا إلى أمستردام وغيرها من البلاد ، حتى يحصلوا على عمل أو يمكنهم الالتحاق بإحدى النقابات الحرفية ، أو المهنية . إذ أن المارانو كانوا قد

الدولة الإسبانية لا من قبل روما . وتذهب هذه الدراسات إلى أن اندولة الإسبانية كانت في الواقع أول دولة مطلقة تضع مصلحتها الدنيوية فوق أية مصلحة أخرى ، وهي ظاهرة بدأت تنضح في بقية أوروبا في تاريخ لاحق ، وتذهب أيضاً إلى أن هذه الدولة طالبت رعاياها لهذا السبب بولاء مطلق . وتحل الدولة العلمانية الحديثة مشكلة الولاء عن طريق جعل الدين أمراً خاصاً ، على أن يتم التضامن داخل المجتمع على أساس مصلحة الدولة . ولكن في حالة الدولة الإسبانية ، لم يكن هذا ممكناً برغم توجّهمها الدنيوي لأن التحالفات في أوروبا كانت تتم في إطار ديني ، ولم تكن العقيدة العلمانية قد تطورت أو أحرزت شيوعاً بعد . ومن هنا كان تمسك الدولة الإسبانية بالديابات الدينية برغم توجّهمها الدنيوي .

ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن عملية المطاردة أصبحت بعد قليل مثل مطاردة أجهزة المخابرات الحديثة لـ «يُسمون» أعداء الدولة . وهذه الأجهزة كثيراً ما تختلق الاتهامات ضدهم وتخترعها اختراعاً إن لم تجدها ، حتى يكتب لوظيفتها الاستمرار وحتى تُحكم قبضتها على الحاكم ويتزايد نفوذها وهيبتها . ومن هنا مطاردتها لبعض المسيحيين الجدد الذين تنصّروا عن صدق ، حتى يكتب لها الاستمرار وتحقيق الرسالة !

ويُضيف أصحاب هذه النظرية بعداً اجتماعياً آخر ، وهو أن محاكم التفتيش لم تكن تهدف في واقع الأمر إلى القضاء على الهرطقة اليهودية بين المارانو كما كانت تدّعي ، وإنما كانت تهدف إلى وقف الحراك الاجتماعي لكل المسيحيين الجدد . ولم تكن تغيّر بين من اعتنق المسيحية عن صدق وإرادته من جهة وبين من ادعى الإيمان بها من جهة أخرى . فالمسيحيون الجدد كانوا يشكلون طبقة وسطى جديدة لها إمكانيات غير متوافرة لكثير من قطاعات النخبة الحاكمة . ومن المعروف أنه ، مع نهاية القرن السابع عشر ، لم يكن هناك فرق بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى . ولكن ، مع هذا ، تم تأكيد الفروق لتكون مسوِّغاً لمطاردة أعضاء الطبقة الجديدة . وقد استخدمت محاكم التفتيش معياراً دنيوياً غير ديني («درجة نقاء الدم») وبالتالي تكون محاكم التفتيش هي أولى علامات العنصرية العلمانية (مقابل التعصب الديني) والتي تعتمد العرق (لا الدين) معياراً للفرقة بين البشر . ولم تتوقف المطاردة إلا عام ١٧٧٣ حين تقرر إحراق الوثائق التي تُفرّق بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى .

ومن القرائن التي تُذكر كدليل على أن هؤلاء المسيحيين الجدد قد تنصّروا فعلاً بإرادتهم وأنهم كانوا مسيحيين عن صدق ، موقف

وكجماعات وظيفية داخل المجتمعات الغربية وبين الجماعات اليهودية .

وقد انتشر يهود المارانو في كل أنحاء العالم بعد طردهم ، فذهبت أعداد كبيرة منهم إلى الدولة العثمانية واستوطنوا سالونيك ، فكان عدد يهود المارانو في هذه المدينة يفوق عدد اليهود بل وعدد غير اليهود فيها . ولذا ، كانت هذه المدينة تُعدّ عاصمة المارانو في العالم . كما اتجهوا إلى الأستانة والقاهرة وكونوا نخبة متفوقة . الأمر الذي أدّى إلى اندماج مختلف الجماعات اليهودية الأخرى فيهم ، وأصبحت اللادينو لغة يهود الدولة العثمانية .

وقد اتجه المارانو إلى الدول الغربية ، خصوصاً البروتستانتية ، حيث كانت محاكم التفتيش محط كراهية عميقة ، وكان كثير من البروتستانت من ضحاياها . فاستوطن المارانو في إنجلترا وأستردام وهامبورج ، بل واتجه بعضهم إلى الدول الكاثوليكية فاستقروا في بايون وبوردو وليون في فرنسا ، وفي بعض المستعمرات الاستيطانية التابعة لإسبانيا أو البرتغال في العالم الجديد . وكانت بعض الدول مثل هولندا تعترف بالمارانو كيهود عند وصولهم . أما بعض الدول الأخرى ، فكانت تتسامح في وجودهم وحسب ، وتلجأ في ذلك إلى حيل قانونية أو غير قانونية . فكانت بعض الدول ، مثل إنجلترا ، تغض النظر عن هويتهم الحقيقية . فيظنون مسيحيين اسماً ويمارسون عقيدتهم اليهودية سرّاً أو علناً ، ولكن دون اعتراف رسمي . لأن الاعتراف الرسمي كانت تنجم عنه بكل تأكيد تعقيدات إدارية بالغة في مجتمع تستند كل مؤسساته إلى العقيدة المسيحية وإلى الإيمان بها . وكما أشرنا سالفاً ، فإن كلمة «برتغالي» كانت في كثير من الدول تعني «مارانو» أو «يهودي» .

وكان يهود المارانو عادةً يستوطنون في بلد ما ليُشكّلوا نواة سفاردية متقدمة تلحق بها عناصر إشكنازية تزيد من عددها . وقد ظل السفارد النخبة التي كانت تلعب دوراً قيادياً . أما الإشكناز فكانوا هم الجماهير ، أو الفئات غير المرغوب فيه . وقد زادت الهجرة الإشكنازية من شرق أوروبا بعد هجمات شميلنكي في القرن السابع عشر ، ومع تفاقُم المسألة اليهودية في القرن التاسع عشر ، حتى زاد عدد اليهود الإشكناز على عدد يهود السفارد من المارانو السابقين وأصبحوا هم الأغلبية العظمى .

وفي الأدبيات الصهيونية يتحدثون عن «المارانو الجدد» ، وهم اليهود المندمجون الذين يحاولون الاندماج في محيطهم الثقافي ويخفون يهوديتهم بقدر الإمكان . ولكن كما قال حاخام فيينا بعد لقائه بهرتزل : «من هو اليهودي الحقيقي : هل هو الذي يمارس

وصلوا إلى بلد غريب ذي تنظيم ينتمي إلى العصر الوسيط ولا يسمح باستيعاب الغريب . وإذا أراد المرء أن يُكتب له البقاء ، خصوصاً إذا كان وافداً جديداً ، كان عليه أن ينتمي إلى إحدى النقابات أو المؤسسات . ولكن لم يكن من المتوقع أن تقبله نقابات المهنيين أو إحدى التنظيمات الوسيطة الأخرى باعتباره مسيحياً . وهناك حالات رُفض فيها السماح لبعض المسيحيين الجدد بالتنصّر الفعلي حتى لا يحصلوا على حقوق المسيحيين . وقد كان أمام هؤلاء فرصة الانضمام إلى إحدى النقابات اليهودية عن طريق التّهود .

٤ - ولقد أتى هؤلاء المسيحيون الجدد من شبه جزيرة أيبيريا ، ومن ثم فإن من كان منهم مسيحياً حقاً كان يؤمن بالكاثوليكية ، ثم استقروا في هولندا ، وكانت حينذاك بلداً بروتستانتيّاً معادياً لإسبانيا ، يتسامح مع اليهودية ويقبلها ولا يتسامح مع الكاثوليكية . فالدول البروتستانتية الجديدة في أوروبا كانت تنظر إلى الكاثوليكية والكاثوليك (لا اليهودية واليهود) باعتبارهم الخطر الأعظم . ومن ثم كان من المنطقي أن يتبنّى هؤلاء المطرودون من بلادهم البديل الوحيد المقبول وهو اليهودية .

وقد ظهرت نظرية مؤخرأ تذهب إلى أن المارانية هي نتاج شكل من أشكال العبادة الشعبية التي كانت موجودة في شبه جزيرة أيبيريا ، وهي عبادة اختلطت فيها العناصر اليهودية بالعناصر المسيحية والإسلامية (كما هو الحال مع العقائد الشعبية) . وقد شاعت هذه العبادة بين الجماهير اليهودية التي كانت تُشعر بالاعتراب عن اليهودية الحاخامية الرسمية بنزعها العقلية والعقلانية ، خصوصاً بعد تأثرها بالفلسفة العقلانية الرشدية . والديانات الشعبية عادةً ما يتم توارثها من خلال الأسرة ، ولذا كان اليهودي المنتصر عن صدق يصبح من المارانو إن كان من ممارسي هذه الديانة الشعبية . ومهما كانت الأسباب والدوافع لتعقّب محاكم التفتيش للمارانو وتهودهم بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبيريا ، وبغض النظر عما إذا كانوا مسيحيين عن صدق أم يهوداً ، فما يهمنا هنا هو تأكيد أن المضمون اليهودي لهوية المسيحيين الجدد ، والمارانو بعد خروجهم من شبه جزيرة أيبيريا ، إما أنه لم يكن موجوداً أساساً أو أنه قد ضعف تماماً أو اختفى كليةً . وقد انضمت أعداد كبيرة منهم إلى الجماعات اليهودية في أوروبا ، الأمر الذي ترك أعظم الأثر في هذه الجماعات . فهوية المارانو كانت هوية هامشية بالنسبة إلى المجتمعات كافة . ذلك أنهم بعد انضمامهم إلى الجماعات اليهودية ، لا يكونون مسيحيين في المجتمع المسيحي ، ولا يهوداً من منظور اليهودية الحاخامية . ولذا ، قدّر لهم أن يلعبوا دوراً تحديثياً ضخماً بوصفهم «غرباء هامشين»

بالنهود والهجرة إلى إسرائيل . وهذا يعني بالنسبة إليهم حراكاً اجتماعياً لأن معظمهم فقراء يعملون بائعين متجولين .

والمارانو يشبهون من بعض الوجوه ظاهرة الموريسكيين ، وهم العرب المسلمون الذين اضطروا إلى التنصر بعد استرداد المسيحيين لإسبانيا . وقد نسي الموريسكيون اللغة العربية وإن كانوا يتحدثون بلهجة يُقال لها «الأخميادو» (تحريف لكلمة "أعجمية") ، وهي اللغة القشتالية بعد أن دخلت عليها كلمات عربية ولاتينية ، وكانت تُكتب بحروف عربية . وكان الموريسكيون صناعات مهرة وفنيين في العديد من المهن ، مثل : صناعة الحرير ، والذهب والفضة ، والنقش والبناء ، والفلاحة وأساليب الري الفنية . كما كانوا وراء تعميم زراعة البرتقال والموايح وقصب السكر ومختلف الأشجار المثمرة كالتوت ، ومن الواضح أنهم كانوا مُركّزين في قطاعات الاقتصاد الإنتاجية ، على خلاف يهود إسبانيا الذين كانوا مركزين في التجارة والمال والأعمال الوسيطة . وقد حاولت الدولة الإسبانية صبغهم بالصبغة الإسبانية بعد تنصّرهم ، فكان يُحرّم عليهم لبس الرداء العربي أو التحدث بالعربية أو اقتناء كتب عربية أو طبخ الكُسكس (الطعام المغربي الشهير) . وقد اندلعت الثورات بينهم من أهمها ثورة الموريسكيين الكبرى في البشرات (قرب غرناطة) سنة ١٥٦٩ (وُسمي ثورة البشرات الثانية) . وحينما فشل النظام الإسباني في إسقاط هويتهم العربية ، قام بطردهم سنة ١٦٠٩ (كان مجموع المسلمين الذين طُردوا يتراوح ما بين ٩٠٠ ألف و ٣٠٠ ألف ، وفي بعض التقديرات يُقال إن مجموع من طُرد من المسلمين يصل إلى ثلاثة ملايين) .

ومع هذا ، بقي كثير من المسلمين يمارسون شعائر دينهم في الخفاء ، ويتداولون الكتب الدينية المكتوبة بالأخميادو . وقد تعقبتهم محاكم التفتيش ، وبالفعل وُجد في غرناطة (عام ١٧٢٧) قساوسة من أصل موريسكي يمارسون شعائر الدين الإسلامي سرّاً . وكانت بعض الأسر الموريسكية تُشهر إسلامها بعد مغادرتها إسبانيا . وفي سنة ١٧٥٧ ، حوكم موريسكي بتهمة اتباع شعائر الدين الإسلامي سرّاً . وقد لاحظ بعض الرحالة الإنجليز في أواخر القرن الثامن عشر أن بعض الأسبان مازالوا يمارسون شعائر الدين الإسلامي سرّاً . ويقول بعض الأساتذة الأسبان إنه لا تزال توجد في إسبانيا قرى بأسرها موريسكية . وقد بدأ بعض دعاة القومية الأندلسية في إسبانيا الحديثة يصور على أن تراث أهل الأندلس هو التراث الإسلامي ، بل إن بلاسي إنفانتي بيريز (١٨٨٥ - ١٩٣٦) أبا حركة البعث الأندلسي ، وهو من نسل الموريسكيين القدامى ، اعتنق

شعائر دينه وندمج في مجتمعه ، أم هو الصهيوني الذي يتحدث عن العودة إلى فلسطين ولا يمارس أياً من الأوامر والنواهي ؟ . ويمكننا من هذا التساؤل أن نقول إن الصهيوني هو مقلوب المارانو ، فهو يتباهى بهويته اليهودية ولكنه في داخله إنسان غير منتم إلى الدين اليهودي . وقد لاحظ بن جوريون نفسه أن يهود أمريكا يستخدمون الصهيونية كغطاء يسترون به حتى يزدوا من اندماجهم الفعلي في مجتمعاتهم ، وتحصر يهوديتهم الظاهرة في إرسال التبرعات إلى إسرائيل لإخفاء باطنهم المندمج ، ومن هنا الإشارة لليهودية هؤلاء باعتبارها «يهودية دفتر الشيكات» .

وقد اختفى أثر المارانو في إسبانيا ، أما في البرتغال ، حيث كانت توجد أعداد كبيرة منهم ، فقد استمر وجودهم حتى القرن العشرين على هيئة جماعات متفرقة يبلغ عدد أعضائها نحو عشرة آلاف . ومن الطريف أن جيرانهم يعرفون أنهم مارانو وأنهم فقدوا الصلة تماماً بالجماعات اليهودية في العالم وإن كانوا يحتفظون بالصلة فيما بينهم . وقد أصبحت ممارستهم الخفية جزءاً أساسياً من عقيدتهم ، كما أصبحت طقوسهم الباهتة التي توارثوها عبر الأجيال هي ممارستهم الدينية اليهودية الوحيدة . ورغم أن البرتغال أعلنت حرية العبادة عام ١٩١٠ ، فإن المارانو لم يغتنموا الفرصة وظلوا على ممارستهم .

ومن أهم جماعات المارانو جماعة مدينة بلمونت ، فهم يتصورون أنهم من نسل اليهود البرتغاليين مباشرة ، وأنهم غير مُخلّطين . كما أنهم لا يزالون يمارسون بعض الشعائر الدينية اليهودية ، فهم يوقدون الشموع يوم السبت ، ويصومون يوم الغفران ، ويقيمون بعض شعائر عيد الفصح ، فلا يأكلون لحم الخنزير في يوم السبت أو في الأعياد ولكنهم يأكلونه في الأيام الأخرى ، وهم يحتفلون بهذه الأعياد في أيام غير تلك التي حددها التقويم اليهودي حتى يحولوا الأنظار عنهم . ويتم عقد الزيجات باسم الإله أبراهام وإسحق ويعقوب . كما احتفظوا ببعض شعائر الدفن مثل الطهارة ، أي تغسيل الميت . وقد اختفت اللغة العبرية في صلواتهم ، فلم يبق سوى عبارات مُحرفة تكاد تكون غير مفهومة . وقد أصبحت عقيدتهم بعيدة عن اليهودية وتنضم خرافات كثيرة . ويبدو أن الممارسات الدينية مقصورة على النساء ، ربما لصرف الأنظار .

وتحاول بعض الجماعات اليهودية ، خصوصاً في إنجلترا حيث يوجد يهود كثيرون من أصل برتغالي ، أن يُهودوا المارانو ويدخلوهم حظيرة اليهودية العلنية . وقد بذلت الأليانس جهوداً كبيرة في هذا الغرض ، واتصلت بهم الوكالة اليهودية مؤخراً ، ويبدو أنها أقتعتهم

داخل الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان . وكان الرومانيون يُسمّون أيضاً «الجريجوس» ، كما تُستخدم الكلمة للإشارة إلى نسلهم ومن ورثوا تراثهم اللغوي والثقافي . وكان الرومانيون يتسمّون بأسماء يونانية ، كما كانت معابدهم تُعرف بأسماء يونانية أيضاً . وقد تأثروا بعمق بالتراث اليوناني وباللغة اليونانية التي أصبحت لغة الصلاة في المعبد . وقد صدرت عام ١٥٤٧ ترجمة العهد القديم باليونانية الحديثة واللادينو . ومع بداية القرن السادس عشر ، بدأ يهود السفارد يصلون لاجئين إلى الدولة العثمانية ، وكان مستواهم الثقافي الرفيع وخبراتهم الإدارية والمالية واتصالاتهم العالمية تؤهلهم لاستلام قيادة الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية . الأمر الذي وضع يهود الرومانيون في حالة دفاع عن النفس . وعنى أية حال ، فقد بدأت معابدهم في التناقص وأصبحت لهجتهم اليونانية مقصورة على بضعة تجمعات يهودية متناثرة . وقد انتهى الأمر باندماج معظمهم في السفارد وتبنيهم اللادينو التي أصبحت لغة معظم يهود الدولة العثمانية في الكتابة واخذيت .

يهود الهند

Indian Jews

توجد عدة جماعات يهودية في الهند من بينها بني إسرائيل في بمباي . ويهود كوشين على ساحل مالابار . في ولاية كيرالا ، واليهود البغدادية في بمباي أيضاً . ويهود مينيور على الحدود مع بورما . وقد بلغ عددهم عام ١٩٤٧ نحو ٢٦,٥٠٠ . أما في عام ١٩٦١ ، فقد بلغ عددهم ١٤,٦٠٨ في الهند ذاتها ، إضافة إلى ٢٣ ألفاً في إسرائيل ، و ٢٠٠٠ في إنجلترا حسب إحصاءات عام ١٩٦٨ ، أي أن عددهم يبلغ نحو ٣٩,٥٠٠ ، وهو ما يعني أن نسبة انكاثري بين يهود الهند من أعلى النسب بين الجماعات اليهودية (إذا كانت الإحصاءات دقيقة) . وقد تأثرت كل هذه الجماعات اليهودية بالبيئة الهندية ونظام الطوائف المغلقة . وهي لا تنتمي إلى أي من الكتل اليهودية الثلاث الكبرى : الإشكناز ، والسفارد ، ويهود العالم الإسلامي . ولذا ، فهم يعدّون ضمن الجماعات الهامشية مثل انفلاشاه ويهود كايبنج .

ويلاحظ أن قبول اليهود في مجتمع ما ، واندماجهم فيه ، يؤدي إلى ذوبانهم وانصهارهم . ولكن يهود الهند يمثلون نمطاً مغايراً تماماً إذ أن اندماجهم أدّى إلى الحفاظ على هويتهم . وهذه مفارقة واضحة تعود إلى حركات المجتمع الهندي ذاتها ، فهو مجتمع تُعدّ

الإسلام ، وقد أعدته قوات فرانكو مياً بالرصاص في ١٠ سبتمبر ١٩٣٦ .

جديد الإسلام

Jedid al-Islam

«جديد الإسلام» مصطلح إيراني بمعنى «المسلمون الجدد» ، ويشير هذا المصطلح إلى اليهود المتخفين الذين أرغموا عنوة على اعتناق الإسلام في إيران في القرنين السابع والثامن عشر ، فأظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية . ويشير المصطلح على وجه التحديد إلى أعضاء الجماعة اليهودية في مشهد ، والذين اضطروا إلى اعتناق الإسلام إبان حكم أسرة الكاجار عام ١٨٣٩ . ولا تعرف شيئاً عن مصير اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عنوة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . والظن الغالب ، أنه تم استيعابهم في المجتمع الإسلامي . أما جماعة مشهد ، فقد احتفظت بهويتها ولم يتزوج أعضاؤها إلا فيما بينهم ، ثم هاجر بعضهم إلى القدس عام ١٨٩٠ . أما بقية الجماعة ، فقد ظلت في مشهد حتى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين ، وكونت جماعة اقتصادية مستقلة .

تشويتاس

Chuetas

«تشويتاس» من كلمة «تشوبا» وتعني «لحم خنزير» بلهجة جزيرة مايوركا ، إحدى جزر البالياريك التابعة لإسبانيا . غير أن هناك نظرية أخرى تذهب إلى أن الكلمة مُشتقة من كلمة «تشوهينا» وتعني «يهودي» بلهجة الجزيرة . وهم من أهم جماعات المارانو التي استمر وجودها حتى الوقت الحالي في جزيرة مايوركا . وأعضاء هذه الجماعة يعملون أساساً بالتجارة وصناعة الحلوى القضيبة . وقد فقدوا كل علاقة باليهودية ، ومع هذا فهم لا يزالون يحتفظون بعزلتهم وهويتهم الخاصة الباهتة . ولا يُعرف عددهم على وجه الدقة ، وإن كان لا يتجاوز مائتين أو ثلاثمائة . وقد هاجرت أعداد منهم إلى إسرائيل وتم تهويدهم واستوطنوا فيها ، ولكن التجربة فشلت فعادوا إلى مايوركا .

الرومانيوت

Romaniot

تُستخدم كلمة «رومانيوت» للإشارة إلى الجماعة اليهودية

تختلف عن شعائر باقي يهود العالم في كثير من النواحي ، فهم لا يعرفون التلمود ، بل كانوا قد نسوا التوراة بعض الوقت ولكنهم أعادوا اكتشافها من بعد . ولم تُترجم العهد القديم إلى اللغة التي يتحدثونها إلا في بداية القرن التاسع عشر . ومع هذا ، فهم يعرفون صلاة عبرية هي صلاة الشمع ، وللبي إلياهو مكانة خاصة في عبادتهم . ومن عاداتهم الدينية عادة تُسمى «الميلدا» وهي إعداد طعام خاص يقدم قرباناً . وتُتلى بعض الصلوات اليهودية في مناسبات مهمة مثل الختان والزواج . وأعيادهم وأيامهم المقدسة هي : رأس السنة (ويُحتفل به لمدة يوم واحد) ، ويوم الغفران ، وعيد الفصح . ولكنهم كانوا لا يعرفون عيد التدشين . كما كانوا لا يعرفون شيئاً عن هدم الهيكل على يد تيتوس . وهم يقيمون شعائر السبت والختان وبعض قوانين الطعام ، ويمارسون صيام رمزان (وقد يكون هذا الاسم تصحيفاً لكلمة «رمضان») . وكان يترأس الجماعة اليهودية من الناحية الدينية والدينية الكاجي (القاضي ؟) . وقد أصبحت الوظيفة وراثية حتى صارت كلمة «كاجي» هي اسم العائلة . وبعد احتكاك يهود بني إسرائيل باليهودية الحاخامية في بقية العالم وتأسيسهم معابد يهودية ، ظهرت وظيفة المقدم الذي اضطلع بالوظيفة الدينية للكاجي ، كما حل المرتلون (حزان) محل الكاجي في الجوانب الشعائرية . ولا يوجد عندهم حتى الآن حاخام معتمد تلقى التدريب الصحيح .

وكان يهود بني إسرائيل يعملون أساساً بالزراعة واستخراج الزيت وبيع الحرف اليدوية . وبعد احتلال الإنجليز للهند ، خدم يهود بني إسرائيل في الفرق العسكرية الإنجليزية وعملوا في المهن المختلفة وفي وظائف ذوي الياقات البيضاء وفي المهن التجارية والمالية الأخرى ، أي أنهم تحولوا إلى جماعة وظيفية في خدمة الاستعمار . وهناك ١٠٪ من يهود بني إسرائيل يعملون بالتجارة ، ولكن أغلبيتهم العظمى تعمل ككتبة في الحكومة والمكاتب الخاصة . ولذا ، يُشار إليهم الآن بوصفهم «طائفة الكتبة المغلقة» ، كما تضم الجماعة بعض الأساتذة الجامعيين .

ويمكننا أن نقول إن يهود بني إسرائيل قد استطاعوا الحفاظ على هويتهم من خلال نشاطهم داخل المجتمع الهندي لا ضده ، أي من خلال اندماجهم فيه . ومن هنا ، فإن بعض أنماط سلوكهم يختلف عن أنماط سلوك يهود الغرب . ورغم أن سمعة الأطباء اليهود جيدة في الهند ، فإن أبناء الجماعة لا يترددون عليهم . ونادراً ما يستخدم أرباب العمل اليهود عمالاً يهوداً ، على عكس ما كان عليه الأمر في أوروبا قبل الثورة الصناعية . ونادراً ما

الوحدة الأساسية فيه القرية والطائفة المغلقة . وتستطيع أنواع مختلفة من البشر الاحتفاظ بهوياتهم فيه ، ماداموا يقبلون الطائفة المغلقة إطاراً للتنظيم الاجتماعي ، وربما ببعض المعتقدات الهندوكية الأساسية . وتقوم عملية التضامن داخل الجماعة المغلقة بتقوية الهوية مادامت لا تهدد النظام الاجتماعي . وبالتالي ، فإن ثمة هويات هندية يهودية مختلفة ، بل ومتصارعة ، لكل سماتها الواضحة . وهذا ، بطبيعة الحال ، يختلف عن وجود هوية يهودية محددة داخل كل مجتمع ، وعن الافتراض الصهيوني القائل بوجود هوية يهودية عامة أو عالمية . ويُلاحظ أن الهويات اليهودية الهندية أخذت في الاختفاء بسبب الهجرة من الهند سواء إلى إسرائيل أو إلى غيرها من البلدان . كما أن الأجيال الجديدة من الهند اليهود بدأت تتمرّد على نظام الطوائف المغلقة ، تماماً مثل جيل الشباب الهندي ككل .

ويعيش القسم الأكبر من يهود الهند الذين هاجروا إلى إسرائيل في مدن التنمية ، خصوصاً تلك الموجودة في التّب والمنطقة الجنوبية مثل : بئر سبع وعسقلان وعراد إضافة إلى بيسان في غور الأردن . ويعيش قسم آخر في المدن الكبرى الثلاث : القدس ، وتل أبيب ، وحيفاً . ويعيش عدد قليل للغاية في بعض الكيبوتسات (وهي مؤسسات إشتراكية بالدرجة الأولى) والموشافات . ومن الظواهر التي تستحق التسجيل أن ثمة قائمة خاصة بمهاجري الهند ظهرت في انتخابات عام ١٩٨٤ .

بني إسرائيل

Bene Israel

«بني إسرائيل» اسم عَلم يُطلَق على مجموعة من يهود الهند كانت تقطن أساساً في منطقة كونكان ، ولكنها ، ابتداءً من القرن الثامن عشر ، انتقلت إلى بومباي حيث أسست أول معبد يهودي عام ١٧٩٦ . ومع حلول عام ١٨٣٣ ، كان ثلثا يهود بني إسرائيل يعيشون في بومباي . ولا نعرف الكثير عن أصل يهود بني إسرائيل ، إلا أنهم ، حسب روايتهم ، يعودون إلى ما قبل الميلاد . وقد انقطعت صلتهم باليهودية الحاخامية ، ولكنهم بعد احتكاكهم بيهود كوشين تعلّموا على أيديهم أصول عقيدتهم مرة أخرى ، كما انضم إليهم اليهود البغدادية في القرن التاسع عشر . ولون يهود بني إسرائيل أميل إلى البياض مقارنةً بلون بشرة الهنود العاديين ، وهم يرتدون الملابس الهندية ويتحدثون الماراثي (وهي اللغة الشائعة في المنطقة التي يعيشون فيها) ، ويسمّون أسماء هندية . ونظراً لانفصالهم عن اليهودية الحاخامية لعدة قرون ، فإن شعائرهم الدينية

كانوا في انتظار «البلد المقدسة» لتقودهم إلى أرض الميعاد . وبعد عدة سنوات ، وتحت تأثير الوكالة اليهودية التي بدأت تُشرف على أمورهم الدينية والدنيوية ، هاجر بضعة آلاف منهم إلى إسرائيل حيث عانوا من التفرقة العنصرية وقشلوا في العثور على وظائف ، وهو ما اضطرهم إلى الإضراب والمطالبة بالعودة إلى الهند . وقد عاد بعضهم بالفعل . أما الفريق الذي استوطن إسرائيل نهائياً ، فقد وُظِن في موشاف جديد يقطنه أساساً يهود عراقيون وهند . وفي عام ١٩٦١ ، أصدر حاخام السفارد (الحاخام نسيم) قراراً (بليعاز من اليهود البغدادية) بالتحقق من أصل يهود بني إسرائيل الذين يودون التزاوج من خارج جماعتهم الدينية الإثنية ، لأنه لم يكن متأكداً إن كان أسلافهم قد راعوا القوانين اليهودية في الزواج والطلاق ، وكذلك التحريمات الخاصة بالزواج المختلط ، وذلك حتى يتسنى للمحاخامية أن تقرر إن كان أولادهم شرعيين أم غير شرعيين (مامزير) . وقد أدى هذا إلى إضراب عام من جانب بني إسرائيل عام ١٩٦٤ ، الأمر الذي اضطر إحصاءية إلى تغيير موقفها بالنسبة لهم . ومن أشهر الإسرائيليين المتيمين إلى هذه الأقلية أبي نيشان ، وهو من الموافقين على حل الصراع العربي الإسرائيلي سنياً ومن معارضي سياسة التوسع الإسرائيلية . وقد قابل أبي نيشان الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات وزُجَّ به في السجن لذلك السبب . وكان عدد بني إسرائيل في الهند : ٥٢٥٥ عام ١٨٣٧ ، و ٧٠٠٠ عام ١٨٨١ ، و ١٤,٨٠٥ عام ١٩٤١ . أما في عام ١٩٤٧ ، فقد بلغ عددهم ١٧,٥٠٠ ، ثم هاجرت أعداد منهم إلى الدولة الصهيونية . وهبط عددهم إلى ١٥ ألفاً عام ١٩٦٠ وإلى ١٣ ألفاً عام ١٩٦٨ . ثم هبط عددهم بعد ذلك إلى ١٢ ألفاً . ويبدو أن عدد يهود بني إسرائيل في الهند قد أخذ في التناقص بسبب الهجرة إلى إنجلترا وكندا وأستراليا إذ بلغ عام ١٩٨١ نحو أربعة آلاف .

يهود كوشين

Cochin Jews

«كوشين» مدينة هندية ، وتُسمى بهذا الاسم أيضاً منطقة على ساحل مالابار تقع جنوب غربي الهند ، وهي الآن جزء من ولاية كيرالا . وتضم كوشين جماعة يهودية متميزة تمثلت كثيراً من سمات الحضارة الهندية . وتعود أصول هذه الطائفة إلى عصور قديمة . ويدّعي يهود كوشين أنهم من قبيلة منسى ، وأنهم وصلوا إلى مالابار بعد هدم الهيكل . وفي حوزة يهود كوشين وثيقة مكتوبة على ألواح من النحاس تتضمن صك الانتماء إلى طائفة النبلاء ، وقد منحها

يرسل أعضاء الجماعة أبناءهم إلى مدارس يهودية . كما لا تُوجد نسبة كبيرة من التجار بينهم .

ولكن الاندماج يظهر ، أكثر ما يظهر ، في استيعاب نظام الطوائف المخلقة (الهندوكي) لأعضاء الجماعات اليهودية ، وكذلك في تأثيره العميق عليهم وعلى رؤيتهم للذات وللآخر . فأعضاء الجماعات اليهودية ينقسمون إلى قسمين : اليهود البيض (جورا إسرائيل) ، الذين يعتبرون أنفسهم اليهود الحقيقيين والأكثر رقباً (وهم حسب أسطورتهم أبناء العائلات السبع نقية الدم التي وصلت إلى الهند واستقرت في ساحل كونكان) ، واليهود السود (كالا إسرائيل) وهم هندو مُتهودون أو نتاج زواج مختلط . ويُعتبر الجورا إسرائيل أنفسهم في مكانة اجتماعية أعلى من الكالا إسرائيل ، ويحاولون الحفاظ على نقائهم ولا يتزوجون معهم ، بل ولا يلمسون أدوات الطبخ الخاصة بهم . وقد انعكست الثورة على النظام الطائفي في الهند على بني إسرائيل إذ أن أعضاء الكالا إسرائيل يُظهرون الآن تذمراً من عنصرية الجورا إسرائيل .

ويُطلق جيران اليهود عليهم مصطلح «شانو ارتيليس» ، أي «زياتو السبت» باعتبار أن أعداداً كبيرة منهم تعمل في استخراج الزيت وبيعته ، الأمر الذي يعني أنهم كانوا طائفة مُغلقة متدنية في سلم الطوائف ، ويسبب مجرد لمس أحد أشخاص هذه الطائفة الدناسة . ولم يتأثر يهود بني إسرائيل بالملابس الاجتماعية وحسب ، وإنما نجد أن بعض العقائد الهندوكية وجدت طريقها إلى يهوديتهم . فمثلاً كان يُحرّم الزواج من الأرامل ، وكانوا يتصورون أن أكل لحم البقر مُحرمٌ عليهم وأن ذلك منصوص عليه في التوراة ! وينقسم يهود بني إسرائيل في الوقت الحاضر إلى ثلاثة اتحادات دينية : أولها اتحاد الأبرشيات الأرثوذكسية ، وهو مرتبط بالاتحاد الذي يحمل الاسم نفسه في الولايات المتحدة . والثاني معبد الهند المتحد ، ويرتبط بالمجلس العالمي للمعابد المحافظة . وليس هناك فارق واضح بين هاتين الطائفتين (وقد يكون من قبيل المفارقات أن كلا الاتحادين قد أخذ بالطقوس السفاردية) . وهناك اتحاد ثالث هو الاتحاد اليهودي الديني ، وهو مرتبط بحركة اليهودية الليبرالية الإصلاحية في إنجلترا ويضم أعضاء بني إسرائيل الذين حققوا مكانة اجتماعية عالية . ولا تختلف شعائر هذا الاتحاد الثالث عن الاتحادين الآخرين . ولذا ، يظل الاختلاف هو الاختلاف في الانتماء الطبقي للأعضاء .

وعندما اتصلت الحركة الصهيونية بيهود بني إسرائيل ليرسلوا ممثلين لهم للمؤتمرات الصهيونية ، رفضوا في بداية الأمر إذ أنهم

فيه . ولم يكن من حق أعضاء الفريق الثالث ، حتى عام ١٩٣٢ ، أن يجلسوا في المعبد اليهودي أو يشاركوا في الصلوات . ويستخدم يهود كوشين العبرية في صلواتهم ، وشعائهم سفاردية مع بعض الأشكال الإشكنازية نتيجة الهجرة المختلطة في القرن السابع عشر . وكان عدد يهود كوشين عام ١٧٨١ نحو ٤٢٢ أسرة ، أي حوالي ٢٠٠٠ شخص . وتَقَصَّ عددهم عام ١٨٧٣ إلى ١٠٣٩ ، وعام ١٩٣١ بلغ عددهم نحو ١٧٧٤ حيث كانوا مُقسَّمين على النحو التالي : ١٦٠٠ يهودي أسود ، و ١٤٤ أبيض ، و ٣٠ ميشو حراريم أو مُعتَقين . وفي عام ١٩٤٨ ، بلغ عددهم ٢٥٠٠ ، منهم مائة يهودي أبيض . وفي عام ١٩٦٨ ، هاجر اليهود السود ، ولم يهاجر من اليهود البيض أحد لأن الحكومة الهندية لم تسمح لهم بأخذ أموالهم . ويبلغ عدد يهود كوشين الآن (في إسرائيل) ما يزيد على أربعة آلاف . وقد وُضِعوا تحت الحجر الصحي بسبب انتشار مرض الفيل بينهم . ولا ندرى هل اعترفت دار الحاخامية بهم يهوداً أم لا ، فهم لا يعرفون إلا القليل من التلمود و تراث التوراة الشفوية بشكل عام . ويُقال إن عدد يهود كوشين المتبقين في الهند لا يزيد عن ثلاثين فرداً .

يهود مانيبور

Mainpur Jews

«مانيبور» منطقة في الهند ، على حدودها مع بورما ، تُوجَد فيها جماعة يهودية لا يزيد عددها عن مائة شخص . ويرى يهود مانيبور أن أصولهم تعود إلى يهود الصين ، وأنهم هربوا من كايفنج منذ ثمانمائة عام أمام الغزو المغولي ، ثم استوطنوا الكهوف في الهند الصينية ووصلوا مانيبور في القرن الثامن عشر . وقد نسي أعضاء الجماعة تراثهم اليهودي . وهم لا يمارسون معظم الشعائر ، مثل الختان ، ولا يعرفون التلمود ، ونسوا حتى التوراة مثل يهود الصين . ولكن من المفارقات أنهم حينما احتكوا بالإرساليات المسيحية ، اكتشفوا التوراة وبدأوا يمارسون بعض شعائرها ، وإن كان بعضهم يمارس الشعائر المسيحية أو العبادات الوثنية السائدة في المنطقة مع الشعائر اليهودية جنباً إلى جنب . ويذهب يهود بني إسرائيل إلى أن يهود مانيبور ليسوا يهوداً ، ولذا فإن عليهم التهود إن أرادوا الانضمام للجماعة اليهودية .

اليهود البغدادية

Baghdadi Jews

«يهود البغدادية» مجموعة من يهود بغداد السفارد هاجروا إلى

الراجا الهندي لليهودي يوسف رابان . وحسبما جاء فيها ، فإن انصك يعطي يوسف هذا عدة مزايا ، فقد أصبح من حقه أن يركب فيلاً ، وأن يُحْمَل في محفّة ، وأن يُحمى من الشمس بمظلة من مظلات الدولة ، ومن حقه أيضاً أن يفرض الضرائب ، وأن تسبقه الطبول والمزامير كلما خرج إلى الشوارع ، كما مُنح قرية أنجوفانام على حدود كوشين يتوارثها أبناؤه من بعده . وقد كان يهود كوشين يساعدون الراجا في حروبه ضد الإمارات المجاورة ، وانضمت إليهم عناصر يهودية جديدة في القرن السادس عشر (مع وصول الاستعمار الغربي) ، فجاء يهود من هولندا وإسبانيا وألمانيا وحلب . وقد وقعت كوشين تحت حكم البرتغاليين (١٥٠٢ - ١٦٦٣) . ولكن الراجا حمى اليهود من ممارسات البرتغاليين العنصرية ، وعيّن لهم رئيساً (مدانيار) . وقد أعقب ذلك مرحلة هولندية (١٦٦٣ - ١٧٩٥) كانت تسبب باستقرار اليهود النسبي حيث تحوّل بعض أعضاء الجماعة إلى وسطاء تجاريين ، ونشأت علاقة بينهم وبين يهود هولندا . ثم جاء الاستعمار الإنجليزي بعد ذلك وعمّق هذا الاتجاه . ويُقسّم يهود كوشين إلى :

- ١ - اليهود البيض أو «ميوحاسيم» ، أي «المتسب إلى» ، ويُسمون أيضاً «بارناس» أي «شخص» . فهم من نسل يهود أوروبا الذين جاءوا مع الاستعمار وتزاوجوا مع أثرياء اليهود المحليين ، وكونوا طائفة مغلقة متميزة عن اليهود السود .
 - ٢ - اليهود السود أو «ميشو حراريم» .
 - ٣ - اليهود المعتقّين أو «ميشو حراريم» .
- ويشكل اليهود السود أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية . أما اليهود البيض ، فهم أقل عدداً ، ولون جلدهم مختلف ، وهم يدعون أنهم من نسل المهاجرين الأوروبيين ، وأن جلدهم قد اكتسب لونه الداكن نتيجة تعرّضهم للشمس الاستوائية . أما الفريق الثالث ، فهو من سلالة عبيد الفريقين السابقين ، أو ثمرة العلاقة بين اليهود البيض والسود من ناحية والمحظيات أو الجوارى من ناحية أخرى . ولذا ، يُقسّم هذا الفريق أحياناً إلى مُعتَقين بيض ومُعتَقين سود . ويهود كوشين مُستوعبون تماماً في مجتمعهم الهندي ، فهم يرتدون الأزياء الهندية ويتحدثون لغة المالايالام (وهي لغة سكان الهند الأصليين) ، ويتحدث اليهود البيض منهم الإنجليزية إلى جانب هذه اللغة .

وقد ترك نظام الطوائف المغلقة فيهم أعمق الأثر . ولذا ، فإن الفرق الثلاثة أو الأربعة لا تتزاوج فيما بينها إلا نادراً . ويعيش كلٌّ في حيٍّ مقصور عليه ، ولا يسمح لأعضاء الفرق الأخرى بالسكنى

٢ الجماعات اليهودية المنقرضة والهامشية

في كتب الرحالة العرب . وبعد أن ضمت الحكومة الروسية القيصريّة القوقاز . سمحت لهم بالاستمرار في حياتهم والتمتع بحقوقهم . باعتبار أنهم كانوا مزارعين مندمجين في مجتمعاتهم . لا جماعات هامشية غير منتجة مثل يهود اليديشية . وقد منح يهود اليديشية في بداية الأمر من الانتقال من منطقة الاستيطان إلى القوقاز . ولكن الخطر رُفِعَ فيما بعد حتى بلغ عدد يهود القوقاز في عام ١٨٩٧ نحو ٥٦٠,٧٧٣ . منه ٧٠,٠٣٨ من يهود الجبال و ٦٠,٠٣٤ من يهود جورجيا والبقية من يهود اليديشية . وقد زاد عدد اليهود في القوقاز . فبلغ عددهم في عام ١٩٥٩ نحو ١٢٥ ألفاً . منهم ٣٥ ألفاً من يهود جورجيا و ٢٥ ألفاً من يهود الجبال . وقد انخفض عدد يهود القوقاز بسبب معدلات الاندماج المرتفعة وهجرة أعداد كبيرة من يهود جورجيا إلى إسرائيل . وقد بُيِّنَ إحصاء عام ١٩٨٩ . وهو أول إحصاء قُسمَ يهود الاتحاد السوفيتي فيه إلى جماعات يهودية إثنية مختلفة . أن عددهم لا يتجاوز ٧٢,٦٩١ . منه ١٦,١٢٣ في جورجيا و ٢٠,٠٠٠ من يهود الجبال و ٣٦,٥٦٨ من يهود بخارى .

يهود جورجيا

Georgian Jews

«جورجيا» هي إحدى جمهوريات دول الكومنولث (الاتحاد السوفيتي سابقاً) . وتقع على الساحل الشرقي لبحر الأسود . ويعتقد يهود جورجيا أنهم من نسل قبائل إسرائيل العشرة المفقودة التي هجرتهم شلما نصر . وهم يدعون هذا بقولهم إنه لا يوجد بينهم كهنة . ومهما يكن الأمر ، فإن جذورهم في جورجيا موغلة في القدم ، وقد قامت علاقات ثقافية بينهم وبين يهود الخزر . وتوجد إشارات عديدة إليهم في الوثائق التاريخية . وقد تحوّل بعضهم (بعد الغزو المغولي) إلى ألقاب يعمل بعضهم بالزراعة والخرف (النسيج والصباغة) والتجارة . وكان الألقاب يعيشون في ضياع أسباطهم وقراهم معزول عن يهود العالم ، الأمر الذي أدّى إلى ضمور الهوية والانتماء الديني لديهم ، وكان الألقاب يُسمّون إلى : ألقاب الملك ، وألقاب الإقطاعيين ، وألقاب الكنيسة . ومع ضم جورجيا إلى روسيا عام ١٨٠١ ، تحوّل ألقاب الملك إلى ألقاب الخزانة إذ كان عليهم دفع ضريبة للخزانة . وقد اعترفت الحكومة القيصريّة بحقوق اليهود في جورجيا (على خلاف يهود اليديشية الذين كانوا خاضعين لبعض القيود) . وألغيت القنانة في جورجيا في الفترة ١٨٦٤ - ١٨٧١ . وبعد اندلاع الثورة البلشفية ، قامت حركة قوية للاستقلال في جورجيا اشتركت فيها عناصر يهودية معادية للصهيونية (وتحالف

الهند في القرن التاسع عشر ، وكانوا على مستوى ثقافي راق كما كانوا من الأثرياء . وأسسوا كثيراً من الصناعات التي خلقت عدداً كبيراً من الوظائف . وقد رحب بهم يهود بني إسرائيل في البداية حيث لم يكن بينهم كاهن يقوم بالطقوس الكهنوتية ، إلا أن اليهود البغدادية كانوا جماعة مستقلة عن يهود بني إسرائيل ويهود كوشين بسبب إحساسهم بالتفوق على أعضاء الجماعتين . ولذلك ، أقام اليهود البغدادية سباجاً من العزلة حولهم وادعوا أن الدماء اليهودية الخالصة لا تسري إلا في عروقهم وحدهم . وأصبح لهم مؤسساتهم الدينية والخيرية المستقلة ، وكانت لهم مدارسهم الخاصة التي يتم التدريس فيها بالإنجليزية . وقد بلغ إحساسهم بالتفوق أنهم كانوا لا يحسبون أعضاء بني إسرائيل ضمن النصاب اللازم لإقامة الصلاة في المسجد ، كما لم يكن يُنادى على أيّ منهم لتلاوة التوراة . وحاولوا استبعادهم من استخدام الأسرة المخصصة لليهود في بعض المستشفيات ، بل ومن العضوية في معبد رانجون . ولا يتزوج اليهود البغدادية مع بني إسرائيل إلا في حالات نادرة . وقد بلغ تعداد اليهود البغدادية ٦٥٠٠ نسمة عام ١٩٤٧ ، لكن هذا العدد تناقص بسبب الهجرة بحيث أصبح لا يزيد على الألف . ويبدو أنه لم يهاجر منهم سوى أعداد قليلة للغاية إلى إسرائيل ، وربما يعود هذا إلى أن لديهم من رأس المال والخبرات ما يسمح لهم بالاستقرار في الغرب ، تماماً كما استقرت النخبة الثرية والثقافة من يهود المغرب العربي في فرنسا ولم تتجه إلى إسرائيل .

يهود القوة —

The Jews of the Caucasus

تُعَدُّ القوقاز من أكثر المناطق تنوعاً من الناحية العرقية . ويحيط بمنطقة القوقاز روسيا الأوربية شمالاً ، والبحر الأسود غرباً ، وتركيا وإيران جنوباً ، وبحر قزوين شرقاً . وهي مقسّمة إلى ثماني عشرة منطقة إدارية وهو ما يعكس ثراءها الحضاري . وقد احتفظت عناصر قومية كثيرة بهويتها المستقلة ، وذلك بسبب عزلتها في الجبال والوديان . ويبلغ عدد سكان القوقاز اثني عشر مليوناً تشمل ما لا يقل عن ثلاثين قومية أساسية . وقد انعكس هذا على الجماعات اليهودية ، إذ توجد عدة جماعات يهودية في القوقاز منها يهود جورجيا الذين يختلفون عن يهود الجبال (أو يهود داغستان) ، أو يهود بخارى ، أو عن بقايا يهود الكرماكي .

ويبدو أن معظم يهود القوقاز جاءوا من إيران ، إذ يظهر أثر ذلك في لهجاتهم الخاصة . والواقع أن أول إشارة وردت عنهم كانت

والروسية . ولم تكن العلاقة جيدة دائماً بين يهود جورجيا ويهود اليديشية الذين هاجروا من منطقة الاستيطان في أواخر القرن التاسع عشر (باعتبارهم عنصراً روسياً) ليستوطنوا المناطق الآسيوية التي ضمتها الحكومة القيصرية (فهم جماعة وظيفية استيطانية) . ورغم جو التسامح ، وعدم وجود معاداة لليهود ، ورغم معدل الاندماج العالي الذي حققه اليهود في جورجيا ، فإنهم حين فُتحت أبواب الهجرة إلى إسرائيل هاجر منهم ما يساوي نصف عددهم الكلي . والسؤال الآن : إذا كان يهود جورجيا مندمجين ومتساوين في الحقوق مع غير اليهود ، فلم هاجرت أعداد كبيرة نسبياً منهم إلى الدولة الصهيونية ؟ وللإجابة عن هذا السؤال ، لابد من العودة إلى حركات المجتمع الجورجي حتى يتسنى لنا فهم العناصر التي أدت إلى الهجرة ، عناصر الطرد من الاتحاد السوفيتي ثم عناصر الجذب إلى إسرائيل .

يستند المجتمع الجورجي إلى شبكة اتصالات واسعة . وهذه الشبكة هي مؤسسة وسيطة تشبه علاقاتها علاقات القرابة أو العلاقات القبلية ، وهي تضم مجموعة من الأفراد يدخلون في علاقة متعينة مباشرة ، فتزوّد الشبكة العضو بالعون في لحظة حاجته ، وبالطمأنينة في لحظات الأزمة ، وتشدّد من أزره في كل الأحوال في مواجهة المجتمع ككل ، وبالأدوات في مواجهة الدولة الحديثة (بكل تجريداتها) وفي مواجهة البيروقراطية السوفيتية التي تتسم أفعالها بمستوى عال من العقلانية وعدم الاكتراث بالعناصر الشخصية . وليس بإمكان عضو أن يوجد خارج هذه الشبكة التي يُعَدُّ اعتمادها عليها مصدر عزته وكرامته ، وعليه بالمقابل أن يقدم لها ما تريد . ويُلاحظ أن اليهود ينتظمون في شبكات اتصال غير يهودية ، كما أن هناك مسيحيين ينتظمون في شبكات اتصال يهودية . وفي هذا الإطار ، يُعتبر الولاء للدولة أمراً ثانوياً قياساً بالولاء إلى الجماعة/ الشبكة المباشرة . ويُنظر إلى كل من الدولة والشبكة باعتبارهما طرفين متعارضين . فالدولة السوفيتية هي الكيان المجرد البيروقراطي ، والشبكة هي الجهاز المتعين المحلي الذي يستطيع الفرد التعامل معه بشكل إنساني ومباشر .

وهذه الشبكة الهائلة المتطورة ، وهذا التمازج بين الفرد والأسرة ، هما أساس القومية الجورجية ، وهي قومية معادية للضغوط الخارجية التي تأتي عادةً من موسكو . ويتمثل رفض الحكومة المركزية فيما يُسمى «الاقتصاد الثاني» ، وهو القطاع الحر غير الشرعي الذي تديره الشبكة بطبيعة الحال لصالح أعضائها ، والذي يُعبّر عن الهوية الجورجية القومية في وقوفها ضد تدخل الدولة الحديثة ومحاولاتها في خلق اقتصاد موحد يُدار مركزياً .

معهم أعضاء جماعة جيد) . وقد هاجم الجيش الأحمر جورجيا ، وبدأت عملية دمج جورجيا في الدولة السوفيتية وهو ما تضمن دمج أعضاء الجماعة اليهودية . ولم تتدخل الحكومة في الشؤون الدينية ، ففتحت المعابد اليهودية ، بل وسمحت الحكومة بالنشاطات الصهيونية لبعض الوقت . ولكن ، بعد أن تزايدت النشاطات المعادية للسوفييت ، تغير موقف السلطات السوفيتية . وفي منتصف العشرينيات ، بذلت هذه السلطات جهداً مضاعفاً لعلمة يهود جورجيا ، ففتحت أبواب المصانع للعمال اليهود ، كما فتحت لهم المزارع الجماعية اليهودية . ولكن ، في منتصف الثلاثينيات ، قررت السلطات السوفيتية أن تحطم ما صورتته الانغلاق الإثني لليهود في المزارع الجماعية ، فأُسست مزارع مختلطة (أمية) تضم يهوداً وأرمن . وقد فكرت السلطات السوفيتية في أن تُطوّر ثقافة سوفييتية جورجية على غط الثقافة السوفيتية اليديشية ، لكن المحاولة توقفت بعد فترة قصيرة من البدء فيها . ويعمل يهود جورجيا أساساً بالتجارة كما يعمل كثيرون منهم بالمهن الحرة ، فمنهم العلماء ومنهم المهندسون والمدرسون . ويوجد بينهم كذلك عمال مهرة .

والجو اخضاري في جورجيا تعددي متسامح . ولا يتسم تاريخ الجماعة اليهودية بظاهرة العزل أو الطرد أو المذابح ، كما هو الحال مع يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر .

ولا تختلف أسماء يهود جورجيا عن أسماء جيرانهم المسيحيين . بل إن لهم العادات نفسها ، ويرتدون الأزياء نفسها ، ويتبعون أسلوب حياة واحد . وهم يشاركون جيرانهم المسيحيين أعيادهم فيحتفلون بالكريسماس معهم ، في حين يشاركونهم المسيحيون الاحتفال في عيد النصب ، ويرقصون معهم في عيد نزول التوراة .

ويبدو أن يهود جورجيا فقدوا ، بمرور الزمن ، علاقتهم باليهودية الحاخامية . ولذا ، كان سكان المدن من المتمسكين بدينهم اليهودي يشاركون إليهم باسم «الكنعانيين» . ولا يأكل يهود جورجيا لحم الخنزير ، ولكنهم لا يحافظون على قوانين الطعام الأخرى . وهم يعرفون الذبح الشرعي ولا يمارسونه بصورة دائمة . وبشكل عام ، يُلاحظ أنهم لا يعرفون كثيراً من الشعائر اليهودية ، وحينما يعرفونها فإنهم يتجاهلون معظمها . والفصل الأساسي بينهم وبين جيرانهم من غير اليهود هو أنهم لا يتزوجون معهم ، ولكن يُلاحظ أن نسبة الزواج المختلط بينهم أخذت في الزيادة منذ الستينيات .

ويتحدث معظم أعضاء الجماعة اليهودية في جورجيا اللغة الجورجية (٩١٪) ويكتبونها بالحروف الجورجية (وهؤلاء هم اليهود الأصليون) ، كما تتحدث أقلية من يهود جورجيا اليديشية

وللصهيونية العمالية التي تزد تدخّل الدولة في الاقتصاد . ومن العناصر المساعدة الأخرى ، أن عناصر الشبكة التي انتقلت إلى إسرائيل لعبت دوراً أساسياً في جذب أعداد كبيرة من يهود جورجيا . فالمهاجرون السوفييت ، كي يحصلوا على تأشيرة هجرة ، كان عليهم أن يحصلوا على دعوة من قريب لهم في الخارج . وقد حصل يهود جورجيا على أعلى نسبة من الدعوات وصلت إلى نحو ١٨٪ ، حيث كان بعض اليهود يتلقون أكثر من دعوة . وحينما كان جزء من الشبكة اليهودية ينتقل إلى إسرائيل ، كان بقية الأفراد الذين تخلفوا يجدون الحياة صعبة للغاية ولا معنى لها خارج نطاق الشبكة ، فيهاجرون هم أيضاً ليحصلوا بإخوانهم . وفيما يلي أعداد اليهود الذين هاجروا من جورجيا :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٧١	٤٣٠٠	١٩٧٣	٧,٧٥٠
١٩٧٢	١٠,٩٠٠	١٩٧٤	٢,٧٠٠

ولم يزد عدد المهاجرين بعد ذلك التاريخ على ألف ، مع أن السوفييت لم يتخذوا سياسة مشددة في منح تأشيرات الخروج إلا بعد عام ١٩٧٩ ، أي أن الأعوام الخمسة التالية لنفطرة التي شهدت الهجرة اليهودية المكثفة من الاتحاد السوفيتي شهدت أيضاً تراجعاً بين يهود جورجيا . ويمكن تفسير ذلك مرة أخرى في ضوء حركات الجذب والطرده الخاصة بالمجتمع الجورجي ، فعنصر الجذب الأساسي ، وهو حرب ١٩٦٧ ، كان أخذاً في التضاؤل التدريجي ، وفقد كثيراً من بريقه في حرب الاستنزاف ، واختفى تقريباً بعد حرب ١٩٧٣ . أما عنصر الطرد ، وهو التحولات الاقتصادية التي هزّت الاقتصاد الثاني ، فسيبدو أنه بدأ يقل ، إذ أن مخاوف الجورجيين ، ومن بينهم اليهود ، أخذت تهدأ قليلاً ، وظهر أن الأمر لم يكن مخيفاً كما توهموا في بداية الأمر ، ومن هنا تناقصت الهجرة . ويشكل يهود جورجيا في إسرائيل مشكلة كبيرة ، فهم لا يشعرون بالسعادة هناك ، كما أنهم يعانون من التفرقة العنصرية التي تُمارس ضدهم . وقد أصبحوا من أهم مصادر الجريمة المنظمة في الدولة الصهيونية وتخصصوا في تزيف النقود . وهاجرت أعداد منهم إلى الولايات المتحدة وشكّلوا هناك بعض عصابات الجريمة المنظمة ، والجريمة المنظمة هي أحد أشكال الاقتصاد الثاني . وكان عدد يهود جورجيا ٥٢ ألفاً عام ١٩٥٩ (وجاء في إحصاء آخر أن عددهم كان ٨٠ ألفاً من الناحية الفعلية) ، وانخفض إلى ٤٣

ويشارك يهود جورجيا هذا الإحساس القومي الجورجي الراض لل الدولة الحديثة ، والذي يتبدّى في شكل الارتباط بالشبكة ، أي أن هوية يهود جورجيا هي هوية جورجية قوية ذات أبعاد يهودية خاصة تلعب دوراً حاسماً في تشجيع الهجرة إلى إسرائيل . غير أن هذه الهجرة لم تتم لأسباب يهودية عامة وإنما بسبب حركات المجتمع الجورجي . وتحتوي كل عملية هجرة على عنصر جذب إلى الوطن الجديد وعلى عنصر طرد من الوطن القديم .

١ - عنصر الجذب :

عند نشوب حرب ١٩٦٧ ، وقف السوفييت إلى جانب العرب ضد إسرائيل ، الأمر الذي جعل الجورجيين (بعدانهم التقليدي للروس) يتعاطفون مع إسرائيل ضد العرب وحلفائهم الروس . وقد غذى هذا الشعور التراث الجورجي المحلي المعادي للإسلام . فتحوّلت الدولة الصهيونية إلى ما يشبه المثل الأعلى : الدولة الصغيرة التي يمكنها الحفاظ على هويتها والوقوف ضد السوفييت . وكان هذا الإحساس الجورجي المحلي قوياً للغاية عند يهود جورجيا . ولعل هذا يمثل عنصر الجذب .

٢ - عنصر الطرد :

حكم مجافنازة (السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجورجي) جورجيا مدة تسعة عشر عاماً ، وكان الفساد قد وصل في عهده إلى مستويات لم يسبق لها نظير ، إذ يبدو أن الشبكة الجورجية نجحت في التسلل والاستيلاء على مؤسسات الحزب الشيوعي ذاتها هناك ، وفي تسخيرها لصالح أعضاء الشبكة أو الشبكات ، وبعد إقالته ، عُيّن مكانه سفارنازة المشهور بزمته . ولذا ، كان من المتوقع أن يقوم بمناهضة الاقتصاد الثاني الذي كان يرتبط به عدد كبير من اليهود بنسبة تفوق نسبة غير اليهود . وقد شكلت هذه التحولات الاقتصادية عنصر الطرد .

ويلاحظ أن كلاً من عنصري الجذب والطرده محليان تماماً ، وأن اختلاف اليهود عن غير اليهود كان اختلافاً في الدرجة وحسب وليس في النوعية ، إذ أن استجاباتهم للأحداث كانت استجابة جورجية أساساً وذات بعد يهودي يزيد من حدة الاستجابة عندهم . وقد كانت درجة تعاطفهم مع الدولة الصهيونية بطبيعة الحال أعلى ، كما أن درجة الضرر الذي لحق بهم نتيجة الإصلاحات الاقتصادية كانت أكبر كما بيّنا . ويمكن أن نصف هنا عناصر أخرى مساعدة ، فعلى سبيل المثال رأى يهود جورجيا أن الدولة الصهيونية زاخرة بفرص العمل الحر (الاقتصاد الثاني) الأمر الذي كان يزيد ولا شك من عنصر الجذب . ومن هنا تأتي معاداة معظم المهاجرين من جورجيا

الذبح الشرعي بل ويأكلون اللحوم التي يذبحها المسلمون . وكانت زوجاتهم يلبسن الحجاب مثل نساء المسلمين . كما كانوا يمشون الطباقي ويدخنون الترجيلة .

ويظهر الأثر الإسلامي أيضاً على المعبد اليهودي الذي يشبه المسجد ويغطيه السجاد الفاخر . ويصلي فيه اليهود جالسين القرفصاء . وهم يُنادون بعضهم البعض بالاسم الأخير مع إضافة لفظة «أخ» أو «عم» ، كما يُنادى العلماء بلفظ «ملا» . أما رجال الدين ، فيسمونهم «الحاخامات» وليس «الراي» كما هو الحال في الغرب . وتشبه مدارسهم الدينية الكتابية .

يهود الجبال (يهود التات . يهود داغستان)

Mountain Jews (Tat Jews; Daghestan Jews)

«يهود الجبال» جماعة يهودية لها خصوصياتها الإثنية واللغوية ، يعيش أعضاؤها في مقاطعة داغستان السوفيتية وأذربيجان (ومن هنا يشار إليهم بلفظ «يهود داغستان») كما يُشار إليهم كذلك باسم «يهود التات» . ويُسمي يهود الجبال أنفسهم «جوهور» . ولكن مصطلح «يهود الجبال» ذاته هو مصطلح روسي صكته السلطات الروسية القيصرية في منتصف القرن التاسع عشر بعد ضم المنطقة إليها .

وتشير الدلائل اللغوية والتاريخية إلى الأصول الإيرانية ليهود الجبال ، فلهمجتهم من أصول إيرانية شمالية دخلت عليها كلمات تركية وعبرية . وقد تكونت الجماعة نتيجة هجرة اليهود المستمرة من شمال إيران (وربما من الإمبراطورية البيزنطية) لأذربيجان حيث استوطنوا بين متحدني لغة التات التي أصبحت لغتهم . وقد بدأت هذه العملية في منتصف القرن السابع الميلادي مع الفتح الإسلامي للمنطقة ، واستمرت حتى غزاها المغول في القرن الثالث عشر . وفي هذه الفترة ، اتصل يهود الجبال بيهود الخزر . وقد انقطعت الصلة بعد ذلك بين يهود الجبال وبقية يهود العالم حتى بداية القرن التاسع عشر تقريباً .

وليهود الجبال عادات وقيم قَبَلية ، فهم يجدون الشجاعة ، ويدافعون عن شرفهم مستخدمين السيف ، يأخذون بالشار ، وتنتشر بينهم الخرافات ، ويعيشون في بيوت طينية منخفضة تعلو على حوائطها أسلحتهم المصقولة ، وهو ما يدل على اندماجهم في الحضارة القوقازية الإسلامية في هذه المنطقة . وهم يتسمون بأسماء تورانية بعد إضافة النهاية الروسية «أوف» ، فيصبح «بنيامين» مثلاً «بنيامينوف» . وتشبه معابدهم المساجد من الخارج ، وكانت

ألفاً عام ١٩٧٠ . أما إحصاء عام ١٩٨٩ ، الذي يتميز بأنه يُقسّم يهود الاتحاد السوفيتي إلى جماعات يهودية إثنية مختلفة ، فيذكر أن عدد يهود جورجيا ١٢٣,١٦ يعيش أغلبهم في تفليس عاصمة الجمهورية . ولا يزال الجو العام في جورجيا تعديداً ، وإن كانت الوظائف الإستراتيجية تُحجَب عن اليهود لأنهم سيهاجرون إلى إسرائيل . وقد أخذت معدلات الاندماج والعلمنة في التزايد ، وبدأ اليهود يصطبغون بالنصبغة الروسية لا الجورجية . وإذا أضفنا إلى ذلك هجرة اليهود المتدينين ، فليس من المستبعد أن يخفي يهود جورجيا في المستقبل . وقد أصبحت جورجيا جمهورية مستقلة ، وهو ما يعني أن الإطار الذي يتحرك فيه أعضاء الجماعة اليهودية قد تغير بشكل جوهري .

يهود بخارى

Bukhara Jews

«بخارى» إمارة إسلامية تركية ضمتها الإمبراطورية الروسية في القرن التاسع عشر . وتقع بخارى الآن ضمن جمهورية أوزبكستان . وتعود جذور يهود بخارى إلى عصور قديمة ، فتقول أساطيرهم إنهم منحدرون من أسباط إسرائيل العشرة المفقودة . وهم مندمجون في الوسط الحضاري الذي يعيشون فيه ، ويتحدثون اللغة الطاجيكية ، وهي لهجة فارسية . وقد كان يهود بخارى وأفغانستان ووسط آسيا يُشكّلون وحدة ثقافية واحدة ، ثم انقسمت هذه الجماعة في القرن السادس عشر ، مع بداية الحكم الشيوعي في إيران ، إلى يهود إيران ويهود وسط آسيا ويهود أفغانستان الذين ظلوا تحت الحكم السني . ثم انقسمت الجماعة الأخيرة ، في القرن الثامن عشر ، وتفرّع عنها يهود بخارى ويهود أفغانستان . ويبلغ عددهم ، حسب إحصاء ١٩٥٩ ، ثمانية وعشرين ألفاً يعيش ثلاثة وعشرون ألفاً منهم في أوزبكستان ، في سمرقند وبخارى ، والباقيون في طاجيكستان . أما إحصاء ١٩٨٩ ، فيحدد العدد بنحو ٣٦,٥٦٨ ألفاً . وإن صدقت هذه الأرقام ، تكون الجماعة اليهودية في بخارى هي الجماعة الوحيدة في كومنولث الدول المستقلة التي زاد عدد أعضائها .

وكان يهود بخارى يعملون بالتجارة والصباغة عشية الثورة وازدهر حالهم بعد ضم الإمارات الإسلامية إلى الإمبراطورية نظراً لفتح الأسواق أمامهم . ولكن ، مع قيام الثورة الاشتراكية ، تدهور وضع التجارة عامة ، وبدأت الحكومة السوفيتية في إنشاء مزارع جماعية لهم ، لكن التجربة فشلت .

وبدلو أنهم فقدوا ، في مرحلة من المراحل ، علاقتهم باليهودية الحاخامية ونسوا شريعة موسى . ولذا ، فإنهم كانوا لا يمارسون

الأدبية التي كتبها أدباء من يهود الجبال تتبنى خط الحزب بشكل كامل . وقد جلب كل هذا على أعضاء الجماعة اليهودية كره الجماهير . وقد أدت حركة التصنيع في الاتحاد السوفيتي ، والخطط الخمسية المتتالية ، إلى فك التضامن القبلي بين يهود داغستان ، فتركوا الجبال وبدأوا يعملون بالمصانع . ومع هذا ، فإن أصولهم القبلية وتربطهم العائلي يساعدهم على الاحتفاظ بقسط كبير من خصوصيتهم الجبلية .

وحسب إحصاءي ١٩٥٩ و ١٩٧٠ ، كان عدد يهود الجبال يبلغ ما بين ٥٠ ألفاً و ٧٠ ألفاً (وهو في تصورها عدد مبالغ فيه) . وقد هاجر حوالي ١٢ ألفاً في الفترة بين عام ١٩٧٤ ومتصف الثمانينيات إلى إسرائيل ، وبحسب إحصاء عام ١٩٨٩ (وهو أول إحصاء يُقسم يهود الاتحاد السوفيتي إلى جماعات إثنية مختلفة) ، يبلغ عددهم حوالي ٢٠ ألفاً ، ولعل انخفاض العدد بهذا الشكل الملحوظ يرجع إلى استبعاد يهود أيديشية القيمين في داغستان . وأهم مراكزهم السكانية باكو عاصمة أذربيجان . أما في داغستان ، فإن معظمهم يعيشون في دربنت وفي عاصمة الجمهورية .

يهود الخزر

Khazar Jews

«الخَزَر» قبيلة من أصل تركي عاشت في منخفض الفولجا جنوب روسيا وكوّنت مملكة كان حكامها وبعض سكانها يديون بعبادات وثنية ولكنهم تحولوا إلى اليهودية . ويُطلق الاسم أحياناً «خازارا» كما هو الحال في العربية . ولكن ثمة دلائل على أن هناك طوائف أخرى للنطق ، فهو بالعبرية «كوزاي» وبالصينية «كوزا» . وربما يعود الاسم إلى الكلمة التركية «قزق» بمعنى «يتجول أو يتنقل كالبدو» (المشتق منها كلمة «قوزاق») أو ربما يعود إلى كلمة «قوز» أو «جاز» بمعنى «جانب الجبل المتجه إلى الشمال» ، وقد يُفسر هذا الاشتقاق الأخير بالنطق العبري (كوزاري) .

وقد وصل الخَزَر إلى منطقة الفولجا والقوقاز من أقصى الشرق في تاريخ غير معروف ، وإن كان آرثر كوستلر يذكر نقلاً عن برسكس ، رسول الإمبراطور البيزنطي لقبائل اليهود في القرن السادس الميلادي ، أن الخَزَر ظهروا على المسرح الأوروبي حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي باعتبارهم شعباً خاضعاً لسيادة قبائل الهون . ويمكن أن يُعتبروا هم والمجر وغيرهم من القبائل نسل قبيلة أتيل زعيم البرابرة الشهير . ويُطلق التواريخ الروسية المعاصرة على الخَزَر مصطلح «الأوجارين البيض» ، مقابل «الأوجارين السود» ،

تُستخدم كمدرسة دينية على طريقة المسلمين حيث يجلس الأطفال على الأرض ويحفظون التوراة على يد الحاخام . وهم يحتفلون بالأعياد اليهودية ، وخصوصاً عيد النصيب وعيد الفصح . وإن كانت الطقوس الخاصة بعيد الفصح مختلفة عن تلك المعروفة بين اليهود . كما أن طقوس الزواج عندهم مختلفة عن تلك الطقوس المعروفة لدى يهود أوروبا ، إذ يدفع الزوج ما يُسمى «الكالين» أو «الفدية» . وهم يقسمون بالنار ويشعلون النار بجوار المرضى ، الأمر الذي يشير إلى أصولهم الإيرانية . والوحدة الاجتماعية الأساسية هي الأسرة الممتدة ، والتي تضم ثلاثة أو أربعة أجيال ويبلغ عددها نحو سبعين عضواً . وكان يهود الجبال يمارسون تعدد الزوجات . ويشكل كل سبع أو ثماني أسر قرية يهودية .

وقد تدهورت أحوال الجماعة اليهودية بتدهور المنطقة ككل نتيجة تحولها إلى ساحة صراع بين كلٍّ من روسيا وتركيا وإيران إلى جانب الصراع بين عدد من الحكام المحليين . وقد نجحت روسيا في نهاية الأمر في ضمها عام ١٨١٣ . وقد طلب يهود الجبال من السلطات القيصرية أن تضعهم تحت حمايتها . كما حدثت تحولات عميقة للجماعة اليهودية بعد ضم القوقاز لروسيا ، فانتقلت أعداد كبيرة من اليهود من المناطق الجبلية إلى المدن حتى أنه كان هناك في منتصف القرن التاسع عشر نحو ٤١٪ من أعضاء الجماعة في المدن ، ولكن ، مع هذا ، ظل حوالي ٥٨٪ منهم في القطاع الزراعي ، بل إن سكان المدن من اليهود كانوا يعملون في صناعات مرتبطة بالمحاصيل الزراعية مثل تقطير الكحول . وكان أثرياء يهود الجبال من أصحاب شركات تقطير الخمر وبيعها ، كما أن إحدى العائلات كانت تمتلك أهم شركة صيد في داغستان ، وكان الكثيرون من أعضاء الجماعة يقومون بزراعة نبات الرويبا Rubia وهو نبات كانت تُستخلص من جذوره صبغة حمراء ، كما كانوا يشتغلون بدباغة الجلود وبصيد بعض الحيوانات لاستخدام جلودها . وقد أصبح كثير من أعضاء الجماعة اليهودية عمال صيد أو عمالاً أجراً وانتقلوا إلى باكو ودربنت بعد أن تصاعدت معدلات التصنيع والتحديث في روسيا القيصرية ، وهو ما جعل الصناعات اليدوية غير قادرة على الاستمرار ، كما عمل كثيرون منهم تجاراً صغاراً .

وبعد الثورة البلشفية ، تغير وضع يهود الجبال بشكل أعمق . وكما طلب يهود داغستان من السلطات القيصرية من قبل وضعهم تحت الحماية ، فإنهم تحالفوا تماماً مع السلطات السوفيتية ضد غالبية السكان . ولذا ، فحينما قامت حركة انفصالية ضد السوفيت ، كان ٧٠٪ من الحرس الأحمر في المنطقة من يهود داغستان . وكانت الأعمال

بدراسات كتاب غربيين معظمهم من اليهود مثل آرثر كوستلر في كتابه **دولة الحزَر وميراثها (القبيلة الثالثة عشرة)** (والذي استفدنا منه كثيراً في هذا المدخل) . وكتاب العالم اليهودي دنلوب ، والموسوعات اليهودية المختلفة ، في حين استمد هؤلاء الكتاب معلوماتهم من المصادر العربية بالدرجة الأولى .

ورغم انتصارهم ، لم يتمكن العرب من القضاء على مملكة الحزَر ، بسبب المشاكل الداخلية للخلافة الأموية ، ولعل هذا هو الذي أنقذ الحزَر في نهاية الأمر . وتشهد فترة الحرب الثانية قيام تحالفات مع الامبراطورية البيزنطية ربما للرد على الهجوم الإسلامي . وقد زوّج الامبراطور البيزنطي ابنه من أميرة خزرية عام ٧٣٢ ، وكانت ثمرة هذا الزواج الامبراطور ليو الحزَرِي (٧٧٥ - ٧٨٠) .

ولا يعرف أحد بالضبط مدى اتساع مملكة الحزَر (خزاريا) ، فيجعلها بعض المؤرخين مملكة صغيرة على الفولجا والدون ، في حين يرى البعض الآخر أنها كانت في قمة اتساعها وتطورها ، في منتصف القرن الثامن حيث شكلت مملكة مترامية الأطراف تمتد حدودها بين سواحل البحر الأسود الشمالية ، ونهر الدنيبر في الغرب ، وبحر قزوين ونهر الفولجا في الشرق ، حتى حدودها الجنوبية وجبال القوقاز في الجنوب . كما اتجه الحزَر شمالاً . ويُقال إن حدود المملكة وصلت إلى كييف ، لكن القرائن على ذلك ضعيفة . ويقول آرثر كوستلر إن الحزَر ، في ذروة قوتهم ، فرضوا الجزية على ما يزيد على ثلاثين عشيرة وقبيلة مختلفة تقطن المساحات الشاسعة فيما بين القوقاز وجبال الأورال ومدينة كييف والإستبس الأوكرانية . ومن بين الشعوب الواقعة تحت سلطان الحزَر : البلغار (بلغار الفولجا) ، والغز ، والمجريون (الهنگار) ، وسكان المستعمرات الجرمانية واليونانية في القرم ، وبعض القبائل السلافية . وكانت الجيوش الحزَرية تشن غاراتها أيضاً جنوب المناطق الواقعة وراء مناطق سيادتها المترامية ، جورجيا وأرمينيا ، وتغلغل في الأراضي العربية حتى شارفت الموصل . ولم يكن للخزر ، حتى القرن التاسع ، أي منافس لسيادتهم في المناطق الواقعة شمال البحر الأسود وما يلحقها من مناطق الإستبس والغابات على نهر الدنيبر . وقد ظلوا القوة العظمى في النصف الجنوبي من أوروبا الشرقية مدة قرن ونصف قرن ، وكانوا حاجز حماية منيع يسد عمر الأورال وقزوين فيما بين آسيا وأوروبا . وقد صدّوا طوال هذه الفترة غارات القبائل البدوية الزاحفة من الشرق . وقد بدأ تدهور الحزَر في القرن العاشر بسبب تزايد قوة قبائل البيشنج في الشمال والغرب والروس في إمارة كييف .

وهم الهنگار أو المجريون . وقد أدّى موت أتيل إلى ظهور فراغ كبير وهو ما ييسر عملية ظهور الحزَر باعتبارهم قوة في المنطقة التي شغلوها ، فقاموا بصهر واستيعاب وقهر بعض القبائل التركية الأخرى ، ثم هزموا البلغار في نهاية الأمر واضطروهم إلى الهجرة . ولكن ، قبل استقلال الحزَر الكامل في المملكة ، كان الحزَر يشكلون جزءاً مما كان يُسمّى الامبراطورية التركية الغربية أو المملكة التركية أو جزءاً من أتراك التركستان ، وكانوا يشكلون اتحاد قبائل تخضع لحاكم واحد هو الخاقان ، أو الكاجان ، أو الخاجان . ويُقال إن الحزَر ساروا مع سنجيبيو ، أول خاقانات الأتراك الغربيين ، ضد إحدى القلاع الساسانية الفارسية . وقد استمرت المملكة التركية مدة قرن (٥٥٠ - ٦٥٠) ، وأصبحت كلمة «تركي» بعد ذلك تشير إلى الأتراك وحسب دون الشعوب التركية الأخرى .

كانت المملكة الحزَرية تقع على المعبر الحيوي الواقع بين البحر الأسود وبحر قزوين ، بين القوتين الشرقيتين العظميين في ذلك الوقت : الدولتين الإسلامية والبيزنطية (دولة الروم) . وقد أصبحت تمثل عازلة حدودية تحمي بيزنطة من الغارات الهمججية التي تشنها قبائل الإستبس الشمالية مثل البلغار والمجر ، كما أنها أوقفت التقدم الإسلامي . فقد قامت بين الحزَر والعرب عدة حروب كانت أولها بين عامي ٦٤٢ و ٦٥٢ حينما أصدر الخليفة عمر (رضي الله عنه) أمره للقوات الإسلامية بالهجوم على عاصمتهم بالانجار ، ولكن المسلمين لم ينجحوا في مهمتهم واستشهد قائدهم عام ٦٥٣ . وقامت الحرب الثانية بين عامي ٧٢٢ و ٧٣٧ وانتهت بهزيمة الحزَر على يد مروان بن محمد (مروان الثاني) وأسلم بعدها خاقان الحزَر ، ولكنه عاد وتحوّل إلى ديانتهم الأصلية . ويقول المسعودي إن الحزَر قد تغلبوا عاصمتهم (تحت ضغط الهجمات العربية) إلى أتل ، عند مصب نهر الفولجا ، بعد عام ٧٣٧ . ويبدو أنهم خلال الفترة بين اتخاذهم كلاً من بالانجار وأتل عاصمة لهم ، كانت لهم عاصمة ثالثة هي سمندر .

ومما يجدر ذكره أن كُتب الرحالة والمؤرخين العرب القدامى (مثل : ابن فضلان ، والأصطخري ، وابن حوقل ، والمسعودي ، وابن سعيد المغربي ، والبلخي ، واليعقوبي ، وابن رسته ، والمقدسي ، وابن النديم ، والطبري ، وابن مسكويه ، والبيروني ، وياقوت) لا تزال من أهم المصادر عن الحزَر ، سواء فيما يتعلق بتاريخهم أو عاداتهم . ومع أنه توجد مصادر أخرى بيزنطية وروسية ، فإن كُتب الرحالة العرب لا تزال المصدر الأساسي . ومن المفارقات التي يجب أن تسبّب لنا ، نحن عرب القرن العشرين ، الإحساس بالخرج أننا لم نستفد بهذه الدراسات وإنما استفدنا

ولرغم تدهورها وضعف نفوذها ، احتفظت مملكة الحَزَر باستقلالها حتى القرن العاشر ، حين قام حاكم كييف (الأمير سفياتوسلاف) بالهجوم على أتل عام ٩٦٥ وتغيطم قوتها وتدمير عاصمتها وكذلك قلعة سمندر وساكريل على نهر الدون . ولكن هذا لا يعني أن الحَزَر قد أبيدوا ، وإنما يعني تناقص قوتهم وانكماش نفوذهم ، إذ أن ذكرهم يأتي في المدونات المختلفة حتى القرن الثاني عشر . ويمكن القول بأن الإمبراطورية الحَزَرية تهاوت تماماً باعتناق الأمير الروسي فلاديمير الديانة المسيحية ، فقد أدى هذا إلى ظهور تحالف مسيحي يضم بيزنطة في الغرب وروسيا في الشمال ، وهذا ما جعل مملكة الحَزَر اليهودية دون قيمة إستراتيجية كدولة عازلة ، وسقطت تماماً في نهاية الأمر تحت هجمات الروس أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر . ويُقال إن خاقان الحَزَر اعتنق الإسلام في تلك الفترة لعقد تحالف مع المسلمين . وقضى الغزو التتري على ما تبقى من الحَزَر في وادي الفولجا عام ١٢٤٧ حين اختفوا تماماً كجماعة مستقلة . ويُلاحظ أن دولة الحَزَر تقع في المنطقة التي تلتقي فيها عدة إمبراطوريات ولم تحقق الازدهار إلا بسبب الفراغ الموجود في تلك المنطقة . وهي في هذا ، تشبه ، في كثير من الوجوه ، الدولة العبرانية المتحدة (في الماضي) ، والدولة الصهيونية (في العصر الحديث) .

وحضارة الحَزَر آسيوية قَبَلية بدائية احتفظت بكثير من الطقوس البدائية حتى بعد أن أحرزت قدراً لا بأس به من التقدم . وقد عرف الحَزَر نظام الملكية المزدوجة المعروف بين القبائل التركية وبعض الشعوب الآسيوية إذ كان يحكمهم الخاقان أو الكاجان الأكبر الذي لم يكن يظهر إلا مرة واحدة كل أربعة أشهر ولا يتحدث إلا إلى نفر محدود من الناس . وكان الخاقان موضع تجيل كبير ، ويجري تنويجه في احتفال مهيب للغاية . وقد كان دائماً من سلالة ملكية ، وكان المنصب يُورث في العائلة نفسها ، حتى لو كان الوريث شخصاً عادياً فقيراً كما يلاحظ الرحالة العرب . وكانت سلطة الخاقان مطلقة حتى أنه لو طلب إلى أحد أن يقتل نفسه لفعل . ولكن الخاقان كان في نهاية الأمر مبعداً معزولاً إذ كان نائبه ، كاجان بك أو البك وحسب ، هو الذي يصرف شؤون الدولة شاملة إعداد الجيوش وقيادتها ، وهو الذي يظهر للعامة ويقودهم في الحروب ، وهو الذي كان يمتلك كل القوى ذات التأثير . ورغم أن البك كان يدين بالطاعة لحضرة الخاقان الأكبر ويأتيه كل يوم في إذعان وخضوع ، فإنه هو الذي كان يُعيّنه كما يذكر الأخطرخري ، أو ربما كان مؤثراً في اختياره . وربما كان هذا التقسيم للسلطة بين الخاقان والبك تقسيماً

وكانت ديانة الحَزَر في أراحل الأولى شامانية بدائية يهيمن عليها الشامان (الكاهن/ الساحر/ الضبيب) الذي يدعى المقدر على شفاء المرضى والسيطرة على الأرواح الشريرة ويدعى معرفة الغيب . ويبدو أن الحَزَر أحرزوا قسماً كبيراً من التحضر قبل تهوؤهم وبعده ، فقد تركوا خيامهم وبنوا البيوت من الحجر المحروق . وكان للمسلمين مساجد متعددة في مملكتهم . منها مسجد كانت مئذنته ترتفع إلى ما يفوق ارتفاع القلعة الملكية . كما أنهم مارسوا الزراعة ، واتسع نطاق تجارتهم الدولية . وقد ازدهرت أيضاً الفنون والحرف ، ومنها صناعة الأزياء الانسانية وصناعة الفضة . أما غط الفن الحَزري ، فقد كان متأثراً بالفن الفارسي . وقد تطور نظامهم القضائي أيضاً بحيث كان في عاصمة الحَزَر سبعة قضاة ، اثنان منهم للمسلمين واثنان لليهود واثنان للمسيحيين وواحد للوثنيين .

وكما أسلفنا الذكر ، بلغت مملكة الحَزَر أوج عظمتها وقوتها بين القرنين الثامن والعاشر . وأثناء هذه الفترة ، اعتنق ملكها بولان (٧٨٦-٨٠٩) ، ومعه أربعة آلاف من النبلاء ، الديانة اليهودية وجعلها الديانة الرسمية ، وهو ما يؤكد المسعودي حين يشير إلى

هذه المهنة في هذه المناطق وغيرها أن يهود حتى يستفيد من شبكة الاتصالات اليهودية في العصور الوسطى ، والتي كانت تعتبر نظام ائتمان دولي . وقد أصبح بوسع الحَزَر ، بتهددهم ، أن يلعبوا دور الوسيط أو الدولة الوظيفية الوسيطة بين القوتين العظميين ، إذ كان لكل منهما قوانينها وشرائعها ، ولم تكن تُوجد بينهما قنوات اتصال ولا يمكن لتجار كل طرف أن يعبروا إلى أرض الطرف الآخر إلا بصعوبة . ولذا ، كان من الضروري ظهور طرف ثالث هامشي محايد ، مثل الجماعة الوظيفية الوسيطة ، ليقوم بالنشاط التجاري بينهما . ويُقال إن النخبة الحاكمة الحَزَرية قد تبنت ديانة سماوية توحيدية مثل اليهودية ، وذلك حتى تضفي على نفسها هبة ووقاراً ، وتُوجد مسافة بينها وبين العبادات الشامانية البدائية السائدة ، وترتب بينها وبين النخب الحاكمة في العالمين الإسلامي والمسيحي .

ويرى بعض المؤرخين ، ومن بينهم العالم الإسرائيلي إ . ن . بوليك أستاذ التاريخ اليهودي الوسيط في جامعة تل أبيب ، وكذلك علماء الأجناس ، أن يهود شرق أوروبا الإشكناز ليسوا من نسل يهود فلسطين وإنما من نسل الحَزَر الذين استوطنوا هناك بعد تشردهم . وقد وصفهم الجغرافيون العرب بأنهم ذوو بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر غزير ضارب للحمرة . ومن هنا ، فإن مقولة أن يهود أوروبا الإشكناز من أصل خزري تركي ليست مقولة فكرية محضة ذات مقدرة تفسيرية عالية تستند إلى العقل والمنطق وحسب ، وإنما هي مقولة تستند أيضاً إلى المعطيات التاريخية المحسوسة . ومن أهم ما كُتب في هذا الموضوع كتاب المؤلف الإنجليزي المجري الأصل ، اليهودي العقيدة ، آرثر كوستلر ، والذي أسلفنا الإشارة إليه ، حيث يبرهن فيه على المقولة الخاصة بهجرة يهود الحَزَر إلى شرق أوروبا ، بالإشارة إلى العلاقة الوثيقة بين الحَزَر والمجر وكيف أسهم خاقان الحَزَر في تأسيس دولة المجر بأن عين لقبائل المجر ملكاً يخضع لسلطانه . وقد ظلت العلاقات قوية بين الشعبين إلى أن طرد المجريون من بلادهم عام ٨٩٦ وعبروا سلسلة جبال الكربات وانتزعوا المنطقة التي أصبحت موطنهم الحالي . وبين كوستلر كيف انضمت إلى المجريين في هجرتهم إلى هنغاريا قبائل خزرية معروفة باسم «الكابار» ، وقادتهم إلى موطنهم الجديد . وقد استمرت العلاقة الوثيقة بين المجر والحَزَر حتى استقرار المجموعات الحَزَرية المجرية في الوطن الجديد . وقد دعا دوق تاكسوني المجري عدداً غير معلوم من الحَزَر ليستوطنوا بلاده ، ولا شك في أن نسبة كبيرة منهم كانت من اليهود . بل ويرى كوستلر أن تدفق اليهود لم يكن على المجر وحسب بسبب العلاقات المجرية الحَزَرية كما أنه لا يمثل حالة

أنهم تهودوا في عهد هارون الرشيد . ويبدو أنهم عرفوا اليهودية من خلال عشرات من المهاجرين اليهود الذين فروا من اضطهاد الإمبراطورية البيزنطية بخاصة في عهد هرقل (في القرن السابع الميلادي) . وقد كتب أحد يهود الأندلس (حسداي ابن شبروط) ، حين عرف بقيام هذه المملكة ، إلى يوسف ملك الحَزَر ، فيما يُعرف باسم «المراسلات الحَزَرية» ، يسأله عن القبيلة العبرية التي ينتمي إليها وعن أمور أخرى . وقد أكد له الملك أن أصل الحَزَر تركي وليس سامياً ، ولا علاقة له بأسباط إسرائيل العشرة المفقودة ولا بفلسطين . وفي رده على ابن شبروط ، يذكر الملك يوسف كيف اعتنق بولان اليهودية ، فيقول إنه بعث في طلب زعماء الديانات السماوية وأقام بينهم حواراً ليشرح كل منهم دينه ويناقش الأديان الأخرى ، وقد اقتنع الملك بعد هذه المناقشة بالدين اليهودي . وقد تخيل الشاعر الأندلسي اليهودي يهودا اللاوي هذا الحوار الفلسفي ورواه في كتاب له عن هذا الموضوع . وقام أحد أحفاد بولان بإصلاح ديني ، فترجم العهد القديم والتلمود (ربما بضعة أجزاء منه نظراً لضخامته) . ويقول كوستلر إن يهودية بولان كانت قرآنية تؤمن بالعهد القديم دون التلمود ، ثم تطورت إلى يهودية حاخامية . وقد ظهر مذهب القرائين في القرن الثامن في العراق ، وكان للقرائين حركة تبشيرية قوية . ومن المعروف أن القرآنية ظلت في بلاد الحَزَر قائمة بشكل واضح حتى النهاية ، ولا تزال قرى اليهود القرائين الناطقين بالتركية قائمة حتى الآن في روسيا . ولم تكن يهودية الحَزَر كاملة ، بل احتفظوا بكثير من العادات الشامانية من تراثهم التركي البدائي . فكانوا ، على سبيل المثال ، يقتلون الملك عادةً بعد أن يحكم أربعين عاماً ، وهذا دليل على استمرار عبادات الخصب حتى بعد اعتناقهم اليهودية ، كما أنهم كانوا يقتلون من يتولون حفر قبر الخاقان الأكبر (ولعل هذا يُفسر عدم اكتراث يهود العراق بهم ، فلم يكونوا من وجهة نظر المؤسسة الدينية يهوداً خُلصاً) . وقد رد يوسف ملك الحَزَر على سؤال ابن شبروط عن آخر الأيام رداً مبهماً للغاية . وليس من المعروف إن كان أعضاء قبائل الحَزَر كلهم قد تهودوا ، أم أن الأمر ظل مقصوراً على الملك والنبل وأقلية من الشعب .

وقد حاول المؤرخون تفسير ظاهرة تهود الحَزَر ، فيقال إنهم تهودوا لأسباب سياسية حيث كانوا واقعين بين الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية ، وكانت الإمبراطورية الروسية حينذاك فراغاً . ولكي يحتفظوا باستقلالهم ، تبنا عقيدة دينية مختلفة عن عقيدة القوتين العظميين . ويُقال أيضاً إن اليهود كان لأسباب اقتصادية إذ أن الحَزَر كانوا قد بدأوا في احتراف التجارة وكان على من يود ممارسة

كوستلر ، فيهتم بقضية يهود الحزَر باعتباره يهودياً رافضاً لفكرة الاستمرار العرقي اليهودي والحقوق اليهودية في فلسطين ، وباعتباره مدافعاً عن حقه في أن يظل متمسكاً (كيهودي إنجليزي) إلى وطنه إنجلترا . وهو يستخلص النتيجة التالية : * إن الدلائل المعروضة تدعم الحجة القوية التي قدمها أولئك المؤرخون المحدثون ، سواء النمساويون أو الإسرائيليون أو البولنديون ، أو أولئك الذين أثبتوا (مع استقلال كلٍّ عن الآخر) أن الأغلبية العظمى من اليهود المعاصرين ليسوا من أصل فلسطيني وإنما من أصل قوقازي وأن تيار الهجرات اليهودية الرئيسي لم ينشأ من حوض البحر المتوسط عبر فرنسا وألمانيا متجهاً نحو الشرق ثم عائداً أدراجه ثانية ولكنه تحرك في اتجاه ثابت دائماً (نحو الغرب) بادئاً من القوقاز عبر أوكرانيا إلى بولندا ومنها إلى وسط أوروبا . وعندما حدث في بولندا هذا الاستيطان الضخم الذي لم يسبق له نظير ، لم يكن إلى جانبه (في الغرب) سوى عدد قليل ولا يُعتد به من اليهود ، في حين أن شعباً بأسره (في الشرق) كان في سبيله إلى التحرك نحو حدود جديدة . وتحاول الصهيونية ، في أحد أشكالها ، أن تؤسس نظرية الحقوق اليهودية في فلسطين على أساس عرقي . إذ تدعي أن اليهود ، بالمعنى العرقي ، شعب ارتبط دائماً بفلسطين (أو أرض الميعاد) ، وأن هذا النقاء العرقي وهذا الارتباط الأزني بأرض الأجداد ، يبران عملية الاستيلاء على فلسطين . ولكن تهوّد الحزَر ، مثل تهوّد الأروميين وغيرهم من الأقوام ، يمثل تحدياً لهذه الفكرة الخاصة بالنقاء العرقي . فالأصل الحزَرِي لمعظم يهود الغرب ، أي الأغلبية العظمى من يهود العالم ، يفند فكرة الحقوق اليهودية التي تستند إلى أساس عرقي . ومع هذا ، يجب التنبيه على أن الصهيونية تُعرّف الهوية اليهودية الآن تعريفاً ثنياً فضفاضاً ولا تركز إلا نادراً على النظرية العرقية ونظرية النقاء العرقي ، كما أنها تؤسس نظرية الحق اليهودي على الارتباط الإثني والديني والحضاري وليس على الارتباط العرقي .

الكرمشاكي (تاريخ يهود شبه جزيرة القرم)

Krimchaki (History of the Jews of the Crimean Peninsula)

«يهود الكرمشاكي» جماعة يهودية صغيرة ذات سمات إثنية خاصة ، تسكن شبه جزيرة القرم ، ويتحدث أعضاؤها لهجة تسرية دخلت عليها كلمات عبرية آرامية وكلمات قليلة من اللاتينو واليديشية ، وهي تكتب بحروف عبرية . وكان الكرمشاكي يُطلقون على أنفسهم لفظ «يهودي» أو «سريلي بالالاري» (أبناء إسرائيل) .

خاصة ، فهذه الهجرة كانت جزءاً من هجرة أكبر وهي الهجرة الجماعية الشمالية من الإستبس الأوراسية تجاه الغرب ، أي تجاه أوروبا الوسطى والشرقية . ولذلك ، فهو يتحدث عن «الشتات الحزَرِي» أي انتشار اليهود من بلاد الحزَر إلى أرجاء أوروبا ، مقابل «الشتات» وحسب ، أي انتشار اليهود من فلسطين .

ويلاحظ كوستلر أن اختفاء الشعب الحزَرِي من موطنه التاريخي قد صاحبه الظهور المعاصر لأكثر تجمع يهودي في الشمال الغربي من أوروبا . ولهذا ، اتفق المؤرخون على أن الهجرة من خزاريا قد أسهمت بالتأكيد في غو الجماعات اليهودية البولندية . ولكن يظل هناك سؤال يتصل بحجم هذا الإسهام ؟ وما إذا كان اليهود الحزَر قد كونوا مجرد نواة للجماعة اليهودية وحسب ، أم أنهم لم يكونوا مجرد نواة ؟

وهنا يستعرض كوستلر تاريخ يهود أوروبا فيبين ضالة عددهم ، ثم يستعرض تاريخ طرد اليهود من بلد أوروبي إلى آخر ، ويشير إلى أن يهود حوض الراين (حتى القرن الحادي عشر) كانوا ضئيلي الأهمية قليلي العدد ، وقد تعرضت هذه الجماعات للإبادة وتناقصت أعدادها أثناء حروب الفرنجة . أما أعضاء الجماعات اليهودية التي كان يتم تدميرها تماماً ، فقد كانوا يتركون مكان إقامتهم بعض الوقت ثم يعودون إليه ، أي أنهم لم يكونوا يهاجرون منها . وقد ظهر الطاعون أو الموت الأسود الذي تفشى في الفترة ١٣٤٧ - ١٣٥٠ وقضى على ثلث سكان أوروبا . لكل هذا ، يرى كوستلر أن فكرة هجرة يهود غرب أوروبا إلى شرقها يعتذر إثباتها تاريخياً ، بل إنها مجرد خرافة ، أو افتراض خلقه المؤرخون ، وكان عليهم اختلاقه لتفسير ظاهرة ازدياد عدد يهود أوروبا الشرقية في القرن الخامس عشر ، خصوصاً في بولندا ، زيادة مفاجئة وهائلة ، حتى أن معظم يهود أوروبا كانوا في القرن السادس عشر يقيمون في بولندا . واستمر هذا الوضع قائماً ، فنجد أن معظم يهود العالم (مع بداية القرن التاسع عشر) موجودون في بولندا بحيث يمكن القول بأن يهود العالم الحديث من أصل بولندي .

وفي محاولة تفسير تزايد عدد يهود بولندا ، اختلق المؤرخ الروسي اليهودي دينوف وغيره فرضية هجرة يهود غرب أوروبا إلى شرقها (بسبب المذابح التي ارتكبت ضد الجماعات اليهودية إبان الحروب الصليبية) ، وذلك على الرغم من أن الحوليات المعاصرة لا تتحدث عن مثل هذه الهجرة ، بل ومن الصعب تخيلها . ومرد ذلك جهل المؤرخين بتاريخ يهود الحزَر ، وتاريخ هذه المرحلة السديمية التي كانت تنتقل فيها شعوب أوروبا أو قبائلها من مكان إلى آخر . أما

اليهود الأكراد

Kurdish Jews

«اليهود الأكراد» جماعة يهودية لها سماتها الإثنية الخاصة ، يعيش معظم أعضائها في العراق ، رغم أن معظم الأكراد يعيشون في تركيا ، حيث توجَد ١٤٦ قرية يهودية في العراق و ١٩ في إيران و ١١ في تركيا ، كما توجَد أيضاً مجموعة في سوريا . وتوجَد بين أكراد العراق أقليتان دينيتان : المسيحيون النسطوريون (الذين يُسمَوْنَ أيضاً الآشوريين) ، واليهود . وقد تأثر أعضاء الجماعتين بالثقافة الكردية . ولكنهم ، مع هذا ، لم يتبنوا اللغة الكردية إذ أنهم يتحدثون الآرامية ويتحدث يهود الموصل العربية ، وهم بذلك لا يصنفون باعتبارهم أكراداً . ويُقال إن وجود اليهود في هذه المنطقة يعود إلى أيام التهجير الآشوري ومملكة أديابني .

وقد وضع أغوات الأكراد (أي كبار ملاك الأراضي) جماعة اليهود تحت حمايتهم ، فكان اليهود يُعدُّون ملكية خاصة لهم يجمعون منهم المحاصيل ويخضعونهم للسخرة ، بل وكان في مقدور الأغا أن يبيع ما يملك من يهود (وهذا أمر نادر في الحضارة الإسلامية وإن كان يشبه ما حدث في أوروبا) . وفي منتصف القرن العشرين ، كان ٨٠٪ من يهود كردستان يعيشون في المدن ويعملون تجاراً صغيراً ويقالين ، وكان الحرفيون يعملون صباغين وترزيه ونجارين ودباغين ومراكبية ينقلون الأخشاب في قوارب أنهار الموصل . وكان العشرون في المائة الباقية يعيشون في المناطق الريفية . ولا تختلف عادات الأكراد اليهود عن عادات الأكراد بصفة عامة . وعلى سبيل المثال ، فإن عادات الزواج بينهم لا تختلف كثيراً عن عادات الزواج السائدة في المجتمع الكردي ، حيث تزوج الفتيات في سن مبكرة ، وعلى العريس أن يدفع مهراً لوالد العروسة تعويضاً له عن تربيتها وتنشئتها . ولا تختلف طقوس الزواج بينهم عن الطقوس السائدة بين الأكراد من تمسك بعذرية الفتاة عند الزواج إلى غير ذلك من القيم والشعائر . وفي ليلة الزفاف ، يتم التحقق من ذلك وتُعلن النتيجة على المدعوين ، وإن اكتشفوا أن الفتاة غير عذراء يقوم أبوها بقتلها . ويُعتبر تعدد الزوجات أمراً مباحاً . كما أن علاقة الزوجة بزوجها وأمه لا تختلف عما هو سائد بين أهل هذه المنطقة . وهذه مجرد أمثلة عابرة تُعبّر عن مدى اندماج الجماعة اليهودية في محيطها الحضاري ومدى استيعابهم لها .

وكان تعداد الأكراد اليهود حوالي ١٤,٨٣٥ عام ١٩٢٠ ، زاد إلى ١٩,٧٦٧ عام ١٩٤٧ ، وهم يعيشون في ١٤٦ قرية . وبعد

ولكنهم ، مع نهاية القرن التاسع عشر ، بدأوا يستخدمون الكلمة الروسية «كرمشاك» أي «مكان شبه جزيرة القرم» . وقد ظهر هذا الاسم لأول مرة في السجلات الروسية عام ١٨٥٩ . ويبدو أن السلطات الروسية قد صاغت هذا الاسم للتمييز بينهم وبين القرائين والإشكناز .

ويعود تاريخ اليهود في القرم إلى القرن الثاني قبل الميلاد (مع الاستيطان اليوناني فيها) . ويبدو أنهم كانوا يعملون بالتجارة وفي بعض الحرف ، كما عملوا في الدولة والجيش . وقد تغيرت هوية أعضاء الجماعة اليهودية عدة مرات ، ويبدو أن تركيبهم بدأ في حكم إمبراطورية الحَزَر ، ولكنهم اكتسبوا هويتهم التركية مع الغزو التتري عام ١٢٣٩ ، فارتدوا الأزياء التركية الإسلامية وتبنوا اللغة التركية . وتأثر بناء الأسرة بينهم ببناء الأسرة التركية ، فظلوا يمارسون تعدد الزوجات حتى بدايات القرن التاسع عشر . وكانوا بمعزل عن الحركات الفكرية التي اكتسحت يهود أوروبا مثل الاستنارة والصهيونية والإصلاح الديني . وكانت غالبيتهم من الحرفيين ، واشتغلت أقلية منهم بالزراعة وعدد قليل جداً منهم في التجارة . ورغم تبنيهم الأنماط الحضارية التركية والتترية ، إلا أن أسماء عائلات الكرمشاكي تدل على تنوع أصولهم العرقية ، فهناك أسماء تركية (لولباكش - ديمارجي - أزيرلي) ، وأسماء قوقازية (أبايف) ، وإيطالية وإسبانية (كونفينو - مانتو) ، كما توجد أسماء من أصل إشكنازي (سيلزر - أوري) وهناك أسماء عبرية (كوهين - مزراحي) . وبعد ضم روسيا القيصريّة للقرم ، تغير وضع الكرمشاكي تماماً إذ بدأت عملية تحديثهم وترويسهم ، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك في بداية الأمر ورفضوا الزواج مع يهود اليديشية الذين كانوا يُعدُّون عنصراً روسياً ويوطَّنون في القرم كعنصر استيطاني . وقد تصاعدت هذه العملية مع الثورة البلشفية ، وزاد المستوى التعليمي بينهم ، الأمر الذي نجم عنه تآكل أشكال الحياة التقليدية . وقد قام كثير من أعضاء الجماعة الذين عملوا مهنيين (مهندسين أو مدرسين أو أطباء) بقطع صلّتهم بمجتمع الكرمشاكي .

وقد انخفض عدد الكرمشاكي عام ١٩٨٩ إلى ١٥٥٩ . ويمكن القول بأن الكرمشاكي يذوبون بسرعة في اليهود الروس والأوكرانيين ويتزاوجون منهم ، ولا يوجد منهم الآن سوى مائة أسرة في الولايات المتحدة . ويبدو أن أعضاءها خضعوا لحركات المجتمع الأمريكي ، كما بدأوا يتزاوجون بأعضاء الجماعات اليهودية الأخرى .

فهناك مجتمعات لا يوجد فيها عداة لليهود ، ومع ذلك لم ينصهر اليهود فيها مثل الهند . ولتفسير هذه الظاهرة ، لابد أن نعود إلى حركات المجتمع الصيني . فمن المعروف أن الكونفوشيوسية ، وهي العقيدة الرسمية للدولة في الصين قبل الثورة ، كانت لا تعارض التعددية الدينية ما دامت هذه التعددية لا تهدد النظام السياسي . فكان المطلوب من أعضاء أية جماعة دينية أن تعترف بعبادة الأسلاف والمكانة الدينية للإمبراطور . كما لم تكن توجد أفكار دينية أو قومية تؤدي إلى عزل الأقليات الدينية ، ذلك أن مفهوم الأمة لم يكن مفهوماً أساسياً في الصين . فالإمبراطورية هي العالم . وهي تتكون من دوائر متداخلة وتزداد درجة الهيمية فيها كلما ابتعدنا عن المركز الصيني ، وهكذا فإن اليهود (وكذلك المسلمين الذين كان اليهود يُقرنون بهم) عاشوا في هذا العالم دون تمييز قانوني أو اقتصادي أو اجتماعي . كما أن تركيب المجتمع الصيني (من الأسرة الممتدة ، والعشيرة ، والحكم من خلال السلطة المركزية) قد ساعد على هذا النمط ، فهو يقلل الاحتكاك المباشر بين الأعضاء كما يقلل احتمالات الصراع ، فيمتد الاحتكاك بين الجماعات من خلال مؤسسات الدولة ، وهو ما يساعد على تنظيم العلاقة وتقليل التوترات . وقد أدّى كل هذا إلى اندماج اليهود تدريجياً وتمثلهم كثيراً من عناصر العبادة الكونفوشيوسية التي تشكل أساس التعامل بين الجماعات . وبدأ أعضاء اجماعة اليهودية يتبنون كثيراً من الطقوس البوذية والطاوية مع الطقوس اليهودية جنباً إلى جنب . والواقع أن قبول عناصر غير يهودية في اليهودية أمر ليس بجديد على اليهودية ، بسبب تركيبها الجيولوجي ، كما أنه جزء من التغايد الصينية الدينية التي لا تمنع في استيراد عناصر من الديانات الأخرى . وكان من الممكن أن يظل الاندماج على هذا المستوى ولا ينصهر اليهود تماماً لو أن اجماعة اليهودية ظلت تتعامل مع الجماعات الأخرى من خلال مؤسسات الدولة . فرمما ، لو حدث ذلك ، لكان من الممكن أن يحتفظ يهود الصين بهويتهم الصينية اليهودية ، كما حدث لليهود الهنود ، من خلال نظام الطائفة المغلقة . ولكن ، ابتداءً من القرن الرابع عشر ، أعيد تنظيم طبقة العلماء/ الموظفين (بشكل أكثر انفتاحاً) من خلال نظام الامتحانات الإمبراطوري ، ذلك النظام الذي أتاح أمام يهود كايفنج فرصاً ضخمة للحراك الاجتماعي . فدخلت عناصر من قياداتهم الامتحانات ونجحت فيها وانضمت إلى البيروقراطية الحاكمة . وقد كان الانخراط في هذه الوظائف بُعداً ، في نظر المجتمع الصيني ، أكثر أهمية وقيمة من الأعمال التجارية ، كما كان يعني نقلة طبقية كبيرة وإعفاءً من السخرة الجسدية ، فاعمل

إعلان دولة إسرائيل ، هاجر الأكراد اليهود جميعاً إلى إسرائيل (١٩ ألفاً من العراق وثمانية آلاف من إيران وثلاثة آلاف من تركيا) .

يهود الصين (يهود كايفنج)

Chinese Jews (K'aifeng Jews)

«يهود الصين» جماعة يهودية كبيرة كانت تعيش في مدينة كايفنج عاصمة مقاطعة هونان الواقعة على ضفاف النهر الأصفر ، ولذا يُقال لهم أيضاً «يهود كايفنج» . ويبدو أن تاريخهم يعود إلى القرنين التاسع والعاشر ، حيث هاجرت مجموعة من يهود إيران وربما الهند . ويبدو أن الجماعة اليهودية كانت مهمة نوعاً ، فقد عين أباطرة أسرة تانج أحد أعضاء طبقة الماندرين (وهي الأرستقراطية الثقافية من الموظفين/ العلماء) مسئولاً عنهم ، فكان يزور معبدهم باسم الإمبراطور مرة كل عام ، ويحرق البخور أمام المذبح . وكان المهاجرون اليهود (في بداية الأمر) يتحدثون الفارسية ، وكانوا متخصصين في المنسوجات القطنية وصباغتها وطباعة الألوان عليها ، وهي صناعة كانت متقدمة في الهند . وكان سكان الصين يزايدون في تلك المرحلة ، الأمر الذي أدى إلى نقص حاد في المنسوجات الحريرية ونشوء حاجة إلى المنسوجات القطنية ، وهو ما قد يُفسر استقرار اليهود في الصين في ذلك الوقت . ومن الناحية الاجتماعية والطبقية ، كان اليهود يتنمون إلى طبقة التجار والصناع التي تقع بين الفلاحين من جهة وطبقة الموظفين/ العلماء من جهة أخرى . ومن ثم كان طموحها الاجتماعي ، مثلها مثل الطبقات التي تقع في الوسط ، هو الاتصال بالطبقة العليا والابتعاد عن طبقة الفلاحين .

وقد تأسس أول معبد يهودي في عام ١١٦٣ ، حيث كان يُسمى معبد الطهر والحقيقة - وهو اسم ذو نكهة كونفوشيوسية . وكان يرأس الجماعة الحاخام وأحد الوجهاء الذين كانوا يحتفظون بكتب اليهود المقدسة المكتوبة بالعبرية ويقرأون أسفار موسى الخمسة مرة كل عام .

وقد اندمج يهود كايفنج بالتدرج ، وتزاوجوا مع الصينيين ، خصوصاً المسلمين . وفي مرحلة من المراحل ، كان اليهود يُصنّفون بوصفهم مسلمين ، حتى اختفى أثرهم تقريباً . ويُفسر اندماجهم ، ثم انصهارهم في نهاية الأمر ، على أساس انعزالهم عن يهود العالم وعدم وصول مهاجرين يهود إليهم ، وكذلك على أساس الزواج المختلط وعدم وجود معاداة لليهود في هذا المجتمع . ولكن هذه الأسباب الجاهزة لا يمكنها أن تفسر الظاهرة ، إذ أن السؤال يظل يطرح نفسه : لماذا تزايد الزواج المختلط؟

عشر وموسى وهارون ويوشع وعزرا وآخرين من مشاهير اليهود . وتَبَنَّى اليهود كذلك طقوساً كونفوشيوسية للاحتفال ببلوغ سن التكليف الشرعي والزواج والموت والدفن . كما أنهم حاولوا أن يجدوا أساساً لأعيادهم وشعائرتهم الدينية في الكلاسيكيات الكونفوشيوسية لا في الكتاب المقدس . وراح اليهود ينصرفون عن كثير من أهم شعائرتهم التي كانت تحفظ لهم عزلتهم وهويتهم مثل أكل لحم الخنزير الذي كانوا يمتنعون عن أكله في الأعياد . وكانوا ، عند تقديم القرابين إلى أسلافهم ، يقدمون لهم لحم الضأن . كما أن اليهود لم يُترجموا قط كُتبتهم المقدسة من العبرية إلى الصينية . ولهذا كان كيان الجماعة مهدداً دائماً بالاختفاء في حالة نسيان القيادة للعبرية ، ويبدو أن هذا هو ما حدث بالفعل قبل عام ١٧٢٣ إذ أن العبرية كانت قد نُسيت في ذلك التاريخ .

لكل هذا ، تقوّضت هوية الجماعة اليهودية من الداخل تماماً . وحينما مات آخر حاخام في القرن التاسع عشر ، انتهى ما تبقى من اليهودية بحيث أصبح أعضاء الجماعة مع ستينيات القرن الماضي صينيين في ملامحهم وردائهم وعاداتهم ودينهم . وفي عام ١٩٠٠ ، قامت مجموعة من اليهود الإنجليز في شانغهاي بتأسيس «جماعة إنقاذ يهود الصين» التي حاولت إحياء اليهودية في كايفنج دون جدوى ، حيث كانوا قد اندمجوا تماماً وكان كل ما يعرفونه عن اليهودية هو أنهم يهود . ولا يزال هناك نحو مائتين وخمسين صينياً من سلالة يهود كايفنج ولكنهم منصهرون تماماً . ويشبه يهود كايفنج ، من بعض الوجوه ، يهود الولايات المتحدة في نجاحهم وانتمائهم إلى طبقة المهنيين ، وفي استبطانهم القيم الأمريكية ، وفي تَوَزُّعهم الجغرافي ، وتزايد معدلات الزواج المُختلَط بينهم وكذلك في انتمائهم الكامل إلى مجتمعاتهم .

اليهود الزوج

Negro Jews

«اليهود الزوج» مصطلح يُستخدم للإشارة إلى الزوج السود الذين يؤمنون باليهودية جميعاً . وبالتالي ، فإن المصطلح يضم الفلاشا والعبرانيين السود ، وكذلك جماعات بشرية أخرى ذات هويات يهودية سديية . وقد وجد أحد الباحثين في ساحل لوانجو في غرب أفريقيا جماعة تُصنّف باعتبارها يهودية ويُسمّى أعضاؤها أنفسهم «مافامبو» ويقومون شعائر السبت . ومن المعروف أن ساحل لوانجو لا يبعد كثيراً عن جزيرة ساوتومي البرتغالية التي أحضر إليها الأطفال اليهود الذين تم تصديرهم عنوة عام ١٤٩٣ - ولعل هذا هو

كموظف بالحكومة كان يمنح الإنسان في الصين السلطة والمكانة والثروة .

لكن هذا النجاح أفقد أعضاء الجماعة اليهودية البُعد اليهودي في هويتهم الصينية اليهودية ، إذ أن العمل في مثل هذه الوظائف كان يتطلب دراسة الكلاسيكيات الصينية والثقفة فيها ، واستيعاب المُثل الكونفوشيوسية واستبطانها تماماً . فالانخراط في سلك المثقفين الكونفوشيوسيين لم يكن مجرد عمل أكاديمي ، وإنما كان أمراً يؤثر في شخصية الإنسان نفسه وفي منظوره الفلسفي والديني . لهذا ، كان يُتَوَقَّع من اليهودي الذي ينخرط في سلك العلماء/الموظفين ، أن ينصرف باعتباره كونفوشيوسياً داخل إطار الفكر الكونفوشيوسي ، أي أن الانتماء إلى الوظيفة كان يتطلب تحولاً جوهرياً داخلياً وخارجياً .

ورغم أن المؤسسة الدينية اليهودية في الصين نظرت بعين الشك إلى طبقة العلماء/الموظفين من اليهود ، فإن هؤلاء أصرّوا على أن الكونفوشيوسية واليهودية لا تعارض بينهما . وبالتدريج ، تحوّلوا إلى النخبة القائدة في الجماعة ، وبدأت رؤيتهم الكونفوشيوسية تتسلل إليها ككل حتى امتزجت اليهودية بالكونفوشيوسية . والأمر الذي أسرع بهذا الاتجاه أن الانتماء إلى طبقة العلماء/الموظفين كان يعني تناقص عدد أعضاء الجماعة ، إذ أن هذا النظام يمنع تعيين الموظف في محل ميلاده لمنع الوساطة والمحسوبية . ولذا كان على اليهودي الذي يُعيّن علماً/موظفاً أن يترك كايفنج ، الأمر الذي كان يؤدي بالتالي إلى تناقص عدد الجماعة والعناصر القيادية .

وقد كانت طبقة العلماء/الموظفين طبقة متأثرة مع أن التعيين فيها كان يتم عن طريق الامتحان الإمبراطوري . ولذلك ، كان على اليهودي الذي ينضم إليها أن يصبح واعياً بمكانته الاجتماعية وبوضعه الطبقي وبانتمائه إلى الطبقة الجديدة ، وهو ما جعل الزواج المُختلَط من داخل الطبقة مسألة شبه حتمية ، خصوصاً وأن العلماء/الموظفين كانوا يعيشون بعيداً عن أسرهم وعشائرتهم .

والواقع أن تحول القيادة ، وكذلك تشتتتها ، هو الذي ساعد على تحويل اليهودية من الداخل . فبدأ اليهود بالإشارة إلى الخالق بالمصطلح الكونفوشيوسي ، فكانوا يشيرون إليه بأنه «تاي» ، أي «السماء» ، أو «طاو» ، أي «الطريق» . ثم تعمّق الأمر وبدأ اليهود يتبعون عبادة الدولة التي تتضمن تبجيل بل وتقديس كونفوشيوس . وتأثر اليهود كذلك بأهم مظاهر العبادة الكونفوشيوسية وهي عبادة الأسلاف . ومن ثم ، نشأت إلى جوار المعبود اليهودي صالات الأسلاف التي كانت تضم الآباء العبرانيين وأولاد يعقوب الاثنى

العبرانيين السود بالإقامة المؤقتة ، إلا أنها سرعان ما حاولت التخلص منهم بدعوى أنهم مصدر للمشاكل ويمثلون عبئاً اقتصادياً . وفي ٨ ديسمبر ١٩٧١ ، وصلت إلى إسرائيل مجموعة مكونة من ٤٨ شخصاً ومنعت من الدخول ووجهت إلى الولايات المتحدة .

ولا يحمل العبرانيون السود أية بطاقة رسمية أو وثيقة تبين هويتهم ، الأمر الذي يُعدّ في حد ذاته مخالفة للقانون الإسرائيلي . ويحمل معظمهم تأشيرة سائح لمدة ثلاثة أشهر لا تُجدد بعد انتهائها . ويُعتبر وضعهم في الزواج غير منظم من الناحية القانونية . فالزواج والطلاق بالمعنى القانوني للكلمة لا وجود له بين أعضاء الجماعة ، كما أنهم يمارسون تعدد الزوجات . وتسبب كثافة العبرانيين السود المخيفة ، وانحطاط مستواهم المعيشي ، في تفاقم وتوتر العلاقات بينهم وبين جيرانهم اليهود . وللعبرانيين السود نظام تعليمي مستقل ، وهم لا يقومون بتسجيل حالات الولادة أو الوفاة لديهم ، ويوفرون لأنفسهم كل الخدمات اللازمة حيث أقاموا مدارس وفصولاً مستقلة وعيادات وورش خياطة .

وليس من المتوقع أن تجد مجموعة بشرية مثل العبرانيين السود كثيراً من الاستقرار في مجتمع استيطاني عنصري استبعادي ، كما هو الحال في إسرائيل . ويتفعل ، ثار المستوطنون الصهاينة ضد توطين العبرانيين السود إلى جوارهم ، وهدد أولياء الأمور بالإضراب احتجاجاً على تسجيل أبنائهم في مدارس ديمونة ، كما هددوا سكان عراد بالقتل إذا بلغ أحدهم شقته لأي منهم ، بل وشكلوا لجنة قومية تُسمى «اللجنة الإسرائيلية لطرد الزنوج العبرانيين» .

وقد أثارت وسائل الإعلام الإسرائيلية الشك حول يهودية الزنوج ، كما أن المؤسسة الندينية أنكرت تماماً انتماءهم إلى الدين اليهودي وهو ما دفعهم إلى التظاهر أمام مقر دار الخاخامية الرئيسية كي تعترف بصفتهم اليهودية . وتقدم قادتهم بشكوى إلى الأمم المتحدة اتهموا فيها حكام إسرائيل باستخدام أساليب الجستابو والقمع العنصري .

وتُسبب القضية الكثير من الحرج للكيان الصهيوني ، بخاصة أمام الأمريكيين السود في الولايات المتحدة . ولذا ، تحاول المؤسسة الصهيونية تشويه صورتهم إعلامياً ، فتشيع أن الجريمة تنتشر في صفوفهم وأن ما لا يقل عن خمسة وعشرين من أعضاء هذه الجماعة مطلوب القبض عليهم من قبل البوليس الفيدرالي الأمريكي . كما تقول السلطات الصهيونية إن زعيم الجماعة هو الزعيم المطلق الذي يقوم بجمع الأموال وانصرف فيها .

مصدر تسميتهم باليهود . وتوجد بالقرب من ساحل مدغشقر فرقة يهودية تُسمى «زافي إبراهيم» ، أي «نسل إبراهيم» ، يدعى أفرادها أنهم يهود ، ولكن ليس هناك أي شيء يميزهم عن بقية السكان . وفي عام ١٧٥٠ ، أسست مستوطنة بالقرب من سورينام (غينيا الهولندية) تضم أبناء اليهود الذين تزوجوا من العبيد الأفريقيين السود ، وكانوا يتحدثون لهجة «الدجو تونغو» أي «لغة اليهود» ، وهي خليط من البرتغالية والعبرية وبعض الكلمات المحلية .

العبرانيون السود

Black Hebrews

«العبرانيون السود» فريق من الأمريكيين السود الذين يؤمنون باليهودية ويلتزمون بتطبيق الشريعة اليهودية بشدّة يفوق تشدّد اليهود البيض . ويدّعي العبرانيون السود الانتساب إلى قبائل إسرائيل العشر المفقودة ، وأنهم هم وحدهم (وليس يهود الأرض المحتلة أو يهود العالم) سلالة اليهود القدامى الحقيقية . ويؤكد العبرانيون السود أن أنبياء اليهود من السود ، وأن إسرائيل القديمة كانت أيضاً دولة سوداء ، وأن قناة السويس ما هي إلا ثغرة صنعها الإنسان الأبيض لفصل إسرائيل عن أفريقيا السوداء .

وانطلاقاً من هذا ، كتب شاليج بن يهودا ، مساعد رئيس الجماعة ، إلى رؤساء الدول الأفريقية يحثهم على المطالبة بحقوقهم في إسرائيل والتي سرقها اليهود . ويطمح رئيس الجماعة ، بن عمي كارتير ، إلى أن يترأس الدولة الصهيونية . بل إنهم يقولون إن إسرائيل بأسرها ملك خالص لهم سرقها الإشكناز ، أي اليهود البيض . وقد بدأ العبرانيون السود في التوافد إلى إسرائيل ابتداءً من أغسطس عام ١٩٦٩ من شيكاغو ، احتجاجاً على أوضاع الزنوج هناك . ثم استمرت جماعات منهم في الاستيطان حتى بلغ عددهم ١٥٠٠ مهاجر (ويرتفع هذا العدد حسب التقديرات الأخرى إلى ٣٠٠٠) .

ويرتكز تجمع العبرانيين السود في إسرائيل في الأماكن التالية :

- ديمونة وقيم فيها ١٥٠٠ .

- عراد حيث يقيم ٤٠٠ .

- متسبي رامون حيث يقيم ٨٠ .

وجميعها قرى في النقب . كما تتوزع عشرات الأسر بين رعناتا وعدة مناطق أخرى في النقب أيضاً . والمنطقة التي يقيمون بها في ديمونة معزولة ومحاطة بالأشجار والنباتات التي تفصلهم عن بقية المدينة . وفي البداية ، سمحت السلطات الإسرائيلية لهؤلاء

نشبت صراعات حادة وحروب عديدة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين .

واشترك الفلاشا في التمرد الذي قامت به قبائل الأجوا ضد أكسوم في القرن العاشر ، حيث أسقطوا النجاشي وفتحوا بالرعايا المسيحيين وهدموا كنائسهم وأديرتهم . ولكن أسرة زاج ، التي حلت محل أسرة أكسوم ، كانت هي الأخرى مسيحية وحاولت تأكيد السلطة المسيحية .

وفي عام ١٢٧٠ ، وتحت تأثير الكنيسة ، اعتلى أحد أعضاء أسرة أكسوم القديرة العرش . وقرر ملوك الأسرة المالكة ، بعد استعادة الحكم ، أن يضعوا حداً لاستغلال الفلاشا ، خصوصاً وأنهم كانوا يعتبرونهم عنصراً مشكوكاً في ولائه في حروبهم مع الممالك الإسلامية المجاورة . ولذلك ، قام ملوك أكسوم بتجريد مجموعة من الحملات ضدهم .

وأثناء حكم النجاشي ليندانجل (١٥٠٨ - ١٥٤٠) ، غزا المسلمون إثيوبيا . وقد انضم الفلاشا ، في بادئ الأمر ، إلى المسلمين تحت زعامة ملكهم جدعون وملكهم جوديث (يهوديت) ، بل وتعقبوا النجاشي المهزوم الفار . ولكنهم انضموا بعد ذلك إلى الإثيوبيين ، فألحق المسلمون الهزيمة بهم وبحلفائهم الإثيوبيين ، ووقع ملك وملكة الفلاشا في الأسر . وقد ظل هذا الشد والجذب قائماً حتى حكم النجاشي سوسينيوس (١٦٠٧ - ١٦٣٢) الذي ألحق بالفلاشا هزيمة نكراء ، بفضل تجهيز جيشه بالأسلحة النارية ، وهدم قراهم ومعابدهم وصادر أراضيهم ، فتحولوا إلى عاملين أجراء . وقد ظلوا على هذا الوضع حتى القرن التاسع عشر حين وصلت الرسائل المسيحية البروتستانتية التي حققت نجاحاً ملحوظاً بين صفوفهم . وقد يُفسر هذا النجاح التناقص الكبير في أعدادهم إن صدقت الإحصاءات .

ولا يُعرف عدد الفلاشا على وجه الدقة ، وإن كان قد قُدِّر عددهم في بداية القرن الثامن عشر بمائة ألف ، بل إن أحد أعضاء الإرساليات قدره بربع المليون . ولكن ، مع بداية القرن العشرين ، وصل عددهم إلى خمسين ألفاً على أحسن تقدير ، وإلى سبعة آلاف حسب أسوتها . وحسب تقديرات عام ١٩٧٦ ، وصل عددهم نحو ٢٨ ألفاً موزعين في ٤٩٠ قرية مختلفة .

ويرتكز الفلاشا أساساً في شمال إثيوبيا في المنطقة الواقعة بين نهر نازي في الشمال والشرق ، وبحيرة تانا والنيل الأزرق في الجنوب ، والحدود السودانية في الغرب . وهم يعيشون في قرى صغيرة مقصورة عليهم تضم كل قرية نحو خمسين أو ستين عائلة

ومن الطريف أن المستوطنين الصهاينة يخفون في التفرقة بين العبرانيين السود من جهة ويهود الفلاشا من إثيوبيا من جهة أخرى . فهؤلاء جميعاً «سود» على العموم ، وهو ما يدل على أن عملية التصنيف والإدراك داخل التجمع الصهيويني تتم على أساس عرقي بين اليهود أنفسهم ، فالأبيض يوضع مقابل الأسود ، والشرقي مقابل الغربي .

اليهود السود

Black Jews

«اليهود السود» هم العبرانيون السود ، وإن كان الإسرائيليون يخلطون بينهم وبين الفلاشا . انظر : «العبرانيون السود» .

الفلاشا : تاريخ وهوية

Falashas : History and Identity

«الفلاشا» كلمة أمهرية تعني «المنفيين» ، كما أنها تعني أيضاً «غريب الأطوار» . وأصل الكلمة يعود إلى الجذر «فلاشا» في اللغة الجعزية ، ويعني «يهاجر» أو «يهيم على وجهه» . ويستخدم أهل إثيوبيا الكلمة للإشارة إلى جماعة إثنية أفريقية تدين بشكل من أشكال اليهودية ، وهي لا تنتمي إلى أي من الكتل اليهودية الكبرى الثلاث : الأشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلامي . كما يستخدمون كلمة «إيهود» ، أي «يهود» ، أما الفلاشا فيشيرون إلى أنفسهم بوصفهم «بيت إسرائيل» .

وأصول الفلاشا ليست سامية خالصة وإنما هي حامية أيضاً ، إن قبلنا هذا التمييز العرقي والحضاري ، فهم ينتمون إلى مجموعة القبائل المسماة «أجاو» التي كانت مستقرة في إثيوبيا قبل هجرة القبائل السامية إليها من جنوب الجزيرة العربية . ويُقال إن اليهودية انتشرت بينهم من خلال يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام (ويُقال إن عبد الله بن سبأ من أصل فلاشي) .

وثمة رأي قائل بأن أصل الفلاشا يعود إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، وربما وصلتهم اليهودية عن طريق مصر وربما جاءوا هم أنفسهم من صعيد مصر . وقد كانت تُوجد جماعة من الجنود المرتزقة اليهود على حدود مصر الجنوبية (في جزيرة إلفنتين) بالقرب من انشلال الأول في أسوان . وثمة رأي آخر يذهب إلى أن أصلهم يرجع إلى جماعة من اليهود استوطنوا إثيوبيا بشكل دائم . ويُقال إن عدد الفلاشا كان كبيراً قبل أن تعتق أسرة أكسوم الحاكمة الديانة المسيحية في القرن الرابع . ولكن ، بعد هذا التحول إلى المسيحية ،

هيئة مخطوطات . ومن الطريف أن بعض هذه الكتب مُتداول بين اليهود والمسيحيين في آن واحد . بل إن بعض الكتب اليهودية تضم أشعاراً من العهد الجديد (أهم الكتب المقدسة لدى المسيحيين) .

وفلكلور الفلاشا ، كما هو الحال في أفريقيا ، ثري للغاية ، فلهم أغان ورقصات عديدة . كما أن لهم تاريخهم الأسطوري ، فهم يعودون بأصولهم إلى منليك ، ابن الملك سليمان ، الذي عاد إلى أمه بلقيس ليعتلي عرش إثيوبيا . ولما كان الإثيوبيون المسيحيون يؤمنون بالأصول الأسطورية نفسها ، فإننا نجد أن الفلاشا قد أضافوا إلى القصة ما يفسر انفصالهم ، إذ يقولون إن ملكة سبأ سافرت إلى القدس واعتنقت اليهودية بتأثير ملكها سليمان وأنجبت منه منليك الذي عاد يوماً لزيارة أبيه فأكرم وفادته وأمر بعض رجال حاشيته وبلاطه الملكي بمرافقة الأمير عند عودته . وقد سرق منليك سفينة العهد وعبر نهرأ يوم السبت الذي يحرق فيه السفن والسير لمسافات طويلة . وقد تبعه بعض الخاططين (مسيحيو إثيوبيا) . أما الأتقياء الذين امتنعوا عن عبور النهر فهم يهودا ، أي الفلاشا .

ويمارس الفلاشا عادة الزائر لطراد الأرواح . ويُقال إن هذه العادة بدأت في إثيوبيا وانتشرت منها إلى بعض بلاد الشرق الأوسط . كما أنهم يقومون بصنع الأحذية والتعاويذ لبقاء للعيون الشريرة . وبسبب اشتغالهم حدادين يعتبرهم أهل القرى من السحرة .

ويمكننا هنا أن نثير قضية ما إذا كان يهود الفلاشا يُشكلون جماعة وظيفية أم لا . انواق أن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب قد اضطلعوا بوظيفة الجماعة الوظيفية الوسيطة وعملوا بالتجارة والصيرفة في أماكن متفرقة من أوروبا ، أما يهود إثيوبيا فكانوا يعملون بالزراعة ، ولم يشتغلوا بالتجارة والصيرفة ، كما أنهم كانوا أعضاء في مجتمع قبلي مبني على الاقتصاد الطبيعي ، لا يوجد فيه نقد ولا قطاع تجاري أو مالي يُذكر . فالفلاشا لم يضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية المالية والوسيطه ولكنهم مع هذا أصبحوا جماعة وظيفية تشتغل ببعض الحرف التي يعتبرها المجتمع إما وضيعة أو هامشية أو مشبوهة ، أو في غاية الأهمية ، أو تتطلب خبرة معينة لا بد من توارثها مثل الحدادة . ومن هنا كان اتهامهم بالسحر ، وهي تهمة كانت تُوجّه إلى المرابي اليهودي في أوروبا ، وتُوجّه عادة إلى الشخصيات الهامشية في المجتمع . لكن الهامشية لا تعني بالضرورة عدم الأهمية ، فالهامشية قد تنتج من التفرّد والتميز .

وحتى الآن ، لم نطلق على الفلاشا صفة «يهود» . وأرجأنا ذلك إلى أن نستعرض عقيدتهم الدينية . وتعريف الفلاشا في

وتوجد أهم القرى بجوار مدينة جوندار . كما يوجد داخل جوندار نفسها جماعة صغيرة من الفلاشا تعيش في حي مقصور عليها . وتوجد قرى الفلاشا عادة على قمة أحد التلال القريبة من النهر . وتتكون كل قرية من مجموعة من الأكواخ المستديرة يغطيها القش ، ويُخصّص أحد الأكواخ لمعبداً لهم ، كما يُخصّص كوخان آخران بعيدان عن القرية لعزل النساء وقت الطمث وبعد الإنجاب .

ولا تختلف ملامح الفلاشا كثيراً عن ملامح غيرهم من الإثيوبيين ، كما لا يمكن الحديث عن غمط فلاشي متميّز إذ اختلطت فيهم الدماء الحامية والسامية . ولذا ، لا توجد اختلافات في لون الجلد وملامح الوجه . ولا يختلف أسلوب حياتهم ، من معظم الوجوه ، عن أسلوب حياة جيرانهم ، كما أنهم يرتدون غمط الثياب نفسه ويأثرون بالعبادة المسماة «الشامة» . وهم يعملون أساساً بالزراعة كعمال أجراء ، كما يعملون في بعض الحرف الأخرى مثل صناعة الفخار والغزل والنسيج وصنع السلاسل ، كما يعملون حدادين وصاغة وحائكي ملابس ، ويعمل كثير منهم الآن بحرفة البناء في المدن .

ولم تكن طريقة توزيع الأراضي في إثيوبيا تسمح للفلاشا باقتناء الممتلكات ، لأنهم لم يكونوا من موظفي الدولة . فالحال هناك كانت أشبه بأوروبا الإقطاعية حيث كانت الخدمة العسكرية الإلزامية للدولة أو الكنيسة شرطاً للملك . وإذا كان بعض الفلاشا ، وخصوصاً أولئك الذين سكنوا أقصى الغرب ، يملكون الأرض ، فإنهم في المناطق الأخرى كانوا يعملون حرفيين . أما ممارستهم الزراعة ، فقد اقتصر على زراعة الأرض لأصحابها المسيحيين . ولم ينطبق حظر التملك على الفلاشا وحسب ، وإنما على مجمل الحرفيين بصرف النظر عن طوائفهم .

ويتحدث معظم الفلاشا الأمهرية . وثمة أقلية منهم تعيش في تيجري وفي إريترية وتتحدث اللغة التيجرينية . وهناك أقلية أخرى في الجزء الشمالي تتحدث لهجات قبائل الأجاء . أما أدبهم ، فكله مكتوب باللغة الجعزية أو الإثيوبية (لغة إثيوبيا الكلاسيكية) وهي أيضاً لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية .

ولكن ثمة نصوصاً تدل على أن الفلاشا كانوا يتحدثون ويتعاملون بلغة قبائل الأجاء ، ولا تزال توجد بينهم بعض الصلوات بهذه اللغة . والفلاشا يجهلون العبرية تماماً ، فمعرفتهم بها مقصورة على بضع كلمات لا يدركون هم أنفسهم أنها من هذه اللغة .

ويضم أدب الفلاشا المكتوب بالجعزية عدة كُتب موجودة على

وإلى جانب الرهبان والكهنة ، يوجد علماء يستخدمون صحن المبد لتعليم الدين .

ويُقيم الفلاشا شعائر يوم السبت بصرامة غير عادية ، فيمتنعون عن الجماع الجنسي في ذلك اليوم ، ويقضي الرجال يومهم في الصلاة . لكن التحريمات الخاصة به مختلفة من بعض الوجوه عن تحريمات اليهود الأرثوذكس . فهم مثلاً لا يعتبرون استخدام النور الكهربائي من المحرمات . كما أنهم يحتفلون بعدد من الأعياد أكبر من المنصوص عليه في الشريعة اليهودية ، فعندهم أعياد شهرية تُذكرهم بالأعياد السنوية . وفي العاشر من كل شهر قمري ، يُوجد احتفال يُذكرهم بعيد يوم الغفران . وفي اليوم الخامس عشر من كل شهر ، يحتفلون بذكرى عيد الفصح وعيد المظال . ويُعدُّ ثالث سبت في خامس شهر قمري هو سبت الأسباب يتلون فيه الصلوات والأدعية . وفي الثامن عشر من الشهر السادس القمري يحون ذكرى وفاة إبراهيم وإسحق ويعقوب . وهم لا يحتفلون بعيد التدشين أو عيد النصيب فلم يرد لهما ذكر في التوراة .

وإلى جانب هذه الأعياد والاحتفالات تُوجد أيام صيام أسبوعية وشهرية وسنوية ، فيصومون يوم الخميس لإحياء لذكرى طلب عزرا من المنفيين أن يصوموا . ويصومون كذلك في الفترة ١ - ١٧ آب (أغسطس) لإحياء لذكرى سقوط القدس (ولا يصوم اليهود الحاخاميون إلا في يوم التاسع من الشهر نفسه لإحياء هذه الذكرى) ويصومون في العاشر من أيلول (سبتمبر) تذكراً بيوم الغفران . وهم يحافظون على شعائر الزواج والختان اليهودية ، ولكنهم يختنون البنات على عادة بعض الشعوب الأفريقية . ويحافظون كذلك على التحريمات الخاصة بالطعام ، ولكنهم لا يستعملون أواني منفصلة للمأكولات من الحليب واللحم على غرار الجماعات اليهودية الأخرى .

ويختن المسيحيون الإنثوييون (هم الآخرون) أولادهم الذكور ، ويمتنعون عن تناول المأكولات المحرمة عند اليهود . كما أنهم ، ولفترة طويلة ، كانوا يتخذون السبت يوم راحة لهم بدلاً من الأحد . ومن الجوانب اليهودية الأخرى في المسيحية الإنثوية ، التشديد على أهمية العهد القديم في الكتاب المقدس . وكذلك يُلاحظ وجود الرموز المتعلقة بسفينة العهد في الكثير من الكنائس المسيحية الإنثوية .

واشتهر الفلاشا أيضاً بمخالاتهم في التطهر ، ولذا فهم يمتنعون قدر الإمكان عن لمس الغرباء . وإذا حدث أن لمس أحدهم غريباً ، فإن عليه أن يتطهر (ولذلك تُوجد قراهم على مقربة من الأنهار حتى

الموسوعة اليهودية يلقي كثيراً من ظلال الشك على انتماهم الديني ، إذ جاء فيه ما يلي : « الفلاشا جماعة إثنية في إثيوبيا تزعم أنها من أصل يهودي ، ومرتبطة بنوع من أنواع الديانة اليهودية يستند إلى العهد القديم والكتب الخارجية (أبوكريفا) ، أي الكتب غير المعتمدة والكتب الدينية الأخرى التي ظهرت بعد الانتهاء من تدوين العهد القديم » .

والواضح أن التعريف يرى أنهم من أصول إثنية ليست بالضرورة يهودية ، وأنهم ليسوا يهوداً وإن كانوا " يزعمون " أنهم من أصول يهودية . كما أن ما يعرفونه عن اليهودية يختلف عن اليهودية التي يتبعها معظم يهود العالم والسائدة في الدولة الصهيونية . ففي أي شيء تختلف يهودية الفلاشا عن اليهودية الحاخامية ؟

تستند عبادة الفلاشا إلى العهد القديم الذي لا يعرفونه إلا باللغة الجعزية لغة الكنيسة الإثيوبية . ويضم العهد القديم الذي يعرفونه كل الكتب المعتمدة وبعض كتب الأبوكريفا غير المعتمدة مثل : كتاب يهوديت ، و حكماء سليمان ، و حكماء بن صيرا ، و كتاب المكاين الأول والثاني ، و كتاب باروخ . ولم يصل التلمود إلى الفلاشا . وغني عن الذكر أن التلمود هو عمود اليهودية الحاخامية القمري وعصبها ، وعدم الاعتراف به ينطوي على عدم اعتراف بها .

والعناصر اللاهوتية والحضارية المشتركة بين المسيحيين واليهود في إثيوبيا كبيرة . وقد أشرنا إلى أن بعض الكتب الدينية مُتداولة بين الفريقين معاً ، وإلى أن الجعزية هي لغة العبادة بين اليهود والمسيحيين هناك ، كما أن أسطورة الأصل مشتركة مع تنوعات خفيفة . ويمكن أن نصف هنا أن الفلاشا ليس لديهم حاخامات وإنما قساوسة يُطلق على واحد منهم لفظه «قس» . كما أنهم يتسبون ، مثل الكهنة القدامى في يهودية ما قبل التهجير ، إلى هارون . ويتنخب الكهنة في كل منطقة كاهناً أعظم لهم لكي يصبح زعيماً دينياً للجماعة ، ويصبح من صلاحياته ترسيم الكهنة .

ويُقدّم الكهنة القرابين في المناسبات الدينية المختلفة . ويعيش بعض هؤلاء الكهنة في الأديرة رهباناً وراهبات على النمط المسيحي ، ويُطلق عليهم لقب «ناذيز» وهي لفظة عبرية تعني «الذي تذر نفسه للشعائر الدينية وانقطع لها» . كما أن البعض الآخر يعيش على طريقة النسك في الغابات والصحارى وعلى حواف القرى . ومن الطريف أن عادة الاعتراف المسيحية موجودة عند الفلاشا فهم يدلون باعتبارفاتهم إلى الكاهن من أوتة إلى أخرى وعند نهاية اليوم .

ويرى بعض المتخصصين في مجتمع الفلاشا أنهم من قبيلة الأجاو ، وأنهم عرق إثيوبي صاف . أما تقاليدهم وعاداتهم فتشمل خليطاً من المعتقدات والطقوس الوثنية واليهودية والمسيحية وربما الإسلامية . وقد نفى أحد المؤرخين صفة اليهودية عنهم ووصفهم بأنهم مسيحيون تمسكوا بسبب أو آخر بالعهد القديم بدلاً من العهد الجديد . وهو يرى أن علاقات الفلاشا الحضارية والعرقية مع جيرانهم المسيحيين الإثيوبيين ، تتخطى تلك التي يشاركون بها يهود العالم . وقد تكون هذه الطبيعة المختلطة نهية الفلاشا هي ما حدا بأحد المستوطنين في الوكالة اليهودية في أوائل الخمسينيات إلى أن ينصح الذين فكروا منهم في الهجرة إلى إسرائيل بالتنصر وحل مشكلتهم بهذه الطريقة بدلاً من الهجرة إلى إسرائيل .

ومع هذا ، تم تهجيرهم باسم الهوية اليهودية العالمية . ومن الواضح أنهم سيفقدون في إسرائيل هويتهم الأفريقية هذه ولن يكتسبوا هوية جديدة . لأن المجتمع ينظر إليهم بعين الشك بسبب لون جلدهم وتوجههم الثقافي بل ومعتقداتهم الدينية . وقد شككت دار الأخاخية في يهوديتهم .

تهجير الفلاشا

Transfer of the Falashas

ابتداءً من عام ١٩٧٣ ، حدث تحولٌ في الموقف الصهيوني تجاه الفلاشا . فقد أعلن أخيراً شلومو غورن أن أعضاء هذه الجماعة اليهودية هم في الواقع من أحفاد قبيلة دان . ومن ثم فهم يهود حقيقيون . وقد صُيِّق عليهم قانون العودة (بعد أن كانت الوكالة اليهودية تنصحهم بالتنصر) . وبدأت عملية التهجير حوالي ١٩٧٧ ، فكانت تصل بضعة مئات . وحينما قامت الثورة الإثيوبية ، توقفت العملية ثم استمرت بشكل سرّي . ثم وُضع مخطط التهجير في أواخر السبعينيات . وفي عام ١٩٨٤ ، نُفذ مخطط التهجير على نطاق واسع فيد عرف باسم «عملية موسى» إذ تم نقل حوالي ١٢ ألف إثيوبي في جسر جوي سرّي عبر السودان (كان عدد المهجرين الإجمالي في هذه الفترة ١٤٠,٠٣٧) . وقد تمت العملية في سرية كاملة حيث فُرض تعميم إعلامي كامل ، إلى أن نشرت إحدى نشرات المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية (تكوداه) أن معظم يهود إثيوبيا موجودون في إسرائيل . ويُقال إن تسريب نبأ هجرة يهود افلاشا قام به موظف كبير من حزب الفدال الديني بهدف وقف الهجرة ، وهو ما يدل على وجود اتقسام في الأوساط الصهيونية حيال هذه العملية . وكانت حكومة الولايات المتحدة من أكثر

يمكنهم التطهر دائماً) . ومن هنا ، فإن الفلاشا الذين يعيشون في جوندرا ، ويُفرض عليهم أسلوب حياتهم الاحتكاك الدائم بالأجانب والغريباء ، يُعدّون «غير طاهرين» في نظر بقية الفلاشا .

وتتبدى مغالة الفلاشا في قوانين الطهارة في تعاملهم مع النساء . فبعد أن تلد المرأة ولداً ، فإنها تُعدّ غير طاهرة مدة أربعين يوماً . وإن وضعت بنتاً ، فإن المدة تتضاعف . وبعد نهاية المدة ، تحلق المرأة شعر رأسها وتغسل في الماء وتغسل ملابسها قبل أن تعود إلى منزلها . وأحياناً يُحرّق الكوخ الذي قضت فيه فترة العزل .

والمعبد هو مركز الحياة الدينية بين الفلاشا ، والذي تُطلق عليه كلمة «مسجد» أو «بيت إجزا بهير» أو «بيت الإله» . وهو يتكون من حجرتين ، يُطلق على الحجرة الداخلية اسم «قدسنا قدوسان» ، أي «قدس الأقداس» ، تماماً كما في هيكل سليمان القديم ، ولا يدخله إلا الكاهن والشماس . ويُحفظ في هذه الحجرة التوراة وملابس الكاهن الشعائرية . ولا يُسمح للنساء ، إلا غير المتزوجات والعجائز ، بدخول المسجد . وتقام سبع صلوات في اليوم الواحد ، وإن كان معظم الفلاشا يكتبون بإقامة صلاتين : واحدة في الصباح والأخرى في الليل . ويستخدم الفلاشا اللغة الجعزية في الصلاة ، ويقضون معظم يوم السبت وأيام الأعياد في الصلاة داخل المسجد ، ويقفون لتناول الطعام في مأدبة جماعية . كما أنهم يغنون ويرقصون في الأعياد .

ويؤمن الفلاشا بإله واحد ويؤمنون بالبعث والعالم الآخر والثواب والعقاب ، كما يؤمنون بعقائد اليهود الأخرى كلإيمانهم بأنهم من الشعب المختار وأنه سيظهر بينهم ماشيخ . وقد حدث عام ١٨٦٢ ، أثناء حكم الإمبراطور تيودور الثاني ، أن ظهر ماشيخ دجال أقنع الفلاشا بالعودة إلى أرض الميعاد سيراً على الأقدام ، ولكن معظمهم مات في الطريق .

ويبدو أن بعض الفلاشا ممن تقع قراهم على مقربة من قرى المسلمين قد استوعبوا أيضاً عناصر إسلامية في عقيدتهم ، وربما كان بينهم مسلمون بالفعل . إذ ذكرت الصحف الإسرائيلية أن بعضهم قد اعتنق الإسلام في إسرائيل . كما أوردت أن بعضهم ، أثناء زيارة حائط المبكى ، سمع صوت الأذان فاتجه إلى المسجد لإقامة الصلاة . كما ذكرت إحدى الصحف الإسرائيلية أن بعضهم أقام الصلاة على طريقة المسلمين في المطار فور وصوله إلى إسرائيل وقد وصفتهم الصحيفة بأنهم «فلاشا سنّيون» .

وقد احتفظ الفلاشا بهويتهم المتميزة ، وهي هوية إثنية أفريقية استمدوها من بيئتهم ومن طبيعة التشكيل الحضاري الأفريقي .

الوكالة اليهودية على إرسال أبنائهم إلى المدارس الدينية ، وهو أمر لا يقبله الصهاينة اللادينيون ، كما أن كثيراً من المهاجرين الفلاشا الجدد (من سكان المدن) لا يتمسكون كثيراً بالدين ، وبالتالي فهم أيضاً يمانعون في إرسال أولادهم إلى المدارس الدينية . وقد بدأ يصل مع المهاجرين الفلاشا نموذج جديد وهو الفلاشي المتعلم الذي لا يحترق ثقافته الوطنية بالضرورة ويجيد التعامل مع المؤسسات الحديثة . وهذه العناصر بدأت تتولى القيادة بين المهاجرين والدفاع عن حقوقهم .

وأكبر دليل على فشل عملية الاستيعاب تلك الأخبار التي نشرتها الصحافة الإسرائيلية عن حوادث الانتحار الفعلية وعن محاولات الانتحار العديدة التي قام بها يهود الفلاشا ، وعن تهديدهم بالانتحار الجماعي . وقد أنشأ بعض اليهود منظمة «مهاجري إثيوبيا» ، لا لتسهيل استيعابهم وتوطينهم بل للعمل على تهجير جزء منهم إلى كندا .

ويمكن طرح السؤال التالي : ما الذي يمكن أن تربحه الدولة الصهيونية من تهجير ما بين ٢٥ - ٣٥ ألف يهودي من إثيوبيا (العدد الكلي للفلاشا في إسرائيل) ، خصوصاً أنها كانت تدرك بعض المشاكل التي ستنجم عن هذه الهجرة ؟ يمكننا ابتداءً استبعاد العنصر الإنساني ، فلو كان الدافع إنسانياً لانصب اهتمام الكيان الصهيوني على تحسين أحوالهم في بلادهم ، وعلى الدفاع عن حقوقهم هناك ، ولشمل كل ضحايا المجاعة في إثيوبيا . ولعل أول الدوافع الحقيقية هو الدافع المالي ، فالقصاص المثيرة عن تدهور حال يهود إثيوبيا تؤدي إلى تدفق التبرعات . كما أن هناك مردوداً إعلامياً ، فإسرائيل دولة معروفة للعالم الغربي بعنصريتها . ولذا فإن إنقاذ يهود الفلاشا (السود الأفارقة) قد يُحسن صورتها بعض الشيء .

وهذه الدوافع المادية ، المالية والإعلامية ، دوافع حقيقية ولكنها سطحية . أما الدافع الحقيقي الكامن وراء تهجير الفلاشا فهو أزمة النظام الصهيوني العقائدية والسكانية العميقة . فالكيان الصهيوني يعاني من نضوب مصادر الهجرة اليهودية ، إذ أن يهود الغرب المتحمسين يكتفون بإرسال الشيكات وبرقيات التأييد الحارة ولا يهاجر منهم إلا القليل النادر . أما يهود الاتحاد السوفيتي فهم بالمثل يؤثرون الهجرة ، إن هاجروا ، إلى الولايات المتحدة . لكن العنصر البشري أساسي بالنسبة للاستعمار الاستيطاني الإحلالي ، والفلاشا سياساهمون بلا شك في سد هذا العجز ، وسيساعدون آلة الاستيطان والحرب على الاستمرار . كما أن الفلاشا زُرُّوا مهرة ، وقد يمكنهم زراعة الأرض الفلسطينية التي استولت عليها

الحكومات حماساً ، بل وألحت صحيفة واشنطن بوست إلى أن الحكومة الأمريكية هي التي ضغطت على الدولة الصهيونية لتقبل الفلاشا ، وقد خصص صندوق اللاجئين التابع لحكومة الولايات المتحدة ١٥ مليون دولار لاستيعاب المهاجرين . وعلى أية حال ، فقد بلغت تكاليف عملية موسى مائة مليون دولار قامت جماعات يهودية أمريكية بتغطيتها . كما تمت عملية أخرى باسم «عملية سليمان» في مايو ١٩٩١ بعد سقوط نظام منجستو ، وتم فيها نقل ٨٧٩, ١٩ من الفلاشا بواسطة جسر جوي بين أديس أبابا وتل أبيب شغل أربعين رحلة مكوكية . كما هُجِّرَ ٣, ٥٠٠ عام ١٩٩٢ (إذا أضفنا هؤلاء عدد ٦, ٤٢٢ ، وهم أبناء الفلاشا المولودون في إسرائيل فإن إجمالي عددهم يصل ٤٢٩, ٥١) .

لقد أسلفنا أن الحاخامية في إسرائيل اعترفت بالفلاشا كيهود تمهيداً لعملية التهجير . ومع هذا ، لم يكن الاعتراف بهم كاملاً ، فيهوديتهم حسب التصور الديني ناقصة . ولذا ، طُلبَ منهم عند وصولهم أن يُعاد تختينهم ، وأن يأخذوا حماماً طقوسياً لتطهيرهم . ولُوحظ أنه لا تصدر لهم بطاقة هوية إلا بعد هذه الطقوس ، بل ويتسلمها بعضهم دون تحديد الديانة حتى بعد الختان والاستحمام الطقوسي . ومن الطريف أن هؤلاء الفلاشا ، المشكوك في يهوديتهم ، دُهلوا من علمانية المجتمع الصهيوني وعدم حرصه على الشعائر اليهودية إذ لاحظوا أن يهود الكيان الصهيوني لا يلتزمون بشعائر السبت .

ولكن الرفض على أساس إثني وعرقي كان أعمق وأشد حدة ، فعلى سبيل المثال رفضت مدينة إيلات (عدد سكانها عشرون ألفاً) تزويد المستوطنين الفلاشا بالماء والكهرباء ، كما رفض المجلس المحلي لمستوطنة يروحام إدخال الفلاشا إليها . وفي صفد تظاهر السكان ضد إعطاء المهاجرين من إثيوبيا بيوتاً ، كما حدد أولياء أمور الطلاب في المدارس الدينية بالامتناع عن إرسال أطفالهم إليها إذا استمر أطفال الفلاشا معهم . وشكا رئيسا بلدية عكا ونهاريا من توطين الفلاشا في بلديتهما بحجة أن هذه مدن اصطيف سياحية ووجود الفلاشا لا يساعد كثيراً على اجتذاب السياح ، فهو يخلق التوتر ويزيد تفاقم ظاهرة العنصرية في المدينة .

وليس من المتوقع أن تحقق محاولة استيعاب الفلاشا في التجمع الصهيوني نجاحاً كبيراً . فمع تفاقم الأزمة الاقتصادية في المجتمع الصهيوني ، لن يمكن تدبير المبالغ اللازمة لاستيعابهم وتحقيق المستوى المعيشي العالي الذي يضمن سكوتهم . وقد انعكس الصراع بين الدينيين واللا دينيين داخل التجمع الصهيوني عليهم ، فقد دأبت

ويمكن تقسيمهم أيضاً ، على أساس معدلات الاندماج إلى قسمين :

- ١ - فلاشاه تَنْصَرُوا واحتفظوا باستقلالهم كجماعة يهودية مُتَنْصَرَة .
- ٢ - فلاشاه تَنْصَرُوا واندمجوا في مجتمع الأغلبية .

وتميل الصحافة الإسرائيلية الآن إلى الإشارة إلى الفلاشاه مورا باعتبارهم «يهود مارانو» ، أي اليهود المتخفين ، وهو اصطلاح يُطلق في الأدبيات اليهودية على يهود إسبانيا الذين يُقال إنهم أُجبروا على ترك عقيدتهم وتبني العقيدة الكاثوليكية ، فظاهروا بأنهم كاثوليك واستمروا في ممارسة شعائر دينهم في الخفاء ، وقد استمر بعضهم في ممارسة هذه الشعائر حتى الوقت الحاضر . ويبلغ عدد الفلاشاه مورا ١٧٥ ألفاً ، منهم ١٥ ألفاً ممن تَنْصَرُوا واحتفظوا باستقلالهم كجماعة فلاشيه مُتَنْصَرَة . وهناك ٦٠ ألفاً تَنْصَرُوا واندمجوا في المجتمع المسيحي ، وكل ما يربطهم باليهودية جذورهم الفلاشيه (الإثنية) .

ويدو أن الفلاشاه أنفسهم يعتبرون الفلاشاه مورا (أيًا كان نوعهم) غير يهود . ولذا ، فإن أحدهم إذا أراد العودة إلى حظيرة الدين اليهودي ، تُطبق عليه شعائر الخاصة بمن يريد اليهود ، فيُحلق شعر رأسه وجسمه ، وهي شعائر لا تُطبق إلا على غير اليهود (ومهما يكن من أمر سخريه انصحافة الإسرائيلية من هذه الشعائر ، فإنها على أية حال الشعائر نفسها التي كانت تُطبق في الماضي قبل ظهور اليهودية الحاخامية) .

وقد بدأ الحديث عن تهجير الفلاشاه مورا إلى إسرائيل (مع حوالي ثلاثة آلاف يهودي من يهود الفلاشاه ، الذين لا يزالون موجودين في إثيوبيا) . لكن المؤسسة الحاخامية اعترضت ، بطبيعة الحال ، على تهجير هؤلاء لأنهم ليسوا يهوداً ، وذلك بعد أن كانت قد اعترضت في بداية الأمر على تهجير الفلاشاه ذاتهم ، بدعوى أن اليهودية التي يؤمنون بها غير تلمودية وغير حاخامية وتضم شعائر لا مثل لها بين يهود العالم ، بل وتتطوي على عناصر مسيحية ووثنية . ومن المعروف أن قانون العودة في إسرائيل لا يسمح بهجرة من يعتنق ديناً آخر حتى ونو وكّد يهودياً . ولذا ، فحينما تجمع ثلاثة آلاف من الفلاشاه مورا ليهاجروا مع الفلاشاه ، لم يُسمح لهم بالهجرة ونُصحوا بالعودة إلى ديارهم .

وتشير المؤسسة الحاخامية (وكل من يعارض هجرة الفلاشاه مورا) إلى أن هؤلاء لم يَنْصَرُوا قسراً ، وأنهم تحولوا عن يهوديتهم لتحقيق المغام الاقتصادية والحراك الاجتماعي والاستفادة من المعونات المالية التي يقدمها المبشرون . كما يؤكد أصحاب هذا الرأي أن الفلاشاه مورا يودون الهجرة إلى إسرائيل للأسباب نفسها . ومن

الدولة الصهيونية ، خصوصاً بعد انصراف المستوطنين الصهاينة عن فلاحتها . وتعاني المؤسسات الزراعية الصهيونية من ندرة الأيدي العاملة اليهودية وتُضطر إلى استئجار عمالة عربية ، وقد يبطئ وجود الفلاشاه هذه العملية قليلاً .

ومن الواضح أن تهجير الفلاشاه هو تعبير عن مقدرة الصهاينة على الحركة والإنجاز ولكنه أيضاً تعبير عن أزمة صهيونية . وهي عملية قد تحل بعض المشاكل مؤقتاً ، ولكنها ستعجز بعض المشاكل الأخرى ، وبكل حدة ، داخل الكيان الصهيوني . وقد تفجرت مرة أخرى مع وصول الفلاشاه مسألة من هو اليهودي . كما أنها قد تساعد على التشكيك في المقولة الصهيونية الخاصة بوحدة الشعب اليهودي ، إذ يأتي الفلاشي بملامح وقيم وعادات مختلفة . ولتخيل يهودياً أمريكياً أشقر من أصحاب المذهب الإصلاحي أو يهودياً علمانياً أو يهودياً ملحدًا يقف بجوار يهودي من الفلاشاه أسود البشرة يرقص في "مسجده" اليهودي في الأعياد ، فهل سيقنع الاثنان بأنهما ينتميان إلى شعب واحد ؟

وينتشر الفلاشاه في إسرائيل داخل أراضي فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، كما ينتشرون في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ . وأكبر تركيز لهم (في الضفة الغربية المحتلة) في مستوطنة كسريات أربع قرب الخليل ، وفي مناطق الجليل والجليل الأعلى (مدينة صفد) . ويتركز عدد لا بأس به منهم في مدينة عسقلان ، أما الباقون فهم موزعون على الضواحي الاستيطانية حول مدينة القدس مثل راموت وبيت مثير وتلة زئيف .

وقد نشبت أزمة مؤخراً حين كُشف النقاب عن أن بنك الدم الإسرائيلي قد أخذ يتخلص بالتدريج من مخزون الدم الذي يتبرع به يهود الفلاشاه خوفاً من أن تكون هذه الكميات ملوثة بفيروس مرض الإيدز ، وأيد وزير الصحة الإجراءات التي يقوم بها البنك .

الفلاشاه مورا

Falasha Mura

«فلاشاه مورا» جماعة قَبَلِيَّة في إثيوبيا يُقال لها أيضاً «فلاس مورا» . وكلمة «فلاشاه» كلمة أمهرية تُطلق على يهود إثيوبيا ، وتعني «الغريب» . أما «مورا» ، فيبدو أنها تعني «الأغيار» ، أي غير اليهود . ويُطلق الاصطلاح على يهود الفلاشاه الذين تَنْصَرُوا على يد المبشرين المسيحيين . وهم ينقسمون إلى قسمين :

- ١ - فلاشاه تَنْصَرُوا منذ حوالي قرنين من الزمان .
- ٢ - فلاشاه تَنْصَرُوا منذ ثلاثين عاماً .

تُبهِت فيها يهوديتها لتصبح دولة استيطانية مبنية على التفرقة اللونية وتُصَرَّفُ على استغلال مادة بشرية غير عربية وليست بالضرورة يهودية (ويهوديتها هي إما مجرد ديباجات لفظية أو محض علاقة واهية اسمية) . وهي في هذا لا تختلف كثيراً عن جنوب أفريقيا التي بدأت دولة استيطانية إحلالية بيضاء مسيحية ، ثم أصبحت دولة استيطانية تمارس التفرقة اللونية لصالح البيض المسيحيين ، وتحوَّلت المسيحية إلى مجرد ديباجة دون إصرار على المادة البشرية المسيحية . وقد تبدَّى هذا أيضاً في هجرة اليهود السوفييت حيث وصل مئات الألوف من أشباه اليهود ممن تأكلت علاقتهم العقائدية والإثنية باليهودية ، وبالتالي فهم ليسوا يهوداً بالعقيدة ولا بالإثنية وإنما بجذورهم البعيدة وحسب . وكما قال أحد الحاخامات ، فإن كل ما يربط هؤلاء اليهود باليهودية هو جد يهودي مدفون في موسكو . وقد وصل مع المهاجرين السوفييت أيضاً مئات الألوف من مدَّعي اليهودية ، إلا أن المؤسسة الإشتنازية الحاكمة غَضَّتْ نظرهما عن ذلك رغم احتجاج المؤسسة الدينية . وكما قلنا ، فقد غلَّبت المؤسسة الإشتنازية الاعتبارات العملية على الاعتبارات الأيديولوجية أو العقائدية الضيقة . ولعلها فعلت الشيء نفسه مع الفلاشاه مورا .

ثم ، فإن دوافعهم ليست دينية ولا أيديولوجية ، فهم إذن مرتزقة . ويحذر هؤلاء من أن عشرات الآلاف من الإثيوبيين ، خصوصاً من الأمهريين الذين فقدوا نفوذهم بعد سقوط منجستو ، قد يتجهزون الفرصة ويدعون أنهم فلاشاه مورا حتى يهاجروا إلى إسرائيل . ولكن يبدو أن المؤسسة الحاكمة في إسرائيل لا تُمانع في هجرتهم ، كما أن الولايات المتحدة بدأت تدعو إلى تهجيرهم . واندافع وراء هذا ، على ما يبدو ، هو تَعَطُّشُ المُستوطَن الصهيوني للمادة البشرية . كما يلاحظ أن الوظائف الدنيا في الهرم الإنتاجي أصبحت شاغرة بعد أن حقَّق اليهود الشرقيون شيئاً من الحراك الاجتماعي . وبدأ العرب في ملئها ، الأمر الذي أدَّى إلى تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على العمالة العربية ، وهو أمر يهدد أمنه . ولعل المادة البشرية الوافدة ، يهودية كانت أم غير يهودية ، تسد هذه الثغرة . فالدولة الصهيونية بدأت عام ١٩٤٨ دولة يهودية استيطانية إحلالية مبنية على طرد العرب أو إبادةهم لتُحلَّ يهوداً محلهم ، ثم تحوَّلت بعد عام ١٩٦٧ إلى دولة يهودية استيطانية مبنية على التفرقة اللونية التي تُمكنَّ العنصر اليهودي من استغلال العنصر العربي . ويبدو أن الدولة الصهيونية بدأت تدخل مرحلة جديدة



٣

إشكالية الهوية اليهودية

من هو اليهودي؟ - الشخصية أو الهوية اليهودية - الهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً - تاريخ الهويات اليهودية حتى الوقت الحاضر - التعريف الديني للهويات اليهودية - الخريطة العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر - الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة - اليهود الجدد - يهودي غير يهودي ويهودي بشكل ما - ستاهل - لاسال - إيستر - كوك - راكوسي - ادعاء اليهودية - أغبار يتحدثون العبرية - أعضاء الجماعات اليهودية وقضية الهوية القومية - التعاريف الصهيونية للهويات اليهودية - الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية - الأخ - دانيال - شتاين - استجابة أعضاء الجماعات اليهودية للتعاريف الصهيونية للهويات اليهودية

من هو اليهودي ؟

Who is a Jew?

«من هو اليهودي؟» سؤال يُثار من أونة إلى أخرى داخل الكيان الصهيوني . ويُعبّر هذا السؤال عن فشل الإسرائيليين في تعريف «الشخصية اليهودية» أو «الهوية اليهودية» .

الشخصية أو الهوية اليهودية

Jewish Character or Identity

مصطلح «الشخصية اليهودية» في اللغة العربية مأخوذ من لفظ «شخص» ويعني مجموعة الصفات التي تميّز هذا الشخص . أما في الأصل الأوربي ، فإن المصطلح مأخوذ من اللفظ اللاتيني «بيرسونا» ، وهو القناع الذي يرتديه الممثل ليُعبّر عن السمة الأساسية للشخصية التي يؤديها . و«الشخصية» هي صيغة منظمة نسبياً لمجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والإدراكية التي تميّز الفرد عن غيره من الأعضاء . ويُفترض أن الشخصية الفردية ، في جوانب عديدة منها ، هي نتيجة عملية تفاعل مركبة بين الإنسان الفرد من جهة ، وبنیان مجتمعه وثقافته وتاريخه وبيئته الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى . ومن هنا ، يتحدث بعض العلماء عن الشخصية القومية ، وهي شخصية تنتج من عملية تفاعل تمتد رداً من الزمن بين جماعة من الجماعات البشرية من جهة وتشكيل اجتماعي وتاريخي وبيئة طبيعية من جهة أخرى . ومن خلال الامتداد الزمني تكتسب هذه الجماعة سمات معينة وهوية محددة تصبح ثابتة أو شبه ثابتة يُفترض أنها تميّزها عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى . ومصطلح «الشخصية اليهودية» مصطلح يفترض أن ثمة شخصية قومية يهودية ذات سمات مميزة وثابتة .

أما كلمة «هوية» فهي اسم منقول من المصدر الصناعي «هوية» المأخوذ من كلمة «هو» ، وتعني : مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة في الأشياء والأحياء . فكأن مصطلح «هوية يهودية» يعني أن ثمة جوهرأ يهودياً ثابتاً يسم أعضاء الجماعات اليهودية أينما كانوا ويمنحهم شخصيتهم اليهودية المحددة . ويفرقهم عن سواهم من البشر . وغني عن القول إن هذا المصطلح ، مثل مصطلح «الشخصية اليهودية» ، يُعبّر عن غموض اختزالي لا يتفق كثيراً مع حقيقة التاريخة المتعينة ولذلك فمقدرته انتفسيرية ضعيفة للغاية . ويشكل استخدام مصطلحات مثل «شخصية يهودية» و«هوية يهودية» تبنياً غير واع للنماذج التفسيرية الاختزالية ، الصهيونية والمعادية لليهود ، التي تفترض وجود طبيعة يهودية ثابتة وعبقورية يهودية وجريمة يهودية ووجود سمات أساسية للشخصية اليهودية . فهي من منظور المعادين لليهود شخصية متأمرة عدوانية استغلالية ومنحلة ، وهي كذلك شخصية تجارية بطبعها ، أما الصهاينة ، فينسبون إلى هذه الشخصية اليهودية المستقلة سمات إيجابية ، فاليهودي يتم بالابداع والمقدرة على الانسلاخ من مجتمع الأغيار ، وهو يدافع عن نفسه ضد العنف لكنه لا يرتكب العنف أبداً ضد الآخرين ، وهكذا . ومن السمات الأخرى التي تُنسب إلى الشخصية اليهودية حبها للنكتة ، ومقدرتها النقدية أو حسها النقدي . ويؤسس الصهاينة نظريتهم في القومية اليهودية والشعب اليهودي انطلاقاً من تأكيد وجود هذه الشخصية اليهودية . كما أن الصهيونية العمالية تصف الشعب اليهودي بأنه شعب طفيلي من السامسة .

وإذا اخترنا النموذج الكامن وراء مقولات مثل «الشخصية أو الهوية اليهودية الثابتة الواحدة» فلنأخذ سنكتشف مدى قصوره . فاعضاء الجماعات اليهودية ليسوا تجاراً بطبعهم ، إذ عمل العبرانيون بالزراعة في فلسطين ، كما كان منهم الجنود المرتزقة في

الدنيوي ، كما حرّمت دراسة اللغات الأجنبية ودراسة الرياضيات والجغرافيا والتاريخ ولم تستثن من ذلك تواريخ الجماعات اليهودية . وكان الجهل بالجغرافيا عميقاً إلى درجة أن الحاخامات كانوا عاجزين عن تحديد اتجاه القدس . ولكن ، مع دمج اليهود في الحضارة الغربية وتزايد معدلات العلمنة بينهم ، وانفكاك قبضة المؤسسة الحاخامية التقليدية ، تملك أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب في العصر الحديث ناصية العلوم الحديثة ، فظهر العلماء وظهر الحس النقدي ، وظهر الإحساس بالنكته .

ومما تجدر ملاحظته أن كثيراً من الأدبيات الصهيونية والغربية ، حينما تتحدث عن الشخصية اليهودية أو الهوية اليهودية ، تشير عادةً إلى تجربة تاريخية محددة هي تجربة يهود الديدشيه ، أي الجماعة اليهودية في شرق أوروبا والتي كانت تشكل جماعات وظيفية يتحدث أعضاؤها الديدشيه ، ويعيشون في الظروف الاقتصادية والاجتماعية نفسها ، وفي المحيط الحضاري السلافي (المسيحي) نفسه ، وهو ما أفرز شخصية يهودية شرق أوروبية يمكن أن تُسمّى «الشخصية الديدشيه» تتحدد ملامحها لا من خلال تشكيل تاريخي يهودي عالمي وإنما من خلال التشكيل الحضاري الشرقي أوروبي . وقد أكد آرثر روبين في كتابه اليهود في الوقت الحاضر أن كلمة «يهودي» تعني بالنسبة إليه «إشكنازي» ولا تضم اليهود السفاردي أو الشرقيين . ورغم أن يهود الديدشيه كانوا يشكلون الغالبية الساحقة من الجماعات اليهودية في العالم في نهاية القرن التاسع عشر (حوالي ٨٠٪) ، إلا أن هذا لا يجعل منهم شخصية يهودية عالمية ، إذ أن هذه الشخصية الديدشيه (القومية) هي ثمرة تفاعل الجماعة اليهودية مع المجتمع الشرق أوروبي في بولندا وروسيا داخل تركيبة اجتماعية وثقافية مُحَدَّدة . وينبع مشروع حزب البوند السياسي من الإيمان بوجود شخصية يهودية قومية شرق أوروبية ، لا شخصية يهودية عالمية ، ولذا كان الحل المطروح هو تطوير هذه الشخصية الديدشيه دون الانزلاق إلى أبعاد تعميمية تجريدية . وقد تبنت روسيا السوفيتية هذا الحل في نهاية الأمر بعد أن رفضه لينين في بدايته ، كما تتجلى ملامحه في تجربة بروبوجان .

وقد اختفت الشخصية الديدشيه مع التحولات الاجتماعية الضخمة التي حدثت في مجتمعات شرق أوروبا ، ولم يُكتب لها الاستمرار . ويبدو أن المكوّن الأساسي لهذه الشخصية مرتبط تمام الارتباط بالوظيفة الاجتماعية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية تنمي شخصيتها المستقلة ليضمن المجتمع عزلتها ومن ثم مقدرتها على أداء وظيفتها . وقد تحول يهود الديدشيه من جماعات شبه قومية

الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية ، ومعظمهم الآن من المهنيين في الغرب . وهم ليسوا متأمرين بطبيعتهم ، بل وسقط منهم ضحايا لتأمر ، لكن هذا لا يمنع وجود متأمرين وتجارب بينهم . وهم ليسوا متحلّين في كل زمان ومكان ، إذ كانت هناك أزمات وأمكنة استمسك فيها أعضاء الجماعات اليهودية بأهداب الفضيلة ولم تُعرف بينهم ظواهر مثل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين .

وهناك خلل يتمثل في الحديث عن اليهود بشكل مجرد ، فمن يود أن ينسب العرقية إلى الهوية أو الشخصية اليهودية سيجد قرائن على ذلك في مكان وزمان معيّنين ، ومن يود أن ينسب إليهم التأمرية سيجد أيضاً قرائن على ذلك في مكان وزمان آخرين ، ثم يتم تعميم الجزء على الكل . وهذا ما يقوم به الصهيونية ، عن وعي أو عن غير وعي ، حينما يتحدثون عن الشخصية اليهودية أو عن الهوية اليهودية .

ولكن الشخصية (أو الهوية) ، كما أسلفنا ، هي بنية مركبة ، نتاج تفاعل بين مجموعة من البشر ومركّب من الظروف التاريخية والبيئة الثابتة على مدى زمني معقول ، وهو الأمر الذي لم يتوفر إلا للعبرانيين ، ولم يتوفر للجماعات اليهودية التي انتشرت في بقاع الأرض المختلفة وعاشت تحت ظروف اجتماعية مختلفة . ولذا ، نرى أنه يجب الابتعاد عن التعميم المتعسف والكف عن استخدام صيغة «الشخصية اليهودية» لتتحدث بدلاً من ذلك عن «الشخصيات اليهودية» و«الهويات اليهودية» . وصيغة الجمع لا تنكر الخصوصيات اليهودية ، ولكنها لا تجمع بينها وكأن هناك صفة جوهرية أو عالمية كامنة في كل اليهود . ومن هنا ، يمكننا أن نتحدث عن الشخصية (أو الهوية) اليمينية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر ، أو الشخصية الحزّرية اليهودية في القرن التاسع ، أو الشخصية الإشكنازية في إسرائيل ، أو الشخصية السفاردية من أصل سوري في أمريكا اللاتينية . ويمكن دراسة تطوّر هذه الشخصيات اليهودية المتنوعة والمختلفة بدراسة سماتها المستمدة من أزمته وأمكنة مختلفة . وفي هذه الحالة ، سنكتشف أن حب النكته ليس خاصية لصيقة بالشخصية اليهودية . فالفقه اليهودي (حتى القرن التاسع عشر) يُحرّم النكاح ، كما أن هجاء الحاخامات أمر لم يكن مسموحاً به . ونجد أن حب النكته هذا ظاهرة مقصورة على يهود أوروبا في القرن التاسع عشر ومرتبطة بضعف مؤسساتهم الدينية والاجتماعية . ولم يكن الحس النقدي ولا المستوى العلمي الرفيع معروفاً بين أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا حتى القرن الثامن عشر ، إذ حرّمت قيادتها الدينية قراءة كتب الفلاسفة اليهود ودواوين الشعر العبري

٢ - لا تتفق رؤية الإنسان لهويته ، بصورة حتمية ومباشرة ، مع ممارساته العملية وبنية واقعه وأفعاله . فالرؤية قد تكون تعبيراً عن مثل أعلى أو عن مجموعة من الرغبات ، أما الواقع فإنه يتطور بطريقة لا تتفق بالضرورة مع رغبات الإنسان . ومن ناحية أخرى ، فإن رؤى أعضاء الجماعات اليهودية للهوية اليهودية لم تكن تتفق بالضرورة مع تطور واقعهم التاريخي ، بل وكانت تتناقض أحياناً الواحدة مع الأخرى .

٣ - ولكن هذا لا يعني أن رؤية الإنسان لهويته لا تتدخل البنية في تحديد سلوكه ، إذ تنطّل الرؤية ، يرغم عدم اتساقها مع الواقع ، عنصراً مهماً ومؤثراً في هذا السلوك ، دون أن تكون بالضرورة العنصر المحدد الوحيد له .

٤ - تحددت الهويات اليهودية المختلفة في غياب سلطة يهودية مركزية ، دينية أو دنيوية ، عبر الاحتكاك مع عشرات التشكيلات الحضارية ومن خلالها ، الأمر الذي نجم عنه تنوع هائل في الهويات اليهودية . وتتمسك هذه الهويات باستقلال نسبي عن سياقها الحضاري ، شأنها شأن هويات الجماعات الإثنية والدينية ، ولكنها في الوقت نفسه لا تنتمي إلى هوية يهودية واحدة عابئة . ومع هذا ، فقد استمر الجميع (اليهود وغير اليهود) في الحديث عن اليهود كما لو كانوا كلاً واحداً .

لكل هذا ، ظهر ما نسميه «تركيب الجيولوجي التراكمي» للهويات اليهودية . وفي حديثنا عن النسق الديني اليهودي ، نشير إلى أنه ليس كلاً واحداً يتم بقدر من الاتساق - وإنما هو عبارة عن تركيب جيولوجي تراكمي مكون من طبقات تراكمت الواحدة فوق الأخرى ، ولم تُلغ كل طبقة جديدة ما قبلها . وقد تكون هذه الطبقات متشابهة أو متناقضة . ولكنها مع هذا تعيش متجاورة ومتزامنة وغير متفاعلة . وسُميت كل هذه الطبقات «النسق الديني اليهودي» .

ويمكننا أن نقول إن الهويات اليهودية أيضاً تركيب جيولوجي تراكمي ولكنه لم يكن منحوشاً بسبب انفصال أعضاء الجماعات اليهودية ووجودهم في أماكن متفرقة من العالم . فيهود البديشية نتاج مجتمعاتهم ، وكذا يهود اليمن ويهود فرنسا ، وهكذا . ومع ذلك ، كان يُشار إليهم جميعاً باسم «الشعب اليهودي» ، مع افتراض وجود وحدة ما دون أن يختبر أحد مدى صدق هذه المقولة . ولكنها حين وُضعت موضع الاختبار ، بعد تأسيس الدولة الصهيونية ، ظهرت الخاصية الجيولوجية التراكمية ، وتفجرت قضية من هو اليهودي تعبيراً عن اكتشاف أن ما يُسمى «الهوية اليهودية» ليست كلاً

متماسكة إلى جماعات مختلفة : يهود روسيا ويتحدثون الروسية ، ويهود بولندا ويتحدثون البولندية ، ويهود أوكرانيا ويتحدثون الأوكرانية ، أما يهود البديشية الذين استقروا في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة فقد اندمجوا في مجتمعاتهم وتحدثوا لغاتها .

ومن المفارقات المهمة أن الصهاينة الذين يمجّدون الشخصية اليهودية يقومون في الوقت نفسه بالهجوم عليها ورفضها ، فهم يرون أن هذه الشخصية مريضة وهامشية . وعند هذه النقطة أيضاً ، يلتقي الصهاينة مع المعادين لليهود ، بل إن الصهاينة استمدوا تقدّم للشخصية اليهودية من أدبيات معاداة اليهود . ويطرح الصهاينة فكرة الشخصية اليهودية الحقيقية بوصفها شخصية يهودية خالصة عبّرت عن نفسها من خلال الكيان اليهودي القومي سواء في الكومنولث الأول أو الثاني ، وهي تُعبّر عن نفسها من خلال الكومنولث الثالث ، أي الدولة الصهيونية . لكن دارس هذه الدولة يعرف أن علم الاجتماع الإسرائيلي قد تقبّل ، كحقيقة شبه نهائية ، انقسام أعضاء التّجمّع الصهيوني إلى جماعات يهودية لكل شخصيتها المستقلة التي تكونت عبر مئات السنين في المنفى ، أي في أنحاء العالم .

ورغم استخدامنا مصطلح «شخصية» في هذا المدخل ، إلا أننا سنناقش الإشكالية مستخدمين كلمة «هوية» بسبب شيوعها في الأدبيات التي تناقش الموضوع ، إذ أن كلمة «شخصية» عادة ما تعني «شخصية قومية» ، بينما تُستخدم كلمة «هوية» دائماً في عبارات مثل «هوية إثنية» . ولا شك في أن الصهاينة يفضلون كلمة «هوية» لإمكان استخدامها في الإشارة إلى يهود إسرائيل وإلى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، فهي كلمة لن تسبب حرجاً لليهود الولايات المتحدة التي تقبل الهويات الإثنية طالما أنها لا تتعارض مع الانتماء القومي . أما كلمة «شخصية» ، فهي باستدعائها فكرة الشخصية القومية ، ستسبب الكثير من الحرج والفرقة .

الهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً

Jewish Identities as a Cumulative Geological Construct

موضوع الهوية/ الهويات اليهودية في غاية التركيب لأسباب عديدة يمكن أن نورد بعضها فيما يلي :

١ - تم تعريف الهويات اليهودية على أساس ديني ، وعلى أساس قومي ديني ، وعلى أساس قومي وحسب . وقد دارت معارك بين أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً منذ نهاية القرن التاسع عشر) حول رؤيتهم لهويتهم وتعريفهم لهذه الهوية .

كثير من المغاربة هويتهم العربية ، ويصرون على أنهم فرنسيون وليسوا يهوداً وحسب ! وكذلك فإن يهود العالم العربي ، الذين تم تهجيرهم باعتبارهم يهوداً بشكل عام ، يصبحون مرة أخرى يهوداً شرفيين يقعون في آخر درجات السلم الاجتماعي الإسرائيلي ، كما يصبح يهود روسيا إشكناًزاً أو غربيين ، ويُعطون المنح والقروض وأفخر المنازل ، ثم يشغلون قمة السلم الاجتماعي . ومن هنا تظهر الهويات اليهودية المختلفة ، وهو ما يؤدي إلى طرح قضية «الهوية اليهودية» على بساط البحث .

تاريخ الهويات اليهودية حتى الوقت الحاضر

History of Jewish Identities till the Present

تاريخ الهويات اليهودية طويل ومُرْكَب ويغطي عدة أزمنة وأمكنته لا يربطها رابط في كثير من الأحيان . وأولى الهويات اليهودية هو ما نسميه «الهوية العبرانية» أي هوية العبرانيين قبل أن يتم تهجيرهم إلى آشور وبابل . وكانت الهوية العبرانية تستند إلى تعريف ديني قومي ، كما كان الحال في الشرق الأدنى القديم . ونحن نستخدم مصطلح «قومي» لعدم وجود مصطلح أدق ، ونظن أن مصطلح «أقوامي» (نسبة إلى كلمة «أقوام») قد يكون أكثر دقة (مع قُبْحه) لأنه مُستمد من الواقع التاريخي القديم إذ تشير الدراسات التاريخية إلى «الأقوام الكنعانية» التي سكنت فلسطين (التي كان يُقال لها آنذاك كنعان) وإلى «الأقوام الآرامية» ، وهي مجموعات بشرية متماسكة على نحو فضفاض ، تنصف ببعض السمات القومية ، مثل اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والدين المشترك ، ولكنها ليست شعباً ولا قوميات بالمعنى الحديث للكلمة . ولم يكن التعريف الديني القومي للهوية العبرانية منغلقة تماماً ، فثمة إشارات عديدة في الكتابات العبرية التي تعود إلى هذه الفترة أو تتحدث عنها إلى الأجنبي أو الغريب (جبر) الذي بوسعه أن ينتمي إلى الجماعة العبرانية عن طريق التهود . وجاء في سفر التثنية «لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من إخوتك أو من الغرباء الذين في أرضك في أبوابك ، في يومه تعطيه أجرته ولا تغرب عليها الشمس لأنه فقير وإليها حامل نفسه لئلا يصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطيئة» (تثنية ٢٤/١٤ - ١٥) . وعند الحديث عن هجرة العبرانيين من مصر ، أربما طردهم ، ترد إشارة إلى أن بعض العبرانيين قد تخلّصوا فيها ، كما خرج معهم «الليف» (خروج ٣٨/١٢) ، وهي إشارة إلى جماعات ليست متجانسة عرقياً ولا تنتمي إلى العبرانيين ، ولكنهم على أية حال أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الجماعة العبرانية .

يتم بقدر من التجانس وإنما هي في واقع الأمر تركيب جيولوجي تراكمي . وقد أظهرت مجتمعات كلٍّ من أمريكا اللاتينية وجبال القوقاز هذه الخاصية الجيولوجية التراكمية في الهويات اليهودية بشكل واضح .

ومن ثم ، فلا بد من نموذج تفسيري أقل عمومية ، يمكنه أن يصف المتغيرات التاريخية والثقافية والدينية التي دخلت على هذه الهوية وحولتها إلى هويات مختلفة . ولذلك ، فإننا سوف نتحدث بصيغة الجمع فنشير إلى «الهويات اليهودية» (كما نتحدث عن «أعضاء الجماعات اليهودية») فهو مصطلح يعبر عن نموذج أكثر تركيبي ومن ثم أكثر تفسيرية لواقع أعضاء الجماعات اليهودية ، يؤكد استقلالهم النسبي عن محيطهم دون أن ينسبهم إلى تاريخ يهودي عالمي أو جوهر ثابت ، بل ينسبهم إلى مجتمعاتهم وحسب . ومن هنا محاولتنا فهم هذه الهويات لا من خلال العودة إلى ما يُسمّى «التاريخ اليهودي» ، أو العودة إلى كُتب اليهود المقدسة أو شبه المقدسة ، أو إلى بروتوكولات حكماء صهيون ، وإنما بالعودة إلى التشكيلات الحضارية والتاريخية المختلفة التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية والتي تفاعلوا معها وأثروا فيها وتأثروا بها ، وإن كانت درجة تأثيرهم تفوق كثيراً درجة تأثيرهم كما هو الحال عادة مع أعضاء الأقليات . فهناك هوية بابلية يهودية ، وأخرى فارسية يهودية ، وثالثة أمريكية يهودية ، ورابعة عربية يهودية .

ولكن نموذجنا التفسيري لا يُهمل البُعد اليهودي في بناء هذه الهويات ، فالدين اليهودي (بخاصته الجيولوجية التراكمية) عنصر أساسي فيها ، كما أن الرؤية الدينية بُعد حيوي ومهم . وكل ما نفعله أننا لا نجرده وإنما نراه في تفاعله مع الأبعاد الحضارية الأخرى . كما أننا لا نرى أن له مركزية تفسيرية . ولذا ، فنحن لا نتحدث عن «هوية يهودية» عامة مُطلقة ، ولا نتحدث عن غياب أية هوية يهودية ، وإنما نتحدث عن هويات يهودية مُتعددة متنوعة .

والفكر الصهيوني يَصُدّر عن نموذج اختزالي يُنكر واقع الجماعات اليهودية الحضاري الفلسفائي الجيولوجي التراكمي ، ويطرح فكرة الهوية اليهودية العالمية الواحدة ، ويتم عملية تسمية الواقع وتصنيفه من هذا المنظور . ومن ثم ، فإن هناك مصطلحات مثل «يهود الدياسبورا» و«يهود المنفى» و«الشعب اليهودي» ، وهي جميعاً مصطلحات تفترض وحدة اليهود وتجانسهم . ولكن حين يصل أصحاب هذه الهويات إلى إسرائيل ، يتضح للجميع أنهم ليسوا مجرد يهود ، إذ يصبحون مرة أخرى مصريين ومغاربة وروساً وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بحسب ذلك . ولذا ، ينكر

كان ملوك الدولتين العبرائيتين يتزوجون ، كنوع من التحالفات السياسية ، من أميرات أجنبيات كن يحضرن ألتهن معهن ويقمن المعابد لهم وينشرن العبادات الخاصة بهم بين الأثرياء وفي البلاط ، الأمر الذي كان يزيد التعددية الدينية وعدم التجانس القومي . والزواج من أجنبيات هو عادة ترجع إلى سليمان الذي لم تكن أمه عبرانية . وثمة رأي يذهب إلى أن العبرانيين كانوا يتحدثون في تلك المرحلة بلهجات مختلفة ، ولم تكن هناك بالثاني هوية لغوية موحدة . وكانت الدولتان اليهوديتان في حالة حرب وصراع دائمين ، كما كانتا تستعنان بالدول والدويلات الأجنبية في صراعهما (الواحدة ضد الأخرى) . فقد قامت آشور بالهجوم على الدولة الشمالية ، وفعلت ذلك بناء على طلب من دويلة يهودا الأجنبية التي طالبت بحمايتها من الضغوط التي كان يمارسها عليها الحلف المعادي لآشور ، والذي تشكل بين الدويلات الآرامية والمنمكة الشمالية .

وفي هذا الإطار ، يكون الحديث عن هوية عبرانية متمماً بالتجاوز ، ولكنه مع هذا يصلح إضماراً أو تعريفاً إجرائياً ضرورياً لتقسيم تطوُّر ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» عبر المراحل التاريخية . ونستخدم أحياناً مصطلح «الهوية العبرانية اليهودية» للإشارة إلى الهوية اليهودية بعد العودة من بابل بتصریح من قورش الأخميني إمبراطور فارس . وقد بدأت ملامح الدين اليهودي في التحدّد في تلك المرحلة ، وظهر نسق ديني يهودي أخذ شكل عبادة قربانية مرتبطة بالهيكل الذي أعيد بناؤه بأمر من قورش . وبأرض فلسطين ، وابتاترات العبراني . ومن هنا سميت الهوية اليهودية في هذه المرحلة بأنها «هوية عبرانية يهودية» ، فهي عبرانية في جانبها الإثني المحدد ويهودية في جانبها الديني الآخذ في التحدّد . وقد ظهر مصطلح «يهودي» بعد التهجير إلى بابل . ومع هذا ، يمكن القول بأن هذا المصطلح فيه شيء من التجاوز أيضاً ، إذ أن معظم العبرانيين كانوا قد فقدوا لغتهم إبّان الإقامة في بابل ، وبدأت أغلبيتهم تتحدث الآرامية . ونذا ، فإن كلمة «عبرانية» تشير هنا إلى الانتماء الإثني العام ونسب اللغوي . كما أن النسق الديني اليهودي لم يكن قد تحدّد تماماً إذ كانت تدخل عليه مؤثرات بابلية وفارسية قوية ، ثم هيلينية فيما بعد . وكما هو واضح ، تُعدّ هذه المرحلة مرحلة انتقالية من منظور الهوية . ولذلك ، فإننا نستخدم مصطلح «هوية يهودية» على سبيل التبسيط .

ولم يكن تعريف الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين يتسم بكثير من المرونة ، إذ أن أعضاء الجماعة العبرانية العائدة من بابل

وبعد التغلغل العبراني في أرض كنعان ، امتزج العبرانيون بالكنعانيين وتزاوجوا معهم . ولكن الحظر التوراتي على الزواج من الأجانب ، وعلى ذرية مثل هذا الزواج ، لا ينطبق على الأدميين أو المصريين ، وإنما ينطبق على العمونيين والمؤابيين وحسب . لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد . . . لا تتركه أدمياً لأنه أخوك ، لا تتركه مصرياً لأنك كنت نزلياً في أرضه . الأولاد الذين يولدون لهم في الجيل الثالث يدخلون منهم في جماعة الرب » (تثنية ٢٣/٣ ، ٧-٨) . فالحظر هنا ليس مطلقاً ولا ضيقاً . ومع هذا ، فإن ثمة إشارات إلى أن الغريب ليس مقبولاً قبولاً كاملاً بأية حال (تثنية ١٤/٢١) . وبذا ، يمكننا أن نقول إن رؤية العبرانيين لهويتهم وتعريفهم لها كان مرناً متفتحاً إلى حدٍّ ما .

أما على مستوى الممارسة ، فقد كانت الهوية العبرانية مفتحة تماماً . فعند التهجير إلى بابل ، كان العبرانيون يشكلون جماعة شبه قَبَلية تتحدث العبرية ، كما كان لهم نسقهم الديني المقصور عليهم . ومع هذا ، كانت هذه الجماعة مندمجة إلى حدٍّ كبير في المحيط الثقافي والسياسي الذي تواجدت فيه ، متأثرة به أكثر من تأثيرها فيه . فالعبرانيون الذين تسلموا إلى كنعان كانوا قد أحضروا معهم من مصر (وأرض مدين) فكرة الإله الواحد . ولكن اليهودية (كنسق ديني متماسك) لم تكن ، مع هذا ، قد اكتملت تكوينها بعد واستوعبت عناصر كثيرة من عبادات الخصب الكنعانية ، كما أن «يهوه» ذاته لم يكن قد اصطنع بعد بصبغة كنعانية . وتَبَسَّى العبرانيون كثيراً من أعياد الكنعانيين وعبادتهم ، واكتسبوا الثقافة الكنعانية ، وتحدثوا بإحدى اللهجات أو اللغات الكنعانية والتي أصبحت تُدعى «العبرية» . وحينما تم تأسيس المملكة المتحدة في عهد داود وسليمان ، لم يتوقف دخول العناصر الأجنبية . ولقد كانت سيرة داود هي سيرة تحالف مع الفلسطينيين ، ثم تَكَرَّرَ لهم ، ثم تحالفاً مع دويلات أخرى مجاورة ، وهكذا . وحينما فتح داود القدس التي كانت لا تزال في يد البابليسيين (وهم بطن من بطون كنعان) ، تم استيعابهم في الجماعة العبرانية حسبما يُقال .

وبعد موت سليمان ، انحلت المملكة المتحدة إلى دولتين عبرانيتين : المملكة الشمالية ، والمملكة الجنوبية . وكان لكل مركز ديني مستقل عن الأخرى . ومسألة المركز الديني في العبادات القربانية القديمة ، التي تدور حول المعبد ، مسألة شديدة الأهمية ، فالمعبد هو مصدر الشرعية السياسية ومصدر الدخل الأساسي للدولة ، وهو في نهاية الأمر مصدر الهوية القومية وأساسها . وقد

اليهودية لا تتحدد من خارج التشكيل الحضاري الذي يتمتعون إليه أياً رغماً عنه ، وإنما من خلاله ومن داخله وبسبب تفاعلهم معه . وفي الحقيقة ، فإن تَفَرُّد الهوية اليهودية في أي مجتمع لا تعود إلى تَفَرُّد العناصر التي تُكوِّن الهوية وإنما تعود إلى وجودها مجتمعة . كما أن حركات المجتمع الذي يعيشون فيه يمكن أن تُفسَّر هذا الاختلاف . وهذه التركيبة المزوجة (قدر من العزلة الفعلية والعقلية مع قدر من الاندماج الفعلي) هي التركيبة المثلى للجماعة الوظيفية . فثمة ضرورة لقدر من الاندماج لأنهم يتعاملون يومياً مع أعضاء المجتمع ويتحركون داخله وبحسب قواعده ، ولكن ثمة ضرورة أيضاً لقدر من العزلة لضمان الحياد واستمرار العلاقة التعاقدية بين أعضاء الجماعة الوظيفية وأعضاء المجتمع المضيف ، أي أن التركيبة المزوجة تضمن أن يظل أعضاء الجماعة الوظيفية في المجتمع دون أن يكونوا منه .

وأولى الجماعات الوظيفية اليهودية التي ظهرت خارج فلسطين هي الحامية العبرانية في جزيرة الفنتين ، التي وطَّنها فراغة مصر هناك (في أسوان) كجماعة وظيفية استيطانية قتالية لحماية حدود مصر الجنوبية . وقد فُقد هؤلاء علاقتهم بفلسطين ونسوا شعائر دينهم أو ربما احتفظوا ببعض العناصر الوثنية من العبادة السرائلية واختلطوا بالمحيط المصري . فعندما أراد الفرس استخدامهم كجماعة وظيفية قتالية تابعة لهم ضد المجتمع المصري ، أرسل الإمبراطور الفارسي رسالة يشرح لهم فيها طقوس عيد الفصح ليؤكد هويتهم اليهودية ويضمن عزلتهم عن محيطهم المصري ، ومن ثم ولاءهم . ومع هذا ، يرى بعض المؤرخين أن هوية هؤلاء اليهودية أو حتى العبرانية أمر مشكوك فيه ، فقد كانوا يتحدثون الآرامية ، كما كانت عبادتهم مشوبة بعناصر وثنية عديدة . ويمكن القول أيضاً بأن الجماعة العبرانية في مصر ، قبل خروجه منها ، كانت جماعة وظيفية ، فقد عمل يوسف مديراً لمخازن فرعون ، كما كان يضطلع بالأعمال المالية .

أما أهم هذه الجماعات طراً فهي الجماعة اليهودية في بابل والتي رفضت العودة إلى فلسطين (فيما عدا قلة صغيرة) . وقد بدأ أعضاء هذه الجماعة في الاشتغال بالتجارة والربا والانصراف عن الزراعة والتركز في المدن ، أي أنهم تحولوا بالتدريج إلى جماعة وظيفية وسيطة تجارية ومالية ونسوا العبرية . وقد كان لهذا التجمع اليهودي علماؤه ومدارسه الدينية وتَوَجَّهه الثقافي الذي أخذ يزداد قوة واستقلالاً ، حتى أصبح في مرحلة من المراحل مركز اليهودية الأساسي في العالم . ويتضح تَفَرُّد الهوية اليهودية في ظهور المفهوم

كانوا يشعرون بأنهم أقلية تتهددهم الأقوام التي سكنت فلسطين ، خصوصاً أن العبرانيين الذين لم يهاجروا تزوجوا مع نساء تلك الأقوام ورجعهم . ولذلك ، طالب عزرا كل من يود أن ينتمي إلى الجماعة اليهودية العبرانية بأن يطلق زوجته الأجنبية . « إنكم قد ختمم واتخذتم نساء غريبة لتزويدوا على إثم إسرائيل ، فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم ، واعملوا مرضاته ، وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة » (عزرا ١٠/١-١١) . وعند هذه النقطة ، ظهرت جماعة السامريين التي شكلت جماعة دينية مستقلة ذات هوية دينية قومية مستقلة ، ورفض أعضاؤها الخضوع لأوامر عزرا (لكن التفسير السامري للانفصال عن الجماعة اليهودية يخالف ذلك تماماً ، إذ يرى السامريون أنهم أتباع موسى الحقيقيين الذين لم يُفسدوا أسفار موسى الخمسة بتعاليم الحاخامات وتفسيراتهم ، أي التلمود) . وقد ظل تعريف عزرا (الديني الإثني) الصارم للهوية سائداً حتى العصر الهيليني .

لكن أهم التطورات ، في هذه المرحلة ، كان انتشار الجماعات اليهودية خارج فلسطين . فهذه الجماعات كانت تشكل في معظم الأحيان جماعة وظيفية . وحتى يَسْتَي لأعضاء هذه الجماعة الاضطلاع بالوظيفة الموكلة إليها بكفاءة وعلى أحسن وجه ، كان لا بد لها أن تحتفظ بعزلتها الإثنية والدينية عن مجتمع الأغلبية . وتُعبَّر هذه العزلة عن نفسها في صورة التمسك الشديد بالهوية والاحتفاظ بقدر من الاستقلال عن المحيط الحضاري الذي يعيش فيه أعضاء الجماعات اليهودية ، في الرؤية والمأكَل والملبس واللغة والعقيدة (مجتمعة أو منفردة) . ولكن يجب أن نشير إلى أن هوية الجماعة الوظيفية تكون عادة حالة عقلية أكثر من كونها أمراً واقعاً ، فأعضاء الجماعة الوظيفية يستبطنون الدور المفروض عليهم ويتوحدون به ، ويجدون أن العزلة أمر طبيعي بل ومرغوب فيه ، وأن تَحَقُّق الدَّات والهوية لا يمكن أن يتم بدونه . ويُلاحظ أن أعضاء الجماعة الوظيفية لا يعيدون صياغة هويتهم من خلال عناصر مُستَمَدَّة من التراث اليهودي أو العقيدة اليهودية وحسب ، وإنما من عناصر مُستَمَدَّة (وربما بالدرجة الأولى) من المجتمع المضيف الذي يعيشون في كنفه أو من مجتمع مضيف سابق ، أو من خلالهما مجتمعين . ولكن الحالة العقلية الانعزالية تخفي أحياناً معدلات عالية من الاندماج في المجتمع ، فهم يحتفظون بقدر من الاستقلال عن محيطهم الحضاري ، ولكنهم يكتبون سماتهم ورويتهم لأنفسهم ولغيرهم من محيطهم الحضاري (شأنهم في هذا شأن أعضاء الجنس البشري كافة) وذلك رغم استقلالهم عن هذا المحيط . فهويتهم (الوظيفية)

بشكل صارم ، حيث كانت تعيش في فلسطين أعداد كبيرة من أقليات غير يهودية (يونانيون وفينيقيون وبقايا الفلسطينيين وبقايا الأقوام السامية) . ويتضح عدم التحدد في فرض الملوك الحشمونيين اليهودية بالقوة إذ فُرضت بالقوة على الأدوميين (في شرق الأردن) وعلى الإيطوريين (في الجليل) . وكان هيرود (ملك اليهود) من أصل أدومي . وكان هؤلاء المشهودون يشكلون هوية جديدة أيضاً .

٣- كانت اليهودية ، كنسق ديني ، تخوض تحولات عميقة في تلك المرحلة . نتيجة احتكاكها بالفكر الهيليني وانتشار اليهود في حوض البحر الأبيض المتوسط . وظهرت فرق يهودية كثيرة من بينها الصدوقيون (من طائفة الكهنة) الذين كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر ، والأسستيون (من أبناء الشعب) الذين كانوا يحيون حياة تقتشف ورهبة . بالإضافة إلى الفريسيين (من أبناء الطبقة النوسطى أساساً) الذين كانوا يؤمنون باليوم الآخر وإنجيلهم يرجع الفضل في إعادة صياغة اليهودية ، وهو ما جعلهم أهم هذه الفرق . كما كان هناك أبناء الطبقات الثرية المتأغرقون ، فضلاً عن الفرق الشعبية المتفرقة مثل الغيورين (قنانيه) ، وعصبة اختاجر (ميكاري) ، وكتّاب وكتّاب الرؤى (أبوكليس) ، وكتّاب «الكتب الخفية» (أبوكريفا) . وكان لكل فريق رؤيته وعقيدته . ومن ثم ، كانت كلمة «يهودي» في تلك المرحلة التاريخية ، تضم تعريفات كثيرة متضاربة الأمر الذي زاد من خلخلة الهوية على مستوى الرؤية والممارسة .

٤- وفي هذا الإطار ، صرح الفريسيون رؤية جديدة للهوية تُحررها من المفهوم القديم المرتبط بالمجتمع القبلي العبراني أو المجتمع الزراعي الملكي ، أو المجتمع الكهنوتي المرتبط بالهيكل والعبادة القربانية . فأعيد تعريف الهوية بحيث أصبحت أساساً هوية دينية روحية ذات بُعد إثنى مُتَقَنَص ، ليس بالضرورة قومياً متضخماً ، وهي علاوة على هذا غير مرتبطة بالهيكل . ووثق هذا التعريف الجديد استعداداً للتصالح مع الدولة الحكيمة أو القوة العظمى في المنطقة . وعدم الاكتراف بنوعيتها مادامت لا تتدخل في حياة اليهود الدينية . وقام الفريسيون بنشاط تبشيري خارج فلسطين ، الأمر الذي يفسر زيادة عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية في تلك المرحلة .

٥- كما شهدت تلك المرحلة انصدام بين الإمبراطورية الرومانية والقيادات الشعبية العبرانية اليهودية في فلسطين ، التي أجدها دفع الضرائب للإمبراطورية ، فاندلعت الثورة في صفوفها . وعارض الصدوقيون والفريسيون التمرد ضد الرومان ، ولم يكثر أعضاء الجماعة اليهودية في بابل به . ووقفت بعض المدن ذات الأغلبية اليهودية الواضحة ، مثل صفد وطبرية ، موقف التأيد من الرومان .

الديني القائل بأن شريعة الدولة هي الشريعة التي يجب أن يتبعها اليهودي في حياته العامة ، أي أن نطاق الشريعة اليهودية تم تقليصه بحيث أصبح مقصوراً على حياة اليهود الدينية الخاصة وتعاملاتهم فيما بينهم ، ولا يضم حياة اليهود العامة أو القومية . وأصبحت اليهودية (على مستوى الممارسة) ديناً ، وتحوّل الجانب القومي فيها إلى مجرد رموز وتطلّعات دينية وانتماء إثنى يضمن للجماعة الوظيفية الوسيطة اليهودية العزلة اللازمة لها . وهذا هو المبدأ الذي لا يزال سائداً بين أعضاء الجماعات اليهودية رغم كل الادعاءات .

وما زاد من استقلال يهود بابل عن بقية الجماعات اليهودية في فلسطين أو خارجها ، أن اليهود ، حتى عام ٣٣٣ ق.م ، كانوا يعيشون داخل إطار إمبراطورية واحدة بدورون في فلكها ويستمدون هويتهم منها ، وهي الإمبراطورية الفارسية . أما بعد ذلك ، فقد كان الجيب البابلي يدور في فلك فارسي (أخميني ثم فرثي ثم ساساني) ، بينما كان يهود فلسطين والبحر الأبيض المتوسط بدورون في فلك هيليني ثم روماني . وقد واكب ظهور الجماعات اليهودية خارج فلسطين تفتت الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين . فقد شهد العصر الهيليني ، خصوصاً في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي ، تخلخلاً في الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين (في الرؤية والممارسة) من المنظورين الديني والقومي لأسباب عديدة :

١- أدّى تسامح الحضارة الهيلينية ، وجاذبيتها الشديدة ، واستعدادها للاعتراف بأي يهودي على أنه هيليني ، متى أجاد اللغة اليونانية ومارس أسلوب الحياة اليونانية ، إلى انجذاب العبرانيين اليهود (في بلدان البحر الأبيض المتوسط ومن بينها فلسطين) بأعداد متزايدة إلى تلك الحضارة ، وإلى تبنيهم طرق تفكيرها وزبها واحتفالاتها ، وفي نهاية الأمر لغتها . وسُمح للعبرانيين الذين طرخوا هويتهم جانباً (مثل تايريوس الإسكندر ، ابن أخي فيلون الفيلسوف السكندري ، وكثيرين غيره) بأن يصبحوا مواطنين يونانيين تماماً . أما بقية أعضاء الجماعة اليهودية الذين احتفظوا بعقيدتهم ، فلم يكتسبوا المواطنة اليونانية لعدم استطاعتهم المشاركة الكاملة في نشاطات المدينة (البوليس polis) ، إذ كانت الحياة في المدينة تدور حول العبادة اليونانية الوثنية . وكانت القيادة اليهودية في فلسطين ذاتها مصطبغة بالصبغة الإغريقية ، الأمر الذي أدّى إلى نشوب الثورة الحشمونية ضد السلوقيين . ولكن القيادة الحشمونية ما لبثت ، هي ذاتها ، أن تاغرقت بعد استيلائها على الحكم واصطنعت أسماء إغريقية مثل أنتيجون والإسكندر .

٢- لم تكن الهوية العبرانية اليهودية ، داخل فلسطين ذاتها ، محددة

التاريخ عن «عبرانيين» ولا عن «عبرانيين يهود»، وإنما عن «أعضاء الجماعات اليهودية»، وعن هوياتهم المختلفة. وقد حدث تمرّد يهودي وهو تمرّد بركوخبا، فقصى عليه الإمبراطور هادريان وأصدر مرسوماً يهدم القدس. ولكن، ومع ذلك، حينما مُنحت المواطنة لكل سكان الإمبراطورية عام ٢١٢م لم يُستثن اليهود من ذلك، وأصبحوا مواطنين رومانيين.

ويمكننا أن نحصر هنا بعض الهويات اليهودية مستخدمين معيارين: أحدهما ديني والآخر قومي أو إثني. فعلى المستوى الديني، كان هناك السامريون، كَتَجَمُّع ديني، مقابل بقية اليهود الذين كانوا ينقسمون بدورهم إلى عدة فرق لكل فهمه الخاص لليهودية، ومن أهمها الصدوقيون والفريسيون.

وإذا ما أخذنا بالمعيار الإثني، فيمكن الإشارة إلى يهود فلسطين المتأغرقيين، وكانوا يتركزون أساساً داخل المدن وفي أوساط الأثرياء. رغم أن التأغرق معيار إثني، إلا أنه يحمل تضمينات دينية، إذ أن اليهود المتأغرقيين كانوا يقفون ضد كثير من الطقوس الدينية، ويحاولون التملص منها بل والقضاء عليها بالتعاون مع الدولة السلوقية الهيلينية. وهناك يهود فلسطين (الساميون)، الذين كانوا يتحدثون الآرامية ويتركزون في الريف. كما كان هناك يهود فلسطين (التهودون) من أبناء الإيطوريين والأدوميين. وهناك يهود مصر المتأغرقيون (ويبدو أنه كانت هناك جماعة يهودية خارج الإسكندرية اكتسبت أيضاً الهوية المصرية المحلية ولم يكن أعضاؤها يُصنّفون ضمن المتأغرقيين). وهناك أيضاً يهود جزيرة إلفنتين وكانوا يتحدثون الآرامية، وأخيراً يهود روما (الذين كانوا يتحدثون اليونانية واللاتينية). كما كانت تُوجد جماعات يهودية في آسيا الصغرى وفي ليبيا (برقة)، وفي أنحاء متفرقة من أوروبا. ويمكن أن نذكر أخيراً أهم هذه الجماعات طراً، وهي الجماعة اليهودية في بابل التي انفصلت عن يهود الإمبراطوريات الهيلينية ثم عن الدولة الرومانية. وقد اكتسب أعضاء هذه الجماعات كثيراً من السمات الإثنية من المحيط الحضاري الذي كانوا يعيشون فيه، الأمر الذي أدّى إلى قُدْر هائل من التنوع وعدم التجانس. وستظل هذه هي السمة الأساسية والعامة للهويات اليهودية المختلفة التي ظهرت عبر العصور وفي مختلف المناطق.

وما زاد من عدم تجانس الجماعات والهويات اليهودية، انتشار اليهود في كل أنحاء العالم دون وجود سلطة مركزية دينية أو قضائية في فلسطين أو في غيرها من الأماكن. كما لم تكن تُوجد في العالم القديم وسائل مواصلات أو إعلام تقرب بين أطراف العالم كما

وانضم اليهود المتأغرقيون إلى الرومان وحاربوا في صفوفهم، فكان هناك جيش يهودي تحت قيادة أجريبابا الثاني أثناء حصار القدس وكانت أخته بيرينكي هي عشيقته القائد الروماني تيتوس. وكانت جهود الرومان موجهة لإخماد التمرد وحسب، وليس للقضاء على اليهودية كدين أو على اليهود كإثنوس أو قوم (كما تزعم التواريخ الصهيونية أو المتأثرة بها).

٦- وفي هذه المرحلة، ازداد انتشار الجماعات اليهودية في العالم نتيجة الهجرة من فلسطين والتهود، بحيث أصبح عدد اليهود المقيمين خارج فلسطين يفوق عدد المقيمين فيها. وكما بيّنا، كانت أعداد متزايدة من يهود فلسطين تفقد صبغتها العبرانية لتكتسب صبغة هيلينية. أما خارجها، فقد نسي يهود حوض البحر الأبيض المتوسط، ولا سيما في مصر، العبرية تماماً، وتمت ترجمة العهد القديم إلى اليونانية (الترجمة السبعينية) بتشجيع من البطالة حتى يفهم يهود مصر معانيه. وتشجيع منهم أيضاً، تم تشييد هيكل في مصر (في ليونتوبوليس) وهو هيكل أونياس، وذلك حتى يستقلوا عن هيكل القدس، ويتعدوا عن نفوذ السلوقيين، وحتى يمكن الاستفادة منهم كجماعة وظيفية، مقاتلة وسيطة، وهو ما كان يعني ظهور هوية يهودية في مصر الهيلينية مستقلة عن الهوية اليهودية في فلسطين.

وهكذا كانت الهوية اليهودية، داخل فلسطين وخارجها، تخوض عملية تَفَتَّت على المستويين الديني والقومي. ولذلك، يمكن القول بأن تحطيم الهيكل على يد تيتوس لم يكن سبباً مباشراً في القضاء على الهوية العبرانية اليهودية، وإنما كان تجسّداً لعملية تاريخية مركبة أدّت إلى القضاء على هذه الهوية وإلى تفتيتها، ولم يكن تحطيم الهيكل سوى تعبير نهائي عن هذه العملية. فأثناء الحرب الرومانية، استسلم قائد قوات الجليل يوسفوس فلافيوس للرومان ثم انضم إليهم، كما فرّ يوحنا بن زكاي من القدس أثناء حصارها، وكلاهما كان من الفريسيين الذين انضموا إلى صفوف المتمردين على مفض. وقد سمح الرومان ليوحنا بن زكاي بتأسيس مدرسة يفقه الدينية التي تمت فيها صياغة اليهودية المعيارية أو اليهودية الحاخامية المنفصلة تماماً عن العبادة القربانية، وهو النسق الديني الذي نعرفه، بينما اختفت القوى الأخرى مثل الأسينيين (الذين استوعبوا في المسيحية) والصدوقيين وغيرهم.

ويمكن القول بأن الهوية العبرانية والهوية اليهودية ذات التوجه القومي قد اختفت تماماً عند هذه النقطة التاريخية وظهرت مراكز عديدة في بابل والإسكندرية. ولا يمكننا التحدث منذ ذلك

التعريف الديني للهويات اليهودية

Religious Definition of Jewish Identities

في العصور القديمة ، كانت اليهودية ديانة توحيدية في محيط وثني ، وكانت تكتسب هويتها من هذا التعارض الواضح والبسيط . أما في العصور الوسطى الغربية وفي العالم الإسلامي ، فقد اختلف الأمر تماماً ، إذ وجدت اليهودية نفسها في محيط توحدي (إسلامي أو مسيحي) أدى إلى انغماس معانها . ولذلك ، حاول علماء اليهود أن يخلقوا هوية بين اليهود وأعضاء الديانات التوحيدية الأخرى . وكان التلمود هو ثمرة هذه المحاولة . وخلال هذه الفترة ، ظهر تعريف الشريعة (هالاخاه) للهوية اليهودية ، فعُرف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو من تهود . وهذه التعريف هو الذي ساد منذ ظهور اليهودية الأخامية مع بدايات العصور الوسطى في الغرب حتى بداية القرن التاسع عشر . وبالتالي فهو التعريف الذي يُعدُّ الإطار المرجعي لكثير من كتابات والإشكالات التي تُثار حول الهوية اليهودية . وهو تعريف ديني إثني مُغلَق يشبه إلى حد ما تعريف نحميا وعزرا ولكنه مُحرَّر من الارتباط باليهكل . ولذا ، نجد أن الأخاميات عارضوا أية محاولة لتعمدوة الفعلية ووقفوا ضد أي ماشيح دجال من أمثـل شيتاي تسفي . باعتبار أن العودة لا يمكن أن تتم إلا بأمر إلهي سيأتي في آخر الزمان ، أي أن العنصر القومي للهوية تم تسكيته وتحويله إلى نطق ديني ، ولكنه مع هذا ظل كامناً .

وقد كانت هناك إشكالية أساسية داخل هذا التعريف تتعلق باجانب القومي أو العرقي للتعريف ، حيث يتضمن أن من يُولد لأم يهودية يظل يهودياً حتى ولو لم يجازس تعاليم الدين اليهودي ، فهو يهودي بالمعنى الإثني . أما اليهودي المشهود ، فكان عليه أن يقوم بتنفيذ جميع الأوامر والنواهي ، أي يجب أن يكون يهودياً بالمعنى الديني . لكن هذه الإشكالية كانت هي الأخرى ، في حالة كُمون لأن عدد اليهود المشهودين كان صغيراً إلى حد كبير ، كما أن ترابط الجماعات الدينية والإثنية ، في العالمين الإسلامي والمسيحي ، كان قوياً لدرجة أن أي يهودي يترك دينه كان عادة ما يتبنى ديناً آخر ويندمج في المجتمع الخارجي ويتصهر فيه تماماً ، الأمر الذي يحل الإشكالية . وكان الفيلسوف إسبينوزا أول يهودي يترك الدين اليهودي ولا يتبنى ديناً آخر ، أي أنه كان أول يهودي إثني وعلماني . وعلى أية حال ، فإن المشكلة كانت تظهر عند إقراض النقود بالربا ، فاليهودية تبيح لليهودي أن يقرض غير اليهودي بالربا ، لكنها تُحرِّم إقراض بني ملته . فإذا ما طلب يهودي مُنتصر قرضاً من أحد المربين اليهود ، كانت قضية يهوديته تطرح نفسها . وقد أفتى بعض

يحدث الآن . لكل هذا ، تطوَّرت كل جماعة يهودية على حدة ، يعزل عن الأخرى ، على المستويين الديني والقومي . وقد ظلت هذه الفسيفساء قائمة إلى أن انحلت الإمبراطورية الرومانية وانتشرت المسيحية في الغرب وانتشر الإسلام في الشرق ، فظهرت فسيفساء أخرى احتفظت بعناصر من الفسيفساء القديمة ، كما دخلت عليها عناصر جديدة . وقد انقسمت اليهودية ودخلت مدارين أساسيين : المدار الإسلامي والمدار المسيحي . وازدادت اليهودية توحيدية داخل المدار الإسلامي . ومن ثم ، ظهر ما يمكن تسميته «هوية يهودية عربية إسلامية» ، وهي التي أنتجت موسى بن ميمون . وقد حَدَّث ، داخل هذا الإطار ، الانقسام الخطير الثاني ، وهو الانقسام القرآني . أما في الغرب ، فقد ازدادت اليهودية غيبية ، ودخلت عليها عناصر صوفية متطرفة . وازدادت الهوة اتساعاً بين الهويات اليهودية في الشرق والغرب . فيهود الأندلس والعالم العربي كانوا يتحدثون العربية ويكتبون بها ، بينما كان يهود فرنسا يتحدثون برطانية فرنسية ويكتبون بالعبرية . ثم ظهرت اليديشية (لغة الإشكناز في شرق أوروبا) ، واللادينو (لغة يهود السفارد في حوض البحر الأبيض المتوسط) . وكانت هناك بقايا يهود الرومانيوت الذين يتحدثون اليونانية ويهود إيطاليا الذين يتحدثون الإيطالية . كما ظهرت هويات يهودية مختلفة في أماكن متفرقة ، مثل : الحَزَر في منطقة القوقاز ، والفلاشا في إثيوبيا ، وبني إسرائيل في الهند ، ويهود الصين في كايفنج ، ويهود مانيبور ، والتشويتاس ، واليهود السود . ولم يكن انتماء هؤلاء الديني إلى اليهودية الأخامية ، وإنما كان انتماءهم إلى تقاليد دينية مختلفة دخلت عليها عناصر دينية وإثنية محلية . وكان يُوجد كذلك يهود إيران وأفغانستان الذين يتحدثون اللغة الفارسية وغيرها من اللغات ، وبعض اليهود الأكراد الذين يتحدثون الكردية . وظهر عدد ضخم من الجماعات اليهودية الصغيرة في القوقاز مثل : يهود الجبال ويهود جورجيا ويهود الكرماشكي ، وظهرت جماعات يهودية في جبال الأطلس تتحدث البربرية . ومن الانقسامات الدينية المهمة ، ظهور الحركة الشبتانية وظهور يهود المارانو في حوض البحر الأبيض المتوسط ويهود الدونغه في الدولة العثمانية .

هذه هي الفسيفساء التي كانت قائمة حينما ظهرت العلمانية في المجتمعات الغربية والتي زلزلت اليهودية الأخامية وعمَّقت عدم التجانس .

الأقل . لكن الدوغم لم يُرغموا على اعتناق الإسلام ، كما أن الادعاءات المشيحية لقائدهم قُوبلت بحرب شرسة من جانب الحاخامات الذين أعلنوا أنها هرطقة وتجديف . ومع هذا ، كان يهود الدوغم في الدولة العثمانية يدرسون التلمود مع بقية أعضاء الجماعة اليهودية حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وظلوا محتفظين بكثير من طقوسهم اليهودية سراً دون أن يرغبهم أحد على ذلك ! ولهذا كان من الصعب تقرير ما إذا كان المارانو والدوغم يهوداً أم لا ، وهي مشكلة لم يحسمها الفقه اليهودي .

وقد ازداد انتشار أعضاء الجماعات اليهودية في أنحاء العالم ، وازداد بشكل واضح غياب التجانس الثقافي والديني بينهم مع الثورة العلمانية الكبرى التي بدأت تترك أثرها التدريجي في الجماعات اليهودية (ولعل ظهور الحركات الشبتانية المختلفة هو تعبير عن تزايد معدلات العلمنة) .

ولكن رغم كل المشاكل والتوترات الداخلية والخارجية ، فإن تعريف الشريعة لليهودي (من وُلد لأُم يهودية أو تَهَوَّدَ) ، وهو التعريف الحاخامي الأرثوذكسي ، كان تعريفاً مقبولاً ويصلح أساساً للفرقة بين اليهود وغير اليهود . ولكن الوضع اختلف تماماً مع ظهور العلمانية التي بدأت تترك أثرها التدريجي في الجماعات اليهودية إلى أن دخلت اليهودية في الغرب مرحلة الأزمة ، فظهر فكر حركة التنوير ثم ظهرت اليهودية الإصلاحية ومن بعدها اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية ولا تعترف اليهودية الأرثوذكسية باتباع هذه الفرق أو بحاخاماتها يهوداً . هذا إلى جانب انتشار نزعات الإلحاد والشك الديني بين اليهود ، وظهر ما يُسمى «اليهودية الإنثية» (في الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وغيرهما من كومنولث الدول المستقلة) وهي يهودية من لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية وإن كانوا يمارسون بعض شعائرها باعتبارها شكلاً من أشكال الفلكلور الذي يدعم إثنتهم اليهودية ويرفع روحهم المعنوية . كما ظهرت اليهودية الإنسانية التي تحاول أن تؤسس عقيدة يهودية لا تستند إلى الإيمان بالشرعية الموحى بها وإنما بالقيم الإنسانية العامة . وظهرت أيضاً جماعات يهودية أخرى مثل العلماء اليهود الذين يؤمنون بأن الطب الحديث لا طائل من ورائه ، وبأن سر الشفاء يوجد في العهد القديم ، وكانوا في الواقع متأثرين بفرقة دينية مسيحية تُسمى «العلماء المسيحيون» . وانضم كثير من اليهود إلى فرقة الموحدين (يونيتريان Unitarian) المسيحية ، واحتفظوا في الوقت نفسه بيهوديتهم . بل وظهرت جماعة تُسمى «اليهود من أجل المسيح» ، وقد اعتنق هؤلاء المسيحية ، واعتبروا المسيح عيسى بن مريم هو الماشيح اليهودي ،

الحاخامات بأن مثل هذا اليهودي المتصير يجوز إقراره بالرأى لأنه ليس يهودياً على الإطلاق ، ولكن أغلبية الحاخامات أفتوا بأنه يهودي حسب الشريعة اليهودية ، لأنه وُلد لأُم يهودية (أي أنه يهودي بالمعيار العرقي) . وفي القرن الثامن ، شهدت اليهودية حركة إصلاح ديني من جانب القرائين الذين تأثروا بالتراث الديني الإسلامي وعلم الكلام والنزعة العقلانية في التراث الديني الإسلامي ، فرفضوا الشريعة انشغافية التي جُمعت معظم أحكامها في التلمود ، ونادوا بأن لا قداسة إلا للتوراة وحسب . أما الشريعة الشفوية ، فهي مجرد تفسيرات واجتهادات غير مُلزِمة . وهو موقف مختلف تماماً عن موقف اليهودية الحاخامية التي ترفع الشريعة الشفوية (أي تفسيرات الحاخامات) إلى مرتبة التوراة ، بل إلى مرتبة أعلى منها أحياناً . ومن ثم ، حدث انقسام كامل بين الفريقين . وكان الفقه اليهودي يواجه دائماً مشكلة ما إذا كان القراءون يهوداً أم لا ؟ وهل يحلّ الزواج بهم أم يُعدّ زواجاً مُختلطاً ؟ .

ومن أهم المشاكل الأخرى التي واجهها الفقه اليهودي ، مشكلة يهود المارانو (اليهود المتخفون) الذين لم يتركوا شبه جزيرة أيبيريا وتظاهروا باعتناق المسيحية بعد استرداد لهذه الجزيرة ، واحتفظوا بانتمائهم اليهودي سراً . ويرى الفقه اليهودي أن اليهودي الذي اضطر إلى اعتناق دين آخر يظل يهودياً ، ويمكنه أن يعود إلى حظيرة الدين متى سحت له الفرصة . ولكن كثيراً من المارانو اعتنقوا المسيحية بإرادتهم للاحتفاظ بممتلكاتهم و ثروتهم ، كما أنهم لم يغفروا من شبه جزيرة أيبيريا حينما سحت لهم الفرصة . بل إن انتماءهم اليهودي ضعف بشكل واضح بمرور الزمن ، ولم يبق منه سوى قشرة رفيقة أو بضعة طقوس . وفي النهاية ، أصبح من الصعب عليهم التأقلم مع اليهودية الحاخامية أو المعيارية كما حدث لإسبينيوزا (ولأوريل داكوستا من قبله) . بل إن ثمة نظرية حديثة تذهب إلى أن المارانو كانوا مسيحيين صادقين في مسيحيتهم ، وأن بعض العناصر داخل الدولة الإسبانية هي التي قامت بتوجيه تهمة المارانية لهم لوقف حراكهم الاجتماعي ، إذ أن هؤلاء المسيحيين الجدد ، كما كانوا يُسمون أحياناً ، كونوا طبقة وسطى صاعدة وقوية كانت تهدد مصالح بعض الطبقات المهيمنة .

وقد شكل يهود الدوغم من أتباع شبتاي تسفي مشكلة أخرى ، فقد اعتنقوا الإسلام علناً ، وأبقوا على انتمائهم اليهودي سراً . ولم يكن الفقه اليهودي ، منذ أيام موسى بن ميمون ، يعتبر اعتناق الإسلام من جانب اليهود شركاً أو إنكاراً لوحديّة الله (على خلاف التنصر) . وبالتالي لم تكن هناك مشكلة من الناحية النظرية على

وكان معظم أعضاء هذا التجمع اليهودي يتحدثون اللغة اليديشية . وقد حملوها معهم إلى إنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا ، ولكن كانت بينهم قطاعات تتحدث البولندية والأوكرانية والروسية والألمانية .

٢ - يهود العالم الغربي المندمجون الذين كانوا يتحدثون لغة بلادهم . وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عدة أقسام ، فمنهم يهود متدينون يعرفون أنفسهم على أسس دينية مختلفة (إصلاحي - محافظ - تجديدي - أرثوذكسي) ومنهم أيضاً يهود لادينيين . وأكبر تجمع لهؤلاء يوجد في الولايات المتحدة . وقد تزايد عددهم بوصول يهود اليديشية الذين اندمجوا بدورهم في المجتمعات التي وصلوا إليها ، واكتسبوا سماتها الإثنية والحضارية ، وفقدوا هويتهم السلافية اليديشية وظهر ما نسميه «الهوية اليهودية الجديدة» . كما أن العنصر السفاردي في المجتمعات الغربية اندمجت هي الأخرى في محيطها الحضاري ، خصوصاً أن أعدادهم كانت صغيرة .

٣ - يهود أمريكا اللاتينية الذين يتحدثون الإسبانية والبرتغالية أساساً . وقد انضم إليهم آلاف من يهود اليديشية واليهود السفاردي من العالمين الغربي والعربي . وقد احتفظت كل جماعة يهودية مهاجرة بلغتها وهويتها التي أحضرتها من بلدها الأصلي لأن المجتمع الكاثوليكي اللاتيني كان محتفظاً بهويته ، فكان التعبير عن الهوية اليهودية هو ذاته صدى لبينة المجتمع المضيق . وحينما بدأ المجتمع اللاتيني يفقد هويته بالتدريج ، وبدأت تتصاعد فيه معدلات العلمنة ، أخذ أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون هم أيضاً هويتهم ويندمجون ، ولكن في محيطهم اللاتيني .

٤ - يهود الشرق والعالم الإسلامي والعالم العربي ، وكان من بينهم اليهود العرب (اليهود المستعربة) ، واليهود السفاردي الذين يتحدثون اللادينو ، وكانت توجد جماعات كبيرة منهم في العالم العربي . وقد انضمت إليهم أعداد كبيرة من يهود اليديشية ، ويهود البلاد الغربية (خصوصاً فرنسا) . كما تم صيغ كثير من اليهود المحليين العرب بالصيغة الغربية ، وحصلت أعداد كبيرة منهم على جنسيات أوروبية .

٥ - الجماعات اليهودية المتفرقة (مثل الفلاشا وبني إسرائيل) التي استمر معظمها في البقاء ، ولم يخف في واقع الأمر سوى يهود الحزر ، إذ لا يزال يوجد بعض أعضاء من يهود كايبنج ومئات وربما آلاف من يهود المارانو والدونغه ، وإن كان ثمة نظرية تذهب إلى أن اليهود القرائين الذين يتحدثون التركية هم من بقايا يهود الحزر .

٦ - تم تصنيف جميع الجماعات السابقة إلى يهود غربيين يُسمون

ولكنهم لم يعترفوا ببثوتهم للرب ، وهكذا . وقد أصر كل هؤلاء (رغم إلحادهم الكامل أو رفضهم معظم مقولات الشريعة اليهودية) على أن يُسموا «يهوداً» ، الأمر الذي ولّد موقفاً غريباً إلى أقصى درجة وهو أن الغالبية العظمى لليهود العالم لم تعد تلتزم بالشريعة اليهودية ، ولم يعد ينطبق عليها مصطلح «يهودي» ، حسب التعريف الحاخامي ، ولكن هذه الغالبية تصر في الوقت نفسه على الاحتفاظ بلقب «يهودي» ، بينما لا توجد سوى أقلية صغيرة للغاية ملتزمة بالشريعة تحتفظ هي الأخرى بلقب «يهودي» وتدعي لنفسها حق أن تقرر من هو اليهودي ، ولذا فهي تذهب إلى أن أغلبية اليهود الساحقة ليسوا يهوداً ! وقد صرح آفي بيكر ، محرر إحدى التقارير التي أصدرها المؤتمر اليهودي عن أوضاع الجماعات اليهودية في العالم ، أن الانفصال بين اليهود الأرثوذكس واليهود العلمانيين قد خلق شعبين مختلفين لا يتفاعلان .

الخريطة العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر

General Map of Jewish Identities at the Present

لاحظنا التطور التاريخي للهويات اليهودية المختلفة والذي نجم عنه ظهور هويات لا حصر لها ولا عدد . كما لاحظنا أن تعريف الشريعة اليهودية لمن هو اليهودي كان تعريفاً يعاني من الخلل ، فلا هو بالديني ولا هو بالعرقي ، بل يجمع عناصر دينية وعرقية دون تعريف حدود كل عنصر . وقد زادت الصورة اختلاطاً وسوءاً مع ظهور الفرق اليهودية الحديثة ، وظهور اليهودية الإثنية والإنسانية ، وإصرار كل هؤلاء على أن يسموا أنفسهم يهوداً .

كل هذا يعني أن كلمة «يهودي» تشير إلى أشخاص يؤمنون بأنساق دينية متعارضة من بعض النواحي ، ويتمون إلى تشكيلات حضارية مختلفة ، أي أنها دال بشير إلى مدلولات دينية وقومية مختلفة . ولتوضيح الصورة قليلاً ، يمكن القول بأن مصطلح «يهودي» كان يشير ، منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى عشية ظهور الدولة الصهيونية ، إلى عشرات الهويات والانتماءات الدينية والوثنية والطبقية :

١ - يهود اليديشية ، ويُطلق عليهم عادةً يهود شرق أوروبا أو الإشكناز . وهم أكبر القطاعات اليهودية في العالم . وكان هؤلاء يوجدون في أوكرانيا ومنطقة الاستيطان اليهودية في روسيا وبولندا .

وكانوا ينقسمون بدورهم إلى قسمين أساسيين :

(أ) يهود متدينون يعرفون يهوديتهم على أساس ديني .

(ب) يهود تمّت علمتهم ويعرفون يهوديتهم على أساس إثني .

الدينية المختلفة التي استقوها من محيطهم الحضاري ، فإنهم يفقدون هويتهم التي يُقال لها «يهودية» . ويسري الشيء نفسه على يهود الولايات المتحدة ، فخصوصيتهم نابعة من انتمائهم إلى المجتمع الأمريكي ، ولا يمكن تخيلهم خارج هذا المحيط الثقافي .

وإذا كانت هناك هوية يهودية مستقلة نسبياً عن محيطها الحضاري ، فهذا لا يعني بالضرورة أن هناك هوية يهودية عالمية واحدة مترابطة . والواقع أن هناك هويات يهودية مختلفة متعددة بعدد المجتمعات التي تتواجد فيها هذه الهويات ، إذ أن انفصالها النسبي لم يؤد بالضرورة إلى ترابط الواحدة مع الأخرى . فيهود شرق أوروبا كانوا يكتسبون هويتهم الشرق أوروبية اليهودية من خلال اليديشية . وكان اليهود السفارد يكتسبون هويتهم الإسبانية من خلال اللادينو . وكانت كل من اليديشية واللادينو تعزل أعضاء الجماعة عن محيطهم . ومن ثم كان الصدام بين السفارد والإشكناز حاداً دائماً في جميع نقاط التماس ، سواء في أوروبا في القرن السابع عشر أو في العالم الجديد في القرن الثامن عشر أو في المستوطن الصهيوني في القرن العشرين .

الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة

New Jewish Identity in Modern Western Societies

«الهوية اليهودية الجديدة» مصطلح قمنا بصكه لوصف الهوية اليهودية الجديدة التي نشأت تدريجياً في العالم الغربي بعد عصر الانعتاق وتضاعف معدلات العلمنة حتى أصبحت النموذج السائد فيه . واليهود الجدد هم أصحاب هذه الهوية الجديدة . ويمكن القول بأن الهويات اليهودية المختلفة ، بعامه ، قد تحدت معالمها وتشكل مضمونها في المجتمعات التقليدية (قبل الرأسمالية) بطريقة مختلفة عن تشكلها في المجتمعات العلمانية الحديثة . فالمجتمعات التقليدية هي مجتمعات تدور حول منظومة عقيدية تستند إلى ميتافيزيقا ومطلقات معرفية وأخلاقية يأخذ تقسيم العمل فيها شكل الفصل الحاد بين الطبقات والأقليات والجماعات . وبذا اضطلع اليهود فيها بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة (وأحياناً العميلة) المنغلقة على نفسها ، شأنهم في هذا شأن الأرمن في تركيا والصينيين في جنوب شرقي آسيا .

لكن يهود العالم الغربي ، شأنهم شأن بقية قطاعات المجتمع الغربي ، خضعوا بعد القرن التاسع عشر لعملية ضخمة من العلمنة والتحديث ، ووجدوا أنفسهم يتفاعلون مع بيئة حضارية وسياسية مختلفة تماماً عما ألفوه من قبل ، فقد تزايد معدل العلمنة في

«الإشكناز» ، ويهود شرقيين يُسمون «السفارد» (أحياناً) برغم خطأ التسمية .

٧- نحن نرى أن كل التقسيمات السابقة أخذت في الاختفاء وأن ثمة ثلاثة أقسام أساسية الآن في العالم :

أ) خارج فلسطين ، ظهر ما يمكن تسميته «الهوية اليهودية الجديدة» وهي هوية ظهرت في المجتمعات الغربية الحديثة ، وهي ذات ملامح يهودية إثنية أو دينية ، ولكن البعد اليهودي فيها هامشي ، لا يؤثر في سلوك أعضاء الجماعات اليهودية ، إذ أن ما يحكم هذا السلوك هو الرؤية العامة السائدة في المجتمع (المتعة واللذة) والتي تُوجّه سلوك المسيحيين واليهود والبوذيين والملاحدين . . . إلخ .

ب) داخل المستوطن الصهيوني ظهرت هوية جديدة تماماً لا علاقة لها بكل الهويات السابقة ، وهي جيل الصابرا ويتبأ الدارسون بأن هؤلاء الصابرا سيكونون أغياراً يتحدثون العبرية لارتبطهم بأعضاء الجماعات اليهودية في العالم سوى روابط واهية لا تختلف كثيراً عن علاقة اليونانيين المحدثين بالاغريق القدامى . وعيل كثير من علماء الاجتماع إلى أن اليهود المولودين في إسرائيل ينقسمون أيضاً إلى شرقيين وغربيين ، ومن ثم يُطلق مصطلح «الصابرا» في واقع الأمر على أولاد اليهود الغربيين وحدهم .

ج) يهود متدينون (أرثوذكس) وهم أقلية صغيرة خارج إسرائيل وأقلية كبيرة داخلها .

والصورة ، كما نرى ، مركبة وغير متجانسة على جميع المستويات . فهذه الجماعات التي كانت تفصل بعضها عن البعض هوة من الخلافات الدينية ، وكانت تحدث عشرات اللغات واللهجات ، تقع ضمن تشكيلات اجتماعية وثقافية لا حصر لها ، ابتداءً من يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم الرأسمالية ومروراً بيهود اليمن الذين يشكلون جزءاً متكاملًا من مجتمعهم العربي بكل فنونه وتقاليده ومزايه وعيوبه ، وانتهاء بيهود الفلاشا (في إثيوبيا) الذين يتسمون إلى تشكيل قبلي بسيط ويتحدثون الأمهرية لغة أغلبية أهل إثيوبيا ويتعبدون بالجزرية لغة الكنيسة القبطية فيها! ويلاحظ هنا كيف يتداخل الانتماء الإثني مع الأبعاد الدينية . وربما كان هذا التداخل هو ما جعل مندوب الوكالة اليهودية في الخمسينيات لا يتردد في أن ينصح الفلاشا بحل مشاكلهم كلها لا بالهجرة إلى إسرائيل وإنما عن طريق التنصر والانضمام إلى الكنيسة القبطية في إثيوبيا !

وهذه الهويات اليهودية المختلفة لا وجود لها خارج محيطها الحضاري . فإن فقد يهود الفلاشا الأمهرية والجزرية والشعائر

ولتأخر هذه المجتمعات أي تمييز ضد اليهود أو ضد أية أقلية أخرى، فرقة الحياة (العلمانية) العامة مفتوحة أمام الجميع، وبإمكان الجميع الالتقاء فيها بعد أن يطرحوا جانباً خصوصياتهم الثقافية والدينية، أو بعد أن يتركوها في منازلهم في رقة الحياة الخاصة (وقد طلبت حركة الانعقاد من اليهودي أن يكون يهودياً في المنزل مواطناً في الشارع). وفي رقة الحياة العامة يمكنهم أن يخرطوا، ما حللهم الانخراط، في البيع بأعلى الأسعار، والشراء بأرخصها، والبحث الدائم (المنهجي أو التلقائي) عن الثلثة وعن التخفيضات والأوكازيونات، دون أي تمييز على أساس العقيدة أو الجنس أو اللون. ومن ثم لا يوجد أي تمييز تقني أو وطني أو مهني لليهود في مواجهة غيرهم، وإن كن هناك مثل هذا التمييز فهو من رواسب الماضي، فالجميع يلتقي على أرض علمانية صلبة.

هذه صورة للمجتمع العلماني النماذجية، أي أنها صورة غير واقعية ولكنها، مع هذا، مثلة للواقع. وداخل هذا الإطار، ظهرت الهوية اليهودية الجديدة، التي تطلق على أصحابها مصطلح «اليهود الجدد» لتمييزهم عن يهود ما قبل القرن التاسع عشر وعن يهود مرحلة ما قبل الانعقاد. وفي بعض الدراسات المتخصصة، يقال لليهود الجدد «يهود ما بعد مرحلة الاعتناق»، كما يمكن أن يُشار إليهم ببساطة بوصفهم «يهود العالم الغربي»، أو «اليهود الغربيين»، مع إسقاط المصطلحات التي تشير إلى هويات إثنية أو إثنية دينية مختلفة، مثل: «يهود النيدشية» أو «نسغارد» أو «الإشكناز»، لأنها لم تعد تصلح إطاراً مرجعياً. فإيديشية اختفت تقريباً، كما اختفت أية ملامح إثنية أتت بها المهاجرون اليهود من أوطانهم الأصلية. وأهم كتلة يهودية بين اليهود الغربيين تمثل في الأمريكيين اليهود (وليس اليهود الأمريكيين) الذين استوعبوا في الحضارة الأمريكية تماماً ولا وجود لهم خارجها ولا يمكن فهم سلوكهم دون الرجوع إليها.

والأمريكيون اليهود هم أهم قطاعات هؤلاء اليهود الجدد وأكبرها، إذ يشكلون نحو ٩٠٪ منهم، ويمثلون جماهير الصهيونية الغربية وعمودها الفكري ويؤثرون في صنع القرار الأمريكي، وحيث إن يهود أوروبا الغربية بل ويهود أوروبا الشرقية أيضاً أخذون في التلاشي (باستثناء يهود فرنسا التي هاجر إليها يهود المغرب)، فإننا نستخدم أحياناً مصطلح «اليهود الجدد» كمرادف لمصطلح «الأمريكيون اليهود». وقد ساهمت خصوصية الولايات المتحدة الأمريكية في سرعة ظهور الهوية اليهودية الجديدة وفي بلورتها، وتمثل هذه الخصوصية في العناصر التالية:

١ - المجتمع الأمريكي مجتمع استيطاني يتكون من فيفساء إثنية.

المجتمعات الغربية إلى أن أصبحت المجتمعات تُهيمن عليها العقيدة العلمانية (الشاملة) التي لا تبني أية معايير دينية أو أخلاقية للحكم على الفرد. فهي مجتمعات تدور حول مبادئ المنفعة واللذة وحول مفهوم الإنسان الطبيعي (الاقتصادي والجسماني)، ولا تحكم على الفرد إلا على أساس كفاءته ومدى نفعه وتكيفه مع قيم المجتمعات بحيث يصبح مواطناً يتوجه ولاؤه نحو الدولة وخدمة مصلحتها، قادراً على البيع والشراء والبحث عن اللذة وتظيم الإنتاج والإشباع والقتال حينما يُطلب منه ذلك.

وتتسم هذه المجتمعات بتراجع العقيدة المسيحية وعدم الاكتراث بها وبكل الأديان والمقدسات والغيبيات. ففي الماضي، أي حتى منتصف القرن التاسع عشر وربما أواخره، كان على اليهودي الذي يود الاندماج الكامل في مجتمعه أن يُغير دينه ويعتق ديناً آخر، أي المسيحية، كما فعل هايني ووالدا كل من ماركس وذرثيلي. ولكن المسيحية دين له رموزه المركبة والمعادية لليهود واليهودية، ولذا كانت تجربة التنصر مريرة ولا شك. أما يهود العالم الغربي في الوقت الحاضر، فيمكن لمن يريد منهم أن يتخلى عن دينه أن يفعل ذلك ببساطة شديدة دون أن يضطر بالضرورة إلى التنصر أو اعتناق أي دين آخر (كما فعل الفيلسوف إسبينوزا أول يهودي إنسي)، وبوسعه بعد ذلك أن ينظم في صفوف الملايين التي تدخل الآلة الرشيدة اليومية والتي يتم تنميطها من الداخل والخارج بشكل دائم من خلال البنية التحتية المادية والمؤسسات الإعلامية والتربوية. وهذه الملايين لا تكثر بالخصوصية، إلا باعتبارها مصدراً متجدداً للمتعة والإثارة. وهذه المجتمعات الغربية التي يعيش فيها اليهود الجدد لا تهتم كثيراً بالدين (أو أية أبعاد معرفية كلية نهائية)، ولذا فهو لا يُوجه سلوك أعضائها ولا رؤيتهم لذاتهم أو للواقع، وإن كان هناك بُعد ديني فهو عادةً هامشي ضامر. وهي مجتمعات لا ترى اليهودي باعتباره قاتل المسيح أو عدو الإله، ولا ترى اليهود باعتبارهم الشعب الشاهد. وأعضاء هذه المجتمعات قد يتحدثون عن التراث اليهودي/المسيحي ولكن الإنسان بالنسبة لهم، في التحليل الأخير، هو الإنسان الاقتصادي، المنتج والمستهلك، والإنسان الجسماني، الباحث عن المتعة. وهي مجتمعات لم تعد تكثر كثيراً بالشعائر المسيحية ولا بالأعياد المسيحية باستثناء الكريسماس الذي فُرق من مضمونه الديني وأصبح مناسبة اجتماعية وموسماً للبيع والشراء. وبدلاً من العقيدة المسيحية، ظهرت مجموعة من العقائد العلمانية المختلفة (مثل الوجودية والماركسية والنازية والليبرالية أو حتى الاستهلاكية) يمكن أن يؤمن بها كل من يشاء.

لكل هذا ، وجد المهاجرون اليهود أنفسهم في وضع حضاري جديد تماماً ، إذ أن المجتمع الأمريكي مجتمع مفتوح بمعنى الكلمة ، بخلاف المجتمعات الغربية المغلقة المثقلة بالأساطير القديمة والتقاليد التاريخية والقيم التي ورثتها . ولذلك اندمجوا فيه بسرعة وتهاوت أسوار العزلة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية عنهم ، فلم يُضطروا إلى السكنى في أماكن خاصة بهم (الجيتو) ، ولم يُفرض عليهم أن يرتدوا أزياء مُميّزة . ولهذا ، اختفت بقايا ثقافة يهود اليديشية الإثنية من شرق أوروبا ، كما اختفت تقريباً اللغة اليديشية ذاتها بسرعة ، وكذلك الأمر مع المدارس ذات الطابع اليهودي التقليدي بل وغير التقليدي .

ومع هذا ، يمكن القول بأن الهوية اليهودية الجديدة في الولايات المتحدة ، رغم تبلورها بسرعة وبشكل حاد ، فإنها لا تشكل سوى حالة متقدمة من متتالية نماذجية أخذة في التحقق . فالهوية اليهودية الجديدة هي ثمرة التفاعل الثقافي واليومي بين أعضاء الجماعات اليهودية ومجتمعاتهم العلمانية ، إلا أنها في الوقت نفسه ثمرة تخطيط واع . فبعد انهيار أسوار الجيتو ، وفتح أبواب الانعتاق ، والاندماج ، أدرك بعض قيادات الجماعات اليهودية الفكرية ضرورة تحديث الهوية اليهودية لتتفق مع الأوضاع الجديدة ، بكل ما تعطيه لليهود من حقوق جديدة ، وبكل ما تُلزمهم به من واجبات جديدة أيضاً . وقد كان متصوراً أن تحديث الهوية اليهودية هو السبيل الوحيد لاحتفاظ اليهودي بيهوديته (الدينية أو الإثنية) وتحقيق الاستمرار لها داخل مجتمعات ما بعد الانعتاق ، لأن الاصطدام بالمنظومة العلمانية أمر لا جدوى له . ولكن ما حدث كان عكس المتوقع . إذ اندمج اليهود تماماً في مجتمعاتهم بحيث أصبحت أنماط سلوكهم وأسلوب حياتهم لا تختلف كثيراً عن الأنماط والأساليب السائدة في مجتمعاتهم ، كما أن أحلامهم وطموحاتهم لا تختلف عن أحلام وطموحات معظم أعضاء مجتمعاتهم التي ارتفعت فيها معدلات العلمنة . أما البُعد اليهودي في هويتهم فقد أصبح هامشياً للغاية ، وظهر أن الهوية اليهودية الجديدة (من منظور خصوصيتها اليهودية الدينية أو الإثنية) هوية هشّة رخوة تنتمي يهوديتها إلى المظهر والقشرة لا إلى المخبر والجوهر .

فعلى المستوى الديني ، نجد اليهودي الجديد « المتدين » (باستثناء قلة صغيرة) ينتمي عادةً إلى فرقة من الفرق اليهودية الجديدة (الإصلاحية أو المحافظة أو التجديدية) التي تؤمن بصياغة مخففة للغاية من اليهودية . وهو قد يُصَف نفسه يهودياً متديناً ومع هذا لا ينتمي إلى أي من الفرق . وهذا الانتماء الديني يأخذ شكل الإيمان

ورغم أن ثمة نواة بروتستانتية بيضاء أسست المجتمع وشكلت أغلبية أعضاء النخبة ، فإن المجتمع لا تُوجد فيه أغلبية متجانسة . ولذا ، لا يشكل اليهود الأقلية الإثنية أو الدينية الوحيدة ، وإنما توجد بالإضافة إليهم عشرات الأقليات الأخرى ، مثل الإيطاليين والأيرلنديين والمهاجرين ذوي الأصل الإسباني من بورتوريكو وأمريكا اللاتينية ، إلى جوار العرب والسلاف . كما تُوجد الآن أعداد كبيرة من الآسيويين من الهند والصين واليابان ، وهناك أيضاً أعداد كبيرة من الأقليات الدينية من كل شكل ولون .

٢ - المجتمع الأمريكي مجتمع جديد مفتوح يوجد فيه مجال للريادة والاستثمارات والحراك الاجتماعي ، الأمر الذي يسر لأعضاء الجماعات اليهودية أن يحققوا كل إمكانياتهم الاقتصادية وأن يستثمروا كفاءاتهم ورؤوس أموالهم بشكل كامل . والمجتمع الأمريكي الرأسمالي ، الذي تشغل فيه قطاعات ضخمة بالتجارة والبيع والشراء والأعمال المالية ، لم يفرض على أعضاء الجماعات اليهودية دور الوسيط ، ولم يُحرّم عليهم أي نشاط اقتصادي .

٣ - لم يمارس المجتمع الأمريكي أي تمييز ضد أعضاء الجماعات اليهودية في الحقوق السياسية أو المدنية ، بل منحهم هذه الحقوق كاملة منذ البداية . ولم يظهر هذا المجتمع سوى أشكال طفيفة من التفرقة الاجتماعية (هي شكل من أشكال التحامل أكثر من كونها تفرقة عنصرية) مثل حرمان اليهود من عضوية النوادي الاجتماعية الأرستقراطية أو التعيين في بعض المناصب الحيوية . وقد تهاوت هذه الحواجز ذاتها في أوائل السبعينيات حين عُيّن كيسنجر وزيراً للخارجية عام ١٩٧٣ ، وإرفينج شابيرو مديراً لواحدة من أكبر الشركات الأمريكية (شركة دي بونت) عام ١٩٧٤ .

٤ - المجتمع الأمريكي مجتمع ليس له تاريخ طويل أو تراث مُركّب ، ومن ثم لا تسيطر عليه أية أساطير عرقية أو مفاهيم دينية قديمة ذات امتداد زمني أو ذات جذور تاريخية راسخة . وإن كانت هناك روايب حملها بعض المهاجرين معهم ، مثل الأيرلنديين أو الألمان وغيرهم ، فهي مجرد روايب لم تكتسب أية مركزية ولم تضرب بجذور عميقة . ويقول بعض علماء الاجتماع إن التعصب الأمريكي عادةً ما يستهدف السود بالدرجة الأولى ، ثم الكاثوليك بالدرجة الثانية ، ولكنه لا يستهدف أعضاء الجماعات اليهودية إلا بالدرجة الأخيرة .

د - المجتمع الأمريكي هو أكثر المجتمعات علمانية على وجه الأرض ، حيث تم فصل الدين والأخلاق وكل القيم عن الدولة وعن رقعة الحياة العامة (أي عن ٩٠٪ من حياة الإنسان الأمريكي) .

يهود أمريكا قد أصبحوا أقل تديناً وأصبحت يهوديتهم أكثر تأمركا . ويمكن إعادة صياغة هذا القول لينطبق على يهود المجتمعات الغربية ككل فنقول : « إن يهود العالم الغربي العلماني قد أصبحوا أقل تديناً وأصبحت يهوديتهم أكثر علمانية » .

أما من الناحية الإثنية ، فيلاحظ أن اليهود الجدد يتحدثون لغة البلد الذي يتنمون إليه وقد يستخدمون كلمة عبرية هنا وكلمة يديشية هناك من قبيل التظاهر الإثني ، ولكن هذا لن يعوق عملية التواصل الرشيد البرجماتي . وتُعد الإنجليزية ، وليس العبرية ، لغة معظم يهود العالم إذا أضفنا يهود أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وإنجلترا وكندا إلى الأمريكيين اليهود ، وهي اللغة التي يتحدثون بها ويحبون ويكرهون ويتعبون وينبجون مؤلفاتهم الدنيوية والدينية بها .

ومن الواضح أن الخضارة الغربية الحديثة قد بهرت الكثيرين من اليهود وحلت محل ثقافتهم اليهودية التقليدية تماماً . وكما قال أحد المعلقين ، فإن يهود العالم الغربي يعرفون موتسارت ومايكل جاكسون ، ولكنهم لم يسمعو قط غيوسى بن ميمون ولا يعرفون عن مضمون التلمود شيئاً . وبعضهم يصاب بصدمة عميقة حينما يعرف عن بعض جوانب التلمود المنظمة والسلبية . وغني عن القول أن النسق القيمي الذي يتبناه عامة اليهود الجدد والأمريكيون اليهود هو نسق مادي استهلاكي . شأنهم في هذا شأن عامة جماهير المجتمعات الغربية . والواقع أن الإسهامات الثقافية المتميزة ليهود العالم الغربي ، في مجالات الأدب والفنون التشكيلية والعلوم ، تُعد من أكبر الشواهد على مدى اندماجهم في هذه الخضارة وتمكّنهم ناصية مصطلحها . فهي إسهامات غربية علمانية بالدرجة الأولى ، وقد تكون لها نبرة يهودية حين تتناول أحياناً موضوعات يهودية ، ولكن المجتمعات الغربية لا تُمنع في هذا بتاتاً ما دامت هذه النبرة لا تتعارض مع أداء اليهودي في رقعة الحياة العامة . والعقد الاجتماعي الأمريكي يسمح للأمريكيين بأن يحتفظوا بشيء من عقائدهم الدينية وثقافتهم الأصلية بشرط ألا يتناقض ذلك مع الانتماء الأمريكي الكامل .

ولذا ، يستطيع اليهودي أن يُبر عن إحساسه بالانتماء للتراث اليهودي (دون إلزام به) ، وأن يتباهى أمام الجميع بذلك ، وأن يشعر بالفخر بالإنجازات اليهودية ، ويشتري أعمالاً فنية يهودية (نجمة داود - شمعدان المنوراء - أعمال شاجال - أفلام وودي آلن) ، ويشتري أيضاً بعض الهدايا التذكارية (سوفينير) من إسرائيل ، ويُساهم في المناسبات والمؤسسات الخيرية والثقافية اليهودية أكثر من

بعض الأفكار الغامضة عن وجود الإله وبعض المبادئ الأخلاقية العامة الموجودة في معظم الأديان والمنظومات الأخلاقية . وهو إيمان منفصل تماماً عن الشعائر الدينية والإثنية اليهودية ، فقد اختفت ، بشكل كامل تقريباً ، الشعائر الدينية اليومية التي تنظم حياة اليهودي بل واختفت الشعائر الأسبوعية والشهرية ولم يبق سوى الشعائر السنوية ذات الطابع الاحتفالي والتي لا تتطلب أية عملية ضبط للذات . بل ، على العكس ، يتحول الاحتفال بالشعائر إلى فرصة لتأكيد الذات والإفصاح عنها وإدخال قدر من المتعة عليها . ولذا ، تم التركيز على تلك الشعائر ذات القيمة الجمالية أو الإثنية أو تلك التي تشبه بعض الطقوس والشعائر (المسيحية) بحيث يستطيع الجميع الاحتفال بشعائرهم في ذات الوقت وفي رقعة الحياة العامة . وانطلاقاً من هذا ، نجد أن الشعائر تأخذ شكل تناول العشاء أو وجبة مطبوخة بطريقة معينة في بعض الأعياد أو إيقاد شموع السبت (لا يقيم شعائر السبت كلها سوى ٥٪ من يهود أمريكا) أو إيقاد شمعدان الحانوخا في ديسمبر أو تزيين المنزل بشجرة الحانوخا التي ليس لها أي مضمون ديني (وتشبه تماماً شجرة الكريسماس) . بل وهناك العم مأكس رجل الحانوخا ، بديل بابا نويل أو سانتا كلوز . وهذا اليهودي الجديد قد يذهب إلى المعبد اليهودي ولكنه يفعل ذلك مرة أو مرتين في السنة (عادةً في يوم الغفران وربما في عيد الفصح) . والشعائر تُقام لا باعتبارها شعائر دينية وإنما باعتبارها حدثاً اجتماعياً إذ تحوّل الزمان الديني المقدّس (بالإنجليزية : سيكريد تايم sacred time) إلى احتفال عائلي ، أي إلى زمن عائلي (بالإنجليزية : فاميلي تايم family time) ، ثم تحول الزمن العائلي بدوره إلى "وقت الفراغ" أو "الويك إند" .

ويمكن أن يغالي اليهودي الجديد قليلاً ويصر على ضرورة ممارسة شعائر الطعام الشرعي ولكنه عادةً ما يقيم بعضها لا كلها ، كما يمكنه أن يصر على إقامة احتفال بلوغ سن التكليف (بارمتسفا) لأطفاله (حتى لا يختلف عن أقرانه المسيحيين ممن يحتفلون بتثبيت التعميد) . ولكن هذا الاحتفال ، تماماً مثل الاحتفال بالханوخا ، مُفرغ تماماً من أي مضمون ديني أو حتى أي مضمون إثني حقيقي . فهو حدثٌ بورجوازي استهلاكي ضخم يُشبه الاحتفال بعيد الميلاد حين يحتفل الإنسان بميلاده البيولوجي لا بميلاده الديني . وبدلاً من أن يتذكر اليهودي أنه قد وصل إلى السن الذي يجب عليه أن يحمل فيها نير العهد ويُفقد الوصايا والأوامر والنواهي ، فإنه يعقد حفلة فاخرة مكلفة وسوقية (تثير حفيظة كثير من الحاخامات) . وقد لخص أحد الحاخامات الموقف الديني في الولايات المتحدة بقوله : « إن

كانت نسبة اليهود المهنيين أعلى من النسبة العامة في الولايات المتحدة، فهذا ليس دليلاً على التمييز العنصري وإنما هو دليل على أن اليهود، باعتبارهم أقلية، يتسمون بقدر من الحركية أعلى من تلك التي يتسم بها بقية أعضاء المجتمع، فيسارعون باغتنام الفرص التعليمية المتاحة ويحققون درجة من الحراك الاجتماعي تزيد عن تلك التي يحققها بقية أعضاء المجتمع، وهم في هذا لا يختلفون عن أعضاء الأقليات الأخرى.

ويهود الدول الغربية الحديثة لا يعيشون في جيتوات مقصورة عليهم وإنما يتقرر مكان معيشتهم بحسب دخولهم وبحسب ما تمليه مصالحهم (الطبقة والمهنة والحرفية). وقد نجم عن هذا أن اليهود الجدد، والأمريكيين اليهود على وجه الخصوص، يعيشون إما في المدن الكبرى أو في مدن صغيرة أو جديدة قريبة من المدن الكبرى (الضواحي). ويتسبب هذا التوزيع في تشتيت اليهود الجدد، وفي إبتعادهم عما تبقى من مراكز الثقافة اليهودية وعن أقرانهم، وفي اقترابهم من غير اليهود، الأمر الذي يزيد معدل اندماجهم والزواج المختلط بينهم. ومن المفارقات التي تستحق الذكر أن الحراك الاجتماعي يُعتبر من أهم أسباب تشتت اليهود الجدد، وارتقايتهم في سلم المجتمع وفي مراحل التعليم العالي، وفي بحثهم الدائب عن أفضل المؤسسات التعليمية وأحسن الفرص الاقتصادية. وتكمن المفارقة في أن القيمة الإيجابية التي يعلقها اليهود الجدد على التعليم هي نفسها التي تسبب انتشارهم، بكل ما يتضمنه هذا الانتشار من سلبات من منظور التماسك الاجتماعي.

وفي هذا الإطار، سنجد أن توجهات يهود العالم الغربي السياسية (بما في ذلك تأييدهم لإسرائيل والصهيونية) لا يختلف عن الأنماط السياسية السائدة في المجتمع، وأن طريقة تصويتهم في الانتخابات لا تختلف (إلا في بعض التفاصيل) عن النمط السائد في المجتمع. فبلا حظ مثلاً أن يهود الولايات المتحدة كانوا يتجهون حتى عهد قريب اتجاهاً ليبرالياً وكان أغلبيتهم يصوتون لصالح الحزب الديموقراطي. وهم، في هذا، لا يختلفون كثيراً عن أعضاء الأقليات الأخرى أو عن سكان المدن. وهم يكونون جماعات ضغط تتحرك داخل النظام السياسي ولكنها لا تختلف في هذا عن الأقليات وجماعات الضغط الأخرى (فالديموقراطية الأمريكية لم تُعد ديموقراطية انتخابية وإنما صارت ديموقراطية جماعات الضغط).

وقد أدّى تزايد معدلات الاندماج إلى الابتعاد عن التراث أو الموروث الثقافي التقليدي، وبالتالي إلى ضعف الهوية الإثنية الخاصة. ومن الملاحظ أن أزمة الهوية والإحساس بالاغتراب،

أقرانه من غير اليهود. ولكن كل هذه أمور هامشية بالنسبة لانتمائه لمجتمعه ولأدائه في رقعة الحياة العامة.

ولا يتفاعل اليهود الجدد مع ثقافة إسرائيل العبرية إلا باعتبارها ثقافة أجنبية يربطهم بها اهتمام خاص، تماماً مثلما يتفاعل المهاجر الإيطالي مع الثقافة الإيطالية حينما يدفعه الحنين الرومانسي إليها (nostalgia) وذلك دون أن يضحي بهويته الأمريكية.

ويعُدّ تزايد معدلات الزواج المختلط من أهم علامات تآكل الهوية اليهودية وهشاشتها. فقد أصبحت هذه الهوية اليهودية الجديدة، بسبب هامشيتها بالنسبة لسلوك اليهودي في المجتمعات الغربية، لا تُشكّل عائقاً أمام الزواج المختلط. فحينما يقرر شخص غير يهودي، مثلاً، أن يتزوج من يهودي رجلاً كان أو امرأة، فإن انتماء هذا الأخير لا يمس جوهر رؤيته للكون أو لنفسه ولا يؤثر في سلوكه بشكل كبير. فاليهودي، شأنه شأن المسيحي، يؤسس حياته على أسس علمانية، ولذا لا يتردد اليهودي في الزواج من شخص غير يهودي. بل ويُقال إن إعادة تعريف الهوية اليهودية لم تُعد تشكل فقط حاجزاً أمام الزواج المختلط، بل وأصبحت حافزاً على مثل هذا الزواج في المجتمعات العلمانية، حيث يبحث الجميع عن مغامرات جديدة ومغايرة وعن أساليب حياة مختلفة، واليهودي يتيح هذه الفرصة ويُحقق مثل هذه الأمنية لمن يقترن به.

ومن أكبر العلامات الأخرى على الاندماج الكامل ما يُعرف بالاندماج الاقتصادي. فلم يُعدّ اليهود يشكلون كتلة اقتصادية مستقلة داخل المجتمعات الغربية. ولم يُعدّ لهم هرم وظيفي مستقل عن الهرم السائد في المجتمع (إلا من بعض الجوانب فقط). كما لا يمكن الحديث عن «رأسمالية يهودية» أو حتى عن «رأسمالية يهودية أمريكية أو إنجليزية»، ف رؤوس الأموال التي يملكها الرأسماليون اليهود إنما هي رؤوس أموال أمريكية أو إنجليزية ليس لها حركية مستقلة أو اتجاه مستقل، أي أنها جزء صغير من كل أكبر. والرأسمالي أو المهني أو العامل اليهودي لا يواجه مشاكل خاصة به، بل يواجه المشاكل نفسها التي يواجهها أقرانه في الشريحة الاجتماعية نفسها أو في المهن نفسها. وبلا حظ أن الأمريكيين اليهود يتركزون في الوقت الحالي في المهن (الطب والجامعات والإعلام... إلخ) وهو اتجاه أخذ في التعمق باعتبار أن عدد الشباب اليهودي في الجامعات الأمريكية يتزايد على مر الأيام. ولكن هذا هو الاتجاه انعم في المجتمعات الاستهلاكية، إذ يزيد قطاع الخدمات تدريجياً بازدياد الرفاهية. ومع تزايد اعتماد المجتمعات الحديثة على الآلات العلمية والإلكترونيات، يزداد احتياج المجتمع إلى المهنيين. وإذا

قد تزايد قليلاً مع انتشار البطالة في المجتمع الأمريكي) ، ولكنهم دائماً على استعداد لإحداث الضوضاء والتظاهر من أجل إسرائيل والكتابة إلى الكونغرس ودفع التبرعات الأخذ في التناقض (لا يساهم سوى ٢٠٪ من يهود أمريكا في الجباية اليهودية الموحدة ، كما لوحظ مؤخراً أن ما تحصل عليه الجمعيات الخيرية غير اليهودية من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة يزيد على ما تحصل عليه الجمعيات اليهودية) . وقد لاحظ أحد الدارسين أن الهجرة إلى إسرائيل تتناسب تناسباً عكسياً مع تصاعد نبذة هذه الصهيونية التوطينية وازدياد حدتها .

لكن الأهم من هذا كله أن هذه الصهيونية لا تشكل رؤية متكاملة للحياة ، فهي لا تتحكم إلا في جانب واحد ومسطحي من الشخصية ، إذ تظل قيم اليهودي الجديد وهويته المتعينة غريبة علمانية استهلاكية . ومما يبرر الأمر بالنسبة إلى اليهود الجدد أنه لا يوجد أي تعارض أو تناقض بين مصانع بلادهم ومصانع إسرائيل التي تمثل هذه المصانع في الشرق الأوسط . فتأيدهم لنفستوطن الصهيوني لا يختلف في أساسياته (وإن اختلف أحياناً في نبرته) عن تأييد غير اليهود للمشروع الصهيوني . وهو تأييد مؤسسي عام يشترك فيه الحكومات الغربية والمؤسسات الإعلامية والثقافية . وحين يُشارك اليهودي الجديد في هذا لا يعدو أن يكون صوتاً في جوقة ، يسبح مع التيار لا ضده . ويمكن الزعم بأن تأييد يهود أمريكا لإسرائيل ينبع أساساً من أمريكيتهم . أي من انتعاشهم الأمريكي ونيس من خصوصيتهم اليهودية .

ولكن هذا الانتماء الصهيوني يخفى كثيراً من التناقضات والمفارقات . فقولاً : إذا كانت إسرائيل هي حقاً البلد الأصلي ، فإن هذا يعني أنها البلد الذي هاجر المهاجر منه لا البلد الذي يهاجر إليه ، أي أن الأسطورة الصهيونية في محاولة لتكيف مع الواقع الأمريكي قُضت على نفسها . وثانياً : يساعد هذا الانتماء الصهيوني السطحي على مزيد من الاندماج والانصهار ، فهو انتماء إثني لا ديني يُقدّم ما تبقى لهم من انتماء ديني . وحيث إنهم يكتسبون سماتهم الإثنية الحقيقية من مجتمعاتهم ، فهم يزدادون في واقع الأمر تأمراً وعلمنة وتظل الاختلافات بينهم وبين بقية المواطنين باهتة وطفيفة ، ويصبح مضمون الحياة اليهودية الوحيد هو دفع التبرعات إلى إسرائيل وحضور المظاهرات التي ينصرف اليهودي الجديد بعدها إلى بيته الوثير في الضاحية ، بعد أداء واجبه تجاه هويته اليهودية الجديدة الهشة ، ليتمتع بحياة استهلاكية هيشة ولتتهم كل أنواع الطعام ، المباح وغير المباح شرعاً . وقد لاحظ بن جوريون نفسه هذا الوضع

وهما من الموضوعات الأساسية في الأدب الغربي الحديث وفي المجتمعات الغربية ، قد أصابا اليهود الجدد أيضاً ، ومن هنا بحثهم الدائب عن هوية . والواقع أن هذا البحث ترجم نفسه إلى حاجة نفسية لافتراض وجود ظاهرة معاداة اليهود في كل مكان . ففي غياب أي مضمون إيجابي للهوية ، يصبح الآخر المعادي عنصراً ضرورياً لوجودها ومصدراً أساسياً لها . وقد ذكر أحد المعلقين الأمريكيين أن سارتر يرى أن المعادي لليهود إن لم يجد يهوداً لاخترعهم اخترعاً . ولكن الوضع أصبح معكوساً بالنسبة للأمريكيين اليهود واليهود الجدد ، فهم إن لم يجدوا أعداء اليهود لاخترعوه . والمؤسسة الصهيونية تدرج هذه الحاجة النفسية للأمريكيين اليهود ، فتقوم بتعميق إحساسهم بالمخاطر الحقيقية أو الوهمية المحيطة بهم والمؤامرات التي تُحاك ضدهم ، وتؤكد على الهولوكوست أو الإبادة النازية باعتبارها موضوعاً أساسياً فيما يُسمى «التاريخ اليهودي» وعلى إمكانية قيام أفران الغاز في بروكلين (نيويورك) أو في كولومبوس (أوهايو) أو حتى في باريس (فرنسا) أو موسكو (روسيا) .

ولكن الشكل الأساسي للهوية المعلنة بين الأمريكيين اليهود واليهود الجدد بشكل عام هو إعلان انتمائهم الصهيوني بشكل متشجع حتى يضيفوا ما يشبه المضمون الإيجابي الصلب على هذه الهوية اليهودية الجديدة الهشة السطحية ، فهي تجعل الأمريكي اليهودي فرداً من الشعب اليهودي القديم فخوراً بتراته ورموزه القومية ، خصوصاً الرمز القومي الأكبر ، أي الدولة الصهيونية . ولكن ، بشيء من التحليل المتعمق ، ستكتشف أن يهود العالم الغربي والأمريكيين اليهود قبلوا الصهيونية حسب شروطهم هم . ونحن نقسم الصهيونية إلى نوعين : صهيونية استيطانية ، أي أن يهاجر المواطن اليهودي من بلده ويتحول إلى مستوطن صهيوني في فلسطين ، وصهيونية توطينية أو صهيونية الغوث والمعونة والهوية ، وهذه صهيونية تترجم نفسها إلى تبرعات مالية لإسرائيل للمساعدة في توطين اليهود الآخرين ، وإلى تأييد وضغط سياسيين من أجلها ، وإلى مصدر من مصادر الهوية ، بحيث تصبح إسرائيل بالنسبة لهؤلاء الأمريكيين اليهود هي البلد الأصلي (مسقط الرأس) مثل إيطاليا بالنسبة إلى الإيطاليين وأيرلندا بالنسبة إلى الأيرلنديين ولبنان بالنسبة إلى اللبنانيين ، فكان الأمريكيين اليهود قد تَقَبَّلُوا الصهيونية بعد أمركتها ، تماماً مثلما فعلوا مع اليهودية !

لكل هذا ، لا يهاجر اليهود الجدد إلا بأعداد صغيرة ، فمعدل هجرة الأمريكيين اليهود في السنة هو ١٢٥٠ فقط (ولعل هذا العدد

الأخيرة . ويرى دويتشر أن السمات الأساسية لهؤلاء المهرطقين اليهود هي ما يلي :

- ١ - الإيمان بالحثمية ، وبأن العالم يحكمه قانون .
 - ٢ - الإيمان بأن الواقع في حالة حركة دائمة وليس جامداً .
 - ٣ - عدم انفصال النظرية عن الممارسة .
 - ٤ - الإيمان بتضامن البشر في عملية انعتاق إنسانية كاملة .
- والعناصر الثلاثة الأولى تعني ، في واقع الأمر ، الإيمان بالمرجعية المادية الكامنة ونموذج الطبيعة/ المادة ، أما الرابع فهو الإيمان بعقيدة التقدم . ويضيف دويتشر أن هؤلاء المثقفين اليهود المهرطقين يعيشون على حدود الحضارات ، وهذا يعمق إيمانهم بصيرورة العالم وبالتضامن الإنساني العالمي .

ويمكن القول بأن المثقفين اليهود غير اليهود لا يختلفون كثيراً عن المثقفين المسيحيين غير المسيحيين . فاليهودي غير اليهودي ، هو فرد من أصل يهودي وحسب ، فقد إيمانه بمنظومته العقيدية ، وهو مع هذا لا يختلف عن المثقف من أصل مسيحي الذي فقد إيمانه بالعقيدة المسيحية ، فالجميع يلتقي في رقعة الحياة العامة والرؤية الأممية العالمية الكوزموبوليتانية . وهذا على كل هو ميراث عصر الاستنارة الذي يسعى إلى ظهور الإنسان الأممي الذي لا يرتبط بأية خصوصيات قومية أو دينية أو طبقية ، وإن ارتبط بشيء فهو شيء أممي عام مثل الحفاظ على البيئة أو مصالح الطبقة العاملة التي ستلغي كل الطبقات وتُحقق المجتمع الشيوعي الذي سيسير حسب قوانين الاشتراكية العلمية .

وهناك كثير من النشطاء السياسيين في الأحزاب الشيوعية والحركات الثورية الغربية من أصل يهودي ، ولكنهم فقدوا علاقتهم باليهودية وتحولوا إلى ثوريين منطرفين يعملون من أجل المثل الثورية الأممية العالمية النابعة (كما يتصورون) من قوانين الحركة المادية الكامنة والتي تتبدل في جدلية التاريخ ، ومن ثم فهي مُثل لا تعرف أية خصوصيات . وقد جعل هؤلاء الثوريون مهمهم القضاء على ما تبقى من جيوب إثنية يهودية (بديشية في معظمها) تحت شعار دمج اليهود في مجتمعاتهم وحل المسألة اليهودية من خلال الطرح الثوري . ومن أهم هذه الشخصيات فرديناند لاسال وكارل ماركس وروزا لوكسمبورج وليون تروتسكي وإيسر كورت وبيلا كون وراكوس ماتياس وأرنو جيرو ورودولف سلانسكي وأنا بوكور .

ورغم العداء الشرس من قبل هؤلاء المثقفين اليهود غير اليهود لليهود واليهودية ، ظلت الجماهير الشعبية تصنفهم على أنهم «يهود» ، حتى أن الثورة البلشفية كانت تُدعى «الثورة اليهودية» .

حينما ذكر أن صهيونية يهود أمريكا (والعالم الغربي) ليست إلا غطاء لعملية الاندماج السريعة . ويمكن تلخيص الموقف بالقول بأنه من منظور الهوية بين اليهود الجدد ، يُوجد سطح صهيوني لامع تزدهر فيه الهوية الإثنية الوهمية السطحية ، وباطن غربي علماني تتأكل فيه الهوية الدينية أو التقليدية وتشكل داخله الهوية اليهودية الجديدة . وإذا كان الصهاينة قد وصفوا اليهود المندمجين بأنهم المارانو الجدد (أي اليهود المتخفون ، مثل يهود إسبانيا الذين اضطروا إلى التنصر ، فأظهروا مسيحيتهم وظلوا في الباطن يهوداً) ، فيمكننا أن نصف اليهود الجدد بأنهم مقلوب المارانو ، أي أنهم يظهرون اليهودية بطريقة صاخبة ولكنهم يطنون العلمانية والاستهلاكية والأمريكية . ولكن كل هذا لا يعني عدم وجود تناقضات بين اليهود الجدد والمجتمعات التي يتمون إليها ، كما لا يعني أن كل أشكال التفرقة ضدهم قد اختفت تماماً . فهناك التوتر المتزايد بين الأمريكيين اليهود والسود ، وبينهم وبين الكثير من أعضاء الجماعات المهاجرة . وهناك أشكال من التفرقة الاجتماعية غير الملحوظة (نسميه «تحامل») . ولكن مثل هذه التناقضات ومثل هذه التفرقة هي جزء من أي كيان اجتماعي . ويشبه وضع اليهود الجدد ، في كثير من نواحيه ، وضع أية أقلية في أي مجتمع غربي حديث متفتح ، وهذا الوضع شيء جديد تماماً بالنسبة إلى يهود العالم الغربي .

اليهود الجدد

Neo-Jews

انظر : «الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة» .

يهودي غير يهودي ويهودي بشكل ما

Non-Jewish Jew and Jewish in Some Way

«اليهودي غير اليهودي» هو عنوان أحد كتب المؤرخ والمفكر التروتسكي إسحق دويتشر . ويذهب دويتشر إلى أن ثمة جانباً عالمياً في اليهودية تبدل في الفكر الثوري العالمي للمفكرين اليهود أمثال إسبينوزا وماركس ، فهذا الجانب العالمي دفعهم لأن يطوروا أنساقاً فكرية ثورية عالمية تجاوزت حدود اليهودية بل وحدود كثير من الأنساق الفكرية الأخرى . ومعنى ذلك أن تحقق النزعة العالمية الكامنة في اليهودية يؤدي إلى نفي اليهودية . وهؤلاء المفكرون ، في تصور دويتشر ، يمثلون كل ما هو عظيم في الفكر الحديث سواء في الفلسفة أو علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة في القرون الثلاثة

أو التخفى . وفي الاتحاد السوفيتي كان من حق المواطن اليهودي أن يسجل نفسه روسياً أو أوكراينياً إن شاء ، أو يهودياً إن فضّل ذلك . وقد أثمرت الألوف تسجيل أنفسهم روساً . ومن أشهر هؤلاء مادلين أولبرايت ، وزيرة الخارجية الأمريكية ، التي اكتُشف أمرها ؛ وكذلك روبرت ماكسويل ، الناشر الإنجليزي .

٣- ولا شك في أن اليهودي الكاره لنفسه هو أيضاً يهودي غير يهودي .

٤- بل وعلى المستوى العميق ، يمكن القول بأن كل الصهاينة هم «يهود غير يهود» ، فالضمون اليهودي لحياة معظم صهاينة الغرب يكاد يكون منعدياً ، وهم يهود كانوا يهود يهوديتهم ويودون إلغاء الوجود اليهودي في انعائهم ليُحلوا محله نمطاً إنسانياً جديداً (طبيعياً) لا يتسم بأي شذوذ أو طفيلية . وهو ما يُسمى الإنسان العبري الجديد .

٥- بلغ الاختلاط درجة كبيرة حتى أنه ظهرت في الإحصاءات الخاصة بالجماعات اليهودية في العالم مقولة جديدة كل الجدة وهي «يهودي بشكل ما» (بالإنجليزية : جويس إن سم وي Jewish in some way) وهي مقولة كوميدية لا تختلف عن تعريف سارتر لليهودي بأنه «هو من يشعر في قرارة نفسه بأنه كذلك» .

٦- أما «اليهودي غير اليهودي» الذي يدعي اليهودية ويتباهى بها (وهذا هو النمط السائد بعد وعد بنغور وأخرب الناعية الثانية) ، فهو على العكس من ذلك ، حيث يتباهى بانتماؤه اليهودي مع أن حياته وسلوكه وهويته تكاد تكون خالية تماماً من أي مضمون يهودي ديني أو إثني . وهو يسعى دائماً إلى إبراز جوانب شخصيته التي يتصور أنها يهودية .

فريدريك ستاهل (١٨٠٧-١٨٦١)

Friedrich Stahl

اسمه الأصلي يوليوس شلسنجر . وُلد في بافاريا الكاثوليكية . وهو رجل سياسة وقانون ألماني محافظ وأحد قادة البروتستانتية اللوثرية الألمانية . وُلد لأسرة يهودية وتلقى تعليماً أرثوذكسياً يهودياً ، ولكنه تَنَصَّر ثم دخل الكنيسة اللوثرية عام ١٨١٩ . أي وهو بعد في سن السابعة عشرة . وقد كان في هذا مثل عدد كبير من اليهود الألمان في عصره الذين تَنَصَّروا لأسباب مختلفة .

درس ستاهل القانون في عدة جامعات ألمانية ، وكان نشطاً في الحركات الطلابية ، وعمل أستاذاً للقانون الروماني والكنسي . وعُيِّن عضواً في المجلس التشريعي في بروسيا ، وعضواً في مجمع الكنيسة البروسية ، كما ساهم في إنشاء مجلس الشيوخ في بروسيا وعين عضواً فيه مدى الحياة ، وكان قائداً للحزب المحافظ .

ويعود هذا إلى أن أعداد هؤلاء اليهود غير اليهود في صفوف الحركات الثورية والاشتراكية ، بل وفي قياداتها ، كان أمراً ملحوظاً . ولكن هناك بُعداً خاصاً للفضية في شرق أوروبا (حيث كانت تُوجد غالبية اليهود وحيث استولت الأحزاب الشيوعية على نُظم الحكم) . فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يلعبون دور الجماعة الوظيفية في مجتمعاتهم التقليدية ، وكانوا أداة قمع في يد الطبقة الحاكمة (فكانوا جامعي الضرائب وكانوا وكلاءهم الماليين والتجارين) . ووجود اليهود غير اليهود الملحوظ في الأحزاب الشيوعية في شرق أوروبا ، خصوصاً في النظم الستالينية ، جعل الناس يدركون مرة أخرى أنهم جماعة وظيفية يهودية جديدة تلعب مرة أخرى دور العميل لحساب القوة الشيوعية الروسية أو المحلية التي تقوم بابتزازهم . ورغم أن هؤلاء المفكرين والمواطنين الثوريين من اليهود غير اليهود لم يميزوا بين اليهود وغير اليهود ، وكانوا أداة أمانة في يد نظمهم الحاكمة في عملية القمع ، إلا أن العقل الشعبي لا يميل إلى التمييز بين الظلال المختلفة بل يميل إلى إدراك الواقع من خلال نماذج مختزلة له ، خصوصاً أن هناك تراثاً تاريخياً يدعم هذا النموذج . ولذلك ، فهناك مفارقة تستحق التأمل وهي أنه رغم اختفاء اليهود من هذه البلاد ، إلا أن شعوبها لا تزال تمارس عداً حقيقياً لليهود .

ويمكن أن نوسّع نطاق مصطلح «يهودي غير يهودي» لنشير إلى أي مواطن من أصل يهودي تآكل انتماؤه اليهودي (سواء من الناحية الإثنية أو الدينية) أو اختفى تماماً ، فهو إنسان مندمج تماماً في محيطه يُقبل على الزواج المختلط ولا يعيش في جيتو أو في أي قسم من أقسام المدينة مقصورة عليه ، كما لا يتسم بأي تميز وظيفي أو مهني أو ثقافي فهو من اليهود الجدد أصحاب الهوية اليهودية الجديدة ، ورغم كل هذا يُصنّف على أنه «يهودي» إما من قبل ذاته أو من قبل الآخرين ، ومن ثم تصبح يهوديته إما شيئاً مفروضاً عليه من الخارج أو ادعاء ليس له ما يسانده لا في سلوكه ولا رؤيته .

١- وإذا كان «اليهودي غير اليهودي» قد صُنّف يهودياً رغم أنه (وهذا ما كان يحدث في العالم الغربي حتى الحرب العالمية الثانية) ، فهو عادة لا يكثر بجوانب سلوكه أو شخصيته التي يسميها الآخرون «يهودية» ، بل يحاول قدر استطاعته أن يبين أنها هامشية ويُحس بالاستياء إن أصر الآخر على مركزية انتماؤه اليهودي .

٢- يمكن أن نُصنّف اليهود الخفيين (بالإنجليزية : إنفيذيبيل جوز invisible Jews) ضمن هؤلاء ، ففي أثناء الحرب العالمية الثانية أثر الكثير من اليهود أن يخفوا هويتهم خوفاً من الاضطهاد النازي ، كما أن الفاتيكان أعطى الألوف شهادات تعمد لتسهيل لهم عملية الهجرة

في ثورة ١٨٤٨ وسُجِن لمدة ستة أشهر . وتأثر لاسال بماركر ودارت بينهما مراسلات عديدة . إلا أن رؤاهما تباعدت في كثير من الأمور ، فتبنّى لاسال نهجاً إصلاحياً ونادى بحق الاقتراع العام وبالملكية الدستورية كما أيد القومية ورفض اعتبار الحركة القومية السلافية في روسيا معادية للثورة .

وقد أسس لاسال عام ١٨٦٣ الجمعية العامة للعمال الألمان والتي تطورت فيما بعد لتصبح الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني . وكانت زعامته لهذه الجمعية ومعاداته للحركة الليبرالية أحد أسباب التقارب بينه وبين بسمارك الذي كان أيضاً معادياً لليبراليين . وقد أدت هذه العلاقة إلى اتهام لاسال بخيانة الطبقة العاملة وبالانتهازية السياسية .

وبرغم اهتمام لاسال في شبابه بالعقيدة اليهودية ، وخصوصاً اليهودية الإصلاحية ، إلا أنه رفضها فيما بعد واعتبرها مرحلة ضرورية في التطور الإنساني في الماضي ، ولكنها لا تُعتبر ذات قيمة أو نفع في الوقت الحاضر ، وكان في رأيه هذا متأثراً بهيجل . كما أشار لاسال أنه لا يعتبر نفسه يهودياً ، ولا يرى في اليهودية سوى البقايا الفاسدة لماضٍ عظيم غابر ، وأن اليهود بعد قرون من العبودية اكتسبوا خصائص العبيد . وقد لقي لاسال مصرعه في مبارزة دفاعاً عن شرفه حين رفضت أسرة خطيبته الكاثوليكية قبوله زوجاً لها بسبب أصوله اليهودية وماضيه الثوري .

كورت إيسنر (١٨٦٧-١٩١٩)

Kurt Eisner

زعيم اشتراكي ألماني يهودي ومؤسس الجمهورية البافارية وأول رئيس وزراء لها . وُلد في برلين لأب ثري يعمل بالتجارة ، واشتغل في الصحافة فساهم في تحرير عدد من الصحف الألمانية . وأظهر كورت إيسنر اهتماماً شديداً بالفلسفة فدرس مع هرمان كوهين وله دراسة عن نيته . وفي عام ١٩١٠ ، أصدر جريدة نالت شعبية كبيرة . ومع اندلاع الحرب العالمية ، عارض بشدة الأطماع الإمبريالية للحكومة الألمانية وسياستها الحربية . وفي عام ١٩١٨ ، حُكِمَ وسُجِن بتهمة الخيانة بعد مشاركته في إضراب عمالي مطالباً بالسلام في ميونيخ ، وقد أُفْرِج عنه بعد عدة أشهر فقام بترشيح نفسه عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل في الانتخابات البرلمانية . وفي نوفمبر من العام نفسه ، ترعّم كورت إيسنر الانتفاضة الثورية التي جرت في ميونيخ ثم اختير رئيساً لمجلس الوزراء في الجمهورية البافارية الجديدة . ولكي يفصح مسئولية الحكومة الألمانية عن

ويتناول أهم أعمال ستاهل الذي نُشر عام ١٨٢٩ فلسفة القانون ، حيث ينكر في هذا العمل كل العقائد العقلانية وينادي بأن أساس القانون والسياسة هو الوحي المسيحي وأن العرش الزماني لا بد من ربطه بالعرش السماوي ، أي مُلك الإنسان بملك الإله ، كما ينادي بتجنيد الجماهير ضد الليبرالية والديموقراطية .

وباعتباره قائداً للحزب المحافظ ، كان ستاهل مسئولاً عن صياغة برنامج سياسي الذي يُسمّى برنامج تيفولي ، والذي كان ينادي بعدم إعتاق اليهود . وكان ستاهل يؤكد دائماً أن اليهودية متدنية أخلاقياً بالقياس إلى الفولك (الشعب العضوي) الألماني . وقد تأثر بسمارك والمؤرخ الألماني تريتسكه بأفكار ستاهل الذي يعدّه بعض المؤرخين المنظر الحقيقي للفكر المحافظ الرجعي الألماني .

وُلد ستاهل ونشأ يهودياً أرثوذكسياً في مقاطعة كاثوليكية ، وتصرّف ودخل الكنيسة اللوثرية البروسية وأصبح أحد قادتها ومن قادة الحزب المحافظ ، وأخذ موقفاً معادياً تماماً لليهود لا من قبيل الانتهازية وإنما انطلاقاً من رؤية محافظة ساهم في صياغتها . ومع هذا ، كان المعادون لليهود يشيرون إليه وإلى غيره من المفكرين من أصل يهودي بوصفهم يهوداً ، الأمر الذي يبيّن مدى سذاجة مثل هذه التصنيفات ومدى عدم جدوى الإصرار على أن المفكر من أصل يهودي يظل بصورة حتمية يهودياً مهما تغيرت آراؤه ومواقفه وأفعاله . فمثل هذا الإصرار يؤدي إلى تكوين صورة عن المفكر لا علاقة لها ببنية فكره أو بمواقفه المتغيّنة . وقد يكون من التعسف إنكار أن أصول المفكر اليهودية ترك أثرها في فكره ، ولكن لا يمكن ، بأية حال ، رد فكره بقضه وقضيضه إلى أصوله اليهودية .

فرديناند لاسال (١٨٢٥-١٨٦٤)

Ferdinand Lassalle

زعيم وفيلسوف اشتراكي ألماني يهودي . وُلد في براسلاو لتاجر ثري ، وانضم إلى الحركة اليهودية الإصلاحية وأصبح من أشد المؤمنين بها . وقد درس لاسال في جامعتي براسلاو وبرلين ، وتأثر بكتابات هيجل ، وانضم لفترة قصيرة لحركة الشباب الهيجلي وعمل على استخدام اليهودية الإصلاحية لضرب اليهودية الأرثوذكسية . وخلال الفترة ١٨٤٣ - ١٨٤٥ ، طوّر لاسال مفهومه حول الاشتراكية الديمقراطية والصناعة التي تستند إلى حكم القانون . وفي عام ١٨٤٥ ، انتقل إلى باريس حيث التقى بالشاعر هايتي ، وتوطدت علاقتهما برغم خلافاتهما العميقة اللاحقة . وقد اشترك

الحرب ، قام بالكشف عما جاء في تقارير الحكومة البافارية وسفارتها في برلين . وقد أدَّى ذلك إلى اتهامه من قبل أعدائه بالتعاون مع دول الحلفاء وتلقّي الرشاوى منهم لإشعال الثورة في ميونيخ . وفي عام ١٩١٩ ، اغتيل كورت إيسنر وهو في طريقه إلى البرلمان لكي يقدم استقالة حكومته بعد أن أحرز حزبه (الحزب الاشتراكي المستقل) نتائج ضعيفة في الانتخابات ، وكان قاتله من أصل يهودي . وما يُذكر أن إيسنر نفسه كان ملحداً ، أي يهودياً غير يهودي . ومع هذا ، استفادت الدعاية النازية المعادية لليهود من وجود إيسنر وغيره في صفوف الحركة الاشتراكية لتتحدث عن المؤامرة اليهودية ضد الشعب الألماني .

استولت عليها كلٌّ من تشيكوسلوفاكيا ورومانيا . ولكن الضربات بدأت تتوالى بعد ذلك ، فامتنع الفلاحون عن تزويد المدن بالمحاصيل الزراعية بعدما رفض بيلا كون توزيع الأرض عليهم بعد أن أممها ، وتحالف ملاك الأراضي والطبقة الوسطى ضد تأميم الملكية وضد الإجراءات الثورية المختلفة (مثل تقويض دعائم الثقافة القومية وإقامة محاكم ثورية) وضد سوء سلوك البيروقراطية الثورية . وعلى مستوى الجبهة الخارجية ، طالبه كمنصو بسحب قواته . وانهارت شبكة توزيع الطعام تماماً . ورفض الجيش أن يحارب ضد الرومانيين مما أدَّى إلى هزيمته . فغزى أغسطس من العام نفسه إلى النمسا (حيث سُجن ووضع في مصحة عقنية بعض الوقت) ومنها ذهب إلى موسكو حيث عُيِّن قوميساراً سياسياً للجيش الأحمر في الجنوب ، ثم عُيِّن قوميساراً مدنياً نشبه جزيرة القرم حيث تعامل بصرامة بالغة مع العناصر المعارضة لنبلاشفة . وقد كان بيلا كون عضواً في المجلس التنفيذي للكونمترن حيث ساهم في تشجيع النشاط الشيوعي العلني في ألمانيا والنشاط السري في المجر . ويدو أنه عارض في عام ١٩٣٧ سياسة الجبهة المتحدة وطالب باتباع الطرق الثورية على طريقة نيبلاشفة الأصليين . فقدمَ لنمحاكمة وأتهم بالتروتسكية وسُجن . ويُقال إنه أُعدم (ولكن الأرجح أنه كان مصاباً بالسكر ، فأفرج عنه وعُيِّن عن أخيه العامة) . وبيلا كون مؤنثات عديدة عن الشيوعية . كما أنه كتب عدة مقالات أثناء إقامته في فيينا ، وحرَّر إحدى المجلات الشيوعية أثناء بقمته في موسكو ، وعُيِّن مديراً لإحدى دور النشر أثناء وجوده في موسكو .

وبيلا كون ليست له أهمية تُذكر من منظور يهودي ، لأنه كما أسلفنا فقد انتمى الدين والاثني (مثل كثيرين من يهود المجر) - فهو ، إذن ، يهودي غير يهودي . ونفهم سلوكه : لابد من فهم حركات التاريخ الغربي والحرارة الثورية فيها وكذلك موازين القوى بين الدون المختلفة وتصورات الفكر السياسي السوفيتي . أما يهوديته ، فهي لا تمثل سوى دور ثانوي للغاية . وقد قدّمنا سيرته هنا لا باعتباره يهودياً وإنما باعتباره نموذجاً منظرراً لشخص يُصنّف بوصفه يهودياً مع أن سلوكه لا يمكن تفسيره إلا بالعودة للحركات الاجتماعية العامة .

ماتياس راكوسي (١٨٩٢-١٩٧١)

Matyas Rakosi

سياسي وزعيم مجري شيوعي يهودي درس في بودابست ثم اشتغل كاتباً في بنك . وعاش لفترة قصيرة في إنجلترا حيث انضم إلى

مؤسس الحزب الشيوعي المجري ، وأحد أهم الزعماء الشيوعيين . وُلد لأسرة يهودية من الطبقة الوسطى إذ كان أبوه من صغار التجار ، ولكنه كان علمانياً تماماً ولا علاقة له باليهودية . وانضم إلى الحزب الديموقراطي الاشتراكي وهو بعد في السادسة عشرة من عمره . فعمل صحفياً في جريدة الحزب وكاتباً في الحزب ومديراً في قسم التأمينات الخاص بالحزب ثم نُصِّل لسوء سلوكه . انضم للجيش وكان يعمل ضابطاً برتبة ملازم في جيوش الإمبراطورية النمساوية المجرية فأسّرت القوات الروسية عام ١٩١٦ . وحين نشبت الثورة ، انضم إلى البلاشفة وأصبح تابعاً متحمساً للينين وقام بتجنيد الأسرى لصالح الحركة الثورية .

عاد بيلا كون إلى المجر عام ١٩١٨ وساهم في تأسيس الحزب الشيوعي المجري وجريدته وكتب العديد من الكتيبات الثورية ، واشترك في الثورة التي أتت بالحزب الديموقراطي الاشتراكي والحزب الراديكالي للحكم . وقد حاول بيلا كون أن يطيح بالنظام الحاكم ولكنه سُجن في فبراير ١٩١٩ . ثم أُفرج عنه في ٢١ مارس ١٩١٩ وهو اليوم نفسه الذي أعلنت فيه المجر جمهورية سوفيتية ، فُعِيّن قوميساراً للشئون الخارجية والعسكرية وأصبح القائد الحقيقي للوزارة والدولة . وكانت الوزارة (التي كان ثلثا أعضائها من اليهود) عبارة عن ائتلاف من الاشتراكيين والبلاشفة ، فعمل بيلا كون على القضاء على العناصر المعتدلة وأعلن ديكتاتورية البروليتاريا ، وأُمّ البنوك ورؤوس الأموال الكبيرة والممتلكات الزراعية الكبيرة . وقد نجح بيلا كون في بادئ الأمر إذ كوّن جيشاً شيوعياً أحمر قوياً صد هجوم التشيك والرومانيين واستعاد الأراضي المجرية التي كانت قد

بيلا كون (١٨٨٦-١٩٣٥)

Bela Kun

ادعاء اليهودية

Claiming Jewishness

«ادعاء اليهودية» هو أن يدعي شخص غير يهودي ، وليست له أية جذور يهودية على الإطلاق ، أنه يهودي . والمصطلح نفسه ينطبق على يهودي مندمج تماماً (يهودي غير يهودي) نسي يهوديته ، ولكنه تحت ظروف معينة يدعي أنه يهودي . وهذه الظاهرة ظاهرة حديثة تماماً ، فبعد التاريخ كان «التهود» يعني الانضمام لأقلية لها طقوسها وشعائرها ووظائفها التي تعزلها عن المجتمع ، والتي لها وضع مختلف عن وضع الأغلبية ، ولذا لم يكن هناك أي مبرر لادعاء اليهودية .

وقد ظل الوضع كذلك إلى أن ظهرت الحركة الصهيونية وأقيمت دولة إسرائيل التي فتحت أبوابها للمهاجرين (بخاصة من الدول الغربية) وقدمت لهم هي والحركة الصهيونية تسهيلات مادية وعينية مختلفة ومنحاً مالية مباشرة . وقد شجع هذا بعض العناصر اليهودية ممن فقدوا علاقاتهم باليهودية على إعادة اكتشاف هذه العلاقة حتى يمكنهم عن طريقها تحقيق المزايا المادية . ولكن الظاهرة ظلت هامشية إلى حد كبير .

ومع هجرة اليهود السوفييت في بداية التسعينيات (والتي تزامنت مع تآكل الاتحاد السوفيتي ثم سقوطه) ، تفاقمت الظاهرة حتى أن كثيراً من «اليهود المتخفين» ، أي المواطنين السوفييت من أصل يهودي ، الذين سجلوا أنفسهم على أنهم غير يهود (وهو أمر كان يسمح به القانون السوفيتي) ، بدأوا يؤكدون هويتهم اليهودية المزعومة ، وانضمت لهم بأعداد متزايدة عناصر غير يهودية على الإطلاق (من بينها عناصر مسيحية بل ومسلمة) . ويُقال إن ما بين نصف أو ثلث المهاجرين اليهود السوفييت في التسعينيات غير يهود (مدعو اليهودية أو زوجات وأزواج غير يهود) .

ولا يقتصر الأمر على الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، فمن المعروف أن عدد اليهود في مدينة مكسيكو سيتي كان يبلغ حوالي عشرة آلاف ثم قفز إلى ٣٥ ألفاً في عام واحد بعد أن بدأت بعض المنظمات اليهودية الأمريكية تقديم العون للجماعة اليهودية في المكسيك .

وقد تكررت الظاهرة مرة أخرى في إثيوبيا ، فالفلاشاه ليسوا يهوداً بالمعنى الحاخامي ، ومع هذا سُمح لهم بالهجرة إلى إسرائيل . ثم بدأ الفلاشاه موراها بالمطالبة بالهجرة باعتبارهم يهوداً ، مع أنهم فلاشاه تنصروا منذ قرنين من الزمان .

ويرى الإسرائيليون أن العبرانيين السود أو اليهود السود (من الولايات المتحدة) مدعو اليهودية . وفي الأعوام الأخيرة ، بدأت

الحركة الاشتراكية . وخلال الحرب العالمية الأولى ، قاتل في صفوف الجيش النمساوي المجري ولكنه وقع في أسر القوات الروسية عام ١٩١٥ وأمضى عاماً في معسكر لأسرى الحرب .

وبعد اندلاع الثورة البلشفية انضم للحزب الشيوعي وعاد عام ١٩١٩ إلى المجر مع الحكم الجمهوري السوفيتي الجديد بها تحت قيادة بيلاكون . وبعد سقوطه في العام نفسه ، هرب إلى الاتحاد السوفيتي . وفي عام ١٩٢٤ ، عاد إلى المجر سراً لتنظيم وإحياء الحزب الشيوعي المحظور ولكنه وقع في أيدي السلطات وحُكم عليه بالإعدام . وكان لتدخل بعض المفكرين الأوربيين البارزين لصالحه الفضل في تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياة .

وفي عام ١٩٤٠ ، تم الإفراج عنه وانتقل إلى موسكو حيث تزعم المنفيين المجريين . وفي عام ١٩٤٤ ، عاد إلى المجر حيث عمل على إعادة تنظيم الحزب الشيوعي المجري . كما تولى في الفترة ما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٨ منصب نائب رئيس الحكومة الائتلافية . وقد نجح خلال هذه الفترة في إخراج العناصر غير الشيوعية من الائتلاف الحاكم ، وعمل بعد ذلك على إبعاد وإسكات جميع التيارات والاتجاهات المعارضة للحكم حتى بين صفوف الشيوعيين . وقد تولى عام ١٩٥٢ رئاسة الوزراء ، وتبنى سياسة ستالينية صارمة . وبعد وفاة ستالين ، تعرض لانتقادات حادة من جانب القيادة السوفيتية الجديدة ، خصوصاً بسبب فشل سياسته الاقتصادية ، الأمر الذي دفعه للاستقالة عام ١٩٥٣ ، ولكنه عاد مرة أخرى لرئاسة الوزراء عام ١٩٥٥ واستمر في ذلك حتى عام ١٩٥٦ حينما استقال قبل اندلاع أحداث الانتفاضة المجرية بفترة قصيرة . وقد اضطر راكوسي إلى الفرار مرة أخرى إلى الاتحاد السوفيتي في أعقاب هذه الأحداث ولم يعد إلى المجر حتى بعد قمع الانتفاضة إلا قبل وفاته بقليل . وقد طرد من الحزب الشيوعي عام ١٩٦٢ .

لم يُبد راكوسي أي اهتمام بالشئون اليهودية ، بل وحاول إخفاء أصله اليهودي ، كما أنه كان مناهضاً للصهيونية ، وقدم الكثير من الصهاينة للمحاكمة ، فهو إذن «يهودي غير يهودي» على حد تعبير إسحق دويتشر . وقد لعب هؤلاء اليهود غير اليهود دوراً كبيراً في نشر الشيوعية في شرق أوروبا وفي حكوماتها الشيوعية بعد ذلك . وقد تأثر كثير من أعضاء الجماعة اليهودية في المجر تأثراً سلبياً من سياسات راكوسي الاقتصادية التي أدت إلى تأميم المؤسسات التجارية الخاصة وإلى نقل آلاف السكان خارج العاصمة وغيرها من المدن الكبيرة . ولكنه ، مع هذا ، ظل يُصنّف على أنه «يهودي» .

جماعات غير متجانسة تنتمي إلى تشكيلات حضارية مختلفة ويربطها رباط الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية (وهذا ما سماه أبراهام ليون «الطبقة/ الأمة»). ومن أسباب تدعيم العزلة ، أيضاً ، التصور المسيحي لهم باعتبارهم قتل المسيح والشعب الشاهد (على عظمة الكنيسة وصدقها) . وقد تبدت كل هذا في شكل استيطان وتوطن اليهود في الجيتو . وهذه بالطبع صورة نمطية مثالية تختلف كثيراً عن الواقع احي الذي كان أكثر تمازجاً وتركيباً .

وقد ظل هذا الوضع قائماً في أوروبا ، بصور مختلفة ، حتى القرن السابع عشر ، حين بدأت تظهر الطبقات البورجوازية المحلية (المسيحية) ثم الدول المتلفة وورثتها الدولة القومية الحديثة التي بدأت تضطلع بكل وظائف الجماعات الوظيفية ، وهو ما أدى إلى الاستغناء عنها ، وانهار الهيكل القانوني والسياسي الذي كان يجسد عملية الفصل بين الطبقات من ناحية ، والجماعات الدينية والإثنية التي كانت تدار على أساسها الدولة في المجتمع التقني من الناحية الأخرى . وقد طالبت الدولة القومية الحديثة أعظم الجماعات اليهودية وكل الأقليات بالانخراط من خصوصيته الدينية أو الإثنية أو العرقية ، وبأن يقوموا بإعادة تعريف هويتهم بشكل يتفق مع ما تتطلبه من ولاء قومي كامل من كل المواطنين . وحوالت تخليصهم من تمايزهم الوظيفي والاقتصادي . وهذه عملية يمكن أن نطلق عليها مصطلح «تحديث الهوية» أو «عسنة الهوية» . وتتم هذه العملية وتكتمل حينما يتحول أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية وسيطة إلى أعضاء في الطبقة الوسطى ، أو أي من الطبقات الأخرى في المجتمع .

ومن منظور التحديث ، يمكننا أن نقول إن هويتين يهوديتين أساسيتين ظهرت في التشكيل الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر ، أولاهما ، الهوية اليهودية في مجتمعات غرب أوروبا ووسطها ، في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وفي ألمانيا بدرجة أقل ، ثم في الولايات المتحدة ، وهي مجتمعات تسم بأنها لم تكن تضم أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعات وبأن عملية التحديث نجحت فيها إلى حد كبير ، وتم إعتاق أعضاء الجماعات وإعطائهم حقوقهم السياسية والمدنية ، كما تم دمجهم في المجتمع اقتصادياً وثقافياً ، حيث أصبح الاندماج هو النشأ الأعلى . وقد نشأت ، في هذا الإطار الاندماجي ، اليهودية الإصلاحية التي فصلت الهوية الدينية عن الهوية القومية أو الإثنية تماماً ، وعرفت الهوية اليهودية تعريفاً دينياً خالصاً . وقد أنجزت اليهودية الأرثوذكسية أمراً مماثلاً بأن جعلت هوية اليهودي مسألة دينية أساساً ، وجعلت تحقيق الجانب القومي من

الظاهرة تأخذ شكلاً حاداً إذ بدأ أفراد بعض القبائل في آسيا وأفريقيا يعلنون أنهم «يهود» (من نسل القبائل العبرانية العشر المفقودة) ومن ثم يحق لهم الهجرة إلى إسرائيل بمقتضى قانون العودة . وبعض هذه القبائل توجت في شعارها بالفعل عناصر عبرية أو يهودية ، ولكنها لا تجعل عقيدتهم عقيدة يهودية (بأقصى المعايير تسامحاً بل ونسبية) ومن ثم لا يمكن تصنيف أعضائها على أنهم يهود . ولكن معظم أعضاء الجماعات اليهودية لا يعترفون بمعيارية اليهودية الخاخامية . وقد عرفت المحكمة الإسرائيلية العليا اليهودي بأنه من يرى نفسه كذلك . وهذا يخلق ورطة حقيقية للمستوطن الصهيوني . ولذلك ، فقد تعالت الأصوات ولأول مرة في تاريخ الصهيونية مطالبة بإلغاء قانون العودة .

أغيار يتحدثون العبرية

Hebrew-Speaking Gentiles

«أغيار يتحدثون العبرية» مصطلح صكه عالم الاجتماع الفرنسي (اليهودي) جورج فريدمان في كتابه موت الشعب اليهودي ويستخدمه للإشارة إلى جيل الصابرا الإسرائيلي ، فهم من وجهة نظره يختلفون تماماً عن يهود العالم (يهود المنفى) ، وهويتهم لا علاقة لها بما يسمى «الهوية اليهودية» . ولذا ، فهم ليسوا يهوداً وإنما أغيار وحسب ، حتى وإن كانوا يتحدثون العبرية . والمصطلح تعبير عن إشكالية الهوية أو الهويات اليهودية .

أعضاء الجماعات اليهودية وقضية الهوية القومية

Members of Jewish Communities and the Issue of National Identity

ما يُقال له «المسألة اليهودية» هو ، في جانب أساسي منه ، مشكلة «الهوية اليهودية» في التشكيل الحضاري الغربي . وتعود جذورها إلى العصور الوسطى في الغرب إذ أن أعضاء الجماعات اليهودية لعبوا هناك دور الجماعة الوظيفية الوسيطة كتجار ومرايين ، الأمر الذي أدى إلى عزلهم عن بقية أعضاء المجتمع . وبما دعم هذه العزلة ، علاقات الجماعة الوظيفية اليهودية (في كل بلد أو مدينة أوروبية) مع الجماعات الوظيفية اليهودية الأخرى في أنحاء العالم الغربي والإسلامي ، وهي علاقات كانت تشكل ما يشبه النظام المصرفي والائتماني العالمي . وقد خلقت هذه العلاقات وهم الوحدة ، بحيث كان المراقب الخارجي يتصور أن اليهود يشكلون وحدة قومية بسبب علاقاتهم التجارية والمالية ، وهم في الواقع

كان هناك تصوران آخران هما اللذان قُدِّرَ لهما الشيع في صفور يهود شرق أوروبا .

(أ) قومية الدياسبورا :

حاول دعاة قومية الدياسبورا (سيمون دينوف ، وحزب البوند) ، المتأثرون بتجربة يهود شرق أوروبا وتراثهم ، أن يعرفوا الهوية اليهودية تعريفاً ثقافياً أو تراثياً وحسب ، بإسقاط الجانب الديني تماماً ، إذ رأوا أن الهوية اليهودية هي أساساً انتماء إلى التراث الثقافي اليهودي . كما لم يربطوا هذا التراث بفلسطين أو بأي مركز محدد آخر ، فهم يرون أن مركز اليهودية الثقافي ينتقل من بلد إلى آخر . كما أنهم يرفضون أي إطار عالمي لليهودية ، ولا يعترفون بوجود ثقافة يهودية عالمية ، ويرون أن كل جماعة يهودية مرتبطة بحركات تاريخية مختلفة ولها هوية مختلفة وتراث يهودي مختلف ، ولذا فإن كل جماعة تبحث عن حلول لمسألتها داخل حدود تاريخها الخاص والمتعّين وخارج أية رؤية تاريخية عالمية . ولهذا ، يمكن القول بأنهم لا يتحدثون في واقع الأمر عن «قومية الدياسبورا» (كما يتوهمون) ، وإنما عن هوية يهودية شرق أوروبية (يديشية) متفاعلة مع التشكيل الحضاري الذي توجّد فيه . وانطلاقاً من تلك الرؤية ، يرى دعاة قومية الدياسبورا أن اللغة التي تُعبّر عن هذه الهوية اليهودية ليست العبرية (اللغة الدينية العالمية لليهود) ، وإنما اليديشية .

وحينما استأنفت الثورة البلشفية عملية التحديث في روسيا ، ناصبت حزب البوند العداء لأسباب سياسية في البداية ، كما رفضت تصوّره للهوية اليهودية المحدودة الشرق أوروبية ، ولكنها عادت في الثلاثينيات واعترفت بها وبلغتها المستقلة وبشخصيتها الثقافية المستقلة التي يمكن أن تتحقق داخل الإطار السوفيتي . وانطلاقاً من ذلك ، حددت مقاطعة بيريوبيجان ، كمقاطعة مستقلة ، لغتها الرسمية اليديشية . وكان بإمكان هذه المقاطعة ، من الناحية النظرية ، أن تتحوّل إلى جمهورية مستقلة (داخل اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية) لو هاجر إليها عدد كاف من اليهود . وقد ظلت الهوية اليديشية مزدهرة في الفجوة الزمنية بين تعثّر التحديث واستئنافه في الاتحاد السوفيتي وبين هجرة يهود شرق أوروبا إلى الولايات المتحدة واندماجهم فيها ، وهي تقع على وجه التقريب بين بداية القرن الحالي وأواخر الأربعينيات . ولكن مع تصاعّد معدلات التحديث والعلمنة بدأت الهوية اليديشية في التآكل السريع ، وساهم النازيون في القضاء على البقية الباقية من هذه الهوية ، ومع الستينيات لم يَعد للهوية اليديشية من أثر في العالم .

العقيدة اليهودية مرتبطة بالإرادة الإلهية ، وهو كما تقدّم الحل التقليدي الذي طرّحه اليهودية الحاخامية للإشكالية المسيحانية . وقد اندمج يهود هذه المجتمعات اندماجاً كاملاً ، وكانوا يتحدثون الفرنسية في فرنسا والإنجليزية في كلٍّ من إنجلترا والولايات المتحدة . والهوية اليهودية في ألمانيا ، وفي كثير من بلاد وسط أوروبا ، تنتمي إلى النمط نفسه رغم اختلاف الظروف ، ولا يمكن فهم هوية الجماعات اليهودية في هذه البلاد إلا في السياق الحضاري لكلٍّ منها . وبالتدرّج تراجع البُعد الديني مع تصاعّد معدلات العلمنة فأعيد تعريف الهوية اليهودية على أساس إثني علماني ولكن البُعد اليهودي (الإثني والديني) ظل هامشياً للغاية . ولذلك ، تأخذ التطلعات القومية اليهودية ليهود الغرب ، إذا وُجدت ، شكل حنين ديني للعودة إلى صهيون (الروحانية) إن كان اليهود من المتدينين . أما إذا كانوا من العلمانيين ، فإنها تأخذ شكل حماس عاطفي لهويتهم الإثنية ، لا يترجم نفسه أبداً إلى هجرة استيطانية وإنما يأخذ شكل صهيونية توطينية ، أي ينصرف إلى توطين اليهود الآخرين حتى يحموا مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية . وهذه هي هوية ما بعد الانعتاق أو الهوية اليهودية بعد تحديثها أو الهوية اليهودية الجديدة .

أما الهوية اليهودية الثانية ، فقد نشأت في مجتمعات شرق أوروبا بين يهود اليديشية ، خصوصاً في بولندا وروسيا . وهذه مجتمعات دخلت العصر الحديث متأخرة وسادت فيها (في القرن التاسع عشر) ظروف تشبه الظروف السائدة في العالم الثالث في الوقت الحاضر ، إذ تعثّر فيها التحديث لسنوات طويلة ابتداءً من عام ١٨٨٢ ، كما أنها كانت تضم أعداداً ضخمة من أعضاء الجماعات اليهودية ، بل معظم يهود العالم . وكان أعضاء الجماعات اليهودية في هذه المجتمعات يتحدثون اليديشية في محيط سلافي ، ويؤمنون باليهودية في محيط مسيحي أرثوذكسي محافظ . كما أن روسيا كانت تأخذ شكل إمبراطورية مكوّنة من قوميات لكل منها لغتها وثقافتها . ولذا ، لم يكن اليهود ، كتجمّع له ثقافته ولغته ، يمثل استثناءً كبيراً . وقد بُذلت محاولات ، في نهاية القرن التاسع عشر ، لصنع اليهود ، وغيرهم من الجماعات ، بالصيغة الروسية أو النيولندية . ولكن ، مع تعثّر التحديث ، توقفت هذه المحاولات .

وداخل هذا الإطار ، وفي هذه المرحلة (أواخر القرن التاسع عشر) طُرحت في شرق أوروبا عدة تصورات للهوية اليهودية تستند إلى تجربة أعضاء الجماعات اليهودية في تلك المنطقة . فكان هناك التصور الاندماجي الذي يشبه تصوّر يهود الغرب للهوية . ولكن ،

(ب) الحل الصهيوني :

حاول الصهاينة العلمانيون ، أو اللادينيون ، إعادة تعريف الهوية اليهودية تعريفاً يؤكد الجانب القومي ولا يُعنى بالجانب الديني إلا بمقدار تبديره عما يُسمى «القومية اليهودية» . وقد أسس هؤلاء مجتمعهم الصهيوني استناداً إلى هذه الرؤية . ومع هذا ، ظهرت داخل الحركة الصهيونية جماعات من الصهاينة المتدينين الذين يرون أن الدين اليهودي والقومية اليهودية هما شيء واحد ، وأن الهوية اليهودية هوية قومية دينية ، الأمر الذي أدى إلى تصعيد التفجرات داخل الكيان الصهيوني .

التعاريف الصهيونية للهويات اليهودية

Zionist Definitions of Jewish Identities

تُعَدُّ الصهيونية ، في أحد جوانبها ، محاولة لإعادة تعريف اليهود تعريفاً يتفق مع وضعهم الجديد في الغرب بعد ظهور الدولة القومية العلمانية وعصر الإعتاق وسقوط الجيتو . وهي ، من هذا المنظور ، واحدة من كثير من المحاولات اليهودية الأخرى ، مثل : اليهودية الإصلاحية ، واليهودية الأرثوذكسية ، وقومية الدياسبورا . وينطلق الصهاينة اللادينيون من تعريف للهوية هو في جوهره علمنة لكثير من الأفكار القومية الكامنة في التراث الديني اليهودي . فهم يرون أن ثمة هوية قومية يهودية واحدة متميزة متجانسة تفرق بين اليهود وسواهم من أقوام وشعوب في كل زمان ومكان ، وأن ثمة مصدرين لها . أما المصدر الأول ، فهو الضغوط من الخارج ، أي أن مصدر الهوية اليهودية ليس من داخل اليهودية ذاتها وإنما هو مجرد رد فعل لهجمات أعداء اليهود عليهم ، باعتبار أن اليهود جسم قومي غريب في أوطان الآخرين . ومن جهة أخرى يرى بعض الصهاينة المتأثرين بالخطاب الاشتراكي أن مصدر الهوية اليهودية هو الوضع الطبقي المتميز لليهود في المجتمع الغربي كجماعة وظيفية وسيطة . واليهودي ، بحسب الرؤية السابقة ، يكتسب هويته من الغير ، وهو تعريف أخذ به معظم الصهاينة الأوائل مثل : تيودور هرتزل ، وماكس نورود ، وأهارون جوردون ، وغيرهم . ويبدو أن هذا كان الاتجاه السائد في أوروبا . فعلى سبيل المثال ، صرح كارل ليبوچر (المرشح المعادي لليهود لمنصب عمدة فيينا) بأنه هو الذي يحدد من هو اليهودي .

لكن معظم الاتجاهات الصهيونية لا تأخذ بهذا الرأي الآن ، وتطرح تصوراً للهوية اليهودية على اعتبار أنها شيء تابع من مصدر آخر هو حركات ما يُسمى «التاريخ اليهودي» المرتبط بفلسطين

(إرتس يسرائيل في الخطاب ائديني) . وهذا المجال الزماني المكاني هو المجال الوحيد الذي تستطيع فيه هذه الهوية أن تُعبر عن نفسها تعبيراً كاملاً ، مثلما حدث تحت حكم المملكة العبرانية المتحدة (أو الكومنولث الأول) وحكم الدولة الخشمونية (أو الكومنولث الثاني) ، إلى أن تم هدم الهيكل .

ويرى الصهاينة أن هويات يهود المنفى المتدمجين ليست إلا انحرافاً عن مسار هذا التاريخ . ولذا ، فهم ينطلقون في تعريفهم الهوية اليهودية «الحقة» من انتقاد جذري لهذه الهويات ، مستخدمين كثيراً من أطروحات أدبيات معاداة اليهود . فاليهود المتدمجون شخصيات مريضة مصابة بالازدواج والانقسام ، مشوهة وهامشية ، وهم يحاولون إخفاء هويتهم اليهودية الحقة المتأصلة ويذلون قصارى جهدهم في إظهار هويتهم غير اليهودية المكتسبة والإعلان عنها بشكل مُفَرَّز ، الأمر الذي يجعلهم يشبهون القردة التي تقلد ما لا تعي . وسُئِلَ كل هذه الأوضاع الشاذة حاناً يؤسس الصهاينة وطناً قومياً تمكن الشخصية اليهودية من خلاله التعبير عن نفسها بشكل سوي تعبيراً كاملاً . بحيث يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب . وسيحقق اليهود من خلال الدولة ، ويوصفهم شعباً ، ما فشلوا في تحقيقه بوصفهم أعضاء في مجتمعاتهم . وهذا ما يُسمى في المصطلح الصهيوني «تطبيع الشخصية اليهودية» . وبحسب الرؤية الصهيونية ، فقد بدأت هذه العملية بالفعل في عام ١٩٤٨ - عام إعلان الدولة الصهيونية (الكومنولث الثالث) . لكن تطبيع اليهود لا يعني تصفية الهوية اليهودية وإنما يعني منحهم هوية يهودية جديدة سوية : هوية اليهودي الخائض (اليهودي مائة بالمئة على حد قول بن جوريون) . وقد طُرحت تصورات عدة تُصدر يهودية هذا اليهودي الخائض ولسماته وجوهره :

١ - التعريف العرقي :

يُصرُّ المدافعون عن هذا التعريف على رؤية اليهود كعنصر عرقي متميز ، ولذا فهم يتحدثون عن «الجنس اليهودي» وعن اليهود باعتبارهم «جنساً متميزاً» . وقد عرّف كثير من الزعماء الصهاينة اليهودية بأنها «مسألة تتعلق بالدم» . وانطلاقاً من ذلك ، يرى الصهاينة أن التزاوج مع الأجانب سيؤدي إلى تدهور العرق اليهودي ، وأنه لا بد من تأسيس وطن قومي (لهذا الجنس الفريد) ودولة مستقلة يُعبر فيها عن عبقريته ويمارس فيها إرادته . ولكن تم التخلي عن هذا التعريف تماماً في هذه الأيام . إذ أن النظريات العرقية لم تُعد مقبولة في الغرب ، خصوصاً بعد أن نجح هتلر في تدمير أعداد كبيرة من اليهود باسم هذه النظريات والاعتذاريات .

غير اليهودي . كما أن ثمة وكالات ومؤسسات صهيونية عديدة يمولها يهود الخارج وتُعد الترجمة الفعلية والمؤسسية لمقولة اليهودي هذه ، فهي مؤسسات تمد يد المساعدة لليهود وحسب ، وتحجبها عن غير اليهود . وأهم هذه المؤسسات الصندوق القومي اليهودي الذي يمتلك معظم أراضي فلسطين المحتلة باسم الشعب اليهودي ، والذي تُحرّم قوانينه بيع هذه الأراضي أو تأجيرها لغير اليهود ، أو حتى استخدامهم للعمل فيها . وبذلك يمكننا أن نقول إن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية هو الأساس النظري للممارسات الصهيونية العنصرية ضد العرب ، بل إن عمليات ضم الأراضي تتم باسم هذه الهوية . وبالفعل ، حذّر الحاخام آرون سولوفاشيك (زعيم اليهودية الأرثوذكسية في الولايات المتحدة) من أن قبول التعريف العلماني لليهودي سيقوي عناصر الضغط على إسرائيل لأن تتنازل عن الأراضي المحتلة وعن أجزاء من القدس وحائط المبكى ، حيث إنها ضمتها باسم الهوية اليهودية وباسم الحقوق التي يتمتع بها اليهود .

الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة

الإسرائيلية

Jewish Identities and the Contradiction Between the Zionist Outlook and Israeli Practice

كانت كل جماعة يهودية تمارس تجربتها التاريخية والدينية بمعزل عن الجماعات الأخرى ، وكانت كل منها تُطوّر هويتها الدينية والإثنية من خلال التشكيل الحضاري الذي توجّد فيه وتتعامل معه وتُسمّي نفسها «يهودية» ، وذلك دون البحث عن خاصية جوهرية ما تربط كل أعضاء الجماعات معاً ، ودون الحاجة إلى تعريف دقيق وعالمي وشامل لليهودي .

وكان الصهاينة اللادينيون ، حتى عام ١٩٤٨ ، يتحدثون بحرية شديدة عن «الشعب اليهودي الواحد» (بالألمانية : أين فولك Ein Volk) ، وبالتالي عن «الهوية اليهودية الواحدة» و«القومية اليهودية» . كما كان الصهاينة المتدينون قانعين بدورهم الثاني في الحركة الصهيونية ، ولكنهم كانوا يتحنون الفرصة ليفرضوا تعريفهم القومي الديني الأرثوذكسي . وقد تم إعلان قيام الدولة الصهيونية لا باعتبارها دولة مستقلة وحسب ، وإنما باعتبارها دولة يهودية ليست مقصورة على مواطنيها ، فهي أيضاً دولة الشعب اليهودي بأسره داخل فلسطين وخارجها . وترى هذه الدولة أن مصدر شرعية وجودها هو يهوديتها ، ومن هنا محورية تعريف الهوية اليهودية ، ومن هنا أيضاً حتمية ظهور التناقضات الكامنة .

٢- التعريف الإثني أو التراثي :

يرى فريق من الصهاينة أن اليهود جماعة مترابطة ذات تاريخ مُشترك منفصل ومحدّد ، وأن ثمة روابط تراثية (وليست عرقية) فريدة بقيت على مدى قرابة أربعة آلاف سنة بين اليهود ، وأن ثمة تماثلاً في أوضاع اليهود الإثنية والتاريخية ، والمختلفة من بلد إلى بلد . وهم يرون أن ما حفظ وحدة اليهود هو الدين اليهودي ، لا من حيث هو عقيدة وإنما من حيث هو إطار رمزي ويُعد أساساً من أبعاد التراث اليهودي . فالدين هو الوعاء الوحيد الذي ضمن الاستمرار والتجانس الإثني . وبناء عليه ، تكون الدولة الصهيونية هي الإطار الأمثل لكي تُعبّر هذه الإثنية عن نفسها .

٣- التعريف الديني :

لم يقبل الصهاينة الدينون التعاريف اللادينية السابقة ، وحاولوا استرجاع قداسة الهوية اليهودية . وهكذا ، فهم يرون أن هوية اليهود القومية مصدرها الدين ، إذ لا يمكن التفرقة بين القومية اليهودية والعقيدة اليهودية . فاليهود أمة مقدّسة وكيان منعزل غريب مقدّس يكتسب هويته من علاقته الخاصة مع الرب ، ومن رسالته الخالدة بين الشعوب الأخرى . والتعريف الديني لا يستبعد العنصر الإثني ، فالهوية اليهودية (بحسب تعريف الشريعة كما تقدّم) ذات أساس ديني إثني . كما أن الهوية اليهودية (كما يُعرّفها الصهاينة المتدينون) لا تحمل معها أية أعباء أخلاقية ، بل تمنح اليهود حقوقهم القومية كاملة دون أية مسئولية تجاه الأغيار . ولذا ، لا يوجد أي تناقض جوهري بين التعريف الإثني اللاديني والتعريف الإثني الديني . ومع هذا ، يظل مصدر الشرعية في كلا التعريفين مختلفاً ، فعصدر الشرعية والقداسة في القول الصهيوني العلماني هو الشعب اليهودي ذاته . أما في القول الديني ، فإن مصدر الشرعية هو الحلول الإلهي في هذا الشعب . وحينما يتحدث المتدينون عن اليهودي ، فإنهم يستخدمون ، كما هو متوقّع ، معياراً أرثوذكسياً .

والتعريف السائد الآن في المُستوطن الصهيوني هو التعريف الصهيوني اللاديني الإثني بالدرجة الأولى ، ويليه التعريف الصهيوني الديني الإثني . ومن الملاحظ أن التعريف الديني أخذ في الشيوع والانتشار منذ نهاية الستينيات . كما أن الصراع بين التيارين يفجر قضية الهوية التي يُشار إليها بسؤال «من هو اليهودي» ؟ .

ومن الضروري أن ننبه إلى أن مقولة الهوية اليهودية في السياق الصهيوني الاستيطاني ليست مجرد مقولة نفسية أو فلسفية أو دينية ، فهي مقولة قانونية تحمل مضموناً سياسياً واقتصادياً محدّداً . فليهودي ، في الدولة الصهيونية ، مزايا وحقوق معينة لا يتمتع بها

نفسه بأنه يهودي ويعلن ذلك بإخلاص دون الحاجة إلى قرارات خارجية . وهو تعريف يخلق من المشاكل أكثر مما يحل .

ولإيضاح هذه النقطة ، يمكن أن نشير إلى العاهرات وتجار الرقيق الأبيض والفقراء من أعضاء الجماعة اليهودية عن تركوا في الأرجنتين ، وكونوا قطاعاً اقتصادياً كبيراً وجماعة ضغط ، وأصبحت لهم مؤسساتهم الخاصة من نواد ومسارح ونظام رفاه اجتماعي . وهذه مسألة مفهومة تماماً في إطار علماني مادي حيث يقوم من لهم مصالح مشتركة بتنظيم أنفسهم . ولكن المشكلة ظهرت حينما أصر هؤلاء المشتغلون بهذه المهنة الشائنة على انتمائهم أو هويتهم اليهودية ، ومن ثم كانت لهم معادهم الخاصة وحاجاتهم الذين يفنون باحتياجاتهم الروحية . بل وكانوا يخرجون في استعراضات أو مواكب في الأعياد الدينية اليهودية ! وغني عن القول أن هذا كان يسبب حرجاً شديداً لأعضاء الجماعة اليهودية . فظلوا يحاربون هذا الجنب الذي يصر على يهوديته حتى نجحوا في انقضاء عليه تماماً . وكل ما تبقى من هذا الجنب هو ملجأ لتبغيا اليهوديات العجائز في بيونس آيرس .

٢ - التناقض بين السفارد والإشكناز :

يمكن القول بأن الصهيونية ، على مستوى الممارسة منذ أول أيامها وحتى عام ١٩٤٨ ، قد عرّفت اليهودي بأنه اليهودي الأبيض (الإشكنازي) . وكانت ، في هذا ، متسقة تماماً مع نفسها . فقد كانت تُقدّم نفسها باعتبار أنها تجربة تتم داخل إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي ، ولذا كان على الصهيونية إثبات بياض بشرة اليهودي حتى يستنى للمستوطنين أن يشاركون في حمل عبء الرجل الأبيض ، ويستفيدوا في الوقت نفسه من الأمن العسكري والدعم الاقتصادي الذي يوفره الغائبون على المشروع الاستعماري ، ويحلوا محل أحد شعوب آسيا وأفريقيا . وقد بذل آرثر روبين ، أحد أهم علماء الاجتماع الصهيونية والمستول عن الاستيطان في فلسطين لفترة طويلة قبل إنشاء الدولة ، جهداً علمياً فائقاً لإثبات أن اليهودي هو الإشكنازي وحده وأن الشرقيين ليسوا يهوداً . وهناك العديد من البيانات والتصرّيات تُعبّر عن هذا الموقف . لكن هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف الصهيونية الأصلي ، فالصهيونية تكتسب شرعيتها من زعمها بأنها حركة الشعب اليهودي بأسره .

٣ - التناقض بين التعاريف الدينية المختلفة :

لا تنحصر المسألة في التناقض بين الدينين والعلمانيين وحسب ، أو بين الإشكناز والسفارد فقط ، وإنما تمتد لتشمل مجال

وقد أصدرت الدولة الصهيونية عدة قوانين تعطي حقوقاً لصاحب الهوية اليهودية . وكان أول هذه القوانين قانون العودة (عام ١٩٥٠) الذي يعطي لأي يهودي الحق ، أينما كان ، في الهجرة إلى إسرائيل (فلسطين المحتلة) ، والاستيطان فيها . ثم صدر عام ١٩٥٢ قانون تكميلي هو قانون المواطنة الإسرائيلية ، والذي يمنح الجنسية الإسرائيلية لكل المهاجرين اليهود . ولكن كلا القانونين لم يُعرّف من هو اليهودي ، وتُركت القضية معلقة . وقانون العودة ليس القانون الوحيد الذي يتطلب تعريف اليهودي ، إذ تتم الإشارة إلى اليهودي في الدولة الصهيونية في سياقين آخرين . فقانون تسجيل المواطنين يتعرض لهذه القضية إذ تتضمن الهوية في إسرائيل البنود المعتادة مثل الجنسية (إسرائيلي) ، والديانة (يهودي أو مسلم أو مسيحي) ، ولكن هناك بنداً ثالثاً خاصاً بالقومية (عربي بالنسبة للعرب المسلمين والمسيحيين ويهودي بالنسبة للإسرائيليين اليهود) . ولا بد أن يتفق البندان الخاصان بالديانة والقومية في حالة الإسرائيليين اليهود باعتبار أن الصهيونية في أحد تعاريفها للهوية تُوحّد بينهما .

أما السياق الثالث الذي تتم الإشارة فيه إلى اليهودي ، فهو المحاكم الحاخامية التي تمارس السلطة المطلقة في أمور الزواج والطلاق . والتعريف الذي تأخذ به هذه المحاكم هو التعريف الديني القومي (الأرثوذكسي) وحسب ، وهو يستبعد أي تعريف آخر . ويمكن أن نتحدث عن عدة تناقضات أساسية ، واجهها الصهاينة في محاولتهم تطبيق المثل الصهيونية ، ولكنهم فضلوا إرجاءها وعدم التعرض لها :

١ - التناقض بين الدينين واللادينين :

التعريف الديني الأرثوذكسي لليهودي أمر معروف أقرته الشريعة اليهودية الحاخامية . أما التعريف القومي (غير الديني) ، فهو مسألة غامضة للغاية ، إذ أن من الصعب تعريف هذه الخاصية القومية الفريدة التي تُميّز هذا الحشد الهائل من الجماعات اليهودية التي تتمتع بهويات متعددة . ومن الصعب كذلك ، بل وربما من المستحيل ، تعريف اليهودي الملحد أو اليهودي الإثني ، أو اليهودي غير اليهودي . وفي نهاية الأمر ، تصبح المسألة مسألة إحساس داخلي غامض يمارسه اليهودي بوجود هذه الخاصية اليهودية داخله . ولذلك ، يشير بعض المعلقين إلى التعريف الديني بأنه تعريف موضوعي ، أي يستند إلى مقاييس خارجية عن الذات ويمكن الاحتكام إليها . أما التعريف العلماني ، فهو تعريف ذاتي يستند إلى حالة شعورية تتفاوت في حدتها وعمقها من شخص إلى آخر . وبالفعل ، تُعرّف الأوساط العلمانية اليهودي بأنه من يشعر في قرارة

الشرقي على حساب العنصر الغربي ، وأصبح الشرقيون أغلبية في المجتمع ، الأمر الذي اضطر المؤسسة الحاكمة إلى إخفاء تعريف الهوية الذي يعادل بين الإشتكازي واليهودي ، وكفت المؤسسة عن إطلاق التصريحات العنصرية ضد اليهود السفاردي ويهود البلاد الإسلامية . لكن الرؤية الكامنة التي تُوجّه الدولة الصهيونية لا تزال، أولاً وأخيراً إشتكازية ، وهي تحاول القضاء على الأشكال الحضارية الشرقية التي أحضرها اليهود الشرقيون معهم ، ولا تزال النخبة الحاكمة في إسرائيل غربية بوجه عام وإشتكازية بالدرجة الأولى .

ومن الأمثلة الأخرى التي انفجرت فيها قضية الهوية من منظور ديني ، قضية يهود الهند المعروفون باسم بني إسرائيل . فالخاميتان ، السفاردية والإشتكازية ، لم تعترفا بهم كيهود ، لأنهم يمارسون الزواج المختلط ولا يعرفون التلمود . وقد استمرت مشكلتهم قائمة إلى أن اضطرت المؤسسة الدينية إلى الرضوخ لضغط المؤسسة السياسية . ولم تعترف الخاميتان أيضاً بيهود الفلاشا ، ولم تشجع هجرتهم طيلة الأعوام الثلاثين الماضية لعدة أسباب ، من بينها أنهم هم أيضاً لا يعرفون التلمود ، ولكن حينما طُلب إليهم اليهود ، رفضت أعداد كبيرة منهم ذلك . فاقترحت الخاميتان صيغة مخففة للتهويد تتضمن عملية تختين رمزية (حين قبل بعضهم ذلك سارع بمثل الخامية السفاردية بتختينهم قبل أن يقوم بمثل الخامية الإشتكازية بهذه العملية . ولكن حينما حضر الأخير قام هو الآخر بالعملية نفسها ، أي أنهم تم تهويدهم وتختينهم مرتين خلال عدة أيام) . وتثار قضية اليهود القرائين واليهود السامريين من أونة إلى أخرى ، خصوصاً حينما يتم زواج مختلطين بين أحد أعضاء إحدى هاتين الجماعتين وفرد ينتمي إلى اليهودية الخامية . ولم تضطر الدولة الصهيونية ولا المؤسسة الدينية إلى الدخول في صراع عميق مع أيٍّ من هذه الجماعات بسبب صغر أحجامها وقلة نفوذها داخل وخارج إسرائيل . ولم تأخذ المؤسسة السياسية موقفاً حاسماً في هذه القضية ، بل تركت الأمر للمؤسسة الدينية تصرفه بطريقتها . ومع منتصف الخمسينيات ، ظهرت التناقضات بين الدينين واللادينين ، وكذلك بين الأرثوذكس من ناحية وبقية الفرق الدينية من ناحية أخرى ، وذلك حينما بدأت المؤسسة الأرثوذكسية في الخارج تضغط على المؤسسة الدينية في إسرائيل حتى تتبنى موقفاً أكثر تشدداً من مسألة تعريف اليهودي . وقد تزامن ذلك مع موجة من الهجرة من شرق أوروبا ضمت عدداً كبيراً من الزيجات المختلطة . وفي عام ١٩٥٧ ، قرر رئيس قسم تسجيل الهوية في وزارة الداخلية (وهو عضو في الحزب الديني القومي) ألا يقبل وصف المهاجر لنفسه

الدينين ذاته . فالأرثوذكس لا يعترفون بالخامات الإصلاحيين ولا بالخامات المحافظين كيهود . ولذا ، فهم لا يعترفون بالتهودين على أيدي مثل هؤلاء الخامات . وفي معرض دفاعهم عن وجهة نظرهم ، يذكر الأرثوذكس أن الشريعة ، بحسب اليهودية الخامية ، حدّدت الخطوات اللازمة للتهود بشكل واضح تماماً كما حدّدت من هو اليهودي . فلكي يتهود إنسان ما ، يجب أن يتم ختانه إن كان ذكراً ، أما الأنثى فعليها أن تأخذ حماماً طقوسياً وهي عارية أمام ثلاثة حاخامات (وهو الأمر الذي يسبب الحرج للإناث المتهودات) . وعلى المتهود أن يتقبل نير التسفوت (الفرائض أو الأوامر والنواهي) ، أي أن يعيش حسب قانون التوراة . أما الخامات الإصلاحيون ، فلا يلتزمون بهذه الخطوات ، إذ يكفي عندهم أن يحضر راغب اليهود محاضرة عن التاريخ اليهودي ، أو يقرأ مقطوعة من العهد القديم . ويقر الخامات الإصلاحيون بأن مراسم التهويد التي يقومون بها لا تتبع الشريعة ، ولكنهم يصرون في الوقت نفسه على أن هذا لا يمنع كونها مقدسة . أما المحافظون ، فيرون أنهم يتبعون الشريعة ، لكن الأرثوذكس لا يوافقونهم على ذلك .

ومن المشاكل الأخرى التي ظهرت داخل المعسكر الديني مشكلة قيام اليهودية الإصلاحية بإعادة تعريف اليهودي بحيث أصبح من يُؤلد لأب يهودي أو أم يهودية ، وهو ما لا توافق عليه اليهودية الأرثوذكسية واليهودية المحافظة .

٤ - تناقضات أخرى :

هناك تناقضات يصعب تصنيفها لأنها ذات طابع ديني إثني ، وقد نشأت هذه التناقضات أساساً بين المؤسسة الدينية وبعض الجماعات اليهودية الصغيرة بشأن انتمائهم الديني والإثني وما إذا كان هذا الانتماء خالصاً أم أنه هجين .

وكانت أولى المشاكل التي واجهها الصهاينة التناقض بين السفاردي والإشتكاز ، وهو انقسام سبق إعلان الدولة . وقد لجأت السلطات البريطانية لطرق عملية غير عقائدية لحله ، إذ سمحت بوجود حاخاميتين : واحدة سفاردية ، والأخرى إشتكازية ، بكل ما ينطوي عليه ذلك من انقسام أساسي وجذري . والانقسام بين الإشتكاز والسفاردي انقسام عميق ذو طابع ديني ، ولكنه ذو أبعاد طبقية وإثنية . وهو من العمق بحيث يتبدى من خلال تنوع الأحزاب الإسرائيلية وبنيتها وأغاط التصويت في الانتخابات التي تجري في المُستوطن الصهيوني . ومع هجرة اليهود الشرقيين من العالم العربي والعالم الإسلامي وبلاد الشرق الأخرى ، مثل الهند ، زاد العنصر

مصير الشعب اليهودي وتاريخه (ويلاحظ أن فكرة المصير هذه مستصح بالتدرج ركيزة التعريف اللاديني الأساسية) . وقد بينت المحكمة أن حكمها هذا مناف للشريعة اليهودية وأكثر تشدداً منها ، وأن الأخ دانيال قد يكون يهودياً بحسب الشريعة ، ولكن لا يمكن اعتباره يهودياً من منظور قانون العودة ، أي أن المحكمة أخذت بتعريف لا ديني لليهودي ، وجعلت أساس اليهودية الانتماء القومي . ومن المفارقات ، أن المؤسسة الدينية الأرثوذكسية كانت تقف ضد طلب الأخ دانيال ، أي أنها أخذت موقفاً أكثر تشدداً من الشريعة ذاتها بل ومنافياً لها . وقد قيل في معرض نقد هذا الحكم إنه يتعلق بتعريف من هو غير اليهودي ولكنه لا يعرف اليهودي من قريب أو بعيد . ولم تترك القضية أثراً عميقاً في الدولة الصهيونية لأنها لم تؤثر على علاقتها بيهود العالم . بل وشعر كثير من الإسرائيليين بأنها لا تخصهم .

وأثيرت القضية مرة أخرى وبحدة عام ١٩٦٨ حينما طلب الضابط بنيامين شاليط (المتزوج من إنجليزية غير يهودية ترفض التهود بسبب لا أدريتها) تسجيل أولاده باعتبارهم إسرائيليون الجنسية يهودية القومية ، على أن يكتب في بند الدين عبارة «لا يوجد» ، أي أنه طلب الأخذ بالتعريف الإثني دون الديني . وحينما رفض طلبه ، رفع قضية في المحكمة العليا التي حكمت لصالحه عام ١٩٧٠ ، وذكرت المحكمة في حكمها أن مصطلح «قومية» خاضع للتفسير العلماني ، فأولاد شاليط ارتبطوا بمصير الشعب اليهودي وتاريخه . ومع هذا ، أكدت المحكمة أن حكمها ينصب على الوضع المدني ، أي على قانون العودة وقانون المواطنة والإجراءات الخاصة بالتسجيل ، ولا ينصرف إلى الأحوال الشخصية (مثل الزواج والطلاق) التي تختص بها المحاكم الحاخامية . وقد رفض اليهود الأرثوذكس الأخذ بهذا الحكم ، لأنه في تصورهم سيُسمّى اليهود إلى قسمين : يهود مؤمنين ويهود غير مؤمنين . ولذا ، صدر عام ١٩٧٠ تعديل لقانون العودة ، وعُرف اليهودي بأنه من وكّد لأم يهودية بشرط ألا يكون على دين آخر . ونص أيضاً على أن اليهودي هو المتهود ، وهو تعريف يعتمد الجانبين الإثني والديني ، ولا يزال هذا التعريف هو المعتمد .

ومع هذا ، أثار التعريف غضب الدينين واللادينين . كما أن جورج ظامارين ، المحاضر في جامعة تل أبيب ، أثار جانباً آخر غير متوقع للقضية . فقد رأى أن التعريف الأخير تعريف ثيوقراطي ، أي يستند إلى أساس ديني . ولذا ، طالب بأن يسجل في بند القومية لفظ «إسرائيلي» بدلاً من «يهودي» . وقد رفض طلبه بطبيعة الحال ، لأن ذلك يعني رفض الصهيونية من أساسها .

بأنه يهودي باعتباره المقياس الوحيد معتبراً أنه معيار علماني ذاتي ، وأصدر أمراً إدارياً للموظفين في إدارته بذلك . ورداً على ذلك ، أصدر وزير الداخلية (وكان علمانياً من حزب اتحاد العمال «أحدوت هاعفود») قراراً في مارس ١٩٥٨ يؤكد فيه التوجهات القديمة التي تقبل المعيار الذاتي . فانسحب الحزب الديني القومي من الائتلاف الحاكم احتجاجاً . فقام بن جوريون بالكتابة إلى خمسين شخصية يهودية (دينية وفكرية) في أنحاء العالم يطلب إليهم الفتوى في هذا الأمر (وكان يشار إليهم بعد ذلك بوصفهم «حكماء إسرائيل»!) . وجاءت الإجابات مشتملة على سائر التناقضات المتوقعة والتي لم يحسمها الفكر الصهيوني قبل قيام الدولة . فقد عرّف القسم الأكبر منهم (٣٧) الهوية اليهودية على أساس الشريعة ، ولكن نفرأ منهم تبنّى معيار الاختيار الشخصي (اليهودي هو من يعتبر نفسه كذلك) ، وتبنّى نفر آخر معيار القسر الخارجي ، أي أن اليهودي هو من يعتبره الأغيار كذلك . ومع هذا ، صدر عام ١٩٥٩ توجيه إداري ينص على تعريف اليهودي بأنه الشخص الذي وكّد لأم يهودية ، وذلك لاسترضاء الحزب الديني القومي حتى يعود إلى التحالف .

وقد ضمت الوزارة التالية وزيراً للداخلية من الحزب الديني القومي ، فأصدر توجيهات إدارية عام ١٩٦٠ يُعرّف فيها اليهودي بأنه من ثبت أن أمه يهودية أو أنه تهوّد حسب الشريعة وعلى يد حاخام أرثوذكسي . وقد وعد الحزب الديني بأن التعديل ستم الموافقة عليه ، ولكن الرأي العام الإسرائيلي أفضل هذه المحاولة .

ثم تفجرت القضية مرة أخرى بهجرة الأخ دانيال (أوزوالد روفازين) الذي وكّد لأبوين يهوديين في بولندا ، وانضم إلى المقاومة ضد النازية وأنقذ كثيراً من اليهود . وبعد أن قبض عليه فرّ إلى دير راهبات وعاش فيه متخفياً في زي راهبة حتى انتهت الحرب ، فاعتنق المسيحية ودخل سلك الرهينة ، وهاجر إلى إسرائيل بموافقة الفاتيكان ، وطلب اعتباره يهودياً بمقتضى قانون العودة . وقد عُرِضت عليه الجنسية الإسرائيلية على أساس الجنس ، ولكنه رفض وأصر على أن يحصل على الجنسية بموجب قانون العودة ، أي باعتباره يهودياً . وقد ذكر في طلبه أن الشريعة اليهودية تقرر أن اليهودي لا ينسلخ بتاتا عن دينه اليهودي مهما بلغت ذنوبه وذلك بحسب ما جاء في كتاب السنهدين في التلمود . وقد ذكر الأخ دانيال أنه إذا كان بوسع الملحد أن يظل يهودي القومية ، فمن باب أولى أن يُعتبر هو (المسيحي) يهودياً!! وقد رفضت المحكمة العليا طلبه عام ١٩٦٦ ، وقالت في حكمها إنه وفقاً للعرف المعمول به فإن كل من يغير دينه بدين آخر يُعدّ غير يهودي لأنه اختار أن يتفصل عن

وشيرلي بيرسفورد، يتميان إلى جماعة دينية مسيحية تبشيرية اسمها رامات هاشارون، ويشبه وضعهما وضع الأخ دانيال من بعض الوجوه، ويختلفان عنه من البعض الآخر. فهما يهوديان بالمعنى الإنثي وهما يؤمنان بالمسيح، تماماً مثل الأخ دانيال، ولكنهما يختلفان عنه في أنهما لم ينتصرا، أي لم يعتنقا الديانة المسيحية. ولا يبين المصدر ما معنى هذه العبارة، وإن كان من الواضح أنها تعني أنهما آمنّا بأن عيسى هو المسيح أو الماشيح المنتظر دون الإيمان ببذنه للرب.

وقد طُرِح حل صهيوني للمشكلة باعتبار أن قانون العودة قانون سياسي صهيوني لمن يشاء، وقانون ديني لمن يشاء، ويمكن لكل فريق أن يفسره بالطريقة التي يراها، على أن تحتفظ السلطة الأرثوذكسية بسلطتها كاملة في أمور الأحوال الشخصية وفي عمليات التهويد التي تتم داخل إسرائيل. وتحاول بعض الأحزاب الدينية تبني موقف مائل، لكنهم بدلاً من المطالبة بتغيير قانون العودة بطالون بتغيير قانون المحاكم الحاخامية بحيث يصبح من صلاحياتها أن تقرر من هو اليهودي ومن هو غير اليهودي، بدلاً من وزارة الداخلية. وفي هذه الحالة، سيمكّنها أن تسقط صفة اليهودية عن الحاخامات الإصلاحيين والمحافظة. ولكن جماعة حيد الأرثوذكسية ترفض مثل هذا الحل.

وفي تصوّرنا أن أزمة الهوية اليهودية ستعمق ولن تُحسّم في المستقبل القريب لأسباب عديدة تتصل بالتطورات داخل المستوطن الصهيوني وخارجه. أما داخل المستوطن الصهيوني، فقد لوحظ، على عكس ما تُوقّع المفكرون الصهيانيّة، أن التطورات والآليات الاجتماعية لم تؤدّ إلى صهر العناصر اليهودية الدينية واللا دينية والإشكنازية والسفارديّة وغيرها، وإنما ازدادت الصورة استقطاباً وتطرفاً. وإذا ماركرنا على الجانب الديني مقابل العلماني، نلاحظ ظهور هوية يهودية جديدة بالإضافة إلى عدم التجانس، وهي هوية الصابرا من الإشكناز التي يتسم أصحابها بسمات خاصة، كمعاداة العقل والفكر وحب العنف والتحلل من القيم الأخلاقية، بل إنهم يكونون احتقاراً عميقاً لليهود المنفى، أي يهود العالم كله (وقد كان المؤمل في الصابرا أن يكونوا الترجمة العملية لليهودي الخالص). وإلى جانب ذلك، يُلاحظ تزايد معدلات العلمنة في التجمع الصهيوني (الذي وصفه أمنون روبنشتاين بأنه من أكثر المجتمعات إباحية على وجه الأرض). وبحسب بعض الإحصاءات، يبلغ عدد المواطنين الذين لا يؤمنون بالخالق ٨٠٪ من كل الإسرائيليين. وهؤلاء ينظرون إلى الشعائر الدينية باعتبارها فلكلوراً قومياً. وتُعدّ

أما الأرثوذكس، فلم يعجبهم التعريف الجديد إذ أنه يعترف ضمناً باليهود المتهوّدین على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظة، وهم في نظر الأرثوذكس ليسوا يهوداً، أو على الأقل مشكوك في يهوديتهم، ولذلك فهم يطالبون بإضافة عبارة «تهود حسب الشريعة» (بالعبرية: كاهالاحاه) أي على يد حاخام أرثوذكسي. وتحوّلت القضية، من ثم، إلى من هو الحاخام؟ وقد قُدّم إلى الكنيست مشروع قرار بهذا المعنى، رُفُض في ١٦ يناير ١٩٨٥، وتَسبّب المراح أساساً في إسقاطه. والملاحظ أن هذا التعديل الأخير المُقترح سيثير من المشاكل أكثر مما يحلّ، فهو على سبيل المثال سيهز أحد الأسس التي يستند إليها التجمع الصهيوني، وهي فكرة «الوضع الراهن». والعبارة تشير إلى الوضع السائد في فلسطين إبان حكم الانتداب. وقد توّصل الصهيانيّة الدينيون والصهيانيّة اللادينيون، عشية إنشاء الدولة، إلى اتفاق على أن الدولة الصهيونية ستلتزم بالشعائر والأعراف السائدة في ذلك الوقت في المجال الديني. ولا يزال الاتفاق يحكم مدى التزام الدولة بتنفيذ الشعائر الدينية.

وقد أثّرت عام ١٩٨٧ قضية شوشانا ميلر المواطنة الأمريكية التي اعتنقت اليهودية على يد حاخام إصلاحي ثم هاجرت عام ١٩٨٥ إلى إسرائيل، حيث رفضت وزارة الداخلية الإسرائيلية منحها الجنسية بمقتضى قانون العودة. وطلب إليها وزير الداخلية أن تهوّد مرة أخرى على يد حاخام أرثوذكسي، فرفضت طلبه وتقدمت بشكوى إلى القضاء. ولحسم المسألة، اقترح الوزير أن يُكتب على بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالتهوّدین لفظة «متهوّد» بدلاً من «يهودي»، سواء أكان التهود قد تم على يد حاخام إصلاحي أم على يد حاخام محافظ أم أرثوذكسي، فرفضت المواطنة ذلك أيضاً باعتبار أن هذا سيحولها إلى يهودية من الدرجة الثانية. وقد حكمت المحكمة لصالح الشاكية، فاستقال وزير الداخلية واتهم اليهود الإصلاحيين بأنهم «يقودون أمة إسرائيل إلى التهلكة». ولكن الوزارة اضطرت في نهاية الأمر إلى تسجيل بعض من تهوّدوا على يد حاخامات غير أرثوذكس باعتبار أنهم يهود.

وهناك حالات قامت فيها المحاكم الحاخامية بالتشكيك في يهودية بعض ضحايا الإبادة النازية الذين استقروا في إسرائيل، بل وهناك حالة قامت فيها السلطات الدينية بالرجوع إلى الأرشيف النازي للتأكد من هوية أحد اليهود.

وكان مشاكل الهوية لا تنتهي، فقد طُرحت القضية من جديد ووحدة البالغة في فبراير ١٩٨٨، حين حضر يهوديان اسمهما جيري

وقضية الهوية اليهودية قضية محورية . فالدولة الصهيونية تكتسب شرعيتها ، أمام نفسها وأمام الكثيرين ، من ادعائها أنها دولة يهودية ، لكن استمرار تمجُّد هذا القضية يقوض دعائم هذه الشرعية . كما أن تعديل قانون العودة سيؤدي إلى استبعاد ما يقرب من ٨٠٪ من يهود العالم (وربما أكثر) عن يُعرِّفون اليهودي على أسس دينية ذاتية أو على أسس إصلاحية ومحافظة ولا يقبلون الهوية الأرثوذكسية .

ومن القضايا الأخرى المرتبطة بقضية «من هو اليهودي ؟» قضية «من هو الصهيوني ؟» ، وهل هو اليهودي الذي يهاجر إلى إسرائيل ، أي من يمارس الصهيونية الاستيطانية أم اليهودي الذي يدعم المستوطن الصهيوني دون أن يهاجر ويكتفي بالصهيونية التوطينية ؟ وهي قضية تمس الهوية وتكهننا لا تصل في عمقها إلى قضية «من هو اليهودي ؟» .

وكل هذه العناصر والتوترات والتناقضات تجعل من العسير على اليهود أنفسهم تصديق مقولة الشعب اليهودي الذي يتجاوز الأزمنة والأمكنة والذي يحمل داخله جوهرًا يهوديًا . فقد أثبت الواقع العملي أنه لا يوجد جوهر واحد ، بل هي سمات عديدة متنوعة بتنوع التشكيلات الحضارية والتاريخية التي يتواجد فيها اليهود . وقد أثّرت القضية مرة أخرى مع وصول المهاجرين اليهود السوفيت . وكما بيّنت المؤسسة الدينية ، فإن معظمهم ليسوا يهوداً ، فهم إما من أصل مسيحي تزوجوا من يهود أو هم من مدعي اليهودية . بل واتضح أن اليهودية بنسبة لليهودي منهم لا تمثل سوى أصداء خافتة للغة . ومع هذا ، رحبت المؤسسة الصهيونية بوصولهم ، فهي في حاجة ماسة للمادة الاستيطانية . والحاجة نفسها هي التي تُفسّر الترحيب بالغلاشاه مورا (وهم أشباه يهود تنصّروا بكمّل إرادتهم منذ قرنين من الزمن) . وكل هذه المؤشرات تدلّ على أن المؤسسة الصهيونية ، نظراً حاجتها للمادة البشرية الاستيطانية ، قد جعلت من اليهودية قشرة رقيقة للغة (مثل الانتماء المسيحي في جنوب أفريقيا) إذ أن المطلوب هو مادة استيطانية غير عربية يضمن الكيان الصهيوني لنفسه الاستمرار من خلالها .

الأخ دانيال (١٩٢٢ -)

Brother Daniel

راهب كاثوليكي وكُد لأبوين يهودين ، وكان يُدعى عند مولده أوزوالد روفابزين . لجأ إلى دير كاثوليكي أثناء الاجتياح النازي لبولندا ، ثم اعتنق المسيحية وعمّد وأصبح راهباً من الطائفة

الأعياد الدينية بالنسبة إليهم أعياداً قومية ، والعبرية ليست لغة الصلاة (اللسان المقدس) وإنما هي لغة البيع والشراء والجماع . وقد أصبح يوم السبت ، وهو يوم راحة وتعبّد من الناحية الدينية ، يوم صخب ولهو في الدولة التي يُقال لها «يهودية» . ولا يراعي كثير من الإسرائيليين قوانين الطعام الشرعي ، ويُقال إن نصف اللحم المستهلك في إسرائيل من لحم الخنزير .

لكل هذا ، حينما عُرضت قضية جيري وشيرلي بيرسفورد على الرأي العام الإسرائيلي ، قال ٧٨٪ منهم إنه يجب منحهما الجنسية الإسرائيلية إن كانا صهاينة ، وعلى استعداد لأن يرتبطا بالمصير اليهودي . ومعنى هذا أن الإسرائيليين استخدموا معياراً قومياً لا دينياً صرفاً ، ولو تم الأخذ به سيظهر نوع جديد من اليهود الذين يؤمنون بالمسيح عيسى بن مريم ، ولأصبح الأخ دانيال يهودياً برغم حكم المحكمة العليا .

مقابل هذا التعاطف في معدلات العلمنة ، هناك تعاطف أيضاً في النزعة الدينية يتضح في هجوم المؤسسة الدينية على الصور والمظاهر الإباحية في إسرائيل ، وإصرارها على إقامة شعائر السبت ، وفي إصرارها على تعديل قانون العودة . وينعكس هذا الاستقطاب القومي في واقعة حرق اللادينيين معبداً يهودياً احتجاجاً على نشاط المتدينين . ويتضح الاستقطاب أيضاً في ظهور عاصمتين للتجمع الصهيوني ؛ إحداهما علمانية تماماً في تل أبيب ، والأخرى في القدس يتزايد فيها نفوذ الأرثوذكس . وفي مثل هذا الإطار ، يصبح الإجماع القومي ، أو حتى الهدنة الاجتماعية القومية بشأن تعريف الهوية اليهودية ، أمراً مستبعداً . وما يعمق المشكلة أن ثمة استقطاباً مائلاً يحدث بين يهود العالم الذين تزداد بينهم معدلات العلمنة والزواج المختلط .

ويلاحظ أن مشكلة السفارد قد ازدادت تفاقمًا ، خصوصاً مع ازدياد عددهم وازدياد ثقتهم بأنفسهم . فالتجمع الصهيوني يعتبرهم يهوداً وحسب ماداموا في بلادهم ، وهذا جزء من حملته الإعلامية ، ولكنهم يصبحون يهوداً شرقيين فور وصولهم إلى إسرائيل ، إذ أن التجمع الصهيوني يحتاج إليهم باعتبار أنهم مادة بشرية قادرة على حل أزمة المصادر البشرية التي يعاني منها ، وعلى العمل في قاعدة الهرم الاقتصادي الإنتاجية . لكن إصرار السفارد على الحراك الاجتماعي ، باعتبارهم يهوداً بشكل عام ، سيجعلهم يشغلون الدرجات العليا من الهرم ، ويتروكون قاعدته خالية يشغلها العرب . وبهذا تشتبك مشكلة الهوية مع واحدة من أعمق مشكلات التجمع الصهيوني ، وهي مشكلة الإنتاجية ، خصوصاً أن الصهاينة يدعون أن اليهودي الجديد شخصية منتجة على خلاف يهود المنفى الهامشيين المراهين .

وقد أعلنت الكنيسة الكاثوليكية عام ١٩٩٠ أن إديث شتاين قديسة ، فثارت ثائرة المؤسسة اليهودية لأن هذا - من وجهة نظرهم - يُعدُّ محاولة للاستيلاء على أوشفتس باعتبارها رمزاً يهودياً (يحترمه اليهود وحدهم) . كما أن المؤسسة اليهودية أشارت إلى أن إديث شتاين تم القبض عليها لأنها يهودية . والطريف في الموضوع أن الأخ دانيال ، وهو يهودي تكتلك (تماماً مثل إديث شتاين) ، وذهب إلى إسرائيل باعتباره يهودياً وطالب بالحصول على الجنسية الإسرائيلية حسب قانون العودة ورُفِّض طلبه . فكان المؤسسة اليهودية في العالم الغربي هي التي تقرر من هو اليهودي ، دون الالتزام بأية معايير إلا مصالحها وأهوائها .

استجابة أعضاء الجماعات اليهودية للتعريف الصهيونية للهويات اليهودية

Response of the Members of the Jewish Communities to the Zionist Definitions of Jewish Identities

طرحَت الصهيونية (في صيغتها اللادينية) نفسها كحركة لتطبيع اليهود ، وطرحَت مفهوم «اليهودي الخالص» صاحب الهوية اليهودية الحقيقية ليحل محل «يهودي المنفى» الذي يخفي هويته ويتقمَّص هوية الآخرين . والدولة الصهيونية التي يُقال لها «يهودية» ستكون هي المسرح الذي تتحقق عليه هذه الهوية . وقد قبل بعض الصهاينة الدينين المشروع الصهيوني وتحالفوا مع اللادينيين على أمل أن تُتاح لهم الفرصة بعد ذلك أن يفرضوا رؤيتهم الدينية بحيث يصبح «اليهودي الحقيقي» هو اليهودي حسب التعريف الأرثوذكسي . وقد أدَّى هذا إلى توترات عميقة بين الدولة الصهيونية من جهة والجماعات اليهودية في العالم ، بكل ما تتسم به من تنوع وعدم تجانس ، من جهة أخرى .

والصهيونية ، كما بيَّنا ، ترى أن الهوية اليهودية خارج المستوطن الصهيوني هوية ناقصة مريضة يجب إلغاؤها ، وهذا ما يُسمَّى «نفي الدياسبورا» في المصطلح الصهيوني (أي تصفية الجماعات اليهودية أو استغلالها) . وقد نجم عن ذلك صراع حاد بين أعضاء الجماعات اليهودية والمستوطن الصهيوني ، إذ أن أعضاء الجماعات يرون أن هويتهم ، أو هوياتهم اليهودية ، ليست مريضة وإنما هي جدية بالحفاظ عليها وتنميتها ، في حين تحاول المؤسسة الصهيونية أن تقلل من شأنها وأن تجعل منها وقوداً يغذي الدولة الصهيونية . ولذا ، فهي تجعل من الهجرة إلى فلسطين المحتلة والاستيطان فيها ، المعيار الوحيد لتقييم مدى صهيونية اليهودي

الكرملية . وفي عام ١٩٥٨ ، أُرسِل إلى دير جبل الكرمل في حيفا . وعند وصوله إلى إسرائيل ، طلب منحه الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة الذي يُعرِّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية (دون إشارة إلى العقيدة) . وقد بيَّن الأخ دانيال أنه إذا كان الشرع اليهودي يعترف بالملحد يهودياً ، فمن باب أولى أن يعترف بالكاثوليكي يهودياً ! وعندما رفضت وزارة الداخلية طلبه ، رفع قضية في المحكمة العليا التي أيدت قرار وزارة الداخلية (خمس أصوات ضد أربعة) . وفي حكمها ، اعترفت المحكمة بأن الشريعة اليهودية تُعرِّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية وأن المرتد عن اليهودية يظل يهودياً ، ولكنها بينت أن قانون العودة قانون علماني ، ومن ثم يجب تفسيره بما يتفق مع الفهم العام للكلمة ، ولذا فالكلمة لا بد أن تُفهم بالطريقة التي يفهمها بها المواطن العادي ، الذي يرى أن كون الإنسان يهودياً يتعارض مع الإيمان بعقيدة أخرى . ويستند هذا المعنى العادي اليومي ، في تصوُّر المحكمة ، إلى التاريخ اليهودي والأهداف الصهيونية والرغبة الجماعية في الإبقاء على الصلة بين إسرائيل ويهود العالم (الدياسبورا) . وقد عدَّ قانون العودة بعد ذلك ليصبح تعريف اليهودي «من وُلد لأم يهودية ولم يتبنَّ عقيدة أخرى» . وقد حصل الأخ دانيال على الجنسية بمقتضى قانون التجنيس ، وهي عملية لا تستند إلى قانون العودة .

وقد أدَّت حادثة الأخ دانيال إلى طرح قضية «من هو اليهودي؟» وهي قضية لم تجد حلاً حتى الوقت الحالي . ولعل الذين أثاروا قضية الأخ دانيال لم يدركوا أن الفيلسوف «اليهودي» ليف شستوف والفكرة الدينية «اليهودية» إتي هلسوم والروائي «اليهودي» بوريس باسترناك كلهم كانوا يؤمنون بالمسيحية أو كانوا يؤثرونها كنسق ديني على اليهودية ، ومع هذا تظهر أسماؤهم في الموسوعات اليهودية باعتبارهم يهوداً .

إديث شتاين (١٨٩١-١٩٤٢)

Edith Stein

مساعدة الفيلسوف الألماني هُسرل . وكُدت لأم يهودية أرثوذكسية لم توفر تعليمًا دينيًا لأولادها ، ولذا ألحقت إديث وهي في سن صغيرة . ثم قرأت السيرة الذاتية لحياة سانت تيريزا ، وتأثرت بها تأثراً عميقاً ، فتكتلتك وغيرت اسمها إلى تيريزا بنديكتا . ويبدو أنها كانت تشير إلى نفسها على أنها يهودية (بمعنى أن اليهودي هو من وُلد لأم يهودية) . وقد قبض عليها الجستابو عام ١٩٤٢ وماتت في أوشفيتس بعد ثمانية أيام من القبض عليها .

ومدى يهوديته . وهذه المشكلة تنفسج دائماً داخل المؤتمرات الصهيونية وخارجها .

١ - وانطلاقاً من المفهوم الصهيوني للهوية اليهودية الحقيقية ، تتصرف الدولة الصهيونية أحياناً بطريقة لا تخدم صالح أعضاء الجماعات اليهودية وإنما تخدم مصالحها هي على حسابهم . وربما تكون حادثة بولارد نقطة مهمة في هذا الصراع ، فهي تمثل تصادماً بين رؤيتين للهوية : واحدة صهيونية والأخرى أمريكية يهودية . فتذهب الرؤية الصهيونية إلى أن الأمريكي اليهودي يهودي أولاً وأخيراً ، ولذا لا بد أن يخدم الدولة الصهيونية ، في حين تذهب الرؤية الأمريكية اليهودية إلى أن الأمريكي اليهودي هو أمريكي في المقام الأول وله مصالح تختلف عن مصالح الدولة الصهيونية .

٢ - عندما ينظر يهود العالم ، خصوصاً المتدينين منهم ، إلى الدولة التي يُقال لها «يهودية» ، يكتشفون أن هويتها وهوية سكانها ليست يهودية على الإطلاق . فمعدلات العلمنة عالية للغاية بين الإسرائيليين ، وهو الأمر الذي يصدم الزوار اليهود للدولة الصهيونية الذين يهبون من مجتمعاتهم الاستهلاكية ويحضرون إلى إسرائيل فيفاجأون بمجتمع إباحي مفتوح أكثر علمانية من المجتمعات غير اليهودية التي تركوها وراءهم . والواقع أن المجتمع الإسرائيلي بدأ ، منذ السبعينيات ، يتوجه توجهاً استهلاكياً حاداً لا يضبطه أي ضابط أخلاقي أو حضاري أو عقائدي . وهذه التساؤلات ليست مقصورة على المتدينين ، فاليهود اللادينيون ، أو المندمجون الذين لا يقيمون شعائر دينهم ، يحاولون التمتع بشيء من الهوية والتجربة الدينية عن طريق إسرائيل . فبرغم أنهم يتمتعون تماماً بالاستهلاك والحضارة العلمانية في بلادهم ، فإنهم يذهبون إلى إسرائيل ويدفعون لها الإعانات ليعيشوا تجربة دينية قومية (ولو بشكل مؤقت) ، وكأن إسرائيل ديزني لاند يهودية ، على حد قول أحد الخاخامات . ولكن العلمانية الصريحة للدولة اليهودية تحرمهم من هذه المتعة وتلك الإثارة .

٣ - كما يسأل اليهود المتدينون : بأي معنى يمكن إطلاق تسمية الدولة الصهيونية على الدولة اليهودية وهي تُسوِّي كل خلافاتها مع الآخرين عن طريق العنف العسكري ولا يمكن محاكمتها بمعايير أخلاقية يهودية ؟ كما أن الطريقة التي يتم بها قمع الانتفاضة يصعب تسميتها «يهودية» مهما تحلى الإنسان بالكرم والخيال .

٤ - يشكو اليهود المتدينون من أن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية قد صادر الرموز والمصطلحات الدينية ، بحيث يتصور كثير من اليهود الآن أن اليهودية والصهيونية أمران مترادفان ، وأن المرء يمكنه

أن يحقق هويته اليهودية عن طريق التبرع للدولة الصهيونية وعن طريق شراء سندات إسرائيل . وكما قال الخاخام ألكسندر شندلر : «يتصور بعض اليهود الآن أن إسرائيل هي معبدهم اليهودي ، وأن رئيس وزرائها هو خاخامهم الأكبر !» .

ولكن نقطة الاشتباك الكبرى بين أعضاء الجماعات والدولة الصهيونية هي في مجال تعريف هوية اليهودي والمعايير المُستخدَم في هذا التعريف ، إذ تُصرُّ المؤسسة الدينية ، مُثَّلة في أحزابها الدينية ، على بُنيّ تعريف أرثوذكسي . وقد حدثت مواجهة سريعة بين يهود العالم والمؤسسة الدينية في حالة يهود الهند (بني إسرائيل) في الخمسينيات ، وفي حالة يهود الفلاشا في الثمانينيات ، ومع القرائين والسامريين عبر كل هذه السنوات . وكان جوهر المواجهة دائماً هو إصرار المؤسسة الدينية على التمسك بتعريفها لليهودي ، والذي يستبعد أعضاء هذه الجماعات . وقد حُسمت هذه المواجهات إما بتهود أعضاء هذه الجماعات مرة أخرى حسب الشريعة ، وإما بتراجعهم وقبولهم مرتبة ثانوية في النهرم الديني اليهودي . كما أن المؤسسة أبدت من جانبها شيئاً من المرونة تجاههم . وتُكن كل هذه المواجهات كانت مع جماعات صغيرة لا نفوذ لها انفصلت منذ قرون طويلة عن اليهودية الاخاخامية . ولذا لم تسبب المواجهة في تعجير أزمة عامة ذات أثر عميق . أما المواجهة مع يهود الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وغيرهم من الجماعات اليهودية بشأن الموضوع نفسه ، فهي مواجهة مهمة وعميقة لها أعمق الأثر في كل من الدولة الصهيونية وأعضاء الجماعات .

ولنفهم مدى عمق هذه المواجهة ، لا بد أن نتناول وضع الجماعات اليهودية في العالم . فنو نظرن إلى الهويات اليهودية في أنحاء العالم الغربي ، خصوصاً في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي حيث يتركز معظم يهود العالم ، لوجدنا أن ثمة هويات متعددة غير متجانسة ، مندمجة في مجتمعاتها تتفاعل معها ، بحيث أصبح الإطار المرجعي لهويتهم وأساسها هو تجربتهم التاريخية في أوطانهم وليس التعريف الصهيوني أو اليهودي . وإن كان ثمة عنصر مشترك بينها فهو المرجعية العلمانية النهائية التي أدت إلى ظهور «الهوية اليهودية الجديدة» . فهوية يهود أمريكا ، على سبيل المثال ، هوية أمريكية ذات أبعاد إثنية دينية يهودية هامشية . والحديث الصارخ عن بعث الإثنية في الولايات المتحدة والتمسك بها إنما هو من قبيل الادعاءات اللفظية المريحة للغاية . فمفهوم الهوية في الإطار الأمريكي لا يختلف أبداً عن مفهوم الدين ، وكل من الدين والهوية شيان يمكن تَقَبُّلُهما شريطة أن يتم تهميشهما حتى لا يتعارض مع أداء

يوجد سوى ٤٠٠ ألف أرثوذكسي . أما بقية اليهود ، فهم إما لأدريون أو غير مكرّنين باليهودية ، ولكنهم يلجأون إلى حاخامات إصلاحيين أو محافظين في أمور الزواج وغيره . وربما تكون درجة علمنة يهود روسيا وأوكرانيا أعلى من ذلك بكثير . ومع هذا ، ورغم علمنة هؤلاء اليهود ، ورغم ابتعاد المتدينين منهم عن الأرثوذكسية ، فإنهم يتمسكون ببقايا هويتهم الإثنية ، ربما بتأثير الصهيونية . ولذا ، فهم يصرّون على تسمية أنفسهم «يهود» برغم انصرافهم عن العقيدة ، ثم يطالبون بتبني تعريف تعددي لليهودية ، أي بأي تعريف يروق لهم بحيث يتم قبول أي يهودي يرى أنه يهودي . وهم ينظرون إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة تعددية يهودية ، بالمعنى الإثني ، يمكنهم تحقيق هويتهم من خلالها . وفي هذا الإطار ، ليس من المستغرب أن يؤدي التعديل المقترح لقانون العودة (بحيث يعرف اليهودي بأنه «المتهود بحسب الشريعة» أي على يد حاخام أرثوذكسي) إلى تفجير التناقضات الكامنة إذ أنه ، في واقع الأمر ، يستبعد أغلبية المتهودين وعائلاتهم في الولايات المتحدة . ومن المعروف أن عشرة آلاف أمريكي يتهوّدون سنوياً نظراً لزواجهم من أقران يهود ، ولا يهود سوى ألف منهم أمام محاكم أرثوذكسية ، أما الباقون فيتهوّدون على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظين ، ولا تعترف الحاخامية في إسرائيل بهم كيهود .

وهناك مشكلة أخرى أثّرت عدة مرات ولن يحسمها التعريف الجديد حتى لو تم تبنيه . فالحاخامات الأرثوذكس يطلبون ما يُسمّى «جيت» من كل يهودية مُطلّقة ، أي شهادة طلاق من محكمة شرعية يهودية ليصبح الطلاق شرعياً ، وهو تقليد أبطله الحاخامات الإصلاحيون . ولذا ، فإن أية يهودية مُطلّقة تنزّج دون أن تحصل على شهادة طلاق شرعي ، يُعتبر أطفالها (بحسب التصور الأرثوذكسي) غير شرعيين ، حتى لو كانت هي يهودية معترفاً بيهوديتها من المؤسسة الأرثوذكسية . ولهذا ، فمن المتوقع أن تتفاقم المشكلة بسبب ازدياد معدلات الطلاق غير الشرعي بين اليهود في الخارج ، سواء في الولايات المتحدة أو في كومنولث الدول المستقلة (الاتحاد السوفيتي سابقاً) ، وبسبب جهل كثير منهم بقضية الجيت هذه !

ويدرك أعضاء الجماعات اليهودية ، خصوصاً في الولايات المتحدة ، المضمون الخفي الكامن وراء تعديل قانون العودة تماماً ، والمحاولة الرامية إلى ذلك . ومن هنا كانت حدة استجاباتهم لهذه المحاولة إلى درجة أدهشت القيادات في اجتماع لمجلس الفيدراليات الأمريكية الذي خصّص لمناقشة هذه القضية (١٩٨٨) ، ومجلس

اليهودي في رقعة الحياة العامة ولا يهدد الانتماء إلى المجتمع الأمريكي . ولكن إذا استبعدنا الهوية والدين من الحياة العامة ومن الإحساس بالانتماء ، فلا يبقى شيء سوى زخارف أو تسليّة تُمارس في أوقات الفراغ من أونة لأخرى ، ولا تشكل بعداً حقيقياً في بناء شخصية المرء ولا في رؤيته للكون .

كما أن أوضاع أعضاء الجماعات في إنجلترا وفرنسا وجنوب أفريقيا لا تختلف في أساسياتها عن الصورة العامة السائدة بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . بل إن وضع يهود روسيا وأوكرانيا ينطبق عليه أيضاً مصطلح «يهود ما بعد الانعتاق» أو «الهوية اليهودية الجديدة» ، فقد حصلوا على حقوقهم السياسية والمدنية ، وتوجد أطر ومناخ يمكنهم من خلالها التعبير عما تبقى من هويتهم الشرق أوروبية . كما ينتشر بينهم الزواج المختلط (وهو من أهم معايير الاندماج) بدرجة تفوق أحياناً درجته في الولايات المتحدة . وقد صرح شارنسكي ، بطل الصهاينة في الاتحاد السوفيتي ، حينما أفرج عنه واستقر في إسرائيل ، بأن درجة اندماج اليهود في المجتمع السوفيتي «درجة مَرَضِيَّة» ، والمقصود أنها «عالية» . ورغم أنه يستخدم معياراً صهيونياً للهوية ، إلا أنه يعترف ضمناً بحقيقة ارتفاع معدلات الاندماج . وإذا كانت بين يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) أعداد كبيرة ترغب في الهجرة ، فإن هذا يعود إلى بعض المشكلات الخاصة بالمجتمع الاشتراكي ومجتمعات كومنولث الدول المستقلة . وعلى أية حال ، فإن أغلبية من نتاح له فرصة مغادرة روسيا وأوكرانيا ، يهاجر إلى الولايات المتحدة ، ولا تهاجر سوى أعداد صغيرة إلى إسرائيل . وحتى هؤلاء الذين يصلون إلى هناك يكتشفون أن هويتهم وطموحاتهم تختلف عن الهوية اليهودية كما عرّفها الصهاينة . بل إن يهود روسيا وأوكرانيا الذين يصلون إلى الولايات المتحدة يكتشفون أنهم روس ، ومن ثم لا يختلطون باليهود في الولايات المتحدة ولا يندمجون فيهم وإنما يندمجون في المجتمع الأمريكي . بل ويُقال إن الإسرائيليين المهاجرين إلى الولايات المتحدة يظلون أيضاً بمعزل عن يهود الولايات المتحدة ولا يتزاوجون معهم ، إذ يكتشفون أنهم إسرائيليون ونيسوا مجرد يهود .

وبشكل عام ، يمكن القول بأن القيم العلمانية تنتشر في الوقت الراهن بين أغلبية يهود العالم ، فهم إما منصرفون عن الدين تماماً وإما يتبنون الصيغ المخففة منه والمتمثلة في اليهودية الإصلاحية والمحافظّة ، ولم يُعد بينهم سوى أقلية أرثوذكسية . ففي الولايات المتحدة ، يبلغ عدد اليهود الإصلاحيين والمحافظين مليونين ولا

المتحدة كانت ترفض الصهيونية من قبل . فاليهودية الإصلاحية التي تشجع الاندماج ، كانت ترفض الصهيونية بشكل عقائدي عند نشأتها ، كما كان بعض مفكري اليهودية المحافظة يرفضونها . ولكنهم ، بمرور الزمن ، تناسوا هذه الاعتراضات وانتهى بهم الأمر إلى الانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية . هذا ، بينما يلاحظ أن الجماعات اليهودية الدينية ، وضمن ذلك بعض الأحزاب الدينية في إسرائيل ، إما معادية للصهيونية وإما غير صهيونية وغير ممثلة في المنظمة الصهيونية .

وقد انعكس هذا الوضع على انتخابات المؤتمر الصهيوني الحادي والثلاثين (١٩٨٧) التي أسفرت عن فوز أغلبية من حزب العمال الإسرائيلي ويمثلي اليهود الإصلاحيين والمحافظين والعلمانيين . وهذه هي المرة الأولى التي لا يعكس فيها تكوين المنظمة الصهيونية موازين القوى داخل الدولة الصهيونية . وقد قضى المؤتمر (٢٩١ صوتاً ضد ٢٧١ صوتاً) بضرورة المساواة الكاملة بين جميع اتجاهات اليهودية ، الأمر الذي أدى بحركة المزارحي (الصهيونية الدينية) إلى التهديد بإعادة النظر في وضعها داخل الحركة الصهيونية . والواقع أن هذا الوضع يناقض الوضع داخل الدولة الصهيونية حيث يتنامى نفوذ الأحزاب الدينية .

وقد أثار وصول المهاجرين السوفيت مشكلة الهوية مرة أخرى . فعدد اليهود السوفيت حسب آخر إحصاء هو ١,٥٠٠,٠٠٠ وحسب ، فمن أين أتت الأعداد الضخمة ، خصوصاً ونحن نعرف أن اليهود السوفيت حققوا معدلات عالية من الاندماج وأنهم جماعة مسنة ؟ ولتفسير هذا نذهب إلى أن اليهود الذين يهاجرون إلى إسرائيل يضمون في صفوفهم عدداً كبيراً من اليهود المتخفين الذين كانوا قد فقدوا علاقتهم باليهودية تماماً ولم يسجلوا أنفسهم كيهود ، ولكنهم اكتشفوا مؤخراً أن مسألة الانتماء اليهودي مسألة مربحة وأنها ستضمن لهم تأشيرة خروج من الدولة السوفيتية وتأشيرة دخول إلى الدولة الصهيونية . ولعل هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يظهر فيها مثل هذا الموقف : أن يكون في صالح المرء أن يكتشف جذوره اليهودية ويعلمها ويوظفها . وأشباه اليهود هؤلاء غير مختنن وغير متزوجين من يهوديات وأولادهم غير يهود ولا يربطهم باليهودية سوى أن لهم جداً مدفوناً في موسكو (على حد قول أحد المحاضرات الإسرائيليين) . كما أن هناك فريقاً آخر عن نسميهم مدعي اليهودية ، وهؤلاء ليسوا يهوداً ويشتركون شهادة ميلاد تثبت أنهم يهود . وهذه الآلاف تصل إلى إسرائيل وتطالب بالجنسية حسب قانون العودة . ويُقال إن نسبتهم بين

الفيدراليات هو التنظيم الذي يضم سائر التنظيمات اليهودية الأمريكية . فعندما حاولت القيادة التقليل من أهمية التعديل المقترح والتهوين من شأنه ، ثارت القاعدة وأعلنت سطوها وأعلنت كذلك عن نيتها أن تترجم هذا السخط إلى فعل ضد إسرائيل . بل إن بعضهم اشتكى إلى نوابهم في الكونجرس الأمريكي من التعديل المزمع ، وقام هؤلاء النواب ، وبعضهم من غير اليهود ، بنقل شكوى ناخبهم من اليهود إلى حكومة الدولة اليهودية . وتحدث الصحف الإسرائيلية عن احتمال أن تُناقش المسألة في الكونجرس الأمريكي عند مناقشة المعونة الأمريكية لإسرائيل . وهكذا ، فبدلاً من أن تستخدم الدولة الصهيونية الدياسورا أداة للضغط على الولايات المتحدة لتحقيق مصالحها ، يقوم أعضاء الجماعة الأمريكية اليهودية بالضغط على الدولة الصهيونية من خلال الولايات المتحدة للحفاظ على مصالحهم . ويُقال إن استجابة يهود الولايات المتحدة لتعديل قانون العودة يشبه في حدته استجابتهم لحرب ١٩٦٧ ، حين أحسوا بالفخر الشديد لانتصار القوات الإسرائيلية ، أي حين تضخمت هويتهم اليهودية المزعومة بسبب انتصار جيوش الدولة اليهودية . وقانون العودة يمس هذه الهوية ، ذلك أن تعديله يتزع عنهم هويتهم هذه ويجعل منهم مجرد يهود إصلاحيين أو محافظين ، أي يهود من الدرجة الثانية . ويجب ملاحظة أنه بينما أصبحت اليهودية ، بالنسبة إلى معظم سكان المستوطن الصهيوني مسألة قومية وليست دينية محضة (ولهذا فهم لا يكتثرون بموقف المؤسسة الأرثوذكسية) ، فإن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى يهود العالم ، فيهوديتهم برغم علمانيتهم الواضحة لا يمكن أن تُعرف تعريفاً قومياً وحسب ، حيث يتنافى هذا مع انتمائهم القومي . ولذلك ، يظل البعد الديني ، برغم شكلته وضموره ، أكثر أهمية بالنسبة إليهم من أهميته بالنسبة إلى الإسرائيليين .

ومن إنجازات الانتفاضة أنها ، بوصولها إلى الإعلام الخارجي ، قد حوَّلت النضال الفلسطيني من قضية سياسية أو أخلاقية إلى قضية إعلامية تمس صورة اليهودي وبالتالي هويته ورويته لها . ولعل الأفلام اليومية على شاشة التلفزيون الأمريكي قد ساعدت على تهية الجو لثورة الأمريكيين اليهود ، وغيرهم من أعضاء الجماعات ، على القيادات الصهيونية ورفضهم تعديل قانون العودة .

وثمة تطوُّر ثالث شديد الأهمية يتمثل في البقعة التي يلتقي فيها يهود العالم بالمستوطن الصهيوني : أي المنظمة الصهيونية العالمية . فقد شهد العقدان السابقان صهينة قطاعات كبيرة من يهود الولايات

وتعرجاته ولا ينبع منها ، ويتجاهل التركيب الجيولوجي للعقائد والجماعات اليهودية ، كما أنه مجرد تعريف عقائدي يفرض نفسه فرضاً على واقع متنوع . فهو يفترض وجود هوية يهودية واحدة رغم وجود هويات يهودية عديدة متنوعة أهمها «الهوية اليهودية الجديدة» التي تُهمّش العنصر اليهودي . والتعريف الصهيوني يرى أن اليهود شعب واحد له تاريخ واحد ، وهم في واقع الأمر جماعات منتشرة لها تجارب تاريخية متنوعة ذات انتماءات قومية وإثنية وطبقية ودينية متعددة . كما أن أعضاء هذه الجماعات ، حين يستوطنون فلسطين المحتلة ، يحملون معهم انتماءاتهم وتجاربهم التاريخية ، شاءوا أم أبوا . وحينما يتبنون تعريفاً صهيونياً لهويتهم ، تنفجر الأزمة إذ تكتشف أغلبيتهم العظمى أنهم ليسوا يهوداً أو أن يهوديتهم مشكوك فيها بل ومرفوضة ، كما حدث لليهود بني إسرائيل والفلاشاه ، وكما سيحدث لليهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لو تم تعديل قانون العودة .

المهاجرين يمكن أن تصل إلى ٣٠٪ . وقد بدأت المؤسسة الحاخامية تحذر من أن إسرائيل قد تصبح دولة غير يهودية . ولكن المؤسسة الإشتنازية الحاكمة (اللا دينية) لا تجد أية غضاضة في استقبال هؤلاء المهاجرين ماداموا سيحلون المشكلة السكانية لإسرائيل ، ولا تمنع في تقبل التعريف العلماني الذي وضعه شارانسكي لليهودي باعتباره من يشعر أنه يهودي مُضطهد . وهو تعريف لا تأخذه ، بطبيعة الحال ، المؤسسة الحاخامية . ولهذا أُسست محكمة شرعية في موسكو للتحقق من الهوية اليهودية للمهاجرين ، الأمر الذي يشير حفيظتهم ويؤدي إلى احتجاج العناصر اللادينية في إسرائيل .

وتُعتبر الأزمة التي تعتمل داخل الدولة الصهيونية ، وفي صفوف الجماعات اليهودية في العالم ، نتيجة لمحاولة تبني التعريف الديني أو التعريف اللاديني الصهيوني للهوية ، أمراً طبيعياً ومتوقفاً . فهذا التعريف لا يأخذ في الاعتبار موجات التاريخ



٤

اليهود والجماعات اليهودية

اليهود : مشكلة التعريف - اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً - الشعب اليهودي -
الشعب - الجماعات اليهودية - طائفة - عبري - إسرائيل - بنو إسرائيل - شعب
إسرائيل - جماعة إسرائيل - عم هارتس - ايشوف - يهودي - صهيوني - إسرائيلي

اليهود : مشكلة التعريف

The Jews : The Problem of Definition

الشارع أو أخي الذي يسكنه اليهود . وهي تشير إلى اليهود من حيث
هم ككل متماسك لا من حيث هم جماعات شتى تكل منها التمازج
العرقي أو الإثني أو الحضاري وتضم في صفوفها أعضاء يهوداً لكل
طوائفه وتصوراته الخاصة به . ولكننا نفترض أن هناك علاقة
عضوية بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم . وأنهم يخضعون
للتحركات نفسها التاريخية التي تجب الانتماءات المختلفة
والتناقضات الكمية والنوعية . وتوجد كميات عمدة في اللغات
الأوروبية الأخرى . مثل جوفيري Juvvne الفرنسية ، وجويدنشا
Guidecca الإيطالية .

ويجذب الصهاينة استحذاء هذا المصطلح لأنه يعبر عن رؤيتهم
وغودجهم التفسيرية . وهذا المصطلح لا يختلف كثيراً في تصنياته
عن مصطلحات مثل «شعب يهودي» أو «الشعب العنصري» .
فهي جميعاً تشير إلى كلاً عسوي منه مث .

الشعب اليهودي

The Jewish People

«الشعب يهودي» عبارة نفترض أن اليهود شعب بأعنى
القومي أو العرقي نمكة . كما نفترض أن لديهم قوميتهم اليهودية
استقنة . ويستطيع القارئ أن يعود إلى مدخل «القومية اليهودية»
والجماعات اليهودية»

الشعب

The People

«الشعب» كلمة تتواتر في الأدبيات الدينية اليهودية والمسيحية
وفي الدراسات الدنيوية أيضاً . ويختلف معنى الكلمة في السياق
الديني عنه في السياق الدنيوي والتاريخي . فهي في السياق الديني
تعني «جماعة دينية» ترتبط بميثاق بينها وبين الإله وتتفني عنها صفة
الشعب بعدم تنفيذها العهد . وهذا الشعب قد يرى نفسه شعباً

كلمة «يهودي» هي من أكثر الدوال إشكالية رغم بساطتها ،
فكلمة «يهودي» يمكن أن تُستخدم للإشارة إلى العبرانيين القدامى
باعتبارهم جماعة عرقية أو إثنية (قوم) أو باعتبارهم جماعة دينية
(شعب مختار) . ثم تُستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود الحاخاميين
والقرائين والسامريين ويهود الصين وإثيوبيا .

ويُشار إلى اليهود باعتبارهم شعباً مقدساً في التراثين الدينيين
المسيحي واليهودي . وبعد ظهور العلمانية ، أصبحوا شعباً عضواً
يُشار إليهم بوصفهم «الشعب اليهودي» أو بالمعنى اللاديني مجرد
«اليهود» (بالإنجليزية : Jewry) . ويُشار إلى السفارد
والإشكناز والصابرا ويهود الولايات المتحدة على أنهم «يهود» .
وتزداد الأمور اختلاطاً حينما يُستخدم الدال «يهودي» للإشارة إلى
يهود العالم وإلى صهاينة العالم والمستوطنين الصهاينة في إسرائيل .
ولعل المصدر الأساسي لهذا الخلط هو التراث الإنجليزي الذي يتحدث
دائماً عن اليهود ككل باعتبارهم «الشعب» ، وهي طريقة للرؤية
ورثها العالم الغربي ككل . ولذا ، نجد أن المحايدين العلمين والمعادين
 لليهود والصهاينة المتحيزين كلهم يتحدثون عن اليهود ككل .

وغني عن القول إن استخدام الدال «يهودي» بهذه الطريقة
يجعله عديم الفائدة ، إذ يشير إلى حقل دلالي متضارب ومدلولات
مختلفة . وسنحاول في مداخل هذا المجلد أن نحدد الحقل الدلالي
لبعض المصطلحات السائدة وأن نقترح مصطلحات جديدة لتحل
محل مصطلح «يهودي» .

اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً

Jewry

«اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً» هي ترجمة للكلمة الإنجليزية
«جوري Jewry» ، والتي كانت تُستخدم أصلاً للإشارة إلى الجيتو أو

مختاراً أو شعباً مقدساً أو أمة الروح أو الأمة المقدسة أو الشعب الأزلي أو المفضل على العالمين ، ومن أسمائه «بنو إسرائيل» و«شعب إسرائيل» . وترى الكنيسة المسيحية أن المسيحيين هم الشعب الحقيقي وأن اليهود قد تحولوا إلى مجرد «شعب شاهد» .

أما في السياق الدنيوي ، فالأمر أكثر تعقيداً ، حيث يعني «الشعب» مجموعة القبائل العبرانية التي تسلت إلى كنعان ثم اتحدت في المملكة العبرانية المتحدة ثم انفكت إلى مملكتين : المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية . وقد اعتبره اليونانيون والرومان «إثنوس» أي قوماً يترأسهم رئيس القوم (إثنارخ) ، ثم تحولوا إلى جماعات يهودية مختلفة منتشرة . وفي العصر الحديث ، عاد الحديث بين الصيانة عن «الشعب اليهودي» أو «الشعب العضوي (فولك)» . وقد قمنا بوضع مصطلح «الشعب العضوي المنبؤ» لوصف رؤية العالم الغربي للجماعات اليهودية .

الجماعات اليهودية

Jewish Communities

«الجماعات اليهودية» مصطلح نستخدمه في هذه الموسوعة بدلاً من مصطلح «اليهود» . ونحن نذهب إلى أن العبرانيين (والعبرانيين اليهود) ، أي اليهود القدامى ، كانوا يشكلون وحدة ثقافية وإثنية تنتم بقدر من التماسك والتجانس والوحدة . ولكن ، مع انتشار اليهود في أرجاء العالم في مجتمعات مختلفة ، لكل تقاليد الحضارية والدينية ، وتواريخها ، تفاعل اليهود مع هذه التقاليد والتواريخ وخضعوا لمؤثراتها ، شأنهم شأن كل الأقليات والبشر . وقد بدأت عملية الانتشار مع التهجير البابلي ، ولكن وتيرتها تصاعدت مع ظهور الحضارة الهلينية والرومانية . وقد اكتملت عملية الانتشار والتفرق مع هدم الهيكل في عام ٧٠م على يد تيتوس ، وكذلك سقوط العبادة القرآنية المركزية وأية سلطة دينية مركزية يهودية . وقد تحول اليهود نتيجة هذه العملية إلى جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة . ونحن نفضل استخدام مصطلح «جماعات يهودية» على مصطلح «يهود» لأن المصطلح الأخير يؤكد التماسك والتجانس والوحدة حيث لا تماسك ولا تجانس ولا وحدة .

وإذا حاول الدارس أن يدرس أعضاء الجماعات اليهودية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين كيهود وحسب فإنه سيحاول دون شك أن يرصد عناصر الوحدة بين هؤلاء اليهود . ومع أن هناك عناصر مشتركة قد تجمع بين هذه الجماعات ، إلا أنها ليست في

أهمية العناصر غير المشتركة من الناحية التفسيرية والتصنيفية . ولعل الاستعراض التاريخي الجغرافي للجماعات اليهودية يوضح هذه النقطة ، فقد كانت الجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم ، في القرنين العاشر والحادي عشر ، تُوجد داخل عدة تشكيلات حضارية سياسية مستقلة وسمت كل جماعة بمسمىها . وقد أصبح أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا أقتان بلاط وتجاراً ومرابيين داخل النظام الإقطاعي ، بل وبدأوا يواجهون مشكلة ظهور طبقات تجارية ومالية محلية . أما يهود العالم الإسلامي فلم يتسموا بتميز وظنفي حاد بل وشاركوا في الثورة التجارية التي ظهرت آنذاك ، وكانوا من الناحية الثقافية جزءاً لا يتجزأ من محيطهم الحضاري كما هو واضح في العصر الذهبي في الأندلس . وقد كانت أعداد من يهود فارس (وربما الهند) قد بدأت تستقر في الصين لأسباب تتصل بالحضارة الصينية (وهو تزايد الحاجة إلى المنسوجات الحريرية) . وكان يهود الخزرد تبعثت دولتهم بسبب صعود القوة السلافية الروسية وتضررها ، ولكنهم كانوا يشاركون في تأسيس المجر . وكان يهود الفلاشاه قد أصبحوا جزءاً من التشكيل الحضاري الأفريقي في إثيوبيا ، وكونوا قبيلتهم بل وملكهم وانخرطوا في الحروب القبلية المختلفة . ولا يمكن لإطار واحد أن يشمل كل هذه الظواهر . ولفهم سلوك هذه الجماعات وحركتها ومصيرها ، لابد من العودة إلى التشكيلات الحضارية التاريخية التي كانوا يُوجدون فيها ، لا إلى جوهر يهودي يتجاوز الزمان والمكان ويشكل وحدتها الجوهرية أو إلى تاريخ يهودي يتطور حسب قوانينه الداخلية ويتطور اليهود في إطاره منعزلين عن تواريخ الجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها .

وقد ازداد عدم التجانس بين الجماعات اليهودية بعد القرن الحادي عشر على المستويين الديني والاجتماعي ، حيث تعمق التوحيد في النسق الديني اليهودي في العالم الإسلامي ، بينما تعمق العنصر الحلولي الكموني في اليهودية الغربية وظهرت عناصر الثنوية والشرك مع هيمنة التراث القبلي . بينما كان يهود العالم الإسلامي يزدادون اندماجاً وتضرراً ، كان يهود العالم الغربي يزدادون انزلاً وتخلّفاً . ولكن ، مع الصعود الاقتصادي للعالم الغربي بعد الثورة التجارية والصناعية والرأسمالية ، نجد أن يهود الغرب مارسوا تحولاً عميقاً ولعبوا دوراً في هذه العملية التي لم تترك أي أثر في يهود الدولة العثمانية أو يهود كوشين في الهند على سبيل المثال .

وفي العصر الحديث ، نجد أن اليهود الأرثوذكس يكفرون الإصلاحيين والمحافظين والتجديدين . ويوجد الآن فريق من اليهود المسيحيين الذين يؤمنون بالمسيح باعتباره الماشيح دون الاعتراف

أعضاء الجماعة اليهودية في فرنسا مشاكل الانقسام ، فمهاجرون اليهود من البلاد العربية لا يتزوجون في كثير من الأحيان من يهود فرنسا الأصليين ، وإن كانت هذه الظاهرة قد بدأت تقل .

كما نجد أن الجماعات اليهودية لا تعترف أحياناً الواحدة بالأخرى . وتضخ هذه الظاهرة بحدة في أمريكا اللاتينية حيث حافظت كل جماعة يهودية على هويتها وبالتالي كان الصدام حاداً بين الجماعات ، خصوصاً بين السفارد والإشكناز . وفي سويسرا ، يجابه اليهود مشكلة أن الذبح الشرعي محظور منذ أمد طويل مع أن سويسرا هي مقر كثير من المنظمات اليهودية . وفي إنجلترا ، يجابه الجيل اليهودي تقديم مشكلة انصراف اليهود عن التعليم اليهودي والتقاليد اليهودية ، فخمسة في المائة فقط من الأطفال اليهود يدخلون مدارس يهودية و ٧٥٪ يدرسون موضوعات اليهودية في مدارس الأحد و ٢٠٪ لا يتفقون أية ثقافة يهودية على الإطلاق . والواقع أن مشكلة التعليم و « الانتماء اليهودي » على وجه التحديد هي مشكلة تواجهها جميع الجماعات اليهودية في الغرب ، وسيبها ازدياد علمانية هذه المجتمعات وانتشار العقلية الاستيعابية التي لا تهتم كثيراً بالتاريخ أو التراث أو الهوية . وما يزيد المشكلة حدة أن الجيل الجديد يدخل طرفاً في زيجات مختلطة ، الأمر الذي لا بد أن يؤدي إلى تناقص عدد أعضاء الجماعة . كما أن أعضاء الأجيال الجديدة يحجمون عن الزواج بشكل عام ، وإن تزوجوا فهم يُحجمون عن الإنجاب . ومن الملاحظ أن متوسط أعمار اليهود في كثير من بلدان الغرب أعلى من متوسط العمر في هذه البلدان بسبب اختفاء العناصر الشابة . وكل هذا يهدد بموت الشعب اليهودي وهي مشكلة لا يعاني منها اليهود الشرقيون بعد .

إن مشاكل الجماعات اليهودية متنوعة ونابعة من وجودها في مجتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف . ولكن استخدام اصطلاح «يهود» على إطلاقه لن يساعد كثيراً على التحليل والتفسير . ومن هنا ، فإننا نرى أن كلاً من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية هما ، في واقع الأمر ، عقائد وهويات تأخذ شكل تركيب تراكمي جيولوجي يحوي داخله طبقات غير متجانسة تعيش بعضها فوق بعض . (وإذا ما أطلقنا على هذا اسم «يهود» و«يهودية» لكان في الأمر تعسف ولي نعتنق الواقع لا يساعدان كثيراً على فهم الظاهرة) . ولذا ، فنحن نشير إلى الاعتقاد وإلى الجماعات اليهودية ، بحيث تؤكد كلمة «جماعات» على استقلال كل جماعة وعلى خضوعها لحركات تاريخية وحضارية مختلفة .

كما أن لفظ «جماعة» أفضل من لفظ «طائفة» أو «أقلية» . فلنفظ

بالهويته . كما أن غالبية يهود العالم إما ملحدون أو لاأدريون أو غير مكترئين بالدين . ويهود الفلاشاه لا يعرفون التلمود ويتعبدون بالجزئية ، مع أن التلمود يُشكل العمود الفقري لليهودية الحاخامية (أي اليهودية الأرثوذكسية) .

وكل جماعة يهودية لها مشاكلها الخاصة النابعة من وجودها داخل بناء تاريخي مستقل ، فيهود الفلاشاه يواجهون مشكلة المجاعات التي تحتاج أفريقيا في الآونة الأخيرة كما بدأوا يواجهون مشكلة التحديث في إسرائيل . أما يهود اليمن ، فهم يواجهون مشكلة عدم توازن المعلمين الدينيين والكتب الدينية بسبب انقطاع صلتهم بمراكز الدراسات الحاخامية في الغرب ، كما يواجهون مشكلة أن اليمن بلد عربي في حالة صراع سياسي حاد مع دولة تُسمي نفسها «الدولة اليهودية» . وهم يعانون أيضاً من التدخل الدائم من المنظمة الصهيونية التي تحاول إنقاذهم شاءوا أم أبوا . واليهود القراءون في إسرائيل يواجهون مشكلة وجودهم في مجتمع تسيطر عليه المؤسسة الحاخامية التي لا يعترفون بها ، وكذلك مشكلة تزايد معدلات العلمنة . أما القراءون في الاتحاد السوفيتي ، فيواجهون مشاكل مختلفة . ومشاكل كلا الفريقين تختلف عن تلك التي يواجهها اليهود القراءون في مصر أو في الولايات المتحدة . واليهود السامريون في نابلس يواجهون مشاكل فريدة باعتبارهم أصغر أقلية دينية في العالم لا تزال محتفظة بعبادتها القربانية المرتبطة بجبل جريزيم . ومشاكل يهود جورجيا تختلف عن مشاكل يهود الكرمشاكاي أو يهود أوكرانيا أو يهود بيروبيجان . ويواجه يهود الولايات المتحدة مشاكل من بينها الخوف من الاندماج (الهولوكوست الصامت) نتيجة تقبل المجتمع لهم ونجاحهم فيه . وهذا التقبل والنجاح يسبب لهم مشاكل مع السود ، فالسود مركزون في المدن نفسها التي يوجد فيها اليهود وعادة ما يشغلون «الجيتو» الذي كان يشغله المهاجرون اليهود قبل أن يحققوا الحراك الاجتماعي وينتقلوا إما إلى جيرة أفضل أو إلى الضواحي . فحي هارلم الشهير كان حياً يهودياً يجعل من « المالك اليهودي » عملاً للرأسمالية الأمريكية المستغلة أمام الأمريكيين السود ، الأمر الذي يسبب كثيراً من المشاكل للجماعة اليهودية ككل . كما أن تزايد وعي السود بأنفسهم ، وبقوتهم ورغبتهم في المشاركة في السلطة ، يجعل احتكاكهم باليهود أكثر حدة بسبب تركُّز الجماعتين في الأماكن نفسها . ويواجه يهود هولندا مشكلة عدم الامتزاج بين الإشكناز والسفارد حتى أن كل طائفة لها مدارسها . وكلا الفريقين يواجه مشاكل ناجمة عن تصاعد معدلات العلمنة في هولندا . ويواجه

وتغريهم . إن هذه الجماعات المختلفة إثنيًا ودينياً يُطلق عليها جميعاً «يهود مصر» كما لو كانت كُلاً واحداً مستمراً بلا انقطاع ، مع أن من الواضح أن ثمة انقطاعات عديدة .

ومن أكثر الأمثلة دراميةً وطرافة يهود القرم ويهود شبه جزيرة تمان المجاورة لها . ويعود تاريخ استقرار اليهود في هذا المكان إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، حينما استجلب مثراديتيس الأكبر مستوطنين يهوداً من آسيا الصغرى ووطنهم ذلك الجزء من مملكته (حول مضيق البوسفور) . ومن المؤكد أنه ، في القرن الأول الميلادي ، كانت توجد مستوطنات من اليهود المتأخرين في المملكة البوسفورية . ولذا ، كانت شواهد قبورهم تُكتَب بكل من اليونانية والعبرية ، كما كان الحال في مصر بعد تأغرقهم . وهناك وثائق تدل على وجود جماعة استيطانية قتالية من عبدة الإله الأعظم . وقد حطمت قبائل الهن هذه المملكة في عام ٣٧٠ مما ساهم في تزعج الصبغة الإغريقية عن الجماعة اليهودية . ثم غزت الإمبراطورية البيزنطية هذه المنطقة في القرن السادس ، ولابد أن هوية اليهود في هذه المنطقة قد تغيّرت بتغيّر التشكيل الحضاري الذي ساد فيها . وفيما بعد ، غزت قبائل الحَزَر شبه جزيرة القرم في منتصف القرن السابع ، وهو ما أدّى إلى دخولها في فلك إمبراطورية الحَزَر فتترك اليهود فيها وتهوّدت النخبة الحاكمة . وبعد سقوط دولة الحَزَر ، التي اختفى أثر لها في القرم في القرن الحادي عشر ، اكتسح التتار شبه الجزيرة عام ١٢٢٧ . وقد اندمج اليهود في التتار أيضاً وتبنوا لغتهم وأزياءهم . وهؤلاء هم أسلاف يهود الكرمشاكلي الذين انتقلت بقاياهم مؤخراً من الاتحاد السوفيتي إلى الولايات المتحدة . وتحت حكم التتار ، بدأ القراءون يدخلون القرم . وقد قامت مدينة جنوة بتأسيس بعض مستعمرات تجارية على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة في منتصف القرن الرابع عشر . ويبدو أن بعض أعضاء الجماعة اليهودية اكتسبوا الثقافة الإيطالية أو انضم إليهم يهود من إيطاليا . ونحن نعرف أن الجماعة اليهودية في تمان كان يرأسها (عام ١٤١٩) يهودي إيطالي يدعى سيمون دي جوبزولفي .

ومع سقوط القسطنطينية عام ١٥٤٣ ، أصبحت القرم تابعة للدولة العثمانية . ولابد أن هذا ترك أيضاً أثره الثقافي في اليهود . ثم ضمت روسيا القرم في عام ١٧٨٣ ، وبدأت هجرة العناصر الإشكنازية ، كما بدأ تحديث يهود القرم .

ورغم كل هذه التحولات اللغوية والحضارية ، يُشار لهم باسم «يهود القرم» بكل ما ينطوي عليه المصطلح من استمرار وتجانس وعدم انقطاع حيث لا استمرار ولا تجانس ، وإن وُجدت عناصر

«طائفة» يشير عادة إلى طائفة دينية ، بينما يؤكد لفظ «أقلية» الجانب الكمي للظاهرة . أما كلمة «جماعة» ، فهي وإن كانت لا تؤكد الجانب الكمي (أي عدد اليهود كأقلية) ، إلا أنها لا تستبعد تماماً . كما تتضمن فكرة أنها جزء من كل أكبر ، كما أن كلمة «جماعة» ، وهذا هو الأهم ، تؤكد أن ثمة عناصر تُميّز هذه المجموعة البشرية وأن هذه العناصر ليست دينية وحسب ، فقد تكون حضارية أو ثقافية أو وظيفية . ونحن حين نستخدم اصطلاح «جماعة وظيفية» ، فإننا نربط على مستوى المصطلح بين «الجماعة اليهودية» و«الجماعة الوظيفية» . وما يجدر ذكره أن العرب ، في شبه جزيرة أيبيريا ، استخدموا لفظ «الجماعة» للإشارة إلى اليهود ، وقد استبقاه المسيحيون من بعدهم . والمقدرة التفسيرية لمصطلح «الجماعة اليهودية» أعلى بكثير من مصطلح «اليهود» الذي يجعل الباحث يواجه اليهود كتلة متماسكة لها قوانينها الخاصة المقصورة عليها ولها منطقها الداخلي . أما مصطلح «أعضاء الجماعات اليهودية» ، فيؤكد عدم التجانس وعلى استقلال كل جماعة عن الأخرى ، ويؤكد أن هذه الجماعات قد تكون خاضعة لقوانينها الخاصة ومنطقها الداخلي (من حيث هي يهودية) ولكنها مع ذلك خاضعة أيضاً لقانون أكبر ومنطق أشمل من حيث هي «جماعات» تشكل جزءاً من كل ، فهو إذن مصطلح يعيّن الظاهرة باعتبارها ظاهرة يهودية ولكنه لا يجعل هذا الأمر النقطة المرجعية الأساسية بل مجرد نقطة فرعية ، إذ تظل الحقيقة الأساسية المرجعية أنها جماعة بشرية في مجتمع الأغلبية ، وأنها جزء من كل تاريخي حضاري أكبر تستمد منه هويتها وترقى حركيتها بريقه وتحدر وتهوي بانحداره وسقوطه ، شأنها في هذا شأن الجماعات المماثلة .

ومن المفيد أن نؤكد أن مصطلحاً مثل «الجماعات اليهودية في مصر» قد يكون مضللاً رغم أنه يشير إلى يهود مصر ، فلابد من تأكيد البُعد الزمني إلى جانب البُعد الجغرافي . والواقع أن يهود مصر ، على سبيل المثال ، يبدأ تاريخهم منذ أن كانوا في مصر عبيداً عبرانيين يتحدثون لغة المصريين القدماء أو ربما لغة أخرى لا نعرف ما هي (ثم حينما تسلموا إلى كنعان اكتسبوا لسان كنعان) . وكانت حامية إلفنتاين العبرانية ، في عهد الأسرة ٢٦ ، تتحدث العبرية والآرامية . وتتعدد حسب صبغة وثنية يهودية إذ كانوا يعبدون يهوه وآلهة أخرى . ثم نجد أن يهود مصر راحوا يتأغرقون بعد ذلك ويتخذون من اليونانية لغة لهم ، كما اكتسبت عبادتهم بعداً هيلينياً . وأخيراً ، بعد الفتح الإسلامي ، استعرب يهود مصر وأصبحت يهوديتهم أكثر توحيدية . وفي العصر الحديث ، تم علمتهم

تسمية أخرى هي «بنو إسرائيل» أو «جماعة إسرائيل» أو «إسرائيلي»، ثم يأتي بعد ذلك لفظ «يهودي» للتعبير عن المسمى نفسه .

والكلمة ذات معانٍ ومدلولات عديدة ، فيرى بعض الكتاب أن الكلمة ترادف كلمة «عيسوي» التي ترد في المدونات المصرية ، و«خابيرو» التي ترد في المدونات الأكادية . ولكن البعض الآخر يُشكك في هذا الاشتقاق باعتبار أن كلمة «عبري» صفة تدل على النسب أو الانتماء لوجود ياء النسب في آخرها ، في حين أن كلمة «خابيرو» أو «حبيرو» لا تعني غير الزمالة والمراقبة .

ومن الآراء المظروحة أيضاً أن كلمة «عبري» مشتقة من «العبور» من عبارة «عبر النهر» : «فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد» (تكوين ٣١/٢١) . ويرى البعض أنه حين يقول الساميون «عبر النهر» دون ذكر اسم هذا النهر فإنهم يعنون نهر الفرات ، والإشارة هنا إلى عبور يعقوب الفرات هارباً من أصهاره . ويرى بعض الباحثين أن عبور يعقوب النهر هو أساس اسم العبرانيين ، حيث يتسبون إلى من قام بهذا العبور ، أي يعقوب الذي سُمي «إسرائيل» .

وربما كان الاسم إشارة إلى جماعة قبلية إثنية كبيرة . ويظهر هذا الاستعمال في العلاقة بين المصطلح «عبري» واسم «عابر» حفيد سام (تكوين ١٠/٢٤-٢٥ ، ١١/١٥-١٦) الذي تتسب إليه مجموعة كبيرة من الأنساب . ولكن أول شخص يُشار إليه بأنه عبري هو إبراهيم (تكوين ١٤ ، ١٣) في سياق لا يدل على أن الإشارة إشارة إثنية ، وإنما إشارة تدل على الوضع الاجتماعي باعتباره غريباً أو أجنبياً ليست له أية حقوق . وتشير كلمة «عبري» في التوراة إلى العبرانيين أيضاً باعتباره غريباً . والعبري «غريب في منزلة الخادم» ويدل هذا على أن كلمة «عبري» هنا تشير إلى غير اليهودي في حكم التوراة ، ويظهر هذا في الأحكام الخاصة بشراء عبد عبري (خروج ٢١/٢) .

وثمة رأي يذهب إلى أن العبرانيين كانوا غريباء في مصر مدة طويلة ، وبالتالي ارتبط الاسم بهم ، ونحوً من صفة لوضع اجتماعي إلى وصف لجماعة إثنية . ولذا ، فإن ثمة إشارات إلى يوسف على أنه غلام عبراني (تكوين ٤١/١٢) ، أو رجل عبراني (تكوين ٣٩/١٤) . كما أن ثمة إشارة أيضاً إلى النساء العبرانيات (خروج ١٩/١) . ورغم أن الإشارة ذات طابع إثني واضح ، فإنها لم تفقد بعدها الاجتماعي تماماً . وفي سفر التكوين نجد إشارة إلى يوسف كعبد عبراني (١٨/٣٩) وهي إشارة ذات دلالة تخلط العنصرين الإثني والطبقي .

استمرار فإنها لا تكون في أهمية عناصر الانقطاع وعدم الاستمرار . ولذا ، نقترح أن نقول «يهود القرم في العصر الحزري» و«يهود مصر في العصر البطلمي» وهكذا .

وأخيراً ، يجب ملاحظة أن إحدى الدول قد تضم جماعة يهودية واحدة متجانسة حضارياً وتضم دولة أخرى عدة جماعات . فالجماعة اليهودية في إنجلترا ، مثلاً ، جماعة واحدة يتصف معظم أعضائها ببعض السمات الأساسية ، وغالبيتهم الساحقة يتحدثون الإنجليزية . والأمم المتحدة ينطبق على يهود الولايات المتحدة ، حيث توجد جماعة يهودية رئيسة يتحدث أعضاؤها الإنجليزية وجماعات أخرى صغيرة للغاية مهملة إحصائياً ، خصوصاً أن أعضائها في طريقهم إلى الاندماج والاختفاء . هذا على عكس يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، فقد كانت أغليبيتهم الساحقة من يهود اليديشية الإشتكاز الذين اصطبغوا بالصبغة الروسية ، ولكن كانت هناك جماعات أخرى (تشكل حوالي ١٥٪) لها هويات أخرى . والشيء نفسه ينطبق على أمريكا اللاتينية ، فما نقوله عن الجماعة اليهودية في إنجلترا والولايات المتحدة ، وكذلك ما يُقال عن الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، يصدق على الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية .

طائفـة

Community; Taifa

كان يُشار لكل جماعة يهودية بأنها «طائفة» ، فكان يُشار إلى «طائفة اليهود» وإلى «الطائفتين» (القرآنيين والهاخامين) وإلى «رئيس الطائفة اليهودية» . ويقوم بعض الدارسين العرب في الوقت الحاضر باستخدام هذا المصطلح . وقد أثرت استخدام «جماعة» لأنه أكثر عمومية من طائفة ، فكلمة «طائفة» مرتبطة بالتشكيل الحضاري والسياسي الإسلامي وكان المطلوب هو التوصل إلى مصطلح أكثر عمومية ليضم كلاً من طوائف اليهود في العالم الإسلامي والجماعات اليهودية في بقية العالم ومن هنا استقر اختيارنا على هذا المصطلح . هذا وقد استُخدم لفظ «الجماعة» للإشارة إلى الجماعة اليهودية في كلٍّ من إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية .

عبري

Hebrew

«عبري» هي أقدم التسميات التي تُطلق على أعضاء الجماعات اليهودية ، ويُقال أيضاً «عبراني» ، وجمعها «عبرانيون» . وهناك

«عبراني يهودي» للإشارة للعبرانيين في الفترة ما بعد العودة إلى بابل (٥٣٨ ق.م) حتى سقوط الهيكل (٧٠م)، فإبان هذه الفترة بدأت ملامح النسق الديني اليهودي كما نعرفه في التحدد مع بداية الفترة واكتملت مع نهايتها . ومع هذا ، كانت العبادة القربانية المركزية لا تزال الإطار الديني المرجعي الأساسي للعبرانيين اليهود . ولكننا ، مع هذا ، نستخدم كلمة «يهودي» وحدها للإشارة إلى العبرانيين اليهود من قبيل التبسيط ، وحتى لا يصبح هيكل المصطلحات مركباً لدرجة يصعب معها استخدامها . ويستطيع القارئ أن يعود إلى مدخل «الهويات اليهودية (تاريخ)» .

يسرائيل

Israel; Yisrael

«يسرائيل» كلمة عبرية قديمة غامضة المعنى ، يمكن تقسيمها إلى «يسرا» ، أي الذي يحترق أو يصارع ، و«إيل» وهو الأصل السامي لكلمة «إله» . والكلمة تعني حرفياً «الذي يصارع الإله» أو «جندي الإله إيل» ، وفي كل التفسيرات معنيان أساسيان هما معنى الصراع والحرب ومعنى القداسة .

ومما يجدر ذكره أن كلمة «يسرائيل» وردت في الكتابات المصرية في عهد مرتباحت في عام ١٢٣٠ ق.م بوصفها اسماً لأحدى المدن ، أو ربما لطن من بطون القبائل في جنوبي كنعان . ولعل هذا يدل على أن الكلمة كنعانية الأصل ، وأنها كانت ذات ارتباطات مقدسة بين سكان المنطقة آنئذ . وهناك نظرية تذهب إلى أنها كانت اسم بطن من بطون القبائل العبرانية .

وقد اكتسب يعقوب هذا الاسم بعد أن صارع الإله في حادثة غامضة لا يفهم مكنونها أو دلالتها «فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذه يعقوب في مصارعة معه . وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركني . فقال ما اسمك ، فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يسرائيل ، لأنك جاهدت مع الإله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك . فقال لماذا تسأل عن اسمي ، وباركه هناك» (تكوين ٣٢/٢٥-٢٩) . والقصة متأثرة بعناصر الملحمة الأكادية ، حيث يكتسب البطل بصراعه المادي مع الإله صفات تجعله فوق البشر أو نصف إله ، وتكسبه بانتصاره على الإله حق نصرة الإله له دائماً في علاقاته مع الآخرين . وهذا الصراع مع الإله يشبه وقائع مماثلة في الأساطير اليونانية .

وترد كلمة «عبري» أحياناً مرادفة لكلمة «يهودي» على نحو ما جاء في سفر إرميا (٩/٣٤) : «أن يُطلق كل واحد عبده وكل واحد أمته ، العبراني والعبرانية ، حرين حتى لا يستعبدهما ، أي أخويه اليهوديين ، أحد» . كما كانت الكلمة مرادفة لكلمة «يسرائيلي» (خروج ١٩/٤-٤) : «هكذا يقول الرب إله العبرانيين . . . ويميز الرب بين مواشي يسرائيل ومواشي المصريين» . وفي صمويل الأول (٩/٤) ، يقول أحد الفليستيين : «تشددوا . . . وكونوا رجالاً لثلاً تُستعبَدوا للعبرانيين» وهو يتحدث عن جماعة يسرائيل . ويُفضل بعض الصهاينة العلمانيين أن يستخدموا كلمة «عبري»

أو «عبراني» على استخدام كلمة «يسرائيلي» أو «يهودي» باعتبار أن الكلمة تشير إلى العبرانيين قبل اعتناقهم اليهودية ، أي أن مصطلح «عبري» يؤكد الجانب العرقي على حساب الجانب الديني فيما يُسمى «القومية اليهودية» . بل إن بعض أصحاب الاتجاهات الإصلاحية والاندماجية ، في مرحلة من المراحل ، كانوا يفضلون كلمة «عبري» على كلمة «يهودي» بسبب الإيحاءات القدحية للكلمة الأخيرة . وقد ظهرت في هذه الأونة كلية الاتحاد العبري Hebrew Union College وجماعة هيباس (وهي اختصار Hebrew Immigration Aid Society ، أي الجمعية العبرية لمساعدة المهاجرين) . كما أنهم في إسرائيل ، يشيرون عادة إلى اللغة العبرية والأدب العبري والصحافة العبرية ، ولكننا نفضل استخدام «عبراني» للإشارة إلى اليهود القدامى من حيث هم تجمع بشري حضاري ذو خصائص متميزة . أما لفظ «عبري» ، فنقصر استخدامه على الناحية اللغوية والأدبية ، كما نستخدم كلمة «جماعة يسرائيل» (أو «يسرائيلي») للإشارة إلى العبرانيين القدامى من حيث هم تجمع ديني ، تميزاً لهم عن الصهاينة المستوطنين في فلسطين ، وعن أبنائهم الذين يمكن أن نطلق عليهم مصطلح «إسرائيليين» ، على أن تظل كلمة «يهودي» مصطلحاً يشير إلى المؤمنين باليهودية ، بغض النظر عن انتمائهم العرقي أو الإثني أو الحضاري ، ويشير إلى كل من يطلق على نفسه هذه الصفة .

ونحن في هذا لا نختلف كثيراً عن الاستعمال الشائع للكلمة . ويقول الدكتور ظاظا : «بعد العودة من بابل في القرن الخامس قبل الميلاد ، اقتصر استخدام مصطلح «عبرانيين» على الإشارة إلى الرعي الأول من اليهود حتى عصر التهجير البابلي ، واستُخدمت كلمة «يهود» أو «يسرائيلي» للإشارة إلى الأجيال التي أتت بعد ذلك ، والتي لم تُعد تستخدم اللغة العبرية وإنما تتحدث الآرامية وتكتب بها» .

ولعل الدقة الكاملة كانت تتطلب أن نستخدم اصطلاح

فإننا لا نستخدم هذه العبارة . وترد عبارة «بني إسرائيل» للإشارة إلى الجماعة اليهودية التي توجد في الهند وتعمل هذا الاسم .

شعب يسرايل

The People of Yisrael

«شعب يسرايل» هو أحد الأسماء التي تُطلق على العبرانيين من حيث هم جماعة دينية قديمة تسبق تبلور اليهودية ، وهو مرادف للكلمات «بني يسرايل» و«اليسرائيليين» . وكذلك «كنيست يسرايل» أي «جماعة يسرايل» .

جماعة يسرايل

Israel: Yisrael

«جماعة يسرايل» مصطلح قمنا باشتقاقه من كلمة «يسرايل» ، وهي كلمة من المعجم الديني اليهودي وتعني «الذي يصارع الإله» . ونحن نستخدم الكلمة تشير إلى العبرانيين القدامى من حيث هم جماعة دينية مقابل العبرانيين القدامى كجماعة عرقية أو إثنية . ومن ثم تشير إلى عقيدته باعتباره «عبدة يسرايل القربانية المركزية» لتمييزها عن اليهودية التي هي ثمرة تطورات مختلفة دخلت على هذه العادة في بابل وبعد العودة منه وخلفتها من جوانبها الوثنية . كما نستخدم كلمة «يسرايل» للإشارة إلى مملكة يسرايل الشمالية العبرانية (مقابل مملكة يهوذا الجنوبية) لتمييزها عن دولة إسرائيل الحديثة . أما المستوطنون اليهود من مواطني الدولة الصهيونية ، فنحن نشير إليهم عن أنهم «يسرائيليون» .

ونحن نفعل ذلك حتى لا نخلط بين النسق الديني اليهودي والواقع الاستيطاني في فلسطين المحتلة . ولا نخلط بين العبرانيين القدامى والمستوطنين الصهاينة ، وهو خلط يحرص كل من الإمبريالية الغربية والمؤسسة الصهيونية عليه باستخدام دال واحد يشير إلى مدلولين مختلفين تلايهم بوجود استمرار وتراؤف بين النسق الديني والواقع الاستيطاني ، وبالتالي إكساب عملية الاغتناب الصهيوني لفلسطين شرعية بل وقداصة ، وكذلك تصوير الهجوم على المستوطنين الصهاينة على أنه معاداة لليهود ونوع من التعصب الديني !

ونستخدم كلمة «يهودي» للإشارة إلى أعضاء الجماعات اليهودية بعد صدور مرسوم قورش بعودة المهجرين إلى بابل . أما كلمة «صهيوني» فهي تشير إلى كل من يؤمن بالعقيدة الصهيونية بغض النظر عن انتمائه الديني .

وكلمة «يسرايل» تشير أيضاً إلى نسل يعقوب ، ثم أصبحت تشير إلى المملكة الشمالية «يسرايل» قبل التهجير الآشوري . ثم استخدمت الكلمة للإشارة إلى سكان المملكة الجنوبية «يهودا» بعد سقوط مملكة يسرايل إلى أن حلت كلمة «يهودي» محلها .

وللكلمة في دلالتها الاصطلاحية معنيان أساسيان : فهي تعني اليهود بوصفهم شعباً مقدساً ، وتعني فلسطين بوصفها أرضاً مقدسة . وهي ترد مضافة إلى كلمات أخرى ، مثل : «عام يسرايل» أي «شعب إسرائيل» و«بنو يسرايل» أي «بنو إسرائيل» ، و«بيت يسرايل» أي «بيت إسرائيل» . و«كنيست يسرايل» أي «مجمع إسرائيل» أو «جماعة يسرايل» . وقد بُعثت كلمة «يسرائيلي» مرة أخرى ، في عصر الانعتاق ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، كما بعث أيضاً كلمة «عبراني» لأن كلمة «يهودي» كانت تحمل إيحاءات سلبية .

وفي العصر الحديث ، تُستخدم عبارة «مدينة إسرائيل» العبرية للإشارة إلى الدولة الصهيونية وكلمة «إسرائيليين» للإشارة إلى أعضاء التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين . ولكننا ، إذا أردنا التفارقة ، فمن المستحسن أن نطلق كلمة «إسرائيليين» على سكان التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وحدهم ، وأن نسمي اليهود القدامى ، من حيث هم تجمع بشري له خصائص إثنية متميزة ، «عبرانيين» (ومفردها عبراني) وأن نسميهم «جماعة يسرايل» (وأحياناً «اليسرائيليين») لنصفهم من حيث هم جماعة دينية ، على أن تظل كلمة «يهودي» مصطلحاً يشير إلى كل من يعتنق اليهودية وهي العقيدة التي اكتسبت ملامحها الرئيسية في القرن الأول قبل الميلاد . مصطلح «عبري» فيصْلح في الناحيتين اللغوية والأدبية وحسب .

بنو إسرائيل

Banu Israel

«بنو إسرائيل» عبارة ترد في القرآن الكريم (وفي كثير من الكتب الفقهية الإسلامية) للإشارة إلى اليهود . كما توجد كلمات أخرى ، مثل : «أهل الكتاب» و«الكتابيون» و«أهل الذمة» و«الذميون» تشير إلى كل من اليهود والمسيحيين . وقد عُرِفَ النطاق الدلالي لكلمة «بني إسرائيل» إسلامياً بشكل واضح ومحدد ، فهي تشير إلى جماعة محددة الأوصاف يؤمن أصحابها بالإله والتوراة . ومن ثم ، فإن هذا المصطلح لا ينطبق على غالبية يهود العالم في الوقت الحالي . لكن هؤلاء هم موضع الدراسة في هذه الموسوعة ، ومن ثم

عم هارتس

Am Haaretz

«عم هارتس» عبارة عبرية تعني حرفياً «شعب الأرض» ، أي «أبناء الأرض» . وقد وردت هذه العبارة في العهد القديم بمعنيين ، الأول للإشارة إلى سكان فلسطين الأصليين مثل الحيشيين الذين اشترى منهم إبراهيم مغارة مكفيلة (تكوين ٢٣) مقابل العبرانيين . أما المعنى الثاني ، فيشير إلى السامريين والأقوام الأخرى التي كانت تسكن فلسطين وعارضت استيطان العبرانيين العائدين من بابل (عزرا ٤) .

وكانت العبارة تُستخدم كذلك للإشارة إلى عامة العبرانيين مقابل الأسرة المالكة والنبلاء والطبقة العسكرية والكهنة والأنبياء ، وذلك قبل التهجير البابلي . ولكن بعد العودة من بابل ، حيث صارت النخبة الحاكمة هي الكهنة أساساً ، أصبحت العبارة تشير إلى الشعب مقابل الكهنة الأثرياء . وقد أخذت الحواجز بين الفريقين في التحدد والتبلور ، فكانت طبقة الكهنة تقيم جميع شعائر الطهارة الخاصة بالعبادة القربانية ، كما كانت تلقى العشر من المصلين ولا تأكل طعاماً إلا إذا دُفعت ضريبة العشر عنه . وقد قام الفريسيون والفرق اليهودية الأخرى ، مثل الأسينيين ، بإقامة شعائر الطهارة رغم أنهم لم يكونوا من طبقة الكهنة ، وكانوا أيضاً لا يأكلون من محاصيل لم تُدفع عنها العشر . وحتى يضمنوا أن يظلوا ضمن النخبة الحاكمة الطاهرة ، كانوا حريصين على الإبقاء على الحواجز الفاصلة بينهم وبين العامة .

ولكن رغم توسيع نطاق النخبة ليشمل الفريسيين وغيرهم ، ظلت أعداد كبيرة من اليهود غير قادرة على إقامة شعائر الطهارة بسبب تزميتها وصرامتها ، خصوصاً في المناطق التي ضمها الحشمونيون وهودوا أهلها عنوة (الإيطوريون والأدوميون الذين أصبحوا يهوداً ولكنهم باتوا ينوءون تحت نير هذه الشعائر) . وقد توجهت المسيحية إلى هؤلاء فانضموا إلى صفوفها ، إذ أن الدين الجديد لم يثقل المؤمن بقيود شعائر الطهارة والعبادة القربانية .

ومع هدم الهيكل ، فقدت العبارة معناها القديم حيث اختفت قوانين الطهارة والعبادة القربانية مع اختفاء الهيكل . ومع ظهور المعبد كمركز للعبادة اليهودية ، أصبحت العبارة تفيد معنى قديماً وتشير إلى اليهودي الذي لا يرتدي تمام الصلاة (تيفلين) ، ولا الشال (طاليت) ، ولا يضع تائم الباب (مززاه) على منزله ، ولا يعلم أولاده التوراة . بل وتشير العبارة إلى العامة الذين لا يتفرغون لدراسة التوراة مقابل النخبة الحاخامية التي تفرغت لها . ويبدو أن

الهوة قد اتسعت بين الفريقين حتى أن الحاخام عقيبا ، الذي بدأ دراسته في سن متأخرة ، قال إنه حين كان ضمن عم هارتس (أي العامة) كان من الممكن أن ينهش لحم أي حاخام يقابله في طريقه . وقد جاء في التلمود أن العالم يجب ألا يتزوج من ابنة أحد من العم هارتس فهم كريهون وزوجاتهم مثل الديدان وينطبق على بناتهم ما جاء في التوراة " ملعون من يضطجع مع بهيمة " (تثنية ٢٧/ ٢١) . فعبارة عم هارتس تعني ببساطة «الإنسان الجاهل» ولو أنها ، عند الحسيديين ، كانت تعني «الساذج وطيب القلب» .

وقد استمر التمييز الحاد بين النخبة والعامة من يهود اليديشية ، فهم يميزون بين «شيد يدين» ، وهي عبارة يديشية تعني «الرجال الذين يتحللون بالجمال» ، وبين «بروست يدين» ، أي الرجال العاديون ، وهي تكاد تكون مرادفاً يديشياً لعبارة «عم هارتس» . وفي العصر الحديث ، تُطلق كلمة «عم هارتس» أحياناً على اليهود السفارد والشرقيين والفلاشاه .

اليشوف

Yishuv

«يشوف» كلمة عبرية تعني «التوطن» أو «السكن» ، وهي تشير إلى الجماعات اليهودية التي تستوطن فلسطين لأغراض دينية . ويُستخدم اصطلاح «اليشوف القديم» للإشارة إلى الجماعات اليهودية التي كانت تعيش على الصدقات التي ترسلها لهم الجماعات اليهودية فيما يُعرف باسم «حالوقه» . وكان اليشوف القديم يتكون من جماعتين منفصلتين تمام الانفصال : الأولى إشكنازية والأخرى سفاردية ، وكانت كل جماعة تنقسم بدورها إلى أقسام فرعية مختلفة حسب مصدر الصدقة التي تأتي لها (وهذا يذكرنا ببعض الشيء بالنظام الحزبي في إسرائيل ونظام تمويله عن طريق مساعدات يهود الدياسبورا ، فحزب حيروت مثلاً يحصل على أكبر قسط من المعونة من اليهود اليمينيين وبالذات في جنوب أفريقيا ، أما حزب الماباي فيموله اليهود الليبراليون في الغرب) .

ولم يكن عند أعضاء اليشوف القديم أية مطامع سياسية لأن الغرض من وجودهم كان دينياً محضاً ، ولذلك كانت علاقاتهم بالعرب طبيعية وطيبة للغاية . وعلى العكس من هذا كان أعضاء اليشوف الجديد (وهو الاصطلاح الذي يطلقه الصهاينة على التجمع الاستيطاني الصهيوني ابتداءً من عام ١٨٨٢) ، إذ كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم جماعة «قومية» ذات برنامج سياسي محدد يتلخص في إنشاء الوطن اليهودي . ولذلك ، ركزوا جهدهم في

التاريخية ، بهذا التعريف العرقي . فكان يُعرّف اليهودي تعريفاً دينياً وحسب . أي أنه عرّفه بأنه من يعتنق اليهودية سواء كان من الحاخاميين أو القرّائين أو السامريين . وثمة اختلاف جوهري بين التعريفين ، فأحدهما عقائدي محض والآخر ديني عرقي . وبالتالي تنشأ مشكلة من هو اليهودي ، وهل اليهودي هو الذي يعتقد أنه كذلك من منظور يهودي أم أنه اليهودي الذي نسميه نحن كذلك انطلاقاً من عقيدتنا ؟

أما في العالم الغربي . فقد مرت الكلمة بعدة تطورات دلالية . ففي العالم الهيليني والدولة الرومانية ، كانت كلمة «يهودي» تشير إلى الفرد في الإثنوس أي القوم اليهودي . وكانت مسألة العقيدة ثانوية . وفي العصور الوسطى الكارولنجية في الغرب ، حتى القرن الحادي عشر الميلادي ، أصبحت كلمة «يهودي» تعني الانتماء إلى الجماعة اليهودية . كما كانت مرادفة لكلمة «تاجر» . وبعد القرن الحادي عشر الميلادي ، أصبحت كلمة «يهودي» مرادفة لكلمة «مراي» . ولم تختص اللغات الأوربية تماماً من تلك الانتماءات التي كانت تُحمل كلمة «يهودي» معنى قديحاً ، مثل «بخل» أو «غير شريف» أو «عبد للمال» وغير ذلك من المعاني التي ارتبطت بأعضاء الجماعات اليهودية ، نظراً لاضطرارهم بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة التي هي محط كراهية أعضاء المجتمع المضيف . وهذا ما كان يعنيه ماركس حينما تحدّث عن انتشار العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في المجتمع بوصفه «تهويد المجتمع» . ويساوي الفكر الاشتراكي الغربي ، خصوصاً كتابات فورييه ، بين اليهودي والمراي . وفي اللغة الإنجليزية . ارتبطت الكلمة باسم يهوذا Judas الإسكريوطي الذي باع المسيح بحفنة قطع من الفضة .

ولذا . أسقط بعض اليهود . في القرن التاسع عشر الميلادي ، مصطلح «يهودي» واستخدموا مصطلحات مثل «عبراني» و«إسرائيلي» و«موسوي» حتى أصبحت كلها مترادفة . ولكن حدث تراجع عن ذلك بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح مصطلح «يهودي» أكثر شيوعاً . وكثير من المعاجم الأوربية لا تورد الآن المعاني القديحة لكلمة «يهودي» بل وتوصي بعدم استخدامها . ويلاحظ أن كلمة «يهودي» بدأت ، منذ القرن التاسع عشر الميلادي ، تحمل إحياءات بالقداسة مع بُعْث أسطورة اليهودي ذاته وإعطائها مضموناً إيجابياً . ومع ظهور حركة التنوير وضعف اليهودية الحاخامية ، ترك كثير من اليهود عقيدتهم الدينية واستمروا في تسمية أنفسهم «يهوداً» ، وهذا ما يُطلق عليه «اليهودي غير اليهودي» . وبين هؤلاء نجد «اليهودي الملحد» و«اليهودي العلماني» و«اليهودي الإنسي» من

تأسيس أبنية اقتصادية سياسية حضارية منعزلة تمام الانعزال عن العرب (بل وعن أعضاء اليشوف القديم) ، كما كانوا يدورون في إطار مفاهيم انعرالية مثل اقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج . وقد تسبّب هذا في حدوث توتر ثم صراع حاد أدّى إلى نشوب القتال بينهم وبين العرب ، وهذا الصراع هو الذي يُعرّف الآن باسم الصراع العربي الإسرائيلي .

والملاحظ أن الكتابات الصهيونية تستخدم كلمة «يشوف» لتوحي بأن ثمة استمراراً يهودياً عبر التاريخ ، وأن الوجود اليهودي في فلسطين كان مستمراً ومتصلاً ، وفي الوقت نفسه مستقلاً ومنفصلاً عن تاريخ المنطقة العربية .

يهودي

Jew

كلمة «يهودي» كانت تشير إلى الشخص الذي يعتنق اليهودية ، وقد ظهرت بعد الكلمتين الآخرين «عبراني» و«إسرائيلي» أو عضو «جماعة إسرائيل» . و«يهودي» كلمة عبرية مشتقة من «يهودا» وهو اسم أحد أبناء يعقوب والذي سُميت به إحدى قبائل العبرانيين الاثنتي عشرة .

والاسم مُشتق من الأصل السامي القديم «ودي» التي تفيد الاعتراف والإقرار والجزاء مثل كلمة «دية» عند العرب . وقد اكتسبت هذه المادة معنى الإقرار والاعتراف بالجميل . وقد استوحت لينة زوجة يعقوب اسم ابنها الرابع من هذا المعنى : « هذه المرة أحمد الرب لذلك دعت اسمه يهوذا » (تكوين ٢٩ / ٣٥) . فكلمة «يهود» تعني الرب و«دي» تعني الشكر ومنهما «يهودي» .

وكانت الكلمة ذات دلالة جغرافية تاريخية في بادئ الأمر ، إذ كانت تشير إلى سكان المملكة الجنوبية (يهودا) وحسب ، ولكن دلالتها اتسعت لتشمل اليهود كافة ، خصوصاً بعد انصهار سكان المملكة الشمالية (إسرائيل) بعد التهجير الآشوري ، واختفائهم من مسرح التاريخ ، واستمرار مملكة يهوذا قرنين من الزمان .

وهكذا أصبحت كلمة «يهودي» علماً على كل من يعتنق اليهودية في أي زمان ومكان بغض النظر عن انتمائه العرقي أو الجغرافي . ومن هنا ، فإن فيلون السكندري يهودي ، وموسى بن ميمون العربي يهودي . ولكن المسألة ليست بهذه البساطة ، فكلمة «يهودي» متسعة الدلالة تختلف دلالتها باختلاف الزمان والمكان .

ومع أن الشرع اليهودي قد عرّف اليهودي بأنه من وكّد لأم يهودية أو تهوّد ، فإن الشرع الإسلامي لم يقبل ، في جميع مراحل

ونحن نستخدم كلمة «عبراني» للإشارة إلى اليهود القدماء كَتَجْمُعٍ إثني ذي خصائص متميزة . وكلمة «جماعة إسرائيل» تشير إلى المجموعة البشرية نفسها كَتَجْمُعٍ ديني . وتُستخدم كلمة «إسرائيل» للإشارة إلى المُستوطن الصهيوني أما السكان ، فهم «إسرائيليون» . كما أننا نستخدم عبارة «أعضاء الجماعات اليهودية» للإشارة إلى يهود العالم بعد المرحلة البابلية ، ولا نستخدم كلمة «يهود» أو «يهودي» إلا إذا تطلّب السياق ذلك ، كأن ننقل وجهة نظر أحد الباحثين أو إن كان الحديث عن اليهود كجماعة دينية . وبسبب اختلاط المجال الدلالي للكلمة ، فإننا نضطر إلى استخدام كلمة «يهود» للإشارة إلى اليهود عن لا يؤمنون بالتوراة أو الإله والذين يصنفون أنفسهم يهوداً .

وغني عن البيان أن مصطلح «صهيوني» لا علاقة له بمصطلح «يهودي» ، فليس كل اليهود صهيانية وليس كل الصهيانية يهوداً ، وهناك صهيانية مسلمون وصهيانية مسيحيون وصهيانية بوذيون وصهيانية لا دين لهم ولا ملة .

صهيوني

Zionist

«الصهيوني» هو من يؤمن بالعقيدة الصهيونية (إما في شكلها الاستيطاني أو في صورتها التوطينية) . ولذا ، فإن هناك اختلافاً عميقاً بين الصهيوني واليهودي ، وبينهما من جهة وبين الإسرائيلي من جهة أخرى . ويستطيع القارئ أن يعود للمجلد السادس من هذه الموسوعة والذي يتناول موضوع الصهيونية .

إسرائيلي

Israeli

«الإسرائيلي» هو مواطن الدولة الصهيونية . وهو يختلف عن «الإسرائيلي» أو عضو «جماعة إسرائيل» وهم العبرانيون كجماعة دينية . وليس كل الإسرائيلي صهيانية ، تماماً كما أن كل الصهيانية ليسوا بالضرورة إسرائيليون . ولا يوجد أي ترادف بين «إسرائيلي» و«يهودي» ، بل إن هناك إسرائيليين كثيرين يرفضون العقيدة اليهودية . ويستطيع القارئ أن يعود إلى المداخل المختلفة عن إسرائيل .

نطلق عليهم نحن «اليهود الجدد» . وغني عن القول أنه حينما كان مصطلح «يهودي» يُستخدم للإشارة إلى هؤلاء ، فإن محيطه الدلالي كان يختلف تماماً عن محيطه الدلالي حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث كان الانتماء اليهودي يعني الإيمان بالعقيدة اليهودية . أما هؤلاء ، فإنهم لا يتبعون تعاليم دينهم بل ويرفضها بعضهم تماماً ويُسمي نفسه يهودياً استناداً إلى ما يتصور أنه موروثه الثقافي . ويوجد الآن تعريفان لليهودي : أحدهما ديني يعتمد الشريعة ويأخذ به نحو ١٨٪ من يهود العالم ، والآخر علماني ويأخذ به نحو ٦١٪ . والباقيون مترددون متضاربون في الرأي . فإن شعر أحدهم في قرارة نفسه بأنه يهودي ، فإنه يمكن اعتباره يهودياً .

وقد حاول جان بول سارتر تعريف «اليهودي» فأخذ بهذا التعريف الذاتي ، وقال إن اليهودي يكون يهودياً أصيلاً حينما يصبح واعياً بحالته كيهودي ويشعر بالتضامن مع سائر اليهود . ولكن سارتر نفسه كان قد عرّف اليهودي من قبل بأنه من يراه الأغيار كذلك . وفي كلتا الحالتين ، لا يُوجد معيار موضوعي للتعريف . وقد انتهى الأمر به إلى القول بأن اليهودي هو رجل يبحث عن هويته . وهذا ليس بتعريف أيضاً ، وإنما إشارة إلى حالة عقلية . وقد علق أحد المثقفين الفرنسيين على الوضع قائلاً : «إنني مثل جميع اليهود الفرنسيين ، فأنا يهودي من الناحية الخيالية ولكنني فرنسي من الناحية الفعلية» .

ويمكن القول بأن كلمة «يهودي» في الوقت الحالي لها معنيان :

١ - يهودي بالمعنى الديني الإثني .

٢ - يهودي بالمعنى الإثني المحض .

فهي تشير إذن إلى الكتل اليهودية الثلاث الأساسية ، وهي الإشتناز والسفارد ويهود العالم الإسلامي ، وإلى الجماعات اليهودية الأخرى التي انفصلت عن الكتل الثلاث الكبرى مثل الفلاشا و يهود الهند . وهي تشير أيضاً إلى اليهود من شتى الفرق التي نشأت في العالم الغربي : الإصلاحيين والمحافظين والأرثوذكسين والتجديدين حتى ولو كُفّر أعضاء هذه الفرق بعضهم بعضاً . وتستخدم المصطلح للإشارة إلى المستوطنين الصهيانية مع أن مسألة من هو اليهودي لا تزال دون إجابة داخل الدولة الصهيونية ، أي أنها كلمة ذات مجال دلالي مُختلط وغير محدد .

إشكالية التعداد

أعداد الجماعات اليهودية في العالم : بعض الإشكاليات - أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم حتى الوقت الحاضر - أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم - وبعض معاليف السكانية في الوقت الحاضر (١٩٩٢) - أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم عام ١٩٩٦ - ميرت الشعب اليهودي

أعداد الجماعات اليهودية في العالم: بعض الإشكاليات

Worldwide Number of the Jewish Communities
(Some Problematics)

ثمة مشاكل عديدة تحيط بمحاولة تناول موضوع تعداد الجماعات اليهودية عبر التاريخ .

١ - يلاحظ أن معظم الأرقام المستخدمة (حتى عام ١٨٠٠) تخمينية إلى حد كبير ، وتقريبية حتى عام ١٩٠٠ (وهذه مشكلة عامة بالنسبة لأي تعداد) .

٢ - ثمة تحيزات عقائدية عميقة تجعل كثيراً من الدارسين يفرضون عليها دلالات لا تحملها . ومن أكبر الأمثلة على التحيز المذهبي في المراجع الصهيونية عدم تعرضها لقضية يهود الحزَر وهجرتهم إلى بولندا ، إذ تدل بعض الدراسات على أن التفسير الوحيد المقبول للتراث الفجائي لتعداد يهود بولندا ابتداءً من القرن الرابع عشر (حتى أصبحوا أكبر جماعة يهودية في العالم) هو هجرة بقايا يهود الحزَر إلى شرق أوروبا . فمناقشة مثل هذه القضية ، أو حتى مجرد ذكرها ، يفتح الباب على مصراعيه لقضية أكثر أهمية وهي مدى انتماء يهود أوروبا للعرق السامي وللحضارة السامية وحقيقة هويتهم العرقية أو الإثنية وحقوقهم الأتلية المفترضة .

٣ - من الأمثلة المهمة الأخرى ، مسألة «الستة ملايين» يهودي الذين يُفترض أن النازيين قاموا بإبادتهم ، إذ يتحول هذا الرقم إلى رقم سحري ، وإلى أيقونة عقائدية ترمز إلى الشعب الشاهد الذي أصبح الشعب الشهيد . وإذا ناقش أحد مصداقية هذا الرقم ، فإنه يُتهم فوراً بانتهاك الحرمات وإنكار الهولوكوست ! ورغم أن رقم «الستة ملايين» حالة متطرفة من التحيز ، إلا أنها الاستثناء الذي يثبت القاعدة .

٤ - لعل من أهم المشاكل التي تقابل دارس تعداد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم مفهوم «اليهودي» : هل اليهودي من يتبع تعاليم دينه أم أنه من يرى نفسه يهودياً أم هو من يراه الآخرون كذلك ؟ وفي

هذا العالم الذي تزايدت فيه معدلات التعمنة ، يسود التعريف العثماني لهوية اليهودية (اليهودي هو من يرى نفسه كذلك) . ولا توجد مؤسسة دينية مركزية تقوم بجمعية التعريف والتفرز ، فتتدخل الحدود ويصعب تحديد من هو اليهودي . ولذا ، نجد أن بعضاً من غير اليهود قد يغيرون قناعاتهم فجأة ويقررون أنهم يهود . والعكس أيضاً ممكن (انظر : ادعاء ليهودية) .

ولإيضاح إشكالية التي يجب عليها دروس تعداد الجماعات اليهودية ، يمكن أن نشير إلى بعض الأمثلة :

١ - الولايات المتحدة الأمريكية :

(أ) يضم الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي (١٩٩١) دراسة عن تعداد يهود العالم . وقد رأى كاتب المقال أن يتناول موضوعه من خلال ثلاثة تعريفات أو مستويات :

• القطاع الأساسي من السكان اليهود (بالإنجليزية : كور جويش بوبيونيشن core Jewish population) ويضم كل يهودي يعترف أنه يهودي ، بغض النظر عن كون مضمون يهوديته حقيقياً أو وهمياً ، دينياً أو إثنياً ، قوياً أو ضعيفاً . وعادة ما توضع هذه المجموعة مقابل القطاع الهامشي من السكان اليهود (بالإنجليزية : بريفيرال جويش بوبيونيشن peripheral Jewish population) . وهي تضم القطاعين التاليين :

• القطاع الأوسع من السكان اليهود (بالإنجليزية : إكستندد جويش بوبيونيشن extended Jewish population) ويضم القطاع الأساسي إلى جانب اليهود الذين تحوّلوا عن دينهم (وتبنوا أو لم يتبنوا ديناً آخر) ولكنهم من أصل يهودي .

• القطاع الممتد من السكان اليهود (بالإنجليزية : إنلارجد جويش بوبيونيشن enlarged Jewish population) وتضم إلى جانب القطاعين السابقين كل من يعيش في بيت يهودي (سواء أكان يهودياً أم غير يهودي) .

وبطبيعة الحال ، تتزايد الأعداد وتتناقص حسب المعيار

أ) كان القانون السوفيتي يعطي أعضاء الجماعات اليهودية الحق في أن يصنفوا أنفسهم كما يشاءون ، فكان بوسع اليهودي من أوكرانيا أن يُصنّف نفسه «يهودياً» أو «أوكرانياً» ، وهذا يعني أن هناك عدداً كبيراً من المواطنين السوفييت كانوا من أصل يهودي ولكنهم لم يُصنّفوا يهوداً . وقد أدى هذا إلى ظهور ما يُسمى «اليهود المتخفين» ، وهم المواطنون السوفييت من أصل يهودي الذين يخفون أصولهم اليهودية .

ب) حينما فتحت أبواب الهجرة إلى إسرائيل بما كانت تتيحه من فرص للحراك الاجتماعي والطبقي ومكافأة مادية مباشرة ، ومع تزايد تفكك النظام السوفيتي ، أظهر كثير من هؤلاء اليهود المتخفين أصولهم اليهودية . كما أن أعداداً كبيرة من غير اليهود ممن لهم أصول يهودية قديمة للغاية (جد مدفون في موسكو ، على حد قول أحد المحاميات) ، أو حتى ممن ليست لهم أصول يهودية على الإطلاق ، ادعوا أنهم «يهود» حتى يستفيدوا من الفرص الاقتصادية المتاحة .

٣ - ألمانيا :

أ) بلغ عدد يهود ألمانيا ٢٨,٢٠٢ حسب تعداد عام ١٩٨٣ .

ب) بدأت بعد ذلك التاريخ حركة هجرة من الاتحاد السوفيتي ، ولم تتمكن المصادر اليهودية من الحصول على أرقام محدّدة ، ولذا تم اللجوء للتخمين . وقدّر عدد المهاجرين في هذه الفترة ، أو مقدار الزيادة على وجه العموم ، بحوالي ١١ ألفاً وهذا يعني أن عدد اليهود بلغ حوالي ٤٠ ألف يهودي .

ج) كان يوجد ٥٠٠ يهودي مسجلون في ألمانيا الشرقية .

د) ولكن كان يوجد ٣٥٠٠ شخص يأخذون تعويضات باعتبارهم ضحايا للاضطهاد النازي دون أن يعلنوا عن انتمائهم الديني والإثني ، ولكن من المرجح أنهم من اليهود . هذا يعني في واقع الأمر أن هناك ٤٠٠٠ يهودي .

هـ) يضيف بعض الإحصائيين القطاع الهامشي من السكان اليهود ، وبلغ عددهم ٥٥ ألفاً ، وبذا يكون مجموع أعضاء الجماعة اليهودية في واقع الأمر ١٠٠ ألف يهودي ، أي أربعة أضعاف عدد اليهود في عام ١٩٨٣ .

٤ - كندا :

بلغ عدد اليهود في كندا عام ١٩٨١ حوالي ٢٩٦,٤٤٥ . ولكن إحصاء عام ١٩٨٦ لم يُدخل في الاعتبار إلا الانتماء الإثني ، مهملات الانتماء الديني . وبلغ عدد الذين صرحوا بأن أصلهم الإثني يهودي نحو ٢٤٥,٨٥٥ ، بينما ذكر ٩٧,٦٥٥ أن أحد أصولهم الإثنية يهودية ، فكان هناك ٣٤٣,٥١٠ من «اليهود بشكل أو آخر» .

استُخدم . وفي عصر وصلت فيه نسبة الزواج المختلط إلى ما يزيد على ٥٠٪ ، فإن القطاع الثالث يضم عدداً كبيراً للغاية ، مع أن تصخّم هذا القطاع هو في واقع الأمر دليل على تزايد اندماج اليهود واختفائهم . وقد بلغت الحيرة بأحد المراجع حداً جعله يستخدم اصطلاح «يهودي بشكل أو آخر» «يهودي بشكل ما» (بالإنجليزية : Jewish in some way) لحل مشكلة التعريف .

ب) نُشرت مؤخراً دراسة ذكرت أن عدد يهود الولايات المتحدة هو ٦,٨ مليون . ثم أضافت الدراسة أن ١,٢ مليون منهم يهود لا يؤمنون باليهودية ويندمجون في مجتمعهم بسرعة (ومن المؤكد أن أعداداً كبيرة منهم ينضمون للعبادات الجديدة مثل البهائية وهاري كريشنا) . ومنهم ٢,٣ مليون يمارسون عقيدة أخرى هي المسيحية ، أي أنه بين ٦,٨ مليون يهودي يوجد ٢,٥ مليون يمارسون عبادات أخرى . وورد في دراسة ثانية أن عدد يهود الولايات المتحدة ٨,٤٠٠,٠٠٠ وهو رقم أعلى بكثير من الرقم السابق . ولكن الدراسة تضيف أن من بينهم ٢,٧٠٠,٠٠٠ من «أصول يهودية» ولا يعتبرون أنفسهم يهوداً (أي أن العدد هو ٥,٧٠٠,٠٠٠) . والسؤال الذي يطرح نفسه هو : إن كان هؤلاء ليسوا يهوداً من منظور الشريعة اليهودية ، ولا من منظور الإثنية اليهودية ، ولا من منظور أنفسهم أو جيرانهم ، فلماذا تضمّنهم التعداد أساساً ؟ وهل الهدف هو خلق إشكاليات حيث لا إشكاليات ؟

ج) من المشاكل الكبرى التي تواجه دراسي تعداد اليهود في العالم ، بخاصة في الولايات المتحدة ، أعضاء الزيجات المختلطة وأبنائهم . فأحياناً ، يدخل يهودي في علاقة زوجية مع طرف غير يهودي ، ثم يتهود الطرف الآخر بشكل صوري ، ويعتبر نفسه يهودياً إرضاء للطرف اليهودي أو لعائلته . ثم قد يُصر الطرف اليهودي على أن يكون الأطفال يهوداً ، فيوافق الطرف غير اليهودي . ولكن ما يحدث في معظم الأحيان أن الأطفال ينشأون يهوداً اسماً دون أن يكونوا يهوداً فعلاً . ولأن اليهودية الأرثوذكسية لا تعترف بأبناء الزيجات المختلطة ، أو بالمتهودين على يد حاخام إصلاحي أو محافظ ، أو بمن وُلد لأب يهودي ، فإن هناك عدداً كبيراً من اليهود في الولايات المتحدة يهود اسماً وحسب ، أو يهود من وجهة نظر إصلاحية أو محافظة أو إثنية . ولكنهم غير يهود من وجهة نظر أرثوذكسية .

٢ - الاتحاد السوفيتي :

ثمة مشاكل عديدة تواجه محاولة إحصاء تعداد يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

وبابل (أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ في كل منها) ، وتوزع الباقون في أماكن أخرى مختلفة . ويُقال إن الإسكندرية وحدها كانت تضم ما يتراوح بين نصف مليون ومليون يهودي ، أي نحو ٤٠٪ من كل سكانها وأكثر من سكان القدس من اليهود . ويبدو أن هذه الأعداد مُبالغ فيها ، إذ أن ثمة تقديراً تخمينياً آخر يرى أن عدد اليهود لم يزد على خمسة ملايين : ثلاثة ملايين في سوريا وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى . ومليون في أماكن أخرى متفرقة من الإمبراطورية الرومانية ، ومليون في بابل التي كانت تابعة للفرس ثم للغريين ومن بعدهم الساسانيين .

ويبدو أن ازدياد العدد يرجع إلى عدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية بتهود بعض السكان غير اليهود داخل حدودها ، مثل الإيطوريين وبعض الشعوب المجاورة مثل الأدوميين الذين حكمت أراضيهم . وقد قام الفريسيون بحركة تبشير ضخمة لاقت نجاحاً غير عادي بسبب أن الوثنية الرومانية بدأت تدخل مرحلة الأزمة التي أدت في نهاية الأمر إلى سقوطها وإلى تَبَيُّن الرومان للمسيحية ديناً رسمياً . وقد انتشرت اليهودية بين أعداد كبيرة من الرومان ، من بينهم بعض أعضاء النخبة الحاكمة ، في الفجوة الزمنية التي تفصل بين بداية الضعف والاضمحلال وبين الانسقوط النهائي وتَبَيُّن المسيحية من حيث هي دين وعقيدة تُفسر النكون لأتباعها وتمتعهم بالإيجابيات ثلاثئة النكونية الكبرى التي تجلبهم .

ويبدو أن ما يُسمى «السلام الروماني» (باللاتينية : باكر رومانا pax romana) ، الذي ساد المناطق التي كان يعيش فيها أعضاء الجماعة اليهودية ، قد وفر من الأمن والطمأنينة ما شجع اليهود على التزايد . وربما كانت بداية اشتغال اليهود بالأعمال التجارية تعني ارتفاع مستوى المعيشة والابتعاد عن النهمة القتالية ، وهو ما كان يعني تناقص نسبة الوفيات .

وأخيراً ، يُقال إنه بعد سقوط قرضاجة ، انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرضاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعاً ساميين ينتمون إلى التشكيل الحضاري نفسه وباعتبار أنهم يضغطون بالوظيفة نفسها .

وقد بدأت الصورة تأخذ شكلاً مغايراً مع بدايات العصور الوسطى في الغرب والعصر الإسلامي في الشرق ، حيث اختفت أعداد كبيرة من اليهود من خلال عمليات الاندماج والانصهار . فمع ظهور المسيحية ، تَصَدَّرت أعداد ضخمة من اليهود ، كما حدث في الإسكندرية على سبيل المثال . ومع انتشار الإسلام ، تبنت أعداد كبيرة منهم الدين الجديد ، وتحولت الجماعات اليهودية إلى جماعات

وقد عبّر كاتب الدراسة عن شعوره بأن الرقم الذي توصل إليه والذي يضم اليهود من فئة «يهود بشكل أو آخر» غير مقنع .

هـ - جنوب أفريقيا : كان عدد يهود جنوب أفريقيا عام ١٩٩٠ هو ١١٤ ألفاً ، ولكن الإحصاء الذي أجري بعد ذلك جعل تحديد الديانة مسألة اختيارية . ولأن خمس السكان البيض لم يحددوا انتماءهم الديني ، فقد انخفض تعداد اليهود إلى ٥٩ ألفاً . وحسب التقديرات الإحصائية ، فإن العدد الحقيقي يتراوح بين ١٠٤,٥٠٠ و ١٠٧ آلاف .

اعداد الجماعات اليهودية وتوزيعها في العالم حتى الوقت الحاضر

Worldwide Number and Distribution of the Jewish Communities to the Present

بلغ تعداد العبرانيين في عام ١٠٠٠ ق.م ، حسب بعض التقديرات التخمينية ، نحو ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة ، منهم ٤٥٠ ألفاً في المملكة الجنوبية ومليون وثلاثمائة وخمسون ألفاً في المملكة الشمالية . ولكن ثمة رأياً يذهب إلى أن هذا العدد مُبالغ فيه ، حيث أن الإمكانات الطبيعية لفلسطين واقتصادها ما كان يمكن لهما في تلك المرحلة بمستوى التطور التكنولوجي السائد آنذاك أن يُمدّا مثل هذا العدد الضخم بأسباب الحياة ، مع ملاحظة أن عدد سكان مصر كان نحو ستة ملايين بكل إمكاناتها ومعدل نموها .

وعلى أية حال ، فقد تناقص التعداد بسبب تدهور الأحوال السياسية والاقتصادية في الملكتين ، حتى بلغ خلال الفترة بين عامي ٧٣٣ و ٧٠١ ق.م نحو مليون ومائة ألف نسمة ، منهم ٣٠٠ ألف في المملكة الجنوبية و ٨٠٠ ألف في المملكة الشمالية . أما في عام ٥٦٨ ق.م ، بعد التهجير البابلي ، فقد بلغ عدد اليهود ١٥٠ ألفاً يعيشون جميعاً في المملكة الجنوبية ، ولم يبق أحد في المملكة الشمالية إذ أن اليهود الذين هُجِّروا إلى آشور انصهروا وذابوا في سكانها ، أما من تَبَقُّوا فقد انصهروا في السكان المحليين أو فقدوا هويتهم العبرانية من خلال آليات مختلفة ، بعضها معلوم لدينا ، وبعضها لا يزال مجهولاً . ويبدو أن عدد سكان مقاطعة يهودا لم يتجاوز فيما بعد مرسوم قورش ما بين ٦٠ و ٧٠ ألفاً .

وتختلف الصورة السكانية لليهود مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد . وقد وصل بعض الدارسين إلى أن عدد يهود العالم في تلك الفترة كان ٨,٠٠٠,٠٠٠ ، عاش منهم ما بين ٢,٣٥٠,٠٠٠ و ٢,٥٠٠,٠٠٠ فقط في فلسطين ، وذلك قبل هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠ ميلادية ، و ٣,٢٠٠,٠٠٠ في سوريا وآسيا الصغرى .

وقد بين آرثر كوستلر في كتابه عن يهود الحزَر أنه لا يمكن تفسير هذا الانقلاب السكاني إلا بما يسميه «الشتات الحزري»، أي انتقال يهود الحزَر ، بعد سقوط مملكتهم ، إلى شرق أوروبا وخصوصاً بولندا . ولا يختلف المؤرخون الآن في أن أعداداً من يهود الحزَر استقرت في بولندا ، ولكنهم يختلفون حول حجم هذا العدد . ونحن ، على أية حال ، نميل إلى الأخذ برأي كوستلر لأنه ، على الأقل ، يفسر ظاهرة محيرة لا يمكن تفسيرها من خلال أية فرضية أخرى .

وقد صاحب زيادة يهود أوروبا انخفاض تعداد يهود العالم الإسلامي الذين بلغ عددهم ٦٠٠ ألف في عام ١٨٠٠ . ويذهب رويين إلى أن عددهم لم ينخفض وإنما ظل على ما كان عليه . ولذا ، فهو يرى أن عددهم ظل يدور حول المليون . وفيما يلي جدول مقارنة بأعداد اليهود الإشتكاز واليهود السفارد والشرقيين في الفترة بين عامي ١١٧٠ و ١٩٧٠ .

السنة	اليهود الإشتكاز		السفارد والشرقيين		العدد الإجمالي
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	
١١٧٠	١٠٠,٠٠٠	٦,٧٠	١,٤٠٠,٠٠٠	٩٣,٣٠	١,٥٠٠,٠٠٠
١٣٠٠	٣٠٠,٠٠٠	١٥,٠٠	١,٧٠٠,٠٠٠	٨٥,٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
١٥٠٠	٥٠٠,٠٠٠	٣٣,٣٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٦٦,٦٠	١,٥٠٠,٠٠٠
١٦٥٠	٧٠٠,٠٠٠	٤٠,٠٠	١,٠٥٠,٠٠٠	٦٠,٠٠	١,٧٥٠,٠٠٠
١٧٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٥٠,٠٠	٢,٠٠٠,٠٠٠
١٨٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٦٠,٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٤٠,٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
١٨٤٠	٣,٦٠٠,٠٠٠	٨٠,٠٠	٩٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
١٨٦٠	٥,٢٠٠,٠٠٠	٨٦,٦٠	٨٠٠,٠٠٠	١٣,٤٠	٦,٠٠٠,٠٠٠
١٩٠٠	٩,٥٥٠,٠٠٠	٩٠,٥٠	٩٥٠,٠٠٠	٩,٥٠	١٠,٥٠٠,٠٠٠
١٩٣٠	١٤,٦٠٠,٠٠٠	٩١,٨٠	١,٣٠٠,٠٠٠	٨,٢٠	١٥,٩٠٠,٠٠٠
١٩٣٩	١٥,٠٠٠,٠٠٠	٩٠,٩٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٩,١٠	١٦,٥٠٠,٠٠٠
١٩٤٥	٩,٥٠٠,٠٠٠	٨٧,٦٠	١,٣٥٠,٠٠٠	١٢,٤٠	١٠,٨٥٠,٠٠٠
١٩٥٠	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٨٦,٩٦	١,٥٠٠,٠٠٠	١٣,٠٠	١١,٥٠٠,٠٠٠
١٩٦٠	١٠,٩٠٠,٠٠٠	٨٥,١٦	١,٩٠٠,٠٠٠	١٤,٨٤	١٢,٨٠٠,٠٠٠
١٩٧٠	١١,٧٠٠,٠٠٠	٨٣,٥٧	٢,٣٠٠,٠٠٠	١٦,٤٣	١٤,٠٠٠,٠٠٠

وقد ظهرت في تلك المرحلة (القرن الثامن عشر) نواة الجماعة اليهودية في العالم الجديد ، وتراوح عدد أعضائها بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً .

صغيرة متناثرة . وكان من الصعب تخمين عدد اليهود في العالم آنذاك إذ أن الإحصاءات كانت متناقضة للغاية ، ففي العالم الإسلامي كانت الإحصاءات غير موثوق بها ، وفي أوروبا لم تكن هناك سجلات إحصائية . ومع هذا ، ترى معظم المراجع أن عدد اليهود في العالم كان يتراوح بين مليون ومليونين ، وأن أغلبهم (٨٥-٩٠٪) قد تركز في العالم الإسلامي مع نهاية القرن الثاني عشر . ولكننا نفضل الأخذ بالرقم مليون ، خصوصاً في ضوء الأعداد اللاحقة ، حيث أن عدد يهود أوروبا لم يكن يزيد على نحو ١٠٠ - ٣٥٠ ألفاً (من مجموع سكان أوروبا البالغ ٥٣ مليوناً) في حين وصل العدد إلى ٤٥٠ ألفاً في عام ١٣٠٠ (٣٠٠ ألف فقط عند رويين) من مجموع ٥٣ مليوناً كان معظمهم مُركّزاً في إسبانيا . وقد بلغ تعداد يهود العالم في القرن الخامس عشر حسب أحد التخمينات الإحصائية نحو مليون وخمسمائة ألف .

وحتى ذلك التاريخ ، كانت أغلبية يهود العالم من السفارد المستقرين في حوض البحر الأبيض المتوسط : روما-الإسكندرية-إسبانيا-المغرب (التابعة للدولة العثمانية)-ساليونيك-إيطاليا-فرنسا، ومن يهود العالم الإسلامي ، ولم يكن الإشتكاز من يهود أوروبا سوى أقلية صغيرة . ثم تغيرت الصورة بالتدريج ابتداءً من تلك الفترة حتى أصبح الإشتكاز هم الأغلبية العظمى .

ولتفسير ذلك الوضع ، يجب الوقوف عند ظاهرة تزايد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وتحوّلها إلى أكبر الجيوب اليهودية في العالم . وتقول الإحصاءات إن عدد يهود بولندا (في عام ١٥٠٠) كان يبلغ نحو ١٠ - ١٥ ألفاً ، ولكنه زاد فجأة إلى ١٥٠ ألفاً بين عامي ١٥٠٠ و ١٦٤٨ . وتقول الموسوعة اليهودية إنهم أصبحوا بذلك أكبر تجمّع يهودي في العالم إذ كان قد تم طرد يهود إسبانيا .

واستمرت الزيادة حتى بلغ عدد اليهود في العالم في أواخر القرن السابع عشر نحو مليونين ، حسب رأي آرثر رويين ، تصنفهم سفارد ويهود من العالم الإسلامي والنصف الآخر إشتكاز (في أوروبا) إذ أن عدد يهود أوروبا كان أساساً في بولندا وبلغ ٥٠٠ ألف حسب هذه التقديرات . ولكن ، مع العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر (عام ١٧٧٠) ، بلغ عدد يهود العالم مليونين و ٢٥٠ ألفاً ، غالبيتهم العظمى (١,٧٥ مليون) في أوروبا ، منهم ١,٢ مليون في بولندا وحدها ، أي أن يهود أوروبا أصبحوا يهود بولندا . وفي عام ١٨٠٠ ، بلغ عدد يهود العالم وفقاً لتقديرات رويين ، مليونين ونصف المليون ، منهم مليون وخمسمائة ألف في أوروبا ومليون في الشرق .

التمسك بالقيم الدينية والتقليدية ، بقدر يفوق كثيراً تَماسُك الأسر غير اليهودية . ويظهر هذا في إحصاءات الأطفال غير الشرعيين ، حيث كانت نسبتهم بين اليهود في كثير من الأحيان أقل بدرجة ملحوظة من نسبتهم بين غير اليهود . والعنصران السابقان يسهمان معاً في خفض نسبة الوفيات بين الأطفال كما يشجعان على الإنجاب .

ومن أهم العناصر الأخرى التي ساعدت على هذا الانفجار زواج اليهود في سن مبكرة للغاية . فقد كان من الشائع أن يتزوج الشبان من سن ١٥ إلى ١٨ بفتيات من سن ١٤ إلى ١٦ . وكانت الحكومات المركزية القومية المغلقة في روسيا والنمسا تلجأ أحياناً إلى تحديد سن الزواج وعدد المسموح لهم بالزواج (نتيجة شيوع آراء مالتوس ولغير ذلك من الأسباب) . وحينما كانت الشائعات تنطق حول أحد القوانين وشيكة الصدور ، كان اليهود يسرعون بترويج كل صغار السن قبل صدوره . وفي إحدى الإحصاءات البولندية (في القرن الثامن عشر) ، ورد ذكر زيجة عمرها ثمان سنوات . وفي عام ١٧١٢ ، منعت السلطات في أمستردام زواج طفلي يهوديين تحت سن اثنتي عشرة . ومن العناصر الأساسية التي ساهمت في تزايد عدد اليهود أن الفترة من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩١٤ لم تشهد الأماكن التي يوجد فيها أغلبية يهود تعاني أية حروب . بل إن معارك نابليون وقعت بعيداً عن مراكز التجمع اليهودي . وعلاوة على كل هذا ، لم تكن هناك دول كثيرة تقوم بتجنيد اليهود . ففي روسيا القيصرية ، لم يبدأ تجنيدهم إلا عام ١٨٢٧ ، ولم يُجنّدوا في بولندا حتى عام ١٨٤٥ ، ولا في الدولة العثمانية حتى عام ١٩٠٨ . وفيما يتصل بالمذابح التي تضنّ بها المراجع الصهيونية ، فلم يقع ضحيتها سوى بضع مئات طيلة هذه الفترة .

لكل هذه الأسباب ، حدثت انفجرات السكانية التي أشرنا إليها في الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٢٥ حيث بلغ عدد يهود العالم ٣,٢٨١,٠٠٠ نسمة ، منهم ٢,٧٣٠,٠٠٠ في أوروبا (١,٦٠٠,٠٠٠ في روسيا ومعها بولندا - ٨٠ ألفاً في رومانيا - ٥٦٨ ألفاً في الإمبراطورية النمساوية/المجرية - ٢٢٣ ألفاً في ألمانيا - ٥٠ ألفاً في فرنسا - ٤٥ ألفاً في هولندا) . وكانت البقية موزعة على أنحاء العالم ، فلم يكن يوجد سوى عشرة آلاف في الأمريكتين منهم ثمانية آلاف في الولايات المتحدة .

وفي عام ١٨٥٠ ، بلغ عدد يهود العالم ٤,٧٥٠,٠٠٠ ، منه ٧٢٪ في شرق أوروبا (٢,٣٥٠,٠٠٠ في روسيا وبولندا) و ١٤,٥٪ في غرب أوروبا ، و ١,٥٪ في الولايات المتحدة ، و ١٢٪ فقط في

ولكن ، بعد انعقاد مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥ ، بدأت مرحلة جديدة تماماً إذ حدث انفجار سكاني بين اليهود . فإذا كان عدد اليهود في عام ١٨٠٠ هو مليونان وخمسمائة ألف ، فقد بلغ هذا العدد عشية الحرب العالمية الثانية نحو ١٦,٧٢٤,٠٠٠ . ومعنى ذلك أنهم زادوا ستة أضعاف في أقل من ١٥٠ عاماً . وفي الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٢٥ ، كان عدد اليهود ٣,٢٨٠,٠٠٠ ، وزاد إلى ١٠,٦٠٢,٥٠٠ مع عام ١٩٠٠ . وبهذا ، فقد زادوا ثلاثة أضعاف خلال ٧٥ عاماً . ويُلاحظ أن الزيادة كانت بين يهود العالم الغربي فقط ، ذلك أن تعداد يهود الشرق لم يزد بل انكمش إلى ٩٠٠ ألف عام ١٨٤٠ ، وإلى ٨٠٠ ألف عام ١٨٦٠ ، ثم زاد إلى ٩٥٠ ألفاً بسبب هجرة بعض يهود البديشية من الغرب عام ١٩٠٠ . ولكن هذا النمو لم يكن مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية ، ففي الفترة نفسها تقريباً (من عام ١٨١٥ إلى عام ١٩١٤) زاد سكان أوروبا من ١٩٠ مليوناً إلى ٤٠٠ مليون . وزاد سكان الولايات المتحدة من ٧,٢٤٠,٠٠٠ عام ١٨١٠ إلى ٩١,٩٧٢,٠٠٠ عام ١٩١٠ ، وإن كانت الزيادة في الولايات المتحدة يمكن تفسيرها على أساس الهجرة ، فهذا هو عصر الهجرة الأوروبية الكبرى (اليهودية وغير اليهودية) . وقد استوعبت الولايات المتحدة نحو ٨٥٪ من المهاجرين ، لكن الزيادة في أوروبا لا يمكن تفسيرها إلا على أساس زيادة نسبة المواليد وقلة نسبة الوفيات . ومع هذا ، يُلاحظ أن نسبة زيادة أعضاء الجماعات اليهودية كانت أعلى من النسبة العامة في أوروبا ، ولعل هذا يعود إلى أن أعضاء هذه الجماعات كانوا يعيشون تحت الظروف نفسها التي أدت إلى زيادة سكان أوروبا ، وتحت ظروف أخرى خاصة بهم ساهمت في رفع النسبة عن النسبة العامة في أوروبا . فيُلاحظ أن تحسّن الأحوال الصحية ، نتيجة الثورة الصناعية في أوروبا ، قد ترك أثره الإيجابي في أعضاء الجماعات اليهودية ، ولكن يبدو أن المستوى الصحي داخل الأحياء اليهودية كان أعلى من المستوى الصحي العام بسبب الرقابة على اللحوم والأطعمة نظراً لتطبيق قوانين الطعام .

وفي شرق أوروبا ، حيث تركز معظم اليهود ، كان دخل أعضاء الجماعة اليهودية أكثر ارتفاعاً وكان أسلوب حياتهم أكثر راحة ووفرة من دخل وأسلوب حياة معظم الجماهير الفلاحية ، كما كان أعضاء الجماعة يتمتعون بمستوى ثقافي أعلى . وقد انعكس هذا ، بطبيعة الحال ، على نوعية الطعام الذي يستهلكونه وأدى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية . وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية للغاية من التماسك ، الناجم عن

المهاجرين . أما بقية الجماعات اليهودية في العالم ، فقد كان عدد أعضائها على النحو التالي :

الإمبراطورية النمساوية : ٢,٥٠٠,٠٠٠ ، أي ٢,١٩٪ من يهود العالم . دول أوروبا الأخرى : ١,٧٠٠,٠٠٠ ، أي ١,١٣٪ ، موزعين على النحو التالي :

٣٠٠,٠٠٠ رومانيا - وزاد العدد إلى ٨٥٠ ألفاً بعد أن ضمت رومانيا بعض المناطق التي تضم جماعات يهودية .

٦٠٠,٠٠٠ ألمانيا .

٢٥٠,٠٠٠ إنجلترا .

١٠٠,٠٠٠ هولندا .

١٠٠,٠٠٠ فرنسا .

٤٧,٠٠٠ إيطاليا .

٧٥٠,٠٠٠ في الشرق أي ٨,٠٥٪ .

٨٥,٠٠٠ في فلسطين أي ١,٠٪ .

وتذكر الموسوعة اليهودية (جوديكا) أن تعداد يهود العالم عام ١٩٣٩ بلغ ١٦,٧٢٤,٠٠٠ ، منهم ٩,٤٨٠,٠٠٠ في أوروبا (من مجموع تعداد السكان البالغ ١٢,٨٤٩,٠٠٠) ، و ٢,٨٢٥,٠٠٠ في الاتحاد السوفيتي (من مجموع تعداد السكان البالغ ١٣,٥١٩,٠٠٠) ، وفي بولندا ٣,٢٥٠,٠٠٠ (من مجموع السكان البالغ ٣٢,١٨٣,٠٠٠) . ويُلاحظ أن بولندا استقلت عن روسيا ، وبالتالي أصبح اليهود يشكلون نسبة ١,١٠٪ من السكان ، وهي أعلى النسب التي وصل إليها تعداد اليهود في أي بلد في التاريخ الإنساني . وبلغ عدد اليهود ٨٥٠ ألفاً في رومانيا (من

الشرق الأوسط . وقد قفز هذا العدد قفزة كبيرة عام ١٨٨٠ (تاريخ ظهور الصهيونية بين اليهود) إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠ موزعاً على النحو التالي : أربعة ملايين في روسيا وبولندا (٥٦,٢٪) ، ومليون وخمسمائة ألف في الإمبراطورية النمساوية (٢٠٪) ، وفي دول أوروبا الأخرى مليون (١٣,٣٪) ، ومائتان وخمسون ألفاً في الولايات المتحدة (٣,٣٪) ، والبقية في آسيا وأفريقيا وغيرها من المناطق . وما لاشك فيه أن زيادة حجم الكتلة البشرية اليهودية في العالم الغربي ، في روسيا وبولندا على وجه التحديد ، قد ساهم في تفكك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لأعضاء الجماعات اليهودية ، وهو ما يُطلق عليه «المسألة اليهودية» . وإذا لاحظنا تناقص يهود العالم الإسلامي والسفارد ، قياساً إلى تعداد اليهود في العالم ، إلى أقل من ٨٪ ، يصبح من الدقة العلمية ألا نتحدث عن المسألة اليهودية بشكل مطلق وإنما عن المسألة اليهودية الأشكنازية في روسيا وشرق أوروبا .

وقد قفز عدد اليهود إلى ١٠,٦٠٢,٠٠٠ عام ١٩٠٠ ، ثم بلغ عشية الحرب العالمية الأولى ١٣ مليوناً . وهذا يمثل مرة أخرى ، قفزة كبيرة . وكان هؤلاء موزعين على النحو التالي :

٥,٥٠٠,٠٠٠ في روسيا (من نحو ١٢٧ مليون روسي) ويمثلون ٤٢,٣٪ من يهود العالم . وقد قفزت الولايات المتحدة إلى المرتبة الثانية نتيجة الهجرة اليهودية الضخمة إذ بلغ عدد اليهود فيها ٢,٥٠٠,٠٠٠ ، أي ١٩,٢٪ من يهود العالم . ويُلاحظ أن هذه الهجرة لم تسهم كثيراً في تخفيف حدة التوتر بالنسبة إلى يهود روسيا وبولندا ، نظراً لأن أعدادهم كانت تتزايد بسرعة تفوق أعداد

تغير أعداد بعض الجماعات اليهودية في العالم

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الأرجنتين	فلسطين	جنوب أفريقيا	البرازيل	مصر	أستراليا ونيوزيلندا
١٨٠٠	٢,٠٠٠	-	-	١٠,٠٠٠	-	-	-	-
١٨٥٠	٥٠,٠٠٠	٥٠٠	-	١٢,٠٠٠	١٠٠٠	-	-	-
١٨٨٠	٢٣٠,٠٠٠	٢,٤٠٠	-	٢٥,٠٠٠	-	-	-	-
١٨٩٠	٥٠٠,٠٠٠	٦,٤٠٠	١٠٠٠	٣٥,٠٠٠	-	-	-	-
١٩٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	١٦,٤٠٠	٣٠,٠٠٠	٥٥,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٣٠٠٠	٢٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠
١٩١٠	٢,٢٠٠,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٥٠٠٠	٤٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠
١٩٢٠	٣,٢٠٠,٠٠٠	١٢٠,٠٠٠	١٣٠,٠٠٠	٧٥,٠٠٠	٦٠,٠٠٠	٧٠٠٠	٦٠,٠٠٠	٢٤,٠٠٠
١٩٣٠	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠	١٧٠,٠٠٠	-	٤٠,٠٠٠	٦٥,٠٠٠	-
١٩٣٣	٤,٥٠٠,٠٠٠	١٧٠,٠٠٠	٢٤٠,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٤٥,٠٠٠	٧٠,٠٠٠	٣٣,٠٠٠

المصدر : آرثر روبين

أعدادهم ، ومن أهم هذه الأسباب تصاعد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية . ففي بداية القرن التاسع عشر ، كانت هذه الجماعات من أقل الجماعات علمنة ، ولكن معدلات العلمنة تزايدت بالتدريج من خلال محاولات الحكومات الأوروبية المختلفة دمجهم وإصلاحهم وتشجيعهم على الاندماج ، بحيث كانت معدلات العلمنة بينهم مع نهاية القرن من أعلى المعدلات على الإطلاق . وقد كان ٣٠٪ من السجناء السياسيين من اليهود ، كما ازدادت نسبة الأطفال غير الشرعيين وأصبحت نسبة العاهرات اليهوديات والقوادين اليهود من أعلى النسب .

ويُلاحظ أن هذه الفترة هي فترة الهجرة اليهودية الكبرى التي شملت ٥٠٪ من يهود شرق أوروبا ، ومن المعروف أن الجماعات المهاجرة تجمّع عادةً عن الإنجاب بسبب تفلّظ وضعها . والعناصر المهاجرة هي عادةً العناصر الشابة ، بل ويُقال إن الهجرة اليهودية قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية ٢٠ - ٤٠ سنة وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل أية جماعة قادرة على أن تُعيد إنتاج نفسها . ويُلاحظ كذلك أنه بعد اندماج اليهود في مجتمعاتهم ، بدأت قطاعات منهم تحقّق حراكاً اجتماعياً وتحسّناً في مستوى المعيشة ، ومن المعروف أن تحسّن مستوى المعيشة يؤدي إلى تبنّي سلوك حذر تجاه الإنجاب .

وإلى جانب ذلك ، فإن أغلبية يهود العالم بدأت تستقر في المدن الكبرى والعواصم . فقبل الحرب العالمية الثانية ، كان ما يزيد على نصف يهود العالم ، أي نحو ٥٢٪ منهم ، يعيشون في ٤٢ مدينة في كل منها ٥٠ ألف يهودي أو أكثر ، وكان ما بين ٣٥٪ و ٤٠٪ يتركزون في عشرين مدينة في كل منها ما يزيد على ١٠٠ ألف يهودي . وهذا يدل على أن معدل التركيز في المدن كان آخذاً في التزايد ، حيث كانت النسبة في بداية القرن ١٨٪ في المجموعة الأولى و ١٣٪ في المجموعة الثانية . وفي عام ١٩٣٣ ، كان يعيش مليون يهودي روسي ، أي ثلث يهود روسيا ، في مدن سوفيتية لا تضم سوى ٥٪ من أعضاء الأغلبية ، ويعيش بقية اليهود في مدن صغيرة . أما في الولايات المتحدة (عام ١٩٢٧) ، فقد كان ٨٤٪ من اليهود يعيشون في ١٨ مدينة كبيرة (وكانت نيويورك تضم نصف الجماعة اليهودية) . وفي الثلاثينيات ، كان يعيش في كوبنهاجن نحو ٩٣٪ من يهود الدنمارك ، وكان نحو ٩٢٪ من يهود النمسا في فيينا ، ونحو ٧٠٪ من يهود فرنسا في باريس ، ونحو ٦٥٪ من يهود إنجلترا في لندن ، وهكذا . ومن المعروف أن التركيز في المدن لا يشجع على الإنجاب ، وأن المدن لم يمكنها في الماضي (في روما

مجموع عدد السكان البالغ ٥٣٠,٠٠٠ و ١٨,٠٥٦,٢٥٤ في الجمهوريات البلطيقية : ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا (من مجموع عدد السكان البالغ ٥,١٠٦,٠٠٠) . كما كان يوجد ٣٥٧ ألف يهودي في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٠ ، و ٤٤٥ ألف يهودي في المجر عام ١٩٣٠ ، و ٥٠٤ آلاف يهودي في ألمانيا من مجموع عدد السكان البالغ عددهم ٦٥,٩٨٨,٠٠٠ . وكانت الولايات المتحدة تضم ٤,٩٧٥,٠٠٠ يهودي ، وبذلك أصبحت الولايات المتحدة مركزاً لكبر جماعة يهودية في العالم ، إذ أن يهود البديشية في شرق أوروبا كانوا مقسّمين بين عدة دول من أهمها روسيا السوفيتية وبولندا ورومانيا . وكان يوجد ١٥٥,٧٠٠ في كندا ، و ٢٧٥ ألفاً في الأرجنتين . وكانت الأمريكتان تضم ٥,٥٣٧,٠٠٠ . أما آسيا ، فكانت تضم ١,٠٤٧,٠٠٠ بسبب تزايد حجم الجيب الاستيطاني الصهيوني الذي كان يضم ٤٧٥,٠٠٠ . أما الباقون ، فكانوا موزعين على النحو التالي : ٩٠ ألفاً في العراق و ٢٦ ألفاً في سوريا ولبنان و ٥٠ ألفاً في اليمن والجزيرة العربية و ٥٠ ألفاً في إيران و ٢٤ ألفاً في الهند و ١٠ آلاف في الصين وألفان في اليابان وكان اليهود الموجودون في بلاد مثل الصين من يهود البديشية في الغالب . وقد بلغ عدد اليهود في أفريقيا ٦٢٧,٥٠٠ حيث كانت أكبر جماعة منهم في المغرب إذ بلغت ١٦٢ ألفاً ، تليها الجزائر التي كان بها ١١٠ آلاف ، وجنوب أفريقيا حيث كان بها ٩٠ ألفاً ، فمصر ٧٠ ألفاً ، ثم تونس وضمّت ٥٩ ألفاً ، وأخيراً إثيوبيا التي ضمت ٥١ ألفاً . وبلغت الجماعة اليهودية في أستراليا ٢٣,٦٠٠ . ويُلاحظ أن حوالي ٥,٥٣٧,٠٠٠ يهودي ، أي نحو ثلث يهود العالم ، يوجدون في دول استيطانية ، هي : الولايات المتحدة ، وكندا ، وجنوب أفريقيا ، وفلسطين ، وأستراليا ، ونيوزيلندا ، وأمريكا اللاتينية . ويمكن أن نضيف إليهم كذلك المستوطنين اليهود في الجزائر ، لأن اليهود الأصليين كانوا أقلية . ومن ثم يمكننا القول بأن الجماعات اليهودية في العالم أصبحت جزءاً من التجربة الاستيطانية الغربية (والأنجلو ساكسونية على وجه التحديد) . وقد أورد آرثر روبين الجدول السابق عن الأماكن التي استوطن فيها أعضاء الجماعات اليهودية وأعدادهم .

ومن الجدول السابق ، يُلاحظ أن الولايات المتحدة أصبحت تضم أكبر تجمّع يهودي في العالم . كما يُلاحظ أنه برغم استمرار الأعداد في التزايد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، فإن العوامل التي أدّت إلى هذا التزايد قد اختفت تماماً ، كما ظهرت عناصر لم يكن من شأنها تشجيع اليهود على الإنجاب ، بل وأدّت إلى تناقص

اليهودي الذي يود الهرب من هويته أن يعتنق المسيحية ، أما في المجتمعات العلمانية فيستطيع اليهودي أن ينكر هويته اليهودية ويتخلى عنها دون أن يضطر إلى تبني هوية دينية أخرى . وربما حدث شيء من هذا القبيل بين أعداد المهاجرين الروس إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلاد . ونحن نعرف أن كثيراً من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعمد مزيفة أصدرها الفاتيكان لتسهيل عملية هربهم من الإرهاب النازي ، قد أثروا الإبقاء على هويتهم المسيحية ولم يعيدوا تأكيد انتمائهم اليهودي حتى بعد زوال الخطر .

لكل هذه الأسباب ، تناقص تعداد اليهود وتناقص معدل الإنجاب بينهم . وقد بدأ هذا الاتجاه في منتصف القرن التاسع عشر بين يهود غرب أوروبا الذين كانوا يشكلون أقلية ، ثم انتقل إلى وسطها وشرقها مع نهاية القرن ، وتزايد معدل التناقص واستمر حتى الوقت الحالي حيث وصل إلى معدلات عالية للغاية . أما في الجيب البولندي ، حيث المناطق التي تركز فيها معظم يهود العالم وحكمت روسيا معظمها وحكمت النمسا جزءاً آخر منها وحكمت ألمانيا الجزء الثالث ، وهو الجيب الذي كان مركزاً لليهود اليديشية وكان يسميه هتلر «البنية التحتية البيولوجية للشعب اليهودي» ، فقد تناقصت نسبة المواليد بشكل مذهل . ففي منتصف القرن التاسع عشر ، كان أعضاء الجماعة في روسيا القيصرية يتمتعون بوحدة من أعلى نسب الخصوبة والتكاثر بين شعوب الإمبراطورية ، ولكن مع عام ١٩٢٦ انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق إذ بلغت ٢٤,٨ في الألف بعد أن كانت ٣٥,٩ . وقد ظلت نسبة التكاثر عالية بين الروس إذ وصلت ٤٣,٦٥ في الألف بفارق قدره ١٩,٥٧٥ في الألف بين شعوب الدولة السوفيتية وأعضاء الجماعة . ويلاحظ أنه رغم وجود جماعات يهودية أخرى في الاتحاد السوفيتي ، من بينها اليهود الجورجيون ويهود القوقاز وغيرهم ممن لم يروا بالظروف نفسها التي مر بها يهود اليديشية ، فإن هذه الجماعات كانت صغيرة وربما لا تتجاوز ٥% ، ومن ثم فإنها لم تؤثر بتاتاً في الصورة العامة . وفي بولندا ، نجد الاتجاه نفسه . فقد انخفضت نسبة المواليد في وارسو من ٢٨,٦ في الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ في الألف عام ١٩٢٥ . وفي لودز ، انخفضت نسبة المواليد بين اليهود خلال سبعة أعوام إلى ١١,٦ في الألف . وفي جاليسيا ، كانت الإحصاءات مثيرة ، فبعد أن كانت نسبة المواليد بينهم من أعلى النسب في أوروبا مع بداية القرن الحالي إذ وصلت إلى ٣٨,١٦ في الألف (ولذا كان يهود النمسا يسمونها «فاجينا جودايوروم» أي «فرج اليهود») ، انخفضت النسبة فيها إلى ١٩,٣ في الألف عام ١٩٣٤ ، أي إلى نحو ٥٠% . وكانت

واليونان القديمة) أن تحافظ على العدد المناسب من السكان من خلال التزايد الطبيعي . وقد أسلفنا أن المنطقة التي تركز فيها اليهود ، إبان القرن التاسع عشر ، كانت منطقة لم تدّر فيها أية معارك كبرى أو حروب حتى الحرب العالمية الأولى . ولكن ، مع الحرب العالمية الأولى ، تغير الموقف تماماً حينما تحوّلت بولندا وجاليسيا وليتوانيا ورومانيا وسالونيك إلى مسرح للعمليات العسكرية . ولم يتوقف الأمر مع نهاية الحرب ، إذ أصبحت أوكرانيا مسرحاً لعمليات عسكرية عديدة التحمت فيها القوات البلشفية مع قوات الروس البيض (حيث انضم الأوكرانيون إلى الفريق المعادي للثورة) ، وتم الهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية الذين كان يُنظر إليهم باعتبارهم عملاء للبلشفة ، إذ أن هؤلاء كانوا قد وضعوهم تحت حمايتهم ، كما كان ميراث يهود الأرنداء جزءاً من تجربة الأوكرانيين التاريخية . وكان تجنيد اليهود في القوات المسلحة يتم بصورة كاملة ، بعدما أصبح عرق اليهود حقيقة مستقرة ، فبلغ مجموع عدد المحاربين اليهود في الجيش الروسي والنمساوي والألماني وفي قوات الحلفاء نحو نصف مليون يهودي ، وهو عدد ضخم في واقع الأمر . وقد سقط من اليهود العديد من الضحايا ، فقتل نحو ١٢ ألف جندي ألماني يهودي . ولنا أن نتخيل نسبة القتلى بين المقاتلين اليهود في كل الأطراف ، ولكن يجب أن نشير إلى أن هذا العنصر لا ينقص من عدد اليهود بصورة مباشرة فقط ، أي من خلال الوفاة ، فذلك يتم بصورة غير مباشرة أيضاً من خلال العزوف عن الإنجاب . ففي مناطق وفتترات الحروب والثورات ، بكل ما تسببه من حركة وعدم طمأنينة ، يجد البشر أن من السخف بكان إيجاب طفل ليعيش في هذه الدنيا .

ومن الظواهر الأخرى التي أدت إلى تناقص أعداد اليهود الزيجات المختلطة . فبعد الحرب العالمية الأولى ، كان نحو ٥٠% من الزيجات اليهودية في ألمانيا (عام ١٩١٥) زيجات مختلطة زادت إلى ٦٠% في عام ١٩٣٢ . وفي كوينهاجن ، وصلت نسبة الزيجات المختلطة إلى نحو ٦٨% في الفترة بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٥ . وفي أمستردام ، وصلت النسبة إلى نحو ٧٠% (١٩٣٠) . ومن المعروف أن معدلات الاندماج المرتفعة تؤدي إلى تزايد الزواج المختلط . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، كانت عملية الاندماج في أوروبا تأخذ شكل التنصّر . وكانت نسبة التنصّر متفاوتة من بلد إلى آخر ، ووصلت إلى حدّها الأقصى في ألمانيا حيث حقق اليهود أعلى معدلات الاندماج ، وهو ما أدّى إلى انصهارهم . ولكن الانصهار يأخذ شكلاً مغايراً تماماً في العصر الحديث ، ففي الماضي كان على

ويلاحظ آرثر روبين أنه خلال خمسة وعشرين عاماً (بين عامي ١٩٠٥ و ١٩٣٠) هبطت نسبة الزيادة من ١٨ إلى ٨ في الألف ، كما يلاحظ أن التقدم الذي أحرزه اليهود خلال ١٥٠ عاماً (من عام ١٧٥٠ إلى عام ١٩٠٥) قُفد خلال ٢٥ عاماً !

وقد لاحظ يوريا إنجلمان في كتابه **ظهور اليهود في العالم الغربي** (١٩٤٤) أن نسبة المواليد لا تُعوّض نسبة الوفيات ، وأن معدلات المواليد بين اليهود في شرق أوروبا وجنوب شرق أوروبا (دول البلقان وربما النمسا) وصلت إلى نقطة الخطر (قبيل العدوان النازي). وقد حذر ثايلهاير في دراسته **اختفاء اليهود الألمان** (١٩٠٨) مما سماه «الضعف السكاني» حيث بيّن أنه ، إذا لم يُوقَف هذا الاتجاه ، فيستخفي يهود ألمانيا تماماً .

وبالفعل ، نجد أن الوفيات بين يهود بودابست عام ١٩٣١ ، حيث كان يعيش نصف يهود المجر ، قد زادت عن المواليد بنحو ١٥٠٧ ثم هبطت إلى ١٤٦٩ عام ١٩٣٢ ، واستمر هذا النمط حتى الحرب العالمية الثانية . وقد حدث الشيء نفسه في بروسيا حيث فاق عدد الوفيات عدد المواليد بمقدار ٢٩,٢ عام ١٩٣١ ، ثم زاد إلى ٢٣٩٩ عام ١٩٣٢ وإلى ٣٤٨٠ عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩١٦ ، سجلت الجماعة اليهودية في برلين ٤٩٤ مولوداً مقابل ٢٤٨٣ حالة وفاة ، أي أن الوفيات كانت خمسة أضعاف المواليد . وفي عام ١٩٣٩ ، كانت المسألة مخيفة ، فمن مجموع سكان برلين البالغ عددهم ٩٠ ألفاً سُجِّل ستة مواليد فقط طيلة العام في مقابل ١٩٤٤ حالة وفاة ، أي مولود واحد مقابل كل ٣٢٤ حالة وفاة . ولم يكن الأمر مختلفاً في فيينا حيث كان يعيش ٩٢,٩٪ من يهود النمسا ، فقد ظل معدل المواليد في انخفاض مستمر لمدة عشرة أعوام . وفي عام ١٩٣٦ ، سُجِّل في فيينا ٦٧٣ مولوداً يهودياً مقابل ٢٠٦١ حالة وفاة . ويقول يوريا إنجلمان تعليقاً على الإحصاءات السابقة : إذا لم توقّف العملية ذات الأبعاد الثلاثة [تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج] فسوف يؤدي ذلك في النهاية إلى تَفْصُخ السكان اليهود الكامل ، وأكبر دليل على أن هذا ليس مجرد افتراض وإنما هو تجربة السكان اليهود في فيينا وبودابست وبرلين وهامبورج وباريس ولندن وبادوا وتريسه ومدن أخرى .

وأثناء فترة الحرب العالمية الثانية ، وصلت هذه الاتجاهات إلى ذروتها ، إذ زادت حركة أعضاء الجماعات اليهودي واضطر كثير منهم إلى إخفاء انتمائه اليهودي ، كما أن ظروف الحرب لم تشجع كثيراً على القيام بالأفعال الإنسانية العادية مثل الزواج والإنجاب . بالإضافة إلى أن عدداً كبيراً من اليهود لقوا حتفهم بسبب الجوع

نسبة المواليد بين يهود المجر ٩١ ، ٣٣ في الألف في بداية القرن الحالي وانخفضت إلى ١٠ ، ٥ فقط ، أي أنها انخفضت بنسبة ٢٣ ، ٤ ، أي بنحو ٦٦٪ . وكانت معدلات العلمنة بين يهود المجر من أعلى النسب في أوروبا كلها ، كما كانت نسبة عدد الأطفال غير الشرعيين في بودابست وكذلك نسبة الانتحار بين أعضاء الجماعة من أعلى النسب بين أعضاء الجماعات . وفي رومانيا ، كانت نسبة المواليد بين اليهود عام ١٩٠٠ نحو ٣٢ ، ٦ في الألف ، ولكنها انخفضت مع عام ١٩٣٤ إلى ١٤ ، ٨ في الألف . وبلغت نسبة المواليد ٢ في الألف في لندن مع عام ١٩٣٢ .

وفيما يلي جدول يتغيّر نسبة المواليد بين يهود بروسيا ، نقلاً عن آرثر روبين ، كمثل على تناقص نسبة اليهود .

السنة	النسبة في الألف
١٨٣٢	٣٥,٥
١٨٤١ - ١٨٦٦	٣٤,٧
١٨٧٨ - ١٨٨٢	٣٠,٧
١٨٨٨ - ١٨٩٢	٢٣,٧
١٨٩٨ - ١٩١٢	١٩,٧
١٩١٣	١٥,٠
١٩٢٤	١٤,٦
١٩٢٦	١٢,٠
١٩٢٨	١٠,٥
١٩٢٩	٩,١

ومعنى ذلك أن نسبة المواليد عام ١٩٢٩ كانت أقل من ثلث نسبتهم منذ خمسين عاماً .

وقد أورد آرثر روبين الجدول التالي عن معدل زيادة اليهود :

الفترة	معدل المواليد (نسبة تقريبية)	معدل الوفيات (نسبة تقريبية)	المعدل التقريبي للزيادة
١٧٥٠ - ١٧٥٠	٤٥	٤٠	٥
١٨٠٠ - ١٧٥٠	٤٠	٣٠	١٠
١٨٥٠ - ١٨٠٠	٤٠	٢٥	١٥
١٩٠٠ - ١٨٥٠	٣٥	٢٠	١٥
١٩٠٥ - ١٩٠١	٣٣	١٥	١٨
١٩١٠ - ١٩٠٦	٣٢	١٥	١٧
١٩١١ - ١٩١٤	٣٠	١٤	١٦
١٩٢١ - ١٩٢٥	٢٤	١٣	١١
١٩٢٦ - ١٩٣٠	٢١	١٢	٩
١٩٣٢ -	١٨	١٠	٨

والمرض . ففي عام ١٩٤١ ، توفي نحو ١٠٪ من يهود وارسو بسبب الجوع والمرض ، ثم زادت النسبة إلى ١٥ ٪ . وقد تَفَشَّت بعض الأوبئة بعد عام ١٩٤٢ حسب تقرير البوند ، وتوفي الكثيرون بسبب عمليات الحرب . ويُقدَّر عدد الذين لقوا مصرعهم حتى عام ١٩٤١ بنحو ٢٥٠ ألفاً . وهرب الألوف إلى الاتحاد السوفيتي وهلك بعضهم أثناء هروبهم . وكما جاء في الموسوعة اليهودية العالمية ، فإن كثيرين ممن وصلوا لم يكتروا كثيراً بإعلان هويتهم اليهودية . والبيانات السابقة تجعلنا نعيد النظر في قضية الستة ملايين يهودي (ضحايا الإبادة النازية) إذ من الممكن أن تكون هناك نسبة كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية قد اختفت لا من خلال الإبادة وإنما من خلال التناقص الطبيعي . ونحن نذكر هذا لا من قبيل التقليل من حجم الجريمة النازية الأوروبية ضد يهود أوروبا وغيرهم من الجماعات الإثنية والدينية ، وإنما من قبيل تقديم صورة دقيقة لأعداد اليهود في العالم ، وحتى لا يحتكر أحد لنفسه لقب «الضحية الوحيدة» ثم يؤسس على هذا نظرية في الحقوق اليهودية المطلقة في بقعة من الشرق . فالجريمة النازية ضد الجماعات اليهودية والسلاف والغجر وغيرهم تُعدُّ من أشنع الجرائم التي ارتكبتها الحضارة الغربية الحديثة ضد بعض الأقليات والجماعات البشرية التي تعيش في كنفها . وقد ارتكبت هذه الحضارة الكثير من البشاعات ضد الشعوب الأفريقية والآسيوية ، ولكن الفضيحة اتضحت هذه المرة لأن ضحايا الجريمة كانوا من الجنس الأبيض .

السنة	١٩٣٠	١٩٨٩
المجموع العالمي	١٥ مليوناً	١٢,٢١٠,٧٠٠
الولايات المتحدة	٤,٢٢٨,٠٠٠	٥,٥١٥,٠٠٠
الاتحاد السوفيتي (سابقاً)	٢,٩٢٧,٠٠٠	١,٣٧٠,٠٠٠
بولندا	٢,٨٤٥,٠٠٠	٤,١٠٠
رومانيا	٩٠٠,٠٠٠	١٩,٠٠٠
ألمانيا	٥٦٤,٠٠٠	٣٥,٠٠٠
المجر	٤٧٧,٠٠٠	٥٨,٠٠٠
تشيكوسلوفاكيا	٣٥٤,٠٠٠	٧,٩٠٠
بريطانيا	٣٠٠,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠
النمسا	٢٥٠,٠٠٠	٦,٣٠٠
فرنسا	٢٢٠,٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠
الأرجنتين	٢٠٠,٠٠٠	٢١٨,٠٠٠
فلسطين/ إسرائيل	١٦١,٠٠٠	٣,٧١٧,٠٠٠
كندا	١٢٦,٠٠٠	٣١٠,٠٠٠
جنوب أفريقيا	٧٢,٠٠٠	١١٤,٠٠٠
البرازيل	٣٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
أستراليا	٢٢,٠٠٠	٨٥,٠٠٠

ويُلاحظ أن الكتلة البشرية اليديشية في كلٍّ من الاتحاد السوفيتي وبولندا ورومانيا والنمسا والمجر قد صَفَّتْ تقريباً ولم يبق في عام ١٩٨٣ سوى ١,٦٣٠,٠٠٠ في الاتحاد السوفيتي ، ولكنهم على أية حال لم يعودوا يتحدثون اليديشية . وقد انخفض هذا العدد إلى ١,٣٧٠,٠٠٠ في عام ١٩٨٩ ، وازداد انخفاضاً بعد هجرة اليهود السوفيت الأخيرة وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي . ولأول مرة في التاريخ الحديث ، أصبح عدد أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوروبا يفوق عددهم في شرقها . ولا تزال الولايات المتحدة تصدر القائمة منذ عام ١٩٣٠ وإن كانت أهميتها ازدادت بشكل حاد بسبب تناقص أعداد الجماعات اليهودية في بقية أنحاء العالم . وشهدت هذه الفترة ظهور التجمع الصهيوني في فلسطين كنواة كبيرة بلغت نحو ٧٥٠ ألفاً ، أي ٨٪ تقريباً من يهود العالم . وقد أخذت هذه الخلية في التضخم فأصبحت تضم ٢,٤٣٦,٠٠٠ عام ١٩٦٧ في حين كان الجسد الأكبر أخذاً في الانكماش .

أما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد ظهرت الصورة السكانية التي لا تزال سائدة حتى الآن ، حيث أصبحت الولايات المتحدة هي وطن اليهود بلا منازع ، إذ بلغ عددهم ٥,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٨ ، و ٥,٨٧٠,٠٠٠ عام ١٩٦٧ من مجموع يهود العالم البالغ عددهم ١١,٣٧٣,٠٠٠ عام ١٩٤٨ و ١٣,٨٣٧,٠٠٠ عام ١٩٦٧ ، أي أن نصف يهود العالم تقريباً موجود في الولايات المتحدة . ولكن عدد اليهود في البلاد الاستيطانية هو ٩,٠٨٣,٠٠٠ ، فيوجد ٦,٩٥٢,٠٠٠ في الأمريكتين و ٤,٤٣٦,٠٠٠ في إسرائيل و ١١٥ ألفاً في جنوب أفريقيا و ٥,٥٠٠ في روديسيا و ٧٥ ألفاً في أستراليا ونيوزيلندا . ومعنى هذا أن أعضاء الجماعات اليهودية انتقلوا من أوروبا ، حيث كانوا متركزين حتى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى الدول الاستيطانية ، خصوصاً الولايات المتحدة وإسرائيل ، مع التسليم بأن الولايات المتحدة تحتل مركز الصدارة . وقد انكمش يهود اليديشية ، الذين كانوا قد قَدَّروا شخصيتهم اليديشية (وأطلق عليهم بسبب ذلك مصطلح «يهود الاتحاد السوفيتي») ، فلم يبق منهم في

وإذا نظرت إلى توزع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية ، فإن الصورة سوف تختلف تماماً . فلو استبعدنا سكان المستوطن الصهيوني ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون أساساً في أمريكا الشمالية حيث توجد أغلبيتهم الساحقة التي تبلغ ٤٦.٣٤ ٪ ، وفي أوروبا الغربية حيث تبلغ ١٤.٩ ٪ ، وروسيا وأوكرانيا حيث نسبته ٥.٣ ٪ ، أي أن ٦٩.٨ ٪ من يهود العالم يوجدون في أمريكا الشمالية وأوروبا ، ويعيش معظمهم في الوقت الحاضر في البلدان الناطقة بالإنجليزية (الولايات المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا) . ولذا ، فيمكننا أن نقول إن اللغة التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هي الإنجليزية وليست عبرية أو يديشية . ومن الملاحظ أن الجماعات اليهودية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي وأوروبا أخذت في التذوق ، وأن عددهم في أمريكا اللاتينية أخذ في الانقاص السريع . ولذا فيمكن التنبؤ بأن يهود العالم لم يعد له الشعب اليهودي ، سيصبح جزءاً لا يتجزأ من شعب لأمركي بعد أن كان جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني لغربي ومن شعوب شرق أوروبا . ونلاحظ في الجدول السابق ، الذي يبين أكبر تسع جماعات يهودية في العالم ، أن ٩٣.٢ ٪ من يهود العالم يعيشون في تسعة مراكز رئيسية ومنه الدولة الصهيونية ، وأن ٧٦.٣ ٪ يعيشون في دولتين التين (الولايات المتحدة وإسرائيل) . ونلاحظ أن البلاد التي يوجد فيها أعضاء خدعات يهودية تسع مستوى معيشي مرتفع ودخول مرتفعة ، كما أنه تنتمي إلى ما يمكن تسميته بالتشكيل العرقي الأبيض . ففي الأرجنتين ، حيث توجد أعلى نسبة من البيض في أمريكا اللاتينية ، توجد أيضاً أعلى نسبة من اليهود .

وهذه عناصر آخر يرتبط باعتصر السن وهو أن نسبة ١٥ ٪ من يهود العالم توجد في أوروبا ، وتوجد لأغلبية العظمى في دول استيطانية : الولايات المتحدة وكندا التين تصدان ٥.٩٧٦.٠٠٠ (٤٦.٣٧ ٪ من يهود العالم) ، وإسرائيل التي تضم ٤.٢٤٢.٥٠٠ (٣٢.٨٥ ٪ من يهود العالم) ، وجنوب أفريقيا التي تضم ١.٠٠.٠٠٠ (٠.٨ ٪) ، وإسرائيل والأرجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية ٣٨٢.٠٠٠ (٢.٩ ٪) . ويمكن أن نضيف كذلك أستراليا ونيوزيلندا التي تضم ٩٤.٦٠٠ (٠.٧ ٪) . أي أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوروبا وبجربتها الاستيطانية جغرافياً وتاريخياً . إذ يوجد في هذه البلاد ٩١ ٪ من يهود العالم . وكذلك فإن الدياسورا اليهودية ، أي انتشار أعضاء الجماعات في أنحاء العالم ، ليست انتشاراً عشوائياً وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعماري

أعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم . وبعض معالمها السكانية في الوقت الحاضر (١٩٩٢)

Recent (1992) Worldwide Number and Distribution of the Jewish Communities and Some of Their Demographic Features

يُقدَّر عدد سكان العالم من اليهود طبقاً لإحصاءات عام ١٩٨٧ بنحو ١٣ مليوناً (١٢,٩٣٤,٦٠٠) وصل إلى ١٢,٩٦٣,٨٠٠ عام ١٩٩٢ (حسبما ورد في الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي لعام ١٩٩٤) . وهو يقل قليلاً عن عددهم عام ١٩٨٢ والبالغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ أو عددهم عام ١٩٨٤ وهو ١٢,٩٦٣,٣٠٠ (وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر في النمو) . وقد تناقص هذا العدد عن عددهم في عام ١٩٦٧ حيث كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠ ، أي أن عدد اليهود نقص بنحو المليون في الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي . والجماعات اليهودية موزعة في الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية في كل أرجاء العالم على النحو التالي :

أوروبا (بما في ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا)	١,٩٢٤,٢٠٠
آسيا (فلسطين المحتلة أساساً)	٤,٣٧٨,٦٠٠
أفريقيا (جنوب أفريقيا أساساً)	١٠٦,٧٠٠
أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية (الولايات المتحدة أساساً)	٦,٤٠٩,٧٠٠
أستراليا ونيوزيلندا	٩٤,٦٠٠
المجموع	١٢,٩١٣,٨٠٠

وأكثر تسع جماعات يهودية هي :

الدولة	عدد أعضاء الجماعة اليهودية	نسبتهم إلى يهود العالم
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٤٣,٥ ٪
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٣٢,٨ ٪
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٤,١ ٪
روسيا	٤١٥,٥٠٠	٣,٢ ٪
كندا	٣٥٦,٠٠٠	٢,٨ ٪
بريطانيا العظمى	٢٩٨,٠٠٠	٢,٣ ٪
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٢,١ ٪
الأرجنتين	٢١١,٠٠٠	١,٦ ٪
جنوب أفريقيا	١٠٠,٠٠٠	٠,٨ ٪

٣ - الجنوبية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأرجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦,٣
إكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠,١
أوروغواي	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣,٨٠٠	٧,٦
باراجواي	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠,٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠,٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠,١
سورينام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠,٤
شيلي	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,١
فنزويلا	٢٠,٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١,٠
كولومبيا	٣٣,٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠,٢
المجموع	٣٠٨,٦٤٧,٠٠٠	٣٨٢,٠٠٠	١,٢
المجموع الكلي للأمريكتين	٧٥٠,٦٣١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨,٥٣

أستراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
أستراليا	١٧,٨٤٣,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٥,٠
نيوزيلاندا	٣,٤٨٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	١,٣
بلاد أخرى	٦,٦١٧,٠٠٠	١٠٠	-
المجموع	٢٧,٩٤٧,٠٠٠	٩٤,٦٠٠	٣,٤

آسيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إسرائيل	٥,١٩٥,٩٠٠	٤,٢٤٢,٥٠٠	٨١٦,٥

انفري ، خصوصاً في جانبه الاستيطاني . وبالتالي ، فإن إسرائيل لا تشكل استثناء من القاعدة بل هي جزء من نمط غربي عالمي . وارتفاع الدخول ليس منفصلاً تماماً عن العنصر الاستيطاني إذ أن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساساً إلى حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الغازية وكانت إحدى أهم المشاكل هي الفاضل البشري . وقد كان المجتمع الغربي ينظر إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الإطار .

وفيما يلي تَوْزُّعُ أعضاء الجماعات اليهودية في العالم في الوقت الحاضر حسب إحصاءات ١٩٩٢ :

الأمريكتان :

١ - الشمالية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
كندا	٢٧,٧٥٥,٠٠٠	٣٥٦,٠٠٠	١٢,٨
الولايات المتحدة	٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠	٥,٦٢٠,٠٠٠	٢١,٨
المجموع	٢٨٥,٥٩٥,٠٠٠	٥,٩٧٦,٠٠٠	٢٠,٩

٢ - الوسطى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	النسبة في الألف
الأنطيلز الهولندية	١٧٥,٠٠٠	٤٠٠	٢,٣
بنما	٢,٥٦٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢,٠
بورتوريكو	٣,٦٢٦,٠٠٠	١,٥٠٠	٠,٤
جامايكا	٢,٤٩٥,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
جزر البهاما	٢٦٨,٠٠٠	٣٠٠	١,١
جواتيمالا	١٠,٠٢٩,٠٠٠	٨٠٠	٠,١
الدومينيكان	٧,٦٢١,٠٠٠	١٠٠	-
فيرجن أيلاند	١٠٧,٠٠٠	٣٠٠	٢,٨
كوبا	١٠,٩٠٧,٠٠٠	٧٠٠	٠,١
كوستاريكا	٣,٢٧٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٦
المكسيك	٨٩,٩٩٨,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٠,٤
بلاد أخرى	٢٥,٣٣٠,٠٠٠	٣٠٠	-
المجموع	١٥٦,٣٨٩,٠٠٠	٥١,٧٠٠	٠,٣

الدول الآسيوية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

أفريقيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إثيوبيا	٥٤,٦٣٨,٠٠٠	١,٥٠٠	-
تونس	٨,٥٧٩,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠,٢
الجزائر	١٩,٥٩٠,٠٠٠	٣٠٠	-
جنوب أفريقيا	٤٠,٧٧٤,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٢,٥
زائير	٤١,١٦٦,٠٠٠	٤٠٠	-
زامبيا	٨,٨٨٥,٠٠٠	٣٠٠	-
زيمبابوي	١٠,٨٩٨,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,١
كينيا	٢٦,٠٩٠,٠٠٠	٤٠٠	-
مصر	٥٦,٠٦٠,٠٠٠	٣٠٠	-
بلاد أخرى	٤٦١,٩٩٠,٠٠٠	١,٠٠٠	-
المجموع	٦٦,٨٥٦,٠٠٠	١٠٦,١٠٠	١,٦

أوروبا :

الجماعة الأوربية :

الدولة	عدد السكان	عدد يهود	نسبة يهود إلى نسبة السكان في الألف
إسبانيا	٣٩,١٥٣,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٠,٣
ألمانيا	٨٠,٦٠٦,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٠,٦
أيرلندا	٣,٤٨١,٠٠٠	١,٨٠٠	٠,٥
إيطاليا	٥٧,٨٢٦,٠٠٠	٣١,٠٠٠	٠,٥
البرتغال	٩,٨٧٠,٠٠٠	٣٠٠	-
بنجيكا	١٠,٠١٠,٠٠٠	٣١,٨٠٠	٣,٢
الدنمارك	٥,١٦٩,٠٠٠	٦,٤٠٠	١,٢
فرنس	٥٧,٣٧٩,٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠	٩,٢
لكسمبورج	٣٨٠,٠٠٠	٦٠٠	١,٦
الملكة المتحدة	٥٨,٠٣٩,٠٠٠	٢٩٨,٠٠٠	٥,١
هولندا	١٥,٢٧٠,٠٠٠	٢٥,٦٠٠	١,٧
اليونان	١٠,٢٠٨,٠٠٠	٤,٨٠٠	٠,٥
المجموع	٣٤٧,٣٩١,٠٠٠	٩٩٢,٣٠٠	٢,٩

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
أذربيجان	٧,٢٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٢,٩
أرمينيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
أوزبكستان	٢١,٦٠٠,٠٠٠	٤٥,٢٠٠	٢,١
تركمانيا	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٥
جورجيا	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠٠	٣,٣
طاجيكستان	٥,٧٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٠,٩
كازاخستان	١٧,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٠,٨
قرغيزيا	٤,٦٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠	٠,٨
المجموع	٦٩,٣٠٠,٠٠٠	١٠٩,٦٠٠	١,٦

بلاد آسيوية أخرى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إيران	٦٣,١٨٠,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٣
تايلاند	٥٦,٨٦٨,٠٠٠	٢٠٠	-
سنغافورة	٢,٧٩٨,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
سوريا	١٣,٧٦٢,٠٠٠	١,٢٠٠	٠,١
العراق	١٩,٩١٨,٠٠٠	٢٠٠	-
الفلبين	٦٦,٥٤٣,٠٠٠	١٠٠	-
كوريا الجنوبية	٤٤,٥٠٨,٠٠٠	١٠٠	-
الهند	٨٩٦,٥٦٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	-
هونغ كونج	٥,٨٤٥,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
اليابان	١٢٤,٩٥٩,٠٠٠	١,٠٠٠	-
اليمن	١٢,٩٧٧,٠٠٠	١,٦٠٠	٠,١
بلاد أخرى	١,٩١٨,٥٠٦,١٠٠	٣٠٠	-
المجموع	٣,٢٢٦,٤٣١,١٠٠	٢٦,٥٠٠	-
المجموع الكلي للبلاد الآسيوية	٣,٣٠٠,٩٢٧,٠٠٠	٤,٣٧٨,٦٠٠	١,٣

أوروبا الشرقية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
بلغاريا	٨,٩٢٦,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٢
البوسنة والهرسك	٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
بولندا	٣٨,٥١٨,٠٠٠	٣,٦٠٠	٠,١
تركيا (بما في ذلك المناطق الآسيوية)	٥٩,٥٧٧,٠٠٠	١٩,٥٠٠	٠,٣
تشيك	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٤
رومانيا	٢٣,٣٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٧
سلوفاكيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٧
سلوفينيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠	-
كرواتيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠	٠,٣
المجر	١٠,٤٩٣,٠٠٠	٥٦,٠٠٠	٥,٣
يوغسلافيا	٩,٨٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠	٠,٢
المجموع	١٧٦,٦٩١,٠٠٠	١٠٨,١٠٠	٠,٦
المجموع الكلي لأوروبا	٧٨١,١٧٣,٠٠٠	١,٩٢٤,٢٠٠	٢,٥

ويلاحظ أنه توجد دولتان اثنتان (الولايات المتحدة وإسرائيل) تضمان الغالبية الساحقة من يهود العالم (٧٥٪). ولا يزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا في دولة واحدة (فرنسا). ويتنقص عن النصف مليون في دولة أخرى (روسيا)، وتوجد دولتان (جنوب أفريقيا والبرازيل) يزيد عدد اليهود في كل منهما على مائة ألف. وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفاً، والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفاً، لا توجد دولة واحدة أخرى يزيد فيها عدد اليهود على ٣٥ ألفاً. ففي بلجيكا يوجد ٣١,٨٠٠، وفي إيطاليا ٣١,٠٠٠، وفي أوروغواي ٢٣,٨٠٠، وفي رومانيا ١٦,٠٠٠.

ويلاحظ أن جميع الدول السابقة تنتمي أيضاً إلى التشكيل العرقي الأبيض أو التشكيل الاستيطاني ذي الجذور الغربية البيضاء. والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لا يوجدون في العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدد، وأن وجودهم في بعض الدول أقرب إلى الغياب ولا يمكن أخذه في الاعتبار من الناحية الإحصائية، فلا يمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودي في الهند

باقي دول أوروبا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
جبل طارق	٣١,٠٠٠	٦٠٠	١٩,٤
السويد	٨,٦٩٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١,٧
سويسرا	٦,٨٦٢,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٢,٨
فنلندا	٥,٠٢٠,٠٠٠	١,٣٠٠	٠,٣
النرويج	٤,٣١٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٠,٢
النمسا	٧,٨٠٥,٠٠٠	٧,٠٠٠	٠,٩
بلاد أخرى	٧٧١,٠٠٠	١٠٠	٠,١
المجموع	٣٣,٤٩١,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	١,٣

الدول الأوربية في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان في الألف
إستونيا	١,٦٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠	٢,١
أوكرانيا	٥١,٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥,٣
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢,٨
روسيا البيضاء	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤,٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٣,٥٠٠	٥,٢
ليتوانيا	٣,٨٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠	١,٧
مولدافيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٩,٤٠٠	٤,٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩,٨٠٠	٣,٥

روسيا (٢٠٠ ألف) يوجد في موسكو . أما في الولايات المتحدة ، فهناك خمس مدن تضم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك (الكبرى) ١,٤٥٠,٠٠٠ ولوس أنجلوس ٤٩٠,٠٠٠ وفيلادلفيا ٢٥٤,٠٠٠ وشيكاغو (الكبرى) ٢٤٨,٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨,٠٠٠ وواشنطن (الكبرى) ١٦٥,٠٠٠ وميامي ١٩٩,٠٠٠ . والواقع أن تَوَزُّعهم على كل هذه المدن ، بدلاً من تَرَكُّزهم في العاصمة ، هو انعكاس للتركيبة القيدالية للولايات المتحدة . وإذا كان نصف الجماعات اليهودية يتركز في كثير من البلاد في العاصمة ، فإن النصف الثاني يوجد موزعاً على مدن كبرى أخرى ، أي أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهودية تُوجَد في مراكز حضرية . وهذا أمر متوقَّع باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة في الحضارة الغربية كما أنهم مهاجرون إلى البلاد التي يوجدون فيها . والمهاجرون يتركِّزون عادة في المدن حيث توجد فرص أكبر للعمل ، وحيث توجد مراكز التجارة والمال . ولم يكن الحال مختلفاً في العالم العربي ، فقد تَرَكَّزت أغلبية يهود لبنان في بيروت كما تَرَكَّز يهود مصر في القاهرة بحي المعادي وحي الناهر . وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ في العواصم ، فمثلاً يوجد في القاهرة والإسكندرية عدة معابد ، ويقع أحد معابد القاهرة في شارع عدني على مقربة من البنوك ومراكز التجارة . كما يوجد معبد يهودي في الإسكندرية في شارع النبي دانيال على مقربة أيضاً من بنوك الإسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية . ومن المعروف أن ٩٨٪ من العاملين بالبورصة في مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية . وفي تصوُّرنا أن هذا الوضع هو نتيجة الاستعمار الغربي والهجرة الإشكنازية إلى العالم العربي في أواخر القرن الماضي والتي سعت معظم الجماعات اليهودية العربية في بلاد المتوسط (مصر والجزائر والمغرب ولبنان وسوريا) بمبسمها بحيث تحوَّلت أعضاء الجماعات إلى جماعات وسيطة للاستعمار الغربي . كما يلاحظ (مثلاً) أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الإشكنازية ، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقي القبلي وبوجودهم في الجبال . أما في العراق ، فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات ، لم يستقروا في المدن على خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتَرَكَّزوا في العاصمة وفي أعمال التجارة والمال بالذات . ولم يشذ سكان التجمع الاستيطاني الصهيوني عن هذا الاتجاه . ففي إسرائيل ، يتكدس ٧٥٪ من المواطنين في المدن . ويلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لا يزال أخذاً في التناقص ، وهو ما يُطلَق عليه ظاهرة موت الشعب اليهودي .

حيث لا يوجد بها إلا نحو ٤,٥٠٠ يهودي ، أو الوجود اليهودي في اليونان حيث يوجد ٤,٨٠٠ يهودي ، أو بولندا وفيها ٣,٦٠٠ يهودي ، أو الترويج التي يوجد فيها ألف يهودي ، أو زانير التي يوجد فيها ٤٠٠ يهودي ، أو الفلبين وفيها ١٠٠ يهودي ، أو بورما حيث يوجد عشرون يهودياً وحسب .

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة إلى سكان العالم ، وهم كذلك أقلية صغيرة قياساً إلى حجم السكان في الدول التي يوجدون فيها . فأكبر تَجْمُع يهودي في العالم في الولايات المتحدة لا يُشكِّل سوى ١٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠ حسب إحصاءات عام ١٩٩٢ . وثاني تَجْمُع يهودي في العالم كان يتركز في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، وهو بدوره لا يُشكِّل سوى ١,٠٧٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٧,٥١٦,٠٠٠ . أما في كندا ، فإن النسبة هي ١,٢٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦,٧٥٥,٠٠٠ . وتقل النسبة في البلاد الأوروبية الأخرى ، فهم في فرنسا مثلاً لا يُشكِّلون سوى ٩٢,٠٠٠٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٧,٣٧٩,٠٠٠ . أما في إنجلترا فإنها ٥١,٠٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨,٠٣٩,٠٠٠ ، وفي روسيا ٢٨,٠٪ من مجموع ١٤٩,٠٠٠,٠٠٠ ، وفي أوكرانيا ٥٣,٠٪ من مجموع ٥١,٩٠٠,٠٠٠ .

ولا يُشكِّل اليهود أغلبية إلا في إسرائيل وحدها ، ومع هذا فإنهم يحسون بإحساس الأقلية نظراً لوجودهم في صورة مجتمع استيطاني منزول داخل الكثافة السكانية العربية ، ولخوفهم الدائم من العرب الموجودون في فلسطين . وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتكاثر العرب مقابل تناقص الهجرة ، وتزايد التزوج بين المستوطنين ، وعقم الأنثى اليهودية في إسرائيل ، فإن العرب سيصبحون هم الأغلبية العددية لا النفسية وحسب ، وهذا ما يُسمَّى «مشكلة إسرائيل السكانية» .

ومن الظواهر التي تستحق الإشارة ، تَرَكُّز اليهود في العواصم والمدن الكبرى . فالواقع أن حوالي نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية (٢٠٠ ألف) يوجدون في بوينس آيريس ، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا (٦٣ ألفاً) يوجدون في جوهانسبرج ، وأكثر من نصف يهود فرنسا (٣٥٠ ألفاً) في باريس ، وأكثر من نصف يهود إنجلترا (٢٠٠ ألف) يوجدون في منطقة لندن الكبرى ، وأكثر من نصف يهود هولندا (١٥ ألفاً) في أمستردام ، وأكثر من نصف يهود كندا في مونتريال (١٠٠ ألف) وتورنتو (١٧٥ ألفاً) ، وثلاث يهود

ومن المحتمل أن تكون حركة عودة قد بدأت من الدولة الصهيونية ، كما أن أعدادا كبيرة من يهود لاتفيا واستونيا وليتوانيا والجمهورية الإسلامية السابقة وُطِّتوا فيها باعتبارهم عنصرأ روسياً استيطانياً ، ولعل أعداداً منهم بدأت هي الأخرى في العودة ، وهناك بطبيعة الحال مشكلة تعريف اليهودي ومن يُضم إلى التعداد ومن يُستبعد . وعلى كلِّ فإن هذه القضايا ليست جوهرية ولا تُغيِّر الأغاط العامة التي درسناها . كما يلاحظ أن أعداد اليهود في عامي ١٩٩٦ و ١٩٩٧ لم تتغير عنه في عام ١٩٩٥ .

موت الشعب اليهودي

Death of the Jewish People

«موت الشعب اليهودي» عبارة وضعها عالم الاجتماع الفرنسي (اليهودي) جورج فريدمان . وهي تشير إلى ظاهرة تناقص أعضاء الجماعات اليهودية في العالم إلى درجة اختفاء بعض هذه الجماعات وتحوُّل بقيتها إلى جماعات صغيرة لا أهمية لها من الناحية الإحصائية . وهذه الظاهرة ليست غريبة على أعضاء الجماعات ، فعدد العبرانيين القدامى انخفض من ١,٨٠٠,٠٠٠ عام ألف قبل الميلاد إلى ١,١٠٠,٠٠٠ خلال الفترة من عام ٧٣٣ إلى عام ٧٠١ ق.م ، وذلك قبل التهجير الآشوري والبابلي . وبعد التهجير البابلي ، بلغ عددهم ١٥٠ ألفاً . وبعد مرسوم قورش ، تراوح العدد في مقاطعة يهودا بين ٦٠ و ٧٠ ألفاً .

وقد حدث انفجار سكاني في الفترة من عام ١٠٠ ق.م إلى عام ١٠٠ ميلادية حتى بلغ عدد اليهود ما بين خمسة وثمانية ملايين حسب رأي بعض المؤرخين ، وإن كان هناك مؤرخون يعتقدون أن هذا العدد مُبالغ فيه . ومع نهاية القرن الثاني عشر ، كان عدد يهود العالم ما بين المليون والمليونين . ثم حدث في العصر الحديث الانفجار السكاني في القرن التاسع عشر حيث أدَّى - حسب بعض الإحصاءات - إلى تزايد عدد اليهود من ٢,٥٠٠,٠٠٠ في أوائل القرن التاسع عشر إلى ١٦,٧٢٤,٠٠٠ عشية الحرب العالمية الثانية . ومن الواضح أن الجماعات اليهودية في العالم تمرُّ بحلة بدأت في نهاية القرن التاسع عشر وتسم بتناقص أعدادهم بسبب اختفاء العوامل التي أدَّت إلى تزايدهم (مثل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في مناطق لم تشب فيها معارك حربية ، وعدم تجنيد اليهود في القوات المسلحة) . وعلى العكس من ذلك ظهرت عناصر تؤدي إلى تناقص اليهود إما من خلال اختفاء أعداد منهم ممن وُلِدوا يهوداً بالفعل أو من خلال انخفاض نسبة المواليد . ويمكن أن نورد الأسباب

تعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم عام ١٩٩٥
Current (1995) Worldwide Number and Distribution
of Jewish Communities

وصلت الإحصاءات الخاصة بتعداد اليهود في العالم عام ١٩٩٥ والموسوعة ماثلة للطبع (المصدر : المسح الديموجرافي وتقارير الجماعات اليهودية إلى المؤتمر اليهودي العالمي) ، وقد وجدنا أن الصورة العامة لم تختلف كثيراً عما كانت عليه عام ١٩٩٢ . وفيما يلي بعض التغيرات الأساسية :

الدولة	عام ١٩٩٢	عام ١٩٩٥
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٥,٨٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٤,٤٢٠,٠٠٠
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
روسيا	٤١٥,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٤٤٦,٠٠٠
الأرجنتين	٢١١,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠
جنوب أفريقيا	١٠٠,٠٠٠	١١٤,٠٠٠
المجر	٥٦,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
مولدافيا	١٩,٤٠٠	٤٠,٠٠٠
روسي البيضاء	٤٦,٠٠٠	٣٤,٠٠٠
أوروغواي	٢٣,٨٠٠	٣٠,٠٠٠
اليونان	١٦,٠٠٠	٢٥,٠٠٠
أذربيجان	٢١,٠٠٠	٢٥,٠٠٠

ويمكن القول بأن التغيرات في الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لا يُعَدُّ بها ، ولكن الزيادات في البلاد الأخرى تحتاج إلى وقفة . فزيادة ٧٠ ألفاً في فرنسا (أي بنسبة ١٣,٢٪) و ٣٩٠ ألفاً في الأرجنتين (بنسبة ٤٨,١٨٪) و ٢٤٠ ألفاً في المجر (بنسبة ٤٢,٨٪) و ٦٠ آلاف في جنوب أفريقيا (بنسبة ٠,٦٪) وتسعة آلاف في إيران (بنسبة ٥٦٪) ليس لها سبب واضح ، فالانحياز العام في هذه البلاد في السنين السابقة كان نحو النقصان لا الزيادة ، ولعل الزيادات هنا راجعة لاختلاف النماذج الإحصائية بين المصدر الذي استخدمه الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي (وهو من إصدار البعثة اليهودية الأمريكية) ومصدر تعداد عام ١٩٩٦ وهو تقرير أصدره المؤتمر اليهودي العالمي .

ولا ندري هل يطبق التفسير نفسه على الزيادة الملحوظة في دول الاتحاد السوفيتي سابقاً (دول الكومنولث المستقلة وغيرها من الدول) . إذ نلاحظ أن يهود روسيا زادوا ١٣٥ ألفاً (حوالي ٣٢,٥٪) وزاد يهود أوكرانيا ١٢٤ ألفاً (حوالي ٤٤,٩٪) وزاد يهود مولدوفا ١٠,٦ آلاف (أكثر من ٥٤,٦٪) بينما زاد يهود روسيا البيضاء ١٤ ألفاً (أي بنسبة ٣٠,٤٪) .

التالية التي تؤدي إلى اختفاء اليهود (دون حدوث مذابح أو انتشار أوبئة) :

١ - تزايد معدلات الاندماج . فكثير من اليهود الذين يندمجون يخفون هويتهم اليهودية وانتماءهم اليهودي ويسجلون أنفسهم على أنهم غير يهود . ويبلغ عدد اليهود الذين أخفوا هويتهم في الاتحاد السوفيتي (سابقاً) نحو مليون ونصف ، كما يوجد الألوف من اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية بشهادات تعميد مزيفة أصدرها لهم الفاتيكان أثناء الإرهاب النازي ثم أثروا أن يحتفظوا بهويتهم الجديدة .

٢ - يلاحظ أن هناك أعداداً لا بأس بها من أعضاء الجماعات اليهودية يتصرفون أو ينخرطون في سلك العبادات الجديدة ، ومن ثم يسقطون عن أنفسهم تسمية «يهودي» .

٣ - من أهم أسباب اختفاء اليهود الزواج المختلط ، والذي وصل إلى درجة لم يشهدها يهود العالم من قبل . وقد بلغت معدلات الزواج المختلط ما يزيد على ٥٠٪ في الولايات المتحدة والعالم الغربي على وجه العموم (بما في ذلك روسيا وأوكرانيا) . بل وتصل النسبة أحياناً في روسيا وأوكرانيا إلى ٨٠٪ ، خصوصاً في الأماكن التي توجد فيها أقليات يهودية صغيرة بعيدة عن مراكز التجمعات اليهودية الكبرى . وفي كثير من الأحيان ، يسقط الزوج اليهودي في الزيجة المختلطة هويته حتى لا يسبب الحرج لزوجته ، ولا شك في أن هناك من يتهود من أجل الزواج . ولكن عدد المتشددون من أجل الزواج لا يعوض عدد المتنصرين للسبب نفسه .

٤ - يلاحظ ، بتأثير حركة التمرکز حول الأثنى ، أن الأثنى اليهودية التي كانت تُعد العمود الفقري للهويات اليهودية في الماضي ، بدأت هي الأخرى تندمج في المجتمع الذي تعيش في كنفه ، وذلك بمعدلات عالية تقترب من معدلات الذكور ، وهي تُقبل الآن على الزواج المختلط بعد أن كان ذلك مقصوداً تقريباً على الذكور وحدهم . ويلاحظ أن أبناء الزواج المختلط يكونون عادةً إما غير يهود أو غير مكترئين باليهودية .

ويمكننا الآن أن نتناول العوامل التي تؤدي إلى انخفاض نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية ، مع ملاحظة أن بعض هذه الأسباب ليس مقصوداً على أعضاء الجماعات اليهودية ، فهي ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» :

١ - تفتي قيم المنفعة واللذة والفردية والأناية في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» ، وهي قيم تتناقض مع فكرة الأسرة والزواج وإنجاب الأطفال وتنشئهم بكل ما يتضمن ذلك من قيد على الحرية وتخل عن المتعة الحسية المباشرة .

٢ - الزواج المتأخر . وهي ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» تنجم عن تصدع مؤسسة الأسرة وامتداد الوقت الذي تستغرقه العملية التعليمية وتأخر الاستقلال الاقتصادي للأبناء .

٣ - تزايد عدد الشواذ جنسياً في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» (تنسب تصل في بعض المدن في الغرب إلى ٣٠٪) ، وتوجد بينهم نسبة عالية من اليهود . ومعظم الشواذ يتصون إلى المرحلة العمرية النشطة جنسياً ، وهذا يعني أن عدداً كبيراً من الذكور والإناث ينسحبون من عملية الإنجاب .

٤ - انسحاب كثير من النساء من عملية الإنجاب في المجتمعات الغربية التي يُقال لها «متقدمة» بتأثير حركة التمرکز حول الأثنى التي تجعل أي نشاط أنثوي خاص (مثل الإنجاب) أمراً سلبياً أو معوقاً لنشاط المرأة في الحياة العامة . ومن المعروف أن معظم قيادات هذه الحركة من اليهوديات ، وأن نسبة اليهوديات المنخرطات فيها يفوق المعدل القومي .

٥ - تصدع الأسرة اليهودية وتزايد نسبة الطلاق ، وهو ما يزيد من الإحجام عن الإنجاب .

٦ - تركيز اليهود في المدن . ومن المعروف أن المدن لم يمكنها عبر التاريخ أن تحتفظ بكتلتها النسكانية من خلال التزايد الطبيعي .

وقد أدت كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية ، وأصبحت واحدة من أقل النسب في العالم . ومن المعروف أن المطلوب هو أن تنجب الأثنى ١ ، ٢ طفل في المتوسط حتى يتسنى لأي جماعة إنسانية إعادة إنتاج نفسها بيولوجياً . والمرأة اليهودية في إسرائيل تقترب من هذا المعدل بالكاد ، فهي تنجب ٩١ ، ٢ (وهو أقل معدل منذ تأسيس الدولة إذ وصل إلى مستواه الحالي عام ١٩٩١) . لكن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوصاً في العالم ، فالإناث في المرحلة العمرية ٣٥ - ٤٤ ينجبن ٥٧ ، ١ ، أما في المرحلة العمرية ٢٥ - ٣٤ فلن المتوسط هو ٨٧ ، أي أقل من طفل واحد .

كما أن مستوى العناية الصحية أخذ في التحسن الأمر الذي يؤدي إلى زيادة معدلات العمر وإلى زيادة نسبة كبار السن وهي شريحة غير خصبة من السكان . ويلاحظ أن ١٦٪ من أعضاء الجماعات اليهودية تتجاوز أعمارهم ٦٥ عاماً ، والنسبة السائدة في مجتمعاتهم هي ١٢٪ . ويصل عدد المسنين إلى ٢٩٪ أحياناً . أما الأطفال حتى سن ١٤ عاماً ، فلا يشكلون سوى ١٥٪ ، وتستصل النسبة في عام ٢٠٢٥ إلى ١٠٪ فقط . وفي عام ١٩٨٩ ، كان يهودي

المليون، أي أن ٣٧٪ من يهود العالم سيكونون في الدولة الصهيونية عما قريب (كان يهود إسرائيل يشكلون ٦٪ من يهود العالم عام ١٩٤٨، و ١٣٪ في عام ١٩٥٥، و ٢٥٪ عام ١٩٨٠، و ٢٧٪ عام ١٩٨٤). ويُقال إنه إذا استمر الوضع الديموجرافي الحالي (وهو أمر ليس من الصعب تصوُّره) فإن تعداد اليهود في إسرائيل سيكون ٦,٥ مليون يهودي بينما سيكون عددهم في بقية أنحاء العالم ٥,٥ مليون مع منتصف القرن الحادي والعشرين، أي أن معظم يهود العالم سيكونون في إسرائيل، لا بسبب الهجرة وإنما بسبب تقلُّص أعداد الجماعات اليهودية في الخارج.

ويتناقص تعداد اليهود لا قياساً إلى مجموع سكان دول العالم وإنما بفقدان وزنهم النسبي إلى التعداد العام في كل بلدة على حدة. ففي الفترة بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٨٠، ازداد مجموع سكان الولايات المتحدة بأكثر من ثلاثة أرباع في حين لم يزد عدد اليهود فيها أكثر من الثلث خلال الفترة الزمنية نفسها. وفي عام ١٩٣٧، كان اليهود يشكلون ٦,٣٪ من مجموع السكان، أما في عام ١٩٧٩ فقد انخفضت هذه النسبة إلى ٢,٧٪. وإذا أضفنا إلى ذلك أن عدد الوفيات بين يهود أمريكا تزيد على عدد المواليد، وأنهم يحافظون على تحديد النسل ويكثر من الزواج المختلط وتزداد بينهم معدلات الطلاق والانفصال، لا تضح لنا أن معدل التناقص سيأخذ في الارتفاع. والشئ نفسه ينطبق على يهود الاتحاد السوفيتي (سابقاً) الذين كان تعدادهم في عام ١٩٥٩ نحو مليونين و ٢٦٨ ألفاً وبلغ عددهم عام ١٩٨٩ مليوناً و ٤٠٠ ألف. وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي، هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى إسرائيل والعالم الغربي ويتوقع هجرتهم أو تفتيتهم في محيطهم الحضاري. ولذا، يمكننا القول بأن يهود العالم ينقسمون إلى قسمين أساسيين :

١ - جماعة تتحدث العبرية في إسرائيل ليس لها سوى علاقة واهية بالعقيدة اليهودية أو التاريخ اليهودي (أي تواريخ الجماعات اليهودية) تعتمد في وجودها على حكومة الولايات المتحدة وتوجُّهها الحضاري الاستهلاكي المتأمر. ويمكن أن نستخدم هنا اصطلاح جورج فريدمان للإشارة إلى الإسرائيليين باعتبارهم «أغياراً يتحدثون العبرية».

٢ - جماعة يهودية في الولايات المتحدة تنقسم بدورها إلى قسمين :
أ) قلة صغيرة متمسكة بتعاليم الدين اليهودي وتحاول قدر استطاعتها أن تنفذ تعاليمه وتفهم شعاثه.

ب) أغلبية باهتة الهوية لا تمارس الشعائر الدينية وإنما تقيم بعضها باعتبارها شكلاً من أشكال الفلكلور والهوية الإثنية، وهي تحاول

واحد من بين كل ستة يهود فوق سن الخامسة والستين. وبعد عشرة أعوام، سيكون هناك ٧٢٠ ألف يهودي تتجاوز أعمارهم الخامسة والسبعين. والواقع أن هذه السمات ليست مقصورة على الجماعات اليهودية وإنما هي سمة عامة تسم المجتمعات الغربية التي يُقال لها «معتدلة» والتي تزايد فيها معدلات العلمنة. وعلى كل، فإن الأغلبية العظمى من يهود العالم متركزة في هذا العالم الغربي، كما أن نسبة الخصوبة بين يهود الشرق والبلاد العربية لا تختلف كثيراً عن الخصوبة في مجتمعاتهم. ومع هذا، فإن هذه الظواهر تأخذ شكلاً أكثر حدة بين أعضاء الجماعات اليهودية، ربما بسبب تزايد معدلات العلمنة بينهم عن معدلها في المجتمع وكذلك لارتفاع مستواهم المعيشي.

لكل هذا، يتنبأ الديموجرافيون بأن تعداد يهود العالم سينخفض إلى ثمانية ملايين نسمة عام ٢٠٠٠ في أحسن الأحوال، وإلى سبعة ملايين ونصف المليون في أسوأها، وقد يصل في عام ٢٠٢٥ إلى ما بين خمسة أو ستة ملايين.

ولا يمكن فصل إشكالية موت الشعب اليهودي عن التركيب السكاني لإسرائيل، فحسب آخر إحصاءات يبلغ عدد سكان إسرائيل ٤,٢٤٢,٠٠٠ مليون (وهو رقم مُبالغ فيه قليلاً). كما أن هذا الرقم يضم عدد المرتدين (أي الإسرائيليين المقيمين بشكل دائم خارج إسرائيل) الذي يبلغ ٦٠٠ ألف حسب التقديرات المحافظة (ومليون حسب العديد من التقديرات). أما بالنسبة للفلسطينيين فعددهم هو ٣,٣ مليون، وهذا يضم ٩٠٠,٠٠٠ فلسطيني في فلسطين التي احتُلت قبل عام ١٩٤٨ و ٢,٤٠٠,٠٠٠ مليون فلسطيني في الضفة والقطاع. وقد ذكرنا من قبل أن معدل خصوبة المرأة اليهودية في إسرائيل هو ٢,٩. أما معدل خصوبة المرأة الفلسطينية في الضفة الغربية فهو ٥,٧، وهو في القطاع ٧,٩ (وتكاد تكون أعلى نسبة في العالم، وقد قال أحد المعلقين إن هذه النسبة هي أقرب إلى البيان السياسي). وهذا يعني أن عدد الفلسطينيين سيتجاوز عدد الإسرائيليين من اليهود خلال بضعة أعوام. ولا يمكن تجاوز هذا الموقف الآن خلال هجرة يهودية مكثفة وهو أمر غير متوقَّع، فالهجرة السوفيتية الأخيرة قد أفرغت آخر مصدر من مصادر المادة البشرية اليهودية. ولا تزال الولايات المتحدة تشكل مركز الجذب الأكبر ليهود العالم وكذلك للإسرائيليين، ومن المتوقع أن تزايد الهجرة المضادة من إسرائيل للولايات المتحدة.

أما بالنسبة لعلاقة يهود إسرائيل بيهود العالم، فمن المتوقع أن يرتفع عدد سكان إسرائيل من اليهود إلى أربعة ملايين ونصف

رغم تزايد معدلات أمركتها أن نحافظ على بقايا الموروث الثقافي اليهودي الذي يعود بجذوره إلى شرق أوروبا .
وهذا يعني أن الدياسبورا ستصبح أساساً الدياسبورا الأمريكية أو الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، أي أن أعضاء الجماعات اليهودية سيصبحون جزءاً لا يتجزأ من الشعب الأمريكي بعد أن

كانوا جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستيطاني الغربي . وإذا ما أخذنا في الاعتبار اعتماد إسرائيل شبه الكامل على الولايات المتحدة ، فيمكننا القول بأن يهود العالم في القرن القادم سيعيشون داخل الولايات المتحدة أو سيدورون في فلكها الحضاري والاقتصادي والسياسي .



الجزء الثالث

يهود أم جماعات وظيفية يهودية؟

١ الجماعات الوظيفية اليهودية

يهود أم جماعات وظيفية يهودية ؟ - الجماعات اليهودية والانتماء الطبقي - أسباب تحول بعض الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية - علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة - الجماعات الوظيفية اليهودية في العالم الغربي - علاقة الجماعات اليهودية بالصناعة - الرأسمالية والاشتراكية والجماعات اليهودية - تحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية : تاريخ - السمات الأساسية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية - الجماعات الوظيفية اليهودية : أنواعها المختلفة

يهود أم جماعات وظيفية يهودية ؟

Jews or Jewish Functional Groups?

تميل معظم الدراسات التي تتناول أعضاء الجماعات اليهودية إلى النظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متجانساً مستقلاً ، له آلياته وحركياته وأنماط تطوره الخاصة به والمقصورة عليه ، والتي يمكن فهمها من خلال إدراك ما يُسمى «الخصوصية اليهودية» ومن خلال دراسة ما يُسمى «التاريخ اليهودي» . ولكننا نرى أن كثيراً من جوانب حياة أعضاء الجماعات اليهودية لا يمكن تفسيرها إلا من خلال دراسة سياقهم التاريخي والإنساني العام ، ومقارنتهم بأعضاء الأقليات (الدينية والإثنية) الأخرى .

أي أنه لفهم أعضاء الجماعات اليهودية ، لابد من العودة إلى أطر ومرجعيات إنسانية عامة . ونحن نذهب إلى أن خصوصية الجماعات اليهودية هي ، في واقع الأمر ، خصوصيات مستمدة من المجتمعات التي تعيش أعضاء هذه الجماعات بينها ، ومن ثم فهي لا تختلف عن الخصوصيات التي يتسم بها أعضاء الأقليات ، كل حسب سياقه ، وأنه لا توجد خصوصية يهودية (واحدة) أو جوهر يهودي أو عبقرية يهودية أو جريمة يهودية .

ولتوضيح هذا الجانب استخدمنا مجموعة من النماذج التفسيرية المتداخلة : الحلولية الكمونية - العلمانية (الشاملة) والإمبريالية - اليهودية والهوية اليهودية كتركيب أيديولوجي - الجماعات الوظيفية . وفي هذا المجلد من الموسوعة سنستخدم كل هذه النماذج مع التركيز على نموذج الجماعات الوظيفية .

الجماعات اليهودية والانتماء الطبقي

Jewish Communities and Class Affiliation

كلمة «طبقة» هي المقابل العربي لكلمة «class» الإنجليزية

وهي من الكلمة اللاتينية «classis» التي كانت تُطلق على كل قسم من سكان روما حسب ملكيتهم . وقد عُرِفَت الطبقة بأنها فئة في المجتمع تتميز عن الفئات الأخرى وفقاً للتشابه في عوامل مادية ومعنوية مثل مستوى الدخل ومصادره ، وطبيعة المهنة ونصيب أفرادها في ثروة المجتمع والقوة والسلطة الاقتصادية والمهنية . وفي المصطلح الماركسي ، تُعبر كلمة «طبقة» عن الأشكال الأساسية للعلاقات ذات الصلة بوسائل الإنتاج ، فالطبقة الرأسمالية هي التي تتحكم في أدوات الإنتاج أما الطبقة العاملة فهي التي لا تملك شيئاً سوى قوة أذرعها .

ويُفرّق ماكس فيبر بين الطبقة من حيث إنها تشير إلى الوضع الاقتصادي والطبقة الاجتماعية من حيث إنها تؤكد معاني النفوذ وأسلوب الحياة والتداخل الوثيق بين عناصرها ، كما يُميّز أيضاً بين الطبقة والمكانة أو ما يُسمى «طبقة المكانة» ، أي الطبقة التي تتكون من أشخاص على مستوى مشابه من رموز الهوية المشتقة من طريقة الحياة أو نموذج المهنة أو الأنشطة الاجتماعية أو السلالة أو الأسرة أو أية عوامل أخرى تُعتبر ذات أهمية خاصة في المجتمع .

وإذا ما حاولنا تحديد الطبقة أو الطبقات التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية عادةً ، فنسجد أن هذا أمر مستحيل بطبيعة الحال ، لأنهم ينتمون إلى مجتمعات مختلفة تمر بمراحل تطور مختلفة ، مما يعني قدراً عالياً من عدم التجانس . وقد يمكن التوصل إلى تعميمات ما ، ولكنها ستكون ذات طابع مجرد للغاية بحيث تصبح بلا قيمة تفسيرية . ولعل التعميم الوحيد الممكن هو أن أعضاء الجماعات اليهودية خاضعون للحركات المختلفة للمجتمعات التي ينتمون إليها . ولذا ، فإن العبرانيين القدامى كانوا ، حتى عصر القضاة ، رعاة رحلاً . وبعد الاستقرار في عصر الملكية ، انقسم المجتمع العبراني إلى طبقة حاكمة تضم الملك وكبار الملاك والنخبة

أثرياء أو فقراء أو فلاحين أو نبلاء وإنما باعتبارهم مادة بشرية تفضلع بوظيفة التجارة والربا وغير ذلك من الوظائف التمييزية أو المشينة . وكان أعضاء الجماعة اليهودية الوظيفية ، بسبب طبيعتها وضعهم ، يضطرون إلى التلاحم فيما بينهم ، الأمر الذي كان يقلل من حدة الصراع الطبقي بين أعضاء الجماعة .

ومع ظهور الدولة الحديثة ، اختفى هذا الوضع إلى حد كبير ، وتم استيعاب أعضاء الجماعة داخل البناء الطبقي والاجتماعي للمجتمعات الغربية ، ولم يبق سوى صدى خافت لوضعهم السابق كأعضاء في جماعة وظيفية ، ويتجلى ذلك في تركّزهم في صناعات ومهن بعينها دون غيرها ، وفي كثير من القطاعات التي تُعد هامشية مثل الإعلام والإعلان والسينما ، وفي غيابهم عن قطاعات أولية مثل التعدين والزراعة .

ويمكن القول بأن عدم انتماء أعضاء الجماعات اليهودية إلى طبقة محددة ، وتحوّلهم إلى جماعة وظيفية ، هو الذي يُفسّر سبب عدم مساهمتهم في بناء الرأسمالية الغربية الرشيدة وسبب عدم ظهورهم حركة استعمارية يهودية مستقلة ، ويُفسّر أيضاً لماذا تعيّن على الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني أن يكون استعماراً عميلاً ، امتداداً للجماعة الوظيفية العميلة .

اسباب تحول بعض الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية

Reasons for the Transformation of Some Jewish Communities into Functional Groups

يمكن تفسير ظاهرة تحوّل كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية بمركب من الأسباب ، تاريخي واجتماعي وديني . ويمكننا أن نبدأ بالعودة إلى الدولة العبرانية القديمة ، وهي دولة لم تكن تتمتع بمستوى تكنولوجي أو حضاري متقدم ، ولهذا كانت غير قادرة على تشغيل كل سكانها . كما أنها كانت دولة ضعيفة غير قادرة على حمايتهم الأمر الذي أسفر عن أسر عشرات وربما مئات الألوف منهم ، حيث هُجّروا إلى بابل وأشور فتحولوا إلى جماعات بشرية غريبة يمكن تجنيدها كمرتزقة أو مستوطنين ، كما أنهم تخصصوا هناك في وظائف بعينها دون غيرها . وبما عمّق هذا الاتجاه ، وجود كثير من الجماعات اليهودية في الشرق الأوسط وفي حوض البحر المتوسط ، وهي منطقة سيطرت عليها عديد من الإمبراطوريات ، الواحدة تلو الأخرى ، وكانت القوى الإمبراطورية الصاعدة تتحالف مع أعضاء الجماعات اليهودية نظراً لعدم خشيتها منهم وتجندهم في صفوفها كمرتزقة أو مستوطنين أو حتى جواسيس .

العسكرية ، وطبقات أخرى مثل الحرفيين والأرقاء . وبعد سقوط اندولة ، كان منهم الفلاحون والحرفيون والجنود المرتزقة وكبار ملاك الأراضي والكهنة . وفي الصين ، انضمت قيادتهم بأعداد متزايدة لطبقة الماندرين (نخبة المثقفين والعلماء التي حكمت الصين) . وفي إنجلترا ، في بداية القرن العشرين ، كان منهم كبار الرأسماليين والبروليتاريا في آن واحد .

وأعضاء الجماعات اليهودية جزء لا يتجزأ من مجتمعاتهم ، فالجماعات اليهودية تعرف الصراع الطبقي فيما بين أعضائها والذي قد يصل إلى حد التطاحن والقتال كما حدث في فلسطين إبان التمردات المختلفة ضد الحشمونيين والرومان ، إذ أن أثرياء اليهود كانوا جزءاً من المؤسسة اليونانية (السلوقية) أو الرومانية ، ولهذا كانت الثورات تندلع ضدهم . كما أن مختلف مؤسسات الإدارة الذاتية ، مثل القهال ، كان يدور داخلها الصراع الطبقي وبحدة . وفي منطقة الاستيطان ، كان العمال من أعضاء الجماعات اليهودية ينظمون إضرابات ضد الرأسماليين اليهود الذين كانوا يستغلونهم . كما أن الرأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية بدورهم كانوا يرفضون استئجار العمال اليهود حتى لا يخضعوا للضغط الاجتماعي . وفي الولايات المتحدة قام الرأسماليون اليهود من أصول ألمانية باستغلال المهاجرين من يهود اليديشية .

ولكن من الممكن الوصول إلى تعميمات ذات مقدرة تفسيرية معقولة لو تخلينا عن الرؤية البانورامية العالمية الواسعة ومفهوم الطبقة وخففنا مستوى التعميم واقتصرنا على الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية . ويُلاحظ أن انتماءات اليهود الطبقيّة داخل هذه الحضارة مُركّبة إلى أقصى حد ، ومع هذا يمكن القول بأن أحد أهم الأنماط المتكررة هو غط الجماعة الوظيفية المالية والحرفيّة . والجماعة الوظيفية ليست لها علاقة مباشرة بالبناء الطبقي والاجتماعي للمجتمع ، إذ تفت على هامشه وتتحدد علاقتها بالدور الذي تلعبه والوظيفة التي تضطلع بها . واليهود ، كجماعة وظيفية (أقان بلاط - يهود بلاط - يهود أرندا) ، كانوا هم أنفسهم أداة إنتاج في يد الحاكم ، وكانت المواقف التي يمنحها لهم تنص على أنهم ملكية خاصة له . وبهذا ، لم يدخل أعضاء الجماعة اليهودية في علاقات إنتاج وإنما كانوا أداة تتحدد من خلالها علاقات الإنتاج ؛ أداة لجمع الضرائب ولزيادة الفوائد على الربا . وقد كان وجود أعضاء الجماعة اليهودية داخل الجيتو ، بمعزل عن بقية طبقات المجتمع ، تعبيراً عن هذا الوضع الذي يتحدّد من خلال الوظيفة خارج السلم الطبقي . وكان المجتمع ككل ينظر إلى أعضاء الجماعة اليهودية لا باعتبارهم

الحرف فكانت نشاطات هامشية وأحياناً وضبعة تحتاج لعنصر محايد غريب للاضطلاع بها . وقد قامت كل من المدن المختلفة وأعضاء الجماعات اليهودية بسد هذه الثغرة . لكن بينما كان اندماج المدن في الاقتصاد القومي يتزايد على مرّ الأيام ، حتى أصبحت جزءاً عضوياً منه وقامت بتغييره وقيادته في نهاية الأمر ، كانت غربة أعضاء الجماعات اليهودية وعزلتهم وانفصالهم تزايد ، وكان وضعهم كجماعة وظيفية غير ملتزمة بالاقتصاد الوطني يتعمق . وكان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون ، في كثير من الأحيان ، الأقلية الوحيدة . وقد ساهمت عمليات الطرد المختلفة (التي استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر ووصلت إلى ذروتها مع وعد بلفور) في تدعيم هوياتهم كجماعات وظيفية لا تنضرب بجذورها في أية رقعة جغرافية . ثم ظهرت الإمبريالية الغربية والاستعمار الاستيطاني ، وكان أعضاء الجماعات اليهودية من أهم العناصر المهاجرة ، فانتقلت كتلتهم البشرية من شرق أوروبا إلى الولايات المتحدة وبعض الدول الاستيطانية الأخرى . وعادة ما تتحول جماعات المهاجرين إلى جماعات وظيفية .

علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة

Relationship between Jewish Communities
and Agriculture

من أهم أسباب تحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية علاقتهم بالزراعة ومكنية الأرض الزراعية . ومن ثم فإن العرض التاريخي لتطور هذه العلاقة ينقي الضوء على آليات تكون الجماعة الوظيفية . كان العبرانيون ، في الأساس ، شعباً من البدو الرعاة . ولكن ، بعد استقرارهم في كنعان ، تحولت أعداد منهم من الرعي إلى العمل بالزراعة . ويبدو أن عبادة الأرض الذين والعسل هي إشارة إلى اختلاط وظائفهم : فالتين هو إشارة إلى مهنة الرعي . أما العسل ، الذي يتطلب إنتاجه الاستقرار ومعرفة عالم الحيوان والنبات ، فهو يرمز إلى الزراعة . وقد جاء في كل من التوراة والتلمود تعليمات كثيرة بشأن زراعة الأرض وتقديم القرابين في مواسم الحصاد .

وكانت الزراعة ، في بادئ الأمر ، بدائية تعتمد على مياه الأمطار والينابيع . ولكن العبرانيين أخذوا يتعلمون مهنة الزراعة بالتدريج من الكنعانيين . ولعل هذا هو الذي أدى إلى الابتعاد عن يهوه (إله الصحراء والرعي) والاقتراب من بعل (إله الزراعة والمحصب) ، بحيث أصبحت عقيدتهم خليطاً من التوحيد اليهودي

وكانت فكرة الوطن الأصلي ، مركز اهتمامهم الديني ، تساعد على إضعاف علاقتهم بوطنهم الجديد ، وعلى عزلتهم عن مجتمعاتهم ، وعلى انغلاقهم على أنفسهم . وكان من الممكن أن تختفي هذه الجماعات تماماً بسقوط الهيكل ، ولكن الذي حدث أن فكرة الوطن الأصلي (الحنين إلى صهيون) حلت محل الوطن الأصلي ذاته ، وهو ما أعطى أعضاء الجماعات اليهودية تماسكاً إثنياً - ولكنه تماسك وهمي لأنه لم يعد هناك مركز قومي فعلي يحدد المعايير الدينية أو القومية . وبينما كانت الهويات اليهودية تتشكل في الواقع من خلال تشكيلات حضارية مختلفة ، كان أعضاء الجماعات اليهودية يدورون في إطار فكرة الهوية اليهودية الإثنية الدينية الواحدة . وهذه التركيبة مناسبة إلى أقصى درجة للجماعات الوظيفية ، ففكرة الوطن تضمن تماسكهم وعزلتهم وتجردهم اللازم للاضطلاع بوظائفهم المختلفة ، بينما يساعد تكيفهم الفعلي على زيادة كفاءتهم وعلى أن يصبحوا في المجتمع دون أن يكونوا منه . وقد دعم تدوين التلمود هذه الازدواجية : الاستقلالية الإثنية النفسية من ناحية ، والتكيف والاندماج الفعلي من ناحية أخرى . فالتلمود يضم التفاصيل الخاصة بشعائر الصلوات في الهيكل وكل التفاصيل الخاصة برباء الكاهن الأعظم والشعائر الخاصة بسنة اليوبيل والسنة السبئية ، كما يضم أدق التفاصيل الخاصة بما سيحدث بعد عودة الماشح إلى صهيون وكل الشعائر الخاصة بحياة اليهودي خارج مجتمع الأغيار ، أي أن التلمود كرس عزلة أعضاء الجماعة وقتها وزود فكرة الهوية اليهودية بإطار واضح وتحول هو ذاته إلى « وطن اليهود [الوهمي] المتنقل » الذي يشكل نقطة مرجعية نفسية دون أن يكون مأوى حقيقياً لهم . ولكن أهم العوامل التي أدت إلى تحول كثير من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ، هو طبيعة المجتمع الإقطاعي في الغرب . وقد أشرنا إلى أن ظهور مثل هذه الجماعات يعود عادة إلى وجود ثغرة في المجتمع بين رغباته وحاجاته من جهة ، ومقدرته على الوفاء بها من جهة أخرى . وقد كانت مثل هذه الثغرة قائمة في المجتمع الإقطاعي الغربي ، حيث كان يوجد نبلاء وفرسان من ناحية وفلاحون من ناحية أخرى . وكان النشاطان الأساسيان هما القتال والزراعة ، أما القتال فكان مغلقاً تماماً بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية لأنها وظيفة كانت مرتبطة تمام الارتباط بطبيعة المجتمع الإقطاعي الغربي المسيحية . ورغم أن الزراعة كانت بديلاً مفتوحاً أماما أعضاء الجماعات اليهودية إلا أنه تم استبعادهم منها تدريجياً لأسباب سنيها في مدخل آخر (انظر : «علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة») . أما بخصوص النشاطات التجارية والمالية وبعض

مسيحيين لزراعة الأرض . وفي الوقت نفسه ، حرّمت عليهم الشريعة اليهودية استئجار أرقاء يهود ، الأمر الذي جعل الملكية الزراعية شيئاً غير مثمر بالنسبة لليهودي . كما أن تحريم العمل على اليهودي في يوم السبت وتحريمه على المسيحيين يوم الأحد ، جعل من المستحيل التعاون بينهما لأن هذا يعني إجازة أسبوعية مدهتها يومان ، مما جعل النشاط الزراعي غير مربح ، بل مستحيلاً ، في بعض الأحيان . ويبدو أن الطبيعة الطائفية للجماعة اليهودية ، وضرورة القيام بالشعائر الدينية ، جعلت من الأفضل لليهود الإبقاء على الصلات الدائمة فيما بينهم للقيام بالشعائر التي لا يسهل القيام بها في ظروف الوحدات الريفية المتباعدة . وقد أوجد هذا البناء المتميز اتجاهاً بين القادمين الجدد للبقاء في التجمعات التي أقامها أبناء ملتهم .

كل هذه الأوضاع اضطرت أعضاء الجماعات اليهودية لبيع أراضيهم الزراعية ، وصدرت التشريعات التي تحرمّ عليهم امتلاكها فزاد تركّزهم في التجارة وتبلور وضعهم كجماعة وظيفية تجارية أو مالية .

ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي ، أصبح ذلك هو الوضع القانوني والاقتصادي لمعظم الجماعات اليهودية في أوروبا الإقطاعية . لكن هذا لم يكن يعني عدم وجود فلاحين يهود يعملون بالزراعة ، فقد كان يوجد ، في البلقان وبلاد الخزر والصين وبولندا وإسبانيا المسيحية ، يهود يعملون بهذه المهنة .

أما العالم الإسلامي ، فلم يحدث فيه ، في تلك الفترة ، تمايز وظيفي أو اقتصادي كبير لأعضاء الجماعة اليهودية عن بقية السكان ، وإن كان يلاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية فيه لم يعملوا بأعداد كبيرة في الزراعة . والجدير بالملاحظة أن كثيراً من التجار والمموّكين اليهود كانت لهم علاقة بالقطاع الزراعي ، لا كمزارعين وإنما كتجار وجامعي ضرائب . فنظام الأرندا هو في جوهره نظام لتأجير الأراضي الزراعية . كما أن ارتباط اليهود ببيع الخمر هو نتيجة علاقتهم بالقطاع الزراعي . فضلاً عن أن كثيراً من التجار اليهود كانوا يتاجرون في المحاصيل الزراعية .

وثمة نظرية تذهب إلى أن بقاء اليهود واستمرارهم هو نتيجة عدم اشتغالهم بالزراعة . فحينما يتعد أعضاء الجماعات اليهودية عن الزراعة فإنهم يتحولون عادة إلى جماعة وظيفية يتم عزلها ثقافياً وفعلياً عن المجتمع ، ومن ثم تتطور لها هوية مستقلة الأمر الذي يضمن استمرارها . هذا على عكس وضع أعضاء الجماعات اليهودية حينما يعملون بالزراعة ، فهم يختلطون بالسكان

والتعددية العنصرية . وكانت ملكية الأرض محدودة ، ولم تظهر إقطاعيات زراعية ضخمة في بادئ الأمر . ولهذا ، نجد أن الملاك الزراعيين كانوا يعملون هم أنفسهم بالزراعة لصغر ملكياتهم . ثم ظهرت بالتدريج طبقة صغيرة من كبار (الملاك) الزراعيين ، وطبقة كبيرة من الفلاحين المعدمين . وبدلاً من الزراعة العائلية ، ظهرت الضياع الكبيرة التي يعمل فيها هؤلاء المعدمون . ولعل ظهور مؤسسة الملكية كان تعبيراً عن هذا الوضع وتكريساً له ، فهي مؤسسة كان لها بىروقراطيتها الكهنوتية والعسكرية والمهنية ، وكان القائمون عليها يستولون على ربع الأراضي وعلى المحاصيل فيزدادون ثراء وتتركز الملكية الزراعية في أيديهم ، وقد انتهت هذه المرحلة بهدم الهيكل على يد نبوختنصر .

وعند عودة المهجرين من بابل ، وجدوا أن الأرض الزراعية قد ألفت . ومن ثم أصبح النمط السائد هو الزراعة العائلية ، ولكن بدأت تظهر مرة أخرى طبقتان : أقلية من كبار ملاك الأراضي ، وأغلبية ساحقة من الفلاحين المعدمين . إلا أنه يلاحظ هذه المرة بداية التشققات الخضرية التي ساهمت في القضاء على الوجود العبراني في فلسطين ، إذ أن كبار ملاك الأراضي كانوا يتبنون ثقافة الإمبراطورية الحاكمة فتأغرقوا في العصر الهيليني وتحولوا إلى جماعة وظيفية تجمع الضرائب من الفلاحين لصالح الدولة الحاكمة وتشغل بالتجارة المحلية والدولية ليصبحوا مستوعبين تماماً في البنية الإدارية والثقافية للإمبراطورية ، بينما ظل الريف زراعياً سامياً آرامياً .

وهذا يعني ، في الواقع ، أن غالبية اليهود في فلسطين كانوا يعملون بالزراعة ، وذلك على عكس يهود الإسكندرية وبرقة ، الذين كانوا جماعات وظيفية استيطانية أو قتالية أو مالية . وقد أدّى الاستقطاب الطبقي والثقافي في فلسطين إلى التمرد الحشموني ثم التمردين الأول والثاني ضد الرومان . وقد أجمدت كل هذه التمردات مما عجل بانتشار اليهود على هيئة جماعات وظيفية .

وفي العصور الوسطى في الغرب ، على عكس ما هو شائع ، كان من حق اليهود في كثير من بقاع أوروبا امتلاك الأراضي الزراعية . ولكن بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي ، ضاقت الرقعة الزراعية في أوروبا وظهرت قوانين تمنع اليهود (والأديرة والكنائس) من ملكية الأرض . وربما شكّل اليهود بالذات خطراً على الرقعة الزراعية لأنهم عنصر تجاري متحرك ، ولذا ظهر الخوف من أن يحوز اليهودي أرضاً زراعية وهو غريب متنقل ، فتنقل ملكيتها إلى غرباء ويصب ريعها خارج الإمارة التي توجد فيها الأرض .

وكان محرماً على أعضاء الجماعات اليهودية استئجار أرقاء

اليهودية فيها . كما ساهمت عقيدة التارودنيك (الشعوبين) في إضفاء غلالة من الرومانتيكية على مهنة الزراعة التي كانوا يعدونها أشرف المهن انطلاقاً من أن روح روسيا توجد بين الفلاحين لا بين سكان المدن . وقد أدّى تعمُّر التحديث في روسيا إلى فشل كثير من هذه المحاولات ، خصوصاً أن جهاز الدولة القيصري لم يكن كفئاً ولا أهلاً للاضطلاع بالمسئولية .

وبعد الثورة البلشفية ، قامت عدة محاولات لتحويل اليهود إلى القطاع الزراعي في أوكرانيا وشبه جزيرة القرم . ولكن أهم المحاولات كانت تجربة بيرويجان .

ويتمثل أحد أهداف الحركة الصهيونية في تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة لتطبيعهم . ولكن الزراعة الصهيونية كانت ذات طابع شبه عسكري لأنها تُوصَف اليهود على أرض يشغلها شعب آخر ، فالزراعة (هنا) هي إحدى آليات الاستيطان الإحلالي والتي تتجسد في بناء المزارع الجماعية والكيوتسات التعاونية والمنشآت ، وفي طريقة تحديد مواقعها ، أي أن الزراعة في الإطار الصهيوني لم تُعد الآلية المُستخدمة في تحويل أعضاء الجماعات اليهودية من جماعات وظيفية إلى أعضاء في مجتمع ، وإنما هي آلية تحويلهم من جماعة وظيفية مالية إلى جماعة وظيفية استيطانية قتالية . ورغم كل الادعاءات الصهيونية بشأن نجاح الصهاينة في تطبيع اليهود ، فإن نسبة عدد اليهود العاملين بالزراعة في الوقت الحالي لا تختلف كثيراً عن عدد من كان يعمل منهم بالزراعة في روسيا في عام ١٨٨٢ ، أي قبل الاستيطان الصهيوني في فلسطين . وهو عدد ، على أية حال ، أخذ في التناقص ، مع تغلغل العمالة العربية في القطاع الزراعي من الاقتصاد الإسرائيلي . ومع هذا ، كان عدد اليهود الذين يعملون بالزراعة في العالم عام ١٩٣٥ ، حسب تقديرات روبين ، حوالي ٦٠٠,٠٠٠ ، أي ٣,٦٪ من مجموع يهود العالم البالغ عددهم نحو ستة عشر مليوناً ، أكثر من نصفهم من يهود روسيا وبولندا (٢٥٠ ألفاً في روسيا و١٠٠ ألف في بولندا) . كما ظهرت تجربة استيطانية زراعية يهودية في الأرجنتين برعاية البارون هيرش ، وقد نتج عن ذلك وجود أعلى نسبة من اليهود العاملين في الزراعة في الأرجنتين عام ١٩٣٥ (٤,٣٪ من يهود بولندا ، و٤,٢٪ من يهود روسيا ، و٢,٢٪ من يهود الولايات المتحدة ، بالمقارنة مع ٥,٨٪ من يهود الأرجنتين) . ولكن ، مع حلول عام ١٩٦٠ ، هبطت نسبة العاملين بالزراعة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى ٢٪ ، وهذا العدد يضم العاملين في القطاع الإداري في الريف .

ويكتسبون ملامحهم وخطابهم الحضاري ويذوبون فيهم ، ومن ثم فإن الفارق بين القبائل العبرانية التي هُجرت إلى آشور وانصهرت واختفت وتلك التي هُجرت إلى بابل وبقيت هو أن الأولى عملت بالزراعة فذابت واختفت أما الثانية فقد اشتغل بعض أعضائها بالتجارة فتم عزلهم وتَحَقَّق استمرارهم .

ولم تنقطع صلة الممولين اليهود بالقطاع الزراعي في العصر الحديث ، فكثير منهم استثمروا أموالهم باعتبارهم جزءاً من الرأسمالية الغربية الناشئة . وكان كثير من أصحاب الضياع الكبيرة في جزر الهند الغربية من اليهود ، وهي ضياع كانت جزءاً من الاقتصاد الرأسمالي الاستعماري والاستيطاني ، تخصصت في زراعة السكر وتصديره ، ومن ثم كانت جزءاً من المثلث اللعين الذي تُشكِّل تجارة الرقيق أحد أهم أضلاعه . وكان هناك عدد من الممولين اليهود (في ألمانيا وروسيا) تركزوا في صناعة الأخشاب والصناعات المرتبطة بالقطاع الزراعي .

ويلاحظ أن هذه النشاطات هي نشاطات تجارية في القطاع الزراعي ، ومن ثم فهي تعني أن أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب كانوا لا يعملون بالزراعة . وقد ظهر منذ عصر الاستتارة في الغرب نقد للشخصية اليهودية باعتبارها شخصية طفيلية هامشية تعيش على رزق الآخرين وكدهم ولا تبذل جهداً ولا تنتج شيئاً . وكان عدم اشتغال اليهود بالزراعة يُعدُّ شاهداً على ذلك . ومن ثم ، حاولت الدولة الحديثة التي اضطلعت بمعظم مهام الجماعات الوظيفية تشجيع أعضاء الجماعات اليهودية على الاشتغال بالزراعة والابتعاد عن التجارة والربا . وكان يُنظر إلى هذه العملية باعتبارها عملية تطبيع لليهود (أي تحويلهم من أعضاء في جماعات وظيفية يرتبط نشاطها الاقتصادي بإثنتها وعزلتها إلى شخصيات طبيعية سوية حديثة يمكن دمجها في المجتمع) . كما كانت هذه العملية تُسمَّى تحويل اليهود إلى قطاع منتج ، ولذا صدرت تشريعات عديدة في فرنسا بعد الثورة لتحقيق هذا الهدف وفتح المجال الزراعي أمامهم .

وقد كان شرق أوروبا هو المسرح الأساسي لهذه العملية التاريخية . فالتحديث الفجائي وظهور الدولة المركزية التي اضطلعت بكثير من أعمال الجماعات الوظيفية ، ثم الانفجار السكاني بين يهود اليديشية ، خلقا معاً فائضاً بشرياً يهودياً ، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور ما يُسمَّى «المسألة اليهودية» . وقد طُرِح العمل بالزراعة باعتباره أحد الحلول ، وخصوصاً أن روسيا كانت تضم أراضي زراعية كثيرة خالية من السكان يمكن توطين أعضاء الجماعات

الدور في الدولة العثمانية . ولذا ، كانت تُطلق كلمة «يوناني» أو «أرمني» على كل من يعمل في هذه الوظائف ، سواء كان يونانياً أو أرمنياً أو لم يكن .

ويبدو أن نموذج اليهود كجماعة وظيفية مُتجذّر تماماً في الوجدان الغربي ، ولذا حينما طُرحت المسألة اليهودية في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر كان الحل هو تأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية ، وهو إعادة إنتاج الجماعات اليهودية على هيئة دولة وظيفية بدلاً من جماعات وظيفية ، كما أن النظام العالمي الجديد ، وهو ثمرة من ثمرات الحضارة الغربية ، يميل إلى تحويل كل البشر إلى عناصر وظيفية .

علاقة الجماعات اليهودية بالصناعة

Relationship between Jewish Communities and Industry

يستطيع القارئ أن يرجع للباب المعنون «التحديث والمسألة اليهودية» (المجلد الثالث) ، وذلك للإحاطة بجذور علاقة أعضاء الجماعات اليهودية (كجماعات وظيفية) بالصناعة في الحضارة الغربية . وتتناول المداخل الخاصة بالتراث اليهودي (الموروث الاقتصادي) في الباب المعنون «ثقافات أعضاء الجماعات اليهودية» (المجلد الثالث) والمداخل الخاصة بتاريخ الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة (المجلد الرابع) تطوّر علاقة أعضاء الجماعة اليهودية بالصناعة وأثر الميراث الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية على وضعهم الاقتصادي والمهني في الوقت الحالي .

الرأسمالية والاشتراكية والجماعات اليهودية

Capitalism, Socialism, and Jewish Communities

يستطيع القارئ أن يعود للباب المعنون «الرأسمالية والجماعات اليهودية» و«الاشتراكية والجماعات اليهودية» (المجلد الثالث) ليدرس كيف أثر تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية على علاقتهم بالرأسمالية وتطوُّرها والاشتراكية وتطوُّرها وفي موقف المفكرين الرأسماليين والاشتراكيين منهم .

تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية : تاريخ

Transformation of Jewish Communities into Functional Groups : History

يبدو أن العبرانيين ، منذ بداية ظهورهم في التاريخ ، كانوا

الجماعات الوظيفية اليهودية في العالم الغربي

Jewish Functional Groups in the Western World

عرفت جميع المجتمعات البشرية تقريباً ظاهرة الجماعات الوظيفية (فهي تعبير عن شيء أساسي في النفس البشرية) ، ومع هذا تميل إلى القول بأنها ظاهرة أخذت شكلاً أكثر حدة في الحضارة الغربية منها في الحضارة الإسلامية . وإذا نظرنا إلى وضع الجماعات اليهودية في الحضارة الإسلامية ، بالمقارنة بالحضارة المسيحية الغربية ، فإننا نجد أن عملية الحوسلة بالنسبة لهم لم تتم على نفس المستوى ولا بنفس الحدة ، وأن تركيبتهم الطبقية والمهنية لم تكن تختلف كثيراً عن تركيبة بقية أعضاء المجتمع . كما يمكن أن تضرب مثلاً بأقباط مصر ، فرغم أنهم يشكلون الأقلية العددية الهامة الوحيدة في المجتمع المصري (فالقنوبيون وسكان الصحراء لا يشكلون قوى اجتماعية أو بشرية مهمة) إلا أننا نجد أن خطابهم الحضاري لا يختلف عن الخطاب الحضاري للمسلمين ، كما أنهم لا يختلفون عنهم لا في الزي ولا في اللغة ولا في العادات أو التقاليد ولا في الانتماءات الطبقية أو في التوزُّع الوظيفي أو السكاني . وما لا شك فيه أن بعض قطاعات من أقباط مصر تمت حوسلتها في وظائف بعينها (مثل الربا في بعض قرى مصر ، أو جمع القمامة لارتباط ذلك بتربية الخنازير) ، إلا أن الحوسلة لم تكن كاملة أو جوهرية بل ظلت هامشية ، وظل أقباط مصر جزءاً لا يتجزأ من مجتمعهم لا يمكن التعرف عليهم إلا من خلال أسمائهم المتميّزة في بعض الأحيان .

وقد قام المجتمع الغربي بحوسلة اليهود داخله تماماً على هيئة جماعة وظيفية مالية حتى ارتبط اسم اليهود بدور المرابي والتاجر الطفيلي والذي اضطلع به اليهود وحدهم تقريباً . وقد أصبحت كلمة «تاجر» أو كلمة «مرابي» مرادفة لكلمة «يهودي» ، وأصبح يُطلق على هذه الوظائف اسم «الوظائف اليهودية» حتى أن الصينيون حينما يضطلعون بدور التاجر والمرابي في جنوب شرق آسيا يُطلق عليهم «يهود جنوب شرق آسيا» ، وحينما يضطلع الهنود بنفس الدور في أفريقيا (ومن بينهم مسلمون) يُسمون «يهود أفريقيا» ، فكأن هناك مفهوماً كامناً لفكرة «اليهودي الوظيفي» أي الإنسان الوظيفي الذي يضطلع بالوظائف التي يُقال لها يهودية ، وكل من يضطلع بها يصبح يهودياً (بالمعنى الوظيفي) .

ومع هذا ، ينبغي الإشارة إلى أن هناك جماعات من اليونانيين والأرمن كانت تقوم بهذه الوظائف في بعض الدول الغربية (في بولندا وفي بعض دول أوروبا الشرقية الأخرى) . كما أنهم لعبوا نفس

ويلاحظ أن ظاهرة تحول اليهود إلى جماعة وظيفية لم تكن مقصورة على العالم الغربي وإنما امتدت لتشمل العالم الإسلامي ، ولكن لم يكن اليهود هم الجماعة الوظيفية الوسيطة الوحيدة فيه . كما كان ثمة تنوع في حرف ووظائف أعضاء الجماعات اليهودية ونشاطهم الاقتصادي في العالم الإسلامي ، حتى أن هرمهم الاقتصادي والحرفي كان لا يختلف أحياناً عن الهرم الاقتصادي والحرفي في المجتمع ككل . ومن جهة أخرى ، كان لأوضاع أعضاء الجماعات اليهودية ، في الصين والهند وإثيوبيا ، خصوصيتها المختلفة النابعة من الخصائص والحركات المختلفة للمجتمعات التي يوجدون فيها . ولذا ، فنحن لا نقترح نمطاً يهودياً عاماً وعالمياً ، وإنما نقترح نمطاً خاصاً مقصوداً على أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية .

لقد بدأ انحساب أعضاء الجماعات اليهودية التدريجي من التجارة (الدولية والمحلية) في الغرب ، حتى تخصصوا في الإقراض الربوي في الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين . وبدأوا يعملون أيضاً منتزعي ضريبة في أوروبا الشرقية ، حتى أصبحت هذه هي إحدى الوظائف الأساسية ليهود بولندا وليتوانيا ، خصوصاً في أوكرانيا في القرن السادس عشر الميلادي (يهود الأرندا) ، إذ قاموا بتشميل النبلاء في إقطاعيتهم داخل إطار نظام الأرندا والإقطاع الاستيطاني . ولكن هذا النظام نفسه فتح لهم مجالات جديدة في الاستثمار والعمل ، فظهرت طائفة من الحرفيين اليهود يعملون في قطع الأخشاب وتقطيع الخمور والصبغة وبيع الجلود . وبرز في وسط أوروبا يهود البلاط الذين كانوا عادة من كبار الممولين وذوي الخبرة الإدارية والاتصالات الدولية والمعرفة بالشئون الاقتصادية ، ولذا كانوا في منزلة وزراء اقتصاد وخارجية ومخابرات لأمراء الإمارات الأتمانية وغيرها من دول وسط أوروبا التي كانت ترغب في تنمية نفسها اقتصادياً . ويلاحظ أن الإقراض الربوي الذي كان يقوم به أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية قد تدهور ، فبدلاً من إقراض كبار النبلاء والكنيسة ، أصبح إقراض الفلاحين وأحرفيين نظير رهن أشياء مثل الملابس المستعملة والمجوهرات . ومن هنا ، بدأ الحرفيون يعملون في حرف رتق الملابس والخياطة والصبغة . ومع القرن الثامن عشر الميلادي ، صار معظم أعضاء الجماعات اليهودية في شرقي أوروبا بورجوازيين صغاراً : بقالين وبيعة جوالين وبانعي ثياب قديمة وخياطين . كما كان من الوظائف الأخرى المهمة لأعضاء الجماعات اليهودية قيامهم بعمليات الاستيطان والريادة . ولكن الاضطرار بهذه الوظيفة كان يعني ،

يشكلون جماعة وظيفية . فقد كانوا بدأوا رحلاً تبحثهم المجتمعات المختلفة للاضطرار ببعض الوظائف التي يأنف أعضاء الأغلبية عن القيام بها . وكلمة «خابيرو» ، التي يقال إنها أصل كلمة «عبري» ، تعني العبد الذي أصبح كذلك بمحض اختياره (أي مرتزق) . ثم أخذ العبرانيون يستقرون تدريجياً منذ عصر القضاة وحتى عصر المملكة العبرانية المتحدة ، حيث أصبحوا شعباً رعوياً تشتغل بعض قطاعاته في الزراعة والحرف البدائية ، ولم يعملوا بالتجارة على نطاق واسع . وفي هذه الفترة بدأ يعمل بعض العبرانيين جنوداً مرتزقة . وقد استمر العبرانيون في العمل بالزراعة بعد التهجير البابلي ، وإن بدأت تظهر بينهم قطاعات من الأثرياء الذين بدأوا يعملون في التجارة وأعمال الصيرفة ، كما تزايد عدد اليهود المرتزقة وبدأت بعض الجماعات اليهودية تتحول إلى جماعات وظيفية استيطانية وقاتلية وتجارية . ومع ظهور التجمعات اليهودية المختلفة خارج فلسطين ، بدأ أعضاء الجماعات اليهودية يتعدون عن الزراعة ويعملون في التجارة والحرف المختلفة . ويمكن القول بأن أول دياسورا يهودية حقيقية هي الجماعة العبرانية الاستيطانية القتالية التي وطّنها فراغت مصر في جزيرة إفتانين ، لحماية حدود مصر الجنوبية ، وهو تقليد استمر بعد ذلك في مصر البطلمية وفي سوريا السلوقية .

ويلاحظ أن الجماعات اليهودية بدأت تتحول بالتدريج إلى جماعات وظيفية . ولكن ، مع حلول العصور الوسطى في العالم الغربي ، ابتداءً من القرن التاسع الميلادي على وجه الخصوص ، تسارعت هذه العملية وتبلورت حيث ملأ اليهود الفراغات بين طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين وأصبحوا أقان بلاط ، أي جماعة وظيفية مالية تابعة للبلاط الملكي تضطلع بدور التجارة والربا وجمع الضرائب ، وكلها مسميات مختلفة للجماعة الوظيفية التي تُستخدم كأداة نافعة . ونظراً لوجود جماعات يهودية في العالمين الإسلامي والمسيحي ، فقد استفاد أعضاءها من شبكة الاتصالات الدولية وأصبحوا يشكلون ما يشبه الجماعة الوظيفية المالية على المستوى الدولي ، واشتغلوا بالتجارة الدولية (مثل تجارة الفراء والمنسوجات والتوابل والرقائق) وأعمال الصيرفة . وبدأ تركّزهم في الحرف التي تتطلب مهارة فنية فائقة مثل صناعة الزجاج والصبغة أو ترتبط بسلع معينة مثل الذهب وبيع الجلود والخمور (وهي عادة سلع نادرة أو نفيسة أو غير عادية وذات طابع استهلاكي) أو بالحرف التي يمكن لصاحبها أن يحمل أدواته ورأسماله معه (السجاد - الجواهر - أدوات إنتاج خاصة) .

لقد كان أعضاء الجماعات اليهودية في الأساس جماعاً الوسطاء والحرّفيين ولم يكن بينهم عمال أو فلاحون ، وهذا ما أسماه بوروخوف الهرم الوظيفي المقلوب . ولم يكن الوضع مختلفاً في الإمبراطورية النمساوية التي كانت تضم جماعة يهودية كبيرة . وبالنسبة لروسيا السوفيتية ، ونظراً لتأميم التجارة ، فقد تغيّر الوضع الوظيفي عام ١٩٣٠ كلياً ، فنجد أن ٤٢٪ من اليهود كانوا يعملون في مهنة إنتاجية : في الصناعة ٢١،٥٪ ، وفي الحرّف اليدوية ١٤،٣٪ . وفي الزراعة ٧،١٪ . ومع هذا ، تركز عدد كبير منهم (نحو ٣٧،٢٪) في الأعمال الكتابية ، ونحو ١٢،١٪ في المهنة الحرة . ولقد أن هاجر اليهود إلى العالم الجديد ، خصوصاً الولايات المتحدة ، تغيّر وضعهم . فنجد أنه - حسب إحصاء عام ١٩٠٠ - كان ٥٩،٦٪ منهم عمالاً وفي صناعة الملابس على وجه الخصوص . ولم يكن يعمل في التجارة سوى ٢٠،٦٪ حسب الإحصاء نفسه . وقد تحوّل كثير من يهود الولايات المتحدة في الثلاثينيات إلى التجارة فبلغت نسبة العاملين بها نحو ٥٠٪ ، في حين بلغت نسبتهم في الصناعة نحو ٢٨٪ ، وفي المهنة الحرة نحو ١٠٪ . ومع السبعينيات ، تركز معظم اليهود في المهنة الحرة .

ويمكن القول بأن النمط الأساسي للحراك الوظيفي للمهاجرين اليهود كان يأخذ الشكل التالي : يصل المهاجر فيصبح عاملاً أو رأسمالياً صغيراً . ولكن العمال بوسعهم (بسبب خلفيتهم الثقافية والاجتماعية) الانسلاخ عن الطبقة العاملة أو مساعدة أولادهم على تلقّي التعليم ، وهو ما يجعلهم يحققون حراكاً اجتماعياً وينسلخون عن الطبقة العاملة ويتحوّلون إلى مهنيين . أما الرأسمالي الصغير ، فيتحوّل إما إلى رأسمالي كبير أو إلى مهني . ومن ثم ، نجد أن غالبية يهود الولايات المتحدة (وغيرها من الدول الاستيطانية) من المهنيين . ومع هذا ، ترك ميراث اليهود الاقتصادي ، كجماعات وظيفية بسيطة وكمهاجرين ، وكذلك الكفاءات التي اكتسبوها عبر تواريخهم بسبب وظيفيتهم هذه ، أثرها في التركيب الوظيفي لليهود أمريكا ، إذ أن هذه الخبرة التي حملوها معهم أينما هاجروا استمرت في تحديد نشاطاتهم الاقتصادية حتى بعد أن زالت الوظيفة . فلاحظ مثلاً أن اشتغال يهود العالم الغربي بالربا وأعمال الرهونات ، جعلهم يتخصصون في حياكة الملابس ، ذلك لأن كثيراً من الأشياء المرهونة كانت ملابس قديمة . ولذا ، يلاحظ أن يهود العالم الغربي يتخصصون في صناعة النسيج والملابس الجاهزة . وقد أدّى بهم هذا إلى أن يحققوا ثروات أثناء الحروب ، لأن القوات المحاربة ، خصوصاً في العصر الحديث ، تحتاج إلى زي رسمي . وقد حدث

ابتداءً من القرن السابع عشر ، الخروج من المجتمع الغربي والاستقرار في مجتمعات جديدة في إطار الاستعمار الاستيطاني الغربي .

ويلاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية ، بوظائفهم هذه ، كانوا دائماً أصحاب أعمال مستقلين ، وكان مستواهم المعيشي أحسن حالاً من الفلاحين والأرقاء المسيحيين . وكان أعضاء الجماعات اليهودية بمهنتهم المختلفة (بوصفهم تجاراً دوليين ومرابين) يعملون في مهنة غير منتجة ، فهي مهنة لا تهدف إلى إعادة صياغة المادة وإغما هي وظائف إدارية وعملها شكل من أشكال المضاربات ، ومن هنا يجري وصف أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي بالهامشية والطفيلية .

وقد بدأ هذا الوضع في التغير بعد الثورة التجارية وظهور الماركسالية ونظام الاتجار والإقراض اللذين يشكلان قلب النظام الاقتصادي الجديد . وداخل هذا الإطار الجديد ، تغيّر البناء الوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية . وحينما دخل يهود المارانو الاقتصاد الغربي في القرن السابع عشر الميلادي ، لم يكونوا التجار أو الممولين الوحيدين ، كما لم يقفوا على هامشه ، وإغما أصبحوا ممولين داخل اقتصاد تجاري مالي نشط له مشروع استعماري استيطاني عالمي ، فأصبحوا جزءاً منه واستثمروا في شركاته الاستيطانية المختلفة . وظهر يهود البلاط الذين أداروا ميزانيات كثير من الدول الملكية والإمارات المطلقة ، خصوصاً في سطر أوروبا ، وساهموا في تحديثها . ومع القرن التاسع عشر الميلادي وتصادف الثورة الصناعية ، بدأ تحديث البناء الوظيفي لليهود في أرجاء العالم الغربي غربه ووسطه وشرقه . وقد تم دمج أعضاء الجماعات اليهودية مهنيّاً ووظيفياً في غرب أوروبا بسرعة . ولكن عملية الدمج في شرق أوروبا ووسطها استغرقت وقتاً أطول بسبب تعثر التحديث ، ولأن محاولة تحديث البناء الوظيفي كانت تتم بقرارات قانونية ودون إتاحة فرص أخرى حقيقية للعمل . وفي إحصاء عام ١٨٩٧ في روسيا ، حيث كان يعيش أغلبية يهود العالم ، نجد أن اليهود كانوا موزعين وظيفياً على النحو التالي :

يعملون في الزراعة .	٣٠، ٥٥٪
في التجارة .	٣٨، ٦٥٪
في الصباغة والصناعات اليهودية .	٣٣، ٤٥٪
في النقل .	٣، ٩٨٪
في الأشغال العامة والمهنة الحرة .	١١، ٧٦٪
في الأعمال المنزلية .	٦، ٦١٪

١ الجماعات الوظيفية اليهودية

أحد أهدافها الأساسية المعلنة وهو تطبيع اليهود وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج . وقد أدى دخول العمالة العربية في الاقتصاد الإسرائيلي إلى حدوث نوع من المفارقة ، إذ يقوم العرب بشغل قاعدة الهرم الإنتاجية تاركين قمته الإدارية لليهود . وقد ظهرت هامشية المستوطن الصهيوني مع اندلاع الانتفاضة وانسحاب العمالة العربية من قاعدة الهرم ، الأمر الذي ترك أعظم الأثر في الاقتصاد الصهيوني .

السمات الأساسية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية

Main Traits of Jewish Communities as Functional Groups

يمكننا القول بأن السمات الأساسية للجماعات الوظيفية وطبيعة علاقتها بالمجتمع المضيف تتضح بشكل متبلور في الجماعات اليهودية في العالم الغربي وفي طبيعة علاقتها به :

١ - التعاقدية (النفعة) والخياد والترشيد (اخرسلة) :

تتسم علاقة الجماعات اليهودية بالمجتمع الغربي بأنها علاقة نفعية تعاقدية لا تتسم بالتراحم . فقد نظر للعالم الغربي إلى أعضاء الجماعات اليهودية منذ البداية باعتبارهم وظيفة تؤدي دوراً يُغلب وعنصرأ موضوعياً مجرداً ومحدداً ، مجرد مادة بشرية ، فكانوا يُستجلبون ليؤدوا وظيفة التاجر والمرابي . وكان أعضاء الجماعة اليهودية عادة من الغرباء ، ولذا كانوا يُعدون ملكية خاصة للملك (أقنان بلاط) الذي كان له حق امتلاك اليهود (باللاتينية : «جودايوس هابيري tjudaos habere» ، أو حق الاحتفاظ باليهود (باللاتينية : «جودايوس تنيري tjudaos tenere») . وكان من حقه بيعهم كما تباع أية مدينة حق استعمان مناجمها أو طرقها العامة . ولذا ، كان اليهود أقرب ما يكونون إلى ممتلكات تُعرض عليها ضرائب أو أدوات إنتاج ، فكان يُشار إليهم بوصفهم عبيداً أو ملكاً منقولاً كالأثاث (بالإنجليزية : «تشاتيل chattel») ، وكانت كثير من الوثائق تشير إليهم باعتبار أنهم يخضعون للملك وملك له ، يرثهم من يرث العرش ! ولعل السبب في وقوع قدر كبير من الخلل التحليلي هو أن كثيراً من الدارسين لم يذكروا طبيعة وضع الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي من حيث هي وظيفية تؤدي ، واستمروا في اعتبارها طبقة أو أعضاء في طبقة . وكان أعضاء الجماعات اليهودية يُعطون حقوقاً ومزايا تضمنها موائيق يشترونها من الحاكم . ولكن الموائيق التي كانت تُمنح لهم لم تكن قط نهائية وإنما كانت تُجدد دائماً . وكان يتعين عليهم أحياناً دفع مبلغ للإمبراطور كل عام لتأكيد حقه في أنهم ملك له (وهو استمرار

هذا في حروب عديدة من بينها الحرب الأمريكية الأهلية حيث حقق أثرياء اليهود أرباحاً هائلة بسبب تركيزهم في صناعات النسيج .

وكذلك ، فإن الميراث الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب (باعتبارهم جماعات وظيفية وسيطة تقف دائماً على الهامش) يجعلهم يتخصصون في الصناعات القريبة من المستهلك ويتعدون عن الصناعات الثقيلة ، إذ أن عضو الجماعة الوظيفية الوسيطة لا يحب الاستثمار في المتقولات الشائبة (مثل الأرض والصناعات الثقيلة) أو قد لا تُتاح له الفرصة أساساً في أحيان كثيرة . ولذا يفضل الاستثمار في الصناعات الخفيفة وفي المشاريع التجارية التي تتطلب قدراً عالياً من المهارة الإدارية ، ومن هنا كان تخصصهم في التجارة وصناعة الأثاث والأحذية وقطاع الخدمات والطباق والكحول والسينما ، وهي كلها صناعات قريبة من المستهلك ، بعيدة عن الزراعة وعن الصناعات الثقيلة مثل المناجم (وجميعها صناعات مرتبطة بالأرض) . كما يلاحظ أنهم يتركزون في تجارة التجزئة والأعمال العقارية ويعملون وكلاء مستشارين ووسطاء . كما أن تركيزهم في المهن والمصارف هو أيضاً نتيجة هذا الميراث الاقتصادي . ويُقال إن هذا أيضاً يرجع إلى أن يهود العالم الغربي عنصر مهاجر ، والعناصر المهاجرة تشغل دائماً المراحل العليا من الهرم الإنتاجي ولا تشغل قاعدته . ومن ثم ، لا يوجد عمال أو فلاحون يهود ، ونتج عن ذلك هامشية اليهود ، أي أن نشاطاتهم الاقتصادية ليست في قلب العملية الإنتاجية . ولا يزال العدد الأكبر من يهود أمريكا اللاتينية يشتغلون بالأعمال التجارية .

ويمكن القول بأن الحل الاستعماري للمسألة اليهودية (والذي يقبله الصهاينة) ينبع من تعريف العالم الغربي للجماعة اليهودية كجماعة وظيفية استيطانية قتالية . فهي إذن مجموعة بشرية تُعرف من خلال وظيفتها ، وهي مجموعة نبذتها الحضارة الغربية ، ولكنها ستحل مسألتها عن طريق الاضطلاع بوظيفة الدفاع عن مصالح الحضارة الغربية بحيث يصبح الاستيطان والقتال هما وظيفة اليهود الأساسية .

ويلاحظ أمون روبنشتاين أنه ، في عام ١٩٤٥ ، كان نحو ٢٤٪ فقط من اليهود المهاجرين إلى فلسطين يعملون في وظائف إنتاجية مثل الزراعة والصناعة والبناء والنقل ، وهو ما يعكس هامشيتهم الاقتصادية وطفيليتهم . وبعد استيطانهم في فلسطين ، أصبح ٦٩٪ منهم يعمل في مجال الأعمال الإنتاجية . ولكن ، بحلول عام ١٩٧٥ ، انخفضت نسبة العاملين في القطاعات الإنتاجية إلى ٢٣٪ ، أي أن الدولة الصهيونية لم تنجح في تحقيق

للهجمات الشعبية لأنهم أداة الاستغلال الواضحة والمباشرة . ومن ثم ، فإن اضطلاح أعضاء الجماعة اليهودية بدور الجماعة الوظيفية هو الذي يفسر الهجمات الشعبية عليهم ، كما يفسر كثيراً من اتهامات أعداء اليهود بأنهم مصاصو دماء (ومن هنا تهمة الدم) أو أنهم يقومون بتسميم الآبار . فهذه جميعاً صور مجازية حاول عن طريقها الإنسان العادي في الغرب فهم طبيعة العلاقة بينه وبين اليهود كجماعة وظيفية ، إذ أن أداة القمع الماثلة أمامه تقوم بامتصاص دمه وتسميم مصدر حياته . ويمكن القول بأن الهجوم على اليهود كان يشبه الانتفاضة الشعبية حينما يقوم الثائرون بتدمير أدوات القمع والاستغلال (ولعل هذا ما دفع بأحد المفكرين إلى تسمية معاداة اليهود «اشتراكية المغفلين» ، أي اشتراكية من لا يفهم الآليات الاقتصادية المركبة) . كما أن اضطلاح أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية هو الذي يفسر اتهام الجماعات الشعبية لهم بأنهم سحرة . ففي المجتمع الإقطاعي مثلاً ، كان أعضاء المجتمع يُنتجون من الأرض بصورة مباشرة ، أما أعضاء الجماعة الوظيفية المالية (التجارية أو الربوية) فكانوا يحققون الثراء من خلال تحريك السلع وحسب في حالة التجار . بينما كان الأمر أسوأ بكثير في حالة المرابين ، إذ كانوا يحققون الثراء من خلال تحريك الأموال وحسب . وقد أدّت هذه العزلة إلى ما نسميه «حدودية» أعضاء الجماعات اليهودية ، أي وجودهم على حدود المجتمعات أو على هامشها ، وفي الشقوق والثغرات . ولعل إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بعدم الأمن (رغم النجاح الذي يحققونه) هو جزء من ميراث الجماعة الوظيفية ، التي تُعَدُّ حركيتها مصدر أمن أساسياً لها . وقد أدّى إحساسهم بعدم الأمن وعدم الانتماء إلى زيادة الرغبة في مراكمة الثروة لأنها الوسيلة الوحيدة لشراء الحماية من الحاكم . ولكن يلاحظ أنه رغم تزايد ثروات كثير من أعضاء الجماعات اليهودية إلا أنهم ظلوا بعيدين عن السلطة وعن مؤسسات صنع القرار . ولهذا السبب كانت هذه الثروات معرضة دائماً للتصفية .

ويُقابل عملية العزل البرانية من قبل المجتمع إحساس عميق جواني بالغربة لدى أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية ، فيظهر لديهم إحساس بقداستهم (مركب الشعب المختار) . ثم يحتفظون بهذه الغربة من خلال عقائدهم وشعائهم الدينية ومن خلال ارتباطهم الوهمي بالوطن الأصلي الذي لم يُعَدِّ له وجود والذي سيعودون إليه في نهاية التاريخ .

٣- الانفصال عن المكان والزمان والإحساس بالهوية (الوهمية) :

يشعر أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية بالانتماء إلى وطن

للفيسكوس جواديكوس أو ضريبة اليهود التي فُرِضت عليهم بعد سقوط الهيكل) . ولعل حدة هذا الوضع قد خففت قليلاً عبر القرون والسنين ولكنها ظلت قائمة حتى أوائل القرن التاسع عشر في كثير من أنحاء أوروبا (وقد تعيّن على الفيلسوف الألماني اليهودي موسى مندلسون أن يدفع ضريبة انتقال ، حينما كان ينتقل من مدينة ألمانية إلى أخرى ، تساوي ما كان يُدفع لانتقال ثور) . وقد نُوقِشت المسألة اليهودية في الحضارة الغربية في إطار مدى نفع اليهود ، وهو مفهوم استمر حتى الوقت الحاضر ، ويتجلى في الحديث عن إسرائيل باعتبارها كترّاً إستراتيجياً ! ويجب ملاحظة أن العلاقة بين الطرفين (الجماعات اليهودية والعالم الغربي) علاقة نفعية ، فكلاهما يحاول الاستفادة قدر المستطاع من الطرف الآخر ، وكلاهما يحوسل الآخر ، ولا يمكن الحديث في مثل هذه العلاقة المركبة عن مُستغل ومُستغل .

٢- العزلة والغربة والعجز :

حينما استجلب المجتمع الغربي بعض أعضاء الجماعات اليهودية ليضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية ضرب عليهم العزلة ، فكان أعضاء الجماعة اليهودية يعيشون في جيتو خاص بهم يرتدون أزياء خاصة مقصورة عليهم ويؤمنون بعقيدة مختلفة عن عقيدة مجتمع الأغلبية . بل كانوا ، في حالة يهود الديشية ، يتحدثون لغة مختلفة عن لغة المجتمع المضيف . وقد انغلقت الجماعات اليهودية على نفسها فكانت شبكة عالية واسعة مهمتها ضمان انتقال السلع والعملات والمعلومات بكفاءة عبر البلاد والقارات ، وهذا هو سبب معرفة أعضاء الجماعة اليهودية بعدد من اللغات ، وهو تعبير عن الغربة والحركة في ذات الوقت . وقد سيطرت القيادات الدينية والدينيوية ، التي كانت تتمتع بدعم النخبة الحاكمة ، على هذه الشبكة المغلقة التي كانت بمثابة الوسيط بين الجماعة اليهودية والمجتمع المضيف . كما تزايد اعتماد أعضاء الجماعات اليهودية على النخبة الحاكمة حتى أصبحوا في بعض الأحيان جماعات وظيفية عميلة ، كما هو الحال مع المرابين ، وأداة قمع في يد الحاكم لقمع الجماهير واستغلالهم .

وقد أدّى هذا إلى تزايد ابتعاد أعضاء الجماعات اليهودية عن جماهير المجتمع المضيف ، أي أن أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية لم يكونوا مشاركين في السلطة (فهم مجرد أداة) يعيشون في عزلة عن الشعب (في مسام المجتمع لا في صميمه) ، وهم موضع كرهه وسخطه . وهذا ما يُسمّى «إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة» . لكل هذا أصبح أعضاء الجماعات الوظيفية عرضة

يتمتعهم الموائيق . وقد ساعدت عمليات انطرد المستمرة ، ثم الهجرة ، على تعميق هذه الحركية . وقد تركّز أعضاء الجماعات اليهودية في قمة الهرم الاجتماعي وابتعدوا عن قاعدته (وهذا هو أهم أسباب المسألة اليهودية) .

٦ - التمرکز حول الذات والتمرکز حول الموضوع (خونية) :

مركب الشعب المختار هو تعبير عن تتمرکز انطرد حول الذات والذي يفسّر لأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية أن يقوموا باستغلال الآخر وحوسنته وأن يقوموا كذلك بعزل أنفسهم كم يبرر غربتهم . ولكن عضو الجماعة الوظيفية اليهودية يتمرکز أيضاً حول وظيفته الموضوعية وقبل أن يكون أداة متحسسة تضطلع بوظائف محدّدة تُؤكّل له .

ويُعبر هذا التمرکز حول الذات وحول الموضوع عن نفسه من خلال الإحساس انطرد بأخيرة الكمة واختصية الكمة . ومن خلال مفهوم الاختيار والنفي وانعودة ، وهي مفاهيم تُفسد هذه الازدواجية انطردة انتبورة : فاليهودي حرّ تماماً لأنه مُنفي عن أرضه لا جذور له . وهو يستمتع بتمايز عديدة لأنه مختار من قبل الإله ، إرادته من إرادة الإله . ولكنه في الوقت نفسه لا حرية له لأنه مُنفي من أرضه التي لا يقدر على تحقيق ذاته إلا فيها وحدها . كما أن الاختيار يعني التكتيف أيضاً ومن ثم عدم القدرة على الخربة .

وتتضح علاقة الجدعت الوظيفية اليهودية بالخنونية الكمونية في تصاعد معدلات الخنونية كمنونية داخل ليهودية إلى أن سيطرت عليها تماماً .

وعلاقة الجدعت اليهودية بالتحديث والعلمانية علاقة مركبة وعميقة ، ذلك أن مسر الهجرة اليهودية قد نثر بشكل عميق بالتحديث . فالجدعات اليهودية كانت جدعات وظيفية تتحرك أفقياً من مجتمع إلى آخر ، لا رأسياً داخل المجتمع الواحد نفسه . فكانوا في البداية يستجيبون إلى المجتمعات المتخلفة كمعصر تحديتي أو استيطاني . ومن هنا كانت الهجرة اليهودية تتم دائماً من البلاد الأقل تخلفاً إلى البلاد الأكثر تخلفاً ، من البحر الأبيض المتوسط إلى وسط أورب ومنه إلى شرق أورب . ولكن ابتداءً من القرن السادس عشر وبداية ظهور الرأسمالية والحركة الاستعمارية الغربية وبدايات التحديث في الغرب . نجد أن الهجرة تأخذ شكلاً مغايراً ، فهي تنطلق من البلاد المتخلفة إلى البلاد الأكثر تقدماً . وقد اشترك اليهود في حركات الهجرة الاستيطانية وغير الاستيطانية .

ورغم أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا من حملة الفكر التحديثي والعلماني ، إلا أنهم سقطوا ضحية عمليات التحديث

أصلي (صهيون/ فلسطين) سيعودون إليه في آخر الأيام . وقد ترجم هذا نفسه إلى العقيدة المشيخانية التي أضغفت أواصر ارتباط أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية بالمكان الحالي (أوطانهم وتاريخها) باسم المكان السابق الذي نُفوا منه ، وهو أيضاً المكان الذي سيعودون إليه في المستقبل .

ويُقابل الإحساس العميق بالغربة والعزلة والعجز والانفصال عن المكان تعمق إحساس عضو الجماعة الوظيفية اليهودية بهويته . فهي إحدى آليات العزل غير الواعية . ومع هذا ، فإن الهوية هنا حالة عقلية إذ أن هوية عضو الجماعة الوظيفية اليهودية تشكل داخل حدود المجتمع الذي يعيش فيه لا خارجه ، ومن خلال تفاعله اليومي المتعين مع الخطاب الحضاري لمجتمعه لا رغباً عنه . ولذا فرغم ادعاءات أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية عن تمييزهم ، إلا أنهم في واقع الأمر يندمجون في مجتمعاتهم . وثنائية ادعاء التميز وواقع الاندماج والذويان مسألة أساسية لعضو الجماعة الوظيفية اليهودية حتى يتسنى له أن يلعب دوره الوظيفي ، وحتى يظل « في المجتمع دون أن يكون منه » ، يتعامل مع أعضاء المجتمع بكفاءة عالية لا يمكنه أن يحققها إلا بمعرفة المجتمع وتملك ناصية خطابه الحضاري . ولكنه في الوقت نفسه لا يتعاطف معهم ويحتفظ بمسافة عقلية وعاطفية كبيرة بينه وبينهم بسبب هويته الوهمية .

٤ - ازدواجية المعايير :

تظهر ازدواجية المعايير بشكل حاد في حالة أعضاء الجماعات اليهودية ، فقد قسمت العقيدة اليهودية العالم في كثير من الأحيان إلى اليهود من جهة والأغيار من جهة أخرى . وكان بإمكان اليهودي أن يقرض الأغيار بالربا ، ولكنه يُحرّم على نفسه أن يفعل ذلك مع اليهود . وكان اليهود يعتبرون أنفسهم شعباً مقدساً (وهذا يعني أن أعضاء المجتمع مباحون) . ولعل هذا يفسّر وجود أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في جرائم انتهاك الحرمات مثل البغاء ونشر المجلات الإباحية وغير ذلك . وحتى لا يتم استخلاص أية تعميمات عنصرية من ذلك ، لابد أن نشير إلى أن أعضاء الجماعة الوظيفية يتسمون أيضاً بالأمانة الشديدة نظراً لحيادهم وخوفهم من النخبة والجماهير على حدّ سواء .

٥ - الحركية :

كان أعضاء الجماعات اليهودية من أكثر الجماعات حركية داخل التشكيل الحضاري الغربي ، فهم لم يكونوا مرتبطين بالأرض مثل الفلاحين أو النبلاء ، ولا حتى بالمدن مثل سكانها ، وإنما كانوا ينتقلون بحرية كبيرة في المجتمع الوسيط تحت حماية الملك الذي

ولعل حالة يهود كايفنج في الصين تلقي بعض الضوء على ما قد يحدث لليهود في العالم الغربي بعد عملية تحديث وضعهم ووظائفهم . فبعد أن انضمت أعداد متزايدة من القيادة اليهودية إلى طبقة كبار العلماء/ الموظفين (المندرين) ، فقد اليهود وضعهم كجماعة وظيفية ، وزادت معدلات الاندماج بينهم حتى اختفوا تماماً . وقد تمت هذه العملية عبر مئات السنين في الصين . ومن الممكن أن نتصور أن شيئاً مماثلاً سيحدث في العالم الغربي ، لكن معدلات التحديث في الغرب تتفاوت سرعة وبطناً من بلد لآخر ، كما أن العملية تتعرض أحياناً بل تتوقف أحياناً أخرى . ولعل التعثر هو الذي أدّى إلى عدم اختفاء كثير من الجماعات اليهودية أو تناقص أعدادها بشكل ملحوظ . كما أن التشكيل الاستعماري الغربي ، بتأسيسه الدولة الصهيونية ، أعاد إنتاج نمط الجماعة الوظيفية على مستوى الدولة .

الجماعات الوظيفية اليهودية : أنواعها المختلفة

Jewish Functional Groups : Different Kinds

اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بأدوار وظيفية عديدة من بينها ما يلي :

- ١ - الجماعات اليهودية الوظيفية الاستيطانية القتالية .
 - ٢ - الجماعات اليهودية الوظيفية المالية الوسيطة (التجارة - الربا - جمع الضرائب - المتعهدون العسكريون - تجارة الرقيق - تجارة الخمر) .
 - ٣ - جماعات وظيفية متنوعة (الطب - الجاسوسية - قطاع اللذة - البغاء وتجارة الرقيق الأبيض) .
- وإذا كانت الجماعات اليهودية الوظيفية الاستيطانية القتالية هي أول ما ظهر من الجماعات اليهودية ، فإن أهمها هي الجماعات اليهودية الوظيفية الوسيطة أو المالية .

والعلمنة . فهويتهم وإثنتهم كانت مرتبطة تماماً بعزلتهم كجماعة وظيفية . ولكن ، مع تصاعد معدلات التحديث ، وظهر نُخب محلية تتولى زمام الأمور ، وكذلك ظهور الدولة القومية العلمانية المركزية ، لم تعد هناك وظيفة لهم ، وبدأت التحولات الوظيفية والطبقية العميقة تدخل على الجماعات اليهودية ، فتحولوا إلى بروليتاريا وشحاذين وأصحاب مصانع وبورجوازية كبيرة وصغيرة ، وفقدوا تماسكهم الإثني وعقيدتهم اليهودية . وتساقطت كل رموز العزلة ، وتساقطت أسوار الجيتو ، وتم تحديث أزيائهم ولغتهم ، وبدأ التعليم بين أعضاء الجماعات اليهودية يتحول من أداة لنقل الخبرات الخاصة وأسرار المهنة والحفاظ على الهوية والعزلة في المجتمع إلى وسيلة من وسائل تصفية الهوية شبه القومية ودمجهم في المجتمع وتدريبهم على الحراك الاجتماعي داخل طبقات المجتمع .

ورغم أن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا يُشكّلون العمود الفقري للقطاع المالي والتجاري للمجتمع الغربي الوسيط ، كما كانوا يشكلون جزءاً مهماً منه منذ عصر النهضة ، إلا أنهم لم يساهموا في بناء الرأسمالية الحديثة الرشيدة ، فقد نشأت هذه الرأسمالية داخل المدينة الغربية . أما رأسمالية أعضاء الجماعات اليهودية فكانت رأسمالية الجماعة الوظيفية المرتبطة بالمجتمع التقليدي ، وقد سماها فيير الرأسمالية المنبوذة (مقابل الرأسمالية الرشيدة) .

ومع تصاعد معدلات التحديث ، يختفي اليهود كجماعات وظيفية . ومع هذا ، يبقى هناك امتداد لدورهم التقليدي ولميراثهم الوظيفي إذ لا يكاد يُوجد يهود في المهن الإنتاجية الأولية (الزراعة والتعدين) ، بينما يتركزون في مجال الملكية العقارية وفي مهن الطب والتمثيل ، وهي مهن تُوجد كلها عند قمة الهرم الإنتاجي أو على هامشه في معظم أنحاء العالم ، ولا يُوجد أي تمثيل لليهود بين العمال والفلاحين ومختلف القطاعات الموجودة في قاعدة الهرم الإنتاجي .



٢

الجماعات الوظيفية اليهودية القتالية
والاستيطانية والمالية

جماعة يهودية وظيفية قتالية استيطانية (المرتزة) - جماعة يهودية وظيفية تجارية - ارفاذية - جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض) - جماعة وسيطة - التجارة اليهودية - الربا اليهودي - الضرائب التي يدفعها أعضاء الجماعات اليهودية - أعضاء الجماعات اليهودية كمحصلي ضرائب - المتعهدون العسكريون - بافيا - الأرندا والإقطاع الاستيطاني - الخمور (النبيذ والكحول) والاتجار فيها - الإعلان - تجارة الرقيق

جماعة يهودية وظيفية قتالية استيطانية (المرتزة)

Jewish Military Settler Functional Group (Mercenaries)

«الجماعة الوظيفية الاستيطانية» هي الجماعة البشرية التي تستجلب من خارج المجتمع أو تجند من داخله ثم تُنقل من مكان إلى مكان آخر لثوطين فيه بغرض أن تؤدي وظيفة محددة ذات طابع قتالي عادةً، ولكن ليس ضرورياً أن تكون كذلك دائماً، فقد تكون ذات طابع زراعي أو تجاري، أو ذات طابع مختلط؛ زراعي قتالي، أو تجاري قتالي، أو زراعي تجاري، وهكذا.

أما «الجماعة الوظيفية القتالية» فهي الجماعة التي يضطلع أعضاؤها بدور قتالي وحسب، فالجندي المرتزق هو الجندي الذي يُستجلب من خارج المجتمع، أو يُجند من داخله (عادةً من صفوف أقلية إثنية أو دينية معينة لها علاقة خاصة بالمجتمع). وهو يقوم بالقتال من أجل المال بالدرجة الأولى، فالدوافع هنا يجب ألا تكون دوافع داخلية مركبة (الانتماء - حب الوطن - الانتقام)، بل لابد أن يكون الدافع خارجياً بسيطاً وهو الربح المادي الذي يأخذ صورة أجر مادي عاجل ومباشر (راتب شهري) أو أجل (إقطاعية أو غيرها من العوائد المالية). وكل من العنصر الاستيطاني والقتالي يشكل جماعة وظيفية، فهو عنصر متحرك غير متمم لا يدين بالولاء لأحد إلا لرأعيه الذي يقوم بتمويله، وهو عنصر لا يُعرف من خلال سماته الإنسانية وإنما من خلال وظيفته، فهو وسيلة لا غاية، وأداة لا هدف، والمجتمع ينظر إليه من ناحية مدى نفعه ومدى احتياجه إليه، ويدخل معه في علاقة تعاقدية محايدة. والجندي المرتزق والمستوطن هما وسيلة من وسائل الإنتاج، أو بتعبير أدق إحدى أدوات الفتك التي تنظم علاقات الإنتاج وعملية توزيع الثروة لصالح من يسيطر على هذه الآلة أو الوسيلة. وعادةً ما يعيش الجنود المرتزقة، وكذلك

أعضاء الجماعات الاستيطانية، على مقربة من أعضاء الأغلبية، ولكنهم مع هذا يظلون في عزلة عنهم فهم منبتو النصلة بالجمهير مرتبطون بالنخبة الحاكمة التي تسخرهم لفصلحتها، دون أن تخشى بأسهم أو تخاف من أن يقوموا بمحاولة اشاركة في السلطة أو القرار السياسي، فهم بلا قاعدة ولا شرعية ولا سلطات إلا ما يستمدونه من الراعي، وذلك على عكس الثقاتين من أعضاء الأغلبية، فهؤلاء عادةً ما يطالبون بتصييرهم في السلطة إن قويت شوكتهم، كما أنهم يستندون إلى قاعدة جماهيرية يستمدون منها الشرعية.

وفي تقديرنا أن الجندي الذي يدافع عن وطنه ويتقاضى أجراً عن ذلك ليس بمرتزق، لأن دوافعه لنقتال والاستيطان أكثر تركيزاً من الجندي المرتزق، كما أنه أقل حركية لارتباطه بوطنه. والنشء نفسه ينطبق على المواطن الذي يربط في مناطق حدودية دفاعاً عن الوطن، فهو مرتبط بوطنه ولا يتسم بأية حركية إلا في إطار رؤيته.

وهنا يمكن أن تثار قضية الغارات التي يشنها البدو أو القراصنة على المدن والسفن من أجل الغنائم، أي من أجل الربح المادي، وهل يمكن اعتبارهم مرتزقة. ونحن نميل إلى عدم تصنيفهم كمرتزقة، فرغم وجود عنصر مشترك أساسي بين المرتزقة من جهة والبدو والقراصنة من جهة أخرى (الحركية والقتال من أجل المال) إلا أن هناك عنصراً أساسياً آخر غائباً في حانة الفريق الثاني وهو الراعي أو الحامي الذي يصدر الأوامر للعنصر المرتزق ويوجهه ويوظفه. ومن هنا تظهر مشكلة تصنيف المماليك، فقد تم استغلالهم كرفيق ليقاتلوا نظير أجر أو نظير التمتع بمستوى معيشي مرتفع. ولكنهم، بالتدريج، أصبحوا يقاتلون لصالح أنفسهم كجماعة إثنية مستجلبية مستقلة. ولتحديد الأمور، يمكننا أن نتخيل متصلاً أحد أطرافه المجاهد الذي لا يقاتل إلا ابتغاء مرضاة الله والمقاتل الذي يموت من

هذا المجتمع عُرضة لغزوات جيوش الإمبراطوريات الكبرى التي كانت تقوم بأسر أعداد كبيرة من العبرانيين ثم تُهَجَّرهم إلى أماكن أخرى أو تُجندهم في صفوفها .

ويسدو أن العبرانيين القدامى كانوا من المرتزقة منذ بداية ظهورهم في التاريخ ، فكلمة «عبراني» ذاتها تشير إلى العبد الذي أصبح كذلك برضاه وحوّل نفسه إلى أداة في يد الآخر . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن كلمة «خابيرو» (التي يذهب البعض إلى أنها تعني العبرانيين) تعني «الجندي المرتزق» ، وأن الكلمة كانت تُطْلَق على أية جماعات من الرحل أو الغرباء أو الأشقياء المستعدين للانضمام إلى صفوف أي جيش لقاء أجر أو بدافع الحصول على الغنائم . ولكن يبدو أن الخابيرو ، كانوا بدؤاً مرتزقة يغيرون لاستلاب الغنائم وربما جماعة كانت تنضم بشكل مؤقت لقوة محاربة نظامية أو غير نظامية من أجل تحقيق الربح . ولعل اشتراكهم مع الهكسوس في غزو مصر كان شيئاً من هذا القبيل . وعلى كل ، ومهما كانت اشتقاقات الكلمة ، فإن هناك مؤشرات عديدة على أن العبرانيين القدامى ، مع استقرارهم في كنعان ، كانوا يعملون كمرتزقة ، كما أنهم حاربوا في صفوف الفلسطينيين كمرتزقة ضد بني جلدتهم .

وقد قام الملك العبراني أمصيا (٧٩٨-٧٦٩ ق.م) ، تاسع ملوك المملكة العبرانية ، بجمع جيش من المرتزقة من المملكة الشمالية وحاول إخضاع أدوم للهيمنة العبرانية . كما تم تجنيد العبرانيين كمرتزقة في جيوش مصر الفرعونية حينما بدأ ملوك المملكة الجنوبية مبادلة الأحصنة بالجنود . وفي الأسرة السادسة والعشرين استعان بهم بسماتيك الأول (٦٦٣-٦٥٠ ق.م) الذي كوّن جيشاً من المرتزقة كان يضم في صفوفه يهوداً ، وقام بسماتيك الثاني (٥٩٤-٥٨٩ ق.م) من بعده بتوطين جماعة استيطانية في جزيرة إلفنتين . وحينما سقطت المملكة الجنوبية ، فرت جماعات من العبرانيين إلى مصر واستقرت في أماكن معروفة بأن فيها حاميات عسكرية . ويلاحظ أن الدياسبورا هنا (أي انتشار اليهود في بقاع الأرض) مرتبطة بنشاطين متلازمين هما في واقع الأمر نشاط واحد : الاستيطان والقتال كمرتزقة . والانتشار لا علاقة له بتحطيم الهيكل كما يدّعي الصهاينة . وما يجدر ذكره أن التهجيرين ، الآشوري والبابلي ، لم يكن الهدف منهما تأديب العبرانيين وحسب وإنما نقلهم ليصبحوا جماعة وظيفية استيطانية ، إذ تحوّل المهجّرون إلى العمل بالزراعة والشئون المالية ، وليس هناك ما يدل على تحوّلهم إلى جماعة وظيفية قتالية . وقد استخدم الفُرس العبرانيين كجماعة استيطانية قتالية ، فأقاموا جماعات يهودية موالية للدولة الفارسية على هيئة

أجل الوطن أو العقيدة ولا يستهلك إلا ما يضمن له الاستمرار في الجهاد والقتال دون الحصول على أية مكاسب مادية ، والطرف الآخر للمتصل هو المرتزق الذي لا يقاتل إلا ابتغاء الأجر ، ويمكننا أن نضع بينهما الجندي الذي يدافع عن قضية ويأخذ أجراً ويحقق مكاسب مادية وطبقية تزيد عن حاجته ، ثم نضع بعد ذلك الممالك بعد أن تحولوا إلى طبقة مقاتلة تقاتل من أجل زيادة مكاسبها وتدافع في الوقت نفسه عن الوطن (مصدر المكسب) . ويגיע بعد ذلك جماعات البدو والقراصنة الذين يشنون الغارات من أجل الربح ، ثم يبعي أخيراً الجندي المرتزق .

ويبدو أن كثيراً من المجتمعات (عبر التاريخ) نظرت إلى العبرانيين وإلى أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم مادة بشرية استيطانية وقاتلة . وهذا لا يعني أن سائر المجتمعات كانت تنظر إلى سائر العبرانيين وإلى الجماعات اليهودية كافة في كل زمان ومكان من هذا المنظور ، كما لا يعني أنها كانت تنظر إلى اليهود فقط من هذا المنظور (إذ توجد عناصر بشرية استيطانية وقاتلة أخرى كاليونانيين على سبيل المثال) . ولا يعني هذا أيضاً أن اليهود بطبيعتهم مادة بشرية استيطانية وقاتلة أو أن عندهم قابلية طبيعية ليصبحوا كذلك . فمن المعروف أن الغالبية الساحقة من العبرانيين ومن أعضاء الجماعات اليهودية لم تضطلع بأيّ من هاتين الوظيفتين . فالحقبة ، إذن ، هي قضية مجموعة أو مجموعات من البشر عاشت تحت ظروف تاريخية اقتصادية وثقافية معينة أدت إلى اضطلاع قطاعات منها بهذه الوظيفة . وما سنتناوله في هذا المدخل هو نمط تكرر بشكل لافت للنظر في عدد من المجتمعات في العالم القديم ، ثم تكرر في بلاد الغرب بشكل أكثر وضوحاً في العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، وترجم نفسه في نهاية الأمر إلى وعد بلفور ثم إلى الدولة الصهيونية في العصر الحديث . ولكن الطبيعة الاستيطانية والقتالية للدولة الصهيونية (التي نسميها «الدولة الوظيفية») ، وهيمنة هذه الدولة على أذهان الغالبية الساحقة ليهود العالم في الوقت الحالي ، يُكسب هذا النمط أو النموذج أهمية غير عادية ويضفي عليه مركزية لم يكن يتمتع بها من قبل . ومن ثم يصبح من اللازم لنا اكتشاف جذوره وسبل تشكّله في ماضي العبرانيين والجماعات اليهودية .

لقد تعمّق هذا الاتجاه بسبب ما نسميه «المسألة العبرانية» ، أي قلة عدد العبرانيين وتخلّف المجتمع العبراني الحضاري والتكنولوجي والعسكري مع وجوده في واحد من أهم المواقع الإستراتيجية في العالم . فلم يتمكن المجتمع العبراني من استيعاب الطاقات البشرية داخله ، ومن ثم كان لابد من تصديرها . وإلى جانب هذا ، كان

ومن المعروف لنا أن الدولة العثمانية قامت ، حينما ضمت أجزاء من المجر في عام ١٥٢٦ ، بتهجير ٢٠٠٠ يهودي إليها ليكونوا عنصراً استيطانياً مالياً للسلطان العثماني . ولعل هذا كان ضمن نظام السورجون العثماني ، و«سورجون» كلمة معناها «نفي» أو ترحيل أو تهجير عنصر بشري ما ، إما كشكل من أشكال العقاب أو لتحقيق خدمة للدولة العثمانية . وقد وُطن العثمانيون اليهودي قبرص لموازنة العنصر المسيحي فيها ، كما وُطنهم ملوك بولندا في المدن البولندية لتشجيع التجارة .

ولكن أهم التجارب الاستيطانية شبه القتالية للجماعات اليهودية على الإطلاق (قبل التجربة الصهيونية) هي تجربتهم كجماعة استيطانية تجارية شبه قتالية في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا ، حيث اضطلع بعض أعضاء الجماعة اليهودية بوظيفة الأرندا (دفع مقابل عائد الأراضي الزراعية) منذ أواخر القرن السادس عشر ، فقاموا باستجار ضياع النبلاء البولنديين (شلاختا) في أوكرانيا وإدارتها لحسابهم . وكان الأرنداتور (المديرون أو الوكلاء) اليهود يستأجرون مناطق ومدناً بأكملها فيعتصرون الأتقان الأوكرانيين لحساب النبلاء البولنديين . ولحماية هؤلاء الوكلاء وأسرهم ، شيد النبلاء مدناً صغيرة تُسمى «شتل» كانوا يعيشون فيها تحت حماية القوة العسكرية البولندية ، كما كان عليهم هم أنفسهم أن يتدربوا على حمل السلاح .

ومن التجارب الاستيطانية الأخرى للجماعات اليهودية تجربة يهود رومانيا الذين كان يُطلق عليهم اسم «هرسوفلتي» (وهو مُشتق من كلمة «هرسوف» الرومانية وتعني «ميشاق»)، والذين وُطنهم النبلاء الإقطاعيون (البويار) في رومانيا بعد منحهم ميثاقاً حصلوا بمقتضاه على ميزات معينة ، من بينها الإعفاء من الضرائب لعدة سنين والحصول على أرض فضاء دون مقابل لإقامة معابدهم ومدارسهم وحمائماتهم ومقابرهم . وكانت علاقة الهرسوفلتي بالبويار تشبه إلى حد كبير علاقة يهود الأرندا بالنبلاء الشلاختا ، فقد أسس البويار لليهود مدناً صغيرة تشبه الشتل من أوجه كثيرة . ويُلاحظ أن اليهود هنا كانوا عنصراً استيطانياً تجارياً غير قتالي . ورغم أن التجربة الاستيطانية لليهود في رومانيا استمرت أساساً في الفترة من منتصف القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، إلا أننا ذكرناها مع تجارب الجماعة اليهودية الاستيطانية في العصر الوسيط في الغرب لأنها من ناحية البنية تقع داخل إطار الاستيطان الوسيط . وعلى كلٍّ ، فقد كانت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الروماني تشبه إلى حد كبير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في أوروبا الوسيطة .

التواصل بين وظائف أعضاء الجماعات اليهودية الاستيطانية والقتالية ووظائفهم المالية (التجارية الربوية) .

وقد صنّف اليهود في الحضارة الغربية على أنهم غرباء ، والغريب في العرف الألماني (الذي حل محل القانون الروماني في كثير من المجالات) كان تابعاً للملك تبعية مباشرة ، ومن ثم أصبح اليهود أقتان بلاط . ولكن من الصعب الحديث عن أقتان البلاط باعتبارهم جماعة استيطانية .

ومع هذا ، فهناك حالات محددة من الاستيطان اليهودي في العصور الوسطى . فقد قام شارلمان بتوطين اليهود في جنوب فرنسا في ماركا هسبانيكا لتكون حاجزاً على حدود العالم المسيحي لوقف التوسع الإسلامي . ويمكن أن نستخدم عبارة «جماعة استيطانية» بشيء من التجاوز للإشارة إلى أعضاء الجماعة اليهودية الذين دعاهم شارلمان للاستيطان في فرنسا ذاتها بهدف تشجيع التجارة ، وإلى أولئك الذين صاحبوا الغزو النورماندي لإنجلترا في القرن الحادي عشر ، وإلى أولئك الذين استقروا فيها باعتبارهم مادة استيطانية تجارية .

وقد عرفت شبه جزيرة أيبيريا الاستيطان اليهودي سواء في إسبانيا الإسلامية (الأندلس) أو المسيحية . فأنشاء الفتح الإسلامي ، كان المسلمون يُوطنون اليهود في المدن التي يفتحونها ، مثل قرطبة وغرناطة وطليلة وإشبيلية حتى يتفرغ المسلمون للعمليات القتالية . وقد ثار المسيحيون في إشبيلية ، وفتكوا بأعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم عنصراً استيطانياً قتالياً . كما لجأت القوات المسيحية إلى النهج نفسه أثناء حرب الاستعادة ، فكانت تسمح ، من الناحية الاسمية ، لكل من اليهود والمسلمين بالاحتفاظ بمنازلهم والبقاء فيها ، ولكنها من الناحية الفعلية كانت تسمح لأعضاء الجماعة اليهودية وحسب بالاستيطان والبقاء في المناطق المفتوحة (مثل بالينسيا ولانثا والأندلس وغيرها) .

ولا ندري هل كانت الفرق المسماة «تشاليزيان» في المجر في القرن العاشر جماعة استيطانية قتالية أم كانت جماعة قتالية وحسب . فكلمة «تشاليزيان» مشتقة من الجذر نفسه الذي اشتقت منه كلمة «حالتوسيم» العبرية (بمعنى رواد) ، وهي الكلمة التي استخدمها الصهاينة فيما بعد لوصف طلائع المستوطنين الصهاينة . والرائد هو الجندي الذي يُوضَع في مقدمة الصفوف . ويبدو أن جنود التشاليزيان كانوا من بقايا يهود الخزر ، إذ أن ملكة المجر اجتذبت أعداداً كبيرة منهم عند تأسيسها ، فعملوا بالقتال نظير نمال ، أي أنهم كانوا جماعة قتالية وربما استيطانية ولكنهم تحولوا بالتدريج إلى جماعة وظيفية مالية .

يبدرك مدى استيعاب أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي (أي غالبية يهود العالم) في تجربته الاستيطانية . فقد اشترك أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من النشاطات الاستيطانية (خصوصاً في البلاد البروتستانتية) إما كممولين أو كجماعة وظيفية استيطانية . ومع بداية العصر الحديث ، كانت أهم جماعة يهودية في العالم توجد في هولندا التي كانت من أنشط الدول الاستيطانية . وقد ساهم اليهود في كثير من النشاطات المرتبطة بالاستيطان الغربي ، مثل : شركتي الهند الشرقية والغربية الهولنديتين وغيرهما من الشركات ، وفي تجارة العبيد . كما اشترك عدد من أعضاء الجماعات اليهودية في عملية الاستيطان ذاتها . في بداية الأمر ، كان أعضاء الجماعة جزءاً من النشاط الاستيطاني الهولندي ، فاستوطنوا (ابتداءً من منتصف القرن السابع عشر) في الهند الغربية في ترينيداد والمارتينيك وجامايكا وجزر الباهاما وكوراساو وسورينام .

وكوراساو هي إحدى جزر الهند الغربية الهولندية على مقربة من ساحل فنزويلا ، مساحتها ٢١٢ ميلاً مربعاً ، احتلها الأسبان عام ١٥٢٧ ، ثم استولى عليها الهولنديون عام ١٦٣٤ . وتعود أهميتها إلى أنها من التجارب الأولى للجماعات اليهودية الاستيطانية ، وإلى أنها تندرج في إطار الاستعمار الاستيطاني الغربي الذي بدأ نشاطه في العالم الجديد واستمر في التوسع إلى أن وصل إلى آخر حلقاته في فلسطين في العصر الحديث . وقد جرى أول استيطان يهودي في كوراساو عام ١٦٥٠ حين وصلت ١٢ عائلة يهودية يحمل أفرادها خطاباً من مجلس هولندا يطلب من حاكم الجزيرة أن يمد لهم يد المساعدة ، بأي صورة من الصور ؛ بالعبيد أو بالأرض أو بالأحصة أو القطعان أو الأجهزة . ويبدو أن اليهود كانوا جماعة استيطانية زراعية ، على حين أن المستوطنين الهولنديين كانوا يهملون الزراعة لأن تجارة البضائع المهربة كانت أكثر ربحاً . ومع هذا ، يبدو أن التجربة لم تنجح تماماً بسبب بعض القيود التي فُرضت على حركتهم (ربما بسبب جو محاكم التفتيش الذي ساد العالم الجديد والذي وجد طريقه إلى كوراساو رغم أنها كانت تابعة لهولندا) . ولذا ، حينما طلب مجلس هولندا إلى أحد أعضاء الجماعة اليهودية أن ينقل مزيداً من الأسر اليهودية إلى كوراساو وعرض منحهم حقوقاً وامتيازات استثنائية (مثل الإعفاء من الضرائب لمدة عشرة أعوام ، وحق حيازة الأراضي التي يجدهونها ملائمة ، وحق الامتناع عن العمل يوم السبت) ، لم يجد هذا الطلب أذناً صاغية . وحينما استولت البرتغال على البرازيل من هولندا ، عام ١٦٥٤ ، فرت مجموعة من اليهود إلى كوراساو وأخذت رأس

ويمكننا الآن الدخول إلى العصر الحديث ، لنقول إن كثيراً من أساطير وديباجات الاستيطان الغربي ولدت مع الإصلاح الديني البروتستانتي . وقد ظهرت الأسطورة الاسترجاعية التي تذهب إلى أن الخلاص لن يتحقق إلا بعودة اليهود إلى صهيون كجماعة وظيفية استيطانية دينية يسهم توطئتها في صهيون في الإسراع بعملية الخلاص . وبالتدرج ، مع تطوّر مراحل الإمبريالية الغربية من الأطوار المركشالية الأولى إلى المراحل التالية (المرحلة الصناعية وغيرها) ، أخذت معالم الأسطورة تتكشف وتحدد بحيث تحولت صهيون إلى فلسطين البلد الواقع في وسط بلاد الشرق ويطل على بوابات مصر والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وقناة السويس (بعد افتتاحها) . وبدأ اليهود يتحولون من شعب مقدّس أو شعب شاهد أو شعب منبذ إلى جماعة وظيفية تجارية وقتالية نشطة . وبعد سنوات طويلة من المقاومة والرفض من جانب أعضاء الجماعات اليهودية ، تلفقت الحركة الصهيونية الأسطورة وتحولت من أسطورة بروتستانتية إلى أسطورة يهودية . وهكذا أصبحت صهيون المكان الذي تخرّج منه جيوش المستوطنين اليهود «حالتوسيم» الذين يسيرون في المقدمة مسلحين أمام الرب .

وإذا كانت الأسطورة الاسترجاعية تجعل من اليهود جماعة استيطانية ، فإن الأساطير الأخرى كانت تجعل من سائر المستوطنين الغربيين البيض يهوداً . فالبيوريتان ، أي المتطهّرون ، وهم المستوطنون الأوائل في الولايات المتحدة ، كانوا يتوحدون تماماً بالعبرانيين القدامى . فهم ، في خروجهم من أوروبا ودخولهم الأرض العذراء ، كانوا يتصورون أنهم يشبهون تماماً العبرانيين القدامى حينما خرجوا من مصر ودخلوا كنعان ، وأن استيلاءهم على أرض أمريكا العذراء وإبادة سكانها يشبه استيلاء العبرانيين على المدن الكنعانية وإبادة سكانها (حسب الرواية التوراتية) . ومن ثم ، نجد أن أرض أمريكا كان يُشار إليها بوصفها صهيون الجديدة ، وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم بأنهم أبناء العهد (بل لقد اقترح أحدهم ، لدى التفكير في اختيار لغة للولايات المتحدة بعد استقلالها ، أن تكون العبرية لغة الدولة الجديدة) . ونجد أن الأسطورة نفسها تسيطر وبشكل درامي على المستوطنين البيض في جنوب أفريقيا (الأفريكانر) .

هذا من ناحية الإطار الفكري أو التصوري . أما من ناحية الممارسة التاريخية الفعلية ، فيمكننا القول بأن الاستيطان أصبح البُعد الأساسي في تجارب أعضاء الجماعات اليهودية . بل ويمكننا الذهاب إلى أنه لا يمكن فهم تفاعلات هذه التواريخ وحركاتها إلا

كانوا يشكلون الغالبية الساحقة ليهود العالم مع نهاية القرن التاسع عشر ، وهي أيضاً الفترة التي شهدت الهجرات الاستيطانية الغربية . يمكننا أن نترك التسلسل التاريخي قليلاً ، لنركز على حركة يهود اليديشية داخل إطار التشكيل الاستعماري الروسي (الأرثوذكسي) في عصر القيصرية ثم في عصر البلاشفة . وقد تحكمت في السياسة الاستيطانية عند الروس والبلاشفة عدة عوامل متداخلة :

- ١ - المسألة اليهودية ، ومحاولة دمج اليهود ثقافياً واقتصادياً .
 - ٢ - المشكلة السكانية في روسيا باعتبارها دولة مترامية الأطراف .
 - ٣ - محاولة الدولة الروسية ترويض المناطق التي ضمتها من الدولة العثمانية وغيرها من المناطق ، وخلق كثافة سكانية روسية فيها (وهنا كان اليهود يُعدّون جماعة وظيفية استيطانية روسية) .
- وفي محاولة دمج الجماعة اليهودية ، كان التصور السائد أن المسألة اليهودية يمكن حلها ، أو التخفيف من حدتها ، بتحويل اليهود إلى جماعة وظيفية استيطانية تُنقل إلى أماكن مختلفة فتستفيد الدولة الروسية بتعمير الأراضي وتخلص في الوقت نفسه من الفائض اليهودي (وهذا هو المنهج الغربي الصهيوني نفسه ، أي حل المسألة اليهودية لدول أوروبا عن طريق نقل اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها ، وبذا تصبح فلسطين قاعدة للغرب) .

وفي الفترة بين عامي ١٨٠٧ و ١٨٠٨ ، خصّص القيصر بعض أراضيه لتوطين بعض أعضاء الجماعة اليهودية فيها لتحويلهم إلى عنصر نافع ، ولدمجهم في المجتمع . وبعد ضم الخانات التركية حول البحر الأسود ، سُمّيت المنطقة المحتلة باسم «روسيا الجديدة» ، وتم تشجيع اليهود على الاستيطان فيها بهدف تعميرها وتأكيد الوجود السكاني الروسي فيها . وقد استمر البلاشفة في الاتجاه الاستعماري الاستيطاني نفسه والذي يرمي إلى حل المسألة اليهودية وتعمير المناطق التي تم ضمها في آن واحد . وفي إطار هذا ، تم توطين اليهود في بيروبيجان ، وجري التفكير في توطينهم في القرم . ويجب أن نشير هنا إلى أن كثيراً من اليهود الموجودين في الجمهوريات السوفيتية (غير الروسية) السابقة ، مثل جورجيا وأوزبكستان وبخارى وليتوانيا ولااتفيا ، يوجدون فيها في إطار الاستعمار الاستيطاني الروسي السوفيتي الذي كان يرمي إلى خلق كثافة سكانية روسية .

ولكن النشاط الاستيطاني الأكبر ليهود اليديشية كان داخل التشكيل الاستيطاني الأنجلو ساكسوني (البروتستانتى) ، فاتجه ملايين اليهود إلى جنوب أفريقيا وكندا ونيوزيلندا وأستراليا وهونغ كونج ، واتجهت غالبيتهم (٨٥٪) إلى الولايات المتحدة أهم التجارب الاستيطانية الغربية . وقد يُثار هنا سؤال : بأي معنى يمكن استخدام

مانها معها . وقد كان ضمن نشاطاتهم الأساسية تجارة العبيد . وفي تلك الآونة ، أزيلت كل القيود عن الجماعة اليهودية . وفي عام ١٦٩٣ ، رحلت مجموعة من اليهود إلى الولايات المتحدة ، فكانت أول جماعة يهودية تستوطن فيها .

ولكن سورينام كانت أهم التجارب الاستيطانية الأولى ، وقد بدأ وصول اليهود إليها عام ١٦٣٩ من هولندا ثم من إنجلترا عام ١٦٥٢ ، فكُفّلت لهم كل الحريات والمزايا ، ومُنح اليهود الجنسية الإنجليزية . وبعد أن ضم الهولنديون سورينام مرة أخرى ، عام ١٦٦٧ ، حاول بعض اليهود عام ١٦٧٤ الرحيل مع الرعايا البريطانيين ، ولكن الهولنديين أرغموهم على البقاء فيها باعتبارهم جماعة استيطانية نافعة . وقد تركز اليهود فيما يُسمى «يودين سافان» ، أي «سافاناه اليهود» ، وأسسوا مستوطنة يهودية في برزديتس أيلاند عام ١٦٧٠ كانت تتمتع بما يشبه الاستقلال الكامل (ومن ثم فهي أول دولة أو شبه دولة يهودية استيطانية قتالية في العصر الحديث) . وكان اقتصاد المستعمرة يعتمد على العبيد الذين راحوا يشقون الطرق ويزيلون الغابات والأعشاب ، حتى أقاموا مدينة جديدة محاطة بالطرق . وقد بلغ عدد سكان المستعمرة عشرة آلاف نسمة عام ١٧١٩ ، غالبيتهم الساحقة من العبيد بطبيعة الحال . وكان العبيد المُستجلبون من أفريقيا يهربون ويلجأون إلى الأحرار ويختلطون بسكان الجزيرة الأصليين ، فيضطر سكان المستوطنة إلى استجلاب المزيد من العبيد من أفريقيا ، ولكنهم كانوا يهربون بدورهم وينضمون إلى السكان الأصليين . ثم بدأ تحالف من جماعات العبيد الأفارقة والسكان الأصليين في شن هجمات على المستوطنة في الفترة من ١٦٩٢ - ١٧٧٤ ، وكوّن المستوطنون البيض ميليشيات عسكرية وجردوا الحملات ضد الثوار (تماماً كما تفعل الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين) ، ولكن الإرهاق من الحرب وانتشار الأمراض أدّى إلى انتصار تحالف السود السكان الأصليين وإلى سقوط أول دولة يهودية في العصر الحديث .

كما استوطن اليهود معظم بلاد أمريكا اللاتينية ، خصوصاً الأرجنتين التي وطّن فيها المليونير هيرش آلاف اليهود ، فيما يُعدّ أهم تجربة استيطانية زراعية في العصر الحديث بخلاف تجربة إسرائيل . ويلاحظ أن هذه النشاطات الاستيطانية تدور إما في إطار الاستعمار الهولندي (البروتستانتى) أو الاستعمار الإسباني وانبيرتغالي (الكاثوليكي) . والمادة البشرية الأساسية هنا هي يهود السفارد (المارانو) . ولكن المادة الاستيطانية الحقيقية كان مصدرها يهود اليديشية (الإشكناز في روسيا وبولندا في شرق أوروبا) الذين

عن أصولهم العرقية والحضارية . وقد تم هذا من خلال عدة قنوات :
١ - منح الجنسيات الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها لأعضاء الجماعة اليهودية .

٢ - فرنسة يهود العالم الغربي من خلال مدارس الألبانس .

٣ - هجرة عناصر يهودية غربية إلى العالم العربي تولت قيادة الجماعات اليهودية في العالم العربي .

ومع انتصاف القرن العشرين ، وظهور الدولة الصهيونية ، تم تحويل الغالبية العظمى من يهود العالم العربي إلى مادة استيطانية لاجذور لها في المنطقة وعلى استعداد لأن تُنقل إلى أي مكان وأن تُوظف لصالح من يقوم بعمليات النقل والتوظيف والتمويل .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن أعداداً كبيرة من المستوطنين الفرنسيين في الجزائر كانوا يهوداً أتوا من فرنسا أو تم تجنيدهم من بين صفوف اليهود المحليين الذين كان يتم فرنستهم ، كما كانت الفرق الأجنبية (الفرنسية) تضم أعداداً كبيرة من اليهود .

ونحن نرى أن من الأفضل تفسيرياً أن ننظر إلى الدولة الصهيونية لا باعتبارها دولة عادية لها غطاء إنتاجي مما هو معروف (إقطاعي-رأسمالي... إلخ) وإنما باعتبارها دولة وظيفية ، فهي إعادة إنتاج لنمط الجماعة الوظيفية الاستيطانية القتالية على هيئة دولة . وقد تم توقيع عقد بالفور بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية العالمية والذي جرى بمقتضاه نقل من يرغب من اليهود إلى فلسطين ليصبح عنصراً استيطانياً قتالياً يدافع عن المصالح الغربية نظير مستوى معيشي مرتفع . وهذا هو غرض القتال نظير المال . ولذا ، فإن إسرائيل ، بالنسبة للراعي الإمبريالي الجديد (الذي حل محل البطالة والسلوقيين والرومان والنبلاء البولنديين [شلاختا]) ، هي أساساً ، وظيفة تُؤدَّى ودور يُلعب .

ولم يُطلق مصطلح «مرتزة» على الصهاينة لأن هذا المصطلح لا يترك انطباعاً طيباً في النفس البشرية . ولذا يُطلق الصهاينة على أنفسهم اسم «حالتوسيم» ، أي «المنخرطون في السلك العسكري في مقدمة الصفوف» ، ومن هنا تأتي ترجمتها بكلمة «الرواد» . ويُشار إلى إسرائيل بأنها قلعة على حدود أوروبا في الشرق وحسن ضد الهمجية الشرقية . ومن المعروف أن المرتزة ، في العصور الحديثة ، كانوا يوضعون دائماً في مقدمة الصفوف ، أي على الحدود الأمامية ، كما حدث على سبيل المثال عام ١٩٥٦ عند إنزال القوات البريطانية أثناء العدوان على مصر ، حيث أُنزل الأفارقة والهنود في بداية الأمر باعتبارهم مادة بشرية رخيصة ، ثم أُنزلت المادة البشرية البريطانية الثمينة فيما بعد . وهذا هو وضع الدولة الصهيونية ، والرواد

اصطلاح «جماعة وظيفية استيطانية» في حالة المهاجرين اليهود ، مع أنهم كانوا ضمن جماعات أخرى من المهاجرين الغربيين الذين هاجروا بكامل حريتهم ، علماً بأن الولايات المتحدة لم تعد دولة استيطانية بعد إعلان استقلالها ؟ وسنقر ابتداءً بأن استخدام المصطلح في هذا السياق فيه شيء من التجاوز وقدر من المجاز ، ومع هذا يمكن أن نشير إلى مايلي :

١ - لم تفقد الولايات المتحدة طابعها الاستيطاني إلا مع بداية القرن العشرين ، بل إن عملية طرد السكان الأصليين وإبادتهم لم تبدأ إلا عام ١٨٣٠ . وقد ضمت الولايات المتحدة أراضي شاسعة من المكسيك وغيرها بعد ذلك التاريخ ، وهي أراض احتاجت إلى مستوطنين . كما أن رعاة البقر (أو الكاوبوي) في الغرب الأمريكي ظلوا ملمحاً أساسياً في الحضارة الأمريكية ، ورعاة البقر هم الرواد (حالتوسيم) الأمريكيون البيض .

٢ - لم يكن اليهود أحراراً تماماً في عملية الهجرة ، فقد صنفهم أوروبا باعتبارهم فائضاً بشرياً مبنوذاً .

٣ - كانت الولايات المتحدة تسمح لليهود البشدنية بالهجرة إليها والاستيطان فيها بقدر حاجتها إليهم ، وبما يتفق مع أمنها القومي .

ويجب ملاحظة أن الدول الاستيطانية التي استقرت فيها غالبية اليهود ، بدأت تفقد طابعها الاستيطاني وتتحول إلى دول مستقرة ذات بنية سكانية ثابتة واضحة . ومع اختفاء السكان الأصليين ، تلجأ هذه المجتمعات إلى الحصول على المادة البشرية بطرق قانونية (عن طريق الهجرة) ، وتقوم بدمج وصهر العناصر الوافدة . كما أنها دول ذات مستوى اقتصادي متقدم استوعب أعضاء الجماعات اليهودية فيه دون تمييز أو قيود ، وهي مجتمعات ذات أصول بروتستانتية وصلت إلى درجة عالية من العلمنة والتعاقدية . لكل هذا ، فهي مجتمعات لا تحتاج إلى أي متعاقدين غرباء أو جماعة وظيفية تجارية أو زراعية أو استيطانية أو قتالية ، إذ يتم تجنيد العاملين (والخبراء والمقاتلين) من داخل المجتمع ذاته . ولعل هذا يُفسر سر اختفاء اليهود باختفاء الوظيفة التي كانت سبباً من أسباب استمراهم .

من كل ما تقدم يتبين مدى ارتباط الجماعات اليهودية في العالم (الغربي بالذات) بالاستيطان والقتال . ويمكن أن نشير هنا إلى ظاهرة أخرى وهي أن العالم العربي بدأ ، منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، في تحويل اليهود المستعربة ، أي يهود العالم العربي المحليين ، إلى جماعة وظيفية استيطانية تدن له بالولاء بغض النظر

كما أنه لا يصدر رأسه بالحديث عن القيم أو المطلقات أو الهويات ، ولا يكن احتراماً للآخر لأنه لا يكن احتراماً لذاته ، وهو في النهاية عنصر حركي طرح عن نفسه تراثه وقيمه ونزع نفسه من وطنه ليستوطن أرض الآخرين . وعلى هذا ، فإن هدف العمليات القتالية والاستيطانية والمالية واحد في كل هذه الحالات ، ضمان تدفق خيرات هذه الأرض لقوى خارجها .

وقد لوحظ أن أعداداً كبيرة من الإسرائيليين تعمل مرتزقة في بعض دول العالم الثالث . وتشير بعض التقديرات إلى أن أكثر من ٢٠٠٠ فرد من الجيش الإسرائيلي عملوا كمرتزقة ومدربين في أفريقيا على مدى الأعوام الثلاثين الماضية بدءاً بالطيارين في أوغندا وانتهاءً بالمظليين في زائير . وتوجد شركات خاصة (مثل شركة ليفدان) يديرها جنرالات سابقون ويشغل صفوفها أفراد سُرحوا حديثاً من الجيش الإسرائيلي . ويتلقى المرتزق الإسرائيلي مبلغ ٢٥٠٠ دولار علاوة على بدلات أخرى . وقد صرح مسئول من الشركة بأن ما تفعله هذه الشركة لا يختلف عما كانت تفعله الحكومة الإسرائيلية لسنوات طويلة .

جماعة يهودية وظيفية تجارية

Jewish Trading Functional Group

«الجماعة الوظيفية التجارية» هي الجماعة التي يضطلع أفرادها بالتجارة والنشاطات التجارية . وقد ارتبط أعضاء الجماعات اليهودية بمهنة التجارة في كثير من المجتمعات الإنسانية . ويُفسر أعداء اليهود هذه الظاهرة بصيغهم اللفظية الجاهزة ، مثل : « الطبيعة اليهودية الخاصة » أو « خصوصية الشخصية اليهودية » أو « النزوع الأزلي عند اليهود نحو استغلال الآخرين » . وهناك أيضاً التفسير الصهيوني الذي لا يقل تهافتاً عن الصيغ السابقة ، وهو « أن المجتمعات التي عاش فيها اليهود فرضت عليهم مهنة التجارة ثم الربا فرضاً ومنعتهم من الاشتغال بالزراعة أو ملكية الأراضي الزراعية » . وهكذا ، فبينما يرى التفسير الأول (المعادي لليهود) أن الأغيار ضحية عنف اليهود ، يرى التفسير الصهيوني أن اليهود هم ضحية عنف الأغيار . وهذه الأقوال السابقة كلها لا قيمة لها من الناحية التفسيرية ، ولولا شيوعها لما كلفنا أنفسنا عبء ذكرها أو الرد عليها . ولكن ، بدلاً من استخدام النماذج التفسيرية العنصرية الجاهزة التي تختزل التفاصيل وتعفي الإنسان من مشقة التفكير والتمحيص ، يمكننا أن نستقري أحداث التاريخ المتعين وبعض تفاصيله الدالة لنصوغ منها نماذج أكثر تركيبية وتفسيرية . لقد ورد ذكر العبرانيين

الصهيانية ، حيث يوضعون في المقدمة ، فهم الشعب المختار للاستيطان والقتال .

ولا يُنظر إلى الدولة الصهيونية إلا من منظور مدى نفعها : فهي تارة ثروة إستراتيجية ، وهي تارة أخرى حاملة طائرات وحارس للمصالح الغربية . ولكنها ، في جميع الأحوال ، أداة ووسيلة وحسب لا غاية أو هدف . وتتمس الدولة الصهيونية الوظيفية أيضاً بالعزلة عما حولها حتى يتسنى لها الاضطلاع بوظيفتها بكفاءة .

وبعد أن ضمت إسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة ، تبلورت الأمور تماماً . وأدرك المستوطنون الصهيانية هويتهم كجماعة وظيفية استيطانية قتالية . وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته في فكر جماعة جوش إيمونييم التي ترى أن الاستيطان والقتال عبء مقدس ملقى على عاتق الشعب المختار ، وأن على اليهودي أن يقبل مصيره الإلهي إذ لا خيار له .

ويمكننا أن نقول إن الدور الذي تلعبه الدولة الصهيونية ، والوظيفة التي تضطلع بها ، هما السلعة الأساسية التي تنتجها ، وهما مصدر دخلها الثابت . ولذا ، يمكننا الحديث عن هذا الدور باعتباره إحدى علاقات الإنتاج مع الإمبريالية (وعلاقات الفئك مع الشعب الفلسطيني المُستهدف) . وقد سمينا المستوطنين الصهيانية «الممالك الاستيطانية القتالية» تمييزاً لهم عن «الممالك المالية» وهم الجماعات اليهودية الوظيفية المالية . ونحن نرى أن هذا النموذج التحليلي أكثر تفسيرية لأنه يفسر كثيراً من جوانب الاقتصاد الإسرائيلي والسياسة الخارجية الإسرائيلية . ومع هذا ، فإننا نذهب إلى أن دور الدولة الوظيفية الصهيونية سيتغير ، مع ظهور النظام العالمي الجديد ، حيث سيتراجع دورها القتالي (المرتبط بوضعها الاستيطاني) وستتحول «الممالك الاستيطانية القتالية» إلى «الممالك المالية» مرة أخرى ، وسيحل رأس المال العالمي محل السيف والمدفع ورأس المال الربوي ، وسيحمل الجنرال الإسرائيلي السابق السامسونيات بدلاً من المدفع الرشاش ، وسيحضر بالطيران المدني المكيف بدلاً من الطيران العسكري وبالليموزين بدلاً من الدبابة ، ولن يطرنا بالصواريخ والنابال ، كما كان يفعل حتى عهد قريب ، وإنما بقنود الصفقات التجارية المريبة والرشاوى الخفية التي تفسد العبادة وتفسد البلاد .

وكما قال شمعون بيريز : « الشعب اليهودي لا يهدف إلى السيطرة وإنما يهدف إلى البيع والشراء » ، أي أن الجنرال أصبح إنساناً اقتصادياً يمثل شعباً مختاراً لعمليات البيع والشراء والأعمال المالية . ومثل هذا الإنسان لا يحب ولا يكره فهو يبحث عن الربح ،

ذلك الوقت . وقد تحولت الجماعة اليهودية في بابل إلى جماعة وظيفية وسيطة ، وأصبح هذا هو النموذج السائد مع ازدياد انتشار الجماعات اليهودية في العالم القديم خارج فلسطين ، إذ ظهرت جماعات يهودية وسيطة في أرجاء الدولة الفارسية وفي الإسكندرية وروما وفي أنحاء أخرى من العالم القديم . لكن هذا لا يعني أن جميع اليهود ، في جميع أنحاء العالم ، كانوا يعملون بالتجارة منذ التهجير البابلي ، إذ أن من الثابت تاريخياً أن قطاعات كبيرة منهم ظلت تعمل بالزراعة في بابل وفي بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد تبلور تماماً هذا الاتجاه نحو العمل بالتجارة مع سقوط الدولة الرومانية وبداية العصور الوسطى في القرن الخامس الميلادي ، إذ تعرضت أوروبا بعد سقوط الإمبراطورية لهجمات القبائل البربرية ، مثل : الوندال والفرنجة والهنن والقوط والسكسون والنيوتون وغيرهم ، وهو ما أدى إلى تحول مركز الحياة ثانية من المدينة (التي كانت تمر بالمرحلة الأولى من غوها) إلى الريف . وأدى هذا بدوره إلى حدوث تراخ شديد في عملية تحول الاقتصاد من إنتاج طبيعي استهلاكي يستند إلى القيمة الاستيعابية إلى إنتاج بضاعي يستند إلى القيمة التبادلية . ونتيجة ذلك ، ظلت القارة الأوروبية كياناً استهلاكياً بصورة أساسية ، يُصدّر العبيد والنساء والنصبيان والغنم والسيف ويستورد الأقمشة والخشب والتوابل وغير ذلك من المنتجات التي تستهلكها بالدرجة الأولى طبقة الإقطاعيين والنبلاء . ونجم عن هذا استقطاب المجتمع الأوربي إلى طبقتين : طبقة السادة ملاك الأراضي وطبقة الفلاحين . وكانت أولاهما تحتكر التجارة ، أما الثانية فلم تكن قادرة على الاضطلاع بها لعدم توفر رأس المال أو الخبرة لديها . لكن النشاط التجاري لم يكن من الاتساع بحيث يستدعي ظهور طبقة تجارية محلية . وأدى هذا الوضع إلى اتساع الهوة بين الطبقتين ، ومن هنا كان من الطبيعي أن يضطلع بوظيفة التجارة جسم غريب مثل أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يقضون أمدان والموانئ مع التجار الفينيقيين . ويقول الأخاخام أجوس : « لقد ورثت المسيحية القانون الروماني المعادي للتجارة والنزاع ، بينما ورث اليهود المدن والحياة في المدينة وتقاليدها القانونية والحضارية » . وهذا قول يتسم بكثير من المبالغة ولكنه ، مع هذا ، يصف جانباً مهماً من الواقع .

وبعد الفتح الإسلامي وضم منطقة سوريا وفلسطين ، تبلور دور اليهود كتجار داخل التشكيل الحضاري الغربي بصورة نهائية . وبالتالي اختفى التجار الفينيقيون ، وفتح المجال على مصراعيه أمام اليهود ليصبحوا الجماعة الوظيفية الوسيطة الوحيدة تقريباً في

أول مرة في التاريخ المدون على أنهم بدور رجل يقومون بالرعي والتجارة . ولكن ، عند استقرارهم في أرض كنعان عملوا بالزراعة أساساً وظل نشاطهم التجاري محدوداً بل يكاد يكون متعدياً . ويُلاحظ أن لفظ «كنعاني» كان مرادفاً للفظ «تاجر» (هوشع ٨/١٢) وأشعيا ٨/٢٣ وأمثال ٣١/٢٤) . ولعل هذا يُفسّر خلو العهد القديم من الإشارة إلى التجارة باعتبارها نشاطاً اقتصادياً مهماً ، بعكس الإشارات الكثيرة إلى الزراعة والقوانين والطقوس والشعائر والأعياد المرتبطة بها . وإن كان ثمة رأي يذهب إلى أن هذا لا يعكس بالضرورة حالة المجتمع العبراني قبل قيام المملكة المتحدة وإنما يعكس ، في واقع الأمر ، الموقف السلبي الذي اتخذته كُتّاب العهد القديم المحافظون ضد التجار وشئون المال . ولكن بما له دلالة أن التلمود يضم كتاباً كاملاً يُسمى «زراعي» يتناول أمور الزراعة .

ومهما تكن حقيقة الأمر ، فقد تغير الوضع مع ظهور المملكة العبرانية المتحدة التي كانت تشكل وحدة سياسية كبيرة نوعاً ما ولها سلطة مركزية أكثر مما كان عليه الحال إبان عصر القضاة . فقد كانت دولة في حاجة إلى تمويل المشروعات المعمارية الكبرى مثل هيكل سليمان ، ووجدت أنه قد يكون من الممكن توفير الاعتمادات اللازمة من خلال النشاط التجاري . وبما شجع على هذا الاتجاه موقع فلسطين باعتبارها ممرأ رئيساً بين التشكيلين الحضاريين الأساسيين في الشرق الأدنى القديم (مصر وبلاد الرافدين) ، فضلاً عن وقوعها على واحد من أهم طرق التجارة في العالم القديم ، بحيث كان بإمكان من يحكمها أن يحقق أرباحاً كبيرة من خلال التجارة . وبالفعل ، قامت الدولة العبرانية بتطوير العلاقات التجارية مع مدينة صور إحدى أهم القوى التجارية الاقتصادية آنذاك . واشتركت الدولتان في إنشاء أسطول في عتسيون جابر ، ونشطت تجارة وصناعة التجميع ، فكانت المملكة تشتري العربات الحربية من مصر وتجمعها وتشتري الأحصنة من مصادر أخرى وتبيعها للملك سوريا من الحيشيين والآراميين . وقد تكون قصة ملكة سبأ وزيارتها لسليمان دليلاً على ازدهار التجارة الدولية للمملكة العبرانية المتحدة . وبما يجدر ذكره أن الدولة احتكرت هذه التجارة . أما التجارة الداخلية ، فيبدو أنها ظلت ضئيلة الشأن وبدائية تأخذ شكل المقايضة . ولم يتغير الوضع كثيراً بعد انقسام المملكة المتحدة إلى الملكتين الشمالية والجنوبية .

ولكن الصورة تبدأ في التغير قليلاً مع التهجير البابلي ، حيث اشتغل بالتجارة كثير من أعضاء الجماعة اليهودية المهجّرين ، خصوصاً أن الإمبراطورية البابلية كانت لديها تجارة دولية نشطة في

مثل : جمع الضرائب والعمل في بعض الصناعات ، أي أنهم أصبحوا جزءاً من الطبقة الحاكمة وأداة طيعة لها .

وقد يكون من المفيد هنا أن نذكر من افتراض وجود نموذج عام يُطبَّق بأسلوب واحد وعلى مستوى العالم الغربي من مرحلة زمنية إلى مرحلة زمنية أخرى . فالنموذج الذي طرحناه عام للغاية ويصلح إطاراً تصورياً متحرراً إلى حدٍّ ما من الزمان والمكان ، وذا قيمة تحليلية وحسب ، ويظل التطور التاريخي ذاته مختلفاً ومليناً بالتمرجحات والتواءات . ويمكننا أن نقول إن النموذج ينطبق إلى حدٍّ كبير على إنجلترا ، وبدرجة أقل على فرنسا حيث كان يوجد يهود يعملون بالزراعة . وفي ألمانيا ، استولى النبلاء على حق ملكية اليهود إذ أصدر تشارلز الرابع مرسوماً بذلك في عام ١٣٥٦ يسمح لهم بامتلاك وحماية اليهود . وكان هناك يهود يعملون بالحرف ، مثل الصباغة وصناعة الحرير والدباغة والصباغة ، خصوصاً في إسبانيا الإسلامية وإسبانيا المسيحية . ويختلف الوضع في إيطاليا من مقاطعة إلى أخرى ومن مرحلة زمنية إلى أخرى . ويمكن أن نضيف أن شرق أوروبا كان وثنياً حتى القرن العاشر الميلادي ، أي أنه ظل خارج هذا الإطار تماماً لفترة زمنية طويلة . وحينما انضوى تحت هذا الإطار ، فإنه ظل تشكياً اقتصادياً له خصوصيته ، ولعب اليهود داخله دوراً مغايراً بعض الشيء عن الدور الذي لعبوه في غرب أوروبا ووسطها .

وبعد كل هذه التحفظات ، يمكننا أن نبدأ في عرضنا التاريخي ، ونشير إلى أن اليهود أصبحوا - منذ القرن الخامس الميلادي - تجاراً دوليين ومحليين وازدادت أهميتهم مع الفتح الإسلامي . وقد أشار ابن خرداذبة إلى التجار الراذانية باعتبارهم تجاراً دوليين يمتد نشاطهم في كل أرجاء العالم القديم . وقد احتكر أعضاء الجماعات اليهودية معظم التجارة الدولية ، سواء في حوض البحر الأبيض المتوسط أو في الطريق البري الشمالي عبر القارة الأوروبية من خلال بلاد السلاف ، في الفترة بين عامي ٨٠٠ و ١٢٠٠ . وكانوا يقومون بتجارة الأنسجة والفراء والعقاقير والسلع الثمينة التي يأتون بها من الشرق والرقيق الذي يأتون به من بلاد السلاف التي اشتق اسمها من كلمة من لاتينية العصور الوسطى إسكلافوس «scelavus» أي «عبد» ، ومن هنا أيضاً تسميتهم «الصفالية» . ولهذا ، أصبح اليهودي المتجول معروفاً في كل مدينة وبلدة وفي كل سوق ومولد . وكانت الدول التي تريد إنعاش حركة التجارة فيها ترسل في طلب بعض اليهود وتوطنهم كي يقوموا بدور الوسيط وينشطوا الحركة التجارية التي يعجز المجتمع الزراعي بتنظيمه الجامد التقليدي عن القيام بها . ولهذا

الغرب . بل وأصبحت الجماعات اليهودية ، بانتشارها في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي العالمين الإسلامي والمسيحي ، تشكل أول نظام ائتماني عالمي يُسهِّل عملية انتقال التاجر من بلد إلى آخر ويُسرِّع عمليات التبادل التجاري وينظمها . وبذلك ، أصبح أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون الجسر التجاري والمالي بين العالمين الإسلامي والمسيحي مع بداية العصر الوسيط في الغرب ، ولعبوا دوراً خطيراً في التجارة الدولية بينهما . وما يجدر ذكره أن التجار من الدول والمحلية كانتا مرتبطتين تماماً ، إذ كان التاجر يحمل السلعة من بلد إلى آخر أو من سوق إلى آخر وبيعه بنفسه أو يبيعها لتاجر يهودي آخر مقيم في المدينة . ويُقال إن أعضاء النخبة الحاكمة في مملكة الحزَر كانوا يرغسون في تطوير التجارة بمملكتهم ، ومن ثم اعتنقوا اليهودية حتى يمكنهم التمتع بالسهولات الائتمانية التي يتمتع بها اليهود في شتاتهم ، أي انتشارهم .

ومن العناصر التي ساهمت في تحوُّل الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية ، علاقتها الخاصة بالزراعة في أوروبا إبان العصور الوسطى (انظر : «علاقة الجماعات اليهودية بالزراعة») . ولعلَّ العنصر الحاسم في عملية تحويل أعضاء الجماعة اليهودية إلى جماعة وظيفية وسيطة هو اكتمال ملامح النظام الإقطاعي ، فهو مجتمع يقوم على التفرقة بين الطبقات والجماعات ويحافظ على استقلال كل واحدة منها وعلى هويتها ، كما أنه مجتمع يستند إلى التضامن المسيحي . وقد كان على الفلاح أن يقسم بين الولاء الديني ، كما كان الملوك يحكمون بالحق الإلهي للملوك . ولهذا ، لم يُعد بإمكان اليهودي أن ينتمي إلى مثل هذا المجتمع بعد تبلور هويته المسيحية ، فلم يُعد بوسع اليهودي ، على سبيل المثال ، أن يؤدي الخدمة العسكرية أو يمتلك الأراضي أو يزرعها لأن كل هذا يتطلب عيِّن الولاء المسيحي . ولما كانت الزراعة والقتال هما الوظيفتان الأساسيتان في المجتمع الإقطاعي الغربي فقد تحوَّل اليهودي بالدرجة الأولى إلى غريب ، كما استبعد على المستوى الاقتصادي والديني والحضاري ، أي على جميع المستويات تقريباً . ولذا لم يكن أمام أعضاء الجماعات اليهودية سوى أن يملأوا الفراغات في المجتمع ويضطلعوا بالوظائف التي ليست من صميم بنيتهم . أي أنهم تحوَّلوا إلى وسطاء عليهم شراء المواثيق من الملوك والأمراء ، وتوثقت علاقتهم بالسلطة الدنيوية الحاكمة حتى أصبحوا أقتان بلاط يتبعون الناجح الملكي والخزانة الملكية ويؤمِّنون تحت حماية الملك ويشكلون ما يشبه الملكية الخاصة له ، يحققون له الأرباح عن طريق التجارة والقيام بنشاطات مالية وإدارية أخرى

ولكن حركات التطور داخل المجتمع الغربي ، التي جعلت اليهود يظلمون بدور التجارة الدولية والمحلية ، هي ذاتها التي جعلت استثمارهم فيها مستحيلاً . وبعد أن كان وضعهم القانوني مستقرًا ، بدأ هذا الوضع في الانهيار مع تضاؤل أهمية دورهم الاقتصادي . ويمكن أن نورد بعض الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع :

١ - سيطرت المدن الإيطالية في القرن العاشر الميلادي على التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط . وما عُدَّ الأمر بالنسبة للتجار اليهود ، عدم وجود الإمكانات المالية أو العسكرية الكافية لامتلاك الأساطيل البحرية ، وهو أمر كان متاحاً لمدينتي البندقية وجنوة اللتين كانتا تمتلكان أساطيل تجارية قوية وكانتا من أوائل المدن/الدول الأوروبية التي ظهرت فيها طبقة تجارية نشطة . وقد حاولت هاتان المدينتان قدر استطاعتهما أن توقفا التجارة اليهودية . وما عوض اليهود لبعض الوقت عن فقدانهم تجارة المتوسط بتشيط تجارهم من خلال الطريق البري الذي يمر عبر الدول السلافية ابتداءً من إسبانيا و انتهاءً بالبحر الأسود .

٢ - ساهمت حروب الفرنجة التي يُنْفَق عليها اسم «خروب الصليبية» ، وهي تعبير عن الإرهصات الأولى لولاة الرأسمالية الأوروبية ، في القضاء على كثير من مراكز التجمع التجاري اليهودي في أوروبا . وإلى جانب ذلك ، دعمت هذه الحروب العلاقات بين الدول الأوروبية المختلفة وبدأت تظهر شبكة علاقات بينها . كما أصبح الضيق إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وغيره من الطرق ، مفتوحاً بعد أن أخذ التجار المسيحيون يتحركون بسهولة خلف جنود حملات الفرنجة . وقد ظهرت شبكة طرق في القارة الأوروبية استخدمها التجار المسيحيون ، ولكنها لم تكن آمنة بالنسبة للتجار من أعضاء الجماعات اليهودية ، حتى أن السلطات سمحت للتجار اليهود بالظواهر بأنهم مسيحيون حتى يمكنهم الانتقال بسهولة والاستمرار في تجارتهم .

٣ - بدأت تظهر هياكل مركزية حكومية في بعض الدول الأوروبية مثل إنجلترا وفرنسا مع القرن الثالث عشر الميلادي ، وفي إسبانيا بعد ذلك التاريخ . وهذه الهياكل لم تجد في أعضاء الجماعات اليهودية - من حيث هم أقنان بلاط - فائدة كبرى ، ولذا طُرد اليهود في تلك المرحلة . ورغم عدم قيام سلطة مركزية في ألمانيا ، فإن وضع اليهود تخلخل تماماً هناك .

٤ - بدأت تظهر في أوروبا طبقة تجارية محلية بلغت شيئاً من القوة في القرن الحادي عشر الميلادي . وقد أخذت قوة هذه الطبقة في

السبب ، كان يُنص في المعاهدات أحياناً على تبادل اليهود . فقد اشترطت مدينة رافنا في معاهدة عُقدت مع البندقية في أواخر العصور الوسطى أن ترسل المدينة الأخيرة بعض اليهود ليقوموا بالأعمال المصرفية والتجارية فيها . كما كان الملوك يحاولون الحفاظ على اليهود ضمن اهتمامهم بالتجارة والحركة التجارية . وقد ارتبط أعضاء الجماعات اليهودية بالتجارة إلى درجة أن كلمة «تاجر» أصبحت مرادفة لكلمة «يهودي» تقريباً . ففي أحد الموائيق الألمانية الصادرة في القرن العاشر الميلادي (٩٦٥) ترد إشارة إلى «اليهود والتجار الآخرين» . غير أنه ينبغي التنبيه إلى أن التجارة التي اشتغل بها أعضاء الجماعات اليهودية تنسم بصفتين أساسيتين ، أولاهما أن التجارة اليهودية هي ما يعرف باسم «التجارة البدائية» ، وهي تجارة تختلف عن التجارة الحديثة من عدة وجوه . فالتجارة الحديثة هي جزء عضوي وأساسي من نظام المجتمع الرأسمالي والرأسمالية الرشيدة ، أما التجارة البدائية فتلعب دوراً ثانوياً وهامشياً في مجتمعات ما قبل الرأسمالية (العبودي والإقطاعي وغيرهما) ، حيث يتميز الإنتاج في هذه المجتمعات بأنه إنتاج لقيمة استعمالية وليست تبادلية ، أي أن الإنتاج كان موجهاً نحو إشباع حاجات المجتمع وحسب ، وإذا ما تَبَقَّى فائض من السلع بعد أن يستهلك المجتمع ما يريد ، يقوم التاجر البدائي بنقله من هذا المجتمع إلى مجتمع آخر . كما كانت تنشأ داخل مجتمعات ما قبل الرأسمالية ، حاجة إلى بعض السلع الكمالية مثل التوابل والذهب ، فكان التاجر البدائي يقوم بتوريدها وسد الحاجة التي تنشأ إليها . وبهذا المعنى ، يمكن اعتبار التجارة البدائية تجارة هامشية دون أن يضيء هذا الاعتبار إيجاباً سلبية ، فهي لا تلعب أي دور في حركة الإنتاج وإنما تظل على هامشها .

والصفة الثانية للتجارة اليهودية وثيقة الصلة بالأولى . فالتجارة اليهودية ، على خلاف التجارة التي تطورت بين المسيحيين ، كانت منذ البداية مرتبطة بالطبقة الحاكمة في المجتمع الإقطاعي ، حيث كان التاجر اليهودي (وكذلك المرابي اليهودي) ، كما أسلفنا ، ملكية للأمير أو الإمبراطور أو النبيل الإقطاعي ، وكان يقوم بالتجارة ليحقق أرباحاً لا تتحول إلى رأسمال مستثمر في المجتمع وإنما تصب في خزائن النبيل الإقطاعي من خلال الضرائب والإتاوات التي كان على اليهود دفعها . ومن هنا ، كانت التجارة اليهودية تعبيراً عن العلاقات القائمة في المجتمع الإقطاعي ولا تشكل نقيضاً لها على الإطلاق . ولعل هذا ما كان يعنيه ماركس حين أشار إلى وجود اليهود في مسام المجتمع الإقطاعي ، فهم فيه ولبسوا منه ، وهم هامشيون في وجودهم لا يشكلون أي تحدٍّ له .

قد يُصرُّ بمصالح كبار الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يُصدِّرون محاصيلهم إلى الغرب ويحتكرون التجارة في بعض السلع الحيوية . ومن ثم ، وجد النبلاء الإقطاعيون البولنديون في التجار اليهود ضالتهم المنشودة لأنهم أكثر العناصر بُعداً وغربة عن البيئة ، وبالتالي يمكنهم القيام بالنشاط التجاري والمالي والصناعي دون تشكيل أي خطر على انفتاح الاقتصاد الإقطاعي البولندي ، فأصبحوا أداة هذا الإقطاع . وقد ظهر في بولندا يهود الأرندا الذين لعبوا دوراً أساسياً في تصدير المحاصيل البولندية إلى أوروبا ، ولاسيما إبّان حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) .

وقد اضطلع يهود الأرندا بأنشطة مالية وصناعية أخرى مثل تحصيل الضرائب واحتكار تجارة الملح ، وساهموا بذلك في ملء خزائن النبلاء وفي ضرب البورجوازية المحلية .

وبعد سقوط التجارة اليهودية في غرب أوروبا ووسطها وانسحاب التجار اليهود منها ، ظهر عنصر جديد هو يهود إسبانيا والبرتغال من المارانو السفارد الذين طُردوا من شبه جزيرة أيبيريا مع نهاية القرن الخامس عشر وانتشروا في أوروبا والدولة العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي . وكان يهود المارانو يمتلكون الخبرات اللازمة ورأس المال اللازم للأعمال المالية الكبرى ، وهو ما جعلهم يمولون كثيراً من الشركات الاستعمارية الجديدة وعمليات الاستيطان والاستثمار في العالم الجديد . فاستقروا في البرازيل واشتركوا في تجارة السكر والريق والمنسوجات حيث استفادوا بعلاقاتهم بالحكومة البرتغالية التي كانت تملك مستعمرات في أفريقيا مثلت مصدراً جيداً للعبيد .

وشهد منتصف القرن السابع عشر الميلادي ذروة تطوُّر الدور الاقتصادي للجماعات اليهودية في أوروبا والعالم ، حيث اكتملت حلقة ما يمكن تسميته «التجارة الدولية اليهودية» ووصلت إلى قمته وأصبحت عالمية بشكل لم يسبق له مثيل . وكان يهود المارانو هم حلقة الوصل الأساسية في هذه التجارة ، فتركزوا في المدن الأوربية الكبرى ، خصوصاً في تلك البلاد التي تتبعها إمبراطوريات مثل هولندا وإنجلترا وإسبانيا والبرتغال ، حيث احتفظ المارانو بعلاقاتهم مع أقاربهم الذين لم يُطردوا من شبه جزيرة أيبيريا . وبذلك أصبحوا يلعبون دوراً أساسياً في تجارة الأطلسي والعالم الجديد . كما تركز المارانو في هامبورج وبوردو وبايون ، وظهر من بينهم (ومن صفوف الإشكناز) يهود البلاط الذين لعبوا دوراً أساسياً في تجارة الإمارات الألمانية ووسط أوروبا بشكل عام . وكانت تساعد هذا المركز الأوربي قاعدة ضخمة من صغار التجار اليهود وتجار العملة ، حيث كان يهود

انتعاشهم ، فبدأ التجار والحرفيون في تكوين نقابات تضمهم وتقوم بالضغط لصالحهم ، وتحاول طرد التاجر اليهودي المنافس الذي كان يحظى بالدعم من السلطة الإقطاعية . وبدأت المدن تكتسب شيئاً من القوة والاستقلال ، ووصلت حركة استقلالها إلى ذروتها مع القرن الثالث عشر الميلادي ، واستولى التجار من الطبقة الوسطى بصورة متزايدة على المجالس المدنية والحكومات المحلية .

ومما يجدر ذكره أن الرأسمالية الحديثة أو الرشيطة في الغرب وُلدت على يد هؤلاء التجار المسيحيين وداخل جدران هذه المدن المستقلة الجديدة لا بين صفوف أعضاء الجماعات اليهودية أو داخل الجيتو أو الشتل . حيث قام هؤلاء التجار بالاستثمار بعيد المدى في إنتاج سلعة ما وتخصصوا فيها وفي تصنيعها وتسويقها ، أي أن العملية الإنتاجية لم تُعد تهدف إلى إشباع الرغبات كما هو الحال داخل النظام الإقطاعي ، بل إلى إنتاج سلعة بهدف بيعها . وقد قام هؤلاء التجار المسيحيون بتضييق الحناق على التجار اليهود بدرجات متفاوتة من النجاح . وبدأت تسقط معازل التجارة اليهودية في غرب أوروبا ووسطها حتى اختفت التجارة اليهودية تماماً مع القرن السادس عشر الميلادي ، باستثناء بعض الجيوب في إيطاليا ووسط ألمانيا حيث تركز نشاطهم بالدرجة الأولى في الربا وأعمال الرهنونات ، وإن ظلوا يقومون بدور تجاري أيضاً .

وبالتدرج ، أخذ أعضاء الجماعات اليهودية في تحويل مدخراتهم إلى النوع السائل الذي يسهل حمله من بلد إلى بلد ، وتحول اليهودي إلى مبادلة النقد ثم إلى إقراضه بالفائدة العالية ، أي أنه وجد نفسه خارج النشاط الزراعي ثم خارج النشاط التجاري فتحوّل من تاجر إلى مراب ، وتحوّل اليهود ككل من جماعة وظيفية وسيطة تقوم بدور الوساطة بين طبقات المجتمع إلى جماعة وسيطة عميلة تقوم بدور الوساطة ولكنها في الوقت نفسه أداة في يد الطبقة الحاكمة أولاً وقبل كل شيء .

ولكن معدلات النمو لم تكن متساوية في أوروبا ، فلم تكن البنية الاقتصادية لشرق أوروبا تشبه البنية الاقتصادية لغربها مع بداية العصور الوسطى . ولذا ، رحبت النخبة الإقطاعية الحاكمة في بولندا وليتوانيا في أواخر القرن الثالث عشر بالعناصر التجارية ، مثل اليهود والأرمن والتجار الألمان ، لتطوير القطاع التجاري الدولي والمحلي فيها ، دون اللجوء إلى بورجوازية محلية لها جذور في المجتمع ولها قاعدة جماهيرية فيه قد تطالب بقدر من الاستقلال بعد أن يقوى ساعدها ، وقد تطالب بالمشاركة في صنع القرار وتُصرُّ على تبني سياسة تهدف إلى حماية الصناعة والتجارة المحلية ، الأمر الذي

تَصَبَّ أساساً في خزائن النبلاء ولم يكن اليهود سوى وسطاء فيها . ومنذ عام ١٨٨٠ ، ومع تدهور دورهم التجاري ، اشتغل بعض أعضاء الجماعات اليهودية بتجارة الرقيق الأبيض ، فكانوا يُصدِّرون الفتيات اليهوديات من منطقة الاستيطان عبر جاليسيا إلى العانم الجديد ، خصوصاً إلى الأرجنتين . وقد وصل نشاط تجار الرقيق الأبيض من اليهود إلى مصر والهند والصين أيضاً .

كما أدَّى التدني التدريجي لموضع أعضاء الجماعات اليهودية ، وتضييق الخناق عليهم ، إلى اشتغالهم بأنواع من التجارة غير المشروعة مثل تهريب السلع دون دفع جمارك عليها . وساعدهم في ذلك تَوْفُّر شبكة الاتصالات الضخمة لديهم ، وتحدُّثهم باللغة اليديشية التي لم يكن يفهمها سواهم . وكانت مثل هذه النشاطات مسئولة عن ظهور الصورة السلبية التي أشاعها عن اليهود المعادون لهم ، وعمموها بعد عزلها عن الظروف الاجتماعية التي أدَّت إلى ظهورها ، بحيث تحوَّلت هذه الصورة إلى نموذج يُعبِّر عن الطبيعة الأتلية لليهود ! وقد حاربت مختلف الحكومات بقايا التجارة اليهودية وعزلتها ، وحاولت دمج أعضاء الجماعات اليهودية عن طريق تحويلهم إلى عناصر اقتصادية منتجة ، إلى أن قضت الثورات الشيوعية والإبادة النازية لبعض يهود الغرب على البقية الباقية من التجارة اليهودية الشرعية وغير الشرعية .

ويُلاحَظ أنه لا يوجد أثر للتجارة اليهودية في الولايات المتحدة ، إذ أن اليهود هاجروا مع ملايين المهاجرين إلى مجتمع تجاري علماني نفعي يحكم على الأعضاء بمقدار مدى نفعهم ومدى إسهامهم الاقتصادي في مجتمعهم .

ومع هذا ، تركت التجارة اليهودية أثرها في يهود روسيا السوفيتية حيث تواجدت أعداد كبيرة منهم في قطاع تجارة التجزئة والسوق السوداء . أما في الولايات المتحدة ، فيظهر أثر الميراث الاقتصادي للمهاجرين اليهود في تَرَكُّز رأس المال اليهودي في الصناعات القريبة من المستهلكين ، مثل السينما والملابس ، وفي بُعدهم عن الصناعات الثقيلة التي تتطلب استثماراً بعيد المدى وتنطوي على مخاطر كبيرة . ولكن ميراث التجارة اليهودية أخذ في الزوال تماماً .

وقد ترك اشتغال يهود العالم الغربي بالتجارة والأعمال المالية أثره العميق فيهم ، إذ يُعَدُّ اشتغالهم بالتجارة سبباً في " استثمارهم " واحتفاظهم بنوع من الاستقلال العرقي والقومي ، وهذه سمة أساسية في الجماعات الوظيفية . والتجارة اليهودية التي تفتقر انعزال التاجر عن مجتمعه هي

الأرندة الإشكناز في بولندا ، الذين امتدت نشاطهم من بحر البلطيق إلى البحر الأسود ، يشكون أحد أجنحتهم المهمة . أما الجناح الآخر ، فتمثَّل في يهود الدولة العثمانية الذين تركزوا في موانئ البحر الأبيض المتوسط . بل وكان للمارانو - كما أشرنا - قاعدة في المغرب وفي المستعمرات البرتغالية في أفريقيا وفي المستعمرات الهولندية والإسبانية والبرتغالية والإنجليزية في العالم الجديد . وهكذا اكتملت هذه الحلقة التجارية الدولية الضخمة . ومع أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، بدأ يهود الإشكناز انتشارهم مرة أخرى في أنحاء العالم إلى أن أصبحوا أغلبية يهود العالم .

ويُلاحَظ أن عودة اليهود إلى دول غرب أوروبا ، في القرن السابع عشر الميلادي ، كانت عودة إلى دول لها مشروعاتها الرأسمالية الاستعمارية الضخمة المتكاملة . ولكن ، رغم أنهم كانوا يمثلون عنصراً تجارياً نشطاً ، إلا أنهم لم يشكّلوا عنصراً مستقلاً يمثل تجارة يهودية ملتصقة بالإقطاع ، بل أصبحوا تجاراً يدينون باليهودية ويشكون جزءاً من كلٍّ غربي لا يتحكمون فيه ولا يشكون فعالية مستقلة داخله ، حتى وإن تمتعوا بقدر من الاستقلال ، لأنه في النهاية قُدِّر صغير لا يؤثر على الاتجاه العام للرأسماليات التي يتنمون إليها . وقد ظلت التجارة اليهودية الهامشية قائمة في وسط أوروبا وشرقها بدرجة أكبر حتى عصر الإعتاق (في القرن الثامن عشر) ، فظهرت بروجوازيات محلية في ألمانيا ثم بولندا أخذت تزاخم التجار اليهود وتطردهم . وقد تدهور وضع التجار اليهود ، خصوصاً في بولندا بعد تقسيمها وبعد تدنّي وضع اليهود الاقتصادي فيها . ومن هنا ظهرت مسألة يهودية في كل من هذه البلاد .

وكان للتجارة اليهودية دائماً بُعد سلبي أو مظلم ، فقد كانت تجارة هامشية طفيلية " تعيش على تخلف المجتمع " على حد قول ماركس ، وتسلسل دائماً إلى الشقوق الناجمة عن التخلف ، وإلى الأطراف التي تحفُّ بها المخاطر ولا تجد من يعمل فيها ، ولذا نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية اشتغلوا بتجارات مشينة مثل : تجارة الرقيق والمشروبات الكحولية والرقيق الأبيض ، وهي جميعاً تجارات كريمة للنفس البشرية . فكانت تجارة المشروبات الكحولية في شرق أوروبا من النشاطات التجارية الأساسية بينهم ، وكانت مشكلة السكر مشكلة أساسية تواجه الفلاحين والأقنان في شرق أوروبا ، وهو ما زاد سخط الجماهير عليهم . كما أن احتكار أعضاء الجماعات اليهودية لبعض السلع الأساسية ، مثل الملح (لحساب النبلاء الإقطاعيين) ، جعلهم في حالة احتكاك وتوتر دائمين مع الفلاحين وكل عمالهم ، رغم أن أرباح تجارة الكحول والملح كانت

جنوب فرنسا ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أنهم أصلاً من العراق . وقد وصف ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك نشاطهم في المجال التجاري ، قائلاً [إنهم يتكلمون « العربية والفارسية والرومية [اليونانية] والإنجليزية [لغة الفرنجة أي الفرنسية القديمة] والأندلسية [الإسبانية] والصقلية [اللغات السلافية] » . وهم يسافرون من الغرب إلى الشرق براً أو بحراً ، من فرنسا إلى السند والهند والصين ثم يعودون حاملين من الصين المسك والعود والكافور . وهم في رحلتهم هذه يسلكون عدة طرق . يجلبون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف . وقد استمر نشاط التجار الرأسمالية حتى القرن التاسع الميلادي حين سيطرت المدن/ الدول الإيطالية على التجارة الدولية .

جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض)

Jewish Financial Functional Group (Usury
and Money Lending)

«الجماعة الوظيفية المالية» هي الجماعة التي يضطلع أعضاؤها بوظائف مالية مختلفة مثل الربا وجمع الضرائب . ويُفَرَّق علم الاقتصاد الحديث والمؤرخون الاقتصاديون في الغرب بين الربا والإقراض بفائدة . ففي الإطار الربوي يتم الإقراض لسد حاجة أو لدفع ضريبة أو جزية أو لبناء قصر أو كنيسة أو لتجديد حملة عسكرية . والقرض الربوي لا يصب في أية عملية إنتاجية ، كما أن سعر الفائدة يكون عالياً جداً وغير محدد ، وغالباً ما يُحدَّد في ضوء مدى حاجة المدين إلى القرض . أما الإقراض بفائدة ، فقد عُرِف بأنه إقراض مبلغ من المال بهدف استثماره في شراء البضائع أو في مشروع صناعي لتحقيق ربح ، والقرض هنا يصب في العملية الإنتاجية وعادة ما يتم تحديد نسبة فائدة معقولة . لكن هذه التفرقة لم تكن معروفة أو معمولاً بها في العصور القديمة حتى الثورة الصناعية في الغرب . ولذلك ، فسوف نستخدم مصطلح «الربا» للإشارة إلى عملية الإقراض بفائدة أيّاً كان الهدف وأياً كان سعر الفائدة ، خصوصاً وأن الإقراض اليهودي كان في معظمه ربوياً بالمعنى الاصطلاحي للكلمة . وقد ارتبطت صورة اليهودي بشخصية المراهب في العقل الغربي وعبر التاريخ الغربي ، وهي الصورة التي خلدها شكسبير بشخصية شيلوك في مسرحية تاجر البندقية . وقد فسر المعادون لليهودية اشتغال اليهود بالربا ، مثلما فسروا اشتغالهم بالتجارة ، على أنه جزء من طبيعتهم الأثرية ونزوعهم الأبدي نحو

الأساس الاقتصادي للجيتو وكثير من التصورات الدينية والفكرية التي يُقال لها «قومية» والتي تتحدث عن «الشعب اليهودي» و«الشعب المختار» الذي يُوجد على هامش التاريخ أو ربما خارجه ، شأنها شأن التاجر اليهودي .

والتجارة اليهودية مسئولة عن تحديد صورة اليهودي في أدبيات معاداة اليهود . فاليهودي يظهر على أنه التاجر والمموّل الشره والرجعي المحافظ في آن واحد . وربما يعود هذا إلى أن التجارة اليهودية نشاط شبه رأسمالي ولكنها تجارة مرتبطة بالنظام الإقطاعي ، ولذلك فهي شيء مُبْهَم يُصعّب تصنيفه . بل ويُقال إن الفلاحين كانوا ينظرون إلى التجارة اليهودية باعتبارها ضرباً من السحر ، نظراً لطبيعتها الهامشية والطفيلية . فالنبيل الإقطاعي والفلاح يعملان بالزراعة ، ولا غرابة إذا ظهرت ثمرة جهدهما ، لأنهما يقومان بجهد في تحويل مادة ما (الأرض) إلى شيء آخر (الثمرة) من خلال الجهد الإنساني ، أما اليهودي فكان لا يملك سوى رأسماله الذي يقوم بتحريكه (شراء السلع وبيعها) فيراكم الثروات دون جهد أو عمل دون أن ينتج شيئاً ملموساً وكأنه ساحر يخرج الأرنب من القبعة بتحريكها .

والفكر الصهيوني ذو بُعد تجاري واضح ، فهرتزل والصهاينة يتحدثون باستمرار وجدية عن شراء حائط المبكى بل وعن شراء فلسطين ذاتها . وانطلاقاً من التصور التجاري نفسه ، لا يزال الإسرائيليون يتحدثون عن دفع تعويضات للفلسطينيين نظير أن يبحثوا لأنفسهم عن وطن آخر ، كما تُقدّم الحركة الصهيونية ما يشبه الرشوة لليهود السوفييت ليهاجروا إلى الأرض المقدسة . وأخيراً ، فإننا نغفل إلى تسمية الدولة الصهيونية بالدولة الوظيفية ، فهي تلعب دوراً يشبه في كثير من النواحي دور التجارة اليهودية في أوروبا . كما أن الدولة الصهيونية هامشية ترتبط مصالحها بمصالح الإمبريالية الغربية مثل ارتباط التجار اليهود بالطبقات الحاكمة التي كانت تستخدمهم أداة لضرب القوى الوطنية المحلية .

الرأذانية

Radhanites

«الرأذانية» جماعة من التجار اليهود ، وورد اسمهم في صيغتين : الرأذانية عن ابن خرداذبه و الرادانية عند ابن فقيه . ويُقال إن الاسم مشتق من كلمة «ردن» الفارسية بمعنى «عرف الطريق» . وهناك من يذهب إلى أنه من الكلمة «رادنوس» اللاتينية (نهر الرون) . ويختلف الباحثون في أصلهم فيقول البعض إنهم من

بها بسبب ارتباطهم بأواصر قرابة أو صداقة أو جيرة تجعل دخولهم في علاقات موضوعية باردة محايدة أمراً عسيراً . ومن هنا كان من المنطقي أن يعمل أعضاء الجماعة اليهودية الوسيطة ، الذين يقومون بتمهنة التجارة ، بالربا حينما تضطروهم الظروف إلى تغيير وظيفتهم .

٢ - ولعل التنظيم الجامد للمجتمع الإقطاعي العربي لعب دوراً أساسياً في هذا التضرر . فلم يكن أمام التجار اليهودي الذي كانت تغلق أمامه فرص التجارة بدائل كثيرة مطروحة ، إذ لم يكن بمقدوره أن يعمل في الزراعة أو القتل أو في كثير من الحرف الأخرى ، خصوصاً بعد تشكيل نقابات الحرفيين التي كنت تُعد أكثر القطاعات عداء لليهود .

٣ - تُحرّم الكنيسة الربا على المسيحيين حيث صدرت عدة قرارات في هذا الشأن . وكان أولها قرار اتخذ في مجمع نيقيا في عام ٣٢٥ ثم في مجمع أوريان في عام ٥٣٨ . ولكن هذه القرارات كانت تُحرّم الربا على رجال الدين لا على جميع المسيحيين . إلى أن صدر قرار شارلمن عام ٧٨٩ . ووصل التحريم قمته في المجمع الثلاثي الثالث عام ١١٧٩ حيث شمل التحريم كل المسيحيين (١) إن الذين يجهررون بالربا لا يُقبلون في العشاء الرباني وإذا ماتوا وهم على إثمهم لا يُدفنون دفن المسيحيين . ونيس نفسه أن يقبل صلواتهم (٢) . أم اليهودية فلم تُحرّم . ولكنها حرمت إقراض اليهودي لأخيه اليهودي بالربا . فقد جاء في سفر الشريعة (١٩/٢٣ - ٢٠) : لا تقرض أخذك ربا فضة أو ربا شيء ، مما يُقرض برب للأجنبي . تقرض برب . ولكن لأخيك لا تقرض برب نكي يسارك الرب إنك في كل ما تشد يديه يذك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها (٣) . ومن المعروف أن الجماعات الوظيفية تبنى مقاييس أخلاقية مزدوجة ، مقاييس تنطبق على عضو الجماعة وأخرى تنطبق على أعضاء المجتمع المضيق . ومع هذا . يجب الإشارة إلى أن الفقه الديني اليهودي لم يتقبل بسهولة مسألة الإقراض بالربا . وقد قل رأسي في القرن الحادي عشر الميلادي : « إن كل من يقرض أجنبياً بفائدة سيهلك » .

وقد أصبح التحريم أقل حدة في القرن الحادي عشر الميلادي عندما أصدر أحد الأخوات فتوى مفدها أن اليهودي ينبغي عليه ألا يقرض الأغنياء بالربا ، حين يكون بوسعهم أن يكسب رزقهم بطريقة أخرى . كما أصدر الخاخام أليعازر بن ناتان (من ألمانيا) فتوى مماثلة جاء فيها : « حينما لا يملك اليهود حقولاً أو كروماً يمكنهم العيش من ريعها ، يصبح إقراض المال بالربا ضرورياً لكسب رزقهم ومسموحاً به » . وقد جاء في انشائه « بإمكان الإنسان أن يقرض

امتصاص دم الآخرين ، في حين فسره المؤرخون الصهاينة بأنه وظيفة فُرضت على اليهود فرضاً باعتبارهم ضحايا أوليين لذئاب الأغنياء . وليس لهذه التفسيرين أية علاقة بالواقع المتعين للجماعات اليهودية .

فقد كان العبرانيون ، حين ظهور لأول مرة في التاريخ ، بدواً رُحلاً لا يتعاملون بالنقد ، ولذا لم يكن هناك مجال للإقراض أو الاقتراض . ولم يكن اقتصاد المملكة العبرانية المتحدة متقدماً بما فيه الكفاية ليطالب السيولة النقدية اللازمة لعمليات الاستثمار أو حتى لشراء السلع الثمينة ، حيث كان الاقتصاد الداخلي بدائياً مبنياً على المقايضة والتبادل . أما الإنشاءات المعمارية التي قامت بها الدولة ، فتم تمويلها من خلال التجارة الدولية التي احتكرتها .

واشتغل العبرانيون المهجرون إلى بابل بالزراعة ، ولكن أعداداً منهم بدأت تقطن المدينة حيث اشتغلوا بالتجارة الدولية والمحلية ، وظهرت بيوتات مالية تجارية - مثل بيت موراشو - كانت تُقدم القروض نظير فوائد . ويبدو أن بعض يهود الإسكندرية اشتغلوا بأعمال الربا ، فيذكر يوسفوس أن كبير الموظفين (ألبارخ) الإسكندري أقرض الملك أجيريا مبلغاً من المال . ولكن حالة يهود الإسكندرية كانت الاستثناء وليست القاعدة ، ولذا لا نجد حتى القرن الرابع الميلادي أي هجوم على اليهود باعتبارهم مرابين .

ومع القرن السادس الميلادي ، بدأ اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا في الإمبراطورية الفرنجية . كما ظهر مرابون يهود في العالم الإسلامي ، ولكنهم لم يحتكروا هذه المهنة إذ اشتغل بها أعضاء الأقليات العرقية والدينية الأخرى كما اشتغل بها بعض أعضاء الأغلبية . ولم تتركز أغلبية اليهود في هذه المهنة بل كانوا يعملون في معظم الحرف والمهن الأخرى . وبدأ تركز أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي في مهنة الربا ابتداءً من القرن العاشر الميلادي . وفي محاولة تفسير هذه الظاهرة ، تُساق عدة أسباب ربما كان أهمها اضطراب اليهود إلى اعتزال التجارة الدولية والمحلية ، وظهور المدن/الدول الإيطالية ، وحروب الفرنجة ، وتشكيل نقابات الحرفيين . ومن ثم اضطرت اليهود إلى تحويل ممتلكاتهم إلى رأسمال سائل يسهل حمله ، وإلى الاشتغال بأعمال الصيرفة واستبدال العملة ثم الربا . وقد شجعت على هذه العملية عدة أسباب أخرى أهمها :

١ - كان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون جماعة وظيفية وسيطة في التشكيل الحضاري الغربي . والجماعة الوسيطة هي التي تضطلع بوظائف (مثل الاتجار والإقراض بالربا) لا يقبل أعضاء المجتمع القيام

واللومبارد في إيطاليا ، والكوهارسين في فرنسا . وبدوا أن الكنيسة الكاثوليكية ذاتها كانت متورطة في عمليات الإقراض بالربا وكانت تلتف حول التحريم الذي أصدرته بأن تقوم بإقراض المال المطلوب للمدين الذي يقدم كضمان قطعة أرض تقوم الكنيسة باستثمارها لحسابها وتستولى على ريعها الذي يشكل الفائدة إلى حين استرداد القرض الأصلي . كما ساندت الكنيسة كثيراً من جماعات المرابين . وقد منح البابا إنوسنت الرابع في عام ١٢٤٨ لقب «أبناء الكنيسة الرومانية المميزين» للمرابين المسيحيين . ومع هذا ، كان ارتباط كلمة «المرابي» بكلمة «اليهودي» من القرة حتى أن إحدى القصاصد الألمانية تشير إلى «اليهود المسيحيين» أي «المرابين المسيحيين» . وكانت كلمة «لومبارد» أيضاً مرادفة لكلمة «مرابي» ، ولذا يُوجد نص فرنسي (١٣١٥) يشير إلى «اللومبارد واليهود والمرابين الآخرين» .

وقد احتدمت المنافسة في بداية الأمر بين أعضاء الجماعات اليهودية من جهة ، واللومبارد والكوهارسين من جهة أخرى . فهؤلاء المرابون كانوا يشغلون المكانة نفسها ويضطلعون بالوظيفة نفسها ويتمتعون بالمزايأ نفسها وتنزل بهم الكوارث نفسها ، فقامت صراعات بينهم لهذا السبب . وحينما اضطرهد هنري الثالث ملك إنجلترا الكوهارسين في عام ١٢٥١ وزج ببعضهم في السجن (وفرّ البعض الآخر) ، عم الفرّح أعضاء الجماعة اليهودية . ولكن بعد عامين ، حينما قام لويس التاسع بطرد اليهود ، استولى الكوهارسين على بيوتهم وممتلكاتهم بحماس غير عادي .

وكانت الموائق تعامل أعضاء الجماعات اليهودية وغيرهم من المرابين على قدم المساواة ، وكانوا أحياناً يُطردون جميعاً كما حدث عام ١٤٢٧ في برن (سويسرا) .

ومع ذلك لم يبق المرابون اليهود على الاستمرار في المنافسة ، إذ تمّع المرابون المسيحيون بمساندة حكوماتهم التي كانوا يوفرون لها قدراً كبيراً من الأمن اللازم للعمليات المالية . ولكن الأهم من هذا أن جماعات اللومبارد أو الكوهارسين كانت لديهم شبكة اتصال ضخمة ، وكان بوسعهم تدبير قروض ضخمة لم يكن بمقدور اليهود تدبيرها . ومع تراجع الكنيسة باعتبارها أحد المنافسين ، وتأييدها اللومبارد وغيرهم ، ومع تزايد ابتزاز الأمراء لأقنان البلاط ، أي المرابين اليهود ، سقط الربا اليهودي مع نهاية العصور الوسطى ولم تعد لرأس المال اليهودي أهمية كبرى ، كما لم يعد هناك رأسمال يهودي ضخم عند وقوع الثورة التجارية .

وبينما كان المرابي اليهودي في البداية يُقرض الملوك والأباطرة ثم كبار النبلاء الإقطاعيين ، فإنه راح يُقرض صغار النبلاء والفرسان

ويقترض بربا من الكفار . ولكن وردت إلى جانب ذلك تحفظات بحيث لا تصبح المسألة مطلقة ، فأورد التلمود اقتباساً من المزمور ١٥ الذي جاء فيه « فضته لا يعطيها بالربا » ، كما جاء في سفر الأمثال (٨/٢٨) ما يبيّن أن الإقراض بالربا ليس مُحَرَّمًا ولكنه مع هذا مكروه ، ثم ذُكر أن الإقراض بالربا مباح إذا كانت الفائدة ضرورية لحياة الإنسان وليس الهدف منها الحصول على الثروة والترّف .

٤ - ترائنت عملية تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية عن التجارة مع ظهور حاجة ماسة إلى المال السائل اللازم لتجريد حملات حروب الفرّجة ولبناء الكاتدرائيات والكنائس . بل وبدأت تظهر في أوروبا ، بسبب التحولات الاقتصادية العميقة التي كانت تخوضها آنذاك ، حاجة ماسة إلى اقترض النقود ، لا لسد الحاجة الشخصية وإنما للاستثمار التجاري ، أي أن عملية الاقتراض بدأت تصبح مسألة أساسية للنظام الاقتصادي .

وفي القرن الحادي عشر الميلادي ، تصاعدت وتيرة تحوّل أعضاء الجماعات اليهودية عن التجارة واشتغالهم بالربا . وبعد عدة عقود ، كان معظم السكان في أوروبا المسيحية ، في غربها ووسطها ، مدينين لليهود الذين أصبحوا مالكيين لقرى ومدن بل بعض الأماكن المسيحية المقدّسة مثل الأضرحة والمزارات . وقد احتكر اليهود عملية الإقراض نظير فائدة عالية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين ، وأصبح الربا هو مصدر حياة معظم يهود أوروبا . وأصبحت كلمتا «مرابي» و«يهودي» مترادفتين مع نهاية القرن الثالث عشر الميلادي .

وقد مارس المرابون اليهود نشاطهم في إنجلترا مع بداية القرن الحادي عشر الميلادي حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . أما في فرنسا ، فقد مارسوا نشاطهم في فترات مختلفة من نهاية القرن الثاني عشر الميلادي حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي . واكتسب أعضاء الجماعات اليهودية أهميتهم في ألمانيا ، بوصفهم مرابين ، من القرن الثالث عشر الميلادي حتى القرن الخامس عشر الميلادي . ثم امتد نشاطهم بعد ذلك إلى بولندا واستمر حتى القرن التاسع عشر الميلادي . وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن كل أعضاء الجماعات اليهودية تحولوا عن التجارة ، إذ ظل هناك يهود يعملون بها حتى القرن الخامس عشر الميلادي بل وحتى بعد ذلك التاريخ ، خصوصاً في الدول السلافية . كما أن من المعروف أن التجارة اليهودية وصلت قمة ازدهارها في القرن السابع عشر الميلادي أيام يهود البلاط .

وقد كُسر احتكار أعضاء الجماعات اليهودية للربا مع ظهور جماعات من المرابين المسيحيين مثل جماعات فرسان المعبد الألمانية ،

هامشية غير متجدة . فالمرابي يرغب أهميته لا يلعب دوراً متعدياً واضحاً في العملية الإنتاجية ، إذ إن أساس فائض القيمة في النظام الإقطاعي هو نمط الإنتاج الإقطاعي ذاته الذي ينتج قيمة استهلاكية وحسب دون الاهتمام بالقيمة التبادلية . وكان الأمير الإقطاعي والفلاح يشتركان في الإنتاج ، أما المرابي فيظل خارج العملية أو على هامشها . ومن هنا ، فإن الإقراض الريوي ، شأنه شأن التجارة البدائية ، لا يلعب دوراً في العملية الإنتاجية لأنه إقراض من أجل الاستهلاك أو نشاطات أخرى تقع خارج نطاق العملية الإنتاجية ، على عكس الإقراض الرأسماني الذي يُوظف في العملية الإنتاجية ذاتها . بل إن الإقراض هو أحد أسس عملية الإنتاج الرأسماني .

ولا شك في أن هذه الهامشية جعلت عناصر المجتمع تنظر إلى اليهودي على أنه شخصية طفيلية لا تبذل ولا تتج ، ولكنها تستولي على عائد الإنتاج . بل كان البعض يرون أن الربا ، مثله مثل التجارة البدائية ، يُعد شكلاً من أشكال السحر ، إذ يتبع المرابي الثروة عن طريق تحريك أمواله لا عن طريق أي جهد إبداعي معين .

لكن المرابي اليهودي لم يكن سوى أداة في عملية اقتصادية ضخمة إذ كان يُعد من أقدار البلاط . أي ملكية خاصة للملك يبيعهم متى شاء . وكانت أموال المرابي تنزل إلى الملك من الناحية القانونية . ولكنه كان

من الناحية الفعلية يتركها لأولاد المرابي حتى يستمروا في وظيفتهم . وكان الأمير أو الملك يبيع ليهود الموائيق التي تعميمهم ، ويحدد حقوقهم وتؤكد لها ، وتضمن لهم الأمن اللازم للاستمرار في العمليات المالية . وهذه حقوق لم يكن يتمتع بتبناها سكان المدن أو عامة الشعب . وكانت عملية بيع الموائيق هذه تضمن أن تصب ثمرة العملية الربوية بأسرها في خزانة الملك الذي كان يُسمى «شيخ المرابين» . أما اليهود فلم يكونوا سوى الوسيط الذي يلعب دور الإسفنج ، فهم يمتصون ثروة الشعب التي يعتصرها الحاكم فيما بعد عن طريق منح الموائيق لأعضاء الجماعة اليهودية وفرض الضرائب عليهم . وقد كان اليهود أكبر مصدر دخل للملك في إنجلترا ، حيث كانوا يشكلون حوالي ١٢٪ من كل مصادر دخله . وفي بعض الإمارات المسيحية ، في إسبانيا مثلاً ، كانوا يشكلون نسبة أكبر من ذلك .

وقد اضطر أعضاء الجماعات اليهودية إلى الاعتماد الكامل على الملك أو الأمير الإقطاعي حمايتهم من غضب الجماهير وقتلها ، وكان هو بدوره يفضلهم في مرحلة من المراحل على غيرهم من المرابين نظراً لمعجزهم وانفصالهم عن المجتمع ولعدم وجود قاعدة بشرية تدعمهم وتساندهم ، وهو ما جعل منهم جماعة وظيفية

ثم بعد ذلك الحرفيين والفلاحين والفقراء . وبدلاً من وجوده بجوار الطبقة الحاكمة ، انسحب إلى الهامش حيث لم يُعد اليهود يشكلون الجماعة الوظيفية الوسيطة الوحيدة . وهبط اليهودي من مرتبة الصيرفي إلى المرابي الذي يُقرض مبالغ صغيرة لمدة قصيرة بفائدة عالية وبضمان رهونات بسيطة مثل درع أو قطعة حلي أو بعض الملابس . ولعل ما حدث في مدينة ريجنزبرج في ألمانيا مثل جيد على هذا التدهور التدريجي التاريخي ، فحتى عام ١٢٥٠ كانت بلدية المدينة هي أهم مدين لليهود ، وحتى عام ١٤٠٠ كان أهم المدينين هم النبلاء ورجال الدين . أما بعد ذلك التاريخ ، فقد احتل الفرسان ومواطنو المدن والحرفيون هذا المكان . وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، كان القرويون في جنوب فرنسا يُشكلون ٦٥٪ من المقترضين حيث اقترضوا ٤٣٪ من المبالغ ، وكان سكان المدينة يشكلون ٣٠٪ من عملاء المرابين اليهود حيث اقترضوا ٤١٪ ، وكان الفرسان والنبلاء يمثلون ٢٪ واقترضوا ٩٪ ، ورجال الدين ١٪ واقترضوا ٥٪ . ولم يكن النمط مختلفاً في إنجلترا ، حيث تخصص المرابي اليهودي في إقراض الطبقات الفقيرة التي يقتض أعضاءها أموالاً ثم يجدون بعد ذلك في الغالب صعوبة بالغة في تسديد الديون .

وقد امتد نشاط المرابي اليهودي إلى بني جلده على عكس تصورات المعادين لليهود . ولكن الإقراض في هذه الحالة كان يأخذ شكلاً خاصاً حتى يتم التحايل على أشكال التحريمات الدينية الخاصة بعدم إقراض اليهودي بالربا . فكان المرابي يصبح شريكاً موصياً أو شريكاً يشترك بالمال لا بالعمل وينال نصيباً من الربح إذا كسبت التجارة ، ولا يخسر شيئاً من ماله إذا لم يربح ، وهذا هو ما تفعله بعض البنوك الإسرائيلية الآن لتتمكن من إقراض الإسرائيليين دون الإخلال بالقواعد الدينية .

وكان المرابي يلعب دوراً اقتصادياً أساسياً في المجتمع الغربي ، فإن أراد الأمير الإقطاعي تزويج ابنته أو تجريد حملة في حروب الفرنجة أو تعمير أرض جديدة ، أو أزمعت دار البلدية بناء كنيسة أو كاتدرائية ، أو واجه أعضاء الطبقات الفقيرة مصاعب شخصية فجائية ، في كل هذه الحالات كان المرابي هو الذي يزود المجتمع بالأموال السائلة التي يحتاج إليها والتي تضمن استمراره . وعلى سبيل المثال ، ساعد هارون (من لتكولن في إنجلترا) في القرن الثاني عشر الميلادي في بناء ما لا يقل عن تسع كاتدرائيات . كما موَّك المرابون اليهود بعض حملات حروب الفرنجة .

والربا اليهودي ، شأنه شأن التجارة اليهودية ، كان عملية

في اليهودي قوة مالية ضخمة تساند الملك في صراعه معهم ، كما أن المرابي اليهودي كان يعوق محاولتهم الاستيلاء على أراضي صغار البارونات الذين كان المرابي اليهودي يقرضهم فيحققون البقاء والاستمرار . وكان سكان المدن يرون في المرابي اليهودي غريباً لهم ، وأداة في يد الحاكم الإقطاعي يستخدمها لقمعهم ولإعاقة تطوّرهم ، خصوصاً أنه كان يتمتع بمزايا لا يتمتعون بها . ثم كان هناك عداوة الكنيسة لهم ، وهو عداوة له بطبيعة الحال جذوره الدينية العقائدية وإن كان قد اكتسب بعداً اقتصادياً أيضاً لأن الكنيسة كما أسلفنا كانت تقوم هي ذاتها بالإقراض وتساند جماعات من المرابين .

ومن أكبر مصادر الكراهية ، ارتفاع سعر الفائدة عن معدلها المفترض وهو ٥ ، ١٢٪ . لكن المرابي لم يكن يتمتع في العصور الوسطى بضمانات كافية ، بل كان معرضاً باستمرار لخسارة أمواله وفقدان حياته . كما لم يكن في مقدور المرابين على الدوام أن يلزموا مدنيهم بالوفاء بالتزاماتهم عن طريق الالتجاء إلى القانون ، فكانوا دائماً مهدّدين بالطرد . ويضاف إلى ذلك أن القانون المسيحي في العصور الوسطى ، بتحريمه الربا ، قد اضطر المرابين إلى ابتداء حيل قانونية عديدة من بينها وجود وسيط بين الدائن والمدين ، الأمر الذي كان يؤدي إلى زيادة سعر الفائدة . فوصلت الفائدة في إنجلترا إلى ما بين ٤٣ و ٨٦٪ وفي النمسا (في عام ١٢٤٤) إلى ١٧٣٪ وفي بروفانس (فرنسا) إلى ٣٠٠٪ . ومن الصعب على من يقتصر على هذه الفائدة أن يسدد ديونه . ولذا ، كانت عملية الإقراض والتسديد تنتهي بتوجيه تهمة السرقة إلى المرابي ، وهي كذلك بشكل من الأشكال . ومما كان يدعم شكوك الناس في المرابي أن الموائيق التي كانت تُمنح للمرابين اليهود تجعل من حقهم الاستيلاء على الأشياء الموهونة حين يعجز أصحابها عن تسديد القرض والتصرف فيها حتى لو اكتُشف أنها مسروقة ، وكان هذا يتناقض مع القانون والأعراف الألمانية . ومن هنا ، تصورت الجماهير أن الموائيق التي تُمنح لليهود تحاييهم وأنها بمنزلة ستار لتغطية عمليات السرقة الفعلية .

وكان اليهودي يسقط ضحية الثورات الشعبية لأنه قريب ومتاح ومباح باعتباره عضواً في جماعة وظيفية ، على خلاف الملك الموجود في قصره خلف حراسه ، والذي يشكل الهجوم عليه لا مجرد مظاهرة شعبية وإنما ثورة هائلة . ويُلاحظ في الهجمات الشعبية على المرابين أنها لم تستهدفهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم مرابين . ومن هنا كانت الجماهير لا تميّز بين اليهود أو اللومبارد والكوهارسين أو غيرهم من المرابين مثل أعضاء العصبة الهانسية في إنجلترا (حوالي عام ١٣٨١) . وحينما كانت الجماهير تطلب طرد المرابين ، فإنها لم

وسيلة مثالية . وهنا لابد من الإشارة إلى أننا غيّز بين الجماعة الوظيفية والجماعة الوظيفية الوسيطة العميلة . فالجماعة الوسيطة ، رغم قربها من الطبقة الحاكمة ، تؤدي خدمة لكل طبقات المجتمع . أما الجماعة العميلة ، فهي أداة في يد الحاكم يستخدمها نصاحه ضد بقية طبقات المجتمع . وعلى هذا ، كان التاجر اليهودي وسيطاً ، أما المرابي اليهودي فكان عميلاً .

ولكل هذا ، كان الملك يبذل قصارى جهده ليمنع المرابين من اعتناق المسيحية إذ أن هذا يشكل إضعافاً وتبديداً للأداة التي يستخدمها . وكان المرابي الذي يتصرّف يفقد كل ثروته التي كانت تنول إلى العرش ، لأنه لا يحق له أن يتمتع بشجرة الرزيلة (أو هكذا كان التبرير والادعاء) . كما كان الملك يمنح اليهود من العمل في أي وظيفة أخرى ، وكانت الموائيق التي تُمنح لهم تمنح للمسيحيين من الاشتغال بالربا . وقد طُرد طبيب ألماني مسيحي من مدينته لأنه تعدى على الحقوق والاختصاصات التجارية والمالية لليهود بأن اشتمر أمواله في الربا من خلال صديق يهودي له . وكان الملك يلجأ عند عجزه عن تسديد ديونه ، إلى منح المرابي اليهودي حق جَمْع الضرائب من الفلاحين . ولكنه كان يلتقي بالمرابي اليهودي إلى الجماهير انغاضية ، كبشاً للذئب ، إذا ما ثبت أنه يكلف أكثر مما يفيد . ولعل هذا هو السبب في أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يراكموا قط رأسمالاً كافياً ولم يتحولوا قط إلى طبقة حاكمة ، بل كانوا يعملون دائماً من خلال السلطة الحاكمة وفي خدمتها .

ورغم أن المرابي اليهودي كان مجرد أداة ، إلا أنه أصبح محط كراهية معظم أعضاء المجتمع وطبقاته ، بما في ذلك المستفيدون منه . فقد كانوا يرون الربا شرّاً لا بد منه ، ولكنه شر أكيد ، حيث تُعدّ كراهية المرابي أمراً متأسلاً في المجتمعات البشرية . وكان لفظ «سكتور sector» يُطلق على كل من المرابي والقاتل في الإمبراطورية الرومانية . وربما يُعزى توجيه تهمة الدم لليهود والقول بأنهم يطبخون عجين عيد الفصح بدم طفل مسيحي إلى اشتغالهم بمهنة الربا ، فهم يمتصون دم ضحاياهم مجازاً . وليس من الصعب على الوجدان الشعبي أن يضع ما هو مجازي مقام الحقيقة الواقعة .

وثمة أسباب متباينة جعلت المرابي اليهودي محط كراهية شديدة من كثير من الطبقات . فبالنسبة للطبقات الفقيرة ، كان المرابي هو أداة الاستغلال المباشرة حيث كان يحتك بهم بشكل دائم ، فضلاً عن أنهم كثيراً ما كانوا يخفون في تسديد ديونهم فيفقدون مصدر رزقهم ذاته سواء كان هذا المصدر قطعة الأرض أو الآلات التي يعملون بها أو ملابسهم ذاتها . أما كبار النبلاء ، فكانوا يرون

تظهر بينهم طبقة رأسمالية ، ولم يحصلوا على قوة سياسية حقيقية بل تزايد ارتباطهم بالمجتمع الإقطاعي واعتمادهم الكامل على القوة السياسية الحاكمة . كما اشتغلوا بحرف مرتبطة بأعمال الرهونات ، مثل إصلاح الملابس المستعملة وتسويقها وإصلاح الدروع والمجوهرات . وكان من شأن هذا كله أن يؤثر في التطور الاقتصادي اللاحق للجماعات اليهودية في أوروبا .

ويرتبط نظام الأرندا بالإقراض الربوي داخل إطار الإقطاع الاستيطاني في أوكرانيا ، فقد كان المرابي اليهودي يقوم بإقراض النبيل الإقطاعي البولندي بضمان ربع ضيعته ثم يتعاقد النبيل مع اليهودي لإدارة الضيعة ، فكان هذا الأخير ينجأ إلى قمع واستغلال الفلاحين الأوكرانيين حتى يسترد قرضه . والواقع أن نظام الأرندا هو أهم مؤسسة في التاريخ الاقتصادي للجماعات اليهودية في الغرب ، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار التطورات اللاحقة وظهور الدولة الصهيونية التي تدخل في علاقة مع الولايات المتحدة من ناحية والعرب من ناحية أخرى ، تشبه في كثير من الوجوه علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالنبل البولنديين والفلاحين الأوكرانيين .

غير أن وضع أعضاء الجماعات اليهودية تدهور ، كما أسلفنا ، في معظم أنحاء أوروبا ، فاشتغلوا بأعمال الرهونات . ولكن ، مع القرن السابع عشر الميلادي وظهور يهود المارانو أنصار الذين اشتغلوا أيضاً بإقراض الدولة والملكيات المطلقة وتوفير المال اللازم للوفاء باحتياجاتهم ، بدأت طبيعة الربا اليهودي في التغير . فالأمراء الذين يقترضون من يهود البلاط كانوا ينفقون جزءاً من تلك الأموال في الترف والحروب ، ولكنهم كانوا ينفقون الجزء الآخر في تطوير الصناعات في إماراتهم وفي تحديثها . وبذلك نكون قد بدأنا في دخول العصر الحديث . وقد وجد رأس المال اليهودي طريقه إلى النظام المصرفي الحديث ، ولكنه أصبح في أوروبا الغربية جزءاً صغيراً من كل أكبر ، بحيث لا يمكن الحديث عن رأسمان يهودي مستقل . وكان الوضع في ألمانيا مختلفاً حيث تركز اليهود في أهم ثلاثة مصارف بعد الحرب العالمية الأولى . ولكن النازية قضت على هذا الهيكل الاقتصادي .

جماعة وسيطة

Middleman Group

«الجماعة الوسيطة» هي الجماعة الوظيفية التجارية أو المالية التي تضطلع بدور التجارة والإقراض بالربا وبدور الالتزام .

تكن تخص المرابين اليهود وحدهم بهذا الطلب بل كان يتم طرد وملاحقة كل المرابين . وحينما كان المرابون اليهود يُطردون « إلى الأبد » من مدينة أو مقاطعة ويحل محلهم مرابون لومبارد أو كوهارسين ، كانت الجماهير تكتشف أن المرابين الجدد ليسوا أفضل من اليهود الأشرار . بل تذكر المصادر أن متوسط معدل الفائدة الذي كان يتقاضاه اليهود كان أقل في العادة من المعدل الذي كان يتقاضاه اللومبارد والكوهارسين ، ربما بسبب ضعف مركزهم . ولكن هناك حالات ، كما حدث في بوهيميا في نهاية القرن الخامس عشر ، تقاضى فيها اليهود ضعف معدل الفائدة الذي كان يتقاضاه المرابي غير اليهودي ، وذلك حتى يمكنهم تسديد الضرائب المفروضة عليهم . وكثيراً ما كانت المدن التي تطرد اليهود تطلب عودتهم من جديد ، وترحب بهم ، وتعتبرهم منقذين ، لتقوم بطردهم مرة أخرى بعد فترة . وفي الفترة من ١٣٠٠ إلى ١٥٠٠ طرد اليهود مائة وخمسين مرة من أماكن في جنوب ووسط أوروبا ، ولكن ورغم ذلك ، لم تخل هذه المنطقة منهم في أية لحظة تاريخية .

وقد ترك اشتغال الجماعات اليهودية بالربا أعمق الأثر عليهم ، فقد جعلهم جماعة هامشية مكروهة من المجتمع ، بغضه لدى معظم طبقاته . وكرد فعل لمشاعر الكراهية ضدهم ولهامشيتهم ، نمت في صفوفهم أفكار مثل الشعب المختار الذي لا علاقة له بالتاريخ أو الجغرافيا ، فضلاً عن النزوع إلى تقسيم العالم إلى «يهود أبرار» و«أغيار أشرار» ، وهذه هي التربة التي نمت فيها الصهيونية فيما بعد .

وكان بعض أعضاء الجماعات اليهودية يرون أن الاشتغال بالربا وسيلة من وسائل الانتقام من الأغيار ، وطريقة لتوسيع الهوة بين اليهود وغيرهم . وبالتالي لم يعد الربا مجرد مهنة أو مصدر للدخل وإنما أمراً مرغوباً فيه في حد ذاته ، وتحوّل من مجرد وظيفة إلى فعل رمزي ذي مضمون نفسي مُحدّد . وهذه طريقة إنسانية مألوفة يبرر بها الإنسان ما يقوم به من أعمال بغضه تتنافى مع إنسانيته ، بل إن بعض المفكرين الدينيين وصف الاشتغال بالربا بأنه طريقة مثالية لتحقيق أرباح سريعة دون إنفاق وقت طويل بما يتيح لليهودي التفرغ لأسمى أهداف حياته ، أي دراسة التوراة . وقد فسر بعض الحاخامات ازدهار الدراسات التلمودية في ألمانيا ، والدينية على وجه العموم ، بأن اليهود كانوا يعملون فيها بالربا أكثر من أي بلد آخر .

ومن جهة أخرى ، ترك اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالربا أو الإقراض الربوي أثراً عميقاً في هيكلهم الوظيفي ، فلم

التجارة اليهودية

Jewish Trade

انظر : «جماعة وظيفية يهودية تجارية» .

الربا اليهودي

Jewish Usury

انظر : «جماعة يهودية وظيفية مالية (الربا والإقراض)» .

الضرائب التي يدفعها أعضاء الجماعات اليهودية

Taxes Paid by Members of Jewish Communities

علاقة أعضاء الجماعات اليهودية بالضرائب لها وجهان مترابطان تمام الترابط : فهم من جهة دافعوا ضرائب ، ومن جهة أخرى حصلوا ضرائب . وقد خلقت علاقة الجماعات اليهودية بالضرائب ، سواء في دفعها أو جمعها ، أثراً عميقاً فيهم ، وستناول في هذا المدخل الجماعات اليهودية من منظور الضرائب المفروضة على أعضائها .

لم يتمتع العبرانيون باستقلال سياسي إلا لفترات قصيرة للغاية ، ولذلك كان أعضاء الجماعات اليهودية يشكلون دائماً أقلية صغيرة داخل تشكيل إمبراطوري أو حضاري ضخم . وكانت الضرائب دائماً أكبر مصدر للريع بالنسبة للإمبراطوريات في العصور القديمة أو في العصور الوسطى في الغرب ، أو في العصر الإسلامي الثاني (الأول الأموي والعباسي) أو في العصر الإسلامي الثاني (العثماني) ، أي حتى الثورة الصناعية .

وكانت الضرائب تُفرض في كثير من الأحيان على الجماعة اليهودية ككل ، لا على أعضائها كل على حدة شأنها في هذا شأن معظم الأقليات والجماعات الأخرى . ويبدو أن إطار السلطة الذاتية للجماعات المحكومة كان أنجع الطرق لضمان تدفق الريع الضرائبي ، فكانت الجماعة اليهودية ، وغيرها من الجماعات ، تتمتع باستقلال ذاتي في الأمور الدينية والتربوية والقضائية . وكانت قيادتها تتمتع بسلطات خاصة ، فكانت ، في كثير من الأحيان ، هي التي تحدّد الضرائب وتقوم بجمعها من أعضاء الجماعة ، بل أصبحت هذه المهمة أهم وظائفها . ولذا ، حاولت السلطة الحاكمة دائماً أن تقوّي قبضة القيادات اليهودية وتحقق لها مركزاً متميزاً داخل الجماعة ، لنضمن ولاءها لها ولتصبح أداة طيعة في يدها . ومن ثم ، كانت قيادات الجماعة تُعفى من الضرائب عادةً ، وكان أمير اليهود (الناسي) ، ورأس الجالوت (المُنّفى) ، وكثير من الحاخامات ،

يُعفون من الضرائب ، بل وكان يُسمح لهم بفرض ضريبة خاصة لتمويل منصبهم ذاته . وكثيراً ما كان الحاخامات يحصلون على معاشهم من خلال ضريبة خاصة تُفرض لهذا الغرض . وكان الهدف من هذا هو تحويل هذه القيادات إلى أداة في يد السلطة الحاكمة وموظفين عندها بحيث يمكنها من خلالها اعتصار الجماعة اليهودية . وكانت الضرائب تُفرض على الجماعة اليهودية أحياناً لا كوسيلة لاعتصار أعضائها وحسب وإنما لاعتصار الجماهير الشعبية ، وبذلك لم يكن أعضاء الجماعة سوى الإسفنجة التي يتم امتصاص هذه الجماهير عن طريقها . فكان الحاكم على سبيل المثال يفرض ضريبة عالية على أعضاء الجماعة اليهودية ، وينحهم نظير ذلك مزايا وحقوقاً خاصة تُيسر لهم عملية استغلال الجماهير ، كان يسمح لهم بتحصيل فائدة عالية على القروض أو يصرح لهم بحرية الحركة من مدينة لأخرى دون أن تتصدى لهم السلطات الإقطاعية المختلفة . وقد يسّر هذا على كل من التاجر والمرابي اليهودي إدارة أعمالهما وجعلهما أكثر كفاءة من نظرائهما المسيحيين . وكلما تزايد السخط الشعبي ، كان يتزايد اعتماد هؤلاء المرابين اليهود على السلطة الحاكمة التي كانت تزيد من اعتصارهم عن طريق فرض ضرائب جديدة عليهم أو تسلمهم للجماهير فتعصن السخط الشعبي وتصادر أموال اليهود وتطردهم ، ثم تستدعيهم مرة أخرى لتبيع لهم من جديد المزايا والموائيق والحماية ، أي أن جمع الضرائب ودفعها ساهم في عملية حوسلة اليهود .

لكن العناصر السابقة لم تتحقق في كل زمان ومكان ، فتعرجات التاريخ وتركيبته تتحدى أي نسق منظم وأية سمات عامة ، وهذا لا يقلل من دلالة وفاعلية النموذج التفسيري . وإذا انتقلنا الآن إلى العرض التاريخي ، يمكننا القول بأن العبرانيين ، حتى انتهاء عصر القضاة ، لم يعرفوا نظاماً ضريبياً بسبب أسلوب حياتهم القبلي وبساطته . بل إن الدولة العبرانية المتحدة ذاتها ، إبان حكم داود ، كانت أقرب إلى اتحاد القبائل ، ولذا لم تُفرض أية ضرائب في عهده . ومع حكم سليمان ، بدأت الدولة تصل إلى قدر من التركيب والمركزية ، وظهرت طبقة حاكمة تضم داخلها قطاعات كهنوتية وأخرى عسكرية وثالثة إدارية ، كما بدأت حركة تشييد مباني حكومية من أهمها بناء الهيكل . وقد تطلّب كل ذلك غمواً وهو ما أدّى إلى فرض الضرائب ، ففرضت ضريبة الشقل حيث كان على كل عبراني بالغ أن يدفع للهيكل نصف شقل (ويتناول التلمود في أحد كتبه الأحكام الخاصة بالشقل) . كما كانت تُقدّم للهيكل هدايا وضرائب عينية . ومنذ هذه اللحظة التاريخية ، بدأت الضرائب

الطبقات الثرية المحلية . وكان الملتزمون اليهود يحاولون قدر استطاعتهم ، مثلما هو الحال دائماً مع البشر ، أن يحصلوا ضرائب أكثر من المفروضة لأنهم كانوا يحصلون على الفرق بين ما ينبغي عليهم تسديده لخزانة الدولة وما يحصلونه بالفعل . وكانت هذه الجماعة الوظيفية المالية ، التي ارتبطت مصالحها بمصالح الدولة الهيلينية (البطالمة أو السلوقية) ، متأخرة تماماً من الناحية الثقافية ، الأمر الذي زاد الهوة بينها وبين الجماهير . وكان السبب الأساسي للتمردات اليهودية المتتالية هو الضرائب المتزايدة .

ويلاحظ أن اليهود في الدولة البطلمية عملوا كملتزمي ضرائب ليس إزاء أعضاء الجماعة اليهودية وحسب وإنما على مستوى المجتمع ككل ، فقد قاموا بتحصيل المكوس اخمركية (وهي مهن مالية ولا شك ، يرى البعض أنها كانت قتالية أيضاً ، إذ كان المحصلون يُطلق عليهم اسم «حراس أنيل») . كما اشتركوا في تحصيل الضرائب على الأسماك والكروم والنخيل والمراعي بل وعلى صناعة الأحذية وهي نشاطات اقتصادية عامة . وكان كبير الموظفين (أليبارخ) ، وهو منصب استمر حتى الدولة البيزنطية ، هو المسئول عن جمع الجمارك على السفن . ويبدو أنه كان من أهم المناصب الإدارية المالية ، وكان لمن يشغل هذا المنصب مكانة قيادية . ومع تزايد أزمة السلوقيين نتيجة حروبهم مع البطالمة ، ونتيجة تصاعد الضغوط الرومانية ، وبعد هزيمتهم على يد الرومان ، كان عليهم دفع تعويض ضخم لهم ، وهو ما اضطر الملوك السلوقيين إلى البحث عن مصادر جديدة للربح ، فتعاونوا مع أثرياء المجتمع اليهودي ، خصوصاً فئة ملتزمي الضرائب الذين تنافسوا على رفع الضرائب إرضاءً لسلطة السلوقية . ويبدو أن الضرائب تحت حكم الأسرتين اليهوديتين ، اخشمونية التي تمتعت بشيء من الاستقلال ، والهيرودية التي حكمت باسم روما ، لم تكن أخف وطأة ، كما هو واضح في التمردات التي حدثت بين جماهير الشعب .

وبعد أن ضمت فلسطين للدولة الرومانية ، عُيِّن لها حاكم روماني برتبة بريفكتوس ، وكان يُشار له أيضاً باسم «بروكرياتور» والتي تعني حرقياً «الوكيل المالي» أو «محصل الضرائب» ، وذلك باعتبار أن تحصيل الضرائب هو النشاط المالي الأكبر لكل موظفي الإمبراطورية . وفي مصر ، ألغى بوليبوس قيصر نظام جمع الضرائب البطلمي ، فتنهار الوضع الاقتصادي لليهود ، وخصوصاً أن اليهود أصبح عليهم (رغم عضويتهم في البولييتيما) أن يدفعوا ضريبة رؤوس كاملة ، الأمر الذي كان يعني مساواتهم النسبية بالمصريين وفقدان غالبيتهم لمكانتهم المتميزة ، باستثناء كبار الأثرياء

تلعب دوراً مهماً في حياة العبرانيين ، ومن المعروف أن من أسباب انقسام الدولة العبرانية المتحدة شكوى قبائل الشمال من فداحة الضرائب التي فرضها سليمان . وبطبيعة الحال ، استمرت الملكتان العبرانيتان ، الشمالية والجنوبية ، في تحصيل الضرائب . وثمة إشارة في العهد القديم إلى أن الملك العبراني كان يأخذ عُشر إنتاج الحقول ، وكان من حقه أن يُجنّد بعض الرجال والنساء ليعملوا خدماً له ، حسب نظام السخرة السائد في الشرق الأدنى القديم والذي طبقه سليمان إبان حكمه . كما فرض ملوك الملكتين ضرائب خاصة أثناء الحروب وحينما تعيّن عليهم دفع جزية للأشوريين أو البابليين .

واستمر هذا الوضع قائماً إلى أن اجتاحت الآشوريون ثم البابليون الملكتين وهجرُوا بعض عناصرها إلى بلاد الرافدين . حيث شهدت هذه الفترة تحولاً مهماً ، تمثل في بداية تحول العبرانيين إلى جماعة وظيفية . وقد ظهر بيت موراشو في بابل ، فكانت شركتهم تقوم بجباية الضرائب عما تنتجه الأرض من محاصيل زراعية ، كما كانت تستوفي بنفسها الضرائب المفروضة على الطرق العامة وقنوات الري لقاء الإفادة منها .

وبعد صدور مرسوم قورش وعودة بعض اليهود ، دخل أعضاء الجماعات النمط الأساسي الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو أنهم أصبحوا جماعة تُفرض عليها ضرائب جماعية وتتمتع باستقلال ذاتي لتسهيل عملية جمع الضرائب ، وقد ترأس هذه الجماعة الكهنة الذين أعفوا من الضرائب . وقد أصبح الهيكل هو المركز الأساسي للجماعة (ولم تُعد مؤسسة الملكية تراحمه) ، فكان يجمع ضريبة نصف الشئقل ويحصل على ضرائب عينية وهدايا من الجماهير . وفي مرحلة لاحقة ، قبل سقوط الهيكل ، كان يجمع ما يُسمى بالشئقل المقدس ويساوي ضعف الشئقل العادي وهو عبارة عن جزية سنوية يدفعها يهود فلسطين والعالم وتُقل إلى الهيكل (مركز العبادة القبرانية) . وكان الصدوقيون هم الذين يحصلون هذه الضرائب ويحصلون على هذه الهدايا وعلى جزء كبير من القربان ، وهو ما حولهم إلى أurstقراطية كهنوتية ثرية . ومنذ تلك اللحظة ، أصبحت الضرائب مصدر الشقاق الأساسي بين الأurstقراطية اليهودية (الندمجة في الثقافة الإمبراطورية ، فارسية كانت أم هيلينية) من جهة ، والجماهير اليهودية المنشبعة بالثقافة المحلية (الآرامية) ، ومنهم فقراء رجال الدين ، من جهة أخرى .

وقد اهتم اليونانيون بالربح الضريبي ، فكانوا يفرضون ضرائب متنوعة على اليهود وغيرهم ، بل وضريبة على الزيجات أحياناً . كما أسسوا شبكة ضخمة منظمة لتحصيل الضرائب عمادها أعضاء

الذين أصبحوا مواطنين رومانيين . كما تزايدت الضرائب عليهم ، الأمر الذي كان أحد أسباب التمرد اليهودي الأول الذي انتهى بتعطيم الهيكل . وبعد هذا التمرد ، فرض الرومان أول ضريبة مقصورة على اليهود وهي الفيسكوس جواديكوس ، أي الضريبة اليهودية ، وهي عبارة عن الشيكل الذي كان يدفعه اليهود من قبل للهيكل ، واستمرت الإمبراطورية الرومانية في تحصيله وإرساله لمعبد جوبيتر كايستولينوس .

وبعد انتشار المسيحية والإسلام في الشرق الغربي ، لم يتغير وضع أعضاء الجماعات اليهودية كثيراً من منظور الضرائب ، إذ أنهم كانوا يدفعون للمسلمين ما كان يدفعه أهل الذمة نظير الإعفاء من الخدمة العسكرية .

أما في العالم الغربي ، فقد تغيرت أحوال أعضاء الجماعات اليهودية بالتدريج ، ولم يعد الاختلاف بينهم وبين أعضاء المجتمع مجرد ضريبة أو ضريبتين يدفعونهما للنظام الحاكم ، فمع تآكل البقية الباقية من القانون الروماني أصبح أعضاء الجماعة اليهودية حسب التعرف الألماني «غرباء» ، وهو ما كان يعني وضعهم تحت الحماية الملكية لأنهم أصبحوا ملكية خاصة للملك أو الإمبراطور ، أي أن أعضاء الجماعة أصبحوا أداة من أدوات الإنتاج ومصدراً من مصادر الرزق . وقد كُرس هذا الوضع تماماً بعد حروب الفرنجة في نهاية القرن الحادي عشر (١٠٩٦) ، وأصبح أعضاء الجماعة اليهودية إما فعلاً (أو اسماً وفعلاً) أقتان بلاط يشترتون الموائيق والمزايا والحماية من الحاكم . وكانت الضرائب المفروضة عليهم تُعدّ مصدراً أساسياً مباشراً للريع الذي كان يُحصّله الحاكم ، أو وسيلة غير مباشرة لجمع الضرائب ، وكان ذلك يتم من خلال الإقراض بالربا . فكان الحاكم يرفع الضريبة على اليهودي ويجعلها على سبيل المثال ١١٪ ، مقابل ١٠٪ للتاجر المسيحي ، ثم يمنحه حقوقاً مقابل ذلك مثل حق رفع سعر الفائدة على الأموال . ولذا ، نجد أن خُمُس دخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة كان مصدره اليهود ، رغم أن عددهم كان لا يزيد عن ١٪ من عدد السكان قبل القرن الرابع عشر . وفي القرن الثالث عشر ، حصلت الحكومة الإنجليزية على ١٣٪ من دخلها من الضرائب التي فرضتها على اليهود رغم أن عددهم كان يتراوح بين ٤ آلاف و١٥ ألفاً في كل إنجلترا . وقد أصبح حق فرض الضرائب على اليهود ، باعتباره مصدراً من أهم مصادر الرزق ، محل صراع بين الإمبراطور والنبل .

وقد فرضت على أعضاء الجماعات اليهودية مجموعة متنوعة من الضرائب من بينها ضريبة الرؤوس (وهي استمرار للفيسكوس

جودايكوس) التي بُعثت في ألمانيا عام ١٣٤٢ تحت اسم «أُوفرڤينغ Opferpfennig» وتعني «ضريبة المليم» ثم أصبحت تُسمّى «لايب تسول Leibzoll» ، أي «ضريبة الجسد» ، و«يودين تسول Juden Zoll» ، أي «ضريبة اليهودي» . وبعد أن حل الأمراء محل الحكم الإمبراطوري (القرن السادس عشر) في قَرَضَ الضرائب على اليهود ، أصبحت الضريبة تُسمّى «نقود حماية اليهود» . وكان على اليهودي الذي ينتقل من بلد إلى آخر أن يدفع رسم المرور ورسماً للإقامة المؤقتة . ومن الضرائب الأخرى ، ضريبة «يودين جلايت Judengeleit» ، أي «المرور الآمن» ، وهي ضريبة كانت تُفرض على اليهود الذين يودون الانتقال من مكان إلى آخر ، فكان يدفعها اليهود الأجانب العابرون ، وكانت الضريبة تعطى لهم الحق في التعاملات المالية . وكانت تُفرض ضرائب على اللحم والذبح الشرعي وعلى شموع السبت ، وفُرضت أحياناً ضريبة على الطعام كانت تُسمّى «ضريبة السلة» . وفُرضت ضريبة تُسمّى «ضريبة الفم» كان الهدف منها استبعاد اليهود غير النافعين الذين يأكلون ولا يتجوزون .

وفي العصر الحديث ، ظلت الضرائب إشكالية أساسية في حياة الجماعات اليهودية . فاخترت الأشكال المختلفة للإدارة الذاتية ، وتكفلت الدولة المركزية التي تتبعها جهاز إداري مركزي قوي بتقدير الضرائب وجمعها ، وأُلغيت بالتدريج الضرائب المفروضة على أعضاء الجماعات اليهودية . وفي محاولة للحد من الانفجار السكاني ، كانت تُفرض أحياناً ضرائب على طعام اليهود الشرعي وشموع السبت والزواج ، وذلك لجعل هذه الشعائر مكلفة . وكان عدد كبير من اليهود يتهربون من الضرائب ويقومون بتهرب البضائع للتهرب من الجمارك . فوقفت الدول الحديثة ضد هذا الوضع وحاولت تصفيته . وكان من بين إجراءات المنع ، عدم استخدام اليدوية في المعاملات التجارية ، ومطالبة اليهود بإضافة اسم العائلة لأسمائهم إذ كان أعضاء الجماعة اليهودية يكتفون بتسمية الفرد باسمه واسم أبيه بدون اسم العائلة ، الأمر الذي كان يعني وجود عدد كبير من الأشخاص باسم واحد ، مما يُسهّل عملية التهرب . وقد ارتبط النظام الضريبي بمدى نفع اليهود ، فكانت العناصر النافعة من ذوي المهن التي تحددها الدولة تُعفى من الضرائب بل وتمنح امتيازات ضريبية خاصة . أما العناصر غير النافعة ، فكانت تُفرض عليها ضرائب تهدف إلى تشجيعها على الخروج والهجرة . ولكن ، مع تصاعد معدلات التحديث في الغرب وفي داخل الجماعات اليهودية ، ألغت الدولة الحديثة بالتدريج الضرائب

عبرية . ومن المعروف أنه عندما ذهب شبتاي تسفي إلى مصر ، ساعده الممول روفائيل يوسف شلبي (من حلب) الذي كان من كبار ملتزمي الضرائب في مصر آنذاك .

ولكن بولندا تظل دائماً أهم المناطق بسبب حجم الجماعة اليهودية فيها وبسبب علاقة دورهم فيها بالتطورات اللاحقة في تواريخ الجماعة اليهودية في العصر الحديث . وكانت الضرائب في بولندا تُفرض من قبل الحكومة على الجماعة اليهودية ككل . ولتحصيلها ، كان القهال يقوم بفرض مجموعة من الضرائب على أعضاء الجماعة ، فكانت هناك ضريبة ملكية وضريبة رؤوس وضريبة القهال لتمويل الجهاز التنفيذي والإداري والتعليمي والقضائي للقهال . ومع تدهور وضع القهال ، أصبحت هذه الضريبة تُفرض على الطعام وأُطلق عليها ضرائب السنة . وكان يُباع امتياز تحصيلها في مزاد عام ، وهو ما كان يعني تزايد الضرائب عاماً بعد عام . ولأن المهمة الأساسية للقهال هي جمع الضرائب ، باعتباره مؤسسة الإدارة الذاتية ، فقد ألغى مجلس البلاد الأربعة في بادئ الأمر ثم كل مؤسسات القهال عندما بدأ الريع يتناقص .

وقد اضطلع أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا بوظيفة جمع الضرائب من خلال نظام الأرندا ، إذ كان اليهود يدفعون إيجار الضيعة للنبيال البولندي مقدماً ثم يقومون بتحصيل ريعها . وكانت الضرائب المختلفة تشكل جزءاً مهماً من هذا الريع . وكما كان النبلاء البولنديون يزدادون حاجة إلى النقود ، كان على اليهود أن يدفعوا إيجاراً أعلى ويحصلوا على المزيد من الضرائب من الفلاحين والأقنان . بل كان الملتزمون اليهود يحققون مزيداً من الأرباح ويرفعون الضرائب أحياناً دون علم النبيال الإقطاعي ، كما كانوا يعاملون الفلاحين والأقنان بقسوة بالغة لتحصيل هذه الضرائب . ومن أهم هذه الضرائب ضريبة مفتاح الكنيسة . وكان على الفلاحين الأوكرانيين الأرثوذكس دفعها للممول اليهودي نيذفعها للإقطاعي البولندي الكاثوليكي إن أرادوا أداء الصلاة . وكانت هناك ضريبة أخرى على الرداء الكهنوتي للقس كان عليه أن يدفعها إن أراد إقامة إحدى الشعائر .

وقد أدّى اضطلاع أعضاء الجماعة بهذه المهمة إلى تزايد كراهية الجماهير لهم ، فاضطروا إلى الإقامة في الشنتلات داخل الريف بعيداً عن المراكز التلمودية في المدن . وكانت هذه العناصر سبباً في اقتلاع أعضاء الجماعة اليهودية وتآكل اليهودية الحاخامية .

وفي وسط أوروبا ، كان يهود البلاط مصدر دخل كبير للأمرء الألمان والحكام (من حيث هم دافعوا ضرائب) . كما قاموا بتنظيم

الخاصة ، ومنها البدية العسكرية ، وتم توحيد النظام الضريبي . وتقوم المنظمة الصهيونية العالمية والدولة الصهيونية بفرض ضرائب منظورة وغير منظورة على أعضاء الجماعات . فستدات إسرائيل والاشتراكات التي تُدفع والتبرعات التي يتم جمعها من خلال حملات مسعورة جميعها نقود تُدفع اسماً عن طيب خاطر ولكنها تُدفع من الناحية الفعلية خوفاً من الفضيحة . ولذلك أشار آرثر هرتزبرج إلى اليهود المؤيدين لإسرائيل بوصفهم «يهود النفقة» ، أي اليهود الذين يدفعون تبرعات تشبه النفقة التي يدفعها الزوج السابق لمطلقة لا حباً فيها وإنما خوفاً منها . كما أشار إلى ما سماه «يهودية دفتر الشيكات» وهي يهودية أولئك اليهود الذين ينصرفون عن ممارسة شعائر دينهم ويحاولون تخفيف الإحساس بالذنب عن طريق دفع التبرعات للدولة الصهيونية . وقد بدأت حركات السلام داخل إسرائيل تُكوّن جماعات في الخارج مهمتها جمع التبرعات لها خارج نطاق النداء اليهودي الموحد والنداء الإسرائيلي الموحد ، وهي مؤسسات جمع الضرائب/ التبرعات للمؤسسة الصهيونية .

ويمكننا القول بأن علاقة الإمبريالية الغربية بالدولة الصهيونية علاقة شبيهة بعلاقات الأباطرة بأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية . فالإمبريالية الغربية تمتع العديد من التسهيلات والمزايا للدولة الصهيونية ، مثل الدعم المالي والعسكري ، والمعاهدات والمواثيق ، نظير ضريبة يدفعها المستوطنون الصهاينة وهي القتال . والضريبة قد تكون دموية بعض الشيء ، ولكن لها مردودها الريعي ، وهو فرض السكون والسلام الغربي على المنطقة وضمان تدفق الطاقة الرخيصة ودوران الدول العربية في فلك النظام الاقتصادي العالمي !

أعضاء الجماعات اليهودية كمحصلي ضرائب

Members of Jewish Communities as Tax Collectors

عمل كثير من أعضاء الجماعات اليهودية محصيلي ضرائب . ففي عهد شارلمان ، عمل أعضاء الجماعة ملتزمي ضرائب ، وأغفوا من الضرائب والمكوس المفروضة على المسافرين . وقد اضطلعوا بالمهمة نفسها في إنجلترا وألمانيا . كما أشرف أعضاء الجماعة على جمع الضرائب في إسبانيا المسيحية ، وحينما طُردوا منها واجه النظام الجديد مشكلة البحث عن ملتزمي ضرائب بدلاً منهم . وكان أعضاء الجماعة يوظفون بكثير من الوظائف المرتبطة بالضرائب في الدولة العثمانية سواء ، باعتبارهم محصيلي أو مفتشي ضرائب أو موظفي جمارك أو ملتزمين . وكانت غالبية العاملين في الضرائب في الدولة العثمانية من اليهود ، كما أن الإيصالات كانت تُكتب أحياناً بحروف

القرن السابع عشر وزودوا كل الأطراف المتحاربة بالسلاح . وقام يهود البلاط المتعهدون بتزويد حكومات وسط أوروبا بكل اللوازم العسكرية من الخيول والجراية والزي العسكري الرسمي والأسلحة . وقد سرت هذه المهمة ، ليهود البلاط ولكل الجماعات اليهودية ، الشبكة العالمية الضخمة التي كانت تضم يهود الأرندا في شرق أوروبا وصغار التجار المتجولين بل والمتسولين اليهود المنتشرين في كل أرجاء أوروبا . كما كانت الشبكة تضم تجار الدولة العثمانية . وكان بوسع هذه الشبكة أن تزود أي جيش بكل ما يريده من جراية ومعادن نفيسة وأموال ، ولذا ساد الاعتقاد آنذاك بأن كل المتعهدين العسكريين يهود وأن كل اليهود متعهدون عسكريون (وقد روج النازيون هذه المقولة فيما بعد في دعايتهم ضد اليهود باعتبارهم مستفيدين من مآسي الآخرين) . ومن أهم عائلات يهود البلاط التي اضطلعت بهذه الوظيفة عائلات أوبنهايم وجومبيريز وفيرتايمر ومايير وهيرشيل . وعما زاد من أهمية المتعهدين العسكريين اليهود ظهور الدولة المركزية المطلقة بحكامها المطلقين ، والتي أسست جيوشاً مركزية لتوسيع نفوذها ، ولفرض هيمنتها على مناطق جديدة ، ولتشديد قبضتها على السوق المحلية .

وقد لعب المتعهدون اليهود دوراً هاماً في إنجلترا في القرن السابع عشر . فكان أهم المتعهدين العسكريين في عصر كرومويل هو أبراهام إسرائيل كارفاجال الذي اشترك مع خمسة تجار آخرين في تزويد الجيش البريطاني بالقمح عام ١٦٤٩ . وقد تمكّن وليام أوف أورانج من أن يبحر إلى إنجلترا عام ١٦٨٨ بعد أن حصل على قرض بدون فوائد من أحد الممولين اليهود وهو فرانسيسكو لوبيزوسو (من لاهاي) . وقام فرانسيسكو دي كورفا وإسحق برييرا بتزويد الحملة بالعتاد العسكري . وكان وليام دي مدينا هو المتعهد العسكري لدوق مارلبورو . أما في أيرلندا ، فقد قامت شركة ماكادو وبريرا بتزويد جيوش دوق شومبرج بالجراية والسلاح .

وقام المتعهدون العسكريون اليهود بالمهمة نفسها في فرنسا . فقد سُمح لعدد من الأسر اليهودية بالاستقرار في ميتر عام ١٥٦٧ شريطة أن يتعهدوا بتزويد القوات الفرنسية بما تحتاج إليه . وكان لبعض الأسر اليهودية الفرنسية دور ملحوظ في المجال نفسه إبان الحكم المطلق لملك فرنسا لويس الرابع عشر . فكان يعقوب ويرمز هو المتعهد العسكري الأساسي في عصره ، وهو دور اضطلعه به هرز سرفي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وكان هذا المتعهد من الأهمية بمكان ، حتى أنه استثنى ، حين تقرر عام ١٧٧٦ إنهاء نظام المتعهدين العسكريين ، واستمر في ممارسة نشاطه في الأئراس

الإطار الإداري للنظام الضريبي في كثير من الدول التي تواجدوا فيها ، وعملوا كملتزمي ضرائب . ومع ظهور الدولة الحديثة ، قامت بجمع الضرائب وصدرت قوانين تمنع أعضاء الجماعات اليهودية من الاشتغال بالالتزام ، باعتباره وظيفة طفيلية غير منتجة .

المتعهدون العسكريون

Army Contractors and Suppliers

«المتعهدون العسكريون» هم الممولون من أعضاء الجماعات الوظيفية المالية الذين كانوا يزودون الجيوش المتحاربة بالسلاح والعتاد العسكري الذي تحتاج إليه ، وكذلك بالجراية اللازمة ، وقد كانت وظيفة ذات أهمية حيوية لكثير من الدول التي لم تكن قد طورت بيروقراطيات متخصصة تتولى هذه المهمة ولم يكن عندها لا رأس المال ولا الاتصالات الدولية اللازمة لإنجاز هذه المهمة .

وقد اضطلعت بعض أعضاء الجماعة اليهودية بهذه الوظيفة في إسبانيا المسيحية ، ومن أهمهم يهودا ديلا كفالريا الذي زود ملك أراجون بالسلاح اللازم لحروبه عام ١٢٧٦ ضد المسلمين في بالانسيا . وقام الأخوان رفايا بتمويل الملك بدرو الثالث ملك أراجون (١٢٧٦ - ١٢٨٥) في حروبه ضد نبلأ قشطالة . كما قام إسحق أبرابانيل بتزويد فرديناند وإيزابيلا بالسلاح في الفترة من عام ١٤٨٩ إلى عام ١٤٩٢ ، بينما قام أبراهام سنيور بتوفير السلاح اللازم للقوات الإسبانية التي قامت بتصفية الجيب الإسلامي الأخير في غرناطة . ويبدو أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يعملون أيضاً في صناعة السلاح في هذه الفترة ذاتها . ولذا ، فقد عارض بعض أعضاء المجلس الاستشاري لملك البرتغال قرار طردهم حتى لا تقع أسرار المهنة في يد العثمانيين إن استقر اليهود المطرودون في أملاك الدولة العثمانية ، ويُقال إنهم ساهموا بالفعل في تطوير الأسلحة النارية فيها .

واشترك اليهود في تجارة السلاح في وسط أوروبا في القرن السادس عشر ، ففي ألمانيا سُمح لإسحق ماير بالاستقرار في هالبرشتات في عام ١٥٣٧ ليُزود أحد الأديرة بالأسلحة . وحصل يوسف جيرشون من الإمبراطور على ميثاق يقضي بحمايته ، وحدد الميثاق نشاطاته في تزويد السلاح . ومن المعروف أن يهود المارانو (البرتغاليون في أمستردام) اضطلعموا بالوظيفة نفسها ، فزودوا جيوش هولندا وإنجلترا والمغرب بالسلاح . ويبدو أن المتعهدين العسكريين اليهود اغتتموا فرصة الحروب الأهلية في المغرب في

المواد والمعلومات اللازمة لإنتاج القبلة الذرية. وبدأ تعيد إسرائيل إنتاج أحد الأدوار الوظيفية لبعض الجماعات اليهودية في العالم الغربي.

ومما لا شك فيه أن اضطلاع بعض أعضاء الجماعات اليهودية بهذه الوظيفة دعم الصورة الإدراكية السلبية لليهود في ذهن الكثيرين. وكما أسلفنا، فقد استغل النازيون هذه الحقيقة التاريخية لتوثيق ادعاءاتهم. ولكن مما يجدر ذكره أن اليهود، مهما بلغت درجة تورطهم في تجارة السلاح، لم يكونوا قط مسؤولين عنها، فما حدث هو ظهور حاجة لدى بعض المجتمعات الغربية إلى السلاح والعتاد الحربي وإجراية اللازمة لتجديد حملات عسكرية كبيرة ومتكررة نتيجة ظهور الدولة المركزية المطلقة. ولكن هذه المجتمعات لم تكن تملك الإمكانيات المادية أو الإدارية للوفاء بهذه الحاجة. ومن ثم نشأت ثغرة كان لا يمكن أن يملأها سوى عنصر وظيفي واحد مثل اليهود الذين كانوا يصفون بدور الجماعة الوظيفية المالية. وهنا ما لم يذكره النازيون. والواقع أن رؤيتهم للأمور، تماماً مثل رؤية الصهاينة وكل العناصر، تحتجز من الواقع عنصراً - أو بعض العناصر - وتجعله النقطة المرجعية الوحيدة ثم تُوظفه في تبرير أي فعل تقوم به. مع إهمال كامل لكل عناصر الصورة التاريخية المركبة.

جك بافيا (؟ ١٦٨٧)

Jack Pavia

تاجر ماس يهودي من أصل مازاني (برتغالي)، وهو مؤسس الجماعة اليهودية في إقليم مدراس بالهند. وقد لعائلة يهودية عاشت في هولندا، وهاجر إلى إنجلترا ليصبح من أوائل اليهود الذين استوطنوا بها بعد أن أعيد فتح باب الاستيطان اليهودي في إنجلترا. اهتم بعملية استغلال مناجم الماس في جونغوندا فأسفر إلى الهند وأسس تجارة له بها، واشتغل في تصدير الماس إلى إنجلترا واستيراد المرجان عن طريق أفراد أسرته في لندن. وفي عام ١٦٨٣، نجح في الحصول على أذن من شركة الهند الشرقية تسمح باستيطان اليهود في مدراس وسافر إلى هناك عام ١٦٨٤. وأثناء وجوده بها، نجح في إقناع حاكم الإقليم بتأسيس مينسبا من الأوروبيين. وقام بافيا بتمويل الخيل والسلاح على نفقته الخاصة كعضو في هذه الميليشيا التي ضمت أيضاً عدداً آخر من اليهود، وقد عُيِّن بافيا قبل عدة أيام من وفاته نائباً لملك بريطانيا في مدراس مدى الحياة.

وتعود أهمية بافيا إلى ما يلي :

- ١ - تبين سيرة حياته ذلك الدور الحيوي الذي لعبه يهود المارانو في التشكيل الاستعماري الاستيطاني للغرب.

واللورين. وفي أواخر القرن الثامن عشر، اضطلع بهذه الوظيفة موسى بلين (في ميتز)، وموسى اليعازر لايمان كالم (في هانوفر). ومن أهم المتعهدين العسكريين أبراهام جراديس الذي زود الجيوش الفرنسية بما كانت في حاجة إليه من عتاد وجراية إبان حرب الأعوام السبعة (١٧٥٦-١٧٦٣). كما اشترك معه كل من روفائيل منديس وبنيامين جراديس، وبعض ملاك السفن اليهود، في تنظيم عملية إبحار السفن الفرنسية من أوروبا إلى كندا. وقد أعطى فريدريك الأكبر إبان هذه الحرب عدداً من العقود للمتعهدين العسكريين من أعضاء الجماعة اليهودية، والذين أدوا عملهم بكفاءة عالية وحصلوا على كثير من المزايا وراكموا الثروات. وبدأ بعض أعضاء الأرستقراطية الألمانية في الاقتراض منهم وازداد الاختلاط بين الأرستقراطية وأثرياء اليهود، وكان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى ما يُسمى «صالونات النساء اليهوديات».

ولعب بعض أعضاء الجماعة اليهودية دوراً بارزاً في تزويد الجيوش الإنجليزية التي أرسلت إلى المستعمرات بالسلاح والجراية. فزود ماتياس بوش قوات بنسلفانيا في المستعمرات الأمريكية بالسلاح في حربها ضد الفرنسيين. وقامت أسرة فرانكس، التي كان لها فروع في كل من لندن ونيويورك، بتزويد الجيش البريطاني في المستعمرات الأمريكية. وبعد الاستقلال، زودت أسرة شيفتول (من جورجيا) الجيش الأمريكي بالسلاح. واستمرت بعض الأسر اليهودية في القيام بهذا الدور إبان الحرب الأهلية، فزود المتعهدون اليهود الجيشين المتحاربين، الشمالي والجنوبي، بالجراية والأزياء العسكرية اللازمة. وقد اضطلع بعض المتعهدين اليهود بالدور نفسه في الدولة العثمانية، ولذلك كانت تربطهم علاقة وثيقة بالإنكشارية. أما في روسيا (في القرن التاسع عشر)، فقد قام المتعهدون اليهود بتزويد الجيش بالجراية وبالمساهمة في بناء التحصينات العسكرية والطرق والسكك الحديدية.

وقد انتهى دور المتعهدين العسكريين اليهود تماماً مع ظهور الدولة القومية الحديثة التي كانت تتبعها بيروقراطيات متخصصة تقوم بتزويد الجيش بكل ما يلزم من جراية وعتاد. ونحن لا نعرف الدور الذي يلعبه أعضاء الجماعات اليهودية في تجارة السلاح في الوقت الحاضر، وإن كان من المعروف أن إسرائيل تلعب دوراً مهماً فيها، وبخاصة في مجال توريد السلاح للدول الفاشية والعنصرية التي تود الحكومات الغربية مساندتها ولكنها تخشى الرأي العام داخل بلادها وخارجها. ومن ثم تتولى إسرائيل هذه الوظيفة نيابة عنها، فكانت تقوم مثلاً بتزويد حكومة جنوب أفريقيا العنصرية بالأسلحة، بما في ذلك

ومع ازدياد نفوذ النبلاء ، اتخذ البرلمان البولندي (سييم) قراراً عام ١٥٣٨ بمنع اليهود من استئجار العوائد والمؤسسات الملكية . وقد اتخذ مجلس البلاد الأربعة قراراً مائلاً حتى يقلل من الاحتكاك بين اليهود والنبلاء . ولكن القرار لم ينجح في وقف نشاط الأرنداء بين اليهود ، فاستمر الممولون اليهود في استئجار كثير من المزايا الملكية مثل الجمارك والضرائب على الخدمات ، خصوصاً مطاحن الدقيق وبحيرات الأسماك ، وفي إنتاج وتسويق المشروبات الكحولية . كما كان بعض أعضاء الجماعة اليهودية يستأجرون ضياعاً بأكملها . بل ظلوا ، حتى منتصف القرن السادس عشر ، أهم مستأجري حق جمع الضرائب في المحطات المخصصة لذلك في ليتوانيا وروسيا البيضاء ، كما كان هناك يهود أرندا في جاليسيا . وكان جامعو الضرائب (من اليهود وغير اليهود) يستخدمون أكثر الطرق قسوة للحصول على العائد ، وكثيراً ما كانوا يحصلون ضرائب أكثر من المقررة . وكان من حق جامع الضرائب أن يفشش العربات التي تمر من خلال البوابات وأن يصادر العربات التي تحاول التهرب من استخدام الطريق العام . وقد حدث صراع بين النبلاء الليتوانيين واليهود ، فأصدر البرلمان الليتواني (سييم) قراراً يقصر حق الأرندا على النبلاء . ولكن اليهود تحدوا هذا القرار ، كما أصدر المجلس الليتواني (وهو يقابل مجلس البلاد الأربعة) قراراً يتحدى هذا القرار . وقد اشتغل عدد كبير منهم بالأرندا من الباطن ، عن طريق كفيل مسيحي ، حينما لم تكن تسع لهم فرصة الاشتغال بها بشكل مباشر .

ولكن ، حدثت عدة تطورات أدت إلى ظهور الأرندا الزراعية الإقطاعية الاستيطانية التي تختلف في كثير من الجوانب عن الأرندا الكبرى أو الحكومية أو الملكية . ولعل العنصر الأساسي والحاسم في ظهور الأرندا الزراعية هو إبرام اتحاد برست ليتوفسك (وُسِمَى أيضاً اتحاد لوبلين) عام ١٥٦٩ بين ليتوانيا وبولندا . وهو الاتفاق الذي حوّل الوحدة الاسمية (وحدة الأسرتين المالكيتين) بين البلدين إلى وحدة حقيقية . وقامت بولندا بضم أوكرانيا نتيجة هذه الوحدة .

ونتيجة عملية الضم هذه ، وقع تحت تصرف النبلاء البولنديين مساحات ضخمة من الأراضي كانت في حاجة إلى رأس مال ضخم لاستثماره لإدارتها ولد الطرق اللازمة لذلك . وقد تزامن هذا مع تزايد الصادرات الزراعية لبولندا إلى غرب أوروبا (بسبب الانفجار السكاني وحرب الثلاثين عاماً) ، فأصبحت بولندا في الفترة ١٥٧٧-١٦٥٤ مصدراً أساسياً للقمح في أوروبا . فكان يتم تصدير القمح البولندي إلى فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا ، وأحياناً إلى الشرق

٢ - كما تُبين سيرة حياته الدور الريادي الذي لعبه أعضاء الجماعات اليهودية في هذه العملية .

٣ - تُعد حياة بافيا نموذجاً جيداً لكيفية تحول جماعة وظيفية وسيطة إلى جماعة عسكرية ، أو لتداخل الدورين المالي والقتالي للجماعات الوظيفية . ومن ثم ، فإن تطوره الشخصي يشبه تطور الجماعات اليهودية في الغرب ، تلك الجماعات التي كانت جماعات وظيفية مالية في أوروبا ثم تحولت إلى جماعة وظيفية في فلسطين .

الأرندا والإقطاع الاستيطاني

Arenda and Settler Feudalism

«أرندا» كلمة بولندية تعني حرفياً «أجرة» تُدفع مقابل استئجار . وهي ، كمصطلح ، تُستخدم للإشارة إلى استئجار ممتلكات ثابتة ، مثل الأرض والنواحي والفنادق الصغيرة ومصانع الجعة ومعامل تقطير الكحول . أو إلى امتيازات أو حقوق خاصة مثل تحصيل الجمارك والضرائب . وقد تم تبني المصطلح بالمنطق والمعنى المذكور في النيديشية والعبرية . وكان يُشار إلى المستأجر نفسه ، خصوصاً الصغير ، على أنه «أرندا» ، كما كان يُقال له «الأرنداتور» . وكان المصطلح ذائع الانتشار ويصف واحداً من أهم جوانب الاقتصاد البولندي الليتواني في أواخر العصور الوسطى . وقد ارتبط يهود بولندا بنظام الأرندا من بدايته . فهم ، كجماعة وظيفية وسيطة عميلة ، كانوا مهيبين للاضطلاع بهذا الدور ، خصوصاً أن المؤسسة اليهودية الأرثوذكسية أحلت عمليات الإقراض بالربا بين اليهود من خلال التحلّة ، وهو ما سهّل لأي يهودي أن يمول يهودياً آخر ويقرضه رباً ، الأمر الذي وفر الاعتمادات اللازمة للاستثمارات . وكان الارتباط بين أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا وهذا النظام من العمق بحيث أن كلمة «أرنداتور» أصبحت مرادفة لكلمة «يهودي» . وكان يُشار إلى الأرندا ، في بداية الأمر ، بمصطلح «الأرندا الكبرى» أو «الأرندا الملكية» أو «الأرندا الحكومية» . ويشير هذا المصطلح إلى استئجار الاحتكارات العامة والعوائد العامة . وكانت أول أرندا كبرى حصل عليها أعضاء الجماعة اليهودية هو حق تحصيل بعض العوائد الملكية ، أو حق إدارة مؤسسات ملكية مثل دار صك النقود ومناجم الملح والجمارك أو جمع الضرائب . وقد انتشر المستأجرون اليهود من المشتغلين بالأرندا في المقاطعات الشرقية من بولندا في القرن الخامس عشر . أما في غرب بولندا ، حيث كان يتوفر للنبلاء البولنديين (شلاختا) رأسمال كبير ، فقد مُنع اليهود من استئجار حق تحصيل العوائد الملكية باعتبار أن هذه عملية مربحة .

الأوسط من خلال أمستردام حيث كانت هناك أهم بورصة لبيع الحبوب .

كما أخذت بولندا تُصدّر محاصيل زراعية أخرى . وأصبحت جدانسك أهم مدينة تجارية في أوروبا بعد أمستردام إذ كانت تُصدّر مواداً عديدة مثل الحبوب والأخشاب والكتان والقنب والماشية . ومع تزايد الصادرات الزراعية ، حدث تطور في الصناعات الغذائية ، وهو ما أدى إلى صيغ الزراعة في بولندا بصيغة تجارية .

هذه هي الأرضية الاقتصادية المادية لظهور الأرندا الإقطاعية الاستيطانية . ولكن هذا وحده لا يكفي لتفسير ما حدث . فثمة عناصر خاصة بالتركيب الطبقي للشلاختا ورؤيتهم لأعضاء الجماعات اليهودية ووضع اليهود كجماعات وظيفية ساهمت (كلها) مجتمعة أو بدرجات متفاوتة (في تشكيل هذه الظاهرة ودفعها من عالم الإمكانية إلى عالم الوجود المتحقق :

١ - أول هذه العناصر هو أن النبلاء البولنديين لم يكن لديهم الكفاءات أو رأس المال أو الرغبة في إدارة هذه الضياع البعيدة .

٢ - كان النبلاء في بولندا ، برغم سطوتهم وقوة نفوذهم ، خاضعين لقوانين جامدة ، فكانوا يتمتعون بمكانتهم والمزايا الطبقيّة ماداموا لا يعملون بالتجارة . وكان اشتغالهم بالتجارة يعني ، في واقع الأمر ، فقدانهم مكانتهم ووضعهم . ولذا ، كان يُوجد نبلاء فقراء (النبلاء الخفاة) معدومون يفضلون الجوع والفاقة على العمل بالتجارة .

٣ - كان يتعين على النبلاء أيضاً البقاء في وارسو بالقرب من مراكز السلطة حيث تتم عملية صنع القرار السياسي والعسكري بسبب طبيعة النظام السياسي البولندي كملكية جمهورية ، وحفاظاً على المكانة السياسية والتمتع بمظاهر الأبهة الأرستقراطية .

٤ - كانت حاجة النبلاء الإقطاعيين إلى المال تزداد يوماً بعد يوم ، وبخاصة مع تزايد فقر بولندا ، فكانوا يقترضون من المرابين اليهود مبالغ طائلة للوفاء باحتياجاتهم بضمان ضياعهم وغللتها وعوائدها وربيعها .

٥ - تزامن كل هذا مع تزايد تضيق المدن الملكية الخناق على أعضاء الجماعات اليهودية وممارسة التمييز ضدهم .

٦ - شهدت الفترة من ١٥٣٩ - ١٥٤٩ تزايد التقارب بين النبلاء وأعضاء الجماعات اليهودية الذين لم يودوا تحت الحماية الملكية . فكان اليهود إذا طردتهم إحدى المدن الملكية انتقلوا منها إلى مدن النبلاء أو إلى الشتللات داخل ضياع النبلاء .

٧ - كان لدى اليهود كل ما يلزم عملية الاستثمار في ضياع النبلاء من

الخبرة التجارية والإدارية ورأس المال . كما كانوا مادة بشرية حركية ، ولم يكن لديهم أي مناع من الانتقال إلى أوكرانيا لكونها تمثلين للنبلاء البولنديين .

٨ - ولم يكن أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون أية خطورة على النبلاء لأنهم لم يكن يوسعهم ، كعنصر غريب أجنبي ، أن يطالبوا بنصيب في السلطة السياسية يتناسب مع وزنهم الاقتصادي ، وذلك على عكس العناصر البورجوازية المحلية التي عادة ما تطالب بمزيد من الحقوق كلما تزايدت قوتها الاقتصادية .

٩ - كان النبلاء البولنديون ينظرون إلى أعضاء الجماعة اليهودية كعنصر رياضي استيطاني كفف ونافع يساهم في تعمير المناطق غير المأهولة بالسكان وكأداة تستخدم لتنشيط الاقتصاد الزراعي الخامل وإدخال بعض النشاطات التجارية فيه حتى يزيد من ريع الأراضي الزراعية .

لكل هذا ، ظهرت الأرندا الزراعية الإقطاعية الاستيطانية وتشكلت علاقة تعاقدية نفعية بين الشلاختا من جهة واليهود كجماعة استيطانية من جهة أخرى .

ومع تصاعد نفوذ النبلاء وضعف نفوذ السلطة المركزية الملكية ، تزايد اعتماد الجماعات اليهودية على انبلاء ابتداءً من القرن السابع عشر ، وانتقل مركز الجاذبية بالنسبة إليهم من غرب ووسط بولندا إلى المناطق الشرقية في أوكرانيا وغيرها . ومن منتصف القرن السابع عشر ، أصبحوا الطبقة الثالثة أو الجماعة الوظيفية الوسيطة بين النبلاء والأقنان . وقد أصبح أعضاء الجماعة اليهودية أداة النبلاء في ممارسة سلطتهم .

ونحن نصف نظام الأرندا الزراعي (غير الملكي) بأنه «إقطاع استيطاني» لتمييزه عن أشكال الإقطاع السائدة في أوروبا آنذاك . فالنظام الإقطاعي يتسم ولا شك بالاستغلال الضمّي ، شأنه في هذا شأن النظم الاقتصادية الدنيوية (فهذه هي إحدى سمات البشر) . ولكن نظام الأرندا في أوكرانيا اكتسب أبعاداً استغلالية متطرفة تفوق كثيراً الإقطاع العادي . فالعلاقات السائدة في أوكرانيا كانت ولا شك علاقات إقطاعية بين النبلاء البولنديين (والليتوانيين) من جهة ، والفلاحين والأقنان الأوكرانيين من جهة أخرى ، وذلك فيما يختص بملكية الأراضي وتوزيع غلتها . ولكنه كان إقطاعاً اقتصادياً (مجرداً) بلا علاقات اجتماعية إقطاعية (متعينة) . فالإقطاع التقليدي (في أوروبا وفي غيرها من البلاد) يفترض وجود ثقافة مشتركة بين النبيل والفق ، كما يفترض أن النبيل عادة ما يوجد في ضيعته يديرها بنفسه ويدخل في علاقة مباشرة مع فلاحيه . ولذا ، لم تكن علاقة النبيل

السادس عشر والسابع عشر في مثل هذه القطاعات الاقتصادية). كما كانوا يجمعون ضرائب المرور على الكباري والبوابات. بل لم يكن من الممكن إقامة الصلوات الأرثوذكسية إلا بعد العودة للوكيل اليهودي إذ لم يكن بمقدور القساوسة الحصول على مفتاح الكنيسة أو استعارة رداثهم الكهنوتي لإقامة شعائر الصلاة إلا بعد دفع ضريبة. وكان اليهود يشتررون أيضاً المحصولات من الفلاحين. ولأنهم هم الذين كانوا يمتلكون وسائل النقل النهري، فكانوا هم أيضاً الذين يقومون بنقلها. كذلك كان أعضاء الجماعة اليهودية تجار القرية الذين يبيعون الفلاحين ما يريدونه من السلع الضرورية مثل الملح والسلع الترفية.

ونظراً لغياب النبيل الإقطاعي، أصبحت السلطة المباشرة شبه المطلقة في يد اليهودي الذي كان يدير الضيعة، تسانده في ذلك القوة العسكرية البولندية التي تضمن بقاء واستمراره في عملية اعتصار الأتقان الأوكرانيين من كل ثمرات عملهم. وبعد الانتهاء من هذه العملية، كان الأنداتور يَبْقَى حصته من الربيع ويرسل الباقي إلى النبيل. ولكن كثيراً ما كان الوكيل اليهودي يقوم بتحصيل ضرائب من الأتقان والفلاحين بما يزيد على حقه. وقد كانت جماعة يهود الأرندا تتمس بكثير من الخيلاء والقسوة (كما تقول الموسوعة العالمية اليهودية). وكان يهود الأرندا لا يقومون بأية مهام قتالية بل كانوا جماعة وظيفية متحولة تقوم باستغلال الجماهير لحساب الحاكم (شأنهم شأن المالك في المراحل الأولى من تاريخهم قبل تحولهم إلى نخبة حاكمة)؛ وكان رأس المال الربوي والخبرة الإدارية يحلان محل السيف كأداة للاستغلال.

ومع هذا، لم يكن البُعد العسكري مُتَقَدِّماً تماماً. وقد ترجم الإقطاع الاستيطاني نفسه في ظاهرة الشتل والمعبد/القلعة، فقد قام النبلاء بتشديد العديد من المدن الصغيرة كانت الواحدة منها تُسمى «شتل» ويعيش فيها الملتزمون اليهود وأسرهم وأتباعهم في حماية القوة العسكرية البولندية، كما كان عليهم هم أنفسهم أن يتدربوا على حمل السلاح. ولذا، نص القانون على أنه: «يجب على كل رب عائلة يهودية أن يحتفظ ببنادق بعدد الذكور في بيته وبثلاث خرطوشات وثلاثة أراطل من البارود». كما كانت المعابد اليهودية تأخذ شكل قلاع تُوجَد في حواطها كوات حتى يمكن أن تخرج منها فوهات البنادق والمدافع. ويتضح مدى تحول اليهود إلى مادة استيطانية شبه قتالية في تحولهم هم أنفسهم إلى موضوع للصراع بين القوى الشعبية الفلاحية الأوكرانية المنتفضة من جهة والقوى الاستغلالية البولندية من جهة أخرى. فحينما حقق بوجدان

الإقطاعي بأرضه علاقة تجارية خارجية موضوعية برانية وحسب وإنما كانت ذات جانب جواني يأخذ شكل الالتزام بمسئوليته كنبيل إقطاعي بكل ما تقتضيه النبالة وتفترضه وتفرضه من أعباء. وكانت هذه الروابط الإقطاعية المتعينة تخفف إلى حد ما من حدة الاستغلال الاقتصادي. أما في حالة النبيل الإقطاعي البولندي، فهذه الشروط لم تكن متوفرة البتة، فهو كان دائماً غائباً عن ضيعته، ولم تكن له أية علاقة مباشرة معها أو مع فلاحيه، وكان يمثله عنصر بشري استيطاني غريب يمثل همزة الوصل بينه وبين فلاحيه. وكان اهتمامه بضييعته اهتماماً مالياً (تجارياً) ضيقاً، حيث كانت تمثل مصدراً للدخل وحسب (وليست مظهراً من مظاهر الأبهة الإقطاعية والمكانة الأرستقراطية والحسب والنسب) فهو لا يتحدث لغتهم الأوكرانية ولا ينتمي إلى كنيستهم الأرثوذكسية. وأدَّى هذا إلى تزايد استغلال النبلاء للفلاحين في أوكرانيا وفي خارجها، وإلى تحول نظام الأتقان إلى نظام عبودي إذ لم تكن توجد قوة تقف في وجه النبلاء وتضع حدوداً لاستغلالهم. وقد أصر النبلاء على حقهم المطلق في إقرار الحياة والموت بالنسبة إلى الأتقان.

وما بين النبلاء البولنديين الكاثوليك والأتقان الأوكرانيين الأرثوذكس كان يقف الملتزم (الأرنداتور) اليهودي، أداة الأول في سحق الثاني. وبذلك تشكلت واحدة من أهم الجماعات الوظيفية المالية الاستيطانية شبه القتالية. وكانت العلاقة بين النبيل ووكيله اليهودي عادة ما تأخذ شكل قرض يحصل عليه النبيل من اليهودي للوفاء باحتياجاته بضمن ربح ضيعته (التي يديرها اليهودي) أو أي عوائد أخرى مثل عوائد قطع الأخشاب ونقل البضائع وغير ذلك من النشاطات الخرفية والتجارية.

وكان الممولون اليهود يستأجرون أحياناً مناطق ومدناً بأكملها ولعدة سنوات. ففي عام ١٥٩٨، قام أحد أثرياء اليهود باستئجار جملة الأراضي التي يمتلكها مجموعة من النبلاء بلغت مساحتها مئات الأميال المربعة، وكان يدفع إيجاراً ضخماً لها. وكان كثير من يهود الأرندا يؤجرون الضياع من الباطن لصغار الممولين اليهود أو يرسلون في طلب أقارب لهم من بولندا ليقوموا بإدارة الضياع نيابة عنهم.

وكان الأرنداتور اليهودي يحصل على كل الامتيازات الممكنة مثل إدارة الخانات وطواحين الغلال ومعامل الألبان ومعامل التقطير وصناعة الكحول ومناجم الملح وقطع الأخشاب والفراء ودينج الجلود والصباغة وصناعة الزجاج وصنع الصابون (وقد أصبح أعضاء الجماعات اليهودية العنصر الإنثي السائد خلال القرنين

كانت العلاقات بين الجماعات اليهودية تسهّل اتصالاتهم وتعمل منهم شبكة قوية ووحيدة للتجارة الدولية) .

وقد ارتبط مصير أعضاء الجماعة اليهودية تماماً بمصير الأردن (الزراعي الإقطاعي الاستيطاني البولندي) والقوة العسكرية البولندية التي كانت تساعده . وقد كان لنظام الأردن الإقطاعي الاستيطاني أعظم الأثر في تطور تاريخ الجماعة اليهودية في بولندا . وهو ما أثر بدوره في تاريخ الجماعات اليهودية في غرب أوروبا وأعطى المسألة اليهودية في شرق أوروبا ملامحها الخاصة :

١ - وجد اليهود أنفسهم بين مطرقة النبلاء وسندان الفلاحين . وقد كان اليهودي هو مثل الإقطاع البولندي الشرير وأداة الاستغلال المباشرة الواضحة . إذ تم حوسنته تماماً من قبل النبلاء . وكانت شراعة النبلاء الإقطاعيين تزداد سنة بعد سنة ، فكانوا يزايدون من قيمة الإيجار . وكان على الوكيل اليهودي أن يزيد بدوره من الضرائب والإيجارات التي يحصلها من الفلاحين . ولكن يهود الأردن كانوا يعيشون بين الفلاحين في أوكرانيا ، بينما كان النبيل الإقطاعي يعيش في ضيعته أو قصره في بولندا .

٢ - حدث ليهود بولندا ، نتيجة لنظام الأردن ، تطوران متناقضان : (أ) انعزل يهود الريف عن المراكز الشموعية في المدن الكبرى ، واكتسبوا ثقافة الفلاحين لسلالين لتخلفة ، وتشبهوا بالنفكوتور الريفية بما في ذلك العقائد الشعبية المسيحية . الأمر الذي أضعف هويتهم اليهودية . وكانت هذه تربة خصبة لنشوء الحركات المسيحية . ويلاحظ أن الحركتين الحسيدية والقرانكية نشأت في منطقة بودوليا ، وانتشرت بين يهود أوكرانيا أسرع من انتشارها بين بقية يهود شرق أوروبا .

(ب) في الوقت نفسه . ونظراً لتزايد عددهم . كان اليهود يوجدون لا على هيئة أقلية صغيرة تعيش داخل الجيتو في إحدى المدن المسيحية وإنما على هيئة مدن صغيرة (شنتلات) تضم جمعات بشرية بشكل اليهود فيها نسبة مئوية كبيرة بل لأغلبية العظمى أحياناً ، ومن هنا تكلمت هويتهم وانعزلت واحتفظ اليهود برطانتهم الألمانية (اليديشية) . وقد ساهم الانفجار السكاني الذي حدث بينهم في تعميق هذا الانحياز .

٣ - زادت الأردن من نشوء البناء الطبقي ليهود بولندا بحيث تركزوا في تجارة الخمر التي أصبحت مشكلة أساسية في الريف البولندي (ثم الروسي بعد ذلك) .

٤ - وبعد نشوء البناء الوظيفي والعزلة وتزايد الأعداد ، ضم هذا الجزء من بولندا إلى روسيا ، فوجدت روسيا عندها هذه الكثافة

شميلنكي (الزعيم الفلاحي الأوكراني) انتصاراً على البولنديين عام ١٦٤٩ ، نصت المعاهدة المبرمة بين الطرفين على عدم السماح لليهود بالاستيطان في أوكرانيا إذ أن وجودهم فيها كان علامة على الهيمنة البولندية فهم أداته الطليعة . ولكن حينما ألحقت القوات البولندية الهزيمة بقوات شميلنكي عام ١٦٥١ ، اضطر إلى الاعتراف بحق اليهود في الاستيطان في ضياع الملك والشاختا . ولذا ، قد يكون من الأفضل أن نسمي يهود الأردن «المالك التجارية الاستيطانية شبه القتالية» . وقد كانت هذه الشنتلات تضم المعبد/القلعة (وهو معبد يهودي كان مضمماً بحيث يمكن استخدامه كحصن وقلعة عسكرية ، كما كانت تُقام فيه أيضاً الصلاة والدراسة) . وكانت حوايط المعبد/القلعة سميكة للغاية ، كما أن المتاريس كانت مزودة بكوات لتخرج منها المدافع والبنادق .

وقد أصبح أعضاء الجماعة اليهودية ، بعلاقتهم القوية مع النبلاء والقوى التجارية الدولية ، محميين من تقلبات المجتمع الإقطاعي ومن غش وخداع البلديات والموظفين الملكيين ، ووجدوا المناخ المستقر الذي يحتاج إليه النشاط التجاري والمالي دون ضغوط وتهديد . وتحسّن وضعهم كثيراً . وقد أصبح بعض يهود بولندا وروسيا من كبار تجار الأخشاب والحبوب في أوروبا .

وكان مسرح نظام الأردن هو أوكرانيا التي أصبحت النقطة التي التقت فيها عناصر عديدة غير متجانسة أهمها النبلاء البولنديون الإقطاعيون الكاثوليك والفلاحون الأوكرانيون الأرثوذكس (الذين يتحدثون الأوكرانية) والتجار اليهود (الذين يتحدثون اليديشية) غير المتمين لهذا أو ذاك والذين يشكلون الوسيط التجاري والإداري والمالي بين الطرفين (إلى جانب الفجر والتتار وبعض الأرمن) .

ويلاحظ أن التقسيم الطبقي كان أيضاً تقسيماً عرقياً وإثنيّاً ودينيّاً . ولم يكن نشاط الأردن مقصوراً على أوكرانيا وبولندا بل أصبح جزءاً من شبكة تجارة دولية . فكان كبار النبلاء الإقطاعيين البولنديين يمتلكون الأرض في أوكرانيا ويؤجرونها ، والألمان يديرون الموانئ على بحر البلطيق ، والهولنديون يمتلكون السفن البحرية لنقل السلع . أما أعضاء الجماعة اليهودية ، فقد قاموا ببقية العملية ومن بينها نقل المحاصيل بوسائل النقل النهري التي كانوا يمتلكونها . وقد نشأت علاقة قوية بين يهود البلاط في دول أوروبا الوسطى ، وبين يهود الأردن إبان حرب الثلاثين عاماً ، حيث كان يهود البلاط يستوردون الحبوب من بولندا . وكان يهود الأردن يقومون بتدبير الغلال المطلوبة التي كانت تزايد حاجة أوروبا إليها (وهذا يبين كيف

(النبلاء البولنديون - الوسطاء اليهود المستوطنون - أقتان أوكرانيا) تشبه كثيراً العلاقة الثلاثية السائدة في الشرق الأوسط (الإمبريالية الأمريكية - الوسطاء الصهيونية المستوطنون - عرب فلسطين) . والعنصر اليهودي في كلتا الحالتين عنصر استيطاني نافع يتم الحفاظ عليه بمقدار نفعه وليست له أهمية في حد ذاته .

وما حدث، بشيء من التبسيط ، هو أن المالك التجاري الاستيطانية شبه القتالية في أوكرانيا تحولت إلى ممالك استيطانية قتالية شبه تجارية في فلسطين بعد تأسيس الدولة المملوكية الصهيونية، وهي دولة ذات قيمة إستراتيجية عسكرية بالنسبة للغرب (بالدرجة الأولى) وذات أهمية تجارية اقتصادية (بالدرجة الثانية) . ومع ظهور النظام العالمي الجديد ، قد تراجع الوظيفة العسكرية القتالية لشغل المرتبة الثانية بينما تشغل الوظيفة التجارية الاقتصادية الدرجة الأولى، ولذلك سيتطابق وضع الدولة الصهيونية مع يهود الأرنداء إذ ستصبح دولة وظيفية تجارية شبه قتالية . ونحن، بهذا، نكون قد اكتشفنا استمرارية ميتافيزيقية داخل التاريخ اليهودي الوهمي .

الخمور (النبذ والكحول) والاتجار فيها

Wine and Liquor Trade

«تجارة الخمور والنبذ» هي تجارة عادةً ما تضطلع بها جماعات وظيفية ، ربما لأن الخمر تُذهب الوعي وترتبط في كثير من العقائد بالقدس والغيب ، أي أن الخمر مرتبطة بمنطقة وجدانية تقع خارج نطاق المؤلف والعادي والروتيني ، ومن هنا تظهر ضرورة اللجوء إلى جماعة وظيفية محايدة ، ليس في مقدورها أن تُؤلف لحظة غياب الوعي هذه لصالحها (بسبب عجزها) ، تماماً مثل الحلاق الذي تُسلم له رأسك ليقص الشعر ، ويمكنه أن يقطع رأسك ويسلم من العقوبة إن كانت تسنده مجموعة من البشر لها سلطة . والشئ نفسه ينطبق على الماشطة التي تدخل البيوت وتعرف أخص خصائص النساء ، وهو ما يجعلها مستودعاً لكثير من الأسرار التي يمكن أن تُستخدم ضد من قالها . ولذا ، فلا بد لمن يقوم بمثل هذه الوظائف أن يكون محايداً مجرداً من السلطة تحت رحمة المجتمع تماماً ، حتى لا يسيطر عليه .

ويبدو أن التحريم التلمودي الخاص بتناول خمور الأغيار جعل أعضاء الجماعات اليهودية مضطرين إلى أن يكون لهم كرومهم ومصانع الخمور الخاصة بهم . ولكن ، مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي في الغرب ، كانت كل مزارع الكروم المملوكة لليهود قد تمت

البشرية التي تحدث اليديشية وتؤمن بالحسيديّة وتاجر في الخمور ، وهي كتلة كانت مكروهة من السكان المحليين . وكانت البيروقراطية الروسية جاهلة باليهود وبكيفية التعامل معهم ، ذلك لأنه كان مُحرمًا عليهم دخول الإمبراطورية حتى نهاية القرن الثامن عشر .

٥ - كان الوضع الطبقي المميز لليهود داخل البناء الاستيطاني للإقطاع يعني أنهم ليسوا عنصرًا من التشكيل الحضاري البولندي . ولذا ، حينما نشأت حركات ثورية مثل انتفاضة شميلنكي في أوكرانيا ثم الحركة القومية في بولندا ، كان اليهود يقفون خارجها امتداداً لوضعهم الطبقي الهامشي والطفيلي . فهم لم يكونوا مستغلين فقط ، مثل النبيل الإقطاعي الفرنسي أو التاجر الإنجليزي ، وإنما كانوا غرباء أيضاً فستقطوا مع سقوط نظام الإقطاع الاستيطاني البولندي . وقد أضفت كل هذه العناصر على المسألة اليهودية في شرق أوروبا ملامحها الخاصة .

٦ - لم يكن هناك يهود يعيشون بشكل قانوني في إنجلترا أو فرنسا أو هولندا أو إسبانيا أو البرتغال أو الدول الإسكندنافية أو إمارة موسكو في عام ١٥٥٠ . وكان يهود أوروبا كافة مُركّزين أساساً في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا أو إيطاليا حتى أنه ، في القرن السابع عشر ، كان هناك مركزان أساسيان في العالم لليهود : أحدهما في الإمبراطورية العثمانية وهو الذي استوعب العديد من اليهود الذين طُردوا من أوروبا الغربية وشبه جزيرة أيبيريا ، وثانيهما في بولندا وليتوانيا . وقد أخذ غزو يهود بولندا في الزيادة ابتداءً من القرن السادس عشر حتى أن أغلبية يهود العالم كانت في بداية القرن العشرين من نسل يهود بولندا (بل يُقال إن كل يهود العالم الغربي من أصل بولندي باعتبار أن العناصر اليهودية المحلية تم صهرها تماماً في الأغلبية) .

٧ - كل هذا يعني ، في واقع الأمر ، أن التجارة والاستيطان والقتال جزء أساسي من التجربة التاريخية للغالبية العظمى من الجماعات اليهودية في الغرب ، وأنهم دخلوا العصر الحديث وعندهم قابلية (تبادل اختياري) للاشتراك في العمليات الاستيطانية القتالية . وفي هذه التربة الخصبة ، ظهر جوزيف فرانك اليهودي البولندي المتصّر الذي طالب بتسليح اليهود وتأسيس دولة مستقلة لهم . كما ظهر الحل الصهيوني للمسألة اليهودية المبني على تصديرها باعتبار أن اليهود عنصر استيطاني غريب (ومن المعروف أن معظم قيادات الصهيونية الاستيطانية من أصل بولندي روسي) .

ويمكن القول بأن الأرنداء الإقطاعية الاستيطانية تُكمل الحلقة المفقودة بين تجربة يهود الغرب والتجربة الصهيونية . فالعلاقة الثلاثية

وقد بدأت حركة استبعاد أعضاء الجماعات اليهودية من صناعة الخمر في بولندا وامتدت إلى روسيا واستمرت فيها . ونصت براءة التسامح التي أصدرها جوزيف الثاني على ضرورة طرد اليهود من صناعة الخمر خلال عامين . ومع تفاقم مشكلة سُكر الفلاحين ، ازدادت ضراوة التشريعات ضد اشتغال اليهود بتجارة الخمر . ولكن كل هذه التشريعات لم تنجح ، إذ أن إيمان الفلاحين السلاف للخمر كان نتاج ظروف حضرية واجتماعية مُركّبة لم يكن اليهود مسئولين عنها ، وإن كانوا قد استفادوا منها . ولم تحسّم المسألة نهائياً إلا مع ظهور نظم اشتراكية في روسيا وبولندا أتمت كل وسائل الإنتاج ، ومنها صناعة الخمر . وأوجدت فرصاً مبدئية لليهود .

ويبدو أن تقاليد الاشتغال بإنتاج النبيذ وتسويق استمرت على يد المستوطنين الصهية في فلسطين ، إذ زرعوا كثيراً من الكروم وقاموا بتقطير الخمر . وقد قمت مدرسة مكثف إسرائيل الزراعية بزراعة أول أشجار كروم أوربية ، وأسست أول قبو خمر على الطريقة الأوربية . وكان البارون إدوموند روتشيد مهتماً بزراعة الكروم في فلسطين مؤملاً أن تتحوّل إلى أحد الأسس الاقتصادية لفقرية اليهودية في فلسطين . وقد قام ببناء أقبية كبيرة للخمر . ولكن التجربة لم تنجح ، مثلها مثل كثير من التجارب الاستيطانية الأخرى .

الإعلان

Advertising

لعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً مهماً للغاية في صناعة الإعلان ، وخصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية حيث ارتبطت هذه الصناعة بأنشطة المجتمعات الرأسمالية الحديثة . ويُعتبر رجال صناعة الإعلان من اليهود من أهم العناصر المسئولة عن تطوّر مؤسسة الإعلان الحديثة وعن اتساع نشاطها وتطوّر أسلوب عملها . والواقع أن اتساع النشاط التجاري في المجتمعات التقليدية لا يعرف ظاهرة الإعلان . إذ كان النشاط الاقتصادي محكوماً بمجموعة من القيم الدينية والأخلاقية التي لا تسمح بالتنافس الشديد ولا بمحاولة التأثير على الزبائن واصطيادهم . ومع هذا ، كان كثير من التجار في كثير من بلدان العالم الغربي يجارون بالشكوى من التجار اليهود بسبب ملاحظتهم الزبائن أمام المحال التجارية وفي الطرقات وحتى في منازلهم . ولعل هذا يعود إلى أن التاجر اليهودي لم يكن ملتزماً بالقيم المسيحية مثل الشمن العادل والمنجية . كما أن أعضاء المجتمع المضيف ، في علاقتهم به كعضو في جماعة وظيفية ، هم مجرد شيء ، بشكل مصدر أرباح .

تصنيفتها مع انسحابهم التدريجي من مهنة الزراعة . ولكن اتجارهم في النبيذ والمشروبات الكحولية استمر حتى أصبحت هذه المهنة إحدى المهن أو الوظائف اليهودية الأساسية في شرق أوروبا وألمانيا . ومع بداية القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، كان إنتاج المشروبات الكحولية وبيعها في بولندا وليتوانيا عملاً أساسياً يمتنعه أعضاء الجماعات اليهودية ومصدراً من أهم مصادر الدخل بالنسبة لهم ، كما أصبح هذا العمل مهنة أساسية في بوهيميا والمجر . وقد ازداد ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بتجارة الخمر نتيجة لنظام الأرندا . فرغم أن الخمر كانت تمثل الترف الأساسي في حياة الفلاحين ، إلا أنهم كانوا ممنوعين من تقطيرها ، إذ أن هذا الحق كان مقصوراً على النبلاء البولنديين ، وكان تأجير هذا الحق مصدراً أساسياً للربح الذي يحصل عليه النبيل من مستأجر الامتياز (الأرنداتور) . فكان اليهود يستأجرون معامل التخمير والتقطير والحانات ، والتي كانت مرتبطة بنظام الأرندا في بولندا وأوكرانيا وروسيا البيضاء . وقد أصبح اليهودي (صاحب الحانة) شخصية أساسية في الريف الأوكراني وفي المدن الصغيرة . وكان اليهود يحتكرون - تقريباً - إنتاج وبيع المشروبات الكحولية . وكانت نسبة عالية منهم تعمل في هذه التجارة حتى بلغت ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ١٥٪ من مجموع يهود المدن و ٨٥٪ من يهود الريف .

وقد تسبّب اشتغال اليهود بهذه التجارة في نشوء كثير من التوترات بينهم وبين بقية السكان . كما كان الفلاحون السلاف يفرطون في الشرب ، وهو ما كان يزيد من أرباح اليهود ، خصوصاً أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا لا يشربون بهذا الإفراط .

وكان أعداء اليهود بين طبقات المجتمع الأخرى يلقون اللوم على اليهود ، مع أن الإفراط في الشرب كان ظاهرة اجتماعية صاحبت تدني الأوضاع الاقتصادية والثقافية في شرق أوروبا والذي لم يكن اليهود مسئولين عنه بل ضحية له . وكانت الطبقات الحاكمة في شرق أوروبا (روسيا وبولندا) ترى أن اليهودي هو سر بلاء الريف وبلاء سكانه ، ولذا كانوا يرون أن إصلاح حال الفلاحين لن يتأتى إلا بطرد اليهود من صناعة الخمر . ومع تدهور الاقتصاد البولندي ابتداءً من القرن الثامن عشر الميلادي ، بدأت العناصر التجارية المسيحية تتجه إلى الهيمنة على تجارة النبيذ والكحوليات المربحة بين السكان . وكلما ازداد إفقار المدن وإفقار سكانها ، كانت المطالبة بتأميم تجارة الخمر تزداد ضراوة . وأصبح استبعاد اليهود من هذه التجارة مطلباً أساسياً تطرحه الطبقة الوسطى البولندية ، ثم أصبح هذا جزءاً من سياسة كثير من الدول المطلقة المستنيرة .

جديداً في الإعلان يعتمد على تَبَنِّي نبرة هادئة تميل إلى التواضع في تقديم الإعلانات وهو أسلوب تبنته كثير من وكالات الإعلان الأخرى . وابتكرت وكالة أخرى ، وهي وكالة نورمان كرايج وكومل ، أسلوباً جديداً في الإعلان أطلقت عليه اسم «الإعلان العاطفي» ، وهو أسلوب يهدف إلى خَلْق نوع من التماثل والاندماج العاطفي عند المتلقي تجاه السلعة موضوع الإعلان . وكل هذه أساليب تميل إلى اللعب على الجوانب النفسية والعاطفية والحسية لدى المستهلك باعتباره مجرد هدف يتم توظيفه . ومن الجدير بالذكر أن عالم النفس المعروف إرنست ديختر من أهم الشخصيات اليهودية الأمريكية التي كانت لها مساهمات مهمة في صناعة الإعلان والذي أسس معهد بحوث الدوافع .

وفي إنجلترا ، لم يصل أعضاء الجماعة اليهودية إلى مواقع بارزة في صناعة الإعلان إلا بعد الحرب العالمية الثانية . ولم تَمُ صناعة الإعلان في أوروبا إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، بعد أن شهدت وسائل الاتصال نمواً وتوسعاً كبيرين ، إلا أن مشاركة أعضاء الجماعات اليهودية فيها انتهت مع مجيء النازية واندلاع الحرب العالمية الثانية . أما بعد الحرب ، فكان لاتساع وامتداد نشاط وكالات الإعلان الأمريكية والبريطانية إلى أوروبا دور في أن يصبح لرجال الإعلان من اليهود شأن بارز في صناعة الإعلان الأوروبية .

ويجب التنبيه إلى أن اشتراك أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في قطاع الإعلانات لا يجعل منه نشاطاً اقتصادياً يهودياً ، فهو أولاً وأخيراً جزء لا يتجزأ من آليات السوق بكل وحشيته وعدم اكترائه بالقيم الإنسانية والأخلاقية ، ومحاولته توظيف الدوافع الإنسانية ، خصوصاً الدافع الجنسي ، في محاولة بيع السلع . وقد ظهر قطاع الإعلانات وتطوّر بظهور وتطوّر الاقتصاد الحديث ، خصوصاً الرأسمالي . ويمكن القول بأن قطاع الإعلان كان سيظهر ويتطور سواء كان هناك يهود أم لا ، تماماً كما ظهر وتطوّر في اليابان والهند وهي بلاد لا تُوجَد فيها أقليات يهودية تُذكر . ومع هذا ، يمكن القول بأن وجود أعضاء الجماعة اليهودية داخل هذا القطاع بشكل ملحوظ لا يمكن تفسيره إلا على أساس انتمائهم إلى أقلية تشكل جماعة وظيفية ، أي أن يهوديتهم تفسر تزايد عددهم داخل هذا القطاع الاقتصادي ولكنها لا تفسر وجود هذا القطاع وتطوره وآلياته . وهذا ، على كلٍّ ، هو النمط المهم في كثير من الظواهر في العالم الغربي ابتداءً من الرأسمالية والاستعمار وانتهاءً بالطلاق والإباحية والشذوذ الجنسي .

وتزايدت أهمية الإعلانات في التجارة مع تزايد علمنة المجتمع وتزايد حدة المنافسة التجارية . لكن النقلة النوعية حدثت مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد أن حققت الثورة الصناعية توسعاً في الإنتاج ، وبعد غو طبقة وسطى من المستهلكين شكلت السوق الأساسية للمنتجات والسلع الاستهلاكية المختلفة ، حيث أصبحت الإعلانات جزءاً لا يتجزأ من آليات السوق . وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية من العناصر الرائدة في قطاع الإعلان نتيجة ميراثهم التاريخي كجماعات وظيفية تمتلك خبرات تجارية ومالية مهمة أهلّتهم لدخول مجالات كانت لا تزال تُعدُّ جديدة وغير مألوقة وبالتالي تتميز بقدر كبير من المخاطرة . وبالإضافة إلى ذلك ، يمكن فهم ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بصناعة الإعلان من خلال ارتباطهم بتجارة التجزئة والصحافة اللتين كانتا أيضاً من الأنشطة الجديدة التي صاحبت نمو المجتمعات الصناعية الرأسمالية ، وهي أنشطة احتل فيها أيضاً أعضاء الجماعات اليهودية مكان الريادة . وبالتالي اكتسبت صناعة الإعلان أهمية كبيرة لتسويق منتجات مؤسسات التجزئة التجارية الجديدة ، في حين شكلت الصحافة الأداة الرئيسية للإعلان عن هذه المنتجات .

ويعتبر الأمريكي اليهودي ألبرت لاسكر أباً لصناعة الإعلان الحديثة حيث عمل على تحويل مهمة وكالة الإعلان ، من مجرد وسيط بين المؤسسات التجارية التي كانت تضع برنامج الإعلانات لمنتجاتها من ناحية والصحافة وأجهزة الإعلام من ناحية أخرى ، لتصبح الجهة الرئيسة المسؤولة عن رسم وتخطيط ونشر الإعلانات الخاصة بمنتجات هذه المؤسسات . وقد انضم لاسكر عام ١٨٩٨ إلى وكالة إعلان لورد وتوماس في شيكاغو ، وأصبح عام ١٩٠٤ (وعمره ٢٤ سنة) شريكاً بها ، ثم أصبح مالكها الوحيد عام ١٩١٢ . وقد نجح لاسكر خلال ثلاثة عقود في تحويلها إلى واحدة من أهم وكالات الإعلان في الولايات المتحدة .

ويعتبر ميلتون بيو Biow المسؤول عن تطوير وكالة الإعلان الحديثة لتلبية احتياجات عالم التجارة والأعمال الحديثة . كما أسس إحدى أهم كبريات وكالات الإعلان في الولايات المتحدة والعالم . ويُعدُّ أول من استخدم الراديو والتلفزيون لتقديم الفقرات الاعلانية القصيرة .

ويعتبر وكالة جراي للإعلان ، التي أسسها لورانس فالنستاين ، من أهم مؤسسات الإعلان التي أوجدت فكرة خَلْق الطلب على السلعة قبل طرحها في الأسواق . كما ابتكرت وكالة إعلان أخرى هي وكالة دوتل داين وبرنارخ التي تأسست في عام ١٩٤٩ أسلوباً

تجارة الرقيق

Slave Trade

«تجارة الرقيق» هي تجارة تقوم بها عادة جماعة وظيفية مالية . وتُحرّم اليهودية على اليهودي استعباد اليهودي مدة تزيد على ستة أعوام ، ولكنها لا تُحرّم استعباد غير اليهود أو الاتجار فيهم . ويقال إن العبرانيين القدامى كانوا عبيداً في مصر ، وهو قول غير دقيق . فبرغم أن الاقتصاد المصري كان متقدماً ، فإنه كان يعتمد أساساً على السخرة ، مع عدم استبعاد أن تكون جماعة غريبة مثل العبرانيين قد تحولّت إلى عبيد وبخاصة بعد انحسار حكم الهكسوس : حُماتهم . ولم يكن العبرانيون ، عند هجرتهم من مصر وتغلغلهم في كنعان وسكانهم فيها (في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد) ، على مستوى اقتصادي وحضاري متقدم ، ولذا لم تكن لديهم حاجة إلى العبيد . ومن هنا حديث العهد القديم الدائم عن زيادة سكان القرى والمدن التي كان يجتاحها العبرانيون . ولم تكن المملكة العبرانية المتحدة ، هي الأخرى ، في حاجة إلى العبيد بسبب بساطة اقتصادها ، فقد سدت حاجتها من العبيد عن طريق استعباد العبرانيين الذين فشلوا في أداء ديونهم . ولم يختلف الوضع كثيراً في المملكة الشمالية أو المملكة الجنوبية . ولا يُعرف عن العبرانيين أنهم اشتغلوا بتجارة الرقيق أو أنهم كانوا يستعبدون أعضاء من الشعوب المجاورة . كما أنهم لم يتحولوا إلى عبيد . ولكن هناك إشارة إلى أن بعض فراغة مصر كانوا يتبادلون مع المملكتين العبرانيتين الأحصنة المصرية بالمقاتلين اليهود ، وأن هؤلاء العبيد هم الذين تحولّوا إلى جماعة وظيفية قتالية في جزيرة الفنتين . وكان التهجير الآشوري والبابلي عملية نقل كتلة بشرية من مكان إلى آخر ولكنها لم تحولّ المهجرين إلى عبيد ، بل إن بعضهم أصبح من كبار الممولين . ولا تختلف الصورة في عصر الإمبراطوريات الفارسية واليونانية (السلوقية والبطلمية) ثم الرومانية .

لكن الصورة تختلف في العصور الوسطى في أوروبا . فنظراً لفقر أوروبا الشديد ، كان الرقيق أحد السلع القليلة التي يمكنها توريدها إلى الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي حتى يمكنها استيراد البضائع منها . أي أن توريد العبيد كان نوعاً من أنواع تصحيح ميزان المدفوعات . ولذا ، كانت تجارة الرقيق جزءاً أساسياً من التجارة الدولية . ولكن المصدر الأساسي للعبيد كان هو بلاد السلاف الوثنية المشتق اسمها من كلمة «سكلافوس» scelavus من لاتينية العصور الوسطى أي عبد (ومن هنا اسمهم العربي «الصقالبة») ، إذ كانت الدول المسيحية تُحرّم الاتجار في العبيد

المسيحيين كما كانت الدولة الإسلامية تُحرّم الاتجار في العبيد المسلمين . وكانت قوافل اليهود تنقل لأخذ العبيد من السلاف لتفعلهم وبيعهم . وكان أعضاء الجماعات اليهودية مهنيين أكثر من أي قطاع آخر في المجتمع للاضطلاع بهذه الوظيفة . فقد كانوا جماعة وظيفية وسيطة يمكنها أن تعيش بين الفراعنة وأن تدير مثل هذه التجارة المشينة التي لا يمكن أن يقوم أعضاء المجتمع بإدارتها . كما أن كونهم يهوداً قد زودهم بأخمية في حرّكتهم الدائبة بين العالَمين المسيحي والإسلامي وكان يوسعهم أن يبيعوا عبيداً مسيحيين في العالم الإسلامي وعبيداً مسلمين في العالم المسيحي . ويذكر ابن خردادبة أن العبيد كانوا من أهم السلع التي يحملها التجار الرافضية . وقد عملت أعداد كبيرة من أنصار اليهود في تجارة الرقيق منذ العصور الوسطى حتى القرن الخامس عشر الميلادي . وهذا أمر طبيعي ، فتجارة الرقيق كانت جزءاً من أنشجارية الذونية . وقد منح هؤلاء التجار الموائم التي تميمهم وتحمي سلعهم . وكان من المنوع تعمد العبد لأن هذا يعني فقدان التاجر اليهودي سنته . وكان هذا مصدر احتكاك شديد بين التجار اليهود والكنيسة . بل بين هؤلاء التجار ومعظم طبقات العالَم الغربي المسيحي في العصر النوسيط . وبعد الثورة التجارية ، ظهرت تجارة الرقيق - المرتبطة بالنظام الاقتصادي التجاري الجديد - والتي تضمت إمكانات مادية ضخمة من سفن إلى جنود وحملت في المستعمرات تحتاج إليها عملية اصطياد العبيد من أفريقيا وتوريدهم إلى المستوطنات في العالم الجديد . وقد انضم بعض كبار النشجيين اليهود إلى هذه التجارة ولعبوا دوراً نشطاً ، فامتلك يهود المدينتي (السفارد) أنعبيد ، خصوصاً في مستعمرات الكاريبي ، وقاموا بالتجارة فيهم . وما يسر لهم عملهم هذا . شبكة الاتصالات اليهودية الضخمة في تلك الآونة ، فقد كان للمزارع قواعد في البرتغال وفي المستعمرات البرتغالية في أفريقيا وفي العالم الجديد وفي هولندا ومستعمراتها . كما كانت لهم ركيز في الذونة العثمانية وغيرها من الدول .

وكان بعض أعضاء الجماعات اليهودية من كبار تجار العبيد في المستعمرات الهولندية في الأمريكتين ، فكانوا يعملون بهذه المهنة في البرازيل الهولندية (١٦٣٠ - ١٦٥٤) ، كما عمل بعضهم بها في القرن الثامن عشر الميلادي في العالم الجديد . فاشتركوا في التجارة المشينة أي شحن البضائع الأوروبية ، مثل الأسلحة والبارود والمشروبات الروحية (الخن) والخلي الرخيصة ، إلى الساحل الأفريقي . وتحمل هذه السفن بالعبيد الذين كانوا يباعون في المزارع الأمريكية وفي جزر الكاريبي ، ثم تعبث هذه السفن بالمنتجات

الجماعة اليهودية ، شأنهم شأن كل سكان الجنوب ، فعملوا بالزرايدات وتقديم الائتمانات وإنجاز الأعمال التجارية في سوق الرقيق . ويبدو أن نسبة المشتغلين بتسيير تجارة الرقيق منهم كانت أعلى من نسبة المشتغلين بها بين المسيحيين ، نظراً لتركز اليهود في الأعمال التجارية والمالية . ولم يقتصر اشتراك أعضاء الجماعات اليهودية على المؤسسات الخاصة بإدارة تجارة الرقيق ، بل تعاملوا في سلعته البشرية الأساسية ، أي الرقيق . فكان لابد لمن يمتلك رقيقاً أن يتاجر فيه بيعاً وشراءً ، لأن الرقيق كان سلعة ثمينة . ومع هذا ، لم يكن يوجد يهودي واحد بين كبار التجار . والواقع أن رأس المال المركز في أيدي ممولين يهود كان ضئيلاً بالنسبة إلى رأس مال العمالة من المسيحيين البيض . ففي ريتشموند ، كان هناك ثلاثة تجار يهود من بين سبعين تاجراً ، وفي تشارلستون كان يوجد أربعة تجار يهود بين أربعة وأربعين ، وفي ممفيس تاجر واحد بين اثني عشر تاجراً . وبرغم الانخفاض المطلق في عددهم ، فإن نسبة وجودهم في تجارة الرقيق كانت عالية للغاية ، إذ كانوا يشكلون نحو ٨٪ من التجار في المتوسط . وكانت نسبة اليهود إلى عدد السكان ، في الجنوب وفي الولايات المتحدة ، ضئيلة للغاية لأن عصر الهجرة اليهودية من شرق أوروبا ، الذي أتى بالكثافة السكانية ، لم يكن قد بدأ بعد . وعلى أية حال ، لم تتجاوز نسبة اليهود في الولايات المتحدة في ذلك الوقت نصفاً في المائة .

ولعل عدم وجود اليهود في هذا القطاع بنسبة كثيفة كان انعكاساً لوضعهم داخل الاقتصاد الأمريكي ، فهم دائماً على مقربة من المستهلك ، بعيدون عن الصناعة الثقيلة وعن المراحل الأولى من الإنتاج ، وقد كان الرقيق جزءاً من المراحل الأولى للإنتاج الزراعي في الجنوب . ولم يكن هناك رفض يهودي لتجارة الرقيق ، إذ كان جيكونب لفين رئيس الجماعة اليهودية في ساوث كارولينا وإسرائيل جونز رئيس الجماعة في موبيل (ألاباما) من تجار العبيد في عام ١٨٥٠ . وقد استمر التجار اليهود مشاركين في تجارة الرقيق حتى نهاية الحرب الأهلية الأمريكية .

وقد أبقى بعض اليهود البيض محظيات سوداوات وعاشروهن جنسياً ، وهذا يعني وجود يهود سود . ولكن من الصعب تحديد عددهم ، خصوصاً أن المؤسسات الدينية اليهودية كانت ترفض السماح للسود بالانتماء إليها . كما أن الأسياد اليهود لم يلقوا عبيدهم الديانة اليهودية . ومع هذا ، يدعي العبرانيون السود أنهم من نسل هؤلاء . وأثناء الحرب الأهلية في الولايات المتحدة ، لم يكن لأعضاء الجماعة اليهودية موقف مستقل عن المناطق الجغرافية

الاستوائية كالسكر والنيلة والتبغ والقهوة وغيرها من السلع لنقلها إلى أوروبا . وكان يوجد مثلث آخر يبدأ في نيو إنجلاند في الولايات المتحدة حيث تُحمّل السفن شراب الروم وتوجه إلى أفريقيا حيث يباع الروم وتُحمّل بالعبيد وتوجه لجزر الكاريبي لتُحمّل بعسل قصب السكر الأسود الذي يُصنع منه الروم . وتظهر أسماء تجار يهود بين تجار العبيد في كوراساو ، فريد اسم مانويل أنفارس كوربا باعتباره تاجر عبيد نشيطاً اشتغل بهذه المهنة عدة سنوات وعمل وسيطاً عام ١٦٩٩ بين شركة الهند الغربية الهولندية والشركة البرتغالية ، وذلك لنقل العبيد من أفريقيا إلى المكسيك عبر كوراساو حيث كانت تتم مبادلة العبيد بالعسل الأسود الذي يُصدّر إلى نيو إنجلاند ليُستخرج منه الروم ليبيعه في أفريقيا . ومن أهم التجار في أمريكا الشمالية : ديفيد فرانكس وأرون لوبيز وجيكونب رودريجز . وفي جامايكا ، ترد أسماء ديفيد هنريك وهيمان ليفي وألكسندر ليندو الذين كانوا من كبار تجار العبيد هناك في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي . وكان أعضاء أسرة جراديس اليهودية المقيمة في بوردو نشطاء في تجارة العبيد بالمستعمرات الفرنسية في العالم الجديد مثل سانتو دومينجو . وكان هناك بعض اليهود من أصحاب المزارع الكبيرة في جزر الهند ، وبالتالي فقد كانوا يمتلكون العبيد الذين تعتمد الزراعة عليهم هناك . ومن أهم التجار الاستيطانية اليهودية تجربة سورينام حيث أسس أعضاء الجماعة اليهودية في بريزنتس أيلاند ما يشبه الدولة المستقلة التي كانت تعتمد على العبيد المستجلبين من أفريقيا في الزراعة .

ولم يكن موقف أعضاء الجماعة اليهودية في الجنوب الأمريكي (في الولايات المتحدة) يختلف عن موقف بقية الأمريكيين من مؤسسة الرقيق ، فقد امتلك اليهود فيها العبيد . وبلغت نسبة أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يمتلكون العبيد ٢٥٪ ، وهي نسبة لا تختلف عن نسبة البيض حسب إحصاء ١٨٦٠ . وكان هناك بين هؤلاء المزارع القليل من أعضاء الجماعة اليهودية .

أما معاملة يهود الجنوب الأمريكي للعبيد ، فلم تختلف عن معاملة المسيحيين لهم . كما أن نسبة عدد العبيد ، الذين كان يعتقهم أعضاء الجماعة اليهودية ، لم تكن تختلف عن النسبة بين المسيحيين ، غير أن أعضاء الجماعة اليهودية اشتغلوا بسانت الأعمال التنفيذية الخاصة بتسيير النظام العبودي . ويلاحظ أن العبيد والمحررين من العبيد السود كانوا يتعاملون بنسبة أعلى مع التجار اليهود ، نظراً لأن هؤلاء كانوا يفتحون محالهم يوم الأحد ، وهو اليوم الوحيد الذي كان بإمكانهم أن يتسوقوا فيه .

وفيما يتعلق بمؤسسات تجارة الرقيق ، فقد اشترك فيها أعضاء

ومع هذا ، لم يلعب أعضاء الجماعة اليهودية بشكل عام دوراً ملحوظاً في حركة تحرير العبيد أو التحريض ضدها ، أو في حركة تهريب العبيد من الجنوب إلى الشمال .

التي كانوا يعيشون فيها ، فتبنت يهود الشمال موقفاً رافضاً لتجارة الرقيق ، وتبنت يهود الجنوب موقفاً مؤيداً لها ، بينما تبنت كثير من يهود الولايات الوسط المجاورة للولايات الجنوبية موقفاً محايداً .



٣

أقتان ويهود البلاط

أقتان البلاط - يهود البلاط - حسداي بن شفروط - يعقوب ابن كلس - سليمان ابن صادوق - تيكا - عائلة ابن شوشان - عائلة عطار - شيشيت بنفنيستي - أبراهام بنفنيستي - دونا جراسيا - أنابيس - بالاشي - باسيفي - التروينبرجي - أوبنهايم - فرتايم - ليان - بن وايش - هامبرو - عائلة بليخرودر - عائلة سبير - ممالك مالية

أقتان البلاط

Servi Camerae Regis; Kammerknechtschaft;
Serfs of the Royal Chamber

ويعود المفهوم (دون المصطلح) إلى أيام شارلمان ولويس النقي في القرن التاسع الميلادي حيث منح اليهود المواثيق . ولكن المصطلح نفسه استُخدم لأول مرة في القرن الثاني عشر الميلادي في مرسوم الإمبراطور فريديريك الأول الصادر في عام ١١٥٧ ، والذي أكد في عام ١١٨٢ . وقد صدر مرسوم ملكي فرنسي عام ١٢٣٠ جاء فيه إشارة لليهود باعتبارهم من الرقيق بحيث إذا هرب يهودي من مقاطعة أحد البارونات لمقاطعة أخرى فإن من حق البارون أن يسترده «كما لو كان أحد أرقائه» (باللاتينية : تانكوام بروبريوم سيرفيوم tanquam proprium servium) . وقد استخدم فريديريك الثاني المصطلح نفسه عام ١٢٣٦ للإشارة إلى كل يهود ألمانيا . ويشير المؤرخون إلى أن أسطورة الشريعة (التي يستند إليها المفهوم) تذهب إلى أن الإمبراطورين الرومانيين فسبسيان و تيتوس قاما عند سقوط القدس باستعباد الشعب اليهودي بعد الهزيمة التي حاقت به عام ٧٠ ميلادية . فأنشاء حصار تيتوس للقدس ، حسبما جاء في الأسطورة ، كان المؤرخ يوسيفوس فلافيوس يقوم بإطعام اليهود على نفقته . وقد مات ثلثهم جوعاً ، وقُتل الثلث الآخر أثناء الحرب ، أما الثلث الباقي فقد باعهم فلافيوس «للملك» (أي الإمبراطور) تيتوس . وقد زعم أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة (وريشة الإمبراطورية الرومانية) أنهم ورثوا هذا الحق وأن ضريبة اليهود (فيسكوس جودايكوس) هي أيضاً علامة على هذه التبعية .

ويعني مفهوم أقتان البلاط أن أعضاء الجماعات اليهودية ، من خلال تبعيةهم المباشرة للملك ، يقعون خارج نطاق العلاقات الإقطاعية ، وأنهم بذلك أصبحوا جزءاً من الطبقة الحاكمة أو على الأقل أداة في يدها . ولم يكن اليهود ملكية خاصة للملك أو لغيره بالمعنى المجازي ، كما قد يتبادر للذهن لأول وهلة ، فقد كانوا ملكية خاصة بالمعنى الحرفي كالعبيد أو المماليك . وتعني كلمة «سرفوس servus» اللاتينية «الخادم» أو «العبد» أو «الرق» . وقد عبّر قانون إسبانيا الشمالية عن المفهوم حين نص على أن اليهود «عبيد الملك ،

«أقتان البلاط» أو «أقتان الخزانة الملكية» تعبير شاع في العصور الوسطى في الغرب ، وهو ترجمة العبارة اللاتينية «سرفي كاميراي ريجيس servi camerae regis» وتعني حرفياً «أقتان أو عبيد الغرفة أو الخزانة الملكية» . وقد ورد هذا التعبير بأشكال مختلفة ، في نحو : «سرفي كاميراي نوستراي سب إمبريالي بروتكتيوني servi camerae nostrae sub imperiale protectione» وتعني «أقتان بلاطنا الموضوعين تحت الحماية الإمبراطورية» ، أو «سرفي كاميراي إمبراتوريس إسبسياليس servi camerae imperatoris speciales» وتعني «أقتان البلاط الإمبراطوري الخاصون» . وهي بالألمانية «كاميركنختشافت Kammerknechtschaft» . والعبارة تُستخدم لوصف وضع اليهود داخل النظام الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى كجماعة وظيفية وسيطة في الغرب ، وبخاصة بعد حروب الفرنجة . وكان المصطلح يعني عدة أشياء قد تبدو متناقضة :

- ١ - أن اليهود عبيد الملك أو الإمبراطور أو النبلاء . وهو أمر اختلف باختلاف الفترة الزمنية أو الرقعة الجغرافية .
 - ٢ - أنهم ملكية خاصة للملك وحده .
 - ٣ - أنهم ، لذلك ، يتمتعون بحمايته .
 - ٤ - و يتمتعون بمزايا خاصة .
 - ٥ - وأن أية سلطة غير البلاط الملكي لا يمكنها أن تتعرض لهم .
- وقد كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يُعدّون غرباء . وحسب القانون (العرف) الألماني ، فإن الغريب يتبع الملك ويُوضَع تحت حمايته ويُصبح من أقتانه . ومن هنا ، كان لابد أن يستند وجودهم إلى مواثيق خاصة تمنحهم حقوقاً ومزايا معينة نظير اضطلاحهم بوظائف محدّدة . ومن ناحية الأساس ، كانت هذه الوظائف هي التجارة والربا وجمع الضرائب .

هنري الثالث للمحاكمة بدعى أنه « سرق ممتلكاتنا » ، أي اليهودي نفسه والأسهم . وإذا قُتل يهودي أو أُخِجَ به الأذى لا تُدفع دية أو التعويض عنه لأهله وإنما كانت تُدفع للملك (شازلمان ، مثلاً) باعتباره مالك اليهود . وفي إسبانيا المسيحية ، كان من حق المحاكم اليهودية أن تصدر حكمها بالإعدام على أي يهودي ، وأن تقوم بتنفيذ الحكم عليه ولكن بعد أن تدفع ثمنه للملك . وإن أُخِقت إحدى المدن الأذى باليهود ، كان عليها دفع غرامة للإمبراطور . وكان الملك يتدخل بكل قوته لحماية اليهود ، فعندما فرض الأسقف فليب في كولونيا غرامة على اليهود (عام ١١٨٨) ، عاقبه فريدريك الأول على فعلته هذه . كما تدخل فريدريك الأول بنفسه لحماية اليهود من الغضب الشعبي عليهم . وحينما جردت الحملة الثالثة من حروب الفرنجة ، هدد فريدريك بقطع ذراع كل من يؤذي يهودياً ويأعدام كل من يقتل يهودياً لأنه ملكه الخاص .

وكان بوسع من ليس لديه يهود أن يقتنيهم وأن يحصل على الوثائق الإمبراطورية التي تحول له ذلك . ففي عام ١٣٨٥ ، قامت مدن مقاطعة سوابيا بشراء اليهود المقيمين فيها من الإمبراطور حتى يتسنى للمدينة استغلالهم أو استثمارهم بنفسها .

وفي عام ١٤٣٢ ، أعلن دوق ورتسبرج ، كنوع من إغراء اليهود ، أنه منحهم حقوقهم المدنية . ولكنه سحبها منهم بعد وصولهم . وكانت بعض المدن تشتري اليهود المقيمين فيها من الإمبراطور حتى يمكنهم زودهم وانخفاض من منافستهم . وكان من حق الملك أن يتصرف بشكل مطلق في أملاك اليهود . فكان أحياناً يهدى كل ممتلكاتهم إلى أحد أصدقائه دون أن يكف نفسه عنه إخبارهم . وكان انصرف في ملكية اليهود الذين يموتون أو يُقتلون أمراً سهلاً للغاية ، ففي عام ١٣٤٩ أهدى الإمبراطور تشارلز الخامس أسقف تريير كل بضائع يهود الألتزاس والورين « ممن قُتلوا ومن سيقْتلون » ، وقدم إلى آخر « أحسن ثلاثة بيوت يختارها عند وقوع المذبحة التالية ضد اليهود » .

وكانت حماية الإمبراطور لليهود تمتد لتشمل حرية الحركة وإعفاءهم من كل القيود التي كانت تعوق التنقل والتجارة ، كما كانت تشمل من أيا ضخمة تضعهم في مرتبة أعلى من كل طبقات المجتمع المسيحي في انعصور الوسطى ربما باستثناء النبلاء . وكانت هناك حالات يتساوى فيها اليهود مع كبار النبلاء .

وحتى لا يتوهم القارئ أن هذا وضع فريد أو شاذ ومقصود على اليهود ، يجب أن نشير إلى أن هذه الظاهرة تكرر في كثير من المجتمعات البشرية القديمة والحديثة . فالماليك والتحصين كانوا

وهم دائماً ملك الخزينة الملكية . وفي قانون آخر ، يُشار إلى اليهود بأنهم « رجال الملك ، يرثهم من يرث العرش » . ويستخدم ميشاق ثالث اصطلاحات مثل : « جودايوس هابيري judaeos habere » أي « حق امتلاك اليهود » أو « جودايوس تنيري judaeos tenere » أي « حق الاحتفاظ باليهود » بل وعبارة « جودي نوستري judei nostri » أي « يهودنا » . وقد ورد نص ، في أحد القوانين الصادرة في إنجلترا في القرن الثاني عشر الميلادي ، يوضح هذا المفهوم تماماً ، جاء فيه ما يلي : « كل اليهود حيثما كانوا في المملكة هم موالى الملك وتحت وصايته وحمايته ، ولا يستطيع أي منهم أن يضع نفسه تحت حماية أي شخص قوي دون رخصة بذلك من الملك : لأن اليهود أنفسهم وكل منقولاتهم ملك للملك («تشاتيل chattel») . ولذلك ، إن قام أي فرد باحتجازهم أو احتجاز أموالهم فإن من حق الملك ، متى شاء واستطاع ، أن يطالب بهم باعتبارهم حقاً خالصاً له » .

وكان يتم شراء أعضاء الجماعات اليهودية ويبيعهم ورضعتهم وكأنهم أشياء ثمينة . وفي ألمانيا ، أهدى أحد النبلاء عام ١٣٠٠ لأسقف مدينة ميتر كل يهود فرانكفورت . وأحياناً ، كان يتم إهداء يهودي واحد إلى صديق معوز ، على نحو ما حدث حينما قام إدمون برجندي عام ١١٩٧ بمنح يهودي مع أسرته إلى رجل يدعى فيجير . وفي عام ١٠٩٨ ، قدم الملك بدرو (ملك أراجون) نصف الضرائب التي جمعها يهود إحدى المدن التابعة له هدية لإحدى الكنائس . وكان من الممكن أن يقوم مالك اليهود برهنهم ، وقد منح هنري الثالث يهوداً لابنه إدوارد الذي قام برهن اليهود لدى أعدائهم المرابين الكوهارسين . وحينما منح هنري الثالث (عام ١٢٥٦) القلعة وما حولها من أرض إلى جي دي روكفور ، استثنى من ذلك غابة كنجزوود ويهود المدينة . أما ثيوبولد الشامباني ، فقد استثنى من منحة قدمها إلى إحدى المدن الأشياء التالية : الكنائس والفرسان والموالى واليهود .

ولأن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا سلعة ثمينة ، أمر هنري الثالث ملك إنجلترا موظفي الحدود التابعين له بفتح الحدود أمام اليهود والترحيب بهم ، ولكنه أمر في الوقت نفسه بحظر خروجهم منها . وفي عام ١٢٥٤ ، قابله وفد من اليهود وطلبوا إليه السماح لهم بمغادرة البلد ، ولكنه رفض طلبهم وهددهم بأن من يُضبط وهو يغادر البلد سيعاقب أشد العقاب . كما منعت بلدان وسط أوروبا اليهود من مغادرتها حينما سمع هؤلاء بالمعاملة الجيدة التي يلقاها يهود الدولة العثمانية وعقدوا العزم على الرحيل . وفي عام ١٢٣٥ ، فرَّ يهودي من إنجلترا ومعه أسهمه التجارية ، وحينما تم ضبطه قدمه

التي تقوم بتجنيد الأعضاء الجدد ونقل أسرار المهنة من جيل إلى جيل ، وكان العنصر اليهودي يشكل تحدياً لهذا الاحتكار . كما كان الفلاحون وأعضاء الطبقات الأخرى يسقطون ضحية المرابي اليهودي الذي ييسط الملك حمايته عليه .

لكن سكان المدن كانوا أكثر الطبقات عداءً لليهود . فالمدن ، نواة الاقتصاد والتجارة في المجتمعات الإقطاعية ، كانت تحاول قدر طاقتها أن تنهض وتطور قوتها الذاتية عن طريق احتكار التجارة وتنظيمها من خلال البلدية . وكانت التجارة اليهودية التي لا تقع داخل شبكة نفوذها تتحدى هذا الحصار . كما أن هذه التجارة ، باعتبارها خاضعة للملك وحده ، كانت تهدد عملية التراكم الرأسمالي . وعلاوة على ذلك ، كانت لليهود اتصالاتهم الدولية التي لم يكن للتجار المحليين مثلها في بداية الأمر . وكما بينا ، خضع اليهود لنظام ضريبي مختلف ، فكانوا في بعض الأحيان لا يدفعون ضرائب المرور التي شكلت عقبة أساسية أمام التجارة في العصور الوسطى الإقطاعية . بل كثيراً ما كان الملك يستخدم العناصر البورجوازية اليهودية المستجلبّة من خارج المجتمع أو التي على علاقة خاصة لضرب العناصر البورجوازية المسيحية .^١

ويمكن رؤية ظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى في إطار وضع اليهود كأقتان بلاط ، وذلك باعتبارها ضرباً من ضروب الثورة الشعبية ضد الاستغلال . فالجماهير لم تكن تفهم آليات الاستغلال الاقتصادي وطابعها المركب ومستوياتها المباشرة وغير المباشرة ، لأنها لم تكن تدرك سوى أداة الاستغلال الملموسة والموجودة أمامها ، وكانت هذه الأداة هي اليهود : أقتان البلاط الذين يستخدمهم الملك ويقوم بحمايتهم . ولذلك ، كانت الثورة ضد اليهود تندلع في حالة ضعف السلطة أو تزايد الاستغلال على معدله المحتمل أو عند غياب الملك في إحدى حملات الفرنجة .

وقد نجم عن وضع اليهود كأقتان بلاط ارتباطهم الشديد بالسلطة ، وهو ارتباط استمر حتى يومنا هذا . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ، ظهرت جماعة وظيفية وسيطة أخرى هي يهود البلاط الذين قاموا بخدمة الملكيات المطلقة في وسط أوروبا وشرقها في الأمور المالية والتجارية والدبلوماسية ، كما قاموا بتوفير الاعتمادات اللازمة لتمويل الحروب التي لم تكن تنتهي بين الأمراء والملوك .

وفي بولندا ، التي كانت تضم أكبر تجمع يهودي ، والتي جاءت منها الأغلبية الساحقة من يهود العالم ، لعب اليهود شكلاً آخر من أشكال الوساطة من خلال نظام الأرندا ، فكانوا الوكلاء

منكية خاصة إما للدولة أو للسُلطان . وفي نظام الأقتان ، كانت الأرض ومن عليها ملكية للإقطاعي وتؤول لورثته . بل إن ثمة وضعاً مماثلاً في الدولة الصهيبونية ، فالجندي الإسرائيلي الذي يحاول الانتحار ويفشل يُحاكم بتهمة إتلاف ممتلكات الدولة إذ أن الجندي يُعتبر ملكية للدولة .

وقد أدّت الحماية والمزايا إلى تحويل اليهود إلى جماعة وظيفية مانية نشطة تساعد في تحويل الثروة الطبيعية للدولة إلى نقود . كما أصبحوا وسيلة لزيادة دخل الأفراد وريع الدولة ، فاليهود ، بوصفهم أقتان بلاط ، كانوا خاضعين تماماً للملك أو لمن يمتلكهم ، إذ كان يفرض عليهم ما يشاء من ضرائب . وفي العادة ، كانت تُفرض عليهم ضرائب أعلى من تلك التي كانت تُفرض على التجار المسيحيين . وكان شارلمان يأخذ عُشر أرباح التجار اليهود في حين أنه لم يكن يحصل إلا على جزء واحد من بين كل أحد عشر جزءاً من أرباح التجار المسيحيين . وكان اليهود يشترون الموائيق والمزايا من الملك فتحقق له الأرباح بهذه الطريقة . كما أن رأس مالهم ذاته كان ملكاً للملك ، وهو الذي كان يحدد سعر فائدة القرض . وكان الملك يصرح لهم أحياناً بفائدة أعلى مما هو مصرح به للمرابي المسيحي ، وذلك لأن ثروة اليهود كانت دائماً تصب ، في نهاية الأمر ، في الخزانة الملكية . وبعبارة أخرى ، كان اليهود مجرد أداة في يد الحاكم يمكنه عن طريقها استغلال سائر طبقات المجتمع . فكان اليهودي ينص الثروات والأموال من المجتمع ، ثم يقرم الملك بعد ذلك باعتصاره عن طريق الضرائب الباهظة وبيع الموائيق والمزايا له . ومن هنا تشبه أعضاء الجماعات اليهودية بـ «الإسفنج» التي تمتص الماء ثم تفقد بالضغظ عليها . واليهودي ، بهذا المعنى ، مملوك تستخدمه السلطة لقمع الجماهير . وأداة الاستغلال التي يستخدمها المملوك ، كقرد في جماعة وظيفية قتالية ، هي سيئه . أما أداة الاستغلال التي يستخدمها اليهودي ، فهي رأس المال الربوي . وإذا كان المملوك المقاتل يُريق دم أعدائه بسيفه حتى تستمر السلطة في الاستيلاء على الثروات والأموال ، فإن اليهودي يمتص المال والثروات مباشرة من رأس المال ، ومن هنا تأتي إشعارتنا لليهود بمصطلح «المسايلك التجارية» .

وقد أدّى وضع اليهود بوصفهم أقتان بلاط ، أي أداة في يد الطبقة الحاكمة ، إلى عزلتهم عن بقية طبقات المجتمع ، إذ كانوا في حالة صراع مع قطاعات من طبقة النبلاء والبارونات بسبب علاقتهم انفرادية بالملك ، وبسبب الفائدة التي تعود عليه منهم . وكان اُخرفيون أيضاً يناصبون اليهود العداء ، إذ كانت لهم نقاباتهم الخاصة

المسيحي أساساً للانتماء إلى النظام الإقطاعي سواء أكان الشخص نبيلًا محاربًا أم حرقياً أو تاجراً أو فلاحاً . وكانت الجماعات القروية المتغلقة تدور حول طقوس الكنيسة ويرأسها النبيل والقس ، وكلاهما ضمن الدائرة المسيحية .

لكل هذا ، كان لابد من البحث لليهود عن مسوغٍ للموجود خارج هذا الإطار ، وأن يكون المسوغ غير مسيحي . حيث كانت ملكية الملوك (ورثة الإمبراطورية الرومانية الوثنية) لهم تبقي اليهود خارج الانتماء المسيحي .

ويبدو أن الحركة الصهيونية هي نتاج هذا التراث الغربي القديم ، فالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ترى اليهود فائضاً بشرياً هامشياً في أوروبا يمكن تحويله إلى عنصر نافع منتج وتوظيفه لصالحها خارج حدودها . كما أن تحويلهم إلى مستوطنين يقومون على خدمة الاستعمار والقتال دفاعاً عن مصالحه يعتبر جزءاً من هذا النفع . ولكن هذا الاستيطان لا يعني سوى تحول الجماعة الوظيفية المالية إلى جماعة وظيفية قتالية ، أي أن أقتان البلاط الملكي الذين كانوا يوظفون بوظيفة مالية قد تحولوا إلى أقتان البلاط الإمبرياني الذين يوظفون بوظيفة قتالية .

يهود البلاط

Court Jews: Hofjuden

«يهود البلاط» هم وكلاء أخكاه ومستشاروهم في الأمور التجارية والمالية في العالَم الغربي ، وهم من أهم الجماعات الوظيفية الوسيطة في عصر الملكيات المنقضة في أورب ، خصوصاً في وسطها في القرن السابع عشر . وقد ظهرت حاجة الأمراء الألمان إلى يهود البلاط لملء الفراغ الذي خلفه تفتت الطبقة الوسطى الألمانية (التي كانت قد وصلت إلى قدر عالٍ من القوة قبل ذلك ، ولكنها تفتتت إلى بورجوازيات صغيرة تقطن في مدن صغيرة) . وزادت العوائق الإقطاعية وتآكل جهاز الدولة الألمانية ذاته من هذه الحاجة . ومع قيام الإمارات الألمانية ، حاول كل أمير على حدة أن يطور إمارته . ولكن الطبقات والنفقات الإقطاعية التقليدية كانت تقف حجر عثرة أمام سعي الأمير إلى فرض هيئته وهيمنة الدولة على كل رعاياه وكل نواحي حياتهم (وهذا هو هدف الدولة القومية الحديثة) . كما كان الأمير يحتاج إلى رأس مال لتنمية دولته أو إمارته وتنظيم إدارتها ، أي أنه كان في حاجة إلى أدوات إنتاج وإدارة . وقد ظهر يهود البلاط ليملاؤوا هذه الفجوة وليصبحوا أداة إنتاج وأداة إدارة . وكان يهود البلاط مرشّحين لهذا ، أكثر من أية مادة بشرية أخرى ، لعدة أسباب :

المالين للنبلاء البولنديين ، حيث كان النبيل يقيم في وارسو ويرسل وكيله اليهودي مع القوات البولندية ليقوم باعتصار الفلاحين الأوكرائيين . وقد جاءت معظم القيادات الصهيونية البولندية من داخل هذا التشكيل الحضاري الذي يلعب فيه أعضاء الجماعة دور أداة الاستغلال المباشرة والمنتوذة التي تمثل الحاكم وتعتمد عليه .

ومن أهم الآثار الأخرى لوضع اليهود أقتان بلاط أن اليهودي تمت حوسلته فتحول إلى أداة ووسيلة وليس غاية . ومع ظهور الفلسفة النفعية في الغرب ، تعمق هذا الاتجاه وتوقفت مسألة إعتاق اليهود في إطار مدى نفهمهم . ويبدو أن أهم آثار وضع اليهود كأقتان بلاط أنهم ظلوا خارج إطار التشكيلات السياسية البورجوازية القومية ، فكانوا يطرّدون حين تختفي الحاجة إليهم . وفي بولندا ، لم يكن اليهود خارج التشكيل السياسي والاقتصادي وحسب وإنما كانوا خارج التشكيل الحضاري ذاته ، وذلك لأنهم كانوا يتحدثون اليديشية ، كما أن المسيحية الكاثوليكية هي أحد الأبعاد الأساسية للهوية البولندية مقابل الهوية الروسية الأرثوذكسية . ولذا ، حينما ظهرت الحركة القومية البولندية ، استبعد اليهود منها ، بالإضافة إلى أنهم ظلوا هم أنفسهم بمنأى عنها ينظرون إليها من الخارج ، ولذلك لم يمكن دمجهم داخل هذا الإطار . بل إن العناصر البولندية لم تكن تنق كثيراً في العناصر اليهودية أثناء حركة المقاومة ضد النازي بسبب تراثها الطويل في الاقتراب من السلطة والقوى الحاكمة وبسبب عزلتها عن القوى الشعبية .

وإذا قبلنا مقولة أن اليهود ، بوصفهم أقتان بلاط ، كانوا يشكلون في واقع الأمر ما يشبه الممالك التجارية ، لأمكننا فهم ثورة شمليينكي في أوكرانيا ضدهم ، فقد كانت ثورة تجتث الجماعات اليهودية الواحدة تلو الأخرى (باعتبارها جماعات غريبة أو أدوات استغلال طفيلية دخيلة تماماً) كما اجتث محمد علي الممالك في مذبحه القلعة ليبدأ عملية التحديث .

ونحن نعقد هذه المقارنة بين شمليينكي ومحمد علي من جهة ، وبين اليهود والممالك من جهة أخرى ، لا لتسويغ عملية الذبح كوسيلة للتغيير ولكن لمحاولة فهم طبيعة وضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي .

ولا نجد تفسيراً لظهور مفهوم أقتان البلاط في الحضارة الغربية إلا أن المجتمع الغربي الوسيط كان مجتمعاً عضوياً متماسكاً بمعنى الكلمة ، على الرغم من لا مركزية الإقطاع الغربي ، فضلاً عن تداخل السلطة الدينية والسلطة الدينية فيه على عكس ما يُقال ، واستناد الشرعية إلى الدين المسيحي ، ومن هنا كان قسم الولاء

وظل نفوذهم في التصاعد ووصل إلى قمته مع توقيع معاهدة أوترخت (١٧١٣) ، وكان مركز نشاطهم ألمانيا والنمسا وهولندا ، ولكنه امتد إلى إسبانيا والبرتغال والدنمارك وبولندا . وكان يهود البلاط يعيشون أحياناً خارج الدول التي يخدمونها ، ويعمل الواحد منهم وكيلاً لعدة أمراء أو دويلات في آن واحد .

وقد ساعد يهود البلاط الملك أو الأمير الذي يقومون على خدمته في التخلص من قبضة الأمراء الحديديّة وفي بسط نفوذه على أرجاء مملكته من خلال قوته الاقتصادية . وليس من قبيل الصدفة أن هذا النمط انتشر بعد عصر النهضة مباشرة ، وهو العصر الذي بدأ فيه الانتقال (في أوروبا) من النمط الإقطاعي في الإنتاج والإدارة وتنظيم المجتمع إلى النمط الرأسمالي الحديث . وقد كان يهود البلاط ينظّمون الشؤون المالية للملك ويشرفون على دار سك النقود ، ويقومون بجمع الضرائب له ، ويشرفون على الاستيراد والتصدير ويشيّدون المصانع التي تحتاج الدولة إليها ، ومن أهمها الصناعات الحربية مثل صناعة سبك المعادن والبارود . كما قاموا بإدخال منتجات زراعية وصناعية جديدة في البلاد التي كانوا يقومون على خدمتها بهدف زيادة موارد الدولة وتحويل ريعها الطبيعي إلى نقد . وعلاوة على ذلك ، كان يهود البلاط يزودون الحاكم بالسلع الترفيّة التي يحتاج إليها فيشترونها له من أسواق فرنسا أو إيطاليا أو هولندا أو الدولة العثمانية . كما كانوا يسدون احتياجاته المالية عن طريق بنوك أوروبا حتى يتمكن الأمير من الإنفاق بسخاء على مظاهر الترفّ اللازمة للأبهة . وكان يهود البلاط يعقدون الصفقات التجارية نيابة عن الحاكم ، ويتولون البعثات التجارية والدبلوماسية ، ويعدون له الميزانية ، ويمدون الجيوش المتحاربة بالمؤن التي كانوا يحصلون عليها من بولندا وبوهيميا ومورافيا وأوكرانيا ، ويدبرون له السلاح والذخيرة التي يحتاج إليها . ومعنى ذلك أن يهودي البلاط كان يضطلع بوظائف وزراء الخارجية والمالية والحرب ، وأحياناً رئيس المخابرات ، في وقت لم يكن يعرف التقسيم الدقيق للعمل .

وقد لعب يهود البلاط دوراً مهماً للغاية في اقتصاديات الإمارات والدويلات التي كانوا يقومون على خدمتها ، خصوصاً أثناء حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) . وذلك بسبب الشبكة التجارية اليهودية الممتدة في أرجاء العالم الغربي والعالم الإسلامي في ذلك الوقت . ففي القرن السابع عشر الميلادي ، كان هناك نظام يهود الأرندة في بولندا ، التي كانت تعدّ أكبر مصدر للمنتجات الزراعية آنذاك وكان يهود الأرندة يقومون بتصديرها . كما ظهرت في الوقت نفسه الجماعة اليهودية السفاردية القوية في هولندا وغيرها

١ - كان يهود البلاط يمتلكون رأس المال اللازم لعملية التنمية ، كما كانوا جزءاً من شبكة مالية ضخمة تُسهّل لهم عملية اقتراض الأموال المطلوبة .

٢ - كان لدى يهود البلاط الخبرة الإدارية اللازمة لإدارة الإمارات الجديدة .

٣ - لم يكن يهود البلاط يتمتعون بأية حقوق ، سواء حقوق مواطني المدينة أو حقوق أعضاء نقابات الحرفيّين أو الطبقات والفئات الإقطاعية .

٤ - لم يكن هناك مؤسسة ، مثل الكنيسة ، تحميهم وتضعهم تحت رعايتها .

٥ - كان يهودي البلاط يعيش في عالمين ، هو في كليهما غريب ، فهو يهودي في المجتمع المسيحي ، ولكنه في الوقت نفسه غريب عن جماعته اليهودية إلى حدّ ما ، فهو في غربة مزدوجة وليست له أية قاعدة جماهيرية أو أساس للقوة .

٦ - لم يكن من الممكن أن يرث أبناء يهودي البلاط مكانته كما هو الحال مع الأرستقراطية ، بل لم يكن بمقدورهم أحياناً أن يرثوا ثروته ، إذ كان الأمير يقوم بمصادرتها . وهذا يعني أن يهودي البلاط لم يكن بمقدوره مراكمة القوة .

٧ - كانت كل حقوق يهودي البلاط منحة من الأمير يخلعها عليه حين يشاء ويحببها عنه حين يقرر ذلك .

لكل ما تقدّم كان يهود البلاط رجالاً هامشين لا حقوق لهم ولا أساس من القوة ولا أمل لهم في الحصول عليها . وهم في هذا يشبهون الخصيان ، وكما وصفهم أحد الكتّاب فهم خصيان غير مخصّين . ومن ثم فهم لا يهدّدون الأمير من ناحية ، كما أنهم يشكلون أذاته الإنتاجية والإدارية ذات الكفاءة المطلوبة من ناحية أخرى .

وقد كان أول ظهور ليهود البلاط في إسبانيا عام ١٤٩٢ . كما يمكن القول بأن بعض كبار التجار اليهود السفارد في هولندا ، ممن كانوا يعملون وكلاء لبعض الدول ، هم أيضاً من يهود البلاط . وكذلك بعض كبار المموّنين اليهود في بولندا من يهود الأرندة (مثل موسى ماركوفيتش الذي كانت له معاملات واسعة مع البلاط والوزراء والنبلاء في أوائل القرن السابع عشر) . ولكن المصطلح ، بالمعنى الدقيق ، يُستخدم في التاريخ الاقتصادي لأوروبا للإشارة إلى وكلاء الحاكم في عدد من إمارات وسط وشرق أوروبا في الفترة من بداية القرن السابع عشر حتى بداية القرن التاسع عشر . وقد استفاد يهود البلاط أياً استفادة من حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨)

وقد استفادت الجيوش المتحاربة من اليهود بأشكال أخرى، إذ كانت تحول أعضاء الجماعة إلى جواسيس وتستفيد من الشبكة التجارية في توصيل المعلومات. كما كان يوسع شبكة يهود البلاط الممتدة عبر أوروبا إلى الشام والتي تملك قاعدة من صغار الممولين وكبار وصغار التجار الذين تربطهم علاقة وثيقة بالآلاف من صغار الباعة الجائلين الموجودين في عشرات الجيوش. أن تدبر أية كمية من المعادن النفيسة التي يحتاجها أحد الجيوش.

ولكن العلاقة بين يهود البلاط والأمراء كانت علاقة نفعية تماماً، فهم يستفيدون من علاقتهم بأحكامه ليحققوا الثروات ويحصلوا على التأييد. وهو بدوره يبقى عليهم بمقدار ما يستفيد من وجودهم باعتبارهم مصدراً لا ينضب لشروة. يعترض كميت كبيرة من أموالهم عن طريق الضرائب التي يفرضها عليهم ومن خلال الهدايا التي كان يحصل عليها منهم في مناسبة تويجه وفي غير ذلك من المناسبات. كما أنهم كانوا يشترطون منه حقوقهم وامتيازاتهم نظير أموال طائلة. وإني جانب هذا، كانوا يؤدون العديد من الخدمات للبلاط. أي أنهم كانوا أداة لتتاج لا تربطهم به رابطة وثيقة تتجاوز المستوى الاقتصادي النفعي. وكان كل يهودي بلاطياً فاجوة وظيفية محددة، ويرتبط وجوده وكذلك مكانته به. فبن انتفى وجود الفجوة انتفى وجوده. نكل هذا، كان الملك يتخلى عن يهود البلاط ويتخلص منهم عندما يشغل عصر اقتصادي آخر وظيفتهم. كأن تنشأ طبقة بورجوازية محلية. أو يتسع نطاق رغبتهم بحيث لا يستطيع الممولون اليهود أن يفيوا بحاجاتهم. وكان من السهل على الملوك التخلص من يهود البلاط. بل ومن كل الجماعات اليهودية، لأنهم لم يكونوا أصحاب رؤوس أموال ضخمة وإنما كانوا أساساً، وبأندرجة الأولى، عنصراً اقتصادياً إدارياً كفت تتبعهم شبكة اقتصادية ضخمة. ولذا، لم يكن أعضاء الجماعة يشكلون طبقة تستغل الآخرين لحسابها ذات نفوذ وكيان مستقلين وإنما كانوا أداة استغلال تابعة وعميلة ومرتبطة بإحدى الطبقات أو القطاعات الخائكة. كما أنهم كانوا مكرهين من الجماهير باعتبارهم أداة الاستغلال المباشرة. ومن البورجوازية المحلية لأنهم يشكلون غريباً لها، ومن النبلاء وكثير من أعضاء النخبة الخائكة لأنهم أداة في يد الملك يستخدمها لتدعيم نفوذه على حسابهم. ولم يكن لأعضاء الجماعات اليهودية أية علاقة حميمة بأي من فئات المجتمع. وكثيراً ما كانت أموال يهودي البلاط تُصادر بعد موته، كما كان الأمير أو الملك يرفض دفع الديون التي عليه. أما الذي لم يفقد ثروته بهذه الطريقة، فقد أدت التحولات الاقتصادية (مثل اتساع نطاق

من الدول الأوروبية المهمة والتي كانت تربطها صلات قوية باليهود السفارد في الدولة العثمانية. وما وسع من نطاق هذه الشبكة أنها ضمت العديد من يهود المارانو الذين كانوا يتحركون بسهولة باعتبارهم من المسيحيين، كما أن عدداً منهم كان مسيحياً فعلاً من أسر يهودية تربطهم صلة قريى وعمل بعائلاتهم اليهودية. وكانت هذه الشبكة السفاردية الإسكنانية متعددة الجنسيات عابرة القارات ظاهرة فريدة من نوعها داخل أوروبا آنذاك، فكانت تمتد من شرقها إلى غربها ومن وسطها إلى سواحلها على الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط.

وتشكل حرب الثلاثين عاماً نقطة مهمة وحاسمة في تطور الجماعات اليهودية في أوروبا وازدهارها الاقتصادي. إذ أن كثيراً من يهود البلاط راكمو الثروات أثناء هذه الحرب التي عصفت بأوروبا، فقد كانت الجيوش المتحاربة تحتاج إلى المون والمال في غضون فترة وجيزة، وذلك في عالم لم تكن فيه وسائل الاتصال على درجة كبيرة من الكفاءة والسرعة. ومن هنا لعبت الجماعات اليهودية دوراً حاسماً في خدمة كل الجيوش المتحاربة، وفي تزويدها بالقمح والماشية والأخشاب والعلف وغيرها من المون. وكان يهود الأرندا في بولندا يمدون يهود البلاط بالمنتجات الزراعية التي تحتاج إليها الجيوش المتحاربة، فيقوم يهود البلاط بتوزيعها وترتيب الاعتمادات المالية اللازمة من خلال أثرياء الجماعة اليهودية في هولندا وغيرها من الجماعات. وكان بمقدورهم الحصول على السلع الترفيئة من يهود الشام والدولة العثمانية. كما كان يهود البلاط على استعداد دائم لشراء غنائم الجنود - بغض النظر عن انتمائهم - بأسعار مخفضة. كما أن هناك صغار التجار اليهود الذين كانوا يسبرون خلف القوات المتحاربة للمتاجرة مع الجنود.

وكانت كل الجيوش المتحاربة تحتاج إلى خدمات أعضاء الجماعات اليهودية، ولذا لم يسهم أي من الأطراف المتنازعة بأذى، بل كانت القوى المنتصرة تمنحهم منازل المهزومين أحياناً. ويقول المؤرخ البريطاني اليهودي إسرائيل ولفسون: «إنها حقيقة تاريخية أن يهود أوروبا آنذاك استفادوا بالحرب من كل من الطرفين المتنازعين، فبينما كان يتم تمزيق ألمانيا وتدميرها كانوا هم يستفيدون ويراكمون الثروات». ويلاحظ أن هذه الحقيقة صارت جزءاً من الدعاية النازية ضد اليهود، فهم أغنياء حرب ومستفيدون منها. لكن العنصرية النازية لا تكمن في تقرير الواقعة في حد ذاتها وإنما في نزعها من سياقها التاريخي، فقد استفاد أعضاء الجماعات اليهودية لا بسبب طبيعتهم الإنسانية الخاصة وإنما بسبب طبيعة وضعهم بوصفهم جماعة وظيفية وسيطة تلعب دوراً أساسياً ومطلوباً داخل المجتمع.

(شندلان) . وكان أعضاء الجماعة اليهودية يتمتعون بقدر أكبر من الحماية والأمن من عامة الناس بسبب العلاقة المباشرة بين الحاكم ويهودي البلاط الذي يوفر لهم هذه الحماية .

وقد لعب يهود البلاط دور الوسيط (الفعلي والفكري) بين حضارة الأغيار واليهود ، وبذلك مهدوا لظهور حركة التنوير بين اليهود . كما أنهم كانوا دليلاً حياً على أن في وسع اليهودي أن يحقق النجاح خارج الجيتو . وقد أصبحت وظيفة يهود البلاط وراثية وتحولوا إلى أسر مالية أرستقراطية تتصارع فيما بينها على النفوذ والسلطة وأصبحوا طائفة مغلقة يتزوج أفرادها فيما بينهم ويستبعدون اليهود العاديين . ويمكن القول بأن صورة يهودي البلاط كعبقري ساحر ، وكصاحب نفوذ يُقرض الملوك والأمراء ، قد تجذرت في الوجدان اليهودي في الغرب .

وقد انتهى دور يهود البلاط بسبب تعاضل نفوذ الدولة المطلقة في أوروبا وبسبب نجاحها التدريجي في تشديد قبضتها على مواطنيها من خلال مؤسسات رشيدة تضطلع بوظائف يهود البلاط . بالإضافة إلى ظهور بورجوازيات محلية قوية تمتلك من رؤوس الأموال والخبرات الإدارية ما يفوق مثيله لدى يهود البلاط . وأخيراً كان تقسيم بولندا ضربة للشبكة التجارية التي اعتمد عليها يهود البلاط . ثم جاءت الثورة الفرنسية بجيوشها وتقسيمها أوروبا إلى معسكرين متنازعين بمثابة الضربة القاصمة .

ومن أشهر أسرى يهود البلاط ، أسرة ليفي وأوبنهايم وجومبيرز ، حيث حققوا ثروات كبيرة أثناء الحرب . ويلاحظ أنه مع نهاية القرن الثامن عشر بدأ كثير من أبناء هذه العائلات يتحولون من يهود بلاط إلى أعضاء في الرأسمالية الرشيدة ويتصرون بأعداد كبيرة ، أي يندمجون تماماً في الحضارة الغربية . ومن الأمور التي قد تكون ذات دلالة رمزية أن آخر يهود البلاط كان سولومون روتشيلد ، من عائلة روتشيلد الشهيرة التي مولت النشاط الصهيوني في بدايته وتحالفت مع الإمبريالية لإنشاء الدولة الصهيونية . وسولومون هذا هو الذي ساعد ميترنيخ زعيم الرجعية الأوروبية في القرن التاسع عشر على الاختفاء بعد سقوط النظم الرجعية تحت ضغط الحركات الشعبية والثورية . ونحن نرى أن الدولة الإمبريالية حينما تنشئ علاقة قوية يُقال لها إستراتيجية مع الدولة الصهيونية ، فإنها في واقع الأمر علاقة نفعية تُوظف الدولة الرابعة من خلالها العميل الصهيوني لصالحها ، ولذا يمكننا أن نقول إنها تشبه في كثير من الجوه علاقة الأمراء الألمان بيهود البلاط ، وإن الدولة الصهيونية هي في واقع الأمر دولة وظيفية ، دولة يهود البلاط الإمبريالي ، إن جاز التعبير .

الرأسمالية الغربية أو تزايد ضخامة مشروعاتها أو ظهور بورجوازيات محلية قوية) إلى تهميشه أو إفلاسه ، حيث لم يكن بمقدوره الصمود في حلبة المنافسة ، وخصوصاً أن استثمارات يهود البلاط كانت دائماً مرتبطة بالدولة ولم تصبح قط مشروعاً خاصاً بمعنى الكلمة . لكل هذا ، لم يلعب يهود البلاط أو أثرياء اليهود على وجه العموم دوراً حاسماً في نشوء الرأسمالية الغربية الرشيدة . ومع هذا ، لا بد أن نقرر أن يهود البلاط بوصفهم جماعة وظيفية بسيطة كانوا أقل هامشية من أقتان البلاط والتجار والمرايين اليهود ، إذ تركزوا نحو المركز قليلاً من الناحية الوظيفية والاقتصادية واخصارية . فكان يهود البلاط يندمجون حضارياً في المجتمع الذي يعيشون فيه فيرتدون رداءاً أوروبياً ويسلكون سلوكاً أوروبياً ويعيشون خارج الجيتو ويتمتعون بحرية الحركة ولا يدفعون أية ضرائب ، ويتمتعون بكثير من الحقوق المدنية التي لا يتمتع بها بقية أعضاء الجماعة اليهودية ، مثل حق شراء الأرض الزراعية ، أو حق ركوب عربات تجرها أربعة أو ستة أحصنة ، وهو حق كان مقصوراً أيضاً على النبلاء . كما كانوا يُمنحون ألقاباً لا تُمنح إلا للنبلاء . وكانت مصاحبهم الاقتصادية مرتبطة تماماً بمصالح الملك أو الحاكم أو الدولة ، وكثيراً ما كانت تتعارض مع مصالح الجماعات اليهودية الأخرى ، بل كان بعضهم يقف ضد هجرة اليهود إلى بلادهم ويؤيدون الملك ضد المهاجرين الجدد . وقد كان يهود البلاط واعين تماماً بالتحولات الثقافية والمالية العميقة في المجتمع الأوروبي ، ولذا كانوا من أوائل العناصر التي رحبت بحركة التنوير اليهودية وشجعوا دعايتها . ويلاحظ أن كثيراً من أبناء يهود البلاط قد تنصروا ، ربما بسبب الجو الثقافي الاندماحي الذي نشأوا فيه .

ومع هذا ، كان ليهود البلاط موقف القيادة والزعامة بين يهود البلد الذي يعيشون فيه ، ولكنها كانت قيادة مفروضة من الخارج ، من عالم الأغيار ، وتستمد شرعيتها من نجاحها فيه ، وكانت قيادتهم مطلقة حتى أن أحد يهود البلاط أصر على أن تكون كل المناصب القيادية في إحدى الجماعات اليهودية مقصورة على أفراد أسرته ، وهو أمر لم يكن شاذاً في عصر الملكيات المطلقة . وقد وصف أحدهم روتشيلد بأنه « ملك اليهود ، ويهودي الملك » وهو وصف دقيق لوضع يهود البلاط وعلاقتهم بكل من النخبة الحاكمة غير اليهودية وأعضاء الجماعة اليهودية . وكان يهود البلاط يحتفظون ببعض العادات اليهودية ، مثل اللحية ، لأن وجودهم الاقتصادي كان يتوقف على شبكة الاتصالات اليهودية . وكانوا يحاولون أحياناً الحصول لليهود على حقوقهم ويشغفون لهم عند الحاكم كوسطاء

حسدائي بن شفروط (٩١٥-١٠٥٥)

Hisdai Ibn Shaprut

هو إسحق بن عزرا بن شفروط الذي اشتهر باسم «حسدائي بن شفروط»، رئيس الجماعة اليهودية في قرطبة. جاءت أسرته من شرق الأندلس ثم استقرت في قرطبة. ودرس ابن شفروط الطب ثم دخل في خدمة الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١). ولما كان الخلفاء الأمويون في الأندلس يعيّنون أطباءهم في وظائف إدارية ومالية أخرى في أحيان كثيرة، فقد أوكل الخليفة إلى ابن شفروط مسئولية قسم المكوس الذي كان يُعَدُّ من الوظائف الإدارية العليا. كما عمل مستشاراً في الشؤون الخارجية (الدبلوماسية)، وعمل مترجماً أيضاً. ويُلاحظ أن كل هذه الوظائف تقريباً تتطلب التعامل مع غير المسلمين، وهي وظائف تركز فيها الهميون. وقد أرسل في بعثات دبلوماسية إلى ليون عام ٩٥٦ ونافار عام ٩٥٨. ويمكن القول بأنه بالفعل كان في منزلة وزير الخارجية والتجارة. وقد جمع ثروة طائلة من وراء ذلك.

وكان حسدائي بن شفروط يهودياً مُستعرباً، مثل معظم أعضاء النخبة العربية اليهودية في زمانه، فكان يتحدث العربية ويسلك سلوك أثرياء المسلمين. واتخذ شعراء يهوداً ليمدحوه نظير إغداقة العطاء عليهم.

وكان ابن شفروط، باعتباره ممثلاً للجماعة اليهودية الجديدة في الأندلس، وراء تأسيس الحلقة التلمودية في قرطبة، والتي عيّن موسى بن حنوخ (العالم التلمودي الذي اشتراه من سوق العبيد) رئيساً لها حتى يحقق الاستقلال ليهود الأندلس. وقد نجح في مساعه إذ فاقت حلقة قرطبة في شهرتها وأهميتها الحلقات التلمودية في العراق. وقد أطلق على حسدائي اسم «ريش كلاه»، بمعنى: رأس العرش، وهو لقب كان الغرض منه منافسة لقب «رأس المثبتا»، الذي كان يُطلَق على رئيس حلقة سورا.

وينسب إلى ابن شفروط أنه كتب خطاباً إلى يوسف (ملك الخزر) يصف له فيه الأندلس وي طرح عليه بعض الأسئلة الخاصة بيهود الخزر، وقد رد الملك عليه. وقد سُمّيت هذه الخطابات بالمراسلات الخزرية، ولكن ثمة اختلافاً بين العلماء في مدى صدق هذه الواقعة.

يعقوب بن كلس (٩٣٠-٩٩١)

Yaqub Ibn Killis

من رجال المال والتجارة اليهود. خدم في بلاط عدد من حكام

مصر. وُلد في بغداد، ويُقال إنه سليل عائلة السموأل اليهودية التي ينتمي إليها أحد شعراء العرب المشهورين في الجاهلية.

استقر ابن كلس مع والده في مدينة الرملة في فلسطين، واشتغل بالتجارة والأعمال المصرفية، وعمل هناك ممثلاً للتجار الأجانب (وهي وظيفة تشبه القنصل التجاري)، ولكنه أفلس برغم نجاح أعماله عدة سنوات. ثم ذهب إلى مصر حوالي عام ٩٦٠، وبعد اتصاله بوالى مصر كافور نجح في الاشتغال في مجال الإمدادات الحكومية. وعندما نفدت خزانة الدولة، سمح له كافور بتحصيل أمواله من الضرائب المستحقة على المناطق الزراعية، وقد أتاح له ذلك التعرف على شئون الزراعة في مصر فأصبح المستشار الاقتصادي لكافور ثم مستشاره السياسي أيضاً. وبعد تعيينه رئيساً للإدارة المالية، اعتنق ابن كلس الإسلام وكاد أن يعين وزيراً، ولكنه واجه معارضة الوزير جعفر بن الفرات. وبعد وفاة كافور عام ٩٦٨، سُجن ابن كلس ولكنه نجح في الفرار وذهب إلى تونس حيث كان الفاطميون يستعدون للاستيلاء على مصر، وقام بتشجيع المعز في خطته لغزو مصر وقدم له كثيراً من المعلومات المهمة عن الأوضاع بها. وبعد سقوط مصر في يد الفاطميين، عاد ابن كلس إلى مصر وأوكلت إليه مهمة جمع الضرائب. وقد حقق ابن كلس مكانة مهمة في النظام المالي. وبعد تعيينه وزيراً عام ٩٧٧ في عهد الخليفة العزيز (٩٧٥-٩٩٦)، أعاد تنظيم النظام الإداري، ولكنه أُقيل من هذا المنصب واعتُقل لمدة شهرين عام ٩٨٣، ثم أعيد إلى منصبه بعد ذلك وظل محتفظاً به حتى وفاته. وقد احتفظ ابن كلس بعلاقته بأعضاء الجماعات اليهودية حتى بعد إسلامه وكان بعض مثقفي الجماعة يحضرون الصالون الثقافي الذي كان يعقده في قصره.

سليمان ابن صادق (؟ - ١٢٧٣)

Solomon Ibn Zadok

يهودي بلاط خدم في بلاط الملك ألفونسو العاشر (أخيم)، في قشتالة حيث أسند إليه ألفونسو القيام بعدد من المهام الدبلوماسية وبمهمة تحصيل عوائد المملكة.

وبعد وفاته، تولى ابنه إسحق بن صادق (أو إبراهيم إسحق - توفي عام ١٢٨٠) مهمة جباية ضرائب مملكة قشتالة خلال عهد ألفونسو العاشر، كما حصل عام ١٢٧٦ على عدد من عقود الإمدادات الحكومية. وفي عام ١٢٧٨، كلّفه ألفونسو بإرسال إمدادات مالية لجيشه المسكر بالقرب من إحدى المدن، ولكن هذه الإمدادات نُهبت وهي في طريقها ولم تصل إلى قوات ألفونسو التي كادت أن تهلك

والواقع أن قصة حياة تيكا ذات دلالات كثيرة منها :

- ١ - هو نموذج جيد لأقتان البلاط الذين كانوا يتمتعون بنفوذ واسع نظراً لقربهم من مراكز القوة ، ولكنه نفوذ لا جذور له ، ولذا كان بإمكان السلطة الحاكمة إنهاؤه في أي وقت .
- ٢ - يدل تيكا على أن يهود الخَزَر كانوا لا يزالون منتشرين في أوروبا رغم القضاء على دولتهم ، وأنهم لعبوا دوراً أساسياً في تأسيس المجر . ولعل شخصية تيكا تعطي بعض الأسانيد لنظرية كوستلر الخاصة بالشتات الخَزَرِي .

٣ - تدل وقائع حياة تيكا على أن الوجدان الغربي المسيحي قد ربط بين اليهود والمسلمين (الشرقيين) ، وهو ربط له أساس في الواقع ، فمعظم يهود العالم كان متركزاً في العالم العربي الإسلامي ، ومع بداية العصور الوسطى كان نصفهم في الغرب والنصف الثاني في الشرق ، كما أن ثقافة أعضاء الجماعات اليهودية كانت متأثرة بالثقافة الإسلامية . كما أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية أبقوا على علاقاتهم الثقافية بالعالم الإسلامي ، بل وأبقوا على علاقاتهم الفعلية . ونظراً لعدائهم للعالم المسيحي ، فقد كانوا متهمين بالعمالة للعالم الإسلامي .

عائلة ابن شوشان (القرن الثاني عشر - القرن الرابع عشر)

Ibn Shoshan Family

عائلة يهودية من طليطلة في إسبانيا تمتعت بمكانة مرموقة في الفترة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر في إسبانيا وفي عدد من الدول التي هاجر إليها أفراد العائلة بعد طرد اليهود من إسبانيا ، مثل : تركيا وتونس وفلسطين . وكان من بين أفرادها رجال المال والتجارة ويهود البلاط وعلماء الدين واللغة والشعراء والفلاسفة والأطباء ومن أهمهم :

أبو عمر يوسف (١١٣٥ - ١٢٠٥) الذي اتخذ لقب «الناسي» أو الأمير ، وكان صرافاً في بلاط الملك ألفونسو الثامن في قشتالة ، وتمتع بنفوذ واسع في الشؤون الداخلية والخارجية ، ومنح مقابل خدماته للدولة أملاكاً واسعة مع امتيازات الحصانة التي تسمح له بالحرية المطلقة في التصرف والحكم داخل حدود أملاكه .

أما مانير بن شوشان (القرن الثالث عشر) ، فقد وُلد في طليطلة ثم أصبح صراف الملك ألفونسو العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤) . وبعد طرد المسلمين من عدد من مدن الأندلس ، منح مانير أملاكاً بها عامي ١٢٥٣ و١٢٦٦ . وفي عام ١٢٧٦ ، أُرسل إلى المغرب في مهمة دبلوماسية وما يُذكر أن المراجع العربية تشير له باعتباره وزيراً .

الأمر الذي دفع ألفونسو للانتقام من محصلي الضرائب ألقى القبض على ثلاثة منهم وحكم على إسحق بالإعدام شتقاً . والأسماء العربية التي يحملها ابن صادق وابنه تدل على أنهما كانا يتقلدان بين إسبانيا المسيحية والإسلامية ، قبل أن يتم طرد المسلمين منها . وقد قام يهود شبه جزيرة أيبيريا بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة بين المعسكرين المتصارعين .

تيكا (النصف الأول من القرن الثالث عشر)

Teka

يهودي من أقتان البلاط من أصل خَزَرِي ، كان يعمل مرابياً ووكيلاً مالياً ، حيث التحق بالبلاط المجرى في القرن الثالث عشر . وكان أبوه من كبار الملاك ، إذ منحه ملك المجر مقاطعة ضخمة ورثها تيكا من بعده . وقد امتلك تيكا مقاطعات أخرى ، ويُحتمل أن اسمه مأخوذ من اسم إحدى هذه المقاطعات . وقد عيَّنه الملك أندرو الثاني (١٢٠٥ - ١٢٤٥) مسئولاً عن عوائد البلاط الملكي ، ولذا يُشار إلى تيكا في الوثائق اللاتينية المعاصرة بلقب «كوميس كاميراي comes camerae» ومعناها «وكيل مالي للملك» (حرفياً : تابع أو رقيق) . ويبدو أن تيكا كان مسئولاً مالياً في غاية الأهمية ، إذ يظهر توقيعه على عدة اتفاقيات ومعاهدات سلام واتفاقيات مالية بين ليوبولد الرابع (١١٩٤ - ١٢٣٠) وأندرو الثاني (كان الضامن الوحيد لمبلغ كبير من المال اقترضه ليوبولد الرابع عام ١٢٢٥ من أندرو الثاني) . وفي عام ١٢٢٢ ، صدر مرسوم مجري (بناءً على تعليمات من الفاتيكان) بمنع اليهود والإسماعيليين (أي المسلمين والعرب) من تقلد أية مناصب مالية ومن صفة النبالة في المجر ، وقد وقَّع الملك القانون كارهاً ، ثم تحدَّاه بإبقاء تيكا . ولكن البابا جريجوري التاسع تدخل وأرغم الملك ، وابنه بيلا الرابع (١٢٤٥ - ١٢٧٠) من بعده ، على أن يقسم على احترام بنود الدستور الخاصة باليهود . فاضطر تيكا إلى ترك منصبه والسفر إلى النمسا حيث كان يتمتع بسمعة طيبة للغاية . وقام هناك بنشاط مالي مهم ، فعند قرضاً عام ١٢٤٥ لمجموعة من كبار التجار في فيينا (التي كان يمتلك منزلاً فيها) . وقد نجح بيلا الرابع في التحلل من قسمه الخاص باستبعاد اليهود من الوظائف المالية وذلك بسبب احتياج أوروبا للاعتمادات المالية بعد هجمات التتار . فعاد تيكا إلى المجر وأعاد الملك له بعض المقاطعات التي كان قد صادرها . وبعد الغزو التتري ، اختفى تيكا تماماً . وتذهب بعض النظريات إلى أنه انسحب مع التتر أبناء عمومته ، فقد كان خَزَرِيّاً ، من أصل تركي مثلهم .

وقد حرص موسى على أن تضم المعاهدة فترة تنص على حق اليهود المغاربة الذين استقروا في أنحاء الإمبراطورية البريطانية في أن يُحاكموا في محاكمهم اليهودية الخاصة . وقد وُجّهت إلى موسى فيما بعد اتهامات الاختلاس ، الأمر الذي اضطره إلى دفع غرامة باهظة للملك حتى يتقذ نفسه من الإعدام . وقد خلفه شقيقه إبراهيم في منصب رئيس اليهود ، أما شقيقه الآخر يعقوب فقد عُيّن حاكماً على ميناء تطوان . وفي أوائل القرن التاسع عشر ، عُيّن يوسف بن عطار قسلاً للبرتغال والدخار في الرباط .

شيشيت بنفيسيتي (١١٣١-١٢٠٩)

Sheshet Benveneste

الماليّ طبيبٌ عالمٌ تلمود دبلوماسيٌّ وشاعرٌ إسباني يهودي . دخل في شبابه في خدمة نبيل من برشونة ثم خدم مكي أراجون ألفونسو الثاني ثم بندو الثاني (من عام ١١٩٦) كطبيب ومستشار سياسي ومبعوث دبلوماسي ومترجم لغربية . وكان علمه بالغربية من أهم أسباب مكانته الرفيعة . وقد لعب بنفيسيتي دوراً مهماً أيضاً في الإدارة المالية للمملكة ، كما خُصّصت له بعض عوائد الدولة مقابل القروض التي كان يقدمها للخزينة الملكية . وتقع بنفيسيتي ، مثل سائر النبلاء في المملكة ، بالإعفاء من الضرائب وبالحصانة القانونية ، كما تلقى منحة ملكية بالامتيازات أعطته سلطة تنظيم شئون المعبد اليهودي في برشونة . وبالإضافة إلى ذلك ، كان بنفيسيتي يكتب الشعر بالغربية . وكان على اتصال بالعلماء المسلمين واليهود في شبه جزيرة أيبيريا وكان من أشد المدافعين عن أعمال موسى بن ميمون وعن آرائه الفلسفية . كما كانت له بعض الأعمال في الطب .

إبراهيم بنفيسيتي (١٢٠٦-١٢٥١)

Abraham Benveneste

من يهود البلاط في قسطنطينية بإسبانيا وكبير الأخانات خلال عهد الملك جون الثاني (١٢٠٦ - ١٢٥٤) . عُيّن حاكماً للمملكة لإعادة تنظيم شئونها المالية وأُسندت إليه مسؤولية تنظيم وجباية الضرائب والرسوم الجمركية . كما قام بإمداد الجيش بالمال والحبوب وتمتع بنفوذ واسع في شئون الدولة . وفي عام ١٢٣٢ ، قام الملك بتعيين بنفيسيتي كبيراً للقضاة ومراقب ضرائب للجماعة ، فأصبح يتمتع بالسلطة العليا في المسائل الدينية والتشريعية للجماعة . وفي هذا العام نفسه ، نظم بنفيسيتي مؤتمر أخانات الجماعة وممثليها

وكان إبراهيم بن شوشان (زوج ابنة مائير) مسئولاً عن جباية الضرائب في طليطلة خلال أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر . وخلال عهد سانشو الرابع (١٢٨٥ - ١٢٩٥) ، عمل مع مدير الشئون المالية للمملكة إبراهيم البارجيلوني ، كما عمل صرافاً للمملكة . وبعد أن تقرر عام ١٢٨٦ إعادة أملاك وامتيازات العرش التي فقدت خلال الحرب الأهلية ، أُسندت إلى إبراهيم مهمة الإشراف على هذه العملية وتنفيذها وإن تم استبداله بإبراهيم البارجيلوني عام ١٢٨٧ . وخلال عهد فرديناند الرابع (١٢٩٥ - ١٣١٢) ، مُنح إبراهيم حق جباية الضرائب في قسطالة .

أما يعقوب بن يوسف ، فكان قاضياً شرعياً (ديان) في طليطلة خلال أوائل القرن الرابع عشر ، وكان ممن وقّعوا عام ١٣٠٦ على قرار بحظر الدراسات العلمانية .

وما يُذكر أن عائلة ساسون التجارية المالية والتي ازدهرت خلال القرن التاسع عشر في الهند والصين والشرق الأقصى من نسل عائلة ابن شوشان ، ولعل كلمة «ساسون» مشتقة من كلمة «شوشان» .

عائلة عطار (القرن السادس عشر - القرن الثامن عشر)

Attar Family

عائلة يهودية من أصول إسبانية هاجر كثير من أعضائها من إسبانيا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر واستقروا بشكل خاص في المغرب ، كما تواجدوا أيضاً في أمستردام وتركيا ثم هامبورج ولندن وكوراساو . وبخاصة منذ القرن السابع عشر . وكان أغلب حاملي اسم «ابيناتار Abenatar» أو «أبياتار Abiatar» في هذه الدول من أصل ماراني . ومن أبرز أعضاء هذه العائلة : إبراهيم (الأول) بن سولمون بن عطار (يُرجح أنه عاش في الفترة ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر) ، وكان شاعراً وعالمًا تلمودياً وقبائلياً ، وعاش في مدينة فاس بالمغرب . أما حاييم (الأول) بن عطار الذي عاش في الفترة نفسها ، فكان من وجهاء الجماعة في المغرب ، وقد أسس وترأس مدرسة تلمودية عليا (يشيفا) .

وقد عُيّن موسى بن عطار (توفي حوالي عام ١٧٢٥) سكرتيراً ومستشاراً لنائب الملك في جنوب المغرب . ثم تولى منصب رئيس اليهود (النجيد) خلفاً لوالده ، كما قام بإدارة الأعمال التجارية الواسعة الخاصة بالأسرة وعُيّن خازناً للملك مولاي إسماعيل . كما اختارته إنجلترا للتوسط بينها وبين المغرب في المفاوضات الرامية لإبرام معاهدة سلام بين البلدين والتي أبرمت بالفعل عام ١٧٢١ .

أخيها يوسف ناسي الذي تزوج ابنتها وتشابك نشاطها التجاري والسياسي مع نشاطه . وقد كان ليوسف ناسي مكانة ونفوذ مهمان لدى الباب العالي ، وخصوصاً في مجال السياسة الخارجية ، بفضل شبكته الواسعة من الوكلاء المنتشرين في العالم الغربي ودرابته ومعرفته الواسعة بالشئون الأوروبية وقبادة أوروبا . وقد أصبح قصر جراسيا على ضفاف البوسفور مركزاً للسياسة المتعلقة بالشرق الأوسط ومركزاً أيضاً للشئون اليهودية . وقد اهتمت جراسيا ببناء المؤسسات التعليمية والمعابد اليهودية في القسطنطينية وسالونيك .

وفي الفترة من عام ١٥٥٦ إلى عام ١٥٥٧ ، حاولت جراسيا تنظيم مقاطعة يهودية لميناء أنكونا الإيطالي رداً على اعتقال عدد من يهود المارانو على يد البابا بولس الرابع تمهيداً لإحراقهم . وقدم إخلاء سبيل الأتراك منهم ومن بينهم وكلاء جراسيا التجاريون بفضل تدخل السلطان العثماني استجابة لطلب جراسيا .

إلا أن أكثر مشاريعها شهرة كان استنجازها ، بالتعاون من ابن أخيها ، مدينة طبرية الفلسطينية من السلطان العثماني وذلك بهدف إقامة مستوطنة يهودية لتوطين اللاجئين من اليهود . ولكن من المؤكد أن جراسيا ، ومعها يوسف ناسي ، قد اهتمتا بتنمية المشروع تجارياً حيث أسسا مركزاً لإنتاج الحرير والصوف . وقد دعا يوسف ناسي اللاجئين اليهود في إيطاليا للاستيطان في طبرية لكن دعوته لم تلق استجابة تذكر . إلا أن هذا المشروع لم يُستكمل نتيجة عدة أسباب ، منها رفض سكان فلسطين من العرب له ، ونشاط خصوم يوسف ناسي في القسطنطينية ضده ، الأمر الذي دفعه إلى الابتعاد عن المشروع ، وأخيراً وفاة جراسيا عام ١٥٦٩ . وفي الدولة الصهيونية ، قررت مدينة طبرية الاحتفال بذكرائها وإنشاء تمثال لها .

سليمان أبنايس (ابن عايش) (١٥٢٠-١٦٠٣)

Solomon Abenaes (Aben-Ayesh)

رجل دولة من يهود المارانو . وُلد في البرتغال تحت اسم الفارو منديز ، وحقق ثروة من خلال استغلال مناجم الماس في الهند ، ثم عاد إلى أوروبا حيث حصل على لقب فارس سانتياجو ، وعاش متقلداً بين مدريد وفلورنسا وباريس ولندن . وعندما استولت إسبانيا على البرتغال عام ١٥٨٠ ، تبنّى أبنايس (أصلها بالعربية : ابن عايش) قضية دوم أنتونيو المطالب بعرش البرتغال ، وكان من أشد وأنشط مناصريه . وفي عام ١٥٨٥ ، استقر في تركيا وعاد ليُظهر يهوديته متخذاً اسم سليمان (أبنايس) . وقد نجح في اكتساب مكانة مهمة في البلاط العثماني بفضل ثرائه وعلاقاته واتصالاته الواسعة ،

انتهى بإصدار عدد من اللوائح والتنظيمات الجديدة والقواعد التكميلية (تاقانوت) بغرض تنظيم التعليم الديني ودعمه وتنظيم المحاكم اليهودية وتحقيق عدالة توزيع الضرائب وحماية الجماعة من الوشاية . كما أصدر عدداً من قوانين الترف للحد من الغلو والإفراط في الملابس والاحتفالات ، ذلك الترف الذي كان من أسباب إثارة استياء السكان المسيحيين .

دونا جراسيا (مديسيا) (١٥١٠-١٥٦٩)

Donna Gracia (Mendesia)

هي جراسيا ناسي منديز ، سيدة يهودية ثرية من المارانو عُرِفَتْ بنشاطها من أجل يهود المارانو بعد طردهم من إسبانيا والبرتغال ، وتُعتَبَر في الأدبيات اليهودية وبين المؤرخين من اليهود من أبرز السيدات اليهوديات خلال الـ ٢٠٠٠ سنة الماضية . وقد وُلدت في الغالب في البرتغال لأسرة بنفيسيتي (وهي أسرة من يهود المارانو ذات مكانة مرموقة) ، وعُرِفَتْ باسمها المسيحي بياتريس دي لونا . وقد تزوجت جراسيا عام ١٥٢٨ من فرانسيسكو منديز (ناسي) الذي كان ينتمي أيضاً لعائلة ثرية ومرموقة من المارانو . وكان قد أسس مع أخيه ديوغو منديز تجارة للأحجار الكريمة تطورت إلى مؤسسة مالية مهمة كان لها فرع في أنتورب بهولندا . وبعد وفاة زوجها في سن مبكرة (عام ١٥٣٥) ، نجحت جراسيا في ترك البرتغال سراً ومعها ابنتها وأعضاء أسرتها وكامل ثروتها ، وانتقلت إلى أنتورب حيث انضمت إلى شقيق زوجها ديوغو الذي تزوج أختها . وقد تولت جراسيا إدارة مؤسسة منديز المالية بعد وفاة ديوغو ، إلا أنها اضطرت إلى الفرار إلى البندقية مع ابنتها وابنة أختها بعد أن حاول الإمبراطور شارل الخامس الاستيلاء على ثروتها . ولكن تم إلقاء القبض عليها والاستيلاء على ممتلكاتها بعد أن قامت أختها رينا ، والتي يبدو أنها كانت تعاني من تسلط جراسيا عليها ، بإدانتها لدى السلطات باعتبارها يهودية متخفية . إلا أن ابن أخيها يوسف ناسي الذي كان من رعايا الدولة العثمانية ، نجح في الإفراج عنها بفضل علاقته الوثيقة بالسلطان العثماني وتم رد ممتلكاتها بعد ذلك بعامين . وقد استقرت جراسيا فيما بعد مع أسرتها في مدينة فرازا حيث استطاعت التخلص عن اسمها المسيحي وأصبحت تُعرف باسمها اليهودي جراسيا ناسي ، وقد استمرت في بذل جهودها في فرازا من أجل اللاجئين من المارانو .

وفي عام ١٥٥٣ ، انتقلت جراسيا إلى القسطنطينية حيث استقرت حتى آخر أيامها . وقد ارتبطت هناك بشكل وثيق مع ابن

أمستردام في بيته ، ويُقال إنه ساهم أيضاً في بناء أول معبد يهودي في هولندا . وفي عام ١٦١٠ ، تولّى صمويل إجراء المفاوضات التي انتهت بإبرام أول معاهدة تحالف بين دولة مسيحية (هولندا) ودولة إسلامية (المغرب) . وفي عام ١٦١٤ ، قام صمويل بإذن من السلطان المغربي بقيادة أسطول مغربي صغير واستولى على عدد من السفن الإسبانية وأخذ حمولتها الثمينة حيث كانت إسبانيا والمغرب آنذاك في حالة حرب . وفي أعقاب ذلك ، نجح السفير الإسباني لدى إنجلترا (أثناء وجود صمويل بها) في إقناع السلطات البريطانية بإلقاء القبض عليه بتهمة القرصنة وكذلك بتهمة الارتداد عن المسيحية والرجوع لاعتناق اليهودية . وطالب السفير الإسباني بتنفيذ عقوبة الإعدام فيه . وقد أثار ذلك احتجاج هولندا والمطالبة بالإفراج عنه . وفيما بعد قُدِّم صمويل للمحاكمة ولكنه بُرِّئ حيث استند دفاعه إلى أنه رعية مغربية في خدمة السلطان المغربي وفي حالة حرب مع إسبانيا . وقد عاد صمويل بعد ذلك إلى هولندا وقام بهجوم على سفينة إسبانية في بحر المانش والاستيلاء على حمولتها انتقاماً من إسبانيا . وتُوُفِّي صمويل في هولندا وأُقيمت له جنازة كبيرة .

والواقع أن ارتباط يهودي مثل بالاشي بالمغرب وبالنشأت المغربية الإسلامية قديم غريباً في العصر الحديث ، ولكنه كان أمراً مألوفاً في الماضي ، إذ كانت أوروبا تنظر إلى اليهودي باعتباره عميلاً للمسلمين العرب . بل يُقال إن جذور معاداة اليهود (أو معاداة السامية) تعود إلى هذا التوحيد بين اليهود والعرب المسلمين في الوجدان الغربي .

وخصوصاً شبكة المعلومات المتطورة والمحكمة التي كانت تتبعه في أوروبا والتي استفادت منها الدولة العثمانية خير استفادة . وقد منح أنابيس حق جباية عائدات الجمارك ، كما عُيِّن دوقاً لإحدى جزر بحر إيجه .

وقد كرس أنابيس مجهوداته لإقامة تحالف تركي بريطاني مضاد لإسبانيا تأييداً لمطالب دوم أنتونيو بعرش البرتغال . وساهم هذا التحالف بالفعل في وقف توسُّع القوة الإسبانية خلال أواخر القرن السادس عشر . وقد استعان أنابيس في ذلك بجماعة يهود المارانو في إنجلترا وعلى رأسهم هكتور نونيز و طبيب الملكة رودريجو لوبيز الذي كان أيضاً صهره . وقد وضع أنابيس خطة جريئة لاستيلاء دوم أنتونيو على عرش البرتغال مفادها أن يضع يده على مستعمرات البرتغال في الهند ثم يبحر على رأس قوات ضخمة للاستيلاء على البرتغال . لكن هذه الخطة لم تنجح واختلف أنابيس ودوم أنتونيو ، فتخلّى أنابيس عنه ، واتهمه دوم أنتونيو بالخيانة . ودخل الاثنان في مواجهة تخللتها المكائد والمؤامرات لعب فيها بعض اليهود المنافسين لأنابيس في إستنبول دوراً كبيراً ، كما أرسل أنابيس إلى ملكة إنجلترا ممثلين عنه لتوضيح موقفه . ولم يتأثر مركزه حتى بعد اتهام صهره رودريجو لوبيز بمحاولة دس السم للملكة إليزابيث . وقد نجح أنابيس ، عقب مجيئه إلى تركيا ، في الحصول على ولاية طبرية التي كانت ممنوحة ليوסף ناسي من قبله والذي كان أيضاً مستشاراً يهودياً في البلاط العثماني .

صمويل بالاشي (؟ - ١٦١٦)

Samuel Palache

دبلوماسي مغربي يهودي ، وُلد لعائلة من اللاجئين اليهود الإسبان الذين استقروا في المغرب وحققوا مكانة مرموقة بها . كان صمويل وشقيقه يوسف من كبار المستشارين الماليين في المغرب ، وقد اختارهما سلطان المغرب للقيام بمهمة التفاوض مع ملك إسبانيا . وفي إحدى زيارتهما لإسبانيا اتهمتهما محاكم التفتيش بتشجيع المارانو على الرحيل عن إسبانيا والعودة إلى اعتناق اليهودية ، وهو ما اضطرهما إلى الاختباء في بيت السفير الفرنسي قبل أن ينجحا في الفرار من إسبانيا بعد ذلك بقليل . وفي عام ١٦٠٨ ، قام سلطان المغرب بتعيين صمويل سفيراً للمغرب في أمستردام . وقد كان صمويل أول يهودي يستقر في هولندا بشكل علني وينجح في الحصول على إذن يسمح باستيطان اليهود بها . كما انعقد أول منيان (النصاب اللازم لإقامة الصلاة اليهودية) في

باسيفي التروينبرجي (يعقوب بن صمويل) (١٥٧٠-١٦٣٤)

Bassevi of Treuenberg (Jacob ben Samuel)

من يهود البلاط في براغ ، وأول يهودي في أوروبا خارج إيطاليا يُرَقَّع إلى طبقة النبلاء . كما كان من أبرز يهود البلاط العاملين في مجال سك العملات ، وهو مجال زادت أهميته بشكل كبير في خلال فترة حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) . وتُعتبر هذه الحرب بداية تَخَصُّص المموِّلين والتجار اليهود في مجال تمويل الحروب وتمويل الجيوش في أوروبا ، وهو ما ظل حكرًا على بعض أعضاء الجماعة اليهودية لمدة قرن من الزمان ، وذلك بفضل تراثهم التجاري وخبراتهم المالية وعلاقتهم الدولية المتشعبة التي أهلتهُم لمل هذا الدور .

وقد شكل باسيفي ، بالتعاون مع أمير ليختنشتاين والنشتاين قائد الجيوش الإمبراطورية ، اتحاداً مالياً لسك وإصدار العملات

الديون ، ثم اتهم هو وحاشيته بالغش والسرقة . ولكنه اشترى براءته في نهاية الأمر ، كما استرد نفوذه مرة أخرى مع اندلاع الحرب بين النمسا وتركيا عام ١٦٨٢ . وقد قام أوبنهايمر أثناء حصار الأتراك لفينا بتنظيم خطوط الإمداد . وبعد رفع الحصار ، عُهد إليه بتدبير المؤن لقوات النمسا المتقدمة إلى المجر . وقد وصل نفوذه إلى قمة ازدهاره إبان حرب التسعة أعوام (١٦٨٩ - ١٦٩٨) حيث تولى توريد مؤن الجيوش النمساوية التي كانت تحارب ضد الفرنسيين . ولم يَم أوبنهايمر بتوفير الضروريات وحسب ، بل إنه زود الضباط بالخمور التي يحتاجون إليها ، والجنود بالتبغ ، كما زود البلاط في فيينا بالنبيذ والتوابل والمجوهرات وأردية سائقي المراكب الملكية والخدم . وقد احتكر أوبنهايمر كل عقود تزويد الجيش بالمؤن والأسلحة والذخائر ، وأصبح متعهد المؤن العسكرية الوحيد للنمسا ، وكان جزء كبير من دخل الخزنة النمساوية يُدفع نظير خدماته .

ومرة أخرى ، تناقص نفوذ أوبنهايمر في عام ١٦٩٨ ، عند نهاية الحرب ، ولم يعد الإمبراطور في حاجة إليه . فهاجمت الجماهير الساخطة قصره ودمرت أروقته عام ١٧٠٠ . وعند موته عام ١٧٠٣ ، كانت الخزنة الملكية مدنية له بمبالغ كبيرة ، فأعلنت الدولة أن الدين ملغى تماماً . ولكن يهود البلاط قاموا في عدة إمارات ألمانية بتحريض الأمراء للضغط على الإمبراطور لدفع الديون . وقامت هولندا بممارسة الضغط أيضاً حتى يرد الإمبراطور المبالغ التي اقترضها أوبنهايمر من أمستردام . وفي نهاية الأمر ، سوّيت الأمور وعُيّن مكانه ورثه عمانوئيل أوبنهايمر ، فقام بتزويد القوات النمساوية بالمؤن خلال حرب النزاع على العرش الإسباني وبعدها . ولكنه لم يصل إلى مكانة صموئيل قط .

ويعزى نجاح صموئيل أوبنهايمر إلى قدراته التنظيمية وشبكة الاتصالات التي أسسها ، والتي كانت تضم مقاولين ومقاولين من الباطن وكان من بين هؤلاء يهود بلاط في إمارات مختلفة . وقد كان صموئيل متزوجاً من ابنة يهودي سفاردي من مانهايم ، وتزوج ابنه من ابنة ليتمان بيريز شريكه الذي كان من كبار الممولين . وكانت تتبع أوبنهايمر حاشية من المساعدين والكلاء الذين كانوا موجودين في كل المراكز المالية والتجارية في أوروبا ، وكان غريمه سامسون فرتايمر واحداً منهم في وقت من الأوقات .

سامسون فرتايمر (١٦٥٨-١٧٢٤)

Samson Wertheimer

يهودي بلاط ، درس في المدرسة التلمودية العليا في

النقديّة المعشوشة ، إذ أن قيمتها الحقيقية أقل من القيمة المسكوكة عليها وذلك لسد احتياجات الإمبراطور لتمويل نفقات الحرب . وقد قدّم باسيفي خبراته المالية للاتحاد ، وتولى شراء الفضة اللازمة من الخارج . ومقابل خدماته للاتحاد رُفِع إلى طبقة النبلاء ، وسُح له بحرية الاتجار في جميع أنواع السلع ، وبحرية الإقامة في أي مكان ، وهو ما كان محظوراً على يهود الإمبراطورية النمساوية . إلا أن ما ترُتب عليه نشاط الاتحاد من خفض حاد لقيمة العملة وتزايد التضخم ، أدّى إلى تزايد سخط الجماهير والذي انصب بصفة خاصة على باسيفي . وبعد وفاة أمير ليختنشتاين ، اتخذت السلطات إجراءات ضد أعضاء الاتحاد السابقين وتم القبض على باسيفي عام ١٦٣١ والاستيلاء على ممتلكاته . إلا أن مساعي والنشطين نجحت في الإفراج عنه . وبعد وفاته بعامين ، اعتُبرت جميع الامتيازات التي نالها في حياته باطلة .

صموئيل (أوبنهايمر) (١٦٣٥-١٧٠٣)

Samuel Oppenheimer

من أشهر يهود البلاط . كان يعمل متعهد مؤن وجامعاً للضرائب في إحدى الإمارات الألمانية ، ثم انتقل إلى فيينا حيث حصل على حق الإقامة الدائمة فيها وعلى امتيازات تجارية غير محدّدة . ولذا ، سُح له هو وتابعوه بالبقاء فيها حينما طُرد يهود فيينا عام ١٦٧٠ .

عمل أوبنهايمر مدة أربعة وعشرين عاماً بعد ذلك كيهودي بلاط ، فقام بتزويد الجيوش النمساوية والألمانية بالمؤن . واستخدم شبكة الاتصالات التجارية اليهودية بكفاءة ، وأثناء الحرب بين النمسا وفرنسا (١٦٧٣ - ١٦٧٩) عهد له الإمبراطور ليوبولد الأول بتزويد كل الجيش النمساوي على نهر الراين بما يحتاج إليه من مؤن . وحصل أوبنهايمر على العقد الوحيد لهذه المهمة ، فأرسل وكلاءه عبر جنوب ألمانيا للحصول على القمح وعلف الماشية وملابس الجنود ، وعلى أحصنة وبارود وذخيرة من التجار اليهود في فرانكفورت . كما اشترى سلعاً أخرى من هامبورج وأمستردام من وكيله موسى جومبيريز الذي كان من كبار الممولين السفارد . كما بنى كباري من الطرّف (عوامات مطاطية) لنقل البنادق والأحصنة والجنود .

وقد ارتبط نفوذ أوبنهايمر تماماً بحالة الحرب . ولذا ، تناقص نفوذه مؤقتاً حينما وُقعت اتفاقية سلام بين النمسا وفرنسا عام ١٦٧٩ ، فرفضت الخزنة النمساوية أن تدفع له ما عليها من ديون . فقلّم التماساً إلى الإمبراطور ولكن لم يدفع له سوى جزء صغير من

بعض القرى والمدن البولندية التي حظي أعضاء الجماعة اليهودية فيها بامتيازات خاصة نتيجة ذلك . وقد تفتت ثروته بعد موته .

إبراهيم بن وايش (القرن السادس عشر - القرن السابع عشر)

Abraham Ben Waish

مالي يهودي مغربي اشتغل مصرفياً لدى سلطان المغرب أحمد المنصور في مراكش ثم مراقباً للمالية حتى عام ١٦٢٧ . وقد تمتع بنفوذ واسع ، ويعود له الفضل في تعيين أعضاء عائلة بالاشي اليهودية سفراء للمغرب لدى هولندا . كما كان وراء إرسال أحد أقاربه إلى البندقة عام ١٦٠٦ لشراء سلع ثمينة للحاكم . وقد عُيِّن رئيساً لليهود (نجيد) في مملكة مراكش .

وفي إطار عمله كمراقب للمالية ، أثار بن وايش احتجاجات الحكومات الأوربية بسبب تحيزه لصالح يهود إنجلترا وهولندا على حساب مسيحيي هاتين الدولتين . وقد اتهم بالاختلاس ولكنه نَجَح في تبرئة نفسه

جوزيف هامبرو (١٧٨٠-١٨٤٨)

Joseph Hambro

تاجر ومالي يهودي دنماركي ومن يهود البلاط . وقد كان والده تاجر أقمشة وحرائر . وبدأ هامبرو حياته بـتبعاً متجولاً في شوارع كوبنهاجن ، ثم تلقى تدريبه التجاري في مؤسسة تجارية في هامبورج وعاد إلى بلده ليحقق ثراءً كبيراً من خلال تجارة الأقمشة وتجارة جزر الهند الغربية . وقد كان هامبرو أول من أقام في الدنمارك طاحونة تعمل بالبخار . وقد عُيِّن يهودي بلاط ملك الدنمارك وممثلاً للحكومة الدنماركية في المفاوضات المالية والاتفاقات التجارية مع بريطانيا والترويج .

وقد كان هامبرو من اليهود المتدمجين ، فتزوج من امرأة غير يهودية ، كما تنصّر ابنه . وقد انتقل عام ١٨٣١ إلى لندن حيث أسس ابنه كارل (١٨٠٨ - ١٨٧٧) مؤسسة هامبروز المصرفية عام ١٨٣٩ والتي شاركت في تدبير القروض الحكومية وفي تمويل السكك الحديدية الدنماركية .

عائلة بليخروود

Bleichroeder Family

عائلة من رجال المال الألمان من بقايا يهود البلاط في عصر الرأسمالية الرشيدة . وقد أسس صمويل بليخروود (١٧٧٩ -

فرانكفورت . تزوج من أرملة ناثان أوبنهايمر ، وبالتالي تعرّف على صموئيل أوبنهايمر الذي عُيِّن مديراً لأعماله في فيينا ، وقُدِّمه إلى ليوبولد الأول . ويُعدُّ فرتايمر أثري يهودي في عصره . كما كان المدير المالي للإباطرة : ليوبولد الأول ، جوزيف الأول ، شارلز الأول . ودبر فرتايمر كثيراً من الاعتمادات المطلوبة لحرب الوراثة الإسبانية والحرب ضد تركيا . وعمل وكيلاً مالياً للإمبراطور ولعدد من حكام المقاطعات الألمانية . وعند موت صموئيل أوبنهايمر عام ١٧٠٣ ، عُيِّن فرتايمر يهودي بلاط بدلاً منه ، وقد أدخل فرتايمر تحسينات على استخراج الملح كما وضع نظاماً لاحتكار تجارته في بولندا ، والتي كان يحتكرها يهود الأرندا . ونظم فرتايمر عملية نقل الملح إلى المجر وسيليزيا إلى جانب عمليات التمويل اللازمة لاستخراجه ونقله .

وكان فرتايمر يقوم بدور الوسيط بين الجماعة اليهودية والنخبة الحاكمة ، وعُيِّن حاكماً أكبر لليهود المجر . وألت ثروته إلى ابنه ، ولكنه أفلس عام ١٧٣٣ بعد أن رفضت بافاريا أن تدفع له ديونه ، ولكنها بعد عشرين سنة من التقاضي اعترفت بالدين . ودُفِع الدين على أقساط لأبنائه الذين تنصّر معظمهم وصاروا أعضاء في الأرستقراطية النمساوية .

برنارد ليمان (١٦٦١-١٧٣٠)

Bernard Lehman

يهودي بلاط من ساكسونيا (ألمانيا) . كان اسمه عند مولده إسخار برمان . جذب اهتمام أوجستوس الثاني (القوي) (١٦٧٠-١٧٣٣) أمير ساكسونيا الذي كان يُخطط ليصبح ملكاً منتخباً لبولندا ، فعُهد إليه بالجانب المالي لهذا المخطط ، فقام ليمان ببيع كثير من ممتلكات ساكسونيا للحصول على المبالغ المطلوبة لرشوة النواب البولنديين . وقد نجح أوجستوس في مساعيه واعتلى عرش بولندا (١٦٩٧-١٧٣٣) . وقد أصبح ليمان ممثلاً دبلوماسياً لأوجستوس والمسئول عن جواهره وعن دار سك النقود بل المسئول عن عشيقاته . وكان يعمل كمتمهد عسكري ، فكان يقوم بتزويد الجيش بالجرابة والأسلحة . كما كان ليمان يقوم بإقراض حكام هانوفر وبرونزويك مبالغ ضخمة .

وقد زادت ثروة ليمان لدرجة أنه أصبح له بلاطه الخاص المكون من ثلاثين شخصاً من بينهم خاخام وذابح شرعي . وكان يتوسط لأعضاء الجماعات اليهودية للحصول على امتياز الاستيطان في المدن والمناطق المحظور عليهم الاستقرار فيها . وقد وقعت ضمن أملاكه

(١٧٨٣-١٨٤٦) منها . وتجسد هذا التحالف في مؤسسة سبير إيلسن المصرفية في عام ١٨١٨ والتي أصبحت عام ١٨٣٨ مؤسسة لازارد سبير إيلسن المصرفية بعد تولي ابنه لازاروس يوسف سبير (١٨١٠-١٨٧٦) إدارة أعمال الأسرة . وقد تأسس فرع لبنك سبير في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٧ بعد أن انتقل الأخوان فيليب سبير (١٨١٥-١٨٧١) وجوستاف سبير (١٨٢٥-١٨٨٣) إليها . كما ساهم هذا الفرع في ربط ألمانيا بصفة خاصة وأوروبا بصفة عامة بالسوق الأمريكي . وقد اشترك بالتعاون مع فرع فرانكفورت في تدبير القروض الأمريكية خلال الحرب الأهلية الأمريكية .

وقد وصلت أعمال العائلة إلى ذروتها في ظل إدارة ابني جوستاف : جيمس سبير (١٨٦١-١٩٤١) الذي أدار الفرع الأمريكي ، وإدجار سبير (١٨٦٢-١٩٣٢) الذي تولى إدارة الفرع الإنجليزي . وقد ساهم الفرع الأمريكي ، في ظل إدارة جيمس ، في تمويل بناء السكك الحديدية الأمريكية والعديد من المؤسسات الصناعية الأمريكية ، إلى جانب تدبير القروض للحكومات الأجنبية ، وخصوصاً في أمريكا الجنوبية . وكانت الولايات المتحدة تشهد ، في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، توسعاً سريعاً في مؤسساتها الصناعية والتجارية ومؤسسات الخدمات العامة ، الأمر الذي خلق طلباً شديداً على رأس المال . وقد استطاع بنك سبير وغيره من البنوك الأمريكية المملوكة للعائلات اليهودية ذات الأصول الأوروبية من تدبير رأس المال اللازم بكميات كبيرة وبشكل سريع نسبياً بفضل علاقاتهم المتشعبة في أوروبا وعلاقتهم الوثيقة فيما بينهم سواء من خلال الأعمال أو الزواج .

أما بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد اشترك بنك سبير في تدبير القروض ورأس المال الأمريكي للاستثمار في أوروبا ، خصوصاً في الصناعة الألمانية . وقد تأثرت مؤسسة سبير بالأزمة المالية العالمية لعام ١٩٢٩ والتي أوقفت تدفق رأس المال بين أوروبا والولايات المتحدة . وتمت تصفية فرع ألمانيا عام ١٩٣٤ ، وفرع الولايات المتحدة عام ١٩٣٩ . أما فرع لندن ، فقد صُفي خلال الحرب العالمية الأولى بعد أن اتهم إدجار بالتعاطف مع ألمانيا .

ممالك مالية

Financial Mamlukes

مصطلح «ممالك مالية» مصطلح قمنا بنحته ونستخدمه لوصف أوضاع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة الغربية ، وذلك انطلاقاً من مفهومنا التحليلي الخاص بالجماعات الوظيفية المالية .

(١٨٥٥) مؤسسة بليخروود المصرفية في برلين عام ١٨٠٣ ، والتي كانت على علاقة وثيقة ببيت روتشيلد حيث عملت كوكيل له في برلين ، وهو ما ساعد على تزايد أهميتها في السوق المالي والمصرفي ابتداءً من عشرينيات القرن التاسع عشر . وقد تولى إدارة المؤسسة ، بعد وفاة صمويل ، ابنه جرسون فون بليخروود (١٨٢٢-١٨٩٣) الذي وصلت مؤسسة بليخروود في ظل إدارته إلى ذروة قوتها وتحولت إلى أحد أبرز المؤسسات المالية في ألمانيا من خلال مساهمتها في تمويل الحروب وتمويل بناء السكك الحديدية . وقد كان جرسون بليخروود يهودي بلاط فيلهلم الأول ، وكانت تربطه علاقة وثيقة بسمارك وأصبح مستشاره المالي والسياسي أيضاً . وقد ساهم في تمويل الحرب النمساوية - البروسية عام ١٨٦٦ ، كما اشترك في تحديد حجم التعويضات التي كان على فرنسا دفعها في نهاية الحرب الفرنسية - البروسية (١٨٧٠-١٨٧١) وساهم في تمويلها . ومع هذا فنحن نستخدم هنا مصطلح «يهود بلاط» على سبيل المجاز ، إذ أن حجم نفوذ صمويل بليخروود صغير بالقياس لحجم الرأسمالية الألمانية ومتطلبات الدولة الألمانية ، ولذا قد يكون من الأدق إطلاق مصطلح «رأسمالي ألماني يهودي» عليه . وقد رُفِع جرسون بليخروود عام ١٨٧٢ ، وبتوصية خاصة من بسمارك ، إلى مرتبة النبلاء . وخلال مؤتمر برلين لعام ١٨٧٨ ، استطاع من خلال علاقته بسمارك انتزاع بعض المكاسب والحقوق لليهود دول البلقان .

وبعد وفاة جرسون بليخروود ، تولى أبنائه الثلاثة ، وقد تخلوا جميعاً عن الديانة اليهودية ، إدارة مؤسسة بليخروود . وقد كان لها نشاط مالي دولي واسع قبل اندلاع لحرب العالمية الأولى ، كما شاركت في تمويل الصناعة الألمانية عقب الحرب . وقد فقدت الأسرة سيطرتها على المؤسسة في عام ١٩٣٨ بعد استيلاء السلطات النازية عليها .

عائلة سبير

Speyer Family

عائلة يهودية ألمانية وأمريكية من رجال المال والبنوك ، تعود جذورها إلى القرن السابع عشر في فرانكفورت بألمانيا .

وقد كان إسحق مايكل سبير (توفي عام ١٨٠٧) ، وهو من أحفاد مؤسس العائلة ، من يهود البلاط الإمبراطوري . وقد حققت العائلة بنهاية القرن الثامن عشر ثروة طائلة من خلال نشاطها في مجالي تمويل الجيوش والمبادلات المالية . وقد ارتبطت عائلة سبير بعائلة إيلسن اليهودية المالية حينما تزوج يوسف لازاروس سبير

الصعب أيضاً على التاجر أو المرابي أن يسلب ثروات من تربطه بهم علاقة قرابة ، فالاضطلاح بالهمة القتالية أو المالية يتطلب الموضوعية والحياد اللذين يتسم بهما الغريب .

وكان أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية في الحضارة الغربية ، والممالك في المجتمعات العربية ، يُعدّون ملكية خاصة للملك ، وكلمة «مملوك» مشتقة من كلمة «مُلك» وتشير إلى العبد المملوكي وتعني «الخادم» أو «العبد» . أما أعضاء الجماعات اليهودية في العصور الوسطى ، فكان يُشار إليهم باسم «أقتان البلاط» ، (باللاتينية : «سيرفي كامبراي ريجيس servi camerae regis») وكلمة «سيرفوس servus» اللاتينية تعني «خادم» أو «قن» أو «عبد» . وقد كان كل من الممالك وأعضاء الجماعات اليهودية قريبين من النخبة الحاكمة ، فهم أداتها في الاستغلال والقمع والغزو ، ولذا تركزت الفريقان في المدن . ولنا أن نلاحظ أن كلا من الممالك وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية يؤمن بأنه شعب مختار أو نخبة مختارة ، وكان الإحساس بالحرية والاختتمية (أو عبث الوجود) أمراً مشتركاً بينهما . كما أن أعضاء الجماعتين كانوا يطبقون معايير أخلاقيين مزدوجين : واحد يُطبق على الجماعة الوظيفية المقدسة ، والآخر على المجتمع المضيف المباح . وكان كل من الممالك وأعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية يمتلك أداة يجيد استخدامها أكثر من أعضاء المجتمع المضيف : السيف في حالة الممالك ، ورأس المال الربوي والخبرة التجارية والإدارية في حالة أعضاء الجماعات اليهودية . ويُلاحظ أن الممالك وأعضاء الجماعات اليهودية كانوا محط خوف الجماهير وكراهيتها ، وأنهم سقطوا صرعى عمليات التحديث وظهرت الدولة القومية الحديثة . ونعلنا لو قارنا إبادة المائيك على يد محمد علي وإبادة يهود انغرب على يد هتلر لأُثبتنا بالمبالغة والشطط ، ولكنهما مع هذا مبالغة وشطط يثيران جوانب من الواقع . ومع أن أحداً من الدارسين لم يستخدم اصطلاح «ممالك» لوصف وضع اليهود في الحضارة الغربية ، فإن المؤرخ الأمريكي اليهودي جي كوب أجوس اقترح كثيراً من المصطلح حين قال : «إن مكانة اليهود كغرباء كانت مهمة ، إذ أن الطبقة الحاكمة كانت تستخدمهم كما كانت تستخدم المرتزقة تماماً ، وكانت تفضلهم على الصيارفة المحليين للسبب نفسه الذي كانت من أجله تفضل المرتزقة على الفرق المحلية» .

وعلى كل حال ، يبدو أن فكرة «الممالك» كانت في ذهن المشرع الغربي في العصور الوسطى مع أنه لم يستخدم المصطلح نفسه . فوضع اليهود كأقتان بلاط كان يستند إلى قصة أسطورية

ونحن حين نصف أعضاء الجماعات اليهودية الوظيفية المالية في الحضارة الغربية بأنهم «ممالك مالية» فإننا نستخدم مفهوم الجماعات الوظيفية لربط بين أقتان البلاط ويهود البلاط وغيرهم من أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب ممن اضطلعوا بوظائف خاصة من جهة ، والممالك من جهة أخرى ، أي أننا ربطنا الواقعة أو الظاهرة (الخاصة) التي قد تبدو فريدة داخل المجتمع الغربي بوقائع وظواهر مماثلة في مجتمعات أخرى ، ومن ثم فهي تفقد كثيراً من تفرداها وإطلاقها (وليس بالضرورة خصوصيتها) ، ويظهر النمط التكرار الكامن دون السقوط في القوانين العامة المجردة . هذه ، إذن ، محاولة للوصول إلى غمط لا يستند إلى وقائع التاريخ الغربي ولا ينطلق منها بالضرورة ، وإنما يستند إلى وقائع التاريخ الإنساني العام بما في ذلك التاريخ الغربي بالطبع . كما أنها محاولة لتعميق فهم القارئ العربي للظاهرة اليهودية في الحضارة الغربية ، فالممالك واقع مألوف لديه ، وعن طريق ربط المؤلف بغير المؤلف والمعلوم بالمجهول يمكن فهم المجهول وغير المؤلف . كما أن لمصطلح «ممالك» مقدرة تفسيرية عالية ، حين يُطبق على الظاهرة اليهودية ثم الصهيونية وأخيراً على الدولة الصهيونية .

ولنبداً بمحاولة حصر بعض سمات الجماعات الوظيفية التي يتسم بها كل من الممالك ، باعتبارهم جماعة وظيفية قتالية ، وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في الحضارة الغربية ، فهذه السمات هي الأرضية المشتركة بين الفريقين . وسنلاحظ أن الممالك وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية هم جماعات وظيفية عملية تضطلع بوظيفة متميزة أو مشيئة أو كريمة (القتال في حالة الممالك ، والتجارة والربا وجمع الضرائب في حالة اليهود) . كما كان يتم استغلال كل من الممالك وأعضاء الجماعات اليهودية من خارج المجتمع ، ليضطلعوا بوظيفة محدّدة توكل إليهم ، فهم غرباء نافعون يدخل معهم المجتمع في علاقة تعاقدية محددة . وكان يتم أيضاً عزل كل من الممالك وأعضاء الجماعة اليهودية عن بقية السكان ، بل صارت العزلة الثقافية والإثنية أساس الانخراط في سلك هذه الجماعات . وهي عزلة تظهر في الأزياء التي كان يرتديها كلٌّ من الممالك وأعضاء الجماعات اليهودية ، وفي اللغة التي كانوا يتحدثون بها (اليديشية أو الشركسية أو غيرها من اللغات) ، وفي طريقة قص الشعر أو تصفيفه . وكان يتم عزل أعضاء الجماعات اليهودية في الجيتو وعزل الممالك في التكنات العسكرية . وكان العزل يتم أصلاً لأن الانتماء العاطفي والحضاري للمجتمع المضيف يجعل من الصعب على المحارب أن يقتل من يحب ويجعل من

إرسال أعضاء الجماعة اليهودية ليضطلعوا بدور الجماعة الوظيفية الاستيطانية المالية في إطار ما نسميه «الإقطاع الاستيطاني» ، فكان أحد أثرياء اليهود يستأجر الضيعة بكل ما عليها ويدفع مبلغاً للنبييل الإقطاعي (البولندي الكاثوليكي) ثم يقوم هو بإدارتها وتحصيل عوائدها (الأرندا) ، وعادة ما كان يحضر أعضاء أسرته وذوي قرابته ويعيشون في مدن صغيرة أسسها لهم النبييل الإقطاعي تُسمى «شتتل» . وكان للوكيل اليهودي صلاحيات تقترب من صلاحيات النبييل الإقطاعي ، كما كان يتدخل في كل النشاطات التجارية والحرفية وغيرها ليوّلفها لحسابه وليعتصر من دخل الفلاحين . فكان يفرض ضريبة على الملح وعلى المركبات وحتى على مفتاح الكنيسة ، فإن أراد الفلاحون المسيحيون الأرثوذكس فتح الكنيسة كان عليهم دفع ضريبة للوكيل اليهودي .

وكان الموقف متفجعاً تماماً ، ولذا كانت تحمي الجماعة اليهودية الوظيفية الاستيطانية المالية جماعة أخرى وظيفية استيطانية قتالية هي الجيش البولندي ، أي أننا هنا أمام مثل جيد لمالك مالية لا يتقصها سوى السيف لتصبح ممالك قتالية . بل إن ملامح تحول الجماعة الاستيطانية المالية إلى جماعة استيطانية قتالية كان قد بدأ يتضح ، ولذلك كانت المعابد تُبنى كالحصون (ولهذا كان يُطلق عليها «القلعة/ المعبد» [بالإنجليزية : فورتريس سيناجوج fortress synagogue]) وتُفتح في جدرانها كوات لإطلاق نيران المدافع وتُنصب فوقها البنادق . وقد نص القانون على أن كل رب عائلة من عائلات يهود الأرندا يتعين عليه أن يحتفظ ببنادق بعدد الذكور وثلاثة أرتال من خراطيش البارود . وقد حاربوا في نهاية الأمر إلى جوار القوات البولندية ضد شميلنكي والقوزاق . وما يجدر ذكره أن يهود بولندا يشكلون غالبية يهود العالم ، بل هناك نظرية تذهب إلى أن جميع يهود الغرب من نسل هؤلاء لا من نسل اليهود الأصليين في معظم بلاد الغرب الذين تم استيعابهم في مجتمعاتهم .

متداولة تهدف إلى إضفاء شيء من الشرعية على وضع فريد داخل المجتمع الإقطاعي الغربي . وتروي القصة أنه أثناء حصار القدس عام ٦٠ ق.م ، مات ثلث اليهود من الجوع ، وقُتل الثلث الثاني ، أما الثلث الأخير فقد قام المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس بإطعامهم ثم بيعهم للملك (أي الإمبراطور) تيتوس بعد سقوط القدس . وقد سلمهم الأخير إلى بلاط ملوك الرومان كي يصحبوا خدماً (أقتاناً) للإمبراطورية على أن يقوم الملوك الرومان بحمايتهم . وقد بُعث في القرن الرابع عشر الجزية الرومانية القديمة تحت اسم «ضريبة المليم» (بالألمانية : «أوفرپفينج Oerpfennig») دلالة على أن أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد ورثوا فسبسيان وتيتوس الهيمنة الكاملة على الشعب الذي هُزم واستُبعد مئات السنين من قبل .

وإذا كانت أسطورة الشرعية هذه طريفة بقدر ما هي ساذجة ، فهذا هو الحال مع معظم أساطير الشرعية . وما يهمنا هو أنها تفترض وجود علاقة مآلك وملكوك بين الحاكم وأعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في العصور الوسطى في الغرب . وبغض النظر عن سذاجة الأسطورة ، فإن سلوك المجتمع الغربي في العصور الوسطى كان يفترض هذه العلاقة . ففي حالة قتل أحد اليهود ، لم تكن الذية تُدفع لأسرة القتيل وإنما للإمبراطور أو الملك . كما كانت الموائيق تتحدث عن أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم أشياء تخص الملك ومن ميراثه ومنقولاته .

وقد أشار أجوس إلى أهم تجارب اليهود (الملوكية) في أوكرانيا . ومن المعروف أن ملوك بولندا لم ينجحوا في تجنيد البورجوازية في عملية تقليم أظافر طبقة النبلاء وتأسيس ملكية مطلقة كما حدث في باقي بلدان أوروبا . بل حدث العكس ، إذ استخدم النبلاء أعضاء الجماعة اليهودية أداة لضرب البورجوازية وإضعاف مؤسسة الملكية . وحينما ضمت بولندا أوكرانيا ، اضطر النبلاء إلى



٤

جماعات وظيفية يهودية أخرى (البغاء - الطب -
الترجمة ... إلخ)

جماعات وظيفية يهودية مختلفة - قطاع اللذة - البغاء وتجارة الرقيق الأبيض - الطب - الترجمة -
الجناسوسية اليهودية والجناسيس اليهود - الجناسيس من أعضاء الجماعات اليهودية - نيني -
قضية لافون - قضية بولارد - نيشان - فامبيرري - أمين باناش - رايلي - أزيغ - روزنبرج

جماعات وظيفية يهودية مختلفة

Different Jewish Functional Groups

الجماعات الوظيفية القتالية ، هي أهم الجماعات الوظيفية على الإطلاق . ولكن هناك أشكالا لا حصر لها ولا عد من الجماعات الوظيفية ، تختلف باختلاف احتياجات كل مجتمع ومرحلة تطوره وخطابه الحضاري . ومن أهمها : الجماعات التي تعمل في قطاع اللذة والطب والترجمة والجناسوسية . ورغم تنوع وظائف هذه الجماعات إلا أنها تتسم بكل أو معظم السمات التي تتسم بها الجماعات الوظيفية الأساسية من تعاقدية ونفعية وحياد إلى عزلة وغربة وحركية وعدم انتماء للمكان والزمان وتمركز حول الذات والموضوع .

قطاع اللذة

Pleasure Sector

«قطاع اللذة» هو أحد القطاعات التجارية في المجتمع ويؤدي خدمة أساسية هي «الترفيه» وإشباع الملذات بطريقة شرعية أو غير شرعية . ونحن ندرج تحت قطاع اللذة مهن مثل الراقصات ومهرجي السيرك والمضيفات في الملاهي الليلية و«العوالم» والبغايا وتجار المخدرات . كما يمكن أن يُضم إليه من يعمل في مجال السياحة والجانب الترفيهي من الإعلام ونجوم السينما ومضيفات الطيران . . إلخ .

وإذا كانت وظيفة عضو الجماعة الوظيفية ، في وجه من وجوها ، أن يبيع للمجتمع المضيف خدمة ما نظير مزايا يحصل عليها (فالتاجر والمرابي يمنحان المجتمع صلاتهما التجارية وخبرتهما المالية) ، فإن العاملين في قطاع اللذة في المجتمع يفعلون الشيء نفسه ، فهو في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، قطاع تجاري مهمته تحقيق الربح لصاحب الاستثمار ، دون الالتزام بأية مثاليات أو

أخلاقيات ، فهو يبيع سلعة تُسمى «اللذة» لا تختلف (في نظر البائع) عن أية سلعة أخرى مثل الكوكاكولا أو الخبز . وهو مثل أي تاجر محترف يحاول أن يوفر الخدمة للمستهلك على أحسن مستوى نظير أرخص الأسعار الممكنة . وفي حالة قطاع اللذة فإن صاحب الاستثمار يحقق هدفه عن طريق تعظيم اللذة مثل صناعة السينما (التي أصبحت ثاني أهم صناعة في الولايات المتحدة) والملاهي الليلية والبغاء والسياحة . ويدير قطاع اللذة ، عادةً ، عناصر مهاجرة أو أعضاء أقليات محلية لا تؤمن بالمنظومة القيمية الحاكمة في المجتمع (نظراً لهما مشيتها أو عدم تجذرها) على عكس أعضاء الأغلبية الذين يعيشون داخل هذه المنظومة وحسب قواعدها ويبدئون قصارى جهدهم في الحفاظ عليها . ويتوفر لدى أعضاء هذه الأقلية ، عادةً ، قدر من الخبرات اللازمة لإدارة هذا القطاع مما قد لا يتوفر لأعضاء الأغلبية . وحتى بعد أن تتأكل المنظومة القيمية الحاكمة في المجتمع ، ويكتسب بعض أعضاء الأقليات الخبرات اللازمة ، يظل هناك وجود ملحوظ لأعضاء الأقليات من المهاجرين . وقد لوحظ تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في هذا القطاع (انظر الباب المعنون «الكوميديا والسينما والجماعة اليهودية» في المجلد الثالث) .

البغاء وتجارة الرقيق الأبيض

Prostitution and White Slavery

«البغاء» هو أحد الوظائف المتدرجة تحت قطاع اللذة . وتعريف البغاء أمر خلافي وإن كان قد تم الاتفاق على أن البغي هي من تقوم بإشباع الرغبات الجنسية لعملائها نظير أجر تنقضاءه ، ولذا يرى بعض الدارسين أن البغاء نشاط اقتصادي وحسب ، فهو تجاري في جوهره ، وأن «البغي» إن هي إلا عاملة جنس (بالإنجليزية : «سكس وركر sex worker») . وهم بذلك يرون أنهم قد طوروا مصطلحاً محايداً ، منفصلاً عن المنظور القيمي .

التملود تنعت البغاء بكل الصفات السلبية ، وتبين عقوبة من يعمل بهذه المهنة البغضة . وبشكل عام ، فقد اختفت المهنة بين اليهود في العصور الوسطى وما بعدها ، لكن هذا لم يمنع وجود حالات من البغايا اليهوديات والقوادين اليهود . ورغم أن الموأخير كانت ، في كثير من الأحيان ، تُشيد خارج المدينة ، بالقرب من الجيتو ، فإن عدد اليهود الذين اشتغلوا بهذه المهنة كان نادراً بالقياس إلى النسبة السائدة بين الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها . وقد وردت أحكام في الشريعة اليهودية ضد العاهرات اليهوديات ، وضد اليهود الذين يزورون الموأخير . ولكن الشريعة اليهودية تقر حق العاهرة في الحصول على أجرها ، كما تعطي حق الطلاق لليهودية التي يذهب زوجها إلى ماخور . ومع هذا ، فإن التملود يعتبر إناث الأغيار «زونا» ، أي عاهرات حتى لو تهودن .

وفي العصر الحديث ، ومع مشاكل التحديث في الغرب ، أخذت الصورة تتغير بشكل جوهري . ففي الفترة بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٣٠ ، عمل عدد كبير من اليهود في تجارة الرقيق الأبيض قوادين وعاهرات ، وأصبحت منطقة الاستيطان في روسيا ، خصوصاً جاليسيا ، أهم مصدر للعاهرات في العالم بأسره ، وامتدت شبكة الرقيق الأبيض اليهودية من شرق أوروبا إلى وسطها وغربها ، ومنها إلى الشرق ، فكانت هناك مراكز في جنوب أفريقيا ومصر والهند وسنغافورة والصين . وقد أصبح البغاء جزءاً من حياة قطاعات بعض يهود اليديشية في شرق أوروبا حتى صار عملاً محابداً . مجرد نشاط اقتصادي ومصدر للرزق . وتحولت قطاعات من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تعمل بالبغاء . وقد أشار أحد الأطباء اليهود من غرب أوروبا إلى أن كثيراً من أمهات البغايا كن ينظرن إلى البغاء باعتباره مصدراً مشروعاً للرزق . ومسرحية الانتقام للكاتب اليديشي شولم آش توضح هذه الصورة ، فبطل المسرحية يدير ماخوراً للدعارة في الدور الأرضي من منزله ، ولكنه يصصر على أن هذا لا علاقة له بالقيم الأخلاقية التي تسود بين أعضاء أسرته (وازواجية الأخلاق هي إحدى سمات الجماعة الوظيفية) . وبغته تفر ابنته من المنزل وتعمل بالدعارة في ماخور آخر . وحين تعود نادمة على فعلتها ، يرفضها أبوها ويرسلها إلى الدور الأرضي لتعمل فيه مع بقية البغايا . وقد أصبحت البغايا اليهودية شخصية معروفة في كثير من عواصم أوروبا وإلى جوارها القواد اليهودي الذي لم يكن يكنفي بطبيعة الحال بتجنيد البغايا اليهوديات ، وإنما كان يتاجر بفتيات من كل قطاعات المجتمع . وقد أصبح القفطان (زي يهود اليديشية) رمز تجارة الرقيق الأبيض ، كما أصبحت اليديشية لغة هذه التجارة . وقد

وكلمة «البغاء» تقابلها في العبرية كلمة «زبنوت» . وقد كانت انبغى شخصية مقبولة وإن كانت مُحترقة في المجتمع العبراني القديم . ففي سفر التكوين (٣٨/١٤ - ١٩) جاء أن يهودا عاشر عاهرة نظير أجر . ولا يوجد في السياق ما يدل على أن هذا أمر مرفوض أخلاقياً (وقد اتضح فيما بعد أن العاهرة هي تمارز زوجة ابنه الذي مات ، وقد أنجبت من والد زوجها طفلين) . ويذكر سفر يشوع قصة العاهرة راحاب التي ساعدت العبرانيين على دخول أريحا (يشوع ١/٢ - حتى نهاية السفر) . وترد في سفر الملوك الأول (٢٧ - ١٦/٣) قصة سليمان مع الأُمَمَين اللتين تنازعتا طفلاً ، وهما في القصة عاهرتان . وتوجد في سفر القضاة (١/١٦) إشارة إلى زيارة شمشون لعاهرة في غزة . بل ويمكن أن نفهم من السياق في العهد القديم أن إبراهيم قد استفاد مالياً من العلاقة الجنسية لزوجته بفرعون مصر ، وقد تكررت الحادثة بعد ذلك . كما يبدو أن إستر (البطلة اليهودية التي يُقرأ السفر المسمى باسمها في عيد النصيب) هي الأخرى عاهرة . والإشارات والقصص كافة تفترض أن مهنة البغاء مهنة طبيعية ، قد تكون وضيعة ولكنها ، مع هذا ، جزء من البناء الاجتماعي والأخلاقي . وقد ورد في العهد القديم فقرات لا تُحرم البغاء في حد ذاته ، وإنما تُحرم على العبرانيين أن يدعوا بناتهم يعملن بهذه المهنة : « لا تدنس ابتك بتعريضها للزنى لثلاث تزي الأرض وتمتلي الأرض رذيلة » (لاويين ١٩/٢٩) ، وهناك فقرات تُحرم على الكهنة الزواج من عاهرات : « امرأة زانية أو مدنسة لا يأخذ ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها » (لاويين ٢١/٧) . وهي تحريمات ليست عامة أو مطلقة وإنما مقصورة على أفراد معينين وتحت ظروف معينة . ولذا ، فإننا نجد إشارات عديدة في العهد القديم إلى عاهرات يقمن بوظيفتهن بشكل شبه عادي (أمثال ٧/١٠ - ٢٣ ، أشعيا ٢٣/١٦ ، ملوك ٢٢/٣٨) .

ورغم وجود البغاء بين الذكور والإناث في المملكة العبرانية المتحدة ، ثم في المملكتين الشمالية والجنوبية ، فإن البغاء المقدس الذي كان يُمارس آنذاك في الشرق الأدنى القديم لم يجد طريقه إلى العبادة اليسرائيلية . كما كان يتم طرد البغايا في فترات الإصلاح الديني بسبب ارتباط البغاء بالعبادات الوثنية . وكان الأنبياء يستخدمون الزنى كصورة مجازية للتعبير عن انصراف الشعب عن الإله وخيانتته إياه . ومع هذا يبدو أن بعض طقوس العبادات الكنعانية - ذات الطابع الجنسي الواضح ، قد وجدت طريقها إلى عبادة اليسرائيلية .

ويُحرم التملود البغاء بين اليهود تماماً . وهناك أجزاء كثيرة في

القرن التاسع عشر كانت مرحلة تُعَرِّف التحديث في شرق أوروبا حيث أغلقت أبواب الحراك الاجتماعي وازدهر الأمل في المستقبل بالنسبة إلى عدد كبير من اليهود الذين أدت عمليات التحديث إلى طردهم من أعمالهم التقليدية . فكان نصف عدد يهود جاليشيا البالغ عددهم ثمانمائة ألف متعطلين عن العمل . وكان بينهم تسعة وثلاثون ألف أنثى كن مصدراً حصصاً للبغايا . ولكن الفقر في حد ذاته لا يؤدي أبداً إلى انتشار ظاهرة كالاشتغال بالبغاء ، إذ لا بد أن تصاحب ذلك تحولات في البيئة الاقتصادية (والأخلاقية والنفسية) للمجتمع . تُطعِم إلى حد ما مثل هذه المهن وتعطيها قسطاً من القبول الاجتماعي . ومع تزايد حركة التصنيع ، شهدت هذه الفترة تركُّز أعضاء الجماعات اليهودية في المدن الكبرى . تكن سكنى المدن والتركز فيها ليس مسألة مادية خارجية . وإنما هو شيء يحدث تحولات نفسية وأخلاقية عميقة . وقد كانت الفترة التي انتشر فيها الرقيق الأبيض فترة انفجار سكني بين يهود شرق أوروبا ، كما كانت فترة الهجرة الأوروبية واليهودية الكبرى إلى الولايات المتحدة . والهجرة تؤدي عادةً إلى خلخلة الأخلاق . وقد صاحب ذلك تزايد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية . وهو ما كان يعني زيادة الرغبة في الاستهلاك ونقصان القدرة على احتمال الفاقة (مع تآكل قيم مثل الزهد والتقناعة) . وقد أدَّى كل ذلك إلى تفكك الأسرة ، وفقدان الأب السيطرة والهيبة التقيدية ، كما فقدت المؤسسة الدينية اليهودية ذاتها معظم شرعيتها وسيطرتها بسبب هجمة الدولة القومية العلمانية عليها . وقد ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على سرعة انتشار تجارة الرقيق الأبيض ، شأنها في هذا شأن أية تجارة أخرى . ومن الأسباب الأخرى التي ساعدت على انتشار البغاء بين إناث اليهود تشدُّد العائلات اليهودية ، فكثيراً ما كنت الفتاة تخطن مرة واحدة فترفض الأسرة السماح لها بالعودة . كما كان التعليم الديني مقصوداً على الذكور ، ولذا كانت الفتيات يتلقين تعليماً علمانياً (خارج المدارس التلمودية العنصرية) ، وهو ما زاد من معدل علمتهن . وكان كثير من الفتيات اليهوديات يتسمن بالسذاجة نظراً لأن عزلة الجيتو وقبضة الأسرة اليهودية القوية شكَّلت سياجاً حال بينهما وبين أواقع الأوروبي الذي كان يتغيَّر ويتغيَّر أخلاقياً بسرعة غير مألوفة في تاريخ البشرية بأسرها .

وقد ساهمت الطقوس اليهودية الخاصة بزواج المطلقة أو الأرملة في انتشار البغاء ، إذ لم يكن يُسمَح للمرأة بأن تتزوج مرة أخرى إلا بعد حصولها على «جيتو» وهي شهادة شرعية تصدرها المحاكم الحاخامية . ولكن الحصول على مثل هذه الشهادة كان أمراً

زاد عدد البغايا اليهوديات بشكل واضح في النمسا حيث زاد عدد اليهود في فيينا من بضعة آلاف في منتصف القرن التاسع عشر إلى مائة وخمسين ألفاً مع نهايته ، وحيث زادت معدلات العلمنة بشكل واضح وتفتت قيم اللذة .

وقد ذهب هنر إلى فيينا ، ولاحظ الوجود اليهودي في هذه التجارة المشينة ، وسجل ملاحظته في كتابه كفاحي . كما شهدت ألمانيا نفسها نشاط البغايا والقوادين اليهود بشكل مكثف إذ أنها كانت المعبر بين جاليشيا وبقية العالم . وقد ترك ذلك أثره بطبيعة الحال في أدبيات معاداة اليهود التي وجدت في هذا فريضة على مؤامرة اليهود على العالم ومحاولتهم إفساده ، وخصوصاً أنهم كانوا مركَّزين بشكل واضح أيضاً في المجالات الإباحية وفي القطاعات الاقتصادية المماثلة .

وكانت الأرجنتين تُعدُّ أهم مراكز البغاء اليهودي في العالم (وتوجد هناك ، حتى الآن ، دار للمسنين تضم البغايا اليهوديات المسنات) . وقد بلغ تجار الرقيق الأبيض اليهود درجة من القوة مكنتهم من التحكم في المسرح اليديشي ، وفي جوانب أخرى كثيرة من حياة الجماعة اليهودية . ويرجع هذا إلى وجود قطاع اقتصادي لا بأس به ، من بقالين وأصحاب عقارات وخياطين وغيرهم ، مرتبط ب هؤلاء التجار ، ولذا فقد كونوا جماعة ضغط . ولكنهم ، مع هذا ، فشلوا في السيطرة على الجماعة اليهودية بشكل تام ، كما فشلوا في الحصول على القبول الاجتماعي من جانبهم . وقد كانت الجماعة تطلق عليهم مصطلح «قيم» ، أي «المدنسين» ، فاضطروا إلى تكوين جماعة يهودية مستقلة . ورغم اشتغال هؤلاء القوادين بالبغاء ، فإنهم أصرروا على التمسك بهويتهم اليهودية ، فكانت لهم معابدهم وحاحاماتهم وقيورهم ، كما كانوا يحتفلون بالأعياد اليهودية . وهكذا كانت بوينس آيريس عاصمة البغاء في العالم .

ولا يمكن إنكار ما يقوله أعداء اليهود عن بروزهم في تجارة الرقيق الأبيض في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، فهذه حقيقة واقعية نؤثر أن نسميها «واقعة جزئية» مقابل «الحقيقة الشاملة» . ولكن تقرير الواقعة الجزئية دون ذكر الحقيقة الشاملة هو جوهر العنصرية . فهذه الأدبيات لا تتحدَّ ما إذا كانت هذه الواقعة مسألة أزلية ثابتة ذات دلالة عامة بالنسبة إلى ما يُسمونه «الطبيعة اليهودية» أم أنها تفصيلية عرضية متغيرة ليس لها أية دلالة . كما أن هذه الأدبيات تُخفي بعض الحقائق التي قد تمكَّننا من فهم الحقيقة بشكل أوسع .

وفي محاولة تفسير هذه الواقعة ، يجب أن نشير إلى أن نهايات

الصهيوني وحزب البوند . ومع نهاية المرحلة المفصلية ، اختفت معظم هذه الظواهر بسبب اندماج يهود العالم الغربي في مجتمعاتهم ، وكذلك بسبب إبادتهم .

ومن الأمور المهمة التي يُسقطها أعداء اليهود أنه كانت توجد أعداد كبيرة من البغايا غير اليهوديات ، وأن ظاهرة البغي اليهودية بدأت تختفي بعد الثلاثينيات كظاهرة متميزة لها دلالتها . والأهم من هذا ، أن أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية شنوا حرباً شرسة ضد هذه التجارة المشينة ، وكان هذا من أهم العناصر التي أدت إلى القضاء عليها .

أما في إسرائيل ، فإن الصورة مختلفة إلى حد كبير . فبِإِلْخَظ زيادة البغاء بشكل واضح حتى بين طالبات المدارس والفتيات القاصرات . بل إن إسرائيل تُصدّر العاهرات أيضاً إلى دول العالم الغربي . ففي فرانكفورت ، يُلاحظ وجود عدد كبير من العاهرات الإسرائيليات . وفي أمستردام ، تزايد عدد القوادين الإسرائيليين ، حتى أن لغة الدعارة هناك أصبحت العبرية أو رطانة عبرية . وهناك ، في إسرائيل ، اتجاه لإصدار قانون يبيع البغاء . وبحسب مشروع القانون المذكور ، يُسمَح للمرأة الوحيدة (أي غير المتزوجة) بممارسة البغاء في بيت أو فندق أو سيارة أو قارب ، كما يُسمَح لها بنشر «الإعلانات المعقولة» . وعلى كلٍّ ، فإن الصحافة الإسرائيلية زاخرة بمثل هذه الإعلانات «المعقولة» حتى قبل صدور القانون .

ويبدو أن ما بين ١٥ - ٢٠٪ من المهاجرين السوفيت من النساء اشتغلن بالبغاء - وهو شكل من أشكال بيع الطاقة العضلية ، حيث يصبح النشاط الجنسي نشاطاً اقتصادياً موضوعياً محايداً - فالبغي حالة متطرفة من الإنسان المرتزق . ويبدو أن هذا السلوك كان محايداً للغاية إذ كانت النساء يعملن بعلم أعضاء الأسرة وموافقتهم ، وهو الأمر الذي سبب صدمة للإسرائيليين الذين لم يصلوا بعد إلى هذا المستوى العالي من الحباد والموضوعية والمادية .

الطبيب

Medicine

يُلاحظ أن العمل في القطاع الطبي يُوكَل أحياناً لجماعة وظيفية . وقد كانت مهنة الطب ، في كثير من المجتمعات ، يضطلع بها بعض أعضاء الجماعة اليهودية للأسباب التالية :

- ١ - يتطلب العمل بهذه المهنة معرفة خاصة ومراناً خاصاً ، وهو ما قد لا يتوافر لأعضاء المجتمع .
- ٢ - يطلّع الطبيب على كثير من الأسرار من خلال احتكاكه

في غاية الصعوبة ، الأمر الذي أدَّى إلى وجود عدد كبير من المطلقات والأرامل ممن لا يحقّ لهن الزواج . وقد بلغ عددهن ٢٥ ألفاً في بولندا (بعد الحرب العالمية الأولى) .

ومن الحقائق المشينة أن الحكومة الروسية كانت تعتبر أن وظيفة البغاء من الوظائف التي تسمح لصاحبتهام بمغادرة موطن الاستيطان (باعتبار أن البغاء تجارة متميزة ونافعة ، وكان التجار التمييزون والعاملون بوظائف نافعة يتمتعون بحق ترك منطقة الاستيطان متى شاءوا) . وقد خلق هذا وضعاً شاذاً إذ أصبح بوسع الفتاة التي تعمل بهذه الوظيفة أن تترك أسرتها وتذهب إلى موسكو (على سبيل المثال) بعيداً عن سلطة أسرتها ثم تعود بعد فترة ومعها ثروة لا بأس بها ، وهو ما كان يدعم مكانتها داخل الأسرة ويقوِّض هيمنة الأب وشرعيته . ومن الأسباب التي أدَّت إلى انتشار البغاء في الأرجنتين أن التجارب الاستيطانية فيها اتسمت بزيادة عدد الذكور ، وهو ما خلق سوقاً رائجة للبغايا .

ومن أهم العناصر التي أدَّت إلى انتشار تجارة الرقيق الأبيض أن اليهود كانوا يشكلون في الحضارة الغربية جماعةً وظيفية تشغل بكثير من الأعمال الهامشية في المجتمع ، أو الأعمال المشبوهة من الناحيتين الأدبية والمادية مثل العمل بالمجاري ومثل الأعمال التي تتطلب قدرأ كبيراً من الحياء كالتجارة والربا ، كما كانوا يتجهون إلى الأعمال الجديدة التي تتطلب روح الريادة . وتجارة الرقيق الأبيض تنطبق عليها كل هذه المواصفات ، فهي تجارة هامشية تتطلب قدرأ كبيراً من الحياء وعدم الالتزام العاطفي أو الأخلاقي تجاه أعضاء المجتمع ، وهي وظيفة مشبوهة أخلاقياً . كما أن الفترة التي راجت فيها هذه التجارة هي فترة مفصلية ، ومثل هذه الفترات تملؤها عادةً الجماعات الوظيفية ، وهي في الواقع مفصلية من ناحيتين : أولاً ، كانت معدلات العلمنة في المجتمع الغربي قد ارتفعت بشدة . ولكن يُلاحظ أن علمنة الرغبة قد سبقت علمنة السلوك ، وقد نجم عن ذلك أن تفتحت شهية الإنسان الغربي لاستهلاك السلع والنساء . ولكن الحرية الجنسية لم تكن قد انتشرت بعد ، ذلك لأن علمنة الرؤية الأخلاقية وعلمنة السلوك تستغرقان وقتاً أطول . كما أن أعضاء الجماعات اليهودية في هذه المرحلة كانوا قد فقدوا دورهم التقليدي داخل قطاعات اقتصادية معينة ، وفقدوا مكانتهم السياسية ، وكان القهال كتنظيم اجتماعي سياسي قد تآكل تماماً . وفي الوقت نفسه لم يكن قد تم دمجهم في المجتمعات الغربية . وقد تزامنت هذه المرحلة الانتقالية مع المرحلة المفصلية نفسها التي أشرنا إليها . ومن الملاحظ أن هذه المرحلة نفسها هي التي شهدت ازدهار اللغة اليديشية والفكر

ولا يمكن أن نفسر ظاهرة اشتراك الأطباء من أعضاء الجماعة اليهودية في هذا الطب الشيطاني اللا إنساني على أساس بُعد يهودي خاص ، فقد كانوا يتصرفون كأطباء ألمان يتحركون داخل إطار الحضارة الغربية المتتمة بقيم الحياء العلمي والإنساني .

الترجمة

Translation

عادةً ما تقوم بالترجمة شخصيات حركية قادرة على الانتقال من مجتمع إلى آخر تملك ناصية لغاتها وخطابها الحضاري . وقد لعب بعض أعضاء الجماعات اليهودية دوراً نشيطاً في عمليات الترجمة لعل من أهمها ماتم في أوروبا ، في القرن الثاني عشر ، حيث كان بعض يهود شبه جزيرة أيبيريا ، ممن نشأوا في إطار الثقافة العربية الإسلامية فيها ، يتقلدون بين القطاعين الإسلامي والمسيحي وبين العالم الإسلامي والعالم المسيحي . وبذا أصبحوا مزودجي الثقافة . ولا شك في أن تركّز أعضاء الجماعات اليهودية في التجارة الدولية بعض الوقت أتاح لهم فرصة تملك ناصية العديد من لغات العالم الإسلامي والمسيحي (والشرق الآسيوي أيضاً) .

وبسبب وجود هذه الخبرة الفريدة عند بعض أعضاء الجماعات اليهودية ، وبسبب إحساس الحاكم بالأمن تجاههم (فليس لهم قاعدة شعبية ، ولا يمكنهم استخدام المعلومات التي يعرفونها من خلاله ضده) ، نجد أن كثيراً من حكام العالم الإسلامي والعالم المسيحي كانوا يستخدمون بعض أعضاء الجماعات اليهودية كمتترجمين وكمرسل لهم (سفراء) للبلاد الأخرى . ولا يزال يُلاحظ وجود ملحوظ لأعضاء الجماعات اليهودية في أعمال الترجمة والدراسات اللغوية ، على عكس السلك الدبلوماسي حيث يُلاحظ تناقص عددهم واختفاؤهم تماماً في بعض البلاد حيث أصبحت الدولة المركزية لا تُؤكل مثل هذه الوظائف إلا لأبناء البلد لأسباب أمنية .

الجانوسية اليهودية والجواسيس اليهود

Jewish Espionage and Jewish Spies

«الجانوسية اليهودية» مصطلح يفترض أن ثمة نشاطاً يهودياً عالمياً يقوم به أعضاء الجماعات اليهودية وأن ثمة نموذجاً عاماً تفسيراً وغطاً متكرراً يمكن من خلاله تفسير هذا النشاط ، وهو نموذج يفترض أن يهودية الجواسيس وانتماءهم للجماعات اليهودية هو الذي يفسر اضطلاعهم بهذه الوظيفة ومن ثم فهم «جواسيس يهود» . وحيث إننا لم نعثر على مثل هذا النموذج ، فإننا نقضل أن نتحدث

بالمرضى . ولذا ، فإن الطبيب إذا كان عضواً في المجتمع ، فهو يشكل خطراً عليه وعلى تربيته وتراحمه وعلى أمنه .
٣- في حالة الأطباء الذين يعملون في معية أعضاء النخبة الحاكمة ، يمثل هذا الطبيب مشكلة أمنية إذ يمكنه أن يتحول إلى أداة (فتك أو تجسس) في الصراعات الدائرة ، كما يمكنه أن يراكم الأسرار عنده ويستخدمها ضد النخبة الحاكمة . وإن كان ثمة قاعدة شعبية يتركز فيها فقد يراكم عنده من الأسرار والقوة ما يجعله يهدد نظام الحكم . لكل هذا ، كانت كثير من المجتمعات التقليدية يعهد بوظيفة الطب إلى بعض أعضاء الجماعة اليهودية باعتبارهم جماعة وظيفية (لأنهم يُستوردون من خارج المجتمع) ، خصوصاً أن أعضاء الجماعة اليهودية ارتبطوا بالسحر لأسباب تاريخية كثيرة ، فكان يُنظر إليهم باعتبارهم سحرة قادرين على شفاء الأمراض . وقد كان التلمود يحوي عناصر كثيرة من الطب الشعبي ، كما كان كثير من الحاخامات يمارسون مهنة الطب . ولعل قوانين الطعام اليهودية ، والذبح الشرعي ، ساهمت هي الأخرى في توليد وعي عند أعضاء الجماعة اليهودية بالأمور الطبية . ولكل هذا ، تركّز أعضاء الجماعة اليهودية في هذه المهنة ، ومن ثم ساهموا في تطوير كثير من الأدوية والممارسات الطبية .

وقد استمر هذا الوضع حتى القرن العشرين ، ولا تزال له فعالية إلى حدّ ما ، حتى بعد أن تحول أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية وسيطة إلى طبقة وسطى . ويعود هذا إلى ميراث الجماعات اليهودية المهني والوظيفي والاقتصادي . كما أن أبناء المهاجرين عادةً ما يتجهون إلى مهن الباقات البيضاء التي تحتاج ممارستها إلى قدر عالٍ من التعليم وإلى رأسمال صغير ، الأمر الذي ينطبق على أعضاء الجماعة اليهودية ، كما ينطبق على غيرهم من الجماعات المهاجرة إلى الولايات المتحدة مثل الهنود والمصريين .

وما يجدر ذكره ، أن كثيراً من اليهود الألمان الذين كانوا يعملون في قطاع الطب ساهموا في تطوير ما يُسمى الآن «قواعد الصحة النازية» ، وهو ذلك الفرع من العلم الطبي الذي كان يهدف إلى توظيف الإنسان بشكل مادي كفف ؛ باعتباره مادة نافعة متحولة وبحيث تُطبّق قوانين الوراثة بشكل منهجي على البشر ويتم القيام بعمليات تفرخ تهدف إلى تحسين النسل ويُطبّق القتل الرحيم على من يرى العلم الطبي ضرورة قتلهم . كما كانت تجرى على البشر تجارب لا تكثر بهم كثيراً ما دامت ستؤدي إلى مراكمة المعلومات الطبية . وقد ظل هؤلاء الأطباء الألمان اليهود في وظائفهم إلى أن طردهم النازيون منها بعد استيلائهم على الحكم .

أغلبية اليهود تجسّسوا عليه لحساب الحكومة القيصريّة لأن المؤسّسة الدينية كانت تعتبره عدوها الأكبر .

وإبان الحرب الفرنسية الألمانية ، كانت الاستخبارات الفرنسية تجنّد يهود الأتّراس واللورين الذين يعرفون الألمانية ليتجسّسوا لحساب فرنسا . وقد أثّم ديفوس ، وهو من أصل أّزاسي ، بأنه يتجسّس لحساب ألمانيا . بل وكان هرتزل يود ، ضمن مخطّطه الصهيوني ، أن يحوّل يهود العالم إلى عملاء لبريطانيا العظمى .

ويفترض الصّهاينة أن يهود العالم هم أعضاء في الشعب اليهودي ، ومن ثم فإن ولاءهم لا بد أن يتوجّه إلى الدولة الصهيونية . وانطلاقاً من هذا المنظور ، تحاول أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية ليعملوا من أجل المصالح الصهيونية . وانطلاقاً من هذا أيضاً ، تم تجنيد بعض يهود البلاد العربية قبل وبعد عام ١٩٤٨ للتجسس لصالح المستوطن الصهيوني (جماعة نيلي - حادثة لافون . . . إلخ) . وتبين حادثة بولارد في الولايات المتحدة أن المؤسّسة الصهيونية لا تزال تتحرك داخل الإطار نفسه . لكن من الضروري الإشارة إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة رفضوا هذا التعريف الصهيوني لهويتهم .

وتشكّل المؤسّسة الصهيونية في المهاجرين السوفييت ، ولا توظفهم في الأعمال العسكرية خشية أن يكون بينهم جواسيس قام الاتحاد السوفيتي (سابقاً) بتسريبهم إلى صفوفهم .

نيلي

Nili

كلمة «نيلي» هي صيغة اختصار للعبارة العبرية «نيتساح إسرائيل لو يشاكير» أي «مجد إسرائيل لن يسقط» . وهي منظمة استخبارات صهيونية سرية أسسها عام ١٩١٥ في فلسطين أفسالوم فينبرج ، وتولى قيادتها أهارون أرونسون ، وكان من بين أعضائها أخته سارة . وكان الهدف من تشكيل هذه المنظمة مساعدة بريطانيا في صراعها ضد الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، باعتبار أن انتصار بريطانيا سيتيح الفرصة لتحقيق المشروع الصهيوني ، وبخاصة بعد فشل هجوم القوات العثمانية على قناة السويس في ربيع عام ١٩١٥ .

وبالتعاون مع الاستخبارات البريطانية ، استطاعت المنظمة (التي بلغ عدد أعضائها نحو ٤٠ فرداً) نشر شبكاتها في العديد من أنحاء فلسطين . ووصل نشاطها إلى ذروتها مع تعيين أرونسون مستشاراً للقائد العسكري العثماني جمال باشا ، ومع نجاح المنظمة

عن «الجواسيس من أعضاء الجماعات اليهودية» حتى يتم تفسير وتصنيف كل حالة على حدة من خلال ملابساتها الخاصة ، ومن خلال نموذج الجماعة الوظيفية .

الجواسيس من أعضاء الجماعات اليهودية

Spies from Members of Jewish Communities

لا يمكن بدايةً أن نزعم أن الكثيرين من اليهود يعملون كجواسيس ، إذ أن هذه المسألة لم تُدرّس بطريقة إحصائية تجعل التعميم ممكناً ، ومع ذلك فيمكننا أن نزعم أن الانطباع الأوّلي يدل على أن سلوك أعضاء الجماعات اليهودية لا يختلف كثيراً في هذا المجال عن سلوك أية جماعة إنسانية أخرى تعيش الظروف نفسها .

ومع هذا ، يمكن تصنيف الجواسيس باعتبارهم من الجماعات الوظيفية . والجاسوس ، أصلاً ، ليس بغريب وإنما هو عضو في الجماعة ، ولكنه يتعاقد مع قوة خارجية توظفه ليعمل لصالحها داخل مجتمعه أو بين أعضاء المجتمع المضيف فيخلق مسافة بينه وبين المجتمع وينظر إليه بحياد شديد ويرصده بموضوعة لحساب القوة الخارجية بحيث تختفي العلاقة التراحمية وتحل محلها علاقة موضوعة باردة .

وقد أصبحت الجماعات اليهودية ، بعد انتشارها في العالم ، ولاسيما العالم الغربي ، جماعات وظيفية . وقد نجم عن ذلك أن أعضاءها أصبحوا عنصراً متحركاً لا يدين بالولاء لأحد ، وأصبحت ثمة قابلية لأن يتم تجنيد الجواسيس من صفوفهم بسهولة ، خصوصاً أنهم تواجدوا في المناطق الحدودية . وقد قام قمبيز ، حسبما جاء في تاريخ هيرودوت ، بإرسال جواسيس يهود إلى مصر قبل أن يقوم بغزوها ليأتوه بالمعلومات . وأدّى انتشار الجماعات اليهودية إلى قيام شبكة اتصالات يهودية لا تقوم بتسهيل عملية تبادل البضائع والأموال وحسب ، وإنما تقوم أيضاً بتوصيل المعلومات بسرعة . وقد استفاد من ذلك يهود البلاط ، في القرن السابع عشر ، في الحصول على المعلومات وتوصيلها إلى الحكومات التي يدينون لها بالولاء . وقد حاول أوليفر كرومويل الاستفادة من هذه الشبكة لا على المستوى التجاري وحسب وإنما على المستوى المعلوماتي أيضاً ، إذ كان يفكر في توظيف اليهود ليعملوا له كجواسيس .

ويبدو أن نابليون قد فكر في توظيف اليهود ليعملوا جواسيس لحسابه (وقد أخبر هرتزل ملك إيطاليا بهذه الحقيقة) . وإبان غزو نابليون لروسيا ، جند نابليون بعض اليهود للتجسس لحسابه ، لكن

وفي أعقاب قيام دولة إسرائيل ، استمرت عملية تجنيد اليهود العرب للقيام بأعمال التجسس والتخريب . وتخبرنا الموسوعة اليهودية (جوداكا) بأنه كانت هناك « حركة صهيونية سرية على درجة عالية من التطور » في مصر تعمل في خدمة الصهيونية . وكان من الشخصيات البارزة في هذه الحركة المواطن اليهودي المصري موسى مرزوق الذي وُلِدَ في القاهرة سنة ١٩٢٦ . وجاء في الموسوعة ذاتها أنه بدلاً من أن يرتبط هذا المواطن اليهودي المصري ببلاده كان « على اقتناع بأن مستقبل جميع اليهود المصريين يكمن في الهجرة إلى أرض إسرائيل التاريخية » . ونتيجة لهذا ، كرس حياته لتحقيق الأهداف الصهيونية ، فقام بتجنيد اليهود الشبان ليذهبوا إلى إسرائيل . وكان باستطاعته هو نفسه أن يغادر البلاد ، ولكنه قرر أن يبقى في وظيفته بالمستشفى الإسرائيلي بالقاهرة ، وأن يعمل من أجل إسرائيل . وكان من أصدقاء مرزوق شخص يدعى صمويل عزار (من مواليد الإسكندرية) حصل على منحة لدراسة الهندسة الالكترونية في الخارج لكنه اختار هو الآخر - كما فعل مرزوق - أن يبقى في مصر ليؤدي مهمته .

وتُعدُّ فضيحة لافون من أسوأ تلك المهمات ، فقد قام ١٣ يهودياً مصرياً (بناءً على تعليمات من إسرائيل) بوضع متفجرات في مكتبة المركز الإعلامي الأمريكي في القاهرة ، وفي منشآت أخرى مملوكة لأمريكا وبريطانيا في القاهرة والإسكندرية . وكان الهدف من هذه الأعمال خلق التوتر في العلاقات بين مصر وهاتين الدولتين الغربيتين . وكما أوضح يوري إفيري في كتابه إسرائيل دون صهيانية ، كان المقصود من هذا التوتر تمكين العناصر الاستعمارية الرجعية في البرلمان البريطاني من منع إبرام اتفاقية تنص على الجلاء عن قواعد السويس ، وكذلك تقديم سلاح يستطيع معارضو تسليح مصر في الولايات المتحدة استخدامه . ولكن الهدف من هذه العمليات التخريبية كان ، قبل كل شيء ، إضعاف مظهر نظام الحكم الثوري الجديد في مصر ، وإظهار افتقاره إلى الاستقرار أمام العالم . وقد أُلقي القبض على بعض العملاء الصهيونية متلبسين بالجريمة ، الأمر الذي أدَّى إلى القبض على كل المشتركين في المؤامرة . وكان المقبوض عليهم هم : ماكس بنيت (زعيم الشبكة) ، والدكتور مرزوق ، وصمويل عزار ، وعشرة آخرون . وأثناء المحاكمة ، تمكَّن اثنان من الهرب ، وانتحر ماكس بنيت . أما الباقون ، فقد بُرِّت ساحة اثنين منهم ، وصدرت أحكام بالسجن على سبعة ، وصدر حكم بالإعدام على كلٍّ من مرزوق وعزار اللذين كانا يتزعمان شبكتي القاهرة والإسكندرية . وقد وُجِّهت إلى مرزوق تهمة تنظيم

في تجنيد أحد ضباط الجيش العثماني وهو نعمان بكليف . ومن خلال هذا التغلغل في أوساط القوات العثمانية ، أمدت نيلى القوات البريطانية بالكثير من المعلومات الحيوية حول استعدادات الجيش العثماني ومواقفه في غزة وبئر سيع ، وهو ما كان له أبلغ الأثر في حسم معركة جنوب فلسطين عام ١٩١٦ لصالح بريطانيا والحلفاء . ورغم ذلك ، نجحت السلطات العثمانية في اكتشاف منظمة نيلى والقبض على أعضائها وتصفيتهم عام ١٩١٧ .

وبرغم معارضة قادة التجمع الاستيطاني في فلسطين لنشاط المنظمة أثناء وجودها ، وذلك خوفاً من انتقام السلطات العثمانية في حالة كشفها ، إلا أنهم غيَّروا موقفهم بعد تصفيتهم ، وأصبحت جهود نيلى في خدمة بريطانيا إحدى الأوراق المهمة التي لوحث بها الحركة الصهيونية للحصول على وعد بلفور . وعلى هذا النحو ، يُبرز نشاط نيلى الترابط الوثيق بين مصالح الحركة الصهيونية والمصالح الاستعمارية ، كما يوضح سعي الصهيانية الأوائل لوضع حركتهم داخل الإطار الاستعماري الغربي وتقديم أنفسهم للعمل كأداة لهذه القوة الاستعمارية أو تلك ، وهو ما يشكل سمة أساسية للحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى اليوم .

قضية لافون

Lavon Affair

« قضية لافون » نسبة إلى بنحاس لافون ، وهي تشير إلى واحدة من أهم عمليات التخريب التي قامت الدولة الصهيونية بتدبيرها ، ممثلة في تلك التفجيرات التي قام بها بعض أعضاء الجماعة اليهودية في مصر عام ١٩٥٣ . والجدير بالذكر أن دعاة الصهيونية يذهبون إلى أن إسرائيل هي المركز وأن أعضاء الجماعات اليهودية هم الأطراف والهامش ، ولذا فمن حق الحركة الصهيونية (والحكومة الصهيونية) أن تحول يهود العالم إلى أداة توظفها في خدمتها ، أي تحولهم إلى جماعة وظيفية تعمل بالتجسس والإرهاب لصالحها .

وقد كوَّنت الوكالة اليهودية في العشرينيات شبكة تجسس ، كان لها فروع في العالم العربي ، وكانت تعمل سرّاً تحت ستار تنظيمات شرعية . مثل أندية حركة المكابي الرياضية أو المنظمات الخيرية اليهودية الكثيرة . وفي الثلاثينيات أنشأت الهاجاناه قسماً للاستخبارات برئاسة موسى (شيرتوك) شاريت أول رئيس وزراء لإسرائيل . وأنشأت الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) سنة ١٩٣٧ مركزاً لتدريب اليهود العرب على القيام بأعمال التجسس على مواطنيهم ، وأطلق على هؤلاء الجواسيس اسم « الأولاد العرب » .

الستينيات تحت رئاسة عميل المخابرات السابق رفائيل إيتان . وفي خلال الـ ١٨ شهراً التي عمل خلالها جاسوساً ، سافر بولارد إلى إسرائيل وأوروبا ، كما حصل على وعد بحق اللجوء السياسي في حالة افتضاح أمره . وعندما اكتشف مكتب المباحث الفيدرالية الأمريكي أمره وبدأ في مراقبته ، لجأ بولارد وزوجته إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن وطلبا اللجوء السياسي . إلا أن السفارة رفضت طلبهما وألقتهما خارج مبنى السفارة ، وتم القبض عليه في نوفمبر عام ١٩٨٥ .

وقد أثارت هذه القضية رد فعل عنيفاً داخل الحكومة الأمريكية وبين الرأي العام الأمريكي . كما أثارت قلقاً بالغاً بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة لما قد تشيره من اتهامات بازدواج الولاء . وفي إسرائيل ، زاد التخوف من تأثير القضية على علاقتها بالولايات المتحدة ، حليفها الأساسي ، وعلى الثقة المتبادلة بينهما . وقد رضخت إسرائيل ، تحت ضغط من الولايات المتحدة والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، للتعاون في التحقيقات ، والسماح باستجواب الإسرائيليين المتورطين ، وإعادة جميع الوثائق التي أخذها بولارد ، وحل وحدة الربط العلمي ، والموافقة على معاقبة الإسرائيليين المسؤولين عن هذه العملية . وقد ساهمت الوثائق التي أعادتها إسرائيل في إدانة بولارد الذي حكم عليه عام ١٩٨٧ بالسجن مدى الحياة . وقد استثير الرأي العام الأمريكي مرة أخرى بعد أن عينت الحكومة الإسرائيلية كلاً من إيتان وسيلع في مراكز مدنية وعسكرية مهمة ، وهو ما كان يعني نوعاً من المكافأة لهما . وقد أدّى الاحتجاج الأمريكي إلى استقالة سيلع من منصبه العسكري الجديد كقائد لقاعدة جوية كبيرة . كما قامت وزارة الخارجية الأمريكية بسحب التصاريحات الأمنية الممنوحة للموظفين اليهود ممن لهم أقارب في إسرائيل ، كما رضخت المؤسسة الأمريكية اليهودية للأمر ولم تصدر الصرخات المعهودة عن معاداة اليهود واضطهادهم .

وبعد صدور الحكم على بولارد ، أسرعت الحكومة الإسرائيلية بتشكيل لجنة للتحقيق في القضية (لجنة تسور - روتنسترايخ) وتحديد المسؤولية ، كما شكل الكنيست لجنة أخرى برئاسة أبا إيبان للغرض نفسه . وقد توصلت اللجنتان إلى أن المسؤولية تقع على عاتق أعضاء مجلس الوزراء والقيادات السياسية العليا بسبب ضعف الرقابة وضعف السيطرة على وحدة الربط العلمي والأنشطة الاستخباراتية المماثلة ، كما اتهمت كلاً من إيتان وسيلع بتعدي سلطاتهما والتصرف بدون حكمة . وقد جاءت هذه التحقيقات لإثبات مدى جدية إسرائيل في تحديد ومعاينة المسؤولين ، كما جاءت النتائج

مجموعة القاهرة ووضع ترتيبات الاتصال اللاسلكي مع إسرائيل بعد أن أمضى فترة تدريب هناك . أما عزاز ، فقد اتهم بتزعم مجموعة الإسكندرية وإدارة مصنع سري لتصنيع أجهزة التخريب . وظلت فضيحة لافون تزورق القيادة الإسرائيلية لفترة طويلة بعد انتهاء محاكمات القاهرة . وقد أنكر بن جوريون مسؤوليته عن إعطاء أوامر العملية ، وألقى اللوم كله على بنحاس لافون (ومن هنا التسمية «حادثة لافون») الذي أصر على براءته إلى النهاية . وعندما برأت لجنة تقصي الحقائق بنحاس لافون ، استقال بن جوريون من حزب الماباي الحاكم وكون (بالاشتراك مع كل من بيريز وديان) حزب رافي . وبغض النظر عن الضجة السياسية داخل إسرائيل بشأن المسؤولية الشخصية عن الموضوع ، فقد كان هناك اعتراف ضمني بتورط إسرائيل في فضيحة لافون حيث منح اسم الدكتور مرزوق رتبة عسكرية في الجيش الإسرائيلي وأطلق عليه هو وعزاز لقب «شهيد القاهرة» .

قضية بولارد

Pollard Affair

«قضية بولارد» هي قضية تجسس في الولايات المتحدة الأمريكية ، كان المتهم الأول فيها مواطن أمريكي يهودي هو جوناثان بولارد الذي أُدين بالتجسس لصالح إسرائيل ، هو وزوجته آن بولارد .

وُلد بولارد في ولاية تكساس عام ١٩٥٤ ودرس في جامعة ستانفورد ، ثم التحق بخدمة الاستخبارات البحرية الأمريكية في ولاية ميريلاوند عام ١٩٧٩ حيث عمل كمحلل استخباراتي مدني ، وتدرج في عمله حتى أصبح له حق الاطلاع على العديد من المعلومات الحساسة . وفي مايو من عام ١٩٨٤ ، جندته المخابرات الإسرائيلية للتجسس لصالحها . وأثناء محاكمته ، أعلن بولارد أنه ، باعتباره صهيونياً متحمساً ، استاء من رفض الحكومة الأمريكية تقديم القدر الكافي من المعلومات الاستخباراتية لإسرائيل والمهمة لأنهما .

ويرجع الفضل في تجنيد بولارد إلى ضابط الاستخبارات الإسرائيلية أفيعام سيلع ، الذي كان ضابطاً في القوات الجوية الإسرائيلية . وقد قدم بولارد لإسرائيل كمأ هائلاً من المعلومات الخاصة بإسرائيل والشرق الأوسط ودول أخرى . واستقبلت هذه المعلومات في إسرائيل وحدة استخبارات مستقلة في وزارة الدفاع الإسرائيلية هي وحدة الربط العلمي ، وهي وحدة تعمل منذ

ويشعرون بالسلام والأمن على نحو لا يمكن أن يتناح لهم في إسرائيل».

وقد كتب بولارد نفسه خطاباً يستنكر فيه ما فعله ، وبين أنه كان مخطئاً ، وأنه مواطن أمريكي يهودي بدين بالولاء لبلده وليس مجرد يهودي بدين بالولاء لإسرائيل . وقد كتب بولارد خطابه هذا على أمل أن تفرج عنه السلطات الأمريكية ولكنها لم تفعل حتى الآن . وقد تأسست منظمة أمريكية يهودية لطلب العفو عنه ، ولكن المنظمات اليهودية الكبرى رفضت تبنيها . كما رفض الرئيس بوش ومن بعده كلينتون إصدار عفو عنه قبل انتهاء مدة رئاسته ، تماماً كما فعل مع بعض الجرائم الأخرى . هذا ، وقد طُلبت زوجته الطلاق منه وهو في سجنه وحصلت عليه ، ثم أصيبت بما يشبه الانهيار العصبي وأُرسلت إلى مصحة نفسية . ثم قررت الاستيطان في إسرائيل والحصول على الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة !

إبراهيم نيشان (١٨٦٦-١٩٦٨)

Ibrahim Nathan

يهودي إيراني ، وُلد في مشهد في إيران وُشار إليه بأنلاً إبراهيم . ترك وطنه وانتحق هو وأخوه بخدمة الإمبراطورية البريطانية كجواسيس ، فسافرا إلى أفغانستان وتركستان وبخارى ، ومع كل الحملات البريطانية الأساسية في وسط آسيا . وقد قاما بتوصيل الاعتمادات اللازمة لضباط القوات البريطانية في الحرب الأفغانية الإنجليزية الأولى (١٨٣٩ - ١٨٤٢) في مواقعهم البعيدة ، وجمع المعلومات للسلطات العسكرية الغازية ، كما قاما بإتقاذ الأسرى البريطانيين ومساعدتهم بعد إنكارته التي حاقت بالقوات الإنجليزية في كابول . وقد ترك الأخوان أفغانستان عام ١٨٤٤ (بعد انتهاء مهمة القوات البريطانية) واستقرا في بومباي عام ١٨٤٤ . وقد قُدِّمت لهما الحكومة البريطانية تعويضاً عن خسائرهما أثناء تأدية واجبهما نحوها وأجرت لهما معاشاً شهرياً مدى الحياة . وقد عُيِّن مولى إبراهيم في إنسلك الذبلمو ماسي البريطاني على أن يكون موقعه مشهد ، ولكنه رفض بطبيعة الحال أن يعود إلى هناك ومكث في بومباي حيث لعب فيها دوراً نشيطاً بين أعضاء جماعة اليهود البغدادية ، كما عُيِّن موظفاً في مصلحة الجمارك . وتقول الموسوعة اليهودية إنه كان مُعفى من واجباته في أيام السبت والعطلات .

والملا إبراهيم نيشان هو جزء من غط متكرر عام في العالم الإسلامي وهو وجود أعضاء الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية في خدمة الاستعمار الغربي (وهذه هي أولى حلقات العملية

كمحاولة لإبعاد أية مسؤولية مباشرة عن القيادات السياسية العليا وبالتالي التخفيف من حدة الانتقادات الأمريكية .
وتثير هذه القضية مسألة ازدواج الولاء لدى أعضاء الجماعة اليهودية وحقيقة ما يُسمى «النفوذ الصهيوني» في الولايات المتحدة . فإسرائيل تعتبر أن الجماعات اليهودية في العالم تدين لها وحدها بالولاء ، وتؤمن بمركزيتها في حياة يهود العالم ، وينطبق هذا الاعتقاد بالأخص على اليهود الأمريكيين الذين يشكلون المصدر الأساسي للتبرعات والدعم المالي والسياسي لإسرائيل . ورغم الحماس الشديد لدى كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة في شأن تأييدهم لإسرائيل ، وبرغم وجود جماعة ضغط أو ما يُسمى «لوبي صهيوني» يتسم بنشاطه المكثف ونبرته العالية والحماسية في تأييد إسرائيل وفي التأثير على السياسة الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط وبإسرائيل ، إلا أن هذا التأييد وهذا الدعم نابعان في المقام الأول من انتماء أعضاء الجماعة اليهودية إلى وطنهم الأمريكي ، ومن ارتباط مصالحهم بنظامه الرأسمالي ومصالحه الإمبريالية . ولذلك فإن تأييدهم لإسرائيل مستمر مادام يتفق مع السياسات الأمريكية ، ومادام لا يخلق أية شبهات بعدم الولاء لوطنهم . كما ترحب الولايات المتحدة بهذا التأييد الحماسي ، فهو يعني تدفق المعونات والتبرعات على إسرائيل (قاعدتها الأساسية في الشرق العربي) . ولكن عندما تمس إسرائيل مصالح الولايات المتحدة ، مثلما حدث في قضية بولارد ، يجيء الرد الأمريكي سريعاً وحاسماً ولا مكان فيه لضغوط اللوبي الصهيوني أو غيره . وقد أسرعت الجماعة اليهودية بالضغظ على إسرائيل للرضوخ للمطالب الأمريكية اتفاقاً مع السياسة والمصالح الأمريكية من ناحية ، ومن ناحية أخرى حماية لمصالحهم وسمعتهم في الولايات المتحدة ، تلك السمعة التي قد تعرض للاتهام بعدم الولاء للوطن . ولهذا ، أصدرت أهم المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة (المجلس القومي الاستشاري لعلاقات الجماعة اليهودية) بياناً قالت فيه : « إن الحكم الصادر على بولارد ليس ثمرة عداة اليهود أو التمييز ضدهم ، بل إن بولارد ارتكب جريمة تجسّس خطيرة » . واستخدام كلمة «تجسس» هنا يستهدف التأكيد على انفصال الوطن الأمريكي ، وطن يهود أمريكا ، عن الدولة الصهيونية ، وأن على الجميع أن يدرك ذلك . وقد قام المواطن الأمريكي الخاخام جي كوكب نيوزنر ، وهو واحد من أهم علماء التلمود في العالم ، بتلخيص الموقف بقوله : « إن أمريكا أفضل من القدس بالنسبة لليهود . وإذا كانت هناك أرض الميعاد ، فإن الأمريكيين اليهود يعيشون بالفعل فيها

والمفيدة للسياسة البريطانية الخارجية ، حيث قام بتوظيف خبراته عن آسيا الوسطى لخدمة الحكومة البريطانية التي اختارته مستشاراً لها لشنون الهند وآسيا ، كما أوكلت إليه عدة مهام دبلوماسية في الشرق الأوسط . وكان فامبيري صديقاً حميماً لأمير ويلز الذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد السابع .

وقد أيد فامبيري المشروع الصهيوني منذ مراحل الأولى ، ويرجع إليه الفضل في تقديم هرتزل إلى السلطان عبد الحميد عام ١٩٠١ عندما كان هذا الزعيم الصهيوني يسعى إلى استمالة إحدى القوى الاستعمارية الكبرى آنذاك لتبني المشروع الصهيوني . وبعد وفاة هرتزل ، استمر قادة المنظمة الصهيونية العالمية في طلب المشورة والعون من فامبيري .

وقد وضع فامبيري عدة مؤلفات في اللغات الشرقية وفي علم الأجناس ، وذلك فضلاً عن مقالاته السياسية عن الأوضاع في آسيا . كما سجل سيرته الذاتية في كتاب **أرمينيوس فامبيري ، حياته ومغامراته (١٨٨٣)** ، ونشرت مذكراته في كتابه **قصة كفاحاتي (١٩٠٤)** .

وفامبيري نموذج جيد لليهودي غير اليهودي ، وللمستشرق الغربي الذي يدرس الشرق ليوظف معلوماته في خدمة الغرب ، وهو يخدم المشروع الصهيوني باعتباره جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يرمي لغزو العالم الإسلامي وتقسيم الدولة العثمانية والاستيلاء على أراضيها ، بما في ذلك فلسطين .

(أمين باشا ١٨٤٠ - ١٨٩٢)

Emin Pasha

رحالة ومستكشف غساوي وكُد لأبوين يهوديين ولكنه عُمد مسيحياً في طفولته . درس الطب وعمل طبيباً في ألبانيا . وفي عام ١٨٧٠ ، أصبح الطبيب الخاص لحاكمها .

وفي عام ١٨٧٤ ، عمل في خدمة القوات البريطانية في أفريقيا ، وقام بعدة مهام سياسية وعسكرية في مصر والسودان تحت قيادة الجنرال جوردون . وقد أشهر إسلامه عام ١٨٧٨ لدوافع عملية على الأرجح .

تعاون أمين باشا مع جوردون في مقاومة تجارة العبيد في المنطقة الاستوائية في أفريقيا . وفي عام ١٨٨١ ، قاد حملة لإخماد تمرد المهديين في السودان ، إلا أن قواته ضلت طريقها وحُوصرت في جنوب السودان إلى أن تمكن المستكشف البريطاني ستانلي من الوصول إليها وإنقاذها عام ١٨٨٨ .

الاستعمارية الاستيطانية التي تُوّجت بإنشاء الدولة الوظيفية الصهيونية) . وقد أهملت الموسوعة اليهودية حقيقة أن الملا إبراهيم يمثل غطاءً متكرراً لتركيز على عنصر يهودي واحد ، وهو مثل غير عادي على التمرکز حول الذات الإثنية اليهودية .

(أرمينيوس فامبيري ١٨٣٢ - ١٩١٣)

Arminius Vambery

مستكشف ورحالة ومستشرق مجري . وكُد لعائلة يهودية أرثوذكسية متواضعة ، وكان معتل الصحة كما كان يطلع حين يمشي . وقضى فامبيري عدة سنوات في عدد من المدارس الحكومية العامة والكاثوليكية والبروتستانتية . واتفق عديداً من اللغات (اللاتينية والفرنسية والإيطالية والنشيبكية والروسية والتركية والعربية) . وفي عام ١٨٥٤ ، رحل فامبيري إلى القسطنطينية وأمضى هناك ست سنوات عمل في بدايتها معلماً للغات الأوروبية . ثم ما لبثت علاقاته أن توطدت بدوائر الحكم في الدولة العثمانية ، فعمل مساعداً لوزير الخارجية محمد فؤاد باشا ، وكان يحظى بعطف السلطان عبد الحميد الثاني . وقد أشهر فامبيري إسلامه في هذه الأثناء لدوافع عملية بحتة ، وعكف على دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية حتى أتقنها ، كما أصبح على دراية تامة بتاريخ هذه المنطقة وبأوضاعها السياسية . ولكنه عرف نفسه في مذكراته قائلاً : « إن شخصيتي الشرقية الزائفة التي تبنيها مقصورة على الجوانب الخارجية ، أما كياني الداخلي فإنه يضح بروح الغرب » أي أنه كان يرى أن هويته غربية وليست يهودية .

وقد قام فامبيري ، عام ١٨٦٣ ، برحلة مثيرة عبر آسيا الوسطى طاف خلالها بأرمينيا وتركستان وإيران وبخارى ، متخفياً وراء اسم رشيد أفندي ، ويُقال إنه أول أوربي يقطع هذه الرحلة . وقد دَوّن فامبيري ملاحظاته في كتاب نُشر باسم **رحلاتي في وسط آسيا (١٨٦٤)** ، وذاعت شهرته بعد نشر الكتاب ، وبخاصة في صفوف البريطانيين الذين كانوا في حرب مع الروس للهيمنة على وسط آسيا . ويبدو أن فامبيري ، المتعاطف مع الإمبراطورية البريطانية ، كان يُعدّ مصدراً جيداً للمعلومات . وفي عام ١٨٦٤ ، عاد فامبيري إلى بودابست ، حيث اعتنق البروتستانتية ، وعمل أستاذاً للغات الشرقية في جامعة بودابست حتى عام ١٩٠٥ .

وأقام فامبيري ، خلال مروره بإيران ، علاقات وثيقة مع البعثة البريطانية هناك . وساعدته ميوله المؤيدة لسياسة بريطانيا ، ومعرفته الواسعة بالشرق الأوسط والهند ، في أن يكون أحد العناصر المهمة

فيه التعاون معهم وبيع خدماتهم لهم والتجسس على رفاقه الثوريين . وعندئذ، بدأ حياته المزوجة كعميل للبوليس السري وكعضو نشيط في الحركة الثورية الروسية في آن واحد . وفي عام ١٨٩٩ ، عاد إلى روسيا وانضم إلى حزب اتحاد الثوريين الاشتراكيين السري ، ثم أصبح من كبار قادة الحزب الاشتراكي الثوري الجديد وترأس جناحه العسكري . وخلال الأعوام الخمسة عشر (١٨٩٣ - ١٩٠٨) التي اشتغل فيها عميلاً للبوليس السري ، خان الكثيرين من رفاقه الثوريين ، فتم إلقاء القبض على أعداد منهم وإعدام أعداد أخرى من قبل البوليس السري . ولإبعاد أية شبهات عنه ، نشط أزييف في مجال الاغتيالات ، فلعب دوراً رئيسياً في تخطيط وتنفيذ عملية اغتيال وزير الداخلية الروسي فون بيليفيه عام ١٩٠٤ ، وعملية اغتيال عم القيصر كذلك . كما خطط لنفسه مقر البوليس السري في سانت بطرسبرج (لكن هذه الخطة لم تُنفَّذ أبداً) . وقد أثبت بعض الشكوك حول دوره المزوج داخل الحركة الثورية منذ عام ١٩٠٢ . ولكن لم تظهر أية دلائل قاطعة ضده إلا عام ١٩٠٨ حينما انضمت بعض العناصر المنشقّة من ضباط الشرطة إلى الحزب الاشتراكي الثوري وأكدت وجود جاسوس داخل صفوف الحزب . فتم فضح نشاطه المزوج في محاكمة حزبية وتمت إدانته واحكم عليه بالإعدام غيابياً إلا أن أزييف كان قد هرب إلى ألمانيا . وفي ألمانيا ، أُلقت السلطات الألمانية القبض عليه عام ١٩١٥ بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى باعتباره عدواً وكذلك باعتباره ثورياً . وتم الإفراج عنه عام ١٩١٧ يُتَوَقَّع بعدها بقليل .

جوليوس (١٩١٨ - ١٩٥٣) وإثيل (١٩١٦ - ١٩٥٣) روزنبرج

Julius and Ethel Rozenberg

زوجان أمريكيان يهوديان ، وأول مدنيين أمريكيين يُنْقَذَ فيهما حكم الإعدام بتهمة التجسس في التاريخ الأمريكي ، وذلك في واحدة من أكثر القضايا إثارة للجدل في الولايات المتحدة . وكذا في مدينة نيويورك وتزوجا بعد أن انتهى جوليوس من دراسته في الهندسة الإلكترونية في جامعة سيتي كوليدج . وقد ارتبط الاثنان بالحزب الشيوعي الأمريكي ، فكان جوليوس عضواً نشيطاً فيه حيث ترأس فرع الحزب في نيويورك . كما عُيِّنَ موظفاً مدنياً في الجيش الأمريكي ، ولكنه طُرد من وظيفته بعد أن اكتشفت علاقته بالحزب الشيوعي ، وذلك رغم أن جوليوس وإثيل كانا قد قطعاً علاقتهما بالحزب عام ١٩٤٣ .

وفي عام ١٩٥١ ، أُلقت السلطات الفيدرالية الأمريكية القبض على الزوجين ووجهت إليهما تهمة التجسس وسرقة أسرار القنبلة

ومنذ عام ١٨٩٠ ، انتقل أمين باشا إلى العمل في خدمة الإمبراطورية الألمانية ، التي كانت تخوض صراعاً مع بريطانيا للتنافس على مناطق النفوذ في أفريقيا ، حيث قاد حملة للسيطرة على منابع النيل . إلا أن اتفاق بريطانيا وألمانيا بشأن هذه المنطقة أودى بطموحاته في أن يكون خادماً للمصالح الألمانية بعد أن فشل من قبل في جني ثمار خدماته للمصالح البريطانية . بل إنه أصبح في نظر الطرفين عميلاً سابقاً لا قيمة له ، بل عميلاً ينبغي التخلص منه . وإزاء هذا الموقف ، ونظراً لتساخط معظم قواته بسبب الانهك وتفشي الأمراض ، اضطر أمين باشا إلى الهرب إلى الكونغو حيث اغتيل هناك بإيعاز من تجار العبيد .

سيدني رايلي (١٨٧٤ - ١٩٢٠)

Sidney Reilly

اسمه الأصلي سيجموند جورجيفتش روزنبوم . وُلد في أوديسا (روسيا) . وجندته الاستخبارات البريطانية ، فعمل جاسوساً لبريطانيا ، واتخذ اسم سيدني رايلي . اشتغل رايلي تاجر سلاح في سانت بطرسبرج ، ونجح قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى في كشف النقاب عن كثير من أسرار برنامج التسلح الألماني . وخلال الحرب ، أرسل إلى ألمانيا حيث تطوع عدة مرات في الجيش الألماني تحت أسماء مستعارة ، ونجح في تنفيذ العديد من المهام من بينها حضور اجتماع ضم القيصر وقادة الجيش الألماني تم فيه استعراض بعض الخطط الحربية المهمة .

وبعد اندلاع الثورة البلشفية ، تورط رايلي (عام ١٩١٨) في محاولة فاشلة لاغتيال لينين وقلب نظام الحكم ، وهرب إلى إنجلترا بعد أن اكتُشف أمره . وفي عام ١٩٢٠ ، أرسل رايلي في مهمة سرية إلى روسيا للقاء بعض الجماعات المناهضة للبلاشفنة ، ويبدو أنه وقع في كمين وضعه له البوليس السري الروسي ، ولم يُعرف عنه شيء بعد ذلك .

يفنو أزييف (١٨٦٩ - ١٩١٨)

Yevno Azeff

أحد زعماء الحركة الثورية الروسية وعميل للبوليس السري القيصري . وُلد في منطقة الاستيطان لعائلة يهودية فقيرة . وعندما انتقلت العائلة إلى روستوف ، انخرط أزييف في النشاط الثوري واضطر إلى الفرار إلى ألمانيا عام ١٨٩٢ هرباً من السلطات حيث درس الهندسة وانضم إلى مجموعة ثورية . ولكن ، بعد أن نفدت أمواله تماماً ، أرسل خطاباً إلى البوليس السري الروسي يعرض عليهم

أيزنهاور إصدار عفو عن المتهمين . ومما يُذكر أن أغلب الذين ارتبطوا بهذه القضية سواء المتهمون أو الشهود الرئيسيون أو القاضى الذي حكم بالإعدام كانوا من اليهود .

وقد أثارت هذه القضية جدلاً واسعاً ، سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها ، كان لها بعدها السياسي والعقائدي ، وخرجت المظاهرات المؤيدة للزوجين والمطالبة بالإفراج عنهما . ولا يزال الخلاف حول قضية روزنبرج قائماً حتى اليوم حيث يؤكد البعض براءتهما ، في حين يؤكد البعض الآخر أن نشاطهما كان له الأثر في إنهاء احتكار الولايات المتحدة للسلاح النووي . وقد نُفذ في الزوجين حكم الإعدام عام ١٩٥٣ بعد أن فشلت جميع المحاولات التي استهدفت تأجيله .

انذرية بغرض تسليمها للاتحاد السوفيتي . وكان الشاهد الأساسي ضدهما هو شقيق إثيل (ديفيد جرينجلاس) الذي كان مشتركاً في مشروع القنبلة النووية الأمريكية والذي اعترف بأن جوليس دفعه إلى التجسس . وقد رفض الزوجان الاعتراف بالتهمة التي وُجهت إليهما ، كما رفضا الكشف عن أعضاء شبكة التجسس التي قيل إنهما كانا عضوين فيها .

وقد حكم على الزوجين بالإعدام ، وذلك في فترة كانت الحرب الباردة على أشدها وكان يسود الولايات المتحدة أجواء من الذعر خوفاً من الجواسيس السوفيت . وقد فشل الاستئناف وكذلك جميع الإجراءات القانونية الأخرى التي اتخذها الزوجان سواء لإلغاء الحكم أو لتخفيفه أو تأجيله ، كما رفض الرئيس الأمريكي



مسألة الحدودية والهامشية

الحدودية كتعبير عن وظيفية الجماعات اليهودية - هامشية اليهود - شذوذ اليهود - طفيلية اليهود - رجال الهواء (لوفتمتش) - المتسولون - اللغات السرية لبعض الجماعات اليهودية الوظيفية - الجرائم المالية لبعض أعضاء الجماعات اليهودية - تهريب البضائع وأعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة - فضيحة قناة بنما - صنبال - أنبرج - كراون - بويسكي

الحدودية كتعبير عن وظيفية الجماعات اليهودية

Peripherality as Manifestation of the
Functionality of the Jewish Communities

مجتمعهم، كما أن الأمريكيين اليهود أصبحوا جزءاً من مجتمعهم لا يفتقون على حدوده وإنما يتحركون داخله ويوجدون في صميمه .

ويمكن القول بأن صفة الحدودية هذه تنطبق بشكل عميق وأساسي على أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي ، خصوصاً في شرق أوروبا قبل الثورة الصناعية . ولأن وضع هذه الجماعات ، كجماعات وظيفية ، هو ما أفرز الصهيونية التي هيمت إلى حد كبير على كل يهود العالم ، وهذه الظاهرة تكتسب أهمية خاصة في الوقت الحاضر .

ويلاحظ أن أول ذكر للعبرانيين جاء فيه أنهم جماعات بدوية تنتقل من بلد إلى آخر ، فبقى إما على حدوده الفعلية ، أو تدخل إليه للسقيا أو الاستقرار المؤقت . وهم بوصفهم بدواً رحلاً يشكلون فئة اجتماعية تعيش على هامش المجتمع وفي ثغراته . وتدل الإشارات التي وردت في العهد القديم على أن العبرانيين كانوا يرابطون على حدود المدن ، شأنهم شأن كثير من البدو الذين يحضرون للتجارة وتبادل السلع ، أو يسبغون على طرق التجارة التي تمتد من مكان إلى آخر . وحينما نزل العبرانيون مصر ، استوطنوا في جوش (محافظة الشرقية الآن) ، وهي منطقة متاخمة لكل من شبه جزيرة سيناء وحدود مصر . ومن الواضح أنهم ظلوا اجتماعياً على حدود المجتمع ، يعملون عبيداً أو بنائين ، ولذا كان من الممكن طردهم . وبعد التغلغل العبراني في أرض كنعان ، استقروا فيها ، وهي بلدة على الحدود بين القوتين العظميين آنذاك : مصر وبلاد الرافدين . وتاريخ ملكة داود وسليمان هو تاريخ الانكماش المؤقت لهاتين القوتين ، تماماً كما أن تاريخ الدولتين العبرانيتين (المملكة الجنوبية والمملكة الشمالية) هو تعبير عن الصراع بين هاتين القوتين حينما عادت إليهما الحياة والقوة مرة أخرى . ومعنى ذلك أن وجود الدولة العبرانية والدولتين العبرانيتين كان في مراحل زمنية مفصلة ، أي في مرحلة حدودية بين مرحلتين إن صح التعبير .

«الحدودية» مصطلح يُعبّر عن نموذج ذي مقدرة تفسيرية وتصنيفية عالية ، إذ يرصد ويُفسّر إحدى السمات الأساسية للجماعات اليهودية ، ويُقصد به وجود أعداد ملحوظة منها « على الحدود » ، إما بالمعنى الجغرافي (المكان) أو بالمعنى التاريخي (الزمان) ، وهو ما يُعبّر عن وضعها كجماعة وظيفية . فمن الناحية الجغرافية ، يُلاحظ وجود أعضاء الجماعات اليهودية على أطراف أو حدود الدول أو في مناطق تقع بينها أو في الموانئ البحرية أو في الموانئ التجارية التي تكون محطات ومراكز برية أو في جيتو خاص . أما من الناحية التاريخية ، فيلاحظ ازدهار أعضاء الجماعات اليهودية في مرحلة تاريخية مؤقتة تقع بين مرحلتين . ويمكن أن تكون الحدودية وضعية بمعنى ألا يكون المثقف أو الرأسمالي من أعضاء الجماعات اليهودية منتصباً إلى مركز التجمع وإنما يكون على حدوده أو هامشه . والحدودية تُعبّر عن وضع الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية تضطلع بوظائف خاصة (مشينة أو متميزة) ، وهو ما يتطلب عزلها عن المجتمع ، أو بوظائف ريادية في الأماكن النائية والمجهولة . والحدودية الجغرافية يمكن أن توجد بدون الحدودية الوظيفية ، والعكس صحيح أيضاً . لكن من الواضح أن الواحدة تقود إلى الأخرى ، كما أن انفصالهما هو أمر مؤقت وتعبير عن الفجوة الزمنية التي تسم الظواهر الإنسانية .

وينبغي التنبيه ابتداءً إلى أن هذه الصفة ليست صفة كامنة في بنية الطبيعة البشرية اليهودية أو لصيقة بها كما قد يتخيل البعض ، فهي صفة مكتسبة يمكن تفسير كثير من جوانبها في إطار تاريخي واجتماعي . ويجب أيضاً أن نشير إلى أن ثمة جماعات يهودية عديدة لم تنصف بصفة الحدودية هذه . فيهود بابل كانوا دائماً جزءاً من

عشر حيث جاءت حملات الفرنجة وتأسست ممالك الفرنجة في فلسطين . ولكن هذه الحملات فشلت في تحقيق هدفها وهو تحويلها إلى جزء من حدود أوروبا في الشرق .

وبالمثل ، تنتم بعض الجماعات اليهودية الأخرى في العالم بهذه «الحدودية» . وإذا صدقنا دعاوى بعض المؤرخين القائلة بأن ملوك حمير قد اعتنقوا اليهودية في القرن السادس ، أثناء صراعهم مع أباطرة إثيوبيا من الأقباط ، فيمكننا اعتبار اليمن آنذاك منطقة حدودية تقع بين التشكيل الحضاري السامي اللوثي في الجزيرة العربية وإثيوبيا المسيحية المتحالفة مع بيزنطة . وقد استوطن أعضاء الجماعات اليهودية في الهند : في بومباي وجوا وكوشين ، وكلها موانئ ومناطق للتجارة .

ومن أهم الأمثلة على هذه الصفة الحدودية ، إمبراطورية الخزر اليهودية الصغيرة التي كانت تقع على الحدود بين الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية من جهة والسهوب الروسية التي كانت تسكنها قبائل سلافية وثنية من جهة أخرى . وقد اكتسبت هذه الإمبراطورية أهميتها بسبب موقعها الحدودي ودورها بين هذه القوى . ولكن ، حينما تنصّر الروس في القرن العاشر وتحولوا إلى قوة روسية أرثوذكسية متحالفة مع بيزنطة ، وازداد ضعف المسلمين العرب ، تم القضاء على إمبراطورية الخزر التي لم يعد لها دور تلعبه .

وقد استوطن أعضاء الجماعات اليهودية ، بعد الفتح العربي ، في شبه جزيرة أيبيريا ، وهي المقاطعة المتاخمة للحدود مع العالم المسيحي . ومع هذا ، كان أعضاء الجماعات اليهودية في المجتمع العربي الإسلامي يفتقدون خاصية الحدودية هذه ، حيث كانوا من صميم المجتمع العربي في الأندلس .

وعلى أية حال ، فإن صفة الحدودية لم تتبلور إلا بتحول الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية داخل التشكيل الحضاري الغربي . وما قد يكون له دلالة وطرافته أن أول وجود لأعضاء الجماعات اليهودية داخل القارة الأوروبية كان في روما (العاصمة الإمبريالية) ثم في كولونيا (وهي معسكر روماني أُسس في تلك المنطقة التي تتحكم في وادي الراين ، ويعود اسمها إلى كلمة «كولون Colon» اللاتينية ومعناها «مستعمرة» ، وقد أخذت كلمة «كولونالية» بمعنى «استعمار» من الأصل نفسه) . وقد أصبحت كولونيا ، بسبب موقعها المتميز ، مقراً لأحد أهم الأسواق في أوروبا . ويمكن القول بأن خاصية الحدودية كانت خاصية جنينية تظهر وتخفي داخل القارة الأوروبية وخارجها ، ولم تصبح خاصية عامة وأساسية وثابتة للجماعات اليهودية في أوروبا إلا بحلول العصور الوسطى في

ويمكن القول بأن موقع فلسطين الجغرافي يجعل منها دولة حدودية . ولكن حدودية فلسطين ليست صفة جغرافية ثابتة وإنما صفة تاريخية عارضة . فحدودية فلسطين لا تظهر إلا مع تجزؤ المنطقة ، وفي غياب قوة محلية تقوم بتوحيدها . فهي قريبة من حدود آسيا مع أفريقيا وتطل على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتعدّ مدخلاً لبلدان وادي الرافدين ومفتاحاً للشام ومصر ، وهي الطريق الذي يصل آسيا بأفريقيا ويربط مصر بإمبراطوريات الشرق . ولذا ، نجد أن معظم الفاتحين منذ عهد الإسكندر (أول غاز غربي للشرق) كانوا يسعون للاستيلاء على فلسطين لتكون ركيزة مشروعاتهم الاستعمارية . وقد كانت هدفاً عبر تاريخها للهجرات والغزوات ابتداءً من التسلل العبراني إلى كنعان الذي تزامن مع غزوة شعوب البحر (الفلسطينيين) . كما كانت هدفاً للغزو الآشوري فالبابلي فالفارسي فالبيزنطي والروماني ، ثم موضع صراع بين البطالة والسلوقيين ، ثم هدفاً لحروب الفرنجة . وقد قام بسماتيك الثاني (٥٩٤-٥٨٨ ق.م) بتوطين بعض الجنود العبرانيين المرتزقة في جزيرة إلفنتين باعتبارهم جماعة وظيفية استيطانية قتالية . وكانت إلفنتين تقع على حدود مصر الجنوبية وكانت ذات أهمية إستراتيجية خاصة ، كما كانت مركزاً للمهاجر المصرية .

وتحوّلت فلسطين ، بعد أن ضمتها الإمبراطورية اليونانية ، إلى مسرح للصراع بين السلوقيين والبطالة . ومع بداية ظهور الرومان ، تحالف معهم الحشمونيون ، وتمكنوا من تأسيس دولتهم المستقلة في مرحلة مفصلية أو حدودية ثانية . وبعد أن ضمتها الإمبراطورية الرومانية ، صارت فلسطين أحد مسارح الصراع بين الرومان والفرثيين الذين هيموا على بلاد الرافدين آنذاك . وقد ظهرت في تلك الفترة إمارة حدياب التي كانت إمارة حدودية تقع بين الدولة الفرثية والإمبراطورية الرومانية . لكن الصراع حُسم لصالح الرومان وقُضي على الإمارة اليهودية . وبهذا ، أصبحت فلسطين مقاطعة تابعة يحكمها الحاكم الروماني مباشرة .

وفي القرن الأول قبل الميلاد ، بدأ اليهود يغادرون فلسطين في أعداد كبيرة ويتشرون في بقاع الأرض ، ولكن هذا الانتشار تركّز في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط . ولم تُعد فلسطين المركز الديني أو السكاني لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، لأنها أخذت تفقد الخاصية الحدودية .

وقد فقدت فلسطين حدوديتها تماماً بعد فترة الصراع بين البيزنطيين والفرس ، حيث أصبحت جزءاً عضوياً من التشكيل الحضاري العربي الإسلامي . واستمر هذا الوضع حتى القرن الحادي

والمسيحية الغربية : أولها فكرة الشعب الشاهد (الكاثوليكية) التي ترى ضرورة الحفاظ على اليهود في حالة ضعةً ومذلةً ليقفوا شاهداً على عظمة الكنيسة ، والشعب الشاهد ليس جزءاً من المجتمع إذ يجب عليه أن يقف على الحدود كي يشهد على كل شيء . وشاهده . والفكرة الثانية هي فكرة الماشيخ اليهودية ، أي الملك الذي سيأتي من نسل داود ليخلص اليهود من نير الأغيار ويعود بهم إلى وطنهم القومي ، ويقف بذلك شاهداً على عظمة اليهود وعلى ضعة الآخرين . ولقد ساهمت الفكرتان معاً في تعميق غربة اليهود وانعزالهم وتفكيك أواصر الصلة بينهم وبين البلاد والشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها . ثم جاء الفكر البروتستانتي الاسترجاعي فعرّج الفكرتين ، وأصبح الشعب الشاهد هو نفسه الشعب المقدس الذي يجب استرجاعه إلى فلسطين لتحريره حتى يتم انتخاض منه والخلص للجميع . وتنطوي كل هذه الرؤى الكاثوليكية والبروتستانتية واليهودية ، على افتراض مفاده أن اليهود شعب غريب لا جذور له .

ولقد أصبحت حدودية اليهود في المجتمع الغربي وضعاً طبقياً ووظيفياً محدداً يساند بناء فكري وديني ، وهو ما يعني أن هذا الوضع كان قائماً على مستوى الواقع وعلى مستوى النوعي . وبذا تحددت صورتهم وتبلورت ، وتحدّد دورهم كمعصر وظيفي وسيط . وقد تعاملت معهم أوروبا في هذا الإطار حتى عام ١٩٥٠ تقريباً ؛ أي بعد الإبادة النازية وقيام الدولة الصهيونية واندماج يهود الولايات المتحدة .

وكانت حدودية أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية هي العنصر الأساسي الذي حدد مواطن استقرارهم . ففي العصور الوسطى ، استقر اليهود في إنجلترا (مع الغزو النورماندي) في الموانئ والمراكز التجارية مثل لندن . وظل اليهود مرتبطين بالعنصر الفرنسي الغازي إلى أن طُردوا من إنجلترا في القرن الثالث عشر . وفي بقية القارة الأوروبية ، اتخذ استقرارهم الشكل نفسه ؛ وقد أشرنا من قبل إلى استيطانهم كونيونياً . كما أنهم استوطنوا أيضاً مدناً تقع على نهر الراين مثل فرانكفورت وورمز وسبير ومتر ، أو على أنهار أخرى مثل مدينة أوجسبرج وماجديربج وبراغ . والأنهار كما هو معروف من أهم طرق النقل والتجارة ، وبخاصة قبل الثورة الصناعية .

واستمر النمط نفسه وتعمّق في شبه جزيرة أيبيريا ، حيث بقي بعض أعضاء الجماعة ، بعد الفتح الإسلامي ، في الجيوب المسيحية في الشمال . وقد أسس شارلمان جيّاً يُسمّى «ماركا هيسبانيكا» في جبال البرانس ووطّن فيه الزوايد اليهود ، ليكون حاجزاً ضد الزحف

الغرب . ولعل هذا يعود إلى التركيب الإقطاعي المسيحي للمجتمع والذي لم يحدد وضع الأقليات غير المسيحية ، وهو ما جعل اليهود وأمثالهم غرباء . لكن هذا المجتمع كان ، مع ذلك ، مجتمعاً يضم النبلاء والفرسان من جهة والفلاحين من جهة أخرى ، بحيث كانت تفصل بين الجانبين هوة لم يكن بوسع التجار المحليين ملؤها . وقد قام اليهود بملء هذه الشقوق والفراغات وتوسيعها حتى أصبحوا الجماعة الوظيفية الوسيطة الأساسية في أوروبا في العصور الوسطى . والجماعات الوظيفية الوسيطة تتكون عادةً من أقلية تقوم بمهام التجارة والربا وغيرها من المهام التي لا تقوم بها الطبقات الأساسية في المجتمع .

وكان اليهود ، بوصفهم جماعة وظيفية مالية وسيطة ، يقومون بما يُسمّى التجارة البدائية . لكن هذه التجارة البدائية نشاط اقتصادي ليس من صميم العملية الإنتاجية ، ولذا فهي تمثل نشاطاً حدودياً بين الأنشطة المختلفة . إذ كان التاجر البدائي ينقل السلع من مجتمع إلى آخر ، فيحضر السلع الترفيئة مثلاً من الشرق إلى المجتمع الإقطاعي الغربي ويأخذ منه العبيد والفرار . لكن هذا التاجر البدائي لم يكن متميّزاً إلى هذا العالم ولا إلى ذاك ، لا إلى الشرق ولا إلى الغرب . وقد وضع ماركس يده على هذه الخاصية حينما قال إن اليهود يعيشون في مسام المجتمع الإقطاعي ، أي على حدوده .

ولم يكن النشاط الربوي اليهودي مختلفاً ، فقد كان المرابون اليهود يقفون في واقع الأمر على الحدود بين الأمير الإقطاعي الذي كان يدعى شيخ المرابين والفلاحين وأشباههم ومن هم في مكانتهم الاجتماعية . وكان المرابون يمتصون ثروات الفلاحين ثم يقوم الأمير بدوره بامتصاصهم ، ومن هنا كان يُطلق عليهم «الإسفنجة» . وكانت وظيفة التاجر والمرابي اليهودي تسقط بسد الفجوة الزمنية وظهور طبقة محلية تضطلع بوظيفة الاتجار وأعمال الصيرفة .

وكان من أهم وظائف الجماعة الوظيفية اكتشاف مجالات الاستثمار الخفية ، والقيام بدور ريادي في الأراضي غير المأهولة وفي المشاريع الخطرة إذ تكون الأشكال التقليدية للاستثمار موصدة دونهم . كما أن العناصر الوسيطة عناصر أكثر حركية ولأنها لا تقع تحت طائلة القوانين الإقطاعية الصارمة . وقد اضطلع كثير من الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية ، ومن ثم كانوا يقعون خارج المجتمع وخارج هيكله القانوني ، يرتادون المناطق غير المأهولة والمجالات الاستثمارية غير المألوفة .

وقد عمّق حدودية اليهود بعض الأفكار الدينية اليهودية

الأطلنطي ، أي أنها تقع على حدود العالم القديم المواجهة للعالم الجديد . كما استقروا في لندن ، وهي أحد أهم مراكز التجارة الأطلنطية التي كانت قد بدأت تحل من حيث الأهمية محل التجارة مع الشرق . وكانت كل من أمستردام ولندن عاصمة لامبراطورية صغيرة ناشئة ، وعاصمة الإمبراطورية هي دائماً مفترق الطرق والنقطة التي يتم فيها عقد الصفقات وتوزيع الغنائم ، وهي أيضاً النقطة التي تستأثر بنسبة عالية من الثروات التي تصب من المستعمرات . وحينما استوطن اليهود في العالم الجديد في الفترة نفسها ، استقروا في نيو أمستردام (نيويورك فيما بعد) وجزر الهند الغربية ، أي في مناطق تجارية على حدود العالم الجديد المواجه للعالم القديم . وقد لعب يهود المارانو والسفارد دوراً مهماً في نشأة الرأسمالية بسبب خاصيتهم الحدودية .

وقد وُجدت أعداد كبيرة أيضاً من اليهود في مقاطعتي الألزاس واللورين ، على الحدود بين ألمانيا وفرنسا ، وهما المقاطعتان اللتان تنازعهما الدولتان حيث ضمتهما فرنسا في القرن الثامن عشر ثم ضمتهما ألمانيا في عام ١٨٧٠ ، واستعادتهما فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى ثم ضمتهما ألمانيا فترة قصيرة أثناء الحرب العالمية الثانية ، إلى أن استرجعتهما فرنسا بعد ذلك .

لكن أكبر تجمّع يهودي في أوروبا وفي العالم الحديث كان في بولندا ، وهو ما نسميه «يهود الديدشية» . وقد هاجر إليها اليهود للاستغلال بالتجارة ، واستقروا في وارسو وكراكوف وغيرهما من المدن . وبولندا ، من ناحية ما ، بلد حدودي يقع بين روسيا وبحر البلطيق ويربط بين غربي أوروبا وشرقيها . وقد ظلت قوة عظمى مادامت الكتلة الروسية منكشمة والقوة الألمانية مقسمة إلى وحدات صغيرة متنازعة . ولكنها فقدت نفوذها ومكانتها بظهور حكومات مركزية قوية في روسيا وألمانيا اللتين أخذتا تنازعاها فيما بينهما ، وهي في هذا تشبه فلسطين التي تنازعاها الإمبراطوريات العظمى . وتظهر حدودية بولندا بشكل حاد في عملية تقسيمها بين روسيا وألمانيا والنمسا إذ قُسمت ثلاثة أقسام حتى أنها اختفت ككتلة سياسية مستقلة طوال القرن التاسع عشر بعد أن كانت أكبر دولة أوربية لها حدود مع الإمبراطورية العثمانية . وقد تم تقسيم أعضاء الجماعة اليهودية بتقسيم بولندا ، فُصم قطاع منها إلى ألمانيا (بوزن أو بوزنان) وُصم قطاع آخر إلى النمسا (جاليشيا) وُصم الجزء الأكبر إلى روسيا . وإذا كانت بولندا دولة حدودية ، فإن أكثر أقاليها حدودية هو أوكرانيا التي يعني اسمها «البلد الذي على الحدود» . وقد انتقلت أعداد كبيرة من اليهود إليها بعد ضمها إلى بولندا في القرن السادس

الإسلامي . وتدل الوثائق على أن أعضاء الجماعة اليهودية في هذا الجيب كان لهم حق امتلاك الأراضي الزراعية والعمل فيها وشرائها وبيعها واستنجازها وتأجيرها . ونظراً لعدم وجود كثافة بشرية مسيحية ، كان العنصر اليهودي ، أثناء الغزو المسيحي التدريجي لشبه جزيرة أيبيريا ، من العناصر الأساسية التي اعتمدت عليها الجيوش الغازية . وقد انخرط اليهود في تلك الجيوش التي كانت تستخدمهم كجماعة وظيفية استيطانية في الأراضي المفتوحة ، حيث كان يتم منحهم مرة أخرى حق امتلاك الأراضي وزراعتها في وقت كانت الأرض فيه مصدر رزقهم الأساسي . وقد تكرر النمط نفسه في مورسيا وبالنسيا ولامنشا ومقاطعة الأندلس وغيرها . كما منح اليهود حق فتح محال تجارية شريطة أن يستوطنوا مع أسرهم . وبعد استقرار الحكم المسيحي في شبه جزيرة أيبيريا ، ومع انحسار المد العربي الإسلامي ، فقد شبه الجزيرة صفته الحدودية ، وطُرد أعضاء الجماعة اليهودية بعد زواج فرديناند وإيزابيلا ونجاحهما في استكمال غزو شبه الجزيرة بضعة أشهر .

وقد انتشر يهود السفارد ويهود المارانو (المتخفون) الذين طُردوا من إسبانيا والبرتغال في أنحاء المعمورة . وكانوا يتسمون بدرجة عالية وحادة من الحدودية ، أي أنهم كانوا على معرفة تامة بالخصارتين السائدتين آنذاك : حضارة المسلمين في الشرق ، وحضارة المسيحيين في الغرب . كما كان يهود المارانو يقفون على الحدود بين العالمين اليهودي والمسيحي ، فهم يهود في الخفاء مسيحيون كاثوليك في الظاهر ، الأمر الذي سهل لهم التحرك بين الجماعتين . هذا إلى جانب أن كثيراً منهم احتفظ برأسماله واتصالاته داخل شبه الجزيرة الأيبيرية ، حتى بعد أن طُردوا منها ، حيث كانوا يعودون إليها ليصرفوا أمورهم ، ثم ينتقلون إلى أوطانهم الجديدة . وكانت السلطات الفرنسية والألمانية تعرف أنهم يهود متخفون ، ومع ذلك سمحت لهم هذه السلطات بالاستيطان باعتبارهم كاثوليكين من البرتغال أو إسبانيا حتى تستفيد من اتصالاتهم الدولية ورأسمالهم . وقد أدى طردهم من أيبيريا إلى اتساع نطاق نشاطهم الدولي وازدياد نطاق حدوديتهم ، إذ وُجدت أعداد كبيرة منهم في شتى مناطق التجارة العالمية ، وفي المدن والموانئ الأوربية والعثمانية . كما استقرت أعداد كبيرة منهم في موانئ مثل بليون وبوردو في فرنسا أو في مدن ذات أهمية تجارية خاصة مثل برودي في جاليشيا أو في مدن مثل فرانكفورت وغيرها من المدن الألمانية التي كانوا قد طُردوا منها . ومن أهم المدن التي استقروا فيها مدينة أمستردام عاصمة هولندا ، وهي من أهم الموانئ التي تطل على المحيط

بالبغاء تعبيراً عن الظاهرة نفسها . فمع علمنة الرغبة في المجتمع الغربي ، دون علمنة السلوك ، ظهرت فجوة بين الرغبة الجنسية وإشباعها كان لابد من ملئها عن طريق جماعة وظيفية . وكان اليهود قد فقدوا وظيفتهم كتجار صغار ، فتحولت أعداد كبيرة منهم إلى العمل بهذه التجارة المشينة . وقد قُضي على هذه الظاهرة مع تزايد معدلات علمنة السلوك في المجتمع الغربي ، بحيث أصبح من الممكن تحقيق الإشباع الجنسي من خلال الإناء الحليات ممن يردن تعظيم ربحهن وزيادة دخلهن دون حاجة إلى وساطة عنصر وظيفي .

ويبدو أن اللغات التي تحدث بها العبرانيون وأعضاء الجماعات اليهودية تسم بالحدودية نفسها . فالعبرانيون في مصر كانوا يتحدثون في الغالب لغة المصريين القدامى بعد أن أدخلوا عليها مصطلحات سامية بحيث أصبحت رطانة خاصة بهم ، أو لعلمهم كانوا يتحدثون بإحدى اللهجات السامية بعد أن أدخلوا عليها كلمات وتعابير مصرية (قديمة) . وقد ظل هذا هو النمط اللغوي بين أعضاء الجماعات : أن يتحدثوا لغة الأقوام التي يعيشون بينها بعد أن أدخلوا عليها ألفاظاً عبرية بحيث تصبح رطانة خاصة بهم ، وكانوا عادةً يكتبونها بالحروف العبرية . والرطانة هي طريقة في الحديث مختلفة عن النمط اللغوي السائد ، ولكنها لا ترقى إلى مستوى النسخ اللغوي المستقل ، أي أنها تقف على «حدود» اللغة الأم : لا تنتمي إليها كليةً وفي الوقت نفسه لا تنفصل عنها ، تماماً كما هو حال الجماعة الوظيفية التي توجد في المجتمع دون أن تكون منه . وقد كان هذا هو حال اللغة اليديشية التي يصنفها علماء اللغة باعتبارها رطانة ألمانية إذ أن بنيتها في الأساس بنية ألمانية العصور الوسطى . وقد دخلت عليها كلمات من السلافية والعبرية وغيرهما بعد أن نقلها اليهود معهم إلى بولندا ، وكانوا يكتبونها بالحروف العبرية . لكن هذه اللغة ظلت مقصورة على الأمور التجارية ، وعلى الاستخدامات اللغوية عند العوام ، إذ كانت المؤلفات الدينية تُكتب بالعبرية أو الآرامية . ومع بداية تحديث اليهود ، أي مع دمجهم وتحريكهم من أطراف المجتمع ليصبحوا جزءاً عضواً منه ، طالب دعاة التنوير بالتخلي عن اليديشية لأنها أصبحت لغة الغش التجاري والتهريب بسبب حدوديتها كما كان سكان البلد الأصليون لا يعرفونها . وقد جرّمت جميع الحكومات التي أعنتت اليهود سياسياً استخدام اليديشية في الأعمال التجارية .

ولم تزدهر اليديشية كلغة أدبية إلا في مرحلة مفصلية من تاريخ شرق أوروبا ، وهي مرحلة التحديث المتعثر في أواخر القرن التاسع عشر ، إذ توقفت عمليات الدمج وانصرف أعضاء الجماعة اليهودية

عشر ، ليقوموا بدور جماعة وظيفية استيطانية مالية تمثل مصالح النبلاء الإقطاعيين هناك . وتزايد استيطانهم خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد قاموا بدور جمع الضرائب والصيرفة ، فيما يُعرف باسم نظام الأرندا . وكان أعضاء الجماعة اليهودية على الحدود جغرافياً في أوكرانيا ، وعلى الحدود مجازياً (بين النبلاء الكاثوليك والفلاحين الأرثوذكس) . ولذا ، حينما قامت ثورة شميلنكي الأوكرانية ، اكتسحتهم في طريقها . وضمت روسيا منطقة أوكرانيا فيما ضمت من أراض بولندية .

وعندما قامت الإمبراطورية الروسية بضم الإمارات التركية الموجودة حول البحر الأسود ، وطنت اليهود في المناطق الجديدة المفتوحة التي عُرفت باسم «روسيا الجديدة» وبخاصة في ميناء أوديسا ، وذلك لصبغها بالصبغة الروسية ولتزع الصبغة التركية عنها . وفي عام ١٩٢٨ ، طرحت الحكومة السوفيتية مشروعاً لتوطين اليهود في القرم ، وهي من أكثر المناطق حدودية في العالم حيث حكمها اليونان والرومان والقوط والهون ويهود الخزر والبيزنطيون والمغول وجمهورية جنوة والعثمانيون ثم الروس ، كما غزاها الألمان لفترة قصيرة أثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن الحكومة السوفيتية تخلت عن المشروع ونفذت مشروع إقليم بيروبيجان . ويبدو أن المشرع السوفيتي كان واعياً بخاصية الحدودية في الجماعات اليهودية حينما وطنهم في منطقة على الحدود مع الصين غير بعيدة عن اليابان . ولكن السوفييت ، برفضهم توطين اليهود في منطقتي أوكرانيا والقرم ، لقربهما من ألمانيا والدول الغربية التي قد تجندهم لصالحها ، كانوا يتبعون سياسة القياصرة الذين أصدروا قراراً في القرن التاسع عشر بعدم السماح لليهود بالسكنى إلا على مسافة خمسين فرسخاً من الحدود الأوربية ، وذلك خشية تعاونهم مع الدول المعادية ، خصوصاً أن اليهود كانوا يتحدثون اليديشية وهي رطانة ألمانية . كما أن التوجه الثقافي لليهود روسيا في القرن التاسع عشر كان ألمانياً في الأساس .

ويلاحظ أن أكبر تجمع يهودي في العالم يوجد اليوم في الولايات المتحدة ، كما أن أكبر نقاط تركّز أعضاء الجماعة هي نيويورك : المنطقة الحدودية بين الولايات المتحدة وأوروبا . ولكن يجب التنبيه إلى أن الحدودية الوظيفية لليهود في المجتمع الأمريكي قد تضاءلت وربما اختفت تماماً . ولعل هذا يفسر بداية تضاؤل حدوديتهم على الصعيد الجغرافي ، إذ بدأوا يبتعدون عن مراكزهم الحدودية التقليدية ويتشرون في أنحاء أمريكا .

ومع هذا ، يمكن اعتبار اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية

الوظيفة المنوطة بها . ومن هنا ، كان الحوار الذي بدأ في أواخر القرن الثامن عشر حول حقوق اليهود ، يدور في إطار مدى نفع اليهود وجدواهم .

وقد ساهمت حدودية اليهود داخل الحضارة الغربية في تعميق المسألة اليهودية فيها وفي تحديد شكل الحلول المطروحة لها . فحدوديتهم الوظيفية والمعنوية عزلتهم عن التطورات العميقة التي حدثت داخل المجتمع الغربي ابتداء من القرن السادس عشر . وجاء عصر النهضة ثم عصر الإصلاح الديني وعصر العقل وعصر الرومانسية ، وهي كلها تعبير عن الانقلاب الصناعي الرأسمالي ، بينما كان اليهود معزولين عن مجتمع الغرب معنوياً رغم وجودهم فيه .

كما عمّقت الحدودية الجغرافية ، وبشكل حاد ، أبعاد المسألة اليهودية . ولنأخذ ، على سبيل المثال ، الأتراس واللورين : كان يهود هذه المنطقة من الإشكناز الذين يتحدثون اليديشية ويشغلون بالتجارة والربا ولا يندمجون بمحيطهم الثقافي . وكانت الأتراس واللورين تنتمي إلى التشكيل السياسي الألماني ثم انتقلتا إلى التشكيل السياسي الفرنسي ثم عادت إلى التشكيل السياسي الألماني مرة أخرى ، وانتهى بهما المطاف بعد الحرب العالمية الأولى إلى أن أصبحتا جزءاً من فرنسا . وليس بإمكان أقلية أن تحدّد ولاها وهويتها بما يتفق مع متطلبات الدولة القومية في مثل هذا المناخ الذي تتغير فيه هذه المتطلبات .

وكان الوضع أكثر سوءاً في الجيب البولندي الذي ضم معظم يهود العالم ، أي يهود اليديشية . فقد جرى تقسيم بولندا بين ثلاث دول مختلفة : واحدة منها سلافية (روسيا) والاثنان الآخران جرمانيتان (ألمانيا والنمسا) . وقد ضمت ألمانيا مقاطعة بوزن (بوزنان) وألنت يهودها ، ولكنهم ظلوا مع هذا شرق أوروبيين . وحينما هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى ألمانيا ، أدّت هجرتهم إلى تغيير طابع يهود ألمانيا من طابع غرب أوروبي إلى طابع شرق أوروبي . أما يهود جاليسيا التي ضمتها النمسا ، فقد ظهر بينهم من ينادي بالثقافة الألمانية ، وظهر فريق آخر ينادي بالثقافة البولندية ، وفريق ثالث ينادي بالثقافة العبرية . وكان يهود أوكرانيا متعددي الولاءات ومتعددي الثقافات ، فبعضهم أوكراني وبعضهم الآخر روسي والثالث ألماني والرابع بولندي . ولو وُجد اليهود في بقعة جغرافية غير حدودية لكان من السهل تحديدهم ودمجهم كما حدث لليهود ألمانيا قبل الهجرة من شرق أوروبا ، وكما حدث لليهود إنجلترا والولايات المتحدة بعد هذه الهجرة .

في روسيا وبولندا وغيرهما عن تحديث أنفسهم لغوياً . كما انصرفوا عن دراسة اللغة الأم واهتموا بدلاً من ذلك بدراسة العبرية واليديشية ، فأنشجوا أدباً باليديشية يرى بعض النقاد أنه يرقى إلى مستوى الأعمال الأدبية الجادة . ولكن ، لم يُقدّر لهذه المرحلة أن تستمر طويلاً ، فقيام الثورة البلشفية استؤنف التحديث مرة أخرى وأُتيحت فرص الدمج والحراك الاجتماعي أمام أعضاء الجماعة اليهودية ، فانصرفوا عن إرسال أطفالهم إلى المدارس التي تُعلّم اليديشية . وانخفض عدد المتحدثين بها في الاتحاد السوفيتي من نحو ٩٧٪ مع نهاية القرن التاسع عشر إلى ١٩٪ من أعضاء الجماعات اليهودية في الوقت الحاضر ومعظمهم من المسنين . وقد اختفت انيديشية تقريباً في الولايات المتحدة أيضاً بسبب المعدلات المتزايدة لاندماج بين أعضاء الجماعات اليهودية .

ويُعدّ الجيتو التجسيد المعماري المتعين لهذه الحدودية الوظيفية ، فهو يقف داخل المدينة ولكنه ليس منها إذ تفصله أسوار عالية عن بقية أجزائها ، وكان الجيتو يقع أحياناً على أطراف المدينة حتى يمكن عزل اليهود داخل حدوده .

وقد كان لحدودية أعضاء الجماعات اليهودية أعمق الأثر فيهم . فنتيجة لوضعهم هذا ، تزايد التصاقهم بالحاكم إلى أقصى حد ، إذ أنهم باعتبارهم أداته في الاستغلال كانوا عناصر مرفوضة مهددة بالثورات الشعبية ، وهذا ما جعلهم في حاجة دائمة إلى الدعم العسكري من السلطة . ويتجلى مدى التصاقهم بالحاكم في وضعهم القانوني في العصور الوسطى في الغرب ، إذ كانوا يُعدّون ملكية خاصة للملك (أقنان بلاط) يؤدون له الضريبة ويقوم هو بحمايتهم . وكانت دية اليهودي الذي يُقتل تُدفع للحاكم وليس لأهل اليهودي ، كما كانت عقوبة قتل اليهودي أو أحد أبنائه في بعض بلاد أوروبا مثل عقوبة قتل أو إيذاء الفرسان بل أشد في بعض الأحيان . وقد حاول البعض تخفيض العقوبة بحيث تصبح مساوية لعقوبة قتل أو إيذاء فلاح ! كان هذا هو وضع يهود ألمانيا ويهود بولندا بشكل عام ، ويهود أوكرانيا بشكل خاص إذ كان تميزهم أكثر حدة وإثارة . لقد كانوا ممثلين للقوة الحاكمة بين المحكومين ، ويعيشون داخل مدن صغيرة مقصورة عليهم (الشتل ، أي الكيان الغريب المشتول) ، ويتعبدون داخل معابد يهودية تشبه القلاع ، تمسك بالقرب منهم القوات البولندية لحمايتهم !

ويسبب حدودية اليهود ، ونتيجة لها في آن واحد ، كان العالم انخريي يحوسلهم ، أي يحولهم إلى وسيلة ، والوسيلة لا قيمة لها في ذاتها ، بل تكون المحافظة عليها بقدر نفعها وبمقدار تأديتها

تُخصّص منطقة بعرض كيلو مترين على جانبي الطريق يُوطّن فيها اليهود .

وقد تقبّل اليهود الصهاينة هذا الحل الصهيوني غير اليهودي . فهرتزل يتحدث عن الدولة الصهيونية باعتبارها حائطاً غربياً يقف في الشرق ليصد الهمجية ويتمتع بالحماية الغربية بالمقابل (مثلاً تمتع يهود أوروبا بحماية الملك والحاكم) ، كما يتحدث عن اليهود باعتبارهم مادة نافعة يمكن الاستفادة منها في خدمة إنجلترا وغيرها من الدول الغربية . أما ماكس نورددو ، فكان يرى أن المشروع الصهيوني يرمي إلى مزا حدود أوروبا إلى الشرق وإلى تخليصها من العنصر اليهودي الحدودي . وقد وصف وإيزمان الدولة الصهيونية المزمع إنشاؤها بأنها بلجيكا آسيوية . وهو محق في قوله ، فينچيكا في علاقتها بإنجلترا تشبه علاقة فلسطين تبصر في كثير من الجوه . وقد أكد جابوتنسكي أن كون اليهود عنصراً حدودياً سيجعلهم يدينون دائماً بالولاء للغرب وسيحولون فلسطين إلى دولة حدودية وظيفية . وهذا على عكس فلسطين العربية التي ستدخل الفلتك العربي الإسلامي ، وبذا تفقد حدوديتها . وقد نحتت الصهيونية بمساعدة الإمبريالية الغربية في تأسيس الدولة الصهيونية الوظيفية التي تقع بين آسيا وأفريقيا ، وتطل على قناة السويس وتخلق ثغرة بين شرق العالم العربي وغربه ، وهي قاعدة استيطانية قتالية ومالية للإمبريالية الغربية في المنطقة ، ووجودها منوط بحدوديتها الجغرافية والوظيفية ، أي بوجودها في هذه المنطقة الإستراتيجية وبنجاحها في أداء وظيفتها القتالية والاستيطانية .

وقد لاقت فلسفة نيتشه صدى لدى انشباب اليهودي في شرق أوروبا ، ثم بين العديد من النصهاينة ، لأنها فلسفة حدودية تنصح الإنسان بأن يعيش في خطر دائم وأن يبني بيته بجوار البركان . وقد وصل هذا التيار النيتشوي الصهيوني الحدودي إلى الذروة في عقيدة جوش إيمونيم الاستيطانية حيث يذهب المستوطن الصهيوني إلى وسط المدينة العربية ويؤسس بيته . ويحولون لاتباع هذا التيار أن يقتبسوا كلمات «بلمع» ، ذلك العراف الوثني الذي دعاء ملك مؤاب ليلعن العبرانيين القدامى عند اقترابهم من مملكته « هو ذا شعب يسكن وحده وبين الشعوب لا يُحسب » (عدد ٢٣ / ٩) . وهذا الاقتباس هو جوهر الصهيونية ، فهو يتضمن التقبل غير المشروط للصفة الحدودية على المستويين الوظيفي والجغرافي .

والقانون العام الذي يمكن استخلاصه هو أن العنصر اليهودي داخل الحضارة الغربية يُنظر إليه باعتباره عنصراً وظيفياً حدودياً . ولهذا ، فلا بد أن تتحول فلسطين هي الأخرى ، من منظور المصالح

وتصدر الحل الصهيوني بين الصهاينة المسيحيين واليهود عن هذه الخاصية الحدودية ويتقبلها . ولكن ، قبل أن نتناول البنية الحدودية للحل الصهيوني ، قد يكون مما له دلالة وطرافته أن نذكر أن أول مؤتمر عقده أعضاء أحباء صهيون هو مؤتمر كاتوفيتش الذي عُقد على الحدود بين ألمانيا وروسيا . كما عُقد أول مؤتمر للمنظمة الصهيونية العالمية في بال السويسرية ، وهي بلد حدودي محايد ، ذلك لأن يهود ميونيخ ، التي كانت تضم واحدة من أكبر الجماعات اليهودية آنذاك ، قد أثروا الاندماج ورفضوا الهامشية التي كانت الصهيونية تطرحها . كما أن هرتزل نفسه ، الذي اكتشف الصيغة الصهيونية بين اليهود ، كان شخصية حدودية بالدرجة الأولى ، فهو من وسط أوروبا التي تقع بين شرقها وغربها ، وينتمي إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية متعددة الولاءات . وهو مجري المولد نمساوي النشأة يهودي النزح ، كما كانت له ثلاثة أسماء : زئيف (مجري) وتيودور (ألماني) وبنيامين (عبري) . وهو ، رغم تعدد ولأاته ، كان هامشياً بالنسبة إلى هذه المجتمعات جميعاً . وربما كان هذا ما رشحته لأن يكتشف الصيغة الصهيونية الحدودية التي ترى اليهود جماعة حدودية . ورغم ادعاء بعض الصهاينة ، على مستوى التصريحات ، أنهم سيطّعون اليهود ويخلصونهم من هامشيتهم ، فإن البنية الحقيقية للفكرة الصهيونية بنية حدودية إن صح التعبير . فاليهود ، حسب الرؤية الصهيونية المسيحية والرؤية اليهودية ، شعب يقف على هامش التاريخ غير اليهودي ولا يساهم فيه كثيراً . وقد تحوّلت هذه الرؤية إلى فكرة الشعب العضوي المنبؤ ، أي اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً جذوره ليست في أوروبا وإنما في فلسطين ، ومن ثم فليس بالإمكان تحقيق القومية اليهودية إلا خارج أوروبا (في فلسطين) . أما إن بقي اليهود داخل تشكيلات حضارية وقومية لا ينتمون إليها ، فإنهم يتحولون إلى شخصيات هامشية طفيلية يجب التخلص منها . وقد كان يُشار إلى اليهود باعتبارهم مادة بشرية يمكنها أن تضطلع بدور ريادي حدودي مفيد للحضارة الغربية . ويُعتبر ظهور محمد علي والقضاء عليه عام ١٨٤٠ النقطة الحاسمة في تاريخ الصهيونية ، إذ بدأت القوى الاستعمارية تكتشف خطورة وقوع المنطقة في أيدي قيادة محلية ، الأمر الذي سيفقد فلسطين حدوديتها ، فسعت إلى توطين اليهود فيها باعتبارهم عنصراً حدودياً وجماعة وظيفية استيطانية حتى تظل فلسطين منطقة نفوذ غربية . وكان شافيتسري ينوّه بفائدة العنصر اليهودي في هذا المضمار ، أما لورنس أوليفانت فقد طرح مشروعاً حدودياً مشيراً لمدّ خط سكة حديدية من استنبول إلى بغداد على أن

الترتسكية) والعدمية ، ويُقال إن ٣٠٪ من أعضاء الجماعات السرية من أعضاء الجماعات اليهودية . كما يجذب أعضاء الجماعات اليهودية إلى العبادات الجديدة ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه حدودية دينية وفكرية .

هامشية اليهود

Marginality of the Jews

«هامشية اليهود» مصطلح يُستخدم في الدراسات التي تدور حول وضع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية ، خصوصاً شرق أوروبا ، وهو مصطلح يتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود ، ويصف وجودهم الاقتصادي والاجتماعي والحضاري كجماعة وظيفية وسيطة تضطلع بوظائف وحرف ومهن مختلفة ، مثل التجارة البدائية والربا وقد كانتا عمليتين مرتبطتين بالنظام الإقطاعي ولكنهما لم تكونا قط من صميم العملية الإنتاجية ذاتها . بل إن الحرف التي كان يمارسها اليهود أنفسهم ، لم تكن مرتبطة بالفلاحين ، وإنما كانت مرتبطة بالتجار اليهود أو الأمراء الإقطاعيين . ولذلك ، فحينما ظهرت الرأسمالية المحلية في شرق أوروبا مع بدايات القرن التاسع عشر ، ثم الدولة القومية والنظام المصرفي الحديث ، وجد أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم بلا دور اقتصادي أو إنتاجي يلعبونه ، وبالتالي كانوا عرضة لاضطهاد المجتمع الذي لم يُعد في حاجة إلى خدماتهم ولم يعد يرى لهم نفعاً ، الأمر الذي أدى إلى زيادة حدة تقافم المسألة اليهودية وزيادة هجرتهم إلى غرب أوروبا . وقد بذلت الحكومة الروسية ، وكذلك الحكومة النمساوية التي كانت تتبعها جاليشيا ، جهوداً شتى لتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق فتح أبواب مهنة الزراعة أمامهم . وساهم في هذه الجهود مليونيرات الغرب من اليهود ، مثل هيرش وروتشيلد ، لأن هجرة اليهود من شرق أوروبا إلى غربها كانت تسبب لهم الحرج الشديد كما كانت تهدد مواقعهم الاقتصادية والحضارية التي اكتسبوها عن طريق الاندماج . وقد تعثرت هذه المحاولات وهو ما اضطر الحكومة الروسية ، على سبيل المثال ، إلى أن تلجأ للقمع الاقتصادي عن طريق إصدار قوانين مايو . وهامشية اليهود موضوع أساسي كامن في كتابات الصهاينة العماليين - خصوصاً دوف بير بوروخوف ، وأهارون جوردون - وهم يقررون تحويل اليهود إلى شعب منتج عن طريق الهجرة واقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج .

والحديث عن هامشية اليهود فيه كثير من التعميم والتجريد . فالهامشية المقصودة هي هامشية يهود شرق أوروبا في أواخر القرن

الغربية ، إلى بلد وظيفي حدودي . وهذا يمكن تحقيقه من خلال خلق وضع تجزئة دائم في العالم العربي الإسلامي . وحينما تصبح فلسطين بلد حدودياً تسيطر عليها دولة وظيفية ، يمكن توطين العنصر اليهودي الوظيفي الحدودي فيها . ومن هنا كان رفض الدول الغربية جميع المحاولات الرامية إلى توحيد المنطقة ، ابتداءً من محاولة صلاح الدين الأيوبي ، مروراً بمحمد علي ، وانتهاءً بمحاولة جمال عبد الناصر . وربما كان الفارق الأساسي بين هجمة الفرنجة والهجمة الاستعمارية الصهيونية أن الأولى لجأت إلى ديباجات مسيحية لا علاقة لها بالهدف الإستراتيجي النهائي وأنها صدرت عناصر بشرية مسيحية . أما الثانية فقد اكتشفت أن العنصر اليهودي عنصر حدودي وظيفي داخل الحضارة الغربية ، ولذا لجأت هي الأخرى إلى ديباجات يهودية لا علاقة لها بالهدف الإستراتيجي النهائي . ويعني وعد بلفور ، في نهاية الأمر ، فرض الصفة الحدودية على فلسطين عن طريق الاستعمار البريطاني ، كما يرمي إلى توطين العنصر اليهودي الحدودي فيها لخدمة مصالح الحضارة الغربية . ولم يكن بلفور في هذا إلا تعبيراً عن غط كامن في الحضارة الغربية يستند إلى رؤية كاملة لفلسطين باعتبارها حيزاً جغرافياً يجب أن يوظف لصالح الحضارة الغربية ، وإلى اليهود باعتبارهم عنصراً استيطانياً يمكن توظيفه في هذه العملية .

ويلاحظ أن الجماعات اليهودية في العالم لم تتخلص من حدوديتها تماماً . وقد أدّى ظهور الدولة الصهيونية إلى تعميق هذه الخاصية ، إذ بدأت تتسع الشغرة التي تفصل بين أعضاء الجماعات اليهودية والأوطان التي يعيشون في كنفها ، وذلك من حيث هم أفراد يدينون بالولاء لوطنهم الأصلي . كما تحاول الحركة الصهيونية تعميق الهوية الإنشائية لدى اليهود ، وهي هوية وهمية (حيث لا توجد هوية واحدة) ولكنها مع هذا تنجح في فصلهم عن محيطهم الحضاري . وتلعب مدارس أعضاء الجماعات اليهودية دوراً أساسياً في هذا المضمار . وقد قامت مدارس الأليانس بتحويل يهود الشرق إلى مادة استيطانية .

ورغم اندماج كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم الجديدة ، إلا أنهم استقروا في قطاعات اقتصادية يمكن أن نسميها حدودية (السينما - صناعات خفيفة قريبة من المستهلك . . .) وابتعدوا عن الصناعات الثقيلة والزراعة ، وهذا يحدث للمهاجر الذي يأتي إلى بلد قد تم تأسيس بنيته التحتية ويملكها أبناء البلدة أنفسهم . ويلاحظ وجود أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في الحركات اليسارية (خصوصاً

ويوجد أعضاؤها خارج نطاق مؤسسات صنع القرار ، الأمر الذي كان يعني ، من وجهة نظر الصهاينة ، توقف مسار ما يُسمى «التاريخ اليهودي» . وقد انعكست الظاهرة أيضاً في ازدواج الولاء عند اليهودي ، فهو نظراً لافتقاره إلى وطن قومي خاص به يضطر إلى أن ينتمي إلى مجتمعات غريبة يحاول أن يندمج فيها . ولكن نزعة القومية الحقيقية تستمر ، مع هذا ، في التعبير عن نفسها رغم أنه ، فينقسم على نفسه وتتنازع الولاءات المتناقضة . وقد عبّر المؤرخ الصهيوني العمالي دوف بير بوروخوف عن القضية نفسها بطريقة أخرى إذ لاحظ أن الهرم الاجتماعي عند اليهود مشوه تماماً . فبدلاً من وجود قاعدة عريضة من العمال والفلاحين والطبقات المنتجة ، وقلة من المفكرين والأطباء والمحامين والوسطاء ، كما هو الحال في معظم المجتمعات ، نجد العكس تماماً عند اليهود . فالهرم الإنتاجي عند اليهود مقلوب رأساً على عقب إذ أن معظم اليهود من الوسطاء . وغني عن القول إن السمات الشاذة التي تسم أعضاء الجماعات اليهودية هي في واقع الأمر السمات الأساسية لأية جماعة وظيفية ، ومن ثم فهي تمثل ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة لا تتسم بأي شذوذ . ولكن المعادين لليهود والصهاينة يرونها كذلك لأنهم يعزلون أعضاء الجماعات اليهودية عن محيطهم الحضاري والاجتماعي وينظرون إليهم من خلال نماذج اختزالية لا علاقة لها بوضعهم المتعین ، ثم يحكمون عليهم بالشذوذ .

وقد طرح الصهاينة رؤيتهم للمجتمع اليهودي المثالي (المجتمع الصهيوني) كجزء من مشروع حضاري متكامل يهدف إلى تطبيع الشخصية اليهودية ، أي تخليصها من شذوذها المزعوم ، وذلك بتحويل اليهود إلى أشخاص طبيعيين يتجسسون ويستهلكون ويتحكمون في مصيرهم السياسي ويشعرون بالولاء نحو دولتهم ، شأنهم في هذا شأن البشر كافة .

وغني عن القول أن مفهوم شذوذ الشخصية اليهودية مفهوم محوري في أدبيات معاداة اليهود ، خصوصاً في الفكر النازي . لكن حل المشكلة بالنسبة إلى النازيين ليس إصلاح الشخصية اليهودية وإنما التخلص منها بأي شكل ممكن ؛ عن طريق إرسالهم عبر الحدود إلى بولندا باعتبار أن أغليبيتهم كانت من يهود شرق أوروبا ، أو عن طريق إبادتهم . وقد كانت استجابة الصهاينة لعملية الإبادة نابعة من هذا الإيمان بشذوذ يهود أوروبا . فحينما طلب بعض يهود أوروبا عام ١٩٤٢ من يتسحاق جرونيباوم (أحد أعضاء النخبة الصهيونية في فلسطين) بأن يقوم المستوطن الصهيوني باتخاذ خطوات لإيقاف الإبادة ، أخبرهم بأن « من الضروري التخلص من وضع اليهود غير

التاسع عشر الميلادي وحسب ، لأن الدور اليهودي (الوظيفي التجاري المالي) في المجتمعات الزراعية التقليدية في الغرب كان دوراً حيوياً ، إذ اضطلع أعضاء الجماعات اليهودية بوظيفة أساسية في المجتمع رغم أنها لم تكن جزءاً من العملية الإنتاجية الرئيسية . أما الوجود اليهودي في العالم الإسلامي فلم يكن هامشياً قط ، حيث تفاعلوا في محيطهم الحضاري واصطغروا به فأبدعوا من خلاله وانخرطوا في سائر المهن والوظائف . كما أن الوجود اليهودي في الولايات المتحدة لم يكن أبداً هامشياً وإنما كان في صميم المجتمع ذاته من البداية . كما لا يمكننا استخدام مصطلح «هامشي» لوصف الوجود اليهودي في فرنسا أو إنجلترا أو روسيا السوفيتية (سابقاً) ، فالبناء الوظيفي لأعضاء الجماعات اليهودية في كل هذه البلاد لم يعد متميزاً كما كان الأمر سابقاً . وإذا كان ثمة تميز ، فإنه يعود لكون الجماعة اليهودية أقلية أو جماعة وظيفية وليس لأنها يهودية . وإذا كان هناك أي وجود هامشي غير منتج حتى الآن ، فهو وجود الدولة الصهيونية الوظيفية المموّلة من الخارج التي أسست على أرض الفلسطينيين وحوّلتهم إلى عمالة رخيصة وتستمر في قمعهم وإجهاض تطلعاتهم وأحلامهم المشروعة .

شذوذ اليهود

Abnormality of the Jews

«شذوذ اليهود» مصطلح شائع في الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود ويشير إلى بعض السمات التي توصف بأنها غير طبيعية ، والتي يُفترض أنها تسم أعضاء الجماعات اليهودية الغربية ، والتي يمكن إزالتها عن طريق إصلاح اليهود أو تحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج أو عن طريق دمجهم أو تطبيعهم . ويرى الصهاينة أن وجود اليهود في المنفى والشتات (أي خارج فلسطين) حالة شاذة تسبب شذوذاً للشخصية اليهودية . وبالفعل ، وجه الصهاينة سهام نقدهم إلى هذه الشخصية المريضة الشاذة غير السوية .

ولشذوذ الشخصية اليهودية ، من وجهة نظرهم ، مظهران أساسيان : أحدهما اقتصادي والآخر سياسي . أما المظهر الاقتصادي ، فيتبدى في اشتغال اليهود بأعمال السمسرة والمضاربات والأعمال الهامشية غير المنتجة ، مثل : التهريب والأعمال المالية والاتجار في العقارات وتجارة الرقيق الأبيض والتسول ، بينما يتمثل المظهر السياسي فيما يُطلق عليه إشكالية العجز وعدم المشاركة في السلطة . فالصهاينة يرون أن اليهود ، بعد تحطيم الهيكل ، أصبحوا جماعات مشتتة ليس لها سيادة مستقلة ،

بالمجتمعات التي يعيشون في كنفها . والكلمة مرادفة لكلمات أخرى مثل «هامشية» أو «شذوذ» أو تشتت معهما في بعض المعاني والإيحاءات .

ولعل وصف أعضاء الجماعات اليهودية بالطفيلية يعود إلى كونهم جماعة وظيفية وسيطة موقعها عند حافة المجتمعات وفي الشقوق ، وهو وضع استمر في شرق أوروبا ووسطها حتى بداية القرن العشرين . فالجماعة الوظيفية الوسيطة تتركز في الأعمال غير الإنتاجية وتحقق أرباحاً عالية دون أن تنتج شيئاً متعدياً أو ملموساً ، على عكس الزارع أو الصانع ، حيث كان أعضاؤها يضطلعون بوظائف مثل الربا والتجارة وتجارة الرقيق والبغاء . ولذا كان يُشار إلى اليهود باعتبارهم «الوفتمش» ، وهي كلمة ألمانية تعني حرفياً «رجال الهواء» ، ومعنى ذلك أن اليهود شعب يكسب رزقه لا من الإنتاج وإنما من الهواء أي من لا شيء . وقد وُصفت وظيفة اليهود كمرايين ، أو كجماعة وظيفية وسيطة عميلة ، بأنها كالأسفنجة يستخدمها الحاكم لامتنصاض الفائض القيمة من المجتمع ثم يعصرها لحسابه . ورغم أن الإسفنجة مختلفة عن الكائن الطفيلي ، إذ أن الكائن الطفيلي يمتص رزق الآخرين لحسابه على حين أن الإسفنجة تمتصها لحساب الآخر ، فإن الجماهير التي جرى امتصاص رزقها لم تر سوى الجزء الأول من عملية الامتنصاض . والإسفنجة والكائن الطفيلي يشتركان في أنهما دون أهمية بالنسبة إلى الجسم الذي يعيشان عليه ، بل إنهما يشكلان خطورة شديدة عليه ويهددان حياته . ولعل إدراك الجماهير لليهود في العالم الغربي في العصور الوسطى ، كجسم طفيلي أو كإسفنجة ، هو أصل تهمة الدم ، حيث يُتهم اليهود بامتصاص دماء ضحاياهم .

وقد استُخدمت كلمة «طفيلي» في الخطاب الاشتراكي الغربي لوصف اليهود والرأسماليين . فقد وصف المفكر الاشتراكي الفرنسي توسينيل اليهودي بأنه مثل البكتريا التي تنتشر بسرعة .

وظفيلية يهود العالم خارج فلسطين موضوع كامن أساسي في الأدبيات الصهيونية ذات الدعاية الاشتراكية . فقد وصف المفكر الصهيوني العمالي أهارون جوردون يهود العالم خارج فلسطين بأنهم «طفيليون» ، كما استخدم المفكر الصهيوني الألماني ماكس نوردد كلمة «البكتريا» لوصف وضع اليهود في المنفى ، واستخدمها من بعده الزعيم النازي أدولف هتلر . ومن هنا ، فإن صورة اليهودي كطفيلي صورة أساسية في الخطاب السياسي الغربي ، الرأسمالي والاشتراكي ، الصهيوني والمعادي لليهود .

وقد اقترح نوردد أن يكون حل مشكلة الطفيلية اليهودية من

العادي حتى تصبح أمة مثل الأمم كافة » ، ومن ثم يكون من الأفضل - من وجهة نظره - التخلي عن يهود أوروبا حتى لا يتعرض شيء في المُستوطن الصهيوني للخطر ، حتى ولو بضع بقرات (على حد قوله) .

ويشير بعض المحللين السياسيين إلى الدولة الصهيونية بوصفها من أكثر الدول شذوذاً وأقلها طبيعية . فاقتصادها أصبح اقتصاداً تسولياً يعتمد على الغرب ، ودرجة إنتاجية العمال فيها أخذت في التدهور ، وأصبحت صناعة السلاح من الصناعات الأساسية فيها ، كما تحوّلت هي نفسها إلى دولة شتل/ قلعة تدخل في حرب تلو حرب ، كما أنها مهددة من الداخل بالانفجار السكاني العربي . وهي توجد في الشرق الأوسط وليست منه ، وهي دولة يهودية فشلت في تعريف من هو اليهودي ، الأمر الذي يشير إلى أن بنيتها أبعد ما تكون عن الطبيعية والسواء . كما أن الإسرائيليين عادوا مرة أخرى إلى الشذوذ والهامشية إذ تخترط أعداد كبيرة منهم في أعمال السمررة والجريمة ، وأصبحت الدولة الصهيونية من أكبر مُصدّري العاهرات إلى الغرب حتى أن لغة القوادين في أمستردام (على سبيل المثال) هي إحدى الرطانات العبرية ، كما أن قطاع الخدمات غير الإنتاجي أخذ في التضخم رغم أن المواطن الإسرائيلي من أكثر المواطنين مديونية في العالم . ونحن نذهب إلى أن الدولة الصهيونية هي في واقع الأمر دولة وظيفية .

وقد طرحت الانتفاضة مرة أخرى ، وبحدة ، قضية شذوذ اليهود والدولة الصهيونية ، إذ اكتشف التجمع الصهيوني مدى اعتماده على العمالة العربية ، خصوصاً بعد أن حقق العمال اليهود من أصل شرقي (من يهود العالم الإسلامي) حراكاً اجتماعياً فتركوا قاعدة الهرم الإنتاجي ليمارسوا وظيفة الوسطاء وغير ذلك من الوظائف ، الأمر الذي ترك هذه القاعدة للعمالة العربية . وقد أدّت مقاطعة العمال العرب إلى تعطيل كثير من القطاعات الإنتاجية .

طفيلية اليهود

Parasitism of the Jews

كلمة «طفيلية» ترجمة للكلمة الإنجليزية «باراسيتزم parasitism» (من «باراسيت parasite» ومعناها «طفيل» والمأخوذة أصلاً من الكلمة اليونانية «باراسيتوس parasitos» بمعنى «يأكل إلى جانب» . وتُستخدم الكلمة للإشارة إلى الحيوان أو النبات الذي يعيش على غيره . ويستخدم المعادون لليهود مصطلح «طفيلية اليهود» لوصف ما يتصورون أنه علاقة أعضاء الجماعات اليهودية

الندمجين هم أيضاً شخصيات ممزقة هوائية غير متمتعة . ويصف الشعار الصهيوني (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) هذه الحالة الهوائية لدى الجماعات اليهودية . ويهدف المشروع الصهيوني إلى تخليص اليهود من هذه الحالة الهوائية بتوفير أرض لهم يعيشون فيها ، وتوفير هرم إنتاجي متكامل يتنمون إليه ويكون مقصوراً عليهم حتى يكون بينهم العامل والفلاح والمثقف .

وقد كان مصطلح «لوفتمنش» شائعاً في الأدبيات النازية ، ولذا قال أَيْخمان ، في معرض الدفاع عن نفسه أثناء محاكمته ، إنه كان يهدف إلى وضع قليل من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود . وقد نجح المشروع الصهيوني في توفير الأرض ، ولكنه مع هذا لم ينجح في تخليص اليهود من صفة الهوائية ، ومن ثم بدأت الكلمة تظهر مرة أخرى في الصحف الإسرائيلية إذ بدأ المستوطنون الصهاينة يتحولون إلى وسطاء ، يتركون قاعدة الهرم الإنتاجي ويظفون على قمته ويعيشون على الهواء دون عمل إنتاجي أو يدوي .

ويهدف المشروع الصهيوني إلى تحويل الفلسطينيين إلى لوفتمنش ، أي إلى رجان يعيشون في المخيمات والعراء والهواء أو إلى جماعات بشرية تعيش على هوامش المجتمعات . ولكن تحول الفلسطينيين من لاجئين إلى فدائين مجاهدين أسقط هذا المخطط الصهيوني .

المتسولون

Schnorers (Beggars)

كلمة «المتسولون» هي المقابل العربي لكلمة «شنوررز schnorers» ، وهي كلمة يديشية في صيغة الجمع مفردتها «شنورر schnorer» أي «شحاذ» أو «متسول» . وتتواتر هذه الكلمة في الأدبيات الصهيونية وفي اندراسات عن الجماعات اليهودية ، وبخاصة في القرن التاسع عشر . وتعود الظاهرة إلى العصور الوسطى مع تطبيق قانون تحرير الاستيطان (حبريم هايشيفاه) وهو قانون كان يحق بمقتضاه لكل جماعة يهودية أن تمنح أي يهودي ينتمي إلى أية جماعة أخرى من الإقامة في مدينتها إلا بضعة أيام عليه أن يغادرها بعدها . وقد أدى هذا الوضع إلى ظهور آلاف اليهود الذين لم يكن لهم حق السكنى في أية مدينة أو قرية رغم أنه كان يتعين عليهم الانتقال دائماً من مكان إلى آخر . ومن المعروف أن التجمعات اليهودية في العصور الوسطى كانت تتكون من أقلية ثرية من كبار المموكين والحاخامات وتحتها قاعدة ضخمة من المعدمين أو صغار التجار الذين كان لا يفصل بينهم وبين التسول سوى شعرة .

خلال ظهور اليهودية ذات العضلات . وبالتالي ، يمكن حل إشكالية الشعب الفلسطيني عن طريق استيطانه في فلسطين بالعرف ، والاستيلاء على الأرض ، على أن يعمل فيها بنفسه ، فيخلصها من العرب ويخلص نفسه من الطفيلية ، وهذا هو الخلاص الصهيوني . ويتواتر موضوع طفيلية اليهود في الأدب العبري الحديث وفي الكتابات الإسرائيلية ، إذ يرى كثير من المحللين الإسرائيليين أن المجتمع الإسرائيلي يسقط مرة أخرى في الطفيلية ، خصوصاً بعد أن تغلغت العمالة العربية في قطاعات المجتمع الإسرائيلي كافة ، وأن شعب الهواء بدأ يظهر مرة أخرى . كما يرون أن انتشار الجريمة ، والفساد ، وعدم الاكتراث بالإنتاج ، هي من أشكال الطفيلية .

رجال الهواء (لوفتمنش)

Luftmensch

«لوفتمنش» كلمة ألمانية تصعب ترجمتها ، ولكنها تعني حرفياً «رجال الهواء» ، وهي تصف أعضاء الجماعات البشرية الذين لا توجد أرض راسخة تحت أقدامهم وليس لديهم خبرة في أي شيء ولا مهنة أو حرفة لهم ولا يمتلكون رأس مال أو عملاً ثابتاً ، فهم يعيشون في الهواء وعلى الهواء . وكانت الكلمة تُستخدم للإشارة إلى قطاع كبير من يهود شرق أوروبا الذين يضطلمون بوظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة والذين حلت محلهم الطبقات المحلية والدولة القومية المركزية ، فأصبحوا بلا وظيفة أو مهنة أو عمل ، وتحولوا إلى باعة جائلين ومتسولين وقوادين . كما أن الكلمة تشير أيضاً إلى اشتغال اليهود بالأعمال الفكرية والمالية والتجارية ، وتشير إلى بعدهم عن الأعمال الزراعية أو الصناعية (الإنتاجية أو اليدوية) وإلى اشتغالهم كوسطاء في القطاع العقاري . وهي الظاهرة التي يُطلق عليها أيضاً «هامشية اليهود وشذوذهم وطفيليتهم» .

ويرى الصهاينة أن اليهود كافة مُعرّضون دائماً لأن يصبحوا لوفتمنش (رجال هواء) باعتبار أنهم شعب بلا أرض ، وهم للسبب نفسه شعب مُهدّد دائماً بالأخطار إذ أن الإنسان لا يمكنه أن يحيا حياة كاملة مطمئنة إلا بين جماعته وفي أرضه . بل إن حالة الهوائية الاقتصادية التي يعيشها الفرد اليهودي ليست إلا انعكاساً للهوائية التي يعيشها الشعب اليهودي ككل ، فهي التي حوكت اليهود إلى تجار ومشقفين وأبعدتهم عن الطوائف الراسخة وعن الارتباط بالأرض .

كما يرى الصهاينة أن اليهودية الإصلاحية شكل من أشكال الهوائية ، فهي معلقة بين الأرض والسماء ، ويرون كذلك أن اليهود

باعتباره وسيلة للتخلص من جيوش المتسولين أو الفائض الإنساني اليهودي (على حد قول هرتزل) .

وكان روتشيلد يرى في هرتزل أحد هؤلاء المتسولين الذين يودون الحصول على أمواله . وقد كان محقاً إلى حد ما ، فالمستوطنون في فلسطين كان كل مهمم ، في مرحلة من المراحل (قبل أن يبدأ التمويل الحكومي الغربي) ، الحصول على أكبر قسط من أموال روتشيلد . بل كان هرتزل نفسه يشير إلى المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) باعتباره جيشاً من الشحاذين يقف هو على رأسه ، وكان يخشى أن تشجع الصهيونية الخارجية التوطينية هذا الاتجاه بين اليهود .

وبالإمكان رؤية الدولة الصهيونية ، باعتمادها الكامل على التمويل الغربي ، على اعتبار أنها شنور بعد أن تم تحديث عملية التسول بحيث تتم بشكل منظم يأخذ شكل اتفاقات تضمن تدفُّ المعونات في موعدها . ويرفض المتحدثون الإسرائيليون بطبيعة الحال صورة المتسول هذه ويشيرون إلى الدور الذي تلعبه الدولة الصهيونية في حماية مصالح الغرب في المنطقة وإلى أن ما تقتاضه من معونات أقل بكثير من العائد الذي تأتي به ، أي أنهم يُحلّون صورة المملوك محل صورة الشحاذ . ولكن ، في الآونة الأخيرة ، أخذ كثير من المعلقين السياسيين الإسرائيليين في الإشارة إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة شنور أو دولة شحاذين ، وإلى الاقتصاد الصهيوني باعتباره اقتصاداً تسولياً . ونحن نرى أن هذا المصطلح يُفسَّر كثيراً من جوانب الاقتصاد الإسرائيلي . والفارق بين المتسول والدولة الإسرائيلية هو أن المتسول يأخذ ولا يعطي إلا الدعوات لصاحب الصدقة ، أما الدولة الصهيونية فتأخذ ثم تقوم بدور حيوي للاستعمار الغربي في المنطقة وهو دور كلب الحراسة ، أي دور الجماعة الوظيفية القتالية حيث تتم مقايضة المال بالقتال .

اللغات السرية لبعض الجماعات اليهودية الوظيفية

Secret Languages of Some of the Functional Jewish Communities

«اللغات السرية» هي لهجات ورموزات خاصة ، بل أحياناً لغات ، يستخدمها أعضاء الجماعات الوظيفية . وهذه اللهجة أو الرطانة أو اللغة عادةً ما تختلف عن لغة المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية . وقد كان تحدُّث هذه اللغة يُعدُّ شرطاً للانخراط في سلك الجماعة . فكان المالك يتحدثون فيما بينهم الشركسية (أو إحدى اللغات التركية) ، ويتحدث الصينيون من أعضاء الجماعات الوظيفية

وكانت أعداد كبيرة منهم تتحول إلى متسولين كل الوقت أو بعضه . بل وكانت تتداخل مهنة التسول مع مهن أخرى ، فعمل المتسولين أحياناً معلمي موسيقى أو تجاراً متجولين أو مهرجين أو حواة . وقد أخذ عدد هؤلاء في التزايد ابتداءً من القرن الثالث عشر .

وُستخدَم مصطلح «شنور» بالمعنى الضيق للإشارة إلى المتسول الذي تُلَقَّى شيئاً من التعليم الحاخامي ، وبالتالي فهو ليس متسولاً بالمعنى العادي للكلمة وإنما هو طالب للصدقة ويعتبرها حقه الطبيعي الذي يجب أن يعطيه إياه الأثرياء حتى ينالوا الخلاص . ومثل هذا المتسول المتعلم المتبجح كان يروي في العادة قصة ما تُفسَّر قيامه بالتسول ، فهو يجمع الأموال ليعود إلى تجارته بعد أن أفلس أو نيزوج قرية فقيرة . وكان هذا المتسول يظهر دائماً يوم السبت أمام المعبد وهو يعلم تمام العلم أن أعضاء الجماعة سيضطرون إلى أن يدفعوا له صدقة حتى لا يظهر وبمظهر سيئ في ذلك اليوم أمام بعضهم البعض ، وحتى لا تظهر الجماعة اليهودية ككل بمظهر سيئ أمام الأغيار . وكان لكل متسول طرق محددة يسلكها ومناطق معروفة يتسول فيها ويزورها في فترات منتظمة لا ينافسه فيها أحد . وكثيراً ما كان يتم بيع هذه المناطق لمتسول آخر (وهذا أمر مألوف بين جماعات المتسولين في كل المجتمعات والذين يشكلون جماعات قريبة الشبه من الجماعات الوظيفية) .

ومع بدايات القرن التاسع عشر ، زادت نسبة العاطلين عن العمل في أوساط اليهود وهو ما اضطرهم للتسول ، وذلك بعد أن فقدت كثير من الجماعات اليهودية في شرق أوروبا وظيفتها التقليدية ، وبعد تصاعد عمليات التحديث التي اجتثت الملايين (ومن بينهم أعضاء الجماعات اليهودية) من جذورها ، ولم توفر لهم فرصاً جديدة أو وفرت لهم فرصاً لم يستطيعوا التكيف معها ، وبعد الانفجار السكاني بين أعضاء الجماعات . وكان ١٠٪ من جميع يهود أوروبا (في العقود الأولى من القرن التاسع عشر) متسولين .

وكان تزايد حدة هذه الظاهرة يسبب كثيراً من الحرج لليهود غرب أوروبا الندمجين المستقرين ، إذ كان شرق أوروبا يقذف على بلادهم ألوفاً من يهود اليديشية الذين كانوا أساساً متسولين . وقد اضطرت بعض الجماعات اليهودية في غرب أوروبا إلى أن تمنع دخول أية عناصر يهودية جديدة فيها ، واستعانت بالحكومات ضد اليهود النوافدين . حيث كانت تصل أحياناً جماعات كبيرة من الفقراء اليهود يطالبون بالمساعدة وبالقرت كحق من حقوقهم .

وقد أدّى وصول المتسولين إلى ظهور الصهيونية التوطينية ، أي صهيونية يهود الغرب الذين لا يهتمون بالاستيطان في فلسطين إلا

في الجملة . كما كانت تترجم أسماء الأماكن حرفياً إلى العبرية فكلمة «نيويورك» مثلاً في عبارة «ذهبت إلى نيويورك» ، تصبح «أي وُنت تو يورك حاداش» I went to york hadash حيث جاءت كلمة «حاداش» بديلاً عن الجزء الأول من كلمة نيويورك «نيو» . ومعناها «جديد» .

وكان أعضاء الجماعة اليهودية يستخدمون اللغة السرية لمناقشة الأمور التي تهمهم دون أن يفهمهم أحد من المحيطين بهم ، بخاصة في الأسواق ، وهو ما كان يُسهّل عملية الغش التجاري والاحتيال ، وكثيراً ما كان اللصوص يتعلمون هذه اللغة لاستخدامها بين الناس دون أن يفهمهم أحد . فقد قام موظف بروسي بإعداد معجم عن لغة اللصوص السرية في أواخر القرن الثامن عشر ، وظهر أن كثيراً من كلمات هذه اللغة السرية ذات جذور عبرية أو أصل عبري . وقد أخذ هذا دليلاً على اشتراك أعضاء الجماعة اليهودية وتورطهم في عالم الجريمة .

وفي الوقت الحاضر ، يبدو أن كثيراً من القوادين والقائمين على تجارة الرقيق الأبيض يتحدثون لغة سرية ذات أصون عبرية ، وقد يعود هذا لوجود عدد كبير من أعضاء الجماعة اليهودية ، يعملون قوادين أو بغايا ، في هذه المهنة المشينة حتى ثلاثينيات هذا القرن ، وقد أصبحت إسرائيل مصدراً للنيغايا في أوروبا في الوقت الحاضر . ويُقال إن لغة القوادين في أمستردام قد دخلتها كلمات عبرية كثيرة . وقد كانت اليديشية تحمل أحياناً محل اللغة السرية ، وهي رطانة ألمانية دخلت عليها مفردات سلافية وعبرية ، فكان لا يفهمها سوى أعضاء الجماعة اليهودية ، فأصبحت اليديشية لغة الغش التجاري في القرن التاسع عشر ، ولذا حُرمت الحكومات على اليهود استخدامها .

الجرائم المالية لبعض أعضاء الجماعات اليهودية

Financial Crimes of Some Members of Jewish Communities

«الجرائم المالية» هي الجرائم التي يرتكبها بعض كبار الممولين ، مثل جرائم التزيف والغش التجاري والتهرب . وقد لوحظ ازدياد نسبة ارتكاب مثل هذه الجرائم بين أعضاء الجماعات اليهودية ، عن النسبة العامة السائدة في المجتمع . ومن المعروف أن هذه الجرائم انتشرت بين أعضاء الجماعات اليهودية في القرن التاسع عشر إلى درجة اضطرت معها الحكومات إلى استصدار تشريعات خاصة . ويبدو أن تركز أعضاء الجماعات اليهودية في القطاع التجاري (في

الوسيلة في جنوب آسيا لغتهم ، ويتحدث العرب في أفريقيا لغتهم العربية . أما أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة من اليهود في شرق أوروبا ، فكانوا يتحدثون اليديشية . ويلاحظ أن بعض أعضاء النخبة الحاكمة المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ كانوا يتحدثون التركية (أو العربية المطعمة بالتركية) كمظهر من مظاهر التميز والعزلة والانتماء للجماعة الوظيفية الحاكمة . وهذا هو مصدر النمط السائد في الكوميديا المصرية بعد الثورة - المصري/ التركي متفتخ الأوداج المتعجرف ، الذي يتحدث هذه اللهجة كإحدى علامات التميز . ولكن تعجرفه ليس له ما يساند في الواقع ، فهو عضو جماعة وظيفية حاكمة فقدت وظيفتها . ويبدو أن التحدث بإحدى اللغات الأوربية بين أعضاء النخب الحاكمة والثقافة في العالم الثالث (والتي تحولت إلى ما يُشبه الجماعة الوظيفية التي تخدم مصالح الاستعمار والنظام العالمي الجديد) قد أصبح هو الآخر رمز الانتماء للجماعة الوظيفية ، فالتحدث بهذه اللغة يبين كفاءته ، وهو في الوقت نفسه يعزل نفسه عن الجماهير التي لا تتحدث سوى لغة الوطن !

واللغة ، من ثم ، هي وسيلة من وسائل الفصل بين الجماعة وأعضاء المجتمع المضيف ، وأداة للتواصل بين أعضاء الجماعة . ولعل في إصرار الصهاينة على أن تكون لغة الدولة الصهيونية هي العبرية وليس الإنجليزية لغة القوي الإمبريالية العظمى ، أو الإسبرانتو اللغة التي طورها اليهودي الروسي زامنهوف على أمل أن تكون لغة عالمية ولغة يتحدث بها المستوطن الصهيوني (إدراكاً من جانبهم لطبيعة الدولة الصهيونية باعتبارها دولة وظيفية .

ومن الأشكال المتطرفة للغات الجماعات الوظيفية اللغات السرية ، فالعوالم والنشالون ، على سبيل المثال ، لهم لغاتهم السرية ، وهي في الغالب رطانة تركيبها هو تركيب اللغة الشائعة في المجتمع مع إضافة مفردات لغوية لا يعرفها إلا عضو الجماعة الوظيفية . وللغة السرية فائدة مباشرة إذ تُسهّل عملية أداء الوظيفة ، وهي وظيفة مشينة في العادة ، ومن ثم تصبح اللغة السرية من علامات الهامشية .

وقد استخدم أعضاء الجماعات اليهودية هذه الآلية للتواصل . وكانت لغاتهم السرية تتكون في العادة من جمل باللغة المحلية تحتوي على كلمات عبرية تُعالج حسب قواعد اللغة المحلية ، فكلمة «أكل» مثلاً كلمة عبرية بمعنى «أكل» ، فإن كان المتحدث اليهودي يتحدث بالإنجليزية فإنه يُعبر عن معنى أنه «قد أكل بالفعل» على النحو التالي : «هي هاز أوريدي أخلد He has already akhaled» . ولا تُعبر هذه الكلمات الداخلية إلا عن الأجزاء المهمة من الأسماء أو الأفعال

السلطات المالية في دول عديدة ، وأثار قلق الدوائر المالية السويسرية الحريضة على صورتها وسمعتها العالمية . وانهارت شركته بعد أن انخفضت قيمة بعض الأصول المهمة المملوكة لها وهبطت سوق الأوراق المالية الأمريكية التي كانت أغلب أموال الشركة مستثمرة فيها . كما نجحت السلطات المالية السويسرية في اتخاذ إجراءات قانونية ضده ، فسُجن لمدة عام ثم أُطلق سراحه بكفالة مالية .

وقد كانت تربط كورنفلد علاقة بشخص ساهم في دفع كفالته يُدعى تيبور بنحاس روزنباوم ، والذي تورط هو الآخر في قضية مالية كبرى . وروزنباوم يهودي سويسري من أصل مجري ، كان والده حاخاماً (كما درس هو أيضاً ليصبح حاخاماً) . وخلال الحرب العالمية الثانية ، عمل روزنباوم في المقاومة المجرية ، وشارك في تهريب اليهود . وبعد الحرب ، عمل لصالح الوكالة اليهودية ، واشترك في عمليات تهجير وتوطين اليهود في فلسطين . كما كان عضواً في المؤتمر اليهودي العالمي وفي حركة مزارحي الدينية الصهيونية . وعقب إقامة دولة إسرائيل ، أسس روزنباوم شركة تجارية سويسرية - إسرائيلية .

وكان روزنباوم قد أسس مصرفاً في سويسرا باسم «إنترناشيونال كريديت بنك» اعتمد على الإدعاءات السرية لأموال غير معلومة المصدر من اليهود الفرنسيين والمافيا الأمريكية . وكان يتم تحويل هذه الأموال عن طريق فرع المصرف في جزر البهاما . وقد استخدم روزنباوم مصرفه لتحويل بعض الأموال لشركة كورنفلد . كما قدّم المصرف خدمات مالية لإسرائيل حيث يُقال إنه دبر قرضاً لوزارة الدفاع الإسرائيلية قيمته ٧ ملايين من الدولارات خلال ٢٤ ساعة وتلقّى مقابل ذلك عمولة قدرها نصف مليون دولار . وفي الوقت نفسه اشترك روزنباوم في تمويل بعض الشركات الإسرائيلية ومن بينها شركة «إسرائيل كوربوريشن» الذي كان عضواً في مجلس إدارتها ، وهي شركة استثمارية أسسها مجموعة من أثرياء اليهود في مقدمتهم البارون إدموند دي روتشيلد الذي ترأس مجلس إدارتها . وقد ترأس الشركة إسرائيلي يُدعى مايكل تسور . وقام روزنباوم وتسور ، معاً ، بتحويل عشرين مليون دولار من أموال الشركة إلى مصرف روزنباوم في سويسرا دون تفويض من المساهمين أو الأشخاص المعنيين . وقام روزنباوم بتحويلها بدوره إلى إمارة ليختنشتاين ، واستخدم الأموال في بعض مشاريعه الخاصة . أما تسور ، فكان يتلقى فائدة قدرها ٨٪ على هذه الأموال ، بينما كان يدفع للمستثمرين في الشركة ٦,٥٪ فقط ويضع الفارق في جيبه . وقد كشف إدموند دي روتشيلد النقاب عن هذه العمليات وهذه

المجتمع التقليدي) ساعد على ذلك ، فهو قطاع لم يكن يعرف نظام الضرائب ، ولم يكن يرتبط بشبكات الرأسمالية الرشيدة من مصارف ووسائل نقل وغيرها . ولذلك ، كان التهريب من الضرائب ، وتهريب البضائع ، جزءاً عضوياً في مثل هذا النشاط التجاري . كما أن تركّز كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في المناطق الحدودية والمدن شجع على هذا الاتجاه . ومن المعروف أن اللغة اليديشية التي تُكتب بالحروف العبرية ، والتي لا يعرفها سوى التجار اليهود ، أصبحت تشبه اللغة السرية التي يستخدمها اللصوص ، وأصبحت بذلك من أهم وسائل الغش التجاري . ولهذا حظرت الحكومات الغربية على التجار اليهود استخدامها في معاملاتهم التجارية . وقد استمر هذا النمط إلى العصر الحديث ، فنجد أن نسبة جرائم الغش التجاري والتهريب التي ارتكبتها أعضاء الجماعات اليهودية في بولندا وروسيا ، وفي ألمانيا وهولندا ، تصل إلى ضعفي أو ثلاثة أضعاف نسبتها بين أعضاء الأغلبية . وفي الاتحاد السوفيتي ، لوحظ في الستينيات أن حوالي ٥٠٪ من الجرائم المالية ارتكبتها أعضاء الجماعات اليهودية الذين كانت نسبتهم لا تزيد عن ٢٪ من عدد السكان . ويبدو أن أعضاء الجماعات اليهودية لهم دور ملحوظ في توزيع المخدرات في الولايات المتحدة والدول الغربية . ولا تزال تظهر من أونة إلى أخرى قضية مالية ضخمة بتورط فيها أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ .

وقد شهدت أواخر القرن التاسع عشر واحدة من أهم فضائح الفساد المالي والسياسي التي هزت المجتمع الفرنسي ، وهي القضية الخاصة بانهيار شركة قناة بنما ، والتي اعتُبرت آنذاك أكبر سقطة مالية في تاريخ فرنسا ، حيث راح ضحيتها أكثر من ٨٠٠ ألف مواطن فرنسي من المساهمين في الشركة . وقد تورط في هذه القضية التي عُرفت باسم «قضية بنما» ثلاث شخصيات يهودية هم : البارون جاك دي رابناخ (الوكيل المالي للشركة) ، والفرنسي ليوبولد إميل أرتون ، والأمريكي كورنيليوس هرتز .

وفي القرن العشرين ، تعددت الفضائح المالية التي تورطت فيها شخصيات يهودية . ففي السبعينيات ، أسس الأمريكي برنارد كورنفلد مؤسسة استثمار أموال مشتركة في سويسرا باسم «انفستورز أوفريسير سيفيسيز» ونجح في جذب مستثمرين من أكثر من مائة دولة بلغت قيمة أموالهم المودعة لدى شركته مليار دولار . ولم تجتذب شركته هذا الحجم من الأموال بفضل خبرتها في إدارة الأموال ولكن بفضل خبرتها في تهريب الأموال والعملات ، وبخاصة من دول العالم الثالث . وقد اكتسب كورنفلد عداء كثير من

أسسها يهود ألمان عام ١٩٠١ في ألمانيا ثم في الولايات المتحدة عام ١٩١٤ ، وتدرج بها ريتش سريعاً ، وكان أول من أدخل الشركة مجال تجارة البترول في أواخر الستينيات وحقق لها أرباحاً ضخمة عقب ارتفاع أسعار البترول عام ١٩٧٣ . ولكنه ترك الشركة ، في عام ١٩٧٤ ، إثر خلافات مع الإدارة وأسس شركة خاصة به في سويسرا هي مارك ريتش وشركاء التي أصبحت ، خلال فترة وجيزة ، من أكبر الشركات العاملة في مجال تجارة السلع ، خصوصاً البترول والمعادن ، وتُدرت ثروتها عام ١٩٨١ بنحو ٢٠٠ مليون دولار . وقد نجح فرع شركته في الولايات المتحدة في تحقيق إيرادات بلغت ١٠٥ ملايين دولار من خلال الائتلاف حول بعض القوانين الخاصة بضبط أسعار البترول والتي أدخلتها الحكومة الأمريكية عام ١٩٧٣ لحماية صناعة التكرير الأمريكية من الارتفاع المفاجئ في الأسعار . ثم قام ريتش بإخفاء وتهريب أرباحه إلى خارج البلاد من خلال سلسلة من الصفقات المتتوية حتى يتهرب من دفع مبلغ ٤٨ مليون دولار هي قيمة الضرائب المستحقة عليه للحكومة الأمريكية . وقد وُجّهت إليه عام ١٩٨٢ اتهامات بالتهرب الضريبي وأيضاً بالانحياز مع العدو حيث قام بشراء بترول إيراني أثناء أزمة الرهائن الأمريكية عام ١٩٨٠ بعد أن كانت الحكومة الأمريكية قد أصدرت قراراً بمنع الشركات الأمريكية من التعامل مع النظام الإيراني . إلا أن ريتش فرّ إلى سويسرا بعد أن أغلق فرع شركته في الولايات المتحدة ، ولا تزال شركته تزاوّل نشاطها من سويسرا في السوق العالمي .

ويلاحظ تورط بعض أعضاء الجماعات اليهودية بشكل ملحوظ في الفصائح الخاصة بسوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة . ومن بين الذين تورطوا في مثل هذه الانحرافات الأمريكي اليهودي لويس وولفسون الذي سطع نجمه في عالم المال خلال الخمسينيات والستينيات ، حيث حقق أول مليون له في سن الثامنة والعشرين من خلال تجارة الخردة ، ثم اتجه إلى شراء الأسهم والحصص في العديد من الشركات وقام ببناء وتطوير شركة «ميريت شايان أند سكوت كوربوريشن» التي اعتُبرت أولى الشركات الضخمة متعددة النشاطات . ولكن كثيراً من عمليات وولفسون ، لا سيما تلك المتعلقة ببيع وشراء الأسهم ، كانت مخالفة للقوانين الخاصة بهذه العمليات الأمر الذي أوقعه في مواجهات عديدة مع هيئة الأوراق المالية والبورصة الأمريكية التي كانت تسعى إلى الحد من تزايد معدلات الجرائم المالية ، كما كانت تسعى إلى إدانة أحد رموزها البارزين مثل وولفسون لردع المنحرفين في قطاع المال . وقد نجحت الهيئة بالفعل في إدانة وولفسون وحُكم عليه بالسجن لمدة عام

بوقف إنفاقاته الخيرية في إسرائيل إذا لم يتم إجراء تحقيق شامل في الأمر . وقد أُدين تسور بأربع عشرة تهمة ، وحُكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عاماً . وفي سويسرا ، أغلق مصرف روزنباوم ، الذي سُجن ثم أُفرج عنه بكفالة مالية قيمتها مليونان من الدولارات وهي أعلى كفالة في تاريخ سويسرا .

وقد ارتبطت بعض الأسماء اليهودية بالفضيحة الخاصة بمصرف أميركان بانك أند تروست كومباني أوف نيويورك الذي اعتُبر سقوطه رابع أكبر إفلاس مصرفي في التاريخ الأمريكي . وقد تأسس هذا المصرف عام ١٩٢٩ في نيويورك على يد بنك مكسيكي ، ثم انتقلت ملكيته عام ١٩٦٣ إلى بنك إسرائيلي - سويسري ، ثم انتقلت في أواخر الستينيات إلى ثري من شيلى يدعى خوزيه كلاين ، وأخيراً إلى ديفيد جرافير وهو يهودي أرجنتيني ثري من أصل بولندي . وقد نجح هذا المصرفي في جذب كثير من رجال الأعمال وأثرياء اليهود الأمريكيين ، كما ارتبطت به شخصيات أمريكية سياسية مهمة . ونجح البنك أيضاً في جذب أموال أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية حيث بلغ حجم أموالهم المودعة لدى البنك حوالي ٤٠ مليون دولار في منتصف السبعينيات . ولكن ، في عهد كلاين ، بدأ المصرف في ارتكاب عدة مخالفات مثل التجاوز في منح التسهيلات وتجاوز سقفها ومنح القروض لشركات يمتلك المسئولون في المصرف حصصاً فيها ، الأمر الذي اضطرت معه السلطات المالية الأمريكية المختصة إلى وضع المصرف تحت رقابتها . ولكن يبدو أن الاعتبارات السياسية حالت دون اتخاذ أية إجراءات ضده . وعند انتقال ملكية المصرف إلى جرافير ، عمل هو الآخر من خلال سلسلة من العمليات المتتوية على نهب المصرف وإفراغه من ملايين الدولارات وسلب أموال المودعين وودائعهم . وحينما بدأ أمره يفتضح ، لقي جرافير مصرعه فجأة إثر سقوط طائرته فوق المكسيك عام ١٩٧٦ في حادث يحيط به الكثير من الغموض ، حيث أثّرت التكهّنات حول احتمالات أن يكون قد اغتيل . وقد أغلقت السلطات المالية الأمريكية المصرف بعد أن نهب جرافير منه ٥٠ مليون دولار ، وبعد أن فقد كثير من مودعيه من أعضاء الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية أموالهم .

أما مارك ريتش ، الذي تورط في أكبر فضيحة تهرب ضريبي في تاريخ الولايات المتحدة ، فهو يهودي أمريكي وكّد في بلجيكا عام ١٩٣٤ من أبوين من أصل ألماني ، وفرنّت أسرته إلى الولايات المتحدة عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية . وقد انضم ريتش في سن مبكرة إلى شركة فيليب برادز ، وهي شركة تعمل في تجارة السلع

اتهامات باللجوء إلى أساليب غير مشروعة مثل الرشوة والابتزاز والتلاعب في الأسعار لتشجيع أو إجبار بعض المؤسسات المالية على شراء سندات والتعامل فيها . وقد فُرضت على ميلكن غرامة قدرها ٦٠٠ مليون دولار وتُعدُّ أعلى غرامة من نوعها تُفرض ضد شخص في الولايات المتحدة ، كما حُكم عليه ، في عام ١٩٩١ ، بالسجن لمدة عشر سنوات .

ويمكن الإشارة أيضاً إلى الفضيحة الخاصة بمؤسسة سالومون براذرز ، وهي ثالث أكبر مؤسسات الاستثمار والخدمات المالية في الولايات المتحدة وحققت هذا المركز بفضل إدارة جون جوتفروند رئيس مجلس إدارتها ورئيسها التنفيذي والملقب بـ «ملك وول ستريت» . وقد تبين عام ١٩٩١ أن مؤسسة سالومون انتهكت القواعد الفيدرالية الخاصة بالتعامل في سندات الخزنة الأمريكية التي تحظر على أية مؤسسة مالية شراء أكثر من ٣٥٪ من السندات المطروحة في مزاد واحد . ويهدف هذا الإجراء إلى تجنب الاحتكار في سوق السندات الحكومية التي يصل حجم التعامل فيها إلى ٢,٢ تريليون دولار . كما تكتشف أن مؤسسة سالومون اشترت ما يزيد على نسبة قدرها ٥٠٪ من السندات المطروحة في عدة مزادات خلال عام ١٩٩١ حيث قدمت بعض عروضها بأسماء عملائها دون الحصول على تفويض منهم . واستقال جوتفروند من منصبه عقب تَجَرُّ الفضيحة وبدء التحقيقات .

ومن أهم الفضائح المالية وأكثرها إثارة ، الفضيحة الخاصة بـ روبرت ماكسويل اليهودي البريطاني الذي أقام إمبراطورية إعلامية ضخمة والذي تُوفي في ظروف غامضة عام ١٩٩١ ودُفن في إسرائيل . فقد أقام ماكسويل نحو ٤٠٠ شركة أغلبها مسجل في إمارة ليختنشتاين حيث تتوافر قوانين السرية ، ونجح من خلال هذه الشبكة المتداخلة في إخفاء حقيقة الأوضاع المالية لإمبراطوريته التي كانت تنوء تحت ثقل الديون وفي إخفاء بعض عملياته غير المشروعة . وقد تكتشف عقب وفاته أنه حوّل أكثر من ٧٠٠ مليون جنيه إسترليني أو ١,٢٧ بليون دولار من صناديق التقاعد في مجموعة شركاته العامة «ميرور جروب» لمساندة إمبراطوريته الإعلامية المتهاوية وتغطية خسائر شركاته الخاصة . كما تبين أنه احتال على مؤسسة مالية سويسرية للحصول على قرض قيمته ١٠٠ مليون دولار ، وأنه استخدم الأصول نفسها لضمان أكثر من قرض . والواقع أن هذه الفضيحة ، التي وُصفت بأنها أكبر فضيحة من نوعها في بريطانيا في هذا القرن ، قد أكسبته لقب «محتال القرن» ، وزادت التكهّنات القائلة بأن ماكسويل مات منتحراً ، فلو أنه ظل حياً لاستدعى ذلك

سنة ١٩٦٩ . وُصِّت شركته وتفتتت إمبراطوريته بعد أن كلفتها إجراءات التقاضي مع الحكومة ، والدعاوى التي أقامها ضده المساهمون في شركته ، الملايين من الدولارات .

ومن أكبر الفضائح المالية التي هزت أركان وول ستريت (سوق المال في نيويورك) فضيحة إيفان بويسكي ، وتتلخص جريمته في الحصول مسبقاً على معلومات حول نية بعض الشركات بخصوص بيع أسهمها من مصادر وثيقة الصلة قبل أن يتم الإعلان عن نية البيع للجمهور واستخدام هذه المعلومات لتحقيق المكسب والربح . وقد حقق بويسكي ، الذي كان يمتلك مؤسسة متخصصة في المضاربة في أسهم الشركات التي يوشك أن يستولي عليها ، في الفترة بين ١٩٨٤ و ١٩٨٦ أرباحاً بلغت ٥٠ مليون دولار من خلال الحصول على معلومات مسبقة حول نوايا الاستيلاء على بعض الشركات حيث كان يقوم بشراء أسهمها ثم أعاد بيعها بعد أن تقفز أسعارها عقب الإعلان عن هذه المعلومات . وقد فُرضت على بويسكي غرامة قدرها ١٠٠ مليون دولار وحُكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات مع حرمانه مدى الحياة من المتاجرة في سوق الأوراق المالية الأمريكية .

وقد فتحت فضيحة بويسكي الباب على مصراعيه لأكبر قضايا جرائم ذوي الباقات البيضاء في التاريخ الأمريكي حيث كشفت التحقيقات عن تورط واحدة من أكبر المؤسسات الاستثمارية في وول ستريت (وهي دريكسل بورنام لامبيرت) وأحد نجومها ونجوم وول ستريت (وهو مايكل ميلكن) في انحرافات بويسكي حيث قاما بتقديم معلومات تتصل بنوايا عملائهم إلى بويسكي ، واقتسام الأرباح معه . كما تكشف قيامهم بمخالفات وانحرافات مالية خطيرة ، منها الاحتيال واستخدام أساليب ملتوية لإخفاء الملكية الحقيقية للأسهم والأوراق المالية بغرض تمرير صفقات غير مشروعة . وكان ميلكن ، الذي قُدِّرَت ثروته عام ١٩٨٨ بنحو مليار دولار ، قد أسس سوقاً ضخمة لما عُرف باسم «سندات الخردة» وهي سندات ذات عائد عال ومخاطر عالية في الوقت نفسه ، وكانت تطرحها عادة الشركات التي تعاني من أزمات مالية . وقد نجح ميلكن في خلق سوق ضخمة لهذه السندات وصل حجم التعامل فيها خلال الثمانينيات إلى ١٢٠ مليار دولار ، وذلك من خلال استخدامها كأداة لتدبير التمويل اللازم للشركات الصغيرة ومتوسطة الحجم وتمويل عمليات الاستيلاء على الشركات . كما خلق ميلكن شبكة واسعة ومتداخلة من المتعاملين في هذه السندات واستطاع من خلالها أن يسيطر ويتلاعب في حجم تداولها وأسعارها . ووجّهت إليه

كثير من الفضائح المالية ، فإن هذه الجرائم والانحرافات المهنية ذاتها هي جرائم وانحرافات شائعة في المجتمعات الرأسمالية ، بين اليهود وغير اليهود ، وانعكاس مباشر لآليات هذه المجتمعات التي تحكمها اعتبارات القوة والمال ويسودها الصراع والتنافس الشديدين وتكثر بها الشغرات التي يمكن استغلالها والتحايل من خلالها على القوانين والتشريعات لتحقيق المكسب والربح . ويجب ملاحظة أن جرائم الغش التجاري التي يرتكبها أعضاء الجماعات اليهودية لا يمكن تفسيرها بأنها جزء من الممارسة اليهودية الأرية لإفساد أخلاق الأغيار ، فكثير من ضحايا جرائم الغش التجاري التي يرتكبها اليهود من اليهود (كما هو الحال في حالة جرافبير وبيرجمان) ، فالغش التجاري في عصر الرأسمالية الرشيدة يتم بالرشد وبعدم التمييز بين البشر على أساس الدين أو اللون أو الجنس ، فهو غش مجرد لا شخصي ، تماماً مثل رأس المال المجرد .

تهريب البضائع وأعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة

Smuggling and the Jewish Communities in the U.S.A.

يوليسيس جرانت (١٨٢٢ - ١٨٨٥) هو قائد الجيش الأمريكي الشمالي ضد الجنوب خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، والرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ما بين عامي ١٨٦٩ و ١٨٧٧ . أصدر عام ١٨٦٢ ، خلال الحرب الأهلية ، الأمر رقم ١١ بشأن طرد أعضاء الجماعة اليهودية خلال أربع وعشرين ساعة من جميع المناطق الخاضعة لسلطاته العسكرية . ويُعتبر هذا الأمر هو الوحيد من نوعه في التاريخ الأمريكي الذي شمل أعضاء الجماعة اليهودية على هذا النحو السلبي . وكان السبب الرئيسي وراء هذا الأمر هو تورط بعض أعضاء الجماعة اليهودية في عمليات التهريب التي كانت جارية بشكل مكثف عبر الخطوط العسكرية بين قوات الشمال وقوات الجنوب . وقد كانت حكومتا الشمال والجنوب تتفاوضان إلى حد ما عن عمليات التهريب حيث كانتا تسدان من خلالها بعض احتياجاتهما ، كما كان بعض ضباط الجيشين متورطين في هذه العمليات . إلا أن تزايد حجمها واتساع نطاقها أدى إلى إصدار هذا الأمر . ورغم أن كثيراً من الأدبيات اليهودية تفسر أمر جرانت هذا بأنه شكل من أشكال معاداة اليهود ، وأنه أصدره استناداً إلى معلومات خاطئة زوّده بها بعض التجار من غير اليهود الذين كانوا يقومون بعمليات تهريب (وكان متورطاً معهم فيها بعض ضباط الجيش) ، إلا أن الدلائل تشير إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا بالفعل مُعتقلين بشكل متزايد في عمليات التهريب ، وربما كانوا

مثوله أمام القضاء بتهمة الاحتيال والسرقة والتزوير . كما أن هناك احتمال أنه لم يتحرر وإنما تم اغتياله على يد الموساد .

ومن أهم الفضائح التي تورطت فيها شخصيات يهودية ، الفضيحة الخاصة بمصحات وبيوت المسنين في الولايات المتحدة ، وهي فضيحة لم تقتصر فقط على التورط في أعمال التزوير والاحتيال على السلطات الحكومية ، بل تضمنت أيضاً إساءة معاملة نزلاء هذه المصحات والبيوت من المسنين . وكان أهم المتورطين في هذه الفضيحة برنارد بيرجمان الذي أطلق عليه لقب «ملك بيوت المسنين» ، حيث كان يتمتع بسيطرة شبه احتكارية على هذا القطاع وهو قطاع احتل فيه اليهود الأمريكيون النسبة الأكبر من العاملين . وقد وُكِّد بيرجمان في المجر وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٩ . وتخرج هناك في جامعة شيفيا ليصبح حاكماً أرثوذكسياً ، إلا أنه ترك العمل الديني واتجه نحو الأعمال التجارية ودخل قطاع ملاحي ومصحات المسنين وهو قطاع يتمتع بهامش ربح عالي في الولايات المتحدة . ونظراً لأن الدولة كانت تتحمل النسبة الأكبر من نفقات رعاية المسنين في إطار البرامج الحكومية المخصصة ، لجأ بيرجمان إلى تعظيم أرباحه من خلال تضخيم كشوف نفقات هذه الملاحي والمصحات المقدمة إلى الجهات الحكومية المعنية . وقد تبين من التحقيقات اللاحقة مدى حجم الإهمال والأوضاع المتردية والمعاملة اللا إنسانية التي تلقاها النزلاء المسنون وهو ما أكد وصف بيرجمان بأنه «يهودي يتولى إدارة معسكر اعتقال» (وهي إشارة إلى معسكرات الاعتقال النازية التي تعرّض فيها اليهود للإبادة) .

وما يُذكر أن بيرجمان ، شأنه شأن بويكي ، كان من كبار المساهمين في الأنشطة الصهيونية والأنشطة «الخيرية» اليهودية . وقد حرص بيرجمان على إقامة علاقات وثيقة بشخصيات سياسية أمريكية واستغلال هذه العلاقات لتسريع بعض مشاريعه أو التغاضي عن تجاوزاته ، كما أنه لم يتردد في اتهام الهيئات أو الجهات المختصة التي عارضت مشاريعه بأنها معادية لليهود ، وذلك في الوقت الذي كان يقوم فيه باستنزاف المسنين من اليهود وغير اليهود وإهدار أدميتهم تحت عباءة اليهودية . وقد بدأ التحقيق مع بيرجمان عام ١٩٧٤ حيث أُدين بتهمة الاحتيال والنصب على البرنامج الأمريكي للرعاية الصحية وبتهم الرشوة والتهرب الضريبي . وحُكم عليه بالسجن لمدة عام وأربعة أشهر وبغرامة كبيرة .

وإذا كان ميراث الجماعات اليهودية (باعتبارها جماعات وظيفية وسيطة داخل التشكيل الرأسمالي تعمل وتتركز في قطاعات التجارة والخدمات المالية والسمسرة) يفسر إلى حد كبير بروزهم في

وسياسي . وقد تورط في هذه الفضيحة ثلاث شخصيات من أعضاء الجماعات اليهودية هم : البارون جاك دي رايناخ (مصرفي ومالي من أصل ألماني والوكيل المالي للشركة) ، وكورنيليوس هرتز (طبيب أمريكي) ، وليوبولد إميل أرتون (مغامر فرنسي) .

وترجع بدايات الفضيحة إلى عام ١٨٨٨ ، حينما واجهت شركة قناة بنما أزمة مالية حادة نتيجة جملة من العوامل الطبيعية والمشاكل الفنية وسوء الإدارة التي صاحبت عملية شق القناة . وكان المخرج الوحيد أمام الشركة هو طرح سندات بانصيب لجمع الأموال اللازمة . ولكن ذلك كان يستلزم الحصول على موافقة البرلمان الفرنسي في حين كانت بعض الدوائر تؤكد أن وضع الشريك والمشروع أصبح ميثوساً منه وأن طرح سندات البانصيب لن يجدي فتيلاً .

ولذلك ، لجأت الشركة إلى رشوة بعض أعضاء البرلمان الفرنسي الذين صوتوا بالفعل لصالح مشروع البانصيب . وكان أداة الشركة في هذه العملية هو وكيلها المالي البارون جاك دي رايناخ . وكان رايناخ ، الألماني الأصل ، قد أقام مؤسسة مصرفية ومالية في فرنسا باسم «كون ورايناخ وشركاهما» . وجمع ليوبولد ثروته من خلال المضاربة في السكك الحديدية الفرنسية وبيع الإمدادات العسكرية للحكومة الفرنسية . ويبدو أن بعض عملياته قد أحاطتها الشبهات وإن لم يتأكد أبداً أنه ارتكب أية انحرافات . وكانت مهمة رايناخ إقامة لوبي (جماعة ضغط) مؤيدة للشركة في الأوساط البرلمانية والسياسية والصحفية وتلقًى من الشركة ملايين الفرنكات لدفع الرشاوى وشراء الأصداقاء .

وقد قام رايناخ باستخدام ليوبولد إميل أرتون (١٨٤٩-١٩٠٥) ليقوم بتوزيع مليون فرنك على أعضاء البرلمان الفرنسي . والمعروف أن أرتون مغامر فرنسي وكُلد لعائلة يهودية ألزاسية وعاش طفولة تعسة في فرانكفورت ثم انتقل إلى البرازيل حيث اعتنق الكاثوليكية وغير اسمه من أرون إلى أرتون ، وفي عام ١٨٨٢ عاد إلى فرنسا والتحق بشركة الديناميت التي كانت مشاركة في عمليات شق قناة بنما . وبعد تفجّر فضيحة قناة بنما ، فرّ أرتون من البلاد بعد أن اختلس مبلغ ٤,٦ مليون فرنك من شركة الديناميت .

أما كورنيليوس هرتز (١٨٤٥-١٨٩٨) ، فقد أبرم اتفاقاً سرياً مع قناة بنما استلم بموجبه ٦٠٠ ألف فرنك مقابل استخدام نفوذه وعلاقاته لدى بعض الشخصيات السياسية الفرنسية المهمة لصالح الشركة . كما نص الاتفاق على أن يتسلم هرتز مبلغ عشرة ملايين فرنك فور إقرار مشروع البانصيب في البرلمان على أن تتم عمليات

بليعون دوراً رئيسياً فيها . ويمكن فهم هذا الوضع في إطار إدراكنا لثلاث الجماعات اليهودية كجماعة وظيفية وسيطة تتميز بخبراتها الواسعة في مجال التجارة ولا تتقيد بانتماءات أو ولاءات خارج إطار الجماعة نفسها . ومما يدل على هذا التورط المتزايد لأعضاء الجماعة اليهودية في التهريب ما عبّر عنه بعض المحاكمات الأمريكيين في تلك الفترة من قلق وتخوف بالغ إزاء اشتراك أعضاء الجماعة في نشاط التهريب والذي اعتبره (على حد قول المحاكم يعقوب بريز) تدنيساً لاسم الرب . وقد أشار هذا المحاكم في رسالة له لإسحق ليسر إلى أن أكثر من عشرين يهودياً كانوا في سجون مدينة ممفيس بتهمة التهريب . وقال إسحق ليسر نفسه في مقال له رداً على الأمر "إن جموع المغامرين الباحثين عن الربح والخسارة يحومون حول البلاد بطولها وعرضها ، كما أن بعضهم من اليهود الذين يتظاهرون بأنهم يهود صالحون في حين أنهم ليسوا كذلك" . كما قال ديفيد آينهورن : "إن على اليهود استئصال هذه الجرائم من بينهم لأنها لا تجلب سوى العار على الجماعة اليهودية بأكملها" . كما يقول آرثر هرتزبرج في كتابه **يهود أمريكا** "ليس هناك مجال للشك في أن بعض الثروات اليهودية . . تعود جذورها إلى الأرباح التي تحققت عن طريق عمليات التهريب خلال الحرب الأهلية الأمريكية" .

ومن ثم لا يمكن اتهام جرانت بمعادة اليهود ، وذلك باعتراف بعض اليهود أنفسهم حيث لم يبد جرانت ، قبل هذا الحادث أو بعده ، أي عداة تجاه أعضاء الجماعة اليهودية ، بل عمل على تعيين يهود في مراكز مرموقة خلال فترة رئاسته . كما أن الجدل الذي أثير داخل الكونجرس الأمريكي حول هذا الأمر ، انتهى برفض مشروع قرار بإلغاء الأمر ، وكان قوامه الخلافات الحزبية ، وهو ما يعني أن الاعتبارات الرئيسية كانت اعتبارات سياسية واعتبارات تتصل بمصالح الشمال في حربه مع الجنوب .

وقد ألغى الرئيس لنكولن القرار ، في نهاية الأمر ، بعد الاحتجاجات الواسعة النطاق التي أثارها أعضاء الجماعة اليهودية ومن بينهم بعض المؤتمرين منه والمؤيدين له .

فضيحة قناة بنما

Panama Canal Scandal

من أكبر الفضائح المالية والسياسية التي هزت المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر . وهي فضيحة خاصة بانتهاب شركة قناة بنما الفرنسية وما تكشف في أعقاب ذلك من تجاوزات وفساد مالي

هجومه اللاذع ، حيث حمل « النظام الرأسمالي اليهودي » كثيراً من المشاكل التي تواجهها فرنسا الحديثة ومن ذلك كارثة بنما .

وكان من مفاجآت التحقيقات اللاحقة اكتشاف أن رايناخ (محور المؤامرة اليهودية) كان هو نفسه مصدر معلومات درومون ، حيث تبين أنه في أعقاب تفجير القضية على صفحات الجريدة أبرم رايناخ اتفاقاً مع درومون يقضي بإخراج اسمه من موضوعات الصحيفة مقابل قيام رايناخ بتوفير جميع المعلومات المتصلة بالقضية وتجاوزات الشركة . وما يذكر أن الحملة التي أثارها صحيفة درومون وغيرها من الصحف الفرنسية ضد شركة بنما كانت تتم في إطار الصراع السياسي القائم آنذاك بين القوى البينية والملكية من جهة والقوى الاشتراكية والنظام الجمهوري من جهة أخرى ، خصوصاً أن كثيراً من رجال السياسة والدولة كانوا متورطين في الفضيحة بشكل أو بآخر .

وقد تُوُفي رايناخ في نوفمبر ١٨٩٢ بشكل مفاجئ، مع بداية التحقيقات في القضية ، وأثيرت تكهنات حول مسألة وفاته حيث قيل إنه انتحر أو قُتل . أما هرتز ، فقد فرّ من البلاد إلى لندن حيث ظل فيها حتى وافته المنية وقد حُكم عليه غيابياً بالسجن لمدة خمس سنوات ، بينما ظل أرتون هارباً إلى أن تم إلقاء القبض عليه عام ١٨٩٥ . ثم تُوُفي متحرراً عام ١٩٠٥ .

ومن العسير فهم فضيحة قناة بنما إلا في إطار حركات الرأسمالية الفرنسية والنخبة الحاكمة الفرنسية والعلاقة بينهما في أواخر القرن التاسع عشر . وتبين أحداث الفضيحة وطأة الاستغلال الواقع على كل من جماهير الشعب الفرنسي وأعضاء الطبقة الوسطى . ومع هذا ، تحولت الفضيحة إلى قرينة أخرى على المؤامرة اليهودية الأزلية ، وأصبحت من أهم الأحداث التي يشير إليها المعادون لليهود في أدبياتهم . وقد ساعدتهم في ذلك أن أبطال الفضيحة كلهم من أعضاء الجماعات اليهودية ، اثنان منهم فرنسيان من أصل ألماني والثالث فرنسي هاجر إلى أمريكا ، وإن كان من العسير الحديث عن شبكة يهودية عالمية تشمل فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة . لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل ينبع غشهم التجاري من يهوديتهم أم من وجودهم داخل مجتمعات فاسدة مستغلة تساعدهم الإمكانات الفساد داخل الإنسان على التحقق ؟

سمويل صنبال (١٧٨٢-٩٠)

Samuel Sunbal

دبلوماسي مغربي يهودي عمل بالتجارة وحقق أرباحاً فيها . ثم

الدفع كلها عن طريق رايناخ . وقد كانت شخصية هرتز شخصية مشيرة للريبة والتكهنات ، فقد وُلد في فرنسا لأبوين ألمانيين ثم هاجرت أسرته إلى الولايات المتحدة . وعاد هرتز في شبابه إلى فرنسا لدراسة الطب ، وانضم كمساعد جراح في الجيش الفرنسي أثناء الحرب الفرنسية البروسية في نيويورك ولكنه ترك الجيش بعد ثلاثة أشهر بعد أن اكتشف المسئولون في المستشفى العسكري أنه لم يتخرج من أية جامعة في فرنسا ولم يحصل على شهادة إتمام دراسة الطب . وقد انتقل هرتز بعد ذلك إلى سان فرانسيسكو حيث افتتح عيادة طبية ، ولكنه سافر عام ١٨٧٧ بشكل مفاجئ مع أسرته إلى فرنسا وتبين فيما بعد أنه احتال على بعض مرضاه وزملائه من الأطباء وأخذ منهم حوالي ١٤٠ ألف دولار . وفي باريس ، استثمر أمواله بمساعدة رايناخ في بعض المشاريع ، وبدأ في بناء شبكة واسعة من العلاقات مع العديد من الشخصيات الفرنسية المهمة من بينها رئيس الدولة ورئيس الوزراء وجورج كليمنصو الذي ساهم هرتز في تأسيس وتمويل جريدته . وقد اتهم هرتز بأنه كان عميلاً لبريطانيا ، لكن ذلك لم يتأكد قط .

وقد رفضت الشركة أن تدفع له العشرة ملايين فرنك عقب تصويت البرلمان الفرنسي لصالح مشروع اليانصيب ، بدعوى أن هرتز لم يلعب في ذلك دوراً يُذكر . إلا أن هرتز نجح في أن يستترف من الشركة ملايين الفرنكات من خلال ابتزاز رايناخ الذي يبدو أن هرتز كان على علم ببعض الأسرار المشينة في حياته ومنها ما قيل من أنه باع أسرار الدولة الفرنسية إلى إيطاليا أو بريطانيا .

وبرغم موافقة البرلمان على مشروع اليانصيب ، فشل هذا المشروع عند طرحه في جمع الأموال اللازمة ، وهو ما ساعد في نهاية الأمر على سقوط الشركة وتصفيتها عام ١٨٨٩ . وكان انهيار الشركة أكبر سقوط مالي في فرنسا حتى ذلك الحين ، حيث أدّى إلى ضياع أموال أكثر من ٨٠٠ ألف من المواطنين الفرنسيين من المساهمين في الشركة .

ولم تنفجر فضيحة قناة بنما إلا بعد سقوط الشركة بثلاث سنوات ، حينما نشرت صحيفة لا ليرس بارول التي أسسها إدوارد درومون المعادي لليهود سلسلة من المقالات تحت عنوان « أسرار بنما » ادعى فيها كشف النقاب عن « المؤامرة اليهودية » وراء كارثة بنما واتهم رايناخ بالتورط في رشوة أعضاء البرلمان الفرنسي . وقد كان درومون أشد أعداء الرأسمالية المالية حيث اعتبرها « مرض فرنسا الحديثة وسبب مشاكلها » . ونظراً لارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بالقطاع المالي والمصرفي بشكل وثيق ، أصبح اليهود هدف

إحداهما مجلة دليل التليفزيون (تي . في . جايد) وهي أكثر المجلات توزيعاً في العالم وأكثرها ربحاً في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٦٩ ، باع وولتر جريدتي فلادلفيا إنكوايرر وديلي نيوز . وتقدر قيمة مؤسسة تراينجل بحوالي ٦ , ١ بليون دولار ، ويملكها وولتر وشقيقاته الخمس .

وقد اهتم وولتر بالإنفاق الضخم على المشاريع والأنشطة الخيرية من خلال مؤسسة موسى أننبرج . ويُقال إن هذا الاهتمام يرجع في الأساس إلى محاولة وولتر إزالة ما لحق بسمعة العائلة من غبار بعد قضية أبيه . كما اهتم وولتر بدعم إسرائيل حيث قدم لها بعد حرب ١٩٦٧ منحة قدرها مليون دولار . وقد عينه الرئيس الأمريكي نيكسون عام ١٩٦٩ سفيراً للولايات المتحدة لدى بريطانيا . وظلت تربطهما علاقة صداقة ، كما كان مقرباً من الرئيس الأمريكي السابق ريجان .

لستر كراون (١٩٢٥ -)

Lester Crown

مليونير أمريكي يهودي ينتمي إلى عائلة كراون الأمريكية اليهودية الثرية . وأبوه هو هنري كراون الذي وُلد لأسرة من المهاجرين من يهود اليديشية ، وعمل في عدة مؤسسات تجارية وصناعية حتى أصبح عام ١٩٢١ مديراً لشركة ماتيريل سيرفس ثم رئيساً لمجلس إدارتها . وبعد الحرب العالمية الثانية ، عمل هنري كراون مديراً لعدة مؤسسات كبيرة من أهمها شركة جنرال داينامكس التي تُعد أكبر شركة مقاولات أمريكية تعمل في مجال الدفاع .

ويملك هنري كراون مع ابنه لستر حوالي ٢٣٪ من هذه الشركة ، وتقدر ثروتهما بحوالي ١ , ١ بليون دولار . وفي السنة نفسها ، تورط لستر كراون عام ١٩٧٤ في فضيحة رشوة . وفي عام ١٩٨٥ ، اتجهت وزارة الدفاع الأمريكية إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لسحب التصريح الأمني الخاص به بسبب إخفائه عنها تورطه في الرشوة . وقد تعرضت شركة جنرال داينامكس لعدد من قضايا وفشاح الفساد .

وما يجدر ذكره ، أن شركة جنرال داينامكس ترتبط بإسرائيل من خلال علاقة التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة وإسرائيل في مجال الصناعات العسكرية الإسرائيلية . وفي عام ١٩٨٦ ، خلعت إسرائيل على لستر كراون لقب «زميل شرفي للقدس» بعد أن تبرع بمبلغ غير معروف من أجل إقامة مركز ثقافي ضخم بالمدينة .

دخل في خدمة السلطان المغربي مترجماً ومستشاراً للسلطان ، وقام بتمثيل المغرب في جميع المفاوضات مع الدول الأوروبية . ونظراً لأهمية مركزه ، حرصت الحكومة الإسبانية على منحه علاوة سنوية إدراكاً منها أنه قد يصبح عنصراً نافعاً لها ولصالحها . وقد أرسل عام ١٧٥١ كسفير للمغرب في الدغارك للقيام بمهمة خاصة . وكانت لصنبال مكانة متميزة داخل الجماعة اليهودية في المغرب ، حيث كان يُنظر إليه باعتباره رئيس اليهود (النجيد) . وفي عام ١٧٨٠ ، وُجّهت له اتهامات بتهرب العملة إلى خارج البلاد وسُجن ، ولكنه نجح في الفرار إلى جبل طارق حيث اشترك في توفير الإمدادات للقلعة التي كانت واقعة تحت الحصار آنذاك ، ثم عاد فيما بعد إلى المغرب حيث توفي في طنجة .

أما ابنه يوسف حاييم صنبال ، فقد نجح في تأكيد الحقوق والمطالب المالية لوالده في الدغارك . وكان يتميز بشخصية غير عادية . وفي عام ١٧٨٧ ، دعا إلى دين جديد يوفق بين المعتقدات الدينية المتعارضة . وقد استقر يوسف في لندن بعد ذلك حيث عُيّن عام ١٧٩٤ سفيراً للمغرب في إنجلترا . وفي عام ١٧٩٧ ، تزوج يوسف من ممثلة وصحفية مشهورة اعتنقت اليهودية كما قامت بعد اقترانهما بتسجيل الجوانب المثيرة لحياتها في سيرتها الذاتية . وقد استقر صنبال في نهاية المطاف في هامبورج حيث توفي عام ١٨٠٤ . ولا يمكن تفسير سلوك صنبال في إطار يهوديته وإنما يمكن تفسيرها في إطار وظيفيته التي جعلته غير متجذر في أي مكان أو زمان . ويظهر هذا في سيرة ابنه ودعوته إلى الدين الجديد .

موسى أننبرج (١٨٧٨-١٩٤٢)

Moses Annenberg

مليونير أمريكي يهودي بدأ حياته بائع جرائد ، ثم تدرّج داخل شبكة توزيع الصحف لمؤسسة هيرش الصحفية ، ولجأ في كثير من الأحيان إلى استخدام أساليب البلطجة ضد موزعي الصحف المنافسة . وقد نجح أننبرج في دخول مجال النشر الصحفي واشترى عام ١٩٣٦ جريدة فلادلفيا إنكوايرر وهي أقدم جريدة يومية في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٣٩ ، اتهم أننبرج مع ابنه وولتر (١٩٠٨ -) بالتهرب من الضرائب . ودخل الأب السجن بعد أن اعترف بالتهمة مقابل إسقاط التهم الموجهة ضد ابنه ، واعتُبر بذلك أكبر متهرب من الضرائب في التاريخ الأمريكي . وقد تولى ابنه وولتر رئاسة مؤسسة تراينجل للنشر عام ١٩٤٢ . وأضاف إلى المؤسسة جريدة ديلي نيوز و٦ محطات إذاعة وتلفزيون ومجلتين

إيفان بويسكي (١٩١٧ -)

Ivan Boesky

أحد أهم رجال المال اليهود في الولايات المتحدة . وهو ابن مهاجر يهودي من روسيا درس القانون في جامعة ديترويت . بدأ بويسكي يتاجر في الأسهم في وول ستريت ابتداءً من عام ١٩٦٦ ، ثم تخصص في عمليات المضاربة على أسهم الشركات التي توشك على التوسع أو الاندماج مع شركات أخرى أو توشك أن تستولي عليها إحدى الشركات الأخرى . وعادةً ما ترتفع أسعار أسهم هذه الشركات عند إعلان نوايا التوسع أو الدمج أو الاستيلاء .

ويُعدُّ بويسكي من أهم الشخصيات في المؤسسة الصهيونية

واليهودية في الولايات المتحدة ، وكان يتبرع بالملايين للحركة الصهيونية والمؤسسات اليهودية ؛ فقد ساهم بمليون دولار للكلية اللاهوتية اليهودية من أجل تأسيس مكتبة بويسكي فيها ، كما كان نشيطاً جداً في النداء اليهودي الموحد . وكان مارتن بيريتر ، صاحب مجلة النيويورك ذا الاتجاه الصهيوني ، من كبار المستثمرين لديه .

وقد اكتُشف عام ١٩٨٦ أنه كان يستغل مهته التي يفترض فيها الحياد والأمانة الشديدين ، فكان يعقد الصفقات بشراء وبيع أسهم الشركات بناءً على ما يريده من معلومات قبل أن تُعلن للجمهور ويحقق أرباحاً طائلة نتيجة لذلك . وهي فضيحة من أخطر الفضائح ، فقبض عليه وحُكم عليه بالسجن ويدفع غرامة ضخمة .



الجزء الرابع

عداء الأغيار الأتلى لليهود واليهودية

١ إشكالية معاداة اليهود

معاداة السامية - معاداة اليهود : المصطلح - المعاداة النبوية للسامية (أي لليهود واليهودية) - معاداة اليهود : الأسباب وتكوين الصور النمطية - الصور الإدراكية النمطية وكلاسيكيات وتاريخ معاداة اليهود حتى بداية القرن الثامن عشر - فيفركورن - مارجريتا - الصور الإدراكية النمطية المعادية لليهود منذ القرن الثامن عشر - تاريخ معاداة اليهود منذ القرن الثامن عشر - كلاسيكيات العداة لليهود في العصر الحديث - التحامل على اليهود - معاداة السامية الجديدة

معاداة السامية

Anti-Semitism

«معاداة السامية» ترجمة شائعة للمصطلح الإنجليزي «أنتي سيميتيزم» . ونستخدم في هذه الموسوعة عبارة «معاداة اليهود» للإشارة إلى هذه الظاهرة .

معاداة اليهود : المصطلح

Anti-Semitism : Terminology

«معاداة اليهود» ترجمة للمفهوم الكامن وراء العبارة الإنجليزية «أنتي سيميتيزم» . والمعنى الحرفي أو المعجمي للعبارة هو «ضد السامية» ، وتُترجم أحياناً إلى «اللاسامية» . وكان الصحفي الألماني اليهودي الأصل ولهملم مار (١٨١٨ - ١٩٠٤) أول من استخدم هذا المصطلح عام ١٨٧٩ في كتابه انتصار اليهودية على الألمانية - من منظور غير ديني . وقد صدر الكتاب بعد المضاربات التي أعقبت الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ - ١٨٧١) والتي أدت إلى دمار كثير من الممولين الألمان الذين ألقوا باللوم على اليهود . ولو أخذت العبارة بالمعنى الحرفي ، فإنها تعني العداة للساميين أو لأعضاء الجنس السامي الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى ، بينما يشكك بعض الباحثين في انتماء اليهود إليه . ولكن المصطلح ، في اللغات الأوروبية ، يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم ، وهذا يعود إلى جهل الباحثين الأوروبيين في القرن التاسع عشر بالحضارات الشرقية ، وعدم تكامل معرفتهم بالتشكيل الحضاري السامي أو بتنوع الانتماءات العرقية والإثنية واللغوية لأعضاء الجماعات اليهودية . وهذا المصطلح يضرب بجذوره في الفكر العنصري الغربي الذي كان يرمي إلى التمييز الحاد بين الحضارات والأعراق ، فميز في بداية الأمر بين الآريين والساميين على أساس لغوي ، وهو تمييز أشاعه إرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) ، ثم انتقل من الحديث عن اللغات

السامية إلى الحديث عن الروح السامية والعنصرية السامية مقابل الروح الآرية والعنصرية الآرية التي هي أيضاً الروح الهلينية أو النابغة منها . ثم سادت الفكرة العضوية الخاصة بالفولك أو الشعب العضوي ، ومفادها أن لكل أمة عنصريتها الخاصة بها ولكل فرد في هذه الأمة سمات أزيلية يحملها عن طريق الوراثة ، وانتهى الأمر إلى الحديث عن تفوق الآريين على اليهود (الساميين) ، هذا العنصر الآسيوي المغروس في وسط أوروبا ، كما دار الحديث عن خطر الروح السامية على المجتمعات الآرية . وشاع المصطلح منذ ذلك الوقت وقام الدارسون العرب باستيراده وترجمته كما فعلوا مع كم هائل من المصطلحات الأخرى . وبدلاً من ترجمة المصطلح ، فقد فضلنا هنا توليد مصطلح جديد هو «معاداة اليهود» لأنه أكثر دقة ودلالة ، كما أنه أكثر حياداً ولا يحمل أية تضمينات عنصرية ولا أية أطروحات خاطئة ، كما هو الحال مع مصطلح «أنتي سيميتيزم» .

لكن بعض الكتاب الغربيين يميلون إلى التمييز بين «معاداة اليهودية» و«معاداة السامية» حيث إن معاداة اليهودية ، حسب تصوّرهم ، هي عداة ديني للعقيدة اليهودية وحدها ، وبالتالي كان بإمكان اليهودي أن يتخلص من عداة المجتمع له باعتناق المسيحية . أما معاداة السامية ، فهي عداة لليهود بوصفهم عرقاً ، وبالتالي فهي عداة علماني لاديني ظهر بعد إعتاق اليهود وتزايد معدلات اندماجهم . وهذا النوع من العداة يستند إلى نظريات ذات ديباجات ومسوغات علمية عن الأعراق عامة ، وعماً يُقال له «العرق اليهودي» ، وعن السمات السلبية الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والاحتمية لليهود للصيقة بعرقهم ! وتصبح مثل هذه الدراسات إحصاءات عن دور اليهود في التجارة والربا مثلاً ، وفي تجارة الرقيق عامة والرقيق الأبيض على وجه الخصوص ، ومعدلات هجرتهم ، ثم يتم استخلاص نتائج عرقية منها . وبالتالي ، إذا كانت معاداة اليهودية تعبيراً عن التعصب الديني ، فإن معاداة السامية ،

إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة ، كان هذا يُعد أيضاً تعبيراً عن تقاليد معاداة اليهودية الراسخة فيها . وبالمثل اعتُبر قيام فرنسا ببيع طائرات الميراج لليبيا تعبيراً عن الظاهرة نفسها . بل ويذهب أنصار هذا الرأي إلى أن نضال الشعب الفلسطيني ضد الاستيطان الصهيوني تعبير عن الظاهرة نفسها . وهكذا اتسع المجال الدلالي للمصطلح واضطرب ليضم عدة ظواهر لا يربطها رابط ، حتى أصبح بلا معنى ، وأصبح أداة للإرهاب والقمع الفكريين .

المعاداة البنيوية للسامية (أي لليهود واليهودية)

Structural Anti-Semitism

«المعاداة البنيوية للسامية» مصطلح يشير إلى بنية المجتمع حين تشكل علاقاته بطريقة لا تسمح بوجود أعضاء الجماعات اليهودية ، أي أن بنية المجتمع نفسها تلفظ اليهود ، وتحولهم إلى شعب عضوي منبوذ ، بغض النظر عن نية أعضاء المجتمع . وما لا شك فيه أن علاقات مجتمع ما يمكن أن تشكل بطريقة تجعل من العسير على أعضاء الجماعات اليهودية الاستمرار فيه ، خصوصاً إذا كانوا أعضاء في جماعة وظيفية .

ويرى الصهاينة أن معظم أشكال معاداة اليهود أشكال بنيوية ، أي لصيقة ببنية المجتمع . وتحاول الصهيونية العمالية أن تبرهن على وجود هذه المعاداة البنيوية للسامية من خلال تحليل علاقات الإنتاج في المجتمع لتصل إلى نتيجة مفادها أن المجتمعات البشرية لا تسمح لليهودي أن يعمل في القطاعات الإنتاجية وأن اليهودي من ثم محكوم عليه بالهامشية والطفيلية ، وأن الحل الوحيد لهذه الهامشية البنيوية أن يؤسس اليهود لهم وطناً يمارسون فيه سيادتهم القومية ويشغلون فيه كل المواقع في الهرم الإنتاجي .

ويذهب الصهاينة إلى أن معاداة اليهود ليست لصيقة ببنية المجتمع وحسب ، بل لصيقة ببنية النفس البشرية . وهذا ما عبّر عنه شامير بشكل سوقي حين قال إن البولنديين يرضعون معاداة اليهود مع لبن أمهاتهم . ويرى الصهاينة أن العرب والمسلمين يعانون من الظاهرة نفسها ، أي المعاداة البنيوية للسامية .

والعلاقة بين «المعاداة البنيوية للسامية» و«الصهيونية البنيوية» علاقة قوية ، فلذا كانت الأولى تعني ظهور بنية تلفظ اليهود وحسب ، فإن الثانية تعني توظيف عناصر الطرد بحيث يتجه المهاجرون اليهود إلى فلسطين . ولعل ما حدث في العراق في الخمسينيات أنصح مثل ذلك . فحين أدركت الحكومة الإسرائيلية أن يهود العراق لن يهاجروا إليها وأنهم أثروا البقاء في وطنهم ، أرسلت

حسب هذه الرؤية ، هي نتيجة موقف دنيوي بارد يستند إلى حسابات المكسب والخسارة وإلى الرصد 'العلمي' لبعض السمات اللصيقة بما يُسمى «الشخصية اليهودية» . ويرى المنادون بهذا الرأي أن معاداة السامية بدأت في القرن التاسع عشر (أساساً) وإن كان بعضهم يرى أن عداة الدولة الإسبانية لليهود المارانو (وهم اليهود الذين تنصروا) هو عداة ذو دافع دنيوي إذ أن هؤلاء المارانو ، بحسب إحدى النظريات ، كانوا مسيحيين بالفعل . ولكن مقياس النقاء العرقي (نقاء الدم) الذي حكم به عليهم ، لم يكن مقياساً دينياً وإنما كان مقياساً عرقياً ، وكان الدافع وراء اضطهادهم هو رغبة الأرستقراطية الحاكمة ، أو بعض قطاعاتها على الأقل ، في التخلص من طبقة بورجوازية جديدة صاعدة كانت تهددها . ومن هنا ، مُنع المارانو من الاستيطان في المستعمرات البر تغالية والإسبانية لتقليل فرص الحراك أمامهم . وهكذا ، كانت هذه الحركة تعبر عن اتجاه دنيوي ، ولكنها تستخدم الخطاب الديني لتبرير غاياتها .

ومن هذا المنظور الطبقي العرقي ، يصبح اليهودي المندمج هو أكثر اليهود خطورةً ، فهو يهودي (أي بورجوازي) يدّعي أنه مسيحي ليحقق مزيداً من الحراك والصعود الاجتماعي . ولذا ، لابد من وقفه والحرب ضده برغم تبنيه العقيدة المسيحية .

وهذا الموقف يناقض الموقف القديم لمعاداة اليهود حيث كانت الكنيسة ترحب بمن تنصّر . فالنبلاء البولنديون المسيحيون ، على سبيل المثال ، كانوا يتزوجون من أعضاء الأسر اليهودية المنتصرة حتى القرن الثامن عشر . وقبل ذلك ، كان الوضع نفسه سائداً في مملكتي قشتالة وأراجون في القرن الخامس عشر . ومن المعروف أن الكنيسة وقفت ضد أي تعريف عرقي لليهودي يخضعه للتحديات البيولوجية شبه العلمية ، وبالتالي فتحت أمامه أبواب الخلاص . ولتبسيط الأمور ، دون تسطيحها ، سنستخدم عبارة «معاداة اليهود» ثم نضيف إليها عبارات تحدد مجالها الدلالي مثل «على أساس عرقي» أو «على أساس ديني» . . . إلخ ، إن استدعى السياق ذلك .

وقد اختلط المجال الدلالي للمصطلح تماماً في اللغات الأوربية بعد ظهور الصهيونية . وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي ، لم تُعد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية . ولم تُعد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عرقي وبين معاداة اليهود على أساس ديني . وأصبحت معاداة الصهيونية ، بل والدولة الصهيونية هي الأخرى ، تُصنّف باعتبارها من ضروب معاداة اليهود . وحينما كانت دول الكتلة الشرقية تصوت ضد

هناك بشراً في كل مجتمع لا يقتنعون بما لديهم من ثروة أو رزق ، ويرغبون دائماً في الاستيلاء على ما يملكه الآخرون ، وبخاصة ما يمتلكه أعضاء الأقلية الذين لا يتمتعون عادةً بالحصانات نفسها وبلا استقرار نفسه الذي يتمتع به أعضاء الأغلبية . ومع هذا ، تظل هذه الأفكار والدوافع في حالة كمون ولا تعبر عن نفسها إلا من خلال أفعال عنف وكره فردية متفرقة أو من خلال أشكال من التحايل على أعضاء الأقلية أو من خلال أعمال أدبية أو قصص أو أساطير ، مادام المجتمع مستقراً ولكل عضو فيه وظيفته . ولكن ثمة عناصر تؤدي إلى تحول هذه الدوافع النفعية من حالة الكمون إلى حالة التحقق حيث تتعدد الأفعال الفردية وتصبح ظاهرة اجتماعية ، وتتغلغل في بنية المجتمع ذاته .

ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور معاداة اليهود وانتقالها من حالة الكمون إلى مستوى البنية الاجتماعية أن معظم الجماعات اليهودية كانت تشكل جماعات وظيفية قتالية وتجارية في المجتمعات القديمة ، وكذلك في المجتمع الغربي في العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر . وقد كانت الجماعات الوظيفية تتكون دائماً من عناصر بشرية غريبة عن المجتمع حتى يمكنها أن تضطلع بوظائف كريمة أو مشبوهة أو متميزة تتطلب الموضوعية وعدم الانتماء ، مثل : التجارة والربا والقتال والبغاء . ولذا ، نجد أن موقف أعضاء الجماعات الوظيفية من المجتمع يتسم بالحياد والنفعية ، فهم ينظرون إلى مجتمع الأغلبية باعتباره سوقاً أو مصدراً للربح ، كما ينظر أعضاء المجتمع إليهم باعتبارهم أداة لتنشيط التجارة أو القتال . وكان يُنظر إليهم في المجتمعات التقليدية باعتبارهم وسيلة لا غاية وأداة من أدوات الإنتاج لا أكثر ، ولذلك كان أعضاء الجماعة لا حمة لهم في كثير من الأحيان (فهم غرباء) والغريب في معظم الأحوال مباح لا قداسة له . وفي العادة ، يتركز أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة في قطاعات اقتصادية بعينها يبرزون فيها ، الأمر الذي يجعلهم مركزاً للكره والحسد . وعلاوة على ذلك ، يدافع أعضاء الجماعة الوظيفية عن مراكزهم الاقتصادية هذه بشراسة وضراوة غير عادية نظراً لعدم وجود بدائل أخرى متاحة أمامهم ، فهم عادةً ما يفتقدون الخبرة اللازمة للزراعة والصناعة ، ولا يعرفون كثيراً من الحرف بسبب غربتهم وتقلهم . كما أنهم يدافعون عن مراكزهم الاقتصادية عن طريق شبكة الأقارب والعائلات ، الأمر الذي يثير حولهم الشائعات عن عمق بغضهم وكرههم لأعضاء الأغلبية («الأغيار» في مصطلح الجماعات اليهودية) . وفي كثير من الأحيان ، يحقق أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ، اليهودية وغير اليهودية ، تراكمًا

مبعوثيها فوضعوا المتفجرات في أماكن تجمع اليهود ومعابدهم ، لإقناعهم بأن المجتمع العراقي يلفظهم ، أي أنهم أعادوا تشكيل بنية العلاقات السائدة بين أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقلية ، بحيث يصبح المجتمع مجتمعاً طارداً لأعضاء الجماعة اليهودية . وهذه هي معاداة اليهود النبوية . ولكن الحكومة الإسرائيلية كانت تعرف مسبقاً أن المجال الوحيد المفتوح أمام يهود العراق هو الهجرة إلى فلسطين المحتلة ، وهذه هي الصهيونية النبوية .

ويمكن القول بأن ألمانيا أسست مجتمعاً معادياً لليهود بشكل بنيوي ، ولكن من خلال اتفاقية الهعفراف بين النازيين والصهاينة أصبحت المعاداة النبوية للسامية صهيونية بنوية .

معاداة اليهود : الأسباب وتكوين الصور النمطية

Anti-Semitism (Causes and the Process of Stereotyping)

يُفسّر الصهاينة معاداة اليهود بأنها تعود إلى كُره الأغيار لليهود عبر العصور ، وهو تفسير من العمومية بحيث لا يُفسّر شيئاً البتة . فإذا كان كره الأغيار لليهود ظاهرة ميثافيزيقية متأصلة ، فإن المنطقي هو أن يُعبر هذا الكُره عن نفسه بشكل مطلق ، أي بالطريقة نفسها بغض النظر عن الزمان والمكان . ولكن تاريخ عداء اليهود تاريخ طويل ومتنوع ويفتقر إلى الاستمرار التاريخي كما تختلف دوافعه وأسبابه . ومن المعروف أن الجماعات اليهودية توجد داخل تشكيلات حضارية مختلفة ، وكانت تنشأ توترات مختلفة بينها وبين أعضاء الأغلبية . وبرغم أن سائر أحداث التوتر هذه يُشار إليها بمصطلح «معاداة اليهود» على وجه العموم ، فإن المصطلح يكتسب مضمونه الحقيقي والمحدد من خلال التشكيلات الحضارية المختلفة ، ولذلك ، فإن الدلالة تختلف من تشكيل إلى آخر . والواقع أننا لو أخذنا بالتفسير الصهيوني وجعلنا من مختلف الأحداث التي تُعبر عن العداء لليهود ظاهرة واحدة ، لأصبح العنصر الثابت الوحيد هو اليهود ، وحينذاك يصبح اليهود هم المسئولين عن الكراهية التي تلاحقهم والعنف الذي يحيق بهم ، وهو تحليل عنصري مرفوض طرحه محامي أيخمان بشكل خطابي أثناء الدفاع عنه في إسرائيل . فاليهود يُشكلون جماعات مختلفة وغير متجانسة لكل منها ظروفها ومشاكلها .

ويمكن القول بأن العداء لليهود ، بوصفه شكلاً من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب (و«الآخر» على وجه العموم) ، هو إمكانية كامنة في النفس البشرية التي تنفر من كل ما هو غير مألوف ، وبالتالي فهو إمكانية كامنة في كل المجتمعات . كما أن

بالضرورة إلى تحول العداة الكامنة إلى هجوم شعبي . لكن مثل هذا التحول يحدث في ظروف معينة من بينها ما يلي :

١ - في المراحل الانتقالية ، حينما نحل طبقة جديدة محلية أو عالمية محل الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أو حينما تطور الدولة أجهزة مركزية تضطلع بوظائف هذه الجماعة .

٢ - تزايد نصيب الجماعة الوظيفية الوسيطة من الثروة مع تزايد الفقر في المجتمع أو في بعض شرائحه .

٣ - تزايد أعداد أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة وهو ما يزيد من بروزهم .

٤ - غياب الأعداء المشتركين للأغلبية ولأعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أو تحالف أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة مع العدو الخارجي .

٥ - وضوح أعضاء الجماعة وتميزهم بعلامات عرقية أو ثقافية لا يمكن محوها مثل اللون أو شكل العيون أو اللغة .

٦ - وجود تميز ثقافي أو ديني أو عرقي أو اجتماعي يساهم في عزل الأقلية عن الأغلبية ، فالعزلة هنا ليست على مستوى واحد وإنما على جميع المستويات .

ولتوضيح النقطة الأخيرة ، يمكن الإشارة إلى وضع الصينيين في إندونيسيا ، والهنود في جنوب أفريقيا ، ويهود البيديشية في أوكرانيا حينما كانت تابعة لبولندا . فالنخبة الحاكمة كانت هولندية مسيحية في إندونيسيا ، إنجليزية مسيحية في جنوب أفريقيا ، بولندية كاثوليكية في بولندا . وكانت الجماهير إندونيسية (جاوية) مسلمة أو وثنية في إندونيسيا ، سوداء وثنية في جنوب أفريقيا ، وأوكرانية أرثوذكسية في أوكرانيا . أما الجماعة الوظيفية الوسيطة التجارية ، فكانت صينية كونفوشيوسية في إندونيسيا ، هندية (هندوكية أو مسيحية أو مسلمة) في جنوب أفريقيا ، يهودية في أوكرانيا . كما كانت تفصل الجماعة الوظيفية الوسيطة عن النخبة وعن الجماهير عدة سمات أخرى (لغوية وثقافية) . وحينما يصل التدرج إلى هذه الدرجة من التبليور ، وحينما تدعم الاختلافات الدينية والثقافية والعرقية الاختلافات الطبقية ، تصبح التربة مهيأة لانفجارات اجتماعية هائلة ذات أبعاد عرقية كما حدث بالفعل في انتفاضة شميلنكي .

وقد كان يهود بولندا هم أغلبية يهود العالم في أواخر القرن الثامن عشر . وفي هذه المرحلة التاريخية ، حدث بينهم أيضاً انفجار سكاني أدى إلى تزايد عددهم خمسة أو ستة أضعاف ، ومن ثم زاد بروزهم العددي والاقتصادي . كما شهد المجتمع البولندي آنذاك

للثروة بشكل أسرع من أعضاء مجتمع الأغلبية ، نظراً لاستعدادهم خرمان أنفسهم من كثير من مباحج الحياة ، فهم غير متممين إلى المجتمع كما أن الثروة هي مصدر قوتهم ومبرر وجودهم . وفي حالة اليهود في بولندا ، على سبيل المثال ، كانت الأرستقراطية البولندية تؤكد مكانتها عن طريق الإنفاق والتبذير ، وأصبح هذا هو المثل الأعلى لقطاعات الشعب البولندي كافة ، الأمر الذي لم يشارك فيه أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يؤثرون الادخار وسرعة تراكم الثروة . وهذا الوضع يزيد ، بلا شك ، حسد الجماهير .

ولكن أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ، برغم غربتهم وتميزهم ، كانوا يجدون أنفسهم في قلب الصراعات المختلفة في المجتمع ، وبخاصة الصراعات الناشئة بين أعضاء النخبة الحاكمة وبين الطبقات الأخرى للمجتمع ، خصوصاً الطبقات الشعبية ، إذ أن قطاعات من النخبة الحاكمة كانت تستخدم أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة لضرب بعض طبقات المجتمع لاستغلالها أو كبح جماحها . فأعضاء الجماعة هم سوط في يد الحاكم ، أو هكذا كان يراهم المحكومون ، ولكنهم أيضاً كبش الفداء الذي يتم التخلص منه عند الحاجة وأمام الهجمات الشعبية ، فالأداة ليست غاية في ذاتها . ورغم أن هذه الهجمات على الجماعات اليهودية (الوظيفية) في الغرب تُعد هجمات عنصرية ، فيجب ألا نهمل الجانب الشعبي فيها وأنها تمثل جزءاً من تمرّد الجماهير على عملية الاستغلال ، وإن كان تمرّداً قصير النظر ، كما هو الحال عادةً مع الهبات الشعبية . ولم تكن هذه الثورات ثمرة إدراك عميق لحركات الاستغلال ، ولذا اقتصرَت على تحطيم الأداة الواضحة أمامهم والمباحة لهم . ويقابل الهجمات الشعبية ضد أعضاء الجماعات اليهودية الانفجارات المشيخانية بينهم ، فهي انفجارات تُعبّر عن ضيق قطاعات أعضاء الجماعات اليهودية بوضعهم الاقتصادي والوظيفي والنفسي .

لكن هذا الوضع ليس وضعاً عاماً ولا عالمياً ينطبق على كل اليهود في كل زمان ومكان ، فهو ينطبق بالأساس على الجماعات اليهودية في العالم الغربي ، وبالذات منذ بداية العصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر كما ينطبق على كثير من الأقليات الأخرى . ولذا ، فهو يصلح إطاراً لتفسيرياً لمعظم جوانب ظاهرة معاداة اليهود باعتبار أن أغلبية يهود العالم كانوا يوجدون في أوروبا مع نهاية القرن الثامن عشر ، وفي بولندا على وجه الخصوص .

والجماعة الوظيفية الوسيطة - كما أسلفنا - تضطلع بوظيفة مهمة في المجتمع . وبالتالي ، فإن وجودها في حد ذاته لا يؤدي

اليهودية من النخبة وما إذا كانت ظاهرة معاداة اليهودية ظاهرة رسمية أم شعبية . ويمكن الإشارة إلى أن أعضاء الجماعات اليهودية في التشكيل الحضاري الغربي كانوا دائماً تحت حماية النخبة الحاكمة حتى نهاية العصور الوسطى (وربما بعدها أيضاً) . وفي روسيا القيصرية ، على سبيل المثال ، لم تشترك المؤسسة الحاكمة في اضطهاد اليهود إلا بعد عام ١٨٨٢ ، مع دخول النظام القيصري أزمته ، وبعد تَعَثُّر التحديث ، وهي فترة لم تدم طويلاً . وقد استؤنف التحديث مع ثورة روسيا عام ١٩٠٥ ، ثم الثورة البلشفية ، وأصبحت معاداة اليهود جريمة رسمية يُعاقب عليها القانون . وحتى قبل ذلك التاريخ ، كانت تتم معاقبة من يقومون بالمذابح الشعبية ، وكان التمييز ضد أعضاء الجماعات اليهودية يتم داخل إطار القانون (إن صح التعبير) ويهدف إلى ما كان يُسمى «إصلاح اليهود» . كما كان هناك التمييز بين اليهود النافعين واليهود غير النافعين ، وكان النافعون يُعطون حقوقهم كاملة ويتركون خارج منطقة الاستيطان . هذا على عكس المعاداة الشعبية لليهود والتي لم يكن يتنظمها إطار ، وكانت عبارة عن تفجرات تُعبّر عن الإحباط ، ومذابح لا تهدف إلا للتفيس عن الضغط . ويمكن النظر إلى الظاهرة النازية ، من هذا المنظور ، باعتبارها ظاهرة حديثة . فعملية الذبح والإبادة (هنا) مسألة منهجية ، تتم تحت سمع وبصر الحكومة ، وبحكم القانون ، وعلى أسس علمية ومن خلال بيروقراطيات متخصصة . وقد يكون من المستحسن أن نرى هذا النوع من معاداة اليهود كجزء من سياسة ألمانيا الكولونيالية التي تهدف إلى إبادة الفجر والسلاف وكل من يعيشون في المجال الحيوي لألمانيا ، وهذه عملية تشبه من بعض الوجوه عملية إبادة الجزائريين في فرنسا على يد الفرنسيين ، وسكان الكونغو على يد البلجيكي ، والفلسطينيين على يد الصهاينة ، فهي ليست استمراراً لتقاليد معاداة اليهود السابقة . واختلافها الوحيد عن عمليات الإبادة الكولونيالية المشابهة أنها تمت جغرافياً داخل أوروبا .

ومن الضروري أن تُدرَس العمليات الفكرية والذهنية التي يتعامل المعادون لليهود من خلالها مع الواقع الإنساني المركب . ويمكن القول بأن الفكر العنصري عامة ، بما في ذلك فكر معاداة اليهود ، فكر اختزالي ينحو نحو تجريد الضحية من خصائصها الإنسانية المركبة والمتعينة بوصفها كياناً إنسانياً له سلبياته وإيجابياته حتى تحوّل إلى شيء مجرد يجسد سمة أو جوهرًا معيّنًا . وقد يلجأ العنصري إلى اختلاق الحقائق والأكاذيب ، ولكن هذا أمر نادر إذ أن الفكر العنصري ، خصوصاً في عصر العلم ، يحاول أن يُقدم قرائن

بداية ظهور طبقات محلية بديلة وأجهزة قومية تحمل محل الجماعة الوظيفية الوسيطة . وتزايد في هذه المرحلة فقر قطاعات كثيرة من المجتمع البولندي . وفضلاً عن ذلك ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتحدثون اليديشية ويدينون بشيء من الولاء للثقافة الألمانية ، بينما كان الألمان هم الأعداء التقليديون للسلاف والبولنديين . كما أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يشاركوا بشكل فعّال في الحركة الوطنية البولندية التي كانت ذات توجّه معاد لليهود لأسباب تاريخية مركبة (من أهمها اضطلاح اليهود بوظيفة جمع الضرائب وعوائد الضياع فيما يسمى بنظام «الأرند») . لكل هذا ، تفجرت معاداة اليهودية في بولندا وروسيا بشكل حاد .

ومن القضايا التي يجب أخذها في الاعتبار ، أثناء دراسة ظاهرة معاداة اليهود ، الإطار السياسي العام الذي يتم فيه هذا العدا . ويتضح هذا في موقف الإمبراطورية الرومانية حين صبّت جام غضبها على العناصر المتمردة في فلسطين التي كانت تهدد السيطرة الإمبراطورية ، ولكنها تحالفت في الوقت نفسه مع أثرياء اليهود الذين كانت مصالحهم مرتبطة بمصلحة الإمبراطورية . وما يجدر ذكره ، أنه كان يوجد جيش يهودي بقيادة أجربا الثاني يعمل تحت قيادة تيتوس قائد القوات الرومانية التي حطمت الهيكل . فالمسألة لم تكن إذن عداً لليهود (أو حباً لهم) بقدر ما هي مسألة مصالح إمبراطورية .

ويتضح الشيء نفسه في موقف الإمبراطورية البريطانية التي قامت بتأييد مشروع الاستيطان الصهيوني ودعمه رغم وجود قطاع داخل أعضاء النخبة الحاكمة الإنجليزية (وبين الطبقات الشعبية) يكن الكراهية لليهود ، خصوصاً المهاجرين . فالمصالح الإمبراطورية (لا حب لليهود) هي التي دفعت إنجلترا إلى تبني المشروع الصهيوني . وفي فترة لاحقة ، نشأ توتر بين المستوطنين الصهاينة والإمبراطورية الراحية (وهو أمر عادة ما يحدث لأن مصالح الإمبراطورية تكون عادة أكثر تركيباً وشمولاً واتساعاً من مصالح المستوطنين) . فتعقبت السلطات الإنجليزية من سمتهم «العناصر المشاغبة أو المتطرفة» بين المستوطنين ، وقد فُسّر ذلك بأنه عدا لليهود وهو أبعد ما يكون عن ذلك . ولعل أكبر دليل على هذا أن أعضاء الجماعة اليهودية داخل إنجلترا كانوا يتمتعون بجميع حقوقهم في ذلك الوقت . ولو أن الأمر كان عداً مطلقاً لليهود ، لبدأت عملية التعقب في لندن لا في فلسطين .

ومن العناصر الأخرى التي يجب الانتباه إليها عند تحديد ظاهرة معاداة اليهود : مدى قرب أو بعد أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة

اشتغلت بتجارة الرقيق الأبيض في الفترة نفسها ، ولا لواقع أن الجماعات اليهودية في أوروبا كانت تتمتع حتى منتصف القرن التاسع عشر بمعدلات عالية من التماسك الخلقي والاجتماعي يفوق المعدلات السائدة بين أعضاء الأغلبية ، حتى أن ظاهرة الأطفال غير الشرعيين كانت غير معروفة تقريباً بينهم قبل عمليات التحديث والعلمنة التي حدث بعدها الانحلال الخلقي . أما العملية الرابعة فهي كامنة وراء العمليات السابقة كافة .

وكثيراً ما تنعكس هذه العمليات الفكرية في أساطير وصور إدراكية ثابتة تنسب إلى اليهود خصائص سلبية ثابتة . كما أن وجود مثل هذه الأساطير والصور يبلور الأفكار العنصرية الكامنة ثم يساعد على التحقق . ويمكن أن تكون هذه الأنماط الشابتة متناقضة ؛ كأن يتبع فريق داخل المجتمع نمطاً معيناً ويتبع فريق آخر نمطاً آخر يناقض النمط الأول ، مثل نمطي اليهودي الجبان الذي يخاف من أي شيء واليهودي العدوانى الذي لا يخشى شيئاً . وقد اتضحت هذه الظاهرة في العصر الحديث في الغرب ، فاليهودي هو من كبار الممولين وهو أيضاً التسول ، وهو رمز الجيتوية والتخلف الديني والانفتاح المخيف والعلمانية المتطرفة ، وهو رمز الرجعية والثورة والإقطاعية والليبرالية . فإذا كان كارل ماركس يهودياً وكان روتشيلد يهودياً ومائير كاهانا يهودياً ومارلين مونرو يهودية ، وكذلك فرويد وأينشتاين ونعم تشومسكي ، فلا بد أن هناك ما يجمع بينهم . وحينما يفشل الدارس في العثور على هذا العنصر ، فإنه يكمل من عنده ويفترض وجود مؤامرة خفية تجمع بينهم وأنهم ولا شك يحرضون على إخفاها . ولكن التناقض ، على كل ، أمر لا يضايق العنصرين بتاتا ، فالإنسان العنصري إنسان غير عقلاني (فهو مرجعية ذاته) لا يقبل الاحتكام إلى أية قيم أخلاقية تتجاوزه وتتجاوز الآخر ، فهو يؤمن بشكل قاطع بأن تميزه أمر لصيق بكيانه وكامن فيه تماماً مثل تدني الآخر ، وبالتالي فإن العنصري يبحث دائماً عن قرائن في الواقع ينقض عليها كالحیوان المفترس أو الطائر الجارح فيلتقطها ويعممها ليبرر حقه . بل ويمكن أن يوظف هذا التناقض ذاته بين الصور الإدراكية بحيث يشير إلى مدى خطورة المؤامرة اليهودية العالمية الأخطبوطية التي تسيطر على سائر مجالات الحياة ، وتسيطر على اليمين واليسار ، وعلى الشمال والجنوب والشرق والغرب .

ولا بد أيضاً من دراسة نوعية الفلسفة الاجتماعية (أو العامة) السائدة في المجتمع . فوجود فلسفة اجتماعية عنصرية في المجتمع يخلق تربة خصبة للتفجرات العنصرية . كما أن وجود فلسفات بعينها - كأن تكون الفلسفة العامة في المجتمع رؤية علمانية إمبريالية

وحججاً على صدق مقولاته يستخلصها من الواقع ، من خلال عمليات فكرية تنحو نحو التجريد والتبسيط والتسطيح والاختزال ، مثل :

١ - التركيز على عنصر من الواقع دون غيره ، كأن يركز العنصري على إحدى سلبات بعض أعضاء الجماعات اليهودية (كاشتغالهم بتجارة الرقيق الأبيض) وعزلهم عن إيجابياتهم (الحرب الشرسة من جانب الجماعات اليهودية ضد هذه التجارة) .

٢ - تعميم ما يتركبه بعض أعضاء الجماعات اليهودية من جرائم أو أخطاء على كل أعضاء الجماعات اليهودية ، ثم التركيز بعد ذلك على ما يُسمى «الشخصية اليهودية» بكل ما تنسم به من شرور وعنف مزعومين .

٣ - فصل أعضاء الجماعات اليهودية عن سياقهم الاجتماعي والحضاري الذي قد يفسر سلوكهم السليبي ، عدم الربط بين الجماعات اليهودية وغيرها من الجماعات البشرية التي قد تشترك معها في الصفات السلبية نفسها ، وذلك بهدف خلع صفة الإطلاق على صفات اليهود حتى تكسب بعداً نهائياً وتبدو كأنها مقصورة عليهم دون سواهم من البشر .

٤ - إسقاط عناصر عدم التجانس بين الجماعات اليهودية المختلفة وعناصر الاختلاف والصراع بين أعضائها وإسقاط واقع انقسامهم إلى طبقات وجماعات مختلفة ، فيصبح اليهود كلاً واحداً متجانساً يُسمى «الشعب اليهودي» أو «اليهود» .

ولنضرب مثلاً على هذه العمليات الفكرية الاختزالية الأربع بالتهمة التي عادة ما توجه إلى أعضاء الجماعات اليهودية ، أي الاشتغال بالرقيق الأبيض كقوادين أو بغايا . وهذه حقيقة مادية وإحصائية ، ففي الفترة من ١٨٨١ وحتى ١٩٣٥ كان ثمة وجود يهودي ملحوظ في هذه التجارة المشينة . ولكن العمليات الفكرية العنصرية تركز على هذا العنصر السلبي وتعزله عن إيجابيات اليهود (فقد كانت أعداد كبيرة منهم تعمل في منهن شريفة ، كما أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ساهموا بكل قراهم في القضاء على هذه التجارة المشينة بين اليهود) . ومن ناحية أخرى ، يُطلق أعداء اليهود هذه الصفة على كل اليهود أينما كانوا مع أن نسبة اليهود المشتغلين بهذه التجارة قد تكون أعلى من نسبة المشتغلين بها بين الأغلبية ، ولكنها على أية حال كانت نسبة مئوية ضئيلة بالنسبة لعدد أعضاء الجماعة اليهودية . أما العملية الفكرية الثالثة ، أي فصل اليهود عن سياقهم الاجتماعي والتاريخي ، فهي أهم العمليات . وفي الواقع ، فإنه لا يوجد أي ذكر للجماعات البشرية الأخرى التي

تحدث عن التفوق والغزو وإرادة القوة - قد يساعد أيضاً على إثبات بذور الفكر العنصري الكامن .

ويمكن القول بأن الفكر العنصري يُعبّر عن نفسه من خلال أي نسق فكري متاح في المجتمع . فعلى سبيل المثال ، من الثابت أن فلسفة نيتشه زودت العنصريين وأعداء اليهود بإطار فكري يتمتع بالاحترام والمصداقية . ولكن يمكن القول أيضاً بأن العنصريين كانوا سيجدون تسويغاً لفكرهم في أي مصدر وفي أي نسق فكري متاح . ولو لم يُقدّم نيتشه فلسفته ، لوجد العنصريون تبريراً لمواقفهم من خلال أنساق فلسفية أخرى يستولون عليها ثم يقومون بتطويعها وتوظيفها لخدمة رؤيتهم وأهدافهم . وفي هذا شيء من الحق ، ولكن الأفكار العرقية المتبلورة التي تأخذ شكل أساطير مثيرة وصور إدراكية ثابتة تظل ، مع ذلك ، تلعب دوراً مهماً . كما أن أنساقاً فلسفية ، مثل التفكير النيتشوي (الدارويني) الذي يسقط حرمة المطلقات كافة ، ومنها الإنسان ، يمكن أن تطوّر لخدمة الفكر العنصري أكثر من أنساق فكرية أخرى . ولعل المناخ الفكري العام الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر ، بحديثه عن التفوق الآري ورسالة الإنسان الأبيض والبقاء للأصلح ، قد خلق ارتباطاً اختيارياً وتربة خصبة لنمو معاداة اليهود . ومن الثابت الآن أن أكثر الكتب شيوعاً آنذاك ، في أوروبا ، كانت الكتب العنصرية . كما أن محاولة تعريف الواقع بأسره (بما في ذلك الإنسان) على أساس مادي ، ساعد على نمو النظريات التي تحاول تعريف الجماعات البشرية من منظور عرقي . ولكن النظريات المادية نظريات حتمية ، فتطور المادة غير خاضع لعقل الإنسان أو اختياراته ، وإذا عُرِف الإنسان على أساس عرقي فهذا يعني أنه يُولّد بصفاته ومن ثم فهو غير مسئول عنها ، ومن هنا فإن شخصيته وهويته في جسده لا في وضعه الاجتماعي . ولذا ، يمكننا القول بأن النظريات البيولوجية التي تحاول تعريف الإنسان في كليته على أساس بيولوجي مادي تخلق قابلية داخل المجتمع للعنصرية والعداء لليهودية ، إذ تصبح الصفات السلبية لليهودي شيئاً حتمياً لصيقاً بجوهره . ونجيب الإشارة إلى أن الإيمان بالحتمية المادية ليس مقصوراً على النظريات البيولوجية بل هو كامن في كثير من الأنساق المعرفية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر . بل إن بعض المفكرين المسيحيين يذهبون إلى أن المصدر الأساسي ، بل والنهائي ، لمعاداة اليهود ليس المسيحية ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما العداء للمسيحية وللدين بشكل عام ، إذ أن مثل هذا العداء يحولّ الآخر إلى شيء ويُنكر عليه إنسانيته ولا يفتح أمامه أبواب الخلاص (وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن العنوان

الفرعي لكتاب ويلهلم مار انتصار اليهودية على الألمانية هو : من منظور غير ديني) . كما أن الحركة النازية ، وهي الحركة التي بلورت معاداة اليهودية وأضفت عليها منهجية وشمولاً ، كانت تعادي الكنائس كلها وأرسلت بالعشرات من رجال الدين المسيحيين إلى أفران الغاز وكانت تُحرّم على أعضاء فرق الإس إس الخاصة الانضمام إلى أية كنائس مسيحية باستثناء الكنيسة القومية التي أسسها النازيون أنفسهم .

ولقد أشرنا من قبل إلى اتجاه العنصريين إلى تجريد اليهود واختزالهم عن طريق عزلهم عن سياقهم التاريخي وعن غيرهم من الجماعات البشرية . وهنا نضيف أن الصهانية يفعلون الشيء نفسه في دراستهم لما يلحق اليهود من اضطهاد ، فهم يقومون بعزل ظاهرة اضطهاد اليهود عن الظواهر المماثلة أو المختلفة في المجتمع . وبهذه الطريقة ، يصبح هذا الاضطهاد شيئاً فريداً غير مفهوم ويصبح عداء الأغيار لليهود أمراً ثابتاً وتعبيراً عن الطبيعة الشريرة للأغيار . ولذا ، فحينما يُدرّس الاضطهاد ، فإنه لابد من وضعه في سياقه التاريخي حتى يمكننا أن نرى أثر هذا الاضطهاد على جماعات بشرية أخرى . ويمكن القول بأن اضطهاد اليهود في أوروبا (بعد القرن الثاني عشر) لم يكن موجّهاً إليهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم مرايين (جماعة وظيفية وبسيطة) ، كما أن المرايين من الكوهارسين واللومبارد الذين كانوا يحتلون المكان نفسه ويعملون الوظيفة نفسها كانوا يتعرضون أو لا يتعرضون للاضطهاد حسب مدى احتياج المجتمع إليهم أو عدم احتياجه . وبعد عصر الإعناق والانعتاق ، قامت الدولة الفرنسية الجديدة بمحاولة دمج كل الأقليات التي كانت تتمتع بأية خصوصية لغوية أو دينية غير فرنسية ، ولم تميّز في ذلك بين اليهود والبريتون مثلاً . وحينما قامت الإمبراطورية الروسية (القيصرية) بمحاولة فرض الصبغة الروسية على أعضاء الجماعة اليهودية ، كانت تفعل ذلك باعتباره جزءاً من سياسة إمبراطورية عليا كانت موجهة ضد كل الجماعات البشرية في الإمبراطورية ، وبخاصة غير السلافية (الإيروستي) . وقد تعرّض المسلمون في الإمارات التركية السابقة لدرجة أعلى من الاضطهاد ، فقد كانوا أقل تروساً ، كما أن الانتماء الآسيوي للمسلمين الأتراك جعلهم أكثر ابتعاداً عن الحضارة الروسية من اليهود الذين كانوا أكثر قرباً منها . فرطانتهم اليديشية هي ، في نهاية الأمر ، رطانة ألمانية ، كما أن نخبتهم الثقافية كانت جزءاً من التشكيل الحضاري الغربي . وبالمثل ، كان الاضطهاد النازي اضطهاداً علمياً محايداً لا تميّز فيه ولا تحيّر ، وقد كان موجّهاً ضد جميع العناصر « غير المفيدة » التي يصنفها المجتمع باعتبارها

بالعنصر العبراني وحسب ، إذ كانت المناطق الساحلية مأهولة بالعناصر الفلسطينية والفينيقية وغيرها ، وكانت توجد داخل فلسطين أقوام سامية كثيرة ، وكان العنصر اليوناني السائد يهيمن على التجارة ويتركز في المدن ، أما العنصر العبراني اليهودي ، فكان يعمل بالزراعة . وانضمت إلى العنصر التجاري اليوناني قطاعات كبيرة من النخبة اليهودية من كبار ملاك الأراضي وملتزمي الضرائب . وكانت فلسطين محور صراع بين الدولتين البطلمية والسلوقية ، وكان اليهود أحد العناصر المهمة التي يدور حولها الصراع . ويمكن رؤية الهجوم على اليهود في هذه المرحلة باعتباره نتاج هذا المركب التاريخي . فساكن المدن من اليونانيين العاملين بالتجارة كانوا يصطدمون بالجماعة العبرانية اليهودية العاملة بالزراعة . وكانت الدولة السلوقية ، في سعيها لدمج فلسطين بمساعدة النخبة اليهودية المتأثرة ، تحاول أن تقضي على العبادة القرابية المركزية وعلى الطابع اليهودي في فلسطين . وفي الإسكندرية ، كان السكان اليونانيون يرفضون السماح لليهود بدخول الجيمنازيوم (رمز الانتماء الكامل للبوليس أي المدينة) لعدم مشاركتهم في العبادة اليونانية الوثنية . وقد ساعد على تصعيد حدة معاداة اليهود ، في كل الأحوال ، أن ديانتهم كانت توحيدية تقف ضد عبادة الأصنام ، وكانت بالتالي ديانة فريدة آنذاك من بعض الأوجه . وكان هذا التفرد يُفسَّر من قبل الوثنيين بأنه كُره للبشرية ، خصوصاً وأن الطقوس الدينية اليهودية تنسج حول اليهود شبكة كثيفة من العزلة .

وقد ازدادت معاداة اليهود في بعض المناطق ، مثل الإسكندرية ، لأن أعضاء الجماعة اليهودية الذين كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة رحبوا بالغزو الروماني بل وقدموا له يد المساعدة . وقد نتج عن الغزو الروماني أن النخبة الهيلينية فقدت موقعها المتميز في المجتمع ، الأمر الذي جعلها تلقي بالولم على أعضاء الجماعة اليهودية . ولذا ، ظهرت مجموعة من الكتاب الهيلينيين في القرن الأول الميلادي ، مثل : خايريون (أستاذ نيرون) ، وليسيمachus (أمين عام مكتبة الإسكندرية) ، وآبيون (الخطيب اليوناني) يعادون اليهود . وقد ألَّف آبيون كتاباً من خمسة فصول عن تاريخ مصر يضم جزءاً عن اليهود ، أورد فيه بعض الآراء السائدة عن اليهود في العالم القديم ، من قبيل أنهم شعب بدوي متجول ، وأنهم نُفوا من مصر لأنهم كانوا مجموعة من المصاين بالبرص الذين دنسوا المعابد المصرية وكان لابد من التخلص منهم ، وقد فُسِّرَت واقعة الخروج أو الهجرة من مصر على هذا الأساس . كما يورد آبيون أن العبرانيين كانوا موالين للملوك الرعاة

كذلك ، مثل : المعجزة ، والأطفال المعوقين الذين صَنَعُوا بوصفهم «أفواه تأكل لا نفع لها» ، والفجر ، والسلاف ، واليهود . وهناك هونوكوست ضد البولنديين (على يد كل من السوفييت والنازيين) راحت ضحيته عدة ملايين .

ويلاحظ أن الجماعة الوظيفية الوسيطة الصينية في الفلبين كانت تعامل معاملة الجماعة الوظيفية الوسيطة اليهودية في بولندا تماماً ، كما يلاحظ أن كل أشكال الاضطهاد التي تعرَّض لها يهود بولندا واجهها الصينيون في الفلبين .

ويمكن القول بأن معاداة اليهود ، كظاهرة ، لن تختفي تماماً من المجتمعات الغربية ، فهي مجتمعات بشرية تتسم بقدر من التوتر والاحتكاك بين أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقلية . ومع هذا ، فعادة ما تخف حدة معاداة اليهود حين يتحول أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية وسيطة متميزة بتميزاً واضحاً ، إلى أعضاء في الطبقة الوسطى تتميز بشكل أقل وضوحاً ولا تختلف في وظيفتها ولا في قيمها ولا في رؤيتها للعالم عن أعضاء الطبقة الوسطى في المجتمع ككل . وفي هذه الحالة ، عادة ما يأخذ التعصب الديني أو العرقي ضد أعضاء الجماعة اليهودية شكل سلوك فردي ، من أشخاص متعصبين حقودين ، ولا يشكل ظاهرة اجتماعية تساندها مؤسسات حكومية أو غير حكومية .

الصور الإدراكية النمطية وكلاسيكيات وتاريخ معاداة اليهود حتى بداية القرن الثامن عشر

Anti-Semitic Stereotypes, Classics of Anti-Semitic Literature, and History of Anti-Semitism to the Beginning of the Eighteenth Century

لعل أول هجوم على جماعة يهودية سُجِّل في التاريخ هو هجوم المصريين على المعبد اليهودي في جزيرة الفتاين في القرن الخامس قبل الميلاد . وكان هذا الهجوم موجَّهاً إلى جماعة وظيفية قتالية عميلة من الجنود المرتزقة التي وطَّنها فراغة مصر هناك لحماية حدود مصر الجنوبية ، ثم انتقل ولاء هؤلاء الجنود إلى الغزاة انفرس . ومن ثم ، فإنه كان هجوماً على عملاء الفرس (الغازي الأجنبي) ، هذا إن أخذنا بالرأي القائل بأنهم كانوا يهوداً ، إذ يميل بعض المؤرخين إلى التشكيك في هذا الرأي .

وبعد دخول الشرق الأدنى القديم إلى محور الحضارة الهلينية ، نشأ وضع جديد في علاقة اليهود بمن حولهم . ويجب أن نشير ابتداءً إلى أن الرقعة الجغرافية التي تُسمَّى الآن «فلسطين» لم تكن مأهولة

مثله مثل أيون ، يركز على الجانب الأخلاقي لليهودية التي يرى أنها الخطر الحقيقي على الإمبراطورية . وقد وجه جوفينال هجوماً على الأجانب (اليونانيين والسوريين وكذلك اليهود) لتقويضهم دعائم الفضيلة في المجتمع ، وهو بذلك يتبع غط أيون وتاسيتوس نفسه . وبرغم الهجوم الحاد من قبل أيون وتاسيتوس وجوفينال على اليهود واليهودية ، فلا يمكن القول بأن أقوالهم هذه تشكل جزءاً من رؤية اليونان أو الرومان للكون ، إذ ظلت هذه الرؤية وثنية متعددة عالمية تقبل تعدد الآلهة داخل إطار الوحدة الإمبراطورية . ولذا ، وبرغم أحداث الطرد ، ظل اليهود يتمتعون بحقوقهم ولم يشكلوا مركزية خاصة في نظرة اليونان أو الرومان إلى العالم .

فإذا ما انتقلنا إلى العصور الوسطى في الغرب ، فإننا نجد أن مفهوم معاداة اليهود أخذ يكتب معاني ومدلولات جديدة تماماً . فلم تعد اليهودية ديناً توحيدياً في تربة وثنية ، وإنما أصبحت ديناً قديماً مهزوماً في تربة توحيدية يسودها دين جديد متتصر واثق من نفسه يرى أن العهد القديم هو أحد كتبه المقدسة يحمله اليهود دون أن يعوا معناه الحقيقي . وهو دين كان يرى أن اليهود يلعبون دوراً مركزياً في نظرتهم إلى الكون ، فهم قتل الرب ، ولن تتم عملية الخلاص النهائية إلا بعد اعتناقهم المسيحية ، أي أنهم يشغلون موقعاً مركزياً في البداية والنهاية . وكان اليهود من جانبهم يكون احتقاراً عميقاً للدين الجديد ويتكبرون أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيح . وقد تبدل الموقف المسيحي في مفهوم الشعب الشاهد ، وفي جميع التشريعات والمراسيم المسيحية التي تؤكد لليهود حقوقهم ، وفي ضرورة الحفاظ عليهم وعدم تنصيرهم بالقوة ، مع الإبقاء عليهم في وضع هامشي ومتدن كشعب شاهد على أن الكنيسة على حق . فهم يحملون الكتاب المقدس الذي يتنبأ بمقدم المسيح ولكنهم لا يعون معنى ما يحملون ، كما أنهم بضعفهم وذلتهم دليل على عظمة الكنيسة وانتصارها . وكان موقف الكنيسة يتمثل فيما يلي : « أن تكون يهودياً جريمة ، ولكنها جريمة ليس بإمكان مسيحي أن يتزل بصاحبها العقاب لأن الأمر متروك للرب » . وقد اعتبرت الكنيسة نفسها إسرائيل الحقيقية (باللاتينية : إسرائيل فيروس Israel verus) ، واعتبر المسيحيون أنفسهم شعب الرب . وكانت الكنيسة ترى نفسها أيضاً إسرائيل الروحية مقابل إسرائيل الجسدية (اليهودية) . وقد تطورت صورة اليهود في الوجدان المسيحي ، فكان يرّم لهم يعيسو (مقابل يعقوب المسيحي) ، وبقيال الذي قتل أخاه هابيل وأصبح كذلك قاتل المسيح . كما ساعدت الشعائر الدينية اليهودية ، المتمثلة في صلاة الجماعة التي تتطلب النصاب (المنيان) وقوانين الطعام

(الهكسوس) الذين أذلوا المصريين ، ومن ثم تم طردهم عقب طرد الهكسوس ، فالتجأوا إلى أرض كنعان واحتلوها . وفي واقع الأمر ، فإن هذه الأقاويل تهدف جميعاً إلى تقويض فكرة العلاقة الخاصة بين اليهود وفلسطين ، والشرعية التي تتأسس على مثل هذه العلاقة . وقد أضاف أيون تهماً أخرى ، مثل أن اليهودية تُعلم اليهود كره الجنس البشري والعزلة عنه ، وأنهم يذبحون فرداً غير يهودي كل عام ويزوقون أمعاءه ، وأنهم يعبدون الحمار .

وإذا انتقلنا إلى روما ، فإننا سنجد مستويين مختلفين تماماً لمعاداة اليهود : مستوى السياسة الإمبراطورية ، ومستوى موقف الأرستقراطية الرومانية من يهود روما أساساً . أما الإمبراطورية الرومانية فلم تكن تهتم كثيراً بالأخلاق اليهودية أو الدين اليهودي إذ أن اهتمامها كان ينصب على تحقيق السلام الروماني وحسب . ولذا ، نجد أن تيتوس الذي هدم الهيكل الثاني لم يعتبر نفسه قط عدواً لليهود ، بل وكانت عشيقته بيرنيكي أختاً لأجريبيا الثاني ملك اليهود . كما حارب في صفوفه جيش يهودي صغير . وقد رفض تيتوس أن يحمل لقب «تيتوس جودايكوس Titus judaicus» ، أي «تيتوس هازم اليهود» ، مثلما سُمي «تيتوس أفريكانوس Titus africanus» و«تيتوس جرمانيكوس Titus germanicus» ، أي هازم الأفارقة والألمان ، وذلك بسبب صداقته للقوم أو الإنثوس اليهودي . ولذا ، اكتفى تيتوس بصلك عملة ظهرت عليها عبارة «جوديا كابتا Judea capta» ، أي «هزمت يهودا وأُسرت» ، و«يهودا» هنا تشير إلى الأرض لا الشعب .

وكان عداء الأرستقراطية لليهود متبايناً في دوافعه ، ولكنه كان على أية حال يعود إلى سببين أساسيين :

أولاً : رغبة بعض قطاعات من الأرستقراطية الرومانية في تحقيق مكاسب اقتصادية بالتخلص من منافس قوي مثل اليهود .

ثانياً : كان قطاع كبير من المثقفين الرومان يرون أن إصلاح حال روما لا يتم إلا بالعودة إلى الأصالة الأولى ، واجدين أن التنوع الديني ، وبالتالي انتشار اليهودية ، يعوق هذا الاتجاه . ونجد هجوماً على اليهود في كتابات بعض المؤلفين الرومان ، مثل : هوراس وشيشرون . لكنه لم يصبح هجوماً حاداً إلا بعد القرن الأول كما هو الحال في كتابات المؤرخ كورنيليوس تاسيتوس الذي ردّد بعض أفكار أيون عن اليهود واليهودية وبيّن أن تهود الرومان سيؤدي بهم إلى احتقار أرباب أسلافهم وإلى رفض وطنهم وأبائهم وذريتهم وإخوتهم . ويلاحظ أن السياسة الإمبراطورية الرومانية ركزت اهتمامها على الجانب السياسي والأمني لفلسطين ، بينما تاسيتوس ،

يخلع عليها صفة إيجابية . ونحن لا نرى أنها عمل مقبول أو شرعي ، وإنما نقول إن هذه الهجمات تحركها جماهير تصور أن اليهودي هو المستغل الحقيقي . وقد ظل أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب في هذا الوضع حتى حروب الفرنجة في القرن الثاني عشر ، حيث بدأت الحياة الاقتصادية في أوروبا في الانتعاش وظهرت قوى مسيحية محلية قادرة على أن تحل محل اليهود كتجار دوليين ومحليين ، فاتجه اليهود إلى الاتجار بالربا ، وتحولوا بالتالي من جماعات وسيطة إلى جماعات وسيطة عميلة ، وزادت غربتهم في المجتمعات التي وجدوا فيها .

وقد تزامنت هذه العملية مع تطور فكري آخر وهو ظهور عقيدة التحول (بالإنجليزية : ترانسبستانتيشن transubstantiation) ، أي الإيمان بتحول القربان (أي الخبز والخمر المقدسين) إلى لحم ودم المسيح . وأصبح تناول طقساً دينياً تحيطه هالة من الأساطير . وقد ساهمت هذه الطقوس في ظهور تهمة الدم ، وتهمة تدنيس خبز القربان ، وهي أساطير ساعد على انتشارها احتراف اليهود الربا وامتصاصهم (المجازي) لدم الآخرين ، خصوصاً وأن العمليات التجارية والمالية كانت تؤدي إلى تزايد الثروة دون بذل الجهود (على عكس الفلاح الذي كان يبذل جهداً كبيراً ملاحظاً) . وبالتالي ، كانت هذه العمليات التجارية والمالية يُنظر إليها كعمليات سحرية من قبَل ضحايا أعمال الربا ومن قبَل أعضاء المجتمع الزراعي الذين يكادون ساعات طويلة ليحصلوا على قوت يومهم . وفي هذه الفترة ، أصدرت المجامع اللاترانية مجموعة من القرارات أدت إلى ازدياد عزلة اليهود مثل تحريم الاشتغال بالربا على المسيحيين ، وضرورة أن يرتدي اليهود شارة مميزة . وبدأت تظهر ، في هذه الفترة ، صورة سلبية عن اليهود ، وهي في أغلبها أنماط إداركية عنصرية تتواتر في معظم المجتمعات وتردها كل جماعة بشرية عن الآخرين ؛ فاليهود يشبهون الشيطان أو لهم رائحة مميزة هي ما يُسمى «رائحة اليهود» (باللاتينية : foetor judaicus) وهي خلاف رائحة القداسة . ومع القرن الثالث عشر ، حيث كانت قد ظهرت بيوتات المال الإيطالية التي كانت أكثر كفاءة في الاضطلاع بمهنة التجارة الدولية ، بدأت ظاهرة طرد اليهود من إنجلترا وفرنسا وغيرهما من البلاد ، كما بدأت تظهر صورة اليهودي التائه . وفي القرن الرابع عشر ، بدأ اتهام اليهود بأنهم يسممون الآبار . وكانت العروض المسرحية المسماة «آلام المسيح» (التي كانت تستغرق عدة أيام ، وكانت من أكثر الأشكال الفنية الشعبية شيوعاً) تؤكد قسوة اليهود على المسيح وخيانتهم له ، الأمر الذي كان يعمق كره اليهود في الوجدان الشعبي .

والزواج ، على زيادة عزلة اليهود . ولأن النظام الإقطاعي في الغرب كان نظاماً مسيحياً يستند إلى شرعية مسيحية ويتطلب عيّن الولاء كشرط أساسي للانتماء إليه ، فقد وجد أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب أنفسهم خارج كثير من المجالات السياسية والاقتصادية والمدنية المشروعة . وكانت هذه الظروف سبباً ونتيجة في آن واحد لتحويلهم إلى جماعة وظيفية وسيطة (أقنان البلاط أو يهود الأرندا أو يهود البلاط) تقوم بأعمال التجارة ثم الربا . وربما كان هذا الوضع (وضع اليهود) هو الذي حدّد موقف أعضاء المجتمع منهم ، فكان يُنظر إليهم من أعلى باعتبارهم أداة يمكن استخدامها أو استبدالها إن دعت الحاجة ، كما كان يُنظر إليهم من أسفل باعتبارهم وحوشاً لا بد من ضربها ، فهم الأداة الواضحة لاستغلال الجماهير التي لم يكن بوسعها فهم آليات الاستغلال والقمع . وتاريخ أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي ، وكذلك العداء لهم ، هو في معظمه تاريخ اليهود كجماعات وظيفية وسيطة تؤدي وظيفتها إلى أن تظهر قوى أخرى تحل محلها في المجتمع ، مُثّلة في طبقة وسطى قوية ، أو جهاز إداري مركزي ، أو الدولة القومية الحديثة . كما أن صعود أو هبوط الجماعة اليهودية هو ، في جوهره ، تاريخ صعود أو هبوط الجماعة الوظيفية الوسيطة . فحينما كان اليهود أقنان بلاط ، كانت شرائع من الطبقات الحاكمة تستفيد من الخدمات التي يؤدونها . وبالتالي ، كان اليهود يُمنحون الموائيق التي تضمن لهم الحماية ، وتعظيم المزايا التي تجعل منهم أفراداً يتمتعون بمستوى معيشي أعلى من مستوى معظم طبقات المجتمع الأخرى . وكما قال أبراهام ليون ، فإن وضع اليهود لم يتوقف عن التحسن منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ ، وبعد الانتصار الكامل للمسيحيين حتى القرن الثاني عشر . ويمكن القول بأن النخبة الحاكمة بكل فئاتها (الإمبراطور ، والكنيسة ، والملوك ، والأمراء ، والشريحة العليا من الأرستقراطية ، وكبار رجال الدين ، والبورجوازية الثرية المستقلة في المدن) كانت كلها تقف إلى جانب أعضاء الجماعات اليهودية لا ضدهم . وكانت هذه النخبة تحمي أعضاء الجماعات بسبب نفعهم لها ، وترى الهجوم عليهم إخلالاً بهيبة النظام وتعويقاً لمساره . وكانت الموائيق التي يحصل عليها أعضاء الجماعات اليهودية تزيد بطبيعة الحال من حدة الغضب الشعبي ، ومن ثم فيمكن النظر إلى الهجوم على اليهود باعتباره ضرباً من الثورات الشعبية . ولهذا نجد أن أعداء اليهود يأتون أساساً من الشريحة الدنيا من رجال الدين ، وصغار التجار في المدن ، وآخرين . ولكن وصفا لهذه الهجمات بأنها «ثورة شعبية» لا

يعني نظرياً تزايد التعاطف مع اليهود ، أهل هذا الكتاب وحملته . ومع هذا ، يُلاحظ أن البروتستانتية اللوثرية اتجهت اتجاهاً معادياً لليهود (على عكس الكالفنية) . وفي محاولة تفسير ذلك ، يقال إن الكالفنية أكدت المسؤولية الشخصية للمؤمن ، وذهبت إلى أن ثمرة الفعل الاجتماعي (الثروة مثلاً) قد لا تكون هي سبيل الخلاص ، ولكنها تشكل قرينة مهمة عليه . وهذا ، على عكس اللوثرية التي أكدت أن الخلاص من خلال الإيمان ، الأمر الذي كان يعني رفض المسؤولية المدنية أو خلاص من خلال الأعمال . ومن ثم ، فهناك استعداد عند أتباع كالفن لتقبل اليهود والحكم عليهم ، لا من خلال ما يؤمنون به وإنما من خلال أفعالهم وثورتهم . فهم كعنصر تجارية نشطة ، يحققون الشروط اللازمة لتقبلهم ، على عكس اللوثرين الذين يركزون على الدوافع . وقد لعب اليهود المنتصرون في هذه الفترة دوراً كبيراً في بلورة الأطروحات الغربية الأساسية المتصلة باليهود واليهودية ، كما ساهموا في صياغة صورة اليهودي في الوجدان الغربي . ومن أهم الشخصيات يوحنايس فينر كورن الذي دخل معركة فكرية كبرى شغلت أوروبا بعض الوقت مع يوحناان ريو شلين .

ويُلاحظ أن هذه الفترة شهدت بداية الانعقيدة الأنفية أو الاسترجاعية التي تحدثت عن رؤية الخلاص وعودة المسيح ، وهي رؤية ترتبط بعودة اليهود إلى أرض الميعاد . ومن ثم ، تظهر صورة اليهودي كعنصر لا جذور له يمكن نقله من مكان إلى مكان . وهذه الصورة هي الصياغة البروتستانتية لفكرة الشعب انشاده الكاثوليكية والتي تحولت فيما بعد إلى صورة الشعب العضوي المنبؤ ، ويظهر اليهود كعنصر استيطاني وكجواسيس يمكن نقلهم وتحريكهم والاستفادة منهم ، وهي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

كما شهدت هذه الفترة ظهور الجيتوات في إيطاليا وفي بعض مدن وسط أوروبا ، الأمر الذي كان يعني تراجع أعضاء الجماعات اليهودية وانكماش دورهم في المجتمع . ولكن هذه الفترة شهدت أيضاً بداية ظهور يهود الأرندا في بولندا واضطلاع اليهود فيها بدور مهم في الاقتصاد التجاري . وقد حصل اليهود على العديد من المزايا التي جعلت مستواهم المعيشي يفوق كثيراً مستوى الأتقان وأعضاء الطبقة الوسطى البولندية ، بل وصغار النبلاء . وفي عام ١٦٤٨ ، اندلعت ثورة شميلنكي ، وهي ثورة شعبية فلاحية شاملة ضد الحكم الإقطاعي البولندي الكاثوليكي الذي كان يمثل العنصر التجاري الوسيط اليهودي في وسط فلاحيا أوكراني أرثوذكسي ، فكان هذا الوضع وضعاً تاريخياً يتسم بالتناقض الكامل بين العداء الطبقي من جهة والعزلة الاجتماعية والثقافية والدينية والعرقية من جهة أخرى ،

وكان كثير من اليهود المنتصرين يساهمون في التهجير ضد أعضاء الجماعات اليهودية ، ويُعرفون القيادات المسيحية (وجماعات الرهبان) بما جاء في التلمود (وبعض الكتب الدينية اليهودية الأخرى) من هجوم شرس على المسيح والمسيحية وبعض عادات اليهود الأخرى التي تهدف إلى عزلهم عن مجتمع الأغيار . وكانت تُقام مناظرات بين اليهود والمسيحيين (يمثلهم عادةً يهود مُنتصرون) حتى يُثبت كل طرف قوة حججه الدينية . وغني عن القول أن الطرف اليهودي لم يكن حراً تماماً في مثل هذه المناظرات وأنه كان يضطر إلى التعبير عن وجهة نظره بطريقة أكثر حذراً الأمر الذي كان يفقدها كثيراً من قوتها . وعادةً ما كانت تنتهي هذه المناظرات بانتنصار " الطرف المسيحي ، وإصدار الأوامر بإحراق التلمود وربما طرد أعضاء الجماعات اليهودية .

وقد استمرت النخبة الحاكمة (الكنيسة والنبلاء) في حماية اليهود ، كما استمرت الثورة الشعبية ضدهم ، وبخاصة في صفوف أعضاء الطبقة الوسطى ، الند الحقيقي للجماعات الوظيفية الوسيطة والمنافس على القطاع الاقتصادي نفسه . ويُلاحظ أنه أثناء حروب الفرنجة التي اكتسبت بعداً شعبياً ، وهو ما جعلها مستقلة نوعاً ما عن الطبقات الحاكمة ، كانت القوات غير النظامية هي التي ترتكب المذابح ضد اليهود . وفي المدن الحرة ، في ألمانيا وغيرها من البلاد ، كان الهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية يبدأ بإسقاط الأقلية الثرية الحاكمة ، ثم محل محلها نخبة جديدة ذات جذور شعبية ، ويعقب ذلك عمليات طرد وذبح اليهود . وقد انسحب معظم يهود أوروبا إلى بولندا حيث لا توجد طبقة وسطى قوية . كما تم طردهم من إسبانيا بعد أن استكمل المسيحيون استرداد إسبانيا من المسلمين بعدة شهور ، إذ اضطلعت الدولة الجديدة بوظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة وأرادت أن تؤمن نفسها ضد العناصر الغربية من المسلمين واليهود . ولهذا استمرت في ملاحقة من كانت تصور أنهم مسلمون أو يهود متخفون . ومع نهاية العصور الوسطى ، كانت كلمة «يهودي» مرادفة في كثير من اللغات الأوروبية لكلمة «تاجر» أو «مراب» ، ولكلمات أخرى مثل «بخيل» أو «غشاش» ، وهي الصورة الإدراكية التي سبتلور في عصر النهضة على يد شكسبير في شخصية «شيلوك» .

وشهد عصر الإصلاح الديني ، في القرن السادس عشر ، كسر الاحتكار الديني الكاثوليكي وتزايد التعددية . وبشكل عام ، يُلاحظ أن البروتستانتية ، بتأكيداتها أن الخلاص يتم خارج الكنيسة ، تؤكد على أهمية الكتاب المقدس الذي يضم العهد القديم ، الأمر الذي

إمكاناً كامناً في نفس بعض أعضاء الأغلبية وداخل بعض القطاعات .

يوهانيس فيفر كورن (١٤٦٩-١٥٢١)

Johannes Pfefferkorn

ألماني يهودي مُتَنَصِّر ، ومن أشهر المهيجين ضد الجماعات اليهودية . كان يعمل جزائراً وكان في الوقت نفسه متفقهاً في الدين اليهودي . يُقال إنه قُبِض عليه بتهمة السرقة وأنه ، بعد الإفراج عنه ، تنصّر هو وزوجته وأولاده في كولونيا عام ١٥٠٤ . كتب فيفر كورن عدداً من الكتيبات المعادية لليهود : **مرآة اليهود** (الذي هاجم فيه تهمة الدم أيضاً) و **الاعتراف اليهودي** وكتاب **عيد الفصح و عدو اليهود** . وقد نُشرت ترجمات لاتينية لكل هذه الأعمال فور نشرها . وقد طالب فيفر كورن بحرق التلمود ومنع الربا وأن يعمل اليهود في الأعمال اليدوية الوضيعة وأن يُقرض عليهم حضور المواقف المسيحية وإلا طُردوا من المدن الألمانية التي يقيمون فيها .

وفي عام ١٥١٠ ، قام بعض المهيجين ضد الجماعة اليهودية في براندنبرج باتهام أعضاء الجماعة بتدنيس خبز القربان المقدس ، كما وجهوا إليهم تهمة الدم . فشكّلت لجنة للتحقيق في الأمر برئاسة أسقف ميتر الذي طلب المشورة من بعض كبار المفكرين الدينيين من بينهم يوحنا ناثان ريو شلين . وكان موقف ريو شلين لا يتفق مع موقف فيفر كورن ، فكتب هذا الأخير كتيباً بعنوان **مرآة اليد** يهاجم فيه ريو شلين الذي كتب رداً بعنوان **مرآة العين** . وبذلك بدأت واحدة من أكبر المعارك الدينية في عصر النهضة في الغرب . وكانت الحركة الإنسانية الهيومانية قد حققت قدراً كبيراً من الانتشار والإحساس بالقوة ، فألقت بثقلها في صف ريو شلين . ومع أن إيرازموس لم يشترك في المعركة ، إلا أنه وصف فيفر كورن بأنه يهودي في غاية الإجرام أصبح مسيحياً في غاية الإجرام . ثم كتب فيفر كورن موعظة ضد كتاب ريو شلين **مرآة العين** وضد الاتجاه الليبرالي المسيحي ككل . وقد استمرت المعركة بعض الوقت إلى أن أصدر الإمبراطور أمراً للطرفين بالتزام الصمت . وفي عام ١٥١٤ ، أصدرت محكمة بابوية قراراً بؤيد ريو شلين ، فرفضه فيفر كورن ونشر كتاباً آخر بعنوان **جرس الإنذار** . واستمرت المعركة بعض الوقت ولكنها تركت أثراً عميقاً في الكثيرين . وليس من قبيل الصدفة أن يعلن لوثر أطروحاته عام ١٥١٧ إبان الجدل الذي دار بين ريو شلين وفيفر كورن .

والحقيقة أن ظهور فيفر كورن وشيوع كتاباته هو مؤشر على أن المسألة اليهودية كانت قد بدأت تطرح نفسها ، وبحدة ، على

وهو الوضع الأمثل للانفجارات العنصرية . وقد اكتسحت الثورة في طريقها الجيوب البولندية واليهودية . وفي الأدبيات الصهيونية ، يُقرن شميلنكي بهتلر ، مع أن الأول زعيم ثورة شعبية فلاحية له تمثال في كييف باعتباره قائداً للثورة ، والآخر زعيم نظام شمولي قام بعملية إمبريالية عنصرية .

وفي القرن السابع عشر ، ظهر يهود البلاط في وسط أوروبا ، وفي غربها بدرجة أقل ، حيث قدموا الخدمات التجارية والمالية للدول التي يتمتعون إليها وحصلوا على مزايا عديدة ، كما قاموا بحماية أعضاء الجماعات اليهودية . وبدأ استيطان اليهود السفارد في هولندا وفي بعض المدن في كل من فرنسا ووسط أوروبا . وكان هؤلاء يتمتعون بحقوق ومزايا لا يتمتع بها كثير من أعضاء الطبقات الأخرى ، كما أنهم كانوا يتحدثون باسم أعضاء الجماعة اليهودية لدى الحاكم ويقومون بدور الوسيط بينه وبين الجماعة ، وبعملية المقايضة معه بحيث يحصل أعضاء الجماعة على المزيد من المزايا نظير تقديم المزيد من الخدمات ، أو تثبيت ما حصلوا عليه من موافق نظير الاستمرار في الاضطلاع بدورهم . ويمكن القول بأنه ، مع ظهور يهود البلاط ويهود الأرند ، واستيطان السفارد في أوروبا ، تنتهي العصور الوسطى ويبدأ العصر الحديث بكل مظاهره الجديدة .

أما وضع اليهود في العالم الإسلامي ، فلا يمكن القول كما يدعي البعض بأنه كان عصراً ذهبياً واحداً طويلاً ، وإن كان من الممكن أن نقول إن العالم الإسلامي لم تظهر فيه نظرة شاملة تضع اليهودي في مركز أحداث الخلاص باعتباره « الشيطان قاتل الرب » . كما أن العالم الإسلامي يتسم بوجود عدد هائل من الأقليات العرقية والإثنية التي تفرض عليه قبول التعددية (وهي تعددية اعترف بها الإسلام وقتنها في مفهوم أهل الذمة الذي حدد لأعضاء الأقليات مكانهم وواجباتهم وحقوقهم) . كما أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يتحولوا جميعاً إلى جماعات وظيفية وسيطة بل كانوا ممثلين في معظم النشاطات الاقتصادية والمهيمنة ، فكان منهم الأطباء والوزراء والمترجمون والتجار والحرفيون . وحتى حينما اضطلعت أحياناً ببعض وظائف الجماعة الوظيفية الوسيطة واكتسبوا خصائصها ، فإن هذا الدور لم يكن مقصوراً عليهم إذ كانت هناك جماعات إثنية ودينية أخرى تشارك في نشاطهم الوظيفي ، كما كان بين هؤلاء المسلمون . كما أن عدد الجماعات اليهودية في العالم العربي ظل صغيراً للغاية بالنسبة إلى عدد السكان . ولكل هذه العناصر المركبة ، نجد أن عداء اليهود في العالم الإسلامي لم يكن بالحدة نفسها التي كان عليها في العالم الغربي الوسيط ، كما أنه ظل في معظم الأحيان

إلهي . وهذه المساواة تشمل المسيحي واليهودي وكل البشر ، ولكنها في ذات الوقت مساواة لا تعترف بهوية أي منهم ولا تحترم أية خصوصية ، أي أنها مساواة تتم في إطار فكرة الإنسان الطبيعي النافع حيث لا يشكل الإنسان إلا جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة (فهي تسوية أكثر منها مساواة) . ومن ثم ، دافع فلاسفة الاستنارة عن اليهود من منظور المساواة الكاملة ومن منظور نفعهم وإمكانية الاستفادة منهم بعد إصلاحهم وتقويمهم بما يتفق مع المعايير العقلية الطبيعية الجديدة .

أما مفهوم الدفاع عن أعضاء الجماعات اليهودية من منظور نفهم ، فهو يتضمن قدراً كبيراً من رفضهم وعدم قبولهم باعتبارهم بشرأ لهم حقوقهم الإنسانية المطلقة لأن العنصر النافع يجب التخلص منه إن فقد نفعه . وعلى أية حال ، فإن هذا القياس لم يطبق على اليهود وحدهم وإنما طُبّق على مختلف أعضاء المجتمع الذي تحكمه الدولة القومية العلمانية . بينما أدّى إصلاح اليهود إلى ظهور أدبيات شرسة تشير إلى طفيلية اليهود وهامشيتهم وطرق إصلاحهم .

وكان كل هذا يتم في إطار فكرة القانون العام والطبيعة البشرية العامة ، في وقت لم تكن الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية قد أحرزت التقدم الذي أحرزته في أواخر القرن التاسع عشر حيث سقطت فكرة الإنسان الطبيعي والإنسانية العامة وحل محلها إدراك تداخل العناصر التاريخية الخاصة مع الطبيعة البشرية ذاتها .

ومن ثم ، طالب عصر العقل (الطبيعي المادي) اليهود (وغيرهم) بالتخلص من خصوصيتهم ليصبحوا بشرأ بالمعنى العام (والطبيعي المادي) للكلمة . وكان يُنظر إلى اليهود الذين يؤثرون الحفاظ على خصوصيتهم الدينية أو الإثنية باعتبارهم « دولة داخل دولة » ، أو على أنهم جماعة قَبَلِيّة في مجتمع تسود فيه مثل الليبرالية والعلمانية والاستنارة . ويجب التنبيه إلى أن دعاة الانعتاق كانوا يعادون اللهجات المحلية كافة ، ومختلف الخصوصيات الإثنية ، بل ويُقال إن الكونت دي كليرمونت والأسقف جريجوار (وهما من دعاة إعتاق اليهود شريطة أن يتخلصوا من عزلتهم) كانا يبديان ضيقاً شديداً من الخصوصيات الفرنسية الإثنية واللغوية المحلية (البريتون والفلامنج والأوكستانيين والأفيريانيين) أكثر من ضيقهم بالخصوصية اليهودية . إذ أن فكر الاستنارة كان يحوي هجوماً على اليهود بوصفهم جماعة لها هويتها ، ويغطي سطح مضيق من القبول العام لليهودي كإنسان طبيعي ، وأي إنسان يتفق مع الموصفات القومية العلمانية الجديدة ، فالتسامح هنا دعوة للتخلي عن الهوية وللقتضاء عليها ، وذلك باسم الهوية القومية المضوية الجديدة التي تتجسد في

الوجدان الغربي ، وذلك مع نهاية العصور الوسطى في الغرب ومع ظهور الدولة المركزية وبداية تراجع أهمية دور الجماعات اليهودية الوظيفية . وما يجدر ذكره أن ريوشيلين ، الطرف الآخر في المعركة ، كان يطالب هو الآخر بإصلاح اليهود ، أي بإعادة تعريف دورهم بما يتناسب مع المرحلة الجديدة ، وكان يرى وجوب طردهم إن لم يصلحوا حالهم . وهكذا ، فإنه لا يوجد اختلاف كبير في الرؤية والمقدمات بين فيفركورن وريوشيلين إذ أن الاختلاف ينصرف إلى طبيعة الحل المطروح وحسب .

(انطون مارجريستا ١٤٩٠ - ٩)

Anton Margarita

كاتب ألماني يهودي وابن حاخام مدينة ريجنسبرج . تكلّك عام ١٥٢٢ ثم أصبح بروتستانتياً بعد ذلك . عُيّن محاضراً في اللغة العبرية في عدة جامعات ألمانية حتى عام ١٥٣٧ حين عُيّن في جامعة فيينا التي بقي يعمل فيها حتى وفاته . نشر أول كتبه المعادية لليهود عام ١٥٣٠ والذي حاكى فيه أعمال اليهودي المتصنر فيفركورن حيث اتهم اليهود بأنهم لا يعرفون سوى الكراهية وأنهم يهزأون بالمسيح والمسيحية في أدعيتهم وكتبهم .

عُقدت مناظرة (بأمر الإمبراطور تشارلز الأول) عام ١٥٣٠ بينه وبين جوزيف من روشايم حيث أثبت الأخير زيف بعض ادعاءات مارجريتا ، فأمر الإمبراطور بوضعه في السجن .
تتمتعت كتابات مارجريتا بالذيوع وتركت أثراً عميقاً في مارتن لوتر الذي اقتبس منها عدة مرات .

الصور الإدراكية النمطية المعادية لليهود منذ القرن الثامن عشر

Anti-Semitic Stereotypes since the Eighteenth Century

سادت العصور الوسطى في الغرب صور إدراكية ثابتة عن اليهود ، منها أن اليهود شعب شاهد ، ومنها أنهم مصاصو دماء ، ومنها أنهم قتلة المسيح ، وأنهم يدبسون خبز القربان ويسمّمون الآبار . وغني عن القول أن معظم هذه الأفكار فقد كثيراً من البريق والشيوع ، وحلت محلها أفكار وصور إدراكية ثابتة أخرى سنكتشف أن معظمها ظهر من خلال علمنة الصور الإدراكية السابقة وإعطائها أساساً علمياً مادياً .

وينطلق فكر عصر الاستنارة (العقلانية المادية) ، وهو إحدى أهم ركائز الفكر الحديث في الغرب ، من فكرة المساواة الكاملة بين البشر ومن كفاية العقل للوصول إلى الحقيقة دون حاجة إلى وحي

الأخرى . ولهذا ، لم يكن الهجوم الاستناري يُشَن على السمات اليهودية في النسق الديني اليهودي وحسب ، وإنما كان يُوجَّه كذلك (وأحياناً بالدرجة الأولى) إلى تلك السمات المشتركة بين اليهودية والأديان السماوية الأخرى . وهذا ما فعله فولتير في معجمه الفلسفي (١٧٥٦) ، فهو في المدخل الخاص باليهود يعتبرهم عنصراً مستقلاً مستمراً منذ أيام العبرانيين القدامى ، ويستبعد أن يكون المصريون القدماء أو الفرس أو اليونان قد أخذوا قوانينهم عن اليهود ، بل ويرى أنهم شعب جاهل تماماً جمع بين البخل والخرافات وكره الأمم التي تسامحت تجاههم . إلا أنه يضيف : «ولكن يجب عدم حرقهم» وكأن الإبادة بديل مطروح للنقاش .

أما الفيلسوف المادي هولباخ ، فقد اتهم موسى بأنه أوجد الشريعة التي فصلت اليهود عن سائر الأمم . وأوضح في هجومه أن اليهود لا يخضعون إلا لكهنتهم ، ولذلك أصبحوا أعداء للجنس البشري بأسره يكون الاحتقار لأخلاق الأمم الأخرى وقوانينها ، إذ أن شريعتهم تأمرهم بأن يكونوا قساة لصوصاً خونة غادرين ، ومثل هذه الأعمال تُعدُّ في اليهودية عملاً يرضي الرب . ويُضيف هولباخ أن اليهود اشتبهوا ، في الواقع ، بالخداع والغش في التجارة ، ويمكن افتراض أنهم إذا أصبحوا أكثر قوة فسوف يعيشون الماسي التي كثيراً ما وقعت في بلادهم . وإن وُجد بعض اليهود الذين يتسمون بالأمانة والعدل ، فهذا يعني أنهم رفضوا بكل وضوح مبادئ الشريعة اليهودية التي تهدف إلى خلق مثيري المتاعب والأشعار . وكما هو واضح ، يرى هولباخ اليهود عنصراً أو شعباً واحداً .

ولكن فكر الاستنارة لم يكن البُعد الوحيد في الفكر الغربي الحديث . فمعاداة الاستنارة ، والتمرد عليها ، والرومانسية ، كانت أبعاداً ثابتة وأساسية فيها ، ولا تقل عن الاستنارة نفسها في الأهمية . وقد انعكست هذه الرومانسية تجاه اليهود في مواقف متناقضة أيضاً ، فتم بعث فكرة اليهودي التائه وتمجيده باعتباره نموذج البطل الرومانسي الحق . ولكننا نلاحظ أن اليهودي التائه هو ، في واقع الأمر ، اليهودي الهامشي . حتى إذا كان بطلاً ، فهو بطل عجائبي متجرد من صفات إنسانية متعينة . وبالتالي ، فإن تمجيد اليهودي بوصفه بطلاً رومانسياً كان ينزع عنه صفاته الإنسانية وهي الخطوة الإدراكية الأولى نحو معاداة اليهود .

كما وجه فلاسفة الرومانسية النقد إلى اليهودية باعتبارها ديانة لاروح فيها . وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى موقف عمانوئيل كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤) وهيجل (١٧٧٠ - ١٨١١) باعتبارهما مثليين

الدولة القومية المركزية . وأدَّى كل هذا في نهاية الأمر إلى ظهور اليهودي غير اليهودي .

وقد وجد اليهود أنفسهم وسط حلبة الصراع بين المسيحية والعلمانية ، حيث كان العلمانيون يشيرون إلى اليهود باعتبارهم ضحية عصور الظلام المسيحية الوسيطة ، أي أن اليهود تحولوا من شعب شاهد على عظمة الكنيسة إلى شعب شاهد على جبروتها وظلمها . وتحوَّل اليهودي ، لذلك ، إلى بطل من أبطال العلمانية . وأصبح بعض العلمانيين ينظرون إلى اليهودية باعتبارها دين العقل ودين الفلاسفة الذي يؤمن بالرب الواحد دون حاجة إلى طقوس مركبة أو معجزات ، أي أن اليهود واليهودية أصبحا مقولة مجردة تُستخدم لضرب المسيحية والكنيسة . وقد وُلد هذا في نفوس المسيحيين صورة غير محببة لليهودي .

ولكن فريقاً آخر من دعاة الاستنارة كان يتبع إستراتيجية مخالفة تماماً ، إذ أنهم بدلاً من أن يضعوا اليهودي مقابل الكنيسة كانوا يحولون اليهودي إلى رمز للدين ، أي دين ، أو إلى ممثل لما كانوا يسمونه «المسيحية البدائية» . وبالتالي ، فإنهم بدلاً من الهجوم على الكنيسة والمسيحية بشكل مباشر ، وهو أمر كانت تحفه المخاطر ، كانوا يسددون سهامهم إلى اليهود واليهودية والعهد القديم في هجوم متَّع على المسيحية . وكان هذا الفريق يشير إلى تخلف اليهود والخرافات التي يؤمنون بها مثل تراث القبالة ، وإلى أن الدين اليهودي دين معاد للإنسان يشجع على العزلة وعلى عدم الولاء للدولة في وقت كان المجتمع فيه يتجه نحو العلمانية والتحرر .

لكل هذا ، نجد أن عصر الاستنارة هو العصر الذي تم فيه وضع الأسس الفكرية لمعاداة اليهود (وللصهيونية في الوقت نفسه) في العصر الحديث ، حيث نجد الأطروحات والصور الإدراكية النمطية الثابتة التي تنسب إلى اليهود قدراً كبيراً من الصفات المنفردة ، وانطلاقاً من ذلك اقترح تهجيرهم إلى مكان آخر حلاً لهذا الوضع (أي أن الصيغة الصهيونية الشاملة يكتمل تبلورها في هذه المرحلة) . ومن باب الهجوم المتَّع على المسيحية ، كان يُطرح أن الكتاب المقدس وثيقة مزيفة ، وأن أبطال العهد القديم أوغاد لا خلاق لهم (ومتعصبون ضيقو الأفق) مارسوا الاضطهاد الديني ضد الآخرين ، وأن اليهود الذين أتوا بالعهد القديم (وهو أكثر أجزاء الكتاب المقدس توحشاً حسب رأيهم) شعب همجي ؛ قاس وفساد . وقام دعاة الاستنارة ببعث أطروحات الكنيسة ضد اليهود في محاولة مأكرة لاستخدام هذه الأطروحات لا ضد اليهودية وحسب وإنما ضد المسيحية (باعتبار أن اليهودية أم المسيحية) بل وضد كل الأديان

كامن في الجمال) من جهة ، والمسيحية واليهودية من جهة أخرى ، باعتبارهما عقائد تدور كلها حول كتاب مقدس يحتوي على قوانين تُفرض على الإنسان من الخارج في حالة اليهودية أو حول حقيقة مقدسة (واقعة الصلب) في حالة المسيحية .

ولكن هيجل تخلى عن موقفه هذا في مرحلة لاحقة وأخذ ينظر إلى تاريخ الأديان بطريقة يُقال لها جدلية . ويرى هيجل أن العقيدة تصبح برانية وجافة إن لم يتحد المقدس بالزمني ، ولكنها تقتصر إلى الجدية إن لم يكن هناك انفصال بينهما . ومن ثم ، فإن العبادة اليونانية والإحساس اليهودي بالقداسة يقفان على قدم المساواة ، فالعبادة اليونانية للتمثال الجميلة تنطوي على قدر من الحقيقة ، فمة قداسة في الجمال . ولكن الإنسان هو صانع هذه التماثيل ، والإنسان مثناه والتمثال من ثم متناهية . ولكن تاهيها يجعلها زائفة رغم جمالها . ولذا ، قامت الفلسفة القديمة بتزعج القداسة من هذه التماثيل . وهذا أيضاً ما أنجزته اليهودية منذ البداية ، فالإله في اليهودية متجاوز للطبيعة والإنسان ومن ثم تصبح التماثيل (وأشكال الجمال الطبيعي والمادي) غير مقدسة . ولكن هذا الإنجاز اليهودي له ثمنه القادح ، فهو يعني انفصال الإنسان عن الخالق ولا يمكنه أن يمتزج معه ويتحد به من خلال الحب . فعبادته لإلهه بمعيشة الخوف والرهبة . وتأخذ التجربة الدينية اليهودية شكل الطاعة العمياء (البرانية) للقانون (الشريعة) والرغبة في الثواب ولا يوجد فيها أي أساس للروحانية ، فهي تشكل انفصلاً كاملاً للموضوع عن الذات . ويرى هيجل أن هذا هو السبب في أن العالم الوثني الروماني كان يطرح مفهوماً عابثاً للحقيقة على عكس اليهودية التي تؤمن بإله عالمي ولكنها ظلت حبيسة خصوصيتها القبلية والقومية . ويرى هيجل أن المسيحية تحقق مثل اليوناني واليهودي معاً ، إذ يخرج الإله من ذاته ليصبح إنساناً ومن ثم يصبح الإنسان إنهما !

وموقف هيجل من اليهودية يدل على عدم معرفته باليهودية التلمودية والقيسانية ، التي يتم فيها الاتحاد الكامل بين الخالق والمخلوق ، والتي لا تختلف كثيراً عن القبلية المسيحية والتصور الخلوي المسيحي التي تأثر بها هيجل (من خلال أعمال جيكون بومه وأوتينجر) . وهذه الرؤية أثرت في كتابات فيسر من بعده (وأثرت كذلك في الموقف المسيحي الغربي من الإسلام ، إذ قرنت اليهودية بالإسلام) . وقد أثر هيجل بشكل عميق في كثير من المفكرين اليهود مثل سمسون هيرش وصمويل هيرش وموسى هس وهنريش جرايتس . وثمة مكون هيجلي قوي في الفكر الصهيوني ، خصوصاً التصور الصهيوني للتاريخ .

أساسيين للرؤية الغربية (شبه الدينية والعلمانية) للعقيدة اليهودية . يصدر كانت عن الإيمان بأن المسيحية هي أقرب الديانات إلى الديانة الأخلاقية الطبيعية التي بشر بها . وهي ديانة تستند هي وتعاليمها الأخلاقية والروحية إلى الحب الخالص . ويقف هذا على الطرف النقيض من اليهودية ، فهي مجرد كيان قومي سياسي ، وهي ديانة برانية تقتصر إلى المثالية الروحية ؛ لا تنمي الحب الخلقي الداخلي ، وتتطلب الخضوع للقانون والشريعة بشكل جاف . وقد أشار كانت أيضاً إلى أن العقيدة اليهودية عقيدة دنوية لا تعرف فكرة الخلود (وهي فكرة أساسية عند كانت) ، وأن المشيحية اليهودية نزعة قومية سياسية متغلقة وأنها حوكت الشعب اليهودي إلى عدو لكل الشعوب . وأشار كانت إلى يهود عصره فبين أنهم يشتهرون بالغش والخداع ويشغلون بالتجارة والربا . ولا يوجد حل للمشكلة إلا من خلال القتل الفكري الرحيم وذلك بالقضاء على اليهودية وإحلال دين صاف طاهر أخلاقي محلها (أي المسيحية) . وقد استقى كانت هذه الفكرة الخاطئة من إسبينوزا ومندلسون . ولكن الموقف السلبي لكانت من اليهودية لم يؤثر على علاقته بمن عرفهم من أعضاء الجماعات اليهودية .

وقد تأثر الفكر الغربي برؤية كانت لليهودية وللدين بشكل عام (بما في ذلك المفكرون الغربيون اليهود) ، فنجد أن كثيراً من مفكري عصر الاستنارة من اليهود يميزون بين الجوهر العقائدي لليهودية ، وهو الجوهر العالمي الذي لا يتنافى مع العقل الإنساني والحب الخلقي من جهة ، والشعائر التي تتسم بالخصوصية والقومية ، من جهة أخرى . كما أن كثيراً من المفكرين الغربيين كانوا يفرقون بشكل ساذج بين المسيحية باعتبارها دين القلب والحب الديني الجواني ، واليهودية بوصفها عقيدة العقل والتعاقد البراني (وهو تمييز امتد ليُطبّق على الفرق بين المسيحية والإسلام) . وقد ترك فكر كانت أثراً عميقاً في دعاة الاستنارة من اليهود مثل سولومون مابون ولازاروس بنديفيد وماركوس هرتز ، كما تأثر بفكره في مرحلة لاحقة هرمان كوهين وسولومون ستانهايم وفرانز روزنفايخ (وإن كان تأثرهم به بدرجة أقل) . وقد تأثر دعاة اليهودية الإصلاحية بكانت ، حيث كانوا يرون أن اليهودية هي أساساً نظام أخلاقي ، وهذا قريب للغاية من تصور كانت للدين المثالي .

وقد استمر هيجل في الاتجاه نفسه حيث تأثر هو الآخر برأي مندلسون القائل بأن اليهودية هي مجموعة من القوانين الموحى بها وليست حقيقة موحى بها . ويتم موقف هيجل من اليهودية ، بقدر من العداء في كتاباته الدينية الأولى ، حيث كان يُفرّق بين العقيدة الشعبية الوثنية اليونانية القديمة التي تتسم بالكهنوتية (باعتبار أن الإله

البورجوازية الثورية تنظر إلى اليهود باعتبارهم عنصراً مهماً لاستمرار الوجود الإقطاعي . وكان كبار عمومي اليهود قريين بالفعل من النخبة الحاكمة يشكلون جماعة وظيفية وسيطة تمد أعضاء هذه النخبة بما يحتاجون إليه من أموال وبضائع ، وهو ما كفل لهم شيئاً من الاستمرار ويسرّ ضرب البورجوازيات الصاعدة . ولكن الفريق الأكبر من المفكرين (من اليمين واليسار) كان يرى أن اليهود مرتبطون عضواً بالبورجوازية والاقتصاد الجديد والليبرالية السياسية . وكان روتشيلد هناك دائماً ينهض دليلاً عملياً محسوساً يوهب بصدق هذه النظريات . وبطبيعة الحال ، كانت قطاعات المجتمع المرتبطة اقتصادياً أو وجدانياً بالاقتصاد الزراعي القديم تهاجم اليهود كتجار يحملون قيم التنافس والتجارة والعلمانية . وكان دعاة القومية السلافية المعروفة بعدائهم للغرب (المنحل) ولأفكار الرأسماليين (المادين) ، يرون اليهود بتكاليفهم المفترض على الثروة وتفككهم الاجتماعي (والذي كان حقيقة مادية بالنسبة لقطاعات كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر) شاهداً حياً على هذه المادية .

ويجب أن نذكر أن فكر معاداة الاستنارة أفرز مناخاً معادياً لفكر المساواة والمثل الليبرالية والثورة ، فهو يمجّد العصور الوسطى وفكرة الجماعة العضوية المترابطة (الجمائينشافت) مقابل الجماعة التعاقدية المفتتة (الجييسيلشافت) ، وهو التمييز الأساسي الكامن في الفكر الألماني الاجتماعي وفي معظم الفكر الغربي الثوري والرجعي . وكان اليهود جماعة وظيفية وسيطة دينامية متحركة مرتبطة بالتجارة والمال ، وبالتالي بالبورجوازية الصاعدة وبالمجتمع الجديد . وقد تمت علمنة اليهود بسرعة مذهلة ربما بسبب الأزمة التي كانت تحتازها اليهودية ، كما أن أعداداً كبيرة من اليهود انخرطت بطبيعة الحال في الأحزاب الليبرالية والحركات الثورية ، وهو ما جعل لليهود بروزاً غير عادي في هذه الحركات وربط بين اليهود والليبرالية والثورة .

وإذا كان هذا هو رأي اليمين ، فإن عينات كبيرة أيضاً من اليسار ربطت بين اليهودي من جهة والرأسمالية والبورجوازية وماديتها الخسيسة من جهة أخرى . وكان العداء للرأسمالية ، يأخذ في كثير من الأحيان شكل معاداة اليهود ، كما هو واضح في كتابات فوربي وتوسونيل وماركس . وقد كتب سومبارت أطروحته المشهورة التي يبين فيها أن اليهود هم المسئولون عن ظهور الرأسمالية (وهذا في رأيه تعبير آخر عن فكرة الصراع بين الساميين والآريين) . والساميون هنا (أي اليهود) هم التجار المتجولون ، والآريون هم الفلاحون المنتجون المرتبطون عضواً بالأرض . وكانت الأطروحة الاشتراكية تكتسب

ولا شك في أن هذا الوصف لليهودية لا يخلق جسراً من التعاطف مع أتباع هذه العقيدة . ولكن فكر معاداة الاستنارة (الرومانسي) كان يشكل أساساً قوياً لمعاداة اليهود في جانب آخر من جوانبه . فهو فكر يرفض فكرة الإنسان الطبيعي العام ويؤكد الخصوصية . ويرى أن لكل أمة عبقرية خاصة وسمات أزلية يحملها من يتبع إلى هذه الأمة عن طريق الوراثة والتنشئة ، وهو ما سميناه بفكرة «الشعب العضوي» التي تبدت في تأكيد خصوصية اليهود كشعب عضوي منفصل عن غيره من الشعوب (وهذه علمنة لفكرة الشعب الشاهد) ، فهو شعب ذو خصائص ثقافية واقتصادية ودينية فريدة وله علاقته العضوية بأرضه . ومن ثم ، تنشأ فكرة ضرورة استرجاع اليهود إلى أرضهم (فلسطين) كي يحققوا الوحدة العضوية المطلوبة ويحققوا هويتهم .

ويلاحظ أن هذه الرؤية يكسوها سطح مصقول من حب اليهود والتحيز لهم ، ولكنها تُضمّر تضمينات معادية لهم أو تفترض أنهم شعب عضوي سامي أسوي لا ينتمي إلى التشكيلات العضوية الآرية في الغرب ، وأنه لو مكث داخل هذه التشكيلات لأصبح عنصراً مريضاً مخرباً مصاباً بازدواج الولاء ، وبالتالي لا يمكن دمجه في المجتمعات التي يوجد فيها ولابد من طرده ، وهو ما سميناه «الشعب العضوي المنبوذ» . وقد بُنيت دعاة النظريات العرقية والقومية العضوية الرأي القائل بأن الصراع الحقيقي والحتمي هو الصراع بين الأجناس والقوميات المختلفة وليس الصراع بين الطبقات والفئات المختلفة داخل التشكيل القومي الواحد . ومن ثم ، أصبح اليهود ، كشعب عضوي منبوذ ، عنصراً مهماً ، إذ أن الجماعة العضوية تحتاج إلى جماعة عضوية أخرى تكون بمنزلة الأداة حتى تحدد هويتها من خلال رفضها لها . كما أن اليهودي المندمج الذي يتقمص شخصية غير شخصيته ، على نحو ما يتصور دعاة الفكر القومي العضوي ، يقف بتفككه وفقدانه هويته شاهداً على تماسك الأم العضوية .

وهكذا ، نجد أن التيارين الأساسيين في الحضارة الغربية الحديثة ينطويان على قدر كبير من العداء لليهود : يتمثل الأول في دعوة اليهود إلى الاندماج بعد أن يفقدوا كل خصوصية وتميُّز ، أما الثاني فيقرر ابتداء أنهم لا يمكنهم الاندماج . ورغم اختلاف التيارين ظاهرياً ، فإنهما يتفقان على رفض اليهودي .

وهناك عنصر آخر في الفكر الاجتماعي الغربي ساهم بدوره في صياغة الرؤية الغربية الحديثة لليهود ، ويتمثل فيه هذا الانقسام الذي لاحظناه بين مفكري عصر الاستنارة ، إذ كانت بعض العناصر

الداروينية الاجتماعية ، وهي أساساً رؤية للعلاقات الاجتماعية من خلال نموذج ينقل القيم التي زعم داروين أنه اكتشفها في عالم الطبيعة إلى المجتمع الإنساني . وكانت هذه الداروينية من أهم مصادر الفكر الصهيوني بخاصة ، والفكر الإمبريالي بعامة ، فكان يتم تبرير إبادة الملايين في أفريقيا واستعبادهم في آسيا على أساس أن هذا جزء من عبء الرجل الأبيض ومهمته الحضارية ، فهو يبيد الملايين ليؤسس مجتمعات متقدمة متحضرة ! ولكن الرجل الأبيض هو أساساً الرجل الأقوى الذي لا يكتثر كثيراً بالخير أو الشر . ولم يكن من الممكن إدراك الواقع بطريقتين مختلفتين : إحداهما ليبرالية خاصة بأوروبا ، والثانية إمبريالية عنصرية خاصة بالمناطق التي تقع خارجها . فالعنصرية رؤية متكاملة للإله والطبيعة والتاريخ والإنسان . وكان محتماً أن تقع أكبر الأقليات في أوروبا ، وأتحررها انتشاراً وبروزاً ، ضحية لهذا التحول الإداركي والاجتماعي .

تاريخ معاداة اليهود منذ القرن الثامن عشر

History of Anti-Semitism since the Eighteenth Century

تتمثل السمة الأساسية في أدبيات معاداة اليهود في العصر الحديث أن تُنسب إلى اليهودي صفات خفية ثابتة نصيقة به لا يمكن التخلص منها إذا شاء أن يفعل . فبينما كان يوسع اليهودي في الماضي أن يتخلص من هويته تماماً عن طريق التنصير ودخول الكنيسة التي كانت تفتح له دائماً ذراعها ، فإن هذا البديل لم يُعد مطروحاً في العصر الحديث ، مع ظهور النظريات المادية التفسيرية (للإنسان والكون) التي تفسر الوجود في إطار مجموعة من القوانين المادية الختمية التي تخضع لها الظاهرة . إذ أن سمات اليهودي وخصائصه أصبحت خصائص وراثية وسمات بيولوجية ذات جذور مادية عرقية ومن ثم لا يمكنه الفكك منها مهما بذل من جهود . بل إن اندماج اليهود ، ورغبة بعضهم في الهرب من يهوديتهم تشبهاً بالأغلبية ، هما في الواقع (حسب الرؤية الحديثة لمعاداة اليهود) مؤشرات على نجاحهم في التخفي والتمسك بالهوية !

ويمكننا أن نقول إن ثمة أسباباً كثيرة أدت مجتمعة إلى تفجّر موجة معاداة اليهود في أواخر القرن الماضي :

١ - أدت الثورة الصناعية والثورة الليبرالية ، وظهور الدولة القومية ، إلى فقد اليهود لدورهم التقليدي كجماعة وظيفية بسيطة ، إذ ظهرت طبقات محلية يمكنها أن تضطلع بهذا الدور . كما أن الدولة القومية استوعبت كثيراً من الوظائف التي كان يقوم بها أعضاء الجماعة . وقد تحوّل معظم أعضاء الجماعات اليهودية في

أحياناً ، بعداً قومياً متعصباً بحيث نجد أن بعض الكتاب الألمان ، بنوقهم الرومانسي إلى العصور الوسطى العضوية (الجمائشافت) ، كانوا يرون أن الرأسمالية ظاهرة غير ألمانية (دخيلة) أدخلها العنصر التجاري اليهودي الغريب ، وأخذوا يدعون إلى العودة إلى حياة أكثر ألمانية وبساطة !

ويتضح هذا الخط بوضوح في كتابات دوهرنج الذي كان عداؤه لليهود يستند إلى عداة صريح للبرالية السياسية والاقتصادية ، إذ كان يرى أن اليهود استغلوا الجو الليبرالي السياسي والاقتصادي ليدمرُوا المجتمع الألماني المتماثل ويهيمنوا عليه . وقد ذهب دوهرنج إلى أن « جمجمة الإنسان اليهودي ليست جمجمة إنسان مفكر ، فهي ملأى على الدوام بالربا والشئون التجارية » . ويؤلف اليهود في نظره « عرقاً وضيقاً لا مثيل له » . وتكتسب فكرة الحفاظ على الشرف العرقي بعداً اشتراكياً في كتاباته إذ يؤكد ضرورة إزاحة الهيمنة اليهودية من عالم المال لتحقيق هذا الهدف . ويجب أن نصيف أن ما دعم الصور النمطية الإدارية هو وضع اليهود المتدني حضارياً واقتصادياً وثقافياً . فالجيتو كان من أقذر الأماكن في أوروبا ، كما أن التسول اليهودي كان ظاهرة عامة . ومع نهاية القرن ، كانت الجماعات اليهودية في الغرب في حالة انكسار وتحلل ، بعد أن تم ضرب قيادتها الدينية التقليدية وبعد أن فُرض عليها التحديث والعلمنة بكل قسوة وسرعة . وكذلك ، كان القواد اليهودي والغبى اليهودية يمثلان حقائق مادية صلبة . وكانت الحركات الثورية تضم في صفوفها أعداداً كبيرة من الشباب اليهودي . وكان كثير من الفضاض المالية وأعمال الغش يرتكها يهود . كل هذا يعني أن الصور الإدارية كانت ذات أساس واقعي ، ولكنه كان أساساً واقعياً مجرداً تماماً من سياقه التاريخي حتى بدا وكأنه حقيقة كاملة .

لكن العنصر الأساسي الذي ساهم في ترسيخ الصور الإدارية الكريهة عن اليهود ، وفي تصاعد الهجمات ضدهم ، هو الظاهرة الإمبريالية . فقد كان القرن التاسع عشر هو عصر التوسع الإمبريالي الغربي الذي انتهى بالهيمنة على كل أنحاء المعمورة ووضع الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية موضع التنفيذ على مستوى العالم . وصاحب هذه العملية ظهور مجموعة من الأفكار والنظريات والصور الإدارية العرقية التي تحاول تسويق سيطرة الإنسان الأبيض على بقية الأعراق . فضلاً عن أن الفلسفة النيتشوية كانت تكتسح أوروبا ، وهي فلسفة تنظر إلى الواقع باعتباره صراعاً لا يهدأ ، صراع الجميع ضد الجميع ، ويستند فيه البقاء لا إلى الحق والخير والجمال وإنما إلى الحركية والقوة والإرادة . كما سادت أوروبا آنذاك الفلسفة

الانفجار السكاني الضخم بينهم . وأدّى كل هذا إلى احتكاك واسع المدى بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين بعض قطاعات المجتمع تحت ظروف لم تكن مواتية تماماً بسبب الثورة الصناعية التي حرمت الملايين من الأمن التقليدي الذي كانوا يتمتعون به في المجتمع الزراعي .

٧ - انتشر اليهود في المجتمعات الغربية بعد أن ضعفت هويتهم وقيمهم الدينية ، وبعد أن اقتلعتوا من محيطهم الثقافي المألوف لهم . ولذا ، كانت تنتشر بينهم ظواهر مثل الغش والسرقة ، الأمر الذي عزز من الصور الإدراكية السلبية عنهم .

٨ - أصبح كثير من اليهود عن يمكن تسميتهم «يهود غير يهود» ، أي يهود ليس فيهم من اليهودية سوى الاسم ، فقد تأكلت هويتهم الدينية والإثنية تماماً ، ومع هذا استمرت المجتمعات الغربية في تصنيفهم يهوداً . وهذا أمر جعل الناس يشعرون أن اليهود يوجدون في كل مكان وزمان .

٩ - هؤلاء اليهود غير اليهود كان لابد من تعريفهم بطريقة ما . وقدم تعريفهم بطريقة عرقية مجردة حيث كان التعريف الديني التقليدي غير ممكن . فالتعريف المشترك بين الشحاذ اليهودي من شرق أوروبا والموسيقار اليهودي من غربها والتاجر اليهودي من وسطها ، لم يكن الدين أو حتى هوية قومية بعينها ، وإنما كان خاصية مادية عرقية افتراضية كامنة غير ظاهرة ولا واضحة المعالم ، وهي الخاصية البيولوجية اليهودية التي كان الجميع يفترضون وجودها رغم عدم ظهورها .

١٠ - من المفارقات التي تستحق التسجيل أنه مع تزايد الحقوق المعطاة لأعضاء أية أقلية يزداد العداء لها ؛ ذلك لأن الأقلية حينما يتم حصرها تلزم مكانها ، وحينما تتم عملية القمع بموجب القانون أو بحكم البنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع ، يقل العنف الفردي إذ تتكفل المؤسسات بعملية العنف . ومن هنا ، لم تكن ثمة عمليات اختطاف وشنق للزنوج في جنوب أفريقيا في حين كانت هذه الظاهرة منتشرة في الولايات المتحدة ، ومن هنا أيضاً كان خلو إسرائيل من العنف الشخصي (على الأقل حتى نشوب الانتفاضة) . وقد تزايد الكره الفردي الموجه لليهود مع تزايد معدلات الاعتناق والعلمنة . كما تزايد الهجوم عليهم لأنه هجوم على خطر خفي غير ظاهر ، إذ أن اليهودي المندمج لا يتصرف كما يتصرف اليهودي بشكل سهل رصده ، وإنما يتصرف بشكل " طبيعي " باعتباره فرداً عادياً في المجتمع ، الأمر الذي يجعل من رصده عملية مستحيلة .

١١ - ظهور الإمبريالية الغربية ، والنظريات العرقية والداروينية التي

الغرب إلى طبقة وسطى في نهاية الأمر ، ولكن الفجوة الزمنية بين الفترتين أدت إلى تفجر مشاعر الكراهية ضد قطاع بشري لم يعد له أي نفع ولم يكتسب وظائف جديدة بعد .

٢ - تكتسب الدولة القومية سرعتيها من التاريخ المشترك والثقافة المشتركة . ويستند النقد الاجتماعي العلماني (للمجتمع الإقطاعي والديني) إلى هذين العنصرين ، ومن ثم يتحدد الانتماء أو عدم الانتماء بمقدار مشاركة المواطن في هذا التاريخ والثقافة . وقد كانت الجماعات اليهودية عادة ذات هوية مستقلة نوعاً عن محيطها الثقافي ، الأمر الذي كان يجعلها تقع معنوياً خارج دائرة العقد الاجتماعي مع أنها كانت فعلياً داخل دائرة المجتمع ، وهو ما ولّد كثيراً من العداء تجاه أعضاء الجماعات اليهودية .

٣ - تعمّر التحديث في وسط أوروبا وشرقها في نهاية القرن التاسع عشر .

٤ - وجود أغلبية يهود العالم في أوروبا الشرقية (يهود اليديشية) في بلاد لم تُسد فيها المثل القومية الليبرالية ، وفي مناطق حدودية متنازع عليها ، وفي روسيا (البلد الذي كانت تحكمه بيروقراطية متخلفة لا تفهم وضع اليهود) .

٥ - ارتباط اليهود بالحركات الثورية العلمانية البينية واليسارية . فقد كان اليهود رمزاً واضحاً للمجتمع الصناعي الرأسمالي الجديد ، وبالتالي أصبحوا هدفاً للجماهير التي اقتلعتهم الاقتصاد الجديد وألقى بها في المدن والمصانع للعمل تحت ظروف غير إنسانية . ومن ثم أصبح اليهودي بالنسبة إلى البورجوازيات الصغيرة الضعيفة ، في كل من ألمانيا وبولندا وروسيا ، هو العائق الأساسي الذي يقف حجر عثرة في طريق غوها الاقتصادي لأنه غريم قوي . كما كان الجميع يرون في اليهودي يسارياً ثورياً يهدد المجتمع من أساسه . ويبدو أن عدداً كبيراً من أعضاء الجماعات اليهودية انضموا للأحزاب الشيوعية الحاكمة في روسيا وشرق أوروبا ، واشتركوا في عمليات قمع المعارضة التي قامت بها الأحزاب الشيوعية الحاكمة ، فارتبط أعضاء الجماعات اليهودية في الذهن الشعبي بهذه النظم . ورغم عدم وجود يهود في كثير من بلاد أوروبا الشرقية ، إلا أن العداء لليهود لا يزال مستمراً بسبب العداء الراسخ للشيوعية .

٦ - مع الإعتناق السياسي والاقتصادي لليهود ، لم تعد الجماعة اليهودية جماعة وسيطة مغلقة تعيش في مسام المجتمع داخل الجيتو ويمكن التسامح معها ، بل خرج أعضاؤها إلى المجتمع ليتحموا بالبناء الطبقي والاجتماعي والثقافي للمجتمع ، وقد حققوا حراكاً اجتماعياً وطبقياً كبيراً ، وانتشروا بأعداد كبيرة في أنحاء أوروبا بسبب

صاحبتها ، والتي جعلت من الصراع حقيقة أساسية في الوجود الإنساني وقبلت القوة العضلية معياراً أساسياً .

١٢ - من أهم أسباب تزايد مشاعر العداء لليهود الانفجار السكاني بين يهود البديشية في شرق أوروبا في وقت سادت فيه أفكار مالتوس وزاد الحديث عن وجود فائض سكاني لابد من التخلص منه . وقد صدرت شرق أوروبا ملايين اليهود إلى وسطها وغربها وإلى الولايات المتحدة . وكان يهود شرق أوروبا كتلة متميزة مختلفة متحللة ، وكان وصولهم يصعد مشاعر الكراهية ضدهم . وكان السكان لا يميزون بين اليهود الوافدين واليهود الأصليين إذ أن الجميع مجرد «يهود» . ولم يكن الوافدون يهوداً وحسب ، وإنما أجناب وغرباء أيضاً . وكان اليهود مرتبطين أحياناً بالعدو ، كما هو الحال في فرنسا ، وخصوصاً في الألزاس واللورين ، فالبيديشية التي كانوا يتحدثون بها كانت رطانة ألمانية .

١٣ - أدى ظهور وسائل الإعلام الحديثة إلى وجود قنوات تنقل الفكر العنصري بسهولة ويسر إلى ملايين الناس وتشيعه بينهم .

١٤ - تزامن كل هذا مع الكساد الاقتصادي في أواخر القرن ، الأمر الذي زاد من حدة التوتر الاجتماعي .

وقد أدت كل هذه الأسباب مجتمعة إلى تحول كره اليهود من مجرد عواطف إنسانية كامنة إلى حركات سياسية . ويعود التاريخ الحديث لمعاداة اليهود على أساس عرقي إلى عام ١٨٧٣ (في وسط أوروبا) ، وذلك مع انهيار البورصة التي كان لبعض الممولين اليهود ضلع فيها ، ومع الصعوبات الاقتصادية التي بدأت تطل برأسها . وقد أسس قس البلاط الألماني ، أدولف ستوكر ، حزباً مسيحياً اجتماعياً عام ١٨٧٨ ، وتوجه إلى البورجوازية الصغيرة وكذلك إلى المهنيين الذين كانوا يتصورون أنهم ضحية هيمنة الرأسمالية اليهودية على الاقتصاد . وطرح الحزب مفهوماً عضوياً للقومية يستبعد اليهود ويراهم خطراً على الأمن . وفي هذه الفترة ، ظهرت كتابات دوهرنج وترايتشكه وغيرهما . وفي عام ١٨٨٠ ، أسست في برلين عصبة المعادين لليهود . وقدم المعادون لليهودية عريضة للحكومة الألمانية موقعة من ٢٢٥ ألف شخص تطلب إلى الحكومة أن توقف جميع أشكال الهجرة اليهودية التي كانت تتدفق من الجيب البولندي وأن تصدر تشريعات لاستبعاد اليهود . وقد عقد أول مؤتمر دولي لمعاداة اليهود في عام ١٨٨٢ وضم ثلاثة آلاف مندوب .

وفي عام ١٨٩٣ ، حققت الأحزاب المعادية لليهود في ألمانيا أكبر نجاح انتخابي لها حين حصلت على ستة عشر مقعداً بعد أن نالت ربع مليون صوت . أما في النمسا ، فقد شهد عام ١٨٧١ نشر

كتاب عن التلمود من تأليف أوجست رولنج ، ترك أثراً عميقاً في حركة معاداة اليهود .

وفي عام ١٨٩٥ ، تم انتخاب كارل ليوجر زعيم أعداء اليهود رئيساً للبلدية في فيينا . وقد حاول الإمبراطور أن يوقف تعيينه ورفضت الحكومة المصادقة على التعيين ، ولكنه تقلد منصبه في نهاية الأمر عام ١٨٩٧ بعد أن أعيد انتخابه ثلاث مرات . وظل العداء لليهود يتصاعد إلى أن وصل إلى ذروته مع انتخاب هتلر ووصول النازيين إلى الحكم .

وقد كانت معاداة اليهود في فرنسا سلاحاً مهماً في يد بعض العناصر الملكية والكنيسة المعادية للثورة الفرنسية ومثلها . وشهدت هذه الفترة نشر كتاب درومون فرنسا اليهودية . وفي أواخر عام ١٨٩٢ ، وقعت قضية قنا بنما التي لعب فيها بعض الممولين اليهود دوراً ملحوظاً . وشهد عام ١٨٩٤ حادثة دريفوس أحد ضباط الأركان العامة للجيش الفرنسي والذي اتهم بأنه خان بلاده وسلم بعض المعلومات المتعلقة بأمنها إلى ألمانيا . وقد دافعت عنه القوى الليبرالية ، في حين وقفت القوى المحافظة والمعادية لليهود ضده .

وشهدت روسيا أشكالاً مختلفة من معاداة اليهود ، وبخاصة بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني عام ١٨٨١ حيث صدرت قوانين مايو (١٨٨١) ، وانتشرت موجة من المذابح من أشهرها مذبحه كيشنيف عام ١٩٠٣ . وبعد عام ١٩٠٥ ، ظهرت جماعات المائاة السود بدعم خفي من الحكومة كما يقال ، وقامت بالهجوم على اليهود في عدة مدن ، كما وُجّهت تهمة دم ضد بيليس عام ١٩١١ وبرئ منها .

أما في بولندا ، فإن الطبقة الوسطى الصاعدة ناصبت الجماعة اليهودية الوسيطة العداء بسبب احتفاظها بهوية غربية مستقلة (يديشية) وبسبب تاريخ التحالف الطويل بينها وبين النخبة الإقطاعية الحاكمة . وقد نظم البولنديون حركات مقاطعة ضد اليهود في أعقاب الحرب العالمية الأولى . وكانت الحكومة تتفاوت في موقفها من التأيد لحركات العداء أو محاولة وقفها . ثم قام النازيون بإبادة أعضاء الجماعة اليهودية في بولندا ضمن من أبادوا من ملايين أخرى .

وبعد الثورة البلشفية في الاتحاد السوفيتي ، تغيرت بنية المجتمع ومؤسساته وتوجهاته . وواجه أعضاء الجماعات اليهودية شيئاً من التمييز العنصري ، ولكن هذا لم يكن نابعاً من سياسة الدولة التي كانت تُجرّم معاداة اليهود ، وإنما كان أمراً عادياً يسم علاقة الأقلية بالأغلبية . ولعل أكبر دليل على تراجع معاداة اليهود تزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط .

الصهيونية هي التي حاول إخراجهم منه . وإذا كانت أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية قد تلاشت أو انصهرت ، فإن هذا يرجع إلى آليات اجتماعية وبنوية مركبة .

٤ - المجتمعات الاستيطانية ، مثل : الولايات المتحدة ، وكندا ، وأستراليا ، وجنوب أفريقيا . وهذه مجتمعات لم يعرف معظمها ظاهرة العداء للهود ، ربما باستثناء أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا . وقد استقر الهود في هذه البلاد وواجهوا المصاعب التي تواجهها أية جماعة مهاجرة . ومن الطريف أنه برغم وجود عداء للهود في صفوف الحزب الحاكم في جنوب أفريقيا ، فإن الحكومة لم تلجأ قط إلى تشجيع الهود على الهجرة ، كما يفعل المعادون للهود عادةً ، وذلك لأن مجتمع جنوب أفريقيا مجتمع استيطاني في حاجة ماسة إلى العنصر البشري الأبيض . ومن ثم ، تُعدّ الهجرة إلى إسرائيل أو إلى أي بلد آخر « خيانة وطنية » .

ويُشير ظهور الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة قضية مهمة تتصل بالعداء الموجه إليهم من قبل المنظمات الصهيونية التي ترفض مد يد المساعدة لهم في عملية الهجرة والاستقرار هناك . والشئ نفسه ينطبق على المتساقطين ، وهم المهاجرون الروس الذين كانوا يهاجرون من الاتحاد السوفيتي بحجة الذهاب إلى إسرائيل ، ثم يتجهون إلى الولايات المتحدة بدلاً من ذلك . فهل يُعتبر العداء لمثل هؤلاء وعدم مساعدتهم على الهجرة والاستيطان أنما شاءوا ، بل وإغلاق أبواب الهجرة إلى ألمانيا والولايات المتحدة أمامهم ، ضرباً من معاداة الهود ؟ !

أما في العالم العربي الإسلامي ، فقد تناقص عدد الهود بشكل ملحوظ ، كما أن أغلبيتهم العظمى حصلت على جنسيات أجنبية في فترة الهيمنة الاستعمارية ، حتى يتسنى لهم التمتع بالمزاي التي تمنحها القوانين المختلطة للأجانب . ومع ظهور الحركة الصهيونية ، تشابك مصير من تبقى من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي مع الدولة الصهيونية ، وانتهى الأمر بتصفية كل هذه الجماعات تقريباً باستثناء المغرب الذي بقيت فيه أقلية صغيرة .

وقد ظهرت في العالم العربي ترجمة للوثيقة المسماة بروتوكولات حكماء صهيون وكتب عن تهمة الدم ، وهي أفكار تضرب بجذورها في التشكيل الحضاري الغربي ، ومع هذا يتردد صداها الآن في صفوف بعض العناصر المحبة للإثارة والتي لا تتوانى عن استخدام أنصاف الحقائق لإحراز سبق صحفي أو ذبوع إعلامي . أما مراكز البحوث العربية ، فلا تعير مثل هذه الوثائق ، المشكوك في أمرها ، أي اهتمام .

ومع هجرة يهود اليديشية وحرب البوير (١٨٩٩) التي وقف ضدها كثير من قطاعات الرأي العام في إنجلترا ، شهدت إنجلترا موجة من العداء للهود ، وقيل إن المصالح المالية اليهودية كانت وراء دخول إنجلترا هذه الحرب . وقد ازداد الحديث عن الخطر اليهودي بشكل مبالغ فيه ، وصدرت قوانين الغرباء عامي ١٩٠٢ و ١٩٠٥ لمنع دخول الأجانب ، أي الهود .

أما في الولايات المتحدة والدول الاستيطانية الأخرى ، مثل : جنوب أفريقيا وكندا وأمريكا اللاتينية ، فلم يجابه الهود أية معاداة إلا في جنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وخاصة في الثلاثينيات ، ولكنها تلاشت بمرور الوقت وتناقص عدد أعضاء الجماعة . ويمكننا تقسيم بلاد العالم الغربي ، من منظور معاداة الهود ، إلى أربعة أقسام :

١ - بلاد التحديث الحر ، مثل : إنجلترا ، وهولندا ، وبلجيكا ، وفرنسا (إلى حد ما) . وكلها بلاد لها مستعمرات يُصدّر لها الفائض البشري والتوترات الاجتماعية ، وفيها طبقة رأسمالية قوية وحكومات ليبرالية منتخبة . وتسم الجماعات اليهودية فيها بقلة عدد أعضائها . وهذه البلاد لا توجد فيها ظاهرة معاداة الهود بشكل حاد أو مستمر .

٢ - بلاد التحديث الشمولي (تحت رعاية الدولة) - ألمانيا أساساً - وهي بلد ليس لها مستعمرات ، إذ أجهضت تجربتها الاستعمارية وتحالفت الطبقة الرأسمالية فيها مع الطبقات الإقطاعية لتضمن لنفسها النجاح . وبرغم قلة أعضاء الجماعات اليهودية ، فقد كان لهم بروز واضح في المجالات الاقتصادية والثقافية والإعلامية . وقد ظهر فيها العداء للهود بشكل واضح .

٣ - بلاد التحديث المتعثر ، مثل : روسيا وبولندا وبعض بلاد وسط أوروبا . وهي بلاد لم يكن لها مستعمرات ، ولم يكن اقتصادها متقدماً ، وكان القطاع الرأسمالي فيها ضعيفاً ، كما كانت هذه البلاد تسم بأنها تضم جماعات يهودية كبيرة . وقد تعثر التحديث في هذه البلاد ، وتفشّت فيها ظاهرة عداء الهود . ومع استئناف التحديث على النمط الاشتراكي ، اختفت الظاهرة أو ضُمّرت ، واتجهت المؤسسات نحو دمج أعضاء الجماعات اليهودية . وكانت الدعاية الصهيونية تهتم الاتحاد السوفيتي بمعاداة اليهود المتمثلة في محاولة دمج الهود ، بل وأطلق على ذلك «هولوكوست الاندماج» . ولكن معاداة الهود تبدو دائماً في شكل النظر إلى اليهود باعتبارهم عنصراً غريباً لا يمكن دمجه ، وبالتالي لابد من طرده أو على الأقل تشجيعه على الهجرة . أما في الاتحاد السوفيتي ، فقد كان الوضع على عكس ذلك تماماً ، إذ حاول المجتمع دمجه فيه بينما كانت القوى

ولا يمكن فصل تاريخ معاداة اليهود عن تاريخ الصهيونية ، فكلاهما ثمرة آليات وحركات توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي وتنبع منه . والواقع أن مفهوم الشعب العضوي المنبذ هو القاسم المشترك الذي يصل بين الظاهرتين (معاداة اليهود والصهيونية) ، وكل ما هنالك هو أن عداة اليهود الذي كان يهدف إلى تدمير اليهود أصبح أكثر عقلانية ورشداً . وبعد ظهور مفهوم نفع اليهود ، أصبح الهدف هو توظيفهم ، فظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية ثم الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، والتي تم تهويدها حتى يتمكن اليهود من استبطانها . وليس من قبيل الصدفة أن ألمانيا ، مهد الفكر العضوي العرقي والنظرية النازية هي ذاتها مهد الفكر الصهيوني .

كلاسيكيات العداة لليهود منذ القرن الثامن عشر
Classics of Anti-Semitism since the Eighteenth Century

ولدت الأفكار الحديثة لمعاداة اليهود ، وكذلك صورها الإدراكية ، داخل هذا الإطار . ومن أهم وأول الإسهامات الغربية في هذا المضمار استخدام التمييز بين الآريين والساميين ونقله من المجال اللغوي إلى المجال الحضاري ثم العرقي . وهذا ما فعله الكونت جوبينو في كتابه مقال في التفاوت بين الأعراق الإنسانية (١٨٥٣ - ١٨٥٥) ، فبسّط النظريات السائدة ، وقسم البشر إلى أعراق : أبيض (آري) ، وأصفر ، وأسود . وذهب إلى أن الجنس الآري الأبيض هو مؤسس الحضارة ، وأن السمات المتفوقة لهذا العرق لا يمكن الحفاظ عليها إلا عن طريق النقاء العنصري . وأكد جوبينو أن التوتونيين هم أرقى العناصر الآرية لأنهم وحدهم الذين احتفظوا بنقاوتهم .

وتوالى بعد ذلك الأعمال العرقية الغربية المعادية لليهود ، ومن أهمها كتاب ولهم مار (١٨١٨-١٩٠٤) انتصار اليهودية على الألمانية : من منظور غير ديني (١٨٦٢) . وكان مار مواطناً ألمانياً (يقال إنه كان يهودياً) ، ثم انضم إلى جماعة فوضوية إحادية في سويسرا بعد فشل ثورة ١٨٤٨ . وقد طُبعت من الكتاب اثنا عشرة طبعة حتى عام ١٨٧٩ . وتحل في كتابه كلمتا «سامي» و«سامية» ، محل «يهودي» و«يهودية» . وهو الذي أشاع مصطلح «أنتي سيميتزم» ، أي «معاداة السامية» ، في اللغات الأوروبية ، وبين في دراسته ما زعم أنه الهيمنة اليهودية على الاقتصاد والثقافة ، كما أسس جماعة تضم أعداء اليهود عام ١٨٧٩ .

ومن أهم الشخصيات التي أضفت كثيراً من الاحترام على

موسيقى فاجنر ممنوعة حتى عهد قريب في إسرائيل) .
وكان لإسهام الفكر السياسي والمستشرق الألماني بول أنطون دي لاجارد (١٨٢٧-١٨٩١) أبعد تأثير في تضخيم نهاية الثقافة والعلمية حول معاداة اليهود . كان لاجارد يحن إلى حضارة العصور الوسطى التوتونية الخالصة (العضوية) . كما كان يؤمن بالشعب العضوي (الفولك) الألماني وتفوقه على الشعوب الأخرى . ويرفض مبدأ المساواة . بل وكان يرى أن الليبرالية مؤامرة عنيفة خطيرة . ولم يشأ التعبير عنها بأي من اللونين الأحمر أو الأسود ، فهما لوثان لهما شخصيتهما ، بل وقع اختياره على الروماني ، وانتهى به المطاف إلى اكتشاف وجود الأمية الرومانية التي استكرها لأنها تشكل حجر عثرة في سبيل تحقيق خلاص الأمة الجرمانية وأداء رسالتها «نحو العلم» ، على حد قوله ، كما تقطع الطريق على الألماني والأصنام الجرمانية الرامية إلى إخضاع أوروبا الوسطى للسيطرة الألمانية ، والتخلص من إمبراطورية هابسبورج ، وإجلاء السلاف من البلاد بالقوة لأنهم ليسوا من سكانها الأصليين . وبطبيعة الحال ، ربط لاجارد بين الليبرالية الأمية الرومانية واليهود ، الذين وصفهم بأنهم يشكلون عبئاً كريهاً ولا مغزى تاريخي لهم ، يهدّدون رسالة ألمانيا ووحدتها القومية . ولم تكن أفكار لاجارد عنصرية سوقية وإنما كانت عنصرية أكاديمية تستخدم ديباجات علمية ، فقد كان يؤكد أنه لا يمكن أي عداة لليهود كأفراد وإنما يعادي أمة سامية وثنية غريبة يُعرق وجودها (الموضوعي) اتحاد أوروبا الوسطى تحت قيادة ألمانيا ، ولذا فلا بد من طرد أعضائها أو ترحيلهم بالقوة .

ومن الشخصيات التي ساهمت في إشاعة هذه الأفكار المعادية

معاداة الهود على ألمانيا . وقد أشرنا من قبل إلى جوبينو الفرنسي ، ويمكن أن نشير الآن إلى إدوار أدولف درومون (١٨٤٤ - ١٩١٧) ، وهو أيضاً فرنسي ، وقد ضمن أفكاره كتاب فرنسا اليهودية (١٨٨٦) الذي طُبع أكثر من مائة طبعة ، وكان من أكثر الكتب الأوربية رواجاً ومبيعاً في القرن التاسع عشر . وقد ألف درومون كتاباً أخرى تتضمن الأفكار نفسها والرؤية نفسها . وكان درومون يرى أن يهود فرنسا عنصر أجنبي غريب يستغل النظام الاقتصادي الفرنسي لتحقيق منافعه الخاصة وبسط سيطرته على العالم ، وأنهم عنصر تجاري بطبيعته ، يسيطر على المشاريع التجارية والصناعية الكبرى التي تعوق نمو الطبقة الوسطى المسيحية الناشئة ، فهم يركزون الثروة في أيديهم (مثل روتشيلد) ويشكلون خطراً على مستقبل الطبقة العاملة في البلاد . وهم يتسمون بخصائص وميزات عرقية منحطة وغير نقية ، ويعملون على إفساد الروح الفرنسية ، وتقع عليهم تبعة الانهيار والانحطاط السائدين في فرنسا بطولها وعرضها . واليهود يؤلفون «دولة داخل دولة» و«أمة داخل أمة» ، ولذلك فإن اندماجهم ليس ممكناً ، كما أن اختلاطهم بالشعب الفرنسي عن طريق الزواج أمر غير مرغوب فيه . وهم بلا وطن حقيقي ، ولا يخضعون لأية روابط فعلية ، بل سيقون إلى الأبد كما كانوا دوماً عنصراً غريباً في جسم الأمة يختلف بصورة جوهرية عن الفرنسيين ، ويجب معاملتهم على الأسس التي يقترحها هو والنظر إليهم من تلك الزاوية . فهم لا يستحقون التحرر مطلقاً ، بل يجب وقف تحرُّرهم ومصادرة ممتلكاتهم وأموالهم على أن يُستخدم ذلك لإيجاد وسائل إنتاجية للطبقة العاملة التي لا تزال مُستَغلة . وقد ساهم كتاب درومون في صياغة رؤية كثير من المفكرين اليهود وغير اليهود للمسألة اليهودية ومنهم هرتزل .

ومن المفكرين الإنجليز الذين بادروا إلى معاداة اليهود ، المؤرخ والمصلح التربوي البريطاني جولدوين سميث (١٨٢٣ - ١٩١٠) ، فقد نشر عام ١٨٧٨ ، مع بدايات هجرة يهود اليديشية من روسيا إلى إنجلترا ، عملاً حاول فيه أن يبرهن على استحالة أن يصبح اليهود مواطنين في دول أوروبا المضيفة ، كما حاول أن يبرهن على أن وجودهم يشكل خطراً سياسياً على بلده . أما اليهودية ، فهي في رأيه دين عنصري يتمسك به اليهود بضراوة ويحل فيه العنصر أرو العرق محل البلد الذي فقدوه . الأمر الذي جعلهم يرفضون الاختلاط بالناس ويجلب عليهم بغض الشعوب . ولهذا السبب ، نادى سميث بحل صهيوني للمسألة اليهودية .

وقد ظهرت أعمال أدبية أخرى ، مثل بروتوكولات حكماء

للهود على أساس عرقي ، المؤرخ والسياسي الألماني هنريش فون ترايتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) الذي كان يعدُّ من أهم المفكرين الألمان في عصره ، وهو ما أكسب هذه الأفكار قدراً كبيراً من المصادقية والاحترام . وصف ترايتشكه الهجوم على اليهود بأنه هجوم وحشي ، ولكنه رد فعل طبيعي للمشاعر القومية الألمانية ضد عنصر غريب (الشعب العضوي في مواجهة الشعب العضوي المنبذ) ، ثم طرح الشعار المشهور «اليهود مصيبتنا» . وحذر الألمان من التدفق اليهودي من الخزان البولندي (إشارة إلى الانفجار السكاني بين يهود بولندا) ، وهو تدفق لا ينضب ، «جمع من الشباب الطموحين بانعي الملابس القديمة الذين يسيطرون أطفالهم وأطفال أطفالهم يوماً ما على سوق الأوراق المالية والصحف في ألمانيا» . وقد تبدى هذا الرفض لليهود في شكل تعاطف مع المشروع الصهيوني .

ومن الشخصيات الأخرى التي أشاعت الفكر العرقي المعادي لليهود هيوستون ستوارت تشامبرلين (١٨٥٥ - ١٩٢٧) ، وهو بريطاني المولد فرنسي النشأة ألماني بالاختيار ، فقد كان معجباً بالثقافة الألمانية إعجاباً عميقاً . وقد تصادق مع فاجنر وتزوج ابنته ، وتأثر بأفكار جوبينو ولاجارد ، وألف أهم كتب العنصرية الغربية أسس القرن التاسع عشر (١٨٩٩) . وقد آمن تشامبرلين بتفوق الإنسان النوردي الأشقر ، وبأن قدر التيوتونيين هو قيادة الإنسانية جمعاء ، فكل ما هو عظيم في العالم من إبداعاتهم . وأكد تشامبرلين أن اختلاط الأجناس هو سبب التخلف . واليهود ، بحسب رأي تشامبرلين ، يشكلون عرقاً هجيناً متحرراً هامشياً طفيلياً لاجذور له . وهم غير قادرين على الإبداع ، ولا يوجد لديهم إحساس ديني ، بل إن وجودهم ذاته جريمة ضد الإنسانية . وذهب تشامبرلين إلى أن الشخصيات المهمة في بدايات التاريخ اليهودي ، مثل داود والأنبياء والمسيح ، من أصل ألماني ! وتنبأ بالمواجهة الحتمية بين الساميين والآريين .

ومن الملاحظ أن معظم كتب معاداة اليهود (وأكثرها حدة) ألمانية . ولعل هذا يعود إلى مجاورة ألمانيا للجيوب البولندي ، وإلى وجود عنصر يهودي قوي في عالم الاقتصاد الألماني ، وإلى دخول ألمانيا إلى الساحة الإمبريالية متأخرة من الناحية الزمنية ، الأمر الذي أثر في مساحة الرقعة الجغرافية التي استعمرتها . ومن هنا ، اضطرت ألمانيا إلى أن تنفذ سمها العنصري في أوروبا (ضد اليهود والسلاف) لا خارجها (ضد الأفارقة والآسيويين والمسلمين) . ومع هذا ، فليس بإمكاننا إنكار أن معاداة اليهود ظاهرة غربية تشمل شتى دول العالم الغربي ، شأنها في هذا شأن الصهيونية . ولهذا ، لم تقتصر كتب

بطبيعتها ، ومن ثم لا يوجد حل سوى الحل الصهيوني . وقد بين العالم الإسرائيلي موردخاي أشكولار أن ما يواجه يهود روسيا وأوكرانيا في الوقت الحالي ليس هو العداة الشرس لليهود وإنما هو شكل من أشكال التحامل عليهم وحسب (ولكنه لم يستخدم المصطلح) . وقد شبه أشكولار يهود روسيا بيهود الولايات المتحدة ، فاليهود المتعلمون الباحثون عن النجاح المادي والمهني منهم مستعدون للتعايش مع قدر غير محسوس من معاداة اليهود أو التحامل عليهم . أي إذا لم يكن هذا العداة ملموساً في حياتهم اليومية ولا يعوق تقدمهم واندماجهم .

معاداة السامية الجديدة

New Anti-Semitism

«معاداة السامية الجديدة» (أي «معاداة اليهود الجديدة») مصطلح ظهر مؤخراً في المعجم الصهيوني يشير إلى عدة مدلولات من أهمها ما يلي :

١ - ما يزعم الصهيونية أنه أشكال جديدة من معاداة السامية ، هي في حقيقة الأمر إعادة إنتاج للأشكال القديمة . ويضربون مثلاً لهذا بالعداء للدولة الصهيونية . فحينما ترتكب الدولة الصهيونية مذبحه مثل قانا فتمدغها معظم دول العالم ، وحينما بُنيت مستوطنة جديدة في القدس أو على حدودها وتصدر هيئة الأمم المتحدة قراراً بإدانتها . فإن هذا يكون تعبيراً عن النمط القديم : عداة الأغيار الأزللي لليهود .

٢ - يُستخدم المصطلح أيضاً للإشارة إلى ما يسميه الصهيونية «معاداة السامية الإسلامية» ، أي عداة المسلمين لليهود . وهم يرون أن هذا النوع من العنصرية أخذ في التزايد حيث ينظر المسلمون إلى اليهود باعتبارهم «أعداء الله» ، وأن إسرائيل تعبير عن المؤامرة اليهودية الأزلية .

صهيون ، تردد الأفكار نفسها التي وردت في الكتب السابقة . والواقع أن بروتوكولات حكماء صهيون تصوّر الأفكار السابقة بطريقة شعبية تصل إلى وجدان البسطاء بسرعة وتجدد المخاطر ، التي تحدث عنها تشامبرلين أو ترايتشكه ، في شكل مؤامرة عالمية متعينة ، واجتماعات عقدها الحاخامات للسيطرة على العالم ، أي أن البروتوكولات تشبع الأفكار نفسها بأسلوب يشبه أسلوب صحافة الإثارة والجريمة والجنس .

التحامل على اليهود

Prejudice Against the Jews

«التحامل على اليهود» - حسب رأي الحاخام أبأ هليل سيلفر - يختلف عن «التعصب ضد اليهود» . فالتعصب هو الرفض الجذري والنشط الذي يمارسه بعض أعضاء الأغلبية ضد أقلية إثنية أو دينية ما . وفي حالة أعضاء الجماعة اليهودية ، فإن التعصب يترجم نفسه إلى «معاداة اليهود» وما يصاحبها من أنماط إدراكية ثابتة قد تتحوّل إلى هجوم شرس عليهم . أما التحامل ، فهو أقرب ما يكون إلى مزاج سلبي ضد أعضاء أقلية ما وعدم تقبّل لهم ، وهو لا يترجم نفسه إلى إرهاب وعنف بل يأخذ شكل نكتة ساخرة أو تمييز خفيف يتعلق بالتفاصيل وليس بالجوهر والحقوق . والتحامل ظاهرة موجودة في كل المجتمعات البشرية وليس من المحتمل أن تزول إلا في نهاية التاريخ ، فعلاقة الأغلبية بالأقلية سيثوبها دائماً نوع من التوتر .

والتحامل على أعضاء الجماعات اليهودية أمر موجود بطبيعة الحال في معظم المجتمعات التي يوجدون فيها ، ولكن ما يحدث أن كثيراً من الصهيونية يخلطون بين التحامل على اليهود والتعصب ضدهم وتصبح كل الأمور بالنسبة لهم «عداء للسامية» . والهدف من هذا هو تأكيد عزلة اليهود وتأكيد أن مجتمعات الأغيار تنبذهم



٢ بعض التجليات المتعينة لمعاداة اليهود

بعض التجليات المتعينة لمعاداة اليهود - طرد اليهود - تدنيس خبز القربان المقدس - تهمة الدم - حادثة دمشق - بيليس - هجوم أو مذبحه (بوجروم) - مذبحه - بوجروم - اضطرابات فيتميلخ - كيشينيف - فرانك - حادثة دريفوس - المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية - اليهود كشياطين - بروتوكولات حكماء صهيون - اليهودي الدولي - برافمان - اليهودي الثاثة - هب هب - كايك وشيني - إسرائيل ويست

بعض التجليات المتعينة لمعاداة اليهود

Some Concrete Manifestations of Anti-Semitism

يمكن تفسير ظاهرة معاداة اليهود من خلال نموذج تفسيري وتصنيفي واحد مركب تتفرع عنه عدة نماذج فرعية تتبدى ، هي بدورها ، في أحداث وقائع ومؤلفات بعينها ، مثل : اضطرابات فيتميلخ ، وحادثة دريفوس ، وتهمة الدم ، وبروتوكولات حكماء صهيون . وفي كل مدخل ، سنحاول أن نعرض لموقف كل من الرؤية العرقية المعادية لليهود والرؤية الصهيونية من الظاهرة أو القضية موضوع الدراسة ثم نحاول أن نقدم تفسيراً أكثر تركيماً وأقل اختزالية .

طرد اليهود

Expulsion of Jews

يُشير مصطلح «طرد اليهود» في الكتابات الصهيونية إلى مجموعة من الوقائع التاريخية التي حدثت في مجتمعات وتشكيلات حضارية مختلفة تحت ظروف مختلفة لا يربطها أي رابط . والواقع أن الحديث عن «طرد اليهود» ، كما لو كان ظاهرة تاريخية واحدة ، هو تعبير عن الإيمان بوجود تاريخ يهودي واحد يُعبر عن هوية يهودية واحدة (منبوذة من الأغيار) ، وأن اليهود شعب عضوي منبؤ .

وفيما يلي بعض تواريخ الطرد المهمة :

٧٢٤ ق.م التهجير (النفي) الآشوري .

٥٨٦ ق.م التهجير (النفي) البابلي .

١٣٩ ق.م القاضي (برائيتور) ، هسبالوس يطرد اليهود من روما .

١٩ ق.م تايريوس ينفى الأجانب (ومن بينهم اليهود) .

٥٠ م كلوديوس يأمر بطرد اليهود من روما .

٧٠ م هدم الهيكل على يد تيتوس وطرد اليهود من فلسطين (وتعد هذه هي أهم حادثة طرد من المنظور اليهودي

(والمسيحي) .

٩٤ دوميتان يطرد المسيحيين واليهود .

١٣٥ طرد اليهود من القدس وتحريم دخولها عليهم .

٤١٥ الطرد من الإسكندرية .

٦٢٤-٦٢٨ الطرد من الجزيرة العربية أيام الرسول .

١٤٦٧ الطرد من تلمسان .

ولكن أهم وقائع الطرد توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي في العصور الوسطى وبعدها :

١٢٩٠ إنجلترا ١٤٩٢ إسبانيا

١٣٠٦-١٣٩٤ فرنسا ١٤٩٥ ليتوانيا

١٣٦٧ المجر ١٤٩٧ البرتغال

وقد شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر حوادث طرد من مدن إيطاليا وألمانيا :

١٤٢٦ كولونيا ١٤٥٣ برسلاو

١٤٣٩ أونسبرج ١٦٤٨ ثورة شميلنكي في أوكرانيا

واستمر الطرد حتى العصر الحديث :

١٧٤٤-١٧٥٢ براغ

وبعد ذلك التاريخ ، تأسست منطقة الاستيطان ، وهو ما كان يعني :

١٧٧٢ الطرد من بقية روسيا ١٨٩١ الطرد من موسكو

وقام الروس بعد الثورة البلشفية ، والنازيون بعد استيلائهم على الحكم ، بنقل أعداد من اليهود من أماكن إقامتهم إلى أماكن

على الجماعات اليهودية ، فإنه كان يفعل ذلك في إطار حركة تحرُّر وطني وثورة فلاحية ضد المستغلين البولنديين الذين تصادف وجود اليهود كوكلاء لهم . وحينما كتب شميلنكي إلى كرومويل ، في محاولة لتوحيد القوى الأرثوذكسية والبروتستانتية ضد الكاثوليكية ، فإنه لم يذكر اليهود من قريب أو بعيد .

وإن أردنا أن نجد نغماً متكرراً في ظاهرة طرد اليهود ، فإننا لن نجد على صعيد العالم وإثنا داخل التشكيل الحضاري الغربي ، وبخاصة في العصر الوسيط . وسنجد أن السبب وراء طرد اليهود لم يكن كرههم وإنما كونهم جماعة وظيفية وسيطة تشكل عنصراً استيطانياً غريباً . يُوضَّح (أي يُستورد) ويُصدَّر ولا يضرب بجذوره في أي مكان . تماماً مثل الجنود المرتزقة . والجماعة الوظيفية الوسيطة تلعب دورها ، ثم يستغنى عنها المجتمع فينبذها ، فتنتقل إلى مجتمع آخر ، وهكذا . وعادة ما تستغني المجتمعات عن الجماعة الوظيفية الوسيطة حينما تظهر هياكل مركزية للإدارة (وهذا ما حدث في حانة إنجلترا عام ١٢٩٠ وفي فرنسا في أواخر القرن الرابع عشر وفي إسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر) أو حينما تظهر ضبقت محلية بدنية (وهذا ما حدث في معظم أوروبا بالتسريح ابتداءً من القرن الثاني عشر) .

والجدير بالملاحظة أن المدن في العصور الوسطى كانت صغيرة للغاية وأن عدد أعضاء الجماعات اليهودية في كل مدينة كان صغيراً ولا يُعتد به من الناحية الإحصائية . إذ كان عدد يهود إنجلترا لا يزيد ، حسب إحدى الروايات ، على أربعة آلاف . وكانت أية جماعة يهودية لا تزيد على ألفين ، وكانت الجماعة اليهودية تُعدُّ كبيرة إن زاد عدد أعضائها على بضع مئات . ومن هنا ، فإن الحديث عن الطرد هو حديث عن طرد بضع مئات من التجار الغريباء . وكان الاستثناء الوحيد من القاعدة هو طرد اليهود من شبه الجزيرة الأيبيرية ، حيث بلغ عددهم مائة وخمسين أو مائة وعشرين ألفاً ، وقد طُردوا مع مئات الألوف (ويُقال أكثر من مئتين) من المسلمين الذين رفضوا التنصر وفاقَت أعدادهم أعداد اليهود . ويُلاحظ أن اليهود كانوا ، في كثير من الأحيان ، يُطردون أو يفرون لبضعة أشهر ثم يعودون إلى مواقعهم مرة أخرى . ولا بد من الإشارة إلى أن اليهود لم يكونوا الجماعة الوحيدة التي يتم طردها ، فقد كان يتم طرد مختلف أعضاء الجماعة الوظيفية الوسيطة الأخرى ، مثل النولمبارد والكوهارسين . وأحياناً ، كان يتم طرد إحدى الجماعات لتحل محلها جماعة أخرى تقدم شروطاً اتسمانية أفضل ، فهذه الجماعات لم يكن يُنظر إلى أعضائها باعتبارهم بشرأ وإنما كان يُنظر إليهم كأدوات إنتاج يمكن أن تحل الواحدة محل الأخرى .

أخرى . كما هاجر يهود البلاد العربية إلى إسرائيل وأوروبا بعد عام ١٩٤٨ . وتُصنَّف الموسوعة اليهودية هذه الأحداث التاريخية كافة باعتبارها « حوادث طرد » . وتذكر أنه يمكن تصنيفها على أسس مختلفة إلا أن الدافع الجذري وراءها جميعاً هو كُره اليهود «ومعاداتهم» !

وغني عن القول أن هذه الوقائع لا يربطها رابط ، فالتهجير الآشوري والبابلي شمالاً أقواماً عديدة أخرى لضمان أمن منطقة عبر النهر ، أي منطقة الشام . وفي كثير من الأحيان ، لم يكن الحكام الآشوريون أو البابليون يعرفون شيئاً عن العبرانيين ، فكانت تُصدَّر الأوامر بهدم منطقة أو تهدئتها ، الأمر الذي كان يعني إخلاءها من معظم سكانها وأقوامها ، وبخاصة من أعضاء النخبة . وقد شهد عام ١٣٩ ق . م أول عملية طرد لأعضاء إحدى الجماعات اليهودية ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، حيث إنها لم تكن تهجيراً كالتهجير البابلي مثلاً ، وليست فراراً كما حدث مع ثورة شميلنكي . ويبدو أن سبب عملية الطرد من روما هذه هو الخوف من تحوُّل المواطنين الرومان إلى العقيدة اليهودية . ويبدو ، بالفعل ، أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون باليهودية نظراً لطبيعتها التوحيدية بالقياس إلى التعددية والشرك للذين يسمان العبادة الوثنية في روما . أما طرد اليهود عام ١٩ ميلادية ، فقد تم بتحريض من سيجانوس رئيس الحرس الإمبراطوري ، غير أن الإمبراطور تايبيريوس الذي أصدر أمر الطرد عاد وألغاه بعد اثني عشر عاماً ، وأمر بالأيساء إلى اليهود أو إلى شعائهم الدينية ، وأعلن أن سيجانوس كان قد ضلله لتحقيق مأربه الخاصة . ورغم أن روما اتسمت بالتسامح ، فإن اليهود بأعداد كبيرة كان يهدد سلطة الدولة ، ذلك أن شرعية الدولة تستند إلى العبادة الوثنية ، كما أن كثيراً من الوظائف الإدارية كان مرتبطاً بهذه العبادة ، وبالتالي فإن اليهود كان يعني ضعف الولاء وأزمة الشرعية ، كما كان يهدد ثبات موارد الهياكل المقدسة من هبات وقرابين . ويبدو أن رجال المال الرومان كانوا أيضاً وراء طرد اليهود ، حيث كانوا يمارسون الربا بالتحايل على القانون ويودون التخلص من المرابين اليهود الذين يشكلون منافساً قوياً لهم .

أما طرد اليهود من القدس ، فلم يكن جزءاً من سياسة روما الداخلية وإنما جاء في إطار سياستها الإمبراطورية وكمحاوله لتهدئة المنطقة . وكان طرد اليهود من المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يعود إلى أسباب خاصة بحركات الدين الجديد ومحاوله الدولة الإسلامية الجديدة تأمين مركزها وقلبها بضمان عدم وجود أقليات لا تدين لها بالولاء . وحينما قام شميلنكي بالهجوم

ومن الظواهر التي تُفسَّرُ على أنها طرد لليهود ، نتيجة العداوة الكامنة تجاههم ، خروج اليهود من بلاد تأخذ بالنمط الاشتراكي في التنمية . ولعل أكثر الأمثلة بروزاً في هذا المجال هو كوبا . فبعد استيلاء كاسترو على الحكم ، خرجت أعداد هائلة من اليهود حتى أوشكت الجماعة اليهودية على الاختفاء الكامل . وقد حدث الشيء نفسه في البلاد العربية التي نحت منحى اشتراكياً .

وإذا وضعنا هذه الظاهرة في سياقها التاريخي ، يمكننا أن نفسر خروج اليهود بالأسباب التالية :

١ - يلاحظ أن النمط التنموي الاشتراكي يلجأ إلى تأميم قطاعات من الاقتصاد مثل المصارف ومناذير التسويق حتى يمكنه التحكم في آليات السوق . ومثل هذه القطاعات هي التي يتركز فيها عادة أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة ، ومن بينهم أعضاء الجماعة اليهودية بطبيعة الحال . كما أن الوضع نفسه ينشأ حينما تظهر الطبقات المحلبة الوطنية وتشارك في العملية الاقتصادية وتُسيِّرُها كما ترغب .

٢ - ويلاحظ أن الهجرة اليهودية في العالم ، منذ نهاية القرن الماضي ، تنجم من بلاد متخلفة مثل روسيا إلى بلاد متقدمة تتبع الاقتصاد الحر مثل الولايات المتحدة وغيرها من البلاد الاستيطانية (أستراليا وكندا وجنوب أفريقيا) . ومن هنا يمكن تفسير خروج يهود كوبا .

٣ - كما يلاحظ أن دول العالم الثالث ، التي تخرج عن المسار الغربي ، تمارس نوعاً من التضامن فيما بينها ، وبالتالي فهي تأخذ موقفاً متعاطفاً من الدول العربية ومن منظمة التحرير الفلسطينية ومن كفاح الشعب الفلسطيني ضد الاستعمار الغربي والصهيوني . وقد نجحت المنظمة من جانبها في أن تقيم علاقات مع الحركات الثورية في الأرجنتين ونيكاراجوا واليابان ، وهو ما يخلق خطاباً سياسياً يولد إحساساً بعدم الأمن لدى أعضاء الجماعات اليهودية فيها جر أعداد منهم ، وتقع كوبا داخل هذا النمط . ومن المعروف أن نظام كاسترو بذل جهوداً غير عادية للدفاع عن حقوق المواطنين اليهود في كوبا ، ولتيسير السبل لهم للتعبير عن هويتهم الدينية ، وهذا يبين مدى تهاافت فكرة كره اليهود .

وإذا قبلنا المقولة السابقة ، فمن الممكن إعادة تفسير خروج اليهود من بعض البلاد العربية ، مثل مصر وسوريا والجزائر ، لا باعتباره طرداً وإنما باعتباره انجهاً ينتمي إلى الظاهرة نفسها ، أي ظهور حكومات قومية محلية تستولي على الحكم وتعاودي الاستعمار . والواقع أن ظهور مثل هذه الحكومات يجيء عادة تعبيراً عن ظهور قوى محلية تشارك بشكل أكثر نشاطاً في الاقتصاد

وقد عمقت عمليات الطرد عدم تحذر اليهود في الحضارة الغربية وزادت هامشيتهم ، وهي التي حددت إدراك العالم الغربي لهم . وتبدى هذا الإدراك في صورة «اليهودي التائه» . ومن هنا ، فإن الحل الصهيوني للمسألة اليهودية (الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة) يصدر عن قبول فكرة طرد اليهود من أوروبا وحتميتها . ويُعدُّ وعد بلفور النقطة التي اتفقت فيها أوروبا مع قيادات الجماعة اليهودية على أن يتم نقل اليهود من العالم الغربي إلى فلسطين (أي طردهم بطريقة سلمية مؤسسية) باعتبارهم عنصراً نافعاً يمكنه الاضطلاع بوظيفة قتالية دفاعاً عن المصالح الإمبريالية الغربية داخل إطار الدولة الوظيفية . كما أن الإبادة على يد النازيين ، هي الأخرى ، شكل من أشكال الطرد (من العالم الغربي إلى العالم الآخر) أخذ شكل التصنيفية الجسدية ، وذلك بسبب عدم وجود مستعمرات ألمانية يُطردون إليها ، وبسبب رفض بولندا السماح بدخول قطارات اليهود المطرودين إليها .

ويتضح قبول الطرد ، كنقطة انطلاق في صهيونية يهود الغرب التوطينية ، من واقع أن اللجان (الأليانس وغيرها) كانت تُشكِّلُ لنقل اليهود إلى أي مكان في العالم ماعدا المكان الذي استوطنوا فيه بالفعل (في بلاد غرب أوروبا) . وقد أيد يهود الغرب الصهيونية الاستيطانية من منظور توطيني . كما أن المنظمات الصهيونية مازالت تشجع اليهود على الهجرة من روسيا وأوكرانيا بدلاً من الدفاع عن حقوقهم السياسية والمدنية وحقتهم في التمتع بحياة كريمة في أوطانهم . ومن ثم ، يمكن أيضاً تصنيف ذلك على أنه تقبلٌ لحتمية خروج أو طرد اليهود من تلك البلدان ، ويمكننا تصنيف الصهيونية على أنها حركة طاردة لليهود من أوطانهم المختلفة بهدف تجميعهم في بلد واحد ، ويُطلق على هذه العملية مصطلح «تجميع المنفيين» .

وما يجدر ذكره أن أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم اشتبكوا ، أحياناً ، في عملية طرد اليهود . وكان ضمن حقوق الجيتوات ، في العصور الوسطى ، ما يُسمى «تحریم الاستيطان» (بالعبرية : حيريم هايشوف) ، أي تحریم استيطان أي يهودي غريب على الجيتو فيه . ومن ثم ، كانت هذه الجيتوات تطرد اليهود الغرباء منها . كما كانت هناك حالات في القرن الثامن عشر طالب فيها اليهود بطرد جماعات يهودية أخرى . فقد قدم يعقوب رودريجز في عام ١٧٦٠ التماساً إلى لويس الخامس عشر لطرد اليهود الألمان (الإشكناز) ، وأيده في ذلك الطلب المفكرُ والمسوِّكُ اليهودي انفاردي إسحق دي بتو . ووافقت الحكومة الفرنسية على الطلب ونفذ الاقتراح في العام التالي .

وخمره إلى جسد المسيح ودمه . والاتهام مضحك وسخيف ، فهو يفترض أن اليهود يؤمنون مبدأ تحوّل خبز القربان ، وهو أمر بطبيعة الحال مستحيل . ولكن من منظور عنصري ، لا يُعدّ عدم الانساق أمراً مهماً ، بل إن عدم الانساق ذاته قد يُوظّف لتأكيد صورة اليهودي لا من حيث هو منكر للمسيح وإنما من حيث هو شخص يؤمن فعلاً بالمسيح بل ويرى بنفسه ألوهيته ولكنه ، مع هذا ، ينكره ويتمادى في تعذيبه بعد أن قام بصلبه .

وتهمة تدنيس خبز القربان ، مثل تهمة الدم والتهمة الأخرى التي تعبّر عن معاداة اليهود ، هي نتاج الوجدان الشعبي في لحظات إحباطه وحيرته . فالجماهير البائسة لم تكن تفهم مصدر يؤسها ، فكانت تفسره على أساس أنه من صنع اليهود الأشرار أعداء المسيح ، خصوصاً وأن هؤلاء الأشرار كانوا أيضاً يشتغلون بالتجارة والربا ، كما كانوا قريبين من النخبة الحاكمة التي تستخدمها كأدوات لها .

تهمة الدم

Blood Libel

«تهمة الدم» هي اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبيّاً مسيحياً في عيد الفصح سخرية واستهزاء من صلب المسيح . ونظراً لأن عيدي الفصح المسيحي واليهودي قريبان ، فقد تطورت التهمة وأصبح الاعتقاد أن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم في شعائهم الدينية وفي أعيادهم ، وبخاصة في عيد الفصح اليهودي ، حيث أشيع أن خبز الفطير غير المخمر (مانتوت) الذي يؤكل فيه يُعجن بهذ الدماء . وقد تطورت الإشاعة ، فكان يُقال إن اليهود يُصقّون دم ضحاياهم لأسباب طبية أو لاستخدامه في علاج الجروح الناجمة عن عملية الختان ، بل ولاستخدامه كمنشط جنسي .

وتتجد جذور تهمة الدم إلى عصر اليونان والرومان ، أي إلى ما قبل العصور المسيحية ، فقد أتى في كتابات كلٍّ من الكاتين اليونانيين أبيون (السكندري) وديموقريطس إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم . ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من الصورة الإدراكية العامة في الوجدان الغربي لليهود ، ولم تُوجّه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا في العصور الوسطى .

وقد وُجّهت أول تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في إنجلترا في القرن الثاني عشر ، في وقت كانوا يمارسون فيه نشاطهم التجاري والمالي والربوي ، وهو ما كان يعني أن هناك أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابي اليهودي ولم ينجحوا في تسديدها وأن ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم قد آلت إليه . ففي عام ١١٤٤ ،

الوطني ، وهو ما نجم عنه تأميم (تخصير وتعريب) بعض القطاعات التي كان يتركز فيها أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة (اليهود ، واليونانيون ، والإيطاليون) . كما أن كثيراً من الدول العربية دخلت في صراع ضد الاستعمار الغربي وضد الدولة الصهيونية حليفته الأساسية في المنطقة ، الأمر الذي خلق توتراً شديداً بين الأغلبية وأعضاء الجماعة اليهودية الذين تدعى الدولة الصهيونية تمثيلهم . وفي بعض الأحيان ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتعاونون مع الدولة الصهيونية - كما حدث في حادثة لافون - كما أن الأغلبية العظمى من يهود العالم العربي ، جاءوا إما من العالم الغربي (أساساً) مع الموجة الاستعمارية أو حصلوا على جوازات غربية للاستفادة من قوانين الامتيازات ، ليلعبوا دور الجماعة الوسيطة بين الاستعمار والسكان المحليين . ومع تراجّع الاستعمار ، كان لا بد لهذه الجماعات (مثل اليونانيين والإيطاليين) أن يخرجوا معه . كما أن الدولة الصهيونية ، بالقياس إلى كثير من دول العالم ، تتمتع باقتصاد متقدم توجد فيه فرص كثيرة للنشاطات الاقتصادية المرتبطة بالاقتصاد الحر ، وبالتالي فهي تمثل نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم العربي ، تماماً كما تمثل الولايات المتحدة نقطة جذب بالنسبة إلى اليهود الروس (ولذا ، فهم لا يهاجرون إلى إسرائيل التي لا يمكنها أن تحقق لهم حراكاً اجتماعياً مائلاً) . والواقع أن خروج اليهود من البلاد العربية هو جزء من حركة مركبة ولا يمكن أن يُسمّى «طرداً» ببساطة وآلية .

أما يهود العراق ، فإن الأوضاع نفسها السابقة تنطبق عليهم ، إلى جانب قيام العملاء الصهاينة بارتكاب أعمال تخريبية لإجبارهم على الهجرة . وقد نجحت المنظمة الصهيونية ، بسعيها الخبيث ، في تهجير يهود اليمن . ولا يمكن أن نعتبر كل هذه العمليات عمليات طرد !

تدنيس خبز القربان المقدس

Desecration of the Host

«تدنيس خبز القربان المقدس» عبارة تعني اتهام اليهود بأنهم لم يندموا على قيامهم بصلب المسيح (عيسى بن مريم) بل ويدنسونه خبز القربان (الذي يتحول إلى جسد المسيح في القداس المسيحي) فيدوسونه بأقدامهم ثم يضربونه بوخزه وطعنه حتى يجددوا عذاب المسيح . كما تعني اتهام اليهود بالحصول على هذا الخبز عن طريق سرقة . وقد شاع هذا الاتهام في أوائل القرن الثالث عشر بعد أن اعترف المجمع اللاتراني الرابع عام ١٢١٥ مبدأ تحوّل خبز القربان

اليهود من بينهم عدد كبير من المراهين ، حيث كان الربا من أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري الغربي . وكان هذا يعني ، في كثير من الأحيان ، إسقاط الديون ، أي أن توجيه تهمة الدم يشبه ، من بعض الوجوه ، التخطيط لسرقه بنك من البنوك على يد عصابة شعبية ، وكان شق اليهود بمثابة النجاح في هذه العملية ، وهي عملية تشبه أيضاً عمليات رابين هود الذي كان يسرق من الأثرياء ليعطي الفقراء ، وهو ما جعل جرائمه تحظى بشعبية كبيرة ، بل وكانت الجماهير تحيطه بحمايتها .

وكانت الخزائن الملكية ذاتها تستفيد أحياناً من تهمة الدم حيث ترث ديون المراهي الذي يُشَقُّ أو يُطَرَّد ، كما أن النخبة الحاكمة كانت تنتهز مثل هذه الفرصة لتعرض على اليهود تجديد الموائع الممنوحة لهم والتي تتضمن حمايتهم وتكفل لهم المزايا نظير مبالغ جديدة يدفعونها .

ويبدو أن تهمة الدم صورة نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي حينما يدرك «الآخر» ، وهي عادة اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم . فقد اتهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم . كما وجه اليهود تهمة نفسها إلى المسيحيين الأوائل (حسبما جاء في كتابات أوريجين) . وجاء في أحد كتب المدراس أن فرعون مصر حاول أن يحصل على الشفاء من البرص بذبح مائة وخمسين طفلاً يهودياً كل صباح وكل ظهر ليستحم في دمهم . كما أن بعض كتب الهاجداه محلاة بصور لتهمة الدم الموجهة إلى فرعون مصر . وقد وُجِّهَت التهمة كذلك إلى الغنوصيين من قبل المسيحيين ، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية عام ١٤٦٦ من قبل الجماهير . واتهم المبشرون المسيحيون في الصين عام ١٨٧٠ بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين ليصنعوا من دمهم دواء سحرياً . واتهم الأجانب في مدغشقر عام ١٨٩١ بابتلاع قلوب بعض السكان المحليين . أما الرهبان الدومينكان ، فقد اتهمهم خصومهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل يهودي في بعض شعائهم السرية ! ومعنى هذا كله أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود . وإذا كان مراهبون آخرون ، مثل اللومبارد والكوهارسين (وهم مسيحيون) ، لم تُوجَّه إليهم (بحسب علمنا) تهمة الدم ، فقد وُجِّهَت إليهم تهمة أخرى لا تقل عنها سوءاً ، كما أنهم كانوا أيضاً عرضة للطرْد والمصادرة والشنق .

وساعد تكرار تصوير الدم والقتل في العهد القديم على الصاق التهمة باليهود دون المراهين المسيحيين . كما أن شعائر اليهود الدينية ، وخصوصاً شعائر عيد الفصح ، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء

أنهم أعضاء الجماعة اليهودية في نورويتش بأنهم ذبحوا طفلاً يُدعى ويليام عمره أربعة أعوام ونصف في الجمعة الحزنية (وقد نُصِّبَ قديماً فيما بعد) . كما ذكر أحد اليهود المتصرين أن من المعتاد أن تقوم إحدى الجماعات اليهودية في إحدى مدن أوربا بذبح طفل مسيحي في يوم عيد الفصح المسيحي (إيستر) الذي يقع عادةً في التاريخ نفسه الذي يقع فيه عيد الفصح اليهودي (بيساح) . ثم وُجِّهَت تهم دم أخرى في مناطق مختلفة من إنجلترا بين عامي ١١٦٨ و ١١٩٢ . أما في فرنسا ، فقد وُجِّهَت التهمة إلى الجماعة اليهودية في بلوا عام ١١٧١ . كما وُجِّهَت خمس عشرة مرة في القرن الثالث عشر ، ومن بينها حالة هيو من بلدة لنكولن عام ١٢٥٥ والتي يذكرها تشوسر في حكايات كاتتريوري . وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين ، ومن أشهرها حادثة دمشق عام ١٨٤٠ ، وقضية بيليس عام ١٩١١ . وتُعدُّ حادثة دمشق التي حدثت في العالم الإسلامي استثناءً ، إذ أن الظاهرة تكاد تكون مقصورة على العالم المسيحي .

وكانت تهمة الدم تأخذ الشكل التالي : يختفي شخص مسيحي (في العادة طفل) ، أو يوجد مقتولاً ، فيذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل أو الشخص شوهد آخر مرة بجوار الحي اليهودي ، أو أن هناك عيداً يهودياً (عادةً عيد الفصح) تتطلب شعائره دم نصراني ، ومن ثم ، كانت تُوجَّه لأعضاء الجماعة اليهودية تهمة قتله ويُقبَض على بعضهم ، ويتم تعذيبهم ثم يُشَقُّ عدد منهم أحياناً .

ويُشير الصهاينة إلى تهمة الدم باعتبارها أكبر دليل على أن عالم الأغيار يرفض اليهود ويفتك بهم ، وبالتالي لابد أن يكون لهم وطن قومي . ولكننا لو وضعنا هذه الوقائع في سياقها التاريخي ، فإنها ستكتسب دلالة جديدة وسيمكننا فهمها بشكل أعمق .

لقد ظهرت تهمة الدم بعد تحوُّل اليهود في العالم الغربي إلى جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا . وكانوا يُشَبَّهون آنذاك بالإسفنجة التي تمتص نفود الطبقات كافة ، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص ، ثم يقوم الإمبراطور أو الأمير أو الحاكم باعتصارهم لحسابه بعد ذلك (وهو الأمر الذي لم تكن تدركه هذه الطبقات الشعبية بطبيعة الحال) . ومن هنا ، كانت الإشارة إلى اليهود (كجماعة وظيفية وسيطة لا كيهود) على أنهم مصاصو دماء ، ولم يكن من الصعب على الوجدان الشعبي أن يسقط في الحرفية ويحوِّل المجاز إلى حقيقة واقعة .

وكان توجيه تهمة الدم يعني ، في واقع الأمر ، شنق بعض

عمارة لاستخدام دمانهما في أغراض شعائرية وفي صنع خبز عيد الفصح غير المخمر (ماتزوت) . وقد أشيع أن الأب توماس شوهد آخر مرة وهو يهيم بالدخول إلى حارة اليهود ، فتم تفتيش اخي اليهودي بتحريض من الكاثوليك المحليين يتزعمهم القنصل الفرنسي ، وقُبض على زعماء اليهود ومات منهم اثنان أثناء التحقيق ، وأشهر واحد إسلامه وحُكم على الباقي بالإعدام .

وقد تقاعمت ردود فعل هذه القضية بسبب الصراع السياسي للأوربيين للحصول على النفوذ في الشرق الأوسط . ولا يمكن رؤية هذه الحادثة إلا في إطار النشاط التبشيري الاستعماري في فلسطين والشام ، والذي كان تعبيراً عن الصراع بين الدول الاستعمارية الكبرى . إذ كانت كل دولة تحمي أعضاء جماعة دينية بعينها ، فكان الروس يحمون الأرثوذكس وكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك . وربما لعدم وجود عدد كبير من البروتستانت ، قام الإنجليز «بحماية» اليهود . ومن هنا ، يُعد الصراع بين الكاثوليك المحليين (بزعماء القنصل الفرنسي) واليهود تعبيراً عن الصراع على النفوذ . ومما له دلالة أن احتجاج يهود فرنسا ومناشدتهم لحكومتهم لم يأت بنتيجة ، في حين أدى احتجاج يهود إنجلترا إلى تحرك بالمرستون ومطالبتة محمد علي بأن يعامل اليهود معاملة حسنة (باعتبارهم عنصرأ يهدف إلى حمايتهم) ، وأدى تدخل أدولف كرميه وموسى مونتفيوري ومقابلتهما لمحمد علي في الإسكندرية ، ثم لقاءهما مع السلطان عبد الحميد في إستنبول إلى الإفراج عن المتهمين وإسقاط التهمة عنهم .

وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يدين تهمة الدم ويعتبرها قذفاً في حق اليهود .

مندل بيليس (١٨٧٤-١٩٣٤)

Mendel Beilis

عامل بناء روسي وجّهت إليه تهمة الدم ، حيث اتُهم عام ١٩١١ بأنه استدراج طفلاً روسياً إلى أحد الكهوف خارج المدينة وقتله بطعنه أربعاً وسبعين طعنة ، ثم صفى كل دمه كما جاء في تقرير الطبيب الشرعي . وكان الجو موافياً في روسيا لتصديق مثل هذه الافتراءات ، إذ كانت الحكومة القيصرية تلقي باللوم على اليهود في محاولتها تبرير كثير من المشاكل . وتم القبض على بيليس وأحضر سكيران ليشهدا بأنهما رأياه يختطف الطفل ، واستمر التحقيق عامين . ولكن رئيس البوليس السري الروسي في كييف توصل إلى أن عدداً من المجرمين غير اليهود تترأسهم امرأة هم الذين قاموا

الأغلبية ، الأمر الذي كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها . هذا ، مع العلم بأن قوانين الطعام اليهودية تمنع شرب الدم كما تمنع أكل اللحم قبل تصفية الدم منه . ويبدو أن ممارسة الختان والذبح الشرعي غذيا هذه الأوهام ، حتى سُمي اليهود «أهل السكين» .

ولم يكن اليهود يقفون في مواجهة مع كل الأغيار كما يدعي الصهاينة ، فقد كانت النخبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطور والملوك) تدافع عن أعضاء الجماعة ضد هذه التهم التي كان يوجهها إليهم عامة الشعب . فبين البابا إنوسنت الرابع ، في مرسوم صدر عام ١٢٤٥ ، أن التهمة باطلة وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود . ودافع البابا جريجوري العاشر ، في مرسوم صدر عام ١٢٧٤ ، عن اليهود ، كما فعل بابوات آخرون الشيء نفسه . وفي عام ١٧٥٨ ، أصدر الكاردينال لورنز جانجاني (البابا كليمنت الرابع عشر فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم . وقد أصدر التحريم نفسه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) ، وإمبراطور النمسا رودلف من أسرة الهابسبرج عام ١٢٧٥ . وحاول الكثير من المسيحيين والعلماء تنفيذ التهمة وإقناع الناس بيطلائها ، ولكنهم فشلوا في مساعدتهم واستمرت تهمة الدم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصورة اليهودي حتى عهد قريب .

أما في حادثة دمشق ، فقد كانت تهمة الدم مرتبطة بالصراع بين الاستعماريين الإنجليز والفرنسي اللذين كانا يتنافسان على مد نفوذهما عن طريق حماية أعضاء الأقليات الدينية . فكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك والمارونيين الذين وجهوا تهمة الدم . أما الإنجليز ، فإنهم نظراً لعدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد كبيرة في العالم العربي كانوا يقومون بحماية اليهود ! خصوصاً وأن روسيا ، وهي بلدهم الأصلي ، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس ، كما أن روسيا لم يكن لها أطعام في الشرق الأوسط إذ أن مشروعها الاستعماري كان موجهاً إلى مناطق أخرى . وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً جرم فيه تهمة الدم .

حادثة دمشق

Damascus Affair

تُعتبر حادثة دمشق من أشهر تهم الدم ، وقد وقعت عام ١٨٤٠ حين كانت سوريا تحت الحكم المصري . وتكاد تكون هذه الحالة المرة الوحيدة التي وجّهت فيها تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي . فقد اتُهم يهود دمشق بقتل راهب من الفرنسيين كان يدعى الأب توماس الكبوشي وخادمه المسلم إبراهيم

اليهود في العصور الوسطى في الغرب كانت هجمات على واحدة من أهم أدوات السلطة في استغلال الجماهير ، إذ كان اليهود من المربون وجامعو الضرائب . وتميل الأدبيات اليهودية المعاصرة إلى المبالغة في أعداد ضحايا هذه الهجمات ، بينما تميل الدراسات الحديثة عن هذه الظاهرة إلى الأخذ بأرقام أقل كثيراً .

لكن الهجمات ليست أمراً مقصوراً على أعضاء الجماعات اليهودية ، فمن المعروف أن الهجمات ظاهرة لها أسباب اقتصادية واجتماعية وحضارية تسم علاقة الأغلبية بالأقلية في لحظان التطاحن الاجتماعي وفي أوقات الانتقال والانحلال الاقتصادي والاجتماعي . وتُدرَّب هذه الهجمات ضد مختلف الغرباء ، خصوصاً إذا كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة مرتبطة بالنخبة الحاكمة وتقوم على خدمتها . فقد نُظِّمت هجمات ضد المراهين غير اليهود في العصور الوسطى مثل الكوهارسين واللومبارد ، وضد الصينيين في جنوب شرق آسيا عبر تاريخهم ، وقام الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر بتنظيم هجمات على العمال الإيطاليين المهاجرين . وقد نظم الأفارقة السود المسلمون هجوماً (إبادة) على المسلمين الأفارقة من أصل عربي في موزمبيق في العصر الحديث ، ونظم السنغاليون هجمات على الموريتانيين واللبنانيين في الآونة الأخيرة .

وبالمثل ، تورط أعضاء الجماعات اليهودية في شن هجمات على كتل بشرية أخرى معادية لهم ، فقد دبر اليهود مذبحه ضد اليونانيين في الإسكندرية في العصر الهيليني ، ورد اليونانيون بدورهم على هذه المذبحة . كما قام الصهاينة العلمانيون في الدولة الصهيونية بحرق معبد يهودي في إسرائيل احتجاجاً على تشدد الدينيين . ويقوم المستوطنون الإسرائيليون بالهجوم على قرى الفلسطينيين وتدمير المذابح ضدهم .

وتنتج الكتابات الصهيونية إلى تصوير الهجمات على أعضاء الجماعات اليهودية باعتبار أنها أمر فريد يحدث لهم وحدهم ، وأنها تعبير عن كره أتلي لليهود ، ونتيجة حتمية لوضع أعضاء الجماعات خارج فلسطين ، وهو وضع يتسم (بحسب تصورهم) بخلل بنيوي أساسي . وتحوّل الصهيونية هذه الهجمات إلى مصدر أساسي للهوية اليهودية والوعي اليهودي ، وتبين في الوقت نفسه أن تاريخ اليهود في المنفى لا قيمة له . وقد حاول المدعي العام الإسرائيلي في قضية أيخمان أن يستدر العطف على الشعب اليهودي بأن تلا قائمة بالهجمات التي دُبرت ضد اليهود عبر تاريخهم ولكن بعد عزلها عن سياقها التاريخي ، فما كان من محامي أيخمان إلا أن أثار تساؤلاً مفاده : لم يستفز هذا الشعب كل الشعوب الأخرى عبر التاريخ ؟ أو

بارتكاب الجريمة لأن الطفل كان قد أخبر الشرطة عن جرائم ارتكبوها . ومع هذا ، استمرت المحاكمة لمدة شهر وتحولت إلى قضية تشغل الرأي العام . وبعد أن استنوب محامو المتهم الشاهدين ، تراجع الشاهدان عن أقوالهما ، واعترفت رئيسة العصابة التي قتلت الطفل بالجريمة . وفي عام ١٩١٣ ، أفرج عن بيليس الذي هاجر إلى فلسطين ولكنه لم يستطع الاستمرار فيها ، مثله مثل كثيرين غيره من اليهود ، فهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٠ ومات هناك .

هجوم (أو مذبحه) (بوجروم)

Pogrom or Massacre

«بوجروم» كلمة روسية معناها «تدمير» أو «هجوم» أو «فك» أو «مذبحة» . وعادةً ما تكون هذه المذبحة منظمة لتدمير جماعة أو طبقة معينة . وقد دخلت الكلمة اللغات الأوروبية بمنطوقها الروسي ، وضاق مجالها الدلالي بحيث أصبحت تشير أساساً إلى الهجوم على أعضاء الجماعة اليهودية ، ولكنها تُستعمل مجازاً للإشارة إلى الهجوم على أعضاء الجماعات والأقليات الأخرى . وقد استُخدمت الكلمة للمرة الأولى في الإنجليزية عام ١٩٠٥ .

وقد عرف التاريخ القديم والوسط والحديث مثل هذه الهجمات على أعضاء الجماعة اليهودية . ويمكن القول بأن أول بوجروم في التاريخ الإنساني هو هجوم المصريين على أعضاء الجماعة اليهودية (المرتزقة) في جزيرة إفتناين . ومن أشهر الهجمات الأخرى ، هجمات بعض جيوش الفرنجة على أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب ، وهجمات شميلنكي في بولندا في القرن السابع عشر على أعضاء الجماعة اليهودية في أوكرانيا . وتعدُّ أهم الهجمات في العصر الحديث تلك التي نظمتها العناصر الرجعية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر (خصوصاً جماعة المائة السود) والتي يُقال إنها كانت تتم بموافقة النظام القيصري وعمالة وزارة الداخلية . وقد تصاعدت الهجمات قبل وبعد صدور قوانين مايو عام ١٨٨١ ، ومن أهمها مذبحة كيشينيف . كما نظَّم النازيون هجوم ليلة الزجاج المحطم (كريستال ناخت) في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ .

وتجِب الإشارة إلى أن معظم هذه الهجمات كانت ذات طابع شعبي وتعبّر بشكل مشوه وغير مشروع عن تطلعات مشروعة للجماهير التي لم تكن تفهم آليات الاستغلال . فالهجوم على الحماية اليهودية في إفتناين هو هجوم على جماعة وظيفية قتالية موالية لقوة أجنبية غازية (الفرس) . كما أن هجمات الجماهير على

مذبحة

Massacre

انظر : «هجوم أو مذبحة (بوجروم)» .

اضطرابات فيتميلخ

Fettmilch Riots

أحداث شغب مناهضة لليهود جرت في مدينة فرانكفورت الألمانية في أوائل القرن السابع عشر . وقد اندلعت هذه الأحداث في الفترة التي أعقبت اندلاع حرب الثلاثين عاماً والتي نتج عنها تدهور حاد في الأوضاع الاقتصادية والمعيشية في البلاد . حيث وجه أفراد الشعب ، وخصوصاً نقابات التجار والصناع ، سخطهم لأعضاء الجماعة اليهودية في المدينة . فاليهود باعتبارهم جماعة وظيفية بسيطة مرتبطة بالنخبة الحاكمة ، خصوصاً الإمبراطور ، كانوا محط كراهية مختلف الفئات والطبقات في المجتمع . ومع تأزم الأوضاع الاقتصادية ، ازدادت حدة السخط والكراهية . وقد تزعم فنست فيتميلخ زعيم النقابات في فرانكفورت الحملة المناهضة لليهود ، فقدم عام ١٦١٢ التماساً للإمبراطور يتهم فيه برلمان فرانكفورت بالفساد ومحاربة اليهود وطالب بفرض قيود اقتصادية على اليهود وتقليص عددهم في المدينة ، ولكن الإمبراطور رفض هذا التماس . وفي عام ١٦١٤ ، دخلت بعض العناصر المؤيدة لفتميلخ مجلس المدينة وطالبت بفرض قيود صارمة على اليهود من بينها طرد كل اليهود الذين يمتلكون أقل من ١٥٠٠ فلورين فوراً . وقد رفض الإمبراطور مرة ثانية هذه المطالب ، ولكن تم طرد ٦٠ أسرة يهودية فقيرة . وإزاء ذلك ، قام فيتميلخ على رأس أنصاره بمهاجمة الجيتو اليهودي وقاموا بنهبه وطرد ١٣٨٠ من اليهود خارج المدينة . وفي أعقاب ذلك ، أصدر الإمبراطور أوامره بإلقاء القبض على فيتميلخ . وفي عام ١٦١٦ ، تم إعدامه مع ستة من أعوانه ، وقُطعت أجسادهم إلى أربعة أجزاء وعُلّق رأس فيتميلخ على مسمار ضخّم (ليكون عبرة للجميع) كما دُمر منزله وسُوّي بالأرض وطُردت عائلته من المدينة . وسمح الإمبراطور بعودة اليهود المطرودين للمدينة وأمر بدفع تعويض لهم قدره ٩١٩, ١٧٦ فلوريناً . وفي أعقاب ذلك ، كان أعضاء الجماعة اليهودية يحرسون على الاحتفال سنوياً بيوم عودتهم إلى المدينة وأطلقوا على هذا اليوم اسم «بوريم فنست» .

وتدل هذه الحادثة على مدى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية كجماعات وظيفية ووسيلة بالطبقات الحاكمة والملوك . فقد رفض الإمبراطور الإذعان لمطالب فيتميلخ ولطالب الجماهير في

لا يدعو هذا الوضع إلى طرح احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من مذابح ؟

وتُشار ، من أونة إلى أخرى ، قضية دور الدولة اليهودية في صد الهجمات الموجهة ضد اليهود وهل يمكنها أن تقوم بذلك ؟ ولكن النقاش حُسم مؤخراً حين صرح شامير بأن الدولة لا يمكنها أن تدافع عن اليهود أينما كانوا ، كما كانوا يدّعون ، فأدواتها قاصرة ، كما أن لها أولوياتها التي من أهمها الدفاع عن نفسها . وقد كتب أحد الدراسين بحثاً عن " ليلة الزجاج المحطم " وقد وصفها بأنها كانت هجوماً (بوجروم) تقليدياً إذ قامت السلطات النازية باستشارة غيظ الجماهير وحققهم على اليهود وتركتهم يقتلون ويحطمون . ويستطرد الكاتب قائلاً إن الهدف من الهجوم (البوجروم) التقليدي هو إرهاب أعضاء الأقلية ووضعهم في مكانهم ، ولكن الدولة النازية كانت تهدف لشيء مغاير تماماً وهو إبادة اليهود ، ومن ثم فإن البوجروم لا يصلح بناتاً أداة لإنجاز هذا الهدف فإذا كان عدد يهود بولندا ثلاثة ملايين ، فإن إبادتهم تتطلب عدة مئات من السنين باعتبار أن عدد القتلى في ليلة الزجاج المحطم لم يتجاوز الخمسين . فإذا أضفنا إلى ذلك ملايين البولنديين والعُجْر ، يتضح أن الهجمات العادية غير فعالة على الإطلاق لإنجاز مثل هذا المشروع الإبادي . كما لاحظ الكاتب أن من المستحيل استشارة عاطفة الكره لدى الجماهير لمدة طويلة إذ لا بد أن تفسر أية عاطفة بعد فترة ، ومن المحتمل أن تتحول الاستجابة العاطفية من الكره إلى التعاطف ، خصوصاً إذا كان الضحايا من الأطفال أو العجزة أو الجيران .

لكل هذا ، استبعدت الدولة النازية نظام الهجمات وتبنت بدلاً منه نموذجاً مختلفاً . فحل محل التلقائية والعاطفية التخطيط والحياد ، وحل محل الهجوم المتقطع (الذي لا شكل محدد له) العمل المستمر المتكامل الذي يتبع منهجاً صارماً . وبدلاً من الغوغاء المتعصبة التي تطلق العنان لعواطفها ، ظهرت البيروقراطية التي تكبح عواطفها ولا تكثر بالضحية لاجباً ولا كرهاً وتتبع أحدث أشكال الإدارة . ومن ثم ، فإن الهجوم (البوجروم) ، رغم قسوته ، يختلف في هدفه ومجاله وطبيعته عن عمليات الإبادة .

بوجروم

Pogrom

انظر : «هجوم أو مذبحة (بوجروم)» .

وقوع الحادثة) للحصول على تأييد روسيا للمشروع الصهيوني . ولذا ، يُلاحظ أن المؤتمرات الصهيونية التي عُقدت آنذاك لم تذكر الحادث من قريب أو بعيد ، ولم تحتج عليها ، بل لزمّت الصمت الكامل تجاهها حتى تضمن التأييد الروسي . ولا تزال هناك أقلية يهودية كبيرة نسبياً في كيشينيف في الوقت الحاضر يبلغ عددها اثنين وأربعين ألفاً .

ليو فرانك (١٨٨٤-١٩١٥)

Leo Frank

أمريكي يهودي وُلد في تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشأ في بروكلين ، أحد أحياء اليهود المهمة في مدينة نيويورك . أتهم ليو فرانك في قضية عام ١٩٠٨ ، ويُقال إن انتماء اليهودي كان عنصراً مهماً أثر في محاكمته وفي الأحداث التي تلتها . كان فرانك يعمل مديراً لمصنع أقلام في أتلانتا (ولاية جورجيا) حيث قُبض عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ثلاثة عشر عاماً تُدعى ماري فيجان ، بعد محاولة اغتصابها . وقد حوكم فرانك وصدر حكم بإعدامه . وحينما خفف حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة ، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واختطفوا فرانك وشنقوه في المدينة التي وُلدت ودُفنت فيها ضحيته المفترضة ، وهو ما يُسمى في اللهجة الإنجليزية الأمريكية «لينشنج» وهي عملية الاختطاف والشنق . وقد صدر عفو عن فرانك عام ١٩٨٦ وبرئ اسمه من الجريمة التي نُسبت إليه .

ويُجدر الصهاينة هذه الواقعة من سياقها التاريخي ليفرضوا عليها معنى صهيونياً بحيث يظهر اليهودي وكأنه ضحية عنف الأغباء . ولو نظرنا إلى واقعة ليو فرانك بمنظار تاريخي ، فسنتكشف أنه لم يكن يُنظر إليه باعتباره يهودياً أساساً وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لعدة عناصر تاريخية واجتماعية وثقافية ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته ، شأنه في هذا شأن دريفوس . وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع ، مسرح الواقعة ، كان يخوض ثورة صناعية حقيقية متأخرة ، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاش في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحليين أو المهاجرين المُقتلَعين من جذورهم الزراعية ، سواء في أوروبا أو جنوب الولايات المتحدة . والواقع أن من أهم مظاهر الثورة الصناعية تركّز السكان في المدن ، وقد تضاعف عدد سكان مدينة أتلانتا بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٣ ، إذ زاد من نحو ٨٩,٨٧٠ إلى ١٧٣,٧١٣ ، وهو يُعدُّ أعلى معدل ارتفاع لأي

فرانكفورت ، ثم أنزل أشد العقاب بفيتمبلخ وأعوانه . ويعود كل هذا إلى حوسلة أعضاء الجماعات اليهودية ، حيث كانوا عنصراً نافعاً يُوّدي وظيفة اقتصادية مهمة ، وكانوا أداة في يد الطبقة الحاكمة التي استفادت من خدماتهم التجارية والمالية لتكديس الثروات وتدعيم السلطان واستنزاف الجماهير ، ومقابل ذلك كانت الطبقة الحاكمة تزودهم بالحماية والامتيازات التي تؤهلهم للاضطلاع بدورهم الوظيفي بكفاءة عالية .

كيشينيف

Kishinev

«كيشينيف» مدينة روسية في بيساريا (التي ضُمت إلى روسيا عام ١٨١٢) وأصبحت مركزاً تجارياً وصناعياً مهماً ، وكانت توجد فيها أقلية يهودية كبيرة وصل عددها عام ١٨٤٧ إلى عشرة آلاف ، أي ١٢٪ من مجموع سكان المدينة ، ثم إلى ثمانية عشر ألفاً عام ١٨٦٧ ، أي ٢١٪ من مجموع السكان ، وخمسين ألفاً بعد ذلك التاريخ . وكانت أغلبية اليهود في هذه المدينة تعمل بالتجارة وصناعة الملابس والأخشاب والاتجار في المنتجات الزراعية ، وهي قطاعات اقتصادية كانت مركزية في أيديهم . ومع هذا ، كانت توجد نسبة كبيرة من المتسولين اليهود . وكان سكان كيشينيف من اليهود ينقسمون إلى أغلبية أرثوذكسية ونخبة مثقفة روسية . وقد افتُتحت أول مدرسة يهودية حديثة في روسيا عام ١٨٣٦ . وفي عام ١٩٠٣ (يومي ١٩ - ٢٠ إبريل) ، وقع هجوم (بوجروم) ضد أعضاء الجماعة اليهودية . إثر توجيه تهمة دم لبعضهم ، قُتل فيها واحد وأربعون (٣٢ رجل - ٦ نساء - ٣ أطفال) وجُرح خمسة وتسعون ودُمر سبعمائة وخمسة وخمسون منزلاً ، ونُهب ستمائة محل ، وحدثت بعض حالات اغتصاب . ويُقال إن الشرطة القيصرية لم تتدخل لحماية أعضاء الجماعة اليهودية .

ويتواتر ذكر هذه الحادثة في الكتابات الصهيونية ، وتُصور كما لو كانت جزءاً من مؤامرة الأغباء ضد اليهود . ولكن قارئ التاريخ الروسي يعرف أن القمع والإرهاب القيصرين كانا موجهين ضد مختلف الأقليات الدينية والعرقية في روسيا ، بل وضد الجماهير الروسية التي كان الحرس القيصري يطلق عليها النار بدون رحمة أو هوادة (كما حدث في مظاهرة الأب جابون التي وقعت في الفترة نفسها عام ١٩٠٥) . ورغم تباهي الصهاينة على ما حدث ، فإن الواقعة حدثت في عهد وزير الداخلية الروسي فون بلفيه الذي تفاوض معه الزعيم الصهيوني هرتزل (في العام نفسه الذي شهد

في واقع الأمر «غزو» شمالي للجنوب وهيمنة عليه . وهو غزو لمجتمع زراعي كانت تسوده علاقات شبه إقطاعية توجد على قمته أرسقراطية تعتز بمكانتها الرفيعة وبقيم الشرف والالتزام الإقطاعي ، وقد كان ذلك المجتمع مجتمعاً أنجلو ساكسونياً بروتستانتيًا متجانساً لم يستوطن فيه ملايين المهاجرين كما حدث في بقية الولايات المتحدة ، وبخاصة في الساحل الشرقي . وكانت مؤسسة الأسرة قوية جداً في مجتمع الجنوب وتسم بقدر كبير من التماسك . وكانت المرأة رمز هذا التماسك الأسري . ومحط تقديس المجتمع . لكن أعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الأرسقراطي عادةً ما ينظرون بقدر من الاحتقار ، بل والبغض أحياناً ، إلى الاقتصاد النقدي المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب .

وقد كانت شكوكهم في محلها . فبعد توحيد الشمال مع الجنوب فُتح الجنوب أمام الصناعات الشمالية التي هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والسوق البكر . وهي صناعات لم تخدم تقاليد المجتمع كثيراً . بل ساهمت في تفكيك نسيج المجتمع وفي تحطيم بناء الأسرة . فكان الأطفال يعملون في المصانع ساعات طويلة ، وكذا النساء . وأدّى دخول الصناعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبع ذلك من تفكك اجتماعي ، في المراحل الأولى على الأقل ، خصوصاً وأن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطور عضوي وتفاعل عناصر محلية وظهور بورجوازية في رحم المجتمع ذاته . وإنما فُرضت عليها فرضاً من مجتمع اليانكي الشمالي .

كان نيو فرانك رمزاً لهذه القوة الغازية ، فقد كان شمالياً في الجنوب ، صاحب ومدير مصنع في مجتمع زراعي ينظر بعين الشك إلى الصناعة ، يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة في ظل مجتمع يقدس الأسرة حتى عهد قريب . وكان يُشار إلى ماري فينجان على أنها «عاملة المصنع الصغيرة» . أي أنها تحولت إلى رمز الطفولة البريئة التي استغلها استثماريون من الشمال . وكان فرانك عضواً في النخبة العلمانية المهيمنة التي لا تكثر كثيراً بالقيم التقليدية في وسط بيئة جنوبية عمالية مقتنعة من بينتها الزراعية ، لا تزال تؤمن بالقيم التقليدية والمسيحية وتعلم بالمجتمع التماسك الذي دُمّر إبّان الحرب الأهلية . ولم تكن يهودية فرانك سوى البؤرة التي جمعت كل هذه العناصر السابقة وبلورتها ، إذ أن المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعي الغازي والجنوب الزراعي الذي تم غزوه ، وبين ضحايا التقدم من ناحية والصناعة وممثلي هذا المجتمع الجديد الريب من ناحية أخرى .

مدينة أمريكية في الفترة نفسها باستثناء برمنجهام (ولاية ألاباما) . وكان نمو المدينة عشوائياً ، ولذلك لم تكن هناك المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة ، مثل : أماكن الترويح ، أو أماكن السكن ، أو ما يكفي من المستشفيات العامة . . . إلخ . وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مساكن ، فقد كان هناك حوالي ٣٠٨,٣٠ من المساكن لنحو ٣٥,٨١٣ أسرة ، وكان نصف المساكن بلا مياه ، وكان نحو ٥٠ ألف شخص يعيشون في منازل لا يوجد بها نظام للصرف الصحي . وكانت نسبة تلوث الجو عالية للغاية ، ولهذا انتشرت الأمراض مثل التيفود وغيره من الأمراض ، وارتفعت معدلات الوفاة ، ويُقال إن ٩٠٪ من المساجين كانوا يعانون من مرض الزهري . وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب ، وكان الأجر اليومي للطفل لا يزيد عن ٢٠ سنتاً ، وكان الأجر الأسبوعي للماري فينجان دولاراً وعشرين سنتاً .

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية وحسب ، وإنما كان موبوءاً من الناحية الأخلاقية أيضاً ، وهذا أمر متوقع في مثل هذا المجتمع ، حيث انتشرت مختلف أنواع الجرائم : السرقة والقتل والدعارة والسكر . وكانت نسبة الجريمة في أتلانتا من أعلى النسب في الولايات المتحدة وتُعادل نسبتها في شيكاغو عاصمة الجريمة في العالم . وقد قبض البوليس عام ١٩٠٧ على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠٢,٧٠٠ في ذلك العام . ومع هذا ، كان جهاز الشرطة هزلاً للغاية ، إذ أن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة لم يكن يزيد على مائتي شرطي . وكانت توجد في هذه المدينة الواسعة نقطة شرطة واحدة ، ولذا ، كان كثير من المجرمين يفرون من قبضة القانون . وفي عام ١٩١٢/١٩١٣ بالذات ، كانت هناك اثنتا عشرة جريمة قتل ، لم يتم الاهتداء إلى مرتكبيها .

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا . ولنا أن نلاحظ أن هذه الثورة كانت في الواقع جزءاً من عملية غزو واسعة ، فالجنوب الأمريكي ، مسرح الواقعة ، كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الأهلية (١٨٦١ - ١٨٦٥) حين هزمه الشمال الصناعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات . وقد فقد ما يقرب من ٦٠٠,٠٠٠ شخص حياتهم إبّان هذه الحرب . وبعد انتصار الشمال فُتحت الولايات الجنوبية (المتخلفة نسبياً وذات الاقتصاد الزراعي) لرأس المال الشمالي والنخبة الشمالية التي أسست الصناعات وغزت السوق . ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية ، وأن ما يسميه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة هو

يتصرف بتلقائية في مجتمع مغلق فُيسأ فهم سلوكه وحركاته . ولكن المهم إدراك الناس له ولسلوكه ، خصوصاً وأن اشتغال اليهود بالمهن المشينة يدعم هذا الإدراك .

وإلى جانب هذه الخلفية الاجتماعية والتاريخية والثقافية ، ثم جانب إحصائي مهم . فالدراسات الصهيونية لا تكف عن الإشارة إلى قضية ليو فرانك وإلى الظلم الذي حاق به نتيجة اختطافه من السجن وشنقه بعد أن خفف الحاكم المحكم الحكم عليه . ولكن هذه الدراسات لا تذكر الحقائق التالية :

١ - لم يكن احترام القانون سمة سائدة في المجتمع الأمريكي ككل ، وفي مجتمع أتلانتا على وجه الخصوص . فعلى سبيل المثال ، قبضت الشرطة ذات مرة على كل الذكور القادرين لأن أتلانتا كانت تعاني من نقص في العمالة . ومن المعروف أن الشرطة اتهمت عام ١٩٠٩ بضرب أحد الزوجين ضرباً أفضى إلى موته ، وأنهم قاموا بتقييد امرأة بيضاء إلى الحائط حتى زهقت روحها .

٢ - اندلعت عام ١٩٠٦ اضطرابات ، فهاجم السكان البيض حي السود لعدة أيام واشتبكوا معهم ، فقتلوا عشرة زنوج وجرحوا ستين في حين قُتل من بينهم رجلان وجُرح عشرة ، واضطرت المدينة إلى استدعاء الحرس الوطني . ويُقال إن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مشيرة نشرت في الصحف عن اعتداء السود على النساء البيض .

٣ - كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة ، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين . ولكن كلما زاد عدد المهاجرين ، كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلعين . ففي عام ١٨٩١ ، تم اختطاف وشنق أحد عشر مهاجراً إيطالياً . وفي عام ١٨٩٩ ، اختطف خمسة آخرون . وفي عام ١٩٠٠ ، اختفى ثلاثة آخرون في ظروف غامضة .

٤ - شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ألفين وخمسمائة حالة اختطاف وشنق (لينشنج) أخرى . وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود ، كما تم اختطاف قلة من أعضاء الأقليات الأخرى . ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودي وشنق ، وهي حالة ليو فرانك وهي الحالة التي يرد ذكرها في الأدبيات الاخترائية الصهيونية وكأنها ظاهرة عامة متواترة ! وهكذا يتحول الاستثناء إلى قاعدة ، ويتحول الخاص إلى عام ، وتتحول الواقعة العابرة إلى رمز عالمي مركزي !

وقد يكون من المفيد ، عند هذه النقطة ، أن نتناول الانتماء انيهودي لفرانك . كان فرانك يشغل منصب رئيس فرع جماعة أبناء العهد (بناي بريت) اليهودية في المدينة . كذلك لا بد أن نعرف ، على وجه الدقة ، موقف الجنوب الأمريكي من اليهود . لقد حدد الجنوب الأمريكي التضامن على أساس عرقي بسيط (الأبيض مقابل الأسود)، على عكس الشمال الذي حدده على أساس عرقي ديني (إثني مركب : أبيض بروتستانتي من أصل أنجلو ساكسوني ، يليه أبيض كاثوليكي من أصل إيطالي وأيرلندي ، ثم يليهم اليهودي الأبيض في المنزل ، ثم يأتي الأسود ، كاثوليكياً كان أم بروتستانتيّاً في أسفل السلم العرقي . ومن الواضح أن التعريف الجنوبي لم يستبعد اليهود وإنما صنفهم ضمن البيض ، تماماً كما حدث في جنوب أفريقيا . الأمر الذي سمح لهم بدرجة عالية من الاندماج والحراك الاجتماعي ، فأصبحوا جزءاً عضوياً من المجتمع ، كما أصبحوا أعضاء في النخبة الحاكمة وامتلكوا الرقيق وتاجروا فيه ، ولم تكن هناك صورة مستقلة لليهودي في الوجدان الأمريكي الجنوبي التقليدي .

لقد أشرنا من قبل إلى أن ليو فرانك كان رمزاً للقوة الغازية الشمالية . ويمكن أن نضيف هنا أنه ، مع التحولات التي دخلت على الجنوب ، اكتسبت كلمة «يهودي» مدلولاً جديداً . فلم يكن يهود جورجيا هم يهود الجنوب التقليديين القدامى وإنما كانوا عنصرأ غريباً جديداً وافداً . وفي عام ١٩١٠ ، كان اليهود في أتلانتا (جورجيا) يشكلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب ، إذ بلغ عددهم ١٣٤٢ ، أي ٢٥٪ من مجموع الأجانب . ورغم أن نسبتهم لم تتجاوز ١٪ من عدد السكان ، فإنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية وسيطة حققت بروزاً مشيئاً . فقد كانوا يمتلكون معظم الحانات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة ، وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الأوربي ، وكان زبائنهم من الزوج أساساً . ويُقال إن بيوت الدعارة التي امتلكها اليهود كانت تزيناها «صور نساء بيض لإثارة شهوة الزوج الذين كانوا يحتسون الخمر في الحانات اليهودية وينطلقون بعدها كالوحوش » ، وهذه صورة إدراكية عنصرية . ولكنها على أية حال ربطت الجرائم الجنسية في ذهن سكان أتلانتا باليهود . وكان فرانك نفسه مشهوراً بمغازلة العاملات وملاحقتهن ، ويُقال إن ماري فيجان نفسها اشتكت إلى صديقاتها من محاولات فرانك الإباحية . وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً ، وقد يكون السلوك الإباحي المنسوب إلى فرانك لا يختلف عن سلوك أو حركات أي شخص جاء من مجتمع حضري مفتوح

حادثة دريفوس

Dreyfus Affair

«حادثة دريفوس» يُشار إليها أيضاً بعبارة «واقعة دريفوس» ، وبطلها هو ألفريد دريفوس (١٨٥٦ - ١٩٣٥) الذي كان من كبار الضباط الفرنسيين ، واليهودي الوحيد في هيئة أركان الجيش الفرنسي . وُلد في مقاطعة الألزاس باسم «مولهاوزن» لأسرة يهودية ثرية مندمجة في محيطها الفرنسي . ونظراً لأن اسمه ألماني الطابع ، فقد غيّر إلى اسمه الذي اشتهر به . وقد اتهم دريفوس بسرقة وثائق سرية عسكرية بمساعدة الماسونيين ، وتسليمها إلى الملحق العسكري الألماني في باريس ، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب ألمانيا عام ١٨٩٤ . وقامت السلطات العسكرية بمحاكمته ، وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث وعبأت الرأي العام ضده ، الأمر الذي خلق جوّاً غير ملائم لضمان حياد المحاكمة . وفي نهاية الأمر ، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة ، وجُرّد من رتبته علناً أمام الجماهير ، ونُفي إلى جزيرة الشيطان (ديفلز أيلاند) التي تقع على الساحل الأفريقي (وكانت مستعمرة فرنسية) . ورحبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم .

ويقال إن واقعة دريفوس تركت أثراً عميقاً في تيودور هرتزل لدرجة أنه اكتشف عيب محاولة الاندماج ، فنبى بدلاً من ذلك الحل الصهيوني . ولكن هذه الفكرة في حد ذاتها عملية تبسيط فجّة للعوامل التي أدّت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية . والحقيقة التي لا تورددها المراجع الصهيونية هي أن هرتزل نفسه كان مقتنعاً في بادئ الأمر بأن دريفوس كان مذنّباً وخائناً ، ولا أحد يدري ما الذي جعله يغيّر رأيه فيما بعد ، ولكن هذا ليس هو موضوعنا الأساسي . وقد يكون من الأجدي وضع واقعة دريفوس في إطارها التاريخي والاجتماعي والإنساني .

ابتداءً ، كان دريفوس محل شك المخابرات الفرنسية لأسباب وجيهة . فالقوات الفرنسية ذاتها كانت تجنّب كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الألزاس واللورين للعمل كجواسيس لحسابها . ولذا ، ساد الاعتقاد بأن ألمانيا أيضاً كانت تقوم بالشيء نفسه ، وهو أمر متوقع . والجدير بالذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوروبي لأعضاء الجماعات اليهودية ، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات التاريخية . ففي القرن السابع عشر ، لعب أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا دوراً أساسياً في عملية التجسس بين الدول . كما حاول أوليفر كرومويل أن يخطب ود أعضاء الجماعات اليهودية ويوطنهم في إنجلترا حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له .

ويلاحظ أن هذه الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في أوروبا ، الأمر الذي أدّى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا ، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية . وكان عند العمال الإيطاليين عام ١٨٧٢ نحو ١١٢ ألفاً ، فأصبح ٣٠٠ ألف عام ١٨٩٠ ، وجاء معهم قرويون (من القرى الفرنسية) يتحدثون لهجاتهم المحلية ، مثل البريتون والأفيريان . كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد اصطبغوا بعد بالصيغة الفرنسية . ووصلت أعداد كبيرة كذلك من يهود شرق أوروبا الذين يتحدثون اليديشية (وهي رطانة ألمانية) . وقد أدّى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب . كما أن تزايد يهود شرق أوروبا ويهود الألزاس واللورين ، على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي ، أدّى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب . ومن المعروف أن العناصر الأجنبية عادةً ما تتعرض في فترات الكساد الاقتصادي للهجوم من قبل أعضاء الأغلبية المحليين الذين يتهمون العناصر الوافدة بأنهم سبب الأزمة . كما أن العامل الأجنبي يرضى بأجر أقل ومستوى معيشي أكثر انخفاضاً ، الأمر الذي يشير الحقد عليه .

وعلاوة على هذا ، كان الأجوانعام في فرنسا آنذاك متوتراً ، وخصوصاً إزاء أعضاء الجماعة اليهودية ، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد بروسيا عام ١٨٧٠ . وكانت العناصر النخبوية التي تضم نسبة عالية من أعضاء الجماعة اليهودية تقف ضد فكرة الانتماء من ألمانيا . كما كان اند العلماني أخذاً في التزايد وفي الإصرار على فصل الدين عن الدولة . هذا إلى جانب أن الثورة الصناعية اقتلعت الكثيرين من جذورهم وأدّت إلى إفقارهم وقذفت بهم في المدن الكبرى (مثل باريس) . وكان هؤلاء المُغتَنَمون يشعرون بانعدام الأمان في المجتمع الجديد (بعلمانيته وثورته وقيمه التجارية) والذي كان اليهود يوجدون في مركزه . وإلى جانب كل ذلك ، كان هناك أيضاً عدد كبير من اليهود بين قيادات كومونة باريس في عام ١٨٧١ . وأدّى هذا كله إلى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والفوضوية في المجتمع . ولكن من المفارقات التي تستحق التأمل أن أعضاء الجماعات اليهودية ارتبطوا في الوقت نفسه في الوجدان الأوروبي ، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث ، بالمصالح المالية الكبيرة ، والبنوك والشبكات المالية والتجارية ، وهي صورة دعمها بروز أسرة روتشيلد في عالم التجارة والمال .

وهكذا ، أصبح اليهودي رمزاً متبولراً لكثير من العناصر محط شك الجماهير وكرهها ، فهو الأجنبي البغيض ، وهو الشوري

انتحر الكولونيل هيوبرت جوزيف هنري أثناء استجوابه ، وهو شاهد الإثبات الأول في القضية ، بعد أن اعترف بتزويره الوثائق التي أدت إلى إدانة دريفوس . وعندما علم إسترهازي بحادث الانتحار اعترف بجريمته وفر إلى إنجلترا . وفي صيف عام ١٨٩٩ ، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريفوس على ضوء الأحداث التي استجدت . وتحت ضغط بعض الشخصيات من ذوي النفوذ في الجيش ، أعلن مرة أخرى أنه مذنب . وفي هذه المرة حكم عليه ، مع مراعاة الظروف المخففة ، بالحبس عشر سنوات كان قد قضى خمساً منها في المنفى . وبعد عدة أيام أمر الرئيس الفرنسي إميل لوبيه بالعفو عنه . وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين عنه على استئناف المراجعة لإثبات براءته التامة ، وذلك لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص . غير أن ألفريد دريفوس نفسه لم يكن مدركاً للأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية ، فكان كل ما يتمناه وتمناه عائلته الثرية المتدمجة هو الإفراج عنه سواء عن طريق العفو أو التبرئة ، ولهذا ، قبل قرار العفو . أما بيكار ، فأصبح بطلاً قومياً ورفاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريجادير جنرال ، وعُيِّنَ فيما بعد وزيراً للحرب .

ثم فتحت محاكمة دريفوس ، مرة أخرى ، عام ١٩٠٣ بضبط من القوى العلمانية والثورية وصدر الحكم بتبرئته ، وأعيدت له حقوقه السابقة ، وعُيِّنَ في هيئة الأركان مرة أخرى بوظيفة ميجور ومنح نوط الشرف ، ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة . وقد عُيِّنَ أثناء الحرب العالمية الأولى قائداً لأحد قطاعات باريس برتبة كولونيل . ثم اعتزل الحياة العامة تماماً بعد ذلك وعاش في منزله بقية حياته غير مدرك للدلالات التاريخية والسياسية للواقعة التي ارتبطت باسمه (حسبما أخبرني أحد أفراد أسرتي الذي قابلته في منزله عام ١٩٣٤ حيث كان صديقاً لابنه) .

وقد عمقت هذه القضية الخلافات الموجودة بين مؤيدي وخصوص النظام الجمهوري في فرنسا ، وأدت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية ، كما كانت وراء القانون الذي صدر عام ١٩٠٥ بفصل بقايا الدين عن الدولة .

المأامرة اليهودية الكبرى (أو العالمية)

Grand or World Jewish Conspiracy

يميل العقل الإنساني ، إن لم يجد نموذجاً تفسيراً ملائماً لواقعة ما ، إلى ردها إلى يد أو أياد خفية تُنسب إليها التغييرات والأحداث كافة . فالأحداث - حسب هذا المنظور - ليست نتيجة تفاعل بين

العلماني التقدمي الذي يحمل لواء المجتمع الجديد المدمر ، وهو أيضاً رجل المال الذي لا يكثر بأية قيم سوى الربح ، ولا يرتبط بأي أرض سوى السوق . وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره أژاسياً وأجنبياً وعضواً في طبقة المموّلين الأثرياء . وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التي كانت تستخدم خليطاً جذاباً ومريحاً من الديباجات المسيحية والاشتراكية والعرقية وتطرح صورة للمجتمع المبني على التضامن المسيحي والتكافل الاجتماعي والتعاون الاقتصادي (جمائشافت) ، تلك الصورة التي تقف على الطرف النقيض من المجتمع الصناعي الجديد المبني على التنافس والتفاول ، الذي يؤمن بإمكانية البقاء للأصلح والأقوى وحسب (جيسيلشافت) . وقد انضمت أغلبية أعضاء الجماعة اليهودية المتركون في العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التي أدارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة . فاليهودي كان رمزاً مهماً بلا شك للقوى الجديدة ، ولكنه لم يكن قط أحد أطراف المعركة بل كان جزءاً من كل ، فهو جزءٌ من القوى الاجتماعية المتصارعة في المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر والتي كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها . وقد حولت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة للصراع فيما بينها .

ففي عام ١٨٩٦ ، اكتشف جورج بيكار رئيس مخابرات الجيش الفرنسي ، وبطل واقعة دريفوس الحقيقي ، أدلة تثبت براءته من التهمة المنسوبة إليه ، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور إسترهازي الذي لعب دوراً مهماً في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس . وحاول بيكار إقناع المسؤولين بإعادة المحاكمة ، ولكنه أمر بالتزام الصمت ونُقل إلى تونس بسبب ذلك .

وقد شُنت حملة إعلامية مكثفة قادها الفكر الفرنسي اليهودي برنارد لازار للمطالبة بإعادة النظر في القضية حيث كتب عدة مقالات دافع فيها بحماس عن دريفوس ، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية لاقتناعه ببرأته . وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار ، قُبِضَ على الميجور إسترهازي وحُكِمَ ذراً للرماد في العيون ولكن سرعان ما برئ لعدم كفاية الأدلة . فكتب الروائي الفرنسي إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إني أنهم» هاجم فيها المحاكمتين ، وكانت النتيجة أن أنهم زولا بالقذف العلني وحُكِمَ عليه بالسجن ففر إلى إنجلترا .

وفجأة ، برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية ، فقد

الإنجليزية وجعلوها تُصدر وعد بلفور . وهم الذين أسقطوا الدولة العثمانية من خلال يهود الدومو وهم الذين يحركون الآن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية ويوجهون الإعلام الأمريكي ويجندون الصوت اليهودي ، وذلك حتى يُسَخِّروا الولايات المتحدة ويُرغموها ، بما لديهم من نفوذ وسطوة وهيمنة ، على تحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم . وهم على اتصال بعالم الجريمة للمساعدة في إفساد العالم . والصهيونية ليست ظاهرة مرتبطة بحركات التاريخ والفكر الغربي ، وليست مرتبطة بظهور الإمبريالية الغربية وهيمنتها على العالم ، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية الذي يتبدى في الغزو الصهيوني لفلسطين ، وضرب المفاعل الذري العراقي وغزو لبنان وقمع الانتفاضة والهجرة اليهودية السوفيتية إلى فلسطين والسوق الشرق أوسطية . . . إلخ . ومن أهم إفرازات هذا التصور الاختزالي الوثيقة المسماة بروتوكولات حكماء صهيون .

وقد ساعد على نشر التصورات التأميرية عن اليهود ، شعائرهم الدينية المركبة التي لا يستطيع كثير من الناس فهمها . كما ساهمت النزعة الخلوية الانعزالية في الدين اليهودي ، والتصورات اليهودية الخاصة بالشعب المختار ، والمركزية الكونية والتاريخية التي يصفها اليهود على أنفسهم ، في تعميق شكوك غير اليهود فيهم . وبما لا شك فيه أن وجود اليهود ، بوصفهم جماعات وظيفية متفرقة ، داخل عديد من المجتمعات الغربية ، تنظمها شبكة من العلاقات التجارية الوثيقة التي تحقق من خلالها قدراً كبيراً من النجاح التجاري والمالي قد عمق الرؤية التأميرية لليهود . وقد بلغت هذه الشبكة قمة تماسكها وقوتها في القرن السابع عشر حين كانت تنظم يهود الأرندا في شرق أوروبا ، ويهود البلاط في وسطها وغربها ، ويهود السفارد في البحر الأبيض والدولة العثمانية وشبه جزيرة أيبيريا والعالم الجديد ، وخلق هذا الوجود الإحساس بالتنسيق فيما بينهم . ومع ضعف المجتمعات الغربية وبنائها القيمي ، بسبب انتشار قيم النفعية والعلمانية ، ومع تركُّز اليهود في كثير من الحركات العلمانية والفوضوية ، تعمق الإحساس بأن ثمة مؤامرة يهودية تهدف إلى السيطرة على العالم كما تهدف إلى إفساده .

والباحث المدقق سيكتشف أن الرؤية الاختزالية التأميرية لليهود لا تختلف في أساسياتها مطلقاً عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود . فكلا الفريقين يرى اليهود من خلال رؤية واحدة اختزالية ساذجة ، تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم في التاريخ إذ أنها تسقط عنهم زمنيته وتركبيته وإنسانيته . فبدلاً من رؤية أعضاء

مركب من الظروف والمصالح والتطلعات والعناصر المعروفة والمجهولة من جهة وإرادة إنسانية من جهة أخرى ، وإنما هي نتاج عقل واحد وضع مخططاً جباراً وصاغ الواقع حسب هواه ، وهو ما يعني أن بقية البشر إن هم إلا أدوات . ومن أهم تجليات هذا النموذج الاختزالي ما يُقال له «المؤامرة اليهودية الكبرى» أو «المؤامرة اليهودية العالمية» والتي تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية يُكوِّنون كلاً واحداً متكاملًا متجانساً ، وأن لهم طبيعة واحدة ، وأن اليهودي شخص فريد لا يخضع للحركات الاجتماعية التي يوجد فيها ، ولا ينتمي إلى الأمة التي يعيش بين ظهرانيها . وهو يقف دائماً مقابل الأغيار (غير اليهود) ، إذ أن ثمة خاصية ما في اليهود ، وخصوصية كاملة فيهم ، تجعل من العسير على كل المجتمعات الإنسانية دمجمهم ، أو استيعابهم ، وتجعل اندماجهم فيها عسيراً .

ويتمسك اليهود (حسب نموذج المؤامرة الكبرى) بالشر والمكر والرغبة في التدمير (فهذه أمور وُجدت في عقولهم بالفطرة وهي بُد أساسية ثابتة في طبيعتهم) ، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودي الذي يخطط ويدير منذ بداية التاريخ ، والذي وضع تفاصيل المؤامرة الكبرى العالمية لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل الشعوب ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة ، وذلك بهدف السيطرة على العالم (وربما لإنشاء حكومة عالمية يكون مركزها أورشلين القدس) . والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة ، واليهود من ثم هم المسؤولون في كل الأزمنة والأمكنة عن كل الشرور والمكرات . فهم ، على سبيل المثال ، الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية) ، وهم الذين وضعوا السم للرسول عليه الصلاة والسلام ، وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبا (ثم أتباعه من بعده) للقضاء على الإسلام ، وهم الذين قاموا بدس الإسرائيليات دساً على الدين الخفيف ، بل يُنسب إليهم ذبح الأطفال واستخدام دمهم في صنع خبز الفطير الذي يأكلونه في عيد الفصح .

وفي العصر الحديث يرى التأميريون أن اليهود وراء أشكال الانحلال المعروفة والعنصرية (وغير المعروفة والخفية) في العالم الغربي والعربي ، بل وفي كل أرجاء العالم . فهم وراء المحافل الماسونية التي أسسوها أداة لمؤامراتهم ، وهم وراء البهائية التي تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد ، وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها ، والبشقية بكل إرهابها ، والإباحية بكل تدميرها ، وهم يسيطرون على رأس المال العالمي والحركة الشيوعية ويتحكمون في الصحافة ووسائل الإعلام . وهم الذين ضغطوا على الإمبراطورية

الكونجرس . أما الحكومات العربية ، فإنها تُفسّر تخاذلها وهزيمتها أمام العدو الصهيوني على أساس الأسطورة المريحة نفسها . وبالتالي ، يجد كل من أطراف الصراع تفسيراً يبدو معقولاً ومقبولاً لوضعه أمام نفسه وأمام جماهيره .

اليهود كشياطين

Demonization of the Jews

من الصور الأساسية المتواترة في أدبيات معاداة اليهود تصويرهم على أنهم شياطين ، فالشر لصيق بطبيعتهم ، فهم يخربون أي مجتمع يعيشون في كنفه ، ويحكون المؤامرات عبر التاريخ للقضاء على الجنس البشري (ربما مثل إبليس منذ أن خرج من الجنة) . وهذا هو المفهوم الكامن وراء بروتوكولات حكماء صهيون ووراء فكرة المؤامرة اليهودية العالمية . وهذه الفكرة تفترض وحدة اليهود عبر التاريخ وأنهم يمتلكون قوة سحرية (تماماً مثل الشيطان) ، ولذا فهم لا يُقهرُونَ أو لا يمكن قهرهم إلا باللجوء للحلول السحرية ، إذ لا يهزم السحر إلا السحر . كما لا يمكن هزيمة الشياطين بالجهد البشري العادي ، جهاداً كان أو اجتهاداً ، ولذا في مجابهة الشيطان لا يملك المرء إلا أن يستعبد بالله أو يفر من الشيطان أو يستسلم له ، ويوقع معاهدة سلام واستسلام .

والإيمان بأن اليهود وحدة صلبة متماسكة لا تُقهر ، أو بأن إلحاق الهزيمة بهم في حكم المستحيل ، هي فكرة تروج لها الدعاية الصهيونية الواعية (والدعاية المعادية لليهود غير الواعية) . وتظهر في شعارات مثل «جيش الدفاع الإسرائيلي الذي لا يُقهر» . وفكرة اليهود كشياطين هي مقلوب فكرة اليهود ككتلة صلبة لا تُكسر ، وكلاهما يدور في إطار الحلولية الكمنونية الواحدة . فكما أن الفكر الحلولي (الصهيوني) يجعل اليهود موضعاً للحلول الإلهي (باعتبارهم الشعب المختار صاحب الحقوق المطلقة) ، فإن مفهوم اليهود كشياطين يجعلهم موضع الشر الكوني الذي لا يتحول ، فالأول يجعل منهم شعباً مقدساً يتجاوز الخير والشر ، والثاني يجعل منهم شعباً شيطانياً يتجاوز الخير والشر أيضاً . وهذه الفكرة لها امتدادها في التراث المسيحي الذي يجعل من اليهودي مركزاً للدراما المسيحية الكونية التي تدور حول صلب المسيح وقيامه والتي يلعب فيها اليهود دور قاتل الرب الذي يقف بعد ذلك ، في ضمته وتدنيه ، شاهداً على انتصار الكنيسة وعظمتها . وقد وجدت هذه الفكرة طريقها إلى العالم الإسلامي وحلت محل فكرة الفطرة الخيرة التي يولد الإنسان بها .

الجماعات اليهودية كجزء من تواريخ بلادهم وحضاراتهم ، فإنها تنظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متماسكاً فريداً يتحرك داخل تاريخه اليهودي الخاص بمعزل عن المجتمعات التي يعيشون فيها . وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلا من التأميرين والصهاينة يتحدثون عن «الشعب اليهودي عبر التاريخ» وعن «الشخصية اليهودي في كل العصور» وعن «العبرية أو الجريمة اليهودية في كل زمان ومكان» وهكذا .

ويُقدّم كلا الفريقين تصوراً لليهود باعتبارهم كيانات بسيطة ودافعها وغاياتها بسيطة . فأعضاء الشعب اليهودي هذا ، حسب رؤية التأميرين والصهاينة ، لا يشعرون بالانتماء لأوطانهم ، إذ أنهم أينما وُجدوا يحنون لصهيون ويدنون لها وحدها أو لحكومتهم اليهودية بالولاء ، ومن ثم فاليهودي عادةً يعاني من ازدواج الولاء ولا يشعر بالاستقرار في وطنه ، ونتيجةً لهذا يصبح شخصية مريضة لا تخضع للقوانين الإنسانية العامة ، يقاوم الاندماج في الأغيار ويقع ضحية فريدة لعنفهم .

والخلاف بين التأميرين والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الرصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل وإنما في آليات اخل وحسب ، أي أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس كلياً وشاملاً ، فكلا الفريقين يطرح حلاً بسيطاً لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج ، ألا وهو ضرورة «مخروج» اليهود من أوطانهم . ولكن بينما يرى التأميرين وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف في هذه العملية (من طرد وإبادة) ، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة ، بحيث لا يوجد أي مبرر للعنف . ومع هذا ، لا يستبعد الصهاينة استخدام العنف كآلية لإخراج اليهود من أوطانهم ، كما حدث عام ١٩٥١ ، حينما أُلقي عملاء إسرائيل القنابل على أماكن تجمع أعضاء الجماعة اليهودية في العراق حتى يضطروهم للهجرة منها إلى الدولة الصهيونية الناشئة ، وكما يحدث الآن حينما تضغط الحركة الصهيونية على الولايات المتحدة لتغلق أبوابها أمام اليهود السوفيت حتى يضطروا إلى الهجرة إلى إسرائيل .

وفكرة المؤامرة أكذوبة تلائم معظم الأطراف المشتركة في الصراع الإسرائيلي ، فإسرائيل تستفيد كثيراً من هذا الفكر التأميري لأنه يضفي عليها من القوة ما ليس لها ، ومن الرهبة ما لا تستحق ، وهو في نهاية الأمر يجعلها تكسب معارك لم تدخلها قط .

كما أن الحكومات الأمريكية المختلفة تفسر للزعماء العرب عجزها عن مساعدة الحق العربي بتعاظم النفوذ الصهيوني في

المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية . وقد أصبحت البروتوكولات من أكثر الكتب رواجاً في العالم الغربي بعد الإنجيل ، وترجمت إلى معظم لغات العالم وضمن ذلك العربية حيث ظهرت عدة طبعات منها . وحازت البروتوكولات اهتمام بعض المشتغلين بالتأليف والإعلام حيث أشاروا إليها باستحسان كبير ، وكأنها وثيقة ذات شأن كبير . وخسن أخط ، لا يوجد مركز دراسات عربي واحد أعارها أي اهتمام ، ولا يتم نشرها إلا من خلال دور نشر تجارية .

والرأي السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة البروتوكولات دراسة علمية متعمقة هو أن البروتوكولات وثيقة مزورة ، استفاد كاتبها من كتب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان حوار في الجحيم بين ماكيفاللي ومونتيكو ، أو السياسة في القرن التاسع عشر . نُشر في بروكسل عام ١٨٦٤ ، فتحوّل الحوار إلى مؤتمر ونحو الفيلسوف إلى حكماء صهيون . وقد اكتشفت أوجه التشبه بين الكتيب والبروتوكولات حيث تضمنت هذه الأخيرة اقتباسات حرفية من الكتاب المذكور ، وأحياناً تعبيرات مجازية وصوراً منه . والرأي السائد الآن أن نشر البروتوكولات وإشاعتها إنما هي بزعزعة الشرطة السياسية الروسية لتلليل من الحركات الثورية والليبرالية ومن أجل زيادة الشكاف الشعب حول اقيصر والأرستقراطية والكنيسة وبخونهم من المؤامرة اليهودية الخفية العالمية .

وقد قمنا بدراسة سريعة لبعض خطاب البروتوكولات (الأسلوب والمفردات والصور ... إلخ) ، فوجدنا أن هناك من الدلائل ما يدعم وجهة النظر القائلة بأنها وثيقة مزيفة :

١ - يُلاحظ أن البروتوكولات وثيقة روسية بالدرجة الأولى والأخيرة:

أ) فكاتب الوثيقة لا يعرف شيئاً عن المصطلح الديني اليهودي ولا يستخدم أية كلمات عبرية أو يديشية . وهناك إشارات لـإله الهندي فشنو ، وإشارة واحدة لأسرة داود . وبطبيعة الحال ، يمكن إثارة القضية التالية : إذا كانت البروتوكولات وثيقة سرية ، فلماذا لم يكتبها حاخامات اليهود بالعبرية أو الآرامية أو اليديشية ليضمنوا عدم تسريبها ؟ وما يجدر ذكره أن كثيراً من يهود روسيا آنذاك كانوا يتحدثون اليديشية ولا يعرفون الروسية . وكان حزب البوند ، أكبر الأحزاب العمالية في أوروبا يدافع عن حقوق العمال من أعضاء الجماعة اليهودية ويطلب بالاعتراف باليديشية باعتبارها لغتهم القومية (باعتبارهم أحد «شعوب» الإمبراطورية الروسية) .

وإضافة صفة الإنسانية على أعضاء الجماعات اليهودية (بدلاً من الشيطانية) يعني إمكانية دراستهم وفهمهم والتمييز بين الخير والشرير فيهم ، وبين العدو والصديق ، وفي نهاية الأمر طرح إمكانية الجهاد ضد من يعادينا ويغتصب أرضنا منهم وإلحاق الهزيمة به .

بروتوكولات حكماء صهيون

Protocols of the Elders of Zion

كلمة «بروتوكول» كلمة إنجليزية تعني «اتفاقية» ، و بروتوكولات حكماء صهيون وثيقة يُقال إنها كتبت عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرا ، أي في العام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول . بل يزعم البعض أن تيودور هرتزل تلاها على المؤتمر ، وأنها نوقشت فيه ، بل وتذهب بعض الآراء إلى التأكيد على أن المؤتمرات الصهيونية المختلفة إن هي إلا مؤتمرات حكماء صهيون هذه ، وأن الهدف من المؤتمر السري الأساسي الأول الذي ضم حاخامات اليهود هو وضع خطة محكمة (بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والمحدثين) لإقامة إمبراطورية عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس . وتقع البروتوكولات البالغ عددها أربعاً وعشرين بروتوكولاً في نحو مائة وعشر صفحات ، ونشرت لأول مرة عام ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس وهو مواطن روسي ادعى أنه تسلّم المخطوطة عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من امرأة (مدام ك) ادعت أنها سرقته من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا . لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه المرأة أخذتها من رئيس البوليس السري الروسي في فرنسا ، وأن الأخير هو الذي سرقها من أرشيف المحفل الماسوني . وقد كانت لنيلوس اهتمامات صوفية متطرفة ، كما كان غارقاً في الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفية للأشكال الهندسية .

وقد لاقت البروتوكولات رواجاً كبيراً بعد نشوب الثورة البلشفية التي أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهودية» ، إذ عزا الكثيرون الانتفاضات الاجتماعية التي اجتاحت كثيراً من البلدان الأوروبية إلى اليهود .

وانتقلت البروتوكولات إلى غرب أوروبا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس . وبلغت البروتوكولات قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين ، حينما حاول كثير من الألمان تبرير هزيمتهم بأنها طعنة نجله من الخلف قام بها اليهود المشتركون في

الاتهامات لأنفسهم في البروتوكولات الثاني نفسه : " من خلال الصحافة اكتسبنا تقردنا ، وبقينا نحن وراء الستار ، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب ، ولو أن ذلك سبب أنهاراً من الدم " . وهذه في الواقع عريضة اتهام موجهة للذات ؛ فلماذا يكلف كبير الحكماء خاطره ليقدمها لبقية أعضاء المجتمع الذين يعرفون ذلك مسبقاً ؟ ولماذا يُصر على أن يُخبرهم في البروتوكول الثالث أن " أسرار تنظيم الثورة الفرنسية معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا ، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدماً من فشل إلى فشل ، حتى أنهم سوف يتبرأوا منا " . فمن يمكن أن يصف حركته بأنها حركة لقيادة الأمم من " فشل إلى فشل " ، ويصر على أن هذه الحركة ستودي بهم ؟ ثم يضيف في البروتوكول التاسع : " إن لنا طموحاً لا يُحدّ ، وشرهاً لا يُشبع ، ونقمة لا تُرحم ، وبغضاء لا تُحس . إننا مصدر إرهاب بعيد المدى . وإننا نُسخّر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب " . ثم يتطوع بالتأكيد على ما يلي : " لقد خدعنا الجبل الناشئ من الأعمى ، وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ " . ومن الواضح أن التزييف لم يبق منه سوى صيغة المتكلم الجمع ، أما الباقي فهو اتهامات موجهة بالتأمر لليهود ، ينسبها كاتبها لهم حتى تبدو كما لو كانت صادقة .

ويمكننا الآن أن نعرض للأفكار الأساسية في البروتوكولات التي تؤكد أن السياسة لا تخضع للأخلاق ، وأن اليهود سيفذون مخططهم الإرهابي عن طريق الغش والخداع . فعلى مستوى المجتمع ، سيقومون بتقويض دعائم الأسرة وصلات القرابة ، وإشاعة الإباحية ، واستغلال الحريات العامة ، وتخريب المؤسسات المسيحية ، وإفساد أخلاق العالم المسيحي الأوربي . أما على مستوى الدولة ، فإنهم سيسعون إلى تقويض كيان الدول عن طريق الإيقاع بينها بحيث تتدخل الحروب ، على ألا تؤدي هذه الحروب إلى تعديلات في حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية ، ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم . وينبغي التركيز على المنافسة في المجتمع ، وعلى تصعيد الصراع الطبقي ، ليجري الجميع نحو الذهب الذي لابد أن اليهود سيحتكرونه ، وتُصاب المؤسسات الدينية والسياسية بالاهتراء ويسود رأس المال كل شيء .

وتتهم البروتوكولات في المراحل الأولى من المخطط بأن يسيطر اليهود على الصحافة ودور النشر وسائر وسائل الإعلام ، حتى لا يتسرب إلى الرأي العام العالمي إلا ما يريدونه . كما أنها ترى ضرورة أن يسيطر اليهود على الدول الاستعمارية وأن يسخروها حسب أهوائهم . كما أنهم سيسيطرون أيضاً ، بطبيعة الحال ، على الدول

(ب) الموضوعات الأساسية المتواترة في البروتوكولات موضوعات روسية ، فهناك دفاع عن الاستبداد المطلق وعما يُسمى « الأرستقراطية الطبيعية الوراثية » ، وهجوم شرس على الليبرالية والاشتراكية ، وهو ما يبيّن أن اهتمامات الكاتب روسية تماماً وتعكس رؤية الطبقة الحاكمة الروسية في السنين الأخيرة من حكم النظام القيصري .

(ج) هناك هجوم على الكنيسة الكاثوليكية واليسوعية ، وهو ما يدل على أثر التربة المسيحية الأرثوذكسية السلافية التي كانت تناصب الكاثوليكية العداة .

(د) ثمة هجوم شرس على الماسونية ، التي كانت آنذاك جزءاً لا يتجزأ من الحركة الليبرالية والثورية الروسية .

(هـ) هناك هجوم شديد على دزرائيلي ، الذي كان شخصية مكروهة تماماً من النخبة الحاكمة في روسيا لأنه كان يساند الدولة العثمانية حتى تظل حاجزاً منيعاً ضد توسع الإمبراطورية الروسية .

٢ - كما أن نبرة البروتوكولات ساذجة للغاية ، فمن الواضح أن كاتبها الذي زيفها ، لا يجيد التزييف ، فقد حاول أن يبيّن الخطر العالمي لليهود . وحتى يعطي وثيقته درجة من المصدقية ، جعل حكماء صهيون (لا أحد سواهم) يتحدثون عن الخطر اليهودي ، حتى يبدو الأمر كله وكأنه « شهد شاهد من أهلها » ، غير أنه لم يكن على درجة كبيرة من الذكاء في عملية تزييفه هذه :

(أ) ففي الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ينطق حكيم صهيون الأول بالكلمات التالية : " يجب أن يلاحظ أن ذوي الطابع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطابع النobile " . وهذه ملحوظة تبيين الشر المتأصل في صاحبها . ولكن السؤال البديهي الذي يطرح نفسه هو : لماذا يصر كبير حكماء صهيون على نقل هذه الآراء لحكماء صهيون ؟ أليس كل الحاضرين من الأشرار الذين لا توجد شبهة في شرهم ؟ والساذجة نفسها تتبدى في الملاحظة التي ترد بعد عدة صفحات حيث يقول كبير الحكماء : " إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا (نحن نضع خططنا) ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد ! " مرة أخرى لماذا يكلف كبير الحكماء نفسه بتذكير الحاضرين من الحاخامات بمثل هذه البدهيات المتداولة بين الأشرار في كل زمان ومكان ؟ أم أنه لاحظ بعض علامات الخير بينهم فأراد أن يحذرهم منها ؟

(ب) يحاول واضع البروتوكولات أن يضحك اليهود وقوتهم ليخيف الناس منهم فيجعلهم ينسبون إلى أنفسهم في البروتوكول الثاني كل شر فيقول : " نجاح داروين وماركس ونيتشة قد رتبناه من قبل " . ولكنه ينسى نفسه بعد قليل وتبدل النبرة إذ يبدأ اليهود في توجيه

الجماعات اليهودية في حركة اليسار أيضاً : فقد كان أكبر حزب اشتراكي في أوروبا هو حزب البوند اليهودي . وقد انخرط الشباب اليهودي بأعداد كبيرة في الحركات الثورية ، حتى أن ٣٠٪ من أعضاء الحركات الثورية في روسيا القيصريّة كانوا من الشباب اليهودي . وحينما قامت جمهورية بلشفية في المجر عام ١٩١٩ ، كان رئيس الدولة يهودياً ، وكان عند اليهود من الوزراء كبيراً لدرجة مدعته ، وكانت هناك أعداد كبيرة من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين من أصل يهودي . كما كان لليهود حضور واضح في الفكر الفوضوي . وفي نهاية الأمر ، كان كل من روتشيلدر رمزاً للارتباط العضوي بين اليهود والرأسمالية ، وماركس رمزاً للارتباط العضوي أيضاً بين اليهود والاشتراكية . ولذا ، كان من الممكن تفسير كل شيء بالرجوع إلى مقولة «يد اليهود الخفية» .

ولعل ما ساعد على إشاعة هذا النموذج النفسي الساذج أن الوجدان المسيحي كان يجعل من اليهودي قاتل الرب رمزاً لكل الشرور . وقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر عصر الهجرة اليهودية الكبرى ، ولذا كان هناك يهود في كل مكان ، يهود لا جنود لهم في طريقهم من شرق أوروبا إلى الولايات المتحدة . وكما هو معروف ، فإن الإنسان المهاجر المتقل لا ينتزه بكثير من القيم . وبكل هذا ، أصبح اليهودي رمزاً متعصباً لعملية ضخمة لم يكن الإنسان الأوروبي يفهمها جيداً رغم شغفه بنتاجم عنها ، وهي الثورة العلمانية الشاملة الكبرى (بشقيها الاشتراكي والرأسمالي) ، وهي ثورة لم يكن اليهودي يشكل فيها سوى جزء بسيط من كل ضخم مركّب . بل إن العقيدة اليهودية ذاتها سقطت ضحية هذه «ثورة» . وفقدت قطاعات كبيرة من الجماعات اليهودية هويتها نتيجة لها .

والفكرة الأساسية في البروتوكولات هي فكرة الحكومة اليهودية النعانية . لكن المعروف تاريخياً أنه لم تكن هناك سلطة مركزية تجمع سائر يهود العالم بعد تحطيم الهيكل على يد نبختنصر عام ٥٨٦ ق.م ، وذلك بسبب طبيعة الوجود اليهودي في العالم حيث انتشر اليهود على هيئة أقليات دينية لا يربطها رباط قومي ، وقد كان لكل أقلية محاكمها وهيئاتها الخاصة التي تقوم برعاية شئونها . ولكن اليهود لا يختفون في هذا عن أية أقلية دينية أو جماعة وظيفية أخرى .

وهنا ، يمكن أن نثير قضية مهمة هي قضية الوسائل : هل للجماعات اليهودية في العالم من القوة ما يمكنها من تنفيذ هذا للمخطط الإرهابي العالمي الضخم ؟ إن الدارس لتواريخ الجماعات اليهودية يعرف أنها كانت دائماً قريبة من النخبة الحاكمة لا بسبب

الاشتراكية المعادية للاستعمار . و البروتوكولات تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء : عن الخير والشر ، والثورة والثورة المضادة ، والاشتراكية والرأسمالية . فالبروتوكول السادس ، مثلاً ، يقول : «كي نخرب [أي نحن اليهود] صناعة الأغيار سزدي من أجور العمال [اتجاهات اشتراكية] ونعرض الصناعة للخراب والعمال للفوضى [اتجاهات فوضوية]» .

ومن الواضح أن البروتوكولات ليست نقداً لليهود بمقدار ما هي تعبير عن إحساس الإنسان الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر بأزمته ، وبقدرة ما هي تعبير عن إدراكه السطحي المباشر لها بعد تزايد معدلات العلمنة في الغرب وبعد تفكك المجتمع التقليدي الذي كان يوفر له قدراً كبيراً من الطمأنينة ، حتى وإن سلبه حريته وفرصه في الحراك الاقتصادي . فالمجتمع الذي يجاول اليهود فرضه على العالم ، حسبما جاء في البروتوكولات ، ليس عالماً شريراً بشكل شيطاني ميتافيزيقي ، وإنما هو في الواقع العالم الغربي الصناعي الذي سادت فيه قيم العلمانية والنفعية ، ومن هنا كان الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية باعتبارهما نظامين يبشر بهما اليهود ، كما كان الجمع بين تنيشه وماركس باعتبارهما فيلسوفين يبشر اليهود بفكرهما . فبرغم الاختلافات العميقة بين النظامين المذكورين ، والاختلاف بين الفيلسوفين ، فإن العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو التلاقي) هو تأسيس مجتمع علماني يستند إلى قيمتي المنفعة واللذة لا إلى القيم الدينية الأخلاقية المطلقة .

وقد وجد أعضاء الجماعات اليهودية في مختلف القطاعات والاتجاهات ، شأنهم في ذلك شأن أعضاء أية أقلية أخرى ، فكانت توجد أعداد كبيرة من كبار الممولين الرأسماليين اليهود ، كما كان كثير من أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الصغيرة والربا ، وكان من بينهم عدد كبير من المفكرين الليبراليين بل والرجعيين الذين يدافعون عن حرية التجارة وعن أكثر الأفكار الداروينية الاجتماعية تطرفاً . بل ونجد أن بعض اليهود ارتبطوا بالتجارب الاستعمارية الغربية غير الصهيونية كما حدث في جنوب أفريقيا (في صناعة التعدين) ، أو في شركة الهند الشرقية الهولندية ، أو في شركة قناة بنما . كما تركز أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في قطاعات اقتصادية مشينة مثل البغاء (قوادين وعاهرات) ونشر المجلات والمطبوعات الإباحية . وقد ربط هذا بين اليهودي من جهة وكل من «اليمين» و«التحلل الرأسمالي» و«التفكك الليبرالي» من جهة أخرى .

ولكن ، إلى جانب ذلك ، كانت هناك أعداد كبيرة من أعضاء

تخطب ودها نظراً لأن حكام هذه الدول يؤمنون بأن البروتوكولات وثيقة صحيحة وأن ما جاء فيها هو المخطط الذي يتحقق في العالم والذي سيؤدي إلى سيطرة اليهود وأن اليهود يتحكمون بالفعل في رأس المال العالمي وفي حكومة الولايات المتحدة . ومن ثم فالطريق إلى المعونة الأمريكية يمر من خلال اللوبي الصهيوني والدولة الصهيونية . ويضيف ماركوس معلقاً على هذه المفارقة : "إن البروتوكولات [بسبب أثرها هذا الذي يولد الرهبة في النفوس ويدفع الناس لمغازلة [إسرائيل واليهود] تبدو كأن الذي كتبها لم يكن شخصاً معادياً لليهود ، وإنما يهودي ذكي يتسم ببعد النظر " . وقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية أن اليهود بشر وأن لحاق الأذى بهم وهزيمتهم أمر ممكن ، وأنهم قد يهاجمون عدوهم كالصقور حينما تسنح الفرصة ثم يفرون كالجداج حينما يدركون مدى قوته وإصراره . والاستمرار في إشاعة الرؤية البروتوكولية هو نوع من الإصرار على مد يد العون للعدو الصهيوني ، وعلى التنكر لإنجازات الانتفاضة .

ولا يمكن للمسلم الملتزم بتعاليم دينه أن يوجه الاتهام إلى أي إنسان جزافاً ودون قرائن ، كما لا يمكن لرؤية دينية حقة أن تحكم على الفرد باعتباره تجسداً لفكرة ، إذ يظل كل إنسان مسئولاً عن أفعاله . وقد عرّف الإسلام حقوق أعضاء الأقليات ، خصوصاً أهل الكتاب ، فحدد أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وهي حقوق مطلقة لا يمكن التهاون فيها . وفي الواقع ، فإن استخدام البروتوكولات لاتهام اليهود فيه سقوط في العنصرية والعرقية التي تصنف الناس لا على أساس أفعالهم وإنما على أساس مادي لاديني (علماني) مسبق وحتمي . ولذا ، فهي لا تميز بين ما هو خير وما هو شر .

اليهودي الدولي

International Jew

شهدت أوائل العشرينيات في الولايات المتحدة نشر عدة كتب معادية لليهود من بينها بروتوكولات حكماء صهيون وكتيب سبب عدم الاستقرار في العالم الذي سبق نشره على هيئة سلسلة مقالات في جريدة المورننج بوست اللندنية . وقد نشرت مجلة الديربورن إند بنديانت (١٩٢٠) ، التي كان يمتلكها هنري فورد صاحب مصنع السيارات الشهير ، بعض هذه الأدبيات وغيرها في سلسلة مقالات بعنوان « اليهودي الدولي » . وبدأ نشر المقالات ابتداءً من ٢٢ مايو ١٩٢٢ واستمر لمدة سبع سنوات ثم نُشرت المقالات بعد ذلك على هيئة كتيبات . واتهمت هذه المقالات اليهود بأنهم يحاولون هدم أسس الحياة الأمريكية وأنهم وراء مؤامرة عالمية لتحطيم المسيحية

سلطانها أو سلطانها وإنما بسبب كونها أداة في يد النخب ولأنها لم تكن قط قوة مستقلة أو صاحبة قرار مستقل .

والإشارة إلى البروتوكولات واستخدامها في الإعلام المضاد لنصهيونية أمر غير أخلاقي لأنها وثيقة مزورة ، ولا توجد دراسة علمية واحدة (سواء بالعربية أو بغيرها من اللغات) تثبت أنها وثيقة صحيحة . ولكن ، وحتى ولو كانت البروتوكولات وثيقة صحيحة ، فإن من يستخدمها يفقد مصداقيته وفعاليته أمام الرأي العام الغربي الذي لا يؤمن بصحتها . كما لا يمكن إثبات أن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً حقيقياً عن دوافع أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، أو أنهم يأخذون بها كوثيقة ملزمة تحدد سلوكهم وأهدافهم . وبسبب السمعة السائدة للبروتوكولات ، فإن الصهاينة يصفون أي نقد موجّه إليهم بأنه وقيع في أحابيل البروتوكولات . ومن الطريف أن هناك وثائق يتداولها بعض أعضاء الجماعات اليهودية تحتوي على آراء أكثر تأمرية من البروتوكولات مثل ما يُسمى كتاب التربية الذي يوزع في إسرائيل في الوقت الحالي . كما يحوي التلمود وتراث القبّالة (وهي كتابات يهودية لا شك فيها) مقطوعات عنصرية إلى أقصى درجة ، ولكن يبدو أن مروّجي البروتوكولات لا يعرفون عنها شيئاً ، وهي على كل كتابات لا يعرف عنها معظم أعضاء الجماعات اليهودية بدورهم شيئاً . ولا يتداولها في الغالب إلا بعض العنصرين الموجودين في كل المجتمعات وبين أتباع كل العقائد .

ونمة رأي يذهب إلى أن الصهاينة يقومون بالترويج لهذه البروتوكولات لأنها تخدم المشروع الصهيوني الذي يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتجهيز والتوطين في فلسطين المحتلة . كما أن كثيراً من الافتراضات الكامنة في البروتوكولات ، مثل «الشعب اليهودي» و«الشخصية اليهودية» و«المصالح اليهودية» هي جميعاً افتراضات صهيونية أساسية والهجوم عليها هو في واقع الأمر تسليم غير مباشر بوجودها .

وسواء أكان هذا الرأي الأخير صحيحاً أم كاذباً ، فإن ترويج البروتوكولات يخدم المصالح الصهيونية من الناحية العملية . ويتم الآن ، في العالم العربي ، تداول كم هائل من الكتابات (مثل أحجار على رقعة الشطرنج وغيرها) كل هدفها إشاعة الخوف من اليهود والصهيونية بتبني رؤية بروتوكولية تنسب إلى اليهود قوى عجابية . ويساهم بعض أعضاء النخب الحاكمة في الترويج لهذه البروتوكولات لتبرير العجز العربي والتخاذل أمام العدو الصهيوني ، دون أن يدركوا أنهم بهذا إنما يخدمون مصلحة العدو . وقد صرح المعلق السياسي الإسرائيلي يوتيل ماركوس في جريدة هآرتس (٣١ ديسمبر ١٩٩٣) بأن كثيراً من الدول تغازل إسرائيل وتحاول أن

اليهودي التائه

Wandering Jew

«اليهودي التائه» شخصية أسطورية في التراث الشعبي الغربي ، وهو إسكافي يهودي يُدعى كارتافيلوس ، طلب منه المسيح عليه السلام ، وهو يحمل صليبه ، جرعة ماء ليروي بها عطشه ، ولكن الإسكافي ضربه بدلاً من أن يسقيه ، وقال له : « فلتسرع يا يسوع ، ماذا تنتظر ؟ » ، فأجاب المسيح : « أنا ذاهب ولكنك ستنتظر حتى أعود » ، فحلت على اليهودي لعنة جعلته يجب بقاع الأرض إلى أن يعود المسيح مرة أخرى ، ومن هنا سُمي «اليهودي التائه» . وقد بدأت الأساطير المستوحاة من هذه الشخصية الغريبة في الظهور في القرن الثالث عشر وتحولت إلى إحدى الصور الإدارية النمطية التي يدرك العالم الغربي اليهود من خلالها . ومن الكتب الأولى التي أشارت إليه كتاب *زهور التاريخ* للمراهب الإنجليزي روجر (من ندوفر) عام ١٢٢٨ . وكانت الشائعات تظهر من أونة إلى أخرى ، ومن مكان إلى آخر ، أن اليهودي التائه قد شوهد يتجول في هذا المكان أو ذاك بلحيت الطويلة البيضاء وعيونه اللامعة الشريرة وعصاه الطويلة . وكانت آخر مرة قيل إنه شوهد فيها خلال القرن التاسع عشر .

وقد وجدت هذه الأساطير سنداً لها في سفر ماثيو في كلمات المسيح التي تقول : « الحق أقول إن من القيام ها هنا قوماً لا يدقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته » (إنجيل متى ١٦ : ٢٨) . وقد ظل اليهودي التائه رمزاً لتلشع اليهودي ، هذا الشعب الشاهد الذي يقف خارج التاريخ شاهداً مقدساً على التاريخ من وجهة نظر اليهود ، منبؤاً من الجميع ، ومن وجهة نظر المعادين لليهود شعباً عضواً منبؤاً . وأساس هذه الصورة هو اشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالتجارة والربا كجماعة وظيفية وسيطة ، ووقوفهم خارج العملية الإنتاجية على هامش المجتمع ، وانتقائهم من بلد إلى بلد بسبب طردهم أو سعيهم وراء الربح . كما كان أبطال اليهود في العهد القديم رجالاً جوالين لا منزل لهم بسبب البيشة الرعوية التي كانوا يتحركون فيها .

وقد استغل تراث معاداة اليهود في الغرب هذه الصورة في ترسيخ سلبات ما سُمي «الشخصية اليهودية» في الوجدان الشعبي . ورغم أن أسطورة اليهودي التائه اختفت بعض الوقت ، إلا أنها عادت الظهور في القرن السادس عشر ، مع تصاعد الحمى المسيحية وانتشار العقيدة الألفية أو الاسترجاعية ، بعدة أسماء من بينها اسم أهازويروس . وبظهور الرؤية الرومانتيكية للعالم وظهور الفلسفات العنيفة والعدمية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن

والهيمنة على العالم وأن الثورة البلشفية ما هي إلا تعبير عن هذه الثورة المستمرة .

والكتاب ، مثله مثل كثير من أدبيات معاداة اليهود في الغرب ، يرى اليهودي مثلاً للثوري المتطرف والثري فاحش الثراء (البلشفي - الصيرفي ، تروتسكي - روتشيلد) ، وهو في نهاية الأمر خليط من شيلوك وعدو المسيح وقاتل الإله واليهودي التائه .

وقد وجدت هذه الدعاية العنصرية قبولاً واسعاً في الأوساط القروية الريفية وفي المدن الصغيرة وبين بعض أعضاء النخبة الحاكمة . ولكن غالبية أعضاء النخبة والجهاز السياسي في المدن كانوا يعارضون هذه الحملة إذ أنهم أدركوا أن المهاجرين اليهود بدأوا يتخلون عن رؤيتهم وعقائدهم وهويتهم ويندمجون في المجتمع الأمريكي ويتأمركون أسرع من غيرهم ، ولذلك ، تُظلمت حملة مضادة اضط هنري فورد بعدها للاعتذار عن الحملة التي شنها ، وذلك من خلال لويس مارشال رئيس اللجنة الأمريكية اليهودية .

جيكوب برافمان (١٨٢٥-١٨٧٩)

Jacob Brafman

روسي يهودي متنصر . وُلد لأسرة يهودية وتيمت في سن مبكرة ، ويبدو أن قيادة الجماعة اليهودية (القهال) في المدينة قرروا أن يرسلوا به ليُجنّد في القوات القيصرية (ربما بسبب يتمه) الأمر الذي وُلد في نفسه حقداً كبيراً على اليهود واليهودية . تنصّر برافمان وهو في سن الرابعة والثلاثين ، وعُيّن أستاذاً للعبرية في إحدى المدارس الدينية اليهودية التابعة للحكومة القيصرية ، كما عُيّن رقيباً على الكتب العبرية واليديشية .

هاجم برافمان مؤسسة القهال بشراسة ووصفها هي والمؤسسات اليهودية الأخرى بأنها « دولة داخل دولة » بأنها جزء من مؤامرة دولية . وفي عام ١٨٦٩ ، أصدر برافمان كتاب *القهال* ، ثم نشر طبعة ثانية موسعة عام ١٨٧٥ . وقد تُرجم الكتاب إلى الفرنسية والبولندية والألمانية . ويهدف الكتاب إلى إعطاء القراء الروس فكرة عن ممارسات اليهود السرية والتي يستخدمونها للهيمنة على الأغيار . وقد أصبح الكتاب من كلاسيكيات العداء لليهود في الغرب .

والكتاب يتكون أساساً من ترجمات لمحاضر جلسات بعض مجالس القهال . وقد اتهم برافمان بالتزوير ، ولكن (حسبما جاء في الموسوعة اليهودية [جودايكا]) ثبت أن ما ورد في الكتاب هو ترجمة دقيقة لبعض الجلسات ولذا أصبح الكتاب من أهم المراجع العلمية لدراسة حياة الجماعة اليهودية في روسيا القيصرية .

قاعة يستخدمها أعداء اليهود للإشارة إليهم . وقد نحت الكلمة ، في القرن التاسع عشر ، يهود أمريكيون من أصل ألماني لوصف اليهود المهاجرين من شرق أوروبا ، وهي إشارة واضحة إلى اللغة اليديشية التي تضم كلمات سلافية كثيرة وإلى اللغة الروسية التي كان يتحدث بها بعضهم ، والتي تحتوي على عدد كبير من الكلمات تنتهي بحرف الكاف ، مثل «تشرنوفسكي» و«مالينوفسكي»... إلخ . كما نحت اليهود من أصل ألماني كلمة «شيني» وهي أيضاً كلمة تحقير أخرى لوصف يهود اليديشية .

إسرائيل ويست

Israel West

«إسرائيل ويست» مصطلح يستخدمه المعادون لليهود في الولايات المتحدة ومعناه «إسرائيل غرب» . وفي الولايات المتحدة ، عادةً ما يشير بعض أعضاء الأغلبية أو أعضاء الأقليات الأخرى إلى المناطق التي يسكن فيها أعضاء الجماعة اليهودية على أنها «إسرائيل» (تماماً كما يُشار إلى أحياء الأمريكيين السود بأنها «أفريقيا») . وقد أشار أحد المتحدثين مرة إلى ما سماه «ذي جويش ستيت أوف نيويورك The Jewish State of New York» أي «ولاية نيويورك اليهودية» . وهو لعب على لفظ «ستيت state» الإنجليزي والذي يعني «ولاية» و«دولة» في آن واحد (وأحياناً لا تحمل الإشارة أي مضمون قذحي بل تكون كما في الإشارة إلى «تشينا تاون Chinatown» أي «مدينة الصينيين» وإلى «لبلل إيجيب Little Egypt» أي مصر الصغرى) .

وأخيراً ، قام ديفيد ديوك ، أحد زعماء جماعة الكوكلوكس كلان المعادية للأمريكيين السود ، بطرح فكرة بشأن الأقليات التي «لا يمكن دمجها» حسب تعبيره . وسيتم بموجب هذه الخطة نقل (ترانسفير) كل يهود أمريكا إلى «إسرائيل غرب» ، أي في ولاية لونغ أيلاند وفي حي مانهاتن في نيويورك (باعتبار أن فلسطين هي إسرائيل شرق) . وقد أشار ديوك إلى أن عملية الترانسفير هذه قد لا تكون مناسبة بالنسبة لبعض اليهود ، ولكنها - حسب قوله - لن تمس سوى مليوني يهودي ، وهو رقم أقل من الثمانية ملايين من الأمريكيين الذين أرسلوا إلى خارج الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية . وفي إشارة واضحة إلى الدولة الصهيونية ، قال ديوك : " إن هذا العدد أقل بكثير من الثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطيني التي قامت «إسرائيل شرق» بطردهم من ديارهم " .

العشرين ، وتحوُّك الاغتراب إلى إحدى علامات التميز والتفوق في الخطاب الفلسفي ، تحوُّك اليهودي التائه بدوره إلى رمز لهذا الإنسان المغترب الذي يرفضه المجتمع بسبب تميّزه ويتعاطف معه المثقفون الناثرون على مجتمعاتهم ، وهو الأمر الذي أدّى إلى خلق جوٍّ من التعاطف الرومانسي مع اليهود .

وتجدر الإشارة إلى أن اليهودي التائه ، سواء أكان شخصية سلبية مخربة أم كان شخصية إيجابية عبقرية ، يقف دائماً خارج التاريخ وخارج نطاق ما هو إنساني وسوي . ومن هنا ، يمكننا أن نرى كيف يمكن أن تتحول الصورة من صورة يستخدمها المعادون لليهود إلى صورة يستخدمها المحبون لليهود ، وذلك دون إدخال أية تغييرات على بنيتها العامة .

هب هب

Hep. Hep

«هب هب» صيحة استهزاء كانت شائعة في ألمانيا والنمسا . ويُقال إنها اختصار للمعبارة اللاتينية «هيروسوليماست يرديتا hiersolyma est perditast» ، ومعناها «لقد ضاعت القدس» التي شاعت أثناء حروب الفرنجة . وهناك رأي يذهب إلى أنها مجرد صوت يستخدم لقيادة الحيوانات المستأنسة ، وخصوصاً الكباش والماعز في مقاطعة فراكونيا ، مع افتراض أن اليهود هم الماعز بسبب خبيتهم الطويلة . وهناك نظرية ثالثة ترى أنها اختصار لكلمة «هبرايير hebraer» أي «عبرانيون» . وقد استُخدمت العبارة في اضطرابات عام ١٨١٩ التي يُطلق عليها «اضطرابات هب هب» والتي كانت تعبيراً عن احتجاج بعض قطاعات الشعب ضد إعناق اليهود . وتعود الاضطرابات إلى عدة أسباب من بينها أن عام ١٨١٦ كان عام مجاعة للفلاحين ، فاضطروا إلى الاستدانة من المرابين اليهود ، كما عمت البطالة صفوف العمال في ألمانيا آنذاك . وقد رأت العناصر الثورية أن اليهود صناع لتزنيخ (الذي أشيع عنه أنه كان يتسلم راتباً من كبار الممولين اليهود) ، وأن مؤثر فيينا (١٨١٤-١٨١٥) الذي أوصى بزيادة حقوق اليهود في ألمانيا هو ثمرة هذه العلاقة .

كايك وشيني

Kike and Sheeny

«كايك» هي كلمة تحقير إنجليزية أمريكية ذات نبرة عنصرية

معاداة اليهود والتحيز لهم

معاداة اليهود (والتعاطف مع الصهيونية) كإمكانية/ إشكالية كامنة منذ العصور الوسطى في الغرب - التحيز لليهود (حب السامية) - شيلوك - دوستوفسكي - درومون - ليوجر - سترندنبرج - كراوس - فاسيندر - معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية - كره اليهودي لنفسه - فينينجر - تريتش - لسنج - العداء العربي لليهود واليهودية

معاداة اليهود (والتعاطف مع الصهيونية) كإمكانية/ إشكالية كامنة منذ العصور الوسطى في الغرب

Anti-Semitism (and Pro-Zionism) as a Latent Possibility\ Problematic since the Middle Ages in the West

يُلاحظ الدارس أن كلاً من ظاهرة معاداة اليهود والصهيونية (وهما وجهان لعملة واحدة) متجذرتان في الحضارة الغربية. وهذا يعود إلى عدة أسباب تراكبت معاً، ويمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

١ - سيطر على الحضارة الغربية منذ نشأتها نموذج عضوي في التفكير، ومثل هذه النماذج عادة ما تفضل التجانس على عدم التجانس، والاتساق الداخلي الصارم على عدم الاتساق، والواحدة على التعددية، ومن ثم يكون وضع الأقليات قلقاً وغير مستقر، باعتبارها عنصراً من عناصر عدم التجانس.

٢ - تعود جذور الحضارة الغربية إلى المدن/ الدول اليونانية، وهي تشكيلات حضارية صغيرة تتسم بالتجانس الشديد ولا يوجد فيها مكان للغريب، وهو ما دعم هذه الرؤية العضوية، على عكس الحضارات الشرقية التي نشأت في أحضان التشكيلات الإمبراطورية الضخمة فكان عليها أن تتعامل مع عشرات الشعوب والأقليات العرقية والدينية.

وحيثما نشأت الإمبراطورية الرومانية وبسطت نفوذها على الشرق والغرب، فلم تستطع هزيمة التشكيلات الحضارية الشرقية المحلية (الأرمن - الأقباط - الثقافة الآرامية) بينما قضت على كثير من اللغات والتشكيلات الحضارية في القارة الأوربية وفرضت الثقافة اللاتينية، أي أنها قضت على التنوع الحضاري في القارة الأوربية.

٣ - طرح الإسلام من البداية مفاهيم أخلاقية ومقولات قانونية للتعامل مع الأقليات الدينية والعرقية (وهو في هذا متسق إلى حد كبير مع التقاليد الحضارية في الشرق الأوسط في كثير من مراحل التاريخ)، بينما فشلت المسيحية الغربية في تطوير أية مقولات

بشأن الأقليات، حيث لا يصلح مفهوم المحبة (المسيحي) لتنظيم العلاقة بين الأقلية والأغلبية. وفي الوقت نفسه، ظهر مفهوم الشعب الشاهد (الكاثوليكي) والعقيدة الاسترجاعية (البروتستانتية) وهي مفاهيم تتسم بالإبهام الشديد، فهي من ناحية تضع اليهود في مركز الكون باعتبارهم شعباً مقدساً، حَمَلَةَ الكتاب المقدس، ويتوقف خلاص الكون على استرجاعهم، ولكنهم أيضاً هم قتلة الإله، وهم كذلك في شتاتهم وضعتهم يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة. كما أن خلاص الكون يتوقف على تصيرهم. وقد ورثت المسيحية الغربية العرف الألماني حيث طُبِّق قانون الصيد على اليهود، وهو قانون يجعل من الغريب ملكاً للملك ومن ثم أصبح اليهود ملكية للملك، وكذلك كتلة بشرية تتعاقد مع الحكومة وليسوا أهل ذمة، فكانوا يوقعون المواثيق التي تمنحهم الحماية والمزايا نظير خدمات يؤدونها أو ضرائب أو مبالغ مالية يدفعونها.

٤ - تحولت الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تقف على هامش المجتمع دون أن تصبح من صميمه. وحينما بدأت عملية علمنة الفكر والحضارة الغربية، تمت مناقشة المسألة اليهودية في ضوء مفهوم نفع اليهود، وهو أمر منطقي للغاية إذ أن الجماعة الوظيفية هي جماعة يستند بقاؤها إلى مدى نفعها.

٥ - ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم الشعب العضوي المنبوذ الذي يشكل إطار كل من العداء العرقي لليهود والتحيز الصهيوني لهم.

٦ - ظل اليهود خارج التشكيل الرأسمالي كرأسمالية منبوذة. كما أن الفكر الاشتراكي، كان ينظر إليهم باعتبارهم عناصر تجارية طفيلية مستغلة.

٧ - ارتبط اليهود بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني وجرى النظر إليهم باعتبارهم مادة استيطانية نافعة.

٨ - شكلت كل هذه العناصر الإطار الذي تطورت من خلاله الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. وعما له دلالة أن صهيونية غير اليهود

ويمكن القول بأنه مع عصر النهضة والإصلاح الديني ، بدأ يظهر اهتمام خاص بالثقافة العبرية وباليهود في العالم الغربي . وبدأ التأكيد على أن اليهودية هي أحد مصادر المسيحية ، فبين الفكر الهولندي هوجو غروتوس المصادر المشتركة بين المسيحية واليهودية في كتابه حقيقة المسيحية . وألف لوثر كتاباً بعنوان المسيح وكلد يهودياً . وبدأ كثير من الكتاب يهتمون بالتلمود وكتب القبالا والتراث الديني اليهودي . وقد انعكس هذا الاتجاه ، في نهاية الأمر ، في ظهور القبالا المسيحية ومصطلح «التراث اليهودي - المسيحي» الذي اكتسب شيوعاً كبيراً . كما ظهر الاهتمام بالموضوعات اليهودية والعبرية في الآداب والفنون الغربية ، وكان هذا أمراً جديداً إلى حد كبير . وظهرت معالجة إيجابية لشخصية اليهودي في أعمال ملتون وراسين وباسكال ورمبرانت وسكوت وبايرون وجورج إليوت وغيرهم من الكتاب .

وقد تزايد التحيز لليهود نتيجة عدد مترابط من الأسباب :

١ - طرح الإصلاح الديني في الغرب تصوراً جديداً للعلاقة بين الخالق والمخلوق بحيث يتم الخلاص لا من خلال الكنيسة وإنما من خارجها . وأصبح من حق الفرد المسيحي أن يفسر الكتاب المقدس بنفسه تفسيراً حقيقياً يتعد عن التفسيرات المجازية والرمزية التي تبنتها الكنيسة الكاثوليكية . وقد اكتسب الكتاب المقدس بشقيه (العهد القديم والعهد الجديد) أهمية خاصة في الوجدان الغربي ، وأصبح العهد القديم من أكثر الآثار الأدبية شيوعاً . وقد ساهم كل ذلك في تزايد الاهتمام بأعضاء الجماعات اليهودية وبميراثهم الديني في العالم الغربي .

٢ - منذ نهاية القرن السادس عشر ، ومع تعاظم انتشار العقيدة البروتستانتية ، شهد العالم الغربي انتشار العقيدة الألفية التي تربط بين رؤية الخلاص وعودة اليهود إلى فلسطين .

٣ - ساهم ظهور الفكر الماركسالي ، الذي أكد أهمية النشاط التجاري ، في الاهتمام باليهود كعنصر تجاري نشيط وكواحد من أهم عناصر التجارة الدولية .

٤ - شهد القرن السادس عشر بدايات حركة الاستيطان الغربية . ويبدو أن أسطورة الاستيطان الغربية والصورة الوجدانية الأساسية ، في مراحل الاستيطان الأولى على الأقل ، كانت أسطورة عبرانية . فقد كان المستوطنون البيض في كل أرجاء العالم ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم عبرانيين يخرجون من مصر (بلادهم الأصلية) ثم يصعدون إلى صهيون (البلد الجديد) ويهاجمون الكنعانيين (السكان المحليين) ويبعدونهم عن بكرة أبيهم . وكان المستوطنون الأمريكيون

تسبق صهيونية اليهود بعشرات السنين ، فالصهيونية ظاهرة لصيقة بالحضارة الغربية ويقع عند بلغور في هذا الإطار حيث تقرر إخراج اليهود من التشكيل السياسي الغربي ، لأنه لا يطبق وجودهم داخله كعنصر غريب ، وتقرر نقلهم إلى أي مكان خارج أوروبا كعنصر نافع ، على أن تقوم أوروبا (التي طردتهم) بحمايتهم ودعمهم وضمان بقائهم واستمرارهم وتوظيفهم لصالحها داخل إطار الدولة الوظيفية التي تتحرك في الفلك الغربي . فالدولة الصهيونية هي في نهاية الأمر تحقق هذه الإمكانية الكامنة في الحضارة الغربية : العداء العرقي لليهود والتحيز الصهيوني لهم . وقد استبطنت المادة البشرية اليهودية المستهدفة هذه الصيغة فهوتها .

التحيز لليهود (حب السامية)

Philo-Semitism

«التحيز لليهود» ترجمة للمفهوم الكامن وراء الاصطلاح الإنجليزي «فيلو سيميتزم» ، والذي يعني حرفياً «حب السامية» أو «حب السامين» ، وهو مصطلح شائع في اللغات الأوربية يشير إلى مشاعر الحب التي قد يشعر بها بعض الأغيار تجاه اليهود (مقابل «أنتي سيميتزم» والتي تعني «معاداة اليهود») . ومصطلح «حب اليهود» الذي نشير إليه بعبارة «التحيز لليهود» له من العمومية ما لمصطلح «معاداة اليهود» . فالמושوعات توردد أسماء حيرام ملك صور ، وقورش الأخميني ، والإسكندر المقدوني ، وبوليوس قيصر ، والإمبراطور الروماني جوليان ، ودرجيير هاوتسمان أسقف سبير ، وإمبراطور ألمانيا فريدريك باربروسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفريدريك الثاني إمبراطور النمسا ، وكاسيمير الأعظم ملك بولندا ، على اعتبار أنهم جميعاً أصدقاء لليهود ومحبون لهم . وإذا نظرنا إلى كل اسم على حدة ، لوجدنا أن تحيزه لليهود (أو أعضاء الجماعات اليهودية في مصطلحنا) ينبع من مواقف تاريخية متباينة . فحيرام ملك صور كان يود تحسين علاقته مع سليمان ملك العبرانيين حتى تُتاح له فرص التجارة . وقورش الأخميني أعاد اليهود وغيرهم من الأقوام المهجرة ضمن سياسة الإمبراطورية الفارسية . أما الإسكندر الأكبر فليس له موقف محدد من اليهود ، وهو على كل لم يكن لديه سبب قوي لحيهم أو كرههم . أما بوليوس قيصر ، فكان مديناً لليهود لتأييدهم في سياساته . أما أصدقاء اليهود في العصور الوسطى في الغرب ، فقد كان اهتمامهم ينصب في معظم الأحوال على اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية وسيطة تُنشط التجارة وتحقق دخلاً كبيراً لهم .

شيلوك

Shylock

شخصية أساسية في مسرحية تاجر البندقية لوليم شكسبير . وهو يهودي يعمل بالربا . وقد أصبحت الكلمة جزءاً من المعجم الإنجليزي وتعني «الرجل الطماع الشره الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه» . ولا يُعرف على وجه الدقة أصل هذا الاسم ، فهو ليس اسماً يهودياً ، ولذا تضاربت النظريات بشأنه . فيُقال إنه مأخوذ من كلمة «شيلوه» ، ويُقال أيضاً إنه مأخوذ من كلمة «شالغ» وهي شخصية يرد اسمها في سفر التكوين (١١/١٤ - ١٥) .

ويُسم الفكر العنصري بأنه فكر اختزاني ، أي أنه فكر كسول . لا يكذب ولا يتعب لكي يحيط بتركيبية الواقع وتعدّد مستوياته . بل يفتن بإدراك هذا الواقع إما على مستوى واحد أو من خلال صورة إدراكية واحدة بسيطة أو صورة مجازية اختزالية ساذجة . فالعالم كله ذو بُعد واحد ، وهو يشبه الساعة أو النبات الذي يتبع دورات طبيعية منتظمة . وهناك منهج واحد لإدراك كل الظواهر إنسانية كانت أم مادية ، والبشر دوافعهم كلها مفهومة ويمكن تفسيرها من خلال عامل أو أكثر من العوامل المادية (فالإنسان يمكن رده إلى قوانين الطبيعة) ، وكأن العالم (الطبيعة والإنسان) كيان أحادي مكوّن من ذرات وأرقام ، كما يتصور بعض الماديين السذج والعلماء البسطاء من دعاة الوحدة المادية الكونية .

ويُسم الأدب العظيم بأنه يرفض هذه الاختزالية والوحادية الكونية ، ويحاول أن يعود بالإنسان إلى ذاته ليذكرها ويُقدّر حق قدرها ، ولذا فهو يقدم صورة للنفس البشرية باعتبارها كياناً مركباً إلى أقصى حدّ يستعصي على التفسيرات المادية البسيطة ولا يمكن أن ينضوي تحت القوانين العلمية الرتيبة . فالعالم بالنسبة للأدب العظيم لا يمكن أن يُختزل في بُعد واحد أو أن يُردّ إلى مستوى مادي واحد أو أن يسقط في صورة مجازية واحدة ساذجة . واللغة الأدبية المجازية تنفر من لغة الجبر لغة بسيطة لا تتحمل الإبهام ، فلأنها لغة تهدف إلى وصف الأشكال الهندسية وحركة الكواكب وعلاقة الأرقام والذرات وكل ما هو محسوس وقابل للقياس . أما لغة الأدب ، فتتعامل مع الإنسان في أفراده وأترابه ، ومن ثم فهي لغة مجازية تحاول الإقصاص عن المفارقات والتعبير عن الشيء وعكسه في أن واحد وتتعامل مع المحدود واللا محدود والمتناهي واللا متناهي وما يُقاس وما يستعصي على القياس .

والأنماط الإدراكية العنصرية هي أنماط اختزالية تبسيطية تُعبّر

يشيرون إلى أنفسهم على أنهم «أبناء العهد» ، ويشيرون إلى القارة الأمريكية على أنها «صهيون الجديدة» ، بل تم التفكير في تبني العبرية كلغة رسمية للولايات المتحدة عند إعلان استقلالها .

٥ - انتشر في القرن الثامن عشر فكر الربوبيين ، الذين كانوا ينادون بأن العقل قادر على الوصول إلى فكرة الخالق بدون حاجة إلى ديانات منزلة أو معجزات أو وحي خاص ، وهو الفكر الذي تطوّر ليصبح الفكر العلماني فيما بعد . وقد أظهر هؤلاء المفكرون الربوبيون والعلمانيون اهتماماً باليهود من حيث هم أعداء الكنيسة .

ويمكننا القول بأن الاهتمام بالتراث الديني لليهود لا يعني بالضرورة اهتماماً بهم كبشر . إذ كان كثير من المفكرين يهتمون بأبطال العهد القديم ويكونون ، مع هذا ، احتقاراً عميقاً لليهود بوصفهم جماعات دينية أو إثنية . بل إن عظيمة التراث الديني اليهودي في رأي هؤلاء تقف شاهداً على مدى ضعة اليهود . كما أن مناداتهم بالمرء بمنح اليهود ، وغيرهم من أعضاء الأقليات ، حقوقهم السياسية كاملة يُعتبر جزءاً من فلسفة سياسية ليبرالية عامة ، وليس تعبيراً عن حب خاص أو تحيز لهم أو ضدهم . كما يمكن الاهتمام بالتراث الديني اليهودي كجزء من الاهتمام بتراث الديانات التوحيدية دون أي تركيز على اليهود ذاتهم ، وخصوصاً أن علاقاتهم بتراثهم الديني قد تأكلت إلى حدّ كبير .

ولذا ، سنقصر استخدام مصطلح «التحيز لليهود» على هؤلاء الذين يعطون اليهود مركزية خاصة في رؤيتهم للعالم . ومن أهم هؤلاء اللورد شافتسبري (السابع) ، ولورانس أوليفانت ، ولورد بلفور ، ممن يُطلق عليهم مصطلح «الصهاينة غير اليهود» . وعند تحليل فكر هؤلاء ، سنكتشف أنه فكر معاد لليهود وأن حبه لليهود ومحاولة مساعدتهم على الهجرة إلى فلسطين هي أيضاً محاولة للتخلص منهم . فالهجرة ، التي تُطرح حلاً للمسألة اليهودية ، وتتضمن توظيفاً لليهود باعتبارهم مادة بشرية ، هي تهجير وطرده وترحيل . وربما كانت فكرة الشعب العضوي ، الذي يُنبذ بسبب عضويته ، هي الأساس الفكري لهذا الحب/الكراهة . والتركيز على اليهود كعنصر أساسي في أية عملية استيطانية هو علمنة لفكرة الشعب الشاهد الذي يقف على حافة التاريخ الغربي ، والذي ليس له قيمة ذاتية في حد ذاته وإنما يكتسب قيمته بمقدار أدائه لوظيفته وبمقدار نفعه . وقد تبدّى هذا الحب/الكراهة في نهاية الأمر في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

تناول شكسبير لهذا النمط الإدراكي هو غوذج جيد للأدب العظيم الذي يتجاوز كل محاولات الاختزال التي يتسم بها الفكر العنصري، فهو يقدم تصويراً مركباً لهذه الشخصية الأمر الذي جعل النقاد يقدمون تفسيرات عديدة لأبعادها وأصلها ودلالاتها ويركز كل تفسير على بُعد واحد أو بُعدين، مع أن كل العناصر متداخلة. ولكن هذه هي حدود اللغة النقدية: إنها تقوم بتفكيك العمل الأدبي ثم تركيبه، فتقدم كل عنصر على حدة، وكأنه مستقل بذاته، على عكس العمل الأدبي الذي يقدم العناصر كافة في تداخلها وتركيبها وتزامنها. ورغم إدراكنا لهذه العناصر كافة، إلا أننا سنقوم بتقديم هذه التفسيرات المختلفة، كلاً على حدة، على أن يقوم القارئ برؤيتها في تلاحمها وتمازجها. ولن نُقدم هنا قراءة أدبية للنص ذاته، مسرحية تاجر البندقية، وإنما سننظر إلى النص باعتباره تعبيراً عن مواقف إنسانية متباينة متنوعة تُعبّر عن نفسها خلال مستويات مختلفة (اجتماعية وفلسفية ونفسية وتاريخية وأدبية) أي أن اهتمامنا ليس أدبياً صرفاً، إذ أننا سنستخدم النص في دراسة هذه المواقف الإنسانية. ورغم أن دراستنا ليست أدبية خالصة، إلا أنها ستسير العمل الأدبي:

١ - التفسير التاريخي: من المعروف أنه لم يكن يوجد يهود في إنجلترا زمن كتابة المسرحية (في أواخر القرن السادس عشر الميلادي - حوالي ١٥٩٧) إلا بعض يهود المارانو الذين كانوا يقيمون هناك. ويُقال إن رودريجز لوبيز، طبيب الملكة إليزابيث، والذي اتُهم بالتآمر ضدها ثم أُعدم، هو النموذج الذي استخدمه شكسبير (وكان عدو رودريجز لوبيز هو دوم أنطونيو، ومن هنا نجد أن أنطونيو هو أهم شخصية في المسرحية وعدو شيلوك اللدود). ولكن المؤرخ الأمريكي اليهودي سيسل روث يذهب إلى أن شيلوك يهودي إشكنازي من البندقية. وكانت البندقية تضم في ذلك الوقت ثلاثة أنواع من اليهود كان يُشار إليهم باسم «الأم الثلاث»: سفارد الشام والمارانو والإشكناز. وكان مصرحاً للسفارد والمارانو بالعمل في التجارة المحلية والدولية وكانوا يمتلكون السفن التجارية ويتاجرون مع الشام. أما الإشكناز، فكان ممنوعاً عليهم الاتجار، بل لم يكن مسموحاً لهم إلا بالعمل بالربا وبيع الملابس القديمة (وهي وظيفة مرتبطة تماماً بالربا).

٢ - التفسير الطبقي: يذهب بعض النقاد إلى أن أعضاء الأرستقراطية الإنجليزية الزراعية (الإقطاعيون)، وكثيرون منهم كانوا يرتادون مسرح جلوب الذي كانت تُعرض فيه مسرحيات شكسبير، بدأوا يشعرون بأثار الثورة التجارية وبنمو اقتصاد المدن

عن كسل من يستخدمها، فهي تختزل الآخر في كلمة أو كلمتين وفي صورة بسيطة وفي صورة مجازية أكثر بساطة، فالآخر «غشاش» ولا يمكن الثقة فيه. والعالم سيصبح مكاناً جميلاً رائعاً فردوسياً لو اختلف منه هذا الآخر، فالآخر هو الجحيم وهو مصدر كل التعماسة.

ومن أهم الأنماط الإدراكية الاختزالية للآخر، والتي توجد في كل الأدبيات العنصرية في العالم، صورة الآخر باعتباره «حريصاً على المال» و«شرهاً بطبعه»، وهي صورة متشعبة عن الصينيين في جنوب شرق آسيا، وعن الباكستانيين في إنجلترا، وعن اليهود في أوروبا والعالم العربي.

وهذه الصورة الإدراكية الاختزالية كثيراً ما يكون لها أساس في الواقع، ولكن ما يفعله العقل العنصري هو أنه يعزل بعض التفاصيل عن واقعها المركب وعن أسبابها وملاصباتها ويحولها إلى بنية مجردة وغوذج إدراكي معرفي يفسره به كل الأمور. ولناخذ تهمة الحرص الزائد هذه التي يدعي العنصري أنها صفة لصيقة بطبيعة الآخر. لو دقق العنصري الاختزالي قليلاً لاكتشف أن الصينيين والباكستانيين أهل كرم في بلادهم، وأن عقائدهم الدينية تشجع على السخاء وإكرام الضيف، ولذا فالحرص المتطرف ليس أمراً كامناً في طبيعة الصينيين أو الباكستانيين أو في عقائدهم الدينية، وإن وُجد مثل هذا الحرص الشديد فيهم فلا بد من البحث عن مصدره في مكان آخر. ولو دقق صاحبنا العنصري قليلاً لاكتشف أن هؤلاء الباكستانيين والصينيين واليهود يعيشون في بلاد غير بلادهم، وأن إحساسهم بالأمن يكون عادةً ضعيفاً بينما يتزايد إحساسهم بالخطر، وعادةً لا يكون لهؤلاء الغرباء علاقة بالأرض أو الثوابت في المجتمع إذ أن كيانهم ووجودهم في المجتمع يستند إلى الدور الذي يلعبونه وإلى الوظيفة التي يضطلعون بها وإلى الثروة التي يراكمونها، ولذا يصعب عليهم أخذ موقف متسامح من المال.

كما أن هذا الصيني الشره في علاقته مع الأغلبية، عادةً ما يكون سخيّاً جداً مع أعضاء جماعته ومع وطنه الأصلي إن وُجد. فكأن هذا الصيني الشره، في علاقته مع الأغلبية في المجتمع المضيف، هو نفسه الصيني السخي في علاقته مع أعضاء جماعته. ويختزل العنصري كل هذا ويأبى إلا أن يركز على عنصر واحد متزعزع من ملاصباته الاجتماعية ولحظته التاريخية ومنفصل عن كل زمان ومكان.

وقد قام شكسبير بتناول هذا النمط الإدراكي الاختزالي والعنصري في شخصية شيلوك في مسرحية تاجر البندقية. ولكن

الوجدان المسيحي بأنهم المحرضون الحقيقيون على صلب المسيح . ومن هنا ، فإن شيلوك يُعامل الفريسيين ، حين يطالب برطل اللحم ، أما أنطونيوس فهو كالمسيح إذ يمثل حَمَلُ الإله الذي سَيُقدَّم للذبح .

بل إن العلاقة بين شيلوك وأنطونيوس هي مثل العلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد كما يرى المسيحيون . فاليهودية تمثل لاهوت العدل دون رحمة ، ومن ثم أصبح التعاقد والميثاق مسائل مركزية في العقيدة اليهودية . ولكن العدل بدون رحمة ، حسب رأي المسيحيين ، لن يؤدي إلى خلاص . ولهذا ، فإن المسيحية هي لاهوت الرحمة التي لا يمكن للإنسان بدونه أن يصل إلى الخلاص . والمسيحية ترى أن العهد الجديد أكمل العهد القديم بل ربما حل محله ونسخه ، وأصبحت الرحمة لا العنل هي الهدف . وقد أنكر اليهود المسيح واستمروا حبسوا العهد القديم ولاهوت العدل والقانون والتعاقد ، ولكنهم يذوقون في نهاية الأمر أشد ألوان العذاب ويعانون في الدنيا ، وبذلك فإنهم يفتقون شاهداً على عظمة المسيحية والكنيسة . ومن هنا ، فإن شيلوك يجسد العنصر اليهودي كما يجسد التعاقدية ولاهوت العدل ، في حين يقف أنطونيوس مثلاً للمسيحية والرحمة ولاهوت المحبة .

ومع هذا ، يُعطي شكبير انفرصة لشيلوك ليُحاكم المسيحيين من منظور لاهوت الرحمة ، هذا الذي يدعون إيمانهم به ، فيُذكّرهم بما كانوا يلحقونه به من أذى . كما يعطيه الفرصة لمحدث عن الجوانب الإيجابية في فكرة التعاقد ولاهوت العدالة ، فالإيمان بالتعاقد والعنل هو أيضاً إيمان بأن النفس البشرية ليست منزّهة عن الهوى ، وأن الأمور لو تُركت لنعمة وحسب ، لا تحتفظ الحابل بالنابل لتحولت القيم الأخلاقية ، ذات البعد الاجتماعي ، إلى تجارب نفسية شعورية . ويمكن القول بأن شكبير يقتصر علينا نموذجاً يجمع بين القانون والرحمة وبين العنل والمحبة وبين التعاقد والتراحم وبين الذات والموضوع وبين الفرد والمجتمع .

٥ - الجماعة الوظيفية : وقد اختلف النقاد في تفسير موقف شكبير من شخصية شيلوك : هل هو يتعاطف معه جداً أم أنه يرفضه تماماً؟ وهل شيلوك شيطان رجيح يجب أن نفرح لسقوطه ، أم أنه ضحية المجتمع المسيحي المستغل؟ وربما أمكن حسم هذه القضية بالتأكيد على هوية شيلوك كعضو في جماعة وظيفية أوكل لها المجتمع الاضطلاع بوظيفة الربا الذي يؤدي إلى دمار أعضاء المجتمع ، أي أنه أداة دمار . ولكن عضو الجماعة الوظيفية لم يختر وظيفته ، فوظيفته هي قدره ومصيره الذي اختير له . ومن ثم ، فإن ما يقوله شيلوك عن نفسه باعتباره إنساناً أهذرت إنسانيته هو أمر حقيقي ، كما أن ما يُقال

والتضخم الذي صاحب ذلك ، الأمر الذي زاد من نفقاتهم ، ولكن لم تكن لديهم الكفاءات اللازمة للاستثمار التجاري باستثناء أقلية صغيرة منهم . ولهذا ، بدأت ديونهم تزداد أكثر فأكثر . وفي الوقت نفسه ، بدأت القيم التجارية التعاقدية تسود في المجتمع وتحل محل قيم الشرف والكرام والأبهة التي كان يؤمن بها هؤلاء الإقطاعيون . ويُجسد أنطونيوس في المسرحية المذكورة الأخلاقيات الأرستقراطية ، فهو كريم يفرض أمواله بدون فوائد ، يعيش حياة مسرفة ولكنه ليس تاجراً بمعنى الكلمة لأنه غير مشغول بتراكم رأس المال . وهكذا ، فإن أنطونيوس يقف على الطرف التقبض من شيلوك عضو الجماعة الوظيفية المالية الذي لا يدين بالوفاء إلا لقيمة التراكم ولا يدين بالوفاء إلا للمال . ويعرف شيلوك الخير تعريفاً نفعياً مادياً حينما يشير إلى أن أنطونيوس لديه من الممتلكات ما يسمح له برد الدين ، فكان حكمه عليه حكم مالي إجرائي يتزع عنه أية قداسة وينظر إليه بشكل موضوعي كمي غير تراحمي . ومقابل العلاقة الحميمة وكلمة الشرف التي يؤمن بها الأرستقراطيون ، هناك العلاقات الموضوعية التعاقدية التي تؤمن بها الطبقة التجارية الجديدة والتي يدافع عنها شيلوك في المسرحية .

٣ - التفسير الديني الاقتصادي : وهناك بعد ديني اقتصادي يتمثل في ظهور جماعات البيوريتان البروتستانت من عناصر البورجوازية الجديدة النشطة المؤمنة بتعاليم كالفن ، والتي حوَّلت الزهد المسيحي في الدنيا من أجل الآخرة إلى زهد داخل الدنيا من أجل تراكم رأس المال ، علامة على الخلاص في الآخرة . ولذلك ، كان هؤلاء يكرهون الملذات والإنفاق وارتداد المسرح والمسرات . ويحيى شيلوك ، في هذه المسرحية ، رمزاً لهذه القطاعات المتزمنة للثروة بالتراكم وحسب والتي تنكر العلاقات الإنسانية وخلاص الروح حتى تحقق تزايد الثروة . ولم يكن شكبير مخطئاً على الإطلاق ، فبعد فترة وجيزة استولى هؤلاء على الحكم في ثورة كرومويل وأغلقوا المسارح كلية . وكان من المألوف آنذاك أن يتم الربط بين غلاة البروتستانت واليهود .

٤ - التفسير اللاهوتي : ولكن هناك بعداً دينياً خالصاً ، فقد أشاع العهد الجديد صورة سلبية للغاية عن الفريسيين (وهي فرقة دينية يهودية ظهرت أيام المسيح) ، وفي هذه المسرحية ارتبطت هذه الصورة باليهود بصورة واضحة تماماً . ويمثل شيلوك الفريسي بالدرجة الأولى ، فهو يحترم حرفية القانون لا روحه ، وهو بلا عاطفة ، كما أنه يجيد استخدام الكتاب المقدس لتبرير أفعاله (وهي تهمه وجهها المسيح إلى الفريسيين) . وأخيراً ، ارتبط الفريسيون في

دوستوفسكي غير الروائية ، كما أن هناك إشارات هنا وهناك في أدبه الروائي ، حيث توجد شخصيات يهودية في بعض رواياته . خصوصاً في بيت الموتى (١٨٦١) وهي رواية عن تجربة سجين (غير سياسي) في معتقل في سيبيريا ، ورد فيها وصف لسجين يهودي يقيم كل شعائر دينه بحرص شديد . ولكن أهم النصوص التي عبر فيها دوستوفسكي عن وجهة نظره العنصرية بشكل واضح ومباشر هي يوميات كاتب . ولا يختلف تناول الروائي لدوستوفسكي لليهود عما جاء في يومياته . وهذا يشير إشكالية كبرى وهي كيف يمكن لأديب ، صاحب رؤية إنسانية في أدبه ، أن يتسم موقفه المباشر والمعلن من أقلية دينية أو عرقية بهذه العنصرية والاختزالية وضيق الأفق . وهذا ما سنحاول تفسيره (لا تبريره) .

ولنبداً دراستنا بمحاولة استخلاص رؤية دوستوفسكي لليهود كما وردت في يوميات كاتب . كان دوستوفسكي يشير إلى اليهود بكلمة «جيد Zhid» الروسية التي تحمل مضموناً قديحاً ، ويرفض استخدام كلمة «يفري Yevrey» أي «عبري» التي تُعدُّ أكثر حياداً . وكان يذهب إلى أن اليهود شعب واحد له تاريخ يمتد لأربعة آلاف عام ، وهو شعب حيوي طاقته لا تنتهي تنجح في الاحتفاظ ببقائه وتماسكه ، ولذا كان يشير إليهم باعتبارهم «القبيلة اليهودية» التي يعيش أفرادها فيما يسميه «حالة الجيتو» ، يربطهم «ميثاق الجيتو» ، وهو ميثاق يطالبهم بعدم إظهار الرحمة نحو الغير وبالتعالى عليهم وبالعيش في عزلة عن كل الشعوب عبر آلاف السنين . ومن أهم عقائد هذا الشعب - حسب تصور دوستوفسكي - عقيدة الماشيح ذات المضمون القومي ، وهي عقيدة تذهب إلى أن المسيح المخلص اليهودي سيعود ويقود شعبه إلى القدس مرة أخرى ويمنحهم إياها ويرمي جميع الشعوب تحت أقدامهم . وهذا الشعب اليهودي تحركه القسوة والرغبة في شرب الدماء ، ولذا فهم يعملون بالتجارة ، خصوصاً تجارة الذهب ، ويديرون البورصات ويستغلون الطبقات الفقيرة ، خصوصاً الأفتان . ويجأر اليهود بالشكوى من المعاناة التي يلاقونها في روسيا ، ويدعون أنهم غير متساوين في الحقوق مع الروس ، مع أن معاناة الأفتان الروس تفوق كثيراً معاناة اليهود .

واليهود - حسب رأي دوستوفسكي - يوجدون في كل مكان ، فهم يوجدون داخل التشكيل الاستعماري الغربي ويهيمنون على الرأسمالية الغربية ، وهم بطبيعة الحال موجودون في كل الحركات الاشتراكية والثورية والفوضوية والعدمية . وقد جعل اليهود منهم إفساد الشعب العضوي الروسي إذ كانوا يقومون ببيع الكحول لهم وبالشر من عرقهم ودمهم . وحينما اعتق الأفتان ، انقض عليهم

من أنه أداة استغلال صماء لا تدخل في علاقة إنسانية مع البشر وتحاول هدمهم هو أيضاً أمر حقيقي . وهذه الصورة المزدوجة التي يتحدث عنها بعض النقاد هي ، في واقع الأمر ، ازدواجية تُعبّر عن علاقة أعضاء الجماعة الوظيفية بأنفسهم وبالجمتمع ، فهم بشر في علاقاتهم بأنفسهم وهكذا يرون أنفسهم ، وهم أدوات في علاقاتهم بالجمتمع وهكذا يراهم الجمتمع . والواقع أن شكسبير ، وكُتّاب آخرون من بعده ، حاولوا أن يتعاملوا مع هذه العلاقة في تركيبيتها النسلية وثانياتها الحادة .

وشيلوك شخصية فنية تأتي ضمن سلسلة طويلة من الشخصيات الفنية رسمها الفنان الغربي لليهود قبل بعد تاجر البندقية (فاليهودي جزء لا يتجزأ من الخطاب الغربي في مشوار اكتشافه لذاته وتحديدها) . ومن أهم الشخصيات الفنية الأخرى شخصية باراباس في مسرحية مازلو يهودي مالطة (وهو شيطان صرف لا يتسم بازدواجية شيلوك) . وهناك شخصية اليهودي في رواية وولتر سكوت إيفانهو ، وشخصية فاجين في قصة ديكنز أوليفر تويست ، وشخصية دانييل ديروندا في رواية جورج إليوت التي تحمل هذا الاسم ، والشخصيات اليهودية المختلفة في روايات دزرائيلي . وتوجد إشارات مختلفة في الشعر الإنجليزي ، عن اليهود ، منذ القرن التاسع عشر ، على وجه الخصوص . ويُقال إن الشخصية الأساسية في قصيدة «الملاح القديم» لكوليردج هي أساساً اليهودي الشائه . ويترأخ الموقف من اليهود في الأدب الإنجليزي (وفي الآداب الغربية عامة) بين الكره الشديد والحب العميق ، بين النبذ والتقديس ، وكلاهما موقف يستند إلى فكرة الشعب العضوي المتبوذ حيث تتم رؤية أعضاء الجماعات اليهودية لا باعتبارهم بشراً ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإنما باعتبارهم كياناً عضواً متماسكاً غير متمم للجمتمع ومن ثم لا بد من طرده .

وتوجد الظاهرة نفسها في الأدب الأمريكي . ولعل من أهم الكُتّاب الأمريكيين المعادين لليهود الشاعر عزرا باوند الذي وصل في بعض كتاباته إلى رؤية اليهود كشياطين مسئولين عن كل شرور العالم .

فيودور دوستوفسكي (١٨٢١-١٨٨١)

Fyodor Dostoyevsky

روائي روسي ، ومن أهم الروائيين العالميين على الإطلاق . كان موقفه من أعضاء الجماعات اليهودية يتسم بالعنصرية الشديدة . وهناك إشارات عديدة لأعضاء الجماعات اليهودية في كتابات

عما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون وكتاب هتلر كفاحي ؟
لمحاولة تفسير هذه الظاهرة ، يمكننا أن نشير إلى بعض الأسباب ،
بعضها خاص بدوستوفسكي ورؤيته للكون والبعض الآخر خاص
بالمجتمع الروسي ككل وبوضع اليهودية فيه وموقف الروس منهم ،
ولنبداً برؤية دوستوفسكي للكون :

١ - كان دوستوفسكي يرى أن روسيا قد تكون امتداداً لأوروبا ولكنها
في الوقت نفسه تقيضها . ورغم إيمانه بأن روسيا مدينة لأوروبا إلا أنه
يرى أن ' المرحلة الأوروبية ' في تاريخ روسيا قد انتهت ، وأن أوروبا
تمثل الماضي ، بينما تمثل روسيا المستقبل .

٢ - والغرب ، من منظور دوستوفسكي ، دمرته المادية والقيم
الديموقراطية وضموها أخس اخلفي وظهور النفعية والتمركز حول
الذات .

٣ - كان دوستوفسكي يؤمن بالرسالة الأتلية لروسيا . فكل أمة ،
حسب وجهة نظره ، لابد أن ترى أن خلاص العالم يكمن في
خلاصها هي ، وأن هدفها لابد أن يكون توحيد شعوب العالم كافة
تحت قيادتها (أي أنه كان يؤمن بحتمية انشيجانية السياسية) .

٤ - من أهم أفكار دوستوفسكي فكرة الشعب العضوي (بالروسية :
نارود) . فالشعب الروسي ، حسب رأيه ، شعب مرتبط بأرض
روسيا الأم يستمد منها الطهر والأصالة ، وهو شعب لم نفسه
الخضارة الغربية بعد ولم يسقط في القيم التي دمرت هذه الحضارة .
وهذا لا يعني عدم وجود فساد في روسيا وإنما يعني أن الفلاح
الروسي حينما يرتكب الخطيئة يعرف أنها خطيئة ، فهو لم يفقد بعد
مقدرته على التمييز بين الخير والشر (أي أن حسه اخلفي لم يتم تحييده
تماماً) .

٥ - وتشكل الكنيسة الأرثوذكسية (أظهر أشكال المسيحية) الإطار
الديني لهذه الرؤية الكونية ، كما تشكل الجامعة السلافية الإطار
الحضاري أو العرقي لها . ولذا ، فإن مستقبل العالم منوط بإرادة
النارود الروسي تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية وبقيادة القيصر .

وفي مقابل هذه المنظومة الدائرية الشمسية التي يتداخل فيها
الديني والقومي ويحل فيها الإله في الأرض الروسية والشعب
الروسي ، ينظر دوستوفسكي إلى الآخر الذي يقع خارج دائرة
القداسة ويرفضه : وقد عرّف الآخر بأنه أوروبا الملحدة ،
والكاثوليك ، والنظام الرأسمالي ، والثورات الاشتراكية ، ولكنه
بالدرجة الأولى اليهود . فاليهود هنا ليسوا يهوداً وإنما هم النظام
الجديد في العالم الحديث الذي يستند إلى البيع والشراء والمساومة
والقيم البرجمانية ولا يعرف المثاليات أو المطلقات الأخلاقية . ولعل

اليهود واستغلوهم واستفادوا من حقواتهم الإنسانية . وهم في
استغلالهم للناس لا يتسمون بالرحمة ، فاستغلالهم للأقنان لا
يختلف كثيراً عن استغلالهم للزواج في الولايات المتحدة بعد
إعتاقهم .

ويرى دوستوفسكي أنه حتى لو أعطيت لليهود حقوقهم
كاملة ، فإنهم لن يتنازلوا قط عن أن يكونوا دولة داخل دولة . وهم
يفعلون ذلك لأن مصالحهم مستقلة عن مصالح المجتمعات التي
يعيشون في كنفها . بل إنه يرى أن هناك مؤامرة يهودية عالمية عبر
التاريخ لخدمة المصالح اليهودية المستقلة للدفاع عنها . فهو يشير إلى
دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا باعتبار أن دفاعه عن الدولة العثمانية
ضد روسيا وهو تعبير آخر عن المؤامرة اليهودية الأتلية ضد روسيا
وعن المصالح اليهودية المستقلة (وهذا يختلف تماماً عن موقف
المدافعين عن فكرة المؤامرة عندما إذ يرى هؤلاء أن اليهود هم
المسؤولون عن سقوط الدولة العثمانية دفاعاً عن المصالح اليهودية) .
ويتجاهل دوستوفسكي حقيقة بسيطة واضحة وهي أن دزرائيلي كان
يدافع عن الدولة العثمانية ضد روسيا لا حباً في الدولة العثمانية وإنما
نكاية في روسيا وحتى تظل عنصر توازن معها ، وتمنعها من التوسع ،
الأمر الذي قد يضر بالمصالح الإمبريالية البريطانية .

وفي الماضي ، كان استغلال اليهود للآخرين أمراً تدينه العقيدة
المسيحية ، ولكن حدث تطور في المجتمعات الغربية إذ أصبحت هذه
المجتمعات تؤمن بمذهب المنفعة المادية . ويميّز دوستوفسكي بين
اليهود وروح اليهودية (وهو في هذا لا يختلف عن ماركس وعن كثير
من المفكرين الغربيين في القرن التاسع عشر) ، فقد يوجد يهود
طيبون ومع هذا تظل روح اليهودية هي المنفعة المادية . وقد انتشرت
هذه الروح اليهودية النفعية المادية في المجتمع المسيحي بحيث أصبح
الاستغلال فضيلة (يتحدث ماركس عن 'تهويد المجتمع' بهذا
ال معنى) .

وإذا كانت الروح اليهودية هي الروح النفعية المادية ، فإن
حلقات المؤامرة اليهودية أصبحت على وشك الاكتمال ، كما أن
حكم اليهود للعالم اقترب وهيمنتهم الكاملة أصبحت أمراً وشيكاً .
وقد لحص دوستوفسكي المسألة كلها بقوله إن ثمة تناقضاً أساسياً بين
الفكرة السلافية (الروحانية المسيحية) والفكرة اليهودية (المادية
العلمانية) ، وصعود الفكرة اليهودية يعني تراجع الفكرة السلافية ،
أي أن اليهودي هو الآخر الذي لابد من القضاء عليه !

ويمكننا الآن أن نطرح السؤال التالي : كيف يمكن أن يعتنق
أديب إنساني مثل دوستوفسكي مثل هذه الآراء التي لا تختلف كثيراً

واضح هي مجرد استمرار للموقف الروسي القديم . كما أن تصريحات بعض القادة السوفييت كانت تنحرف أحياناً عن خط الحزب وتُعبّر عن الأنماط الإدراكية العرقية القديمة . بل إن بعض سياسات السوفييت لا يمكن تفسيرها إلا باعتبار أنها سياسة معادية لليهود) .

٣ - كان المستوى المعيشي لأعضاء الجماعات اليهودية أعلى على وجه العموم من مستوى كثير من الفلاحين الروس ، كما أن مستواهم التعليمي كان أعلى بكثير من مستوى الأغلبية (الروسية) . كما حقّق بعض اليهود (مثل عائلة بولياكوف وجونزبرج) ثراءً واضحاً .

٤ - كان اليهود في روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جماعة وظيفية فقدت وظيفتها وأساس بقائها . ومن ثم ، كان أعضاءها في حالة تراجع أخلاقي وحضاري هائلة . فتركزوا في مهن وحرف هامشية (عادةً مشينة) مثل تقطير الخمر وإدارة الحانات وبيع الملابس القديمة ، كما كان عدد البغايا اليهود مرتفعاً إلى درجة كبيرة . وكان عدم تحدد ولاء أعضاء الجماعات اليهودية لروسيا أمراً مفهوماً ، حيث كانوا عبر تاريخهم تابعين لبولندا عدو روسيا الأكبر . كما كانوا يتحدثون اليديشية ، وهي لغة عدوهم الآخر : ألمانيا . ولذا ، نجد أن صورة اليهودي كجاسوس صورة متواترة في الأدب الروسي . وهي صورة ذات أساس «مادي صلب» . وما لم يدركه دوستوفسكي وغيره أن هذه الحالة اليهودية لم تظهر إلى الوجود إلا في منتصف القرن التاسع عشر ، وأنها مرتبطة بعمليات التحديث في الإمبراطورية القيصرية ، أي أنها مرتبطة بزمان ومكان محددين ، ورغم أن يهود الإمبراطورية الروسية القيصرية كانوا يشكلون الغالبية الساحقة من يهود العالم ، إلا أن حالتهم الخاصة لا يمكن تعميمها . وقد كتب تورجنيف قصة قصيرة بعنوان **اليهودي** (١٨٤٧) تُعبّر بشكل مباشر عن هذا الاشمئزاز من اليهود ، فبطل القصة يُعَدُّ بعد اتهامه بالجاسوسية . وهذا الموقف لا يختلف كثيراً عن موقف جوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) في تاراس بولبا التي تقع أحداثها إبان حرب البولنديين والقوزاق . وتشتمل الرواية على وصف ليهودي صاحب حانة يتسم سلوكه بأنه مرتزق خائن يُشكّ في أنه جاسوس للبولنديين (وقد ظهر الموضوع نفسه ، أي اليهودي كجاسوس ، في إحدى قصص الكاتب اليهودي الروسي السوفيتي إيزاك بابل بعنوان «بريشتشكو» في مجموعة **الفرسان الحمر**) .

٥ - لم تكن عملية التحديث تتم بسرعة كافية في روسيا ، ولذا ظهرت الأمور وكأن اليهود يبذلون قصارى جهدهم للحفاظ على هويتهم والانسحاب من المجتمع الروسي .

من المفيد الإشارة إلى أن علم الاجتماع الألماني يميّز بين الجمابنشافت (الجماعة المترابطة العضوية) والجيسيلشافت (المجتمع التعاقدية الحديث) . واليهودي هو رمز هذا المجتمع التعاقدية بشقيه الرأسمالي والاشتراكي .

ولا يمكن فهم موقف دوستوفسكي وحدوده إلا بفهم وضع اليهود في روسيا والموقف الروسي منهم والذي يتمثل فيما يلي :

١ - كره اليهودي أمر متجذر ومتأصل في الوجدان الروسي (والسلافي على وجه العموم) . فمسرّح المرائش الشعبي كان يحوي شخصية اليهودي الجشع الجبان (رغم عدم وجود عدد يُذكر من اليهود في روسيا) . ولعل هذا الكره لليهود يعود إلى أيام إمبراطورية الحزر اليهودية التركية التي هدّدت الروس وأخضعتهم لهيمتها . كما أن العداء التقليدي بين روسيا وتركيا (نظراً لأن صعود الواحد مرتبط تاريخياً بيهود الآخر) لعب دوراً في ذلك ، خصوصاً أن الوجدان الغربي كثيراً ما يربط بين اليهود والمسلمين (ولذا ، ربط دوستوفسكي بين دزرتالي اليهودي والعثمانيين) .

٢ - ومع ظهور الأدب الروسي الحديث ، ظل هذا النمط الإدراكي سيطراً إلى حد بعيد . وما زاده حدة ، ضم روسيا لبولندا والملايين اليهود . والملاحظ أن مطامح الأرستقراطية الروسية في السيطرة على الريف ، والأحلام الرجعية الروسية المتصلة بقضية الشعب (نارود) كشعب عضوي راض بوضعه ، متسم بالهدوء والاتزان ، ارتطمت كلها بوجود اليهود كعنصر تجاري متحرك داخل الريف الروسي . وحيث إن كثيراً من الكتاب الروس الأوائل كانوا من الأرستقراطية ، فقد سادت الأنماط المعادية لليهود . ويتضح هذا في موقف أساطين الأدب الروسي ، مثل : تورجنيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) وجوجول (١٨٠٩ - ١٨٥٢) بل تولستوي الذي كان يهاجم معاداة اليهود باعتبارها تناقض مع ما ينادي به من ضرورة حب البشر ، ولكنه كان في أماكن أخرى من كتاباته يُظهر موقفه الأرستقراطي الروسي المعادي لليهود . كما ظهر العداء لليهود في كتابات الأدباء النارودنيك مثل نيقولا بيكراسوف (١٨٤١ - ١٨٧٨) وفيودور ريشتنكوف (١٨٤١ - ١٨٧١) . وقد تم الهجوم على اليهودي باعتباره مستغلاً للجماهير المسحوقة .

ولعل تشيخوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤) من الكتاب الروس القلائل الذين تناولوا شخصية اليهودي تناولاً يتسم بشيء من التعاطف . أما في الأدب السوفيتي ، فقد كانت صورة اليهودي إيجابية على وجه العموم (بما يتفق مع الخط الرسمي للحزب) ، ولا تشير أية مشاكل خاصة . (ومع هذا ، صدرت كتبتيات سوفييتية ذات طابع عرقي

أيضاً) بين الحس الخلقي والحس الجمالي . ومرة أخرى ، فإن هذا التصور المنطقي المجرد أبعد ما يكون عن الحقيقة المتعينة . انظر مثلاً إلى أعمال الشاعر الأمريكي روبرت فروست ، هنا نجد قصائد رائعة الجمال ترتبط فيها فكرة النظام بالمعنى الجمالي بفكرة النظام بالمعنى الأخلاقي ، ولكن يُقال إن حياة هذا الشاعر الشخصية تسبب بكثير من القسوة والوحشية تجاه أقرب أقاربه . ويمكن أن يكتب أديب عملاً فنياً في غاية الرقي الفني ولكنه يدعو إلى الانحطاط . إن الحق والجمال أمران مختلفان ، وهو أمر لا شك محزن . ولكن هذه هي سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . وعلينا أن نتأمل بشيء من التفلسف حينما نعرف أن ضباط فرق الصاعقة النازية كانوا يستمعون إلى موسيقى فاجنر الراقية ويناقشون الأعمال المعمارية الفخمة التي يشيدها النظام النازي وهم يشمون رائحة خضحيان المحرقة النازية التي تشوى ضحاياهم . وانظر إلى القاهرة فاتها تجد أن بعض أجمل المباني شيدها الإنجليز . هؤلاء الذي جيشوا الجيوش وأرسلوا ياب إلى بلادنا لتنهبها وتحوّلها إلى مصدر لتفاديس القنبلة الذي يصب في خزائن الإمبراطورية البريطانية .

إدوارد/أدولف درومون (١٨٤٤-١٩١٧)

Eduard-Adolphe Drumont

صحفي فرنسي . وواحد من أهم المفكرين المعادين لليهود في الحضارة الغربية . عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في فرنسا ، وهو عصر انهيمة الأوربية على العلم واقتسمه بين القوى الإمبريالية المختلفة . وكان معروف بتجاهده اليسارية في مقتل حياته الصحفية . وقد اضطر درومون إلى الاستقالة من صحيفة لاليرتيه عام ١٨٦٦ وأرجع هذا إلى سيطرة لنيونير اليهودي ذي الاتجاهات لسان سيمونية إسحق برير الذي كان يمتك الخريدة . وأنه اليهود بالسيطرة على الاقتصاد والإعلام . وظهر في انده ذاته ككاتب فرنسا اليهودية في جزئين . وهو من أهم كلاسيكيات معاداة اليهود في الحضارة الغربية ، ويُقال إنه كان أكثر الكتب شيوعاً في أوروبا في القرن التاسع عشر إذ صُعب ما يزيد على مائة ضبعة . وترجم إلى عديد من اللغات . ويتسم فكر درومون بأنه خليط من الأفكار الدينية الراسخة في الوجدان المسيحي الغربي والأفكار الاشتراكية والشيوعية التي حققت ذيوياً بين الجماهير الأوربية في القرن التاسع عشر . ويتضح هذا في كتابه فرنسا اليهودية الذي يذهب فيه إلى أن اليهود عنصر تجاري هامشي بطبيعته يعوق نمو الضيقة الوسطى المحلية (المسيحية) بسبب سيطرته على المشاريع التجارية والصناعية الكبرى . واليهود لا

٦- كان اليهود متواجدين بالفعل في صفوف الثورين (ترونسكي) والرأسماليين (جونزبرج) والرجعيين (ستايل) والمسيحيين (نستوف) . كما كان لهم وجود ملحوظ في كل قطاعات المجتمع العلماني الجديد ، الوضع الذي يعطي انطباعاً للمراقب السطحي بوجود اليهود في كل مكان وتأمرهم على كل القيم .

٧- كان دوستوفسكي وكل الإنجليز (بل البيروقراطية الروسية) يمانون من جهل شديد بأحوال اليهود . ويعود هذا إلى أن دخول روسيا كان محرماً على اليهود حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ولذا لم تكن توجد في روسيا أعداد تُذكر من اليهود . ثم ضمت روسيا أوكرانيا وبولندا في ذلك التاريخ وضمت مع الأراضي أكبر تجمع يهودي على وجه الأرض ، وهو تجمع كان يتحدث اليديشية وكان له وضع اقتصادي وحضاري متميز .

ورغم جهل دوستوفسكي الشديد بالحقائق التاريخية المتنوعة ، قام بالتعميم استناداً إلى معرفته المقصورة على زمان ومكان محددين ، فأصبح يهود روسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هم اليهود كافة ، واليهود في كل زمان ومكان . وهذه هي الطريقة التي تولّد بها الأخطاء الإدراكية العنصرية . ودوستوفسكي هو ابن عصره الغربي الذي هيمن عليه فكر عنصري إمبريالي (بالمعنى الحرفي) ، يقسم العالم إلى عنصرين اثنين متصارعين (الأنا والآخر) ، فيقدّس الذات ويهدر حقوق الآخر ، ولا يدخل في علاقة مركبة مع التاريخ وإنما يجتزئ منه ليدعم وجهة نظره العرقية . وهذا ما فعله دوستوفسكي وهتلر ، والعنصريون كافة قبلهما وبعدهما (وقد لاحظ أحد الدراسين ، بالفعل ، السمات المشتركة بين هتلر ودوستوفسكي) .

ثم تأتي أخيراً للقضية التي طرحناها في بداية هذا المدخل : التناقض بين رؤية دوستوفسكي الإنسانية العالمية ، والتي تنبئ أساساً في أعماله الأدبية ، وموقفه العنصري الضيق تجاه اليهود . ودهشنا لهذا التناقض مردها وهما آخران :

١- يُسيطر علينا تصور مفاده أن ثمة اتساقاً عضوياً وتكاملاً في حياة البشر ، وأن كل إنسان يتبع منطقاً واحداً في حياته . وتبعاً لهذا التصور ، لا يمكن أن يكون فرد واحد إنساناً عامراً الإنسانية مع بني جلدته وقبيلته ، متوحشاً بالغ الوحشية مع مجموعة إنسانية أخرى ، ورغم أن هذا التصور منطقي ، فإنه أبعد ما يكون عن الحقيقة المتعينة ، فالوجود الإنساني يتسم بالتناقض والتركيب ، ويجتمع في داخل الإنسان الواحد الخير والشر والتبل الخسة .

٢- يُسيطر علينا أيضاً تصور أن ثمة ارتباطاً (يكاد يكون عضوياً

أصوات البورجوازية الصغيرة لهزيمة الحزب الليبرالي الذي نزل السلطة آنذاك وحظي بتأييد يهود فيينا . وبالفعل ، حقق ليوجر شعبية كبيرة بفضل مهاراته كخطيب ، ونجح في أن يجعل حزبه القناة الرئيسية للتعبير عن الاستياء الاجتماعي والسخط العام . وهاجم ليوجر الرأسمالية والماركسية باعتبارهما نتاجاً للعقل اليهودي . وقد نجح حزبه في انتخابات مجلس مدينة فيينا ، وانتُخب ليوجر عام ١٨٩٥ عمدة للمدينة ، إلا أن الإمبراطور النمساوي فرانسيس جوزيف رفض الموافقة على نتيجة الانتخابات ، ربما بسبب نشاط ليوجر المستفز للشعور العام ، ولكنه اضطر تحت ضغط الرأي العام في فيينا وبإيعاز من تيودور هرتزل إلى إقرار تعيينه . وقد عمل ليوجر من خلال منصبه الذي احتفظ به حتى وفاته على إدخال العديد من الإصلاحات الاجتماعية والخدمات العامة .

ورغم أن سياسة إدارته كان لها بعض الآثار الاقتصادية السلبية على أعضاء الجماعة اليهودية في فيينا ، إلا أن موقفه تجاه اليهود أصبح أكثر اعتدالاً بعد وصوله إلى السلطة ، وضمت إدارته صديقه اليهودي ماندل (الذي تنصر وسنه ٧٢ سنة) ، كما أن نائب العمدة كان ذا أصول يهودية . وكان ليوجر يقوم بزيارات للمعابد والأسر اليهودية . وأكثر ما يدل على انتهازية ليوجر واستغلاله لمعاداة اليهود للأغراض السياسية عبارته « أنا الذي أقر من هو اليهودي » ، وهي عبارة تعكس في الواقع إدراك ليوجر للإبهام وعدم الوضوح الذي يحيط بمسألة تعريف اليهودي في فيينا ، حيث ذهب البعض إلى اعتبار اليهود جماعة دينية ، بينما اعتبرهم البعض الآخر ، مثل القوميون الألمان ، جماعة عرقية . وقد أتاح ذلك لليوجر إنكار معاداته لليهود أو تأكيدها وفقاً لما تستدعيه مصلحته والمصلحة السياسية لحزبه . إلا أن ترويجه الأفكار المعادية لليهود كان له أثر ، فيما ما يبدو ، على فكر أدولف هتلر إبان نشأته .

أوجست سترندنبرج (١٨٤٩-١٩١٢)

August Strindberg

أهم كُتّاب المسرح السويديين ، ومن أهم كُتّاب الدراما في العالم أجمع . وُلد لأسرة من الطبقة الوسطى في العاصمة السويدية لأب يعمل وكيلاً في النقل البحري وأم خادمة . ألف ما يزيد على الستين عملاً درامياً ، كما كتب مئات المقالات والعشرات من الروايات والمجموعات القصصية القصيرة والسيرة الذاتية . وهو يمثل بالنسبة للأدب السويدي واللغة السويدية ما يمثله شكسبير للأدب الإنجليزي واللغة الإنجليزية .

يتمججون مع الأثم الأخرى ، فهم عنصر غريب ، يعيشون بين الفرنسيين ولا يتمججون معهم ، فهم لا وطن لهم . بل إن أولئك اليهود الذين يبدو كما لو كانوا مندمجين ، هم في واقع الأمر أكثر العناصر خطراً ، فهم مخادعون يتسللون داخل الأمة لإفسادها وتدميرها . ويُلاحظ أن وصف درومون لليهود يقترب كثيراً من وصفا للجماعات الوظيفية التي تعيش في المجتمعات المختلفة دون أن تكون فيها ، والتي تندمج فيها كي تتعامل معها بكفاءة ولكنها تظل منعزلة عنها ، وتحقق تراكماً هائلاً في الثروة . وقد اقترح درومون مصادرة أموال اليهود على أن تُستخدَم هذه الأموال لإيجاد وسائل إنتاجية للطبقة العاملة المُستَغلة .

وفي عام ١٨٩٢ ، أسس درومون جريدة لا لير بارول والتي أفصح فيها عن رؤيته التي تجمع بين توجه كاثوليكي وتوجه اشتراكي في آن واحد والتي نشر فيها مقالاته عن فضيحة قناة بنما ، وقد سجن لمدة ثلاثة أشهر بسببها . كما أسس جماعة رابطة أعداء اليهود ، ثم كتب ملحقاً لكتاب فرنسا اليهودية وعدة كتب أخرى تُعبر عن الاتجاه نفسه المعادي لليهود . ورشح نفسه للانتخابات عام ١٨٩٨ وفاز بمقعد في البرلمان . ثم قاد الحملة ضد دريفوس ، ولكن تبرئة دريفوس أدت إلى تراجع نفوذه .

كارل ليوجر (١٨٤٤-١٩١٥)

Karl Lueger

سياسي نمساوي ومؤسس وزعيم الحزب المسيحي الاشتراكي النمساوي الذي اتسم بتوجهه المعادي لليهود . وُلد في فيينا لعائلة متوسطة ودرس القانون . بدأ حياته السياسية مع الجناح اليساري للحزب التقدمي حيث تعاون مع أعضاء من اليهود ومن بينهم أجناز ماندل الذي ظل صديقاً لليوجر ومستشاره السياسي لفترة طويلة . وقد انتخب ليوجر عضواً بمجلس مدينة فيينا عام ١٨٧٥ ودخل البرلمان عام ١٨٨٥ . ورغم أن ليوجر نفسه لم يكن معادياً لليهود ، ولم يكن متحمساً لفكرة الشعب العضوي الألماني ، إلا أنه مثل غيره من السياسيين النمساويين في تلك الفترة ، لم يتردد في استغلال كلا الأمرين من أجل تحقيق أغراضه وطموحاته السياسية . إذ كانت فيينا تضم في تلك الفترة مزيجاً من القوميات المختلفة ، وكان استخدام أي سياسي لمشاعر معاداة اليهود يشكل أداة لتوحيد وكسب تأييد هذه الجماعات المتنافرة ، وكذلك كسب تأييد البورجوازية الصغيرة التي كانت تعاني من المشاكل الاقتصادية . وقد اشترك ليوجر عام ١٨٩٣ في تشكيل الحزب المسيحي الاشتراكي . وكان يسعى لكسب

الفاقة والعوز» . كما ذكر غير مرة أن معاداته لليهود إنما هي معاداة للمالين من اليهود والمرايين الذين يشرون على حساب غيرهم من البشر . وذكر أيضاً في خطابه للنقاد الأدبي براندين عام ١٨٨٢ أن «المسألة ليست اليهود ولا اليهودية ولكنها مسألة أولئك اليهود السويديين الذين يستغلوننا» .

وحتى مقالاته التي نشرها في فرنسا والتي تتسم بعدائها لليهود بين عامي ١٨٩٤ و١٨٩٥ كانت ردأً على دفاع زولا عن دريفوس ، وقد كانت هذه المقالات مثقلة بمعاداة زولا أكثر من معاداة اليهود كجنس في ذاته .

وفي ١٨٩٧ ، نشر سترندبرج انطباعاته عن هذه الفترة في كتابه الجحيم وهو دراما خيالية في شكل سيرة ذاتية تملئ بالإشارات الباطنية والإحساس المتزايد بارتكاب الذنب الأذلي . وقد عاد سترندبرج ابتداءً من عام ١٨٩٨ إلى الكتابة الدرامية حيث سارت مسرحياته في هذه المرحلة التي يدعوها النقاد «مرحلة ما بعد الجحيم» في مسارين يتقاطعان كثيراً أهم رواية التاريخ السويدي من منظور شعبي ، والمسرحيات ذات المحتوى الديني . ومن أمثلة ذلك كلول الثاني عشر وسوناتا الشبح المليئة بالرموز الموحية دينياً . وقد كان سترندبرج في تلك الفترة من حياته يمثل المدافع الأول عن حقوق الطبقات الشعبية من واقع التزام ديني . وقد اتسمت نظرتة لليهود في هذه المرحلة بروح التسامح ، كما مثلت فكرة القبول عنده فكرة محورية في معظم المسرحيات ، مثل : إلى دمشق وعيد الفصح مسرحية حلم .

وتوفي سترندبرج في أبريل عام ١٩١٢ ، ونحو آخر عيد ميلاده (في ٢٢ يناير ١٩١٢) إلى مناسبة شعبية تخللها مظاهرات كبرى هتف فيها المتظاهرون : «عاش شاعر الشعب - عاش شاعر الحرية» .

راينر فاسبندر (١٩٤٦-١٩٨٢)

Reiner Fassbinder

مخرج ومتج وكتاب سينمائي ومسرحي ألماني كان طالباً منتظماً في مدرسة تحريرية في ميونيخ ، لكنه ما لبث أن هجرها وعمل بالصحافة ثم تركها والتحق بالفرقة المسرحية البافارية الثورية التي تُسمى «مسرح الفعل» . وفي سن التاسعة عشرة ، أخرج فيلمه القصير الأول «صعلوك المدينة» لبدءاً رحلة إبداعه الفني التي استمرت ١٧ عاماً وشملت ٤٣ فيلماً و٣٠ مسرحية وعدداً هائلاً من الكتابات والتمثيلات الإذاعية كانت جميعها ، تماماً مثل حياته ،

وترجع علاقة سترندبرج باليهود إلى بدايته الأولى ككاتب واقعي تقدمي هاجم الملكية والمؤسسات الرجعية في السويد في كتابه الملكية الجديدة وكتابه أشعار (١٨٨٣) . وقد أثار هذان الكتابان القوي المحافظة في السويد ضده ، وهو ما حدا به إلى السفر إلى أوروبا متنقلاً بين بلادها . ونشر ، وهو في الخارج ، مجموعة إسكتشات تحت عنوان «الزواج» عام ١٨٨٤ ، وكان نشرها يهودياً . وفي هذه المجموعة ، هاجم سترندبرج المؤسسات الدينية هجوماً شديداً ودافع عن الجانب الجسدي في الزواج الأمر الذي دفع أعداءه إلى مقاضاته باستخدام فقرة في القانون السويدي تجرم التجديف ، وأشاروا إلى اسكتش في المجموعة سماه «شعراء الفضيلة» استخدم فيه إشارات ترمز للعشاء الأخير .

وفي البداية ، رفض سترندبرج العودة والوقوف أمام المحاكمة . إلا أنه عاد فيما بعد عندما بدأ الادعاء في مقاضاة نشره اليهودي وفقاً للقانون السويدي الذي كان يجيز مقاضاة الناشر في حالة غياب المؤلف . وقد صرح سترندبرج بأن عودته ترجع أساساً لخوفه من تحيز القانون ضد الناشر اليهودي لكونه يهودياً حيث إن أوروبا كانت تحتاحها في تلك الآونة موجة من العدا لليهودية (على حد قوله) . وقد برى سترندبرج من تهمة التجديف ، إلا أن محاكمته ذاتها جلبت عليه الخراب ، حيث قُوطع من الناشرين وأصحاب المسارح على حد سواء . وفي هذه الفترة ، كتب سترندبرج مسرحياته الشهيرة مس جولي ، والأب ، واللعب بالنار والدائشون ، وغير ذلك مما أعطاه شهرة ككاتب طبيعي النهج . وقد أدت الضغوط الاقتصادية إلى رحيله عن السويد مرة ثانية عام ١٨٩٢ والانغماس في الفترة من ١٨٩٢ في محاولات عقيمة لتحويل المعادن وصناعة الذهب حيث ترك الأدب تماماً . وقد تأثر في هذه الفترة بأعمال المتصوف الديني السويدي سويندبورج ، بعد تأثره العميق بأفكار نيته .

وفي هذه الفترة أيضاً ، نشر سترندبرج عدة مقالات في صحف ومجلات الجماعات التي تهتم بالأسرار الروحية والسيماية في فرنسا ووجهت لها تهمة معاداة اليهود . وتستحق فكرة معاداة سترندبرج لليهود وقفة طويلة . فقد ذاعت تلك الفكرة كما اشتهر عنه أيضاً بأنه عدو المرأة . ولقد رأينا كيف عاد سترندبرج للسويد ليواجه المحاكمة بتهمة التجديف بدلاً من إعطاء الفرصة لخصومه لمقاضاة نشره اليهودي . وقد أعرب سترندبرج في كتاباته وخطاباته أكثر من مرة عن كراهيته لناشره واحتقاره له حيث وصفه بأنه «مصاص دماء يثرى على حسابه» ، ويراكم المال بينما يعيش هو «في

كان أو في فينسيا) ، وكانت الجائزة الوحيدة التي حصل عليها من برلين عن فيلمه « فيرونكا نوس » . وقد رفضت لجنة المساعدة الاتحادية التي تقدم العون لإنتاج الأفلام في ألمانيا مشروعين من مشروعات فاسيندر .

وقد أثارت أفلام فاسيندر اتهامات أخرى ضده منها أنه لا يدين النازية ، فهو لا يعتبر النازية وحشاً في حد ذاته ولكنه يبحث دائماً وراء الظاهرة الاجتماعية عن الظاهرة / الرمز سواء أكانت تلك الصورة هي الصليب المعقوف أم شمعدان المينوراه أم النجمة المسدسة أم المطرقة والمنجل . كما أنهم بأنه مرتبط بجماعات الإرهاب نظراً لأبداه من تعاطف في بداية فيلمه « ألمانيا في الخريف » (١٩٧٧) مع أعضاء جماعة بادر ماينهوف الذين ماتوا في زنازينهم .

وقد توفي فاسيندر عن عمر يناهز السادسة والثلاثين بعد أن عاش حياة حافلة بالنشاط والإنتاج الفني والسينمائي ، وكان قد اعترف قبل فاته بأنه يتعاطى المنشطات والكوكايين ليستمر في العمل ، كما اعترف بشذوذه الجنسي في فيلم « ألمانيا في الخريف » .

وفي الحقيقة ، فإن اتهام فنان تجريبي حديثي مثل فاسيندر بمعاداة اليهود يعدُّ أمراً غير مألوف ، إذ أن هذا الاتهام عادةً ما يُوجه إلى كُتَّاب «رجعيين» أو «محافظين» يقفون ضد مثل التعددية والتجريب . ومع هذا ، فلا بد من الإشارة إلى أن ثمة عدداً من الفنانين الحديثين الذين أخذوا موقفاً معادياً من اليهود باعتبارهم مسئولين عن سقوط الحضارة الغربية وانهايار المجتمع . ومن أهم هؤلاء المفكرين الشاعر عزرا باوند والشاعر وليام بتلر بيتس ، كما أشار ت. س. إليوت إلى اليهودي بطريقة اعتبرها البعض معادية لليهود .

معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية

Jewish Anti-Semitism

يُستخدم مصطلح «معاداة اليهود لكل من اليهود واليهودية» للإشارة إلى بعض اليهود الذين يستخدمون مقولات تراث معاداة اليهود في الغرب ويطبقون الصور الإدراكية النمطية السلبية على اليهود . ويبدو أن بعض أعضاء الجماعات اليهودية اكتسحهم تيار الاستنارة والاندماج وسلبهم ذاتهم تماماً بحيث أصبحوا يدركون العالم من خلال هذه الرؤية العنصرية . وقد انتشرت هذه الظاهرة بين اليهود المندمجين في ألمانيا ، ويهود الولايات المتحدة من أصل ألماني ، وكان يهود الغرب المندمجون يدركون يهود اليديشية من خلال مقولات معاداة اليهود ، ومن هنا قاموا بصك مصطلحات عنصرية مثل «كايك وشيني» .

غودجاً للتمرد والانطلاق والتجريب . وقد تناول في أعماله سلبات المجتمع الألماني بشكل خاص ، والمجتمعات الغربية الحديثة بشكل عام ، وما يسود هذه المجتمعات من تفكُّك وتحلُّ وإحباط نتيجة النهائات وراء المادة وغياب أية قيمة أو معنى للحياة سوى القيم والمعاني المادية . وكانت أغلب أعماله مثيرة للجدل ، وتباينت حولها ردود أفعال النقاد ، بل قد وُجِّهت له تهم معاداة اليهود والتعاطف مع الإرهاب وعدم إدانة النازية . وقد أثارت مسرحيته المليئة والزبالة والموت (١٩٧٤) ضجة صحفية كبرى داخل ألمانيا وخارجها وأتهم فاسيندر بمعاداة اليهود نظراً لأن الشرير المرابي المتعاون مع السلطة في المسرحية كان يهودياً . وتكررت هذه التهمة مع فيلمه « ليلي مارلين » (١٩٨٠) حيث توجد أيضاً شخصية اليهودي الشرير . ولم يكن تناول فاسيندر لليهودية في أعماله من منطلق أنها عقيدة دينية وإنما من منطلق أنها نزوع إلى جمع المال والربح والصعود على أكتاف الآخرين (وهذا غط إدراكي شائع في الأدبيات الاشتراكية الغربية) . فهو يبحث في أفلامه عن أسباب «يهودية» المجتمع (أو تهوده حسب تعبير ماركس ، وهو ما نُعبر عنه هنا في هذه الموسوعة باصطلاح «تحوّل المجتمع» ، أي تحوُّل أعضاء المجتمع إلى مجرد وسائل لخدمة أهداف يقال لها نهائية ولكنها ليست بالضرورة إنسانية) . وعملية التهود والتحوسل هذه تؤدي إلى التفكك والتحلل والهزيمة والعنصرية ومعاداة الأجانب وهو ما نراه في أفلام مثل «الخوف يأكل الرمح» و«لا أبغى إلا أن تحبوني» و«الروليت الصيني» . والواقع أن كل الشخصيات في أفلامه مدانة باليهودية (بالمعنى الذي سبقت الإشارة إليه) . وكل الأبطال يعانون من الشعور بالوحدة والعزلة والإحباط ، فحتى بعد النجاح لا يحقق المرء ذاته ، والسؤال الأساسي «وماذا بعد النجاح ؟» غير مطروح في هذا المجتمع كما يهدئ لنا من أحداث فيلمه «بائع الفصول الأربعة» (١٩٧١) . وفي هذا الإطار نفسه ، تتعامل جميع أفلام فاسيندر مع موضوع الأسرة وانهارها وانحلالها ثم اختفائها . ففني فيلم «زواج ماريابراون» (١٩٧٨) ، وهو أول أفلامه الضخمة ، يتناول قصة امرأة تزوجت لمدة عشرة أيام ثم طُلب زوجها للجيش في الحرب العالمية الثانية ، ولكنها حافظت على زواجها بأمل تكوين الأسرة الناجحة ، ثم فسقت وقتلت واستغلت وسرقت من أجل تحقيق حلم النجاح والاحترام وليس من أجل التوازن المفقود الذي لن يعود .

ويبدو أن تهمة معاداة اليهود كلفت فاسيندر وظيفته وحرمة من نيل أية جائزة من جوائز المهرجانات السينمائية الكبرى (سواء في

عدم الإنجاب كلياً حتى لا يزيد عدد اليهود ، بل إن بعضهم يضع حداً لحياته بالانتحار . وقد يكون التنصّر للحصول على تأشيرة دخول إلى الحضارة الغربية (على حد قول هايني) تعبيراً عن الظاهرة نفسها .

وقد يأخذ كُره اليهودي لنفسه شكل إعداد المشاريع المختلفة لإبادة اليهود والتخلص منهم كما لو كانوا حشرات طفيلية ضارة . ومن المعروف أن كثيراً من اليهود اشتركوا مع النازي في عملية الإبادة والإعداد لها ، ومن أشهرهم ألفريد نوسيج الذي أعد للنجستو خطة لإبادة اليهود والذي اكتشف أمره يهود جيتو وارسو فألقوا القبض عليه وأعدموه .

ويمكن أن يأخذ كُره اليهودي لنفسه شكلاً جماعياً ، فيكن يهود ألمانيا البغضاء والاحتقار ليهود اليديشية من شرق أوروبا . ويرفض اليهود الأرثوذكس اليهود الإصلاحيين والمحافظين بل يكتفونهم ، ويُعبّر اليهود الإشكناز عن كُرههم للسفارد والشرقيين . ومن أهم أشكال كُره اليهود وأكثرها تركيبياً ظهرة اليهودي الذي يحقق النجاح في عالم الأغيار حسب شروطهم ثم يعود إلى جماعته اليهودية مسلحاً بشريعته الجديدة وكفاءاته ويتولى قيادة جماعته اليهودية بدلاً من القيادة التقليدية ويبدأ في دمجها في المجتمع وفي تخليصها من سماتها اليهودية المفترضة كافة .

وُستخدم المصطلح في الأدبيات الصهيونية للإشارة إلى اليهودي الذي يأخذ موقفاً معادياً للصهيونية ، وذلك من قبيل إرهابهم أو تهيمشهم . وتُصرح الصهيونية نفسها باعتبارها العقيدة التي حررت اليهود من كُرههم لأنفسهم وزادت احترام الشعوب لهم ، وزادت ، من ثم ، احترامهم لأنفسهم . ولكن المدارس المدقق سيكتشف أن الصهيونية إنما هي تعبير عن كُره اليهودي لذاته :

١ - فالصهيونية تُصدر عن نقد عميق لما يُسمى «الشخصية اليهودية التقليدية» ، فهي تحاول إصلاحها وتخليصها عما يتصوره الصهاينة هامشيتها وخضوعها بل تحاول تطبيعها ، بحيث يصبح اليهود مثل الأغيار ويحيث تصبح الدولة الصهيونية دولة مثل كل الدول .

٢ - كان واضعاً الأطروحات الصهيونية الأولى (هرتزل ونوردو) ، وهما من اليهود الألمان المندمجين ، يفكران في الصيغة الصهيونية خوفاً من توافد يهود اليديشية لا حياً فيهم ، وكانت الصهيونية منذ البداية صهيونية توطيئة بالنسبة ليهود الغرب المندمجين واستيطانية بالنسبة ليهود شرق أوروبا الذين سيُصدرون إلى خارج أوروبا حتى يتم التخلص منهم ، وحتى يحافظ يهود الغرب على مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية .

ويبدو أن الظاهرة تتبدى بشكل متطرف أحياناً ، فهناك نظرية تذهب إلى أن فيلهلم مار الذي صك مصطلح «معاداة السامية» («أنتي سيميتزم») من أصل يهودي ، بل يُقال إن هتلر نفسه كان طفلاً غير شرعي لأب يهودي . ومن المؤكد أنه كانت تجري في عروق أيخمان دماء يهودية . ويمكن القول بأن الصهيونية تعبير مركب عن الظاهرة نفسها ، فهي تُصدر عن رفض يهود المنفى ، أي يهود العالم كافة حتى تاريخ قريب . كما أن الصهيونية تطالب بتصفية الجماعات اليهودية خارج فلسطين . وهي تقبل أيضاً المقولات الأساسية لمعاداة اليهود وأنماطها الإدراكية لليهود واليهودية . وتستند الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة إلى رؤية تتم عن عدم احترام لأعضاء الجماعات اليهودية . ويُلاحظ أن الأجيال الجديدة في إسرائيل لا تكن احتراماً كبيراً لمنطق «اليهودي» (أي يهودي المنفى) ويرى أعضاء هذه الأجيال أنفسهم باعتبارهم عبرانيين أو إسرائيليين ، وربما كان هذا تعبيراً آخر عن معاداة اليهود لليهود .

كره اليهودي لنفسه

Jewish Self-Hate

«كره اليهودي لنفسه» مصطلح يُستخدم لوصف اليهودي الذي يكره نفسه من حيث هو يهودي ، ويولد لأنه كان من «الأغيار» . وهذه ظاهرة شائعة بين بعض أعضاء الأقليات والمقهورين ، فيتمنى الأسود لو كان من البيض ، ويتمنى العربي لو كان غربياً ، وهو شكل من أشكال التوحد مع المعتدي . ويعتقد اليهودي الذي يكره نفسه ، شأنه في هذا شأن الصهاينة وأعداء اليهود ، بوجود جوهر يهودي ثابت لا علاقة له بالملابسات التاريخية والاجتماعية ، وبوجود صفات يهودية ثابتة وخصوصية يهودية لا تتغير ، الأمر الذي يعوقه عن الاندماج الكامل في عالم الأغيار . وهو يصب جام غضبه على اليهود الذين تتجلى فيهم هذه الصفات اليهودية الافتراضية ، معتقداً أن صفاته اليهودية هي سبب شقائه ، وأن اليهود مسئولون عما يحدث لهم وله . ويبدو أن الظاهرة تفاقمت في أوروبا بين اليهود مع حركة الإعتاق والتتوير ، حين ضعف الانتماء الديني لليهود فوجدوا أنفسهم في عالم أوروبا العلماني الجميل الرائع الذي اكتسحهم تماماً ، وصبوا جام غضبهم على الجيتو وعلى أهلهم وأنفسهم . ولكن أول من صاغ المصطلح هو تيودور لسنج في كتابه كُره اليهودي لنفسه (برلين ١٩٣٠) .

ويتبدى كُره اليهودي لنفسه في عدة أشكال ، منها محاولة إخفاء الأصول . ويحرص بعض اليهود الكارهين ليهوديتهم على

وتلخص نظريته في أن هناك علاقة أساسية بين الجنس والشخصية . فقد اعتبر أن الرجل يضم العناصر الإيجابية والأخلاقية والروحية والفكرية القادرة على الخلق والإبداع ، أما المرأة فتضم العناصر الإدراكية (المادية والحسية والا أخلاقية) وهي غير قادرة على أية فضيلة أو إبداع . واعتبر أن مأساة البشر تكمن في أنهم يجمعون بين عناصر الذكورة الطيبة والعناصر الأنثوية الشريرة . كما رأى أن علاقة الرجل بالمرأة تؤدي إلى تدهوره وإذلاله ، واعتبر أن التحرر الحقيقي للمرأة لا يكمن في التحرر السياسي بل في تخليها عن ذلك الجانب من طبيعتها الذي تسيطر عليه الرغبات الحسية ، وبالتالي اعتبر أن الامتناع الجنسي هو السبيل الوحيد للنمو الروحي للرجل ولتحرر المرأة . وفي تناوله لليهودية وللإهود ، اعتبر فيننجر أن اليهودية تمثل العنصر الأنثوي اللا أخلاقي وغير المقدس وهي أيضاً العدم ، في حين أن المسيحية تمثل الذكورة الأسمى وهي الوجود وهي العنصر الآري . واعتبر فيننجر أن اليهودي أسوأ من المرأة لأنه لا يؤمن بشيء ، وبالتالي فإنه ينجذب نحو الفكر الشيوعي والفوضوي والإلحادي والتجريبي . كما رأى أن خلاص اليهودي لا يأتي إلا من خلال تخلصه من يهوديته ، ورأى أن الصهيونية أو القومية اليهودية هي نقيض العقيدة اليهودية ، إلا أنها لن يكتب لها النجاح لأن اليهود لا يدركون مفهوم الأمة . وقد أعلن فيننجر أن هناك المخلص الحقيقي الذي سيخلص العالم من اليهودية والأنثوية معاً (هل هو هتلر ؟) .

وقد جمعت نظرية فيننجر عناصر من الرومانسية ومن فكر نيتشه ومن علم النفس وعلم الأحياء الحديث ، ويجب فهم عمله في إطار الجدل الذي كان سائداً في عصره حول طبيعة الرجل والمرأة . غير أن فيننجر اتجه إلى استخلاص استنتاجات نهائية وعامة من خلال تجاربه الذاتية الخاصة والمحدودة . وقد اتجه كثير من مفكري النازية إلى الإشارة إلى أفكاره المعادية لليهود واليهودية كتبرير لآرائهم ، ووصفه هتلر بأنه اليهودي الوحيد الذي يستحق الحياة . وكان الفيلسوف اشبنجل يعتبره أهم ثلاثة قديسين انتجهم اليهودية (مع إسبينوزا وبيبل شيم طوف) .

وقد أصيب فيننجر باكتئاب شديد ، دفعه في نهاية الأمر إلى الانتحار بعد بضعة أشهر من إصدار كتابه . وقد طبع كتابه ثلاثين طبعة وترجم إلى عدد كبير من اللغات الأوربية (وهو ما يبين مدى هيمنة الفكر النيتشوي والعرقى على الوجدان الغربي) . كما نُشر لفيننجر كتاب بعد موته بعنوان **عن الأشياء الأخيرة** (١٩١٨) . وقد كتب الكاتب المسرحي يوهو شاوا سوبول مسرحية عن حياته بعنوان

٣- لم يحقق المشروع الصهيوني النجاح إلا بعد أن ظهرت قيادات صهيونية مندمجة تسلمت قيادة الجماعات اليهودية وحلّت محل القيادات الحاخامية التقليدية و« باعته » المشروع الصهيوني للحضارة الغربية . ولم تنجح هذه القيادة في فرض نفسها إلا بعد أن وافقت عليها السلطات الاستعمارية الغربية ، أي أنها قيادة شبه يهودية تستند إلى شرعية غير يهودية !

٤- المشروع الصهيوني هو في جوهره مشروع لمساعدة أوروبا على التخلص من فائضها اليهودي . وتوجد في الكتابات الصهيونية العديد من الإشارات إلى اليهود باعتبارهم باكتريا وحيوانات طفيلية . ويتم التخلص من اليهود بالطريقة البلغورية في معظم الأحيان ، أي عن طريق شحن اليهود إلى فلسطين بدلاً من معسكرات الاعتقال والغاز . ولكن ثمة حالات تعاون فيها الصهاينة في التخلص من اليهود على الطريقة النازية ، ومن هؤلاء رودولف كاستر ، وكذلك ألفريد نوسيج الذي سبق الإشارة إليه ، وهو من مؤسسي الحركة الصهيونية .

ومن ثم ، يمكن اعتبار الحركة الصهيونية تعبيراً عن كُره اليهودي لنفسه لا تقبلاً للهويات اليهودية المختلفة . لكن هذا المفهوم ، مثل معظم المفاهيم النفسية التي تُستخدم لتفسير ظواهر اجتماعية ، ليست له مقدرة تفسيرية عالية ، فكُره اليهودي لنفسه ليس سبباً وإنما هو تعبير عن عوامل حضارية واجتماعية أكثر عمقاً . ويُستخدم المصطلح الآن للإشارة لأي فنان أو مفكر يهودي يوجه نقداً لأعضاء الجماعة اليهودية ، ومن ثم يُشار إلى وودي ألين وفيليب روث باعتبار أنهما يعانيان من مرض كُره اليهودي لنفسه .

أوتو فيننجر (١٨٨٠-١٩٣٣)

Otto Weininger

فيلسوف وعالم نفس نمساوي وُلد في فيينا . ودرس علم النفس وعلوم الأحياء والطبيعة والرياضة ، إلى جانب دراسته انفسلة في جامعة فيينا . وتبنّى في بداية حياته الفلسفة الوضعية والمذهب العقلي ، إلا أنه تخلى عنهما متأثراً بتمثالية كانط وأفلاطون وصوفية سانت أوغسطين وفاجنر ، كما تأثر بفيلسوف العنصرية هيوستون تشامبرلين . وقد ساعد ذلك على اعتناقه المسيحية البروتستانتية ، وذلك في اليوم نفسه الذي نال فيه درجة الدكتوراه عام ١٩٠٢ .

وفي عام ١٩٠٣ ، كتب فيننجر عمله الكبير **الجنس والشخصية** الذي تضمن رؤية فلسفية معادية للمرأة لليهود .

روح يهودي . ويُعتبر فيننجر في الأدبيات اليهودية ظاهرة مرضية ومثلاً لليهودي الكاره لنفسه ، ويُعتبر انتحاره النتيجة الطبيعية لهذه الكراهية .

آرثر تريبتش (١٨٨٠-١٩٢٧)

Arthur Trebitsch

كاتب غسايوي يهودي . تلميذ أوتو فيننجر وهيوستون تشامبرلين . تنصّر وأصبح من أعدى أعداء اليهود . كتب كتاباً بعنوان الروح واليهودية (١٩١٩) ألقى فيه اللوم على اليهود لهزيمة الألمان وسقوط الأسرة الحاكمة في ألمانيا والنمسا . وفي كتابه الروح الألمانية واليهودية (١٩٢١) ، استخدم تريبتش بروتوكولات حكماء صهيون لثبت وجود مؤامرة يهودية لإفساد العالم والهيمنة عليه . وطوّر تريبتش النظرية العرقية الغربية المعادية لليهود وعرض خدماته على النازيين في النمسا .

تيودور لسنج (١٨٧٢ - ١٩٣٣)

Theodor Lessing

مفكر ألماني . ابن طبيب ثري درس التاريخ والفلسفة والطب في بون وميونيخ وتنصّر (على المذهب البروتستانتي) حينما كان يدرس في فرايبورج (وكان هذا أمراً شائعاً بين أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا آنذاك) . كتب عدة دراسات عن تاريخ الأفكار من ضمنها شوبنهاور وفاجنر ونيثشه وانحطاط العالم : أوروبا وآسيا . كان لسنج مهتماً بدراسة ما يُسمى «مبادئ الشخصية القومية» ، وهي دراسة كانت مشبعة آنذاك (في ألمانيا وأوروبا على وجه العموم) بالقيم المادية العنصرية التي تحاول تعريف الشخصية بالعودة لبعض مكوناتها المادية (حجم الجمجمة - التراب والدماغ ... إلخ) . وكانت مثل هذه الدراسات تقسم البشر بشكل صارم وحاد إلى أقسام منفصلة فمنهم الأدنى ومنهم الأعلى . وهذا هو الإطار الفلسفي لفكرة الشعب العضوي (فولك) . وقد هاجم لسنج فرويد باعتباره يهودياً ، وهاجم التحليل النفسي باعتباره علماً يهودياً متحلاً ، كما هاجم الحياة في الشتل في سلسلة من المقالات .

قدّم لسنج في كتابه كره اليهودي لنفسه دراسة طبية لليهود الذين يتسمون بكرههم لذواتهم . واليهود (حسب تصوّر لسنج) هو شعب آسيوي لا ينتمي إلى أوروبا ، جذوره في آسيا (فلسطين) . وتعود قوة اليهود إلى قربهم من الطبيعة والجذور الطبيعية الأولية الكونية (أي أنه تبّنى رؤية حلوية كمنونية تتسم بالواحدة الكونية

المادية) . وتكمن مأساة اليهود في أنهم نُزعوا من جذورهم وانفصلوا عن غرائزهم الطبيعية المرتبطة بالأرض بحيث تحوّل اليهود من كونهم شعباً من الرعاة والفلاحين يعيش في الطبيعة إلى شعب منحل يتسم بالرومانسية الزائدة (يؤمن بأخلاق الضعفاء بدلاً من أخلاق الأقوياء على حد قول نيثشه) . وقد وجد لسنج أن ثمة أقلية من اليهود (المستوطنين الصهاينة) بدأت تعود لتربة فلسطين وأنهم هم الذين يمكنهم أن يبعثوا أمجاد اليهود الغابرة ويمكنهم أن يلعبوا دور الوسيط بين آسيا الروحية وأوروبا التكنولوجية . وفكر لسنج في جوهره فكر نازي/ صهيوني يُعبر بشكل متبلور عن الرفض الكامل والجنري لكل ما هو يهودي . ومع هذا ، هاجمه المعتادون لليهود بضرارة . وهو ما يدلّ على غبنهم واختزالهم . وقد أُغتيل لسنج على يد النازيين .

العداء العربي لليهود واليهودية

Arab Anti-Semitism

تحاول الأدبيات الصهيونية في الآونة الأخيرة أن تبيّن أن ظاهرة العداء لليهود واليهودية ظاهرة متأصلة في المجتمعات العربية وفي التراث الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية . وهذه المحاولة جزء من المحاولة الصهيونية المستمرة تشويه صورة العرب والمسلمين . إلا أنها تعبر أيضاً عن رغبة الصهاينة الدفينة في تناسي تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب ، وتراث العداء لليهود واليهودية الشرطي المطوّل المستند ، الذي انتهى بضردهم وإعادة توضيحهم في فلسطين في إطار المشروع الصهيوني .

وقضية عداء العرب لليهود واليهودية (عداء العرب لسامية) مسألة مركبة متعددة الأبعاد ، تختلف عن معاداة اليهود واليهودية في الغرب . فتاريخياً تحوّلت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي إلى جماعات وظيفية ، وكنهم لم يكونوا الأقلية الوحيدة التي تضطلع بهذا الدور . فتعالم الإسلامي . على عكس الغرب المسيحي ، يضم جماعات دينية وإثنية كثيرة . كما أن النشاط التجاري ، والنشاطات المالية والوسيطية عنى وجه العموم ، لم تكن مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية دون غيرهم .

ورغم أن اليهود (ويبي إسرائيل) أتى ذكرهم في القرآن عشرات المرات وتحت مسميات مختلفة في سياقات معظمها سلبي ، إلا أن رؤية اخلاص الإسلامية لم تعط اليهود أية مركزية خاصة ، ولذا لم يكن اليهود يمثلون إشكالية خاصة بالنسبة للفقه الإسلامي . وقد ظهرت بعض الأعمال الأدبية والفكرية داخل التشكيل الحضاري العربي والإسلامي تحاول اختزال أعضاء الجماعات

ازداد النموذج التفسيرى التأمري الذي ينسب لليهود قوى عجابية انتشاراً ، وهو نموذج يصور اليهود باعتبارهم قوة أخطبوطية لا تُفهر، فهم يسكنون بكل الخيوط ويُحركون كل القوى (الرأسمالين والاشتراكية) حتى ينفذوا مخططاتهم اليهودي الجهمني المستقل، وما اللوبي الصهيوني سوى تعبير جزئي عن مخطط صهيوني أشمل .

وهذه النظرة العنصرية الاختزالية تشكل فشلاً أخلاقياً ، فهي لا تحاول أن تميز بين الخبيث والطيب ، وتضع اليهود ، كل اليهود ، في سلة واحدة بمن في ذلك على سبيل المثال أعضاء جماعات الناطوري كارثا الذين يقضون معظم أيامهم في الحرب ضد الصهيونية ، بمثابة وإخلاص ودأب نفتقدهم في كثير من العرب هذه الأيام ! والرؤية العنصرية حتمية ترى أن من وكلد يهودياً لابد أن يسلك حسب نمط معين وكان الإله لم يمنحه فطرة سليمة ومقدرة على تمييز الخير من الشر .

والنظرة العنصرية الاختزالية ، تشكل كذلك فشلاً معرفياً لأن الخريطة الإدراكية التي ستفرزها مثل هذه الرؤية ستكون عامة رماذية كالحة سطحية واحدة لا تساعد كثيراً في فهم الواقع . فهي على سبيل المثال لن تساعدنا كثيراً في معرفة توجهات أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة بكل نتوئها وتوجاتها . فنحن في حاجة لأن نعرف من منهم يساند الصهيونية ومن يعارضها ، ومن منهم يجاهر بنصرتها علناً ويبدل قصارى جهده في التملص منها ، ومن منهم ناصرها في الماضي ، وتنكر لها في الحاضر ، ومن منهم تنكر لها في الماضي وبدأ يناصرها في الحاضر ، ومن منهم توجد لديه إمكانية كامنة لقبولها أو رفضها أو التملص منها ، ومن منهم تجب محاربته ومن منهم يمكن تحييده ومن منهم يمكن تحييده ، فالرؤية التأمريّة العرقية ترى أن كل يهودي صهيوني وكل صهيوني يهودي ، وهي بهذا تتبنى الرؤية الصهيونية لليهود ، التي تضع اليهود ، كل اليهود ، في سلة واحدة ، هي سلة الشعب اليهودي .

والرؤية العنصرية في نهاية الأمر لها مردود سلبي من الناحية النفسية ، فهي تنسب لليهود قوة هائلة ، الأمر الذي يؤد الرعب في نفوس العرب (ولتخيل صانع القرار العربي الذي يعتقد أن "اليهود" قادرين على كل شيء وأنهم يسكنون بكل الخيوط !) .

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن هذه الرؤية العنصرية تُترجم نفسها إلى كُره أعمى يُطالب بملاحقة اليهود والانتقام منهم وطردهم من أوطانهم والتضييق عليهم . وما ينسأ حملة مثل هؤلاء الرؤية أن المواطن اليهودي الذي يتم التضييق عليه وطرده من وطنه يضطر للهجرة إلى فلسطين ليصبح مستوطناً صهيونياً يحمل السلاح

اليهودية من خلال صور إدراكية نمطية سلبية ، إلا أن اليهود لم يحتلوا أي مركزية خاصة في الوجدان الأدبي والثقافي العربي والإسلامي . وقد استقر وضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة العربية والإسلامية في إطار مفهوم أهل الذمة الذي حدد حقوقهم وواجباتهم . ومن ثم فلم يعرفوا المذابح أو عمليات الطرد المتكررة التي تسم علاقتهم بالحضارة الغربية في بعض الفترات . هذا لا يعني أن تجربة يهود العالم الإسلامي مع المجتمعات الإسلامية التي ينتمون إليها كانت خالية من التدافع أو الصراع والظلم (الذي يتنافى مع تعاليم الإسلام ومفهوم أهل الذمة) وأنها كانت عصراً ذهبياً متداً ، فهذا ليس من طبائع البشر ولا من طبيعة المجتمعات البشرية . كل ما نود تأكيده أن أعضاء الجماعات اليهودية تمتعوا بقدر معقول من الاستقرار والطمأنينة ، الأمر الذي أدّى إلى اندماجهم في مجتمعاتهم .

ولكن الوضع تغير بشكل حاد في العصر الحديث ، فبُلاَحَظ انشغال عربي وإسلامي كبير بالشأن اليهودي (وإن كان يُلاحَظ أن الأعمال الأدبية العربية ، بما في ذلك الفلسطينية ، لا تكثر بأعضاء الجماعات اليهودية) . وبدأت تظهر أدبيات كثيرة كتبها عرب ومسلمون تدور في إطار مفاهيم ومقولات عنصرية (معظمها مستورد من العالم الغربي) . ومن بين هذه المقولات أن اليهود مسئولون عن كل أضرار العالم ، كما هو مدوّن في بروتوكولات حكماء صهيون (الذي يقرأه الكثيرون) ، وفي التلمود (الذي لم يقرأه أحد) . وبدأ الحديث عن المؤامرة التي يحيكها اليهود ضد المسلمين والعرب ، وارتبط اليهود بالشیطان وبالصور الإدراكية النمطية الاختزالية السلبية في عقل كثير من العرب والمسلمين . وبدأت تظهر في الصحف والمجلات وعلى أغلفة الكتب صورة اليهودي ذي الأنف المعقوف الذي تقطر أظافره دماً والذي يمتص دماء الآخرين وأموالهم . بل بدأت تظهر تهمة الدم في أرجاء متفرقة ، وهو أمر لم يكن معروفاً في العالم الإسلامي من قبل . وترجمت البروتوكولات التي يعتقد البعض أنها من كتب اليهود المقدسة ، كما نُشرت مقتطفات متفرقة من التلمود . بل بدأ بعض المسلمين يرون أن «اليهودية» صفة بيولوجية تورث ، أي أن اليهودي - حسب هذه الرؤية - هو من وُلد لأم يهودية ، وهو تعريف قد يتفق مع العقيدة اليهودية ولكنه لا يتفق ألبتة مع العقيدة الإسلامية التي لا تنظر للدين باعتباره أمراً يورث ، وإنما هو رؤية يؤمن بها من شاء .

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أنه كلما ازداد الرعب من إسرائيل و"اليهود" كلما ازدادت صورة اليهودي سوءاً ، وكلما

ضدنا ، فكأن العداء العربي لليهود له مردود صهيوني . ومن المعروف أن الحركة الصهيونية قامت بالتضييق على يهود العراق وخلقت وضعاً صهيونياً بنوياً اضطهرهم للاستيطان في فلسطين .

ويحاول بعض المتحدثين العرب رد تهمة العنصرية باللجوء واعتذاريات أقل ما توصف به أنها مضحكة ، وجميعها له طابع قانوني وكأننا نقدم مرافعة قانونية شكلية ، ليس لها سند في الواقع المتعين . فمثلاً هناك من يقول : " كيف يمكن أن نكون لا ساميين ونحن أنفسنا ساميون ؟ " وهي حجة واهية مردود عليها ، فالإجابة على هذا السؤال البلاغي الأحق هي بالإيجاب : " نعم يمكن أن يكون الإنسان سامياً ومعادياً للسامية " ، وهناك شواهد كثيرة على ذلك . فيمكن أن يكون الإنسان عربياً ومعادياً للعرب ، وظاهرة العداء اليهودي لليهود واليهودية ظاهرة معروفة للدارسين .

وهناك حجة أخرى لا تقل تهافتاً عنها وهي أننا لا يمكننا أن نكون " معادين للسامية " لأن اليهود ليسوا ساميين فهم من نسل قبائل الخزر التي تهوأت ، والخزر عنصر تركي غير سامي . والرد على هذا أن عبارة " العداء للسامية " تعني في واقع الأمر " العداء لليهود واليهودية " ، فسواء كان اليهود ساميين أم لا ، تظل القضية مطروحة .

وهناك بطبيعة الحال من يشيرون إلى عصر اليهود الذهبي في الحضارة الإسلامية خصوصاً في الأندلس ويستتجون من هذا العداء أننا بالتالي لسنا معادين لليهود واليهودية باعتبار أنه إذا كان الماضي كذلك ، فلا بد أن يكون الحاضر كذلك . وهذه مغالطة ، فلا يوجد استمرار عضوي بين الحاضر والماضي ، ويمكن أن يكون إنسان عنصرياً في مرحلة من حياته ويتخلى عن عنصريته في مرحلة لاحقة ، والعكس بالعكس . ويسري هذا على تواريخ كل الشعوب .

وما يجدر ذكره أن كل مراكز البحوث العلمية في العالم العربي والمجلات العلمية المسنولة لا تسقط ، إلا فيما ندر وبدون وعي ، في هذا الخطاب العنصري ، فمعظم هذه المراكز تتناول الشأن اليهودي وظاهرة الصهيونية بطريقة علمية ، تحاول تفسيرها وفهمها ولا تختبئ ، بطريقة جنينية اختزالية طفولية ، وراء منطق المؤامرة .

ورغم رفضنا المبدئي للخطاب الاختزالي الواحدي العنصري ، ورغم إدراكنا لسلبياته من الناحية الأخلاقية والمعرفية والنفسية ، إلا أننا يجب أن نفهم سر ذبوعه وانتشاره وهيمته على بعض الكتاب الشعبين (في الصحف والمجلات) وبعض أعضاء النخب العربية السياسية والثقافية .

١ - حينما ظهر «اليهودي» في العصر الحديث على شاشة الوعي

العربي والإسلامي فقد ظهر داخل التشكيل الإمبريالي الغربي . وجاء إلى بلادنا ممثلاً له حاملاً لواءه وعميلاً له . وقد قامت هذه الإمبريالية بغرسه غرساً وسطنا داخل إطار الدولة الوظيفية ليقوم على خدمة مصالحها بعد أن اقتطعت جزءاً من الوطن العربي الإسلامي ، يقع في وسطه تماماً ومن ثم يقسمه قسمين ، وهي منطقة لها دلالة دينية خاصة ، إذ تضم القدس والمسجد الأقصى .

٢ - قامت الإمبريالية الغربية بتحويل يهود البلاد العربية إلى عنصر وظيفي استيطاني يدين لها بالولاء . وشهدت الجماهير العربية أعضاء الجماعات اليهودية وهم ينسلخون تدريجياً عن التشكيل الحضاري العربي والإسلامي . فعلى سبيل المثال أصبح كل يهود الجزائر مواطنين فرنسيين ، واستفاد يهود مصر من الامتيازات الأجنبية وحصلت نسبة مئوية كبيرة منهم على الجنسيات الأجنبية . وقد دعم هذا من صورة اليهودي كأجنبي غريب ومغتصب ومتأمر وعميل ، شخص لا انتماء له يبحث عن مصلحته اليهودية .

٣ - من الملاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي يوجدون بشكل ملحوظ في الحركات الشيوعية العربية (شأنهم في هذا شأن أعضاء الأقليات في كثير من المجتمعات) . كما لوحظ أن عدداً كبيراً من الرأسماليين من راكموا ثروات ضخمة هم أيضاً من أعضاء الجماعات اليهودية . ولعل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في كل من الحركات الشيوعية والنظيرة الرأسمالية قد دعم صورة اليهودي اللا منتمي أو المنتمى لمصاحبه اليهودية ، ودعم فكرة المؤامرة اليهودية .

٤ - من الأمور التي رسخت فكرة المؤامرة والهيمنة اليهودية على العالم في الوجدان العربي ، الدعم الغربي للتجمع الصهيوني بغير تحفظ أو شروط أو حدود أو قيود . وهو دعم سبسي واقتصادي وعسكري . وكثير من العرب يفترضون أن العالم الغربي عالم عقلاني ، تُتخذ فيه القرارات بشكل رشيد يخدم مصالح الدولة ، وأنه عالم ديمقراطي تنتشر فيه مثل العدل والمساواة وحقوق الإنسان ، ولذا حين يقوم الغرب العلماني العقلاني الديمقراطي بتأييد ودعم مشروع غير عقلاني ، غير ديمقراطي يستند إلى ديباجات دينية وعلمانية موعلة في الشوفينية وينتم بضيق الأفق وينكر على الفلسطينيين أبسط حقوقهم ، فإن هذا أمر غير مفهوم ولا يمكن تفسيره بطريقة عقلانية . واهتمام الغرب المحموم بالإبادة النازية لليهود (التي مضى عليها ما يزيد عن خمسين عاماً) والإصرار على الاستمرار في تعويض الضحايا وتقديم الاعتذار لهم والتعبير عن الندم عما بدر من الألمان وغيرهم قد يكون أمراً محموداً في حد

٥ - قامت الدولة الصهجونية باعآبارها تعبراً عن مشروع اسآطاطهم إآلاله علىه أن يلآأ إلى الآء الأقصى من العنف لآآآلصر من السكان الأصلىن ، بما فى ذلك الإباءة والطرء والعزل . وقء سم آهه الدولة نفسها «الدولة الجهوءية» فربطت بآن الجهوءى والعنء والإرهاب .

والأسوأ من آها أن آهه الدولة أءأت أنها آآآآ باسم كل جهوء العالم أآما كانوا ، ومن ثم فهى آآآآ باسم جهوء البلاد العربآة ، بل آطالب بالآعوىضات باسمهم ، فكأن الدولة الصهجونآة آآكر أن أعضاء الآماءعات الجهوءية مواآنآن فى بلادهم ، ونءعم الصورة الإدراكآة العرقآة أن الجهوءى لا انآماء له وأنه ىءافع عن مصالحه الجهوءية وآسب .

آهه هى بعض الأسباب الآى أءت إلى هآمنة الرؤآة الآأمرآة على إءراكنا للجهوء فى العالم العربى وإلى ذآوع البروءوكولات وآر آلك من آآابات عنصرىة آهءف إلى آفسآر الواقع بشكل سرىع سهل وإلى آفرآع شآنة الغضب عند كآآر من العرب . ولكن آفرآع الشآنة هنا بهذه الطرىقة له آوانبه السلآبة العآىءة ، والمآلوب هو أن نفهم أسباب الغضب ونآاول اسآآماره فى إطار مشروع نضالى إنسانى بهءف إلى آصفآة الآآب الاسآآطانى الصهجونى ولا إسقط فى العنصرآة العمآاء .

ذآته (فهو فى نآاهة الأمر آعوىض لآئة من ضآايا الآضارة الغربآة) إلا أن آهه الظآاهرة للمآوءة فى آء ذآآها آآآر الشك آآن ىلاآظ المواآن العربى والمسلم أن سلسله كساملة من المذابآ من آركآت منذ الآمسآآت آآى آآصف الآسعنآآت (الآزائر - فىآام - البوسنة - الشآشان) معظمها فى العالم الإسلامى وتم الآزام الصمآ آآآها ولم ىآآآ آءء عن آعوىض أو اعآذار أو آوبة أو نءم ! آها فى الوقت الذى آسآمر الآلة الإعلامآة الغربآة فى الآركآز على الهولوكوسآ ءون آبرها . كما أن الزعم الغربى بأن فلسطين فى الشرق العربى قءمآ للجهوء آعوىضاً لهم عما آآآ لهم فى ألمانيا فى العالم الغربى ، هو أمر ىصعب فهمه .

كل آهه الظواهر آآآر الآساؤلات فى نفوس الناس ، وبما أنهم لا وقت عنءهم للآآ والاستقصاء ، لآا آظهر الإآابات الآآزآآآة السهلة ، وصآغة المؤامرة الجهوءية صآغة آملك مقءرة هائلة على سء الهوة الآى آفصل عقلاآآة الرؤآة الغربآة عن لاعقلاآآة الممارسة الغربآة . وما لم ىآآر ببال هؤلاء أن عقلاآآة الغرب ءءافعه عن آقوق الإنسان لآسا مآلقآن وأنهما لا ىنصرفان لآقوق الإنسان العربى أو المسلم على سآآل المآال . وأن العقلاآآة ءءور فى إطار المصالح الإسآراآآآآة الغربآة ، الآى آم آآآآىءها بطرىقة لآست بالضرورة عقلاآآة وإنما من آلال مقولات قآآآة مآركزة آول الغرب ، معظمها عنصرى .



٤

الإبادة النازية
والحضارة الغربية الحديثة

الإبادة النازية لليهود أوروبا : مشكلة المصطلح - الهولوكوست (الإبادة) - المحرقة - الإبادة وتعنيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة - الأريون - تحول الإمكانية الإبادة إلى حقيقة تاريخية - السياق الحضاري الألماني للإبادة - النازية - الحضارة الغربية - السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة - السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة - الإبادة النازية للغير - مارتن هايدغر والشرية

الإبادة النازية لليهود أوروبا : مشكلة المصطلح

Nazi Extermination of Western Jewry :
The Problem of Terminology

يُستخدم مصطلح «الإبادة» في العصر الحديث ليدل على محاولة القضاء على أقلية أو طائفة أو شعب قضاء كاملاً . ويُطلق مصطلح «إبادة اليهود» (بالإنجليزية : إكستيرمينيشن أوف ذا جوز extermination of the Jews) في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص أساساً من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوروبية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) عن طريق تصفيتهم جسدياً (من خلال أفران الغاز) . وتُستخدم أيضاً كلمة «جينوسايد genocide» وهي من مقطعين «جينو» من الكلمة اللاتينية «جيناس genus» بمعنى «نوع» و«كايدس caedes» بمعنى «مذبحة» . وتُستخدم أيضاً عبارة «الحل النهائي» للإشارة إلى «المخطط» الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود ، أي تصفيتهم جسدياً . ويُشار إلى الإبادة في معظم الأحيان بكلمة «هولوكونست» وهي كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» (وتُترجم إلى العربية بكلمة «شواه» ، وتُترجم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة») . وكانت كلمة «هولوكونست» في الأصل مصطلحاً دينياً يهودياً يشير إلى القربان الذي يُضحي به للرب ، فلا يُسوى فقط بل يُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح ، ولا يُترك أي جزء منه لمن قدّم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على القربان المقدمة للرب . ولذلك ، كان الهولوكونست يُعدّ من أكثر الطقوس قداسة ، وكان يُقدّم تكفيراً عن جريمة الكبرياء . ومن ناحية أخرى ، كان الهولوكونست هو القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يُقدّموه .

ومن التعبير معرفة سر اختيار هذا المصطلح ، ولكن يمكننا أن نقول إن المقصود عموماً هو تشبيه الشعب اليهودي «بأنفريان المحروق أو المشوي وأنه حُرق لأنه أكثر الشعوب قداسة . كما أن النازيين ، باعتبارهم من الأغير ، يحقّ لهم التّهم بهذا التّهم . أو ربما وقع الاختيار على هذا المصطلح ليعني أن يهود غرب أوروبا أُحرقوا كقربان هولوكونست في عملية إبادة شرية ولم يبق منهم شيء ، فهي إبادة كلمة - بمعنى آخر - . ولكن حينئذٍ تستخدم الجماعات النازية - الأصولية (الخريفية) في الولايات المتحدة كلمة «هولوكونست» فهي تركز على جريمة الكبرياء ، إذ ترى أن الإبادة عقاب عادل حق لليهود بسبب صنعهم وعروهم وكبريتهم . ويُشار إلى الإبادة أحياناً «بـ» «خربان» وهي كلمة عبرية تُستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل» . فكان لشعب اليهودي هنا هو الهيكل . أو التّبيت الذي يحل فيه الإله ، والإبادة هي تهديم بيت الإله . وهذه الكلمة تُدخّل حدثاً الإبادة التاريخ اليهودي المقدّس . وفي الوقت نفسه ، تُستخدم كلمة «هولوكونست» في اللغات الأوروبية للإشارة إلى أية كرامة عظمى - يشير النصيحة ، على سبيل المثال ، إلى «الزوج المحنط» بين اليهودي بأنه «الهولوكونست الصامت» (بالإنجليزية : - سيلات هولوكونست - silent Holocaust) . وحينئذٍ يُصعّد الغرب من مقاومتهم للمستوطنين الصهاينة فإنهم - حسب المصطلح الصهيوني - يهددونهم بالهولوكونست . واستخدمت إحدى الصحف هذا المصطلح للإشارة إلى إحدى صفقات أسلحة أبراج بين ليبيا وفرنسا . كما استخدم أحد المتحدثين الصهاينة كلمة «هولوكونستي» وهي اسم صفة مشتق من هولوكونست فأنشأ إلى أحد الأفلام بأنه ليس «هولوكونستي Holocaust» بما فيه الكفاية . وهذا الاستخدام المستمر

الشاملة وتحبيد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة ، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان أو بين الألماني واليهودي ، وهو ما نسميه في مصطلحنا «الحوسلة» . أي تحويل كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان ، إلى وسيلة . ومن ثم فهناك فارق ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح في المجتمعات التقليدية ، إذ كانت المذابح تتم عادةً بشكل تلقائي غير منظم وغير منهجي وغير مخطط .

ويمكن في هذا المضمار أن نذكر «ليلة الزجاج المحطم» (بالألمانية : كريستال ناخت (Kristallnacht) حينما قامت الجماهير الألمانية في العديد من مدن ألمانيا بالهجوم على أعضاء الجماعات اليهودية . ويُقال إن الغضب الشعبي لم يكن تلقائياً وإنما تم تخطيطه من القيادات النازية التي كانت مجتمعة في ميونخ . كما أن إلقاء القبض على أعداد من اليهود بعد الحادث يدل على أن الأمر لم يكن تلقائياً تماماً .

ويصف بعض الدارسين ليلة الزجاج المحطم بأنها هجوم شعبي شبه منظم على اليهود (بوجروم) ، ولكن نظراً لضآلة عدد الضحايا ، لم يكن يوسع الدولة النازية أن تتخلص من ملايين اليهود باستخدام هذه الآلية البدائية التقليدية التي تعتمد على إثارة غضب الجماهير . ولذا ، كان لابد من اللجوء إلى آليات أخرى أكثر حداثة ، ووجد النازيون ضالتهم في مؤسسات الدولة الحديثة مثل التكنولوجيا المتقدمة التي تمتلكها ، وأجهزة الإعلام التابعة لها ، وأساليب الإدارة الحديثة الرشيدة . ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن الدولة النازية ما كان يوسعها أن تحقق غرضها بهذه السرعة وبهذه الكفاءة بدون هذه الآليات المتقدمة !

ونستخدم في هذه الموسوعة مصطلح «الإبادة النازية لليهود أوروبا» ، وهو - في تصوّرنا - مصطلح أكثر تفسيرية وحياداً من المصطلحات المستخدمة في اللغات الأوروبية والعبرية ، فكلّمنا «هولوكوست» و«شوا» تحمّلان إحياءات دينية . ومصطلح «الحل النهائي» يحدد مجاله الدلالي بشكل قاطع لا يتفق مع مضمون الحقيقتي . أما مصطلحنا فقد حدّد الظاهرة النازية من حيث هي ظاهرة أوروبية داخل سياق التاريخ الألماني والأوروبي ، ومن حيث هي ظاهرة لم تحدث في سياق التاريخ العالمي . كما أنها تُضمر الإشارة للإبادة النازية للأقليات والشعوب الأخرى .

وكلمة «إبادة» كما نستخدمها لا تعني بالضرورة التصفية الجسدية ، وإنما تعني «استئصال شأفة اليهود» بجميع الطرق وضمنها

والممجوع للمصطلح يؤدي إلى نتائج كوميدية أحياناً . إذ تساءل أحد دعاة حماية البيئة في نبرة جادة قائلاً : «كيف يمكن أن نستنكر الهولوكوست ضد اليهود ، ونحن نذبح ستة مليون دجاجة يومياً؟» ، أي أنه مساوئ بذلك بين الطبيعي والإنساني ، وبين الدجاجة واليهودي ، ودفع بالنموذج العلماني الشامل إلى نتيجته المنطقية وأطلق استنكاره هذا .

ويتيم في الوقت الحاضر الاتجار بالهولوكوست وتوظيفها بشكل مجروح لخدمة الأهداف الصهيونية والتجارية . وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات المشتقة من كلمة «هولوكوست» والتي تُعبّر عن الاستياء العميق من عملية التوظيف هذه . ففتح أحد الكُتّاب كلمة «هولوكيش» Holokitsch لوصف الكُتب والأفلام عن موضوع الهولوكوست والتي تُنتج وتُشتر بهدف تحقيق الربح ، حيث إنها تحاول إثارة العواطف واستغلالها على أسوأ وجه . وكلمة «كيش» في اللغة الألمانية تعني الأعمال الفنية الشعبية الرديئة . كما ظهرت عبارة «هولوكوست بيزنس Holocaust business» أي «مشروع الهولوكوست التجاري» ، بمعنى توظيف الهولوكوست تجارياً لتحقيق الأرباح العالية . ومن العبارات الأخرى المتواترة عبارة «هولوكوست مانيا Holocaust mania» ، أي «الإنشغال الجنوني أو المرضي بالإبادة» .

ومن المعروف أن هناك عدة شعوب قامت من قبل بإبادة شعوب أخرى أو على الأقل إبادة أعداد كبيرة منها . ووردت في العهد القديم أوامر عديدة بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم . ولكن من الثابت تاريخياً أن العبرانيين والكنعانيين تزاوجوا ، وأن معظم ادعاءات الإبادة قد تكون من قبيل التهويلات التي تتواتر في كثير من الوثائق القديمة أو تكون ذات طابع مجازي . وربما يكون قد تم فعلاً إبادة سكان مدينة أو اثنتين ، لكن هذا لم يكن النمط السائد نظراً لتدني المستوى العسكري لدى العبرانيين ، كما أن استيطان العبرانيين لم يتم عن طريق الغزو دفعة واحدة وإنما عن طريق التسلل أيضاً . ويستند الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الغربي إلى الإبادة ، فهذا ما فعله سكان أمريكا الشمالية البيض بالسكان الأصليين . وهي عملية استمرت حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وفي تصوّرنا أن ما يميّز تجربة الإبادة النازية عن التجارب السابقة أنها تمت بشكل واع ومخطط ومنظم وشامل ومنهجي ومحديد ، عن طريق استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة تماماً ، منفصلة عن القيمة) . وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيح والعلمنة

ويمكننا القول بأن ثمة عناصر تسم التشكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالاً كامناً فيه وليست مجرد مسألة عَرَضِيَّة، وولدت داخله استعداداً لتتخلص من العناصر غير المرغوب فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطط . وتحققت هذه الإمكانية بشكل غير متبلور في لحظات متفرقة ، ثم تحققت بشكل شبه كامل في اللحظة النازية النماذجية . وقد قام الإنسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة لا رغم حضارته الغربية وحداثته ، وإنما بسببها .

ولكن قبل أن نتوجه لنقضية النزعة الإبادة في الحضارة الغربية ، لابد أن نشير إلى وضع اليهود داخل الحضارة الغربية حتى عصر النهضة . فالمسيحية الغربية لم تُطَوِّرْ مفهوماً واضحاً خاصاً بالأقليات في المجتمع الغربي ولم تُشَرِّعْ لهم ولم تعدد وضعهم . نقانوني ، واكتفت بمفهوم المحبة إطاراً عاماً . وقد صُنِّفَت الكاثوليكية الغربية اليهود باعتبارهم شعباً شاعداً ، يفت في تدينه وضعته «شاهداً» على عظمة الكنيسة وانتصارها . ولم يكن الأمر مختلفاً كثيراً على المستويين الاجتماعي والاقتصادي . حيث تحولَّ اليهود إلى جماعة وظيفية ، وهي جماعة تُعرَّف في ضوء وظيفتها وفدنتها ونفعها (فهي مادة استعمارية) لا قداسة لها . وهذه الرؤية تعني «حوسلة» اليهود ، ولكنها في الوقت نفسه تعني ضرورة الحفاظ عليهم وحنانيتهم من الهجمات الشعبية . فكنيسة الكاثوليكية كانت تحتاج إلى هذا الشاهد الأتلي على عظمتها . كما أن الضيقات الحاركة (النبلاء الإقطاعيون والملوك) كانت في حجة إلى اليهود كأداة طيبة من أدوات الاستغلال وامتصاص فائض القيمة من الجماهير (كان يُطلق على اليهود كلمة «الإسفنج» ، لأنهم يمتصون فائض القيمة من الجماهير ثم يقوم الحاكم الإقطاعي باعتصار ما جمعو من ثروة من خلال الضرائب) . ولذا ، وعلى عكس ما يتصور البعض ، كان العداء لليهود حركة شعبية موجهة ضد انطبقات الحاركة وضد الكنيسة مُعْتَلِّين في الرمز المحسوس للبشر اليهود ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ومعها النبلاء هم حدة اليهود .

وتغيَّرَ انوضع مع ظهور عصر النهضة وبداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث بشكل جوهري . إذ ظهرت البروتستانتية التي رفضت فكرة الشعب الشاهد ولكنها تبنت بدلاً منها العقيدة الأتلية الاسترجاعية التي ترى أن المسيح سيعود مرة أخرى للأرض ويؤسس مملكته على الأرض لمدة ألف عام ، وكان كل هذا مشروطاً بعودة اليهود إلى أرض الميعاد وتصبحهم . فكان اليهودي ظل مجرد أداة (كما هو اخان في الرؤية الكاثوليكية) ولكنه أداة لا يتم الحفاظ عليها

التهجير القسري (الترانسفير) وغيره من الطرق . ولذلك فنحن نشير أحياناً «للإبادة بالمعنى الخاص والمحدد للكلمة» ، أي «التصفية الجسدية المتعمدة» ، كما نشير «للإبادة بالمعنى العام للكلمة» وهي عملية «إبادة اليهود من خلال التهجير والتجويع وأعمال السخرة ، وأخيراً التصفية الجسدية المتعمدة» . ويمكننا هنا أن نقتبس كلمات أحد أهم خبراء الإبادة في التاريخ ، أي الزعيم النازي أدولف هتلر . فقد عبَّرَ عن إعجابه بإبادة الهنود الحمر (على يد المستوطنين البيض) عن «طريق التجويع أو القتل غير المكافئ» . (انظر : «إشكالية الحل النهائي ومؤثر فانس») . كما أننا لن نهمل ما نسميه «اختفاء اليهود» من خلال عوامل طبيعية مختلفة تقع خارج نطاق الإبادة النازية ، بالمعنى العام أو الخاص (انظر : «موت الشعب اليهودي») .

الهولوكوست (الإبادة)

Holocaust (Extermination)

«هولوكوست» كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» وهي بالعبرية «شواه» ، وتُرجَم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة» . وتُستخدَم كلمة «هولوكوست» في العصر الحديث عادة للإشارة إلى إبادة اليهود ، بمعنى تصفيتهم جسدياً ، على يد النازيين .

المحرقة

Shoah

«المحرقة» ترجمة عربية للمصطلح العبري «شواه» ، وهو بدوره ترجمة للمصطلح اليوناني «هولوكوست» . ويُستخدَم المصطلح للإشارة إلى الإبادة النازية لليهود .

الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة

Extermination and Deconstruction of Man as a Potentiality in Modern Western Civilization

لابد أن نؤكد ابتداءً أن التحولات الاقتصادية والسياسية في أي مجتمع لا تتم في فراغ مهما يكن مستوى هذه التحولات عمقاً أو ضحالة . فالمناخ الفكري والثقافي والنفسى يساعد على تحقيق بعض الإمكانيات الكامنة في الواقع المادي وإجهاض البعض الآخر ، وعلى تحديد المسار النهائي لهذا الواقع إلى حد كبير . وتبني ألمانيا النازية لسلح الإبادة كوسيلة لحل بعض المشاكل التي واجهها المجتمع الألماني لم يكن لينبع من الاعتبارات الاقتصادية أو السياسية وحدها ، فهو أمر مرتبط تماماً بإطار ثقافي وحضاري ونفسي أوسع .

منفصلة عن المرجعية والغائية والمعيارية الإنسانية (وهذه هي العلامة الشاملة) .

وفي هذا الإطار ظهرت الأخلاق النفعية المادية التي تُعني الإنسان من المسئولية الأخلاقية ، فهي مستمدة من الطبيعة/المادة ومن قوانينها المتجاوزة للعواطف والغايات والأخلاقيات الإنسانية. ومن ثم تحرّر الإنسان الغربي من أية مفاهيم متجاوزة مثل مفهوم «الإنسان ككل» أو «الإنسانية جمعاء» أو «صالح الإنسانية» ، كما تحرر من القيم المطلقة مثل «مستقبل البشرية» و «المساواة» و«العدل» ، وجعل من نفسه المركز والطلق المنفصل تماماً عن كل القيم والغايات الإنسانية العامة ، وأصبح هو نفسه تجسيداً لقانون الطبيعة ولحركة المادة وتحول إلى مرجعية ذاته ، وقانون ذاته ، ومعيارية ذاته ، وغائية ذاته ، ومن ثم أصبح من حقه أن يحوسل العالم كله وجميع شعوب الأرض لخدمة صالحه كما عرفه هو . وبذا تحوّل الإنسانية (الهيومانية) الغربية إلى إمبريالية وأداتية ثم إلى عنصرية ، وانقسم البشر إلى سوربرمن supermen وإمبرياليين يتحكمون في كل البشر والطبيعة ، وإلى سبمرن subermen دون البشر أداتيين بذعنون لإرادة السوربرمن ولقوانين الطبيعة والمادة . وهذا ما نسميه «النفعية الداروينية» وهي المنظومة التي تذهب إلى أن من يملك القوة له «الحق» في أن يوظف الآخرين لخدمة مصالحه ، مستخدماً في ذلك آخر المناهج العلمية وأحدث الوسائل التكنولوجية ، متجرداً من أية عواطف أو أخلاق أو أحاسيس كلية أو إنسانية باعتبار أن الإنسان إن هو إلا مادة في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، ومن ثم فمثل هذه الأحاسيس هي مجرد أحاسيس ميتافيزيقية أو قيم نسبية مرتبطة بالزمان والمكان ، وليس لها أية ثبات أو عالمية .

وتبدّيت مادية هذه المنظومة وواحدتها في عدد من المصطلحات التي حققت قدراً من الذبوع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين أخذت المنظومة في التبلور وحينما تحدت معالم المشروع الإمبريالي الغربي والنظرية العرقية الغربية . ومن أهم هذه المصطلحات ، من منظور هذه الدراسة ، ما يلي : «المادة البشرية» (بالإنجليزية : هيومان ماتيريال human material) - «الفائض البشري» (بالإنجليزية : هيومان سيربلاس human surplus) - «مادة استعمالية» (بالإنجليزية : يوسفول ماتر useful matter) . فكان يُشار إلى البشر باعتبارهم «مادة بشرية» يمكن توظيفها ، أما من لا يمكن توظيفه فكان يُشار إليه باعتباره «مادة بشرية فائضة» (وأحياناً «غير نافعة») . وهذه المادة الفائضة كان لابد وأن تُخضع لشكل من أشكال المعالجة ، فكانت إما أن تُصدّر (ترانسفير) أو تُعاد صياغتها أو تُبادل

وإنما لابد من نقلها (ترانسفير) إلى فلسطين وتذويبها في المنظومة المسيحية . وتزامن هذا مع ظهور البورجوازيات المحلية والدولة القومية التي اضطلعت بكثير من وظائف الجماعة الوظيفية اليهودية التي لم يعد لها نفع . ولذا ، كانت المسألة اليهودية في أوروبا تُناقش في إطار مدى نفع اليهود ، فكان أعداء اليهود يبنون أنهم لا فائدة لهم ، أما المدافعون عنهم (ومنهم المتحدّثون باسم اليهود) فكانوا يركزون على «فائدة» اليهود ونفعهم . وطُرح تصور مفاده أنه يجب زيادة حقوق اليهود زيادة طردية مع زيادة نفعهم ، فإن زاد الواحد زاد الآخر (وهو ما يعني أن تُناقض نفعهم يعني تقاوم مشاكلهم) . وقد قُسم اليهود إلى أقسام مختلفة تم تنظيمها بشكل هرمي . ففي أعلى الهرم كان يوجد أكثر اليهود نفعاً ، وهؤلاء كانوا يتمتعون بكافة الحقوق التي يتمتع بها أي مواطن ألماني ، وفي قاعدة الهرم كان يوجد اليهود غير النافعين الذين لا يتمتعون بأية حقوق ولذا كانوا يُصنّفون ضمن من يجب التخلص منه وذلك بشرحيلهم (بالإنجليزية : ديسبوزابل ترانسفيرابل disposable transferable) .

وساهمت كل هذه العناصر ولا شك في خلق الاستعداد الكامن والتربة الخصبة والتبادل الاختياري (بالإنجليزية : اليكتيف أفيينتي elective affinity في مصطلح ماكس فيبر) بين الحضارة الغربية وعملية إبادة اليهود . ولكن العنصر الحاسم - في تصورنا - في ظهور النزعة الإبادة (ضد اليهود وغيرهم من الأقليات والجماعات والشعوب) هو الرؤية الغربية الحديثة للكون . وهي رؤية يمكن وصفها بإيجاز شديد بأنها رؤية مادية وحادية (حلولية كمونية) تعود جذورها إلى عصر النهضة في الغرب . وقد اتسع نطاقها وازدادت هيمنتها إلى أن أصبحت هي النموذج التفسيري الحاكم مع منتصف القرن التاسع عشر ، عصر الإمبريالية والداروينية والعنصرية . وقد بدأت هذه الرؤية بمرحلة إنسانية هيومانية وضعت الإنسان في مركز الكون وتبنت منظومات أخلاقية مطلقة ، تنبع من الإيمان بالإنسان باعتباره كائناً مختلفاً عن الطبيعة/المادة ، سابقاً عليها ، له معيارته ومرجعياته وغاياته الإنسانية المستقلة عنها (وهذا شكل من أشكال العلمانية الجزئية) . ولكن هذه الرؤية الإنسانية المادية تطورت من خلال منطق النسق المادي الذي يساوي بين الإنسان والطبيعة ومن خلال تصاعد معدلات الحلولية والعلمنة وانفصال كثير من مجالات النشاط الإنساني (الاقتصاد - السياسة - الفلسفة - العلم) عن المعيارية والمرجعية والغائية الإنسانية إلى أن فقد الإنسان مركزيته ومطلقته وأسبقيته على الطبيعة/المادة وتحوّل إلى جزء لا يتجزأ منها وأصبح هو الآخر مادة ،

فشلت معها كل الحلول السابقة . وترد هذه المصطلحات (وغيرها) في كتابات مفكري العصرية الغربية مثل ماكس نوردو (قبل اعتناقه الصهيونية) وفي الأدبيات النازية (كان أبحمان يشير إلى اليهود المرحلين إلى فلسطين باعتبارهم « من أفضل المواد البيولوجية ») . وفي الأدبيات الصهيونية (كتاب هرتزل دولة اليهود) . ولناحظ أن كل المصطلحات تُضمّر البُعدين الإمبريالي والأداتي ، الدارويني والبرجماني ، فالإنسان مادة تُوظَّف ، مجرد موضوع ، ولكن هناك أيضاً من يُوظَّف ، فهو ذات نشطة فعالة . لكن كلاً من الذات الإمبريالية والموضوع الأداتي يدوران في إطار الرؤية المادية الواحدة . فالسوبرمن والسبمن يتنميان إلى عالم وثني حلولي كموني .

ولا يزال هذا هو المفهوم السائد للنفس البشرية ، رغم توري المصطلحات التي تُعبّر عن المفهوم بشكل متبلور . ومع هذا يُفصح النموذج عن نفسه بشكل فاضح ، وتعاود المصطلحات الشفافة الظهور . ففي عام ١٩٩٦ تكشف فضيحة تخلي حكومة الولايات المتحدة عن بعض عملائها من الفيتناميين عن تم تجنيدهم ليعملوا كجواسيس لحسابها . ومن قبضت عليهم المقاومة الفيتنامية ، إذ أنها بدلاً من أن تحاول العمل على الإفراج عنهم ، أثرت الراحة وأعلنت أنهم لا قوا حتفهم حتى يُعلّق ملفهم تماماً ولا تُصدع رأسها . وقد برّر أحد الجنرالات الأمريكيين موقف حكومته بقوله إن هؤلاء العملاء أصبحوا بعد القبض عليهم مجرد « ممتلكات لا قيمة لها » (بالإنجليزية : أن فايايل أستس unviable assets) ، أي مادة بشرية فائضة لم يعد لها نفع بالنسبة للسوبرمان الذي قام باستخدامها .

وهذه هي النواة المعرفية والأخلاقية الأساسية للحضارة الغربية الحديثة . وهي نواة تمت وترعرعت وعبرت عن نفسها من خلال ثنائية الإمبريالي والأداتي ، والسوبرمان والسبمان ، فتزايدت معدلات اليقين العلمية من ناحية ، الأمر الذي أدّى إلى تزايد إحساس الإنسان الغربي بذاته وبقوة إرادته ومقدرته على البطش (خصوصاً بين النخبة الإمبريالية الحاكمة) . كما تزايدت في الوقت نفسه معدلات النسبة المعرفية والأخلاقية ، الأمر الذي أدّى إلى ضمور حس الإنسان الغربي الخُلقي وضمور قدرته على اتخاذ القرار ، كما عمّقت قابليته للإذعان للقانون الموضوعي العام المجرد (الإنساني) كقيمة مطلقة لا بد من العمل بمقتضاها والسير بهديها دون تساؤل (خصوصاً بين الجماهير) .

وسنورد فيما يلي بعض العناصر التي ساعدت على تعميق هذا الاتجاه العام في الحضارة الغربية . وتجدر ملاحظة أن كثيراً من العناصر التي سنوردها قد يكون لها وجهان أحدهما إمبريالي

(بالنسبة للسوبرمن) والآخر أداتي (بالنسبة للسبمن) ، فالوجهان متداخلان ، وإن كان هناك من يُوظَّف فلا بد أن يوجد من يُوظَّف :
١ - تصاعدت معدلات المسيحية (أو المهدوية) العلمية أو العلمية . أي التبشير بأن التراكم المعرفي العلمي والتقدم التكنولوجي والتنظيم التكنوقراطي الدقيق (المنفصل عن القيمة) سيجعل الإنسان قادراً على التحكم في ذاته وفي واقعه تماماً ، وعلى التوصل إلى الحلول النهائية لمشاكله كافة (الاقتصادية والسياسية والفلسفية والنفسية) ، وإلى فرض هذه الحلول النهائية المجردة العلمية الدقيقة (المستعدة من عالم الطبيعة/ المادة البسيطة) على الواقع الاجتماعي والإنساني ، فينخلص الإنسان من مشاكله (دفعة واحدة أو تدريجياً) ويستأصل كل ما يقع خارج حدود الحل النهائي أو يعوقه عن التحقق أو يعوق ظهور الإنسان الجديد الكامل (الذي يختلف عن الإنسان كما نعرفه) . فهذا الإنسان الكامل يتحكم في نفسه تماماً ، ويرمجها ، أو يمكن برمجته . ومن هنا ظهر الاهتمام بعلوم جديدة مثل تحسين النسل (والهندسة الوراثية) . ومن هنا العداء الشديد للشهوات الخلقية وللأمراض النفسية ، بل فكرة المرض نفسها باعتبارها تعبيراً عن الانحراف عن المعيار الطبواوي النهائي . ولكن حينما يُهيم هذا المعيار يتم تأسيس الفردوس الأرضي ، النيوتوبيا التكنولوجية التكنوقراطية ، دولة النعيم المقيم في الأرض المؤسس على العلم والتكنولوجيا ، وتُعلن نهاية التاريخ والإنسان كما نعرفه . وهذا الحل النهائي سيعفي الإنسان من مسئولية الاختيار الأخلاقي إذ أن كل شيء سيكون مخططاً مبرمجاً ، خاضعاً لهندسة اجتماعية صارمة ، وتحت السيطرة السياسية والتكنوقراطية الكاملة . ولنا أن نلاحظ أنه سيكون هناك دائماً نخبة من السوبرمن تقرر طبيعة الحل أو البرنامج النهائي ومتى يمكن إعلان نهاية التاريخ وكيفية اتخاذ الإجراءات اللازمة للوصول لتلك اللحظة ، وإلى جانب النخبة ستوجد قاعدة عريضة من السبمن يُدفع بها دفعاً نحو النيوتوبيا .
٢ - ظهور أيديولوجيات علمانية شاملة (مثل الماركسية أو الاشتراكية العلمية والفاشية والنازية) ذات طابع مشيخاني قوي وذات رؤية خلاصية تدور حول مطلق علماني مادي شامل ، وتنطلق من الإيمان بالعلم والتكنولوجيا والتنظيم . هذا لا يعني أن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى ترفض العلم مصدراً وحيداً للوصول إلى المعرفة ولتوليد القيم فهذا هو إطارها المرجعي الوحيد ، ولكن ما يحدث مع أيديولوجيات مثل النازية والماركسية (في نزعتها الستالينية) أن منطق العلمانية الشاملة يُعبّر عن نفسه بشكل كامل يتسم بدرجة عالية من التبلور ، خصوصاً حينما يساند جهاز الدولة المركزية الحديثة .

صُنِّفَ أعضاء الأجناس الأدنى باعتبارهم غير نافعين من منظور المطلق العرقي (الشعب العضوي) لأنهم خطر على تماسك الشعب (أو العرق) وعلى تجانسه ، وعدم التماسك يؤدي المصلحة العليا للدولة لأن التماسك يؤدي إلى زيادة الكفاءة الإنتاجية ، وإلى زيادة قوة الدولة في مقدراتها على البقاء والانتشار والهيمنة .

٤ - مع تصاعد معدلات العلمنة ظهرت كذلك فكرة القولك أو الشعب العضوي الذي تربطه بأرضه وثقافته رابطة عضوية حتمية لا تنفصم عراها ، وهنا تحل الرابطة الإنثنية محل الرابطة العرقية ، ولكنها لا تختلف عنها في كمونيتها وحتميتها وفي تحولها إلى أساس تأكيد التفاوت بين الشعوب . ويُلاحظ أن الشعب العضوي باعتباره قيمة مطلقة ومرجعية ذاته يتجاوز كل القيم ، ولكن صفة المطلق هنا لا تسحب على الإنسان باعتباره فرداً قادراً على الاختيار الأخلاقي الحر وإنما على مجموعة من البشر لها سماتها الجماعية ومصالحها المشتركة وحقوقها المطلقة !

٥ - تزايدت معدلات النسبة المعرفية ، فعالم الطبيعة/المادة هو عالم حركي لا ثبات فيه ولا حدود ، بحيث أصبح الإنسان يشك في وجود أية حقيقة يقينية . وهذا الشك لا ينصرف إلى الحقيقة وحسب وإنما إلى الموضوع ثم إلى الذات . وقد انتهى الأمر بالفلسفة الغربية إلى إنكار الكليات والميتافيزيقا وظهرت الفلسفة المعادية للفلسفة والميتافيزيقا وأي شكل من أشكال الثبات ، بما في ذلك ثبات الطبيعة البشرية . وهي فلسفة النسبية المعرفية الكاملة التي تصل إلى حالة من السيولة الكاملة وتنكر الذات والموضوع والمركز ومفهوم الطبيعة البشرية وإمكانية المعرفة والأخلاق وأي شكل من أشكال المعيارية (ما بعد الحدائة) . ورغم أن النازية تسبق ظهور ما بعد الحدائة بعدة أجيال إلا أن كثيراً من العناصر التي أدت إلى ظهور ما بعد الحدائة كانت قد تشكلت وتبلورت وكانت الفلسفة الغربية قد دخلت عصر السيولة . ولعله ليس من قبيل الصدفة أن هايدجر ، بنزعه النيتشوية ، والذي خرجت ما بعد الحدائة من تحت عباءته ، أيد النازية بلا تحفظ ، وكان النازيون يعتبرونه فيلسوفهم .

٦ - تزايد معدل انفصال الحقائق والعلم الطبيعي عن القيمة ، والتجريب عن العقل ، بحيث أصبح التجريب ، المنفصل عن أية غايات إنسانية أو أخلاقية ، هدفاً في حد ذاته . وترجم هذا نفسه إلى ما يُسمى العلم المحايد ، المتجرد تماماً من القيمة . ولكن هناك دائماً من يقرر القيمة ونوعية التجارب التي ستجرى .

٧ - تعاظمت قوة الدولة المركزية وهيمنتها وتحويلها ذاتها إلى مطلق ، ومن ثم أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية (ظالة كانت أم

٣ - مع تزايد معدلات العلمنة الشاملة ، لم يعد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني (متجاوز للقوانين الطبيعية/المادية) ، فلم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامن (حال) فيهم ، وليس مفارقاً لهم . ولهذا ، طُرِحَ الأساس البيولوجي العرقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيفهم . وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية أخرى شبه علمية وهي الداروينية الاجتماعية ، وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الدارويني . وتقسّم هذه النظرية الجنس البشري بأسره إلى أعراق لكل منها سماته التي يمكن تحديدها علمياً . ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عليا : الآريون وبخاصة النورديون ، وأعراق دنيا : الزنوج والعرب واليهود . وتنفوق العنصر الآري الأبيض على كل الشعوب الأخرى يعطيه حقوقاً مطلقة كثيرة تتجاوز أية منظومات قيمة وأي حديث عن المساواة . وكنمة «آريان Aryan» ، أي «آري» ، مشتقة من اللغة السنسكريتية ومعناها «سيد» . وقد استُخدم المصطلح في بداية الأمر للإشارة إلى مجموعة من اللغات الإيرانية ثم الهندية الأوروبية ، إذ طرح العالم الألماني ماكس مولر (١٨٢٣ - ١٩٠٠) نظرية مفادها أن هناك جنساً يُسمى «آرياس» كان يتحدث اللغة الهندية الأوروبية التي تفرعت عنها اللغات الهندية الأوروبية الأخرى جميعاً ابتداءً بالهندوستانية وانتهاءً بالإنجليزية . كما استُخدم المصطلح للإشارة إلى الشعوب الهندية الأوروبية التي انتشرت في جنوب آسيا وشمال الهند في العصور القديمة . وكان جوزيف جوبينو (١٨١٦ - ١٨٨٢) من أهم المفكرين الذين أشاعوا هذه الفكرة ، فكان عادةً ما يضع الآريين مقابل الساميين ، وكان ثمة ترادف مُفترَض بين الآرية والهيلينية مقابل السامية .

وقام المفكرون العرقيون الغربيون بتطوير المفهوم فذهبوا إلى أن هذا الجنس الآري انتشر من شمال الهند وإيران عبر الإستبس ، إلى أوروبا ، وهو جنس يتسم - حسب نظريتهم - بالجمال والذكاء والشجاعة وعمق التفكير والمقدرة على التنظيم السياسي ، وبأنه المؤسس الحقيقي للحضارة وتتفوقه على الساميين والصفير والسود . ونبه هيوستون ستيموارت تشامبرلين (١٨٥٥ - ١٩٢٧) إلى أن النورديين هم أرقى الآريين ، فهم الجنس السيد ، أما اليهود والسود والعرب فيشغلون أدنى درجات السلم العرقي . بينما ذهب دعاة النظرية العرقية إلى أن التزاوج بين أعضاء الأجناس المختلفة يؤدي إلى تدهور العرق الأسمى الذي يجب أن يحتفظ بنفسه قوياً نقياً حتى يضمن لنفسه البقاء والتماسك العضوي . وبطبيعة الحال ،

يصبح شيئاً له مواصفات محددة يمكن تقسيمه إلى أجزاء يمكن استبدال بعضها ، وينطبق هذا على البشر انطبقه على الأشياء . ويرى أورتيجا جاسيت أن عملية التجريد مرتبطة تمام الارتباط بعملية نزع الصبغة الإنسانية (بالإنجليزية : دي هيومانايزيشن dehumanization) .

وقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر . ولنضرب مثلاً من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة : تُنصَّب عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة ، كل وظيفة تُشكّل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب . ولأنها مجرد حلقة ، فهي محايدة تماماً ولا معنى لها ، إذ لا يوجد أي مضمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر . ومن ثم ، تظل النهاية الأخلاقية (حرق البشر وإبادتهم) بعيدة للغاية . والعامل أو الموظف المسئول عن هذه الحلقة سيبدل قصارى جهده في أداء عمله الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية ، ومن ثم تستمر الآلة الجهنمية في الدوران من خلال الحلقات والتروس ، ولا يتحمل أي شخص مسؤولية إبادة البشر ، إذ أن مسؤولية العامل أو الموظف مسؤولية فنية تكنوقراطية وليست مسؤولية أخلاقية .

١٣ - ومن المظاهر الأخرى للتجريد في المجتمع الحديث ممارسة العنف عن طريق مؤسسات متخصصة تقوم بتحقيق أهدافها بشكل مؤسسي رشيد (أي مقنن) ومنظم لا دخل فيه للعواطف . وعادة ما تتم عمليات التعذيب وغيرها من أعمال العنف بعيداً عن الناس في أطراف المدينة ، داخل مكاتب أنيقة تم تقسيمها بعناية فائقة . وعادة ما يتم التعذيب بأساليب علمية بحيث لا يترك أثراً على جسد الضحايا . وإن تم قتلهم فعادة ما يمكن التخلص من جثثهم بطريقة نظيفة عالية الكفاءة .

١٤ - تظهر عمليتا التجريد والترشيد في استجابة البشر للعنف والإبادة ، إذ تحل الحسابات الرشيدة محل الاستجابة التلقائية والعواطف بحيث يمكن للإنسان أن يكتب أية أحاسيس بالشفقة أو الانفعال الغريزي داخله أو الإحساس التلقائي المباشر ويحل محل ذلك كله قدر عال من الانضباط والتخطيط .

ويمكن القول بأن ما تم إنجازه في الحضارة الغربية الحديثة هو القضاء على الشخصية التقليدية ذات الولاء لمطلق خلقي ثابت يتجاوز عالم المادة والتاريخ (ومن ثم فهي شخصية تعيش في ثنائيات وتعددية) وحلّت محلها الشخصية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المادة ، التي لا ولاء عندها لأية ثوابت أو مطلقات والتي تحررت من أية قيم أو غايات ، فهي تعيش في عالم الواحدة المادية المعقم من القيم

مظلومة) مسألة لا تقبل النقاش ولا تخضع لأية معيارية ، والانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق هو الخيانة العظمى وعقوبتها الإعدام . ويُلاحظ أن مصطلحات مثل «مصلحة الدولة العليا» ليس لها مضمون أخلاقي ، وتقبلها يعني تقبل المجردات غير الإنسانية .

٨ - ظهرت مؤسسات بيروقراطية قوية (حكومية وغير حكومية) تولت كثيراً من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي ، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد الذي يعني تزايد ضمور الحس الخلقي وانكماش ما يُسمى «رقعة الحياة الخاصة» .

٩ - كانت هذه المؤسسات ترى نفسها ذاتاً مطلقة تُعبّر عن مصلحة الدولة (التي تُعبّر عن إرادة الشعب) وقد جعلت جل همها أن تنفذ المطلوب منها تنفيذها بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة ، دون أخذ أية اعتبارات خلّقية في الاعتبار .

١٠ - تزايدت معدلات الترشيح والتنميط والميكنة وهيمنة النماذج الكمية والبيروقراطية على المجتمع بكل ما ينجم عن ذلك من ترشيح للبيئة المادية والاجتماعية وترشيح للإنسان من خارجه وداخله .

١١ - تصاعد نفوذ مؤسسات الدولة المركزية « الأمنية » البرانية والجوانية وزادت مقدرتها على قمع الأفراد وتوجيههم « وإرشادهم » من الداخل والخارج . ورغم أهمية مؤسسات القمع المباشر البراني مثل المخابرات والبوليس السري ، إلا أن المؤسسات الأمنية الجوانية ، مثل المؤسسات التربوية والإعلام ، كانت تفوقها في الأهمية . فإذا كانت المؤسسات البرانية تقوم بتوجيه الفرد بغلظه من الخارج ، فالمؤسسات الثانية تقوم بترشيده من الداخل ببطء وبشكل روتيني يومي لا يشعر هو به حتى يصل به الأمر إلى تمثّل ، ثم استبطان ، رؤية الدولة تماماً ، فينظر إلى الواقع من خلال عيونها دون حاجة إلى قمع خارجي ، ويحيّد ذاته وحسه الخلقي ، ويصبح المجتمع أو الدولة أو العلم الطبيعي المصدر الوحيد للقيمة المطلقة ، وفي نهاية الأمر ينظر إلى نفسه باعتباره جزءاً من آلة كبرى ، وتصبح مهمته الأساسية ، وربما الوحيدة ، هي التكيف البرجماتي مع دوران الآلة .

١٢ - تزايدت معدلات التجريد في المجتمع ، ومن المعروف أن عمليتي التجريد والترشيح هما عمليتان متلازمتان ، إذ لا يمكن الترشيح دون تجريد ، أي نزع الصفات الخاصة عن الشيء والتركيّز على الصفات العامة فيه والتي تجمع بينه وبين الأشياء الأخرى حتى يتسنى استيعابه داخل الآلة الاجتماعية . ويؤدي التجريد إلى ابتعاد الواقع الحي بحيث لا يدركه المرء بشكل مباشر متعين له قيمة ، إذ

غابات فيتنام أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أو في معسكرات الاعتقال النازية .

وحتى إذا شعر الإنسان في أعماق أعماقه بلا أخلاقية القرار ، فسوف يكون قد تعلم من الآليات ما يجعله قادراً على إسكات حسه الخلقى . فالإنسان الحديث أصبح بوسعه ، بحسه العملي ، ومن خلال الحسابات الرشيدة والتسويق العلمي الموضوعي المحاييد الصارم والنسبية الكاملة التي تجعل الأمور متساوية ، تبرير أي شيء وقبول أي وضع ، فتمكن التضحية بالجزء في سبيل الكل ، والأقلية في سبيل الأغلبية ، والمرضى في سبيل الأصحاء ، والعجزة في سبيل الشباب . ومع سيطرة حب البقاء ، باعتبار أن البقاء قيمة مطلقة ، فإن الجميع يمكن أن يتعاونوا مع الدولة من قبيل تقليل الخسائر (إذ لا توجد قيم مطلقة أو مرجعية متجاوزة يمكن للفرد أن يؤمن بها ويموت من أجلها ويحكم البشر والأمم كافة من منظورها) . ثم تتكفل المؤسسات الإعلامية للدولة بتصفية كل ما تبقى من أحاسيس إنسانية أو أخلاقية "متخلفة" تشكل ثنائية لا تريد أن تختفي .

وبهذا المعنى يمكن القول بأن الحضارة الغربية الحديثة (في جانب هام من جوانبها) هي تعبير عن التراجع التدريجي والمستمر للفلسفة الإنسانية الهيومانية التي تؤكد استقلالية الإنسان عن الطبيعة/المادة ومقدرته على تجاوزها وعلى تطوير منظومات قيمية ومعرفية تضعه في مركز الكون . هذا التراجع يقابله تصاعد مستمر ومطرد للحلولية الكمونية المادية (أي الواحدية المادية أو وحدة الوجود المادية أو العلمانية الشاملة) التي تُهمش الإنسان ومنظوماته المعرفية والأخلاقية جميعاً وتُسوِّيه بالظواهر الطبيعية وترده إلى عناصره الأولية المادية ، أي تقوم بتفكيكه وتذويه تماماً في الطبيعة/المادة ، فتلغيه وتبيده ككائن له قيمة مطلقة ، مستقل عن قوانين الحركة الطبيعية/المادية .

وقد يكون من المفيد والطريف في الوقت نفسه أن نربط مصطلحي «الإبادة» (بالإنجليزية : إكسترمينيشن extermination) و«التفكيك» (بالإنجليزية : دي كونستراكتشن deconstruction) بمجموعة من المصطلحات الأخرى التي استخدمها علم الاجتماع الغربي لوصف بعض الجوانب السلبية للحداثة الغربية ، وكلها تفيد تهميش وتفكيك وتراجع وضمور وذبول وغياب الإنساني والأخلاقي لصالح ما هو غير إنساني ومحاييد ومتشئ :

- ١ - «دي سنترينج مان decentering man» أي «إزاحة الإنسان عن المركز» ، بمعنى «إفقاد الإنسان مركزته في الكون» .
- ٢ - «دي برسونا لايزيشن depersonalization» أي «إسقاط السمات الشخصية» .

المتجاوزة . هذه الشخصية يمكن أن تتبدى من خلال إمبريالية داروينية مليئة باليقينية العلمية توظف الكون (الطبيعة والإنسان) لصالحها ، ويمكن لها أن تتبدى من خلال إزعاج أداتي فتصبح شخصية غمطية تعاقدية برجمانية ذات بُعد واحد ، تستبطن غمماً النماذج السائدة في المجتمع والتي تروجها الأجهزة الأمنية للمجتمع وضمن ذلك الإعلام ، وهي شخصية نسبية هزيلة مهتزة لا تثق في ذاتها ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها ولذا يتحدد توجُّهها حسب ما يصدر لها من أوامر تأتي لها من عل ، ويتحدد ولاؤها استناداً إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مديناً وقومياً وعلمياً وموضوعياً (من خلال الجهات المسنولة واللجان المتخصصة والسوبرمن) ومن ثم يمكنها أن تطيع الأوامر البرانية وتنفذ التعليمات بدقة متناهية . وهي شخصية ذات عقل أداتي لا تفكر في الغايات وإنما في الوسائل والإجراءات وحسب ، وفي أحسن السبل لإنجاز ما أوكل لها من مهام دون تساؤل عن مضمونها الأخلاقي أو هدفها الإنساني .

وحينما ظهرت هذه الشخصية ، أصبح من الممكن أن تقرر الدولة وأعضاء النخبة إبادة عناصر غير ناعمة في المجتمع (الفائض البشري) أو في وطن آخر أو قارة بأسرها تشكل مجالاً حيواً للدولة صاحبة القرار . ولم يعد هذا جريمة إذ لا توجد قوانين مطلقة خارجة عن الدولة ، أو هي «جريمة قانونية مشروعة» ، إن صح القول ، تكتسب مشروعيتها من أن الدولة توافق عليها وتباركها ، بل تشجع عليها وتضرب على يد كل من يعارضها أو يحجم عن اقترافها .

وهناك على كل المؤسسات المتخصصة لتنفيذ الجريمة ، وهي مؤسسات بيروقراطية منفصلة عن القيمة ، تتجاوز الخير والشر ، ولا تسأل عن السبب وإنما عن الوسيلة (أي أنها ملتزمة بالترشيد الإجرائي وأخلاقيات الصيرورة) ، والعاملون في مثل هذه المؤسسات لا يتخذون قرار قتل الأطفال ، على سبيل المثال ، بأنفسهم ، ولا ينفذون جريمة القتل بأيديهم فاللجان المتخصصة التي تضم السوبرمن تجتمع على أعلى مستوى وتناقش المسألة بطريقة علمية وبيروقراطية وفي لغة محايدة وتتخذ القرارات في ضوء ما تراه هي الصالح العام . ثم يصدر الأمر في نهاية الأمر ، لا بالقتل أو التصفية الجسدية وإنما بالقيام بعمليات «التطهير العرقي» أو «الحل النهائي» أو خدمة «مصلحة الدولة العليا» . ثم يُقسَّم القرار إلى مئات التفاصيل التي يقوم بها آلاف الموظفين التنفيذيين من الجنود والعمال و«الفلاحين والمهنيين الذين لن يشعروا بهذا الطفل الذي سيقتل في

الآريون

Aryans

انظر : «الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنة في الحضارة الغربية الحديثة» .

تحول الإمكانية الإبادة إلى حقيقة تاريخية

Historical Realization of the Genocidal Potential

هذه القابلية أو الإمكانية الكامنة للإبادة ، ولتفكيك الإنسان لعناصره المادية الأساسية لاستخدامها على أكمل وجه ، تحققت أول ما تحققت بشكل جزئي وتدرجي في التجربة الاستعمارية الغربية بشقيا الاستيطاني والإمبريالي . فقد خرجت جيوش الدول الغربية الإمبريالية تحمل أسلحة الدمار والفتك والإبادة ، وحول الإنسان الغربي نفسه إلى سورمان له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر ، ومن أهمها حق الاستيلاء على العائد وتحويله إلى مجال حيوي لحركته ونشاطه وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام ، طبيعية أو بشرية . فاعتبرت شعوب آسيا وأفريقيا (النصفاء والنسوءاء المنخفضة) مجرد سبعم . مادة بشرية تُوظف في خدمته ، كما اعتبر العالم مجرد مادة طبيعية تُوظف في خدمة دول أوروبا وشعوبها البيضاء المتقدمة . واعتبرت الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي له يصدر له مشاكله . بل لم تفرق الرؤية المعرفية العنصرية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي ، فالجميع مادة بشرية ، نافعة أو غير نافعة ، ضرورية أو فائضة . فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة ، ومصدر ألقائض القيمة ، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة . وصُفَّ المجرمون (وفي مرحلة أخرى ، المعوقون والمسنون) مادة بشرية غير نافعة . وهذه المادة يجب أن «تعالج» ، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد «إخلاق الأخرى» إن استلزم الأمر) .

وكانت أولى عمليات «المعالجة» هي نقل الساخطين سياسياً ودينياً (البويرين) إلى أمريكا ، والمجرمين والفاشلين في تحقيق الحراك الاجتماعي في أوطانهم إلى أمريكا وأستراليا . وتبعها عمليات ترانسفير أخرى تهدف جميعاً إلى تحقيق صالح الإنسان الغربي :

- نقل سكان أفريقيا إلى الأمريكتين لتحويلهم إلى مادة استعمالية رخيصة .

- نقل جيوش أوروبا إلى كل أنحاء العالم ، وذلك للهيمنة عليها وتحويلها إلى مادة بشرية وطبيعية تُوظف لصالح الغرب .

٣ - «ديس انتشانتمنت أوف ذي ورلد» disenchantment of the world أي «تحرير العالم من سحره وجلاله» ، بمعنى أن يصبح العالم مادة محضة لا أسرار فيها ، يمكن للعقل الإحاطة بها ومعرفة قوانينها والتحكم فيها .

٤ - «دي سانكتيفيكيشن» desanctification أو «دي ساكرالايزيشن» desacralization أي «نزع القداسة عن الظواهر كافة [ومنها الإنسان] بحيث تصبح لا حرمة لها وينظر لها نظرة مادية لا علاقة لها بما وراء الطبيعة» .

٥ - «دي ميستيفيكيشن» demystification أي «نزع السر عن الظواهر [بما في ذلك الإنسان]» .

٦ - «دي نيودينج» denuding أي «تعريه كل الظواهر من أية مثاليات [ومنها الإنسان] حتى تظهر على حقيقتها المادية» .

٧ - «دي هيومانايزيشن» dehumanization أي «تجريد الإنسان من خصائصه الإنسانية» .

وهكذا تبدأ عملية العلمنة الشاملة (بعد المرحلة الإنسانية الهيومانية الأولى) بإزاحة الإنسان عن المركز ثم نزع الجوانب الشخصية عنه بحيث يصبح شيئاً ليست له خصوصية أو تفرّد . ثم «يُحرّر» العالم من سحره وجماله فيصبح الإنسان والطبيعة مادة محضة ، ثم تنزع عنه كل قداسة وتُهلك كل أسرارها ، ويُعرى من أية مثاليات لنصل إلى نوع من أنواع الإبادة الأخلاقية المعرفية إذ يصبح الإنسان لحماً يُوظف في مزارع البيض في الجنوب الأمريكي أو مصانع الرأسماليين في لندن أو يُرسل إلى معسكرات السخرة والإبادة في ألمانيا أو يُصور في مجلات إباحية في كل أو أي مكان . والمحصلة النهائية لكل هذا هي نزع الصفة الإنسانية عن الإنسان وتحويله إلى مادة محضة ، قابلة للحوسلة . وهذه هي قمة العلمنة الشاملة والتفكيك الكامل .

ونحن نربط كل هذه المصطلحات وغيرها بمصطلح «نهاية التاريخ» باعتبار أن نهاية التاريخ هي النقطة التي يتم التحكم فيها في كل شيء وينتهي الإنسان كما نعرفه ، أي الإنسان الذي يشغل مركز الكون متجاوزاً النظام الطبيعي .

ونحن لا نزع أن الرؤية الواحدة المادية تؤدي حتماً وبشكل مطلق إلى الإبادة والتفكيكية . كل ما نؤكد أن مثل هذه الرؤية تخلق التربة الخصبة لانتشار الآراء النفعية الداروينية المادية التي تترعرع فيها الاتجاهات والأفكار الإبادة والتفكيكية وتحقق .

، ولا علاقة لها بأية معيارية . ولكن لتركز على التجربة الاستيطانية الغربية في جميع أنحاء العالم ، خصوصاً في أمريكا الشمالية ، وهي تجربة كانت تفرض ضرورة إبادة تلك العناصر البشرية الثابتة التي كانت تقف عقبة كأداء في طريق الإنسان الغربي وتحقيق مشروعه الإمبريالي . وقد قبلت الجماهير الأوروبية عملية الإبادة الإمبريالية وساهمت فيها بحماس شديد ، لأن هذه العملية كانت تخدم مصالحها ، كما أوهمتها الدول الإمبريالية ذات القبضة الحديدية في الداخل والخارج .

وتعدُّ العقيدة البيوريتانية (أو التطهيرية) ، عقيدة المستوطنين البيض في أمريكا الشمالية ، هي أولى الأيديولوجيات الإمبريالية الإبادة التي كانت تغطيها ديباجات دينية كثيفة . فكان هؤلاء المتطهرون يشيرون إلى هذا الوطن الجديد باعتباره «صهيون الجديدة» أو «الأرض العذراء» فهي «أرض بلا شعب» . وكان المستوطنون يشيرون إلى أنفسهم باعتبارهم «عبرانيين» ، ولل سكان الأصليين باعتبارهم «كنعانيين» أو «عماليق» (وكلمها مصطلحات توراتية إبادة ، استخدمها معظم المستوطنين البيض فيما بعد في كل أرجاء العالم متجاهلين تماماً القيم المسيحية المطلقة مثل المحبة والإخاء) .

وكان كل هذا يعني في واقع الأمر إبادة السكان الأصليين حتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة ! وقد تم إنجاز هذا من خلال القتل المباشر ، أو نقل الأمراض المختلفة (كأن تُترك أعطية مصابة بالجذري كي يأخذها الهنود فينتشر الوباء بينهم ويتم إبادتهم تماماً) . وكانت الحكومة البريطانية في عصر الملك جورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله . واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادة بعد استقلال أمريكا ، بل تصاعدت بعد عام ١٨٣٠ حين أصدر الرئيس جاكسون قانون ترحيل الهنود ، والذي تم بمقتضاه تجميع خمسين ألفاً من هنود الشيروكي من جورجيا وترحيلهم (ترانسفير) أثناء فصل الشتاء سيراً على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصَّص لهم في أوكلاهوما . وقد مات أغلبهم في الطريق (وهذا شكل من أشكال الإبادة عن طريق التهجير [ترانسفير] ، فهو شكلاً ترانسفير من مكان لآخر ولكنه فعلاً ترانسفير من هذا العالم للعالم الآخر) . ووصلت العملية الإبادة إلى قمته في معركة ونديدي Wounded Knee (الركبة الجريحة) عام ١٨٩٠ . وكانت الثمرة النهائية لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبق سوى نصف مليون من مجموع السكان الأصليين الذي كان يُقدر بنحو ٦,٥ مليون عام ١٥٠٠ لدى وصول الإنسان الأبيض ، أي أنه تمت إبادة ستة مليون مواطن أصلي (وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه

- نقل الفاضل البشري من أوروبا إلى جيوب استيطانية غربية في كل أنحاء العالم ، لتكون ركائز للجيش الغربية والحضارة الغربية (فيما يُعدُّ أكبر حركة هجرة في التاريخ) .

- نقل كثير من أعضاء الأقليات إلى بلاد أخرى (الصينيين إلى ماليزيا - الهنود إلى عدة أماكن - اليهود إلى الأرجنتين) كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني ، إذ أن هذه الأقليات تشكل جيوباً استيطانية داخل البلاد التي تستقر فيها .

- نقل كثير من العناصر المقاتلة من آسيا وأفريقيا وتحويلهم إلى جنود مرتزة في الجيوش الغربية الاستعمارية ، مثل الهنود (خصوصاً السيخ) في الجيوش البريطانية . وفي الحرب العالمية الأولى ، تم تهجير ١٣٢ ألفاً من مختلف أقطار المغرب لسد الفراغ الناجم عن تجنيد الفرنسيين ، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم مباشرة للقتال (وهذه هي أول «هجرة» لسكان المغرب العربي ، وقد استمرت بعد ذلك تلقائياً) .

- مع ظهور فكر حركة الاستنارة في الغرب تم تعريف الناس حسب تفهمهم للمجتمع والدولة وقد طُبِّق هذا المعيار على كل المواطنين وبخاصة أعضاء الأقليات . فتم تقسيم اليهود في كثير من البلاد الغربية - كما أسلفنا - بحيث أصبح غير النافعين قابليين للترحيل .

- في هذا الإطار المعرفي الترانسفير ، تمت عملية الاستيطان الصهيونية التي هي في جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوروبا الاجتماعية (المسألة اليهودية) إلى الشرق . فيهود أوروبا هم مجرد مادة (فائض بشري لا نفع له داخل أوروبا يمكن توظيفه في خدمتها في فلسطين) ، والعرب أيضاً مادة (كتلة بشرية تقف ضد هذه المصالح الغربية) ، وفلسطين كذلك مادة ، فهي ليست وطناً وإنما هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة/ المادة تُطْلَق عليه كلمة «الأرض» . فتم نقل العرب من فلسطين ونُقل اليهود إليها ، وتمت إعادة صياغة كل شيء بما يتلاءم مع مصالح الإنسان الغربي .

- تمت عمليات ترانسفير ضخمة بعد الحرب العالمية الأولى ، فنُقل سكان يونانيون من تركيا إلى اليونان ، وسكان أتراك من اليونان إلى تركيا ، كما نُقل سكان ألمان من بروسيا الشرقية بعد ضمها إلى بولندا . وهذه العمليات هي التي أوحث لهتلر بعمليات نقل اليهود خارج الرايخ . بل إنه في السنين الأخيرة من حكم الرايخ طوَّر هملر جنرال بلان أوست Generalplan Ost لنقل ٣١ مليوناً «غير ألمان» من أوروبا الشرقية وتوطين ألمان بدلاً منهم .

وما يهتمان في هذا كله هو نزع القداسة عن البشر كافة (في الشرق والغرب) وتحويلهم إلى مادة استعمالية ليست لها قيمة مطلقة

الأمريكية ، كانت تجربة مثالية أوحى له بكثير من أفكاره التي وضعها موضع التنفيذ فيما بعد . وكما يقول المؤرخ جون تولاند إن هتلر ، في أحاديثه الخاصة مع أعضاء الحلقة المقررة إليه ، كثيراً ما كان يعبر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة " معالجتهم " لقضية الهنود الحمر . فقد قاموا بمحاولة ترويضهم عن طريق الأسر ، أما هؤلاء الذين رفضوا الرضوخ فكان يتم إبادةهم من خلال " التجويع أو القتل غير المتكافئ " . ويقول يواقيم فست إن حروب هتلر القارية المستمرة كانت محاكاة للنموذج الاستعماري الغربي في أمريكا الشمالية . وبالفعل صرح هتلر في إحدى خطبه بأنه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكا الوسطى والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية ، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقاً من أي سند قانوني وإنما من الإحساس الداخلي المطلق بالتفوق . فاستيطان الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية ، كما أكد هتلر ، لم يكن له أي سند ديموقراطي أو دولي ، وإنما كان ينبع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض . ولذا في مجال تبريره للحرب الشرسة التي شنها على شرق أوروبا قال هتلر : " إن هناك واجباً واحداً : أن تؤلن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمرأ " . وأكد هتلر أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوروبا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر . ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوروبا الشرقية باعتبارها " أرضاً غزاة " و " صحراء مهجورة " (" أرض بلا شعب " في المصطلح الصهيوني) . وقد بين أفريد روزنبرج ، أثناء محاكمته في نورمبرج ، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الإمبريالي ، فأشار مثلاً إلى أنه تعرّف لأول مرة على مصطلح « الإنسان الأعلى » (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي كشنر ، وأن مصطلح « الجنس المتفوق » أو « الجنس السيد » مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج ، وأن رؤيته العرقية هي نتيجة أربعمئة عام من البحوث العلمية الغربية ، فالنازية - كما أكد روزنبرج لمحاكميه - جزء من الحضارة الغربية .

ولعل أكبر دليل على أن الإبادة إمكانية كامنة ، تضرب بجذورها في الحضارة الغربية الحديثة ، أنها لم تكن مقصورة على النازيين وإنما تشكل مرجعية فكر وسلوك الحلفاء ، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب ! فارتست همنجواي ، الكاتب الأمريكي ، كان يطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على

الأيام) ، إذا لم نحسب نسبة التزايد الطبيعي (يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادة منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين) . وقد تكرر نفس النمط في أستراليا التي كان يبلغ عدد سكانها الأصليين ٢ مليون عند استيطان البيض للقارة في عام ١٧٨٨ لم يبق منهم سوى ٣٠٠ ألف . ولا تزال عملية إبادة السكان الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى (وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة) .

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة . وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً ، ومع هذا يجب أن نتذكر أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما من خلال أسباب « طبيعية » بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية أو من خلال إلقاءهم في البحر لإصابتهم بالمرض .

وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة . ففي كتابه *رحلة إلى الكونغو* (١٩٢٧) ، يُبين أندريه جيد كيف أن بناء السكة الحديد بين برازفيل والبوات السوداء (مساحة طولها ١٤٠ كيلو متر) احتاجت إلى سبعة عشر ألف جثة . ويمكن أن نتذكر أيضاً حفر قناة السويس بنفس الطريقة وتحت نفس الظروف وب نفس التكلفة البشرية .

وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوربيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العرقي والإبادة داخل أوروبا (إما كضحايا أو كجزائرين) يصل إلى مائة مليون ، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد حتماً سوف يتضاعف .

ولكن الإمكانية الإبادة الكامنة التي تحققت بشكل غير متبلور وجزئي في التجربة الإمبريالية والاستيطانية الغربية ، تحققت بشكل نمذجي كامل في الإبادة النازية أو في «اللحظة النازية النمادجية» في الحضارة الغربية ، أي اللحظة التي تبلور فيها النموذج وأفصح عن نفسه بشكل متبلور قاضح ، دون زخارف أو ديباجات (ولذا أذهلت الجميع ، وضمنهم المدافعون عن النموذج في صوره الأقل تبلوراً وأكثر اعتدالاً) .

وكان النازيون يُدركون تمام الإدراك أن نظامهم النازي وممارساته الإبادة هما ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي الحديث . وقد بين كاتبو سيرة حياة هتلر أن أولى تجارب الإنسان الغربي الاستعمارية الاستيطانية ، أي تجربته في أمريكا

الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد، فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS وهي اختصار عبارة «ديس أرميد إنيمي فورسيز» disarmed enemy forces، أي «قوات معادية تم نزع سلاحها» بدلاً من تصنيفهم «أسرى حرب». وإعادة التصنيف هذه كانت تعني في واقع الأمر حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب، وبالفعل قضى ٢٣٩، ٧٩٣ جندي ألماني نحبهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام ١٩٤٥، كما قضى ١٦٧ ألف نحبهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجة للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة (حسبما جاء في دراسة لجيمس باك James Bacque)، وفي الوقت ذاته كان يوجد ١٣، ٥ مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم.

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية، فقد قام الحلفاء بما سُمي «عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا» (بالإنجليزية: دي نازيفيكيشن denazification) للقضاء على النازيين في الحياة العامة، فأقيمت ٥٤٥ محكمة دائمة على الأقل تبعها طاقم من الفنين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً. وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي معظم الذكور الألمان البالغين)، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمئة ألف، أُجريت لهم محاكمات عاجلة. وأدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها ٢٨٢، ١٦٩ حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي. وأصدر البريطانيون ٢٩٦، ٢٢ حكماً والفرنسيون ٣٥٣، ١٧ حكماً، والروس ثمانية عشر ألف حكم. وبحلول عام ١٩٤٥، كان قد تم طرد ١٤١ ألف ألماني من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية، وُجِّع بعدد أكبر من هؤلاء في السجن.

وتظهر نفس النزعة الإبادة في استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتعطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ. فخلال عشرة أيام في مارس ١٩٤٥، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلغ عددها ١١، ٦٠٠، تم خلالها إغراق ٣٢ ميل مربع من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل، وهو ما أدى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسببت في مقتل ١٥٠، ٠٠٠. أما الغارات الجوية على طوكيو يوم ٢٥ مايو ١٩٤٥، فتسببت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى أن قناتي الطائرات

المنصر الألماني. وفي عام ١٩٤٠ قال تشرشل إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقتها وحرق غاباتها. وقد عبّر كاتب يُسمى كليفتون فاديمان عن هذا الموقف الإبادة بشكل متبلور. ولم يكن فاديمان هذا شخصية ثانوية في المؤسسة الثقافية الأمريكية فقد كان محرر مجلة النيويورك (وهي من أهم المجلات الأمريكية) ورئيس إحدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبان الحرب بغرض الحرب النفسية. وقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان (تشبه في كثير من الوجوه الحملة التي شنّها الغرب ضد العرب في الستينيات والتي شنّها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر) وجعل الهدف منها «إضرام الكراهية لا ضد القيادة النازية وحسب، وإنما ضد الألمان ككل... فالطريقة الوحيدة لأن يفهم الألمان ما نقول هو قتلهم... فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة... وإنما هو التعبير النهائي عن أعظم غرائز الشعب الألماني، فهتلر هو تجسّد لقوى أكبر منه، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها ٢٠٠٠ عام». ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيراً عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي ومن قبله الخطر الأصفر.

وقد اشترك بعض الزعماء والكتّاب اليهود في هذه الحملة، فصرح فلاديمير جابوتنسكي عام ١٩٣٤ بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيا، «فالشعب الألماني بأسره يُشكّل تهديداً لنا». ولكن يمكن القول بأن كتاب الكاتب الأمريكي اليهودي تيودور كاوفمان بعنوان لا بد من إبادة ألمانيا هو من أهم الكتب المحرّضة على الإبادة، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية وبيّنت أبعاد المؤامرة الإبادة ضد الألمان، وهو ما شكّل تبريراً لفكرة الإبادة النازية نفسها. وقد ورد في هذا الكتاب أن كل الألمان، مهما كان توجههم السياسي (حتى لو كانوا معادين للنازية، أو شيوعيين، أو حتى محبين لليهود) لا يستحقون الحياة، ولذا لا بد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب ليقوموا بتعقيمهم حتى يتسنى إبادة الجنس الألماني تماماً خلال ستين عاماً!

وكان هناك حديث متواتر عن ضرورة «هدم ألمانيا»، وعن «تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية» (بالإنجليزية: باستوراليزيشن pastoralization)، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة (كما حدث لمحمد علي). ونجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين (من الرجال والأطفال والنساء والعجائز) وتخطيم كل أشكال الحضارة والحياة. وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها ٢٠٠ ألف قتيل. كما استمرت النزعة الإبادة بعد الحرب، فقامت قوات

النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً ! وبعد حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيثان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياء غير عادي .

إبادة الآخر إذن آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته الداروينية ، ومع هذا تظل الإبادة النازية لليهود لها مركزية خاصة ، فكيف نفسّر هذا ؟ تعود هذه المركزية ، فيمّا أعشقت ، إلى حداثة الإبادة النازية ومنهجيتها ، الأمر الذي جعلها تقض مضجع الإنسان الغربي ، فمشروعه الحضاري يستند إلى العلم المتجرد من القيمة وعبقريته حضارته تكمن في الترشيح المتزايد . كما أن الإبادة الاستعمارية كانت تتم دائماً " هناك " بعيداً عن أوروبا ، في آسيا وأفريقيا ، أما الإبادة النازية فتمت " هنا " على أرض الحضارة الغربية ، وعلى بُعد أمتار من منازل المواطنين العديدين . كما أن العناصر التي أبليت لم تكن داكّة اللون أو صفراء ، وإنّهم " مثلاً تماماً " . وأخيراً يشغل اليهود مكانة خاصة في التوجّدان الغربي الديني والحضاري ، فاليهودي يقف دائماً على النهاش . موضع تقديس وكرّم عميقين ، وحينما صرّعه الإبادة النازية تنبّه الإنسان الغربي إلى الإمكانية الكامنة ، التي تقف فاعرة فده . في قلب حضارته الحديثة .

السياق الحضاري الألماني للإبادة

German Cultural Context of the Extermination

تناولنا في المذخل السابق الإحزار الحضاري الغربي العام للإبادة ، ويمكننا الآن أن نترك المنظر العام نتركز على حالة محددة وهي الإبادة الألمانية النازية ليهود أوروبا . ويمكن القول بأن المنظومة المعرفية العلمانية الإمبريالية اكتسبت حداً خاصة في ألمانيا لأسباب عديدة من بينها تقنيّة وحدة الوجود (الخلقية الكسوفية) القوية التي تعود إلى جيكون بومه وأنعلم إيكهارت ، وهي تقانيّة ورثتها الفلسفة المثالية الألمانية وعمقتها ووصلت إلى ذروتها في فلسفة فخته الذي جعل من الذات مركز الوجود وتصورها قدرة على خلق العالم . ولكن فخته في الوقت نفسه طأب بالقضاء على الفرد (الشخص الإمبريقي) وكان يحلم " بجمهورية الأمان " التي يُجنّد كل ذكر فيها من سن العشرين حتى موته ، فهي جمهورية جنود لا مواطنين . وقد ربطت الفلسفة الألمانية المثالية الإنسان الفرد بالطلق الذي يمكن أن يتجسد في الفرد ، كما يمكن للفرد أن يذوب فيه . وحتى يصل الفرد إلى المطلق أعيد تعريف العقل وتم توسيع نطاقه ولم تُعد هناك حدود

المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام . وأدّت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل .

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفرز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان « يخشى » ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقى عليه بقتاله ويدمره . ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب ، فقد رأى الجنرال جروفرز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر (بعد أن تم إنفاق ٢ بليون دولار في تطويرها وهو ما يُعادل ٢٦ بليون دولار بحسابات اليوم) . كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين ، ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة ، خصوصاً وأن الدب الروسي كان قد بدأ في التضخم . ومن ثم ، كان لا بد من اللقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير . وكان الجنرال جروفرز « محظوظاً » (كما تقول بعض الدراسات) إذ وجد ضالته المنشودة في هيروشيمّا التي كان يقطنها ٢٨٠ ألف نسمة ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تُحوّل المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ أنها ستركز الحرارة . وبالفعل قُتل فور وقوع الانفجار ٧٠ ألف مدني ومات ١٣٠ ألف آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع . وكان هيروشيمّا لم تكن كافية ، فألقت قنبلة أخرى على ناجازاكي ، أدّت هي الأخرى إلى مقتل ٧٠ ألف آخرين ، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقوا مصرعهم فيما بعد . فما بين ألمانيا واليابان تم إبادة وإصابة حوالي مليوني شخص معظمهم من المدنيين .

كما يجب أن نتذكر عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية) . وكان عدد شعب التار وحده يساوي عدد سكان روسيا ، أما الآن فهو لا يُكوّن سوى نسبة مئوية ضئيلة ، ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية . وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية ، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور . وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة . وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليون مات منهم ١٢ مليون على الأقل في معسكرات الجولاج : هذا حسب التقديرات المحافظة ، أما أعداء

ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) في فلسفة هيجل حيث تصبح الدولة هي المطلق، بل تجسيدا له، وهي الإطار السياسي الذي يمكن للشعب العضوي أن يُعبّر عن نفسه من خلاله. إن الدولة أصبحت هي المطلق مجازياً وحرفياً ولذا طالب هيجل الإنسان بأن يعبد الدولة كما لو كانت إلهاً سماوياً، وهذه هي قمة الحلولية الوثنية (التي سُمِّعَ عن نفسها بشكل سوقي من خلال النازية والصهيونية فيما بعد).

وقد تزامن هذا مع تزايد النزعة التاريخية (تحت تأثير هيجل وغيره) بحيث لم يعد من الممكن أن يسأل الإنسان هل هذا الفعل خير أم شرير، إذ أصبح السؤال الوحيد الممكن هو: هل يتفق هذا مع اللحظة التاريخية أو لا؟ كما انتشرت الأفكار الداروينية بشكل متطرف، التي تُهمِّش الإنسان الفرد تماماً.

وقد واكب هذه النسبية الأخلاقية تزايد الإيمان بالعلم المنفصل عن القيمة والغاية الإنسانية، فتعقيم المعوقين كان أمراً مقبولاً في الطب الألماني مع بداية القرن العشرين (الأمر الذي يعني أن أعداداً كبيرة من الأطباء الألمان اليهود كانوا متورطين في هذه الرؤية). ومن المعروف أن الأطباء اليهود لم يُطردوا من مهنة الطب في ألمانيا إلا في عام ١٩٣٣. كما عرف الألمان أسلوب الانتفاع من الجثث البشرية قبل ظهور النازي، أي أن تزايد إطلاق الدولة واكب تهميش الفعل الأخلاقي الفردي والمسئولية الفردية فتم استيعاب الفرد في الكل الشامل.

وكان الشاعر هايني من أكثر المفكرين إدراكاً لخطر الحلولية الكمونية التي تجعل الإنسان إلهاً على الأرض، وفي الوقت نفسه تجعل الدولة إلهاً على الأرض. فقال إن فيلسوف الطبيعة سيعقد تحالفاً مع قوى الطبيعة الكونية وسيوقف القوى الشيطانية لوحدة الوجود الألمانية التي ستضرم الشهوة للحرب (التي تسم الألمان القدامى) حيث لا يحارب الجندي ليدمر ويكسب المعركة، وإنما يحارب من أجل الحرب.

هذه هي بعض مكونات السياق الحضاري الألماني للنازية وللإبادة النازية لليهود (ولغيرهم). وقد تشابكت هذه المكونات وتضاعفت حدتها وبلغت حداً عالياً من التبلور في العقيدة النازية، التي تشكل تعبيراً صافياً ومغادجياً عن المثل العليا للحضارة العلمانية الغربية وعن النموذج الحاكم الكامن فيها. والعقيدة النازية لم تفعل أكثر من وضع هذه المثل موضع التنفيذ بشكل أكثر تطرفاً من المعتاد، إذ طبقت الأفكار بشكل أكثر ثورية وأكثر منهجية وشمولاً على البشر كافة.

تفصل بين عقل الفرد والعقل المطلق، ففقد العقل هويته وأصبح لاعقلانياً. وقد وصلت الحلولية الألمانية إلى قمته في منظومة هيجل الشاملة التي تساوي بين المقدس والزمني، ثم يبلغ الحلول متناه في فلسفة نيشته وفلسفات الحياة.

في هذا الإطار تم تعيين "مطلقات" مختلفة تكون هي موضع الحلول والكمون. وكان أول المطلقات هو الشعب الألماني العضوي (فولك) موضع الحلول والكمون، وصاحب الرسالة. وقد وكّدت القومية الألمانية في أتون الحروب وتحت شعار الوحدة والمركزية، وصاحب ذلك تعميق مفهوم الشعب العضوي، والإصرار على الانتماء الكامل غير المشروط مقياساً وحيداً للولاء، وطُرح شعار «ألمانيا فوق الجميع» الذي تبناه أعضاء الشعب الألماني، وبُذلت المحاولات لإعادة صياغة الشخصية الألمانية لضمان ولائها للدولة المطلقة.

وقد بلغت سطوة هذا المفهوم حداً جعلته يتنلج المنظومة الدينية نفسها، فاختلطت الدياجات الدينية بالقيم القومية بحيث تطلب الانتماء للشعب العضوي الألماني الانتماء إلى المسيحية البروتستانتية. ولكن بما يجدر ذكره أن هذه البروتستانتية كانت بروتستانتية ثقافية أو إثنية («عقيدة أبائنا») تركز على المشاعر الدينية دون العقيدة الدينية، ولذا كان بوسعها أن تتصالح ببساطة مع النيشوية والداروينية (يشير المفكر البروتستانتي الألماني بول تيليخ إلى نيشته باعتباره مفكراً بروتستانتيّاً كبيراً). وقد نتج عن ذلك تنصّر أعداد هائلة من يهود ألمانيا حتى يندمجوا «ثقافياً» في مجتمعهم الألماني. ووصلت نسبة هؤلاء أحياناً إلى ما يزيد عن ٥٠٪ من مجموع يهود برلين (الذين كانوا يشكلون معظم يهود ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر).

ولكن في إطار مفهوم الشعب العضوي يصبح مثل هذا التنصّر عملية «تسلل» و«تأمر»، فصفت الشعب العضوي صفات موروثية تجري في العروق وفي أرض الأجداد. وبالفعل لوحظ تصاعد معدلات العداء لليهود في الفكر الألماني العلماني. فكتب ولهمل مار (١٨١٨ - ١٩٠٤) كتابه المهم انتصار اليهودية على الألمانية: من منظور غير ديني (١٨٦٢). كما نشر فاجنر وبول أنطون دي لاجارد وهنريش فون ترانتيشكا كتاباتهم المعادية لليهود.

ثم تأتي لأهم المفاهيم في الحلولية الكمونية المادية وهو مفهوم الدولة، التي تشغل مكاناً خاصاً في التفكير الرومانسي الألماني. وكما تم ربط الفرد بالمطلق، ثم ربط مفهوم الحرية بالدولة، بحيث لا تتحقق الحرية إلا من خلال الدولة (ومن هنا جنود فخته الأحرار!).

النازية والحضارة الغربية

Nazism and Western Civilization

وسار الحزب النازي بخطى واسعة في الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٢ ، ووصلت عضويته إلى مليونين بحيث أصبح الحزب الثاني في ألمانيا أثناء فترة الكساد الكبير الذي بدأ عام ١٩٢٩ ، وهي فترة شهدت تآكل مدخرات الطبقة الوسطى الألمانية وانتشار الحركات الإباحية والبغاء والفوضوية وتعاظم نفوذ الشيوعيين . ورغم أن هتلر خسر انتخابات الرئاسة عام ١٩٣٢ أمام هيندبرج ، إلا أن حزبه النازي أصبح أكبر حزب ألماني على الإطلاق . وقد فشل المستشار فون بابن في الاحتفاظ بأغلبية تمكنه من الحكم في البرلمان ، فأجريت انتخابات أخرى . وكان هتلر قد حصل إبان ذلك على الدعم المالي من رجال المال والصناعة في وادي الراين الذين كانوا يهدفون إلى احتوائه واستخدامه كأداة .

وكان هتلر يستخدم خطابين مختلفين : أحدهما للجماهير ، والآخر لرجال المال . وقد احتجت بعض العناصر الاشتراكية في الحزب على الاتجاه المتزايد نحو اليمين ، ولكن هتلر نجح في القضاء على هذه العناصر . وفي عام ١٩٣٣ ، قام الرئيس هيندبرج بتعيين هتلر مستشاراً . وحينما اندلع حريق في مبنى البرلمان ، قام هتلر بطرد النواب الشيوعيين بعد أن ألقى التبعة عليهم . ثم اقترح البرلمان على منح هتلر سلطات شاملة ، ومن ثم أنجز هتلر ثورته القانونية . وفي يونيو ١٩٣٤ ، أصبح الحزب النازي هو الحزب الأوحد ، وقام هتلر بتصفية البقية الباقية من العناصر العسكرية في حزبه بطريقة دموية ، وكان من بينهم إرنست روم رئيس قوات العاصفة . كما قام هتلر بضرب اليمين ، فاثبت بذلك أنه لم يكن مجرد أداة في يد المؤكثين أو بقايا النظام الملكي فتم المصارف وبعض الصناعات . ومع هذا ، استفادت العناصر الرأسمالية من خلال سيطرة الدولة على كثير من القطاعات الاقتصادية ، وأُنغيت اتحادات العمال ، وفقد العمال حقوقهم ، وتم استيعابهم في مؤسسات الحزب ، وتم التنسيق بين جميع مؤسسات الدولة والحزب . كما أصبحت الخدمة العامة إجبارية ، ثم فُرض التجنيد الإجباري وأخضعت ألمانيا كلها لنظام مركزي قوي . وألغى استقلال الولايات ، وأخضعت لهيمنة القوهر وأجهزته مباشرة ، بل أسس الحزب كنيسة ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية .

وفي عام ١٩٣٦ ، بدأت خطة السنوات الأربع لإعادة تسليح ألمانيا ، وإعادة تنظيم الاقتصاد انطلاقاً من الاعتماد على الذات . وقد حقق النازيون نجاحاً اقتصادياً باهراً ، الأمر الذي زاد من التفاف الجماهير حولهم ، حيث تم القضاء على البطالة وُثبتت منشآت عامة عديدة ، ثم سيطر هتلر على حزبه سيطرة كاملة ،

كلمة «نازي» مأخوذة بالاختصار والتصرف (بهدف التهكم) من العبارة الألمانية «ناشيونال سوشياलिستيش دويتش أربايتربارتي» (National Sozialistische Deutsche Arbeiterpartei) (NSDAP) ، أي «الاشتراكية القومية» ، وهي حركة عرقية داروينية شمولية ، قادها هتلر وهيمنت على مقاليد الحكم في ألمانيا ، وعلى المجتمع الألماني بأسره . والحركة النازية هي حركة سياسية وفكرية ، ضمن حركات سياسية فكرية أخرى تحمل نفس السمات ، ظهرت داخل التشكيل الحضاري الغربي بعد الحرب العالمية الأولى . كانت النواة الأساسية للحركة النازية هي حزب صغير يُسمى «حزب العمال الألمان» أسس في جو البطالة والثورة الاجتماعية عام ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وإذلالها على يد الدول الغربية المنتصرة . وكان المنظر الأساسي للحزب هو جوتفريد فيدر الذي نادى بعقيدة لها صبغة قومية قوية وطابع اشتراكي ، تدعو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنوك . وكان من أوائل من انضم لعضوية هذا الحزب محاربون قدامى مثل رودولف هس وهرمان جورنج ، ومثقفون محبطون مثل ألفريد روزنبرج و ب . ج . جوبلز وهتلر نفسه ، وشخصيات أخرى مثل يوليوس سترايخر . وقد ازدادت عضوية الحزب لأنه توجه إلى المخاوف الكامنة لدى قطاعات كبيرة من الألمان من الشيوعيين والبلاشفة ، وإلى حنقها على معاهدة فرساي التي أذلت ألمانيا وحولتها إلى ما يشبه المستعمرة ، وعلى جمهورية وإيمار المتخاذلة التي قبلت هذا الوضع ، وإلى إحساس الجماهير بالضيق في المجتمع الحديث وإحساسهم بالقلق وعدم الطمأنينة نتيجة تآكل المجتمع التقليدي . ورغم أن الحزب كان يُسمى «حزب العمال» ، فإنه لم يضم كثيراً من العمال بين أعضائه ، ولم ينضم له من العمال سوى العاطلين عن العمل . وأعيد تنظيم الحزب عام ١٩٢٠ وسُمي «حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي» وترأسه هتلر الذي حصل على تأييد لودندورف (بطل الحرب العالمية الأولى) وعديد من رجال الصناعة الذين رأوا أن بإمكان هتلر تقويض دعائم النظام السياسي القائم ، الذي لم يكن يسمح لهم باتباع سياسة رأسمالية حرة تماماً ، كما أنهم رأوا أن وجوده يمثل الفرصة الوحيدة أمامهم لوقف تقدم الشيوعيين . وقد تزايد نفوذ الحزب مع اتساع نطاق الكساد الاقتصادي . وحل كتاب هتلر كفاحي محل برنامج جوتفريد فيدر (الذي تحول إلى مجرد ناطق بلسان هتلر) ، كما تراجع الخطاب الاشتراكي وحل محله خطاب نازي أكثر تبلوراً ومادية .

هتلر مخططاً شاملاً للقضاء على الكنائس المسيحية بشكل كامل ، حتى تسود الواجهة المادية وقيم القومية العضوية والولاء الكامل لألمانيا وللدولة الرايخ الثالث . وكل سمات النازية الأخرى تنبع من رؤيتها العلمانية الإمبريالية الشاملة .

٢ - تتضح مادية النازيين الصارمة في إنكارهم للطبيعة البشرية وثنائها فكل شيء من منظورهم خاضع للتغيير والحوسلة . ويمكن القول بأن ثمة نزعة مشيخانية علموية مادية قوية هي التي تعطي النازية نفردا واختلافها عن الأيديولوجيات العلمانية الأخرى . فالنازية دفعت بكثير من المقولات الكامنة في الرؤية العلمانية الشاملة إلى نتيجتها المنطقية ، ولم تعد تتقنع بتغيير العالم وإنما كانت تطمح إلى تغيير النفس البشرية ذاتها (وعلى كل ، هذا الاتجاه أمر كامن في كل الطوباويات التكنولوجية التي تعود بداياتها إلى بداية عصر النهضة في الغرب) . ومن هنا اهتمام النازيين بعلم مثل علم تحسين النسل (بالإنجليزية : إيوجينيكس eugenics) وإعادة تنظيم العالم من خلال سياسات بيولوجية وضعية . ومن هنا حربهم الشديدة ضد الأمراض النفسية والجسمانية وضد كل انحراف عن المعيارية العلمية الصارمة (ومن هنا نجد أنهم قاموا بإبادة الأقزام !) .

٣ - آمن النازيون بفكرة الدولة باعتبارها مطلقاً علمانياً متجاوزاً للخير والشر . وحدد هتلر المطلق الأول والأوحد (الدولة) بدقة غير عادية حين قال إنه لا بد من تحقيق العدالة وتوظيفها في خدمة الدولة ، أي أنه لا يوجد مفهوم مطلق للعدالة ، وإنما تتحدد العدالة بمقدار تحقيق نفع الدولة . والدولة كـمطلق هي الإطار الذي يُعبّر الشعب العضوي (فولك) الألماني من خلاله عن إرادته .

٤ - تبنت النازية النظرية العرقية الداروينية الغربية ، وأكدت التفوق العرقي للشعب الألماني على كل شعوب أوروبا ، ولشعوب أوروبا على كل شعوب العالم . ورفض هتلر فكرة المساواة بين البشر باعتبارها فكرة دينية (" حيلة يهودية مسيحية " ، " نوع من التنويم المغناطيسي تمارسه اليهودية الغازية للعالم بمساعدة الكنائس المسيحية ") .

٥ - من الأفكار الأساسية في الفكر النازي فكرة الشعب العضوي (فولك) الذي تُوجد وحدة عضوية بين أعضائه من جهة ، وبين حضارتهم والأرض التي يعيشون عليها من جهة أخرى ، وهي وحدة لا تنقسم عراها . ولا يمكن لهذا الشعب أن يحقق كل إمكانياته إلا بعد أن يضم إليه مجاله الحيوي (الأرض في الثالوث الحلولي العضوي) حتى تكتمل الدائرة العضوية . أما العناصر الغربية الأجنبية فهي تؤدي إلى إعاقة هذا التكامل العضوي الصارم ، وبالتالي فهي عناصر ضارة لا بد من استبعادها .

وتولى هتلر رئاسة المحسباتو (البوليس السري) عام ١٩٣٦ . وبعد موت هيندنبرج ، أصبح هتلر رئيساً للدولة لا يقاسمه السلطة أحد . ونجح في استصدار قرار عام ١٩٣٤ بتأسيس الرايخ الثالث الذي سيُدوم ألف عام (والرايخ هو ألمانيا أو الإمبراطورية الألمانية المقدسة حيث يمتد الرايخ الأول من تاريخ تأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ٩٦٢ حتى انحلالها عام ١٨٠٦ ، والرايخ الثاني هو الإمبراطورية الألمانية منذ ١٨٧١ وحتى ١٩١٨ ، أما الرايخ الثالث فهو الدولة النازية من ١٩٣٣) ، وأصبح هو حاكم (فوهرر) ألمانيا بلا منازع .

وبدأ هتلر في تنفيذ مخططة الإمبريالي في الداخل والخارج صدوراً عن الرؤية النازية للعالم التي استمدت ملامحها الأساسية من الحضارة الغربية :

١ - السمة الأساسية للمنظومة النازية هي علمانيته الشاملة وواحديتها المادية الصارمة . وقد هاجم ألفريد روزنبرج (أهم «الفلاسفة» النازيين) المسيحية باعتبارها عقيدة يهودية تدافع عن المطلقات . وفي كتابه أسطورة القرن العشرين حاول أن يُبين بعض الأطروحات الأساسية للنازية ، فالروح والعرق هما شيء واحد ، فالعرق إن هو إلا التعبير البراني عن الروح ، والروح إن هي إلا التعبير الجواني عن العرق (وهذا لا يختلف كثيراً عن تصور الفلسفة الألمانية المثالية عن تماثل الروح والطبيعة) ، والروح العرقية هي التي تحرك التاريخ . بل إن روزنبرج كان مدركاً للحلولية كمنظومة نهائية ، إذ يؤكد أن الروح الألمانية تُعبّر عن انتصار فكرة الحرية وعن التصوف الحقيقي ، تصوف المعلم إيكهارت ، وهي صوفية مسيحية اسماً ومظهراً وحسب ، ولكن يجب أن تُفهم باعتبارها تزايد حرية الروح إلى أن تصل إلى المرحلة التي تتحرر فيها تماماً من الإله نفسه . وكان روزنبرج ، انطلاقاً من عقيدته العرقية هذه ، يعطي مواعظ نارية عن أسطورة الدم .

ولكن هتلر ، بذكائه الشديد ، حاول أن يُبقي هذه النقطة من برنامجه غامضة حتى لا يستفز الجماهير ولا يواجه الكنيسة بشكل علني . وقد عقد اتفاقاً مع الكنيسة الكاثوليكية غير أنه لم يلتزم به وأرسل بكثير من رجال الدين إلى المحرقة . وقد أسس هتلر 'كنيسة' ألمانية بهدف السيطرة على الكنائس البروتستانتية ، وتطهير فكرة القومية الألمانية من العناصر المسيحية التي دخلت عليها . وكان الانتحاح بهذه الكنيسة القومية - ومن ثم الانفصال عن المنظومة المسيحية - شرطاً أساسياً للانضمام إلى فرق الحرس الخاص المعروفة بالأس . إس . وفي السنوات الأخيرة من حكم النازي ، وضع

٨ - رأت العقيدة النازية أن هذا الهرم الألماني المنظم ، لابد أن يسيطر على العالم بأسره . وقد استفادت هنا من الفكر الجغرافي السياسي (الجيوپولوتيكي) الغربي . إذ رأى النازيون أن ألمانيا أمة حركية من حقها أن تحصل على مجال يتناسب مع قوتها وحيويتها ، وهو مجال أوسع مما سمحت به معاهدة فرساي .

٩ - انطلاقاً من كل هذا وُضعت ألمانيا فوق الجميع وأصبح للألمان حقوق مطلقة فيما تصوروا أنه مجانهم اخيوي . وقد رأى النازيون أنه يجب على الشعب الألماني أن يستيقظ من سباته ويتنبه للخطر ، وأن يغزو مجاله اخيوي حتى يصبح مجالاً ألمانياً صرفاً خالياً من السلاف .

١٠ - لكن الشعوب انعضوية (فولك) تحتاج دائماً إلى آخر تستمد منه هويتها . والآخر هنا هو كل من يقف في طريق تحقيق الأطروحات النازية ، وهم في هذه الحسنة أسلاف بالدرجة الأولى ، الذين يشغلون المجال اخيوي في الخارج . أما في الداخل ، فكانت توجد عناصر عديدة غير نافعة مستهلكة دون أن تكون متجة ، وأحياناً ضارة ، من بينها المعوقون والشواذ جنسياً والشيوخ والفقراء والمصابون بأمراض وراثية مزمنة . بل الأقزام . ولذا كان النازيون يرون ضرورة إبادة العناصر الضارة في الداخل والخارج : السكان السلاف الذين يعيشون داخل المجال الألماني اخيوي ، والعجم عن لا نفع لهم ، واليهود خصوصاً الأقلية الألمانية اليهودية .

١١ - ولكن نركز على أعضاء أجندة اليهودية وحدهم ، لا بسبب أهميتهم المطلقة ولكن بسبب أهميتهم من منظور هذه الموسوعة . كان اليهود - حسب التصور النازي - من أهم القطاعات غير النافعة ، بل الضارة ، فهم يتركزون في القطاعات الهامشية للاقتصاد ، مثل تجارة الرقيق الأبيض . ورغم أنهم مثل البكتريا والطفيليات التي تعيش على الآخرين ، إلا أنهم يدعون أنهم يُشكّلون عرقاً سامياً وشعباً مختاراً ، ولذا فهم يحاولون دائماً الهيمنة على الحياة السياسية والاقتصادية للشعوب الأخرى . ويشير هتلر إلى أن اليهود سيطروا على عالم المال في ألمانيا . وأنهم يحيكون مؤامرة عالمية للسيطرة ولذا فهم يحاولون إشعال الحروب والثورات (وهذه هي الأفكار الأساسية في بروتوكولات حكماء صهيون ، وفي كتاب إدmond دروموند فرنسا اليهودية . وهما من أكثر الكتب شيوعاً في أوروبا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر) . كما بين هتلر أن الماركسية والماسونية ليست إلا مجرد حيل يهودية للسيطرة على العالم . وقد صوّف اليهود أحياناً باعتبارهم سلافيين ، لأن كثيراً منهم كانوا «أوست يودين Ostjuden» ، أي من يهود شرق أوروبا .

٦ - من العبارات المتواترة في الخطاب العضوي النازي عبارة «الدم والتربة» ، وهي ترجمة للعبارة الألمانية «بلوت أوند بودين Blut und Boden» ، وهي من الشعارات الأساسية للنازية والمرتبطة بفكرة الشعب العضوي . وهذه العبارة النيتشوية تمجد آداب الفلاحين وعواطفهم باعتبارها تجسداً للصفين الأساسيين اللتين يستند إليهما رقي الجنس الألماني ؛ الدم الألماني والتربة الألمانية . وهي تحول الدم والتربة إلى المرجعية أو الركيزة النهائية التي يستند إليها النسق المعرفي والأخلاقي . وشعار «الدم والتربة» هو مثل جيد على ما نسميه «الواحدية المادية الكونية» التي تسم الأنساق الحلولية الكمونية ، حيث يصبح المطلق كامناً في المادة لا متجاوزاً لها ، ويُصَبَّ شعبٌ من الشعوب نفسه إلهاً على بقية الشعوب ، فدمه وترتبه يحويان كل القداسة ويعطيانه حقوقاً مطلقة لا يمكن النقاش بشأنها . ولكن هذه الحلولية هي حلولية بدون إله ، فالثولت القومية العضوية : الدم - التربة - الشعب ، ليس إلا صدقاً للثالوث الحلولي الوثني : الإله - الطبيعة - الإنسان . ويبدو أن الدم ، باعتباره حامل القداسة وباعتباره الصلة التي تربط الإنسان والأرض ، يحل محل الإله . (وقد وجدت هذه العبارة طريقها إلى الفكر والخطاب الصهيوني) .

٧ - وقد ترجم كل هذا نفسه إلى مفهوم العرق السيد ، وهو العرق الآري الألماني التيوتوني الذي سيحتفظ ببقائه العرقي ويؤسس أمة تتألف من الحكام المحاربين والفكرين ، قدرها المحتوم أن تحكم الأعراق الدنيا وتعيش على عملها وتحقق السيادة على العالم . وهذه الأمة ستتنظم نفسها على شكل هرمي تقف على قمته نخبة تسم بالصفات العرقية الأكثر تفوقاً ، وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر : التجسد المادي والمحسوس والتاريخي للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) . وكان تنظيم الحزب النازي تعبيراً عن نفس الرؤية ، فقد استعار هتلر من التنظيمات الشيوعية فكرة الخلية والتنظيم الهرمي للحزب والانضباط الداخلي ، واستعار من الفاشية الإيطالية فكرة ميليشيا الحزب ذات الزبي الموحد ، وهؤلاء هم مرتدو القمصان البنية وكان يُشار إليهم بالخرفين إس . آيه . S. A. ، وهما اختصار عبارة «شتورم أبتيالونج Sturm Abteilung» أي «قسوات العاصفة» . أما «النخبة» ، فهم فرق الإس . إس . S. S. وهما اختصار للعبارة الألمانية «شوتس ستافل Schutz Staffel» ومعناها «نخبة الأمن» أو «الحرس الخاص» ، وكانوا يرتدون قمصاناً سوداء وشارة الموت . وكان للحزب تحمته الخاصة بأن يرفع العضو ذراعه اليمنى ويقول : «هايل هتلر» . وأصبح الصليب المعقوف رمزه ، كما كان له نشيده الخاص .

وألقي اللوم على اليهود باعتبارهم مسئولين عن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وعن إذلالها . ولذا قرر الألمان أن يجعلوا المجال الحيوي الألماني «خالياً من اليهود» (بالألمانية : يودين راين Judenrein) .

وقد بدأ النظام النازي حملته على اليهود عقب تعيين هتلر مستشاراً في ٣٠ يناير عام ١٩٣٣ . ففي أبريل عام ١٩٣٣ نُظِّمت مقاطعة للأعمال التجارية اليهودية ، ثم استبعد اليهود من كثير من الوظائف العامة . وفي أبريل ١٩٣٥ ، استبعد الأطفال اليهود من النظام التعليمي . وفي سبتمبر من نفس العام ، صدرت قوانين نورمبرج التي نزلت عن أعضاء الجماعة اليهودية حقهم في أن يكونوا مواطنين بالرايخ ، تنفيذاً لفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي النبوذ ، ومُنعت الزيجات المختلطة بين اليهود والآريين . وفي عام ١٩٣٨ ، مُنع اليهود من العمل في الوظائف الوسيطة كأن يكونوا وكلاء وبائعين ومديري عقارات ومستشارين في الأعمال التجارية . وأدَّى اغتيال عضو في السفارة الألمانية في باريس على يد يهودي بولندي في ٩ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ إلى قيام ثورة شعبية ضد اليهود تُعرف باسم «كريستال ناخت» أي «ليلة الزجاج المحطم» أحرق خلالها أربع مائة معبد ونُهب كثير من المتاجر والمنازل الخاصة ، وتم القبض على الألوف منهم وفُرضت غرامة على اليهود (ككل) . وبعد ذلك بدأ النظام النازي في عملية الإبادة والحل النهائي النازي للمسألة اليهودية والتي استمرت حتى نهاية الحرب .

وكما سنبين فيما بعد لم يكن النظام النازي عشوائياً لاعقلانياً في اضطهاده لأعضاء الجماعات اليهودية ، بل إن كلمة «اضطهاد» ذاتها قد لا تنطبق على علاقة النازيين بأعضاء الجماعات اليهودية إذ أن ما حدد هذه العلاقة هو مدى نفع اليهودي وإمكانية توظيفه .

١٢ - أشرنا من قبل إلى تراجع الجوانب الاشتراكية (الإنسانية) في برنامج الحزب النازي الذي كان يحوي بلا شك بعض المطلقات الإنسانية (مثل فكرة العدل وضرورة التكافل) ، وظهور رؤية مادية واحدية صارمة في ماديتهما وواحديتهما تنفي المطلقات والثوابت والماهيمات كافة ، رؤية علمانية شاملة تنزع القداسة عن كل شيء بحدّة وشراسة وتُسقط تماماً فكرة الحرمات . وهذا التحول عن الإنسانية (الهيومانية) والسقوط التدريجي والمطرد في الواحدة المادية هو مخطط التطور الأساسي في الحضارة الغربية الحديثة ، حيث تطورت من رؤية إنسانية (علمانية جزئية) تحوي مطلقات إلى رؤية علمانية إمبريالية شاملة تنفي المطلقات والثوابت والكمليات كافة .

١٣ - تنطوي الرؤية النازية للكون ، شأنها شأن كل الرؤى المادية ،

على إشكالية أساسية داخلها ، وهي مشكلة الأساس الفلسفي والمعرفي الذي تستند إليه منظومات الإنسان الأخلاقية . وقد حسم النازيون هذه القضية بتصورهم أن العلم (الطبيعي) قادر على مساعدة الإنسان على التوصل إلى حلول لجميع المشاكل ، وضمن ذلك المشاكل الإنسانية والأخلاقية والروحية . ومن ثم فالعلم هو وحده القادر على تحديد الصالح والطالح والخير والشرير وهو وحده المرجعية النهائية . ولذا طالب النازيون بضرورة تطبيق قيم العلم والمنفعة المادية على الإنسان والمجتمع ، وأمن النازيون بالمنفعة المادية كمعيار أخلاقي للحكم على الواقع . وبالفعل ، اتسم النازيون بالحياد العلمي الشديد في تعاملهم مع الواقع ومع البشر ، واستخدموا مقاييس علمية رشيّدة لا تشوبها أية قيم أخلاقية أو عاطفية أو غائية ، وتحوّل كل البشر ، وضمن ذلك الألمان ، إلى مادة بشرية . ومن ثم ، قُسم العالم كله إلى نافعين وغير نافعين (وهو تقسيم يعود إلى القرن الثامن عشر ، عصر العقل المادي والعقلانية المادية) . وتقرر أنه لا يستحق الحياة إلا من ينتج ويستهلك ، أما من لا ينتج ويستهلك (بالإنجليزية : يوسلس إيترز useless eaters حرفياً «من يأكلون ولا نفع لهم») فمصيره أمر مفروغ منه ، فقد صنّف على أن حياته لا قيمة لها (بالألمانية : بالاست إكسستينزين Ballastexistenzen) ، وتشكل عبئاً على الاقتصاد الوطني بطبيعة الحال .

١٤ - ولكن كما هو الحال دائماً تخبيّ الرؤية العلمية النفعية المحايدة أخلاقياً الرؤية الداروينية النيتشوية ، بتأكيدهما على فكرة البقاء باعتباره القيمة المطلقة والصراع باعتباره الآلية الوحيدة للبقاء ، وهي عملية مادية محضة . فالبقاء هو البقاء المادي ، والصراع صراع مادي ، والبقاء في هذه الغابة الداروينية الواحدة المادية التي لا تعرف الرحمة أو العدل ليس من نصيب الأرق قلباً أو الأرق خلقاً أو الأكثر تراحمًا وإنما هو من نصيب الأصح والأقوى مادياً (فالقوة هي المطلق النهائي) ، والأقوى هو الذي لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه والذي يتحلّى بأخلاق الأقوياء ويضرب بيد من حديد على الضعفاء بدلاً من أن يأخذ بأيديهم .

بعد تقبُّل النازيين النفع المادي والقوة ، باعتبارهما المعيار الأخلاقي الأوحد في منظومة معرفية علمانية مادية شاملة لا تعرف المطلقات الإنسانية أو الأخلاقية أو الدينية ، قام المفكرون والعلماء النازيون بتقييم الواقع المحيط بهم من خلال هذه المنظومة الفكرية المادية وصنفوا كثيراً من العناصر باعتبارها غير نافعة (السلاف - العنبر - اليهود - المعوقين . . . إلخ) :

مستوى النموذج والنمط، وإنما هي مرحلة عرضية غير مُثبلة لمسار التاريخ في ألمانيا. وهم يُقارنونها بروسيا الستالينية. وينذهب تولت إلى القول بأن النازيين قاموا بعمليات الإبادة خوفاً من أن تُطبق عليهم سياسات الإبادة التي كان يطبقها السوفييت منذ عام ١٩١٧ على الطبقات والشعوب غير المرغوب فيها، بل يؤكد أن النازيين تعلموا الإبادة والتصفية الجسدية ومعسكرات السخرة من الشيوعية السوفيتية ومن ممارسات ستالين الإبادة؛ فالأصل هو الجولاج، وأوشفيتس هي النسخة.

وهناك كثيرون داخل ألمانيا وخارجها يعارضون هذا الرأي ويؤكدون أن سلوك الألمان هو جزء لا يتجزأ من تاريخهم الحضاري (بل هناك من يتطرق إلى درجة القول بأن سلوك الألمان هو في واقع الأمر تعبير عن طبيعتهم الثابتة). والحوار هنا يتعلق بدلالة الإبادة: هل هي جريمة نازية ضد اليهود، أم جريمة غربية متكررة (نمط متكرر) يُعبّر عن نموذج معرفي كامن. أم أنها مجرد حادثة؟ ونحن نذهب - كما أسلفنا - إلى أن الحضارة التي أفرزت الإمبريالية والشمولية والمنفعة المادية والداروينية، وفلاسفة العرقية الحديثة، هي الحضارة التي أفرزت رؤية إبادة وصلت إلى قمته في النخطة النازية. ومن ثم، فإن الإبادة النازية تُعبّر عن شيء حقيقي أصيل لا في التشكيل الحضاري الألماني وحده، وإنما في الحضارة الغربية، وليست مجرد انحراف عن تاريخ ألمانيا أو تاريخ الغرب الحديث.

إن جوهر الفكر النازي، متمثلاً في كتابات أدولف هتلر (وغيره من المفكرين النازيين)، لا يختلف كثيراً عن فكر سير آرثر بلفور صاحب الوجد المشهور (وغيره من الناسة والمفكرين الاستعماريين). فكل من هتلر وبلفور يدور داخل الإطار الإمبريالي العرقي المبني على الإيمان بالثغوات بين الأعراق، وعلى حل مشاكل أوروبا عن طريق تصديرها. وكلاهما يؤمن بفكرة الشعب العضوي، وكلاهما يرى في اليهود عنصر غير مرغوب فيه ويؤكد، من ثم، ضرورة وضع حل نهائي للمسألة اليهودية في أوروبا، وكلاهما لا يلتزم بأية منظومة أخلاقية سوى منظومة المنفعة المادية ومنظومة الصراع الداروينية. وقد تم الحل النهائي في حالة بلفور بنقل (ترانسفير) اليهود خارج إنجلترا وأوروبا إلى فلسطين.

وقد حاول هتلر، في بداية الأمر، أن يحل مسألته اليهودية بشكل نهائي أيضاً، بالطرق الاستعمارية السلمية البلفورية التقليدية، أي التخلص من القناصين البشري اليهودي عن طريق تصديره (ترانسفير) إلى رقعة أخرى خارج ألمانيا. وكان هتلر يدرك أن الترانسفير (تفريغ الأراضي من سكانها ونقلهم) هو جزء من

ولا يمكن الدفاع عن كل هؤلاء من منظور أخلاقي مطلق، فهذا أمر مرفوض من منظور علماني شامل، نفمي نسبي، مستنير رشيد، ينطلق من حساب دقيق للمدخلات والمخرجات. ومن يريد الدفاع عن نفسه عليه أن يفعل ذلك من داخل المنظور العلمي النفمي المستنير لا من خارجه.

وكان قد تم إعداد الآلة المادية النفعية ذات الكفاءة العالية، كما تم تحويل العالم بأسره، على المستويين المعرفي والوجداني، إلى مادة استعمالية خام. ومن جهة أخرى، تم استئناس الشعب الألماني وترشيده وتحبيد حسه الخلقي تماماً وإسكات عواطفه، ليكون في انتظار التعليمات والحلول الواقعية العلمية العملية (المادية) النهائية لمشاكله، وهي حلول ستأتيه من مجموعة من رجال الحزب والعلماء وأهل التخصص.

وحينما بدأت آلة الإبادة المادية النفعية الموضوعية الجهنمية ذات الكفاءة العالية منقطعة النظر، في الدوران، كانت الإبادة قد تحققت معرفياً ووجدانياً ونظرياً، من خلال النموذج الواحد المادي، قبل أن تتحقق فعلياً من خلال معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة.

إن الأطروحات الأساسية للنازية هي ذاتها الأطروحات الأساسية للحضارة الغربية الحديثة والتشكيل الإمبريالي الغربي. وبالفعل حظيت الحركة النازية في البداية بتأييد رأسمالي غربي لأنها كانت تنظر إلى الاتحاد السوفيتي باعتباره العدو الأكبر (السلافي) للحضارة الآرية، ومن ثم كان الرايخ الثالث من هذا المنظور يشكل قلعة ضد الزحف السلافي الشيوعي. ولكن ستالين كان أكثر دهاءً، حيث عقد حلفاً مع هتلر اقتسما بمقتضاه بولندا والمجال الحيوي المحيط بهما. ثم تحالف الغرب الرأسمالي مع الشرق الاشتراكي ضد هتلر، لا دفاعاً عن المبادئ ولكن لأنه بدأ يهدد مصالحهما معاً.

النازية هي وليدة الحضارة الغربية إذن، ومع هذا يتساءل بعض الدارسين الغربيين للإبادة النازية عن الكيفية التي أمكن بها المجتمع الغربي يُقال إنه «متحضر» مثل المجتمع الألماني (مجتمع هيجل وفاجنر وهابيدجر) أن يفرز حركة بربرية تماماً كالحركة النازية ثم يُخضع كل أعضاء المجتمع لها. وفي محاولة الإجابة على هذا السؤال، ذهب بعضهم إلى القول بأن النازية هي مجرد انحراف لا عن مسار التاريخ الألماني وحسب وإنما عن مسار التاريخ الغربي ككل.

وينذهب المؤرخ الألماني إرنست نولت Ernest Nolte (وهو أستاذ في جامعة برلين الحرة يمثل تياراً مراجعاً داخل علم التاريخ في ألمانيا) إلى أن المرحلة النازية ليست مرحلة نماذجية، أي لا ترقى إلى

وبالفعل ، نجد أن الفكر الصهيوني يتحدث عن اليهود باعتبارهم عناصر بكتيرية . الواقع أن تعبير البكتريا المجازي (وهو تعبير دارويني لا علاقة له بقيم " بالية " مثل المحبة والمساواة والعدل) يستخدمه كل من هتلر ونوردو وهرتزل ، الذين يتحدثون عن اليهود باعتبارهم شعباً عضواً منبوذاً (قارن هذا بكلمات بوهر حيث يتحدث عن اليهود بوصفهم شعباً آسيوياً طُرد من آسيا ولكنها لم تُطرد منه ، أي أن آسيا تجري في دمه) . كما أن الصهيونية ترى ضرورة إخلاء أوروبا من اليهود ، ولعل الخلاف الوحيد هو أن الصهاينة يفضلون الطريقة البلغورية على الطريقة الهتلرية .

ويتضح مدى انتماء المنظومة النازية للحضارة الغربية الحديثة في معلومة مخيفة وغريبة ولكنها غامضة ومثّلة في ذات الوقت ، وهي أن النازيين كانوا يطلقون عبارة «مسلم» على اليهودي الذي تقرر إبادته . فكأن النازيين هم حملة عبء الرؤية الأوروبية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية لهم ، وهي الحضارة الإسلامية ، وهم لم ينسوا قط هذا العبء وهم يبيدون بعضاً من سكان أوروبا غير النافعين والذين يقولون تقدماً عن الآخرين .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني للإبادة

German Political and Social Context of the Extermination

بعد أن درسنا الإبادة كإمكانية كامنة داخل الحضارة الغربية الحديثة وداخل المجتمع الألماني الحديث ، وبعد أن درسنا العناصر الحضارية التي ساعدت على تحقق الإمكانية ، بوسعنا أن ندرس العناصر السياسية والاجتماعية الألمانية العامة والعناصر الألمانية اليهودية الخاصة ، التي ساهمت بدورها في تحقيق الإمكانية الإبادة. وقد يكون من المنطقي أن نبدأ بتناول أهم العناصر التاريخية في القرن العشرين وأثرها على ألمانيا ، أي عملية التحديث أو تحول المجتمع الغربي من النمط التقليدي إلى ما يُسمى «النمط العقلاني (المادي) أو الرشيد» في الإنتاج والإدارة ، والذي يخضع لعمليات الرشيد . ونحن لا نشير عادةً إلى التحديث إلا عندما نتناول العالم الثالث ، وذلك بسبب وضوح هذه العملية فيه ، وبسبب كونها عملية مازلتا نعيشها في وقتنا الحاضر . لكن عملية التحديث هي المدخل الأساسي لفهم كثير من الظواهر في العالم الغربي منذ القرن الرابع عشر ، برغم أنها تأخذ أشكالاً أكثر تركيياً وتقدماً هناك .

ولعل من أهم الحقائق التي تسم عملية التحديث أو التصنيع في ألمانيا ، أنها بدأت في وقت متأخر قليلاً بالنسبة لغرب أوروبا . فالجهود الرامية لتحديث ألمانيا ظلت متعثرة ولم تحرز تقدماً إلا في سبعينيات

المنظومة الغربية وطريقة حلها للمشاكل . فقد أشار (في أغسطس ١٩٤٠) إلى أنه تم إفراغ بروسيا الشرقية من سكانها الألمان بعد الحرب العالمية الأولى ، وتساءل عن وجه الضرر في نقل ٦٠٠ ألف يهودي من أراضي الرايخ (وكان هناك مشروع نازي ترانسفير أكبر وهو نقل ٣١ مليون «غير ألماني» من شرق أوروبا ، وهي عبارة بلفورية لا تختلف عن تلك العبارة التي وردت في وعد بلفور حيث تمت الإشارة لسكان فلسطين العرب على أنهم «الجماعات غير اليهودية»).

وداخل هذا التصور الترانسفيري البلفوري الغربي تحرك هتلر لتنفيذ خطته :

- ١ - قام هتلر بشحن عشرة آلاف يهودي وأرسلهم عبر الحدود إلى بولندا في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، ولكن الحدود البولندية كانت موصدة دونهم (بولندا هي الأخرى كانت تود الدفاع عن مصالحها المادية) .
- ٢ - استمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهود حتى نهاية الحكم النازي . فبذلت المحاولة تلو الأخرى لتوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين . وكان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمى «مشروع مدغشقر» يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية . ولكن معظم هذه المشروعات فشلت . ولم تُطرح بدائل أخرى ، فالجال الاستعماري الخيوي لألمانيا ، بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، كان محدوداً .
- ٣ - لم تكن الدول الغربية (التي تتباكى حتى الآن على ضحايا الإبادة) ترحب هي الأخرى بالمهاجرين اليهود أو غيرهم (بسبب حالة الكساد الاقتصادي) .

وكان هتلر يسمي خطة الترانسفير هذه «الحل الشامل» و«الحل النهائي» ولكن هذا الحل النهائي البلفوري لم يكن متاحاً لهتلر ، ولذا لم يكن أمامه سوى استبعاد اليهود بطريقة غير بلفورية ، وتميّز بكونها أكثر حدة ومنهجية وتبلوراً وسوقية . ومع هذا يبيل كثير من العلماء إلى القول بأن «الحل النهائي النازي للمسألة اليهودية» ظل ذا طابع بلفوري حتى النهاية ، أي حل نهائي من خلال الترانسفير ، أو التهجير القسري إما إلى المستعمرات في آسيا وأفريقيا أو إلى معسكرات العمل والسخرة في ألمانيا ، التي لم تكن الأوضاع فيها تختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة في المستعمرات .

وإذا كان فكر هتلر هو نتاج لحضارة الغرب ، خصوصاً في القرن التاسع عشر ، والتي تدور داخل الإطار العرقي العلماني الإمبريالي الدارويني ، فلا بد أن تكون هناك نقط اتفاق بين هذا الفكر والفكر الصهيوني الذي هو أيضاً نتاج المعطيات الفكرية نفسها .

تربة خصبة في ألمانيا . (ويقف هذا الوضع على الطرف النقيض من التحديث التدريجي البطيء في غرب أوروبا الذي سمح بتسيخ قيم الفردية والليبرالية ثم بهيمنة البورجوازية في نهاية الأمر على المجتمع ككل بمختلف أعضائه ومؤسسته) .

وتم التحديث في ألمانيا تحت ظروف خاصة (التحديث المتأخر الذي تزامن مع توحيد ألمانيا) . وقد نجح بسمارك في استغلالها ببراعة فائقة ، حيث اكتشف أن العناصر الثورية في الطبقة الوسطى والبورجوازية تبنت قضية توحيد ألمانيا وربطت بينها وبين قضية القضاء على القوى التقليدية والمحافظة في المجتمع والتي كان من صالحها أن تبقي على وضع التجزئة . لكن بسمارك توصل إلى صيغة عقائدية تسمح بفصل الهدف الأول عن الثاني ، كما تسمح باستغلال قضية الوحدة في تصفية العناصر الليبرالية والثورية مثلما يحدث في العالم الثالث في الوقت الحاضر عندما تطرح قضايا قومية يُقال لها « مصيرية » للتحكم في الجبهة الداخلية ونصفية أية جيوب معارضة باسم الإجماع القومي () في تلك اللحظة المصيرية من تاريخ الأمة () . وانطلاقاً من هذا ، تبنت القوى والطبقات المحافظة والأرستقراطية ، بقيادة بسمارك ، قضية توحيد ألمانيا وضرورة قيام سلطة مركزية ، بعد أن أصبحت موضع إجماع قومي . ثم أنجزت هذا الهدف التاريخي في نهاية الأمر . ولذا ، كان يوسع هذه القوى أن تبرم هدنة بينها وبين البورجوازية بحيث تحتفظ هي بالقيادة السياسية لألمانيا على أن تستفيد البورجوازية من النتائج الاقتصادية لعملية التوحيد ، أي أن عملية التحديث في ألمانيا تمت تحت مظلة القوى التقليدية المحافظة مثلما كان الحال . وإن تباينت صورته ، في دول شرق أوروبا . ومن ثم ، ظهر مجتمع حديث يُدار بشكل حديث من قِبَل طبقة تقليدية ذات مُثُلَ تسلطية شمولية ، وهذا مغاير تماماً لنمط التحديث في كلٍّ من فرنسا وإنجلترا .

ومن الحقائق الأساسية التي كثيراً ما يغفل عنها ، أن التحديث في العالم الغربي ، في أوروبا الغربية خاصة ، ارتبط ارتباطاً كاملاً وعضوياً بالمشروع الاستعماري الغربي . ولا يمكن رؤية عملية التحديث (والتراكم الرأسمالي المرتبط به) ، في فرنسا وإنجلترا وهولندا وبلجيكا وأمثالها ، خارج إطار التوسع الاستعماري ونحويل شعوب آسيا وأفريقيا إلى ما يشبه الطبقة العاملة (مصدر فائض القيمة) بالنسبة إلى شعوب الغرب (ولذا فحن بفضل الحديث عن «التراكم الإمبريالي») . وما لا شك فيه ، أن التوسع الاستعماري يُساهم في التخفيف من حدة كثير من المشاكل الناجمة عن التحديث مثل الأزمات الاقتصادية والانفجارات السكانية ، وذلك عن طريق

القرن الماضي بعد الحرب البروسية الفرنسية نظراً لعدم وجود سلطة مركزية . ولكن الوضع تغير بعد أن أحرزت بروسيا انتصارها الساحق على فرنسا ، وبعد أن ضمت الألزاس واللورين ، إذ قامت بتوحيد ألمانيا ، ثم حققت عملية التحديث من خلال قفزات هائلة في فترة وجيزة نسبياً ، بحيث أصبحت ألمانيا من كبريات الدول الصناعية لا يفوقها سوى إنجلترا ، بل إنها تفوقت على إنجلترا ذاتها في بعض الجوانب .

وعادةً ما يؤدي التحديث السريع إلى اضطرابات اجتماعية ، لأنه لا يتيح الفرصة أمام أعضاء كثير من الجماعات والأقليات الإثنية والدينية للتأقلم مع الوضع الجديد ، بحيث يمكنهم إعادة تحديد ولائهم وإعادة صياغة هويتهم بما يتفق مع متطلبات الولاء للدولة القومية الحديثة . وقد ظهر هذا الوضع ، أول ما ظهر ، حينما سعت الدولة الألمانية الجديدة ، ذات التوجه البروتستانتي الواضح أو ذات الديباجات البروتستانتية ، إلى وضع كل النشاطات الاقتصادية والثقافية تحت سيطرتها ، وهذا أمر أساسي في عملية الترشيد . وعلى سبيل المثال ، حاولت الدولة الجديدة السيطرة على النظام التعليمي بأكمله ، ومن ثم ، تدخلت في عملية تعيين (وفصل) المدرسين في المدارس الكاثوليكية حتى يمتثلوا لأوامرها هي ولا يخضعوا لسلطان الكنيسة ، وحتى تتحول الأقلية الكاثوليكية من جماعة شبه ألمانية لها سماتها الخاصة يتوزع ولاؤها بين القيم الدينية المطلقة والقيم القومية العضوية إلى جماعة ألمانية خالصة تدين بالولاء للدولة وحدها . وقد أدّى هذا إلى صدام بين الدولة والكتلة الكاثوليكية الضخمة ، وأطلق على هذا الصدام مصطلح «كولتوركامبف» Kulturkampf أي «الكفاح الثقافي» (وقد وقف أعضاء الجماعة اليهودية إلى جانب الدولة ضد أعضاء الجماعة الكاثوليكية) .

وأدّى التحديث السريع إلى اقتلاع أعداد كبيرة من الجماهير الريفية من مجتمعاتهم المترابطة (جمائيشافت) والإلقاء بهم في المدن الضخمة التي تسود فيها العلاقات التعاقدية (جيسليشافت) . وتزايدت درجة الاغتراب بين أعضاء الطبقة الوسطى وغيرها من الطبقات ، حيث تغير أسلوب حياتهم نتيجة لزيادة حجم المدن بسرعة مذهلة وظهور مؤسسات قومية رأسمالية ضخمة لم يألفوها . وفي مثل هذه الظروف ، يبحث أعضاء المجتمع في العادة عن عقيدة متكاملة تحجب عن أسئلتهم وتغنيهم الطمأنينة التي يفقدونها في المجتمع الجديد وتحميهم من وحشية وتائر التغير السريع . وحيث إن العقائد الشمولية تقوم بهذه المهمة على أكمل وجه ، فقد وجدت

مليار مارك ذهبي . وبرغم معارضة جميع الأحزاب الألمانية لتلك الشروط ، اضطرت جمهورية وايمار في النهاية إلى أن ترضخ . وكما هو الحال في مثل هذه المواقف ، حينما تُجرَح الكبرياء الوطني لشعب ما ، ذاع بين الألمان الاعتقاد بأن ألمانيا لم تُهزم وإنما طعنها الثوريون والليبراليون واليهود من الخلف .

وأدَّى الوضع المذكور إلى تدهور سعر المارك من ٤,٢٠ مارك للدولار في عام ١٩١٤ إلى ١٦٢ ماركاً للدولار ، ثم إلى سبعة آلاف مارك عام ١٩٢٢ . وقد احتلت فرنسا منطقة الروهر عام ١٩٢٣ بحجة فشل ألمانيا في إرسال شحنة من الخشب على سبيل التعويض العيني ، ثم قامت القوات الفرنسية والبلجيكية بإلقاء القبض على العمال الألمان الذين رفضوا العمل في المناجم ، وفُرض حصار اقتصادي تم بمقتضاه فصل منطقة الروهر وكذلك وادي الراين المحتلين عن ألمانيا ، الأمر الذي كان يشكل ضربة اقتصادية هائلة لألمانيا ، خصوصاً بعد أن تم استقطاع منطقة سيليزيا العليا الغنية بالفحم . وبناءً على ذلك ، هبط المارك إلى ١٦٠ ألفاً للدولار في عام ١٩٢٣ ثم إلى ٤,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ في نوفمبر ١٩٢٣ . ولأن جمهورية وايمار لم تضع أية قيود على حرية رأس المال ، فقد استفاد كثير من الرأسماليين (ومنهم أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية) من هذا الوضع ، وحققوا أرباحاً هائلة وراكمو الثروات في وقت كانت فيه معظم طبقات الشعب الألماني تعاني من الفقر والهوان .

وبذلت حكومة ألمانيا قصارى جهدها لإصلاح هذا الوضع . وبالفعل ، تم تحديد ديون ألمانيا وطريقة دفعها ، وبدأت قوات الحلفاء في الانسحاب مع أوائل الثلاثينيات ، ثم عقدت الجمهورية بعض القروض لاستثمارها في الاقتصاد الألماني حتى ظهرت بعض علامات التحسن والاستقرار . ولكن هذا الاستقرار كان يعتمد بالدرجة الأولى على القروض الخارجية ، ومن ثم ، أدت أزمة الرأسمالية العالمية عام ١٩٢٩ وانهيار البورصة في نيويورك إلى انهيار الوضع في ألمانيا ، فوصل عدد العاطلين فيها عن العمل إلى ما يزيد على ستة ملايين (أي نحو ثلث مجموع القوى العاملة في الفترة ١٩٣٠ - ١٩٣٢) ، وانخفض الدخل بنسبة ٤٣٪ ، وفقدت الطبقة الوسطى ما تبقى لديها من مدخرات .

هذا هو السياق الاجتماعي والسياسي العام الذي أدَّى إلى احتدام التناقضات والثورات داخل المجتمع الألماني والذي أدَّى في نهاية الأمر إلى تَفَجُّر الوضع الداخلي وظهور الأفكار الشمولية الاستيعادية وإلى ظهور إمبريالية تنجه نحو « الداخل » الأوروبي بعد

تصديرها إلى المستعمرات . ولكن ألمانيا لم يكن لها مشروع استعماري مستقل نظراً لانقسامها ، وقد مرت عليها مرحلة الاستعمار الماركنتالي (التجاري) في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كما مرت عليها مرحلة الاستعمار في إطار المنافسة الحرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولم تدخل ألمانيا الحلبة الاستعمارية إلا في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية بعد أن كانت إنجلترا وفرنسا (ومن قبلهما إسبانيا والبرتغال) قد التهمتتا معظم أنحاء العالم . وبطبيعة الحال ، سعت ألمانيا ، بعد أن تسارعت وتيرة التحديث داخلها ، إلى بسط نفوذها على بعض مناطق العالم ، فأنشأت علاقات وثيقة مع الدولة العثمانية وحلَّت محل بريطانيا وفرنسا كحليفة كبرى ، كما احتلت بعض المناطق في أفريقيا بل في أوروبا ذاتها . وقد تحطم المشروع الاستعماري لألمانيا تماماً في الحرب العالمية الأولى ، إذ اقتسم الحلفاء (المتصرون) مستعمراتها فيما بينهم ولم يعد لها مجال استعماري حيوي تقوم بتصدير مشاكلها إليه .

ويمكن القول بأن معاهدة فرساي لم تحطم المشروع الاستعماري الألماني وحسب ، بل حطمت المشروع التحديثي الألماني ، وحولت ألمانيا نفسها إلى ما يشبه المستعمرة . وقد مُنعت ألمانيا من الاتحاد مع النمسا ، مع أن ذلك كان مطلباً للشعبيين الألماني والنمساوي كليهما . كما تم استقطاع أجزاء كبيرة منها ضُمَّت إلى كلٍّ من الدنمارك وبولندا وفرنسا وبلجيكا ولتوانيا . ووُضعت منطقة السار ، الغنية بالفحم ، تحت إشراف عصبة الأمم لمدة خمسة عشر عاماً أُديرَت مناجمها أثناءها عن طريق فرنسا . وعلاوة على هذا ، تم تحديد حجم الجيش الألماني الذي سلَّم كميات هائلة من الزاد والعتاد الحربي للحلفاء ، وخُفِّضت كمية الذخيرة المسموح بإنتاجها ، وخُفِّضت قوة السلاح البحري ولم يُسمَح بوجود قوات جوية بثبات ، كما فُرضت غرامة مالية كبيرة على ألمانيا . وفضلاً عن ذلك ، تقرر أن تحتل قوات الحلفاء الضفة اليسرى للراين لمدة خمسة عشر عاماً للتأكد من تنفيذ شروط المعاهدة . وألغى الحلفاء المتصرون المعاهدات التجارية المبرمة بين ألمانيا والدول الأخرى ، وصُودرت الودائع المالية الألمانية في الخارج ، وأنقص حجم البحرية التجارية الألمانية إلى عُشر حجمها . وكل هذه الإجراءات تذكر المرء بما حدث لمحمد علي ، صاحب أول تجربة تحديث في الشرق العربي ، والذي هدَّظ ظهور الخطط الغربية للاستيلاء على تركة الدولة العثمانية ، رجل أوروبا المريض . وفي نهاية الأمر ، كان على ألمانيا أن تدفع غرامة عينية قدرها ٢٠ مليار مارك ذهبي ، على أن تدفع جزءاً منها فوراً وجزءاً منها بعد حين . وتم تحديد الغرامة في نهاية الأمر ، في أبريل ١٩٢١ ، بمقدار ١٣٢

الاقتصاد الجديد ، هاجرت أعداد هائلة منهم إلى المدن الكبرى . ومع نهاية القرن ، كانت أغليبيتهم تقيم في المدن الكبرى مثل براسلاو وليبيز وكولونيا ، بالإضافة إلى هامبورج وفرانكفورت . وكانت برلين تضم ثلث يهود ألمانيا .

وأدى تركيز يهود ألمانيا في المدن إلى وضوح تمايزهم الوظيفي والمهني ، وهي ظاهرة مسوغة في القسمة في دول وسط أوروبا ، وخصوصاً في ألمانيا . فلقد كان أعضاء الجماعة اليهودية في الإمارات الألمانية يشكلون ، في العصور الوسطى ، جماعة وظيفية وسيطة تضطلع بدور التاجر والصيرفي والرابي . ثم تم طردهم من عدة مدن وإمارات ألمانية ، فهاجروا منها إلى مدن وإمارات ألمانية أخرى . ولكن ، مع حلول القرن السادس عشر ، سُمح لليهود بالاستقرار في كثير من المدن والإمارات التي كانوا قد طردوا منها ، وتم استخدامهم كعنصر تجاري نشط لديه رأس المال اللازم والاتصالات الدولية . وكان يهود المارنوس (الذين طردوا من شبه جزيرة أيسريا) من أهم هذه العناصر . وعادة ما كان يتم استخدام اليهود ، سواء في العصور الوسطى أو في القرن السادس عشر ، بأمر من الإمبراطور أو الأمير أو النخبة الحكيمة ، فكان أعضاء الجماعات اليهودية يتبعون النخبة الحكيمة (أو أحد أعضائها) بشكل مباشر ويشكلون مصدر دخل كبير لها ، وكان الممولون اليهود يقومون باعتصار الجماعير من خلال الفوائد الضخمة التي يحصلونها على قروضهم . ولكن النخبة الحكيمة كانت تستوي على نسبة ضخمة من الأرباح في نهاية الأمر عن طريق الضرائب التي تفرضها على أعضاء الجماعات اليهودية . وفي القرن السادس عشر ظهرت مهنة يهودي البلاط الذي يدير الخزانة الملكية ويعقد الصفقات والقروض بالنيابة عن الأمراء ويمون الخروب ويدير الاتصالات التجارية اللازمة ، أي أن أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا كانوا مرتبطين بالحكام ملتصقين به ومتميزين طبقياً ومهنيّاً عن بقية أفراد الشعب . وهو وضع ازداد تبلوراً في القرن التاسع عشر ، كما يبين الجدول التالي الخاص بتوزيع أعضاء الجماعة اليهودية في المهن والحرف المختلفة :

المهنة أو الحرفة	١٨٩٥	١٩٠٣
الزراعة	٪١،٤	٪١،٣
الصناعة	٪١٩،٣	٪٢٢،٣
التجارة والنقل	٪٥٦،٠	٪٥٠،٦
عمال أجراء	٪٠،٤	٪٠،٦
مهن حرة	٪٦،١	٪٦،٥
أعمال حرة	٪١٦،٧	٪١٩،٠

أن حُرمت من "الخارج" الآسيوي والإفريقي "العالمي" . فقد اتجه المشروع الاستعماري الألماني بكل قوته ، حينما استعاده ، نحو الداخل ، أي نحو الشعوب السلافية المجاورة والأقليات المختلفة مثل الغجر واليهود ، حيث اعتبر المناطق التي تعيش فيها مجاله الحيوي ، الذي لا بد من تفرغ من تلك العناصر التي لا تنتمي إلى الفولك والتي تعوق تحقيقه لمصلحته وأهدافه .

السياق السياسي والاجتماعي الألماني اليهودي للإبادة

Jewish-German Political and Social Context of the Extermination

ولكن إلى جانب هذه الظروف الألمانية العامة ، كانت هناك ظروف خاصة بأعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا ساهمت في تحويل الموقف المتفجر إلى وضع مدمر بالنسبة لهم ولغيرهم من الأقليات ، وهو ما ستناوله في هذا الجزء .

لم يكن للجماعة اليهودية في ألمانيا وزن عديدي يذكر . فمن الناحية الكمية المحضة ، لم يكن أعضاؤها يشكلون أي تحدٍّ خاص للأغلبية الألمانية الساحقة كما يبين الجدول التالي :

السنة	عدد اليهود	النسبة إلى عدد السكان
١٨٧١	٥١٢,١٥٠	٪١,٢٢
١٨٨٠	٥١٢,٦١٢	٪١,٢٤
١٨٩٠	٥٦٧,٨٨٤	٪١,١٥
١٩٠٠	٥٨٦,٨٣٣	٪١,٠٤
١٩١٠	٦١٥,٠٢١	٪٠,٩٥

ويلاحظ من الجدول السابق أن الجماعة اليهودية لم تكن آخذة في التزايد برغم الانفجار السكاني في أوروبا في القرن التاسع عشر (زاد عدد يهود شرق أوروبا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩٣٥ بنحو ستة أضعاف) . كما أن نسبة يهود ألمانيا إلى عدد السكان كانت آخذة في التناقص ، وقد تزايد هذا الاتجاه عام ١٩١٠ بسبب التنصّر والزواج المختلط الذي بلغت نسبته بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧ نحو ٤٤,٥٪ من جملة الزيجات اليهودية .

ولذا ، لم تكن المسألة اليهودية في ألمانيا كامة في الكم كما كان الوضع (إلى حد ما) في شرق أوروبا ، وإنما في الكيف ، وعلى وجه التحديد في الوضع الوظيفي المتميز لأعضاء الجماعة اليهودية الذي تأثر تأثراً عميقاً بعملية التحديث في ألمانيا . فقد كان أعضاء الجماعة ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ، يعيشون أساساً في الريف والمدن الصغيرة . ولكن ، مع بدايات القرن التاسع عشر وظهر

أعضاء الجماعة اليهودية ارتبطوا بالمثل الليبرالية في وقت كان في المجتمع الألماني (ككل) يتخلى ، بعد تعثر التحديث ، عن هذه المثل ليبحث عن طرق أخرى شمولية لحل مشاكله . ولعل في هذا الارتباط الوثيق بين الرأسمالية الألمانية ويهود ألمانيا ما يُفسّر الفد الاشتراكي الثوري العنيف لليهود باعتبارهم ممثلين للرأسمالية . ولليهودية باعتبارها دين الاقتصاد الجديد . ولعل هذا يُفسّر أيضاً السبب في أن ماركس يقرن اليهودية بروح التجارة ويوحد بينهما ، ويرى أن إله إسرائيل الطماع هو المال . وهذا التراث الاشتراكي في نقد الشخصية اليهودية نابع من تربة ألمانية أساساً ، حيث كان اليهود ممثلين بشكل واضح في الطبقات الرأسمالية . ولا ينطبق هذا ، بأنه حال ، على شرق أوروبا حيث تحوّلت البورجوازية الصغيرة والجماعات اليهودية إلى بروليتاريا تعاني من ويلات الفقر .

وبرغم هذا الربط بين الجماعات اليهودية والرأسمالية في ألمانيا ، فقد انضم عدد كبير من المثقفين اليهود إلى الحركات الثورية فيها ، وكان ارتباطهم بها على المستوى الفردي واضحاً ووضوح الارتباط الجماعي لليهود بالرأسمالية . فكان رئيس حكومة بافاريا الثورية (البلشفية) يهودياً ، وكان كثير من قيادات الحركة الثورية المتطرفة (مثل روزا لوكسمبرج) من اليهود ، وكان هناك شبح ماركس يرفرف على الجميع . ثم اتضح عام ١٩١٧ الوجود اليهودي الملحوظ في الثورة البلشفية (التي كان يُطلق عليها في بعض الأوساط «الثورة اليهودية»).

وهكذا ، ارتبط اليهودي بالصناعة والاستغلال والمشروع الحر ، وكذلك بالثورة الاشتراكية المتطرفة والحركات الثورية ، أي أن اليهودي أصبح رمزاً جيداً لهذا المجتمع الحديث (جيسيلشافت) المبني على التعاقد والتنافس ، والذي قوض دعائم المجتمع الألماني المترابط (جمائينشافت) ، وأصبح بؤرة تتجمع فيها مخاوف الطبقة الوسطى التي كانت أخذت في التدهور الاجتماعي والطبقي بسبب التضخم والبطالة . بل أصبح رمزاً لكل تلك القوى ، من اليمين واليسار ، التي أودت بألمانيا وفرضت عليها أن تدعن للحلفاء .

وحينما استأنفت ألمانيا عملية التحديث بعد الحرب ، تمت هذه العملية بقروض أجنبية وتحت رعاية الدولة ، أي أن النمط الاقتصادي السائد في ألمانيا لم يكن فيه مجالاً للرأسمال الحر تماماً ولا للنمط الاشتراكي الجماعي . وارتطمت الدولة النازية بكل من الرأسمال الحر الذي ارتبط به اليهود واليسار المتطرف الذي وُجد فيه اليهود بشكل ملحوظ .

وساهمت العوامل السابقة جميعاً ، بشكل أو بآخر ، في عزل

وكان وجود بعض أعضاء الجماعة اليهودية كوسطاء أمراً واضحاً جداً ، فقد تركّزوا في صناعة الأثاث والملابس الجاهزة وارتبطوا بالصيرفة والمحال التجارية ، الأمر الذي حولهم إلى شخصيات مكروهة من الطبقة الوسطى ، خصوصاً في ظروف الأزمة . واتضح كذلك وجود اليهود في مهنة الإقراض وتحصيل ريع الملكيات الزراعية (بالتبابة عن أصحاب الأملاك) ، كما عملوا تجار مواش ، الأمر الذي جعلهم مكروهين من الفلاحين . وقبل الحرب العالمية الثانية ، كان عدد يهود ألمانيا لا يزيد على ١٪ وكان يهود برلين يُشكّلون ٥٪ من سكانها ، ومع هذا كانوا يُشكّلون النسب التالية في بعض القطاعات الاقتصادية في برلين :

النسبة	القطاع الاقتصادي
٧٠٪	من مجموع أصحاب الحوانيت
٣٠٪	من مجموع تجار الملابس
٢٥٪	في تجارة الأثاث
١٧٪	من مجموع العاملين في المصارف
١٠٪	من الأطباء
١٦٪	من المحامين

ومن الإحصاءات الأخرى ذات الدلالة أن يهود برلين الذين كانوا يشكلون - كما أسلفنا - ٥٪ من سكانها كانوا يدفعون ٣٠٪ من جملة الضرائب ، وكان يهود فرانكفورت الذين يشكلون ٧٪ من سكانها يدفعون ٢٨٪ من ضرائبها ، كما بلغت نسبة أصحاب الأعمال ومديري البنوك من اليهود في برلين ١٥ ، ٥٥٪ في عام ١٨٨٢ ، ثم هبطت إلى ٦ ، ٣٢٪ في عام ١٩٢٥ (وهي أيضاً نسبة عالية) . وتقول الموسوعة اليهودية العالمية إن الهبوط في النسبة المثوية لم يصاحبه هبوط في النفوذ ، إذ كان اليهود ، في بعض السنوات ، يُديرون أهم ثلاثة بنوك تتحكم في ٦٠٪ من نسبة الإقراض في بعض السنوات ، وكانوا يديرون نحو ثلاثة أرباع القروض الأجنبية التي مُنحت لألمانيا من عام ١٩٢٤ إلى عام ١٩٢٩ . كما سيطر اليهود على ٣٢ ، ٥٧٪ من صناعة المعادن في عام ١٩٣٠ . وهكذا ، ارتبط اليهود في العقل الألماني بالمشروع الحر والمضاربات والسياسات الليبرالية . ومن جهة أخرى ، كان والتر راتناو (وزير التعمير ثم وزير الخزانة في حكومة وايمار) يهودياً ، كما كان واضح دستور هذه الجمهورية (التي استمرت فترة قصيرة) يهودياً أيضاً . وكانت هذه الجمهورية ترمز في العقل الألماني لليبرالية المتخاذلة التهالكة أمام هجوم أعداء ألمانيا . ومن قبيل المفارقات أن

حتى ولو تم في إطار المشروع الاستعماري الألماني . ومع هذا ، أصدرت الحكومة الألمانية (بعد صدور وعد بلفور) نصيحاً مبهماً يشبه وعد بلفور من بعض الوجوه ، تُعد فيه بمساعدة المشروع الصهيوني على أمل أن تجند يهود العالم لصالحها وتكسبهم إلى صفها . وقد جاء هذا التصريح متأخراً ، ولم يؤد في النهاية إلى شيء يُذكر . ولكن ما يهمني في هذا السياق هو أن التعامل مع اليهود (باعتبارهم جزءاً من المشروع الاستعماري الألماني) يُعتبر (في جوهره) تهميشاً لهم من منظور المشروع القومي الألماني ، فهو يعطيهم حقوقاً للاستيطان في فلسطين ، كما يمنحهم الحق في التمتع برعاية الحكومة الألمانية « خارج » ألمانيا ، الأمر الذي يعني ضمناً إنكار حقوقهم « داخلها » . فقد كان الاستعمار الاستيطاني هو الإطار الذي يتم من خلاله تصدير الفائض البشري غير المرغوب فيه إلى الشرق . ولكن القيادة الصهيونية ، بقبولها هذا الإطار ، رضيت بالتعريف الضمني الكامن لليهود كعنصر غريب غير متم يجب أن يتم تصديره عن طريق التهجير . وهذا ، على كل حال ، هو التعريف الصهيوني (النواضع) لليهود .

٢ - تهميش اليهود من خلال هجرة يهود شرق أوروبا :

تبيّنت الهجرة الكثيفة لليهود البديشية في أعقاب تعثر التحديث في شرق أوروبا في تهميش اليهود وفصلهم عن التشكيل القومي الألماني العضوي . ومن الجدير بالذكر أن الهجرة اليهودية الحديثة اتسمت بأنها هجرة داخلية في أوروبا (أي من بلد أوروبي إلى آخر) حتى عام ١٨٨٠ . ولم تبدأ الهجرة عبر الأطلنطي بشكل مكثف إلا بعد ذلك التاريخ . وقد هاجر ، في المرحلة الأولى بصفة خاصة ، مئات الألوف ، ووصلت أعداد كبيرة منهم إلى إنجلترا وتبشوا في استصدار وعد بلفور لتحويل سبل الهجرة عنها ، كما وصلت أعداد لا بأس بها إلى ألمانيا .

ومما زاد الأمور سوءاً أن ألمانيا قامت ، في نهاية القرن الثامن عشر ، بضم بولندا التي كانت تضم يهوداً من المتحدثين باليديشية (أوست بودين ، أي يهود شرق أوروبا) ، وهو ما كان يعني أن يهاجر هؤلاء إلى المدن الألمانية الكبرى . وبالفعل ، انتقل معظم يهود بوزنان إلى ألمانيا ، وكذا أعداد كبيرة من يهود جاليسيا . ولا شك في أن ظهور هذه الكتلة الضخمة من يهود شرق أوروبا ذوي الطابع الجيتوي المنغلق ، والذين لا يوجد لديهم (كغرياء مُقتلَعين) التزام قوي بالمعايير الأخلاقية المحلية أو بالقيم الغربية ، كما يفتقرون إلى الكفاءات المطلوبة في التعامل مع أوروبا الحديثة والاقتصاد الجديد ، كان يمثل تهديداً للموقع الطبقي لليهود ولكانتهم الاجتماعية . وقد

أعضاء الجماعة اليهودية عن بقية التشكيل السياسي الحضاري الألماني . ولكن العنصرين التاليين كانا حاسمين في فصلهما عن سواد الشعب الألماني ، وفي تهميشهما تماماً . والعنصران هما :

١- العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني :

تعود العلاقة الخاصة بين أعضاء الجماعة اليهودية والمشروع الاستعماري الألماني إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وتُعتبر امتداداً لظاهرة يهود البلاط ولارتباط أعضاء الجماعة بالحاكم . (تُعدُّ عائلة روتشيلد مثلاً جيداً على ذلك ، حيث كانت آخر أسرة من أسر يهود البلاط وهي أيضاً أول أسرة يهودية ثرية تتولى مشاريع الاستيطان الصهيوني) .

والجدير بالذكر أن وضع اليهود تحسناً كثيراً في منتصف القرن التاسع عشر مع توحيد ألمانيا ، فقد كان ثلاثة من أهم مستشاري بسمارك من اليهود . ويُقال إن اليهودي المتنصر فريدريك ستاهل هو مُنظر الدعوة إلى العسكرية البروسية . والواقع أن بسمارك كان يفكر ، حسب تقاليد النخبة الحاكمة الألمانية ، في استخدام اليهود دائماً في مشاريعه . ويظهر ذلك الاتجاه بشكل أوضح في تفكير إمبراطور ألمانيا (ويلهلم الثاني) الذي كان يرى إمكان استخدام اليهود في مشروعه الاستعماري ، كما كان واعياً بالقدرات المالية لليهود وحجم اتصالاتهم الدولية . وكانت مفاوضات هرتزل ، مع إمبراطور ألمانيا ، تدور داخل هذا الإطار وتنطلق من هذا التفاهم الضمني . وفي الوقت نفسه ، كانت المنظمة الصهيونية في ألمانيا لا تكف عن الحديث عن نفع اليهود وإمكان استخدامهم في المشاريع الاستعمارية الألمانية ، وتوطينهم في فلسطين أو في غيرها تحت راية الاستعمار الألماني . وقامت جمعية الغوث الألمانية اليهودية بالمساهمة في النشاط الاستيطاني الصهيوني باسم الاستعمار الألماني ، كما كان يُنظر إلى العنصر اليهودي من شرق أوروبا (المتحدث باليديشية) باعتباره عنصراً ألمانياً ، يمكن تسخيرها في صالح المشروع الألماني الاستيطاني .

وكما هو معروف ، صدر وعد بلفور الذي ينطوي ، بشكل ضمني ، على إمكان تحويل اليهود إلى عناصر تدين بالولاء للاستعمار الإنجليزي . ورغم هذا ، استمرت رئاسة المنظمة الصهيونية الموجودة آنذاك في ألمانيا في التقرب إلى النظام الحاكم ، واستمرت في بذل المحاولات لاستصدار وعد بلفوري ألماني . ولكن هذه الجهود لم تُثمر ، بسبب علاقة ألمانيا الخاصة بالدولة العثمانية ورفض الخليفة العثماني الموافقة على المشروع الصهيوني

جمعية خيرية قامت بنشاط استيطاني في فلسطين كما أشرنا) ، وغير ذلك من جمعيات دينية وثقافية . وتم تأسيس اتحاد عام لهذه الجمعيات في أواخر العشرينيات . ولكن الأمر الذي يجدر ذكره ، من وجهة نظر هذه الدراسة ، هو تأسيس فرع للمنظمة الصهيونية في ألمانيا (بل أصبح المقر الرئيسي داخل ألمانيا منذ عام ١٩٠٤) . وترأس فرع ألمانيا رجل ألماني متزوج من يهودية من شرق أوروبا (كورن بلومفلد) طرح شعارات قومية عضوية كانت تسبب الكثير من الحرج لأعضاء الجماعة الذين كانوا يحاولون الاندماج . وتوجت جهود باستصدار قرار بوزنان الصهيوني عام ١٩١٢ الذي جعل من الهجرة إلى فلسطين هدفاً أساسياً لكل يهودي . وظل الصهاينة ، ومعظمهم من أصل شرق أوروبي ، يتقبلون مختلف المنطلقات القومية العضوية . فدافع مارتن بوبر عن علاقة التربة بالدم ، كما دافع عن أن اليهود شعب آسيوي أساساً . وتحدث ناحوم جولدمان عن اليهود كعنصر هدام في كل المجتمعات لأنهم غرباء ، وتحدث جيكون كلاتسكين عن ازدواج الولاء عند اليهود ، وتحدث حايم وايزمان عن اليهود باعتبارهم عنصراً فائضاً يقف في حلق الأمة الألمانية ، وهي شعارات تعود كلها لتيودور هرتزل وماكس نورددو اللذين وضعاً أساس الصهيونية الألمانية . وأشاعت هذه الدعاية صورة سلبية للغاية عن أعضاء الجماعة اليهودية وعن عدم إمكان دمجهم في الشعب العضوي الألماني . وفي هذا المناخ ، ظهر هتلر وظهرت النازية . وأثناء محاكمات نورمبرج ، أصر الزعماء النازيون ، الواحد تلو الآخر ، على أنهم تعلموا ما تعلموه عن المسألة اليهودية من أدبيات الصهاينة .

ورغم هذا الجو الهستيرى الصهيوني النازي ، ظلت الجماعة اليهودية رافضة للمنطق الصهيوني واستمرت في مقاومة المنطق النازي . ومع وصول هتلر للحكم ، استولى الصهاينة على قيادة الجماعة اليهودية وطرحوا برنامجاً عام ١٩٣٣ لإعادة صياغة الجماعة اليهودية في ألمانيا وتعليم اليهود ما يتفق مع التقاليد الصهيونية ، وذلك عن طريق مزج القومية بالدين بهدف تهجيرهم خارج ألمانيا . وقد وصفت جمعية التنظيم المركزي للمواطنين الألمان هذا الموقف من قبل الصهاينة بأنه طعنة في الخلف . أما النازيون ، فوافقوا على الطرح الصهيوني للقضية وقدموا التأييد والدعم للأنشطة والمؤسسات الصهيونية .

وكانت كل هذه الأسباب النابعة من الميالبسات التاريخية والسياسية والحضارية العامة (أي المرتبطة بالمجتمع الألماني ككل) ، والخاصة (أي المرتبطة بالجماعة اليهودية على وجه التحديد) ، هي

شهدت سنوات العشرينيات من هذا القرن هجرة يهودية ضخمة من بولندا بسبب الأزمة الاقتصادية . وقد أشرنا من قبل إلى النسبة المرتفعة من الزيجات المختلطة بين يهود ألمانيا ، ويمكن أن نضيف هنا أننا نعتقد أن النسبة كانت عالية للغاية بين اليهود من أصل ألماني ، ولكن الإحصاءات لا تذكر سوى المتوسط العام دون أن تُفَرَّق بين يهود شرق أوروبا المقيمين في ألمانيا واليهود من أصل ألماني . وبوجه عام كان يهود ألمانيا يخفون ، بينما كان يهود الشرق يحلون محلهم ، أي أن الطابع العام للجماعة اليهودية كان أخذاً في التغيير وفي اكتساب طابع غير ألماني (كانت نسبة اليهود الأجانب بين يهود ألمانيا هي ٢٠٧٪ عام ١٨٨٠ ، ارتفعت إلى ١٢٠٨٪ عام ١٩١٠ ، ولا شك أنها استمرت في التزايد بعد هذا التاريخ) .

وتحوّلت ألمانيا ، بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى مركز للثقافة العبرية نتيجةً لهرب عديد من الكتاب اليهود من روسيا ، فتم تأسيس دار نشر عبرية ، كما أسست الحركة الصهيونية كثيراً من المدارس لتعليم العبرية . (وهو اتجاه أيدته النازيون فيما بعد ودعموه لأنهم كانوا يرون ضرورة عبرنة اليهود باعتبارهم شعباً عضواً مستقلاً عن الشعب العضوي الألماني . ولنا أن نلاحظ أن الدولة النازية سبقت الدولة الصهيونية في تبني كثير من مشاريع العبرية) . وكان من شأن هذا كله أن أصبح العنصر اليهودي مرة أخرى عنصراً عضواً متماسكاً غريباً يقف خارج المجتمع أو على هامشه . ولذا ، كان أحد المطالب الأساسية لأعداء اليهود وقف الهجرة من شرق أوروبا لأنها تأتي بالغرباء . وكانت حقوق اليهود الأجانب مثار نقاش حتى في عهد جمهورية وايمار الليبرالي ، ولهذا نجد بعض الألمان ، ممن لا يمكن اتهامهم بمعادة اليهود ، يطالبون بعدم السماح لليهود الشرق بامتلاك عقارات باعتبارهم أجانب لا باعتبارهم يهوداً .

بل لقد طُرحت القضية نفسها داخل المنظمات اليهودية ذاتها : هل يُمنح اليهود الأجانب ، الذين كانوا يشكلون أحياناً الأغلبية في بعض المجتمعات ، حق التصويت في الانتخابات ؟ وبالفعل ، قرر كثير من هذه التجمعات السماح لليهود الشرق بالانضمام إليها بدون ممارسة حق التصويت . ولعل تأسيس جمعية الغوث كان يهدف إلى إبعاد يهود الشرق عن ألمانيا حتى لا يتأثر وضع اليهود داخلها ، كما هو الحال مع جمعيات الغوث الأخرى (التوطينية) التي أنشأها أثرياء اليهود في الغرب (أمثال ميرش وروتشيلد) .

وظهرت في هذه المرحلة جمعيات يهودية ، مثل : التنظيم المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جمعية يهودية تدعو إلى الاندماج) ، وجمعية غوث يهود ألمانيا (وهي

قسم الأبحاث العرقية بوزارة الصحة (عند مناقشة رسالتها) إن الدم العجري « يُشكّل خطراً بالغاً على صفاء الجنس الألماني » .
ووجه طبيب يدعى الدكتور بورتشي مذكرة إلى هتلر يقترح فيها فرض الأشغال الشاقة على العجور وتعقيمهم بالجملة نظراً لأنهم « يُشكلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان » .

وفي ١٤ ديسمبر عام ١٩٣٦ ، صدر قرار أدى إلى تضاعف أوضاع العجور إذ وصمهم بأنهم « مجرمون متعادون على الإجرام » .
وفي نهاية عام ١٩٣٧ ، وخلال عام ١٩٣٨ شنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد العجور وخُصص لهم جناح في معتقل بوخنولد ، وكانت قوائم الوفيات في كثير من المعسكرات تحوي أسماء عجورية يُذكر منها : ماوتهاوسن وجوسن وداوتمرجن ونازلزفيلر وفلومسبورج . وفي رافنسبروك ، راحت كثرات من نساء العجور ضحايا لتجارب أطباء الشرطة العسكرية الهتلرية الإس . إس . (SS) .

وفي عام ١٩٣٨ ، أصدر هتلر بنفسه أمراً بنقل مقر المركز الوطني لشئون العجور إلى برلين . وفي السنة نفسها اعتُقل ثلاثمائة عجوري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم . وقد أمر هتلر بتصنيف العجور في الفئات التالية : عجوري صرف (Z) ، وخلاسي يغلب عليه العرق العجوري (ZM+) ، وخلاسي يغلب عليه العرق الآري (ZM-) ، وخلاسي يتساوى فيه العرقان العجوري والآري (ZM) .

ويُبيّن المؤرخ ح . بلنج في كتابه ألمانيا وإبادة الجنس بين أساليب مختلفة لإبادة الجنس تتمثل في الإبادة عن طريق إزالة القدرة على الإنجاب واختطاف الأطفال ، والإبادة عن طريق الزجج في المعتقلات ، والإبادة عن طريق الإغناء .

وقد عُقمت في مستشفى برسلدورف - ليرنفلد نساء عجريات متزوجات من غير العجور ، ومات بعضهن على أثر تعقيمنهن وهنّ حوامل . وفي رافنسبروك ، قام أطباء الإس . إس . بتعقيم مائة وعشرين فتاة عجورية صغيرة .

وكان من أمثلة الإبادة الجماعية عن طريق الاعتقال ترحيل خمسة آلاف عجوري من ألمانيا إلى جيتو لودز في بولندا ، وكانت ظروف المعيشة في هذا الجيتو من القذاعة بحيث لم ينج أحد من هؤلاء العجور من الهلاك . ومع ذلك فإن الطريقة التي كان يؤثرها النازيون هي طريقة الإغناء المباشر .

ويُعتقد أن قرار إبادة العجور بالإغناء اتُخذ في ربيع عام ١٩٤١ وعندما شكّل ما عُرف باسم « فرق الإعدام » . ولكي يتحقق ذلك كان

التي أدت إلى ارتطامهم بالنظام النازي وإلى إبادة أعداد كبيرة منهم (بالمعنيين العام والخاص اللذين نظرهمما ، أي الإبادة من خلال التجويع والسخرة والتهجير والإبادة من خلال التصفية الجسدية) .

الإبادة النازية للعجور

Nazi Extermination of Gypsies

ارتبطت عبارة « الإبادة النازية » بكلمة « اليهود » بحيث استقر في الأذهان أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود . وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكرة حتى أصبح دور الضحية حكرًا على اليهود . بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا ما أراد باحث أن يبين أن الإبادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود ، وإنما هي ظاهرة شاملة تمتد لتشمل العجور والسلاف والبولنديين وغيرهم ، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس .

ونحن نرى أن ثمة اتجاهًا كامناً نحو الإبادة في الحضارة العقلانية المادية الحديثة ، وأنه تحقق بدرجات متفاوتة من الحدة والتبلور واتخذ أشكالاً مختلفة . وإحدى لحظات التحقق المتبلورة هي الإبادة النازية للعجور ، التي ورد الوصف التالي لها في إحدى منشورات اليونسكو .

كانت إبادة العجور مُدرجة في برنامج ألمانيا النازية . وكان لدى شرطة إقليم بافاريا الألماني منذ عام ١٨٩٩ قسمٌ خاص « بشئون العجور » يتلقى نسخاً من قرارات المحاكم المكلفة بالبت في المخالفات التي يرتكبها العجور . وتحوّل هذا القسم عام ١٩٢٩ إلى « مركز وطني » مقره ميونيخ ، وحُظر على العجور منذ ذلك التاريخ التنقل بدون تصريح الشرطة . وكان العجور الذين يزيد أعمارهم على السادسة عشرة ولا يعملون يُجبرون على العمل لمدة سنتين في مركز من مراكز التأهيل . وابتداءً من عام ١٩٣٣ ، وهو تاريخ وصول هتلر إلى الحكم ، زادت تلك القيود شدة وصرامة . وطُرد العجور الذين لا يحملون الجنسية الألمانية ، وزُجّ بالباقيين في المعتقلات بحجة أنهم « غير اجتماعيين » .

ثم بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العرقية للعجور ، فأعلن الدكتور هانز جلوبيكه - أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمبرج - عام ١٩٣٦ « أن الدم الذي يجري في عروق العجور « دم أجنبي » . ثم صنفهم الأستاذ هانز ف . حيثشر في فئة مستقلة تمثل مزيجاً عرقياً غير محدد (إذ لم يستطع نفي أصلهم الآري) . وبلغت الخصائص العرقية لدى العجور من الأهمية درجة أهلتها لأن تصلح موضوعاً لرسالة دكتوراه . ومما قالته إيفا جوستين مساعدة الدكتور ريتز في

مارتن هايدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) والنازية

Martin Heidegger and Nazism

في كتابه المعنون **الحداثة الرجعية : التكنولوجيا والثقافة والسياسة في جمهورية فايمار والرايخ الثالث** يُبين جيفري هيرف أن الحداثة لم تكن حركة نحو اليمين أو نحو اليسار ، إذ يرى أن هناك حداثة رجعية فاشية هي حداثة انتصار الإرادة على العقل ، والروح المبعدة على الحدود . وفي إطار هذه الحداثة ترتبط الإرادة المتتصرة؛ بالعنصر الجمالي الذي يصبح هو وحده مبرر الحياة ، ولذا تُعَلَّقُ (أي تُعْطَلُ) كل المعايير الأخلاقية وتهيمن الرغبة التي لا تعرف أية حدود. وفي حديثه عن هذه الحداثة الرجعية يُبين هيرف أن مصادرها متعددة ، يذكر من بينها ما يلي : الرومانسية - أيديولوجية الفولك - المصطلح الوجودي عن الذات والأصالة - الداروينية الاجتماعية - فلسفات الحياة Lebensphilosophie - احتفاء نيتشه بالجمال الذي يتجاوز الأخلاق أو الذي لا علاقة له بالأخلاق (بالإنجليزية : أمورال amoral) - الاحتفال بالجمال باعتباره معياراً « أخلاقياً » - تمجيد التكنولوجيا وربطها بالقيم المتجاوزة للأخلاق . ويستمر هيرف ، عبر كتابه ، في تعداد هذه العناصر وغيرها .

ونحن نرى أنه رغم دقة ملاحظاته وجدتهها إلا أن كتالوج العناصر الذي قدّمه يتسم بعدم الترابط . وقد يكون من الأجدي أن نرى غطاءً عاماً في الحضارة الغربية : تصاعد معدلات الحولية الكمونية والانتقال من العقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغاية الإنسانية) إلى اللاعقلانية المادية (المتجاوزة للقيمة والأخلاق والغاية الإنسانية) والتأرجح بين الذات والموضوع (وهو غلط عام يصل إلى قمته في فلسفة ما بعد الحداثة) .

وفلسفة مارتن هايدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) ، الوجودي والفينومينولوجي ، هي جزء من هذا النمط العام . وهو يُعدُّ من أهم فلاسفة القرن العشرين في الغرب ، إن لم يكن أهمهم على الإطلاق ، وينزله البعض منزلة أفلاطون وهيجل . وقد تأثر هايدجر بأعمال جيكون بومه والمعلم إيكهارت ونيتشه وكيركجارد وهو سرل ، ويبدو أن الفكر الغنوصي ترك أثراً عميقاً فيه . وكتابه الأساسي : **الوجود والزمن** (١٩٢٧) ، بالإضافة إلى كتبه الأخرى : **كانط ومشكلة الميتافيزيقا** (١٩٢٩) ، و **ماهية الحقيقة** (١٩٤٣) ، و **مدخل إلى الميتافيزيقا** (١٩٣٥) ، و **رسالة حول الإنسانية** (١٩٤٧) ، و **ما الفلسفة** (١٩٥٥) .

ونقطة انطلاق هايدجر هي الوجود ، فالسؤال الأساسي عنده هو : ما معنى الوجود ؟ فهو السؤال الذي يجب أن يسأله كل

يتعمّن جمع الغجر في أماكن محددة . فمنذ صدور قرار هملر في ٨ ديسمبر ١٩٣٨ ، كانت أماكن سكنى الغجر قد أصبحت معروفة لدى الشرطة ، ثم جاء قرار ١٧ نوفمبر ١٩٣٩ ليحظر عليهم ترك منازلهم أو ليضعهم تحت طائلة الحبس في معسكرات الاعتقال . ورُحِّل ثلاثون ألف غجري إلى بولندا فلاقوا حتفهم في معتقلات الموت في بلزك وتربلينكا وسوبوبور ومايدانك ، شأنهم شأن آلاف آخرين رُحِّلوا من بليجكا وهولندا وفرنسا إلى معتقل أوشفيتس . ويروي هويس ، قائد المعتقل ، في مذكراته أنه كان بين المعتقلين شيوخ يناهزون المائة سنة من العمر ونساء حوامل وأعداد كبيرة من الأطفال . كذلك يروي بعض السجناء الذين نجحوا من الهلاك ، كما يسرد كولكا وكرواس في كتابهما المعنون **مصنع الموت** ، قصة مذبحه الغجر الرهيبة التي وقعت في ليلة ٣١ يولييه عام ١٩٤٤ .

وفي بولندا ، كان الغجر يُقتلون في معسكرات الموت أو يُعدمون في البراري . وامتد نطاق القتل إلى الاتحاد السوفيتي عندما اندلعت نيران الحرب بين الألمان والسوفييت ، فكانت فرق الإعدام التابعة للإس . إس . تسير مع الجيوش الألمانية ، وكانت القبور الجماعية غلاً مناطق البلطيق وأوكرانيا والقرم . وفي ليلة ٢٤ ديسمبر ١٩٤١ أُعدم رمياً بالرصاص في سيمفيروبول ثمانمائة غجري من الرجال والنساء والأطفال . وحينما زحفت الجيوش النازية ، كان الغجر يُقتلون أو يُرحلون إلى المعسكرات أو يُقتلون . وفي يوغسلافيا ، كان الغجر واليهود يُعدمون في غابة باجنيس .

ومن الصعب تقدير عدد الغجر الذين كانوا يعيشون في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية وعدد ضحايا هذه الحرب . ويُقدَّر المؤرخ راؤول هيلبرج عدد الغجر في ألمانيا قبل الحرب بأربعة وثلاثين ألف نسمة ؛ أما عدد من بقي منهم على قيد الحياة بعدها فغير معروف . ويتبين من تقارير فرق الإعدام أن عدد الضحايا في روسيا وأوكرانيا والقرم بلغ ثلاثمائة ألف غجري ، بينما تُقدر السلطات اليوغسلافية عدد القتلى من الغجر بثمانية وعشرين ألفاً في الصرب وحدها . أما عدد الضحايا في بولندا ، فمن الصعب تقديره وإن كان المؤرخ تيتباوم يؤكد أن الشعب الغجري فقد على الأقل خمسمائة ألف من أبنائه . هذا ، مع العلم بأن الشعب الغجري شعب عريق وكثير النسل (على عكس اليهود) . وعلى كل حال ، ومهما اختلفت النسب ، فإن نسبة من أُبِيد من الغجر (إلى عددهم الكلي) يفوق نسبة من أُبِيد من اليهود .

بينج ذير (being there) أي «الوجود في العالم» . وفي سياق فلسفة هايدجر يمكن ترجمتها إلى «الإنسان» أو «حالة كون الإنسان إنساناً» (بالإنجليزية : ذي سود أوف بينج هيومان the mode of being human) . وأهم خصائص وجود الإنسان أن وجوده لا يشبه وجود الشيء ، فقانونه هو عدم التعيين . فهو كائن غير ثابت ، ليست له طبيعة محددة . وبما أن لكل فرد الحق في أن يقول «أنا» ، فإن الوجود الإنساني يتغير من فرد لآخر . فهذا الأنا ليس جوهرأ ، أي ليس موضوعاً ثابتاً تجري عليه التغيرات ، بل هو ينبوع للإمكانات واستعداد لتحقيقها (عبد الرحمن بنوي) .

وتوجد هذه الذات الإنسانية في علمه الصيرورة والزمن . لا فكك لها منه ، وليس لها وجود مستقل عنه . بل إن وجودها نفسه هو ثمرة علاقتها مع العالم المادي ومع الآخرين ، ومع هذا لا تُردُّ الذات إلى واقع خارج عنها ولا تُستوعب تماماً فيه . فالعلاقة بين الذات والموضوع علاقة جدلية . فالواقع الذي تتفاعل معه يصوغ بقدر ما تصوغه نحن ، ونمتلكه بمقدار ما يمتلك . والذات هي إمكانية دائمة ومشروع مستمر وحوار مستمر مع العالم . وعلمية الحوار هذه تعني الصيرورة الدائمة ، فالواقع الذي تتفاعل معه مركب تماماً ، ولا يمكن إخضاعه لعملية أورد الفينومينولوجي أو التجريد الإيديتيكي التي تعلق الواقع (على الطريقة الهوسرلية) . ولا يمكننا استنفاد معناه تماماً ولا يمكن حوسلته أو استيعابه في مقولات منطقية مجردة عامة (ومن هنا عجز العلم الطبيعي عن فهم الوجود) .

والإنسان كائن أنفي به في علمه ليس من صنعه ، ولكنه مع هذا عالمه الوحيد ، ولا يمكن للإنسان أن يأخذ موقفاً تأملياً محايداً من هذا العالم ، فنحن نصبح جزءاً من الأشياء التي في وعينا . ولذا فإن الإنسان ليس كائنأ عازلاً وإنما هو كائن قلق بشأن مصيره في عالم غريب عنه . ويتسه الإنسان بأنه ليس لديه ردود فعل (موضوعية) للأحداث ، فهو «يسنجيب» لها . ومن ثم فالإنسان محتم عليه الاختيار ومحاولة فهم العالم .

واللغة من أهم العناصر في الوجود الإنساني ، فهي أساسية له (بل إنها توجد قبل جود الإنسان الفرد) ، وهي طريقة انفصال الإنسان عن الوجود فيشعر الإنسان بالدهشة تجاهه بل يشعر بوجوده (على عكس الكائنات الأخرى ، والوجود بالنسبة لها كيتونة وليس حضوراً ، فهي كائنة في الوجود لا تعيشه) . ولكن اللغة هي أيضاً أداة اتصالاً مع العالم ومع الآخرين . ولكنها أداة ليست موصلة تماماً لا يمكنها الإفصاح تماماً عما لا يمكن تسميته ، ولذا فاللغة لا يمكن أن تمثل الواقع كما أن اللغة تفقد حدثها بسبب فهاهة اللغة السائدة .

إنسان ليصبح إنساناً . ويذهب هايدجر إلى أن الحلل الأساسي في الأنطولوجيا الغربية أنها سقطت في ثنائية راديكالية فظنت أن الوجود هو كيان موضوعي مفارق للذات ثم قامت بفصل الواحد . وبحدة ، عن الآخر ، فحوكت العالم الموضوعي إلى مادة لا أسرار فيها ولا سحر خاضعة للحوسلة منفصلة تماماً عن الذات ، كما تحوّل الإنسان إلى عقل أداتي وذات متعجرفة متكبرة تنفصل تماماً عن واقعها وتتعالى عليه بدلاً من التفاعل معه ، تحاول أن تغزو الكون بدلاً من أن تعيشه ، وتحاول أن تفرض صورتها على الكون وتحمل مركزه وتحوسله . وتتجلى هذه الرؤية من خلال فلسفة ديكرارت وفكر حركة الاستنارة والفلسفة الوضعية والتزعة التكنولوجية .

وفي محاولة تتجاوز هذه الثنائية يرفض هايدجر العودة للإله ، كما يرفض أن يعود إلى الذات المستقلة ، وبدلاً من ذلك يطرح مشروعه الفلسفي الذي يصفه هو نفسه بأنه عملية هدم (بالإنجليزية : ديستراكشن destruction - بالألمانية : ديستروكسيون destruktio) للفلسفات السابقة ، بل لكل الأنطولوجيا الغربية ، أنطولوجيا الذات والموضوع (ويتحول الهدم [ديستراكشن] إلى تفكيك بالإنجليزية : «ديكونستراكشن deconstruction» في خطاب دريدا الفلسفي ، الذي يدين بالكثير لفلسفة هايدجر) .

وجوهر عملية التفكيك أو الهدم هذه هو الاقتراب من الواقع بدون المنظار الديكرارتي بحيث يتجاوز الدارس ثنائية الذات والموضوع وينظر إلى الوجود (شأنه في هذا شأن فلاسفة عالم الحياة) باعتباره الاثنين معاً . ومن هنا اهتمام هايدجر (ونيتشه من قبله) بالفلسفة اليونانية قبل سقراط ، وهي فلسفة لم تعان في تصوره من انقسام الذات والموضوع .

ونحن نذهب إلى أن هذا الانقسام الحاد بين الذات والموضوع هو سمة أساسية في كل الرؤى الحلولية الكمونية المادية التي ترفض فكرة المركز المفارق للمادة المنزه عنها ، وتحاول أن تعين مركزاً كامناً أو حالاً فيها ، فتجده إما في الإنسان أو في الطبيعة ، إما في الذات أو في الموضوع . وتحسم هذه الثنائية الصلبة ذاتها إلى واحدة مادية بذوبان الذات في الموضوع ، أو الموضوع في الذات (وإن كان البديل الأول هو الأكثر شيوعاً) . وهو انقسام لم تسلم منه الفلسفة اليونانية أو أية فلسفة حلولية كمونية مادية ، قبل سقراط أو بعده ، في اليونان أو خارجها . وغط الثنائية الصلبة التي تؤدي إلى واحدة يظهر بوضوح في فلسفة هايدجر .

يتناول هايدجر قضية الوجود من خلال مفهوم «دازاين Dasein» وهي كلمة ألمانية تعني حرفياً «الوجود هناك» (بالإنجليزية :

ورغم حديث هايدجر عن العلاقة الجدلية التفاعلية التبادلية بين الذات والموضوع ، ورغم محاولته المستميتة أن يحافظ على المسافة بين الذات والموضوع إلا أنهما يلتحمان (بسبب غياب المركز المفاوق) بعد فترة من التراجع (المأساوي أحياناً ، والملهوي أحياناً أخرى) بين الذات المطلقة التي لا حدود لها ولا قيود عليها والتي تلتهم الموضوع ، والموضوع المطلق ، الذي يتجاوز كل شيء ، وضمن ذلك الإنسان الفرد ، ويتلغ كل الذوات ، أي أن هايدجر يتأرجح فلسفياً بين العقل الإمبريالي النيتشوي الدارويني والعقل الأداتي البرجماتي . فلنأخذ على سبيل المثال مفهوم هايدجر للتاريخ الإنساني ، التاريخ بالنسبة له ليس تاريخاً متعیناً ، وإنما هو زمان وحسب ، تجربة ذاتية وجودية ، يصبح الوجود من خلالها حضوراً ، أي تجربة فريدة معاشة ، وهكذا يخفي أي مركز مفارق للإنسان ولا تبقى إلا الذات . (وسنرى كيف أن الذات الهتلرية تبتلع الموضوع الألماني بل كل الوجود) .

ويحدث الشيء نفسه للذات ، إذ يذهب هايدجر إلى أن الذات لا يمكن أن تكون نفسها في أية لحظة ، فهي في حالة صيرورة مقلقة ، ولا يمكن للإنسان الفرد أن يسك بوجوده تماماً ، فوجود الإنسان يسبقه دائماً كمشروع غير متحقق بعد ، وهو مشروع دائم لا ينتهي ، ومن ثم فالوجود الفرد إن هو إلا وهم .

وللخروج من هذه الحالة اقترح هايدجر ، كما أسلفنا ، تجربة الرهبة (أنجست) الناجمة عن مواجهة الموت والعدم والتأمل فيهما . ولكن هذا ليس هو الحل الوحيد ، فهناك الحل الألماني المثالي/المادي المألوف ، أي افتراض أن الذات والوجود هما شيء واحد ، أو أن كليهما موضع الحلول . ولكن هذا الحل الألماني هو حل مؤقت إذ عادة ما تنحل هذه الوحدة العضوية الكاملة إلى عنصر واحد يغلب الآخر ، وهو عادة العنصر الموضوعي الذي يطوق الذات ويذيبها فيه ، أي أن الوحدة العضوية تتحول إلى واحدة مادية . وهذا أمر متوقع تماماً ، فالفرد القلق المنعزل الممل بالقلق والرغبة (أنجست) سيحاول بأقصى جهده أن يخرج من حالة العزلة هذه ، حالة الوهم ، وإحدى وسائل الخروج التوحيد بالذات الجماعية ، بالوجود الجمعي بديل الإله (وهذا هو الحل الذي اقترحه هيجل ودوركهيم وغيرهما) .

والعنصر الموضوعي أو الكلي هنا هو الوجود . وقد لاحظ أحد مؤرخي الفلسفة أن مضمون كلمة «وجود» عند هايدجر لا يختلف كثيراً عن مضمون كلمة «إله» في الفكر البروتستانتية . ولذا فهو يتحدث عن أن «الوجود يدعونا» و «يخبئ نفسه» و «يكشف عن

ولعل هذا هو الذي حدا بهايدجر أن يحاول تطوير مصطلحه الخاص تماماً وأن ينحت كلمات جديدة ويلجأ للعب بالكلمات حتى يفصح عن رؤيته الخاصة (كما فعل دريدا بعده متأثراً به) . كما أن هايدجر كان يذهب إلى أن لغة الشعر أكثر قدرة على التوصيل من اللغة العادية . ومع هذا كان يذهب إلى أن بعض الأفعال مثل «يستقر» و «يرى» تكشف عن الحقائق الأولية للوجود الإنساني .

لكن الإنسان كمشروع مستمر وإمكانية غير متحققة قد يفقد ذاته ويصبح «الهم» . وهي عبارة تعني ببساطة «الشخصية المتوجهة نحو الآخر» (بالإنجليزية : أذر دايركتيد other directed) والإنسان الاجتماعي بالمعنى السليبي ، أو الإنسان المستوعب تماماً في الأعراف الاجتماعية وآراء الآخرين (ولكن هايدجر يصبر دائماً على تخاشي المصطلحات السوسيولوجية ويفضل المصطلحات الفلسفية الأنطولوجية التي ينحتها بسرعة وغزارة تسبب كثيراً من الصداع الذي لا مبرر له) .

هذا «الإنسان الهم» هو إنسان ذو بُعد واحد يحكم على نفسه بمعايير الآخرين ويُستوعب في الآخرين ويسقط في لغو الحديث الذي يقف على الطرف النقيض من الحوار ، فالحوار هو أن ترى الآخرين باعتبارهم بشراً (دازاين) لهم وجودهم الخاص المتعين ، لا باعتبارهم أشياء موضوعية (داس مان : الهم) بحيث يمكن الدخول معهم في علاقة حميمة تكشف شخصيتهم الأصلية والحقيقية . والإنسان الهم هذا لا يشعر بالدهشة الحقيقية وإنما يتسم بحب الاستطلاع ، وحب الاستطلاع هو الرغبة في اقتناء الجديد والمختلف دون أي إحساس حقيقي بالدهشة .

وحتى لا يسقط الإنسان في حالة الهم هذه فهو دائماً في حاجة إلى الإحساس بالرغبة (بالألمانية : أنجست Angst ، وبالإنجليزية : dread) ويظهر هذا الإحساس عندما يدخل الإنسان في علاقة مع العدم من خلال إدراكه للموت (وهي لحظة لا يمكن للعلوم الطبيعية أن تدركها ولا يمكن للحياة اليومية أن تتعايش معها) . وعندما يمارس الإنسان الإحساس بالقلق وبتناهي الوجود الإنساني وبزمنه ، تسقط التفاصيل اليومية ويتوارى العالم العادي ويتفتح الوجود ويكشف عن نفسه وتكتشف الذات أصالتها وإمكاناتها وضمنها إمكانية الحرية والاختيار ، حرية أن تختار الذات نفسها وأن تتسك بنفسها ، ومن ثم تكتشف الذات قدرتها على تجاوز العالم وعلى الخروج من حدودها الضيقة (الهم) لا لتعرف العالم وحسب ولتكون فيه وإنما لتوجد فيه ، أي أن يتحقق وجودها الأصل والحقيقي في العالم في الزمان . وتصل قمة الحرية إلى حرية الإنسان في أن يقابل الموت .

وحده ، حقيقة الحاضر والمستقبل قانونهما ، فهو منقذ شعبنا ...
هو المعلم ورائد الروح الجديدة » (من رسالة هايدجر إلى الفوهرر) ،
هو مركز الحلول ، هو الإله المادي والوثن الأعظم . لكل هذا ينحل
الدوازين تماماً في الذات النيتشوية : « إن الفلسفة تقف وراء هتلر ،
لأن هتلر يقف إلى جانب الوجود » .

وتظهر علمانية هايدجر الشاملة ، وماديته الراديكالية النيتشوية
الجديدة ، في تحريضه الجماعة الألمانية على أن تخوض غمار حرب
حاسمة بروح الاشتراكية الديوقراطية (النازية) التي يجب ألا تختنق أية
نزعَات إنسانية (هيومانية) أو مفاهيم مسيحية . كما تظهر هذه العلمانية
المادية الشاملة في تبنيه للحل الصهيوني للمسألة اليهودية ، إذ كان يرى
ضرورة توطین اليهود في فلسطين أو أي مكان آخر خارج ألمانيا وأوروبا .

كان النازيون يعتبرون هايدجر فيلسوفهم ، ونحن نرى أنهم
كانوا على حق في تصورهم هذا . فقد انضم هايدجر إلى الحزب
النازي عام ١٩٣٣ وكان من أغز أسدقائه يوجين فيشر ، وهو ممن
دافعوا عن القتل الموضوعي أو الأداتي للمعوقين وعن إبادة اليهود .
وانطلاقاً من رؤيته النازية دافع هايدجر عن المشروع الصهيوني الذي
يطالب بطرد اليهود من أوطانهم (باعتبارهم شعباً عضواً) ليعاد
توطینهم في فلسطين (باعتبارها وطناً قومياً لهم) . كما كانت زوجة
هايدجر نفسها ترى أن الأمومة هي الحفاظ على الميراث العرقي .
وقد تنكر هايدجر لأستاذه هوسرل عام ١٩٣٣ لأنه يهودي ، وكان
يتجسس على زملائه لحساب السلطة النازية ، وهو ما أدّى إلى طرد
بعضهم . (يُوثق كتاب فيكتور فارياس Victor Farias [عام ١٩٨٧]
هذا الجانب من حياة هايدجر الفلسفية) . ومن أجدير بالملاحظة أن
أستاذاً ألمانياً اسمه جيدو شنيبرجر Guido Schneeberger نشر عام
١٩٦١ كتاباً يضم ٢١٧ نصاً نازياً لهايدجر .

ويبدو أن هايدجر أدرك خطأه عام ١٩٣٤ ومن ثم استقال من
رئاسة جامعة فرايبورج . ولكن من المعروف أنه استمر مع هذا في
دفع اشتراكات العضوية في الحزب النازي حتى نهاية الحرب العالمية
الثانية . وقد كتب المفكر الألماني كارل أوديث في مذكراته أنه تحدث
مع هايدجر عام ١٩٣٦ وأن هايدجر عبّر عن إيمانه الكامل بهتلر ،
وأخبره أن الطريقة النازية هي الطريقة الأمثل لألمانيا . وحتى
بافتراض أن هايدجر ابتعد عن النازية السياسية ، فمما لا شك فيه أن
نسقه الفلسفي ظل كما هو ، يُشكّل تربة خصبة لظهور الأفكار
النازية ، شأنه في هذا شأن كل « فلسفات الحياة » اللاعقلانية المادية .
كان هايدجر يتصور أن النازية هي روح العالم المتجسدة التي
ستزواج بين التكنولوجيا والثقافة (« رسالة الشعب الألماني ») . وهو

نفسه لنا * . ولكن هذا الإله إله مادي ، ولهذا يأخذ أشكالاً مادية
مختلفة ، وهكذا نكتشف أن الوجود يصبح أحياناً الطبيعة ، ومن ثم
يطرح هايدجر فكرة المجتمع العضوي الذي يلتحم فيه الإنسان
بالطبيعة وبالأخرين (ومن هنا سُمّي « فيلسوف الغابة السوداء ») .
وتظهر عملية تطويق الموضوع للذات في أن كلمة «دازاين Dasein» لم
تعد تعني «وجود الفرد بشكل متعین في الواقع» بل تصبح «الوجود
الفردى باعتباره شكلاً من أشكال الوجود الجماعي» . ويضيق نطاق
الحلول ويتركز بدلاً من الإنسانية ككل باعتبارها مركزاً للحلول (كما
كانت تدعى الهيومانية الغربية) يصبح مركز الحلول هو «الوجود
الألماني» . «الألمان شعب مختار ، مفعم بقوى الأرض والدم ،
وعلى الطلبة أن يعلنوا التزامهم بذلك» - «لقد أدّت الثورة
الاشتراكية الوطنية إلى انقلاب كامل في الوجود الألماني» - «الفرد
في حد ذاته [أينما كان] لا قيمة له ، فأهم شيء هو مصير شعبنا» -
«أيها الطالب الألماني ، خلال تجوالك ومسيراتك الطويلة ، تلمس
بقدميك أراضي الجبال والغابات والأودية في الغابات السوداء فإنك
تلمس الأرض التي أنجبت البطل . دوغما سلاح ، أطلق البطل نظراته
متحدياً البنادق الموجهة إليه وعائق النهار وجبال موطنه حتى يموت
وعينه مشبستان على الأرض الألمانية وعلى الشعب الألماني
والرايخ» . وتزداد درجات تركيز الحلول ويضيق نطاقه وبدلاً من
الشعب الألماني تصبح الدولة الألمانية هي موضع الحلول فيتحدث
هايدجر عن «وجود الدولة» (بالألمانية : دازاين ديس شتااتيس
Dasein des Staates) «أهم شيء هو مصير شعبنا في دولته» .
«لقد أيقظ هتلر الإرادة لوجود الدولة في الفولك» . ونصح هايدجر
الشباب بأن تنمو شجاعتهم دائماً «لينفذوا جوهر الشعب ولإعلاء
القوى الداخلية للشعب في إطار الدولة» .

وهكذا يهيمن الموضوع أو الذات الجماعية تماماً ، ولكن
التراجع مع هذا لا يتوقف إذ تزايد درجات الحلول تركزاً وضيقاً إلى
أن نصل إلى الذروة ونتقل من الموضوع إلى الذات مرة أخرى حين
يتم استيعاب الدولة نفسها في الإنسان الفرد الأسمى ، هتلر ، الذي
«جمع إرادة الأمة في فرد واحد» . «إن الفوهرر نفسه ، هو وحده ،
الحقيقة الألمانية في الحاضر والمستقبل ، وهو قانونها ... هایل
هتلر» ، أي أن المبدأ الواحد ، جوهر وحدة الوجود المادية ، يصبح
أولاً الوجود الجمعي والوجود كطبيعة ، ثم يضيق نطاقه ويتركز
فيصبح الشعب الألماني ، ثم الدولة الألمانية ، وأخيراً الفوهرر .
وكما قال هايدجر ، إن قاعدة وجود الإنسان الألماني «يجب ألا
تكون هي فرضيات أو نظريات [رفض الميتافيزيقا] ، فالفوهرر ، هو

ويمكن فهم نازية هايدجر ، شأنها شأن صهيونيتها ، من خلال هذا السياق . فالنازي الإمبريالي الذي يُجسد إرادة القوة يُحوّل الآخرين ويُحركهم ليخدم مصالحه أو مصالح أمنية ، فهو ينقل اليهود إلى فلسطين (أو ينقل الفلسطينيين منها) أو إلى معسكرات الاعتقال واللاجئين ، حسبما تملّيه عليه الظروف الطارئة والمصالح المادية الثابتة وموازين القوى ، دون التقيد بأية قيم أخلاقية ، إذ لا توجد إلا قيم جمالية . ومن المعروف أن النازيين تمسكوا بالقيم الجمالية أيما تمسك ، فكانت واجهات معسكرات الاعتقال من الطراز التيرولي ، كما كان الجنود الألمان يسمعون موسيقى موتسارت وفاجنر بينما كان يُساق الملايين إلى معسكرات الاعتقال التي تسم بالانضباط الشديد .

ولعل إدراك العالم الغربي للنزعة الإمبريالية (الإبادة) الكائنة في مشروع هايدجر الحضاري الحديث هو ما يدفعه لإخفائها بشئ الوسائل والطرق ومن ذلك محاولة إخفاء الحقائق الصلبة . ولهذا تبذل جهود مضنية لإخفاء حقيقة أن دول الحلفاء (التي تنبأى الآن على ضحايا النازية) لم تفتح أبوابها للمهاجرين من المناطق التي وقعت تحت نفوذ النازي ، وأن قوات الحلفاء (بقيادة إيزنهاور) لم تكن متحمسة لضرب السلك الحديدية المؤدية لمعسكرات الاعتقال لتوفير الطاقة العسكرية . وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم ما حدث لجيدو شنيبرجر فقد وجد صعوبة بالغة في نشر كتابه عن نازية هايدجر ، وحينما نشره بطريقته الخاصة ، اختفى الكتاب من أرفف المكتبات ، ثم قوبل بالصمت من المؤسسات الأكاديمية (التي تلزم الصمت أيضاً تجاه توجهات ياسبرز ودي مان النازية) ، فعدم التزام الصمت يعني فتح باب الاجتهاد فيما يتصل بالنازية ودلالاتها المركزية بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة ، الأمر الذي لا يمكن لهذه الحضارة تحمله ، إذ قد تشكل ضربة في العمق .

لم يكن مخطئاً تماماً في تصوره ، فقد قام النازيون بالفعل بمزاوجة التكنولوجيا والثقافة الألمانية ، بل إنهم كانوا يرون أن التكنولوجيا هي التعبير البراني عن إرادة القوة الألمانية ، وكانوا يرون أن ألمانيا بوجودها بين روسيا والولايات المتحدة أصبحت بوسعها أن تزواج بين التكنولوجيا وروح الشعب ، فالتكنولوجيا الألمانية تتبع من أعماق الحضارة Kultur الألمانية . وهي روح مطلقة لا تتقيد بأية قيم بورجوازية ، روح لا متناهية لا تعرف سوى القيم الجمالية . وهكذا أمسك برومبيوس الحديد بالنار ، مسلحاً بحس جمالي عميق وبشبهة لا تعرف الحدود ويادرك للذات كمطلق ، فأحرق الأخضر واليابس . وقد أدرك هايدجر تدريجياً أن هذا الالتحام النازي بين الذات والموضوع وبين التكنولوجيا والثقافة ، خارج إطار المنظومات الأخلاقية ، هو في واقع الأمر مرض وليس حلاً . ولكن إدراكه هذا ظل مقصوراً على الحالة النازية وحسب ، ولهذا لم يراجع منظومته الفلسفية .

ولا تمثل رؤية هايدجر العلمانية الإمبريالية الشاملة انحرافاً عن مسار الحضارة الغربية الحديثة ، فهي جزء من نمط عام متكرر يتمثل في التآرجح بين الذات والموضوع ، وفي حسم هذا الصراع لصالح الموضوع أو لصالح الموضوع متجسداً في الذات الإمبريالية ، كما يتمثل الانتقال التدريجي من العقلانية المادية إلى اللاعقلانية المادية التي تتضح في تقديس هيجل للدولة البروسية (إله يسير على الأرض!) وأفكار نيتشه الداروينية عن إرادة القوة وميول ياسبرز النازية والتوجهات النازية والصهيونية لبول دي مان تلميذ هايدجر النشيط المخلص .

والنازية ما هي إلا تجل متبلور لهذا الاتجاه حين أصبح الدازاين الألماني الجمعي هو الفولك الذي تجسد في هتلر واحد وأصبح الآخرون مثل أيخمان ، منفذين عادين تسير وراءهم الملايين .



بعض إشكاليات الإبادة النازية لليهود أوروبا

إشكالية انفصال القيمة الأخلاقية والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا - توظيف الإبادة - احتكار الإبادة - إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي - إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فنانسي - معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) - أوشفيتس - ستة ملايين يهودي : عدد ضحايا الإبادة النازية لليهود أوروبا ؟ - اختفاء وموت الشعب اليهودي بعد الحرب العالمية الأولى - إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين - محاكمة آيخمان - محاكمة كلاوس باربي - حادثة فالدهايم - محاكمة ديتمانجوك - وزنتال - بعض التسغيرات التي طرأت على الخطاب الغربي فيما يتصل بالإبادة النازية لليهود أوروبا

تنظيمها تنظيماً هرمياً ، ففي قاعدته تقف جماهير الشعب العضوي المتناسك تعلوه نخبة من العلماء والساسة ، يدورون جميعاً في إطار واحد هو الدولة القومية التي تجب مصالحها كل المصالح . وعلى قمة الهرم يقف الفوهرر : التجسد المادي والمحسوس للمطلق العلماني (الشعب العضوي والدولة) الذي تركزت فيه جميع القوى الحيوية الكامنة في النسق ، وهو القادر على تحريكها ، وهو القادر على حسم كل الاختيارات السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، تساعده النخبة العلمية والسياسية الحاكمة .

هذا الهرم الدارويني المنظم تنظيماً دقيقاً تحرك بشكل محايد ليدافع عن مصلحته ، كما يراها هو ، وعن منفذته ، كما حددها هو ، أو كما حددتها النخبة الحاكمة من علماء وساسة ! وكانت حركة الهرم النازي تتسم بالحياد انصاراً ، والتجرد المذهل من القيم والعواطف والغايات الإنسانية . وكانت واحدة من أهم مؤسسات الإبادة تدعى «مؤسسة تدعيم القومية الألمانية» ، وقد أسست عام ١٩٣٩ لتوظيف العناصر الألمانية غير المرغوب فيها . وكان هملر (الذي أُنسدت له مهمة إدارة هذه المؤسسة القومية) يرى أنها تجسد قيمة قومية عضوية مطلقة ، فهي تخدم المصالح العليا المطلقة لألمانيا ، وكان رجاله يؤدون واجبهام بأمانة وإخلاص شديدين لوطنهم .

٢ - أدار هملر مؤسسته بطريقة حديثة للغاية تبنت في كيفية استخدامه لليهود من خلال واحد من أهم أسس الإدارة الحديثة فيما يُسمى «الإدارة الذاتية» ، إذ كوّن ، انطلاقاً من الرؤية الداروينية الفعّية ، نخبة من اليهود نواتها الأساسية أعضاء المجالس اليهودية والموظفون الملحقون بها ، تدور حولها قطاعات أخرى مثل العمال اليهود في مصانع الذخيرة ، وبعض الشخصيات اليهودية العامة ، وتم وصفهم جميعاً بأنهم «يهود يتمتعون بالحماية من الترحيل» نظراً لنفعهم . (وهو امتداد للتقسيم الغربي القديم لليهود والذي ظل

إشكالية انفصال القيمة الأخلاقية والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا

The Problematic of Value-free Science and Technology Divorced From Human Teleology

رغم هيمنة الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة على الإنسان الغربي (بجانبيها النفعي المادي الحياضي الأداة والدارويني الصراعي الإمبريالي) ، ورغم حوسلتها للعالم وتحويلها المنفعة المادية والقوة إلى قيمة مطلقة متجاوزة للخير والشر ، إلا أن هناك من لا يتقبل هذه الرؤية ولا يدعن لها ويشير قضايا مهمة ذات طابع أخلاقي وإنساني من أهمها قضية تطبيق المعايير العلمية المنفصلة عن القيمة وعن الغائية الإنسانية وتطبيق المنظومة الأخلاقية الداروينية النفعية المادية على الإنسان والمجتمع الإنساني . فقد أسس النازيون منظومتهم - كما أسلفنا - استناداً إلى مفاهيم علمية أو شبه علمية مثل النظرية الداروينية (وما يترتب عليها من مفاهيم مثل التفاوت بين الأعراق والمجال الحيوي والشعب العضوي) ، كما تبنا الرؤية العلمية المتجردة تماماً من القيمة ومن الغايات الإنسانية باعتبار أن العلم وما يتولد عنه من قوانين وقيم مادية هو القيمة الحاكمة الكبرى والمرجعية النهائية للإنسان . وقد حقق النازيون نجاحاً منقطع النظير في هذا المضمار فركزوا على محاولة التحكم الكامل في كل العناصر البشرية الخاضعة لهم وتطبيق الحسابات الرشيدة المحايدة التي تهدف إلى تعظيم الإنتاج والأرباح وتقليل الاستهلاك والخسائر . ومن ثم يمكن القول بأن الإبادة النازية لليهود وغيرهم هي التحقق الكامل للرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة التي تم من خلالها حوسلة كل شيء بطريقة علمية محايدة رشيدة حديثة . ويتبدى هذا في عدة أوجه سنوجها فيما يلي :

١ - كان النظام النازي بمنزلة يوتوبيا تكنولوجية تكنوقراطية حقة تم

"قومية" مستقلة لها مجالسها التي تحكمها ونظامها المصرفي المستقل وعملتها الخاصة ونظامها التعليمي الخاص ، أي أن كلاً منها كانت جيتو/ دولة أو دولة/ جيتو تدخل في علاقة تبادل كولونيالية مع الدولة النازية . فكانت الجيتوات تزود الدولة النازية بالعمالة والخدمات وبعض السلع نظير أن تزودها الدولة النازية بالغذاء والملابس . ولكن علاقة التبادل كانت غير متكافئة لصالح الدولة النازية بحيث تكون الخدمات والعمالة الخارجة من الجيتو أكبر من قيمة ما يحصل عليه سكان الجيتو من المواد الغذائية التي كانت دائماً أقل من أن تفي باحتياجات العاملين اليهود ، أي أن العلاقة كانت تؤدي إلى انتقال فائض القيمة إلى النازيين وإلى إبادة العاملين واستهلاكهم كأداة إنتاج سريعة . ولذا يمكن القول بأن العلاقة بين الجيتو والدولة النازية كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الولايات المتحدة ببعض الدول العربية وغير العربية التي تسيطر عليها .

٦ - لم يتخل النازيون قط عن حدائتهم وحيادهم ، فكان يتم تقرير من يجب إبادة ، ومن يجب الإبقاء عليه وتسخره بعد دراسة عملية موضوعية ، متمعة ودقيقة ، تتفق مع القواعد الصارمة للتشديد المادي . فقد قُسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى يهود نافعين ومن ثم لا يمكن نقلهم ، ويهود غير نافعين ومن ثم يمكن نقلهم والتخلص منهم . ولم تكن ظروف الحرب تعوق الألمان عن التحلي بالموضوعية الكاملة . فعلى سبيل المثال ، حينما وصلت القوات الألمانية إلى شبه جزيرة القرم ووجدت فيها بعض اليهود القرائن ، بين لهم هؤلاء أنهم ليسوا يهوداً بالمعنى العام والسائد ، وأنهم لا علاقة لهم باليهود من أتباع اليهودية الحاخامية ولا يتسمون بما يتسم به اليهود عموماً من طفيلية (كما تزعم أدبيات العداة لليهود في العالم الغربي) . وأرجأ النازيون تنفيذ عملية الإبادة والتهجير ، وأرسلوا بأحد الضباط إلى برلين ليدرر القضيّة بشكل موضوعي رغم ظروف الحرب . وبالفعل توصّل هذا الضابط/ الباحث إلى أن القرائن لا يتسمون بالسيكولوجية أو الطبيعة اليهودية ، وأخذ النازيون بتقريره ، ولذا لم يُطبق على اليهود القرائن قرار الإبادة . بل قرر النازيون ، انطلاقاً من الرؤية النفعية البرجماتية المرنّة ، تجنيد بعض العناصر القادرة من بين اليهود القرائن في القوات النازية .

وانطلاقاً من الرؤية النفعية المرنّة نفسها طوّر النازيون مقياساً محدداً لتعريف من هو الآري ، ولكنه كان مقياساً مرناً منفتحاً ، ولذا كان الشخص السلافي ، الذي يتسم بقدر كاف من الصفات العرقية البيولوجية الألمانية (من بينها الطول ولون العيون) ، يُعاد تصنيفه

سائداً منذ العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر وإن كان قد اكتسب عمقاً خاصاً في القرن الثامن عشر وعصر الاستنارة وظهور مبدأ المنفعة) . وقد أصبح هؤلاء أداة ذات كفاءة عالية في يد الإدارة النازية وتعاونوا معها تماماً .

٣ - وكانت عمليات السخرة والإبادة حديثة رشيدة بمعنى الكلمة يتم إنجازها من خلال إجراءات محايدة . فعلى سبيل المثال ، استُخدم خط التجميع (بالإنجليزية : أسمبلي لاين assembly line) في عملية فرز المساجين (والمعروف أن خط التجميع استُخدم في الأصل في المذبح [السلخانة] في شيكاغو ، حيث رأى أحد مؤسسي علم الإدارة الحديثة أنه يمكن توفير الوقت والجهد بأن تُعلّق جثث الحيوانات الواحدة تلو الأخرى على سير متحرك أمام الجزارين ، لكي يقومون بتنظيفها وإعدادها) . وقد طُبّق نفس الأسلوب على المساجين ، فكانوا يقفون صفّاً واحداً ويُعطى كل واحد منهم رقم ، ثم يتم فرزهم ، وهي طريقة أكثر كفاءة من التصنيف على أساس الأسماء . والملاحظ أن عملية التوحيد والتنميط ، مثلها مثل المركزية ، تُعد خطوة أساسية في عملية الترشيد وتتطلبها النموذج الآلي المادي ، إذ لا يمكن التعامل مع كل المعطيات بكفاءة عالية إن كانت غير متجانسة . فإن اختلفت العناصر أو الوحدات ، الواحدة عن الأخرى ، أدّى هذا إلى بطء دولاب العمل . والنموذج الآلي المادي الهندسي يفترض تشابه جميع العناصر حتى يمكن معالجتها مادياً وآلياً وهندسياً . وقد طُبّق أيّمان هذه الآلية على نطاق واسع ، خصوصاً في حالة ترحيل يهود المجر . ويُقال إنه لم يكن من الممكن إنجاز مهمة الترحيل هذه إلا من خلال خط التجميع .

٤ - كانت آليات السخرة والإبادة كلها تتسم بتعظيم الإنتاج والمنفعة . ومن أطرف الآليات وأجداها اقتصادياً وأقلها إيلاماً وأكثرها شيوعاً إرسال اليهود إلى معسكرات العمل بالسخرة لتزويد الشركات الألمانية بالعمالة الرخيصة ، وهو ما أفاد الاقتصاد الوطني الألماني فحقّق تقدماً هائلاً لا يمكن للمراقب الموضوعي المحايد المتجرد من كل التحيزات الغائبة والأخلاقية إلا أن يقر به . فكان يتم فرز المساجين بعناية شديدة ، حيث يُوجّه القادرين على العمل إلى أعمال السخرة ، ومن ثم لا يُبدّد شيء . وكان المعتقلون يعملون لساعات طويلة ، ويعيشون دون حد الكفاف الأمر الذي جعل من الممكن تحقيق أرباح هائلة وإنتاجية منقطعة النظير .

٥ - يبدو أن النازيين استفادوا بوحدة من أهم التجارب الحضارية الغربية ، وهي التجربة الإمبريالية ، إذ أرسل اليهود أحياناً إلى جيتوات ، أسسها النازيون خصيصاً ، وكانت تأخذ شكل مناطق

«أدشاش» ، والعملية كلها هي عملية «تطهير» لا أكثر ولا أقل .
ويلاحظ أن كل المصطلحات لا تذكر أية إبادة (بالمعنى العام أو الخاص
الذي نطرحه) . ولذا فهي تجعل عملية إبادة البشر تبدو وكأنها مسألة
مجردة وبعيدة ، ومن ثم مقبولة تماماً .

٨ - كانت عملية تجميع المصطلح بداية عملية تجميع كامل للإدراك ،
فالمصطلح المحايد للغاية يقترب من المصطلح العلمي الدقيق المنفصل
عن القيمة ، إذ لا توجد فيه عواطف حُب أو كره ، وهو يحاول أن
يصف الظاهرة من الخارج باعتبارها مجرد موضوع ، دون أن يعطيها
أي معنى إنساني داخلي أو أية قيمة خاصة ، بحيث ينظر الموظف
النازي أو الألماني إلى الضحية وكأنه ينظر إلى موضوع وحسب ؛
حركة مادية خارجية ومادة استعمالية خام خاضعة لإجراءات . وقد
كان المشرفين على عمليات الإبادة المختلفة يتم تدريبهم على التحلي
بالبرود والتجرد للحفاظ على الحياد وكفاءة الأداء . وقد حذرت
القيادة النازية من استخدام العنف بلا مبرر ، فقد كانت تدافع عما
سماه أحد المؤرخين «الإرهاب الرشيد» (أدان بن جوريون "تعذيب
العرب بلا مبرر" أثناء حرب ١٩٤٨ ، وهو ما يعني أن التعذيب
الرشيد مسموح به) . وفي إحدى خطبه بين هتلر أن «الإبادة الشاملة
لا بد أن تُنفَّذ ببرود وبطريقة نظيفة . . . وأن تصفية العناصر المطلوب
تصفيتها لا بد أن يتم بطريقة محايدة دون أي نزعات سادية (فمثل هذه
النزعات تدل في واقع الأمر على العنف الإنساني الذي يتنافى مع
المثل الأعلى النازي) . ولذا كان على رؤساء معسكرات الاعتقال أن
يوقعوا إقراراً كل ثلاثة شهور بأنهم لم يسيئوا معاملة المساجين» .
وفي خريف عام ١٩٤٢ أعلن هملر أن إطلاق النار على اليهود
لأسباب شخصية (أو صادية أو جنسية) يعاقب عليها القانون
بالإعدام . وكان الجنود الألمان ممنوعين من إساءة معاملة الضحايا
حتى وهم في طريقهم إلى أفران الغاز . لأن هذا يعني شكلاً من أشكال
الانفعال والانغماس العاطفي الذي يتنافى مع الحياء العلمي ،
والتجرد من العواطف والتحيزات والقيم أمر أساسي ومطلوب .

وعند اكتشاف أي انحراف عن الخط المحايد ، كانت القيادة
النازية تعاقب المنحرفين . وقد أصدر هملر توجيهاً لمن يعملون معه
بالندخل الفوري إذا ما تجاوز أحد قادة معسكرات الاعتقال حدوده .
وقد وُجّه النوم إلى أحد الضباط لأنه كان يحيط أسر الضحايا علماً
بإعدام أقاربهم على كارت بوستال مفتوح بدلاً من ظرف مغلق !
ويبدو أن الدكتوز راشر ، العالم النازي ، تجاوز هو الآخر الخطوط
المحايدة (!) حتى أنه أغضب هملر الذي أمر بإعدامه هو وزوجته
قبل نهاية الحرب بقليل . كما أعدم قائد معسكر بوخنوالد وزوجته

«أرياً» ثم يلحق ببرنامج خاص للأرينة (أي التحويل للأرينة) ليتعلم
الألمانية والسلوك الألماني الأصل . وكانت هناك مؤسسة خاصة
تُسمى Ru SHA المكتب الرئيسي للعرق والتوطين ، كانت مهمتها هي
تحديد الصفات الآرية وإمكانية الأئمة . (وانطلاقاً من الرؤية
البرجمانية نفسها صُفّ اليابانيون ، حلفاء الألمان ، «أريون
شرفيون» رغم انتماهم للجنس الأصفر !) .

وفي مؤتمر فانسي (الذي عُقد في ٢٠ يناير ١٩٤٢) أبدى
المجتمعون اهتماماً شديداً بتصنيف الضحايا تصنيفاً دقيقاً إذ قُسموا
إلى أربعة أقسام : فكان القسم الأول يضم من ستمت إبادته على
الفور ، أما القسم الثاني فكان يضم من ستمت إبادته (إنهاكه) من
خلال الجوع والعمل بالسخرة . ويضم القسم الثالث والرابع من
يُعمق ومن يمكن أن يؤلم (على التوالي) . وقد قام النازيون بالتمييز
بين الإبادة من خلال الجوع والإبادة من خلال العمل ، ففي عام
١٩٤٢ وجد الجيش الألماني أن المنهج الثاني من الإبادة أكثر رشداً من
الأول فقام بتبنيه .

٧ - كان النازيون حريصين كل الحرص على استخدام مصطلح
علمي محايد لا يحمل أية دلالات عاطفية غير علمية ، فإحدى
مؤسسات الإبادة كانت تحمل اسم تي فور T4 ، وهو اسم يصلح لأية
شركة تجارية أو سياحية أو حتى أي دواء مقو ، وهو منسوب إلى
الشارع الذي تقع فيه المؤسسة وإلى رقم المبنى (تيرجارتن شتراسه
رقم ٤ Tiergarten Strasse 4 ، أي ٤ شارع حديقة الحيوان) . ومن
أسماء المؤسسات الأخرى «جمعية نقل المرضى» أو «المؤسسة الخيرية
للعناية المؤسسية» .

وكان يُشار إلى عملية الإبادة بنفس المصطلح ، فيتم أولاً
«الإخلاء» ، يليه «النقل» (الترانسفير) ثم «إعادة التوطين» ، وأخيراً
«الحل النهائي» . (ويستخدم الصهاينة نفس الخطاب ، فهم
يستخدمون كلمة مثل «ترانسفير» للإبعاد . وحينما فر الفلسطينيون
من قراهم عام ١٩٤٨ خوفاً من الإرهاب الصهيوني ، وصف
وايزمان هذا الفرار بأنه عملية «تنظيف» . وتجميع المصطلح مسألة
أساسية في التفكير النازي ، فعملية تسييس العمال وترشيد حياتهم ،
أي السيطرة عليهم وعلى حياتهم الخاصة أطلق عليها اسم «القوة من
خلال المرح» ، وكان مكتوباً على معسكر أوشفيتس «العمل سيحقق
لك الحرية» . وكما أسلفنا ، فقد جرى الحديث عن إبادة المعوقين
وغيرهم باعتبارها نوعاً من «الصحة العرقية» ومن «علاج الأمراض
الوراثية الخطيرة» ، وكانت إبادة المجرمين والمتخلفين توصف بأنها
«تجنب العدوى والقضاء على الجراثيم» ، وأفران الغاز هي

أ) المستهلكون الذين لا نفع اقتصادي لهم : مثل المستوطنين والمتخلفين عقلياً والمصابين بالشيخوخة وفرياً (انقسام الشخصية) والأطفال المعوقين والأفراد المتقدمين في السن والمصابين بالسل ، والمرضى المشوش من شفاهتهم . بل كان يُصَمِّم لهؤلاء الجنود الألمان الذين أصيبوا أثناء العمليات العسكرية ، فعلاجهم كان يُشكِّل عبئاً على ميزانية الدولة .

ب) المتحولون : وهم الشيوعيون والشواذ جنسياً وعدد كبير من أعداء المجتمع الذين يتسمون بالسلوك غير الاجتماعي (مدمنو الكحول والعاهرات والمجرمون ومدمنو المخدرات ومن لا مأوى لهم) .

ج) أعضاء الأجناس الدنيا : مثل السلاف والعجر واليهود والأقزام ، فهم غرباء داخل الفولك الألماني ولا يوجد مبرر قوي لوجودهم إلا باعتبارهم مادة خاماً تُوظَّف لصالح الجنس الآري الأرقى ، خاصة أن بعضهم ، مثل البولنديين ، يشغلون المجال الحيوي لألمانيا .

وفي ١٤ يولييه ١٩٣٣ (في اليوم التالي لتوقيع المعاهدة مع الفاتيكاني) ، أصدر النازيون قانوناً يُسمَّى «قانون التعقيم» لمنع بعض القطاعات البشرية (المعوقين - المرضى النفسيين - المرضى بالصرع - العمى الوراثي - الصمم الوراثي - التشوه الخلقي - الإدمان المتطرف للكحول) من التكاثر . وبالفعل ، تم تعقيم أربع مائة ألف مواطن ألماني . وفي عام ١٩٣٥ ، صدر قانون بمنع العلاقات الجنسية بين اليهود وأعضاء الأعراق غير الراقية من جهة والألمان من جهة أخرى ، وذلك للحفاظ على النقاء العرقي . وأعلن عام ١٩٣٩ عاماً يراعي فيه المواطن واجب التمتع بصحة جيدة وطُلب من كل طبيب أو دابة أن يُبلغ عن أي مولود جديد معوق . وبدأت عملية القتل الموضوعي (أو العلمي أو المحايد) لهؤلاء الذين لا يمكن شفاؤهم مثل المعوقين وغيرهم (مشروع تي فور T4) . وظهرت وثائق تبين أنه قُتل سبعون ألف معوق وعاجز يأكلون ولا يتنجون (حرفياً : «أكلون غير نافعين» أي «أفراد يأكلون ولا يتنجون» [بالإنجليزية : useless eaters]) يُشكِّلون عبئاً على الاقتصاد الوطني ويعوقون التقدم . وقد تمت إبادتهم بمقتضى برنامج «تجنب العدوى والقضاء على الجراثيم» (أي برنامج إبادة المجرمين والمتخلفين وربما المسنين) . وأدَّى ذلك إلى توفير ٢٣٩,٠٦٧,٠٢٠ كيلو جراماً من المربي في العام (كما جاء في إحدى الدراسات العلمية الألمانية الرصينة) . وأنشئت لجنة للعلاج العلمي للأمراض الوراثية الخطيرة أو صحت بقتل الأطفال المشوهين . وكان هؤلاء وغيرهم يُرسلون إلى مستشفيات . فكانوا يوضعون في عنابر خاصة ثم يتم الإجهاد عليهم عن طريق أفران غاز مخبأة على هيئة أدشاش ، ومحارق لحرق الجثث . وقد طُبِّق المعيار نفسه ،

(عامرة بوجنوالد) التي كانت مغرمة بصنع الشمعدانات ومناقص السجائر من أشلاء البشر ، الأمر الذي يتجاوز حدود العقولية والخيال والحوسلة . وقد أوضح المواطن النازي جوزيف كرامر أنه سَمِّ ثمانين امرأة بالغاز أثناء خدمته في أوشفيتس . وحينما سُئل عن مشاعره ، صرح ببرود أنه لم تكن لديه أية مشاعر على الإطلاق ، وقال للقضاة : « لقد تلقيت أمراً بقتل ثمانين من التزلاء بالطريقة التي قتلها لكم . وبالنسبة هذا هو الأسلوب الذي تدرَّب عليه » ، فهو يرى نفسه باعتباره «موظفاً فنياً» وحسب ، ملتزماً بانشيد الإجرائي ولا يصعد مخه بالقيم الأخلاقية أو بالمطلقات (فهذه مجرد ميتافيزيقا !) .

وحينما صدر قانون التعقيم والذي شمل الحالات المتطرفة لإدمان الكحول ، حاول البعض استصدار استثناء للمحاربين القدامى ممن أدموا الكحول نتيجة إصابات في المخ لحقت بهم أثناء الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى . ولكن الحياء العلمي لا يعرف أي استثناءات ولذا رُفِض الطلب ، « لأنه لو أعفي هؤلاء لثم إعفاء المحاربين القدامى الذين أصيبوا في شجار في الشارع ، ثم المصابين نتيجة العمل في المصانع » ، الأمر الذي يتناقض مع النموذج العقلاني المادي والمنطقي التي تتطلبها الموقف العلمي الصارم .

٩ - تبدَّى الموقف الحياضي الدارويني في موقف النازيين من العلم ، وزعمهم انفصاله عن القيمة وعن الغائية الإنسانية ، في واحد من أهم المفاهيم الطبية (العلمية المحايدة) في القرن التاسع عشر ، وهو مفهوم «الصحة العرقية» ، الذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب العضوي وعلى بقاءه (فهما سر تفوقه ورفيقيه) عن طريق التخلص من العناصر الضارة أو غير النافعة (التي تُعدُّ تعبيراً عن انهيار العرق وانحطاطه) ؛ وثمة كتابات عديدة بجميع اللغات الأوروبية في هذا الموضوع . ومن أهم المفاهيم المرتبطة بالصحة العرقية مفهوم اليوتينيبيجا euthenesia أو ما يُسمَّى «القتل الرحيم» (وإن كان من الأفضل تسميته «القتل العلمي» أو «القتل المحايد» أو «القتل الآدائي» أو «القتل الموضوعي») ، أي التخلص من المعوقين وغيرهم (مثل المرضى بأمراض مزمنة) عن طريق التصفية الجسدية . وقد يبدو هذا المفهوم لنا مخيفاً ، ولكن في إطار الرؤية المادية الشاملة المحضة ، وفي داخل إطار دارويني نيتشوي ، يصبح الأمر منطقياً ومتسقاً مع نفسه (ولذا ، نجد كاتباً مثل برنارد شو أو هـ . جـ . ويلز يدافع عن مثل هذا المفهوم) .

وقد أصدرت النخبة النازية عدة قوانين لضمان الصحة العرقية . فوضعوا البشر تحت تصنيفات مختلفة :

الدقة والحياد العلميين). فكان يتم غمر الضحايا/ الخنازير في وعاء ضخم أو كانوا يُتركون عُراة في الخارج طوال الليالي الثلجية . وفي أواخر شتاء عام ١٩٤٣ ، حدثت موجة برد شديدة ، فشكك بعض السجناء عراة في الحلاء أربع عشرة ساعة ، تمجدت خلالها أطرافهم وسطوح أجسامهم الخارجية وانخفضت درجة حرارتهم الداخلية . وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجياً مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك .

وكانت هناك تجارب أخرى من بينها دفنة أشخاص مثلجين . وبناءً على تقرير راشر ، أُجريت أكثر من أربعمئة تجربة على ثلاثمئة ضحية . وقد مات من هؤلاء زهاء تسعين شخصاً نتيجة لمعالجتهم ، وجُنَّ عددٌ ممن بقى . أما الآخرون ، فقد قُتلوا لكيلا يتحولوا إلى شهود مزعجين فيما بعد . وقد توصل راشر إلى حقائق علمية جديدة تتحدى كثيراً من المقولات العلمية السائدة في عصره . وأُجريت بالطبع تجارب لا حصر لها على نزلاء أحياء في معسكرات الاعتقال ، من بينها الحقن بالسم أو بالهواء أو البكتريا ، معظمها مؤلم وكلها قاتلة ، كما أُجريت تجارب زرع الغرغرينا في الجروح وترقيع العظام وتجارب التعقيم .

وفي الإطار التجريبي نفسه كان يتم اختيار التوائم وإرسالهم إلى الطبيب النازي الشهير الدكتور منجل لإجراء تجارب علمية فريدة عليهم ، لا يمكن للعلماء الآخرين القيام بها نظراً لعدم توفر العينات اللازمة . فكان يفصل التوأمن ويضعهما في غرفتين منفصلتين ، ثم يعذب أحدهما أحياناً ليدرس أثر عملية التعذيب على الآخر ، بل كان يقتل أحدهما لدراسة أثر هذه العملية على الآخر . وكما قال برعمو ليفني : إن ألمانيا النازية هي المكان الوحيد الذي كان بوسع العلماء أن يدرسوا فيه جشئ توأمن قُتل في نفس اللحظة . ويُقال إن دراسات منجل على التوائم لا تزال أهم الدراسات في هذا المجال ، ولا تزال الجامعات الألمانية والأمريكية تستفيد من النتائج التي توصل إليها الباحثون العلميون الألمان في ظروف فريدة لم تُح لعلماء غيرهم من قبل من بعد . وقد أثّرت مؤخراً قضية مدى أخلاقية الاستعادة من معلومات تم الحصول عليها في مثل هذه الظروف التجريبية الجهنمية ، وبهذه الطريقة الموضوعية الشيطانية .

وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أمخاخ الضحايا وقد اختار د . برجر ، التابع لإدارة الإس . إس . عدداً من العينات البشرية (٧٩ يهودياً - بولنديان - ٤ آسيويين - ٣٠ يهودية) تم إرسالهم لمعسكر أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح الأستاذ

بعض الوقت ، على الجنود الألمان الجرحى في الحرب ، إذ أن عملية علاجهم كانت ستكلف الدولة الكثير . ثم طُبِّقت عمليات الإبادة هذه بصورة أوسع على أسرى الحرب .

وقد صنّف اليهود باعتبارهم مرضى ، وذلك نظراً لعدم نقائهم العرقي . ومن ثم أصبح من الضروري إبادتهم ، شأنهم شأن العناصر الألمانية غير النافعة . ومن جهة أخرى ، تم توسيع نطاق برنامج القتل المحايد أو العلمي ليضم المجرمين كافة ، يهوداً وغير يهود . وكان اليهود يُعتبرون أيضاً ذوي استعداد إجرامي طبيعي بسبب اختلاط خصائصهم الوراثية . ولذا ، طُبِّق البرنامج على اليهود الموجودين في المستشفيات جميعاً .

١٠ - ومن أهم تجليات الحياء العلمي ذات العائد المرتفع التي اتسمت بها الإبادة ، تلك التجارب العلمية التي كان النازيون يجرونها على خنازير التجارب البشرية وهي تجارب منفصلة تماماً عن أية منظومات قيمة . فكان النازيون يختارون بعض العناصر التي لها أهمية تجريبية خاصة لإجراء التجارب عليها . وكان هذا يتم بسهولة ويسر وسلاسة ؛ لأن البشر تحولوا إلى موضوع أو مادة محايدة في عقول القائمين على هذه التجارب . فعلى سبيل المثال ، كان طبيب بوخنوالد (الدكتور هانس إيسيل) يقوم بعمليات استئصال دون تخدير ليدرس أثرها . وأُجريت تجارب أخرى على نزلاء معسكرات الاعتقال لا تقل رهبة عن تجارب إيسيل . وكان بعضهم يُطلق عليه الرصاص لاختبار فعاليته في الحرب ، وعُرض آخرون لغازات سامة في عمليات اختبارية . وكان البعض يوضعون في غرفة مفرغة من الهواء لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان خلالها أن يظل حياً وهو على ارتفاعات عالية أو بدون أوكسجين . وكان الأوكسجين يُقلل تدريجياً ويخفض الضغط ، فتزداد آلام خنازير التجارب البشرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح آلاماً لا يمكن احتمالها حتى تنفجر رئاتهم . كما كان الضغط الداخلي على أغشية طبيلات الأذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون .

وكان الدكتور راشر ، وهو عالم نازي آخر ، شمولياً في أبحاثه إلى درجة عالية ، فقام بتزويد غرف الضغط في النهاية بمبردات تجبر عيناته على مواجهة شروط أقرب ما تكون إلى الارتفاعات العالية . وكان راشر مسئولاً أيضاً عن الكثير من تجارب التجميد التي يتعرض فيها الأشخاص إلى البرد الشديد المستمر حتى الموت . وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم ، وبقائهم أحياء ، وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الذين يسقطون في مياه متجمدة . وكان بعض نزلاء داخاو ضمن ضحايا راشر أو ضمن خنازير تجارية (إن أردنا التزام

١٩٣٥ ، أي شخص ينحدر عن أجداد يهود أن يشغل وظيفة ضابط في الجيش الألماني (الدلي تلجراف ديسمبر ١٩٩٦) . وكان مكتب الأفراد في الجيش الألماني (عام ١٩٤٤ ، أي قرب نهاية الحرب) على علم بوجود سبع وسبعين ضابطاً من ذوي الرتب العالية من أصول مُختلطة يهودية أو متزوجين من يهوديات . ومع هذا وُثِّق هنر شهادات تبين أنهم من « ذوي الدم الألماني » ، أي يتسمون للعرق الألماني . ومن بين هؤلاء الفيلد مارشال أبرهارد ميلخ ، الذي كان نصف يهودي (حسب التعريف النازي) ومع هذا كان يشغل منصب نائب هرمان جورنج ، قائد السلاح الجوي الألماني ، والحلف المختار لهتلر . وقد غض جورنج الطرف عن هذه الحقيقة ، بل زوّر المعلومات المتعلقة بوالد نائبه . وتبين الوثائق التي تم كشف النقاب عنها مؤخراً أن القيادة النازية منحت وسام الصليب الفارس ، أعلى وسام عسكري ألماني ، إلى عسكريين سبق أن طردوا من الخدمة بسبب انحدرهم من أصل يهودي ثم أعيدوا إليها .

وتتضح المفارقة في تلك الزيارة التي قام بها أحد كبار الضباط الألمان لوالده الذي كان قد نُقل إلى أحد معسكرات الاعتقال والسخرة . وقد حرص الضابط على أن يرتدي النياشين والأوسمة التي مُنحت له بسبب مشاركته في الحملات العسكرية التي شنها النظام النازي ، هذا النظام الذي كان يقوم بإبادة أعضاء كثير من الأقليات الإثنية والدينية ، ومن بينهم أعضاء الجماعات اليهودية . إن المفارقة هنا تدل على حس عملي عميق مستعد لتجاوز كل الأفكار المسبقة للتعامل بكفاءة مادية بالغة مع الواقع العملي وتجاوز الميثافيزيقا والمطلقات والكليات . وحينما وجد النازيون فرصاً للاستفادة من أعضاء الجماعات اليهودية ، هذه المادة البشرية الاستعمالية النافعة ، لم يترددوا في تعديل عقائدهم الدينية العرفية نفسها .

١١ - ولكن إلى جوار المادة البشرية الاستعمالية النافعة التي تُجرى عليها التجارب وتُدرس بعناية وموضوعية وحياد ، كانت هناك المادة التي لا يُرجى منها نفع أو الضرر من منظور النازيين ، وكان أمثال هؤلاء يُبادون ببساطة شديدة من خلال عمليات التصفية الجسدية السريعة ، التي تقوم بها جماعات خاصة أو فرق متقلة تقف وراء خطوط الجيوش الألمانية (بالألمانية : آينساتس جروبين Einsatzgruppen) . وكانت طريقة الإبادة هذه سريعة وغير مكلفة إذ كانت تُقام مقابر جماعية يُلقى فيها بالضحايا بعد أن يحفروها بأنفسهم . كما كانت الإبادة تتم أحياناً بواسطة سيارات مجهزة بحجارة غاز يتم التخلص فيها من الضحايا دون حاجة إلى نقلهم إلى

الدكتور هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقية في تكوين مجموعة كاملة ومثلة من الهياكل العظمية اليهودية (كما كان مهتماً بدراسة أثر الغازات الخائقة على الإنسان) . أما الدكتور برجر نفسه فكان مهتماً بالآسيويين وجماعهم ، وكان يحاول أن يكون مجموعته الخاصة .

ويبدو أن عملية جمع الجماع هذه وتصنيفها لم تكن نتيجة تخطيط محكم ، وإنما نتيجة عفوية للرؤية النفعية المادية المتجردة من القيمة . إذ ورد إلى علم البروفسور هالير وفوردن أنباء عن إبادة بعض العناصر البشرية « التي لا تستحق الحياة » ، فقال للموظف المسئول بشكل تلقائي : « إن كنتم ستقتلون كل هؤلاء ، فلماذا لا تعطوننا أمخاخهم حتى يمكن استخدامها ؟ ، فسأله : كم تريد ؟ فأجاب : عدد لا يحصى ، كلما زاد العدد كان أفضل . ويقول البروفسور المذكور إنه أعطاهم بعد ذلك الأحماض اللازمة والقوارير الخاصة بحفظ الأمخاخ . وكم كانت فرحة البروفسور حينما وجد أمخاخ معوقين عقليين (في غاية الجمال ، على حد قوله) و« أمخاخ أطفال مصابة بأمراض الطفولة أو تشوهات خلقية » . وقد لاحظ أحد العاملين في مركز من مراكز البحوث أن عدد أمخاخ الأطفال المتوفرة لإجراء التجارب أخذت تتزايد بشكل ملحوظ ، ونتيجة لهذا تم الحصول على مواد مهمة لتلقي الضوء على أمراض المخ .

ومن أطرف الأمثلة الموضوعية قضية البروفسور النازي كلاوس الذي اكتشف البعض أنه يعيش مع سكرتيرته اليهودية ، وفي «دفاعه» عن نفسه قال إنه يواجه مشكلة في دراسته لليهود وهي أنه لا يمكنه أن يعيش بينهم ولذا كان عليه أن يحصل على « مُخبر » أو « دليل » (بالإنجليزية : إنفورمانت informant) أو عينة مُمثلة يمكنه دراستها عن قرب ، فهي بالنسبة له لم تكن سوى موضوع للدراسة فكان يراقبها « كيف تأكل وكيف تستجيب للناس وكيف تقوم بتركيب الجُمْل بطريقة شرقية عربية » [كذا] .

ويتضح حياد النازيين وحسهم العملي الفائق ، بشكل آخر تماماً . فقد كانوا على استعداد لأن يطوعوا النظرية العرقية ذاتها لتطلبات الواقع . فاليابانيون (أعضاء الجنس الأصفر ، حسب الرؤية النازية) أُعيد تصنيفهم «آرين شرقيين» ، بسبب عمق التحالف بين ألمانيا النازية واليابان ذات النزعة الإمبريالية ، ولم يكن اليابانيون هم وحدهم الذين حظوا بهذا الشرف ، فهناك « برامج الأرية » للسلاف ممن كانوا يتسمون بنسبة ٨٠٪ من السمات الآرية . بل قد بدأت تظهر قرائن على أن آلاف الجنود الألمان كانوا يهوداً أو نصف يهود ، رغم أن القانون الألماني في ظل الحكم النازي كان يمنع ، اعتباراً من عام

مضمونها الأخلاقي ويُنفذها حتى لو تنافت مع القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة . فهذا الموظف لا يدين بالولاء الكامل إلا للدولة والوطن ولا يعيش في ازدواجية الدين والدولة أو الأخلاق والدولة . فالطلق الوحيد الذي يؤمن به ، شأنه في هذا شأن أي إنسان علماني شامل ، هو الدولة والوطن . ولذا فعليه أن يدعّن لما يصدر له من أوامر تأتيه من هذه الدولة التي تخدم مصالح الوطن . وهذا ينطبق على الأوامر النازية الخاصة بالإبادة !

ولكن هناك آخرون ، ممن يؤمنون بالمطلقات الأخلاقية والإنسانية ، يذهبون إلى أن الإنسان الفرد كان حر مستول ، ولذا فعليه أن يتحمل المسؤولية الأخلاقية الكاملة لما يأتيه من أفعال ، ومن ثم عليه أن يقف ضد عمليات إبادة الضعفاء (من المسنين والمعوقين وأعضاء الأقليات) ، حتى لو كانت عملية الإبادة تخدم « الصالح العام » أي صالح الدولة والوطن ! أي أن الإنسان الفرد يدين بالولاء لمجموعة من القيم الأخلاقية والإنسانية المطلقة تتجاوز ولاءه للدولة والوطن وكفاءة الأداء في الوظيفة .

وهذه إشكالية فلسفية وأخلاقية وإنسانية عميقة تواجهها المنظومة العلمانية الشاملة ، فهي منظومة فلسفية تنكر الميتافيزيقا والثانيات والمطلقات وتؤكد نسبية المعرفة وكل النقيم الأخلاقية ، وهو ما يعني ، بطبيعة الحال ، غياب المرجعية المتجاوزة (التي تتجاوز الأفراد) وظهور المرجعية المادية الكامنة ، حين يحدد كل إنسان قيمه بنفسه دون العودة إلى أية مطمّنات أو ثوابت إنسانية (كما يدعّو فكر ما بعد الخدائ). وإذا كان الألمان ، انطلاقاً من المرجعية المادية الكامنة فيهم ، قد حدّدوا قيمهم الأخلاقية على أسس نفعية مادية داروينية ، وسلّكوا على هذا الأسس ، فكيف يمكن لنا أن نتجاوز ذاتيتهم الكامنة فيهم ؟ وكيف يمكن لنا أن نهيب بقيم أخلاقية وإنسانية ، عامة مطلقة ، تقع خارج نطاق مثلهم الذاتية ؟ كيف يمكن أن نفعل ذلك إن كنا نحن أنفسنا نؤمن بالنسبية المطلقة ؟ كيف يمكن اختراق المطلق الذاتي ؟ كيف يمكن أن نبين للشعب المختار ، صاحب الحقوق المطلقة ، المسلح بالمدايع الرشاشة والفتائل النووية ، أن ثمة إنسانية عامة وثمة قيم أخلاقية عامة ، إن كنا نحن أنفسنا نسيبن ، علمانيين شاملين حركيين نرفض الثبات ولا نرى إلا حركة المادة وقوانينها الصماء ؟ يقول البعض ممن يحاول اتخاذ موقف أخلاقي دون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة ، إن الإنسان بوسع أن يأخذ موقفاً ذاتياً وجودياً ، ويرفض إبادة الآخر بإصرار وعناد ، أي أن الإنسان بوسع أن يبنّي موقفاً أخلاقياً دون السقوط في الميتافيزيقا ودون الإهابة بأية مرجعية متجاوزة أو كليات مجردة . ولكن هل يمكن

معسكرات الإبادة . وقد تم التخلص بهذه الطريقة من جرّحى الحرب الألمان عن لا يرجى لهم شفاء أو ستتكلف عملية تمريرهم الكثير ، كما تمت إبادة أعداد كبيرة من أعضاء النخبة الثقافية البولندية ، والفائض السكاني الروسي .

١٢ - وحتى بعد قرار الإبادة (بمعنى التصفية الجسدية) ، كان يدين النازيين دائماً هو الحوسلة الكاملة وتعظيم الفائدة والحرص الكامل على ممتلكات الدولة وخدمة مصالحها ، ولذا كان يتم تجريد الضحايا من أية مواد نافعة (حتى من الحشوات الذهبية التي في أسنانهم) ، ولا شك في أن هذا ساهم في تحسين ميزان المدفوعات الألماني . وقد أشرنا من قبل إلى استخدام الأمخاخ البشرية ولكن يبدو أن عملية التوظيف كانت أعمق من ذلك بكثير فقد كانت البقايا البشرية (مثل الشعر) تُستخدَم في حشو المراتب ، ويُقال إنها كانت مريحة للغاية وزهيدة الأسعار . ولم يكن الرماد البشري يُستخدَم كشكل من أشكال السماد وحسب ، وإنما كمادة عازلة أيضاً . وكانت العظام البشرية تُطحن وتُستخدَم في أغراض صناعية مفيدة مختلفة . بل يُقال إن بعض الأنواع الفاسخة من الصابون صُنعت من الشحومات البشرية . (ومع هذا ، صدرت مؤخراً دراسات تشكك في هذا) .

كانت الجدوى الاقتصادية لمعسكرات الإبادة إذن عالية للغاية ، كما كان التحكم كاملاً ، أي أنها عملية رشيدة بالمعنى القبيري ، إذ يرى ماكس فيبر أن رشد الحضارة الغربية الحديثة ينصرف إلى الإجراءات وحسب ، ولا ينطبق على الأهداف فهو ترشيد مادي إجرائي أداتي ، منفصل عن القيم والعاطفة ، وأنه لهذا السبب سيتهي بالإنسان إلى « القفص الحديدي » حيث يوجد فيون بلا قلب ؛ حسيون غير قادرين على الرؤية ، وهذا لا يختلف كثيراً عن معسكرات الاعتقال والإبادة . وقد أشار أحد العلماء الذين درسوا الظاهرة النازية إلى أن العلماء النازيين تبنوا ما سموه موقفاً موضوعياً متجرداً من الأحكام القيمية ، ولكن هذا الموقف العلمي ذاته جعل كل شيء ممكناً . فقتل المصابين بالأمراض العقلية ، إن كان لازماً للبحث العلمي الموضوعي ، يصبح أمراً مقبولاً وربما مرغوباً فيه .

وتتلور هذه النقطة في قضية المسؤولية الخلقية للتنفيذيين النازيين ، فهناك من ينطلق من المنظور الترشيدي المادي الإجرائي المنفصل عن القيمة ويذهب إلى أن المواطن النازي الذي اشترك في عمليات الإبادة لم يكن سوى بيروقراطي ، موظف تنفيذي (* عبد المأمور ، كما نقول بالعامية المصرية) ، يؤدي عمله بكفاءة عالية ، ويُنفذ ما يصدر إليه من أوامر تأتيه من عل ، ولا يتساءل عن

محاكمة الآخر من هذا المنظور إن كان لا يؤمن به ؟ ألا يعني هذا أنني أفرض ذاتيتي الأخلاقية الوجودية على ذاتيته الداروينية النفعية المادية ؟

هذه هي الإشكالية التي نهينا لها ماكس فيبر وغيره من علماء الاجتماع والمفكرين الغربيين حينما بدأوا في إطلاق التحذيرات ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ، من العلم المنفصل عن القيمة ، وهي إشكالية تثيرها ، وبحدة ، الإبادة النازية لليهود والأطفال والمعوقين والمعجزة والغجر ، وكل من لا فائدة له ، من المنظور النازي . والحوار الدائر في الغرب بشأن الإبادة يركز على تفاصيل مثل عدد الضحايا وهل هم يهود فقط أو غيرهم (نما أسميه «لعبة الأرقام») ويهمل قضية إنسانية جوهرية مثل هذه تتجاوز حدود الإبادة النازية لتصل إلى مستوى المجتمع الحديث بأسره ، ومستقبل الإنسان على هذه الأرض .

وقد أثبتت مؤخرأ قضية وثيقة الصلة تماماً بقضية انفصال العلم عن القيمة ألا وهي قضية انفصال الإجراءات الديمقراطية عن القيمة . فالديموقراطية هي في واقع الأمر اتفاق على مجموعة من الإجراءات تمكن من خلالها معرفة رأي الأغلبية ، وجوهر هذه الإجراءات كمي ، أي حساب عدد الأصوات المؤيدة والمعارضة ، فإن زادت الأصوات المؤيدة عن الأصوات المعارضة ولو صوتاً واحداً تم تمرير مشروع القانون ، وإن نقصت ولو صوتاً واحداً رُفض المشروع . فالاتفاق هنا اتفاق بشأن الإجراءات وحسب (وقوانين اللعبة ، كما تسمى) ، وليس متصلاً بمضمونها أو اتجاهها ، فهذه أمور تحددها العملية الديمقراطية نفسها ، دون الالتزام بأية قيم أو مرجعيات مسبقة ، أي أن الديمقراطية تدور في إطار النسبية الكاملة ولا تنقيد بأية قيم أخلاقية مطلقة . ومن ثم سميت الأخلاق الحاكمة للديموقراطية بأنها «أخلاقيات الإجراءات والضرورة» (بالإنجليزية : إتيكس أوف برويسيس ethics of process) . فالديموقراطية ، شأنها شأن الترشيد الإجرائي ، معقدة من الميتافيزيقا والكليات والمطلقات والشوايب . فكما أن العلم انفصل عن الغايات والقيم الإنسانية وأصبح مرجعية نفسه ، انفصلت الإجراءات الديمقراطية عن الغايات والقيم الإنسانية وأصبحت مرجعية ذاتها ، ولا يمكن محاكمتها من خلال مرجعية متجاوزة لها .

والقضية التي تثيرها النازية هي أن هتلر وصل إلى الحكم من خلال إجراءات ديموقراطية سليمة ، تماماً كما أن المشروع الإمبريالي الغربي قامت به حكومات تم انتخابها بطرق ديموقراطية سليمة . ومن المعروف أن عمليات السخرة والإبادة التي قام بها النظام النازي كانت

تخفى بموافقة الأغلبية الساحقة للشعب الألماني . وهذا لا يختلف كثيراً عما حدث في الولايات المتحدة حينما قامت الحكومة الأمريكية بوضع ألوف المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات اعتقال إبّان الحرب العالمية الثانية كإجراء أمني ، وقد حظى القرار العنصري الإرهابي بموافقة الأغلبية . وتصبح القضية أكثر خطورة حينما تظهر بين جماهير الشعب نزعات عسكرية وإمبريالية تتجاوز طموحات النخبة الحاكمة ، الأمر الذي يضطرها إلى القيام بعمليات عسكرية عدوانية لتحظى برضى الجماهير . ويلاحظ أثناء حملات الرئاسة الأمريكية أن حكومة الولايات المتحدة تأخذ مواقف عسكرية متشددة قد لا تضطر لاتخاذها بعد الانتخاب . وتظهر المشكلة بشكل أكثر حدة حينما يرى أحد الشعوب أن قطاع الاتجار في المخدرات هو عصب اقتصادها الوطني ، وتُنتخب حكومة تدافع عن مثل هذه السياسة . ومؤخرأ رشحت إحدى نجمات أفلام الإباحية نفسها في انتخابات البرلمان الإيطالي ، وكانت حملتها الانتخابية تتلخص في خلعها للملابسها لإقناع وإغواء الناخبين (وقد نجحت في حملتها وتم انتخابها بالفعل بتفوق) . وفي الجيوب الاستيطانية ، مثل إسرائيل وجنوب أفريقيا ، عادة ما تحكمها حكومات تم انتخابها بطريقة ديموقراطية لا شبهة فيها ، وهذه الجيوب تستند إلى فعل سرقة تاريخي تقبل به أغلبية المستوطنين الساحقة ، وتصوت (بل تقاتل) من أجل استمراره . ففعل الاغتصاب الإرهابي يحظى بدعم سياسي وقبول ديموقراطي .

والسؤال الآن هو : هل علينا أن نقبل بمثل هذه القرارات (ابتداءً من الإبادة النازية وانتهاءً بقبول المخدرات والإباحية واغتصاب الأوطان) باعتبار أنها تعبير عن إرادة الشعب وصوت الجماهير طالما أنها اتبعت الإجراءات الديمقراطية السليمة ، أم ينبغي علينا أن نرفض مثل هذه القرارات الديمقراطية ، استناداً إلى مرجعية أخلاقية متجاوزة للإجراءات الديمقراطية ؟ ولكن هل يحق لنا أن نسأل أي سؤال يقع خارج نطاق أخلاقيات الإجراءات والضرورة ؟ ألا يُشكل هذا سقوطاً في الميتافيزيقا والمأهوية والمطلقية ؟

توظيف الإبادة

Instrumentalization of the Holocaust

تتسم المجتمعات الغربية الحديثة بمقدرتها الفائقة على حوسلة كل شيء ، دون أي اعتبار لقداسة أو محرمات ، ويحدث الشيء نفسه بالنسبة للإبادة . وتبدأ عملية توظيف الإبادة - على يد الصهاينة - بمحاولتهم فرض معنى صهيوني ضيق عليها باعتبارها

إسرائيل أنها تطاردكم في كل زمان ومكان!) مادام هذا يخدم مصلحتها . وقد تعاونت إسرائيل مع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية التي كانت معروفة بتعاطفها الكامل مع النظام النازي . وقامت باستضافة رئيس وزراء جنوب أفريقيا السابق ، بلسازا فورستر ، وهو جنرال سابق في الحركة الوطنية في جنوب أفريقيا الموالية للنازيين والتي كانت تقاوم المجهود الحربي لنحلفاء . وقد اعتُقل لمدة عشرين شهراً بسبب اشتراكه في المقاومة . ورغم مرور عشرات السنين إلا أنه لم يُكرّم موقفه الموالي للنازية . وقد سمحت له الحكومة الصهيونية بوضع إكليل من الزهور على ياد فاشيم (النصب التذكاري) المقام بفضحايا الإبادة النازية لليهود ، الأمر الذي دفع جريدة الجيرويساليم بوست (الصهيونية) إلى الاحتجاج وإلى الإشارة إلى الحقيقة البديهية التي أغفلتها إسرائيل وهي أن اليهود ينبغي عليهم ألا يربتطوا بأحد المؤيدين السابقين للنازية .

وفي مجال توظيف الإبادة لبلجأ الصهيونية أحياناً لاختلاق القصص أو تزييف الحقائق كما حدث في حادثة أن فرانك (١٩٢٩ - ١٩٤٥) ، وهي فتاة أثنائية هاجرت إلى هولندا مع أسرته بعد وصول هتلر إلى السلطة في عام ١٩٣٣ . وحينما قرر النازيون إرسال أختها إلى معسكرات العمل ، اضطرت هي وأسرته إلى الاختباء ، فعاشوا في مخبئهم ما يزيد على عام . ثم أُتي القبض عليهم وُرحلوا إلى معسكرات الاعتقال حيث نجت آن وأختها حتفهما بسبب المرض .

ويُقال إن أن فرانك كتب . أثناء فترة اختبائها . مذكراتها التي نُشرت بعد الحرب وترُجمت إلى الإنجليزية . وهناك الكثير من الشكوك التي تحيط بهذه المذكرات إذ يُقال إنها لم تكتبها بنفسها بل كتبها أبوها (أو بعض من حوله) بعد موتها بطريقة مثيرة ليحقق من ورائها ربحاً مالياً . ولهذا فهي لا تُعتبر وثيقة تاريخية يُعتمد بها . ومع أنها ليست ذات قيمة أدبية كبيرة ، إلا أنها أصبحت مصدراً لعدة أفلام ومسرحيات . كما غدت أن فرانك إحدى الأساطير التي تُستخدم لتحويل الإبادة النازية من جريمة غربية ضد قطاعات بشرية عديدة داخل التشكيل الحضاري الغربي (تضم السلاف والغجر والجماعات اليهودية) إلى جريمة ألمانية ضد اليهود وحسب . وأصبح المنزل الذي اختبأت فيه أسرة فرانك متحفاً .

وتحاول الدعاية الصهيونية توظيف واقعة الإبادة في تعبئة أعضاء الجماعات اليهودية (باعتبارهم الضحية الوحيدة) وراء الأهداف الصهيونية . ولتحقيق هذا يحاول الصهاينة أن يجعلوا من الإبادة حجر الزاوية الذي تستند إليه الوحدة بين يهود العالم في إسرائيل وخارجها . فالإبادة ، بعد فرض المعنى الصهيوني عليها ،

جريمة العصر التي ارتكبتها الألمان والأغيار ضد اليهود فحسب . ثم تُعطي واقعة الإبادة مكانة محورية في تاريخ أوروبا وتاريخ العالم . ولذا صدرت عشرات الأفلام والدراسات والأعمال الفنية لحفر الإبادة في الذاكرة باعتبارها واقعة حدثت لليهود وحدهم ، لا باعتبارها جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد قطاعات كبيرة من سكانها . وقد دخلت دراسة الهولوكوست عشرات الجامعات والكليات الأمريكية ، وأقيمت نصب تذكارية للإبادة بالعبرية والإنجليزية في واشنطن ونيويورك ولوس أنجلوس وغيرها . وأنشأت الحكومة الأمريكية المجلس الأمريكي للتذكير بالإبادة ، وتم إنشاء متحف تُخلّد فيه ذكرى الإبادة النازية في واشنطن بجوار المتاحف القومية الأمريكية . وباسم الإبادة ، حاولت المؤسسة الصهيونية التدخل (دون نجاح كبير) في انتخابات الرئاسة في النمسا عام ١٩٨٦ ، واعترضت بشدة (دون نجاح مرة أخرى) على زيارة الرئيس الأمريكي ريجان لمقبرة بتسرج الألمانية التذكارية لمجرد أن بعض المدفونين فيها من رجال قوات الصاعقة النازية .

ومن أهم أشكال توظيف الإبادة لصالح الصهيونية هو استخدامها كسحابة كثيفة لتبرير الفظائع التي ارتكبتها وترتكبها الدولة الصهيونية ضد الفلسطينيين . كما تُوظف الإبادة في جمع التعويضات التي تقول الكيان الاستيطاني الصهيوني (بلغ حجم التعويضات الألمانية وحدها ٧٠ بليوناً من الدولارات في ٣٥ عاماً) . ومن المعروف أن هذه التعويضات التي تلقتها الدولة الصهيونية انعشت الاقتصاد الإسرائيلي ، ومكنت الدولة الصهيونية من شراء مزيد من الأسلحة والمستوطنات والقنابل العنقودية !

والتعويضات تعني ، في واقع الأمر ، حصول إسرائيل (وبعض أعضاء الجماعات اليهودية) على مقابل مالي تعويضاً عن الألام التي لحقت بهم . وهذا يخفف من البُعد الأخلاقي للقضية ، إن لم يكن يلغيه . ففي موقف مماثل رفضت الصين أن تتقاضى تعويضات مالية من اليابان على جرائمها ضد الصينيين باعتبار أن قبول التعويضات فيه تنازل عن الحق الأدبي ، وفيه تخلُّ عن المنظور الأخلاقي (المطلق) حيث تتحول القضية إلى ما يشبه المقايضة .

ومن الواضح أن عملية توظيف الإبادة تتم من منظور نفعي مادي انتقائي محض ، لا علاقة له بالقيم الأخلاقية . وفي هذا الإطار يثير بعض الدارسين قضية علاقة الدولة الصهيونية مع بعض الشخصيات والدول التي كانت لها علاقة بالنظام النازي . إذ لا تُمانع إسرائيل البتة في توثيق علاقاتها مع بعض حكومات دول أمريكا اللاتينية التي تأوي مجرمي الحرب النازيين (الذين تزعم

ولكنها عقاب على خطيئة اليهود لابتعادهم عن تنفيذ الأوامر والنواهي ، وسوف يقوم الإله بتدميرهم مرة أخرى إن لم يتدمروا ويعودوا عن طريق المعصية) .

وقد جعلت المؤسسة العسكرية الخوف من الإبادة أحد أسس الاستراتيجية الصهيونية ، فقد أشار كل من أبا إيبان ورايين إلى حدود إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ بأنها «حدود أوشفيتس» . وهناك قدر كبير من الادعاء في هذه التشبيهاة وصل إلى قمته حينما قال مناحيم بيجين إن ياسر عرفات حينما كان مُحاصراً في بيروت يشبه هتلر في مخبئه ، فالقائد الفلسطيني المحاصر والذي اغتصبت أرض شبه يشبه القائد النازي المحاصر الذي جيش جيوشه وأرسلها إلى الشعوب المجاورة ليستولي على أراضيها ويستعبدهم أو يبيد أعداداً منهم . وفي هذا تزيف كامل للحقائق ، ولكن هذه هي عقلية العنصري الفاشي الذي يرى أنه عضو في الشعب المختار ، ولذا فهو دائماً مضطهد ، حتى حينما يقوم بتدمير الآخرين .

وقد نجح الصهاينة في ترسيخ واقعة الإبادة النازية لليهود أوروبا في وجدان الأغلبية العظمى من الإسرائيليين . فالصحف لا تكف عن الكتابة عنها . وهناك يوم محدد لإحياء ذكرى الإبادة يُسمى «يوم الذكرى (يوم هازكرون)» ويقع في يوم ٤ أيار ، أي قبل عيد الاستقلال والذي يقع في يوم ٥ أيار (وهو اليوم الذي يحتفل فيه المستوطنون بإنشاء الدولة الصهيونية على أرض فلسطين بعد طرد سكانها منها) . ويبدأ اليوم بإطلاق صفارة إنذار في كل أنحاء الدولة في مغرب اليوم السابق فتتسكس الأعلام ، وتُغلق دور اللهب بأمر القانون ، وتقام الصلوات في المعابد اليهودية وتُوقد الشموع فيها ، كما تُعلن صفارات الإنذار في الصباح عن دقيقتين حداً يتوقف فيهما النشاط تماماً في الدولة الصهيونية بكاملها . ثم تُطلق صفارة إنذار أخرى للإعلان عن انتهاء اليوم وبداية عيد الاستقلال . وقد لاحظ الفيلسوف الديني الإسرائيلي اليهودي شياهو لايوفيتش أن الاحتفال بيوم الذكرى يزداد حدة عاماً بعد عام لأن قائمة أسماء الضحايا تزداد يوماً بعد يوم . بل تؤكد بعض الأبحاث الإسرائيلية أن شبح الكارثة لا يزال منعكساً وجائماً على عقل الإسرائيليين من الجيل الثاني . ويرى واحد وستون بالمائة من الإسرائيليين أن الكارثة كانت عنصراً أساسياً من عناصر قيام الدولة الإسرائيلية والمسوغ الأساسي له . ويعتقد اثنان وستون بالمائة أن قيام الدولة الإسرائيلية يمنع حدوث كارثة مماثلة في المستقبل .

وما لا شك فيه أن الإحساس بخطر الإبادة إحساس حقيقي متجذر في الوجدان الإسرائيلي . ولكننا نذهب إلى أن أساسه

تنهض دليلاً على رفض العالم لليهود ، وعلى أن الأغيار يتربصون دائماً بالضحية اليهود الذين يُقدّمون قرباناً على المحرقة . وهذا تأكيد للمقولة الصهيونية الخاصة بأولية معاداة الأغيار لليهود وحتميتها ، ومن ثم يتعين على يهود العالم الهجرة إلى الوطن القومي . (ولكن يهود العالم ، مع هذا ، يتصرفون على أساس أن الإبادة أمر مستحيل الوقوع مرة أخرى ، ومن الصعب أن يخطط المرء على أساس حادثة استثنائية وفريدة) .

ويحاول الصهاينة تقديم قراءة كاملة لما يسمونه «التاريخ اليهودي» بحيث تصبح الإبادة أهم معلم فيه ، فيُقال «قبل الإبادة» و«بعد الإبادة» ، تماماً مثل «قبل هدم الهيكل» و«بعد هدم الهيكل» . ويُشار للإبادة بأنها «حُرْبَان» وهي كلمة عبرية تستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل» . والإبادة هي إذن هدم الهيكل للمرة الثالثة ، الأمر الذي يدخلها دورة التاريخ اليهودي المقدّس . بل يذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود إلى أن الإبادة غيّرت من النسق الديني اليهودي ذاته . ولذا ، فإن من الضروري ، حسب رأيهم ، الحديث عن «لاهوت ما بعد أوشفيتس» ، أو «لاهوت الإبادة» الذي يرى حادثة الإبادة باعتبارها حادثة مطلقة لا يمكن فهمها ، وهي أكثر الحوادث أهمية وقداًسة ، ويصبح الشعب اليهودي هو المسيح المصلوب . وينادي هؤلاء المفكرون بحتمية أن تصبح الإبادة هي المرجعية الأساسية لليهود ، ومن ثم ضرورة مناقشة مدى عدالة الرب ، وهل هو رب خيّر أم شرير ، وهل يتدخل في التاريخ بمنحه الغرض والغاية أم يترك التاريخ في حالة فوضى كاملة ؟ كما أن البقاء (بقاء الشعب اليهودي) يصبح هو المطلق الوحيد الذي يجب سائر الاعتبارات الأخلاقية الأخرى ويصبح النقطة المرجعية النهائية الوحيدة . ويساعد التركيب الجيولوجي لليهودية على السماح بإفراز مثل هذه الأفكار وإعطائها قسطاً من الشرعية . (وما يجدر ذكره أن الجماعات الأصولية ذات التوجه الصهيوني المسيحي الواضح ترى أن الإبادة هي بالفعل دليل على أن الرب قد هجر اليهود بسبب الذنوب التي اقترفوها) .

ويذهب بعض المفكرين الدينيين اليهود (الأرثوذكس) إلى أن الإبادة ذات مغزى ديني عميق ، فيرى بعضهم أن إبادة اليهود هي هدم الهيكل الثالث وأن هتلر هو أداة الخالق في حرق اليهود ، كما ينهبون إلى أنهم بمثابة الماشيح المذبوح الذي سيؤد العالم من جديد بعد ذبحه . (ولكن هناك رأي مغاير لهذا ، إذ يذهب بعض اخاخامات [مثل مناحم هارتوم وإليعازر شاخ ، الأب الروحي لحزبي شاس وديجيل هاتورا] إلى أن الإبادة لها حقاً مغزى ديني

وتثبت الدراسات التاريخية أن الإبادة النازية لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، فعدد ضحايا الحرب العالمية الثانية من جميع الشعوب الأوروبية يبلغ ما بين خمسة وثلاثين وخمسين مليوناً . وأظهر معرض لحكومة بولندا كان يطوف أمريكا عام ١٩٨٦ أن أكبر معسكرات الاعتقال هو أوشفيتس وأن التركيز النازي كان أساساً على البولنديين والاشتراكيين واليهود والغجر (بهذا الترتيب) لتفريغ بولندا جزئياً وتوطين الألمان فيها .

وتوحي الأدبيات الصهيونية بأن العالم كله تجاهل اليهود وتركهم يلاقون حتفهم ومصيرهم وحدهم . ولكن من الواضح أن المسألة أكثر تركباً من ذلك بكثير . فصحيح أن بعض الشعوب ساعدت النازيين ، كما حدث في النمسا . ولكن البعض الآخر ساعد اليهود وأواهم كما حدث في بلغاريا (خصوصاً بين أعضاء الجماعة الإسلامية) وفي الدنمارك وفنلندا ورومانيا وإيطاليا وهولندا . وفي فرنسا ، تم تسليم خمسة وسبعين ألف يهودي للقوات النازية . ولكن تمت ، في الوقت نفسه ، حمية أضعاف هذا العدد . كما رفض السلطان محمد الخامس تطبيق القوانين النازية على يهود المغرب رغم مطالبة حكومة فيشي الفرنسية بذلك . ولا يمكن أيضاً تجاهل جهود الحكومة السوفيتية في نقل مئات الآلاف من اليهود بعيداً عن المناطق التي احتلها النازيون (رغم تحالفها في بداية الأمر مع هتلر) . وتجاهل التاريخ الصهيونية كل هذا ، تماماً مثلما تتجاهل العلاقة الفكرية والفعلية بين النازية والصهيونية والزعامات الصهيونية التي تعاونت مع النازيين .

ولكن هناك من يتحدى هذا الاحتكار الصهيوني للإبادة ، وقد بدأت الكنيسة الكاثوليكية المواجهة حين قامت بتنصيب الأخت تريزا بنديكتا قديسة . والأخت تريزا هي إيديث شتاين سكرتيرة الفيلسوف الألماني مارتن هايدجر ، وكانت يهودية . وعندما قرأت قصة حياة القديسة تريزا شعرت بإحساس ديني غامر وتنصرت وتكلمت ثم تهربت ، وقام النازيون باعتقالها وقتلها . ويُصر الصهاينة على أن سب قتلها هو كونها يهودية بينما ترى الكنيسة أنها راهبة كاثوليكية استشهدت من أجل عقيدتها . والحادثة الثانية هي الخاصة بدير الراهبات الكرمليات في أوشفيتس ، الذي طالب اليهود بإزائه وتمسكت المؤسسة الكاثوليكية في بولندا بالإبقاء عليه . وقد قامت معركة إعلامية ساخنة بين الطرفين . وكتب باتريك بيوكانان (الصحفي والمرشح الجمهوري في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٦) ما نتصور أنه خير احتجاج على هذا الموقف في مقال بعنوان «الكاثوليك ليسوا بحاجة إلى محاضرات في الأخلاق من سفاح عصابة شتيرن السابق» جاء فيه :

الحقيقي ليس خطر الإبادة على يد النازيين ، وإنما هو الطبيعة الاستيطانية للتجمع الصهيوني الذي لم يضرب بجذوره في المنطقة ، وبخاصة أن أصحاب الأرض الأصليين لم تتم إبادتهم ، بل لم يكتفوا عن المقاومة ، الأمر الذي يخلق عند الإسرائيليين ما نسميه «عقدة الشرعية» والخوف الدائم من عودة صاحب الأرض الذي يؤكد حضوره كذبيهم (أرض بلا شعب) ، بل قد يؤدي إلى غيابهم في نهاية الأمر . ولكن بدلاً من أن يواجه المستوطنون حقيقة وضعهم كمستوطنين ومغتصبين للأرض ، وبدلاً من أن يدركوا الأصل الحقيقي لمشاعرهم ومخاوفهم ، فإنهم يتجاهلونها ويفرضون عليها هذا التفسير الصهيوني . فالإدراك الحقيقي سيُفقدتهم ثقتهم بأنفسهم وإحساسهم بشرعية وجودهم وأخلاقيته ، أما التفسير الصهيوني فسيُفسخ عليهم المزيد من الشرعية ويزيد إصرارهم على حقهم في البقاء وإبادة كل من يقف في طريق الضحية الوحيدة للمجازر ؛ المهدة دائماً وأبداً بالإبادة !

وقد لاحظ بعض التربويين أن هذا التركيز على فكرة الإبادة ، كفكرة رئيسية في وجدان أعضاء الجماعات اليهودية داخل وخارج إسرائيل ، يسبب لهم مشاكل نفسية عميقة ، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان حياة نفسية سوية ، وسط بلاد العالم أو بين أحد الشعوب ، وهو يعتقد أنهم قد يبيدونه تماماً في أية لحظة وأنه الضحية الوحيدة . ولذا ، بدأت ترتفع أصوات التحذير من خطورة هذا الاتجاه . ولكن الصهيونية عقيدة تستند شرعيتها إلى الكوارث التي حاقت باليهود في الماضي والتي قد تحيق بهم في المستقبل ، ومن ثم ، فإن أية رؤية مُركبة للتاريخ تسحب هذه الشرعية منها . وعلى هذا ، فليس من المتوقع أن يتغير هذا الاتجاه في القريب .

احتكار الإبادة

Monopolizing the Holocaust

يحاول الصهاينة احتكار دور الضحية لليهود وحدهم دون غيرهم من الجماعات أو الأقليات أو الشعوب ، بحيث تُصور الإبادة النازية باعتبارها جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم . ولهذا يرفض الصهاينة والمدافعون عن الموقف الصهيوني أية محاولة لرؤية الإبادة النازية باعتبارها تعبيراً عن نمط تاريخي عام يتجاوز الحالة النازية والحالة اليهودية . كما يرفض الصهاينة تماماً محاولة مقارنة ما حدث لليهود على يد النازيين بما حدث للغجر أو البولنديين على سبيل المثال ، أو بما حدث لسكان أمريكا الأصليين على يد الإنسان الأبيض أو ما يحدث للفلسطينيين على أيديهم .

العشرين الذي يثير الشكوك حول عملية الإبادة نفسها . ولا يزال البروفيسر باتس يُدرّس في الجامعة في الولايات المتحدة .

٣ - أصدر روبرت فوريسون R. Faurisson (أستاذ الأدب في جامعة ليون) سلسلة مقالات ثم مؤلفاً كبيراً كتب مقدمته اللغوي الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي يثبت أنه لم تكن هناك أصلاً أفران غاز .

٤ - تقدّم هنري روكيه Henri Roques برسالة للدكتوراه إلى جامعة نانت يُشكك فيها في وجود عُرف الإعدام بالغاز «زيكلون بي» . وقد أجازت الجامعة الرسالة ومنحته الدرجة العلمية بامتياز . ولكن الحكومة الفرنسية ألغت قرار اللجنة وسحبت منه الدرجة . ويُعدّ هذا التدخل سابقة ليس لها مثيل في تاريخ الجامعات الفرنسية الذي يمتد ألف عام .

٥ - أصدر ستاجليش Staglish ، أحد قضاة مدينة هامبورج ، كتاباً بعنوان أسطورة أوشفيتس . والكتاب هو رسالة للدكتوراه كان القاضي قد قدمها إلى جامعة جوتينجن ، وتوصل فيها إلى أن كثيراً من النصوص وشهادات الشهود بخصوص معسكر أوشفيتس أو عما كان يجري فيه غير صحيح بالمرّة وملئ بالتناقضات . وقد أُجيزت الدكتوراه بالفعل . وما إن صدر الكتاب حتى قررت الجامعة سحب الدكتوراه من الرجل . كما أصدرت السلطات القضائية قراراً بخصم ١٠٪ من راتبه .

٦ - يتعرض المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج David Irving للمطاردة منذ نهاية الثمانينيات لأنه ينكر الإبادة رغم أن مجلة ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس The New York Review of Books وصفته بأنه "يعرف عن الاشتراكية الوطنية (أي النازية) أكثر من أي عالم آخر متخصص في هذا الحقل ، وأشارت إلى كتابه عن حرب هتلر بأنه أحسن دراسة عن الجانب الألماني في الحرب" . ورغم كل هذا طُرد من كندا وبعد ذلك من أستراليا ، ومنع من إلقاء محاضراته فيهما . وأصدرت إحدى المحاكم الألمانية حكماً بتغريمه عشرة آلاف مارك لمجرد أنه نفى أن اليهود كانوا يموتون في غرف الغاز في معسكر أوشفيتس .

وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) مع صدور قانون فاييوس (رقم ٤٣) في مايو ١٩٩٠ المسمى «قانون جيسو» (وهو اسم النائب الشيوعي الذي تبنّى هذا القانون) . ويُحرّم هذا القانون أي تشكيك في الجرائم المقرّفة ضد الإنسانية بإضافة المادة ٢٤ مكرّر إلى قانون حرية الصحافة عام ١٨٨١ ، جاء فيها : "يُعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤ ، كل من ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية كما وردت في المادة

"وفي متحف المذبحة النازية ، هناك ثلاثة ملايين يهودي بولندي سيظلون في الذاكرة ، ولكن ماذا عن ثلاثة ملايين تقريباً من الأوكرانيين والصرب والليتوانيين والمجريين واللاتفيين والإستونيين ، نُحروا في ساحات القتل على أيدي الوثنيين العنصرين في برلين وعلى أيدي الملحدّين المتعاونين معهم في موسكو ؟ وما الذي يتطلبه الأمر حتى يكون المرء ضحية من الدرجة الأولى ؟

فإذا كانت ذكرى الضباط اليهود الذين ماتوا إلى جانب إخوانهم الكاثوليك في كاتين قد خُذلت بنجمة داود ، فلماذا لا يتم تخليد ذكرى المليون كاثوليك الذين أُنقوا في أوشفيتس بصليب ؟ وإذا كان التذكّار حيواً ، فلماذا يُستثنى المسيحيون ؟ .

ونحن ، بطبيعة الحال ، نرى أن الإبادة لم تكن موجهة ضد اليهود وحسب ، وإنما ضد سائر العناصر التي اعتُبرت ، من منظور النازية ، غير نافعة ، خصوصاً وأنه لو انتصرت قوات روميل في العلمين لامتدت آلة الفتك النازية إلى أعراق يعتبرها النازيون متدنية (مثل العرب) . ومن ثم ، فإن احتكار الصهانية واقعة الإبادة ليس له ما يبرره في الواقع التاريخي .

إنكار الإبادة والخطاب الحضاري الغربي

Denial of the Holocaust and Western Cultural Discourse

«إنكار الإبادة» مصطلح يتواتر الآن في الصحف الغربية وفي بعض الأدبيات الخاصة بالإبادة النازية لليهود ، وهو يشير إلى أي كتاب أو مؤلف تجرّأ صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهب إليه الكثيرون من أن عدد ضحايا النازية من اليهود ستة ملايين ، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز وغاز زيكلون بي . وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور :

١ - كتب بول راسينيه Paul Rassinier في الخمسينيات دراسة ضخمة بعنوان أسطورة غرف الغاز . وكان المؤلف قد رُحّل إلى أحد معسكرات الاعتقال . وفند في كتابه وجود مثل هذه الغرف أساساً وبيّن أنها أكذوبة تاريخية وأورد إحصاءات ديموجرافية (رسمية) عن عدد اليهود في كل أوروبا قبل الحرب وبعدها ، وعقب صدور الكتاب حوكم راسينيه ونشره وعُوقب بالسجن (مع إيقاف التنفيذ) كما فُرِضت عليه غرامة مالية فادحة .

٢ - من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب البروفسور آرثر باتس Arthur Butz الأستاذ بجامعة نورث ويسترن أكاذوبة القرن

٦ من النظام الأساسي للمحكمة العسكرية الدولية الملحق باتفاق لندن الموقع في ٨ أغسطس ١٩٤٥ .

وقد يظن المرء لأول وهلة أن كل القضايا المرتبطة بالإبادة النازية مثل : هل هي حقيقة أم مجرد اختلاق ؟ وعدد الضحايا اليهود ، وهل يبلغ عددهم ستة ملايين بالفعل أم أنه أقل من ذلك بكثير ؟ هي قضايا تم حسمها تماماً في الأوساط العلمية . وقد يظن المرء كذلك أن الدراسات السابقة هي دراسات عنصرية تأمرية كتبها مهيجون يحاولون إثبات أن اليهود وراء كل الشرور والجرائم . ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك ، فهي دراسات علمية ، ذات مقدرة تفسيرية معقولة تتناول قضايا خلافية . وهي دراسات تطرح وجهة نظر قد تكون متطرفة أو خاطئة (والوصول إلى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير) ، إلا أنها تدلل على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات . وبما لا شك فيه أن هناك المئات من الكتب الأخرى التي كتبها بعض المؤلفين العنصريين ، ومثل هذه الكتب لا تستحق القراءة لأنها كتابات عنصرية متشنجة لا تبرهن على وجهة نظرها بطريقة علمية تفسيرية هادئة .

ولكن الإعلام الغربي والصهيوني يُهاجم هذه الكتب بشدة ، العلمي منها وغير العلمي ، ويشجبها بعصبية واضحة ، ويهيج ضدها بطريقة غوغائية ، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن يُنكر الإبادة أو يثير الشكوك حول موضوع الملايين الستة حتى لو كان من العلماء المتخصصين ، مع العلم بأن هناك دراسات كتبها علماء إسرائيليون يُعبرون فيها عن شكوكهم بخصوص رقم ستة ملايين . ولعله كان من الأجدي أن يميز الإعلام الغربي بين الدراسات العلمية والدراسات غير العلمية ، وأن يُخضع الدراسات العلمية للنقد العلمي الهادئ ، وأن يُطالب بفتح كل الملفات السرية والأرشيفات الغربية والشرقية لتبيين مدى صحة هذه الأطروحات . وقد أصبح هذا متيسراً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي إذ أصبحت وثائقه متاحة للدراسة . ولعل حالة ديمانجوك الذي اتهم بأنه « إيفان الرهيب » ، الذي اشترك في إبادة اليهود وغيرهم في معسكر تربلينكا ، تكون مثلاً على الخطوات المطلوب اتخاذها . فقد كانت كل الدلائل التي جمعتها الأمريكيون والإسرائيليون تبين أن ديمانجوك هو إيفان الرهيب ، وأصدرت المحاكم الإسرائيلية حكماً ضده بالفعل . ولكن ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي ، ظهرت وثائق تبين بما لا يقبل الشك أن هناك شخصاً آخر هو الذي قام بعمليات الإبادة فأُخرج عن ديمانجوك .

ومن الصعب فهم تلك الاستجابة الهستيرية لدى الإعلام

الغربي والصهيوني إزاء عمليات إثارة الشكوك حول الإبادة وعدد الستة ملايين ، ومع هذا فلنحاول تناول هذه الظاهرة غير العقلانية . ونحن نذهب إلى أن الخطاب الحضاري الغربي له حدوده التي يفرضها على عملية الإدراك . فقد قام الغرب بتحديد معنى الإبادة النازية لليهود ومستواها التعميمي والتخصيصي ، فقام باختزالها وفرض منطق غربي ضيق عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية ، ومن خلال ترعها من سياقها الغربي ، الحضاري والسياسي الحديث .

١ - بالنسبة للمسئول عن الجريمة : تُخضع الإبادة النازية لعمليتين متناقضتين :

(أ) يتم تضيق نطاق المسؤولية إلى أقصى حد بحيث تصبح الإبادة النازية جريمة ارتكها الألمان وحدهم ضد اليهود .

(ب) يتم توسيع نطاق المسؤولية إلى أقصى حد بحيث تختفي كل الحدود وتصبح الإبادة النازية لليهود أوروبا جريمة كل الأغيار بشكل مطلق ، أو جريمة كل من الألمان والأغيار ، أو الألمان باعتبارهم أغياراً ، أو الألمان بموافقة وممالة الأغيار .

٢ - بالنسبة للضحية : تُخضع الإبادة كذلك لعمليتين متناقضتين :

(أ) يتم تضيق نطاق الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجبة ضد اليهود وحدهم ، لا ضد الملايين من اليهود وغير اليهود (من العنصر والسلاف وغيره) .

(ب) يتم تعميم الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجبة ضد اليهود ، كل اليهود ، لا يهوداً نعتهم الغربي وحسب .

وبعد أن تم تعريف الإبادة بهذه الطريقة ، وبعد أن تم التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية وضبطها بما يتفق مع مصلحة الغرب ، قام الغرب بأيقنة الإبادة ، أي جعلها مثل الأيقونة تشير إلى ذاتها حتى لا يمكن التساؤل بشأنها ، فهي مصدر المعنى النهائي . وكما قال دان داير إن أوشفيتس هي أرض لا يمتلكها أحد ، هي فراغ يتلغ كل التفسيرات التاريخية (فهو يشبه القلوب السوداء التي تحطم فيها قوانين الضوء والزمان) . فأوشفيتس هو "المعيار المطلق الذي يُحكم من خلاله على التاريخ ، ولا يمكن أن يصبح هو نفسه جزءاً من التاريخ" ، وهو كلام لا معنى له بطبيعة الحال ، فأوشفيتس حدث تاريخي ، وقع في الزمان ، ولا يصلح أن يكون معياراً أخلاقياً أو تاريخياً يُحكم به على كل الأمور الإنسانية في كل زمان ومكان (ألا يشكل هذا قمة التمرکز الأوربي حول الذات الإنجليزية : إيورو سترستي Euro-Centricity) . ولكن مثل هذا الكلام الأجوف له معنى داخل الخطاب الحضاري الغربي بسبب عملية الأيقنة التي

يهودي يخاف من تأكيد الأبعاد الثلاثة لهويته : هويته اليهودية ، وهويته كشاذ جنسي ، وهويته كأحد ضحايا الهولوكوست . فيقوم صديقه الذي يعيش معه بتشجيعه على تجاوز مخاوفه . ومنذ عدة سنوات أقيم مؤتمر للشواذ والسحاقيات في إسرائيل ، وأقام أعضاء المؤتمر صلاة القاديش في نصب ياد فاشيم من أجل الشواذ جنسياً والسحاقيات ممن سقطوا ضحايا للاضطهاد النازي . ولا شك في أن ربط الشذوذ الجنسي بالهوية اليهودية بالهولوكوست تصدنا ، ولكن علينا أن ندرك ما هو مقدس وما هو مدنس في خطاب الآخر قبل أن نشعر بالصدمة ، والهولوكوست أيقونة مقدسة والشذوذ أمر عادي ، بل أمر محبب ، ومن يدري لعله أصبح أمراً له « قداسه » الخاصة ، ونحن لا نعرف بعد ، إذ أننا لا نتابع ما يجري هناك بكفاءة عالية ؟

ولنا الآن أن نطرح السؤال التالي : لم تم تحويل الإبادة إلى أيقونة مقدسة ، ومسلمة نهائية ؟ والإجابة على هذا السؤال تتطلب منا الانتقال من عالم القرائن والوثائق والاستشهادات إلى عالم مخوف بالمخاطر وهو عالم الخطاب الحضاري والنماذج الحضارية . ولذا سنحاول أن نقدح زناد الفكر وأن نقنع بإجابات ذات مقدرة تفسيرية معقولة وليست ذات طابع يقيني عال . وسوف نعمل بدايةً إلى استبعاد الصيغة العربية الجاهزة للإجابة على كل الأسئلة ، أي « اللوبي الصهيوني » أو « المؤامرة اليهودية » أو « النفوذ اليهودي » وغير ذلك من مقولات ما أنزل الله بها من سلطان لأنها تُفسر كل شيء ببساطة بالغة ، وما يُفسر كل شيء بهذه البساطة لا يُفسر شيئاً على الإطلاق !

ونحن نذهب إلى أن ثمة خطاباً غربياً واحداً فيما يتصل بالإبادة ، يتفرع عنه الخطاب الصهيوني ، وهو خطاب لا يختلف عن الخطاب الغربي العام إلا في التفاصيل ، فهما يكادان يكونان وجهين لعملة واحدة ، وعلاقة الواحد بالآخر هي علاقة الكل بالجزء والأصل بالفرع . وتتلخص خصوصية الخطاب الصهيوني في تعميق الجوانب اليهودية وفي إضافة ديباجات يهودية (دينية وإثنية) كثيفة . فالخطاب الصهيوني ينزع ، هو الآخر ، حادثة الإبادة من سياقها الحضاري والتاريخي الغربي ، ويتلاعب بالمستوى التعميمي والتخصيصي ، فيحوّل واقعة الإبادة من جريمة ارتكبتها الحضارة الغربية ضد مجموعات بشرية داخلها إلى جريمة ألمانية أو جريمة الأتباع ضد اليهود . ولكن الخطاب الصهيوني (انطلاقاً من مفهوم الشعب المختار والحلولية اليهودية التي تسبغ القداسة على اليهود) يُعمّق عملية التخصيص فتتحوّل الإبادة من قضية اجتماعية تاريخية

أشرنا لها (ونجد ملاحظة أن الأيقنة ليست مقصورة على المفكرين اليهود وإنما تشمل أعداداً كبيرة من غير اليهود) . فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات ، التي تُشكّل قَهْم الإنسان الغربي المسبق ، شأنها في هذا شأن مقولة « عبء الرجل الأبيض » في القرن التاسع عشر ، وشأن إحساس الغرب بمركرته في القرن العشرين أو الإيمان بانتقدم المادي وتحقيق الذات باعتبارهما الغاية النهائية لوجود الإنسان في الأرض . والمسلمات هي الركيزة الأساسية للنموذج ، فهي التي تحدد حياته وحرامه ، وما هو مقدس وما هو مدنس . ومن ثم أصبح التساؤل بشأن الإبادة هو تساؤل بشأن إحدى المسلمات (المقدسات أو المطلقات ، إن شئت) وهو ما لا يمكن لأية حضارة ، مهما بلغت من سعة صدر ولبيرالية وتعددية قبوله .

وقد يُقال إنهم في الغرب ينتجون أفلاماً تُعرّض بالسيد المسيح عليه السلام مثل فيلم سكورسيزي Scorsese " الإغواء الأخير للمسيح " ، وأعمالاً أفنية مثل لوحة الفنان أندريه سيرانو Andre Serrano الشهيرة بعنوان " فلتنبول على المسيح " (Piss Christ) حيث وُضِعَ الفنان صورة المسيح على الصليب في البول ، وعرضها في معرض قامت الدولة بتمويله ، إن كانوا يفعلون ذلك فلم لا يقبلون بفتح ملفات الإبادة ؟ والرد على هذا هو أن السيد المسيح لم يعد ضمن المقدسات ، أما الإبادة فقد أصبحت كذلك . وقل الشيء نفسه عن الشذوذ الجنسي ، فحتى الستينيات كان الخطاب الغربي يرى أن ثمة معيارية ما وثمة انحراف عنها ، ولهذا كان هناك مفهوم للشذوذ والانحراف ، ولكن مع غياب المعيارية تآكل بالتالي مفهوم الشذوذ تماماً ، وبالتدرج أصبح الشذوذ شكلاً من أشكال تأكيد الحرية الفردية المطلقة (التي تتجاوز أية معيارية اجتماعية) ، وتعبيراً عن حق الفرد في اختيار الهوية الجنسية التي تعجبه والتي يمكنه من خلالها تحقيق ذاته على أفضل وجه ممكن . وبذلك تحوّل الشذوذ الجنسي من كونه انحرافاً إلى علامة من علامات التفرد وتعبيراً نماذجياً متلوّراً عن المنظومة الحضارية والأخلاقية السائدة في المجتمع في تمركزها حول الذات والمتعة (وفي عدم اكترائها بالقيم الدينية والاجتماعية أو بأية ثوابت إنسانية) . وأصبح تقبل الشذوذ الجنسي علامة من علامات التحضر وسعة الأفق والتعددية ، وأصبح رفضها دليلاً قاطعاً على تزمت الشخص وتطرفه بل " أصوليته " .

لكل هذا أصبح من الممكن ، داخل الخطاب الحضاري الغربي ، ربط الشذوذ بالمقدسات العلمانية (المادية) الجديدة . وهذا بالضبط ما يفعله الروائي الأمريكي اليهودي ليف روفانيل ، فهو يربط بين الشذوذ الجنسي والهولوكوست ، فبطل إحدى رواياته

يهيئ نفسه بأنه لا يزال يمارس مثل هذه المشاعر النبيلة . وبدلاً من أن يحفز الشعور بالذنب الإنسان الغربي إلى التصدي لما يجري في العالم من عمليات إبادة (تقوم بها حكوماته أو تقف موقف « الحياد » تجاهها) فبلانه نتجته نحو تأكيد تفرد الهولوكوست والمبالغة في أهوالها، وبالتالي يتحول الحس الخُلقي إلى حس جمالي أو حالة شعورية لا تُترجم نفسها أبداً إلى فعل فاضل ؛ إلى أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وأيقنة الإبادة بذلك تغطي على ما يجري من مذابح سواء في فيتنام أو البوسنة والهرسك أو الشيشان أو لبنان .

٣- لكن الفضيحة الأساسية التي تغطيها عملية أيقنة الإبادة النازية هي الجريمة التي ارتكبتها الحضارة الغربية في حق الشعب الفلسطيني الذي طُرد من أرضه بموجب وعد بلفور وقرار هيئة الأمم المتحدة وبدعم كل الدول الغربية . فإذا كانت الجريمة هي حقاً جريمة الألمان على وجه الخصوص أو الأغيار على وجه العموم ، وضد اليهود على وجه العموم وضد اليهود وحدهم كما يدّعي الخطاب الحضاري الغربي ، فلا بد إذن من حلها على مستوى عالمي وألماني ، ولابد من تعويض الضحايا اليهود وحسب وإعمال الضحايا الآخرين . ومن ثم ، يصبح من المنطقي أخذ (لا اغتصاب) فلسطين من "الأغيار" وردها "لليهود" بسبب الجرم الذي حاق بهم على يد هؤلاء الأغيار . كما يمكن أخذ التعويضات من الألمان وعمويل المستوطن الصهيوني باعتباره المأوى الذي "عاد" إليه ضحايا الإبادة . وإذا كانت الإبادة هي حقاً جريمة موجهة ضد اليهود وحسب ، فإن المتحدثين اليهود هم وحدهم أصحاب الحق في فرض المعنى الذي يريدونه على الواقعة ، وهم وحدهم أصحاب الحق في التعويض .

٤- ترتكز المنظومة الغربية التحديثية بأسرها إلى العلم المنفصل عن القيمة وعن الغاية الإنسانية . ورغم الإدراك المتزايد لوحشية هذا الافتراض ، فإنه لا يزال هو المقولة المعرفية الحاكمة . وفتح باب الاجتهاد بخصوص الإبادة يعني في واقع الأمر فتح باب الاجتهاد بخصوص الأساس الفلسفي الذي تستند إليه الخدانة الغربية بأسرها .

٥- ويمكننا الآن أن نثير قضية ليست ذات علاقة مباشرة بالإبادة ، إلا أنها قد تلقي الضوء على عملية أيقنتها . فالمجتمعات الغربية مجتمعات تسيطر عليها العلمانية الشاملة ، وتسود فيها النسبية المعرفية والأخلاقية ، ولذا فهي تعيش بلا مقدّسات أو ميثاقين ، وهو أمر مستحيل بالنسبة لمعظم البشر . إذ يبدو أن حياة الإنسان لا بد أن يكون فيها شيء مقدّس ما ، فإن لم يكن الإله فيمكن أن يكون أي

إنسانية إلى إشكالية غير إنسانية تستعصي على الفهم الإنساني ، وإلى سر من الأسرار يتحدى العقل ، وإلى نقطة نهائية ميثاقية تتجاوز الزمان والمكان والتاريخ . والاختلاف هنا هو اختلاف في الدرجة وليس في النوع ، إذ تظل هناك وحدة أساسية ، ولذا لا يجوز في الخطاب السياسي الغربي والصهيوني تشبيه إبادة أية أقلية بإبادة اليهود .

ويمكننا الآن أن ندرج بعض الأبعاد التي أدّت إلى أيقنة

الإبادة :

١- يعيش الغرب في إطار أن الإبادة جريمة ألمانية نازية وحسب ضد اليهود وحدهم ، وليست حلقة في سلسلة الجرائم الإبادة التي ارتكبتها الحضارة الغربية ضد شعوب العالم ، والتي تنبع من رؤيتها النفعية المادية الإمبريالية المتجردة من القيمة . وقد استقر هذا المفهوم وأصبح إطاراً مرجعياً ينظر الإنسان الغربي إلى نفسه وإلى تاريخه من خلاله . وعملية الأيقنة تفصل هذه الجريمة عن نمط حضاري عام متكرر ولا تُذكر هذه الحضارة بماضيها الإبادي ، كما تعفيها من مسئولية الجريمة النازية ذاتها .

ورغم أن الإبادة هي إحدى ثمرات النازية والعلم المنفصل عن القيمة ، فإن عملية أيقنة الإبادة تصاحبها عملية أخرى ، وهي عملية تهميش النازية ومنظومتها القيمية ورؤيتها للكون ، بحيث تصبح النازية وجرائمها مجرد انحراف عن الحضارة الغربية . والتخلي عن هذا الإطار (الذي يُأيقن الإبادة ويُهمش النازية) سيكشف فضيحة الحضارة الغربية ومسئوليتها عن هذه الجريمة البشعة المنظمة وعن غيرها من الجرائم التي هي جزء من نمط عام متكرر .

وفي هذه الإطار يمكن فهم الحرج الزائد الذي يسببه اكتشاف تورط كثير من الشخصيات الفكرية الأساسية في الحضارة الغربية (مثل هايدجر) مع النازيين ، ومحاولة إخفاء هذه الحقيقة وغيرها من الحقائق (مثل تلك أيزنهاور في ضرب القطارات التي كانت تقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال والسخرة ، ورفض الدول الغربية فتح أبوابها للمهاجرين) . فإبراز تورط هايدجر وغيره قد يشير إلى تورط الحضارة بأسرها وقد يقوض المعنى الغربي المفروض على الإبادة .

٢- لا يمكن إنكار الدور الذي يلعبه شعور الغربيين بالذنب تجاه ما حدث لليهود على يد النازيين . ولكن الإحساس بالذنب هنا يوجه نحو الأيقونة (الفريدة التي تشير إلى ذاتها) ومن ثم يتحول من إحساس خُلقي عميق ورغبة في إقامة العدل إلى حالة شعورية تدغدغ الأعصاب بل إلى مصدر راحة ، إذ يمكن للإنسان الغربي أن

موضوعات خلافية . وهناك فيما يبدو مصلحة للبعض في أن يُصخّرها أو يُقلل من أهميتها . فإذا كان الحيداء الكامل مستحيلًا في مثل هذه الأمور (كما في غيرها) ، فلا بد ، على الأقل ، أن ننقل إلى حدّ ما عن الظاهرة موضع الدراسة ونُعيد قراءة الوثائق المتاحة ونطالب بإتاحة كل الوثائق السرية ، وخصوصاً أن الموضوع أصبح موضوعاً تاريخياً مر عليه أكثر من خمسين عاماً .

إشكالية الحل النهائي ومؤتمر فانسبي

The Problematic of the Final Solution and the Wannsee Conference

تزعم الأدبيات الصهيونية أنه في ٢٠ يناير ١٩٤٢ عُقد مؤتمر يُسمى «مؤتمر فانسبي» بهدف التنسيق بين الوزارات المختلفة التي اشتركت هي والحزب النازي وقوات الإس . إس . في محاولة تنفيذ الحل النهائي ، باعتباره التصفية الجسدية لليهود . ويُقال إن رينهارد هايدريش دعي إلى هذا المؤتمر بناء على خطاب من هرمان جورينج بتاريخ ٣١ يوليـ ١٩٤١ ، وأشار إلى «الحل الكامل للمسألة اليهودية» . وقد أعد أيخمان الإحصاءات والبيانات اللازمة لمناقشة الموضوع . وحضر المؤتمر كبار موظفي الدولة والحزب وناقشوا كيفية تهجير اليهود وإرسالهم إلى معتقلات العمل والسخرة .

وعبارة «الحل الكامل» هي صيغة أخرى لعبارة «الحل النهائي» (بالألمانية : إندلوسونج Endlösung) التي ترد في بعض الأدبيات النازية ، وتعني في الأدبيات الغربية التي تتناول الحركة النازية «المخطط الواعي الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود» ، أي بمعنى تصفيتهم جسدياً . والمفترض أن هذا المخطط تم تنفيذه من خلال المؤسسات الحكومية النازية . (وهذا المعنى خلافي كما سنبين فيما بعد) .

ويمكن القول بأن مقولة «الحل النهائي» ، مثلها مثل مقولة «نهاية التاريخ» ، كامنة في بنية الأيديولوجيا النازية ، وفي كثير من الأيديولوجيات الأخرى الشبيهة التي تعتمد العلم الطبيعي مصدراً أساسياً وربما وحيداً للمعرفة والقيم الأخلاقية . فهذه الأيديولوجيات تؤمن بإمكانية ، أو حتى بحتمة ، التقدم الدائم من خلال تراكم المعرفة حتى تتم معرفة قوانين الحركة أو قوانين الضرورة أو القوانين الطبيعية (التي تسري على الطبيعة والإنسان) . ومن خلال هذه المعرفة الكاملة أو شبه الكاملة ، يمكن ترشيد الواقع تماماً والهيمنة عليه ووضع الحلول النهائية لكل المشاكل وإعلان «نهاية

شيء ، وكل شيء . وما حدث بالنسبة للإنسان الغربي أنه فقد إيمانه بمقدّساته الدينية التقليدية ، فأخذ يبحث عن مقدّسات مادية حديثة يمكنه أن يدرّجها بحواسه الخمس (المصدر الوحيد للمعرفة بالنسبة له) وبوسعها أن يُقسّم العالم من خلالها إلى مقدّس ومدنّس ، وإلى محرّم ومباح . إن الإنسان الغربي دأب البحث عن ميثافيزيقا علمانية مادية ، تريحه نفسياً ولا تُحمّله أية أعباء أخلاقية (مثل الإيمان بالأطباق الطائفة أو علاقة الأبراج بمصير الإنسان وسلوكه) . ويبدو أنه وجد ضالته في الإبادة النازية لليهود التي تولّد فيه إحساساً لذيذاً بالذنب ، لا يكلفه أي جهد أخلاقي . وقد تحولت الإبادة إلى أيقونة تجسّد ميثافيزيقا كاملة من خلال علمنة المفاهيم الدينية المسيحية ، إذ أصبح اليهود (في لاهوت موت الإله وفي الخطاب الحضاري الغربي ككل) هم المسيح المصلوب وأصبح ظهور الدولة اليهودية هو قيامه . والصلب والقيام هنا أمران ماديان يتمان داخل الزمان والتاريخ . فكان الإبادة النازية لليهود هي الأيقونة العلمانية الشاملة المقدّسة في الوجدان الغربي ، فهي مفهوم قبلي بُنيت عليها مجموعة من المفاهيم الأخرى ، فإن سقطت الأيقونة سقط كل ما بُني عليها وأصبح من الضروري مراجعة كل شيء ، وهو أمر صعب للغاية على البشر . وهذا لا يعني بطبيعة الحال إنكار أهمية البُعد الصهيوني للاستجابة الغربية الهستيرية .

١ - لا يمكن إنكار وجود قدر كبير من الضغط الذي تمارسه المؤسسات اليهودية والصهيونية للإبقاء على الوضع المعرفي والمعلوماتي القائم ، الذي يُحقّق لها فوائد جمة . كما أن هناك الآلاف من أعضاء الجماعات اليهودية ممن تفاوضوا التعويضات الألمانية عما لحق بهم من أذى ومن لا يزالون يطالبون بها ، وهؤلاء أيضاً أصبحوا جزءاً من «جماعة مصالح» تحوّلّت إلى جماعة ضغط . وليس من صالح هؤلاء كشف حقيقة ما حدث .

٢ - أصبح الخطاب الصهيوني يستند بشكل شبه كامل إلى الإبادة النازية ، وأصبحت الشرعية الصهيونية ذاتها تستند إلى أحداث الإبادة . والشرعية عادة لا تستند إلا إلى مطلقات ، لا يمكن إخضاعها للتساؤل .

ويميل كاتب هذه الموسوعة إلى القول بأن معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة حقيقة مادية لا شك فيها ، وأن أفران الغاز هي الأخرى حقيقة (ومن ثم لا يمكن إنكار الإبادة باعتبارها تصفية جسدية متعمدة) . ولكن حجم هذه الأفران ومدى كفاءتها وعدد ضحاياها ودلالة هذه الحقائق المادية وتفسيرها تظلّ كلها موضوعات قابلة للاجتهاد والفحص العلمي والوثائقي بل تتطلبها ، فهي

(على سبيل المثال) وقتل الجنود البريطانيون الذين يتم أسرهم أثناء تأديتهم بعض العمليات الخاصة (الكوماندوز) ، وقتل المسنين بالوسائل العلمية . فلماذا يُشفر النازيون الأوامر الخاصة بإبادة اليهود وحدهم ؟

٣ - حينما يذكر النازيون الإبادة فهي بديل ضمن بدائل عديدة ، كما أنها تتم بعدة طرق . فقد تحدث هتلر عن الإبادة من خلال 'التجويج والقتال غير المتكافئ' ، بل تحدث عن 'هجرة الألمان الاستيطانية' في شرق أوروبا وحرب ألمانيا ضد عناصر 'المقاومة الشعبية' باعتبارها شكلاً من أشكال الإبادة (وهو تعريف جيد للإبادة يخرج بها عن معناها الضيق المباشر ، ويوسعُ حقها الدلالي بحيث تصبح الحروب الاستعمارية حروب إبادة ، ويصبح الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي يلجأ إلى التجويج والقتال غير المتكافئ، وتهجير اليهود وضرب المقاومة الشعبية أيضاً شكلاً يُصنّف بكل تأكيد ضمن أشكال الإبادة) .

وبغض النظر عن رؤية هتلر للتاريخ ، فإن مؤثر فانس قد قسّم طريقة التخلص من العناصر غير الاجتماعية غير المرغوب فيها من خلال أربعة طرق مختلفة : التعقيم أو الإبادة بالجنوع أو الإبادة بالعمل أو حتى من خلال برنامج الأئمة .

٤ - كان النازيون يتحركون في إطار الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية وهو تصديرها للخارج . وقد بيّن هتلر أنه يميّز بين معاداة اليهود العاطفية ومعاداة اليهود المنهجية ، فالأولى تستبي بالمنجاز ، أما الثانية فتنتهي بهجير (ترانسفير) اليهود . وقد حدد هتلر مشروعه بالنسبة لليهود باعتباره عملية تهجير . وفي رده على سؤال وجه إليه في اجتماع عام بشأن حقوق اليهود الإنسانية . قال : « ليجتهد اليهودي عن حقوقه الإنسانية في دولته فلسطين » .

وفي ١٠ أغسطس ١٩٤١ دافع هتلر عن الحل الشامل للمسألة اليهودية باعتباره نقل ٦٠٠ ألف من أراضي الرايخ . وكانت مجلة الإيس . إس . قد استخدمت العبارة نفسها بهذا المعنى في عددها الصادر في ٢٤ نوفمبر ١٩٣٨ حين تحدثت عن الحل الشامل باعتباره « الفصل والعزل الكلي لليهود » .

٥ - طبق النازيون هذه الرؤية الإمبريالية (الصهيونية) على اليهود ، ولذا بدأ الحل النهائي بتهجير اليهود من أصل بولندي إلى بولندا ، ولكن الحدود أوصدت دونهم . ثم طرح النازيون مشاريع صهيونية عديدة تهدف إلى توطين اليهود وتأسيس وطن قومي لهم في أي مكان خارج أوروبا (أكوادور - سوريا - مدغشقر) . وقد تعاون النازيون مع الصهيانة انطلاقاً من قبول هذا الحل

التاريخ» (كما فعل فوكوياما في الولايات المتحدة في أواخر الثمانينيات) . والنازية ، من هذا المنظور ، ما هي إلا إحدى هذه الأيديولوجيات . ومن ثم ، فحتى لو لم يعلن النازيون الحل النهائي ، فإن الفكرة كامنة في بنية الفكر الغربي والنازي . وعلى كل ، لا يمكن فهم التجارب الاستيطانية الإحلالية ، سواء في الولايات المتحدة أو في أستراليا أو فلسطين ، إلا في إطار فكرة الحل النهائي الذي يُطبّق على السكان الأصليين ، هنوداً كانوا أم فلسطينيين ، ويمكن إنجاز الحل النهائي إما عن طريق الإبادة أو عن طريق التهجير . ووعد بلفور وثيقة سياسية تهدف إلى وضع حل نهائي للمسألة اليهودية عن طريق التهجير . والمسألة الفلسطينية أو العربية ، من هذا المنظور ، هي نتيجة لعدم تطبيق الحل النهائي الصهيوني أو سببها الفشل في تطبيق هذا الحل حتى الآن . وقد عبّر عن هذا المعنى صراحةً رجحان زيف (رئيس حزب موليديت) الذي انضم إلى الوزارة الإسرائيلية وطالب صراحةً بتهجير العرب ، فقد بيّن بما لا يقبل الشك أن مقولة «الحل النهائي» مقولة أساسية في الفكر الصهيوني ، وتنتمي إلى عائلة من الأيديولوجيات الغربية الحديثة التي تبحث عن حل جذري ونهائي ومنهجي لمشكلتها السكانية كما فعل المستوطنون الأمريكيون من قبل ، وكما فعل النازيون في ألمانيا ، وكما يفعل الصرب في البوسنة والهرسك ، وكما يفعل المستوطنون الغربيون في كل زمان ومكان !

ويمكننا الآن أن نثير قضية ترادف عبارة «الحل النهائي» مع عبارة «الإبادة كتصفية جسدية» ، كما تزعم الأبيات الصهيونية ، وهو ترادف ينكره رجاء جارودي ، وغيره من الدارسين ، للأسباب التالية :

١ - لوحظ عدم ورود لفظ «الإبادة كتصفية جسدية» مقروناً بعبارة «الحل النهائي» في أية مذكرة نازية . وقد بيّن ريمون آرون وجاك فيوريت (عام ١٩٧٩) - في ختام مؤتمر عُقد خصيصاً لهذه القضية وغيرها من القضايا المتعلقة بالإبادة النازية لليهود أوروبا - أنه لم يتم العثور على أية مذكرة تحمل هذا المعنى رغم كل الجهود المبذولة . وقد وافقهما المؤرخ الصهيوني النزعة ولتر لاكير على رأيهما هذا (عام ١٩٨١) ، ولذا أضاف أن مثل هذا الأمر لم يصدر قط .

٢ - يروج بعض الصهاينة فكرة مؤداها أنه لم يتم العثور على مثل هذه المذكرة لسبب بسيط وهو أن النازيين كانوا يستخدمون لغة مشفرة أو رمزية حتى لا يكتشف أحد أمرهم . والرد على مثل هذا الرأي - كما بيّن جارودي - هو الإشارة إلى عدد لا حصر له من الوثائق النازية تضم أوامر صريحة بإبادة السكان الذكور في ستالينجراد

الإبادة (بالألمانية : فولكشتود Volkstod) باعتبارها الحل الشامل للمسألة اليهودية وعُرف هذا الحل بأنه « أن يترك اليهود أوروبا » . وقد أفاض المتحدث وقال إنه يمكن أن يترك اليهود أوروبا عن طريق وضعهم في معسكرات عمل في بولندا (حيث يتم إفقارهم) أو في مستعمرة . ولعل تجربتي جيتو وارسو وتيرس آينشتات (وغيرهما من التجارب) قد تمنا في هذا الإطار .

٨ - لوحظ أثناء محاكمات نورمبرج أن المدعين الذين مثلوا الخلفاء كانوا يحاولون قصارى جهدهم أن يلوا عنق بعض الكلمات الألمانية ليرجموها بكلمة «إبادة» . فكلمة «أوسروتونج» Ausrottung على سبيل المثال ، والتي تعني «استئصال شأفة» شيء ما بأية طريقة فعلية أو مجازية تُرجمت إلى «إبادة» بمعنى «تصفية جسدية متممة» ، مع أن النازيين استخدموا في إحدى وثائقهم عبارة «استئصال شأفة المسيحية» ، ولم يُفسر أحد هذه العبارة باعتبارها مخططاً نازياً لإبادة المسيحيين .

٩ - ما تهمله كثير من الدراسات الغربية هو ما يمكن تسميته «الاختفاء» ، أي اختفاء أعداد كبيرة من اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط والموت بسبب الغازات والأوبئة أثناء الحرب .

لكل هذا فعبارة «الحل النهائي» تعني ما تقول دون زيادة أو نقصان ، ومن ثم فهي لا تعني بالضرورة «تصفية جسدية متممة» ، وقد تعني «تصفية من خلال التهجير وأعمال السخرة» .

معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة)

Concentration and Extermination Camps

أقيمت معسكرات الاعتقال في ألمانيا عام ١٩٣٣ بعد استيلاء النازيين على الحكم ، فكان البوليس السري الألماني (جستابو) يقوم بالقبض على خصوم الحكومة النازية واحتجازهم في هذه المعسكرات . وحين عظم نفوذ الجستابو وأعطى الحرية المطلقة في التصرف ، أصبحت عمليات القبض تتم على نطاق واسع ، فقبض على جماعات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال . ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهود بالذات ، وإنما كان يُقتل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديدة بغض النظر عن دينه أو جنسيته . وقد وقعت أول حادثة موجهة ضد اليهود في نوفمبر ١٩٣٨ عندما وُضع عشرون ألف يهودي في هذه المعسكرات في داخاو وبوخوالد . ومن معسكرات الاعتقال الشهيرة الأخرى ، معسكر برجن بلسن .

الصهيوني النازي للمسألة اليهودية فتم توقيع معاهدة الهعفره للمساعدة في تهجير اليهود إلى فلسطين . وحقق النازيون بعض النجاح في هذا المضمار إذ بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من ألمانيا وحدها حوالي ١٥٠ ألف (بين ١٩٣٣ - ١٩٣٨) وهي نسبة مشوبة عالية . وظل النازيون يدافعون عن فكرة تهجير اليهود ، وكانوا لا يكفون عن الشكوى من أن سبل الهجرة لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية ، ومن أن الدول الغربية توصل أبوابها في وجه المهاجرين اليهود .

وفي السنين الأخيرة للحرب ، بعد مؤتمر فانسي (يناير ١٩٤٢) وبعد وقوع مساحات شاسعة من الأرض السوفيتية البولندية في أيدي النازيين ، بدأت فكرة توطيّن اليهود فيها تراود النازيين («ترحيل اليهود إلى الشرق» في المصطلح النازي) . وقد جاء في مذكرة رسمية بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٤٢ صادرة من وزارة الخارجية الألمانية ما يلي : «إن الحرب ضد الاتحاد السوفيتي وفرت لنا أراضي جديدة لتنفيذ الحل النهائي» . وقد قرر الفوهرر أنه بدلاً من إرسال اليهود إلى مدغشقر فيقوم بإرسالهم إلى الشرق . ولذا ليس هناك ما يدعو إلى التفكير في مدغشقر باعتبارها [مجال] الحل النهائي » .

وكل هذا يعني في واقع الأمر أن الحل النهائي هو حل صهيوني إقليمي ، يعني التخلص من اليهود عن طريق ترحيلهم (ترانسفير) من مكان لآخر ، تماماً كما فعلت الحضارة الغربية مع اليهود حيث نقلتهم إلى فلسطين ، وكما فعل الصهاينة مع الفلسطينيين بنقلهم منها .

٦ - كان النازيون في حاجة ماسة للأيدي العاملة ، فلماذا تُضخّ ألة الحرب النازية وقتها في إبادة الملايين بدلاً من توظيفهم في أعمال السخرة ؟ ومن الواضح أن النازيين كانوا أكثر رشداً ونفعية مما يتصوره الدارسون الصهاينة . فكانوا يزيدون من عدد العمال الذين يعملون نظير دولار واحد في اليوم للاستفادة من العمالة الرخيصة . وقد أرسل هملمر مذكرة إلى أحد رؤساء معسكرات الإبادة (بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٤٢) يخبره فيها أن يستعد لاستقبال ٢٠٠ ألف يهودي حيث ستند للمعسكر مهام اقتصادية مهمة . وفي مايو ١٩٤٤ أصدر هتلر أمراً باستخدام ٢٠٠ ألف يهودي كعمال في أحد المشاريع الإنسانية . وقد أصدرت قيادة الإس . إس . س. أمراً بمنح مكافأة لكل السجناء (ومنهم اليهود) الذين أبلوا بلاءً حسناً في العمل . كما وفرت المؤسسات النازية لهؤلاء العاملين كل الأنشطة الترفيهية ، وضمنها بيت دعارة ، لزيادة الإنتاجية .

٧ - حينما يرد لفظ «الإبادة» في نصوص نازية فإنه لم يكن يعني دائماً «التصفية الجسدية» ، ففي ٢٦ مارس ١٩٤١ في حفل افتتاح معهد فرانكفورت لدراسة المسألة اليهودية أشار أحد المتحدثين إلى

- وقد أقيمت ستة معسكرات للاعتقال والإبادة في بولندا ، وهذه المعسكرات هي :
- ١ - كلمنو (بالقرب من لودز) .
 - ٢ - بلزك (بالقرب من لفوف ولوبلين) .
 - ٣ - سوببور (بالقرب من لوبلين) .
 - ٤ - مايدانيك (على حدود لوبلين) .
 - ٥ - تربلنكا .
 - ٦ - أوشفيتس - بيركناو ، وهو أشهرها جميعاً .

وقد أرسل إلى هذه المعسكرات كثير من الضحايا اليهود والفجر والسلاف وغيرهم ، من كل أنحاء أوربا . ويُقال إن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران ، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز ، والمحاق . ومع هذا يثير كثير من الباحثين الشكوك حول وجود أفران الغاز أصلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن .

كما تثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي Zyclon B في أفران الغاز . إذ تشير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغاز يتطلب احتياطات فنية عالية ، مكلفة للغاية (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً - لا بد من تهويتها لمدة عشر ساعات بعد استخدامها - يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبتوس أو التيفلون) . ومثل هذه الاحتياطات لم تكن متوفرة للألمان تحت ظروف الحرب ، وهو ما يعني استحالة استخدامه على نطاق واسع . وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر Leuchter Report ، الذي كان يعمل مستشاراً لولاية ميسوري وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (وعماله دلالة أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة ، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين ، قررت الاستغناء عنه ، بسبب تكلفته العالية) .

وثمة نظرية تذهب إلى أن عُرف الغاز الموجودة إنما كانت عُرف غاز لتعقيم الخارجين والداخلين إلى المعسكر . أما المقابر الجماعية فهي مقابر الآلاف الذين لقوا حتفهم بعد انتشار الأوبئة كالملاريا والتيفود ، وهو أمر مُتَوَقَّع في ظل ظروف الحرب وفقير الرعاية الصحية . ويرى أنصار هذه النظرية أن الإبادة لم تكن عملية منظمة مقصودة تمت دفعة واحدة ، وإنما تمت نتيجة لعناصر مختلفة فرضت نفسها بسبب ظروف الحرب مثل سوء التغذية والأوبئة وغيرها ، وأن من أبيدوا بطريقة منهجية منظمة أعداد صغيرة جداً ، وهي قضية خلافية . ويُقال إن كثيرين ممن أبيدوا بطريقة منظمة لم تكن إبادتهم بدافع الحقد العنصري وإنما كانت جزءاً من محاربة النازيين للمرض

وللتشوهات والانحرافات النفسية والخلقية . ولذا حينما كان يندلع وباء في أحد المعسكرات لم يكن النازيون يلجأون لمحاربته (فهذا أمر مكلف ، وبخاصة في ظروف الحرب) وإنما كانوا يلجأون للتخلص من المرضى بطريقة عملية سريعة .

ولم تكن معسكرات الاعتقال مخصصة لليهود وحدهم وإنما كانت أداة من أدوات النظام النازي تُستخدم لتحقيق أهدافه القومية ، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهود يفوق عدد ضحاياها من اليهود . ومن المهم بمكان أن نضع معسكرات الاعتقال والإبادة في سياقها الحضاري والعرفي العام . فمذ بداية التشكيل الحضاري الغربي الحديث أصبحت معسكرات الاعتقال والإبادة فِعْلاً متكرراً ، حيث تم نقل سكان أمريكا الأصليين (الهنود الأحمر) إلى معسكرات اعتقال منعزلة كان يُطلق على كل واحد منها اسم «ريزيرفشن reservation» تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر . وكانت عملية النقل ذات طابع إبادي . وكان السود ، الذين يجري اصطيادهم في أفريقيا ونقلهم (ترانسفير) إلى أمريكا ، يتم وضعهم في معسكرات أيضاً ويسكنون في مساكن هي أقرب ما تكون إلى معسكرات السخرة . وفي الحرب العالمية الثانية ، وضعت الولايات المتحدة الغالبية الساحقة من المواطين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات مماثلة . وفي جنوب أفريقيا قامت حكومة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطين الأصليين في معازل جماعية يُقال لها «البانتوستان» . وغني عن القول إن هذا الوضع لا يختلف كثيراً عما يحدث في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

ولم تكن الإبادة مصير كل من يذهب إلى معسكرات الاعتقال ، التي كانت أساساً معسكرات سخرة . ولذا نجد أن العدد الأكبر كان يُستخدم في أعمال السخرة . وقد أُسس بجوار أوشفيتس ، على سبيل المثال ، ثلاثة مصانع كبرى لإنتاج بعض المواد اللازمة للعمليات العسكرية . وكانت الشركات الألمانية تستأجر المعتقلين عشر ساعات يومياً من العمل انشاق مقابل دولار واحد يومياً (وهو موقف كولونيائي غامضاً) ، ونظراً لحرصها الشديد على الأيدي العاملة الرخيصة كانت توفر لهم بعض الأنشطة الترفيهية (ضمنها بيت دعارة) . كما اختير عدد من نزلاء المعسكرات لإجراء التجارب الطبية والعلمية عليهم .

وكانت المعسكرات تدار بطريقة تتسم بنوع من الإدارة الذاتية ، فكان يتم اختيار بعض العناصر من بين المساجين يشكلون نخبة داخل هذه المعسكرات ، وتكون بمنزلة حلقة الوصل بين المساجين والألمان . ويُطلق عليهم اسم «كابو» . وكان بعضهم من اليهود بطبيعة الحال .

تيدور أدورنو (أحد مفكري مدرسة فرانكفورت) : " لا شعر بعد أوشفيتس " ، أي لا يمكن لأي إنسان أن يقرض الشعر بعد أن كشفت الإنسانية عن وجهها القبيح في أوشفيتس . وفي هذا تلاعب بمستويات التعميم والتخصيص ، ولعله كان من الأجدر بأدورنو أن يتحدث عن حضارة العقلانية المادية ، بدلاً من الحديث العام ، العائم الغائم ، عن الإنسانية جمعاء . وهذا ما فعله فاكيلاف هافيل ، المؤلف المسرحي ورئيس جمهورية التشيك ، حينما تحدث عن كبرياء العقل المادي الحديث وغروره الذي يطور مخططات علمية مجردة يحاول فرضها على الحياة الإنسانية (بكل ما تحويه من أسرار لا يسير لها غور) ويفرض عليها التجانس والتنميط وينتهي به الأمر إلى اختزالها وتدميرها . ثم قال : " وماذا يكون معسكر الاعتقال سوى محاولة من جانب دعاة البوتوبيا [التكنولوجيا البيروقراطية] أن يتخلصوا من العناصر غير الملائمة للمخطط التكنولوجي] ؟ " .

أما في التفكير الديني (المسيحي واليهودي) في الغرب ، فقد أصبح معسكر أوشفيتس رمزاً للعالم المادي الذي لا معنى له والذي لا هدف له ولا غاية ، فهو عالم انسحب منه الإله ، ولذا يُقال «لاهورت ما بعد أوشفيتس» بمعنى «لاهورت موت الإله» . ويذهب البعض إلى أن معسكر أوشفيتس أصبح مدلولاً (متجاوزاً) لا يمكن لأي دال أن يدل عليه . فالتجربة اليهودية في أوشفيتس لا يمكن فهمها أو تفسيرها وإنما يمكن تجربتها وحسب . ومن لم يعيش التجربة لن يفهم ما حدث ، ومن ثم فإن كلمة «أوشفيتس» بمثابة الأيقونة حيث يلتحم الدال بالمدلول وتختفي المساحة بينهما ، وتصبح الأيقونة (الرمز) هي نفسها ما ترمز إليه . إن أوشفيتس تتجاوز اللغة الإنسانية ولذا " لا شعر بعد أوشفيتس " .

وفي استخدام مغاير تماماً للكلمة صرح ناحوم جولدمان بأن إسرائيل هي كارثة تاريخية كبرى ، تفوق ما حدث في أوشفيتس ، ومن ثم تحل الدولة الصهيونية محل أوشفيتس باعتبارها أكبر كارثة حاقت بالجماعات اليهودية في العالم .

وقد أصبح معسكر أوشفيتس موضع جدل كبير في الوقت الحالي فقد أقيم دير للراهبات الكرمليات في بقعة أباد فيها الألمان كثيراً من البولنديين اليهود وغير اليهود ، على أن تُقام الصلوات يومياً من أجل الجميع . ولكن بعض القيادات اليهودية في الولايات المتحدة أصرت على ضرورة أن يُزال هذا الدير حتى نفل أوشفيتس رمزاً يهودياً . وقد أذعنت القيادة الكاثوليكية في نهاية الأمر لهذا المطلب .

وكان كثير من هؤلاء يحرصون على إظهار القسوة نحو المساجين حتى يحظوا برضا الألمان . ومن المعروف أن المساجين الألمان كانوا يُعاملون غالباً بقسوة تفوق ما يعامل به الآخرون لأنهم كانوا يُعتبرون خونة . واتسمت معسكرات الاعتقال بكفاءتها الشديدة وتحكمها الكامل في المادة البشرية التي كانت تُصنّف بعناية وتوظف على أحسن وجه . وقد حققت هذه المعسكرات عائداً كبيراً للاقتصاد الوطني الألماني . هذا ، بخلاف التخلص من أعداد كبيرة من الأفراد الذين يشكلون عبئاً على ألمانيا ، أي أن التجربة لا غبار عليها البتة إن نظرنا إليها من منظور نفعي مادي لا يكثر بالمطلقات . وبالطبع ، يختلف الأمر تماماً إن نظرنا للقضية من المنظور غير المادي ، أي من منظور قداسة الإنسان وحقوقه المطلقة .

أوشفيتس

Auschwitz

يُعدُّ «أوشفيتس» أهم معسكرات الاعتقال . وكان يُقال دائماً إن عدد ضحايا أوشفيتس هو أربعة ملايين ، منهم مليون ونصف مليون يهودي ، والباقيون غير يهود . والسند الأساسي لأسطورة إبادة هذه الملايين في أوشفيتس هي اعترافات رودولف هس أثناء محاكمات نورمبرج . وقد ثبت أن كثيراً من " أدلة " الاتهامات في محاكمات نورمبرج هي في معظمها اعترافات بدين خلالها المتهمون أنفسهم ، بعد أن ظلوا في الأسر عامين أو يزيد تعرضوا فيها للتعذيب والامتهان . وقد استُبعد عدد كبير من الوثائق والشهادات التي كان من شأنها تحطيم الأساطير التي حاول الحلفاء نسجها . وهناك من البحوث ما يشير إلى أن العدد الإجمالي لا يمكن أن يزيد على ١,٦ مليون ، وأنهم قضاو حتفهم لا من خلال أفران الغاز وإنما بسبب الجوع والمرض ، والموت أثناء التعذيب ، والانتحار . وفي عام ١٩٩٤ تم تغيير اللافتة الموضوعة على المعسكر ، فبعد أن كانت اللافتة القديمة تتحدث عن مقتل أربعة ملايين رجل وامرأة وطفل أصبحت اللافتة الجديدة تتحدث عن مليون ونصف فقط .

وقد أصبح معسكر أوشفيتس (في الخطاب السياسي والحضاري الغربي) رمزاً ودالاً على عدة مدلولات . فهو رمز مباشر على الإبادة النازية لليهود (بمعنى التصفية الجسدية المتعمدة) ، أي أنه الجزء الذي يتبدى الكل من خلاله . كما أصبح معسكر أوشفيتس دالاً يشير إلى كل جرائم الإبادة التي تتم بشكل منهجي لا شخصي بيروقراطي (ولكن الصهاينة يرفضون استخدام الاسم على هذا النحو حتى يحتفظ معسكر أوشفيتس بقداسته اليهودية) . ويقول

سنة ملايين يهودي : عدد ضحايا الإبادة النازية ليهود أوروبا ؟

Six Million Jews : Number of European Jewish Victims of Nazi Extermination?

يرد في وسائل الإعلام الغربية رقم «سنة ملايين» باعتباره عدد ضحايا الإبادة النازية لليهود . وقد استقر الرقم تماماً حتى أصبح من البديهيات ، ولكن هناك رفضاً مبدئياً للرقم في الأوساط العلمية اليهودية وغير اليهودية . فعلى سبيل المثال قام راؤول هيلبرج في كتابه تدمير يهود أوروبا (١٩٨٥) بتخفيض العدد من ستة إلى خمسة ملايين (بعد دراسة إحصائية مستفيضة للموضوع) . وذكر سيسيل روث ، في موسوعته اليهودية ، أن الهولوكوست نُفذ بطريقة يصعب معها التحقق من دقة الأرقام ، وأن العدد يتراوح بين أربعة ملايين ونصف المليون وستة ملايين يهودي . ويميل المؤرخ الأمريكي اليهودي (صهيوني النزعة) هوارد ساخار إلى الأخذ برقم أربعة ملايين ونصف مليون . وهناك من الأدلة الإحصائية ما يرجع الأخذ برأي ساخار ، فالكتاب السنوي وولد ألمانك لعام ١٩٣٩ يقدر يهود العالم آنذاك بنحو ١٥,٦ مليون . وفي عام ١٩٥٠ ، قُدِّر عددهم بنحو ١٦,٦ مليوناً ، في حين قدرته صحيفة نيويورك تايمز عام ١٩٤٨ بما بين ١٥,٧ و ١٨,٦ مليون ، وهناك تقديرات تذهب إلى أن عددهم أقل من ذلك ، وقد يصل إلى ما بين ١٣ و ١٤ مليوناً . وفي جميع الحالات ، لا يمكن أن يزيد عدد من اختفوا على أربعة ملايين . ومؤخراً ، ذكر المؤرخ الإسرائيلي يهودا بارور ، مدير قسم دراسات الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث التابع للجامعة العبرية ، أن الرقم ستة ملايين لا أساس له من الصحة ، وأن الرقم الحقيقي أقل من ذلك . وبيّنت بحوث المؤرخ الفرنسي جورج ويلير G. Wellers أن العدد الإجمالي لمن أُبِيدوا في أوشفيتس من اليهود وغير اليهود ليس أربعة ملايين وإنما هو ١,٦ مليون وحسب ، وأن هؤلاء لم يقضوا حتفهم من خلال أفران الغاز وحسب وإنما أيضاً بسبب الجوع والمرض والموت أثناء التعذيب والانتحار . وما يجدر ذكره أن من يتبنون رقم ستة ملايين وغيره من الأرقام لا يشيرون من قريب أو بعيد إلى ظاهرة اختفاء اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط وسوء التغذية والغازات والأوبئة (التي تتزايد بسبب ظروف الحرب) .

وبغض النظر عن الرقم مليون أو الأربعة أو الستة ملايين ، فإن ثمة خللاً أساسياً في المنطق الصهيوني يمكن تلخيص بعض جوانبه فيما يلي :

١ - التركيز على اليهود بالذات دون الجماعات الأخرى . فمع أن اليهود عانوا ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من ضحايا النازية ، إلا أن

سياسة هتلر في الإبادة كانت موجهة أيضاً نحو الغجر والكاثوليك والمعارضين السياسيين والمرضى والمتخلفين عقلياً والسلاف عامة والبولنديين والروس على وجه الخصوص . وقد بلغ عدد ضحايا الحرب ما بين خمسة وثلاثين مليوناً وخمسين مليوناً . وخسر الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ما بين سبعة عشر وعشرين مليوناً بين مدنيين وعسكريين ، وخسر البولنديون نحو خمسة ملايين بعضهم من اليهود . وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلوا على يد الاحتلال الياباني .

٢ - التركيز على المدنيين دون العسكريين . ومع ذلك ، فإنه من بين العشرين مليون سوفيتي الذين قُتلوا في الحرب ، كان هناك أربعة ملايين ونصف مليون مدني والباقي من العسكريين . ناهيك عن عدة ملايين من الألمان أرسلهم هتلر لملء في ساحة القتال . كما كان هناك كثيرون من جنود أخفاء ضمن من قُتلوا في الحرب . ويجب ألا ننسى الجنود من الأفارقة والآسيويين الذين جُندوا ، رغم أنهم ، ليشتركوا في حروب لا ذقة لهم فيها ولا جمل . حيث كانوا يوضعون في الصفوف الأمامية باعتبارهم مادة بشرية رخيصة .

٣ - التركيز على الماضي دون الحاضر . وعلى ملايين اليهود الذين هلكوا قبل نحو نصف قرن ، دون اهتمام بمائل بالثلاثين التي أُبِيدت بعد ذلك . فقد فقدت كمبوتشيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نحو مليوني شخص . وفقدت أجزاء أكثر من مليون شخص ، وفقدت أفغانستان منذ الغزو السوفيتي عام ١٩٧٨ نحو مليون قتيل ، فضلاً عن مليوني مهاجر داخل الهند وخمسة ملايين مهاجر إلى خارجها حتى صاروا يمثلون نصف مجموع اللاجئين في العالم .

٤ - وهناك ، بطبيعة الحال ، مشكلة ملايين الفلسطينيين الذين طُردوا من ديارهم والذين يخضعون لقروف إسرائيلية شبه دائمة . لكن التشكيك في مدى دقة الرقم (أربعة ملايين) لا يعني بحال من الأحوال التشكيك في الجريمة النازية ذاتها ، فالجريمة النازية هي إحدى جرائم الحضارة الغربية الحديثة العديدة التي لا يمكن التهاون من شأنها . وما نهدف أساساً إليه من خلال مناقشة هذه الإشكالية هو تصحيح الرقم ووضع الظاهرة في سياق إنساني عام ومنظور تاريخي شامل ، بحيث نُحدد هويتها باعتبارها جريمة غربية محددة ضد قطاعات بشرية عديدة بدلاً من أن تكون جريمة ألمانية ضيقة أو جريمة عالمية غير محددة ضد اليهود ككلهم ، وضد اليهود دون سواهم . ونحن بهذا نقذ واقعة الإبادة من سخافات الإعلام الغربي والصهيوني ، ولعبة الأرقام الطفولية التي تخفي الأبعاد التاريخية والأخلاقية والإنسانية العامة للواقعة .

اختفاء وموت الشعب اليهودي بعد الحرب العالمية الاولى

Disappearance and Death of the Jewish People after the First World War

يرجع المدافعون عن الرؤية الصهيونية للإبادة النازية لرقم ستة ملايين ، كجزء من عملية الأيقنة وتحويل الإبادة إلى لغز من الألغاز وسر من الأسرار المقدسة . وقد أهمل هؤلاء تماماً بعض العناصر التي أدت إلى اختفاء اليهود من خلال عناصر طبيعية مختلفة ستتناولها في هذا القسم .

فمن المعروف أن الفترة ما بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨٢ شهدت تناقص عدد يهود العالم مليوناً ، فانخفض من ١٣,٨٣٧,٥٠٠ إلى ١٢,٩٨٨,٦٠٠ ، دون حدوث إبادة بل دون حالة حرب أو أوبئة . وقد تناقص عددهم لمركب من الأسباب أدت إلى ما يُسمى «موت الشعب اليهودي» . ومن الواضح أن يهود أوروبا ، أي أغلبية يهود العالم آنذاك ، بدأوا يدخلون في مرحلة التناقص ابتداءً من القرن العشرين ، للأسباب التالية :

١ - أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب وإلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر :

أ) أدت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ويُقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً ، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تُعيد إنتاج نفسها .

ب) كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطربون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة ، أي بأعمال التجارة والمال . وكانوا ، لهذا ، مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية . ومع منتصف القرن التاسع عشر ، تصاعد هذا الاتجاه وتزايد تركيزهم في المدن بحيث أصبحت أغليبيتهم الساحقة تسكن في المدن عشية الحرب العالمية الثانية ، فقد كان ثلث يهود روسيا يوجدون في خمس مدن وبقيتهم تعيش في مدن صغيرة . وكان أربعة وثمانون في المائة من يهود الولايات المتحدة يعيشون في ثماني عشرة مدينة كبيرة ونصفهم في نيويورك . كما كان معظم يهود النمسا في فيينا ، ومعظم يهود فرنسا في باريس ، وهكذا . ومن المعروف أن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة .

ج) كان اليهود ، حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، جماعة بشرية مهاجرة ، ومن المعروف أن أعضاء مثل هذه الجماعات يعزفون عن الإنجاب لعدم استقرارهم .

د) كانت هناك عناصر أخرى أدت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب ، من بينها تحسن مستواهم المعيشي ، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات اليهودية في الفترة بين الحربين وبأن الحرب العالمية الثانية وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللادينية وتحقيق الذات ، الأمر الذي يقوض من الرغبة في إنجاب الأطفال .

وبالفعل ، يُلاحظ تناقص أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية . فبعد أن كانوا يتمتعون بأعلى نسبة خصوبة وتكاثر بين شعوب الإمبراطورية القيصريّة في منتصف القرن التاسع عشر ، انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق في عام ١٩٢٦ . فبعد أن كانت ٣٥,٩ في الألف ، انخفضت إلى ٢٤,٨ في الألف . وفي بولندا ، انخفضت النسبة من ٢٨,٦ في الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ في الألف عام ١٩٢٥ في وارسو ، وإلى ١١,٦ في الألف في لودز عام ١٩٢٥ . أما يهود المجر ، فقد انخفضت النسبة بينهم من ٣٣,٩ في الألف في بداية القرن الحالي إلى ١٠,٥ في الألف ، أي أنها انخفضت نحو ٢٣,٤ في الألف . وكانت نسبة المواليد في بروسيا (ألمانيا) ٥,٢ في الألف عام ١٩٣٥ و ٢ في الألف في لندن عام ١٩٣٢ . وقد حدا هذا الوضع بالكُتّاب اليهود إلى التحذير من أن يهود أوروبا قد يختفون تماماً لأن معدلات المواليد لا تعوض الوفيات . وعلى مستوى العالم ، كانت النسبة ٣٥,٥ في الألف في الفترة ١٨٢٢ - ١٨٤٠ ، انخفضت إلى ١٩,٧ في الألف في الفترة ١٨٩٨ - ١٩٠٢ ، ثم إلى ٩,١ في الألف عام ١٩٢٩ . كما أنها انخفضت إلى ما دون ذلك لمدة عشرين عاماً (١٩٢٩ - ١٩٤٩) . وكان معدل نسبة المواليد في الفترة ١٩٠٦ - ١٩١٠ هو ٣٢ في الألف ، ونسبة الوفيات ١٥ في الألف ، والزيادة الطبيعية هي ١٧ في الألف . ثم انخفضت إلى نحو النصف في نحو خمسة وعشرين عاماً ، ففي الفترة ١٩٢٦ - ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد هي ٢١ في الألف والوفيات ١٢ في الألف ، والزيادة الطبيعية ٩ في الألف (انخفضت إلى ٨ في الألف عام ١٩٣٢) . ولا توجد إحصاءات عن الفترة ١٩٣٥ - ١٩٤٩ لأنها كانت فترة الحرب ، كما أنها أصبحت موضوعاً يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه .

٢ - عوامل تؤدي إلى الاختفاء :

أ) ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية ، وهو أمر جديد كل الجدة ، إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك ، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية . لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى انقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق

وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء الستة ملايين يهودي (أو حتى الأربعة ملايين حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كصفية جسدية متعددة فحسب .

إشكالية ملاحقة مجرمي الحرب النازيين

The Problematic of Hunting down Nazi War Criminals

تقوم إسرائيل بتعقب مجرمي الحرب النازيين بروح انتقامية مفترسة لا يمكن أن توصف إلا بالنظر ، خصوصاً أن الحرب انتهت منذ حوالي خمسين عاماً ، أي أن الغالبية الساحقة للشعب الألماني كانوا أطفالاً أثناء الحرب أو لم يكونوا قد ولدوا بعد . كما أن المحاكمات التي أجراها الخلفاء ، والتي تمت بتمهجية وشمولية كاملتين ، عاقبت الغالبية الساحقة من مجرمي الحرب النازيين والمتعاونين مع النظام النازي . ومع هذا تستمر عمليات الملاحقة والمحاكمة (كما حدث مع أدولف أيخمان وكلاوس باربي وكورت فالدهايم وجون ديتانجوت) .

وتهدف المطاردة المستمرة لمجرمي الحرب النازيين إلى تعميق الإحساس الغربي بالذنب تجاه اليهود وتذكير الشعب الألماني ، والشعوب التي قاتلت إلى جنب ألمانيا ، بمسؤوليتها عن هذه الإبادة وإظهار الإبادة كما لو كانت موجهة ضد اليهود وحسب ، وتوظيف هذا الشعور في إضفاء شرعية على الوجود الصهيوني في فلسطين . كما تأتي في سياق السعي إلى تعميق إحساس أعضاء الجماعات اليهودية بهويتهم اليهودية وبانتمائهم اليهودي المشترك ، خصوصاً مع تزايد معدلات الاندماج وتآكل الجانب الديني للهوية اليهودية بين أعضاء الجماعات اليهودية في الدول الأوروبية والغربية الحديثة . ومن هنا تأتي ضرورة إحياء ذكرى الإبادة بصفة مستمرة عن طريق عمليات المطاردة للنازيين القدامى وتقديمهم إلى المحاكمة في ظل متابعة إعلامية كثيفة . بالإضافة إلى أن التذكير والتلويح بخطر الإبادة قد يدفع أعضاء الجماعات اليهودية إلى الهجرة إلى إسرائيل .

وقد نجحت إسرائيل عام ١٩٧٩ في إلغاء مبدأ تقادم جرائم مجرمي الحرب في ألمانيا الغربية ، ولكنها اعتقلت آلافاً منهم مع أن نسبة إدانتهم في النهاية كانت تتراوح بين تسعة في المائة عام ١٩٦٤ وواحد ونصف في المائة عام ١٩٧٦ . ففي عام ١٩٧٢ ، مثلاً ، اعتُقل ستة عشر شخصاً شبهة أنهم مارتن بورمان (نائب هتلر) ، ثم ثبتت براءتهم جميعاً . وتحت الضغط اليومي المكثف ، أنشأت وزارة

سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشكل غير مباشر أيضاً عن طريق زيادة معدل العزوف عن الإنجاب . كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادةً من الذكور في سن الخصوبة .
(ب) تزايد نسبة الزواج المختلط بدرجة عالية كانت تصل إلى أكثر من ٥٠٪ في بعض العواصم الأوروبية .

(ج) تنصّر أعداد كبيرة من اليهود ، وهو شكل من الأشكال الحادة للاندماج . وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالمية الثانية لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي . كما حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية . وأثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر .

(د) ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي . فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي ، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه ، فلو كان الشخص يهودياً وعرف نفسه بأنه «روسي» أو «أوكراني» فإن الأمر مشترك له . ومع تآكل الهوية اليهودية ، لم يعد هناك دافع قوي لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم .

وقد أشار عالم الاجتماع اليهودي لوريا أنجلمان ، عشية الحرب العالمية الثانية ، إلى ما سماه «العملية ذات الأبعاد الثلاثة» (تناقص المواليد ، وتزايد الوفيات ، وتزايد معدلات الاندماج) باعتبارها العملية التي ستؤدي إلى الاختفاء الكامل لليهود .

٣- ظروف الحرب العالمية الثانية :

لا بد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة ، ولا بد أن نأخذ في الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية في نفس الفترة . كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز ، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف ، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض . ويقال إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبتهم بهذه الطريقة ، وإنه كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تماماً خلال عدة أعوام . (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة ، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع . ولكننا نذكر هذا العنصر أيضاً حتى تكتمل الصورة لدينا) . كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءً من عدم توفر الرعاية الصحية ، وانتهاءً بالغارات على المدن ، مروراً بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم .

تعليمه . عمل بانعاً متجولاً ممثلاً لشركة سوكوني فاكوم من عام ١٩٢٨ وحتى ١٩٣٣ . انضم أيخمان للحزب النازي في عام ١٩٣٢ ، وبدأ منذ عام ١٩٣٤ يعمل في قسم اليهود بالمخابرات الألمانية ، حيث أرسل إلى فلسطين بدعوة من المستوطنين الصهاينة ليدرس التجربة الصهيونية هناك . فبدأ يدرس اليديشية والعبرية والعقيدة اليهودية ، وبحلول عام ١٩٣٨ أصبح حجة في مساندة التنظيمات الصهيونية والهجرة اليهودية ، فأرسله النظام النازي إلى النمسا ليساعد في عملية تهجير أعضاء الجماعة اليهودية . وقد أظهر أيخمان كفاءة غير عادية إذ استخدم أسلوب خطوط التجميع ، المستخدم في المصانع ، لتسهيل العمل . وبعد عودته إلى برلين عام ١٩٣٩ ، عُين مديراً لمركز الرايخ للهجرة اليهودية ، ثم عُيّن فيما بعد رئيساً لقسم الشؤون اليهودية في الجستابو حيث قام بالإشراف على عملية نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال .

قُبض على أيخمان بعد الحرب ، ولكن لم تُكتشف هويته الحقيقية ، ففر إلى الأرجنتين عام ١٩٤٥ واختبأ فيها إلى أن عثر عليه عملاء المخابرات الإسرائيلية عام ١٩٦٠ . وساهم في عملية اكتشاف شخصية أيخمان في الأرجنتين المدعي العام في ألمانيا الغربية ، الذي وضع المعلومات التي حصل عليها تحت تصرف المخابرات الإسرائيلية ، فأوفدت إسرائيل مجموعة من رجال مخابراتها إلى بيونس أيريس حيث تحققت من شخصية أيخمان ، وتم اختطافه ونقله بعد عشرة أيام مخدراً متخفياً في زي مضيف جوي على متن طائرة إسرائيلية كانت قد جاءت إلى الأرجنتين تحت ستار نقل وفد إسرائيلي رسمي للاشتراك في احتفال الأرجنتين بالذكرى المائة والخمسين لاستقلالها .

وبدأت محاكمة أيخمان في ١١ أبريل عام ١٩٦١ بالقدس المحتلة ، حيث وجه إليه المدعي العام الإسرائيلي جدهون هاوونر تهمة المشاركة في إبادة يهود أوروبا ، وتولى الدكتور روبرت سرفاتيسوس ، الذي تخصص في الدفاع عن مجرمي الحرب النازيين ، مهمة الدفاع عن أيخمان .

ولم يُنكر أيخمان أو محاميه أيّاً من الاتهامات الموجهة إليه ، ولكنهما ركزا دفاعهما أساساً على أن أيخمان لم يكن سوى موظف في مؤسسة حديثة ضخمة يقوم بتنفيذ الأوامر التي يصدرها إليه رؤساؤه كما كان يُفترض فيه أن يفعل ، ولذا فهو مجرد بيروقراطي منفذ للإجراءات دون أن يسأل عن الأهداف ، وبالتالي يجب أن يُحاكم على مدى كفاءته أو عدم كفاءته في تنفيذ الأوامر لا على مدى تقييمه الأخلاقي لهذه الأهداف ، أي أن أيخمان طالب بأن يُنظر إليه

العدل الأمريكية عام ١٩٨٠ مكتباً للتحقيق مع مئات الأمريكيين من مجرمي الحرب ، ولكنها لم تُوفّق كثيراً في التوصل إليهم . وفي كندا ، صرح كثير من الصهاينة بوجود ما لا يقل عن ستة آلاف من مجرمي الحرب ، فأسست في أوائل عام ١٩٨٥ لجنة للبحث عن مجرمي الحرب (لجنة ديشين Deschênes Commission) وقُدِّم لها ٢١١٤ اسماً . كما قدّم سيمون ويزنتال ، المتخصص في تعقب مجرمي الحرب ، قائمة من ٢١٧ اسماً زعم أنهم أعضاء في فرق الإس . إس . من أوكرانيا وعملوا في جاليشيا . وقد استغرق عمل اللجنة سنتين ثم قدمت تقريرها في ديسمبر ١٩٨٦ ، وتبين أن هناك عشرين اسماً فقط ، من بين ٢١١٤ اسماً ، أوصت اللجنة إما بمحاكمتهم أو بترحيلهم . أما قائمة ويزنتال ، فقد ظهر أن ١٨٧ منهم لم يدخلوا كندا قط . ومن الثلاثين الباقيين ، حضر اثنان بالفعل إلى كندا ثم غادراها ، ومات أحد عشر شخصاً ، بينما كان هناك ستة عشر شخصاً لم يثبت أي شيء ضدهم . أما المتهم الوحيد الباقي ، فلم يمكن الاستدلال عليه . وقد طلبت اللجنة من ويزنتال أن يزودها بمزيد من الأسماء ، ولكنه لم يتمكن من ذلك . وهو أمر متوقع بعد أن قام الحلفاء بعملية « نزع الصبغة النازية عن ألمانيا » .

وقد بدأ كثيرون يُعبّرون عن ضيقهم من عملية الملاحقة . فقد ذكرت صحيفة التايمز البريطانية في عام ١٩٧٢ أن ثمة دلائل متزايدة على أن الرأي العام صار ضد تعقب الشيوخ بدعوى أنهم مجرمون نازيون . وأشارت جريدة ديلي تلغراف البريطانية إلى أن حراس السجون والكثير من الناس في ألمانيا نفسها يتساءلون عن الحكمة في استمرار محاكمات جرائم النازية بعد مرور كل هذه السنوات على انتهاء الحرب . وعندما زار الكاتب الألماني جونتير جراس إسرائيل عام ١٩٧١ صارع شعبها بأنه لا يجب عقوبة التوراة التي تقول إن على الجيلين الثاني والثالث أن يحملوا وزر جيل سبقهما .

وتُعَدُّ محاكمة أيخمان وكلاوس باربي وديمانجوك وحادثة فالدهايم نموذجاً لعمليات الملاحقة التي تقوم بها إسرائيل ، بكل ما تنطوي عليه من دلالات .

محاكمة أيخمان

Eichmann Trial

أدولف أتو أيخمان (١٩٠٦ - ١٩٦٢) مسئول نازي وضابط في فرق العاصفة ، ومن أهم الشخصيات في عملية الإبادة النازية لليهود أوروبا . وُلِدَ في ألمانيا لأسرة متواضعة هاجرت إلى النمسا حيث تلقى

اليهودية التي شكلها النازيون وعينوا فيها يهوداً ، فكانوا أداة تنفيذية في يد النازي ، بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول دور كثير من الحاخامات الذين لم يشاركوا في تنظيم حركة المقاومة .

وقد كانت المحاكمة محط اهتمام دولي ، وخصوصاً أن الدولة الصهيونية انتهكت القانون الدولي وسيادة عدة دول (الأرجنتين وألمانيا) باختطاف أَيْخمان الذي حُكِمَ عليه بالإعدام . ثم أُعْدمَ شتقاً في سجن الرملة وأُحرقت جثته ونُشر رماده في ابهر الأبيض المتوسط .

محاكمة كلاوس باربي

Klaus Barbie Trial

كلاوس باربي ، الذي أُطلق عليه لقب «سفايح ليون» ، هو أحد ضباط الجستابو (البوليس السري الألماني) . وأدين بارتكاب جرائم الحرب في فرنسا إبان الحرب العالمية الثانية . وكان باربي قد تولى عام ١٩٤٢ قيادة قوات الجستابو في مدينة نيون الفرنسية ، كما تولى مهمة تعقب عناصر المقاومة الفرنسية واثني نشاطها . وخلال فترة عمله التي استمرت عامين ، قام باربي بترحيل ٨٤٢ شخصاً من ليون إلى معسكرات الاعتقال النازية ، كان نصفهم من عناصر المقاومة والنصف الآخر من اليهود . كما أُدين كلاوس باربي بارتكاب عمليات التعذيب والمذابح ضد عناصر المقاومة والمندنيين في نيون والمناطق المحيطة بها .

ورغم ذلك ، قامت الاستخبارات المضادة التابعة للجيش الأمريكي المتمركز في أُنْتِيا بتجنيد باربي للعمل لصالحها عام ١٩٤٧ ، فتحوّل باربي إلى مصنر مهم وقب له معلومات (خصوصاً فيما يتعلق بالعناصر اليسارية والشيوعية) . وهو ما دفع المسؤولين الأمريكيين إلى عدم الاستجابة للمطالب الفرنسية بتسليمه للسلطات الفرنسية . بل قاموا بتفريجه إلى بوليفيا عام ١٩٥١ حيث عاش تحت اسم مستعار هو كلاوس انتمان . وقد قُدِّمَ باربي للمحاكمة غيابياً في فرنسا في ١٩٥٢ - ١٩٥٤ حيث أُدين بارتكاب المذابح والفظائع وصدر ضده حكم بالإعدام . وفي عام ١٩٧١ ، نجح فرنسيان من جماعة صائدي النازيين من العثور عليه . وأُمرت مساعي فرنسا عن طرده من بوليفيا عام ١٩٨٣ ، ثم تقدّية للمحاكمة في فرنسا عام ١٩٨٧ بتهمتين لم يتم توجيههما إليه من قبل ، وصدر ضده حكم بالسجن مدى الحياة .

غير أن محاكمته أثارت اهتماماً واسعاً داخل فرنسا وخارجها ، حيث تخوَّف بعض أعضاء الجماعة اليهودية من أن ذلك قد يثير

باعتباره إنساناً حديثاً أداتياً يهتم بالإجراءات ويدين بالولاء للمؤسسة التي يعمل فيها ولا يكتثر بالقضايا الأخلاقية النهائية . ولكن المحكمة رفضت دفعه ، وحكمت عليه بالإعدام .

وكان بن جوريون ، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك ، يهدف من وراء المحاكمة إلى زيادة الوعي اليهودي بين أعضاء التجمع الاستيطاني وأعضاء الجماعات اليهودية في العالم عن طريق تعميق الإحساس بأنهم الضحية الوحيدة وأن الآخرين أو الأغيار (ممثلين في النازيين) لا تأخذهم الرحمة باليهود . ومع هذا ، فجرت المحاكمة عدة قضايا لم يكن من أعدوا لها قد انتهوا إليها :

١ - بيّن أَيْخمان أن الرؤية الصهيونية لليهود لا تختلف كثيراً عن رؤيته هو ، فكلاهما يؤمن بضرورة تهجير اليهود باعتبارهم شعباً عضواً متبوذاً إلى أرض خاصة بهم ، كما أشار أَيْخمان إلى أن المسؤولين طلبوا منه ، عند تعيينه في وظيفته ، أن يقرأ كتاب هرتزل **دولة اليهود** ، وأنه تأثر به أيما تأثر ، وأنه ، في هذا ، لا يختلف كثيراً عن الزعماء النازيين الذين تأثروا بالفكر الصهيوني وخصوصاً بوبر .

٢ - أشار أَيْخمان إلى التعاون بين السلطات النازية والصهيانية ، خصوصاً رودولف كاستنر وجويل براند ، وأوضح أنه كانت هناك صفقة هُجِّرَ بموجبها بضعة يهود « من خيرة العناصر البيولوجية » إلى المستوطن الصهيوني . كما أرسلت كميات من البضائع إلى هناك في نظير أن تضمن القيادات الصهيونية هدوء اليهود المرحلين إلى معسكرات الاعتقال .

٣ - أثار سلوك الضحايا اليهود كثيراً من الدهشة ، حيث لا قوا حتفهم دون مقاومة ، ولعلهم لو قاموا لعلطوا آلة الحرب النازية التي كانت مرهقة . وقد نظر الجيل الجديد من أبناء المستوطن الصهيوني إلى سلوكهم هذا باعتباره سلوكاً نموذجياً لليهودي الجيتو الضعيف (مقابل العبراني الجديد القوي) ، وبالتالي نجم عن المحاكمة مزيد من الرفض لليهود العالم .

٤ - أثناء تقديمه لعريضة الاتهام ، بيّن المدعي العام الإسرائيلي أن الشعب اليهودي تعرض للاضطهاد والطرود والملاحقة في كل البلاد عبر التاريخ . وهنا تلقف محامي الدفاع هذه الأطروحة وتساءل : ما هي طبيعة هذا الشعب الذي يجد نفسه عرضة للطرود والملاحقة أينما كان ؟ ألا يوجد احتمال أن يكون هذا الشعب مسئولاً عما يلحق به من أذى ، وأنه شعب مستغفر يضطر كل الشعوب في كل زمان ومكان لطرده وملاحقته ؟ وقد أصيب الحاضرون بالذهول من تساؤلات محامي الدفاع .

كما أثارت المحاكمة قضايا أخرى مختلفة مثل دور المجالس

أو حتى زيارة النمسا أثناء توليه رئاسة البلاد . وقد نفى فالدهايم مراراً الاتهامات التي وُجّهت إليه ونفى اشتراكه في عمليات ترحيل لليهود أو في مذابح ضد المقاومة اليوغسلافية واعتبر هذه الاتهامات جزءاً من حملة تشهير وافتراء دولية بدأتها المعارضة النمساوية وتزعمها المؤتمر اليهودي العالمي والصحافة الدولية ، وأكد أن ماضيه قد بُحِث بشكل واف من قِبَل الأجهزة الأمنية النمساوية قبل توليه العمل في السلك الدبلوماسي النمساوي وأيضاً من قِبَل أجهزة المخابرات الأمريكية (سي . آي . آيه) والسوفييتية (كي . جي . بي) والإسرائيلية (الموساد) عند ترشيحه لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة، ولم تجد أي منها ما يدينه . ولم يتم أبداً إثبات أي من الاتهامات الموجهة ضد فالدهايم ، بل تبين فيما بعد أن ملف أولدر كاثر (أهم وثيقة في القضية) تحيط به الشكوك . وقد قامت ثلاث جهات نمساوية وبريطانية ودولية مستقلة بالتحري والبحث في هذه الاتهامات ولم تجد أي منها ما يدين فالدهايم بأي عمل إجرامي أو يؤكد تورطه فيما تُسبب إليه . وقد ساعد ذلك على فك العزلة المضروبة من حوله إلى حدٍّ ما ، فالتقى به البابا عام ١٩٨٧ ثم رئيساً ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٩٠ ، كما رحّبت به عدد من الدول العربية .

ومن ناحية أخرى ، كانت هذه القضية محاولة ناجحة إلى حدٍّ كبير للنيل من سمعة كورت فالدهايم التي شهدت الأمم المتحدة خلال فترة توليه منصب الأمين العام (١٩٧١ - ١٩٨٢) دعوة ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ولأول مرة ، لإلقاء كلمة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكذلك صدور قرار يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية .

محكمة ديمانجوك

Demanjuk Trial

جون ديمانجوك مواطن أمريكي من أصل أوكراني اتهم بارتكاب جرائم حرب إبّان الحرب العالمية الثانية . وأشارت الاتهامات والادعاءات الموجهة إليه ، إلى أنه كان يقاتل في صفوف الجيش السوفيتي حينما وقع في أسر الألمان ورحّل إلى أحد معسكرات أسرى الحرب . وأثناء ذلك ، وافق ديمانجوك على الانضمام إلى إحدى الوحدات العسكرية المشكلة من الأجانب والعاملة في خدمة قوات الإس . إس . الألمانية . وقد تدرب أولاً في أعمال الحراسة ثم نُقل إلى معسكر تربلينكا حيث أشرف على غرف الغاز وأطلق عليه لقب «إيفان الرهيب» بسبب قسوته البالغة ، وظل في المعسكر حتى

المشاعر المعادية لهم أو قد تتحول المحاكمة إلى منبر لنفي الإبادة النازية . ومن ناحية أخرى ، انتقد بعض الفرنسيين المحاكمة باعتبار أن الأعمال التي ارتكبها باربي لا تختلف كثيراً عما ارتكبه قوات الحلفاء حين قتل المدنيين العزل أثناء قصفها للمدن الألمانية .

حادثة فالدهايم

Waldheim Affair

أثناء حملته الانتخابية لرئاسة النمسا عام ١٩٨٦ ، أثارت ضد كورت فالدهايم (الأمين العام السابق للأمم المتحدة) قضية ما يُسمّى «ماضيه النازي» . وقد تزعم الحملة ضده المؤتمر اليهودي العالمي الذي اتهم فالدهايم بإخفاء جوانب من ماضيه أثناء الحرب العالمية الثانية وبالكذب حين ادعى عدم ارتباطه بالنازي بأي شكل من الأشكال ، مؤكداً أنه كان عضواً في اتحاد الطلبة النازي ، وأنه التحق (على حد زعم المؤتمر) بإحدى وحدات قوات العاصفة ، بل ألحق في نهاية عام ١٩٤٢ بالقوات الألمانية في سالونيك والتي تولّت ترحيل اليهود من اليونان إلى معسكرات الاعتقال وقامت بعمليات عسكرية وحشية ضد المقاومة اليوغسلافية ومؤيديها من المدنيين . وفي إطار حملته المكثفة ضد فالدهايم ، كشف المؤتمر اليهودي العالمي النقاب عن بعض الوثائق التي ادعى أنها تؤكد إدانة فالدهايم ومن أهمها ملف «أودلو كاثر» (أو القرار) اليوغسلافي الذي ضم قائمة بأسماء الأشخاص الذين كانت السلطات اليوغسلافية تشبه في تورطهم في ارتكاب جرائم الحرب وكان من بينها اسم فالدهايم . واستناداً إلى هذا الملف ، تم ضم اسم فالدهايم إلى ملف لجنة الأمم المتحدة لجرائم الحرب . كما قام المؤتمر بإسناد مهمة البحث في ماضي فالدهايم إلى عالم في التاريخ أشارت نتائج بحثه إلى أن فالدهايم عمل ضابطاً في قسم الاستخبارات العسكرية للجيش المتمركز في غرب البوسنة والذي كانت قواته مسؤولة عن ارتكاب المذابح ضد آلاف اليوغسلاف في جبال كوزارا عام ١٩٤٢ ، وأن فالدهايم حصل على نوط الشجاعة من الحكومة الكرواتية الموالية لألمانيا في هذه الفترة . وفي ضوء هذه النتائج ، حث المؤتمر اليهودي العالمي الحكومة الأمريكية على وضع كورت فالدهايم على قائمة الأجانب غير المرغوب في دخولهم إلى الولايات المتحدة . وقد أقدمت الحكومة الأمريكية على ذلك بالفعل في أبريل عام ١٩٨٧ .

ورغم هذه الحملة الإعلامية المكثفة نجح فالدهايم في انتخابات الرئاسة النمساوية ، ولكن هذه القضية تركت أثارها على مكانته الدولية حيث رفض كثير من قادة أوروبا والولايات المتحدة الالتقاء به

النازيين . ولقد وتعلم في تشيكوسلوفاكيا حيث حصل على شهادة في العمارة عام ١٩٤٠ .

اعتقله النازيون في الفترة ١٩٤١ - ١٩٤٥ . وبعد الحرب ، انضم ويزنتال إلى اللجنة الأمريكية لجرائم الحرب . وأسس عام ١٩٤٦ ، هو وآخرون ، مركز التوثيق التاريخي اليهودي الذي يوجد الآن في فيينا بالنمسا . وقد نجح ويزنتال في المساعدة على القبض على ١١٠٠ مجرم نازي من بينهم أيخمان . وقد نشر ويزنتال مقالاً في التورنستار (١٩ مايو ١٩٧١) زعم فيه أن « عدة مئات » من مجرمي الحرب النازيين يعيشون في كندا . وحينما سُئِلت لجنة للتحقيق لم يُقدّم سوى ٢١٧ اسماً ، ولكن ثبت أن غنبيتهم الساحقة (١٨٧ اسماً) لم يدخلوا كندا قط ، والبقية إما ماتوا أو غادروا كندا أو لم يكن العثور على أي دليل على تورطهم في جرائم الحرب ، وقد أثر هذا كثيراً في مصداقيته .

بعض التغيرات التي طرأت على الخطاب الغربي فيما يتعلق بالإبادة النازية ليهود أوروبا

Some Developments of the Western Discourse on the Nazi Extermination of European Jewry

رغم كل الهستيريا الإعلامية الصهيونية وغير الصهيونية ضد أية محاولة لتناول ظاهرة الإبادة بعقلانية واتزان . يمكن أن نلاحظ تغيرات هامة بدأت تدخل على الخطاب الغربي فيما يتعلق بالإبادة النازية :

١ - بدأت محاولات إسرائيل في استخدام الإبادة لتبرير استمرارها في ارتكاب الجرائم ضد الفلسطينيين تصبح أمراً مجسداً ، وبدأ بعض المفكرين اليهود وغير اليهود يُعبرون عن رفضهم لثل هذا المنطق الابتزازي . كما بدأ كثير من يهود العالم يضيفون ذراعاً يجعل الإبادة هي النقطة المرجعية النهائية في رؤيتهم لتكون والأغيار .

٢ - بدأ الخطاب السياسي في الغرب وفي إسرائيل يرفض التساوي (التحريم) الذي يمنع تشبيه الإبادة النازية لليهود الغرب بأحداث مماثلة في التاريخ النازي وثائق الحاضر . وقد نجح عدة متحدثين غربيين (من بينهم يهود) على تشبيه ما يحدث للفلسطينيين على يد الإسرائيليين بما حدث لليهود في أوروبا على يد النازيين . فعلى سبيل المثال ، صرح الكاتب الإسرائيلي يوشوا بأنه يفهم الآن سبب جهل الألمان بما حدث لليهود بعد أن رأى الإسرائيليين يرفضون معرفة ما يحدث للفلسطينيين . ويشير اليهود السفارد والشرقيون إلى اليهود الغربيين بأنهم « إشكي نازي » وهو نوع من التلاعب بالألفاظ يشير

إغلاقه عام ١٩٤٣ . ومع انتهاء الحرب ، انتقل ديمانجوك إلى الولايات المتحدة حيث عاش حياة هادئة إلى أن علمت السلطات الأمريكية بماضيه ، فقامت بتجريدته من جنسيته الأمريكية . وفي عام ١٩٨٦ ، تم ترحيله إلى إسرائيل حيث قُدّم للمحاكمة عام ١٩٨٧ بعد أن وُجّهت إليه اتهامات بالقتل وارتكاب جرائم ضد الإنسانية وارتكاب جرائم ضد الشعب اليهودي . وقد أكد الدفاع أن هناك خطأ وليساً في شخصية المتهم ، فجوز ديمانجوك ليس هو « إيفان الرهيب » ، كما شكك الدفاع في الأدلة المقدمة ضده وفي قدرة الشهود على تذكر أحداث جرت منذ أكثر من ٤٥ عاماً . ورغم ذلك ، أدين ديمانجوك بالتهمة الموجهة إليه وحُكم عليه بالإعدام عام ١٩٨٨ .

وبطبيعة الحال ، حاولت المؤسسة الصهيونية استثمار عملية المحاكمة نفسها ، بغض النظر عن نتائجها ، في تحقيق أهدافها الخاصة برفع ما يُسمى «الوعي اليهودي» بين الأجيال الجديدة من أعضاء الجماعات اليهودية . كما حاولت تذكير العالم (الغربي) بالجرائم النازية ضد اليهود ، وذلك في محاولة للتغطية على القمع الإرهابي الذي تمارسه إسرائيل للقضاة على الانتفاضة الفلسطينية . ولكن محاكمة ديمانجوك تبين أن هذه العملية تقرب من نهايتها . فقد اعترف بعض المسؤولين الأمريكيين (في مكتب التحقيقات التابع لوزارة العدل الأمريكية) بجرائمهم في إخفاء الأوراق التي تثبت أن ديمانجوك ليس إيفان الرهيب . وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وفتح كثير من الملفات السرية ، ظهرت دلائل جديدة تؤكد أن ديمانجوك ليس هو إيفان الرهيب وأنه عمل حارساً في معسكر آخر غير تريبليكا . وكتبت النيويورك تايمز تقول إنه لابد من الإفراج عنه لعدم توافر أية أدلة ، ونبه باتريك بوكمان عن الحزب الجمهوري (إلى أن السلطات الإسرائيلية تماطل في إصدار الحكم ببراءة ديمانجوك على أمل أن يموت في السجن ولا تضطر إسرائيل إلى الاعتراف بخطئها . بل إن الصحف الإسرائيلية ذاتها بدأت تنبه إلى أن الاستمرار في مثل هذه المحاكمات قد يؤدي إلى نتائج عكسية . ولعل حكم البراءة الذي اضطرت المحكمة الإسرائيلية العليا إلى إصداره في عام ١٩٩٣ هو نهاية هذه المهزلة . وقد عاد ديمانجوك فيما بعد إلى الولايات المتحدة .

سيمون ويزنتال (١٩٠٨ -)

Simon Wiesenthal

يهودي من أصل تشيكي تخصص في مطاردة مجرمي الحرب

التي لم تُنشر بعد ستجد طريقها إلى النشر . ولعل هذا يوفر جواً علمياً أكثر استقراراً وطمأنينة ، بعيداً عن هستريا الأيقنة الكاملة للإبادة لصالح اليهود ، وعن هستريا الإنكار الكامل لها (بالمعنى العام ، أي الإبادة عن طريق التجويع والسخرة ؛ والمعنى الخاص ، أي التصفية الجسدية) .

إلى أن ما كان محرماً أصبح مباحاً . ووصف البروفسير لايففيتز سياسة إسرائيل في لبنان بأنها نازية يهودية (بالإنجليزية : جوديو/ نازي Judeo-Nazi) .
٣- نعتقد أن الأمور بعد توحيد ألمانيا وتحولها إلى قوة عظمى ستتغير كثيراً ، وسيُنظر إلى حادثة الإبادة النازية لليهود أوربا نظرة أكثر تفسيرية وتركيباً واتزاناً . كما أن كثيراً من الوثائق الألمانية والسوفيتية



٦

إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين - مقاومة الجماعات اليهودية للنزعة
- النازية والصهيونية - النازية والصهيونية : الأصول الفكرية المشتركة والتعامل لبيوي -
اليتشوية والصهيونية - النازية والصهيونية : العلاقة الفعلية - معاهدة الهعفره
(الترانسفير) - المجالس اليهودية - رابطة الثقافة اليهودية - تيريس أينشتات - جيتو وارسو
- جماعة شتيرن والنازية - عصابة الأشداء - نوسيج - رومكو فسكي - تشريب كوف -
كابالان - بلومنتلد - كاستنر - العرب والمسلمون والإبادة النازية لليهود أورب - مسه

التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

Collaboration between Some Members of the Jewish Communities and the Nazis

وراديكالية تمت تحت إشراف عناصر من البورجوازية الصغيرة لا تحترم التقاليد وتقضي على سائر الخصوصات وتحاول أن تنجز في عشرة أعوام ما أنجزته أوربا في مئات الأعوام . وقد تمركزت المقاومة التقنيدية في الجيش ووزارة الخارجية ، وكان يضمن أعداداً كبيرة من أعضاء الطبقة الأرستقراطية . ويشكل قدم البولنديون بحركة مقاومة عنيفة ضد النازيين ، هذا بخلاف حركات المقاومة في فرنسا وغيرها من الدول .

وقد بين كثير من الكتّاب أنه لم تنشأ أية مقاومة يهودية في أرجاء أورب ، مع أن مثل هذه المقاومة كان يوسعها أن تصيب أنه الإبادة النازية بالمثل أو نهد من سرعتها أو تعطفها ، خصوصاً أنها كانت مرفقة . ولم تبدأ المقاومة لليهودية جدياً في وارسو ، التي كان ٤٥ في المائة من سكانها من اليهود ، إلا في أوائل عام ١٩٤٣ ، عندما بدأت موازين القوى تميل لصالح الحلفاء ، وحين قررت برلين تدمير حدة اليهود . وكان الوقت قد فات على إنقاذ نرلاء المعسكرات .

ومن الأسباب الأساسية التي بطرحها البعض لتفسير ضعف المقاومة اليهودية رغم الشراسة النازية هو الموقف الصهيوني ، إذ يبدو أن النضال لم يبدوا حماساً كبيراً في حربهم ضد النازية ، وكانوا غير مكترئين بالمقاومة ضد النازيين . وفي مجال هجومه على المشروع الصهيوني ، حذر المفكر الاشتراكي كارل كاوتسكي من الآثار الضارة لنصهيونية التي توجه جهود اليهود وثرواتهم إلى الانحاء الخاضع (الاستيطان في فلسطين) في وقت تنشر فيه مصائرهم في مسرح مختلف تماماً (أوربا وألمانيا) حيث يجب عليهم أن يركزوا في كل قواهم . وكان كاوتسكي يشير بذلك إلى أن ملايين اليهود في شرق أوربا (بين ثمانية وعشرة ملايين) لم يكن من الممكن تهجيرهم

من الموضوعات التي لم يتم بحثها بالقدر الكافي ، لأسباب معروفة ، قضية تورط بعض أعضاء الجماعات اليهودية (من الصهاينة وغير الصهاينة) في علاقة تعاون وثيقة مع النازيين . وقد أخذ هذا التعاون أشكالاً كثيرة من بينها عدم الاشتراك في المقاومة أو التعاون الاقتصادي والثقافي مع النازيين . ولكن أهم أشكال التعاون وأوثقها هو التعاون المؤسسي بين المستوطنين الصهاينة والنظام النازي والنظام الفاشي الذي أخذ شكل معاهدة الهعفره . ومن أهم الشخصيات الصهيونية التي تعاونت مع النازي ألفريد نوسيج .

مقاومة الجماعات اليهودية للنازية

Jewish Resistance to Nazism

يُشير بعض الدارسين تساؤلاً بخصوص المقاومة اليهودية والصهيونية للنازيين ، وهي مسألة خلافية مركبة . وما يجدر ذكره أنه حين استولى هتلر على السلطة عام ١٩٣٣ ، ظلت هناك جيوب رافضة داخل المجتمع الألماني صعدت المقاومة ضده من منظور ليبرالي . كما كانت هناك حركة مقاومة ثورية نظمته الأحزاب الشيوعية والاشتراكية ، فالنازية حركة شمولية تقف ضد مصلحة الطبقة العاملة . كما كانت هناك مقاومة من منظور يميني تدعمها قطاعات معينة من الرأسمالية الألمانية الكبيرة . وكانت هناك أيضاً مقاومة من منظور تقليدي أرستقراطي باعتبار أن النازية تقضي على امتيازات الطبقة الأرستقراطية الألمانية التقليدية ومكانتها . إذ كانت النازية ، على مستوى من المستويات ، عملية تحديث سريعة

كانوا يُشكّلون كثافة سكانية لا بأس بها ، وكان بوسعهم المقاومة والانضمام إلى الشعب البولندي الذي كان يقاوم الغزو النازي . ومن القضايا الأخرى التي تُثار في هذا السياق موقف المستوطنين الصهاينة . فقد كانت إحدى دعاوى إقامة الدولة الصهيونية أنها ستكون ملجأ لليهود يحميهم من هجمات الأغيار ومذابحهم . ولكن حينما دخلت قوات روميل حدود مصر وبدأت تتقدم نحو الإسكندرية ، اكتشف المستوطنون الصهاينة عبث المقاومة ، بل ضعت بعض الكيوتسات خطة للانتحار . والقدرة على الانتحار تختلف بشكل جوهري (في تصورنا) عن المقاومة والإنقاذ . ولكن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن الانتحار يفقد الجيب الصهيوني شرعيته كملجأ أخير ونهائي لليهود .

ويبدو أن يهود الولايات المتحدة (الذين يُشكّلون أكبر جماعة يهودية في العالم) لم يلعبوا دوراً فعالاً بما فيه الكفاية في محاولة حماية يهود ألمانيا . وقد حاولت إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية ، عام ١٩٨١ ، فتح ملف تقصير الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، ولكنها أغلقت بسرعة بدعوى أن الموضوع محرج ومؤلم ، وهو كذلك بالفعل . لكن هذا لا يبرر إغلاق التحقيق ، وخصوصاً أن الاتهامات الصهيونية للحكومة الأمريكية والفاتيكاني والكنيسة بالتقصير لم تتوقف .

الفاشية والصهيونية

Fascism and Zionism

من أهم الأفكار الغربية التي نبنت الصهيونية في تربتها ، الأفكار السياسية الخاصة بالقومية العضوية وبالذولة القومية باعتبارها المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية للنسق ، وهي الأفكار التي تصبح تقديساً للذولة وانصياعاً لزعيمها في الأنسق الشمولية . وقد نبنت الصهيونية كل هذه الأفكار وتحركت في إطارها ، فأنشأت علاقة مع النظام الفاشي (في إيطاليا) والنظام النازي (في ألمانيا) .

وقد أكد موسوليني منذ بداية حكمه أن الفاشية لا علاقة لها بالعداء لليهود . وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٣٠ أصدر قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل كل يهود إيطاليا بغير استثناء ، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكومة الفاشية . حيث نصت المادة ٣٥ من قانون تأسيس هذا الاتحاد على أن اليهود هم سفراء الفاشية للعالم ، وعلى ضرورة أن يشترك اتحاد التجمعات اليهودية في إيطاليا في النشاطات الدينية

إلى فلسطين . وبدلاً من تنظيمهم وتوجيه طاقاتهم ، حتى يكونوا مهينين للدفاع عن أنفسهم حينما تقع الواقعة ، كانت القيادات الصهيونية تركز على تهجير بضعة مئات منهم إلى أرض الميعاد . ولكن الاعتبارات الصهيونية كانت مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك ، إذ قرر الصهاينة اتخاذ موقف الحياد من المقاومة ، باعتبار أن اليهود لهم مصالحهم وحروبهم المختلفة ، وأن هدفهم الوحيد هو تأسيس الدولة الصهيونية . ولذا نادى كثير من الصهاينة بعدم الاشتراك في الحركات المعادية للنازية والفاشية . وقد بين مارليك إيديلمان ، أحد قواد تمرد جيتو وارسو ، في حديث له مع مجلة هآرتس أن الأبطال الحقيقيين للمقاومة كانوا أعضاء حزب البوند واليهود المعادين للصهيونية والشيوخ والتروتسكيين والصهاينة اليساريين ، أما أعضاء التيار الصهيوني الأساسي فكان موقفهم هو موقف الحياد إياه . وكلما كان النضال ضد النازية يزداد ضراوة ، كان الصهاينة يزدادون ابتعاداً عن بقية اليهود . ومن المعروف أن القوات النازية كانت تقيم مجالس لليهود في البلاد التي تحتلها بعد حل كل التنظيمات اليهودية ، ويُقال إن أغلبية أعضاء هذه المجالس كانوا من الصهاينة (وإن كان هذا يحتاج إلى مزيد من التمهيص) . ومن الثابت تاريخياً أن المجالس اليهودية كانت أداة ذات كفاءة عالية في إدارة عملية الإبادة .

وقد تعاون كثير من الأفراد اليهود (غير الصهاينة) مع النازيين ، وهم في هذا لا يختلفون عن مئات الأوربيين الآخرين الذين كانوا مجرد موظفين ينفذون الأوامر التي تصدر إليهم . كما لم يكثر يهود فرنسا بنقل اليهود الذين ليسوا من أصل فرنسي ، تماماً مثلما أظهر يهود ألمانيا عدم اكتراث بنقل اليهود الأوست يودين (أي يهود شرق أوروبا) . بل إن بعض الكتّاب اليهود أثاروا قضية دور الخاخامات في أوروبا وفشلهم في قيادة حركة المقاومة . ومن المعروف أن قساً كاثوليكياً وواعظاً بروتستانتيّاً تطوعا للذهاب مع المرحلين إلى معسكرات الاعتقال ، بينما لم تلعب الخاخامية دوراً مماثلاً .

والموضوع ، كما أسلفنا ، خلافي للغاية ، فمشة نظرية تذهب إلى أن المقاومة لم تكن على أية حال لتجدي فتيلاً ، وذلك لأن الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني لم تكن تمنع في الإبادة ، كما أن آلة الحرب والمخابرات والإبادة الألمانية كانت على درجة عالية من الكفاءة والقدرة على الفتك . ومن الممكن تطبيق نفس المقولة على هؤلاء الأغيار المتهمين بعدم مقاومة النازي ، فلعلهم توصّلوا هم أيضاً إلى عدم جدوى المقاومة . ولكن هذا القول الذي ينطبق على الجماعة اليهودية في ألمانيا لا يسري بأية حال على يهود بولندا الذين

أحياناً إلى وصفه بالفاشي ، فإن موقفه بشكل عام كان موقف المؤيد للفاشية والمعجب بها .

النازية والصهيونية : الأصول الفكرية المشتركة والتواصل البنيوي

Nazism and Zionism (Common Intellectual Origins and Structural Parallelism)

رغم الدعاية الصهيونية الشرسة وتأكيد احتكار اليهود لدور الضحية في عملية الإبادة التي قام بها النازيون ضد كثير من الشعوب والأقليات الإثنية والدينية والعرقية ، فإن ثمة علاقة وطيدة بين الصهيونية والنازية تستحق الدراسة . وقد يكون من المفيد ابتداءً أن نقرر أن النازية والصهيونية ليستا بآية حال انحرافاً عن الحضارة الغربية الحديثة بل يمثلان تيارين أساسيين فيها . ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية جزء أصيل من الحضارة الغربية أن الغرب يحاول تعويض اليهود عما لحق بهم على يد النازيين بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين ، وكأن جريمة أوشفيتس يمكن أن تُمحى بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذبحة بيروت أو مذبحة قاتا . وقد أنجزت الصهيونية ما أنجزت من اغتصاب للأرض وطرد لإبادة للفلسطينيين من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي ، واستخدمت كل أدواته من غزو وقمع وترحيل وتهجير . والغرب ، الذي أفرز هتلر وغزواته ، هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي . وهو الذي ينظر بحياء وموضوعية داروينية للجريمة التي ارتكبت والتي تُرتكب يوماً ضد الشعب الفلسطيني .

ولابد أن نقرر أن الصهيونية لم تقم بعملية إبادة شاملة (بمعنى التصفية الجسدية) للفلسطينيين ، إلا أن هذا يرجع إلى اعتبارات عملية عديدة لا علاقة لها بالبنية الإبادة للأيديولوجية الصهيونية ، من بينها تأخر التجربة الصهيونية إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وعدم إعلان الدولة الصهيونية إلا في منتصف القرن العشرين ، وهو ما جعل الإبادة مسألة عسيرة بسبب وجود المنظمات الدولية والإعلام . كما كان شأن الكثافة السكانية العربية وتماثل العرب وانتمائهم إلى تشكيل حضاري مركب ومقدرتهم على التنظيم والمقاومة والانتفاضة أن أصبحت الإبادة حلاً مستحيلاً (ومع هذا لابد من الإشارة إلى عمليات الإبادة الجسدية والتي تمت في صفد ودير ياسين وكفر قاسم ، وغيرها من مدن وقرى في فلسطين ، حيث لم تكن الممارسة الصهيونية تهدف إلى تهجير الفلسطينيين ، بقدر ما كانت تهدف إلى قتلهم وإبادةهم . وبالمثل كانت عملية صابرا

والاجتماعية لليهود العالم ، وأن يحتفظ بعلاقاته الدينية والثقافية معهم .

وفي يناير ١٩٢٣ قام حاييم وايزمان بوصفه رئيس المنظمة الصهيونية بزيارة موسوليني ، لمحاورته بشأن الصهيونية والدعم الفاشي الممكن تقديمه إلى الحركة . واكتشف الزعيم الصهيوني أن اعتراض موسوليني على الصهيونية مرده إحساسه بأن الصهيونية أداة لإضعاف الدول الإسلامية لصالح الإمبراطورية البريطانية . فرد وايزمان عليه ردّاً مقتنعاً بـ "أن فيه أن إضعاف الدول الإسلامية سيعود أيضاً على إيطاليا بالنفع ، وأضاف أن شروط حكومة الانتداب ذاتها تفتح المجال أمام إيطاليا أو أية دولة أخرى للمشاركة في تطوير هذا البلد (أي تصدير العمالة الفائضة والحصول على امتيازات تجارية ، على حد قول وايزمان) ، وأن في وسع إيطاليا أن تفعل ذلك إذ اعتمدت الميزانية اللازمة . وانتهى الاجتماع بتفاهم كامل بين الطرفين ، سمح موسوليني على أثره بتعيين يهودي إيطالي في الوكالة اليهودية .

وحينما دُعي وايزمان مرة أخرى إلى إيطاليا في سبتمبر ١٩٢٦ ، عرض موسوليني أن يُقدم المساعدة للصهيانية كي يبنوا اقتصادهم ، وقامت الصحافة الفاشية بنشر مقالات مؤيدة للصهيانية . كما قام ناحوم سوكولوف ، باعتباره رئيس اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية ، بزيارة إيطاليا عام ١٩٢٧ وصرح بأنه أدرك الطبيعة الحقّة للفاشية ، وأكد أن اليهود الحقيقيين لم يحاربوا قط ضدها . ولا شك في أن كلماته هذه تحمل معنى التأييد الكامل للنظام الفاشي ، وقد تبعته في ذلك المنظمة الصهيونية في إيطاليا . ومن الزعماء الصهيونيين الذين زاروا إيطاليا الفاشية ، ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي العالمي الذي استمع إلى الزعيم الإيطالي وهو يُعرب عن حماسه للمشروع الصهيوني وعن استعداده الكامل لمساندته .

وقد تعلم جابوتنسكي الكثير من الفاشية الغربية ، وكان يُعبر عن إعجابه الشديد بالدوتشي وفكره ، وبالتنظيمات الشبابية الفاشية التي حاولت المنظمات الشبابية التصحيحية التشبه بها في زهبا الرسمي . وكال موسوليني المديح والتقريظ لجابوتنسكي حين قال مرة للحاخام ديفيد براتو الذي أصبح فيما بعد حاخام روما : "كي تنجح الصهيونية يجب أن تحصلوا على دولة يهودية لها علم يهودي ولغة يهودية ، والشخص الذي يفهم ذلك حقاً هو الفاشي جابوتنسكي" . كما نعت موسوليني نفسه ضمناً بأنه صهيوني يدافع عن فكرة الدولة اليهودية . ورغم أن جابوتنسكي لم يكن يرتاح

وكان سترايخر (المنظر النازي) يؤكد أثناء محاكمته ، أنه تعلم هذه الفكرة من النبي عزرا : لقد أكدت دائماً حقيقة أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذي يجب أن تحتذيه كل الأجناس ، فلقد خلفوا قانوناً عنصرياً لأنفسهم ، قانون موسى الذي يقول : " إذا دخلت بلداً أجنبياً فلن تتزوج من نساء أجنبيات " . وكانت الأدبيات الصهيونية الخاصة ببقاء اليهود العرقي ثرية إلى أقصى حد في أوروبا حتى نهاية الثلاثينيات .

ويستخدم النازيون والصهاينة على حد سواء الخطاب النيتشوي الدارويني نفسه المبني على تمجيد القوة وإسقاط القيمة الأخلاقية . إذ يستخدم الصهاينة - شأنهم في هذا شأن النازيين - مصطلحاً محايداً ، فهم لا يتحدثون عن طرد الفلسطينيين وإنما عن " تهجيرهم " أو " دمجهم في المجتمعات العربية " . وهم لا يتحدثون مطلقاً عن " تفتيت العالم العربي " وإنما عن " المنطقة " ، ولا يتحدثون عن " الاستيلاء " على القدس وإنما عن " توحيدها " ولا عن الاستيلاء على فلسطين أو « احتلالها » وإنما عن " استقلال " إسرائيل أو عن " عودة الشعب اليهودي " إلى أرض أجداده .

ويتضح التماثل بين النازيين والصهاينة بكل جلاء في واحد من أهم التنظيمات النازية . فقد كان النازيون - شأنهم شأن أية عقيدة تدور في إطار القومية العضوية - يؤمنون بوجود دياسبورا ألمانية (« أوسلاندويتش Auslandeutsch ») تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانية . وأعضاء هذا الشتات الألماني مثل أعضاء الشتات اليهودي يدينون بالولاء للوطن الأم ويجب أن يعملوا من أجله . وربما لأن العودة للوطن الأم أمر عسير ، كما هو الحال مع الصهاينة ، اقترح النازيون ما يشبه نازية الشتات (مثل صهيونية الشتات) عن طريق تشجيع الألمان في الخارج على دراسة الحضارة واللغة الألمانيةيتين . وكان للنازيين ما يشبه المنظمة النازية العالمية التي كانت لها صلاحيات تشبه صلاحيات المنظمة الصهيونية العالمية ، وكانت لها مكانة في ألمانيا تشبه من بعض الوجوه مكانة المنظمة الصهيونية في إسرائيل . وقد تعاون الألمان ، في كل أنحاء العالم مع السفراء والقناصل الألمان ، تماماً كما يتعاون اليهود والصهاينة مع سفراء وقناصل إسرائيل في بلادهم .

ولنا أن نلاحظ الأصول الألمانية الراسخة للزعماء الصهاينة الذين صاغوا الأطروحات الصهيونية الأساسية . فتيدود هرزل وماكس نوردو والفريد نوسيج وأوتو ووربورج كانوا إما من ألمانيا أو النمسا يكتبون بالألمانية ويتحدثون بها ، كما كانوا ملهمين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكونون لها الإعجاب ولا يكونون احتراماً كبيراً

وشاتيل ذات طابع إبادي واضح) . كما أن الإبادة بمعنى التهجير والتسخير والقمع والاستغلال هي حدث يومي داخل الإطار الصهيوني .

إن الحضارة الغربية الحديثة هي التي أفرزت الإمبريالية والنفعية الداروينية والنازية والصهيونية ، ولذا فليس من المستغرب أن نجد مجموعة من الأفكار المشتركة بين الرؤيتين النازية والصهيونية التي تُشكّل الإطار الحاكم لكل منهما :

١ - القومية العضوية والتأكيد على روابط الدم والتراب ، وهو ما يؤدي إلى استبعاد الآخر (الشعب العضوي المنبذ) .

٢ - النظريات العرقية .

٣ - تقديس الدولة .

٤ - النزعة الداروينية النيتشوية .

كما يظهر التماثل البنوي بين النازية والصهيونية في خطابهما . فكلاهما يستخدم مصطلحات القومية العضوية مثل « الشعب العضوي (فولك) » و « الرابطة الأتلية بين الشعب وتراثه وأرضه » و « الشعب المختار » . وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود ، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية : " لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران . ونحن وحدنا شعب الإله المختار . هل هذه إجابة شافية على السؤال ؟ " . ويتحدث مارتن بوبر عن أن الرابطة بين اليهود وأرضهم هي رابطة الدم والتربة ، ومن ثم يطالب بضرورة العودة إلى فلسطين حيث توجد التربة التي يمكن للدم اليهودي أن يتفاعل معها ويدفع من خلالها ، وهي مسألة أشار إليها كل من الكاتبين الصهيونيين ميخا بيرديشكي وشاؤول تشرنخوفسكي ، حيث تحدثا عن الشعب العضوي اليهودي بالعبارات نفسها ونسبا إليه الخصائص نفسها . كما استخدم الصهاينة مفهوم « الدم اليهودي » لتعريف الهوية اليهودية .

وأثناء محاكمات نورمبرج ، كان الزعماء النازيون يؤكدون ، الواحد تلو الآخر ، أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية ، خصوصاً كتابات بوبر عن الدم والتربة . وقد أشار ألفريد روزنبرج ، أهم المنظرين النازيين ، إلى أن « بوبر على وجه الخصوص هو الذي أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا ، فهناك فقط يمكنهم العثور على جذور الدم اليهودي » . ولعله ، بهذا ، كان يشير إلى حديث بوبر عن اليهود باعتبارهم آسيويين حيث يقول « لأنهم إذا كانوا قد طردوا من فلسطين ، فلسطين لم تُطرد منهم » .

ومن الموضوعات الأساسية المشتركة فكرة النقاء العرقي .

المدنّس إلى مقدّس ، وبذلك يُمثل كل منهما تهديداً لليهودية والمسيحية ، بل للجنس البشري بأسره .

النيشوية والصهيونية

Nietzscheanism and Zionism

تنبع النازية من عدة روافد في الفكر الغربي الحديث لعل أهمها على الإطلاق الفكر الفلسفي الرومانسي الألماني ، وبخاصة الفكر النيتشوي أو النيتشوية . وقد يكون من المفيد أن نشير ابتداءً إلى أننا نُميّز بين الفكر النيتشوي وفلسفة نيتشه . فلسفة نيتشه توجد في أعماله الفلسفية ، وهي فلسفة متقضة تحوي الكثير من الأفكار النبيلة والخسيسة والعاقلة والمجنونة . أما الفكر النيتشوي فهو منظومة شبه متكاملة ، استبطنها الإنسان الغربي من أعمال نيتشه وحققت من الذبوع والشيوخ ما يوفق أعمال نيتشه الفلسفية . وما يهمني في دراسة تاريخ الأفكار هو الفكر « النيتشوي » وليس أعماله الفلسفية . فهناك الكثير من النيتشويين عن لم يقرأوا صفحة واحدة من أعمال نيتشه ، بل الذين اتخذوا مواقفهم النيتشوية قبل أن يخط نيتشه حرفاً واحداً . فإخطاب الإمبريالي ، منذ لحظة ظهوره في القرن السابع عشر ، كان خطاباً نيتشواً .

يُسمّ موقف نيتشه من اليهود بالغموض . فهناك رأي يذهب إلى أنه كان معادياً لليهود . وبما ساعد على تدعيم هذا الرأي أن أخته إليزابيث - التي نفذت وصيته الأدبية - كانت متزوجة من برنارد فوستر وهو من أهم الداعين إلى معاداة اليهود . بل يُقال إن إليزابيث زيّنت بعض خطابات نيتشه بتشجيع هذه الصورة عنه . لكن لا شك في أن أعمال نيتشه تحتوي على إشارات لليهود واليهودية تحمل دلالات سلبية . وينبع سخفه على اليهودية بالدرجة الأولى من تصوره أن اليهودية هي أحد أشكال أخلاق الضعفاء . فعندما فقد اليهود دولتهم ولاقوا الاضطهاد وحُرموا من حريتهم في العالم الروماني ، تجمع لديهم شعور مكبوت بالإساءة وصل إلى أقصى درجات غليانه فوكلت المسيحية من رحم اليهودية ، فهي ديانة التواضع والضعف والعبودية . وأخلاقيات المسيحية ألحقت ضرراً بالغاً بالحضارة الغربية الوثنية ، ولكن القيم الأرستقراطية ثارت من جديد في عصر النهضة التي عارض رجالها القيم المسيحية التي سادت في العصور الوسطى . ثم عاد الإصلاح الديني يحاول أن يفرض أخلاق العبيد مرة أخرى ، وهذا ما حاولته الثورة الفرنسية بعد ذلك . ووسط ثورة العبيد الأخيرة هذه ، ظهر المثل الأعلى القديم مرة أخرى : نابليون . وبسقوطه سقط آخر شعاع نور صادر عن قيم السادة .

للحضارات السلافية (وقد غيّر هرتزل اسمه من «بنيامين» إلى «تيودور» حتى يؤلّن اسمه ، وسمّى ماكس نوردو نفسه بهذا الاسم لإعجابه الشديد بالنورديين) . ولا يختلف زعماء يهود اليديشية عن ذلك ، فلغتهم اليديشية هي رطانة ألمانية أساساً . ومن جهة أخرى ، كانت لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى هي الألمانية ، كما توجه الزعماء الصهاينة أول ما توجهوا لقيصر ألمانيا لكي يتبنى المشروع الصهيوني . وقد أكد جولدمان أن هرتزل قد وصل إلى فكرته القومية (العضوية) من خلال معرفته بالفكر والحضارة الألمانيين . وكان كثير من المستوطنين الصهاينة يكونون الإعجاب للنازية ، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولقُبلها ولجأها في إنقاذ ألمانيا . بل عداوا النازية حركة تحرر وطني . وقد سجل حاييم كابلان ، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو (حينما كان تحت حكم النازي) ، أنه لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية ، فكلتاها تهدف إلى الهجرة ، وكلتاها ترى أن اليهود لا مكان لهم في الحضارات الأجنبية .

وقد ظهرت في ألمانيا ، في الثلاثينيات ، جماعة من المفكرين الدينيين اللوثريين الذين أدركوا العناصر الفكرية المشتركة بين النازية الصهيونية وأبعادها العدمية . ومن هؤلاء هاينريش فريك الذي حذر اليهود من فكرة الشعب العضوي التي يدافع عنها النازيون والصهاينة ، كما عرّف كلاً من النازية والصهيونية بأنهما حركتان حولتا النزعة الأرضية (الارتباط بالأرض) والدينية (الارتباط بالدين) ، وهما من الأمور المادية ، إلى كيانات ميتافيزيقية ، أي إلى دين . وأشار إلى أن النازية والصهيونية تبنين الرأي القائل بأن ألمانيا لا يمكنها أن تقبل اليهود أو تظهر التسامح تجاههم .

وفي عام ١٩٢٦ ، حدد فيلي ستارك ما تصوره موقف المسيحية من مسألة الشعب العضوي . فأشار إلى نقط التشابه بين الصهيونية والنازية ، فكلتاها تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية ، الدم والتربة ، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية ، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء . ومن ثم ، توصّل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد أي مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي (فولك) الصهيونية أو النازية . كما توصل إلى أن كلاً من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسس الهيكل الثالث أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث أي الدولة النازية) تحسب لعدم فهم البعد المجازي في العقيدة الألفية الاستراتيجية في المسيحية . وبالتالي ، فإن كلتا الحركتين ضرب من ضروب المشيحية السياسية (الأخرى العلمانية) التي تحوّل الديني

تكون هناك أمة لها من السمات الذاتية ما يجعلها على استعداد أكبر للنمو الأخلاقي بالمعنى النيتشوي ، ولتنظيم حياتها على أساس قانون أخلاقي يعلو على النموذج العادي . هذه الأمة هي ولا شك الترية الحنسية التي بنيت فيها الإنسان الأعلى .

وإذا نظرنا إلى اليهودية من زاوية هذه الفلسفة ، لتبين لنا ، على حد قول أحاد هعام ، أن معظم نقائصها ، أو تلك النقائص التي يشير إليها الآخرون والتي يحاول العلماء اليهود أنفسهم إنكارها ، تشكل نقطة قوة ولا تحتاج لإنكار أو اعتذار . ومن المعروف للجميع أن اليهود واعون بأنهم متفوقون أخلاقياً على الأمم كافة ، وهو وعي يجسد نفسه في فكرة الشعب المختار . والاختيار غير مبني على حكم القوة لأن جماعة إسرائيل هي أصغر الأمم . فقد اختار الإله إسرائيل ، لكي يُعبّر هذا الشعب بشكل متعين في كل جيل عن أعلى نموذج أخلاقي ، ولكي يحمل عبء الواجبات الأخلاقية دون اعتبار للربح والخسارة بالنسبة لبقية البشر ، بل للحفاظ على وجود هذا النموذج الراقي .

ويرى أحاد هعام أن هذه الفكرة تسيطر على الدين اليهودي . ولذلك ، لم يحاول اليهود التبرير بدبيهم لا بسبب الغيرة (كما يدعي الأعداء) ولا التسامح (كما يناادي المعتذرون) ، ولكن لأنهم لا يقولون أن يجعلوا واجبه نحو تجسيد النموذج الراقي هو واجب كل البشر ، ففي هذا خفض لمستواه وتدّن له . وهم في محاولتهم هذه ، لن يفرضوا المسؤولية على الآخرين ولن يشركوهم فيها ، ووصف أحاد هعام للأمة المختارة هو ذاته وصف نيتشه للإنسان الأعلى .

ويشير أحاد هعام إلى محاولة بعض العلماء اليهود إضفاء غلالة من المعاصرة على فكرة الشعب المختار ، كأن يحاولوا أن يوفقوا بينها وبين فكرة مساواة الشعوب ، حيث يرون أن رسالة الشعب المختار هي نشر الخير وطريقة الحياة الخيرة بين كل الشعوب (كما يرى اليهود الإصلاحيون) . ولكن أحاد هعام يرفض هذه الليبرالية ، فهو يصر على أن رسالة الشعب هي بكل بساطة أن يقوم بواجبه دون أي اعتبار للعالم الخارجي ، لأن تأدية الواجب هي غاية في ذاتها وليست وسيلة لإسعاد العالم . وإذا كان اليهود القدامى قد عبّروا عن الأمل في أن اليهودية سيكون لها أثر طيب على الأمم الأخرى ، فهذا مجرد نتيجة وليس هدفاً ، إذ يظل الهدف هو الانتماء لمثل أعلى ونموذج متفوق لا ينتمي إليه الآخرون ولا يشاركون فيه .

ويميّز أحاد هعام بين وحش نيتشه الجميل الأشقر القوي المدافع عن الجسد والعنف (الذي أصبح المثل الأعلى النازي) وبين الإنسان الأعلى اليهودي الذي يدافع عن القيم اليهودية الخلقية ويقف ضد

ولكن هناك جانباً آخر لنيتشه وهو رفضه لمعاداة اليهود ، بل إنه اعتبر معاداة اليهود مجرد شكل آخر من أشكال ثورة العبيد الحديثة ضد السادة . كما كان نيتشه معجباً بالمعهد القديم وما تصوره أسلوبه غير الأخلاقي ووصاياه التي لا تتضمن أي تهاون أو مساومة . وفي كثير من كتاباته ، نجد يكيل المديح لليهود أكثر من الألمان ، فاليهود عنصر قوي يتمتع بالصحة ، وتدل صلابتهم وإبداعهم على مقدرتهم على القيام بعملية إعادة تقييم القيم . ولكن بغض النظر عن موقف نيتشه من اليهود أو اليهودية يظل ما يعيننا في هذا الجزء من دراستنا هو الفكر النيتشوي وأثره في الفكر الديني اليهودي وفي الفكر الصهيوني .

ولفهم هذا الجانب ، قد يكون من المفيد أن نعرض لآراء المفكر الصهيوني الروسي أحاد هعام في هذا الموضوع ، فهو يرى أن نيتشه لم يفهم اليهودية حق الفهم وخلط بينها وبين المسيحية . والعارفون باليهودية ، حسب رأيه ، سيكتشفون في التواتر أنه لا توجد أية حاجة لاستحداث نيتشوية يهودية ، ذلك أن الجزء العام (أي الجزء الذي يتجاوز الخصوصية الألمانية) من الفلسفة النيتشوية موجود في اليهودية نفسها منذ قرون عديدة . فاليهودية ديانة لم تستند إلى فكرة الرحمة وحدها ، ولم تُلزم الإنسان الأعلى اليهودي بالخضوع للجماهير ، كما لو كان الهدف الأساسي من وجوده هو مجرد زيادة سعادة الأغلبية . ويمكن أن نضيف عناصر أخرى لم يذكرها أحاد هعام ، فالعقيدة اليهودية ، مثلاً ، أصبحت نسقاً دينياً حلولياً متطرفاً ، وهو ما يعني تحوّل الشعب اليهودي إلى شعب مقدّس ، مكتف بذاته ، يحوي مركزه داخله ، لا يمكن الحكم عليه بمعايير أخلاقية خارجية عنه . بل إن الشعب اليهودي ، حسب التراث القبّالي ، هو امتداد للخالق في الكون . ووجود الخالق ذاته وتوحده بعد تبعثه (كما جاء في التراث الأسطوري القبّالي) يتوقف على قيام اليهود بممارسة الأوامر والنواهي . ويبيّن أحاد هعام أن المقولة الأساسية النيتشوية ، الخاصة بتفوق النموذج الإنساني الأعلى على بقية البشر ، هي نفسها مقولة يهودية . ولكن أحاد هعام يُحل فكرة الأخلاق محل القوة ، ويشير إلى أن نيتشه يشكو من أنه (حتى الآن) لا توجد محاولة واعية لتعليم الناس بطريقة تؤدي لظهور الإنسان الأعلى ، وهو ما يعرقل ظهوره . فالإنسان حيوان اجتماعي ، ولذا فإن روح الإنسان الأعلى نفسها لا يمكنها أن تتحرر من الجو الأخلاقي الذي تعيش فيه . ويخلص أحاد هعام من هذا التحليل إلى أنه إذا كان الهدف من الحياة هو الإنسان الأعلى ، فيجب أن نقبل بارتباط ظهوره بظهور الأمة الممتازة أو الأمة العليا ، أي ينبغي أن

العنف ، وهذا هو الفارق بين النيتشوية الآرية والنيتشوية اليهودية . ولنلاحظ أن أحاد هعام لا يعترض على بنية النيتشوية التي تستند إلى التفاوت بين الناس وإنما على مضمونها وحسب . وحديثه عن الأخلاق اليهودية لا يُغيّر من البنية في شيء ، فالنيتشوية اليهودية مبنية على فكرة تفوق اليهود وتعاليمهم على البشر ، وهو الأمر الذي يميزهم بحقوق مطلقة ، من بينها ، على سبيل المثال ، حقهم في أن يعودوا إلى الأرض المقدسة متى شاءوا ذلك ، وأن يؤسسوا فيها مركزاً روحياً إن أرادوا ، وأن يستوطنوها ويعمروها أو يخرّبوها حسبما تلمي مشيئتهم ، باعتبارهم السوبر أمة أو الأمة الأعلى (وهذا هو جوهر كل المنظومات المعرفية والخلقية العلمانية الشاملة ، بل إن أصحاب المنظومة يجسدون المطلق ويصبّحون هم المرجعية الذاتية وتصبح إرادتهم هي الحق المطلق) . فإذا جاء الفيلسوف النيتشوي الصهيوني بعد هذا وأضاف زخارف أخلاقية وأصر على أن تكون الدولة الصهيونية تجسيدا للقيم الأخلاقية النبيلة ، فإن الزخارف الأخلاقية تظل مجرد زخارف لا علاقة لها بمنطق النسق العام ، بينما يظل العنف هو الجوهر والمحك وقانون البنية . وقد أثبتت التجربة التاريخية (من دير ياسين إلى صابرا وشاتيلا وقانا) أن الأبعاد الأخلاقية إن هي إلا زخارف وأقوال وديباجات ، وأن وضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ يفترض قتل العرب وسفك دمائهم . ولم يكن أحاد هعام فريداً في دفاعه عن النيتشوية . فقد تأثر كثير من المفكرين من أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً الصهاينة منهم) بالفكر النيتشوي . ومن بين هؤلاء مؤسسو الحركة الصهيونية : تيودور هرتزل والفريد نوسيج وماكس نورود ، وكلهم ذوو ثقافة ألمانية ، كما تأثر بها مفكرون صهاينة آخرون ، مثل : ميخا بيردشفكي وحاييم برنر وشاؤول تشرنوفسكي . ولا يمكن فهم كتابات أهم الفلاسفة الدينيين اليهود المحدثين (مارتن بوبر) إلا من خلال نيتشه (وكذا كتابات ليو شستوف) . وتسري القاعدة نفسها على مفكري مدرسة لاهوت موت الإله . وأثر نيتشه على جاك دريدا وإدمون جاييس واضح تماماً . كما أن البُعد النيتشوي في الفكر الصهيوني بُدع أساسي . ولا غرو في هذا فالجميع هم أبناء عصرهم العلماني الإمبريالي الأداتي الشامل . ولكل هذا ، فليس من قبيل الصدفة أن يكون التشابه بين الصهيونية والنيتشوية مدعشاً حقاً ، ويمكننا أن نوجز ذلك في النقاط التالية :

١ - النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة ملحدة أو حلولية بدون إله ، أو هي وحدة وجود مادية ترد الكون بأسره إلى مبدأ زمني واحد هو إرادة القوة والإنسان الأعلى عند نيتشه ، وهو إرادة القوة

اليهودية وبقاء الشعب اليهودي عند الصهاينة . فبقاء الشعب لا يتحقق إلا من خلال إرادة الشعب ومن خلال قوته الذاتية .

٢ - النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، تعبّر عن توقّن الذات حينما يحل المطلق في الإنسان ويصبح كامناً فيه ، فيعيد الإنسان ذاته أو يعيد أسلافه ، أي الذات القومية المقدسة ، باعتبارها تجسيدا لذاته .

٣ - النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، نسق عضوي دائري يقرن بين البدايات والنهايات ، وتسود فيه صورة مجازية عضوية .

٤ - النيتشوية ، مثلها مثل الصهيونية ، ديانة داروينية تسبغ نوعاً من الروحانية والقداسة على قانون التطور ، وتجعل من القوة الأساس الوحيد لأي نسق أخلاقي . وهو ما يُطلق عليه في المصطلح السياسي الإسرائيلي والغربي «فرض سياسة الأمر الواقع» و«خلق حقائق جديدة» ، وهو ما نسميه «النفعية الداروينية» .

٥ - الحياة بالنسبة للنيتشوية توسع وغو واستيلاء على الآخر وهزيمة له ، ومعاداة للتفكير واحتقار له ، وتمجيد للفعل المباشر ولأخلاق السادة الأقوياء . وهذا هو جوهر الصهيونية التي لا يمكنها أن تعيش إلا على التوسع وعلى إلغاء الآخر . والآخر هو أولاً الفلسطينيين الذين يجب أن يختفوا من على وجه الأرض ، ثم يهود الدياسورا الذين يعملون بالأعمال الفكرية ويؤمنون بأخلاق العبيد .

٦ - وإذا كان نيتشه قد دعا الإنسان إلى أن يعود حالة الحيوية والطبيعة المقدسة ويكون كاخيوان انقترس الأشقر وينبذ انعقائد الدينية وأخلاق الضعفاء (بني منزله بجوار نيركان ويعيش في خطر وفي حالة حرب دائمة) . فقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها الأيديولوجية التي ستحوّل يهود المنفى المشرّهين الذين يؤمنون بأخلاق الضعفاء إلى وحوش يهود يؤمنون بأخلاق القوة ، مفتولي عضلات يحسمون كل «نقضايا بالقوة» ويفرضون رؤيتهم ، ولذا فالمستوطنون الصهاينة يعيشون حرقاً بجوار النيركان في حالة حرب دائمة .

٧ - وتفكير نيتشه تفكير نخبوي إذ يرى أن حركة التطور الحقيقية لا بد أن تؤدي إلى ظهور أمة مخترعة من هذا النوع من الرجال ، وما الإنسان العادي سوى أخلقة أو الجسر الموصل إلى هذه المرحلة العليا ، التي توجد بطبيعة الحال مرحلة أعلى منها إلى أن نصل إلى الحد الأقصى المطلق غير المعروف . وسيطر على الصهيونية أيضاً تفكير نخبوي يُحوّل حياة جماهير اليهود في أرجاء العالم خارج فلسطين إلى مجرد جسر يؤدي إلى ظهور الدولة الصهيونية . كما أن الفكر الصهيوني ، بتحويله الأمة إلى مطلق مكتف بذاته ، كان يتضمن معرّفاً عملية نقل العرب وإبادتهم .

مجردة غريبة ، لا يمكنه أن يُنظم حياته من خلالها . ومع هذا فهم يدعون إلى تصفية الجماعات اليهودية في الخارج وإنهاء التاريخ اليهودي في المنفى ، فهو تاريخ الضعفاء والمهزومين ، من وجهة نظرهم .

وتُفصّل كل هذه العناصر النيتشوية عن نفسها تماماً في كتابات هارولد فيش أحد منظري جماعة جوش إيمونيم ، التي تؤمن بضرب من الصهيونية نسميها «الصهيونية الحلولية» أو «الصهيونية العضوية» لأنها نيتشوية كاملة ، حيث يتحد الإله بالإنسان اليهودي بالأرض اليهودية ليكونوا نظاماً مقدساً دائرياً مغلقاً عضوياً يهلك من يقع خارج دائرة القداسة ، مثل العرب ، ويتمتع بسائر الحقوق من يقع داخلها فيتمتع بسائر الحقوق . ولكن القداسة هي ، في واقع الأمر ، القوة . ولهذا ، يشير أحد مفكري جوش إيمونيم إلى الجيش الإسرائيلي باعتباره القداسة الكاملة . وهذا الخطاب لا يختلف كثيراً عن خطاب الرايخ الثالث .

النازية والصهيونية : العلاقة الفعلية

Nazism and Zionism : Actual Relations

تتعدى العلاقة بين النازية والصهيونية مجرد التماثل البيوري والتأثير والتأثر الفكريين ، إذ أن ثمة علاقة فعلية على مستويات عدة . ولنبداً بأدناها ، وهي كيفية استغلال النازيين للدعاية الصهيونية في الترويج لرؤيتهم . فقد نشر الصهاينة في ألمانيا ذاتها المزاعم الصهيونية الخاصة بالتمييز اليهودي العرقي والانفصال القومي العضوي عن كل أوروبا ، وذلك حتى قبل ظهور النازيين كقوة سياسية . ففي عام ١٩١٢ ، قدّم عضوان في المنظمة الصهيونية مشروعاً بإيعاز من كورت بلومفلد جاء فيه أنه ، نظراً للأهمية القصوى للعمل ذي التوجه الفلسطيني (أي الصهيوني) ، يعلن أن من الواجب على كل صهيوني ، خصوصاً من يتمتع باستقلال اقتصادي ، أن يجعل الهجرة جزءاً عضوياً من برنامج حياته . وقد سُمّي هذا القرار «قرار بوزن» ، وأصبح منذ ذلك الحين الإطار العقائدي للصهيونية الألمانية التي تخلت بفضلها عن أية أبعاد غير قومية ذات طابع خيري أو وطني ، وأصبحت أيديولوجيا قومية عضوية ذات طابع استيطاني . وكان بلومفلد خبيراً بالمناورات السياسية ، ولذلك نجح في تمرير قراره من خلال ما سماه بعض معارضيه «الأغلبية الطارئة» ، أي عن طريق تقديم مشروع القرار أثناء وجود المؤيدين وغياب المعارضين والحصول على موافقة الحاضرين . وقد اتهمه المعارضون بالزيادة ، وفسّروا تطرفه على أساس أنه يقبض

٨ - ودخل هذه المنظومة ينقسم العالم وبحدة إلى السوبرمن ، انسادة الأقوياء من أعضاء الشعب العضوي ، والسبمن ، العبيد الضعفاء الذين يتبعون للفريق الآخر . والسادة الأقوياء لهم حقوق مطلقة فهم يجسدون المبدأ الواحد ، أما الضعفاء فإن مآلهم إلى الاختفاء (عن طريق الإبادة بالمعنى العام والخاص) . وعند نيتشه ، نجد أن هناك الوحوش الشقاء وهناك بقية الشعوب . وفي المنظومة الصهيونية ، هناك من ناحية اليهود أصحاب الحقوق المطلقة ، ومن ناحية أخرى الأغيار (خصوصاً الفلسطينيين) الذين لا حقوق لهم ، وهذه الحقوق اليهودية المقدسة المطلقة تجبّ حقوق الآخرين .

٩ - الفكر النيتشوي ، مثله مثل الفكر الصهيوني ، فكر تختفي فيه حدود الأشياء ومعالمها ، وهو ينفي التاريخ وحدوده فتظهر حالة من السيولة والنسبية التي لا تحسمها سوى إرادة القوة . ومن هنا حديث بن جوريون عن الجيش الإسرائيلي باعتباره خير مفسر للتوراة ، وهو موقف لا يختلف كثيراً عن موقف نيتشه من تفسير النصوص . والنص هنا هو فلسطين التي تحمل معنى عربياً ، إذ تقطنها أغلبية عربية وتوجد داخل التاريخ العربي . حيث يقرر الصهاينة أن يفصلوا الدال عن المدلول ويعلموا أن فلسطين ليست وطناً بل أرضاً والبشر الذين يقطنون فيها ليسوا شعباً ، وأن الشعب المرتبط بها هم اليهود وحدهم ، والجيش الإسرائيلي هو خير مفسر لهذا النص ، فهو الذي سيفرض عليه المعنى الصهيوني ! (تماماً كما يفعل نقاد ما بعد الحداثة) .

١٠ - يتحدث نيتشه في كتاباته (دائماً) عن الماضي والمستقبل ، ولا يركز عيونه على الحاضر أبداً . ولكن الماضي (دون الحاضر الحي) يتحوّل إلى أسطورة وأيقونة ، والمستقبل بدوره يتحول إلى عصر ذهبي وفردوس أرضي خال من التاريخ . والصهاينة بدورهم لا يتحدثون عادة إلا عن الماضي العبري (قبل أن تظهر اليهودية وتفسد الشخصية اليهودية بأخلاق الضعفاء) والمستقبل الصهيوني (حين يعود اليهود إلى صهيون ليؤسسوا الدولة الجيتو المعقمة من التاريخ) .

١١ - ونيتشه ، بتفكيره المجرد ، لا يتحدث عن السعادة الفردية أو عن السعادة عامة . فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد ، أما الإنسان الأعلى فيعمل على الخير والشر ويتجاهل اللذة والألم . وتجاهل السعادة ، كقيمة إنسانية ، هو أيضاً إحدى سمات الفكر الصهيوني ، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم الشيحانية عن الدولة اليهودية والشعب المختار ، وبالتالي فهم ينسون الفرد اليهودي المتعين الذي يعيش في وطنه . فالصهيونية لا تُشكّل بالنسبة له سوى أيديولوجية

وبالعرق اليهودي . وحينما قام النازيون في ٣١ يناير ١٩٣٣ بحرق الكتب التي كانوا يرونها هدامة ، كتبت يوديش ووندشاو (المجلة الناطقة باسم الاتحاد الصهيوني) تقول إن كثيراً من المؤلفين اليهود خونة تنكروا لجذورهم لأنهم شتوا جهودهم بإسهامهم في الثقافة الألمانية غير اليهودية . وفي نبرة ترحيب واضحة . صرح إميل لودفيج (الكاتب اليهودي الألماني) بأن ظهور النازيين دفع بالآلاف من اليهود إلى حظيرة اليهودية مرة أخرى بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنها . وقال : "ولنا ، فأننا شخصياً ممتن لهم" . وترد نفس الفكرة النازية الصهيونية على لسان الشاعر الصهيوني حاييم بيناليك إذ يرى أن الهتلرية أنقذت يهود ألمانيا ، ويضيف : "أنا أيضاً مثل هتلر أؤمن بفكرة الدم" . وبكثير من القلق ، لاحظ أعضاء الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية (وهي جماعة اندماجية تعتبر يهود ألمانيا مواطنين ألمانين) أنشطة الصهاينة وتصريحاتها واعتبروها طعنة من الخلف في الحرب ضد الفاشية .

ولكن كل هذه المقالات والتصريحات لم تكن سوى افتتاحيات تمهيدية للإعلان الصهيوني الألماني الرسمي الذي أصدرته المنظمة الصهيونية في ألمانيا ، في ٢١ يونيو ١٩٣٣ ، بعد وصول النازيين إلى السلطة (إعلان الاتحاد الصهيوني بشأن وضع اليهود في دولة ألمانيا الجديدة) ، Ausserung der Zionistischen Vereinigung für ،

Deutschland zur Stellung der Juden im Neuen Deutschen Staat . والذي حدد طبيعة علاقة الصهاينة بالنظام النازي بشكل واضح لا إيهام فيه . وقد اتخذ الإعلان شكل مذكرة أرسلت مباشرة إلى الحزب النازي وهتلر وتم من خلالها تحديد المقولات المشتركة بين النازيين والصهاينة . فقد بدأت المذكرة/ الإعلان بتأكيد إمكانية التوصل إلى حل يتفق مع المبادئ الأساسية للدولة الألمانية الجديدة ، دولة البعث القومي ، ثم طرحت أمام اليهود طريقة جديدة لتنظيم وجودهم . وانتقلت المذكرة بعد ذلك لعرض إطارها السوسولوجي ، فقامت بانتقاد الشخصية اليهودية التي تتسم بالكليل ، وبيّنت أن صعوبة وضع اليهود تنبع من شذوذ النمط الوظيفي الذي يتبعونه ، ومن الخلل الكامن في كونهم جماعة تتخذ مواقف فكرية أخلاقية غير متجذرة في تقاليدهم الحضارية الخاصة (أي أنهم قومية عضوية توجد خارج أرضها) . وبعد أن تبنت المذكرة هذا النقد النازي لليهود انتقلت لإيضاح نقط الالتقاء الفلسفية والنظرية بين الصهيونية والنازية ، فأكدت أن الصهيونية مثل النازية تخرج الدين بالقومية ، فالأصل والدين ووحدة المصير والوعي الجمعي يجب أن تكون كلها ذات دلالة حاسمة في صياغة حياة

رأته من المنظمة الصهيونية وليس من الحكومة الألمانية أو أية هيئة أو مؤسسة ألمانية ، وأن هذا يسمح له بأن يتخذ مثل هذه المواقف وأن يمرر مثل هذه القرارات التي لا تعكس وضع يهود (أو حتى صهاينة) ألمانيا أو تطلعاتهم .

وقد قام الصهاينة الألمان بعد ذلك بتطوير الأيديولوجيا الصهيونية والوصول بأطروحاتها إلى نتائجها المنطقية ، أي تصفية الجماعات اليهودية في المنفى (أي العالم) تماماً وإنشاء الدولة الصهيونية . وابتداءً من العشرينيات ، بدأ الزعماء الصهاينة في ألمانيا يطلقون التصريحات الصهيونية التي تؤكد الهوية اليهودية العضوية الخالصة وتنكر على اليهود انتماءهم إلى الأمة الألمانية . ففي عام ١٩٢٠ (قبل ظهور كتاب هتلر كفاسحي بثلاثة عشر عاماً) ، ألقى جولدمان خطاباً في جامعة هايدلبرج بين فيه أن اليهود شاركوا بشكل ملحوظ للغاية في الحركات التخريبية ، وفي إسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨ ، وأصر على أن يهود ألمانيا والشعب الألماني ليست بينهما عناصر مشتركة ، وعلى أن الألمان يحق لهم أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شئون الفولك الألماني . أما وايزمان ، فقد شبه علاقة الألمان باليهود بصورة مجازية استقاها من عملية الهضم ، فقال : إن أي بلد يود تخاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عدداً محدوداً فقط من اليهود . وكان يرى أن عدد اليهود في ألمانيا أكبر من اللازم ، أو بعبارة أخرى يوجد فائض بشري يهودي . وفي الفترة نفسها ، وصف كلا تزكين اليهود بأنهم جسم مغروس وسط الأم التي يعيشون بين ظهرانيها ، ولذا فإن من حقهم أن يحاربوا ضد اليهود من أجل تماسكهم القومي . وهذه كلها موضوعات قديمة مطروحة في كتابات هرتزل ونوردو ، الأبوين الروحيين للصهيونية على وجه العموم والصهيونية الألمانية على وجه الخصوص ، ولكنها اكتسبت أهمية خاصة من سياقها الزماني والمكاني في ضوء ما حدث بعد ذلك . وهي لا تختلف في جوهرها عن قول إرنست يونجر (الفكر القومي العضوي الذي ألهم النازيين) أن اليهود يتوهمون أن بوسعهم أن يصبحوا ألمانين في ألمانيا ، ولكن هذا أمر غير قابل للتحقق . فاليهود يواجهون خياراً نهائياً : إما أن يكونوا يهوداً في ألمانيا ، أو لا يكونوا .

وفي ضوء هذا التوجه الصهيوني ، لم يكن من الغريب أن يرى هتلر حين وصل إلى الحكم أن كثيراً من الصهاينة على استعداد لتفهم وجهة نظره . فقد صرح الحاخام الصهيوني يواكيم برنز في يناير ١٩٣٣ أنه لا مكان يمكن لليهود أن يختبئوا فيه . وقال : بدلاً من الاندماج ، نرى نحن الصهاينة أنه يجب الاعتراف بالأمة اليهودية

للتعاون مع أصدقاء اليهود وأعدائهم ، حيث إن المسألة اليهودية ليست مسألة عاطفية ، وإنما هي مسألة حقيقية تهتم بها كل الشعوب . وهذا الموقف امتداد لموقف هرتزل حين ميز بين التعصب الديني القديم (وهو مجرد تعصب عاطفي غير منهجي) والمعاداة الحديثة لليهود والتي وصفها بأنها حركة بين الشعوب المتحضرة الغربية تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها . ويتضمن التمييز هنا شكلاً من أشكال القبول بالمعاداة المنهجية الرشيدة لليهود أو التي تم ترشيدها . وقد بنى هتلر موقفاً مماثلاً حين ميز هو الآخر بين المعاداة العاطفية لليهود والمعاداة المنهجية لهم ، إذ تنتهي الأولى بالمجازر ، أما الثانية فتنتهي بالحل الصهيوني ، أي تهجير جميع اليهود من ألمانيا إلى « وطنهم » فلسطين . وقد حذّر هتلر مشروعه بالنسبة إلى اليهود على أسس صهيونية ومنهجية رشيدة (وهي القومية العضوية) . كما قرر روزنبرج ضرورة مساندة الصهيونية بكل نشاط « حتى يتسنى لنا أن نرسل سنوياً عدداً محدداً من اليهود إلى فلسطين ، أو على الأقل عبر الحدود » . وحينما استولى النازيون على السلطة ، سمحوا للصهاينة بالقيام بنشاطاتهم الحزبية ، سواء اتخذت شكل اجتماعات أو إصدار منشورات أو جمع تبرعات أو تشجيع الهجرة أو التدريب على الزراعة والحرف ، أي أنهم سمحوا لهم بنشاط صهيوني خارجي كامل . كما كانت المجالات الصهيونية هي المجالات الوحيدة غير النازية المسموح لها بالصدور في ألمانيا . وقد وتمتعت هذه المجالات بحريات غير عادية ، فكان من حقها أن تدافع عن الصهيونية كفلسفة سياسية مستقلة . وحتى عام ١٩٣٧ ، لم يتأثر عدد صفحات يوديش روندشاو بالقرارات الاقتصادية التقشفية التي تقرر بمقتضاها إنقاص عدد صفحات كل المجالات (وضمنها المجالات الآرية) . كما نشرت دور النشر الألمانية أعمال حايم وايزمان وبن جوربون وآرثر روبين . ويقول إدوين بلاك مؤرخ اتفاقية الهعفره (أي النقل) ، إن " الصهيونية هي الفلسفة السياسية المستقلة الوحيدة التي وافق عليها النازيون " .

وقد بينا من قبل عدم اكتراث الصهاينة بالمقاومة اليهودية وغير اليهودية للنازيين . ولكن يبدو أن المسألة كانت تتخطى مجرد عدم الاكتراث بمصير اليهود وعدم الاشتراك في المقاومة ، إذ يبدو أن الصهاينة اكتشفوا ، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود ، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود .

وقد حدد بن جوربون القضية بشكل قاطع (في ٧ ديسمبر ١٩٣٧) حين أكد أن المسألة اليهودية لم تُعد مشكلة آلاف اليهود

اليهود . وتؤكد المذكرة أن المنظمة تقبل مبدأ العرق ، أحد ثوابت الرؤية النازية ، كأساس لتصنيف الأفراد والجماعات المختلفة وإنشاء علاقة واضحة مع الشعب الألماني وحقوقه القومية والعرقية . كما تقوم المذكرة بتعريف اليهود تعريفاً عرقياً ، مبينة أن هدف الصهيونية هو التصدي للزيجات المختلطة والحفاظ على نقاء الجماعة اليهودية .

هذا هو الإطار الفلسفي الذي اقترحته المنظمة الصهيونية لتحديد العلاقة بين الصهاينة والنظام النازي ، مؤكدة إمكان تحويله إلى ممارسة وإجراءات . وقد طرحت المنظمة الصهيونية نفسها باعتبارها الحركة الوحيدة القادرة على أن تأتي بحل للمسألة اليهودية يحوز رضا الدولة النازية الجديدة ويتفق مع خططها ، حل يهدف إلى بعث اليهود من الناحية الاجتماعية والثقافية والأخلاقية في إطار فكرة الشعب العضوي ويتبع النموذج النازي . وكما تقول المذكرة الإعلامية : " على تربة الدولة الجديدة ، ألمانيا النازية ، نريد أن نعيد صياغة بنية جماعتنا بأكملها بطريقة تفيد ألمانيا واليهود في المجال المخصص لهم ، فهدف الصهيونية هو تنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين " . وسيؤدي الإطار النظري الفلسفي المطروح إلى ظهور حقائق اجتماعية جديدة تأخذ شكل نموذج جديد : اليهودي المتحذر في تقاليد الروحية ، الواعي بنفسه الذي لا يحس بالحرج تجاه هويته ، وهو نموذج مختلف تماماً عن ذلك اليهودي الذي لا جذور له والذي يهاجم الأسس القومية للجوهر الألماني ، وهو مختلف أيضاً عن اليهود المتدمجين الذين يحسون بالضيق لانتمائهم للجماعة اليهودية وللعرق اليهودي وللماضي اليهودي (ولابد هنا من ملاحظة أن النموذج اليهودي الجديد لا يختلف في أساسياته عن النموذج النازي) . ثم تمضي المذكرة قائله إن الصهيونية تأمل أن تحظى بالتعاون مع حكومة معادية لليهود بشكل أساسي ، إذ لا مجال للعواطف عند تناول المسألة اليهودية ، فهي مسألة تهتم كل الشعوب (وخصوصاً الشعب الألماني) في الوقت الراهن . وفي نهاية المذكرة/الإعلان ، شجبت الصهاينة جهود القوى المعادية للنازية وهتلر ، والتي كانت قد طالبت في ربيع عام ١٩٣٣ بمقاطعة ألمانيا النازية اقتصادياً . وما يجدر ذكره أن هذه الوثيقة لم تُكتشف إلا عام ١٩٦٢ ولم تُعط الذبوع الذي تستحقه ، رغم أنها تلقي الكثير من الضوء على علاقة النازيين بالصهاينة . وربما لو عرف مؤرخو الإبادة النازية في الشرق والغرب بها لظفروا إلى الإبادة النازية لليهود نظرة مختلفة بعض الشيء .

ونشرت يوديش روندشاو مقالاً تعلن فيه عن استعداد الصهاينة

لأنه حبس هويته اليهودية ، شاء أم أبى . ولعل هذا يُفسّر السبب في أن النازيين اعتبروا أن عدوهم الحقيقي هو اليهود الأرثوذكس والجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية . ولعله يفسر أيضاً لم كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تسم بشيء من الود والتفاهم . فبينما كان الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين ، وباندماجهم في مجتمعاتهم ، كان الصهاينة يعارضون الاندماج ويعارضون منح اليهود أي حق ، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي .

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان ونشر مجلاته ، بينما مُنح الاندماحيون والأرثوذكس من إلقاء الخطب ، أو الإذلاء بتصريحات ، أو جمع التبرعات أو موازنة أي نشاط آخر . وقد قام كورت جروسمان ، في كتاب هرتزل السنوي (الجزء الرابع) ، بدراسة الموضوع ، ونشره تحت عنوان "الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات" . وأخفق الكاتب بالتحليل لثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات لنشره خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية . وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٤٢٠/٣٤١١) صادر عن الشرطة السياسية في يناير بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٣٥ ، وهو خاص بمنظمات الشباب اليهودي . وجاء فيه أن إعادة بعث المنظمات الصهيونية التي تدرب يهود تديراً مهنيّاً على الزراعة والحرف ، قبل تهجيرهم إلى فلسطين ، هو أمر في صالح الدولة النازية . بينما جاء في توجيه آخر (رقم ١٧١٨٦/١١٣٥) بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥ أنه "يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا" . وقد مُنح مواضع صهيوني (جورج لويسنكر) عن طريق الخطأ من إلقاء الخطب ، ثم صدر توجيه آخر (رقم ١١٣٥١/١٩١٠٦ ب) ليصحح هذا الوضع ، وصدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه "لأنه مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية وتعمد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أية عوائق" .

كما اهتم النازيون كثيراً بنشاط التصحيحين . ولهذا ، صدر تصريح (رقم ١٧٩٢٩/١١٣٥ ب) لمنظمي الشباب القومي الهيرتزل وعصبة الأشداء (بريت هاربورنيم) بأن يرتدوا أزياءهم الرسمية أثناء اجتماعاتهم . وقد مُنح التصريح ، كما جاء في التوجيه ، بشكل استثنائي لأن صهاينة الدولة (أي التصحيحين) برهنوا على أنهم هم الذين يمثلون المنظمة التي تحاول ، بكل السبل ، حتى غير الشرعية منها ، أن ترسل أعضائها إلى فلسطين . وكان

المهددين بالإبادة وإنما هي مشكلة الوطن القومي أو المستوطن الصهيوني . وقد أدرك بن جوريون خطورة فصل مشكلة اللاجئين اليهود عن المشروع الصهيوني والتفكير في توطين اللاجئين في أي مكان إن لم تستوعبهم فلسطين . وأكد بن جوريون أنه إن استولت الرحمة على شعبنا ووجه طاقاته إلى إنقاذ اليهود في مختلف البلاد فإن ذلك سيؤدي إلى "شطب الصهيونية من التاريخ" . وفي العام التالي صرح بن جوريون أمام زعماء الصهيونية العمالية : "لو عرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بتوصيلهم إلى إنجلترا ، في مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين - فلنني أختار الحل الثاني ، إذ يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا ، لا حياة هؤلاء الأطفال وحسب ، بل كذلك تاريخ شعب إسرائيل" . وإذا كان بن جوريون على استعداد بالتضحية بنصف الأطفال اليهود من أجل الوطن القومي الصهيوني فإن إسحق جرونيباوم (رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية) قد تجاوز الحدود تماماً ، ففي حديث له أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٨ فبراير ١٩٤٣ ، صرح قائلاً إنه لو سُئل إن كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد لإنقاذ اليهود فإن إجابته ستكون "كلاً ثم كلاً" بشكل قاطع . وأضاف : "يجب أن نقاوم هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية . . . إن بقرة واحدة في فلسطين أثنى من كل اليهود في بولندا" . وكان وايزمان قد عبّر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال : "إن العجائز سيموتون ، فهم تراب وسيحملون مصيرهم ، وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك" . وانطلاقاً من هذه الرؤية المتمركزة حول المشروع الصهيوني وليس الإنسان اليهودي ، لعبت الحركة الصهيونية دوراً حاسماً في تدمير جميع المحاولات الرامية إلى توطين اليهود في أماكن مختلفة من العالم ، مثل جمهورية الدومينيكان ، حتى يضمن الصهاينة تدفق المادة البشرية اليهودية على فلسطين . ولهذا ، التزمت جولدا مائير ، مندوبة الحركة الصهيونية في فلسطين ، الصمت الكامل حيال مداوات مؤتمر إفيان باعتبارها أمراً لا يخصها (وقد فُسرت موقفها هذا ، فيما بعد ، بأنها لم تكن تدري شيئاً عن عمليات الإبادة النازية) .

وقد اكتشف النازيون أيضاً عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود واتفاق الموقف النازي مع الموقف الصهيوني . فاليهودي الصهيوني الذي يخدم هويته العضوية هو شخص يستحق الاحترام (لأنه يدرك الواقع من خلال إطار عضوي وثني يشبه الإطار النازي)، على عكس اليهودي المتألم المندمج الذي يتمسح في الهويات العضوية للآخرين ولا ينجح بطبيعة الحال في اكتسابها ،

هو أحد مكونات الصيغة الصهيونية الأساسية . والمهغراه هو اسم معاهدة وقعتها المستوطنون الصهاينة مع النازيين . وقد كان الصهاينة الاستيطانيون في الثلاثينيات يبحثون عن وسائل لدعم المستوطن وحماية مصالحهم بأية طريقة ، ومن ذلك التعاون مع النظام النازي ، بينما كان صهاينة الخارج التوطينيون وقادة الجماعات اليهودية مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا ، وضمنها تنظيم مقاطع اقتصادية ضد هذا النظام . ومن أهم الشخصيات القيادية في عملية المقاطعة صمويل أترماير المحامي الأمريكي اليهودي (الصهيوني) الذي نجح في تكوين حركة جماهيرية تضم اليهود وغير اليهود ببقاء الرابطة الأمريكية للدفاع عن حقوق اليهود ، وأسس منظمة دولية أطلق عليها «الاتحاد اليهودي الاقتصادي العالمي» في أمستردام للتنسيق بين جميع المنظمات الداعية إلى المقاطعة . وشكلت المقاطعة ، وخصوصاً في الشهور الأولى ، تهديداً خطيراً للنظام النازي . ويذهب إدوين بلاك (مؤلف كتاب المهغراه ، وهو أهم كتاب صدر في الموضوع في جميع اللغات) إلى أنه لو اتحدت المنظمات اليهودية والصهيونية خلف حركة المقاطعة ، فلربما كانت قد نجحت في تعبئة الجماهير غير اليهودية ، وانضمت بعض الحكومات إليها ، ولما نجح النازيون ، وخصوصاً في الأشهر الأولى من تسلهم السلطة ، في الإمساك بزمام الأمور "فاستجابة مباشرة وموحدة كان من الممكن أن تقصم ظهر ألمانيا قبل شتاء عام ١٩٣٣" . ولكن المستوطنين الصهاينة كانوا قد قرروا تبني خطة تخدم مصالحهم ، فسافر الزعيم العمالي الصهيوني ورئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية حاييم أرلوسوروف (١٨٩٩ - ١٩٣٣) إلى ألمانيا لمناقشة إمكانية التعاون والتبادل الاقتصادي معها . وكانت المسألة بالنسبة إلى المستوطنين ملحة للغاية ، فقد فشل المستوطن الصهيوني في اجتذاب المهاجرين ولم يصل إليه رأس المال اليهودي المتوقع (وقد تم اغتيال أرلوسوروف بعد عودته من ألمانيا بعدة أيام) . وكان هنريش وولف قنصل ألمانيا العام في القدس قد مهد الجوله وللمبعوثين الصهاينة من بعده عندما كتب مؤيداً وموضحاً المزاي التي سيجنيها النظام النازي من التعاون معهم . وفي النهاية ، تم توقيع الاتفاق عام ١٩٣٣ الذي كان يقضي بأن تسمح السلطات الألمانية لليهود الذين يقررون الهجرة من ألمانيا إلى فلسطين بـ «نقل» جزء من أموالهم إلى هناك رغم القيود التي فرضتها ألمانيا على تداول العملة الصعبة . وكان ذلك يتم بتمكين أولئك اليهود من إيداع المبلغ المسموح بتحويله (ألف جنيه إسترليني) في حساب مغلق يفتح في بنك واسرمان في برلين وبنك ووربورج في هامبورج ثم يُسمح باستعمال هذا المبلغ

من شأن التصريح بارتداء الزي أن يحفز أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية على الانضمام إلى منظمة الشباب الخاصة بصهاينة الدولة ، حيث كان يجري حثهم بشكل أكثر كفاءة على الهجرة إلى فلسطين . وقد صدر تصريح (رقم ١٩٠٥٢/١٣٥ ب) للمنظمات الصهيونية بتاريخ ٩ يولييه ١٩٣٥ يجمع التبرعات من أجل تشجيع الهجرة والاستقرار في فلسطين ولشراء الأراضي هناك . ومُنح التصريح "لأن هذه التبرعات تساهم في الحل العملي للمسألة اليهودية" . كما شجّع النازيون المدارس العبرية والمؤسسات الثقافية ذات التوجه اليهودي التي تساعد على إظهار الهوية اليهودية والرجوع عن الاندماج ، بل منعوا اليهود من رفع الأعلام الألمانية وسُمح لهم برفع «العلم اليهودي» (أي علم المنظمة الصهيونية) . والملاحظ أن أشكال التعاون بين النازيين والصهاينة ، والتي تناولناها حتى الآن ، تمت بشكل غير مقصود (تصريحات صهيونية يستفيد منها النازيون) ، أو هي التقاء عفوي في منتصف الطريق (نشاط صهيوني يشجعه النازيون) . ولكن ثمة أشكالاً أخرى من التعاون الراعي . فهناك دلائل تشير إلى أن الجستابو وفرق الإس. إس. S.S. (الصاعقة) ساعدت في تهريب المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين ، أي أن النازية لم تدعم الصهيونية التوطينية وحسب ، بل امتد دعماً إلى الصهيونية الاستيطانية أيضاً . ولكن أهم أشكال التعاون مع الصهاينة الاستيطانيين تم من خلال اتفاقية المهغراه المبرمة بين النظام النازي وصهاينة المستوطن (دون علم الصهاينة التوطينيين أو يهود العالم) . ولا تكمن أهمية الاتفاقية في تبيان مدى عمق العلاقة بين الصهاينة والنازيين وحسب ، بل إنها تبين أيضاً مدى عمق التناقض بين الصهاينة المستوطنين والصهاينة التوطينيين ، وهو تناقض سيطر على الحركة الصهيونية منذ ولادتها ولم تغلخ الأيام إلا في زيادته حدة . ويمكن القول بأن إبرام اتفاقية المهغراه كان أول مواجهة حقيقية بين الفريقين ، وقد كسب المستوطنون هذه الجولة الأولى . وتوجد حالات محددة تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في عمليات نقل اليهود وإبادتهم (كاستر ونوسيج) . كما توجد منظمة صهيونية ذات طابع نازي واضح ، وهي عصابة الأشداء التي سبقت الإشارة لها . وبالمثل ، حاولت منظمة شتيرن تقنين عملية التعاون . ومستأول أشكال التعاون هذه في بقية هذا الفصل .

معاهدة المهغراه (الترانسفير)

Haavrah (Transfer) Treaty

«مهغراه» كلمة عبرية تعني «النقل» أو «الترانسفير» . والنقل

لاتحاده الدولي في أسترادام في أواخر يولييه ١٩٣٣ ، كانت الفرصة لا تزال جيدة . ومع نهاية أغسطس ، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣) ، كانت الفرصة صعبة لكنها ممكنة .

فماذا حدث في هذا المؤتمر ؟ لعل دراسة الواقع وتوقيتها يعطينا صورة دقيقة ومثيرة عن المعركة بين المستوطنين الصهاينة وصهاينة الخارج التوطينيين وكيفية إدارتها ، وكذلك عن بعض الأساليب التي استخدمها المستوطنون لإحكام قبضتهم على الفريق المعادي . فقد وُقعت الاتفاقية بشكل مبدئي في ١٧ أغسطس ١٩٣٣ وسُوِّيت كل النقط الفنية المتعلقة في ٢٢ أغسطس بعد افتتاح جلسات المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ (تشيكوسلوفاكيا) . وقد أدرك النازيون الأهمية غير العادية للمؤتمر وركزوا كل جهودهم عليه حتى يتسنى إفشال المحاولات الرامية لإصدار قرارات من شأنها دعم المقاطعة اليهودية . وبعد افتتاح جلسات المؤتمر ، ألقى سوكولوف خطبة ملتزمة عن يهود ألمانيا ويؤسهم دون أي ذكر للمقاطعة . ولكن النازيين كانوا يودون إحراز المكسب الإعلامية التي يطمحون إليها ، ولهذا أعلنوا عن الاتفاقية يوم ٢٤ أغسطس ، وهو اليوم الذي كان محدداً لمناقشة وضع يهود ألمانيا في المؤتمر ، وقد تناقشت صحف أوروبا الحزبية ، وألقى سوكولوف خطبة ملتزمة قال فيها : «إن اليهود يحترمون إسبانيا القديمة أكثر من ألمانيا الحديثة لأن خروج اليهود جميعاً أفضل من إهانتهم على هذا النحو» . ورغم أن أنفاظه جاءت غاضبة شكلاً إلا أن مضمونها كان نزيهاً صهيونياً ، فهو لا يتحدث عن حقوق اليهود في أوطانهم وإنما عن حقهم في الخروج الكامل والنهائي منها .

وقدّم الصهاينة التصحيحيون قراراً محدداً خاصاً بالمقاطعة ، ولكن العماليين نجحوا في فرض قرارهم . وكان النازيون قد أوقفوا مجلة يوديش روندشلو عن الصدور مدة ستة أشهر ، فرفع عنها الحظر وصدرت في اليوم نفسه وهي تحمل مقالاً تنبأ به في المؤتمر الصهيوني هزم بأغلبية ساحقة اقتراح التصحيحيين الذي كان يهدف إلى تحويل المنظمة الصهيونية إلى وحدة مقاتلة . وصدرت الصحف النازية مرحة هي الأخرى بالموقف الإيجابي للمؤتمر .

وحينما افتتحت جلسة ٢٥ أغسطس ، انتهالت برقيات الاحتجاج من يهود العالم لأن الاتفاقية ستهز مصادقية حركة المقاطعة اليهودية من جذورها وتقضي عليها تماماً في نهاية الأمر . فصعد النازيون حملتهم الإعلامية الذكية ، وأعلنوا يوم ٢٧ أغسطس عن صفقة يرتقال ضخمة مع المستوطن الصهيوني (أشار إليها أحد صهاينة الخارج بـ «البرقالة الذهبية» قياساً على «المجلد الذهبي») .

فقط لشراء تجهيزات وآلات زراعية مختلفة من ألمانيا ويتم تصديرها إلى فلسطين . وهناك تقوم الشركة ببيع هذه البضائع وتسدد بأثمانها المبالغ المستحقة لمودعها بعد وصولهم كمهاجرين إلى فلسطين ، وتحفظ بالفرق كمعمولة أو ربح لها .

وقد تم تعديل الاتفاقية بحيث أصبح في مقدور اليهود الألمان الذين لا يتوون الهجرة مباشرة ، ويريدون مع هذا تأسيس بيت في فلسطين والمساهمة في تطويرها ، أن يستعملوا الحساب المغلق وأن يودعوا أموالهم فيه شرط ألا يزيد المبلغ الإجمالي عن ثلاثة ملايين مارك تستعمل لشراء بضائع ألمانية أيأ كان نوعها . وأثناء تنفيذ الاتفاقية ، اعترضت بعض العناصر في وزارة الخارجية الألمانية على هذه المساهمة النازية في بناء المستوطن الصهيوني . كما قام المستوطنون الألمان في فلسطين (من أتباع جماعة فرسان الهيكل) بالضغط ولكن دون جدوى ، إذ أن هتلر نفسه قرر وجوب الاستمرار في العمل بالاتفاقية .

ويبدو أن الهدف الأساسي والمباشر من الاتفاقية كان (من المنظور النازي) كسر طوق المقاطعة اليهودية في العالم للبضائع الألمانية في أنحاء العالم . وفي محاولة لتوضيح الموقف النازي ، قال وزير الاقتصاد الألماني لوزير الخارجية إن الاتفاقية تقدم أحسن ضمان لأقوى تأثير مضاد لإجراءات المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية . كما أكد القنصل الألماني العام في القدس الفكرة نفسها حين قال : « بهذه الطريقة ، يمكن أن نقوم نحن الألمان بحملة ناجحة في مواجهة المقاطعة اليهودية في الخارج ضد ألمانيا . وقد يمكننا أن نحدث ثغرة في الحائط » . ولا حظ القنصل أنه في الصراع الدائر ، بين الصهاينة التوطينيين (في الخارج) والصهاينة الاستيطانيين (في فلسطين) ، بدأت موازين القوى تتغير لصالح المستوطنين : « إن فلسطين هي التي تعطي الأوامر ، ومن الأهمية بمكان أن نحطم المقاطعة في فلسطين في المقام الأول ، وسيتترك هذا أثره على الجبهة الأساسية في الولايات المتحدة » .

وقد أيده في ذلك فريتز رايبخت عميل الجستابو في فلسطين حين قال : « إن مهمتنا الأساسية هي أن نمنع ، انطلاقاً من فلسطين ، توحيد صفوف يهود العالم على أساس العداوة للألمان . . . لقد درمنا مؤتمر المقاطعة في لندن من تل أبيب لأن رئيس الهعفره في فلسطين ، بالتعاون الوثيق مع القنصلية الألمانية في القدس ، أرسل برقيات إلى لندن أحدثت الأثر المطلوب » .

ويقول إدوين بلاك : « إن احتمالات انهيار الاقتصاد الألماني بدأ بالتناقص بسرعة بمرور الوقت . فحينما عقد أثمرماير اجتماعاً

وكان المؤتمر اليهودي العالمي الثالث على وشك الانعقاد في جنيف في ٨ سبتمبر . ولما كانت أنباء الاتفاقية قد أصبحت معروفة ولم يعد هناك أي لبس أو إيهام ، فقد كان من الممكن اتخاذ قرار في هذا الشأن . وكانت هذه الفرصة كما يقول إدوين بلاك ، هي " الفرصة الأخيرة " أمام اليهود والصهيانية لكي يتخذوا قراراً حاسماً (وخصوصاً أن حركة المقاطعة في الأوساط غير اليهودية كانت آخذة في التزايد) . ولكن المؤتمر اليهودي اجتمع وفشل في اتخاذ قرار محدد بخصوص المقاطعة نتيجة الضغط الصهيوني ، واكتفى بتأييد المعارضة للتفانين بين الجماهير . وقد تم إفشال المؤتمر بإشراف الزعيم الصهيوني الأمريكي ستيفن وايز ، وكان قد أفضل قبلاً اجتماع أنترمار في أمستردام ولندن . وحينما عرضت الاتفاقية مرة أخرى على المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) ، بهدف نقضها ، رفض مشروع القرار وتقرر وضع نشاطات الهعفره كافة تحت إشراف الإدارة الصهيونية .

وقد حققت اتفاقية الهعفره نجاحاً باهراً من وجهة نظر النازيين والصهيانية . فقد نجح النازيون في تصديق أسس المقاطعة اليهودية لألمانيا دون أن يضطروا إلى إجراء أي تعديل في سياستهم تجاه اليهود . وأما بالنسبة إلى المستوطنين ، فإن فترة الهعفره تعد أهم فترة في تاريخ المستوطن إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة ورأس المال اللازم للبنية التحتية . وقد بلغ عدد اليهود الألمان الذي هاجروا إلى فلسطين في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤١ (بموجب الاتفاقية) نحو ٥٢,٣٠٠ ويشكلون ٢٥٪ من مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها . وكان بينهم ٥٢٩,٦ رأسمالياً يمثلون إضافة اقتصادية ضخمة للمستوطنين و ٦,٧٠٠ مهاجرين أبناء الطبقة الوسطى المثقفة غالبيتهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصناعيين .

كما ذكر ناحوم جولدمان في مذكراته أنه حينما قابل رئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٥ ، اتهم الرئيس الصهيانية برفضهم الاشتراك في المحاولات الرامية إلى مقاطعة هتلر ، بل تخريبها بإبرامهم اتفاقية الهعفره . وكان تعليق جولدمان الوحيد على ذلك أنه شعر حينذاك باليأس والحجل إلى درجة لم يشعر بها من قبل ، وأن رئيس الوزراء كان على حق فيما يقول . وما يجدر ذكره أن اتفاقية الهعفره ظلت سارية المفعول حتى عام ١٩٣٩ مع نشوب الحرب العالمية الثانية ، ثم توقف العمل بموجبها ولكن دون أن تُلغى رسمياً .

وأرسل أنترمارير برقية يطلب فيها أن ينكر المؤتمر أن مثل هذه الصفقة قد أبرمت ، وهدد بأنه إن كان الأمر حقيقة ولم يتم إلغاء الصفقة ، فإن المنظمة الصهيونية الأمريكية ستسحب من المنظمة الصهيونية . وفي يوم ٣١ أغسطس ، نشرت الحكومة الألمانية النص الكامل لاتفاقية الهعفره ، فقوبل الحدث بعدم تصديق من جانب يهود الخارج . ونشرت جوش كرونيكل النص باعتباره نكتة نازية رائجة ، كما أنكرت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية أية علاقة لها بالموضوع ، ولكنها تراجعت عن ذلك بالتدريج واعترفت بإبرام الاتفاقية .

وفي يوم ٢ سبتمبر ، طرح العماليون مشروع قرار يحكم سيطرتهم الكاملة على الصهيانية التوطنين جاء فيه : " كجزء من الانضباط الصهيوني ، لا يُسمح لأي فرد أو مجموعة داخل المنظمة الصهيونية أن يشتغل بالسياسة الخارجية ، أو أن يتصل بالحكومات الأجنبية أو بعصبة الأمم ، أو أن يقوم بأية نشاطات سياسية من شأنها المساس بصلاحيات اللجنة التنفيذية " . ويتضمن هذا القرار تحريماً لكل أشكال الاحتجاج ضد النازية وضمن ذلك اتفاقية الهعفره . وقد تم التصويت على القرار الساعة الثالثة صباحاً ووفق عليه ، وأجل التصويت على الاتفاقية ذاتها حتى آخر يوم . وبعد طرح مشروع قرار عمالي ومشروع قرار مضاد ، قام الزعيم العمالي برل كاتزنلنسون فتحدث عن الانضباط وكيف أن مناقشة الهعفره خرق له ، وبين للمؤتمرين أنه توجد ، في كل الاجتماعات الديمقراطية ، مسائل مهمة لا يمكن مناقشتها . ثم اختتم كلمته قائلاً إن على كل هيئة صهيونية أن تعترف بأن إرتس يسرائيل لها أولوية على أي شيء آخر ، وأهم واجب هو إنقاذ حياة اليهود وممتلكاتهم من الخطر الذي يتعرضون له (ورغم أنه استخدم لغة الإنقاذ والإغاثة إلا أنه أحاطها بالإطار الأيديولوجي بتأكيد أولوية المستوطن على أي شيء آخر) . وقد وافق المؤتمر على مشروع القرار العمالي ، الذي لم يأت فيه سوى أنه لن يتم اتخاذ أي شيء من شأنه أن يتعارض مع موقف المؤتمر فيما يتصل بالمسألة اليهودية الألمانية ، أي أنه لن يقوم أي شخص بأي نشاط وسيترك الأمر برمته للجنة التنفيذية . وقد وافق المؤتمرون في الجلسة نفسها على أن يصبح علم المنظمة هو علم الدولة . وأن يصبح نشيد الهاتيكفا النشيد الوطني للدولة عند إنشائها ، وأنشد المؤتمرون النشيد واختتمت أعمال المؤتمر . وقد أدرجت جوش كرونيكل في ٣ سبتمبر الاتفاقية لم تكن نكتة نازية خفيفة بل حقيقة صهيونية نازية ثقيلة مريرة ، ونشرت جرائد أخرى أنباء الاتفاقية وما حدث في المؤتمر .

المجالس اليهودية

Judenrat

«المجالس اليهودية» ترجمة للعبرة الألمانية «يودين رات» وهي مجالس كان يقيمها النازيون بين الجماعات اليهودية التي تقع تحت سلطتهم . وكان سلوك أعضاء المجالس يندرج تحت واحد من أربعة أنماط :

- ١ - تعاون من نوع ما في المجالات الاقتصادية والمادية .
- ٢ - استعداد للاستجابة للمطالب النازية حين يتعلق الأمر بمصادرة الممتلكات والأشياء المادية الأخرى ، مع رفض كامل لتسليم اليهود .
- ٣ - قبول اضطراري لإبادة جزء من الجماعة اليهودية على أمل إنقاذ الجزء الآخر .
- ٤ - خضوع كامل للمطالب النازية نظير حماية مصالح القيادة اليهودية .

ويبدو أن القيادات اليهودية القديمة كانت تسلك وفق النمطين الأولين . ولكن النمطين الثالث والرابع سادا في المراحل الأخيرة حينما ترأست المجالس اليهودية شخصيات يهودية جديدة لم تضطلع بدور القيادة من قبل .

وكان النازيون يحاولون ، قدر المستطاع ، أن يضموا إلى هذه المجالس العناصر الصهيونية أو اليهودية القومية باعتبارها عناصر حديثة تشاركهم الرؤية في أن أوروبا ليست وطن اليهود ، وأنه يجب إخلاؤها منهم ، وأن كفاح اليهود (باعتبارهم شعباً عضوياً [فولك]) يجب أن ينصرف إلى الهجرة لا إلى المقاومة والثورة . وقد نجحت هذه المجالس في إدارة أمور الجماعات وضمان سكونها . وكان كثير من الصهاينة أعضاء في هذه المجالس ، بل يُقال إن النازيين كانوا يفضلون الصهاينة على غيرهم من اليهود بسبب اتفاق الفريقين في المنطلقات الفكرية بينهما .

وَتُثير المجالس اليهودية قضية التعاون مع النازيين . وقد عرّفت الموسوعة اليهودية (جودايكا) التعاون بأنه علاقة تعني قدراً من المشاركة ، وأنها اتفاق إرادي حر بين فريقين . ومن ثم خلّصت الموسوعة إلى أنه لا يمكن اتهام المجالس اليهودية بالتعاون مع النازيين ، لأنها كانت مجرد أداة سلبية خاضعة للضغط النازي تنفذ ما يُطلب منها . كما أن المقاومة على أي حال لم تكن تُجدي فتيلاً لأن المخطط النازي كان لا بد أن يُنفذ مهما كان حجم المقاومة .

ووجهة النظر التي تطرحها الموسوعة اليهودية مقبولة إلى حدّ كبير ، وتسم بشيء من التعاطف الإنساني المطلوب مع أفراد وجدوا أنفسهم تحت سكين الجلاد فسلخوا سلوكاً إجرامياً قد لا يوافقون عليه

بالضرورة ، ولهذا فلا يمكن أن يُعدوا مسئولين عما ارتكبوه من جرائم . لكن التعاطف الإنساني يجب ألا يعرف أية حدود ، ويجب ألا يُتميَّز بين اليهود والأغيار ، ولذا ينبغي أن يطبّق هذا المعيار على كل من تعاون مع النازيين ، فهم أيضاً كانوا يعيشون في ظل الإرهاب النازي ، وكثيرون منهم نفذوا تعليمات النازي خشية الإرهاب ، ومن ثم لم يكن هناك أي قدر من المشاركة والاختيار الحر . وانطلاقاً من ذلك ، فإن محاكمة مجرمي الحرب ، خصوصاً من صغار الموظفين ، تصبح مسألة غير قانونية وغير إنسانية . بل إن قبول مثل هذه الأطروحة يجعل من الممكن استبعاد جميع المتعاونين تقريباً من قوائم الاتهام ، بل تبرئة ساحتهم . فالنظام النازي كان نظاماً حديثاً شمولياً حقق مستوى عالياً من الكفاءة العميقة في الوصول إلى جميع الأفراد وفي محاصرتهم إعلامياً . وكان يمتلك جهازاً أمنياً تنفيذياً قادراً على الحركة السريعة ، وعلى معاينة كل المنحرفين . وكان المنحرفون من الألمان يُعاقبون بقسوة بالغة ، لأنهم أعضاء في الشعب الألماني العضوي (المختار) وانحرفهم أمر غير مفهوم وغير مبرر ، ويتطلب إنزال عقوبات عليهم تفوق ما يتزّل على البشر العاديين من عقوبات .

أما افتراض عدم جدوى المقاومة من البداية فهو افتراض خاطئ، إذ يمكن للمرء تخيل ملايين الضحايا من اليهود وغير اليهود وقد رفضوا أن يستقروا القطارات التي تقلهم إلى معسكرات السخرة والإبادة تحت ظروف الحرب . ففعل مثل هذه المقاومة كانت ستوقف آلة الحرب الألمانية أو على الأقل ترفقها لدرجة تجعل القيادة تعدل عن تنفيذ مخططها الإبادي . وهنا تبرز مسئولية مجالس اليهود، فهي التي قامت بتهدئة الضحايا بشئ الوسائل وإقناعهم بالرضوخ حتى تم تنفيذ المخطط النازي أو معظمه . ويذهب أيزياه ترائك (في كتاب له صدر عام ١٩٧٢) إلى أن هناك من يرى أنه لو لم يتبع اليهود تعليمات المجالس اليهودية لتمكن ما يزيد عن نصفهم من الهرب من الإبادة .

ويرى المفكر الديني اليهودي ريتشارد روبنشتاين أن تراث يهود العالم، منذ أن تركوا فلسطين بعد تحطيم الهيكل ، ولّد فيهم قابلية للاستسلام والخنوع ، وأن هذه القابلية هي التي جعلت بإمكان المجالس اليهودية أن تلعب هذا الدور ، وأن تضع أعضاء الجماعات اليهودية في براثن النازي .

رَبطة الثقافة اليهودية

Juedischer Kulturband

«رَبطة الثقافة اليهودية» (بالألمانية : يوديشر كولتوربونند

رؤساء الرابطة الخاصة بالسماح لهم باستخدام المسارح الألمانية لتقديم عروض الرابطة وتأسيس دور عرض سينمائي خاصة بها . كما عرضت تقديم دعم مالي لها ، وقامت بتقديم الأرباح التي حققتها من خلال جريدها ودور العرض السينمائي إلى المنظمات المختصة بتنظيم هجرة أعضاء الجماعة اليهودية إلى خارج ألمانيا . وقد نجح بعض قادة الرابطة في الهجرة ، وتم حل الرابطة بشكل نهائي عام ١٩٤١ بأمر من الحكومة .

ولم تكن هذه الرابطة حادثة عرضية في تاريخ علاقة النازيين بالجماعة اليهودية . فقد أظهر النازيون دائماً اهتماماً غير عادي بالثقافة اليهودية باعتبارها تعبيراً عن أن الشعب اليهودي شعب عضوي مستقل . ولذا ، أسست السلطات النازية أهم متحف يهودي في العالم آنذاك في تشيكوسلوفاكيا (ولا يزال هذا المتحف قائماً) . وفي مستوطنة تيريس آينشتات ، ازدهرت الثقافة اليهودية ، وكانت الفرق الموسيقية تقدم عروضاً للزوار الأجانب وتصور الأفلام وتوزعها على العالم .

ولم يكن سلوك النازيين (هذا) ينم عن أي تسامح أو اضطهاد ، وإنما هو تعبير عن إيمان بأن القومية العضوية تشكل أرضية تفاهم مشتركة بينهم وبين الصهاينة ، وهي أرضية لا توجد بينهم وبين أي فريق يهودي آخر .

تيريس آينشتات

Thereseinstadt

«تيريس آينشتات Thereseinstadt» مدينة في تشيكوسلوفاكيا (وتُسمى «تيريزين» بالتيشيكية) حولها النازيون إلى مستوطنة نموذجية بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٥ . رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من يهود وسط أوروبا وغربها من المتميزين أو المسنين أو اليهود من أبناء الزيجات المختلطة . وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة ، باعتبار أن هذا يعني بقاء يهود تشيكوسلوفاكيا في وطنهم . ويُقال إن الهدف النازي من تأسيس هذه المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمي باعتبارها مثلاً على " حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث " (وهو اسم أحد الأفلام التي صُوِّرت في المستوطنة) .

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويتأهه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية . وتمتعت المستوطنة بحريات كثيرة ، حيث كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهيئتها الثقافية . ومن ثم ، كان من

(Juedischer Kulturbund) منظمة ألمانية يهودية تأسست في ألمانيا النازية عام ١٩٣٣ ، بمبادرة من النظام النازي وبعض المثقفين الألمان اليهود مثل كورت باومان وكورت سنجر ويوليوس باب وفرنر ليفي . وتصدر الجماعة عن الإيمان بفكرة الشعب العضوي والشعب العضوي المنبؤ . حيث ذهبوا إلى أن أعضاء الجماعة اليهودية هم أعضاء في شعب عضوي (فولك) ، ومن ثم لا يحق لهم المشاركة أو المساهمة في الحياة الثقافية العامة في ألمانيا ، وهو افتراض قبله الصهاينة وكثير من المثقفين اليهود في ألمانيا وخارجها قبولاً تاماً . وكان مفهوم الشعب العضوي هو القيمة الحاكمة والمسلمة النهائية في المنظومة النازية ، ولذا بارك جوبلز وزير الدعاية النازي نفسه فكرة تأسيس الرابطة التي استمرت في نشاطها حتى عام ١٩٤١ ، وكانت بمنزلة المنبر الأساسي للكُتَّاب والموسيقيين اليهود . وقد بلغ عدد أعضائها ١٧ ألفاً ثم زاد إلى ١٩ ألفاً بعد عدة شهور ، وكان يعمل فيها عدد كبير من الموظفين من ١٢٥ من الموسيقيين والممثلين والمغنين ، وكانت تطبع بعض منشوراتها بالعبرية واليديشية (الوعاء الثقافي لثراث الشعب العضوي) .

ونظراً لنجاح الرابطة ، تم في عام ١٩٣٨ تأسيس شبكة قومية من فروع الرابطة في كل أنحاء ألمانيا بلغ عددها ١٦٨ فرعاً ، وبلغ عدد أعضائها ١٨٠ ألفاً (أي أنها كانت تضم معظم يهود ألمانيا الراشدين) ، بل بلغ حجم العضوية في برلين وحدها ما بين ١٢ ألفاً و ١٨ ألفاً . وبلغ عدد الفنانين اليهود التابعين للرابطة حوالي ألفين . وقامت الرابطة بتنظيم ما يقرب من ٨٤٥٧ برنامجاً تشمل محاضرات وحفلات ومسرحيات وعروضاً فنية . وحققت إيراداً بلغ مليوناً وربع مليون مارك . كما كان لها جريدها الخاصة . وقد شاركت الرابطة بنشاط ملحوظ في الدعاية النازية ، سواء في الداخل أم في الخارج . ففي الداخل ، قامت الرابطة بزيادة التماسك العضوي والوعي اليهودي بين أعضاء الجماعة اليهودية ، الأمر الذي يعني زيادة عزلتهم وإعطاء مصداقية للرؤية النازية لليهود . أما بالنسبة للخارج ، فكانت تعطي صورة مشرقة للحكم النازي في علاقته باليهود وفي سماحه لهم بالإفصاح عن هويتهم العضوية . ورغم أن أغلب البرامج الثقافية والعلمية المقدمة من قبل الرابطة كانت تخضع لرقابة البوليس السري (جستابو) وغرفة الفنون والثقافة ثم لرقابة قيادات الحزب النازي في برلين ، إلا أن السلطات النازية حرصت على استمرار نشاط الرابطة حتى بعد أحداث عام ١٩٣٨ ، حينما تم الهجوم على الممتلكات اليهودية والقضاء أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية في معسكرات الاعتقال ، واستجابت لمطالب

الحرب ، ألا يشير هذا قضية عدد اليهود الذين أُبيلوا عن طريق أفران الغاز ؟

جيتو وارسو

Warsaw Ghetto

أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق قومية تتمتع بقدر كبير من الاستقلال ، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس آينشتات «النموزجية» في بوهيميا .

ومن أهم الجيتوات جيتو وارسو الذي بلغ عدد الفاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط ارتفاعه ثمانية أقدام . وكان له اثنان وعشرون مدخلاً يقف على كل منها ثلاثة جنود . أحدهم ألماني واثنان بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي . وكان التعريف الذي تبناه الألمان لليهودية اليهودية هو تعريف قوانين نورمبرج وهو أن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالنعقدة (وهو التعريف الذي تبنته فيما بعد دولة إسرائيل والذي يستند إليه قانون العودة الصهيوني) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء الحفظ النازي ذي الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي منبذ له شخصيته القومية المستقلة . ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة - خدمة بريدية - مؤسسات ارفاء الاجتماعي) . كما سُمع جيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي . وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها . وبأن يصدر جريدته اليومية بل كان له ميليشيا ومحاكم خاصة به ، أي أن الجيتو كان بمثابة دولة صغيرة منعزلة ثقافياً واقتصادياً عما حونها . وهو بهذا استمراراً لتقاليد الفهال والإدارة الذاتية والنشئل التي يجدها النصارى في كتاباتهم . وهو يشبه في كثير من الوجوه الدولة الصهيونية المنشؤة في الشرق الأوسط .

وكان يدير الدويلة/الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» ، تُعين السلطات النازية أعضاءه . ولكن استقلالية الدويلة/الجيتو لم تكن كاملة ، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال النازية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصنوعات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو . كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو . وكان العامل

مسؤوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمستنين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس آينشتات كانت تتمتع بالحكم الذاتي) . وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء .

وقد رُحِّل حوالي ٩٣٧ ، ١٤٠ يهودياً إلى مستوطنة تيريس آينشتات من بينهم ٥٢٩ ، ٣٣ ماتوا فيها ، أي حوالي ٢٥٪ ، ورُحِّل حوالي ١٩٦ ، ٨٨ إلى معسكرات الاعتقال . وحينما تم تحرير المستوطنة وكان يوجد فيها ٢٤٧ ، ١٧ شخصاً .

وتثير هذه المستوطنة الكثير من القضايا :

١ - يلاحظ اشتراك المجالس اليهودية مع السلطات النازية في كل الأنشطة سواء الإعداد والتخطيط للمستوطنة أو إدارتها أو مقابلة مندوبي الصليب الأحمر الدولي . وهذا التعاون يثير واحدة من أهم القضايا الأساسية في ظاهرة الإبادة النازية لليهود ، أي مدى اشتراك قيادات الجماعات اليهودية في عملية الإبادة .

٢ - وتثير المستوطنة قضية ترشيد الإبادة ، فلم يكن النازيون مجرد جزاريين على الطريقة التقليدية ، وإنما كانوا يلجأون إلى التخطيط العلمي الدقيق وإلى التفرقة بين اليهود المتميزين واليهود العاديين .

٣ - ويمكن التساؤل أيضاً عما إذا كان هدف النازيين هو توظيف اليهود أم إبادتهم .

٤ - ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أية دولة في العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التي تحكمها ، والحريات التي كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التي تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي ، وهو ما يجعلنا نذهب إلى القول بأن التجربة النازية جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية .

٥ - ومن القضايا الأخرى التي تثيرها المستوطنة ، عدد اليهود الذين تمت إبادتهم عن طريق أفران الغاز . فالوسوعة اليهودية (جودايكا) تتحدث عن أن ربع سكان هذه المستوطنة المثالية التي تتمتع بظروف خاصة ماتوا بسبب ظروف الحرب ، وأنه في أبريل ١٩٤٥ وصل إلى تيريس آينشتات ١٤ ، ٠٠٠ سجين من معسكرات الاعتقال الأخرى ، فاجتاحت الأوبئة سكان المستوطنة وهلك منهم ومن المرحلين الجدد الآلاف ، واستمرت الأوبئة في حصدهم حتى بعد سقوط النظام النازي . فإذا كانت الأوبئة قد حصدت حياة الألوف قبل بعد انتهاء

السنين ويسم بتجزره ، كما أن سكان " المناطق " المحتلة لم يتوقفوا قط عن المقاومة . وكل هذا جعل التحكم في فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٦٧ أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلًا .

ويدل سلوك الإسرائيليين تجاه السلطة الفلسطينية في غزة وأريحا أنهم استبطنوا هذا الجانب من تجربة يهود أوروبا مع النازية . فهم يحاولون أن تكون علاقتهم مع هذه السلطة تشبه في معظم الوجوه علاقة الحكم النازي بالسلطة اليهودية في جييتو وارسو أو مستعمرة تيريس آينشتات .

جماعة شتيرن والنازية

Stern and Nazism

جماعة صهيونية مراجعة حاولت التعاون مع النازيين مع اعتبار أن ثمة فارقاً عميقاً بين ما سمته الجماعة «مضطهدي الشعب اليهودي» وأعدائه . فمضطهدو الشعب اليهودي أمثال هامان وهتلر موجودون في كل زمان (فالصهيانية يؤمنون بحتمية العداء لليهود واليهودية) . ولكن الأمر جدٌ مختلف بالنسبة لأعداء اليهود ، فهؤلاء هم الأجانب الذين يهيمنون على فلسطين ويمنعون اليهود من العودة إليها لينهوا حالة المنفى ويؤسسوا وطنهم القومي فيها . وبناءً على هذه الأطروحة الصهيونية الراديكالية لم يجد أعضاء شتيرن أية غضاضة في التفاوض مع النظم الشمولية بهدف التعاون الوثيق معها . فعقدوا اتفاقاً مع حكومة موسوليني تعترف بمقتضاه الحكومة الفاشية بالدولة الصهيونية على أن يقوم أعضاء شتيرن بالتنسيق مع القوات الإيطالية حين تقوم بغزو فلسطين .

ولكن التعاون مع النازيين كان هو الهدف الحقيقي . ولتحقيق هذا الغرض أرسل أعضاء شتيرن مندوباً إلى بيروت (التي كانت تحت سيطرة حكومة فيشي الموالية للنازيين) للتفاوض مع قوات المحور . وقد قابل هذا المندوب ، في يناير ١٩٤١ ، مواطنين ألمانيين أحدهما هو أوتو فون هتيج ، رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية الألمانية ، والذي كان يشعر بالإعجاب العميق بالصهيونية .

وبعد الحرب اكْتُشفت وثيقة (في أرشيف السفارة الألمانية في أنقرة) أرسلتها جماعة شتيرن للحكومة الألمانية تتصل بإيجاد حل للمسألة اليهودية في أوروبا واشترك أعضاء جماعة شتيرن إلى جانب القوات النازية في الحرب ضد قوات الحلفاء . وتنص الوثيقة على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوروبا هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية . وقد عبّر كاتب الوثيقة عن وجود نقط تماثل بين النازية والصهيونية . (وصفت شتيرن نفسها بأنها حركة تشبه الحركات

البولندية ، يهودياً كان أم غير يهودي ، يتقاضى ربح ما يتقاضاه انعامل الألماني .

ولا ندري هل وضع النازيون مخططاً لإبادة يهود جييتو وارسو (بالمعنى الخاص للكلمة ، أي بمعنى التصفية الجسدية) من خلال فرض وضع اقتصادي غير متكافئ عليهم بحيث يمكن استنزافهم لصالح النازيين ، أم أن عملية الإبادة تمت كنتيجة حتمية ، ليست بالضرورة متعمدة ، للبيئة الاستغلالية التي فرضها النازيون ؟ قيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي بالاحتياجات المادية الأساسية للعاملين اليهود الأساسيين ، الأمر الذي كان يعني سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والدولة/الجيتو اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية ، فكانوا يموتون جوعاً ويهلكون بالتدريج وبيطء دون أفران غاز .

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة (عن طريق التجويع) مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة . فأشار إلى أن الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ ، أي خلال ستة وثلاثين شهراً ، شهدت زيادة عدد الوفيات بشكل ملحوظ . فحسب معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ في العام . ولكن الجوع والمرض (وكذا غارات الحلفاء وأحكام الإعدام) أدّت معاً إلى موت ٥٦٨,٨٨ ألفاً في العام ، وهو عدد يشكل ١٩٪ من مجموع سكان جييتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف ، الأمر الذي يعني أنه كان من الممكن اختفاء كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت تتسارع في السنوات الأخيرة بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو ، ومن ثم ، فإن خمس أو ست سنوات كانت كافية في صورتنا لإتمام هذه العملية .

وكانت علاقة الدولة النازية بدولة/جييتو وارسو علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالسلطة الفلسطينية في غزة وأريحا (كما يتخيلها الصهيانية) . وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم ، إذ أن جييتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً ، ومن ثم كان بالإمكان التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة ، على عكس الضفة الغربية وغزة حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف

٦ إشكالية التعاون بين أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين

الوحيد للتحرر . وكما قال أحيمير ، فإن «الماشيح لن يأتي ركباً على حمار» ، وهو ما يعني أن الماشيح الصهيوني سيأتي ركباً دبابه ، حاملاً القنابل العنقودية ! وتعود أهمية الجمعية إلى تأثيرها في حركة التصحيحين ككل ، فقد تحولت مجلتهم (التي صدرت ابتداءً من يناير ١٩٣٢) إلى لسان حال العمال التصحيحين ، وشنت حملات شعواء على المعسكر العمالي بأسره .

ورغم أن جابوتنسكي كان يحاول أحياناً أن يحتفظ بمسافة بينه وبين أعضاء الجمعية ، إلا أنه كان يُعبر في خطاباته عن إعجابه بهم وتعاطفه معهم . ولم يتخذ أي إجراء تنظيمي ضدهم بل أطلق على أحيمير (بشارة لا تخلو من التهكم) اسم «معلمنا ومرشدنا الروحي» ، كما أن الأخاخام إسحق كوك دافع عنهم . وتذكر موسوعة الصهيونية وإسرائيل أن مناحيم بييجين انضم إلى الجناح الراديكالي خركة التصحيحين الذي كان مرتبطاً بمعضبة الأشداء (لم تذكر الموسوعة في المدخل عن أحيمير أي شيء عن اتجاهاته النازية المذكورة ، واكتفت بالإشارة إلى أفكاره «الراديكالية») . وقد استمرت العلاقة بين بييجين وأحيمير حتى بعد إعلان الدونة ، فسمح بييجين ، باعتباره رئيس حزب حيروت ، بأن يكتب أحيمير في الجريدة اليومية للحزب ، إلى أن مات عام ١٩٦٢ .

الفريد نوسيج (١٨٦٤-١٩٤٣)

Alfred Nossig

أحد مؤسسي الحركة الصهيونية مع هرتزل ، وأهم شخصية يهودية صهيونية متورطة في التعاون مع النازيين ، وهو فنان وشاعر وموسيقيار من أصل بولندي وخلفية ثقافية ألمانية ، كانت مواهبه متعددة ومتنوعة عبر عنها من خلال الأدب (قصائد ومسرحيات ومقالات في النقد الأدبي) والموسيقى (ليريتو لإحدى الأوبرات) والنحت (عُرِضَت تماثيله في معظم أرجاء أوروبا وذاعت شهرته كمنحوتات) . وقد بدأ حياته ، شأنه شأن معظم الزعماء الصهيونية ، خصوصاً الذين كانوا من أصل ثقافي ألماني ، بالمضالبة بالاندماج الكامل لليهود ، ثم أصبح محرراً في إحدى الصحف البولندية . وفي عام ١٨٨٧ ، نشر كتيبه محاولة لحل المسألة اليهودية (بالبولندية) ، حيث اقترح إنشاء دولة يهودية في فلسطين والدول المجاورة . وقد ترك هذا الكتيب أثراً عميقاً على المثقفين اليهود في أوروبا وخصوصاً في جاليشيا . ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح نوسيج نشيطاً في المجال الصهيوني فألف الكتب وديج المقالات عن موضوع الاستيطان وغيره .

الشمولية في أوروبا في أيديولوجيتها وبنيتها) . كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية ، وتُعبّر عن تقدير جماعة شتيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين . وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين ألمانيا الجديدة والفولك العبري في المجال السياسي والعسكري .

ولم يتلق الجانب الصهيوني رداً ، ولذا أرسلت جماعة شتيرن مندوباً آخر في ديسمبر من نفس العام إلى تركيا (بعد احتلال البريطانيين للبنان) ولكن قُبض على هذا العميل .

وكان إسحق شامير ، رئيس وزراء إسرائيل السابق ، عضواً في جماعة شتيرن . ويؤكد الباحث الإسرائيلي باروخ نادل أن شامير كان يعرف بخطة شتيرن للتعاون مع النازيين . وحينما عُيّن وزيراً للخارجية ثار الرأي العام العالمي بسبب تعيين إرهابي مثله (قام بتدبير عملية اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٤٢ والكونت فولك برنادوت عام ١٩٤٨) ، ولكن أحداً لم ينطرق إلى ماضيه النازي .

عصبة الأشداء

Brit Habiryonim

«عصبة الأشداء» (أي الأقوياء) (بالعبرية : «بريت هابريونيم»)

جماعة صهيونية مراجعة أسسها آبا أحيمير (١٨٩٨-١٩٦٢) ومجموعة من المثقفين الصهاينة مثل الشاعر أوري جرينيرج . وكان معظم مؤسسي الجمعية أعضاء في منظمات صهيونية عمالية ثم استقالوا منها . وقد تبنت الجماعة صياغة صهيونية لا تخفي إعجابها بالفكر النازي أو العنصرية النازية . وكما قال أحد كبار الصهاينة التصحيحين «نحن التصحيحين نكن الإعجاب الشديد لهتلر ، فهو الذي أنقذ ألمانيا ولولاها لهلكت خلال أربعة أعوام ، وستتبعه إن هو تخلص عن معاداته لليهود» . وكانت مجلة عصبة الأشداء في فلسطين تزخر بالمقالات التي تمجد هتلر واليهودية . وكان من بين هتافات أعضاء العصبة «ألمانيا لهتلر ، وإيطاليا لموسوليني ، وفلسطين لجابوتنسكي» . كما مجّد أعضاء الجمعية الجوانب العسكرية في تاريخ العبرانيين ، فكانوا يشبهون أنفسهم بجماعة حملة الخناجر ، وهم فريق من جماعة الغيورين كانت تغتال الرومان واليهود الذين يتحالفون معهم ، وذلك أثناء التمرد اليهودي الأول في فلسطين بين عامي ٦٦ و٧٣ ميلادية (واسم الجمعية نفسه «بريت هابريونيم» هو اسم إحدى الجمعيات الإرهابية اليهودية في تلك الفترة) . وكان أتباع الجمعية يرون أن الاغتيال السياسي ليس جريمة وإنما هو فعل ذو هدف ومعنى ، وأن الدم والحديد هما الطريق

وتوزعهم ومراحلهم العمرية المختلفة (بسبب دراساته التي أسلفنا الإشارة إليها) ، ونظراً لرغبته العميقة في إفراغ أوروبا من يهوديتها ، وضع نوسيج خطة متكاملة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء (غير النافعين) وتهجير الباقين أو إبادتهم . وقد اكتشف أعضاء المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونهم مع النازي وأنه عضو في الجستابو ، فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص وتُعد الحكم في ٢٢ فبراير ١٩٤٣ . وقد اختفى نوسيج تماماً من الأدبيات الصهيونية والغربية .

مردخاي رومكوفسكي (١٨٧٧-١٩٤٤)

Mordechai Rumkowski

صهيوني بولندي ورئيس المجلس اليهودي في جيتو لودز خلال الحرب العالمية الثانية . وُلد في روسيا ثم استقر في مدينة لودز مع بداية القرن العشرين . كان عضواً في الحزب الصهيوني العمومي ، وقام بتمثيله في لجنة الجماعة اليهودية في لودز . كان رومكوفسكي مؤمناً بأن التعاون مع الألمان سيُعزّز وضع اليهود ، خصوصاً إذا زادت مساهمتهم وأهميتهم بالنسبة للمجهود الحربي الألماني . ولهذا عيّن ، بعد احتلال الألمان لمدينة لودز عام ١٩٣٩ ، رئيساً للمجلس اليهودي فيها ، أي كبيراً لليهود ، ومنحه المسئولون الألمان في جيتو لودز (الذي ضم ١٧٠ ألف يهودي) سلطات إدارية واسعة . وتُعزّز موضعه القيادي بسبب مهارته التنظيمية ، فكان مسئولاً عن إقامة الورش التي أمر الألمان بإنشائها لاستغلال عمل اليهود ، والتي بلغ عددها ١٢٠ ورشة . ومع مرور الوقت ، عمل رومكوفسكي على تركيز جميع السلطات في يده وأصبحت إدارته أكثر استبداداً . وعندما أمرت السلطات الألمانية الجيتو بإصدار عملة نقدية خاصة به (باعتباره كياناً يهودياً مستقلاً بدلاً من استخدام العملة البولندية أو الألمانية) ، طُبعت على الأوراق المالية الجديدة صورته .

اشترك رومكوفسكي في عمليات ترحيل ونقل يهود لودز إلى معسكرات الاعتقال الألمانية ، وكان مسئولاً مع معاونيه عن تحديد من سيتم ترحيله ، الأمر الذي جلب عليه كراهية كثير من سكان الجيتو . وقد ضمت قوائم المرحلين كثيراً من معارضيه داخل الجيتو . وخلال الفترة بين يناير ومايو عام ١٩٤٢ ، تم ترحيل ٥٢ ألف يهودي من الجيتو بمعاونة رومكوفسكي الذي ظل مؤمناً بأن التعاون مع الألمان هو أفضل سبيل لتخفيف وطأة هذه المأساة . وقد قام الألمان بتصفية الجيتو في نهاية الأمر عام ١٩٤٤ ، ورُحِّل رومكوفسكي مع أسرته إلى معسكر أوشفيتس حيث مات . وتُعدُّ شخصية رومكوفسكي شخصية مثيرة للجدل في

وقد يتصور البعض أن ثمة تناقضاً بين نزعته الاندماجية الأولى ونزعته الصهيونية بعد ذلك . ولكن هذا النمط معروف تماماً بين مؤسسي الحركة الصهيونية ، ولا سيما أصحاب الخلفية الثقافية الألمانية . فهؤلاء يهود غير يهود ، بمعنى أنهم حاولوا الاندماج بل الانصهار في الأغلبية لرفضهم لهويتهم اليهودية (الدينية والعرقية) . ولكن المجتمع صنفهم « يهوداً » . ولهذا ، أخذوا يبحثون عن طريقة أخرى للتخلص من اليهود ، ووجدوا ضالّتهم في الحل الصهيوني ، الذي يرمي إلى نقل (ترانسفير) يهود أوروبا خارجها ، إلى أن يفرغها من يهوديتها في نهاية الأمر . وهذه عملية ستقضي على الفائض البشري وتُسهّل اندماج القلة التي ستبقى .

شارك نوسيج في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، واصطدم مع هرترل لأسباب لا تذكرها المراجع التي عدنا إليها . ولكنه استمر في حضور المؤتمرات الصهيونية ، وصوت ضد مشروع شرق أفريقيا (باعتبار أنه مشروع بريطاني ، بينما كان متحمساً للمشروع الاستعماري الألماني) . ويبدو أن نوسيج كان عضواً في العصبة الديمقراطية ، إذ أنه ساهم (عام ١٩٠٢) مع مارتن بوبر وحاييم وايزمان وليو مونسكين في تأسيس أول دار نشر صهيونية في برلين نشرت العديد من الكتب . ويُعتبر نوسيج واضع أساس علم الإحصاء الخاص بين الجماعات اليهودية ، فنشر أعمالاً بين عامي ١٨٨٧ و ١٩٠٣ ووضع أساس إنشاء المعهد الإحصائي والسكاني (الديموجرافي) اليهودي .

وهدف الصهيونية (حسب تعريف معظم مؤسسيها) هو نقل اليهود من أوروبا وإفراغها منهم لحل المسألة اليهودية ، ونوسيج ينتمي إلى هذه المنظومة الفكرية التوطينية (الترانسفيرية) . فكان معظم فكره يدور حول تهجير اليهود ، وكان هذا يأخذ شكل محاولة زيادة وعيهم بهويتهم اليهودية العضوية حتى يَضْمُر ويذوي إحساسهم بالانتماء إلى أوروبا . وقد أنجز نوسيج ذلك من خلال أعماله الفنية مثل تماثيله : «اليهودي التائه» و«يهودا المكابي» و«الملك سليمان» و«الجيل المقدس» (كان نوسيج يود أن توضع على جبل الكرمل رمزاً للدولة اليهودية) . كما أسس عام ١٩٠٨ منظمة استيطانية تُسمى إيكو AIKO لتعجيل بنقل اليهود . فهو ، شأنه شأن نوردد ، كان في عجلة من أمره . ولعل طول الانتظار هو الذي دفعه إلى التعاون مع النازيين ، لأنهم أيضاً ذوو نزعة توطينية ترانسفيرية . فعمل كمخبر للسلطات النازية إبان الحرب العالمية الثانية ، وعيّن تشيرنياكوف ، رئيس مجلس اليهود في وارسو إبان حكم النازي ، عضواً في المجلس ورئيساً لقسم الفنون . ونظراً لمعرفته الوثيقة بأعداد اليهود

عمليات الإبادة ، ومن ثم لم يتخذ أية إجراءات للحيلولة دون وقوع مثل هذه العمليات ، بينما تصير الأدبيات الصهيونية على أن العانم ترك اليهود وحدهم لصيرهم ، الأمر الذي يعني صدق المعادلة الصهيونية البسيطة : اليهود ضد الأغيار . ولكن تشنياكوف (وهو ، كما بيّنا ، واحد من أهم الشخصيات القيادية اليهودية وكان يعيش داخل بولندا وترأس الجيتو اليهودي في وارسو ، وكانت تربطه علاقة يومية مع السلطات النازية) لم يكن يعرف شيئاً عن الترحيل أو عن أفران الغاز ولم يصدق ما كان يحدث من حوله . وقد تعاون مع النازيين ، كما تقرّ المراجع الصهيونية ، لأنه لم يكن يترك إطلاقاً ما كان يحدث من حوله . ولم يصل إلى مسامحة شيء إلا في عام ١٩٤٢ ، أي قرب نهاية الحرب . فكيف كان يمكن للعنم الخارجي أن يعرف عن الاعتقال والتعجير والإبادة ؟

حاييم كابلان (١٨٨٠-١٩٤٢)

Hayyim Kaplan

مررب بولندي صهيوني دوتّ يومياته في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا . وُتد في بوروبيا وتقى تعنيم تنموياً في المدرسة التلمودية العنيم (شيف) ، ثم درس في انعمهه الحكومي الشربوي في فلنا . وفي عام ١٩٠٢ ، استقر في وارسو حيث أسس مدرسة ابتدائية عبرية كانت جديدة في نوعها ، وظل مديراً لها لمدة أربعين عاماً ، وكان كابلان شديد التحمس للغة العبرية ومن العارفين بها والدارسين لها . وقد تبنى في تربيته تعبرية الأسلوب أو المنهج المباشر ، فكان يدرسها كلفة حية مستدولة باستخدام المنهج السغاردية . وأصدر كابلان عدة كتب بالعبرية يدعو فيها إلى تبنى هذا المنهج في التدريس . وذلك رغم العنصرية تقوية من المؤمنين بالأساليب التقليدية . كما اشترك كابلان بشكل نشط في جمعية الكتاب والصحفيين اليهود في وارسو ونشر العديد من المقالات وأصدر العديد من المجلات العبرية واليديشية عنى مدى الأعوام الأربعين التي عمل بها في التدريس . كما أصدر ، إلى جانب ذلك ، كتباً خاصة بالأنحو العبري وكتباً للأطفال تتناول ما يسمى «الثقافة اليهودية» و«التاريخ اليهودي» . وكان كابلان من المؤمنين بالقومية اليهودية ، أي الصهيونية ، والتاريخ اليهودي الواحد ، وكانت يهوديته ذات طابع قومي حيث لم يكن متمسكاً بممارسة الشعائر والثقافة الدينية . وقد اتجه إلى فلسطين في عام ١٩٣٦ حيث كان ينوي الاستقرار مع ابنه اللذين هاجرا للاستيطان بها من قبل ، إلا أنه عاد إلى وارسو بعد أن فشل في العثور على عمل .

الأدبيات اليهودية التي تورخ لفترة الإبادة النازية ، حيث يحملها البعض مسؤولية إبادة يهود جيتو لودز . وهو يُعدُّ مثلاً جيداً على ذلك التعاون بين قيادات الجماعات والمجالس اليهودية من جهة والسلطات النازية من جهة أخرى .

آدم تشرنياكوف (١٨٨٠-١٩٣٢)

Adam Czerniakow

صهيوني بولندي ورئيس مجلس الجماعة اليهودية في وارسو خلال الحرب العالمية الثانية . وأول رئيس للمجلس اليهودي في وارسو ، والذي شكلته سلطات الاحتلال النازية . كان تشرنياكوف من النشطين في مجال شئون الجماعة اليهودية في بولندا عقب الحرب العالمية الأولى ، واهتم بشكل خاص بشئون الحرفيين اليهود الذين كانوا يشكلون ٤٠٪ من تعداد الجماعة ، وقام بالتدريس في شبكة المدارس اليهودية المهنية في وارسو . وانتُخب في الفترة بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٣٤ عضواً في مجلس مدينة وارسو ، كما انتُخب قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية مباشرة عضواً في المجلس التنفيذي للجماعة اليهودية ، ثم عيّنه عمدة وارسو بعد اندلاع الحرب رئيساً لمجلس الجماعة اليهودية . وبعد احتلال القوات الألمانية للمدينة ، عينته السلطات النازية رئيساً للمجلس اليهودي ، وأولكت إليه مهمة تنظيم الجماعة اليهودية في جيتو خاص بها ، وكان على اتصال وثيق بالسلطات النازية ، خصوصاً مع قوميسار الجيتو الألماني . وقد وجه بعض أعضاء الجماعة اليهودية انتقادات حادة للمجلس اليهودي ونشاطه وحاول بعضهم إقصاء تشرنياكوف . ويُقال إن تشرنياكوف لم يصدق ، عندما بدأت عمليات ترحيل اليهود إلى معسكرات الاعتقال ، أنه سيتم ترحيل اليهود بالفعل . ولكنه أدرك في نهاية الأمر أبعاد المخطط ، فرفض التعاون مع الألمان ورفض التوقيع على أوامر الترحيل ولم يجد مخرجاً من مأزقه سوى الانتحار .

وقد ترك تشرنياكوف يوميات دوتّ فيها جميع الأحداث الهامة التي جرت داخل الجيتو وجميع ملاحظاته ومشاهداته . وتعتبر هذه اليوميات مرجعاً مهماً لأوضاع وظروف جيتو وارسو إبان الاحتلال النازي . وتثير حياة تشرنياكوف قضيتين : أولهما قضية مدى مسؤولية القيادات اليهودية عن نجاح النازيين في تنفيذ مخططهم . أما القضية الثانية فهي خاصة بمدى معرفة العالم الخارجي بما كان يدور في ألمانيا من عمليات تعجير وقمع وإبادة ، إذ يذهب بعض الدارسين إلى أن العالم بأسره لم يكن يعرف شيئاً عما يدور في ألمانيا النازية وعن

المنصب حتى عام ١٩٣٣ ، أي عندما تولى هتلر السلطة في ألمانيا . وقد هاجر بلومفيلد عندئذ إلى فلسطين واستوطن فيها وأصبح الرئيس التنفيذي للصندوق القومي اليهودي في فلسطين . ومات بلومفيلد عام ١٩٦٣ ، ولكن المصادر الصهيونية لا تذكر شيئاً عن نشاطه السياسي منذ عام ١٩٤٤ حتى وفاته ، أي مدة عشرين عاماً ، وهو أمر يحتاج إلى دراسة .

كان بلومفيلد يرى نفسه « نبي » الصهيونية الألمانية في عصر ما بعد الاندماج وفشله ، وبدأ يعلن عن مواقفه ويقوم بالجلولات الإعلامية داخل ألمانيا وخارجها بوصفه مسئولاً صهيونياً ، كما دأب علىلقاء خطب نارية ورفع شعارات سببت كثيراً من الحرج لأعضاء الأقلية اليهودية في ألمانيا . وكان بلومفيلد وراء إصدار ما يُسمى « قرار بوزن » الذي أصدرته المنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩١٢ وحددت فيه الصهيونية كحركة قومية تُترجم نفسها إلى هجرة إلى فلسطين « الوطن القومي لليهود » . ووصف بلومفيلد هذا القرار بأنه كان بمنزلة إعلان للهجوم على صهيونية الإحسان (الغريبة) ، أي الصهيونية التوطينية ، وأن الصهيونية بصورها أصبحت حركة ذات طابع قومي (استيطاني) واضح (وقد اعترف بلومفيلد أيضاً بأن الأعضاء وافقوا على قراره لأنهم لم يدركوا تضميناته السياسية الراديكالية) .

رودولف كاستنر (١٩٠٦-١٩٥٧)

Rudolph Kastner

أحد زعماء الحركة الصهيونية في المجر . ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية ، ورأس تحرير مجلة أوج كسليت Zola Kelet (أي « الشرق الجديد ») ، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر ، ثم أصبح مسئولاً عن « إنقاذ » المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، فقد كان يشغل منصب رئيس لجنة الإغاثة في بودابست التابعة للوكالة اليهودية .

قام كاستنر بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر ، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها) ، ثم استمر في التعاون مع النازيين بعد احتلالهم للمجر . وتشير بعض الدراسات إلى أن أيخمان حضر إلى المجر ومعه ١٥٠ موظفاً وحسب ، وكان يتبعه عدة آلاف من الجنود المجرين ، هذا بينما كان يبلغ عدد يهود المجر ما يزيد عن ٨٠٠ ألف ، وهو ما يعني استحالة ترحيلهم إلى معسكرات الاعتقال (السخرة والإبادة) إن قرروا المقاومة . ومع هذا نجح أيخمان في مهمته بفضل تعاون كاستنر معه ،

وتعود أهمية كابلان إلى أنه دون يومياته وهو في جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي لبولندا وقبل أن يُدمر الجيتو بأكمله . وقد بدأ كابلان في كتابة يومياته بالعبرية ابتداءً من عام ١٩٣٣ وسجل فيها الأحداث اليومية لمجتمع الجيتو ، كما سجل أفكاره وحواراته مع أصدقائه وانطباعاته العديدة . وقد أدان كابلان القيادات اليهودية في الجيتو ومن بينها آدم ثيرنياكوف رئيس المجلس اليهودي ، الذي كان يقوم بتسليم اليهود إلى النازيين والذي انتحر فيما بعد . وقد نجح كابلان في تهريب يومياته إلى خارج الجيتو قبل أن يلقى حتفه عام ١٩٤٢ .

وتتضمن اليوميات إدراكاً كاملاً للشاب النازي بين النازية والصهيونية ، إذ يُعبر كابلان عن دهشته لاضطهاد النازيين لليهود رغم أن الحل النازي هو نفسه الحل الصهيوني : الاعتراف باليهود كشعب عضوي مبنود وطنه فلسطين ومن ثم يتعين عليه أن يهاجر إليها . وقد دون كابلان في مذكراته أن هذه الكلمات كانت جديدة على النازيين تماماً ، وأنهم لم يصدقوا أذنانهم حينما سمعوا ذلك لأول مرة من أحد اليهود . وهذه الملاحظة تدل على مدى جهل كابلان بمستوى المعرفة النازية بالمسألة اليهودية والعقيدة الصهيونية ، وتدل على أنه لم يكن متابعاً للتعاون الوثيق بين النازيين والصهيانية في ألمانيا النازية .

وُترجمت يوميات كابلان إلى لغات عدة منها الإنجليزية والألمانية والفرنسية والدغاريكية واليابانية ، ونُشرت بالإنجليزية تحت عنوان مخطوطات العذاب .

كورت بلومفيلد (١٨٨٤-١٩٦٣)

Kurt Blumenfeld

أحد الزعماء الصهيانية في ألمانيا ، والقوة المحركة للمنظمة الصهيونية فيها . وهو يهودي ألماني وُلد لأسرة مندمجة ، ولكنه خُلص إلى أنه لا جدوى من الانعتاق وأن اليهود لن يكون في وسعهم الاندماج في المجتمع الألماني . تزوج بلومفيلد من فتاة من شرق أوروبا ، وبعد أن درس في كلية الحقوق في إحدى الجامعات الألمانية ، انضم إلى المنظمة الصهيونية وأصبح سكرتيراً الأول عام ١٩٠٩ ، ثم أصبح السكرتير العام للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (ورئيس قسم النشر) ، وترأس تحرير مجلة دي فسيلت لسان حال المنظمة . وبعد الحرب العالمية الأولى ، قام بحملات واسعة لجمع التبرعات للصندوق القومي اليهودي وأصبح رئيساً للمنظمة الصهيونية الألمانية عام ١٩٢٤ ، وظل يشغل هذا

يشمون بالخمر ، كانوا لا يعرفون ماذا سيفعلون مع هذا الرجل بعد محاكمته ، وكانوا يفكرون في 'إسكانته' .

العرب والمسلمون والإبادة النازية لليهود أوروبا

Arabs, Moslems, and the Nazi Extermination
of European Jewry

لعل من الضروري أن نتناول إشكالية تخصنا وحدثنا كعرب وكمسلمين ومسيحيين وهي موقفنا من الإبادة النازية لليهود . أما موقفنا من الإبادة النازية كمسلمين وكمسيحيين فهو واضح تماماً لا لبس فيه . فالتقييم الأخلاقي الديني (الإسلامية والمسيحية واليهودية) لا تسمح بقتل النفس التي حرم الله إلا باحق . وقد جاء في الذكر الحكيم : 'من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض . فكأنما قتل الناس جميعاً' . (المائدة - ٣٢) .

ويحاول الغرب إقحام جريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يُبرّر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي ، تعويضاً لليهود عما خُلق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل حدود أوروبا الجغرافية . وتحاول الدعاية الصهيونية ، بمساعدة الغرب ، أن تنجز ذلك من خلال آليتين أساسيتين :

١ - تحاول الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصوّر المقاومة العربية للجزء الصهيوني لفلسطين وكأنها دعم مباشر أو غير مباشر للإبادة النازية ، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين . ومثل هذه الحجة لا أساس لها من الصحة . فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها ، تحت رعاية العالم الغربي ، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية (ومن النازيين أنفسهم) ، وفي الوقت الذي كنت الدول الغربية توصل أبوابها دون المهاجرين اليهود . ومهم فعل الصهيونية (يؤيدهم في هذا العالم الغربي دون تحفظ) بظل حق المقاومة حقاً إنسانياً مشروعاً بل اجباً على كل إنسان يحترم إنسانيته ، وبظل رفض الإنسان للظلم تعبيراً عن نبلة وعظمته ، بل إنسانيته .

٢ - تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازي . وهذه أكذوبة أخرى . فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فالعالم العربي على أية حال كان يقع في دائرة الاستعمار الغربي) . كما أن النظرية النازية العرقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصاف اليهود ، ولذا فأى تحالف مزعوم كان

إذ يبدو أن كاستنر أفتع أعضاء الجماعة اليهودية في المجر بأن النازيين سيقومون بنقلهم إلى أماكن جديدة يستقرون فيها أو إلى معسكرات تدريب مهني لإعادة تأهيلهم وليس إلى معسكرات الاعتقال . ومقابل ذلك سمحت السلطات النازية (عام ١٩٤١) بإرسال ٣١٨ يهودياً ثم ١٣٨٦ يهودياً من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين («يهود من أفضل المواد البيولوجية» على حد قول أيخمان) .

استقر كاستنر في فلسطين عام ١٩٤٦ ، وانضم إلى قيادة الماباي ورُشح للكتيست الأول . وانتقلت معه مجلة أوج كيليت ، وأصبح رئيساً لتحريرها ، بل كان يُعدّ مسئولاً عن شئون يهود المجر (أو من تبقى منهم) في الحزب الحاكم .

ولكن في عام ١٩٥٢ أرسل المواطن الإسرائيلي مايكل جرينولد كتيباً لبعض القيادات الصهيونية اتهم فيها كاستنر بالتعاون مع النازيين ، وأنه قام بالدفاع عن أحد ضباط الحرس الخامس (الإس . إس .) أثناء محاكمات نورمبرج الأمر الذي أدّى إلى تبرئته وإطلاق سراحه . وقد قام الحزب الحاكم في إسرائيل بمحاولات مضنية لإنقاذ كاستنر وتبرئته . كما بين كاستنر أثناء محاكمته أنه لم يكن يسلك سلوكاً فريداً وإنما تصرف بناءً على تفويض من الوكالة اليهودية (التي أصبحت الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨) . ولم يكن كاستنر مبالغاً في قوله فالمواطن الإسرائيلي جويل براند كان على علم ببعض خفايا القضية ومجدد تورط النخبة الحاكمة في عملية المقايضة الشيطانية التي تمت . وقد طُلب منه الإدلاء بشهادته ، ولكنه أثار ألا يفعل وبدلاً من ذلك كتب كتاباً بعنوان الشيطان والروح يقول فيه «إن لديه حقائق تبعث على الرعب وتدمغ رؤوس الدولة اليهودية (الذين كانوا رؤساء الوكالة اليهودية)» . وأضاف قائلاً «إنه لو نشر مثل هذه الحقائق لسالت الدماء في تل أبيب» .

وقد قضت المحكمة الإسرائيلية بأن معظم ما جاء في كتيب جرينولد يتطابق مع الواقع . وبعد إشكالات قضائية كثيرة ، حُسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق «أحدهم» الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع . وقد تمت الجريمة رغم ورود تحذيرات لسلطات الأمن الإسرائيلية عن وجود مؤامرة لاغتيال كاستنر ، بل كانت السلطات تعرف موعد تنفيذ المؤامرة . وقد سجل موشيه شاريت ، رئيس الوزراء الإسرائيلي ، هذه الكلمات في مذكراته : «كاستنر . كابوس مرعب . حزب الماباي يختنق . بوجروم .» . ويشير براند في كتابه إلى أن «رجال السياسة الذين

الذين كانوا على حافة الموت ، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي . وكان هذا المصطلح يُستخدم أساساً في أوشفيتس ولكن كان يُستخدم في المعسكرات الأخرى .

هذه هي المعلومة ، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر ، والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم . ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود ، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط .

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي ، والنازيون هم حملة عبء هذه الرؤية ، وهم مُمثلو الحضارة الغربية في مجابعتها مع أقرب الحضارات الشرقية ، أي الحضارة الإسلامية . وهم لم ينسوا قط هذا العبء حتى وهم يبيدون بعضاً من سكان أوروبا . وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن الغزاة الأسبان للعالم الجديد الذين كانوا يبيدون سكانه الأصليين وكانوا يسمونهم «الترك» أي «المسلمين» . كل ما في الأمر أن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير «للآخر» على وجه العموم ، سواء أكان من العنصر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة «عربي» في الخطاب الصهيوني لتصبح «الأغيار») . وقد حاول كاتب مدخل «مسلم» في الموسوعة اليهودية أن يفسر أصل استخدام الكلمة ، فهو يدعي أن الضحايا سُموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم : «إنهم كانوا يجلسون القرفصاء وقد ثُنيت أرجلهم بطريقة «شرقية» ويرسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة» . والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصرية الغربية أو الصور النمطية الإدراكية ، كل ما في الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» العامة محل كلمة «مسلمين» المحددة .

مسلم Muselmann

انظر : «العرب والمسلمون والإبادة النازية لليهود أوروبا» .
والله أعلم

تحالفاً مؤقتاً لا يختلف عن حلف ستالين/ هتلر . وهؤلاء الساسة (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كرهها في اليهود أو حباً في النازيين ، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاسعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني . وهو ، على أية حال ، تعاطف يُعبر عن سذاجة وعن عدم مقدرة على القراءة الجيدة للأحداث ، وعن عدم إلمام بطبيعة الغزوة النازية ومدى تجذرها في المشروع الحضاري والإمبريالي الغربي ومدى رفضها العنصري للمسلمين والعرب . ولم يُترجم هذا التعاطف العام نفسه إلى اشتراك فعلي في الجريمة النازية ، التي تحتفظ بخصوصيتها كظاهرة حضارية غريبة .

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغير شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية ، الدينية والإنسانية . فالإبادة النازية لا تُشكل جزءاً من التاريخ العربي أو تاريخ المسلمين ، ولم يلوث العرب والمسلمون أيديهم بدماء ضحايا النازية من يهود أو سلاف أو غجر . وهذه المحاولات تُبَيِّن في نهاية الأمر اتساق الغرب مع نفسه ، الذي يُكفر عن جريمة إبادة ارتكبتها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي .

ومن المعروف أنه حينما حدث احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب من جهة والإبادة النازية من جهة أخرى فإن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية . فعلى سبيل المثال قامت الأقلية المسلمة في بلغاريا بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من الإبادة ، كما أن الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم عياله اليهود إلى حكومة فيشي الفرنسية المائلة للنازي .

وأثناء كتابة هذه الموسوعة لاحظت تكرار كلمة «مسلم» في مقال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس ، وقال مرجع آخر إن الضحايا الذين كانوا يُقادون لأفران الغاز كانوا يسمونهم «غربية» . وقد تبَيَّن بعد قراءة عدة مراجع وموسوعات إلى أنهم كانوا يسمون في واقع الأمر «مزيلمان Muselmann» أي «مسلم» بالألمانية ، وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧ - ٥٣٨) عنوانه «مسلم» :

«مزيلمان» أي مسلم بالألمانية ، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدم للإشارة للمساجين

مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيدييہ المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)



